رواية

تنسيم عون

عبير محمد قائد

ظننا الهوى يُطوى ! !
يلملم عباءة الألم ويكتسي بحجاب الجمود
تتقافز أناملة وتعبث على ناي قديم
تترك في القلب أوجاعا وصدى
ترنيمة عذاب تأبى أن تنتهي
نرقص عَلى نغماتها
وتهدهدنا كي تسرق منا أحلامنا
ترنيمة لم تعزف للغناء
غارقة بالبكاء
تحلق بنا نحو أفق لانعرف أبعاده !
نتخبط في ظلماته
وتدوي حولنا موسيقاه
انه الضياع . .
بين أوتار لم تخلق لعود ..
في معزوفة الحب الذي خلق للرحيل . .
ترنيمة عذاب . .
ترنيمة
عبير محمد قائد
قسم روائع من عبق الرومانسية
حصري
www.liilas.com
www.liilas,com
Des/AbeerKaid

رواية

ترنيمة عذاب

الجزء الرابع من سلسلة { أسياد الغرام }

صدر منها..

بقايا همس 1

أسياد الغرام 2

شيوخ لاتعترف بالغزل 3

تأليف

عبيرمحمدقائد

جميع شخصيات الرواية والأحداث من خيال المؤلفة ولا تمت للواقع بصلة

تحذير..

لمن لا يحب ويعشق الرومانسية.. لا تقترب..!

#عبير_قائد

مقدمة

تسارعت خطواتها على الأرض الرخامية المصقولة تزيد من سرعتها تسابق ذلك النداء المتكرر بالعربية والايطالية والانجليزية والفرنسية والذي يؤنبها على تأخرها مرة بعد أخرى.

"تباً.. تباً"

صرخت بحنق وهي ترتطم بأحد الأعمدة الرخامية المنتشرة في صالة الانتظار وتسقط عنها حقيبتها الجلدية المعلقة على كتفها وكذلك دفتر مذكراتها الضخم على الأرض! انحنت تلملم ما وقع حين أدركت أن العمود له عينين من رخام رمادي بارد تنظران اليها من علو وبتسلية واضحة!!

"رباااه"

قالت بضيق وهي تعاود لملمة اغراضها بغيظ قبل ان تفطن لجسده الطويل والذي انحنى برشاقة نحوها يساعدها لتصيح بزمجرة وبإنجليزية سليمة:

I’m capable of doing it myself thx.-

رفع حاجبه الكثيف بتسلية قبل ان يهمس بصوت لا يمكن الا أن يقارن بعينيه الرخاميتين.. مصقول.. باردا وحاد كالسيف:

-لم نتحدث بالإنجليزية؟

اتسعت عيناها بصدمة، ظنته أجنبي ربما، بسبب مظهره وعينيه وتلك القلادة الجلدية التي تتدلى على عنقه وتظهر من فتحة قميصه العميقة والتي بالكاد استطاعت النظر اليها قبل ان تشيح باشمئزاز قائلة بنبرة محتقرة:

-حسناً ما دمت تفهمني بشكل جيد..

ورفعت له عينين بقساوة الحجارة:

-ابتعد عن اشيائي.

تراجع بصدمة وعينيه تتسعان بصورة مبالغ فيها قبل أن يرفع كفيه وينهض على عقبيه يناظرها بغضب لم يظهر سوى عبر فتحتي انفه التي

توسعت وهو يأخذ انفاس عميقة كي يهدئ من مشاعره.
تأملها تنحني على الارض، قامة ضئيلة بمعطف قصير من الكتان الرمادي تغلف رأسها بحجاب متعنت ولا شيء اخر. راقبها لوهلة وهي تستقيم. نعم لقد كانت مجرد قزمة صغيرة غبية بعينين ترشقانه بكراهية لا يدرك سببها. ولكنها قزمة بشفتين مغريتين كالخطيئة تُجري اللعاب حقاً..
عضَّ شفتيه ببطء وهو يأخذ نفساً عميقاً وعيناه تجوبان جسدها المنحني بوقاحة حين...
"النداء الأخير لركاب الرحلة 20517 المتجهة الى روما الرجاء سرعة التوجه الى البوابة رقم 9 "
"تباً"
"تباً"
قالاها معاً لتنظر له بحنق قبل ان تقرر ان التأخر ليس من مصلحتها فأشاحت له بظهرها واندفعت لمقصدها. بينما راقبها هو بإمعان وهي تندفع عبر البوابة التي يقصدها وتلاعبت على شفتيه

ابتسامة قط، وقع بصره على فأر ضعيف.. واندفع خلفها.

حين جلست على مقعدها في الدرجة السياحية لم تصدق نفسها، وأخيراً وبعد كل ذلك العناء.. ها هي في طريقها للمنزل. استرخت في مقعدها.. او حاولت وهي تلاحظ العجوز الذي جاورها وقد جاءته مضيفة شقراء باهرة الجمال لتهمس له ببضعة كلمات بالإيطالية اتسعت لها عيني الرجل فرحاً قبل ان يجذب حقيبة صغيرة كانت معه ويسرع خلفها!!

لم تزعج نفسها ابداً بالتفكير الى أين يمكن ان تأخذه، لقد عاشرت الايطاليين لعامين كاملين قبل ان تبدأ ترحالها ولم يقربها هذا ابداً لفهم نفسيتهم المعقدة. اغمضت عينيها و تنهدت بارتياح تضم دفترها اليها حين شعرت بالثقل يجثم الى جوارها. لم تنظر، بل اشاحت بوجهها بعيداً ورائحة مثيرة للاهتمام تغزوها، فتحت عينيها فقط لتلقي نظرة على جارها الجديد لتتصلب وعينيها تقعان على شق القميص الحريري الطويل والقلادة الجلدية؟!!

"يبدو أننا سنتجاور لعدة ساعات ها؟"
سمعت نبرة السخرية في صوته وحاولت التعرف على اللكنة الغريبة في صوته؟ شامية ام خليجية..
شيء من هذا كله. غريب.. لم تعره ادنى اهتمام والطائرة تقلع بسلاسة بينما شعرت بتوتره، كان يقبض كفيه ويبسطهما بحركة عصبية وترتها..
"هلا توقفت عن هذا"
هتفت به بحدة لينظر لها بدهشة حقيقة لم يظن انها ستنتبه لتوتره، لم يكن يظن بانه ظاهر لهذه الدرجة.
"المعذرة انه بحكم العادة فقط، لم اعتد أن أكون في مقاعد المسافرين"
قالها بحنق لتشيح برأسها قائلة" ان كنت تخشى الطيران فلم لا تسافر بالباخرة او ربما لا تسافر اطلاقاً"
ضحك بمرح ولم يعلق فانشغلت عنه وفتحت مذكراتها وبدأت تكتب بعصبية كعادتها.
راقبها لعدة دقائق وهي تكتب وتكتب كانت تضغط بشدة على القلم وتكاد الاوراق تتمزق تحت ضغطها فعلق بتفكه "لوكنت تريدين تمزيق

الورق ربما يجب عليك استخدام اصابعك بدلاً عن القلم المسكين"

رفعت له عينان شرستان جعلتاه يتجمد في مكانه وهو يغرق في عمقهما.. للحظة فقط نسي كل ما حوله، الطائرة.. السفر المباغت الذي لم يخطط له، الزفاف الذي يسافر لحضوره فقط لإرضاء شقيقته الصغرى المدللة وأولاد عمومه الذين يعيثون الفساد ويضرمون النار بحياتهم دون الاهتمام بالعواقب. نسي كل شيء وهو يتطلع لعينيها المسحوبتين لأعلى وتلك القسوة التي تنبع من شيء اعمق بكثير...

"أنت..!!"

همهم بشرود لتقاطعه بوحشية

"لا تتدخل فيما لا يعنيك يا هذا"

اخرجته بقسوتها من افكاره التي بدأت تجذبه بحركة ناعمة جداً مغوية للغاية لم يعتدها قط من قبل؟ شيء ما في تلك العينين.. شيء ما يجذبك بتوسل قبل أن يسحقك بوحشية؟؟ ثم كانت شفتيها حكاية أخرى، اه فقط لو انه...

"سنيوري ؟!"

نزع عينيه وأفكاره الحقيرة عنها بصعوبة ونظر للمضيفة الشقراء والتي ابتسمت له بحرارة قبل ان تمد ذراعها وتضعها على كتفه وتميل عليه لتهمس ببضع كلمات في اذنه تحت أنظارها الذاهلة..

رأت ابتسامته الواسعة وقبل ان تعي كان يومئ ويشير لها ان تسبقه بينما هو يعتدل ناظراً لها:

"للأسف انستي هذه نهاية رفقتنا.. ربما نلتقي في مرة اخرى"

نظرت له ببرود ولم ترد ورأت عضلة تنتفض الى جوار فكه بينما يرفع لها كفه ويهمس بصوته الرخامي "أوس الشيب"

ضاقت عينيها للحظة وهي تضم كفيها اليها بحركة مقصودة لتحتد عيناه قبل ان ينظر لما تضمه بشدة ويهمس بتلاعب "ترنيمة؟؟؟"

عقدت حاجبيها قبل ان تفطن للاسم المكتوب على جلد مذكراتها بخط طفولي يعود لابنة خالتها التي لم تتجاوز العاشرة.. ولكنها لم ترد. هز كتفيه بلا مبالاة وان رأت عروقه تنبض بشدة في صدغه.. قبل ان ينهض ويلحق بتلك المضيفة..!!

ما بال تلك المضيفة تأخذ كل رجل يجلس الى جوارها فكرت بغباء؟؟!!
ثم راقبته للحظات قبل ان تفطن لشيء..
رائحة العطر، هو لم يكن يضع اي عطر قبلها، حين التقته في صالة الانتظار، كما ان المضيفة تضع العطر نفسه؟؟ هل يوزعونه مجاناً؟؟ فكرت بحيرة؟؟
ثم نفضت عنها تلك الافكار وشكرت ربها انها عادت وحدها، وضعت على رأسها السماعات الخاصة بالايبود ومضت تنصت لموسيقى كلاسيكية، ولازالت تكتب مخططاتها للعام الجديد. دون ان تعي ان مخططها هذه المرة سيتغير عن بكرة ابيه.. وسينقلب رأساً على عقب.. بسبب عيني الرخام تلك؟!!

.....

بعد يومين..
"هل انت جاهز؟؟"
نظر ركان الباشا لوالدته المرأة التركية الراقية بالبدلة الجوخ بلون القشدة وقد رفعت شعرها الاسود الحالك اعلى رأسها بتسريحة كلاسيكية

راقية وزينته بقطع مجوهرات أصلية تعود لجدتها الكبرى زوجة احد أقطاب الدولة العثمانية.

"ماذا تعتقدين؟"

اقتربت لتربت على كتفي حلة الأرماني الدخانية التي التصقت بجسده بشكل مثير، لتنفض تراباً وهمياً وهي تهمس:

"كما اعتدت أن تكون، على القمة في كل شيء"

تراقصت عيناه وتلاعبت ابتسامة تحمل الكثير والكثير على شفتيه، بينما والدته تربت على وجنته الحليقة هامسة بمكر:

-هذا ولدي المطيع..

ابتعد ركان عن يديها وقال بهدوء:

-سنبتعد لفترة انا وعروسي امي، ولا اريد ازعاجاً، لا اتصالات ولا اية ملاحقات.

-لابأس حبيبي..

قالت بحذر وهي تراقبه قبل ان يعاود النظر اليها هامساً:

-سأذهب الان لأرى عروسي.. اراكي في الحفل.

-لا تفعل انه فأل سيئ ان ترى عروسك قبل الزفاف بني.

نهرته بلطف ليضحك باستخفاف:

-انه يوم زفافي أمي.. ولا تقلقي سارة لن تسمح لشيء بتعطيل عرسها الخيالي الذي حلمت به منذ زمن.

وغمز لها بعينه بمرح قبل ان يسرع الى عروسه، في الجناح المجاور لجناحه شخصياً.

توقف للحظات وعدل ربطة عنقه الصغيرة على شكل فراشة ثم طرق الباب بخفة لتفتحه مساعدة خطيبته المقربة والتي نظرت له بعدم ارتياح قائلة بنفاذ صبر:

-مالذي تفعله هنا ركان؟؟

رفع ركان حاجبيه وهمس بعبث:

-أريد عروسي سييرا.. أم أن هذا ممنوع أيضاً؟

رفعت الشقراء حاجبها بتهكم:

-لا ركان، منذ اليوم وأنت ستتجاوز كل الممنوعات.. تفضل.

وناحت من طريقه وهي تعي لنظرته التي شملت جسدها الجذاب بالثوب العنابي الانيق ذو القبة

الواسعة والذي أظهر جمال قدها ورشاقته ناهيك عن طولها المميز الذي قارب طوله نفسه، ولكنها تجاهلتها كالعادة وهي تغلق ملامحها أمام عبثه الواضح والذي لم يتحلى باللياقة حتى ليتخلص منه يوم عرسه!!

"سااارووونتي"

صدح صوته العالي في الجناح الملكي الفاخر لمدللة روما الشقية بعد لحظة ومن خلال ستائر شفافة ظهرت له عروسه الفاتنة..

سرقت نبضات قلبه بحق، وهي تتهادى اليه بالثوب الثلجي بالخيوط الفضية والذي احاط بجسدها الطويل تماماً حتى اعلى ركبتيها بقليل ثم توسع بقصة ذيل السمكة الشهيرة طويلاً يسحب على الارض خلفها بما لا يقل عن المتر والنصف.. بينما ارتفع شعرها الكستنائي بخصلاته الشقراء اعلى رأسها، ولمعت عينيها الخضراوين بشعلة من الاثارة وهي تنظر لعريسها الوسيم الأنيق..

ركان الباشا..

حلمُ فتيات روما.. وملكها وحدها هي فقط.

ابتسمت بانتشاء وتعطيه يدها ليلثم باطن كفها ببطء هامساً:
-الأجمل والأرقى..
-الأفضل للأفضل حبيبي..
همست بصوت مغري ليضحك وهو يجذبها بين ذراعيه بقوة معتصراً جسدها الى عضلات جسده الفارع وهو يقول:
-رباااه كم انت شهية، لقد صبرت طويلاً يا سلطانة قلبي.
ضحكت بدلال ودفعته عنها هامسة باضطراب خجول رغماً عنها:
-سينتهي الصبر الليلة باشا.. ألا تملك القليل من ضبط النفس؟؟
غامت عيناه بمشاعر عنيفة واقترب يقبض على كتفيها العاريتين بقوة هامساً أمام شفتيها بشغف:
-ثلاثة عشر شهراً سارة.. ثلاثة عشر شهراً عجاف أصابتني بجوع شديد يكاد يقتلني.
ذابت لكلماته الخشنة وكادت تسلم لدعوة شفتيه الصريحة لولا انها تذكرت انه لايزال خطيبها،

لايزال رجلاً بحكم عادات وتقاليد عائلتها..
غريب..
-ساعات فقط باشا..
ساومت وهي تضغط على شفتيه بأصبعها بخفة ليغمض عينيه بيأس.. لأخر لحظة..
والسلطانة ترفض التسليم للباشا..!!
همهم بكلمات غاضبة وهو يتراجع عنها بينما تركض هي لتسوي ثوبها الذي جعدته يداه الجشعة وسمعته يهتف:
-سأنتظرك سارونتي ..لا تتأخري والا فأنني سأصعد اليك وليرحمك الله حينها من غضبي.
قالها واسرع بالنزول ترافقه قهقهتها المنتشية وعيني سييرا اللائمة الحقودة...
بعد ساعات..
توقفت تجيل عينيها بالبذخ حولها، ابتسمت بشرود وراقبت الحفل الاستثنائي الذي دُعيت اليه رغم أنفها ودخلت تعدل من ثوبها الطويل والذي لم تضطر يوماً لارتداء مثله مكللة بحجابها وزينتها التي اقتصرت على كحل عينيها الازرق الذي لائم ثوبها وظلال من أحمر الشفاه اللامع

تحميهما من أسنانها التائقة لتمزقهما بوحشية كعادتها كلما توترت.

"ترنيم لقد وصلتي؟"

التفتت بسرعة وتنهدت بارتياح وهي ترى سلمى العزب تقترب لتحييها بحماسة فبادلتها التحية بشوق شيء ما من رائحة الماضي، ماضٍ خالٍ من التعقيدات كحال المستقبل الأن!

كان لقاؤهما الغريب يوم وصولها شيء من الخيال لم تصدق انها ترى سلمى العزب امامها وليس هذا فحسب، بل هي تدعوها لزواج احدى قريباتها ؟؟ وقبلت.. ليس لشيء وانما للتخلص من اصرار عمتها عليها لتلبية الدعوة، مدعية أن كل روما تتوقف لحفل زفاف السلطانة المدللة سارة الشيّب.. وكيف هي لا تريد رغم انها مدعوة؟؟

"شكرا الله أنك وجدتني يا سلمى كنت على وشك الانصراف"

"لا تكوني سخيفة.. الحفل في بدايته سينهض العروسان بعد قليل لتقطيع قالب الحلوى ..تعالي"

وجذبتها من يدها بسرعة نحو طاولة صغيرة استقرت عليها فتاة شابة بثوب بلون الكراميل وحجاب عسلي اللون زينتها الخفيفة وجمالها الهادئ مريح للأعصاب لولا ذلك البرود القاتل الذي ناقض دفئ عينيها البنيتين..

"هذه صوان، ابنة عم العروس.. وهذا سيف.. زوجي."

نظرت ترنيم لسلمى بمرح.. بعد تلك السنوات لايزال صوتها يرتجف وهي تنطق اسم زوجها ولاتزال الحمرة تغطي وجهها وهي تفعل،، ثم نظرت للرجل الذي نهض ليبتسم لزوجته بدفء مغناطيسي جذبها بسهولة لتستقر الى جواره تسند ظهرها لصدره العريض بينما هو يرحب بترنيم بأدب بالغ..

أحنت رأسها وجلست هامسة بالتحية..

ثم بدأت تدير عينيها حولها..

العديد والعديد من المدعوين.. أغلبهم أجانب كما يبدون.. العروسين جلسا في صدر الساحة تحت مظلة واسعة مزينة بالحرير وعرائش الورود، انها جميلة للغاية.

فكرت بالعروس والتي كانت غائبة كلياً في حوار شغوف مع زوجها والذي بدا وكأنه لا يرى سواها..

عادت بعينيها الى سلمى التي سألتها بافتعال:

-وأنت ترنيم متى تنوين التخلي عن عزوبيتك؟؟

احمرت وجنتيها لوقاحة السؤال ورات ابتسامة الفتاة الى جوارها وزجرة سيف لزوجته التي هتفت بحنق:

-ماذا؟؟ اننا ندردش فقط.

-لابأس سلمى.. ولكن الزواج ليس في مخططاتي حالياً. واقدر لك سؤالك عزيزتي رغم كل شيء.

ضاقت عينا سلمى بحنق بينما سمعت ضحكة سيف التي ترددت في صدره ولم تغادر شفتيه بينما هي تواجه عينا ترنيم الحادة بغيظ وتهتف:

-شقيقي علي لديه توأم في الرابعة من عمرهما وهو بانتظار الثالث قريباً.

ابتسمت ترنيم وقالت بصدق:

-أتمنى له السعادة من كل قلبي...

شحب وجه سلمى وهي تتذكر رؤيتها للبؤس والجمود في عيني شقيقها كلما قابلته وترنيم تتساءل بخبث:

-أهو حقاً سعيد يا سلمى؟؟ هل وجد سلامه الذي ضاع باحثاً عنه؟

شعرت بضغط كف سيف حول ذراعها حين أحس بتأهبها وسمعت همسته:

-يكفي سلمى.

لتعود هادئة وساكنة وهي تشيح عينيها الى ساحة الرقص حيث بدأت فوضى عارمة بالتكون لتهتف غير مصدقة:

-يااارب الكون..

ثم التفتت لسيف هاتفة بغضب حقيقي:

-لقد وصل..

ضاقت حدقتا ترنيم وهي تلاحظ الفوضى كذلك.. لا لم تكن فوضى بالمعنى المعروف.. كانت شيء أقرب للهرج والمرج، اكتسح ساحة الرقص اعصار صاخب.. رجل محاط بمجموعة من الفتيات يراقص الواحدة تلو الأخرى بضحكات ماجنة جعلتها تشعر بالقرف والفتيات تلتصقن به

كالعلقات.. كن يرتدين زياً موحداً، ما هذا؟؟ فكرت بضيق " فرقة استعراضية؟؟"

-رباااه لقد جن اخيراً.

قالتها صوان بصدمة ثم التفتت الى سيف وهتفت بقسوة:

-افعل شيئاً يبدو أن ابن عمك قد فقد صوابه، سيفسد حفل زفاف شقيقته.

تراجع سيف في مقعده ببرود وهز كتفيه:

-وما شأني أنا.. فليذهبا للجحيم معاً.

احمرت ترنيم وهي تستمع بخجل لتراشقهم بالكلمات بتلك الطريقة بينما عينيها تتسعان بذهول وهي تكتشف ببطء ما يفعل الرجل الذي يتحدثون عنه.. كان يحيط فتاتين بالزي الرسمي للمضيفات بينما شكلت بقية الفتيات صفاً عرضياً معه والفرقة الموسيقية تتحمس لتعزف لحناً شعبياً ايطالياً.. او ربما تركي؟؟!

رباااه ياله من وقح ..

فكرت بذهول وهي ترى انضمام سلسلة من الفتيات اليه وكلهن يتزاحمن على الوقوف الى

جواره، رأت العروس تناظره بغضب صاعق بينما زوجها يضحك بصخب.
"سيييييف؟؟!! افعل شيئاً."
"وماذا سأفعل.. ان تقدمت خطوة اليهم سيجررني اولئك الفتيات للرقص ولن أستطيع الرفض"
هتف سيف مغالباً ضحكته وهو يرد على سلمى التي شهقت بغضب قبل ان تصرخ مهددة بخفوت:
-لا تتحرك من مكانك اذاً.
-ابداً جميلتي.
همس مخلصاً وحاجباه يتراقصان باستمتاع لملامح غضبها التي أشاحت بها متأوه بنفاذ صبر من عائلة زوجها التي لا تكتشف مع مرور الوقت الا ما أكثر جنونها وتعقيدها.. رباااه أين هم من عقل ورزانة أخوتها؟؟
أما ترنيم فقد ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تنظر للرجل الذي لم يحترم حتى بدلته الرسمية التي لازال يرتديها بل وضع قبعته السوداء بشرائطها الذهبية على رأس احدى المدعوات من غير

رفيقاتها وبدأ يراقصها بحماس ترافقه الصيحات المشجعة والمهللة..
"أوس المهرج"
همست صوان بجمود.. لتنظر لها ترنيم بفضول والاسم يطرق باباً خفياً في ذاكرتها قبل أن تعود عينيها للرجل بادراك متردد ثم تتسعان بصدمة حين تعرفت عليه بما لا يدعى للشك..
العابث في الطائرة قبل يومين؟!
في حين مطت صوان شفتيها بضيق وأسندت ظهرها للمقعد بعيدة عن ذلك الجنون حين سمعت سلمى تتنهد بارتياح هاتفة:
-وأخيراً أحد العقلاء..
رفعت عينيها لتنظر حيث تفعل سلمى لتتسمر عينيها وينهار الجمود كله بلحظة وتشع مقلتيها السمراوين بالنار قبل أن تتزاحم رطوبة محرقة فيهما، كجوف صائم صدئ من كثر الظمأ ارتوى على حين غفلة، ويا له من صيام دام سنوات.
سنوات من الوحشة والجفاف.
يالله رحمتك

همست بذعر وكلها يتخبط بجنون عن اي خفقات نتحدث عن خفقات كتمتها لسنوات
خنقتها لدهور والان كلها تفجرت من عينيها من مسام جلدها !!
شعرت بحرارتها تحرقها تشويها حية..
فقط أغلقي عينيك صوانة،
همست لنفسها بجنون، اغلقي عينيك واهربي منه! انجي بنفسك وارحمي قلبك صوان؟؟
فقط لو تستطيع.. أي شيطان هذا الذي يتشبث بجفنيها ويمنعها من اغلاق عينيها؟؟ أي مجنونة هي لتستسلم بهذا الضعف بعد سنوات من القوة والسيطرة؟ شعرت بذاتها ترتجف ..ترتجف بقوة دون أن تهتز فيها شعرة.
ياالله.. ساعدني..
دعت بصمت لتخترق مباشرة مجال رؤيتها عينان رماديتان واسعتان..
"صوان"
همسته الخشنة انتزعتها بقوة من دوامتها الموجعة لتتعلق به وهو يجذبها من مقعدها بسهولة هامساً بحزم:

-تعالي لنرقص.
"أوس.. أوس.. أوس"
هتف قلبها بجنون وهي تتشبث بكتفيه لا تقدر على الابتعاد كانا واقفين فقط وسط الحلبة ينظر الجميع اليهما بدهشة لا يعرف أحد سبب توقف المهرج الأكبر عن القفز والمرح مع رفاقه وفتياته وانقضاضه الصقري على الفتاة الرقيقة الجامدة على كرسيها كدمية بورسلان عاجزة منذ بداية الحفل..
"فقط أغمضي عينيك يا صغيرتي"
همس لها بهدوء وثقة بينما تستقبل عيناه شرارات الاشتعال من عينيها المتسعتين بجمود وللحظات تعلقا ببعضهما كالغرقى قبل أن يشعر بتلك الارتجاف تهمد، والجمر المشتعل في عمق الصوان يخمد ليعود جمودها الحق وبرود جسدها الى حالته الطبيعية.. كان يكره هذا.. ولكنه آمن بالنسبة لها، انها الأن آمنة. مستقرة وآمنة.
"والأن ابتسمي ودعينا نواجه الجميع"
تشقق فمها عن ابتسامة باردة كعادتها وانزلت كفيها عن كتفيه لتقول:

-شكـــراً لك.
ابتسم بدفيء وهمس:
-لن يصيبك مكروه دامت تلك الصوانة تسكن قلبك يا ابنة عمي.
اتسعت ابتسامتها والتفتت لتعود لطاولتها متجاهلة نظرات سلمى المدهوشة وسيف الساخرة وترنيم الصامتة بصدمة جعلتها تنكمش وهي تدعوا ألا ينظر لها ذلك المخبول للحظة ويتعرف عليها؟
مالذي حدث ليقوما بهذا العرض السخيف..؟؟
ماذا تكون بالنسبة اليه ليحوطها بكل ذلك الدفء والحنان ويغيبها بعيداً عن الجميع بتلك الطريقة، وكأنه يحميها من شيء ما.. شيء قاسٍ ومؤلم على وشك الانقضاض..
"نغيب لسنوات.. ولا شيء يتغير في هذه العائلة"
التفت الجميع لمصدر الصوت..
برقت عينا ترنيم بفضول.. بينما نهض سيف ليعانق الرجل الجديد بلهفة..
"مرحباً بك أخي.. سعيد لتمكنك من الحضور"
"وكيف أفوت أخر زفاف في العائلة، يكفيني انني لم أحضر زفافك انت"

"اه جساس لايزال هناك أوس وصوان؟ وطبعاً أنت أم أنك لا تثق بزواج أحدكم؟"
قالتها سلمى بمرح جاهلة بمدى التوتر الذي اجتاح الجميع وجساس يقف مواجهاً أوس الذي لمعت عيناه كشيطان مواجهاً ابن عمه بابتسامة متوحشة:
"كل من ذكرتهم مجرد ذئاب متوحشة وكاسرة.. وكونك استطعت ترويض أحدها فلا تظني أن سواك تقدر يا ابنة الشيوخ"
ثم ابتسم لابن عمه وهمس بجفاء:
"أوس؟"
"جساس.."
ردها أوس بسخرية ويده تستريح على كتف صوان التي انتقلت اليها عينا الجساس ببطء.. لتتلكئ تعمداً على ملامح جسدها المنكمش تباعداً.
"صوانـــة"
هل ارتجف صوته حين ناداها؟؟ أم أن الصوان اشتعل وأحرق شفتيه متعمداً؟؟ يتذوق طعم الحريق والألم وهو يغادره الى مسامعها وهي...

من تملك القلب ولا ترحم.. ترتفع عينيها اليه جامدة كعيون الموتى لا البشر...
"جَساس؟"
ثم أضافت بابتسامة ساخرة:
"لا أحد يناديني بِ صوانة سوى الأطفال يا ابن عمي.. اسمي هو صــوان."
تحجرت غصته بسقف حلقه وانفاسه تتسارع وهي تزيد الطين بلة ضاحكة:
"ألم تكبر بعد جساس؟؟ ألا زلت الولد الصغير كما كنت يا ابن عمي؟"
قالتها متحاشية النظر الى جسده الذي ارتفعت قامته تفوقها ببضعة انشات بدت ضئيلة وضعيفة مقارنة ببنيته العضلية القوية.. جساس كان رياضياً بامتياز رغم نحوله، لا تستطيع انكار انه يقدر أن يرفعها بيد واحدة كما فعل منذ سنوات.. بدت لعينيها الجامدتين باللونين الابيض والأسود.. كفيلم من الزمن القديم.
"وهل أبدو لك الصغير الذي كنت؟"

همس بجمود وهو يميل اليها، محاصراً عينيها السمراوين بعينيه الداكنة كلون قميصه الاسود فتجابه نظرته بجبروت يشابهها هامسة ببرود:
"ستظل مهما كبرت.. ابن عمي الصغير والذي كان يتعلق بذيل ثوبي كلما ضايقه أحد اولاد عمومه الأكبر سناً مثلي أنا"
انشقت عينيه الى نصفين وتوسعت فتحتا أنفه وهو يكشف عن اسنانه بتكشيرة مرعبة جعلتها تنهض مسرعة متفلته من عينيه هامسة لأوس بجفاف:
"لنذهب ونودع سارة.. ستغادر طائرتها بعد دقائق"
أحاط أوس بذراعها بحماية وجذبها برفق نحو طاولة شقيقته في حين أمسك سيف ذراع أخيه بقوة وحزم هامساً من بين أسنانه المطبقة:
-جسااااس..!!
-دعني وشأني.
صرخ جساس وهو يفلت ذراعه بسرعة ويحث الخطى بالاتجاه المعاكس دون أن يلقي نظرة أخرى خلفه بينما تتسع عينا ترنيم الشاهدة على

المسرحية بصمت جاهلة بما يدور حولها في حين التفت سيف لسلمى المصدومة قائلاً باستخفاف:

-ألست سعيدة الان أننا لم نقم حفل زفاف؟؟!

***

الفصل الأول

***

الى غريــب لَم تجمعني به سوى بوابات السماء
التقينا مرة صدفةً
وبعدها.. صار اللقاء حتمياً كالتـــنفس
وكأنه جزء من طقوس الرحيل
سماء غائمة
رذاذ مطــر
وكوب قهوة كُلُ مُرِها حلاوة..
كحلاوة اللقاء ممتزج بمرارة الغيـــــاب..

عبير♥ قائد

***

سينقلنـــا الحنين يوماً الى مدنٍ تعشق الحياة وتلقي مرارة الحزن والفراق في غياهـــب الجحيم ..!!

....

رومـــا

تنقلت ساقيها بخفة بين الجموع المتدافعة بشكل فوضوي عبر الساحة الواسعة المبلطة بالحجارة والتي تحيطها المباني الرومانية القديمة وتظللها سماء مشمسة، دافئة مكللة بروائح الازهار وأشجار الليمون معلنة قدوم الربيع بأكثر صوره بشاشة ورونق..

حجمها الدقيق وقصر قامتها جعلها تتسرب بين القامات الطويلة للإيطاليين السمر لم تلتفت لأحد رغم النظرات التي طالتها من عيون متسائلة حذرة ورافضة؟!

ولكنها لم تتوقف، كانت ككل عام لديها طريق محدد ومهمة واحدة..

وصلت الى النافورة الضخمة والتي انتصبت وسط الساحة، وجلست كغيرها من الرواد على الحافة العريضة الضخمة وتحولت عينيها للجميع

حولها وابتسمت لبعض الصبية الذي يلعبون حفاة، كرة القدم. قبل ان تنظر في مذكراتها ذات الغلاف الجلدي، وتغيب ابتسامتها وهي تفتح اولى صفحاتها وترى بعض الشخابيط التي حملت رحلتها الماضية لعام كامل.

حملت المذكرات بيد بينما طوحت حقيبتها خلف ظهرها ورفعت كم سترتها للمرفق، قبل ان تميل لتغطس المذكرات بماء حوض النافورة دون تردد...

للحظات فقط. أغلقت عينيها ورفعت عينيها للسماء لتغسل ملامحها المتجهمة بأشعة الشمس المشرقة، تتشبث أصبعها الصغيرة بالجلد المدبوغ بشدة بينما تيار الماء الرائق يغسل اوراقها العتيقة ويمحو كلمات خُطت على مدار عام كامل مضى...!!

انقضى ببعض الوقت قبل أن تفتح عينيها وتخفض رأسها عن السماء لتنظر الى المذكرات الغارقة بالماء و تخرجها متجاهلة النظرات الفضولية ثم لفتها بحرص بحقيبة من النايلون

المقاوم للماء كان في حقيبتها قبل ان تعيدها الى داخلها.

نهضت بنشاط، وكأنها نفضت عنها غبار السنة الماضية كلها، تجاهلت النظرات المحدقة بها بغرابة ومضت تشق طريقها عبر الأزقة التي حفظتها منذ فترة، مرت عبر الباعة المتجولين والذين انتشرت على نواصيهم الخشبية قطع الفاكهة الطازجة بألوانها المنعشة والمختلفة بأذواق استوائية وغربية عجيبة.

تمشت متجهمة الملامح عبر الشوارع الخلفية المزدهرة والمزدحمة حتى وصلت الى أحد الحوانيت القديمة، بباب زجاجي تُعلق عليه عدة تمائم وحلى غريبة مصنوعة يدوياً، من الاصداف والاحجار الرخيصة، وحتى بضعة مناديل مطرزة من الدانتيل والحرير.

فتحت الباب وتعالى صوت الأجراس الصينية بالداخل تعلن عن قدومها لمن بالداخل...

"كماااااااااااااالة"

صرخت بعلو صوتها حين لم تجد أحد خلف المنضدة الخشبية، وتنشقت رائحة المحل العبقة

برائحة الورد وبضعة أعشاب عطرية جعلتها تغضن وجهها بنفور قبل ان تعاود الصراخ:
"كماااااااااااااالة؟؟؟"
سمعت حينها ذلك الصوت المكتوم من الحجرة الخلفية لتلتفت للباب شبه المخفي خلف رفوف البضائع الشرقية لترى المرأة التي خرجت من خلفه باضطراب:
-يارب الكون توقفي عن الصراخ..
فردت ذراعيها الاثنتين وصرخت باسم المرأة من جديد وهي تركض نحوها:
-كمالة حبيبتي. اشتقت اليك..
ابتسمت كمالة للحظة واحدة قبل ان تغيب بين ذراعي ابنة أخيها الصغيرة ، عاطفة نوعية غريبة ما عادت تظهرها سوى لها منذ سنوات، شعرت بحرارة عناقها والراحة التي سرت في جسدها وهي تتنهد:
-اشتقت للمكان هنا كمالة..
-لقد طالت رحلتك هذه المرة بعض الشيء ألا تظنين؟!
ابتعدت زامة شفتيها بعبوس:

-انه شهر واحد فقط كمالة.. ليس وكأنني ذهبت الى أخر العالم.
-لقد ذهبتي الى الهند يا فتاة.. انها بالنسبة لي أخر العالم.. تعالي وقولي لي ما فعلته بالضبط.
تراجعت عن حضت عمتها الفتية وهمست بإرهاق:
-لاااا كمالة. آنا منهكة لم انم منذ يومين وبرحلة كالتي قمت بها احتاج لثلاثة أيام من النوم.
ضحكت كمالة ولامست خدها الناعم:
-تستحقين الراحة ترنيمتي.. اصعدي لفوق، تحممي واخلدي للنوم.
-ولكني جائعة.
هتفت بإرهاق جعل كمالة تغرق بالضحك. قبل أن تدفعها امامها الى سلم عتيق بعض الشيء هامسة بحنان أموي لطالما أظهرته لها:
-اصعدي وتحممي وسأعد لك شيئاً خفيفاً.
رمقتها ترنيم بامتنان قبل ان تعانق حقيبتها وتسرع عبر الدرج الى الغرفة العلوية.
تأملت الغرفة التي احتضنتها في أتعس لحظات حياتها لدقائق، وابتسمت بحنين. غرفة واسعة،

بجدران مغطاة بورق حائط يحمل زهوراً صغيرة مرقطة وسقف منخفض بعوارض خشبية وفي أحد أركانه تدلت عريشة من الورود تمتد حتى تكاد تلامس الأرض في الزاوية.. لطالما عشقت كمالة المساحات الواسعة.. وبينما كان الفراش في الزاوية المقابلة ضيقاً ومكدساً بالوسائد المطرزة واللحف، كانت الارض مفروشة بسجاد محاك باليد يمثل بساطاً أخضراً بالورود، والأغصان المتدلية، وفي أحد الأركان كان كرسي الخيزران يقبع أمام نافذة واسعة مطلة على الساحة الخلفية للمحل، وأمامها تمتد السماء بلانهاية.. ابتسمت بحنين وهي تلامس محرم الدانتيل الذي يغطيه ثم ساقتها قدماها للأريكة في الجهة المقابلة.. سريرها الخاص.

جلست على المفرش القطني البارد وخلعت حذائها الرياضي المسطح، وألحقته بحجابها لتحرر شعرها البني الكثيف مع تنهيدة راحة عميقة ثم أخرجت حقيبة النايلون من حقيبتها الشخصية وحملت المذكرات الثقيلة لتضعها على طاولة خشبية أمام النافذة الموارية، وفتحتها

لتعانق هبات النسيم العليلة صفحاتها المبتلة لتجففها.. بينما استلقت ترنيم على كرسي الخيزران المتأرجح معانقة احدى وسائد كمالة المنفوخة ودون مقاومة أسبلت عينيها لتغرق في النوم على الفور.

حين انتهت كمالة من اعداد الشطيرة الايطالية الغنية بشرائح اللحم المقدد والجبنة الريكوتا والخضار الطازجة في خبز أسمر ساخن تحضره جارتها في المخبز المجاور صعدت اليها تحمل كوباً من عصير العنب الأحمر الذي تحبه، لتتوقف امام مشهد حبس أنفاسها بتعاطف حنون، ابتسمت بحنان ووضعت صينية الطعام على الطاولة الى جوار المذكرات التي بدأت صفحاتها تجف وتتطاير الواحدة تلو الأخرى.

امالت كمالة رأسها بحنان ولامست خصلات شعرها البنية بعيداً عن ملامح وجهها المرهقة وتراجعت بخفة لتغطي الشطيرة بمحرم مخرم وتقرر انها بحاجة للراحة.. والسكينة ولو لبضع ساعات.

***

دبـــي...
كانت حرارة الجو خانقة الشمس الساطعة والارض الصحراوية تبعث بخار خانقاً يكاد يحرق المسام ويسبب العمى. وعلى بعد بسيط من وسط المدينة ذات الازدحام والحياة العصرية المثيرة، في ضواحٍ راقية وسط بساتين من النخيل وروضة صغيرة من المساحات الرملية والألعاب الطفولية والصبيانية انتصب مبنى من طابق واحد وعدة منحنيات تحوطه الحديقة الغناء ويسوره حاجز ضخم يضمن الامن والامان لرتل الصغار الذي انفجر بالنشاط بداخله، تراكض الصبية والفتيات والذي تتراوح اعمارهم بين الثلاثة أعوام والخمسة من داخل المبنى بزيهم الموحد وبدأ تنافسهم على الألعاب البلاستيكية الضخمة والتي انتشرت بشكل كبير..
حضانـــة السلطانة..
ارتفعت اللوحة الضخمة امام البوابة الحديدية والتي انتصب امامها حارسين شخصيين ضخام الجثة، بنظرات جامدة لا تشي بما في دواخلهم، حين توقفت تلك السيارة الليموزين الفخمة

وترجل منها رجل عريض المنكبين طويل القامة بقميص عربي ابيض طويل وغترة على الرأس بينما يحمي عينيه بنظارات سوداء قاتمة.

-أود التحدث مع مديرة الحضانة، انها تنتظرني.

-ومن تكون حضرتك؟

تساءل الحارس ليجيب الرجل بهدوء:

-صلاح الزجال.

قال الرجل المهيب للحارس الذي أجرى اتصالاً قصيراً قبل أن يُسمح للرجل بالدخول.

كانت ملامحه المتجهمة عنوانه طيلة الطريق القصير نسبياً الى بوابة المبنى الهادئ والذي لا يشي بمدى الفوضى التي تعج بها بوابته الخلفية..

قابلته احدى المعلمات في باحة الاستقبال بابتسامة هادئة مرحبة به:

-صباح الخير سيد صلاح. يسعدنا تمكنك من المجيئ.

-لقد اهدرت وقتاً ثميناً للغاية بقدومي الى هنا سيدتي، وأريد أن أعرف في التو ما هو الأمر الجاد والخطير الذي لا يمكنك مناقشته مع مربية الولد.

حل البرود محل الترحيب في عيني المدرسة وقالت بصرامة:

-لقد تحدثنا مع المربية بالفعل لثلاث مرات قبل ان تقرر المديرة انها لم تفعل اي شيء يغير من المشكلة او يمهد لإصلاحها حتى، ولذا أصرت على مقابلتك.

نزع الرجل نظارته بنزق وعصبية وهمس بنفاذ صبر:

-ومع هذا لا أجدها أمامي..

"هذا لأنني أتفقد أحوال الأطفال عادة في مثل هذا الوقت سيد صلاح"

التفت للخلف بسرعة وارتفع حاجباه ببطء وعيناه تستقران على الفتاة النحيلة والتي قاربته طولاً بشكل ملفت للانتباه بينما تسربلت بعباءة أنيقة سوداء ووشاح حريري باللون الأزرق وقد خلا وجهها كله من الزينة ماعدا حلاوتها الطبيعية جداً، عينان بلون البن تحت حاجبين كثين مرسومين ببراعة وأنف دقيقة طويلة.. ثم شفتان...

-استاذ صلاح..

قاطعته الفتاة بنبرة حادة جعلته يوقن انها لاحظت نظراته وحقيقتها، قابل عينيها المتحديتين بطرافة وهو يتوقع ان تحمر خجلاً أو تخفضهما الا أنها رفعت حاجبها وبادلته النظرات بمثلها وهي تقول بنبرة خشنة مسترجلة قليلاً:

-أنا صوّان الشيّب.. مديرة الحضانة.

تأملها الرجل للحظات قبل ان يمد يده نحوها مأخوذاً بقوتها دون ان يعرف السبب سوى أنها قد سحرته:

-تشرفت بلقائك سيدتي.

رمقت صوان الكف الممدودة لها لثانية قبل أن تعود لتقابل نظرته اليها بأشد منها:

-أنا لا اصافح..

أنزل صلاح يده وابتسم:

-وأنا أحترمك لهذا.

-لنذهب الى المكتب، لدينا الكثير لمناقشته.

أشار لها لتتقدمه ففعلت بظهر مستقيم بينما تتابعهما نظرات المعلمة المرافقة بذهول، وفي داخل المكتب احتلت صوّان كرسيها على رأس طاولة اجتماعات صغيرة وأشارت لصلاح

بالجلوس وعرضت عليه فنجان قهوة رفضه بهدوء، قبل أن يميل على مرفقيه وينظر لها بإمعان متسائلاً:

-هل بإمكانك الان اطلاعي على مشكلة الصغير؟

تراجعت صوان في مقعدها وقالت برسمية مختصرة:

-ابنك علي يا سيد صلاح يواجه مشاكل نفسية معقدة.

رفع صلاح حاجبه وقال بسخرية:

-انه في الثالثة من عمره..

رفعت حاجبها وواصلت بصوت قاسٍ:

-انه في الثالثة وقد ضرب اربعة من زملاءه احدهما في الخامسة من عمره ويفوق حجمه مرتين، وخرب حصة الرسم ويرفض ان يأكل مع رفاقه بل هو يتعمد القيام بكل الحركات الغريبة ليثير اشمئزازهم..

عقد صلاح حاجبيه بتوتر بينما صوان تحذر:

-ابنك بحاجة لعلاج واهتمام عام من قبلك وليس من المربيات سيدي، سيصاب بالكثير من العقد النفسية الشائكة ان استمر على هذه الحالة.

-منذ متى؟؟
تساءل صلاح بتجهم لتجيب صوان بعد فرز بضع اوراق امامها:
-كل تقارير معلماته تشير ان وضعه استاء منذ شهر اغسطس العام الماضي.
اغمض صلاح عينيه بضيق جعلها تسأله بحذر:
-هل حدث شيء جديدا خلال ذلك الوقت؟ ان لم تمانع سؤالي؟؟
غامت عيناه تحت الحاجبين الكثين ودمدم بغموض:
-تزوجت.
اتسعت عينيها للحظة قبل تقول بحذر:
-ما نعرفه هو أن والدة علي متوفاة..
-هذا صحيح.. لقد توفيت بعد ولادته مباشرة وقد تزوجت بعدها بثلاث سنوات فقط لأجله.
تنهدت صوان ودعكت ما بين حاجبيها بحركة متوترة قبل ان تقول:
-ان علي متأثر للغاية بهذه الزيجة ولا ادرك السبب بالضبط.. عليك أن تعرف اسباب

اضطرابه في المنزل، واريد منك اعطائنا الاذن لعرضه على الاختصاصية النفسية الخاصة بنا.
نقر بأصابعه بعصبية على الطاولة وهتف:
-علي ليس مجنوناً.
تنهدت بنفاذ صبر قبل ان تفسر بهدوء شديد:
-ان احتياج علي للعناية النفسية ليس جنوناً وانما هو حماية له من الجنون، انه لايزال طفلاً ولكنه ذكي بشكل فريد، ولا احد ينكر هذا، وذكائه فقط ما جعلنا ننتبه لحالته قبل ان تسوء او تتطور أكثر.
جز على أسنانه للحظة قبل ان ينهض بطريقة حادة:
-سأفهم ما يحدث في منزلي قبلاً سيدتي وبعدها نرى في أمر الاختصاصية.
رفعت رأسها بتصلب وقررت بلهجة قاطعة:
-اذاً من الأفضل لعلي ان يبقى في المنزل حتى تتخذ قرارك.
التفت بحنق وهمّ بالاعتراض لتقف مسرعة وهي تقول:

-انا اسفة سيدي.. ولكن هناك تلاميذ تأذوا من تصرفات ابنك، ولن أسمح بتكرار هذا الأمر.
-ربما يجب علي نقله الى حضانة أخرى.
هتف بغضب لتعقد ذراعيها على صدرها وترد ببرود:
-كما تريد سيدي.. ولكن خذها نصيحة مني.. مديرة الحضانة التالية ستكتفي بإعادة طفلك الى منزلك مع ملاحظة في حقيبته ولن تهتم حتى بمناقشة التفاصيل معك.
احتقن وجهه وهي تواصل بقوة:
-انا اجيد عملي بشكل ممتاز سيد صلاح، وأبنك بحاجة لعناية فورية.. وإن لم تفعل شيئاً بهذا الخصوص فأنت هو الخاسر الوحيد.. بالإضافة للطفل ايضاً.
استدركت بنباهة ليستدير مغادراً وكله يغلي من الغضب بينما عاودت صوان الجلوس بهدوء وسكبت لنفسها بعض القهوة دون أن تهتز لها شعرة لغضبة.
-لقد أثرتي غضبه..

ابتسمت باقتضاب ونظرت لصديقتها المقربة والمسؤولة معها عن الحضانة هامسة:
-هكذا يجب التعامل مع أمثاله يا مروى.. ألم تري كيف اتى وكله ثقة وظرف؟؟
تنهدت مروى وجلست الى جوارها وهي تلاعب طرف حجابها الاسود بقلق:
-ولكنه سيسحب طفله وعندها لن نستطيع مساعدته كما نريد.
-لا تقلقي.. لن يجد أفضل من مركزنا صدقيني سوف يعود.
ثم ابتسمت بادراك:
-سوف يقبل الانامل..
ضحكت مروى:
-وكأنك ستسمحين له بالاقتراب او التفكير بها..
ضحكت بجفاء قبل أن تنهض وتقف امام مكتبها لتلتقط هاتفها الخليوي والذي كان يصدح بنغمة استلام رسالة قصيرة.. ارتجفت أصابعها للحظة وهي تنظر للساعة الحائطية الضخمة والتي تشير الى تمام الحادية عشر والنصف صباحاً.
أخذت نفساً عميقاً ثم فتحتها بخفة..

"الأحمق"
نظرت للاسم بعينين جامدتين قبل أن تفتح الرسالة الصباحية المعتادة..
"صباح الخير صوّانتـــي، أبكرت اليوم.. لدي موعد مهم وأريدك أن تدعي لي.. أحبك"
لم تتلكك أصابعها وهي تمسح الرسالة المعتادة، رفعت عينين ميتتين وعادت بنظرها الى رفيقتها، تواصل النقاش دون أن تتغير تعابيرها أو حتى نبرة صوتها.
***
تصاعد الرنين المثير للأعصاب ليقطع النوم الهانئ والعميق الذي كان يغرق فيه ليرسل ذراعه متأففاً ويلتقط هاتفه الخليوي، وبعينين ناعستين رأى اسم السلطانة يلتمع بأحرف ماسية متألقة..
ضاقت عيناه قبل أن يفتح الخط ويهمس بصوت أجش:
-مالذي تفعلينه؟
-صباح الخير سنيور راكان.

عقد حاجبيه واعتدل على مرفقه وتساءل بخشونة:
-ماذا حدث سيرا؟ أين سارة؟
-السلطانة في اجتماع مع مجلس الإدارة.
نظر لهاتفه ليتعرف على الساعة ويكتشف أنها تقارب العاشرة صباحاً قبل ان يتساءل بنفاذ صبر:
-هل تقولين أن سارة في الصحيفة الأن؟؟ لقد عدنا لتونا؟
-أنت تعرف السلطانة يا باشا.. لا شيء سيبعدها عن عملها لوقت طويل وقد انقضى شهر العسل منذ ليلة أمس.
قالتها بنبرة ماكرة جعلته يزفر بضيق هاتفاً:
-ومالذي تريدينه حضرتك بالاتصال في مثل هذا الوقت؟
-انها رسالة من السلطانة.. تحذرك من نسيان موعد آلموند اليوم بعد الظهر.
اغمض عينيه بقوة محاولاً تذكر تاريخ اليوم والذي اقترن بموعد التصوير الهام للغاية لوكالة آلموند العالمية للمجوهرات والتي سيقوم بها

بنفسه. لقد نسي كل شيء عنها، سـارة وجمالها الذي لا يقاوم أنساه كل شيء ما عداها.
-قولي لها أنني لم أنسى وأنني سآتي قبل الموعد.
هتف بحنق قبل أن يغلق الخط في وجه مساعدة زوجته المثيرة للأعصاب، لينهض مزيحاً عنه الأغطية ملتقطاً قطع ملابسه المبعثرة يمنة ويساراً بفعل زوجته المتوهجة.
بعد ساعة فقط كان يخطو الى مبنى الصحيفة الايطالية الشهيرة للأزياء والموضة والتي تعمل سارة الشيّب كمدير تحريرها منذ عام كامل، بعد أن ارتقت السلم ببراعتها وبمجهود أقل من باقي زملائها لعلاقات والدتها ووالدها المتوغلة وشراكتهما في أصول المؤسسة الصحفية التي تعتبر الجريدة جزءاً منها.
رفع رأسه بأنفة اعتاد عليها منذ طفولته كسليل عائلة الباشوات العريقة، وجهه جامد لا تلينه حتى الابتسامة، تجاهل التحيات المتفرقة من زملائه القديمين، ونظرات العارضات وابتساماتهن المثيرة، باتجاه واحد لا يتزحزح..

تجاهل الصوت القلق لمساعدتها الشخصية وفتح البوابة المنسحبة على مصراعيها هاتفاً ببشاشة:
-صباح الخير سلطانتي الجميلة..
كانت منهمكة في قراءة بضعة تقارير عن انجازات الشهر الفائت تجاورها سييرا، وتناولها التقرير تلو الأخر، بينما تساقطت خصلات شعرها الكستنائي المجعدة، تغطي ملامح وجهها الناعمة وعقدة خفيفة تزين جبينها تدل على تركيزها العالي حين سمعت باب مكتبها يفتح بفوضى عالية وصوت راكان يملؤه بتحية صباحية مشرقة..
ارتفعت حرارتها بحنق وغضب لتلك المقاطعة والتي لا تقبلها حتى من زوجها ورفعت راسها تنوي أن تقولها صريحة في وجهه لتجده قريباً للغاية.. وعينيه الخضراوين تلمعان بعاطفة حسية لا تخطئها ابداً فقد عاشت معها لشهر كامل منذ زواجهما وتدرك تماماً معناها.
لم تستطع أن تقاومها ولن تفعل، شعرت للتو بالحرارة الحانقة تغرقها كلها وتتحول الى سخونة لا علاقة لها بالغضب أبداً، حتى أنفاسها الهشة

تسارعت وانفرجت شفتيها ملبية الدعوة الصارخة في عينيه قبل ان ترى اغتمامها بالرغبة الفجة وتسمع صوته الخشن وكأنه قادماً من تحت عمق سحيق مخاطباً سييرا:

-اتركينا وحدنا.

لم تشعر بمساعدتها تغادر، بالكاد سمعت الانغلاق الخفيف للباب قبل ان يسحبها من خلف مكتبها بسرعة ليقربها من دفئ حضنه لتغرق في صدره الواسع وذراعيه تحوطها بشكل كامل ملامسة قماش سترتها الحريرية امتداداً حتى قماش تنورتها القرمزية القصيرة.

-أنت تدينين لي بتحية الصباح ياجميلتي.

همس بصوت أجش من الرغبة.. ذقنه الحليقة تداعب وجنتها الحريرية بينما شفتاه تتقوسان بابتسامة لردة فعلها الأنية للمسته بارتجاف امتدت على طول عمودها الفقري وجعلتها تقترب غريزياً اليه.. ذراعيها تلتفان أسفل سترة التويد لتحيط بظهره وتتشبث بقماش قميصه الناعم بينما شفتيها ترسمان حروف اسمه على عنقه بالقرب

من بروز حنجرته لتشتد قبضته على كتفيها وهو يغمغم:
-لماذا خرجتي دون ايقاظي؟
-حاولت.. ولكن..!.
تمتمت ليقطع عبارتها بضحكة كتمها بين شفتيها لتغرق فيها بأنين متحمس.. كانت قبلته مزيج بين الحلاوة والعذاب، يعطي بقدر أقل مما يأخذ وكأنما يخبئ لها الأفضل لوقت لاحق.. يقدم الوعود ليفي بها فيما بعد، كانت قبلة الصباح لتشبعها لولا حقيقة أنها تزيدها جوعاً بشكل أكبر له.. لحبه.. لعشقها غير المتوقع لهذا الرجل.
شعرت بأنامله تتسلل الى قميصها تحت سترتها المخملية وعرفت ما ينوي.. لطالما كانت قبلتهما الصباحية تنتهي بعلاقة كاملة مثيرة تمتد لساعات وتكاسل مثير على الفراش..
لهذا بالذات هي لم تحاول ايقاظه هذا الصباح، لقد تسللت حرفياً من بين ذراعيه دون صوت حتى تستطيع اللحاق بمواعيدها الصباحية.
تثير جنونه.. ما إن يلمسها حتى يدرك أنه لا يريدها سوى قريبة هكذا، في متناول يده، في

يمينه كما يقولون، وكما اعتاد اجداده أن يتخذوا خليلاتهم.. قريبة حتى الشعور بنبض الدم في شراييها.

-أريدك..

همس ووجهه مدفون في عنقها واصابعه تتسلل لفتح اولى أزرار قميصها الأبيض، تتابعها أصابعها الرشيقة بينما يواصل بإثارة:

-أريدك في داخلي سارة.. تحت جلدي وهكذا فقط أطمئن أنك لن تبتعدي.

مالذي يحدث لها؟ كيف لها أن تفقد كل قوتها وتحكمها بنفسها حين ينظر اليها بعينيه الخضراوين، وكيف تذوب كقطعة من الزبد حالما يضع اصبعاً عليها كلسان من نار..

انها تفقد نفسها.. تفقدها له ومن أجلـــه.. انغرست أصابعها في خصلات شعره العسلية المجعدة وهي تتنهد اسمه ليتمتم بهمهمة غير مفهومة اعلى صدرها بينما اصابعه تواصل فتح أزرار قميصها أكثر. شهقت حينها وهي تشعر ببرودة التكييف تصفع جلدها الحساس بالإضافة لدفء

أصابعه الجريئة لتمتد يدها بسرعة لتبعدها هاتفة بصوت مخطوف:

-يالهي ركان توقف.

ابتعد بصعوبة لينظر لها بتشوش فتهمس له وخديها يحترقان:

-اننا في المكتب.. ماذا لو دخل علينا أحد؟

-انه مكتب رئيسة تحرير الجريدة، من يجرؤ على اقتحامها دون إذن؟

قال بحنق ليضيف بمشاكسة:0

-ما عداي بالطبع.

كورت قبضتيها على صدره ودفعته عنها هاتفة وقد استعادت بعض اتزانها:

-بعض المحررين يندفعون دون اذن حين تعترضهم الاخبار الحصرية والعاجلة أنت عملت هنا معي لفترة طويلة وتدرك انني لا اغلق مكتبي ابداً.

تراجع ببؤس وهو يراقبها تعيد ثيابها لوضعها الصحيح، أصابعها المرتجفة تحاول اعادة تزرير قميصها ليقترب مزيحاً اصابعها بخشونة:

-دعيني..

رفعت عينيها اليه لمعانها الزمردي لا يغادر عينيها العاصفة بالمشاعر بينما أصابعه الخبيرة تعيد تزرير القميص ببطء:

-لا تغادري وانا نائم مرة أخرى سارة، ابداً.

رفعت ذراعيها ووضعتها على كتفيه بينما تهمس ولا تبتعد عن عينيه:

-أنت لا تريد الاستيقاظ في السابعة صباحاً ركان، انت لا تستيقظ قبل الظهر.

-لأجلك.. سوف استيقظ في الخامسة..

همس بخشونة عينيه لا تفارقها بينما حاجبيها يرتفعان وهي تتساءل بنعومة:

-الخامسة؟

كشر بابتسامة واسعة واقترب يلامس جانب عنقها بأنفه الطويل:

-ما يجول في خاطري يستغرق ما يقارب الساعتين..في السابعة تماماً أنت حرة للذهاب الى أي مكان تريدين.

قهقهت بحرج وهي تدفن وجهها أسفل عنقه، تشد قبة قميصه:

-يالهي ركان انت لا تطاق..

اتسعت ابتسامته حتى احتلت وجهه كله وهو ينظر أسفل لوجهها المتقد احمراراً متسائلاً:
-أنت لا تخجلين سلطـانة؟!
هزت رأسها باضطراب ليحيط وجنتيها بكفيه ويرفعه اليه ناظراً لحلاوة عينيها الرماديتين بشغف:
-أحب هذا اللون الذي يغزو وجنتيك يا سلطانة، أحب أن أشعرك بالخجل مهما مر من وقت ستظلين تخجلين وتحمرين لأجلي.
-أنت فقط.
أكدت بشغف ليقترب ضاغطاً شفتيه على فمها بقوة، جعلتها تذوب وتقترب مستسلمة تتشبث بقبة قميصه بينما فمها ينفرج تحت ضغطه اللحوح، ليختار تلك اللحظة بالذات ويبتعد عنها متجاهلاً انينها المعترض بابتسامة ماكرة:
-فيما بعد غاليتي، فيما بعد.. الأن لدي موعد مهم، واذا تأخرت فرئيستي في العمل ستكون غاضبة جداً مني.
-ركاااان..
همست بإحباط..

-لا تنسي موعد الغداء اليوم..
غمز لها مغادراً..
"لِمَ يفعل بها هذا؟؟" فكرت بإحباط وهي تتهالك على مقعدها بالكاد قادرة على التقاط أنفاسها، وجهها يستعيد هدوءه ولونه الطبيعي، بينما جسدها يتعافى تدريجياً من مشاعرها الثائرة..
-هل رحل؟
رفعت عينين كسولتين لسييرا التي لا تعرف متى دخلت اليها بوجه غاضب بالكاد سيطرت عليه لتهمس سارة بهيام:
-لقد ذهب للأستوديو سييرا..
-اخيراً..
همهمت بسخرية لتتنهد سارة وتشيح عن مساعدتها الشخصية وصديقتها المقربة والتي لم تكن توافق قط على علاقتها بركان وكادت تجن حال زواجهما:
-توقفي سييرا.. اعطني المستندات اللازمة لتوقيعها لدي موعد للغداء مع ماركوس ليفانز.
-هل ستأخذين ركان معكي؟
لم تنظر اليها بل قالت بجفاء:

-لا تنسي ان ماركوس هو صديقه المقرب وهو من حضر لهذا اللقاء من الاساس.
دارت عيني سييرا بحنق هي من كان يجب ان ترافق سارة. هي مساعدتها الشخصية ولقاء مع ماركوس ليفانز رئيس أكبر دور الازياء في ايطاليا لمناقشة شراكة عمل هو حدث غير عادي.
-دعيني اتي معكما، ستحتاجين بعض الوثائق..
حاولت لتقطع سارة بتوتر:
-يالهي سييرا انه مجرد لقاء مبدئي غداء اجتماعي وليس غداء عمل، سأحدد موعد اخر معه وأعدك أنك سترافقينني حينها.. والأن اعطني تلك المستندات اللعينة.
صاحت سارة بعصبية مغلقة الموضوع نهائياً.. على الاقل حالياً.
***
تمطت بكسل كل عضلة في جسدها تشتد لأقصاها قبل أن ترتخي كلياً على الاغطية الناعمة والوسائد المطرزة، ضوء أخر النهار يتسلل من النوافذ ذات الستائر المتراقصة، ولحن

حزين يصدر من مشغل اسطوانات قديم في المتجر أسفل الغرفة.

-مساء الخير يا صغيرتي.

رفرفت بجفنيها وعادت تتمطى مجدداً قبل أن تبتسم باسترخاء هامسة بكسل:

-هل نمت كل هذا الوقت كمالة؟

-لقد فعلتي حبيبتي.. انها السادسة والنصف.. ألم تكوني جائعة؟

تمرغت في الاغطية بمشاغبة.. السرير الوحيد الذي لا تهاجمها فيه الكوابيس.. هو سرير كمالة.

-انا أتضور جوعاً..

-اغسلي وجهك وانزلي للأسفل.. لقد حضرت لنا الغداء.

ابتسمت بسرور وهي تقفز بنشاط من فراشها يتراقص خلفها ظل شعرها الطويل..

بعد دقائق كانت تنزل عبر الدرجات الخشبية للمتجر الذي اغلقت ابوابه مبكراً هذا اليوم احتفالاً بأبنة أخيها الصغيرة، راقبتها بحنان ترتدي قميصاً قطنياً قديماً يصل لركبتيها بينما تساقط شعرها حتى كاد يلامس أسفل ظهرها حافية

القدمين، وتشع عينيها للرائحة الشهية التي تصاعدت من طبقي الطعام أمامها..

-سباجيتي..

قالت بابتسامة عريضة.. وهي تجلس أمام كمالة رافعة قدميها على الكرسي ومستندة بذقنها على ركبتيها، بينما عينيها البندقيتين تلمعان:

-لقد اشتقت لك كمالة.

-وانا بالمثل.. أخبريني ماذا فعلتي هناك؟

مدت يدها لتمسك شوكتها وبدأت بتناول السباجيتي الشهية بصلصة الطماطم الحارة وطبق السلطة الشهية وعصير البرتقال الطازج، وجبتها المفضلة والتي تعدها كمالة دون اعتراض..

-لقد تنقلت عبر الحافلات في أكثر من مدينة، وراقبت قطيع الفيلة والقرود، ذهبت في رحلة سفاري، وراقبت غزالة تلد.. تناولت عصائر غريبة لم اسمع باسمها من قبل.. وتناولت الكثير من الاطعمة الغريبة العجيبة.

-هذا فقط.. ماذا فعلتي غير هذا؟

زمت شفتيها وهزت رأسها مبتسمة ثم قالت:

-تعلمت أنني لا استطيع السيطرة على اعصابي حتى بعد وقت طويل من التأمل.
-يالهي ترنيم ماذا فعلتي؟
تساءلت كمالة بعينيها المتسعتين الخضراوين لتهمس ترنيم:
-لم افعل شيئاً ..
ودارت عينيها في محجريهما وهي تتهرب من نظرات عمتها، الا أن كمالة لم تترك لها الخيار حين مالت نحوها وهتفت بإصرار:
-أخبريني.
تراجعت بعين لامعة وردت ببرود:
-لقد أرسل والدي رجلاً خلفي.
اتسعت عينا كمالة والتزمت الصمت وهي ترى عينيها تتحجران وشفتيها تصبحان كخيط رفيع وهي تدمدم:
-هو لن يفهم، ولم يفهم ابداً.. لقد تفاجأت بذلك الرجل يقف أمامي اثناء معاملات السفارة ويعرض خدماته بشكل يثير القرف، وبعد رفض لطيف ومهذب.. أصبح كعلقة معلقة خلف ظهري.

-يالهي ترنيم.. مالذي فعلتيه؟
-لا شيء.
هتفت ببراءة ..قبل أن تحشو فمها بالسباجيتي ليقاطعها رنين هاتف مستمر.. فغمزت بعينها لها لتنهض كمالة زافرة بغضب وتسارع لالتقاط الهاتف تلقي التحية بالإيطالية قبل أن تصمت نهائياً وهي تنظر لترنيم بعينين متسعتين ووجه مصدوم لتزفر ترنيم بضيق وهي تعرف هوية المتحدث تماماً..
"والدها.. مختار الراجي"
غزاها البرود واستمرت بتناول طعامها، بينما تسمع همهمات متقطعة من عمتها وتعرف جيداً انها تنال التقريع، ولكن كمالة لا تستحق أبداً أن تنال التقريع والاتهامات التي يجب أن تكون موجهة لها هي.
لذا نهضت ملقية شوكتها بحدة وانتزعت السماعة الذهبية من يد كمالة التي شهقت بالمفاجأة وترنيم تهتف بصلابة:
-مرحباً سيد مختار..

جاوبها الصمت للحظة قبل أن تسمع صوت ابيها يرد ببرود:
-ترنيم.. كيف حالك؟
-بخير.. طالما تبتعد عن طريقي.
همست بقسوة وشعرت بيد كمالة تجذب ذراعها بتحذير لتواصل للصمت من الجانب الأخر:
-أخبرتك أن تبتعد عني سيد مختار.. قلت لك بأنني لا أحتاج لحمايتك بعد، لا احتاج لوصايتك ولأولئك المسوخ الذين ترسلهم خلفي.
-انت لا تسمعين نفسك..
هدر بقسوة لتغيم عينيها بنفس الدرجة وهو يواصل:
-أنت يجب أن تعودي في الحال ترنيم، يجب أن ترجعي الى عائلتك وتكفي عن افعالك الصبيانية والطائشة هذه. يالهي مالذي حدث لك؟
-أنت ما حدث لي سيد مختار.. أنت وتحكمك السافر بي وعدم سماعك لشيء مما اقوله، لا شيء سيد مختار.. لا شيء تقوله أو تفعله الان سيغير من هذه الحقيقة.

كانت لهجتها غاضبة باردة لم تهتز فيها شعرة واحدة وهي تواصل مستغلة صمته المطبق:

-ابتعد عني.. اتركني بحالي لا تتدخل بأموري وما أفعله بحياتي، انا لن أعود الى منزلك ابداً، مهما حدث أتفهم؟!

-والدتك.. انها تشتاق اليك.

صمتت وقد اجتاحتها الغصة.. أمها.. نقطة ضعفها الوحيدة..

-انها تحتاجك ترنيم.. خالد سيتزوج بعد اسابيع قليلة، وهو يتوقع حضورك؟!

اغمضت عينيها.. أمها وشقيقها خالد.. هما فقط من تحن اليهما..

تعرف ان خالد سيتزوج بل هي قد رأت صورة زوجته الجميلة.. فتاة رائعة ومن عائلة تماثل ثراء عائلتها.. ولكن ماذا عن أخيها.. هل نسي حبه لابنة آل العزب؟؟

أم أنه كباقي افراد عائلتها.. سيحني رأسه لمختار الراجي؟!

-انا أتواصل مع أمي بطريقتي الخاصة.. لا داعي لتدخلك، وأخي خالد يعرف جيداً كيف يجدني وان أراد أن يدعوني فسألبي دعوته بكل سرور.
-اذا هو أنا من تهربين منه.
قالها بحذر لتبتسم بسخرية وتهمس بحرقة:
-أنا لا أهرب.. أنا أنفذ بجلدي.. قبل ان تجرفني وتدفنني تحت أنقاض حياتي نفسها سيد مختار، قبل أن تسحقني وتعيد تشكيل حياتي كما تريد وترغب.
وعاد صوتها يشتعل وهي تصرخ:
-كما سمعتني.. ابعد مخالبك عني يا سيد مختار دعني اعيش حياتي.. والا فسوف أكرهك الى الأبد.
وقبل أن تسمع رده كانت تغلق الخط بدوي ثم تسرع الى الطاولة تجلس على الطاولة رافعة قدميها اليها ممسكة بشوكتها ومعاودة الاكل ببرود تحت انظار كمالة التي سارعت اليها:
-يالهي كيف تحادثين والدك بهذه الطريقة الفظة ترنيم.

-انه يعرف افضل من التعرض لي من جديد كمالة.. انا لا اريد تدخله.
-انت لا تستطيعين الابتعاد عنه او التخلي عن حياتك ووالدتك.
-انا لن أتخلى عن احد، أنا فقط سأعيش حياتي ووالدتي باستطاعتها العيش بدوني.
-ولكن هل تقدرين انتِ؟
-سأنجو مثلما نجوتِ أنتِ.
قالتها بخواء لتهز كمالة رأسها هاتفة بشحوب:
-أنا لست أنت.. دوافعي ليست دوافعك.. أنت مختلفة عني وأنا...
-أنت تحديتهم كلهم.. أنت نجوتي بنفسك.
هتفت ترنيم وهي تقف بفوضى رامية بقية طعامها خلفها لتصرخ كمالة بها:
-أنا ذهبت خلف الرجل الذي أحب..
اتسعت عينا ترنيم لارتفاع صوت كمالة المفاجئ والاولى تواصل:
-أنت فعلتي العكس.. لقد هربتِ منه وكل من تحبين.. عائلتك واصدقاءك.. أنت تركتي حياتك كلها خلفك.

-لم تكن حياتي عمتي.. كانت حياة ابي..
صاحت بألم.. وبدأت الدموع تلسع عينيها فأشاحت بوجهها وأنفاسها تتسارع بشدة وشعرت بكماله تقترب منها هامسة:
-كانت حياة جيدة ترنيم.. كنت ستصبحين طبيبة ناجحة وخطيبك كان رجلاً رائعاً.
امتلئ وجهها بالمرارة وهمست:
-لم اكن أستحق تلك الحياة.. حياتي كانت ستكون مجرد زنزانة اعيش بها وحدي أدفع بها ثمن جريمتي حتى يرتاح ضميري.
-يا للهول ترنيم.. لقد كان مجرد حادث..
هتفت عمتها بشحوب لتحدقها ترنيم بنظرة حارقة قبل ان تهمس ببرود:
-لقد حجزت لرحلتي القادمة وستنطلق بعد غد، اذا لم تكوني تريدين بقائي معكي فسيسعدني ايجاد مكان أخر.
-ترنيم..
هتفت بحدة ولكنها لم تسمع.. لقد أغلقت عقلها وقلبها تجاه أدنى محاولة مكررة وبائسة منهم جميعاً لا لن تستمع، لقد انتهت من الانصات،

انتهت من تقبل التفسيرات لجريمة ارتكبتها بحماقة وطيش..
لقد أجرمت.. وفلتت من العقاب.. ولكنها لن تسامح نفسها.. ولن تسامح من يحاول اقناعها بالعكس.
***
كان النهار صحراوياً كالعادة والحرارة لا تطاق وقد تجاوزت ال38 درجة مئوية مع رطوبة خانقة، ووسط مرآب ضخم للسيارات كانت تقف وحدها **شيفروليه كوفرت زد6 2015** بلون أحمر قاني قريب لدم الغزال، بسقف متحرك وحضور طاغٍ..
-رائعة..
-مثيرة..
تصاعدت صيحات الاستحسان من جمع يحيط بها بنظرات ثاقبة ومعجبة بينما تعود بعضها للالتقاء بشاب طويل القامة مفتول العضلات نحيل، بوجه داكن وعينين ضيقتين ينظر للسيارة بإعجاب صامت ورفيق قريب منه يسأله:
-هل جربتها بعد؟

تلاعبت ابتسامة على شفتيه وهمس:
-لا.. ليس هذه بالذات.
-وماذا تنتظر؟
اشتعلت نظرة لاهبة في عينيه وبحركة سريعة خلع جاكيته ورماه لرفيقه ثم فتح أزرار كميه، ورفعهما حتى مرفقيه قبل أن يسرع الى السيارة الهامدة ويلامس جلدها المدبوغ متنشقاً رائحتها المميزة لكل السيارات الجديدة اغلق حوله حزام الأمان وقبل أن يشعل محركها بضغطة زر أخرج هاتفه وألتقط صورة سريعة للوحة القيادة الفاخرة والمقعد المجاور له وأرسلها لرقم محدد كاتباً تحتها
"مقعدك بانتظارك صوانتي"
وابتسم بخواء.. ثم أشعل محركها لتهدر بقوة 650 حصان قبل ان تبدأ حركتها وتنطلق كسهم صاروخي بتسارع مذهل جعله يطلق ضحكة عالية وهو يتراجع قليلاً في مقعده بفعل السرعة الهائلة التي بدأ بها، وقدمه بالكاد تلامس مبدل الوقود، كانت سيارة سريعة وقوية.. جداً. وهذا ما يعشقه تماماً..

انطلق بها بسلاسة في الطريق المخصص لتجربة المركبات في مدينة ابوظبي للسباقات.. متلاشياً في سرعتها وغارقاً في نشوته الخاصة منذ أن جربها مرة قبل شهرين فقط في لندن كان حلمه اقتناء واحدة وقد حققه،، كباقي أحلامه التي لا يتنازل ابداً حتى يحققها.. مهما كان الثمن، ورغم ما كلفته السيارة من مبلغ هائل تجاوز ال80.000 دولار الا انه سعيد للغاية..

كان يناور بالسيارة في الطريق الطويل الممتد وكأنه بلانهاية، عيناه تغيمان في المشهد أمامه بينما يديه تتحركان على لوحة القيادة ومبدل السرعة بخفة وخبرة اكتسبها من سنواته السابقة كعضو في فريق سباق السيارات العالمي، لطالما كانت السرعة حياته كلها هي وصوان.. فسرعته تتمحور حولها.. ولها.

أخذ نفساً عميقاً وهو ينهي دورته السريعة عائداً الى المرآب حيث قام بدورة واسعة قبل أن يتوقف بالسيارة بطريقة مسرحية تاركاً الاطارات تطلق صريراً عنيفاً جلب تصفيقاً عالياً من المجموعة

حوله قبل ان تتوقف تماماً ويربت على مقودها ويقبله باستحسان هاتفاً بنشوة:
-لقد كنت رائعة يا عزيزتي..
وقفز منها متلقياً التهنئة من رفاقه واحدهم يقول:
-انها رائعة جس.. اراهن أنك ستسابق بها..
ضاقت عينا الجساس وهمس:
-لا سباقات بعد اليوم يا رجل..
وأضاف لنفسه " لقد وعدت"
غام صوته بالوعد الذي قطعه قبل سنوات.. وكأنه أمس..
"عدنـــي"
صوتها الحبيب الصارم.. يخفي شهقات من بكاء وشت به عينيها وهي تواجهه بثبات..
"تزوجيــني"
رد بصعوبة لتتسع عيني الصوان وتبدأ اشتعالها البطيء كالجمر..
"عدني ألا تقود للسباق مجدداً"
"تزوجيني ولن افعل"
همس بألم.. صوته متقطع.. الرؤية بالكاد تثبت أمامه رأسه يدور ويلف.. انه يغيب مجدداً..

"رباااه صوانة عديني أن تكوني لي"
شعر بطعم الدم على شفتيه بينما تهتف هي باكية
"عدني فقط.. جساس عدني"
"أعدك"
همس بخفوت.. وغاب..
وعدهـا.. ولم تعده بشيء..؟؟!
لا يتحمل دموعها.. لا يتحمل دموعها ابداً.
...
خرج من ذكراها بدفع قوية من رفيقه الى كتفه وهو يصرخ بعفوية:
-ستأخذني للغداء بهذه الجميلة جساس.. هيا..
كان بالفعل يتحرك ليتخذ المقعد جوار السائق الا أن جساس أمسكه بقوة وعنف وحين نظر لعينيه قال بصوت مخيف:
-هذا المقعد محجوز يا صديقي..
اتسعت عينا الرجل بدهشة بينما يواصل جساس:
-اتبعني بسيارتك ان اردت.
وضع الرجل قبضتيه المضمومتين على خصره وهتف بحنق:

-اووه هذا ناضج للغاية منك جساس.. لا تريد لأحد أن يلمس لعبتك الجديدة؟!

رمقه بخفة قبل أن يعود ليجلس خلف مقود سيارته ويديرها بسرعة وهو يهمس لنفسه:

-لن يركب احد جواري سواك صوانة.. انه مقعدك حبيبتي.

مقعدها الذي طال اشتياقه لها.. مكانها الذي افتقدها وبات لا يرجوا سواها، انها حبيبته الغائبة.. عشقه الوحيد والذي لن يتنازل عنه لأحد ولو كلفه عمره كله.

***

انهمرت الامطار مغرقة الطرقات، الرئيسية والفرعية بشكل بالغ معرضة سير السيارات لخطر الانزلاق بعيداً عن مساراتها. ورغم الساعة التي تشير الى العاشرة صباحاً كانت سماء نيويورك الغاضبة تعلن وبكل وقاحة انها لا تعير مولد الربيع أدنى اعتبار وانها غاضبة وبشكل فظيع..

وكذلك كان هو..

-أسرع قليلاً..

هتف لسائق سيارة الأجرة الذي رمقه ببرود عبر المرآة الداخلية ولم يرد فالتزم أوس الشيب الصمت بأعصاب متفجرة.. لقد تأخر، هو لا يتأخر.. أبداً.

الصداع يجتاح رأسه، يكاد يحطم أعصابه.. أخرج هاتفه ونقر شاشته المسطحة بخفة ليظهر له جدول رحلات تعلق اسمه على قمتها.. نيويورك-روما-موسكو-روما-نيويورك..

رباااه.. يالها من رحلة، فكر بغيظ وهو يعيد هاتفه الى جيبه الخلفي ليغرق رأسه بين كفيه ويميل برأسه للخلف، يحتاج لكمية كبيرة من الكافيين والسكر.. لا شيء سيعدل من مزاجه سوى الحلاوة والكثير من القهوة.

بعد عشر دقائق كاملة كان يدخل المطار بخطوات سريعة متعجلة، لأخذ جدول رحلته وتسجيل حضوره لمكتب شركة الطيران التي يعمل بها.. استخدم المصعد الخاص وسرعان ما كان يقف امام سكرتيرة المكتب السمراء التي نظرت اليه بحاجبين مرفوعتين، ليرفع يديه معفياً

اياها من القاء المزيد من اللوم او حتى ابداء الرأي، هاتفاً بعصبية:

-هي بانتظاري؟

-بالتأكيد..

همست الفتاة محاولة اخفاء ابتسامتها ولكنها لم تفلح فكشر أوس باستياء واندفع نحو باب أخر عريض وطرقه بخفة قبل ان يستجيب لأمر رقيق بالدخول ووقف امامه فارداً ذراعه اعلاه هاتفاً:

-صباح الخير مارجريت.

رفعت المرأة حمراء الشعر رأسها اليه وزمت شفتيها نحوه بعدائية قائلة ببرود:

-أنت متأخر.

-ليس كثيراً.

همس بغمزة محاولاً ترطيب الاجواء مغلقاً الباب خلفه ومتخذاً مقعده امامها بأريحية..

-هل قمت بالفحوص الدورية؟

-نعم سيدتي وكالعادة سيتم ارسال التقرير اليك عبر البريد الاليكتروني لتقدميه لاتحاد الطيران.

-جيد.

واضافت مضيقة عينيها:

-والان اذهب لقد تأخرت عن رحلتك أوس.
-ألن تودعيني؟
قالها مشاكساً.. لترتسم على شفتيها الرفيعتين ابتسامة قاسية بعض الشيء:
-أنا لست أحدى معجباتك العديدات كابتن.. أنا تجاوزت مرحلة الانبهار بالذئب الشقي منذ زمن، والأن ارحل.
-حقودة..
مط شفتيه بانزعاج قبل ان يلوح لها مغادراً لتشتد عينيها قسوة محاولة السيطرة على انفاسها وهي تستدير في مقعدها وعينيها تحدقان بخاتم زواج ذهبي يحيط بأصبعها الايسر..
أوس الشيب.. خرج ملوحاً لسكرتيرة مارجريت بخفة.. مغادراً المكتب بخطوات سريعة، متجاهلاً نظراتها الهائمة الملاحقة لطوله الفارع وجسده الممشوق، ببدلة الطيران السوداء ذات الحواف الذهبية والزرقاء.
وقبعته التي حملها تحت ذراعه وبيده الاخرى تدلت حقيبته الصغيرة.

كان يقطع الأرضية المصقولة باتجاه بوابة الخروج الخاصة به بخطوات واسعة متجاهلاً نظرات الجميع من رجال ونساء نحوه، يدير الرؤوس مرة ومرتين، لحركته الواثقة وسامته الملحوظة وشعره الداكن الذي ارتفع كاشفاً عن جبين عريضة وحاجبين كثين فوق عينين رماديتين واسعتين، انف روماني خالي من العيوب، وشفتين غليظتين شهوانيتين، ذقن عريضة بارزة وابتسامة ساخرة مثيرة.

وجد طاقمه يتكاسل امام بوابة الخروج فعقد حاجبيه واقترب محيياً مساعده الأول الافريقي جاوس، ومهندس الملاحة البرازيلي ريناتو، ثم التفت الى طاقم المضيفات المصاحب له وبابتسامة عريضة لم يقدر على كبتها صاح:

-صباح الخير يا جميلات..

سمع التنهدات المرافقة للتحية تتصاعد منهن قبل ان تقترب منه احداهن بابتسامة شقية تداعب شفتيها هامسة بنبرة خاصة:

-صباح الخير كابتن.. كيف كانت ليلتك؟

نظر لها أوس وقد تبخر جزء كبير من صداعه حالما وقعت عيناه عليها.. لا شيء يساعد في تنقية الصداع أكثر من امرأة جميلة.. دافئة ومرحبة..

-مثمرة للغاية.. شكراً لك.

اتسعت ابتسامتها وهمست لأذنه فقط:

-اسفة لأني لم أستطع البقاء معك للصباح.. تعرف قوانين الشركة كابتن.

نظر لها بحرارة وهمس:

-لم تمنعك تلك القوانين من ازعاجي والتسبب بتأخري بينو؟

هزت البرازيلية السمراء رأسها وهمست:

-ازعاج ربما.. ولكن تأخير.. لا كابتن.. أنت من تسببت بهذا لنفسك..

رفع حاجبيه باندهاش قبل ان يضع حقيبته مع باقي حقائب الطاقم ليتم شحنها هامساً بجفاء:

-ربما للمرة الأخيرة..

-نحن متأخرين الأن ولكنني سأعوض عليك حين نصل لروما..

همست متلاعبة بحاجبيها لتسرق منه ابتسامة متجهمة وهما يتوجهان للحاق بباقي الطاقم نحو البوينج الضخمة الرابضة على المدرج، تجاوز صداعه وهو يتفقد الطائرة برفقة ضابطه الاول ومهندس ملاحته كالعادة يرافقه طاقم المضيفات بحركات محددة وسريعة قبل صعود المسافرين على متنها.. ثم اتجه مع مساعده الاول الى قمرة القيادة، حيث جلس لليسار بينما احتل مساعده الكرسي الى يمينه ولحقت به بينو تميل عليه مستندة على كتفه، هامسة:

-ستشكرني على هذه كابتن.

نظر لها متفاجئاً ليرى كوب ضخم من القهوة فاغلق عينيه براحة وهو يأخذها هامساً:

-أنت ملاك يا بينو.. شكراً لك.

ابتسمت بجذل وابتعدت بخفة لتقوم بواجباتها بينما تراجع أوس في مقعده وهو يشرب قهوته الحارة باستمتاع وكأن حياته تعتمد عليها. كما يحبها بالضبط.. مركزة وحلوة.

قد يستغني عن الطعام ولكن القهوة.. أبداً.

بعد ما يقارب النصف ساعة كانت الطائرة ممتلئة بالمسافرين وجاهزة للإقلاع.. وسرعان ما فعلت..

أوس البالغ من العمر 33 عاماً ارتفع بالطائرة الضخمة بسلاسة بالغة وهو ينصت بانتباه لتعليمات برج المراقبة قبل أن يؤكد عليها مع مساعده وضابط الملاحة ..ليأخذ الطائرة لارتفاع شاهق خلال اقل من خمسة عشر دقيقة وتبدأ مسيرتها نحو وجهتها المحددة.. حينها فقط استرخى في مقعده وبدأ بتحديد مسار الطائرة لاستخدام الطيار الالي. ثم تراجع في مقعده واغلق عينيه هامساً لجاوس:

-تولى أنت الأمور عني لبضع دقائق. الوقت المتوقع للوصول بعد تسع ساعات وسبع دقائق مع استمرار حالة الجو.

نظر له مساعده بطرافة:

-هل تود الذهاب لقمرة الراحة كابتن؟

كشر أوس وتمتم:

-ليس الأن يا ظريف، لايزال الوقت مبكراً.

سمع قهقهة خافتة من الضابط خلفه ليزمجر بعدم رضا ثم يتجاهلهما معاً ويغرق في هدوء عميق يحيطه بشكل تام.

كان أوس الابن الوحيد لنضال الشيب الابن الاصغر للشيب الاكبر.. والذي تزوج ابنة عمه الصغيرة وأنجب منها ابنه الوحيد أوس، لتتوفى مباشرة بعدها تاركة زوجها وطفلها الرضيع في رعاية عمه الأكبر حسن وزوجته الجميلة التي كانت عروس لتوها.. كان مجرد ذئب وحيد وسط قطيع كامل من ابناء عمومته واللذين كانت الامارات محل اقامتهم الدائم.. زوجة عمه أرضعته واعتبرته ابنها الذي لم تنجبه.. حتى بعد ارتزاقها بابنتها الوحيدة.. وبعد عشر سنوات تزوج والده من امرأة تركية هي أرملة شابة لتاجر تركي من عائلة الباشا العريقة.. كان شريكه في الاعمال، ليحصل منها على طفلة وحيدة هي شقيقته سارة والتي تزوجت قبل ما يقارب الشهر من احد أبناء عائلة الباشا نفسها.. مجموعة من اولاد العموم الذين تربوا معاً قبل ان

تفرقهم سبلهم، وكل يشق طريقه في الدراسة والاعمال.
عائلة كبيرة متشعبة ومعظم افرادها يعيشون حياتهم في طرق مختلفة وغير متشابهة، عائلة ليست بالعائلة، زواج شقيقته سارة كانت المناسبة الوحيدة منذ زمن والتي اجتمعت فيها العائلة بتلك الطريقة..
كان الوصول الى روما متعباً وبسبب الاجواء الماطرة تأخر الهبوط لأكثر من عشرون دقيقة وبعدها كان عليه التعامل مع فرق التوقيت.. حيث أنه غادر نيويورك في العاشرة وسبعة عشر دقيقة صباحاً ليصل روما الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، رباااه لن يعتاد ابداً على الفرق في التوقيت..
وصل الى مقهى المطار وتهالك على احدى المقاعد هامساً لبينو:
-انا مرهق حتى العظم لا اعرف ما دهاني.. وفرق التوقيت هذا مزعج.
-عليك ان تعتاد عليه كابتن انت تسافر على الدوام.

-لم أفلح قط في الاعتياد عليه بينو.. حمدا لله على سوء الاحوال الجوية والذي يعطينا فرصة للراحة.

-من الجيد حصولنا على طاولة فالمكان مزدحم.

همست بإرهاق ووافقها بهزة من رأسه وهو ينهض:

-سأحضر لنا وجبة خفيفة وبعض القهوة. أتريدين شيئاً أخر؟

-عصير تفاح مثلج بدل القهوة.

اومأ لها بتفهم بينما يشق طريقه الى اكشاك المطاعم المختلفة، كان قد خلع سترته السوداء وبقي بالقميص الابيض وربطة العنق شبه محلولة، شعره تناثر على جبينه بفوضوية. مثال للرجولة الكاملة كما ظنت كل امرأة التفتت اليه وقتها.

عاد بعد دقائق يحمل وجبتي طعام وكوب قهوة مضاعف وزجاجة شراب التفاح لبينو ليجلس جوارها في الطاولة هامساً:

-سلطة سيزار لك وشطيرة باللحم لي.

-شكراً كابتن.

ردت بابتسامة جذابة وافتتان واضح وهي تميل بوجهها نحوه، هامسة:

-أنت رجل رائع أوس، أروع رجل قابلته.

ارتفعت زاوية فمه وتجاهل مجاملتها متعمداً، لتبتلع باقي عبارتها وتنزل عينيها لطبقها محاولة السيطرة على ضيقها.. هي تعرف من يكون الكابتن أوس جيداً، تعرف أنه أكبر زير نساء في السماء قبل الأرض، غروره واعتداده بنفسه بالإضافة لغموض نشأته عن الجميع وثراء عائلته، ومما سمعته عن كونها كانت ملكيــة أو شيء من هذا القبيل، في يوم ما. رغم كونه عربي الا أن تصرفاته لا تشي قط بأصوله الشرقية تلك.

أما أوس فهو يعرفها جيداً لقد كانت ضمن الطاقم الاخير الذي انضم اليه منذ شهر، فنزويلية فاتنة ذات شعر اسود، طويل كالليل، تضمه في عقدة أنيقة خلف عنقها، سمراء كالبندق وجسد مثير كالشجرة المحرمة وكانت تعشقه.

منذ التقيا تركض خلفه وتتحين كل فرصة للانفراد به.. حتى أنهى انتظارها قبل اسبوع

وتعلقت هي به كالعلقة، ولن تمضي أيام قصيرة أخرى حتى يملها كما اعتاد مع كل النساء اللاتي عرفهن من قبل، ورغم كل الحرمان الذي عاناه في حياته كان الحرمان من النساء أخرها.

-كيف هي القهوة؟!

همست متسائلة لتقطع أفكاره ويرفع عينيه عن شطيرة اللحم لتنجرفا بخفة لما خلفها..!!

توسعت عيناه أكثر وانعقد حاجباه وهو يمعن النظر في المشهد المثير أمامه.. قـــزمة..

قزمة بملابس متزمتة وحجاب صارم ومذكرات جلدية ضخمة تضمها الى صدرها بانفعال، حقيبة رثة تتدلى من كتفها، ملامح وجه ملائكي ضئيل وعينين لوزيتين حائرتين وشفتين مثيرتين متجهمتين..

يعرف هذه القزمة لقد التقاها من قبل.. ليس مرة بل اثنتين.

نهض بسرعة ونفض يديه من بقايا الخبز قبل أن يلتقط منديلاً ويمسح شفتيه بخفة، ليتوجه نحوها متجاهلاً تساؤل بينو المتفاجئ ليواجه الفتاة

الضئيلة بابتسامة واسعة مقابل عينيها المستهجنتين.

-لقد التقيـــــنا من جديد..

"اوه لا.. لا لا لا"

"من بين كل الناس.. من بين كل الناس لا تلتقي سوى بهذا المهرج؟"

فكرت ترنيم باستهجان وهي تتراجع تلقائياً حينما انبثق قبالها كمهرج العلبة فجأة ودون انذار.

-هل ستظلين صامتة لوقت طويل؟

-ماذا تريد؟

تساءلت بخشونة ليضحك باستمتاع ويجيب:

-أنا فقط القي التحية.. وكما يبدو أنت عالقة مثلنا وتبحثين عن طاولة.

رفعت عينين باردتين نحوه دون ان تجيب ليأخذ نفساً عميقاً ويحاول مرة اخرى بابتسامة قصيرة دون حتى أن يفهم لماذا يحاول:

-أعتقد أنك تريدين الجلوس فلم لا تشاركينا؟

كان يشير بيده نحو الطاولة الثنائية التي جمعته ببينو.. لتلقي هي نظرة قصيرة على المرأة التي تشاركه، مستقيمة الظهر بزي أحمر دموي وقبعة

صغيرة تشير لكونها ضمن طاقم مضيفات ما.
وكانت تناظرهما بحنق ظهر واضحاً في ملامح وجهها الرقيق.
-طاولتك ليست شاغرة.
همهمت بصوت مكتوم وهي تفكر بوضعها الغريب، لقد تأجلت رحلتها من روما الى المغرب بسبب الطقس السيء، ويبدو أنه بالمثل.
-سأفسح لك مكاناً أنستي.
قال بابتسامة واسعة ثم اضاف هامساً لعينيها المتشككتين:
-أنت قريبة للعائلة على كل حال.
يبدو أنه يتذكر وجودها اللا مرئي في زفاف شقيقته:
-أنا لست قريبة لك، معرفتي الشخصية بسلمى العزب لا تعني أنني من العائلة.
ردت بحدة وكادت تتهور لتذكره أن الاقطاب المتنافرة التي كانت على طاولتها بالكاد تسمى عائلة.
ولكنه قهقه بصوت خافت بطريقة جعلتها ترقبه بغرابة شيء ما عجيب بتلك الضحكة:

-ومع ذلك.. أخلاقي الجيدة تمنعني من مشاهدتك تنتظرين ربما لساعات.. تفضلي أنسة..(وتوقف للحظات وكأنه يتذكر قبل ان تصبح ابتسامته عريضة تكاد تشق وجهه نصفين وهو يميل برأسه لجهة واحدة ويقول بنعومة شديدة) "ترنيـــمة"

شهقت متراجعة بعنف لوقع اسمها منه.. ذلك اللمعان الصافي من السماء الرمادية التي تظللها، والابتسامة التي تشبه تكشيرة وحش بأسنان لامعة ومرتبة، ثم رد فعلها الخاص جداً على نبرة صوته الخشنة الممتزجة بشيء أعمق بكثير مما تستطيع الغوص به..

-ترنيم..

همست بشحوب محاولة السيطرة على ارتجاف لا تدرك سببها ليغمز لها بعينه بوقاحة مشيراً للطاولة:

-تفضلي بالجلوس معنا أنسة ترنيم.

ابتلعت ريقها ووازنت الامر في رأسها وهي تلقي نظرة اخرى على الطاولات المزدحمة وتنهد بحنق قبل أن تقرر انها يجب ان تجلس لقد

غادرت شقة كمالة في العاشرة ليلاً حتى تلحق بالطائرة والتي لم تنطلق ابداً في موعدها، وها هي حتى الان وقد قاربت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولاتزال بالانتظار.

توجهت نحو الطاولة بوجه متجهم تحاول استباقه ولكنه لحق بها بخفة وازاح لها الكرسي لتجلس مواجهة لبينو المتجهمة:

-بينو أقدم لك الانسة ترنيم انها قريبة للعائلة.

سمعته يقول بإنجليزيه ذات لكنة أمريكية واضحة لتهز الفتاة السمراء رأسها لترنيم والتي بادلتها التحية ببرود لا تعرف من أين اتى. ثم نظرت للمهرج.. ما اسمه؟؟ اه أوس..

كان يسألها بلهجة خفيفة:

-هل تريدين شيئاً للأكل؟ أاحضر لك شراباً ما؟

-لا شكراً لك.

همست باقتضاب وهي تتراجع في مقعدها عن وجهه المنحني اليها.. لاتزال تضم مذكراتها وحقيبتها القديمة.

-بإمكانك الاسترخاء لايزال الوقت طويلاً قبل استئناف الرحلات.

قال بابتسامة لتعقد حاجبيها بتوتر وتنظر لأصابعها المتشابكة فوق جلد مذكراتها المدبوغ، بصمت لا يمت للاسترخاء بصلة، لا تستطيع الاسترخاء، رمقته من تحت صف رموشها الكثيفة وضاقت عينيها بحنق.. كان يقف أمامها بطوله الفارع جداً وقد وضع كفيه في جيبي بنطاله وعلى وجهه ابتسامته المثيرة للاشمئزاز.. رباااه..

زمت شفتيها بحنق وخفضت عينيها بينما يسألها بلهجة عادية:

-أخبريني أين تسافرين؟

هل ينفع تجاهله؟ فكرت بتوتر وهي تحرك عينيها يمنى ويساراً او باتجاه المرأة أمامها ولكنه لا يترك لها المجال بل يميل نحوها مستنداً بكفيه العريضين على الطاولة أمامها قائلاً بصوت عالٍ نسبياً:

-هل تستطيعين سماعيا جيداً؟

-أنا لست صمـــاء.

هتفت بغيظ تنظر في عينيه الضاحكتين للحظة وترى تحول نظراته الرمادية العابثة الى سوداء

عاصفة مليئة بالظلال، قبل أن تشتعل ببطء وهو يطيل النظر اليها والى شفتيها المنفرجتين بأنفاس متلاحقة سريعة وعصبية:

-أستطيع سماعك جيداً.

أضافت بحنق ليسأل بخفوت:

-لم لَمْ تجيبي اذاً؟

-لا اريدك ان تعرف.

هتفت بوقاحة جعلته يجفل قبل ان يستقيم بوقفته مقهقهاً بانفعال:

-هذا يضعني في مكاني بالفعل؟

لم تجبه بل تسمرت تنظر له باستغراب، لم تعرف في حياتها رجلا مثله.. مندفع لا يخجل، لا يضع حدوداً وبرأيها لا يحترم أحداً. تغضن وجهها بعدم رضا وانكمشت مكانها دون أن ترد ليتجعد بين حاجبيه وهو ينظر اليها ويطيل النظر.. فضول ينتابه لمعرفتها أكثر ولا يعرف السبب؟

-كابتن..

سمع نفاذ الصبر من بينو التي نظرت نحو بعينين حارقتين.. منذ متى تناديه وهو غير منتبه؟! رفع حاجباً بتساؤل لتهمس بضيق:

-أكمل طعامك قد ينادوننا بأي وقت.

"يااللاهتمام؟"

فكرت ترنيم بسخرية.. ولم تنظر اليه، بل ابقت عينيها على الطاولة حيث امتدت أصابعه الطويلة لالتقاط القهوة وتسمرت عينيها للحظة على خاتم فضي، ضخم في خنصره الأيمن.. عليه نقش ما، لم تعرفه لسرعة سحبه ليده.

-سأكتفي بالقهوة لقد شبعت.

كانت هناك حدة في صوته، جعلتها ترشقه بنظرة من تحت رموشها، لقد أعطاها مقعده وبقي واقفاً، يجب ان يحسب له هذا، همس لها صوت في داخلها.. صوت خجول كتمته بتسلط وهي ترفع له حاجباً وترمقه بوضوح لتكتشف أن نظرته الرمادية مسلطة عليها دون أن تحيد.. صدمت للحظة ولكنها لم تهرب من عينيه، سرعان ما تحولت نظرة المفاجئة الى نظرة تحدٍ لم تعرف من أين أتت. ولكنها لم تتوقف لتفكر بل زمت شفتيها وبادلته تحديه لتراه يرفع حاجبه بتساؤل متسلٍ يظهر في عينيه وقبل ان تعي كان يزم شفتيه بمرآة لفعلها.. بشكل مضحك جعلها تحدق

به بذهول قبل أن يغمز بعينه ضاحكاً لتشيح بوجه محترق..

"وغد"

كانت تريد النهوض بحثت بعينيها عن طريقة تريد أن تتخلص من وجوده المغيظ حولها ولكن..

تصاعد أزيز متقطع ورأته يرفع هاتف لوحي بتقطيب قبل ان يقول:

-طائرتنا جاهزة بينة.. علينا الرحيل.

نهضت المرأة بتنهيدة ارتياح، ورفعت ترنيم عينيها اليها بابتسامة باردة، لتومئ لها بتحية قبل أن تستدير على عقبيها بينما شعرت ترنيم بأوس خلفها مباشرة وانتفضت حين وضع كفيه على ظهر مقعدها ثم مال يهمس في أذنها:

-سنلتقي مجدداً..

لم تكن أمنية كان قراراً..!!

استقامت بظهرها وأمالت وجهها نحوه.. كان قريباً لترى لمعان عينيه الرماديتين وشعيرات ذقنه غير الحليقة بوضوح ولتصلها رائحة أنفاسه الممتزجة برائحة القهوة..

-لا أظن ذلك.. أنا لا أومن بالصدف.

ضحك بعمق وهدوء لترتجف للحظة وهو يهز رأسه:
-انها المرة الثالثة يا صغيرتي.. بالكاد أسميها صدفة، ثم أن سنوات طويلة من الخبرة علمتني أن السماء صغيرة جداً.
أشاحت بوجهها متصلباً متباعداً ورفض عارم يتصاعد من داخلها:
-طرقنا مختلفة.
شعرت به يقترب ليجاور أذنها ويقول برصانة:
-كل الطرق في السماء متشابهة، قد يتغير مكان سحابة أو اثنتين ولكن.. الباقي يظل كما هو.
أخذت نفساً متسارعاً وصوته يخفت مع أخر جملة يتفوه بها.. ثم همس:
-هلا نهضتي قليلاً لآخذ جاكيتي؟
جفلت قبل أن تسرع بالنهوض وهي تلاحظ للمرة الاولى جاكيته الاسود المعلق على ظهر الكرسي دون أن تشعر به، وراقبته يرتديه بخفة ويتقدم نحوها هازاً رأسه بامتنان:
-شكراً لتدفئتك اياه ترنيمة.

عقدت حاجبيها لنظراته المتسلية وتراجعت عاقدة ذراعيها حولها بحماية، لتتسع ابتسامته تكاد تشق حلقه قبل أن يلتقط قبعته وبكفه الأيسر يدفع بخصلات شعره المتدلية على جبينه للخلف بينما ينزل قبعته باليمنى بخفة وبسبابته اليسرى يلامس طرفها المرتفع قبل أن يغمز لها بعينيه الاثنتين بحركة مضحكة تركتها تنظر له بذهول جعل شفتها السفلى تتدلى قبل أن يستدير على عقبيه ويلحق بفتاته السمراء..

مستحيل.. ياله من مزعج عديم الحياء وغير مسؤول على الاطلاق..

كان الغضب يعصف هادراً في رأسها دوامة من الغيظ والحنق تلف بها وتلف حتى بالكاد سمعت النداء المتكرر لرحلتها الى الرباط.. التقطت حقيبتها ومذكراتها وأسرعت الى البوابة التي تقودها الى طائرتها محاولة نسيان ذلك الوغد بالبدلة الرسمية والى الابد.

***

نهاية الفصل الأول

عبير محمد قائد

الفصل الثاني

***

مرحباً بمساءات استسغناها برائحة الياسمين المعطر..

تركناها تغتسل بنكهة القهوة الحارة..

ليلٌ امتزجت روائحه بقرنفل ابيض وأحمر..

نجمة باهرة تحت شلال من ضوء القمر..

عويل ذئبٍ وحيد ونغمٌ حزين غريق..

وجمرة تشتعل ببطء لتحرق قلب أسدها الجسور..

***

عبير ♥ قائد

دبـــي..

ملئت رائحة البخور والعود ارجاء الفيلا الصغيرة، وانتشر الدفء المنبعث من المبخرة الطينية الضخمة التي كانت موضوعة على طاولة وسط الصالة الواسعة بالمفارش العربية الأنيقة بينما علا صوت قارئ شهير لسورة الكهف في حين تعالت اصوات القراءة نفسها من

مسجد قريب معلنة وبكل وضوح أن هذا اليوم هو يوم الجمعة.
الحرارة الشديدة خارج المنزل تناقض بشكل كبير البرودة المنعشة بداخله والتي استقبلتها، حالما خرجت من حمامها، ابتسمت بانتعاش وتنشقت عبق رائحة البخور الذي تسلل اليها من الطابق السفلي، شدت حزام روبها ومضت الى كرسي التسريحة جلست وابعدت المنشفة عن رأسها وبقيت تنظر الى نفسها في المرآة للحظات..
خصلات شعرها البنية الداكنة تتساقط رطبة على كتفيها وتتجاوزها حتى منتصف ظهرها، بشرتها الصافية ناعمة، سمراء عينيها بلون الشكولاتة السائلة..
وعلى ذكر الشوكولاتة..
قفزت بسرعة.. تركض خارجة من غرفتها قافزة السلم الرخامي الواسع قطرات الماء تتساقط من شعرها الذي انتشر خلفها بخفة.. وصلت الى الصالة وابتسمت بسرور وهي ترى العلبة الحمراء الضخمة التي توسطت المنضدة الى جوار المبخرة..

اختطفتها بخفة ثم عادت تركض الى غرفتها..
-صواااااان؟؟
اغمضت عينيها وتوقفت في منتصف الدرج ..
-كيف تخرجين من غرفتك بهذا الشكل؟ ماذا ان رآك أحد؟!
-ماماااا ليس هناك أحد غيرنا.. لقد كان ذلك من الماضي..
هتفت بتذمر قبل أن تركض نزولاً لتعانق أمها بحنان مقبلة قمة رأسها:
-صباح الخير حجة فاطمة.
ابتسمت امها وبادلتها القبلة بحنان:
-انها الثانية عشرة، مساء الخير لكي ايضاً.
ضحكت صوان وهمست:
-انها الجمعة يوم إجازتي الوحيد.. ألا يحق لي التأخر بالنوم على الاقل.
-بلى بالطبع.. ولكي أيضاً أن تسرقي مخزون الشكولاتة الاسبوعي.
احمر وجهها وهي تضم العلبة هامسة:
-انها لي..

تنهدت امها واومأت برأسها لتخفض صوان عينيها تتراجع هامسة:
-سأذهب الأن. اعذريني ماما.
تأملتها أمها بحنان حزين، تصعد الى غرفتها ململة روبها حولها وتسارع للاختباء..
أما صوان نفسها فقد اغلقت باب غرفتها خلفها واستندت عليه مغلقة عينيها للحظة ثم فتحتهما لتنظر للعلبة بشغف وسرعان ما كانت تقفز على الفراش وتتقرفص امامها مبعدة الشرائط الحمراء وهي تدمدم:
-حمراء.. دائماً حمراء.. وكأنه ثور ؟!!
فتحت العلبة أخيراً وشهقت للعلب المتكدسة لنوعها المفضل من الشوكولا.. دوائر حبة البندق المغمورة بالشوكولا والمكسرات والمغلفة بالذهب ابتسمت بجشع وتناولت حبة فضتها بتهور قبل أن تضعها كاملة في فمها لتذوب وتغلق عينيها مستمتعة بطعمها بشكل تام..
سمعت رنين هاتفها، وعرفت من؟
التقطته وفتحت الخط.. مغمضة العينين..
"هل أعجبتك؟"

"مممممممم"
همست لتسمع ضحكته الصافية قبل أن يقول مسترخياً:
-كم حبة أخذتي حتى الأن صوانة؟
ارتمت لتستلقي على بطنها وترفع ساقيها تلاعبهما في الهواء بينما أصابعها تلامسان سلسلة ذهبية معلقة على عنقها تحمل خاتمين ذهبيين متعانقين:
-حبة واحدة فقط ..لقد بدأت لتوي.
اتكأ على قائم سريره وعيناه تنجرفان الى صورة موضوعة الى جوار وسادته تمثل صبية بعمر المراهقة وقد تساقطت جديلتها على كتفها بينما ترفع بيدها سمكة ضخمة تتقفز في الهواء..
هو من اصطاد تلك السمكة، وهو من اعطاها اياها والتقط الصورة يومها.. كانت في السادسة عشر.. وكان عيد ميلادها..
تنهد وهمس لها بصوت اجش:
-هل تتناولين حبة لي بالمقابل؟!
نظرت للحبة التي بيدها وقربتها من شفتيها هامسة:

-هذه لك..
اغمض عينيه للحظة وهو يسمع صوت القرمشة المميزة، لعق شفتيه للحظة وهو يتخيل اسنانها الناصعة تقضم حبة البندق وفتح عينيه بحدة وهو يقول:
-لمن الباقي؟
-انها لـــي.
قالت ببطء.. لينقبض قلبه بجنون ويبتلع ريقه بصعوبة وهو يكاد يشعر بمشاركتها، وكأنها أمامه تطعمه قطعة الحلوى تلك يتذوق طعم أصابعها مع الشوكولا.. مخملية حاذقة وحلاوتها كالعسل وخطورتها كحد السيف، ثم تراقص حاجبيها له بدلال كما اعتادت أن تفعل، وتضع الباقي في فمها.. ذلك الفم الصغير الذي يعشق.. تلك الشفتين الناعمتين الذي لم يمتلكهما احد من قبل.. ولن يفعل سواه.. اغمض عينيه والصورة امامه تتحول الى حقيقة.. صوان..
صوانته المشتعلة بين ذراعيه وترفع وجهها اليه بتلك الحركة البطيئة التي تتقنها، وشعرها الناعم

ينسدل على جبينها كاشفاً عن عنقها .. فقط له.. لعينيه..
رباااه..
فتح عينيه ونهض من فراشه وهو يصرخ:
-صوان تحدثي معي..
"لا تتركيني أسرح في خيالي صوانتي، لا تتركيني لتلك الأحلام القاتلة.."
سمع صوت ابتلاعها لريقها واضحاً وهي تتمتم:
-انا هنا..
تنهد بعنف يدور في ارجاء غرفته كأسد محجوز وسط زنزانة مغلقة، لم يتكلم صمت ينصت لفحيح انفاسها وخربشة أدرك معناها ليلتوي فمه بسخرية ويتساءل:
-كم أكلتي حتى الان يا صوان؟ تذكري انها للأسبوع كاملاً؟!
زمت شفتيها وهي تلعق اصابعها الواحد تلو الاخر بطفولية:
-اربع ونصف فقط..
-والنصف؟!
-أكلتها أنت أيها الشره..

دمدمت ليطلق ضحكة خشنة وهو يدفع أصابعه في شعره ويتنهد.. رباااه كم يشتاق اليها لوجودها حوله،،

-اشتقت اليك صوانتي.

ابتلعت ريقها بصعوبة.. نهضت لتقف أمام النافذة وهمست:

-سأسافر لأبوظبي هذا الأسبوع.

ظهر الاهتمام في عينيه:

-لماذا؟

-ندوة.. سأبقى لبضعة أيام.

-وحـدك؟!

تساءل بخشونة لتسرع:

-معي اثنتين من رفيقاتي.

-سأكون هناك..

قال فوراً لتتصلب وتهمس بقسوة:

-لا أريد رؤيتك جساس.

عض شفتيه بعنف وهتف بخشونة:

-انا لن اذهب بسببك..

ثم اندفع الى درج قريب وأخرج منه تذكرة سفر وقام بتصوير جزء منها وارسله لها في الحال..

-انها تذكرة ذهابي لأبوظبي وكما ترين انا حجزتها منذ ليلة أمس، وموعدها يوم الاثنين صباحاً.. لدي عمل أنا الأخر يا ابنة عمي.

اعادت الهاتف الى أذنها بعد رؤية دليل براءته من تهمها المتواصلة وقالت بإحكام:

-لا أريد رؤيتك يا جساس اياك ان تفكر بأي شيء أخر.

-حاضر سيدتي.

هتف بسخرية ثم أضاف:

-قد أدعوكِ لتجربة سيارتنا الجديدة.

تجاهلت خفقات قلبها لإشراكها معه في أمر السيارة.. ولكنه لم يتوقف عن الحديث:

-انها حمراء رائعة.. ستعجبك صوان.

-ما قصتك واللون الأحمر؟!

صرخت باستنكار مرتبك لتضيق عيناه بغموض:

-ألا تعرفين؟!

شهقت بخفة وذكرى قديمة تمر عليها تغشى عينيها ...

-صواانة..

-ماذا؟؟

-تزوجيني..
كانت بحة صوته معذبة.. أليمة.. مزقت نياط قلبها اغلقت عينيها بألم و همست له:
-لا..
-تزوجيني..
كرر بإصرار..
-لا..
جاوبت بحزم ثم تساءلت مغيرة الموضوع:
-متى ستأتون لرؤية أمي؟
ادرك محاولتها ولم يعترض بل تنهد مطولاً قبل أن يجيب:
-من تقصدين بصيغة الجمع؟؟
-أنت تعرف .. أنت وسيف؟
شخر بسخرية:
-وماذا عن حبيب القلب أوس؟
عقدت حاجبيها و هتفت بحنق:
-أوس مشغول للغاية وهو بالكاد يستقر بمكان، ولكن كلما سنحت له الفرصة للتواجد في دبي هو يأتي ليزورها اما أنت وشقيقك...
وتركت جملتها معلقة.. ليزم شفتيه ويدافع:

-انا لا أستطيع التحدث عن شقيقي ولكنك تعرفين ان مقره في نيويورك مع عائلته وهذا في النصف الاخر من الكرة الارضية اما عني انا شخصياً فأنا قد تم تهديدي بشكل مباشر من عدم ولوج الاراضي المحيطة بسيدة معينة مهووسة بالتحكم ومسيطرة بشكل فظيع والا فسيتم...

وقطع حديثه بشكل مباشر تاركاً اياها تسبح في مخيلتها لما قالته له في أكثر من مناسبة.. واحمرت وجنتيها وهي تتذكر وقاحتها ولسانها الطويل ثم همست:

-بإمكانك أن تأتي في اوقات عملي.

-لدي عمل انا الأخر.. ثم بالله عليكِ كيف أفوت علي رؤية فتاتي المفضلة؟

قالها بصوت ناعم.. جعلها ترتجف من اعماقها قبل ان تهمس بجفاء:

-أنا لست بصغيرتك.

-هرااء.. أنت صغيرتي الجميلة واللذيذة جداً جداً.. كبقايا الشوكولاتة التي تلعقينها عن أصابعك الان.

تيبست وهي تنظر الى اصبعها المعلق بالهواء امام شفتيها ثم زمجرت:

-أنت وقح.

-وأنت تثيرين جنوني.. تزوجيني صوان.. وأريحي قلبي وقلبك.

طلب بيأس لتزفر رفضها بقوة:

-لا.. هل تكلمت مع أمك؟

-اااااااه.. لم لا تنفكين تذكرينها؟؟

صرخ بحنق لتهمس ببرود وعينيها متصلبتين:

-انها أمك.. سيف يودها فلم لا تفعل أنت؟؟

-تعرفين السبب صوان..امي لا تهتم بأحد سوى نفسها.. وتلك الشمطاء التي تجالسها.

-ابنة خالك ليست شمطاء.. انها صغيرة السن وفاتنة.. تناسبك تماماً.

ارتجف قلبها وتعثر صوتها ليلتقطه ببراعة ويغمغم:

-وستكونين انت هناك تزفينني لامرأة اخرى!! متأكدة من ذلك؟

همس بشحوب لتتجمد اطرافها وتغلق عينيها على المشهد الذي اجتاحها بألم ولكنها وأدت مشاعرها كالعادة وهمست بجمود:

-ان كان هذا ما تريده.

-أنا اريدك أنت.. لا أحد ولا شيء سواكي.

هتف بحرارة لتغمض عينيها وتهمس:

-يجب ان أذهب.. وأنت يجب أن تستعد لصلاة الجمعة.

زفر مطولاً.. قبل ان يهمس:

-سأراك في أبوظبي صوانتي.

-لا لن تفعل.. وداعاً.

-بلى أنا لم أركي منذ زفاف سارة، وكنت قاسية للغاية.. سآتي اليك. الى اللقـاء.

همس بشحوب لتغلق الخط بأصابع ترتجف.. وضعت يدها على فمها تخفي ارتجاف شفتيها، لا تقدر على تحمل المزيد.. يجب ان تسيطر على نفسها، اتصال يوم الجمعة هذا يؤذيها بأكثر مما ينفعها، لقد كان هذا اليوم الوحيد الذي تسمح له بأن يخترق دفاعاتها.. اليوم الوحيد الذي تنزل اسوارها وتدعه يخترقها بلا استئذان..

وقد انتهى الان.
***
المغرب...
وقفت تراقب حركة المرور الخفيفة، لتعبر للجهة الاخرى من الطريق حيث تذهب الى مقر القنصلية لمراجعة بعض الاوراق قبل ان تغادر غداً الى كينيا.. الساعة تقارب الحادية عشر ومعظم الناس لايزالون في اعمالهم، لقد قضت ما يقارب الاسبوع وتعرفت على الكثير من العادات والتقاليد المغربية، مشت في شوارع المدينة البيضاء.. وتناولت عشاءها في مطاعم شعبية ورافقت امرأتين عجوزتين من السويد في رحلة بحرية لمضيق جبل طارق وتخيلت اسبانيا على الطرف الاخر..
والليلة هي تعد حقيبتها الوحيدة للعودة للسفر..
وصلت للقنصلية وبعد اجراءات طويلة دخلت لمقابلة أحد الديبلوماسيين.. كان شاباً طويلاً عريض الكتفين قابلها بابتسامة عريضة ومكتب مكيف جعلها تتنهد بارتياح بعد حر النهار..

-تفضلي بالجلوس أنستي.. أتودين شرب الليمون أم شراب الورد المثلج؟
رفعت حاجبيها بتعجب وقالت:
-ما أوده هو المصادقة على تأشيرتي للمغادرة غداً فأنا لا أفهم سبب تعطيلي حتى الأن؟!
-اذاً هو مشروب غازي..
قالها بسماجة وهو يشير لها بالجلوس..
لتعقد حاجبيها بعصبية بينما تحاول السيطرة عليها.. "تحلي بالهدوء ترنيم"
جلست ترسم البرود على ملامحها بينما الرجل يخرج زجاجة مياه غازية من ثلاجة مكتب صغيرة، ليقدمها لترنيم والتي قبلتها بتوتر ثم وضعتها أمامها على طاولة قصيرة، أخرجت جواز سفرها من جيب معطفها وقدمته للرجل:
-تفضل.. هل لك أن تخبرني أين الخطأ؟
جلس الرجل أمامها مباشرة وساقيه الطويلتين ممتدتان حتى تحت الطاولة حتى لامست قدميه قدميها، سحبت ترنيم قدميها نحوها ليعتذر بأسف لم يصل لملامح وجهه:
-أسف.. دعيني أرى.

ثم فتح الجواز للحظة قبل أن يرتفع حاجبيه متفاجئاً:

-ترنيم مختار الراجي؟؟ ابنة السيد مختار الراجي؟؟

"ها قد بدأنا"

فكرت بحنق.. شخص سخيف أخر يرى فيها اسم أبيها. عقدت حاجبيها وتساءلت بخشونة متعمدة:

-هل هناك فرق؟

احتقن وجه الرجل وقال متلعثماً:

-لا أبداً.. السيد مختار من السياسيين البارزين جداً.. ويشرفني خدمته بأي وقت.

رفعت حاجبها وقالت بسخرية:

-صدقني بتأشيرك على جواز سفري انت ستؤدي له خدمة عظيمة للغاية.. لم لا تفعل؟!

كانت لا تؤمن ابداً باستخدام اسم ابيها.. وليس بهذه الطريقة ولكن كما يبدو أنها الطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا المتزلف.. والذي نهض مرتبكاً:

-بالتأكيد انستي.. على الفور، أتودين..

وتردد للحظة فقاطعته بيأس:

-لا أود تناول الليمون او الورد او اي شيء بارد اخر.. أريد انهاء امر الجواز ثم المغادرة..
واضافت بنبرة خاصة:
-والدي حقاً سيقدر لك مساعدتك أيها السيد.
ارتبك أكثر وفسر:
-ما عنيته هو هل تريدين أن تتصلي بالسيد الوالد وتخبريه بزوال العقبة عن طريقك أنستي..
"كان هذا غير متوقعاً"
فكرت بجمود.. وتخيلت للحظة ردة فعل والدها على شيء كهذا لتبتسم وتهز رأسها:
-لا تقلق.. سأتصل به بنفسي حال أعود الى الفندق وأشيد بمساعدتك الكريمة..
اتسعت عيناه للحظة قبل ان تغزو فمه الابتسامة وهو يهز رأسه بالموافقة.. ثم اختفى عن عينيها قابضاً على جوازها.. حسناً ربما لكونها ابنة ابيها فوائد بعد كل حال؟
جلست تستمتع بمشروبها الغازي المثلج، ولم تمضي بضعة دقائق حتى عاد الرجل اليها بجواز السفر وعلى شفتيه ابتسامة ارتياح:

-لقد انتهينا من كل شيء انسة ترنيم، المشكلة كانت ببعض التواريخ لا أكثر وقد حللتها بنفسي وأوكد أنك لن تواجهي مثلها مرة اخرى.

نهضت بسرعة والتقطت الجواز وتأكدت منه قبل أن تضعه في جيب معطفها وتقول باقتضاب:

-شكراً لك.

-انتظري انستي.

توقفت لتنظر للرجل بعينين جامدتين وقد بدا بالفعل يثير اعصابها ليقول بابتسامة سمجة وهو يطيل النظر لقوامها الدقيق:

-هل ستسافرين غداً؟ بإمكاني المرور واصطحابك للمطار بنفسي اذا ما أخبرتني عن اسم الفندق....

-هذه قمة الوقاحة..

همست من بين ضروسها لتتسع عينا الرجل وهي تهاجم بقسوة:

-انت حقاً تريدني أن أخبر والدي عن محاولتك السخيفة هذه؟!

تراجع بارتباك لتواصل بحزم:

-ابتعد عن طريقي ولا تفكر ابداً انني سأسمح بتجاوزك معي مرة أخرى.
ثم وبظهر متصلب كانت تغادر القنصلية لسان حالها يردد كيف يمكن للرجال ان يكونوا بهذا الحمق والغباء، تباً.. لقد أفسد مساءها..
حين عادت للفندق الصغير الذي تقطن به غرفتها مشتركة بين ثلاث فتيات، واحدة من السودان وتعمل كصحافية جاءت لتغطية مؤتمر عن الصحة البيئية والأخرى من الدنمارك جاءت للسياحة.
لم تكن تحب تبالد الاحاديث والسمر ولكنها تلك الليلة استمتعت بسماع الاغاني السودانية برفقة الصحافية التي تدعى ليلى وهي تتأمل بشرتها الداكنة بلون القهوة وعينيها الواسعتين،،
-تعالي ترنيم واجلسي معي.
قالت ليلى بابتسامة لتقعد ترنيم وتجالسها حول فنجان من القهوة.. مرة وسوداء كما تحبها.
-انت شاحبة كالثلج.. لم أعرف ان اليمنيين يمكن أن يحظوا ببشرة مماثلة؟
ابتسمت ترنيم وهمست بنعومة:

-انها بشرة متعبة.. لنقل فقط ان معظم أهل بلدي سمر.. ولكننا قلة ربما تعود لأصول جدة امي الشمالية.. معظم اهل الشمال لديهم بشرة بيضاء ناصعة محمرة.

-اعرف لقد بقيت في صنعاء لبضعة ايام.. قبل سنتين تقريباً.

اومأت لها ترنيم ثم ارسلت عينيها لتنظر للمساء حيث بدأت اشعة الشمس بالغروب.. وهبت ريح خفيفة داعبت خصلات شعرها الناعمة الطويلة وليلى تسألها:

-لماذا تسافرين وحدك؟؟ لم أرى من قبل فتاة بعمرك تسافر وحدها؟

ابتسمت بخفة وهمست:

-انها متعة..السفر دون قيود، ولفترات قصيرة لاتبحثين عن شيء سوى رؤية مناطق جديدة.. مثيرة ومتفردة.

-هل تسمح لك عائلتك؟ا عرف ان اليمنيين محافظين لدرجة كبيرة؟

تجهم وجه ترنيم ثم قالت:

-عائلتي صعبة ومعقدة ولكنني أعتقد بأنني ورثت مزاج والدي المتفجر، وعناده المتصلب.
-هذا ممكن ولكن كيف سمح لكي والدك بذلك؟
-لم أعطه المجال ليرفض، بصراحة لم أعطه المجال ليبدي اي رأي حول الموضوع، لقد عقدت العزم ونفذت قراري دون انتظار رأيه.
رفعت ليلى حاجبيها وهمست بابتسامة:
-شخصية عنيدة ها؟!
"عنيدة؟!"
ابتسمت بهدوء ونهضت تقول:
-شكراً على القهوة.. سأخرج الان لأقوم بجولة اخيرة قبل أن استعد للمغادرة في الصباح.
ودعتها ليلى بابتسامة لتخرج ترنيم بعد ان عقدت حجابها واحكمت حزام معطفها البيج القصير، ستذهب الى السوق لشراء هدية لكماله.. عيد ميلادها بعد خمسة أيام وتحتاج لشرائها وارسالها لتصل في الموعد.
تجولت في السوق الشعبية المكتظة في ذلك المساء العبقة بروائح من البهارات والمأكولات الشعبية التي تطبخ وتباع على الطرقات، دخلت

الى سوق العطور والازهار لتتغير الروائح تماماً وتصبح مشبعة بالياسمين العطر وروائح ماء الورد والبخور، حاولت ايجاد شيء مميز لكماله ولكنها عادت ولغت الفكرة.. كمالة تحب صنع عطورها بنفسها.. تنهدت وعادت لتتجول بين الأكشاك الصغيرة والتي حوت العديد والعديد من البضائع تتراوح من الورد المجفف الى التحف الخزفية الثمينة.. وقفت عند واجهة زجاجية تتأمل وعاء كريستال أبيض حوى بداخله منحوتة خشبية دقيقة لألة الكمان.. محاطة بعريشة من الورود الخزفية الملونة، عامت عينيها بحزن وهي تتذكر متى عزفت الكمان لأخر مرة.. كان ذلك منذ زمن طويل.. بدا وكأنه الابد.

ابتسمت بحنين.. ولامست الواجهة الزجاجية قبل ان تتنهد وتغلق عينيها عن الذكريات وتشيح بنفسها لتمضي للمحلات البعيدة حين وقفت مدهوشة أمام ابتسامة عريضة متوحشة وعينين رماديتين صاعقتين ضاحكتين تدمدم بلا تصديق:

-يجب أن نراجع الامر عند مختصين.. انها المرة الرابعة وانا.. انا حقاً مصعوق.

"لا اصدق حظي الحسن"
فكرت بغيظ وقلبها ينتفض بغرابة لرؤية تلك الابتسامة المغيظة للغاية، كانت مصعوقة لرؤية المهرج.. مصعوقة لدرجة أنها وقفت تنظر اليها بعينين جاحظتين كالبلهاء، انها ترتدي أكثر احذيتها ارتفاعاً ومع ذلك كانت ترفع عنقها لدرجة مؤلمة حتى تنظر لعينيه، واسعتين بحاجبين متلاعبين..
-ماذا تفعل هنا؟!
هتفت بحنق لتضيق عيناه ويهز كتفيه الواسعتين:
-أتسوق.. وأنت؟!
-لا شأن لك.
همست بحنق وعينيها تلاحظ النظرات المصوبة نحوهما من بعض المارة ليرد أوس بتشدق:
-أنت سألت أولاً.
ضيقت عينيها وبدأت بالسير بعيداً ليبتسم كصياد متمرس ويراقبها قليلاً من بعيد..
هو لم يعتد مطاردة النساء، ليس من هن بهذا التزمت والأخلاق الصعبة.. النساء كن يقعن حرفياً تحت قدميه، ولكن.. شيء بتلك القزمة

الصغيرة المتزمتة. شيء يدفعه لأن يتذكرها في لحظات غريبة..
هز رأسه بضيق وعاد بنظره للزجاج الذي كانت تمعن النظر فيه وعقد حاجبيه بتوتر..
لحظات كتلك حين انفصل عن بينو وتجاهل دموعها، ثم تلك الثواني قبل أن يغرق في النوم بعد ليلة طويلة في احد البارات.. تعلق شيء منها من نظرتها وعينيها في حنايا مخه وجعله يتشبث بذكراها في لحظات غريبة.
تنهد بضيق وعاد ليواصل طريقه..
عيد ميلاد عمته فاطمة "امه من الرضاع" بعد بضعة ايام وعليه شراء هدية واللحاق بباقي اسرته واولاد عمومه للاحتفال بتلك المرأة الطيبة التي قامت بتربيته كابنها تماماً.. سيجلب شيئاً لها وشيء لتلك الصوانة العنيدة..
كان يتفرج على معروضات السوق حين راها من جديد.. كانت منزعجة.. غاضبة ولم تكن وحدها؟!

تأمل الرجل الواقف امامها بابتسامته اللزجة ومحاولته التقرب منها والتي من الواضح انها تزعجها..

كانت تعرفه، من طريقة نقاشها معه بالتأكيد كانت تعرفه، ولكنها لاتحبذ مصاحبته الان، ربما حبيب قديم؟

شخر بسخرية..

وكأن قزمة مثلها قد تحظى يوماً ما بحبيب؟!

هز كتفيه واراد المضي قدماً.. حين شعر بمرجل غضب يشتعل بداخله، لقد رأى الرجل يمد ذراعه ويحاول امساكها لتتراجع هي صارخة بدهشة واستنكار.. ورأى الناس كلهم يقفون واعينهم على المشهد الغريب وسط السوق..

يجب أن تغادر السوق.. ذلك المهرج قلب كل شيء بطريقة غريبة وكأنه يتسلى كلما راها..

مالذي يفعله في السوق الشعبي المليء بالأغراض النسائية على كل حال.. فكرت بحنق ورفعت عينيه لترى واجهة من المحلات التي تبيع الاوشحة الحريرية.. وراته..

وشاح حريري بلون الزمرد، محاك عليه بخيوط من الفضة نقوشاً عربية معقدة.. ابتهج قلبها له على الفور وتخيلته يزين كتفي كمالة لتكتمل الصورة..

هذا ما سأعطيه لها..

ابتاعت الوشاح وخرجت بسرعة حين:

-أنسة ترنيم.

التفتت بسرعة لترتفع حاجبيها باندهاش وهي ترى الرجل من السفارة يتقدم نحوها بخطوات سريعة لاهثة وهو يواصل:

-لقد بحثوا عنكي في كل مكان.

-مالذي تريده مني؟ هل هناك مشكلة مع جواز سفري؟

-لا لا.. لقد اتصلت بوالدك..

-ماذا فعلت؟

صرخت بحنق ليبتسم باضطراب:

-اعرف انها مفاجأة.. ولكنني تحدثت معه بالنيابة عنكي..

-كيف تجرؤ؟

قاطعته بغيظ ليبتسم بسخف:

-والدك طلب مني الاعتناء بكي انستي.
رفعت حاجبيها وعقدت ذراعيها امام صدرها وهتفت بغيظ:
-تعتني بي؟ ومن تكون أنت لتحاول حتى؟
-السيد مختار..
-السيد مختار يمكنه ان يشرب من ماء البحر وانت قبله والان ابتعد عن طريقي.
صرخت بعنف وسارعت لتتجاوزه حين حاول امساك ذراعها لمنعها فتراجعت شاهقة بعنف جعله يهمس بقلق منتبهاً لنظرات الناس حولهما:
-توقفي عن الصراخ أنت تثيرين مشهداً.
-ابتعد عن طريقي والا ادخلتك للسجن.
هسهست بغضب ليقاطعها صوت حازم من خلفها:
-مالذي يحدث هنا؟
نظرت للمهرج باستنكار وهي تفكر.. "هذا ما كان ينقصني".
-انه نقاش عائلي يا هذا ابتعد.

قال رجل السفارة بتوتر لتنظر له ترنيم مصعوقة وأوس يرمقها بسرعة ليدرك أن الرجل كاذب للغاية.. ولم يقدر على عدم التدخل، ليس هو..
لذا وقف بينهما متحدياً الرجل:
-ربما يجب أن ان اعرف ما ترتيبك العائلي لترنيمة فأنا لم يسبق لي رؤيتك؟
تدلت شفة ترنيم السفلى وهي ترقب المهرج يعلن بكل وقاحة انها يعرفها بما فيه الكفاية ليدللها وليس هذا فحسب بل يقف للدفاع عنها؟!! الى ما يهدف هذا المجنون؟!..
في حين كان رجل السفارة ينقل بصره بين ترنيم الوادعة والتي تبدوا كجنية المصباح مقارنة بهذا الغول الواقف امامها والذي يعلن بكل ثقة انه يعرفها، ربما كان احد افراد عائلتها والسيد مختار لا يدرك انه معها، ربما كان شقيقها او ابن عمها؟؟ رباااه ما هذه الورطة؟؟ فكر بتوتر ثم همهم:
-انا صديق.. صديق العائلة؟ وانت من تكون؟
تجاهل اوس سؤاله والتفت لترنيم وسألها بخشونة:

-هل يقول الصدق؟
رمشت بعينيها وهي تعقد حسبة بسيطة في ذهنها، قبل أن تقرر ان اي شخص هو أولى بالثقة من رجل يمت لوالدها بصلة.. هزت رأسها تنفي ما قاله ببساطة ليعقد أوس حاجبيه وتلمع عيناه بعاصفة:
-أنت تكذب في وجهي، أنا لا أحب الكذب.
تراجع الرجل وهمس بغضب وقد أثاره مافعلته ترنيم:
-أنا مرسل من قبل والدها، للعناية بها وايصالها للمطار بسلامة دون تأخير.
ضاقت عينا أوس ونظر لترنيم التي ارتجفت للحظة ورأى هو ارتجاف شفتيها قبل ان تبتلع ريقها بصعوبة وتهمس:
-استطيع العناية بنفسي.
رفع حاجبه بتفكير وهو يفطن أن الامر اكبر بكثير من مجرد معاكسة في الشارع، كان هناك المزيد تحت القشرة الواهية، لذا نظر نحو الرجل من جديد وقال بصرامة:
-من الأفضل أن تغادر.

تراجع الرجل ليتقدم أوس خطوة ترهيبية جعلته يتراجع أكثر، وترتبك خطواته ثم تلقى دفعة من ذراع اوس ليتعثر للخلف ولايسقط بينما يصرخ بحنق:

-وماشأنك أنت بهاعلى كل حال؟

شعر بالغضب يستعر به وهو يلاحظ الطريقة التي نظر بها اليها كما لو أنها سلعة ما..نفث انفاساً نارية واقترب يصرخ دون أن يفكر:

-انها امرأتـــي..

شهقت ترنيم حينها واتسعت عينا الرجل وأوس يلوح بذراعه ويلكمه في أنفه ليسقط على ظهره وسط السوق المزدحم، تزاحم الناس حولهم بينما الرجل يتلوى ممسكاً بأنفه صارخاً بألم والتفت أوس لترنيم بنظرة صاعقة قبل أن يقبض على مرفقها متجاهلاً نظراتها الجاحظة ويسرع بها خارج السوق بخطوات واسعة ركضت لتواكبها.

-توقف.. توقف يالهي مالذي فعلته؟!

صاحت حالما أصبحا في شارع بعيد عن ضوضاء السوق.. ليتوقف وينظر لها محاولاً استعادة هدوءه:

-اخرجتك من ورطة كماييدو.
صاحت بحنق وهي تضرب قدمها بالأرض بقوة:
-بل اوقعتني بأشد منها، انا لاأصدق ماقلته لذاك الرجل؟ انا وأنت... رباااااااااه.
صاحت بيأس ووجنتيها تحترقان بالخجل وهي تتذكر كلمته العفوية والتي أصبتها بالاضطراب..
"انها امرأتي"
رعشة انتابتها على طول عمودها الفقري وشعرت بدوران خفيف وهي تتخيل كل المعاني التي يمكن ادراجها تحت ذلك المسمى وتنفضها بسرعة من رأسها دون أن تعيد التفكير بها.
-لاتقلقي.. ليس وكأن هناك لدينا فرصة حتى.. انظري اليك.
قالها بامتعاض جعلها تتوقف عن الحركة العصبية وتنظر له بسواد، عيناه متلاعبتان ماكرتان وهي تكاد تستشيط غضباً.. انه لايطاق رباااه ياله من مجنون.
-انا معتاد على نوعية معينة من النساء..أنت لاتنتمين اليهن كوني مطمئنة.

أضاف بوقاحة مشيراً بيديه في الهواء ليشكل جسد امرأة ناضج.. لتحتقن بالغضب والحرج وهي تقارن جسدها القصير والنحيل بتلك السمراء الفاتنة التي كانت معه؟ ياله من وقح عديم الحياء.. وهي لن تقف لدقيقة واحدة لتسمح له بالمواصلة.. لذا استدارت وبدأت بالمشي بعيداً ليقبض على معصمها بقوة ويهتف:

-الى أين تذهبين؟

-اترك يدي..

صفعت يده بسرعة ليتراجع بعينين متقدتين وعينيه تتقدان شرارة تقابل عينيها اللاسعتين:

-أنت نمرة شرسة ولايظهر عليك.

-اياااك أن تلمسني.

قالتها مخنوقة.. لاتعرف سبب المشاعر الفائضة والتي عصفت داخلها..حالما لامست أصابعه الطويلة كفها الصغير، لتتعرق وينتفض كل عرق فيها قبل ان تبعده عنها كالملسوعة وتتراجع بعيداً.

رفع كفيه مشيراً لاستسلامه، وتراجع لتظهر بينهما مسافة معقولة وهويقول:

-لاتنظري لي مجدداً بتلك النظرة اذاً.
عقدت حاجبيها بتساؤل ليبتسم بسخرية:
-نظرة الغزال الخائف الجائع للاهتمام.
جحظت عينيها ليقهقه باستمتاع:
-لا.. ليس هذه.. هذه تهدد بقتلي.. انت ممتعة حقاً ترنيمة.. النظر اليكي وحده.. يجري الدم في عروقي.
قال عبارته الأخيرة بنبرة خاصة، جعلت ريقها يجف ثم همست بحقد:
-أنت وغد عديم الحياء.
-وأنت جاحدة ناكرة للمعروف.
رد بقسوة ليحتقن وجهها وتستدير مغاضبة تهرول للابتعاد عنه.. زفر يحنق وهو لايصدق مدى ماوصل اليه من عصبية ونزق بسببها.. رفس بضعة أحجار امامه ولاحظ الكيس الملقى على الارض، أهو لها؟!
-هيه انتظري..
صرخ بعلو صوته وراها تحث خطاها للابتعاد أكثر فالتقط الكيس ومضى مسرعاً نحوها ولكنها

كانت قد اختفت في زقاق جانبي مكتظ.. وقف حائراً ويده تقبض على الكيس بحنق.. "مجنونة" فكر بغيظ ثم اخرج مابالكيس لينساب الحرير الزمردي على ذراعه وكأنه موجة بحرية، هبت نسمة هواء لتصفعها مباشرة على وجهه.. ملامسة بشرته الخشنة..تذكره بنعومة بشرتها حين لامس أصبعها للحظة قبل ان تنفضه كأنه عقرب سام .. اغمض عينيه.. الحرير يليق بها.. الحرير المخرم والدانتيل..

ناعمة ومثيرة كقطة صغيرة ..

تذكر حجابها.. ولمعت عينيه بحزم، يجب أن يرى شعرها.. لتكتمل الصورة المجنونة بها مستلقية بنعومة على... ياللهووووول..

اتسعت عيناه بجنون لأفكاره غير المعقولة..

انه لايصدق لقد كادت تضربه على رأسه، وهو يتخيلها على فراشه..

"صفي ذهنك أوس.. صفيه من الأفكار القذرة يارجل"

فكر بتجهم وهو يحشر الوشاح كيفما اتفق في الكيس، ويتشبث به بقوة قبل ان يتجه عائداً لفندقه قبل ان يفقد الباقي من عقله.

***

روما..

اندفع كاعصار غاضب كله يثور بمشاعر متأججة وغيظ متألق في عينيه الخضراوتين، اقتحم الباب المفضي لمكتب رئيس التحرير ليراها منهمكة كالعادة تجاورها تلك الشمطاء التي يكره..

ارتفعت الانظار اليه بتوتر لتقول سارة بحدة:

-ركان أنا لدي عمل..

-وأنا اتٍ اليكي للعمل.

ونظر لسييرا بغضب ملقياً ورقة يمسكها بيده بحنق:

-ماهذا الهراء؟!

نظرت سييرا للورقة ببرود قبل أن تمررها لسارة والتي عقدت حاجبيها بتوتر قبل ان تلقي نظرة لائمة لسييرا ثم تعود لزوجها هاتفة:

-انه قرار مجلس الادارة ووجب التنفيذ.

-اتركينا سييرا.
هتف ببرود لتهتف سييرا:
-لدينا عمل هنا ياركان ليس..
-اتركينا سييرا.
رددت سارة بحزم لتزفر مساعدتها بغيظ قبل ان تتركهما بسرعة، تقدم ركان من سارة ومال على مكتبها يستند بكفيه على الخشب المصقول:
-كيف تسمحين لهذا بالحدوث؟
-انه قرار شامل..لم يكن بيدي التدخل.
قالت بارتباك..لم تكن تريده ان يعلم بالامر بهذه الطريقة. انها تعرفه جيداً وخبر كهذا سيسبب الارتباك لعمله وهو مالايحبذه ابداً..
-تقليص النفقات في هذه المرحلة هو امر خاطئ، العالم كله يتوجه الى التوسع والانتشار وانتم تقلصون النفقات.
صرخ بحنق لتأخذ نفساً عميقاً وتجلس خلف مكتبها محاولة استعادة هدوء أعصابها:
-انه قرار المجلس كما اخبرتك.

-مجلسك اللعين هذا مكون من احدى عشر عجوزاً.. أنت الوحيدة القادرة على فهم متطلبات السوق الحالي سارة وأنت تفشلين.

هدر بعصبية لتتسع عينيها وتصرخ بالمقابل:

-أنا احاول النجاح.. النفقات غير الضرورية تؤثر على الميزانية ركان.. تقليصها واجب.

-ماتحتاجه هذه الشركةهو ضخ لأموال جديدة وسريعة وبالصبر سنحظى بالمقابل خلال بضع سنوات.

حاول اقناعها لتعترض:

-الشركاء رفضوا هذا المبدأ.

-لان ليس لديهم تلك السنوات لانتظارها.

سخر بقسوة لتزفر وتنهض من جديد وتقترب منه.. لامست ذراعه فنحاها بحنق:

-متى كنت تنوين اخباري؟!

تنهدت وجذبت ذراعه بعناد:

-كنت أنوي فعل هذا اليوم..لم أكن أريد أن يصلك القرار بهذا الشكل انتويت اخبارك بنفسي.

همست صادقة ليقول بمرارة:

-القرار تم توزيعه على رؤساء الاقسام هذا الصباح، كنت أبدو كالاحمق وانا لا اعرف عما يحوي وانا نائم طوال الليل مع المرأة التي وقعت عليه بالموافقة.

-ركاااان..

ابتلعت ريقها وهي تحاول الاقتراب منه، انه غاضب وهي تعرف كيف تنسيه غضبه ولكن ركان حينها كان غاضباً فوق ماتتخيل.. كان مغتاظاً.. النظرات الساخرة التي تلقاها من الجميع في الاجتماع لرؤساء الاقسام لجهله الواضح بخطط زوجته، تذمره من القرار لم يعفيه من نظرة الشماتة والتشفي..

ابتعد عنها بحنق وهتف:

-قرار الاستغناء عن ثلث الطاقم العامل معي، قرار الاستغناء عن الاستديوهات الخارجية، توقف الاستضافات في الفنادق الفاخرة والاكتفاء بالايواء؟؟! لم لاتحرقين الاستوديو برمته من قبيل التقليص.

تراجعت بألم، تعرف اعتزازه بعمله والأدهى طاقمه الذي عملوا معه لسنوات ولكن.. الامر

فعلاً لم يكن بيدها. لم تستطع تحريك مجلس الادارة كما ترغب، شخصيتها لم تقدر على الوقوف مواجهة مع كل ذلك الضغط.

-انا اسفة ولكنها الميزانية الجديدة.

همست بشحوب مشيحة عنه ليشخر باستهزاء ثم يحرك رأسه بعدم تصديق.. حاولت الخروج من الموضوع بخبر اكثر ابهاجاً وهمست:

-من الناحية الاخرى لقد اقنعتهم بتجديد العقد معك ركان، بامكاننا التوقيع عليه غداً صباحاً بعد تجهيزه..

نظر لها بغموض ثم قال مقتضباً:

-يمكن لهذا أن يتأجل.

-ماذا تعني؟ عقدك ينتهي خلال شهر حبيبي.

حك ذقنه بظاهر يده وقال:

-ربما أود ابقاء خياراتي مفتوحة.

انتفضت نحوه ووضعت كفيها على صدره عينيها متسعتين بذعر بينما اصابعها تتشبث بقماش قميصه الحريري:

-هل تنوي تركي؟

خفض عينيه الباردتين بجفاء لعينيها الرماديتن المستجديتين وقال بتباعد:
-انا لن أتركك ابداً سارة، ولكن العمل شيء أخر.
ابتلعت ريقها بصعوبة بينما كفيه تطبقان على معصميها وتنزلهما على جانبيها مدمدماً:
-سأذهب الأن لأبحث عن وسيلة أبلغ بها زملائي أنه قد تم الاستغناء عنهم، لاتنتظري العودة معي الى المنزل أنا سأمضي النهار خارجاً.
تراجعت بيأس بينما هو غادر المكتب بخطوات واسعة والغضب لايزال يتحكم بأفعاله بينما عقله يخطط للمرحلة القادمة والتي قد تقلب الطاولة تماماً والضحية ستكون .. سارة الشيب.
***
أبــوظبي..بعد أربعة أيام.
اغلق رئيس الندوة الملفات أمامه واعلن بابتسامة عبر مكبر الصوت أن الندوة اليوم قد انتهت، وبامكانهم الانصراف. لتنهض صوان معدلة حجابها الازرق الانيق ورفعت أوراقها لتبتسم لرفيقتيها قائلة:
-هل ستعدن للفندق؟

-لا.. لدينا موعد مع صديقة لنا من الثانوية، سنتناول الغداء في مطعم قريب..ألن تأتي معنا؟!
-لا لن أقدر أنا متعبة وسأذهب للاستلقاء قليلاً.
-صوان أنت لم تتناولي العشاء ولاحتى الفطور.
تنهدت صوان بارهاق واشاحت بيدها:
-اعتقد انني سأصاب بعدوى ما..لاأشعر بأنني بخير.
شع القلق في عيني رفيقتها وهمست:
-أتريدين أن نوصلك؟
-لا لا..سأخذ سيارة أجرة.. لاتقلقي.
-تناولي وجبة ساخنة واخلدي للراحة.
قالت رفيقتها بتعاطف لتومئ صوان وتستدير نحو المخرج.. صفعتها الحرارة والرطوبة لتشعر بدوار خفيف يلف رأسها.. تشبثت بعمود قريب لتستعيد أنفاسها.. أغمضت عينيها للحظة قبل ان تواصل طريقها نحو موقف سيارات الاجرة "لم لم تطلب من الفندق الاتصال بشركة سيارات الاجرة بدل وقوفها الاحمق هكذا؟"
الشمس كانت دانية فوق الرؤوس بشكل مستفز، أخرجت نظارتها الداكنة لتغطي عينيها ضمت

حقيبة اوراقها نحو ومشت ببطء نحو الموقف..
رغماً عنها تخبطت خطواتها، ارتبكت قدماها وشعرت بحلقها يحترق بينما تلسح الحرارة عينيها ووجنتيها، بشرتها باردة ومتعرقة..
ستصاب بالحمى..انها تعرف مقدماتها جيداً.
تصبب العرق منها وبردت لدرجة انها شعرت بارتعاش مفاجئ وتوقفت للحظة..
سمعت حينها وقع الاقدام خلفها قريبة لدرجة انها ظنت أنها تتبعها، مشاعر عديدة تضاربت بداخلها منها الخوف.. والتوتر، ارادت الالتفات لرؤية من يتبعها لبعض الوقت.. ولكنها لم تقدر.
احساس عارم غمرها تعب مفاجئ احاط بها جعلها تتوقف وتنحني قليلاً لتسترد انفاسها.. ولكن كمايبدو كان هذا القرار الخاطئ لتقوم به، لقد شعرت حينها برأسها يرتج وغثيان مفاجئ ينتابها.. ضعف يجتاحها ويوهن ركبتيها، لتلتوي ساقيها تحتها وتفقد شعورها بالارض تحتها..
شهقت بخوف وتهاوت متأوهة تفكر بملمس الارض الصلبة تحت جسدها، لسعت الدموع عينيها وانفجرت على وجنتيها..ولكنها لم تصل

للارض قط.. ذراعين بقوة الصلب استقبلتا جسدها الواهن، وصدر عارم احتوى رأسها المتألم، بينما تهاجم انفها رائحة عطر رجولي مميز.. مألوف بدرجة كبيرة جعلها تصرخ باعتراض بينما صوته الخشن يلامس مسامعها قائلاً:

-صوانة؟ يالهي لاتخافي.

-لاا..لا جساس اتركني.

احتواها بخفة بين ذراعيه متجاهلاً خفقات قلبه المذعورة لرؤيتها تتهاوى بتلك الطريقة وكأنها خرقة قديمة بالية، لقد تابعها منذ غادرت مركز الندوة، وراعه تعثر خطواتها ولم يتردد لحظة في متابعتها حينها فقط لاحظ انها ليست بخير.. صونة كانت تترنح كمالمخمورين..

جلس على الرصيف يسند جسدها الى صدره وركبته بينما يتحسس وجنتها ليصعق بمدى حرارتها..

-جسااااس..

تأوهت اسمه من بين شفتين مرتجفتين ليغمض عينيه ثم يهمس لها بعاطفة:

-حبيبتي انت محمومة، يجب أن أخذك للمشفى.
-لاااا.
اعترضت بهذيان ليحملها دون اعتبار لاعتراضها ويسرع بها نحو سيارته القريبة وهو يهتف بالجمع المتجمهر حولهما بغلاظة:
-انها ابنة عمي.. ابتعدوا عن طريقي.
رأى احد الرجال بالزي التقليدي يقترب وبرفقته احدى افراد الشرطة النسائية والتي نظرت لجساس بتوجس جعله يهتف بغيظ:
-انها مريضة سأخذها للمشفى.
انحنت الشرطية على صوان وسألتها:
-سيدتي هل أنت بخير؟ هل تعرفين هذا الرجل؟
-لاااا..
أنت بألم بينما تتحرك لتقترب منه أكثر وذراعيها تلتفان حول عنقه باستسلام جعله يهتف بحنق:
-ستلقين بي في السجن ايتها العنيدة..
-لاتتركني.
همست بشحوب خافت ولكنه وصل كلياً للشرطية التي اشارت له بأن يضعها في السيارة كما كان ينوي:

-سأتبعكما بسيارة الدورية فقط للاطمئنان.
اومأ لها بتفهم.. ثم وضعها برفق في مقعدها الاثير هامساً لها:
-قلت لكي انك من ستدشنينه صوانة.
أحكم حزام الامان حولها وانطلق بها نحو مشفى قريب.. كان ينظر لها بنظرات خاطفة فقط ليطمئن عليها، لطالما كانت تسقط ضحية الحمى بطريقة مأساوية وتسبب لكل من حولها الارتباك، يتذكر حين اصيبت بالحمى أخر مرة.. كان في التاسعة عشر وقد ظنها تموت ووقف أمام فراشها في منزل العائلة يبكي دون خجل.
وصل بها الى المشفى وحملها داخلاً الى مركز الطوارئ تلحق به الشرطية. وبينما أخذوها بسرعة ليعاينوها كانت تتشبث بكفه وترفض تركه..
-تعال معنا.
همست له احدى الممرضات ليفعل بكل سرور.. وضعوها على سرير ضيق واقتربت الممرضة نفسها لتنزع حجابها فاعترض بعصبية:
-لاتفعلي..

نظرت له باستغراب قبل ان تقول:
-يجب ازالة الملابس المحكمة انها فاقدة الوعي وفي حالة هبوط حاد..
أشاح بوجهه حينها وعض نواجده بقوة كفه لاتزال محتجزة كفها بينما عيناه تنظران للطرف القصي.. يغض من بصره بطريقة مضحكة..وهو من كان منذ دقائق يضمها الى صدره قريبة منه.
-افلتاه الان ليعاينها الطبيب..
-هلا غطيتي شعرها..أرجوك.
همس للممرضة التي ابتسمت ورفعت قبعة زرقاء شفافة وهي تؤكد له:
-لا تقلق حضرتك.
أفلت كفها بصعوبة وتراجع للخارج محاذراً عدم النظر اليها، جلس خارج الغرفة قبضتيه بين ساقيه ووجهه منقبض بقلق، كانت تمرض باستمرار تلك الحمقاء المتهورة، ولابد انها لم تهتم بنفسها وأجهدتها دون توقف.
زفر بضيق ثم شعر بالشرطية تقف قبالته ودون أن تسأل قال بحزم:
-انها خطيبتي.

قالها ورفع بنصره الايمن ليرها خاتم فضي عريض ثم أخرجه ليظهر اسمها المنقوش على الفضة:

-اسمها صوان الشيب.. هي ابنة عمي وخطيبتي.

-هي لاترتدي خاتماً؟!

قالت ببرود ليهمس بصوت مخنوق:

-هي لاترتدي اية نوع من المجوهرات في اصابعها فهي تكره ذلك.انها تضع خاتمي حول عنقها.

ابتلع ريقه بصعوبة.. صوانة لاتعرف قط انه يعرف، كان سره الذي احتفظ به واحد أسباب ثقته بحبها له مهما تكبرت.

تراجعت الشرطية لتتحدث مع احدى الممرضات والتي همست لها ببضعة كلمات قبل ان تخرج لجساس وتعطيه حجاب صوان الأزرق، وسلسالها الذهبي، ليقبض عليه بقوة ويقرب الوشاح من انفه متنشقاً رائحتها العذبة.. مزيج من رائحة الزهر الابيض، والقرنفل. مزيج جعله يغمض عينيه ويلثم القماش الناعم بشفتيه بقوة.

-هل أقدر على رؤيتها؟

-تفضل انها تنام الان.. حالما تنخفض الحمى ستستيقظ.

قالتها الممرضى بدماثة لينهض ويدخل ملقياً نظرة عليها، كانت نحيلة للغاية تكاد العظام تبرز من وجنتيها وكتفيها، ملامحها الانثوية تكاد تختفي تحت الأغطية.. مماجعله يبتسم بحنو:

-من قد يرغب بعظاءة مثلك غيري صوانة؟

جلس الى جوارها ثم التهم ملامحها الشاحبة ومال ليحكم السلسال حول عنقها ورتبه بحيث لا يظهر من فوق ملابسها شيء، لن تكون سعيدة بانكشاف أمرها ابداً.

استند على مرفقه وقبضته تمسد رأسه المنهك قلقاً عليها، الى متى سيظل قلبه ينفطر بسببها؟ الى متى سيخاف ويخشى عليها، وهي تنأى بالبعد عنه؟؟ تهرب منه وتتفاداه كالطاعون ماعدا لحظات نادرة يقتصها من يوم الجمعة...يسمع صوتها، ويهدئ الخافق فيه بلاتوقف.. ولو حتى لأيام قليلة.

-من سيحبك مثلي ياقطعة من روحي؟!

همس لعينيها المغلقتين.. يقترب من معصمها الناحلوتبتسم عيناه لرؤية أصابعها النحيلة الطويلة وعروقها النافرة قبل أن يتبع انحناءته الناعمة بأنفه المستقيم...متنشقاً عبيراً ياسميناً جعل ابتسامة عينيه تنتقل الى شفتيه ليبدو منتشياً هامساً:

-ياسمينتي السمراء الغالية.. حبيبة عمري كله.

-جسااس..

سمع صوتها الرقيق لينتفض واقفاً منحنياً عليها يغرق في عوالم من الشوكولاتة السائلة الغنية في عمق عينيها، والحيرة المتأصلة في داخلها..

-لبيه..

قال بنبرة أجشة لتأخذ نفساً عميقاً عبق برائحته، مزيج من المسك وخشب الصندل.. رائحة الكاوتش المحترق.. رائحته الأزلية وكأنها متغلغلة بداخل مسام جلده، جزءاً منه..

مالذي يفعله هنا معها؟ كانت غائبة كلياً.. عقلها يسبح على غيمة، لايكاد يمس الأرض.. رأت ملامح وجهه قريب جداً منها.. اتسعت عينيها بجوع شديد لملامحه الحبيبة.. ابتسمت معلقة فوق

الغمامة تغيبها الحمى وتجعلها ترى تخاريف ولابد..
فهي ترى جساس الان معها؟؟!
لايعقل لجساس أن يكون معها؟؟ ليس هكذا نظرت لنفسها باندهاش.. انها ترتدي فستان عرسها وتضع تاجاً من الورود على رأسها، راقبت جساس بعينين متسعتين لم لايرتدي بدلة رسمية؟ سيقتلها في يوم ما؟؟
-لم لاتضع ربطة عنق؟
سألته بعبوس لينعقد حاجبيه بقلق وهو ينظر لنفسه دون فهم؟عن أي ربطة عنق تتحدث؟
-صوانة أأنت بخير؟
زمت شفتيها وقالت بثقل:
-هل أعجبك ثوبي؟
ارتفع حاجبيه بحيرة قبل أن يفطن لشيء.. مد كفه وتحسس جبينها لتتأوه هاتفة:
-أنت بارد للغاية.. لم لاترتدي ربطة عنق؟ كيف تحضر حفل زفافنا دون ربطة عنق؟
-يالهي.. صوانة..انت تهذين ومحمومة للغاية.

قالها بانفعال وهو يتفجر بالغضب، والقلق.. ولكنها لم تتوقف بل سرعان مااغلقت عينيها ودموعها تنساب على وجنتيها شاهقة:

-أنت لاتحبني.. انت..عمتي..عمتي لاتريدني.

اغمض عينيه بألم واقترب متجاوزاً كل الحدود ليقربها منه ويضمها الى صدره بحنو هامساً باخلاص:

-أحبك .. أحبك ولن تكون سواكي ياماليكة قلبي أتفهمين؟ أنت فقط من تحتلين قلبي وعقلي دون منافسة.. لاتأبهي لأحد.. لاأمي ولاسواها سيبعدنا عن بعضنا حبيبتي..

-لا لا..اذهب اليها، لاتأتي الي.

هتفت بألم ليشدد ذراعيه حولها:

-أنا كلي معك.. ولك فقط، لاتهمني أمي..ولا ابنة خالتي، لايهمني شيء.

انتفضت بين ذراعيه من قوة الحمى وبكت:

-انت سترحل.. ستتركني وترحل.

-ابداً .. ابداً.. لن أتركك مطلقاً ساقاتل كل من يقف بطريقي اليكي وأنت أولهم، لن أسمح لكي

بالابتعاد عني، لن أسمح لكي بتركي سأحطم كل شيء يقف بوجهي أتفهمين؟!
-أنا..أنا احبك..
همست بتخاذل لينتفض قلبه بجنون..وينظر لعينيها بلهفة عاشق:
-قوليها مجدداً..
ابتسمت لعينيه بضعف:
-اين قالب الحلوى؟!.. لم أكلته كله؟
اتسعت عيناه وهتف بغيظ:
-لا لا صوانة قولي انك تحبينني.. قوليها من جديد ياعمري.
عادت عينيها للفراغ وارتعشت بين ذراعيه ليعاود ضمها الى صدره بقوة، رباه كم هي رقيقة وصغيرة بين ذراعيه، كدمية بلاحول ولاقوة..
تنهد بحنان وقبضته تشتد حولها اراد أن يضمها هكذا منذ وعت عيناه وقلبه على حبها، ولكنه في عمره كله لم يحظى بهكذا قرب، كان يتخيل أن يضمها اليه بقوة ويلامس بأصابعه كل جزء منها

لينهل من عبق جمالها ويشبع شوقه اليها مهما كانت الظروف، ولكنه لم يقدر.
رغم كونها بين ذراعيه متكورة تكاد تنفذ تحت جلده.. الا أنه لم يجرؤ على لمسها بالطريقة التي كان يتخيل..
أصابعه ظلت مستنفرة كي لاتلامس جلدها الرقيق، ولاتكوينها الانثوي الناعم الملاصق له، شعر بالدماء تفور في عروقه.. ومشاعر جامحة تسيطر على داخله وكأنه يكاد يجن..
استغفر الله بصوت خافت قبل أن يعيدها الى فراشها بيسر مستغلاً كونها تقريباً بلاحراك، سلبية للغاية بين يديه، نظر لها لبعض الوقت.. كانت تعود الى النوم.. وجسدها يبدأ الاستجابة للعقاقير الطبية وأثر الحمى عنها ينحسر تدريجياً.
يعرف انها ماان تفوق الى نفسها فانها ستعاود رفع الحواجز من جديد، ولو كلفها ذلك ان تحطم قلبها، ويدرك ان اعترافها الصريح بحبه لايحسب كونها في حالة غير واعية ولكنه يكفيه حالياً..
لذا ابتسم.. واستقر على كرسيه يراقب تنفسها المنتظم ويغرق في نشوة الذكرى التي اجتاحته

للحظات قصيرة استقرت فيها حبيبته بين ذراعيه.. وتجسد حلمه حقيقة ولو لبعض دقائق فقط.

***

روما..

دخل ركان الى المطعم الانيق بخطوات واثقة وبعد سؤال قصير للنادل كان يقوده الى طاولة تطل على ملعب كرة القدم العريق يجلس عليها رجل وحيد سرعان ماابتسم لركان ونهض لتحيته بحرارة:

-مرحباً بابن العم.. كيف حالك ياباشا؟

التوى فم ركان بشبه ابتسامة وجلس امام ابن عمه القادم من باريس في مهمة محددة وصارحه:

-سيئة..

رفع الرجل حاجبه وقال بمكر:

-السلطانة تضيق النطاق حولك؟!

طلب ركان الشراب ونظر لرفيقه صاحب الشعر كجناح الغراب وقال بتوتر:

-انها تخنقني شاهر.. لا اعرف كيف سمحت لاولئك العجزة بادارة الامور والتدخل بعملنا بهذه الطريقة.

-اخرج شاهر الباشا سيجارة طويلة من علبة فاخرة ووضع مبسمها بين شفتيه القاسيتين وهو يدمدم:

-انها تسرع بخطى متهورة الى قبرها.. انها عملياً تنجز عملك بالنيابة عنك يابن عمي.. فلم لاتتركها تفعل؟

شعر ركان بالضيق وشرب كأسه دفعة واحدة ثم رفع يده يطلب المزيد وشاهر يواصل بسخرية:

-خطتنا تسير على مايرام.. المجموعة ستعود الينا في وقت قصير وأنت ركان..أنت ستعود لتحتل مكانك الطبيعي.

زفر ركان بتوتر وعاد ليشرب كأسه قبل ان ينظر لعيني الداهية شاهر وهو يفكر بأنه يستطيع فعل هذا..

يقدر أن يخدعها لأيام قليلة بعد.. المهم الأن..

أن يغيبها في غيمة الغرام أكثر.. ولايجعلها تشك بشيئ.

***

المغرب.. المطار..

وصل الى المقهى المطل على ساحة الاقلاع وجلس وحيداً رغم الصحبة المعروضة عليه بلا مقابل، وضع قبعته الرسمية على الطاولة وبدأ باضافة السكر بافراط، ثم فض لوح الشوكولاته الضخم الذي أحضره وبدا يتناوله بنهم. لم ينم ليلة أمس كلياً.. تلك القزمة وجحودها لم يتركا له الحرية للغوص في نوم عميق ومهدئ، ثم كانت بينو..!!

زفر بضيق وأخرج هاتفه من جيبه متحاشياً ذكرى لمسة أصابعها المكهربة، هو يلامس النساء، وبأكثر الطرق حميمية ولكن لمسة تلك الجاحدة ناكرة الجميل.. شيء أخر؟!!

تنهد ورفع الهاتف اليه.. اشتاق للتواصل مع قريب.. شخص يفضي له ببعض مكنونات قلبه ويخلع امامه ذلك القناع الذي لايمل ارتداءه طوال الوقت.

بعد الرنة الثالثة فتح الخط وسمع الصوت الناعم لزوجة ابن عمه:

-صباح الخير أوس.. أية رياح طيبة؟
ابتسم معيداً لها التحية وهمس بتساؤل:
-أهو منشغل أم نائم؟
ابتسمت سلمى العزب بحنان وهي تلقي نظرة مطولة على زوجها وابنها الأكبر سلطان:
-انه يصر على تعليم سلطان الصغير مبادئ السباحة..أتريده بأمر ضروري؟ انهما بالحوض.
رفع حاجبه بدهشة مرحة.. سيف الشيب.. الذئب الاقسى والأكثر وحشة..أصبح منزلياً والادهى انه لايكاد يفرق جانب عائلته، ومن يقدر على لومه؟؟ بوجود امرأة تعشقه وطفلين غاية في الشقاوة هما سلطان ورعاد الشيب.. ليملئا أوقات فراغه القليلة.. هو لايلومه على نسيان أمره أبداً.
-وكيف يبلي ذلك المخلوق الصغير النحيل؟
تسائل برفق لتضحك سلمى وتقول فخورة:
-لم يعد نحيلاً أوس.. تعال وانظر اليه، انه فخر للشيب والعزب معاً.. والأن أخبرني أتريدني أن أخرج سيف؟!
هز رأسه قائلاً بحنو:

-لا..لاداعي ابداً فقط قولي له أننا يجب أن نحضر عيد ميلاد أمي فاطمة.. لم نذهب اليها منذ وقت طويل.

-حاضر سأخبره..اهناك شيء أخر؟

-لاشكراً لك سلمى.. بلغيه تحيتي وقبلي الطفلين عني.

-بالتأكيد.. الى اللقاء.

اغلق هاتفه بعد التحية..ثم زم شفتيه بعبوس.. ماذا دهاه؟ لم يشعر بحسدٍ تجاه حياة سيف والتي خرجت من نطاق العبثية التي يعشقها، وأصبحت..باردة؟!

عقد حاجبيه بحيرة ثم أكمل كوب القهوة ونهض ليلتحق بطاقمه..

...

التسوق من السوق الحرة؟!

انها مأساة.. فكرت بنزق لقد أضاعت الوشاح والأدهى انها لم تتذكره حتى قبل مغادرتها النزل للمطار، لاتعرف أين أوقعته أومتى؟ ربما وقت شجارها مع ذلك الاحمق عديم الحياء.

زفرت بتوتر وشربت المزيد من القهوة المرة، وهي تجيل بصرها بالمعروضات قبل أن تقرر انتقاء خفين مطرزين بالخرز بالوان الرمال والعقيق.. ثم دفعت ثمنهما واسرعت لمكتب الطرود.. خطت لعمتها بضعة كلمات على بطاقة بريدية لمدينة مراكش، وارفقتها بالهدية قبل أن تضع عنوانها وتعطيها للموظف بابتسامة مقتضبة..

سمعت النداء لرحلتها يتردد فسارعت لدفع حقيبتها الوحيدة ومضت الى البوابة..

حين صعدت الى الطائرة كانت تجلس الى جوارها ام شابة برفقة ابنها الصغير والذي كان حماسه لايخفى بأنه يستعد للطيران.. كان مغربياً وأمه التفتت اليها بابتسامة معتذرة:

-انها رحلته الاولى.. اسفة فهو متحمس بشكل لايوصف.

ابتسمت لها باقتضاب واشاحت عن الطفل المتوثب حماسة لتنظر عبر النافذة.. حين صاح:

-ماما اريد الجلوس قرب النافذة..اريد رؤية السحب.

تنهدت ترنيم بنفاذ صبر والفتى الصغير لايكف عن الالحاح والطلب حتى أصابها هي بالصداع ولم تقلع الطائرة بعد!!

-لم لاتجعليه يحل مكاني.

قالت بعصبية وهي تفك حزام مقعدها وتجذب الصغير ليجلس مكانها وتأخذ مكانه متوسطة لتشكرها امه بامتنان قائلة:

-شكراً لك انه عيد ميلاده ايضاً وهو لايكف عن الدلال والتمني.

ابتسمت ترنيم محاولة التفهم قبل أن تحكم حزام مقعدها وتغلق عينيها استعداداً للاقلاع.. وضعت سماعات واقية كي لايؤثر عليها اختلال الضغط ورأت الضوء الاحمر يشتعل مطالباً الجميع بالبقاء محلهم.. ثم سمعت صوت قائد الطائرة الرخيم يتحدث بالانجليزية دون أن تستوعب كلماته ولاحتى صوته وهو يلقي اليهم بالتحية وبعض التعليمات الضرورية قبل الشروع بالاقلاع.

بعد مايقارب الخمسة عشر دقيقة كان الضوء الأخضر يشتعل فتبعد السماعات عن أذنها وتحل

حزامها ثم تخرج كتاباً من الرف العلوي لمقعدها وتشرع بالقراءة متجاهلة الصغير وأمه..
الرحلة مضت بسلاسة، وبدأت المضيفات بتوزيع المشروبات وبضع وجبات خفيفة لمن يريد حين شعرت بالجلبة..
-مامااا انظري انه قالب حلوى؟!!
صرخة الصغير اخرجتها من انسجامها، لترفع عينيها وترى قالب الحلوى متجهاً اليهم..
كان عيد ميلاد الصبي وكمايبدو فقد جهزت له والدته هذه المفاجأة..!! ياللحماقة..
كان عليها أن تفسح المجال وتطلب من المضيفة بحزم ألاتلوث سترتها الكريمية بالشوكولا الكثيفة مماجعل المضيفة ترشقها بنظرات قاسية.. قبل أن تضع القالب امام الصغير بابتسامة واسعة هاتفة:
-هل لديك أمنية تود تحقيقها أيها الشاب؟
كانت عيني الصغير متسعتين بانفعال وحماسة وهو يكاد يتقفز من فرطهما:
-نعم..نعم اريد ان أرى الطيار.. اريد ان أرى الطيار..
-ممم.. الكابتن لن يمانع.. انتظر لحظة.

قالتها المضيفة بابتسامة واسعة قبل ان تشير لرفيقتها والتي تألقت عينيها بجاذبية قبل ان تسرع لاحضار كابتن الطائرة..

تنهدت ترنيم بانزعاج وعادت تدفن وجهها في كتابها عن تاريخ كينيا والحيوانات المتوحشة وأكلي لحوم البشر حين سمعت صوتاً مرحاً جعل جلدها يقشعر باستجابة مزعجة..

"انه هو؟ هل يلاحقها فعلاً؟؟ أم انها من تفعل؟"

قربت الكتاب أكثر من وجهها متجاهلة خفقان قلبها المدوي، وانزعاجها التام وارتجاف أصابعها وهي تسمع نبراته الخشنة وهو يداعب الصبي بكلمات مرحة قبل أن يقهقه ومن معه لدعابة ما أطلقها..

رباااه لم تسمع هذا الطنين؟

عبست وحاولت التركيز في الكلمات المتراقصة امامها متجاهلة نداء الرجل الخفيض..

-أنستي.. هلا افسحت لنا مكاناً..يا أنسة؟!

عاد يكرر بضيق.. المسافرة جارة الصغير تبدو بحاجة لسماعة اذان.. فكر بضيق، كانت تخفي وجهها كله خلف الكتاب الغبي الذي تحمله

وتتجاهل ندائه باصرار.. لذا مال نحوها وخفض الكتاب هاتفاً بنفاذ صبر:

-هل أنت مريضة أو ماشابه....

وتعلقت باقي حروفه وهو يلتقي بعينيها..حاجبيها الكثيفين وشفتيها المزمومتين بقوة، انها تكرهه حقاً الان.. وهو؟! كان ينظر لها باندهاش صريح وقد فغر فاه بطريقة مضحكة .. لا لقد تعدى الأمر الصدف.

-حسناً ..حسناً.. انظروا من لدينا هنا؟!

همس بفحيح امام وجهها لتلامس أنفاسه المعطرة بنكهة القهوة بشرتها وتجمدها مكانها بينما يلتوي فمه بسخرية:

-هل تلاحقينني ياأنسة؟

زوت حاجبيها وفكرت برد لاذع يوقفه عند حده لولا تدخل الصغير جوارها:

-انت الكابتن؟

انتقلت عينيه للصغير بخفة ثم عادت لترنيم العابسة بشكل مضحك، قبل أن يقترب خالعاً قبعته:

-نعم هو أنا أخبروني أن أمنية عيد الميلاد هي رؤيتي؟

-نعم نعم صحيح..

هتف الصغير بابتهاج بينما شخرت ترنيم بسخرية وعلقت قبل أن تمسك نفسها:

-هاقد ضاعت امنية العام بلافائدة.

زمت شفتيها بسرعة بينما ضاقت عينا أوس بنظرة صاعقة قبل ان يقترب بجسده بخشونة مزيحاً ساقيها بساقه لتصرخ بحنق فيرفع حاجبيه دون أن يبالي بها لتهمس من بين شفتيها:

-وقح عديم الاحساس.

سخر بهمس مماثل:

-ناكرة الجميل معكرة المزاج.

فتحت فمها باعتراض بينما كان يقف امام مقعدها مباشرة وينحني نحو الصغير.. كان قريباً لدرجة جعلتها تلتصق بظهر مقعدها.. ذراعه تستند على مسند مقعدها، وجسده كله يميل عليها..رمى قبعته لتقبع في حضنها قائلاً بخشونة:

-امسكي هذه.

شهقت معترضة دون أن تتفوه بكلمة ثم مال أكثر ليظهر في الصورة التي طلبت والدة الصبي أخذها، قبل أن يبدأ بالغناء معه اغنية عيد الميلاد..

اجتاحها صوته الأجش لتشعر به يدغدغ مسامات جلدها ويتركه متنملاً حساساً بشكل لايوصف، بينما تلك الرائحة تشق طريقها عبر خلايا أنفها الى عقلها وتعيث به فساداً..أي رائحة هي تلك؟! ماذا يضع هذا المهرج ليهزها من العمق؟! كانت تتشبث بقبعته حتى انغرست اصابعها الطويلة الرقيقة بقماشها السميك المقوى..

-هلا أعدت لي قبعتي؟

رفعت عينين عاصفتين نحوه، رأت نظرته تغمق وتشي بخطورة مايعتمل في رأسه وهي تعيد له القبعة بحنق وكأنها لاتطيق حتى التخلص منها، كان لايزال مائلاً باتجاهها، وجهه قريب جداً، تستطيع رؤية ملامح وجهه الحليق بوضوح.. عينيه الرماديتين تلمعان كعاصفة عاتية، رموشه الطويلة وحاجبيه الكثين، ثم كانت شفتيه

المكتنزتين بانفراجه حسية جعلتها تتراجع بخوف..من أفكارها قبل اي شيء أخر.
انه يخيفها .. هذا الرجل يخيفها.
-أتودين قطعة من قالب الحلوى؟
سألها بخشونة لتدرك حتى العظم أنه لم يعني الكعكة أبداً، ابتلعت ريقها مصعوقة من وقاحته ثم أجابت بشحوب:
-أنا أكره الشوكولا.
لمعت عيناه لوهلة.. ثم لعق طرف شفتيه بلسانه غارقاً في عينيها البنيتين بلون الشوكولاته الداكنة وهمس باصرار:
-ستحبينها..جربي فقط.
-لاأريد ولن أفعل.
ردت بعناد ليبتسم دون أن تصل ابتسامته لعينيه ويقول بتحدٍ:
-ستفعليـن.. رغماً عن أنفك.
أضاف بخفوت لتنتفض ويتراجع هو مستقيماً ليشير للصبي:
-أتود رؤية قمرة القيادة؟

هلل الصبي بفرح وقفز خلف أوس الذي وضع على رأسه القبعة واشار بالتحية لوالدته ثم ترنيم بابتسامة ساخرة ثم استدار عائداً الى قمرته وبداخله يتصاعد قرار صلب بأنه ابداً لن يترك تلك القزمة تفلت من بين يديه.. دون ان يعترف بالاسباب او حتى يفهمها. ولكنها ستكون له، مهما مضى من وقت.

تاركاً خلفه المرأة المعنية بالكاد تسيطر على ارتجافة أصابعها وداخلها المبعثر والذي تسبب به ذلك المهرج عديم الحياء ذو الرائحة الغريبة والتي لا تقاوم.

***

نهاية الفصل

الفصل الثالث

***

لا تُحسبينَ جميلةً جداً
إذا أُخذت مقاييسُ الجمالِ..
لا تُحسبينَ مثيرةً جداً..
إذا دار الحديثُ عن الغوايةِ والوصالِ
لا تُحسبينَ خطيرةً جداً..
إذا كان الهوى..
معناه أن تتحكمَ امرأةٌ بأقدارِ الرجالِ
لكن شيئاً فيكِ سرياً.. وحسياً وشعرياً..
يحرضني.. ويقلقني.. ويأخذني
إلى ألف احتمالٍ واحتمالِ..
لا تُحسبينَ جميلةً جداً..
لكن شيئاً فيك يخترق الرجولة،
مثلَ رائحة الأنوثة، ومثلَ عطر البرتقالِ..
شيئاً يفاجئني.. ويحرقني.. ويغرقني..
ويتركني بين الحقيقة والخيالِ
لا تحسبين جميلةً.. لكن شيئاً فيكِ مائياً..

طفولياً.. بدائياً.. حضاريّاً..
عراقياً .. وشامياً..
يكلمني..
ويرفض أن يجيبَ على سؤالي..
لا تحسبين جميلةً..
لكن شيئاً فيكِ أقنعني..
وعلَّمني القراءةَ، والكتابةَ،
والحروف الأبجدية والوصالِ..!!
نزار قباني.
***

عبير ♥ قائد
لاتزال تقود سيارتها بسرعة كما اعتادت، الضباب خفيف والشوارع خالية.. تشعر بألم يمزق قلبها وشعور كالقبضة يعتصر أحشائها.. احساس بالخيانة والهجر.. احساس بالنبذ وكأنها مجرد حشرة لاتسوى.
تأملت خاتمها الذي زين بنصرها الأيمن وغامت عينيها بالدمع، لاشيء أسوأ من أن يقصيك حبيبك وشريكك المستقبلي عماحوله. تنهدت بألم وزادت من سرعتها وهي تحاول أن تضع عينيها على

الطريق وتركز في القيادة.. حين من وراء اللاشيء ظهر ذلك الشبح أمامها..صرخت بعنف وادارت المقود بجنون ليقودها مباشرة عبر الشبح الذي صرخ بعلو جعلها تنتفض وتفتح عينيها باتساع لتدرك ماحولها..

كانت لاتزال في الطائرة..

لهثت بعنف.. عينيها تجولان حولها بذعر مستتر لتقع في عينيه؟!!

ماذا يفعل هنا؟!

-هل أنت بخير؟

تساءل بصوت أجش.. لتنكمش دواخلها بعنف وتتراجع في مقعدها مكشرة في وجهه:

-لاشأن لك بي.

رفع حاجبه الكث واستدار على عقبيه عائداً الى قمرته بعد ان أتم مهمته واعاد الصبي الصغير الى أمه، حينها رأها نائمة .. لوحة فنية غريبة وقد غادرت الحيطة والحذر محياها وتركتها ناعمة مسالمة كقطة منزلية..

حينها رأى تقلص وجهها المعبر وشعر بالفضول لوهلة قبل أن يجتاحه التعاطف لمرأها تنتفض بألم قبل أن تتسع عينيها مستيقظة...
ضاعت لحظات التعاطف حالما فعلت وبدأ لسانها السليط بالعمل، ليدرك أن حتى القطط الناعمة المسالمة لها مخالب وأنياب تعض وتخرمش..
تململت في مقعدها واصابعها تمسد جسر أنفها ولاتتذكر من كابوسها سوى عينين رماديتين قاسيتين، ساخرتين. مالذي يحدث لها،لم هذه المشاعر الغريبة التي تنتابها كلما كانت بالقرب من ذلك المهرج، وما اكثر تلك اللحظات.
-هل رأيتي كابوساً؟
سألها الصبي بفضول لتنظر له عابسة وتومئ قبل أن تنهض معتذرة للذهاب للحمام.
بعد ساعتين وصلت الطائرة وجهتها، وبعد استقرارها نهضت ترنيم بوجه مقبوض وعصبية متصاعدة لاتدري كنهها رأت طاقم الطائرة يقف لتحية المسافرين.. ورأته يقف على رأسهم بتلك الابتسامة الرجولية الواثقة والتي احتلت ملامح وجهه، زمت شفتيها بغضب وبسبب التلكك امام

بوابة الخروج وقفت أمامه مضطرة ليميل على المضيفة التي تحمل لائحة المسافرين ويقول بنبرة أجشة:
-سنلتقي مجدداً أنسة ترنيم الراجي.
رشقته بنظرة غيظ قبل أن تصرح بفظاظة:
-في أحلامك.
رفع حاجبيه بإغاظة وهمس:
-أنت ليس لديك أدنى فكرة عن أحلامي ترنيمتي..
لمعت عينيها بغضب عاصف وقد بدأ الصف بالتحرك:
-لست ولن اكون أبداً ترنيمتك أيها المهرج.
هتفت بعنف جعله يدفع برأسه للوراء ويقهقه بصوت عالٍ رفع ضغط دمها وهي تغادر الطائرة وقدميها تضربان الارض بحنق وغيظ شديدين.
واجهتها الحرارة الشديدة والشمس المشعة، وضعت نظارتها المظللة ومضت تنهي باقي اجراءاتها، بأعصاب متفجرة ومتلهفة للجوء الى غرفة الفندق وأخذ حمام طويل.. ينهي ارهاق وتعب النهار.

كانت جائعة وقد فوتت وجبة الطعام على الطائرة، تنهدت ومضت الى صف طويل من سيارات الأجرة وجلست الى احدها قبل أن تخرج بروشور دعائي من حقيبتها الصغيرة وتعطي اسم الفندق الذي حجزت به أمس، وعينيها تقرأ تفاصيل رحلة السفاري المعروضة للمرة المائة.

....

اندفع اوس بخطوات سريعة نحو مقهى المطار وجلس مخرجاً هاتفه النقال وأرسل رسالة أليكترونية الى مدير الشركة التي يعمل بها، وزم شفتيه بعبوس منتظراً الرد، بينما يشرب من كوب قهوة حلوة، ويتناول قطعة ضخمة من كعكة الشوكولاتة. وبعد لحظات فقط وصله الرد بالموافقة ليبتسم بعبث وهو يحكم خطته المجنونة. نهض ملتقطاً حقيبته الشخصية وقبعته ثم انطلق الى طريقه للخروج من المطار ليعترضه مساعده الاول باستنكار:

-مالذي يحدث معك؟

رفع حاجبه باستفهام ليواصل صديقه:

-هاتفتني الشركة قبل قليل تخبرني بالحلول مكانك واستدعاء المساعد الاحتياطي.. هل أنت مريض أو ماشابه؟!

-لا ولكنني طلبت اجازتي الشخصية المستعجلة.

-لماذا؟!

رقص حاجبيه وهمس بتلاعب:

-انها تسمى اجازة شخصية.. ولم أخذها لثلاث سنوات.. انها حقي.

ثم ثبت قبعته وقال بابتسامة عريضة:

-والأن ابتعد عن طريقي.

ورفع ذراعه ليطلب سيارة أجرة ويختفي عن الأنظار...

....

بعد ساعات وبعد حمام منعش ارتدت بيجاما قطنية خفيفة قبل أن تجلس على فراشها الضيق وبدأت تسرح شعرها الناعم الطويل، فرشاتها الناعمة تلامس الخصلات الرطبة بشكل متكرر أرسل النعاس الى عقلها، والخدر الى أطرافها..أخرجت علبة صغيرة ومسحت القليل من الدهن الذي بها لتضعه على شعرها الرطب

وابتسمت بحنين، الرائحة الناعمة التي انتشرت .. زهرة البرتقال ومزيج الفل والاعشاب..كانت والدتها تجلسها بين ساقيها وتمشط لها شعرها لوقت طويل وتضع لها الدهن المعطر وتهمهم لها بمدى جمالها ونعومتها قبل خلودها للنوم، تقص لها الحكايا وتسمع منها الأخبار قبل أن تطلب منها أمها أن تمسك كمانها وتعزف لها.

وجمت ملامحها ونهضت تقف امام النافذة المشرعة على ضلفتيها مشرفة على المدينة الحارة وهي تستقبل النسمات الخفيفة التي تلاعبت بخصلات شعرها والستائر الشفافة.

انها ليلة حارة دافئة ومغرية، تذكرها بليالي عدن.. تلك التي كانت تقضيها امام ساحل البحر المقابل لمنزلهم، ترافقها أمها وشقيقها خالد في أحيان كثيرة..

تنهدت لم هذا الحنين يهاجمها الأن؟! لماذا الأن؟

جلست على حافة النافذة متجاهلة الارتفاع الشاهق، وأغمضت عينيها...

انها تحلق وحيدة.. دون معين وهي لن تحتاج ولم تحتج أبداً، فتحت عينيها بتنهيدة عميقة تحولت لشهقة فزعة حين فاجأها صوت ناعم ساخر :

-أنت لاتنوين الانتحار في التو واللحظة أليس كذلك؟

فعلاً كادت تقع من جلستها المسترخية، قبل أن تمسك حافة النافذة الجانبية، وترفع عينيها اليه بنظرة صاعقة..

كان في النافذة المجاورة مباشرة، يجلس مقابلاً لها على حافتها بينما تتدلى ساقه الطويلة في الهواء ويستند ظهره على الجدار المجاور.. عيناه تلمعان وابتسامته تتألق بكسل على شفتيه..

-ماذا تفعل هنا!

همست بشحوب دون أن تتحرك من مكانها لتزيد لمعة عينيه ويسألها بالمقابل:

-ماذا تفعلين أنت؟!

-هذا ليس من شأنك.

-اذاً شأني ليس من شأنك بالمقابل.

هز كتفيه بلامبالاة لتستعر عينيها ثم تشيح عنه بعنف.. ليبتسم بمكر ويميل برأسه غارقاً في النظر اليها..

"لا تُحسبينَ جميلةً جداً

لكن شيئاً فيك يخترق الرجولة،

مثلَ رائحة الأنوثة، ومثلَ عطر البرتقالِ.."

أخذ نفساً عميقاً مشبع برائحتها شيء بعبق البرتقال.. تأملها لوهلة..

لقد فعل المستحيل ليجد غرفتها في الفندق ويحجز الغرفة المجاورة فقط على أمل ان يستمع لخطواتها ولم يتخيل أبداً أن يراها تتلصص على المدينة الساكنة بعد منتصف الليل، ثم أخذت أنفاسه لمرأى خصلات شعرها الناعمة تتطاير حول وجهها.. لم يكن يعرف أن رؤيته لحرير شعرها سيؤثر في مشاعره بتلك الطريقة البدائية جداً.. لتكتمل الصورة المحرمة والتي رسمتها خلايا مخه بلا تردد ودون حواجز لتجعل الدم في عروقه يبدأ بالفوران.

"شيئاً يفاجئني..

ويحرقني..

ويغرقني..
ويتركني بين الحقيقة والخيالِ"
انفرجت شفتاه بذهول وهو يتأملها غارقاً في ملامح وجهها الناعمة تحت الظلال..
كان يود ان يتأملها للأبد، يغرق في ملامحها ويحيطها بدفئه ولايفلتها..
" لا تحسبين جميلةً..
لكن شيئاً فيكِ مائياً..
طفولياً.. بدائياً.. حضاريّاً..
عراقياً .. وشامياً..
يكلمني.."
لم يقدر على البقاء صامتاً.. ولم يقدر على الحديث ليس بتلك المشاعر الغريبة التي أحاطت به وجعلته يناظر فتاة لاترقى لمستوى النظرات كما يؤمن وتجعله يبدو كالأبله بمطاردتها في الشوارع والتسجيل في نفس فندقها ثم مطاردة طيفها على النافذة.
وجب عليه التكلم ولو بسخرية كي يخرج من حالة التيه التي وقع بها مع شخصية مثلها.. عنيدة وغبية و... قزمة.

التفتت له بعنف وهتفت بشراسة:
-أنت عديم الحياء لم تتبعني بهذا الاصرار؟ لم تلاحقني؟
رفع حاجبه بتعجب:
-ألاحقك؟ ولم سألاحق فتاة مثلك؟؟ بالكاد تحمل أنوثة في عروقها؟؟ لولا رؤيتي لشعرك لظننتك رجلاً.
-شعري؟!!
هتفت متفاجأة ثم صعقتها الحقيقة المروعة..
تسمرت مكانها والنسمات تتلاعب بالشعيرات الناعمة لتتناثر حول وجهها وتتركه ينظر لها بذهول وكأنما لم يرى من قبل مثيلاً لها.. شعرها كان طويلاً جداً.. وكأنه بلانهاية؟! أسود مظلم كظلام هذه الليلة..
ثم رأها تجفل لتخرجه هو قبلها من الدوامة التي أحاطت بهما بمعزل عن العالم حولهما قبل ان تقفز من حافة النافذة لداخل الغرفة شاهقة وهي تضع يديها على رأسها وكأنها ستخفي شعرها عن عينيه الناعستين.. وقعت على الارض مثيرة جلبة، لينتفض بمكانه ويعتدل باهتمام ولكنه لم

يسمع الصراخ المتألم الذي توقعه لذا ابتسم بتفكه وصرخ بسخرية:
-هل كسرتي شيئاً يصعب اصلاحه؟!
-اذهب الى الجحيـــم.
صاحت بعنف جعله ينفجر بالضحك المتسلي ويعاود استرخائه على حافة النافذة..متلذذاً بتلك الذرات من الهواء والتي لاتزال عبقة برائحتها.. شقاوتها.. وغضبها المشع منه.
***
أبوظبي..
استيقظت مع بشائر الفجر فتحت عينيها تطالعها السماء المظلمة والتي حملت صوت الأذان من مسجد قريب، كانت مرهقة ومتعبة للغاية.. تشعر وكأن قاطرة ضخمة قد مرت على عظامها وتركتها شبه ميتة.
مالذي حدث معها؟! حاولت التذكر..
كانت في الندوة..تعاني من بدايات زكام ما، جائعة وصداع يفتك بخلايا مخها بلاهوادة، كانت تسير وحدها.. لا.. هي لم تكن وحدها!!
"جسااااس؟!"

همست بتساؤل حمله الهواء..
"لبيــه"
هتف من مقعده القريب وهو ينتفض اليها، نازعاً عنه كل أثر للنعاس والتعب ومنتبهاً وكل أذانه صاغية حالما تحركت وبدأت همهمتها باسمه..قفز اليها دون تردد.. انه هنا من أجلها.
نظرت لعينيه باتساع..عينيه قلقة ومهتمة.. بل عاشقة ومتألمة كما يجب أن تكون.
-ماذا تفعل هنا؟!
تسائلت بوجع.. ليشعره كقبضة تعتصر صدره وتقربه اليها كعبد صاغر بلاحول ولاقوة..
-انا هنا من اجلك صوانتي، أنت مريضة..وكنت تهذين بالحمى.
غامت عينيها بذكرى حلمها المعتاد.. هل راته تلك الليلة كذلك؟!أم أنه كان بعيداً كمااعتاد أن يكون؟ بسببها هي؟!
ابتلعت ريقها بصعوبة ليسألها بقلق:
-أأستدعي الطبيب؟ هل تشعرين بألم؟
كان قلبها يؤلمها.. هل يوجد لألم العشق علاج؟

التهمت ملامحه القريبة بلهفة..متهورة وطائشة كما لايجب ان تكون.. كان شعره قصيراً جداً كما اعتاد..ملامحه السمراء العنيدة متوترة وخائفة من اجلها. تعرف مقدار حبه لها.. حبه الهائل الذي توازيه حباً وربما أكثر.

-أريدك أن ترحل.

همست بألم ليتأوه بالرفض:

-لا لن أرحل..لن أذهب وأتركك أبداً بهذه الحالة.

نظرت له بلهفة وجوع وكأنها تريد الاحتفاظ بملامحه الحبيبة محفورة بأعماقها لأطول فترة ممكنة:

-لن أسمح لك..سوف ترحل الأن والا فسوف أستدعي الشرطة جساس.

-يالهي صوانة كيف تفتحين فمك وتقولين مثل هذا الكلام وحين تنظرين الي بعينيكي..أنت تتوسلين العكس.

هتف بيأس لتغمض عينيها وتشيح بعيدة عنه..خائنة!!

لطالما كانت عينيها خائنة لكل ماتريده وتحكمه بعقلها.. هل قالوا أن العينين نافذة القلب.. انها

مثال صريح لصحة هذا القول.. عينيها الواشيتين.. تكرههما بقدر عشقها له.
-سترحل الأن جساس.. لاأريد رؤيتك.ارحل.
قالت بصلابة وقد بدأت تستعيد سيطرتها على خفقاتها ونبضات قلبها حتى عينيها، رغم خوفها منهما واختيارها عدم النظر الى عينيه مباشرة..
ليهمس برجاء:
-سأبقى صوانة.. فقط لأطمئن عليكي..سأبقى ولن تري وجهي.
ترقرقت عينيها بالدموع.. جساس..الأسد المغوار كيف ينحني ويساوم بل هو..يتنازل فقط بين يديها.. رباااه ماذا تفعل به ومايرضى لها أن تفعل..دون سواها.
-حبيبتي..
همس بصوت أجش.. لتشهق بالدموع دون استطاعة السيطرة عليها ليقسم لها بعنفوان:
-اقسم أنني لن اسمح لك بذرف المزيد من الدموع غاليتي، فقط توقفي عن القتال صوانة. اتركيني أقودك لو مرة واحدة فقط نحوي أنا، سلمي لي مقاليدك وتوقفي عن التفكير.

كان هذا المستحيل بعينه، تركه ليقود..
أكثر السائقين تهوراً في العالم؟! تحشرجت انفاسها وهي تأمره:
-ارحل..
ليغمض عينيه بألم ثم يتراجع بصمت.. كانت تنغلق عنه، تتشرنق حول نفسها ولاتترك المجال له ليقترب او حتى ينظر. ولكنه لم يكن ليستسلم..
-كنتِ تحلمين بي.
همس بثقل لتتسع عينيها بذهول.. هل فعلتها وخانتها الأحلام أمامه؟!
-كنت تصرخين بإسمي وتطلبين مني البقاء..
عاد يقول باصرار ولكنها لم ترد ليواصل:
-كنت تتسائلين لم لم أرتدي ربطة عنق؟ هل كنت تضعين ثوباً ابيضاً بلون الثلج ياصوان؟
تعلقت عينيها بالسقف ولم ترد.. أنفاسها عميقة ومؤلمة وهي تدخل صدرها وتغادرها طاعنة بين الضلوع بقسوة..
-ثوباً يظهر سمرتك.. يناقضها بينما يتساقط شعرك على كتفيكِ كمالأطفال،وأنت تنادين اسمي بلهفة.. وحب.

-أنا.. لا .. أحبك.
همست مشددة كل كلمة على حدة..كانت صادقة فمشاعرها لاتقارن بهذه الكلمة الصغيرة أبداً.
-أعرف..
قال ببؤس.. مشاعره حيرى.. بين التصديق واللامبالاة.. وبين الموت قهراً.
-ولكنني أحبك.. وسأصبر حتى تخرج من اعماقك تلك التي تكن لي المشاعر وتعلن عن وجودها كماهو حقها في الحياة معكي أنت أيتها القاسية المؤذية.
استدار ليواجهها وهمس لعينيها المتلهفتين:
-تلك التي تخرج في أكثر حالاتك سوءاً.. التي تنبع من تحت جلدك تلك هي من اريد.. تلك هي الصوانة التي تشتعل لأجلي.
تألقت عينيها بنظرة صلدة جعلته يتراجع بكتفين منهزمتين وعينين بائستين..
-اتصلت بوالدتك.. أخبرتها أنك مصابة بالحمى وترتاحين لبعض الوقت، خابريها على الفور.. حتى تطمئن.

أشاحت عنه بصعوبة.. مغلقة عينيها على الصورة التي انطبعت في أعماقها .. طوله الفارع وكتفيه النحيلين تحت قميص من الجينز..
ستحتفظ بتلك الصورة ولن تتنازل عنها، ستتركها لتحلم بها في لحظات وحدتها.. أقرب صورة طبيعية يتركها في عقلها منذ زمن.. شيء من الزمن القديم يتكرر.. ويتعمق بداخلها.

***

روما..
اندفعت سيارة البورش عبر الممر المرصوف بالحصى وتوقفت امام بوابة خشبية ضخمة، ثم ترجلت منها سارة ببدلتها القرمزية القصيرة ومضت مسرعة الى داخل الفيلا، عينيها تبحثان عن المشورة وتعقدان حاجبيها بتوتر وهي تسأل عن والدتها بعصبية قبل أن تبلغها الخادمة أنها في غرفة الجلوس الصباحية..
دخلت اليها وهي تهتف بعصبية:
-أمي أريدك بأمر هام..
رفعت امها عينيها ببطئ لتنظر لابنتها بفضول قبل أن تشير لها بالجلوس:

-اجلسي حبيبتي مالذي حدث وجاء بك في هذا الوقت المبكر؟ اليس لديكي عمل في الصحيفة؟!
جلست زافرة بضيق.. تدس أصابعها في خصلات شعرها الناعمة، وتحاول السيطرة على أعصابها، وكلماتها تتعثر على شفتيها بألم:
-ركان.. ركان لم ينم في البيت ليلة أمس، هو لايجيب اتصالاتي ولاأعرف أين هو.
-هل أنت جادة؟؟ هل جربتي الاتصال بأصدقاءه؟! الاستوديو؟
-بالتأكيد أماه.. لقد بحثت في كل مكان.. اتصلت بالجميع لم يره احد.
نهضت أمها بقلق وفكرت لوهلة:
-هل تشاجرتما؟!
زفرت بضيق وعصبيتها تزداد:
-نعم تشاجرنا.. وكله بسبب تقليص الميزانية الغبي الذي صوت عليه مجلس الادارة.
تنهدت السيدة ناهد الشيب ووضعت نظارتها وجريدة الصباح والتفتت بكليتها الى ابنتها الوحيدة قائلة بتفهم:
-هل ناقشتي الأمر معه؟

-لم يترك لي المجال لقد كان غاضباً بدرجة كبيرة.

صاحت سارة باحباط لتشير لها أمها بالهدوء:

-تحلي بالصبر، ليس الأمر سهلاً بالنسبة اليه عائلة الباشا لطالما اعتبرت الصحيفة حق من حقوقها وانحسار هذا الأمر حالياً مع وجود كل اولئك الشركاء يعد ضربة موجعة لكبرياء تلك العائلة..

-انه لايفهم دوري الهامشي في اصدار القرار ماما، هو يتهمني بالتعاون والتآمر عليه معهم.

-عليكي أن تشرحي له العكس.

-أنا لم أجده من الاساس.

وجمت والدموع تتجمع في مقلتيها لتبتسم أمها بتسامح:

-هل جربتي شقته القديمة؟

عقدت سارة حاجبيها وفطنت للأمر الواضح قبل أن تقول:

-رباااه كيف نسيت أمرها؟!

ثم التقطت هاتفها واتصلت برقم معين وبعد حوار قصير لمعت عينيها واغلقت الخط قائلة لأمها بابتسامة:

-انه هناك..اتصلت بأمن المبنى وأخبروني أنه وصل عند الفجر ولايزال هناك، هل اذهب اليه؟!

اومئت لها امها بابتسامة لتنهض من فورها وتلتقط أشياءها مسرعة الى سيارتها.

قادت عبر الشوارع الواسعة نحو المبنى الحديث الشاهق وبعد تعرف الأمن المرابط في الأسفل عليها تركوها تدخل دون اشكال.. وصلت للطابق الحادي والعشرين ومضت الى الشقة المعنية وبحثت خلف أصيص مجاور للباب لنبتة صبار حتى وجدت المفتاح الاحتياطي.. كان قد اخبرها عن وجوده في ايام علاقتهما الاولى مغرياً اياها أن تأتي لتبقى وهي تجاهلت ورفضت مصرة على ابقاء علاقتهما في المستوى الاول فقط.

فتحت الباب ودخلت اليه،تأملت الشقة الواسعة الأنيقة والحديثة، كانت مظلمة ولاتشي بوجود أحد.. ولكنها تعرف أين تجده.. أسرعت نحو

السلم القصير الذي يقود لمستوى أعلى من الشقة المزدوجة وسارعت الى غرفة النوم.
كان الباب مشرعاً وكان ركان هناك..
مستلقٍ على كرسي وثير..بسروال البدلة التي خرج بها بينما ارتمى قميصه وجاكيت البدلة على الفراش، كان يضع رأسه على مسند المقعد وغارقاً في النوم.
تنهدت بارتياح ورمت حقيبتها قرب الباب ثم خلعت حذائها ودخلت اليه.. تأملت ملامحه الوسيمة المرتخية بحنان وفاض قلبها بحب اليه..
مالذي فعلته ليعاقبها بهذا الهجر؟
اقتربت وجلست تحت قدميه.. بينما تستند بذراعيها على ركبتيه وقبضتها تستند الى ذقنها متأملة خشونة ذقنه وخصلات شعره الشقراء المتناثرة على جبينه وتبتسم بحب ميئوسٍ منه مدمدمة بلهفة:
-هيا ركان حبيبي استيقظ..
أصابعها تضغط على فخذه التي تستند عليها ثم مدت ذراعها لتداعب شعيرات صدره القصيرة الناعمة.. مهمهمة بإسمه ليتحرك جفناه بخفة ثم

يفتحهما ببطئ وتلتوي شفتاه لرؤيتها بين ساقيه ثم اعتدل عابساً:

-ماذا تفعلين هنا؟

استندت على ساقيه وارتفعت لتوازي عينيه قبل أن تحيط عنقه بذراعيها وهي تهمس:

-اشتقت اليك.. كيف استطعت أن تغيب عني هكذا؟ دون حتى أن تترك لي خبراً؟

زفر بضيق وقبض على معصميها بقوة ثم ابعدهما عن عنقه قائلاً بقسوة:

-أنا أهرب منك هل هذا صعب الفهم ياسلطانة؟!

تجمدت ملامحها وتراجعت لتنظر له بذهول بينما يمرر اصابعه في شعره المبعثر مضيفاً بقسوة:

-كيف دخلتي هنا؟!

-المفتاح..المفتاح الاحتياطي.

اجابت بذهن شارد لينهض لجاكيته ويخرج علبة سجائره ويشعل واحدة متجاهلاً امتعاضها للرائحة النفاذة وبعد نفسين عميقين جلس على حافة سريره ونظر اليها، لاتزال على الأرض على ركبتيها، بينما اتسعت عينيها العاصفتين بمشاعر متخبطة..

أماهو فقد التوى فمه بابتسامة ساخرة وهو يراها تحت قدميه، لم يكن عقله قد استيقظ كلياً ولكن الان.. انه مستيقظ فعلاً.. لقد أتت اليه على ركبتيها.. انه يملكها، ورغم كل شيء أخر كان هذا الشعور هو الأقوى.. والأكثر تأثيراً.

-تعالي..

مد يده اليها لترفع ذراعها نحوه بتردد وقبل أن تحسم ترددها كان يفعلها بالنيابة عنها ويقبض على معصمها النحيل ثم يجذبها اليه بقوة وسرعة.. لتقع على الفراش وهو يثبتها بجسده فوقها بحركة مغوية ومسيطرة جعلتها تشهق من المفاجأة بينما يحتكم ذراعيها تحت جسدها وقبضتيه تسيطران على كتفيها بينما يدفن وجهه في عنقها مطلقاً زمجرة مفترسة جعلتها تتقلب بين الصراخ معترضة والانفجار بالضحك..وتكتفي بصوت لاهث مقهقه جعله يضغط عليها بقسوة أكبر وهو يدمدم بخشونة:

-أتضحكين علي سلطانة؟!

نظرت لعينيه بعينيها الضاحكتين الهائمتين به وشفتيها ترتجفان:

-أنت .. أنت تضحكني.
أصبح فمه خيطاً رفيعاً قاسياً وكفيه تقبضان على خصرها أصابعه تنغرس في لحمها الرقيق لتشهق بألم وهو يزمجر:
-أنا لست مهرج البلاط سيدتي..
حررت أحدى ذراعيها بصعوبة ولامست جانب وجهه هامسة بغرام ظهر واضحاً في عينيها:
-بل انت الباشا الذي تربعت على قلبي وسلبت لي عقلي.
تصاعد احساس عارم بالرضا من أعماقه ظهر في عينيه قبل أن يدفن تنهيدته الراضية في شفتيها.. ويستقبل عاطفتها التي اعطتها اياها بلاشروط..وذراعيها تتحرران وتحيطان بكتفيه بقوة أظافرها تطعن لحمه بخشونة وهي تبادله الغرام بأقوى منه.
بعد وقت طويل.. كانت تستلقي على صدره شفتيها تزرعان قبلات خفيفة على بشرته الحارة بينما تتكاسل ابتسامة متخمة على شفتيه وهو يضمها بذراع والأخرى تلامس شعرها الناعم بخمول..

-أنا جائع.. انهضي لتحضري لي بعض الطعام.
زمت شفتيها وعبست:
-ماذا تريدني أن أفعل؟! أنا لاأعرف.
رفع حاجبه بتهكم وسخر منها:
-تصرفي ياامرأة أنا جائع، وأنت زوجتي واجبك أن تطعميني.
أرادت الاعتراض الا انه صفع مؤخرتها بتلاعب وهو يزمجر:
-اذهبي الأن..هيا.
نهضت متحلطمة وجذبت الملائة التي يتدثر بها متجاهلة صيحته المعترضة ولفتها حولها مادة له لسانها بحاجبين متراقصين.. قبل أن تنطلق الى المطبخ العصري جداً..وابتسامة عريضة تشي بسعادتها البالغة تزين وجهها.
وقفت وسط المطبخ بجهل تام، تتلفت حولها دون أن تعي شيئاً، ثم اقتربت من الثلاجة الضخمة وفتحت بابيها تنظر لمحتوياتها بعبوس..
-رباااه أي مصيبة ابتليت بها؟؟
هدر خلفها لتقفز تنظر اليه وتتسع ابتسامتها لرؤيته مغالباً ضحكته ويحاول السيطرة على

ملامح الجدية على وجهه وهو يقترب مزيحاً اياها من أمام الثلاجة ويبدأ بإخراج بضعة أغراض منها جعلتها تتراجع لتقف خلفه ثم تحيط وسطه بذراعيها متعلقة به كالعلقة ليقول بحنق:

-ابتعدي عني..

-لا..

قالت ضاحكة ليزفر بحنق بينما يرص الاغراض على الطاولة وهي لاتزال تتعلق به، قدميها الصغيرتين تستندان على قدميه بطريقة مضحكة جعلته يمشي كالبطريق..

-سارة توقفي عن هذه الحماقة وانزلي عن ظهري.

قالها بعصبية ولكنها لم تبتعد عنه بل عضت كتفه العاري ببطئ جعله يتأوه ثم يضع الخبز على الطاولة ويحاول امساك ذراعها ولكنها تزيد من تشبثها ضاحكة ليبتسم بحنو وهو يغمغم يائساً:

-لقد بُليت بطفلة ناهيك عن زوجة..

-لقد نُعمت بسلطانة باشا.. لاتتنمر علي.

ردت بغرور ليقهقه بمرح ويوصلها الى كرسي طويل حول المائدة ويأمرها بتسلط:

-انزلي عن ظهري سلطانتي سليطة اللسان، انا أموت جوعاً..
طبعت قبلة مدوية الى منتصف ظهره ثم ترجلت عنه وجلست بملائتها مشدودة حولها باحكام بينما تتراقص لمعة عينيها مظهرة سعادتها الواضحة..
وسرعان ماتعلقت بذراعه حالما جلس جوارها وأسندت رأسها على كتفه مغمغمة بحب:
-لاتفعل هذا مجدداً.. لاتتركني معلقة هكذا، لااعرف أين انت ولاترد حتى على مكالماتي.
تنهد مطولاً وربت على ذراعها هامساً باضطراب:
-احتجت للوقت حبيبتي، لم اعرف ماعلي فعله، كنت غاضباً وأنت الوحيدة لأفرغ فيها غضبي.
-أنا أسفة..لم يكن بيدي شيء لأفعله.. حتى جيهان لم تجرؤ على الرفض وكل محاولاتها قوبلت بالرفض حتى استسلمت هي نفسها.
جيهان كانت العضو الوحيد الباقي في مجلس الادارة ويمت لعائلة الباشا، ولذا تنهد ركان ونظر لها بتسامح:

-أعرف الأن انني بالغت بالأمر.. كنت مشوشاً..احتجت للبقاء وحدي.
لم تكن توافق على مبدأه في الابتعاد والنأي عنه.. ولكنها لم تكن في موقف يسمح لها أن تناقش منطقه على الاقل ليس الأن..
-هل ستوقع العقد؟!
تسائلت برجاء.. ليرفع حاجبه ويتجاهلها وهو يصنع شطيرة جبن ولحم بارد ويناولها الاولى ويقضم الثانية بنهم لتنظر لشطيرتها بعبوس وقلبها يخفق بتوتر:
-ألن ترد علي؟!
أكمل شطيرته بقضمتين أخرييتين ثم شرب من زجاجة مياه غازية ونظر اليها متنهداً:
-قلت لكي أنني بحاجة لإعادة النظر.. والتفكير بخيارات أخرى.
ابتلعت ريقاً جافاً وهمست بتوتر:
-هل ستتركني؟
ترك الزجاجة من يده وقال بحنق:
-سارة مالذي تقولينه انا أتحدث عن العقود، لاشيء عنا نحن.

-تركك للشركة معناها التخلي عني.
هتفت باصرار ليرد بجفاف:
-أنا تزوجتك أنت ولم أتزوج الشركة.. تناولي طعامك وتجاهلي الأمر الان.
زفرت وعادت لشطيرتها بينما هو يبدأ بالثانية لتهمس له:
-هل أخبرت موظفي الاستوديو بالأمر.
-نعم سارة.. لاتقلقي لقد قمت بالعمل القذر كله.
-أنا لم اعني هذا، ولم أفعل الا الصالح فقط.
رمقها بجمود ثم التوى فمه بشبه ابتسامة قبل أن يغمغم:
-اعرف.. لم لا تنهضي وتأخذي حماماً ريثما انهي ترتيب المكان لنعد معاً الى البيت.
-لدي عمل.. تأخرت جداً ويجب أن أعود الى الصحيفة.
-لا.. سوف تعودين معي الى المنزل وتتصلين بالمساعدة الشمطاء التي تملكين وتخبرينها أن اليوم كله للباشا.
-ركاان..

همست ترجوه بدلال ليميل مقبلاً شفتيها بحزم ثم يأمر بتسلط:
-ستعودين معي الى المنزل، وسنقضي اليوم كاملاً دون ازعاج. أتفهمين؟!
كانت غاضبة وحانقة منه.. ولكن الجزء الصغير العالق في قلبها تضخم مئات المرات، مشيراً لرضاه الكامل عن معاملته لها كأنثى.. زوجة وفقط.. لاعمل..لاصحيفة ولاأحد.
فقط هما.. زوج وزوجة.. رجل وامرأة كما يجب أن يكون.
أو كما تظن أنه يجب؟!
***
كيـنيا..
لملمت ترنيم شعرها وربطت حجابها باحكام تلاحظ الدوائر السوداء حول عينيها وتعبس بشكل مخيف وهي تدمدم بالويل والثبور لذلك المهرج الذي سرق من جفنيها النوم طيلة الليلة الماضية، كيف يجرؤ على اللحاق بها؟ لو فقط اقترب منها .. ستشكوه ..تقسم أنها ستشكوه مباشرة لو حاول حتى الاقتراب منها.

خرجت من الغرفة وتلفتت حولها تنتظر ظهوره من خلف أي عمود او قطعة أثاث كمهرج العلبة، ومضت الى اللوبي ثم سألت عن موعد انطلاق فريق السفاري الذي انضمت اليه وبعد أخذها كافة المعلومات ذهبت الى المطعم الملحق بالفندق لتناول طعام الفطور..

جلست الى ركن قصي ولفت نظرها ازدحام المطعم بالرواد رغم الساعة المبكرة.. طلبت فطوراً مكوناً من عجة البيض بالجبن والخبز والشاي وأخرجت من حقيبتها كتيب الرحلة ومضت تقرا بانتظار الطعام لتقتل الوقت.

بعد ساعتين كانت تقف مع فريق السفاري المكون من احدى عشر سائحاً معظمهم من دول المغرب العربي ومصر والخليج برفقة مرشد تونسي، لقد تعمدت اختيار هذا الفريق لاحتواءه على عرب وفتيات مثلها يبحثن عن المغامرة والتحدي وبامكانها الثقة فيهن.

-سننطلق بعد نصف ساعة.. لازلنا بانتظار اخر المنضمين الينا.

قالها المرشد الذي عرفت ان اسمه رؤوف والذي كان يتحدث عن الرحلة بحماس ويعدهم بأسبوع مثير من رؤية الحيوانات البرية وسط بيئتهم الطبيعية دون حواجز. حينها أخرجت ترنيم كاميرتها وبدأت تتفقدها بنفاذ صبر بانتظار اخر الرفاق وهو يتعمد التأخر كما يبدو.

-أرى أنكم كلكم بانتظاري؟!

"يا ارض انشقي وابتلعيني"

رفعت عينيها برعب تنظر لمصدر الصوت.. واحتبس الهواء في صدرها..

بقامة طويلة مهيبة، حذاء خفيف بلون اسود وزيتي ثم بنطلون من الجينز الرمادي الشاحب وقميص قطنية بلاأكمام بلون الزيت برقبة دائرية محددة بخطوط صفراء، جاكيت جلدي ضخم معلق على كتفه اليسرى وحقيبة يدوية خفيفة من القماش معلقة على الكتف الأخرى. بينما على وجهه تكشيرة ضاحكة وعينين تلمعان بقوة وهو يخاطبها وكأنها الوحيدة وسط الفريق كله!!

نهضت من جلوسها ببطئ وأعادت الكاميرا الى حقيبتها بحرص محاولة استجماع شجاعتها، عدم

النظر الى وجهه والابتعاد قدر الامكان عن هذا المكان، لم تعد تريد الذهاب لرحلة السفاري، سترفع حقيبتها وتغادر في التو.
نظرت باتجاه مشرف الرحلة وتجاهلت أوس ونظراته المتعلقة بها، تجاهلت حمرة وجنتيها لانه رأها ليلة أمس.. رأى شعرها!!
-أريد العودة..
قالت لمسؤول الفريق باقتضاب لينظر لها مندهشاً فتزم حاجبيها بعقدة عازمة وتتجاهل تلك الموجة من الحرارة والتي انصبت على ظهرها لاتعلم من اين؟ ولاكيف شعرت به حتى؟!
-لم تنوين تفويت مغامرة شيقة كهذه؟!
جاء السؤال من خلفها بلهجة حازمة جعلتها تقشعر قبل أن تستدير على عقبيها وتواجه العينين الرماديتين، لم تعد تتراقصان بالمرح بل نظرة جدية ومهتمة ربما؟! تحكمهما، لقد فاض الكيل..
تصاعد شعور قوي بالازدراء من داخلها وعادت تشيح عنه تنظر لقائد الفريق قائلة بحدة:
-سأعود أدراجي للفندق وأردت شكرك على تفهمك.

حاول الرجل التكلم ليقاطعه اوس من خلفها بزمجرة وقد بدأ بفقدان أعصابه بالفعل:
-هو حتى لم يوافق بعد على عودتك؟!
-ليس عليه ان يوافق أنه قراري.
هتفت بعنف ليسخر بتهكم:
-اها أنت تكلميننني الان؟!
أغمضت عينيها بنفاذ صبر وعادت تفتحهما لتنظر لرؤوف الذاهل بغضب:
-أنت تقدر ماأريد أليس كذلك؟
-أه بالطبع كونك جبانة وتهربين من المواجهة والمغامرة..
كالعادة الجواب الحاذق من خلفها ولكنها لن تقع في الفخ بل عادت تواجه رؤوف وتواصل بحزم:
-انها مشكلة خاصة..
-اذاً ربما نناقشها بخصوصية..
هدر من خلفها وقد بدأ تجاهلها بالفعل يهاجم أعصابه وقبل أن ترد برد ذكي أخر كان يقبض على مرفقها متجاهلاً شهقتها المعترضة ويجذبها بعيداً عن المجموعة المتسمرة تنظر اليهم كزوج من الحمقى!!

-اترك يدي.. كيف تجرؤ؟!
صرخت بهستيريا.. تنتفض من أثر لمسته بينما تواريا خلف حافلة الفريق الصغير ليهز كتفيه بلامبالاة:
-مالذي فعلته؟! أردت الحديث معك لاغير.
-ليس بيننا مايقال.. لم تتدخل في كل شؤوني؟!
صاحت بعنف ليزفر بضيق محاولاً السيطرة على قهقهته التي هددت بجلب الوبال على رأسه أن أطلقها:
-أنا لا اتدخل ولكنك تتصرفين بغباء شديد.
-أنا لست غبية ياهذا.
همست من بين أسنان منقبضة ليرفع حاجبه ويرد بوقاحة:
-أنت تفكرين بترك رحلتك التي قطعتي نصف أفريقيا فقط للانضمام اليها بسبب وجودي معك.
هذا أسميه غباءاً فأنت تدعين عدم الاهتمام بي وهاأنت تهربين حالما اقترب منك؟
-لماذا تكلف نفسك العناء من الأصل؟!
صرخت بغضب ليرد بهدوء:
-لأنك تعجبينني.

سكتت مباشرة وحملت عينيها نظرة الذهول الصرف قبل أن تتراجع ويحل محلها الاستنكار ولمحة من الذعر اجتاحت عينيها لفتت نظره وجعلته يعقد حاجبيه بقلق عليها ومن ردة فعلها..
شحب وجهها واختفى اللون منه..
-ترنيمة أأنت بخير؟
همس بقلق لتهمس بشحوب:
-لاتقترب مني.
سقطت ذراعه التي مدها اليها الى جواره وغامت عيناه وصمت وهو يراقب ردة فعلها..
أما ترنيم فقد تراجعت أكثر وهي تحيط جسدها بذراعيها، وتخفض عينيها هرباً من نظرته الفاحصة، قلبها يخفق بقوة غير عادية، والعرق يتصبب منها، مالذي يريده منها؟! ماذا يريد بالتقرب منها؟ لم يسبب لها كل هذا الاضطراب والقلق؟! ولم لاتقفز مبتعدة الأن؟ لم لا تركض بعيداً وتهرع الى غرفتها وتدثر نفسها هرباً منه ومن كل ماحوله؟ لم تتسمر قدميها بالأرض وترفض أن تتحرك؟

نظرت له برعب.. عينيه كأخدودين عميقين وفكه منقبض بينما فمه كخط رفيع...

-ماذا تريد مني؟ لم تلاحقني؟!

صوتها مهزوز وعينيها ترتجفان، ماذا بها؟! لم هي خائفة منه الى هذه الدرجة وكأنه..وكأنه سيؤذيها؟!

-أنا لن أوذيك.

قال بحزم أنفاسه متلاحقة ويجاهد للسيطرة على رغبته بضمها اليه والتخفيف من الارتجافة الواضحة لجسدها.. كانت نحيلة جداً .. وصغيرة جداً.. وتبدو ضعيفة جداً جداً في هذه اللحظة.

رمشت لتنظر اليه..

عينيها لجتان مترقرقتان وتحبس دموعها رغماً عنها، مالذي يبكيها؟!

اقترب منها وهمس لها بحنان:

-لاتخافي مني ترنيمة، أنا لن أوذيكي، أنا فقط أريد التعرف اليكي.

-لماذا؟!

همست بشحوب ليبتسم بحنو غريب عنه:

-لانك تعجبينني، لأنك مثيرة للاهتمام وأريد أن أعرفك أكثر.

ضاقت عينيها واختبأت بعيدة عنه هامسة:

-أنا لاأريد.

-فقط اتركي لي الفرصة لأقترب.. لاتهربي مني.

-أنا لاأهرب.

دافعت عن نفسها ليبتسم بسخرية:

-أنت تهربين من العالم كله ترنيمة.. أنا أريد أن أكون الاستثناء.

يالهي ماذا يقول؟!

فكر بحنق .. لم يتحدث بهذه الطريقة الغريبة ليست هذه طريقته؟ هذا ليس هو؟

تنحنح بقوة محاولاً الخروج من الحالة التي تضعه فيها، غريبة وكأنه يدافع في قاعة محكمة أو ماشابه، مايقف فيه الأن.. وكأنه ضعيف، وليس مقاتلاً مهاجماً كما اعتاد. تنهد وهو يستقبل سؤالها الحائر في عينيها ليجيب بعطف:

-أنا ألتقيكي بين بوابات العبور.. إما راحلة وإما قادمة.. نحن فقط من نفعل هذا ياترنيم، انا ومن هم مثلي.

-انتم؟!
تسائلت بخشونة ليهز كتفيه مبتلعاً ريقه بصعوبة:
-الذئاب الوحيدة مثلي.. ليس لدينا مرسى نتنقل في كل مكان دون راحة أو توقف، أنت لست كذلك.
-وماأدراك؟
همست بخشونة ليضحك:
-لانك تعودين دوماً الى روما.. نقطة الراحة بالنسبة اليكي أليس كذلك؟
تسائل بمكر لتعقد حاجبيها بشك..كيف عرف عنها هذا..والأدهى..
-كماأنك لاتعودين قط الى مسقط رأسك.. أنت تهربين من شيء ماترنيم.. شيء يقيدك ويؤلمك.
-أنت لاتعرف عماتتحدث؟!
همست بخشونة ليلوي فمه باستياء:
-أنا دائماً أعرف ماتحدث عنه، صدقيني.. أنا أفهمك.. رغم عجزي عن فهم دوافعك! ولكنني أفهمك وأتفهم رغبتك بالهروب في أحيان كثيرة اقع فيها أنا نفسي.

-والأن نحن نتحدث بهراء فارغ لافائدة منه، أنا لاأريد تفهمك المزعوم، كل ماأريده منك هو أن تبتعد عن طريقي.

هتفت بغضب ليزم شفتيه ويغمغم بغموض:

-سأعطيكي وعداً.. سأبتعد عنكي، ولن أقترب منكِ بإرادتي ابداً.

عقدت ذراعيها على صدرها وتساؤلاً يملأ ملامح وجهها ليواصل بابتسامة بطيئة:

-ولكنني لن أعقد وعوداً للقدر.. فهو كمايبدو يصر على أن تتقاطع طرقنا كثيراً في الأونة الأخيرة.

-أنا لن اعقد أمالاً على هذا التخريف.

قالت بجفاء ليهز كتفيه ابتسامته تتسع:

-واصلي الرحلة ترنيم.. لاتجعليني اقف أمام استمتاعك، ورغبتك برؤية العالم، لاتدعي أحد يفعل.. ولكن لاتلوميني إن شاركتك بعضاً من تلك المتعة، فأنا صعدت الى فوق قبلك انت.

خفق قلبها بقوة وتراجعت فيما تحرك هو عائداً الى بقية الرفاق تاركاً اياها تعيد التفكير بكل ماقاله..

تستثنيه اياه..!!
ابتلعت ريقها بصعوبة ونظرت بإثره..
لوقت طويل.
***
دبـي..
-امي أنا حقاً بخير..
تمتمت صوان بإرهاق لتهتف أمها بقلق عارم:
-لا أبداً..أنت متعبة ومريضة وجساس قلق للغاية وقد كنتِ في المستشفى يالهي الرحيم.
تأففت وهي تستلقي على الوسائد الوثيرة، تستقبل حنان والدتها الغامر.. لاتريد أن تفكر بأمر جساس ماحدث في المشفى، لقد بقي جوارها حتى انتصف النهار.. رباه لقد دخل مع الطبيب لرؤيتها. أشاحت الذكرى المحرجة من رأسها وقبلت وعاء الحساء الساخن بابتسامة ضعيفة وأمها تواصل:
-سأتصل بجساس لأطمئنه لقد كان قلقاً عليكي للغاية.. حمداً لله أنك لم تحكمي رأسك ولم تصري على القدوم وحدك.. ماذا دهاكي حبيبتي؟ انه ابن

عمك وقد كبرتما معاً.. لاأعرف ماذا دهاكي في الأونة الأخيرة؟

اغمضت عينيها للحظة..وصورة عن رحلة السيارة الطويلة الصامتة تجتاح مخيلتها.. هي بصمتها ووجهها المشدود قابل للانفجار، بينما ابتسامته تكاد تشق حلقه وهو يبالغ في الاعتناء بها وكانها مصنوعة من زجاج؟!

-انا ابنة عمه أمي، هو ليس من محارمي..

همست بغيظ لترفع أمها حاجبيها بخبث:

-منذ متى؟! لطالما كنتما ملتصقين ببعضكما وكنا نعاني لنفصلكما في الواقع؟!.. ثم انك لاتعترضين على مصاحبة أوس أو سيف؟

-أوس هو أخي من الرضاع، وسيف..سيف..

تلعثمت وظهرت نظرة الذنب في عينيها لتقترب أمها منها وتقول بحزم:

-سيف لايجعلك تشعرين كمايفعل شقيقه؟! أليس كذلك؟

-أماااااااااه؟

هتفت باستنكار وقد عاد اليها صوتها واحمر وجهها بالخجل..

-يالهي توقفي صوانة..أنت ابنتي..ابنتي الوحيدة بغض النظر عن اولاد عمومك اللذين قمت بتربيتهم.. وأنا أعرفك ككف يدي.

-لاشيء..لاشيء سيجمع بي يوماً مع جساس.

تنهدت أمها بنفاذ صبر ثم بدأت ترتب حاجيات ابنتها المبعثرة كعادتها حولها وهي تتحلظم وتزم شفتيها بغيظ من تصرفاتها اللامعقولة.. الفتى يكاد يقبل الأرض التي تمشي عليها، هو تربى معها منذ نعومة أظافرهما، تكبره بعامين أو ثلاثة.. مالسيء بهذا؟!

كل هذا خطأ الشمطاء أمه.. زفرت بضيق وأغلقت خزانة الثياب بعنف قليلاً جعل صوان تناظرها بدهشة بينما أمها تعاود الجلوس أمامها على طرف الفراش وتصيح بحدة:

-هل أنهيتي حسائك؟

جفلت وهمست ببرائة:

-انه ساخن..أمي مابكِ؟

ضيقت عينيها وهددت بأصبعها:

-اسمعي يابنتي.. أنت لم تعودي صغيرة..أنت تقتربين من الثلاثين، وبهذه الطريقة أنت لن

تتزوجي، ولن تجدي رجلاً يهتم بك ويراعيك، اذا كنت مصرة على رفض محاولات ابن عمك.. فاسمحي لغيره بالاقتراب منك.

اتسعت عينيها بذهول وهي تسمع من امها هذا الكلام لاول مرة، ابتلعت ريقها بصعوبة وخفضت عينيها هاربة من عينيها الحازمتين..

-صوانة هناك عريس تقدم اليكي.. خالك محمد يرى أنه مناسب، هو زميله في العمل وهو من أوصى به.

شحب وجهها وارتجف الوعاء بين يديها حتى تناثرت بعض القطرات الساخنة عليها جعلتها تجفل. وانتصبت أمها تعوذها من الشيطان قبل أن تجذب الوعاء منها وتبدأ بإطعامها بيدها هاتفة:

-يجب أن تفكري بالأمر جيداً..انه رجل جيد ومتعلم ومركزه مرموق.

-ليس الان أمي.

همست بشحوب وتراجعت ترفض لقمة أخرى مضيفة:

-لقد شبعت أريد أن أنام.

تنهدت أمها ونهضت تلملم باقي الاغراض قائلة بجفاء:
-سأترك لكِ عصير الليمون.. اشربيه ثم اخلدي للنوم، سأتيك في موعد الدواء.
لم ترد عليها.. بل راقبتها تغادر بصمت وحال انغلاق الباب انكمشت تحت أغطية فراشها..
ذكرى ليست بالبعيدة تهاجمها.. سنوات قليلة مضت منذ أن جلست كعروس تحاول اصطناع السعادة ورسمها على وجهها قبل أن يتحطم كل شيء.. وتثار فضيحة ليست بالهينة قبل يحتويها الجميع بصرامة وينتهي الأمر دون أن يزيد عن حده.
هل تريد أن يتكرر الأمر؟ هل تريد المجازفة..؟
ارتجفت تحت الأغطية وعينيها تغيم بمنظره المشعث الغارق بالبؤس وهو يصيح دون توقف معلناً أمام الجميع أنه هو ابن عمها وهو الأحق بها.. وقبل أن يستوعب أحد مايفكر به..
كان يقبض عل تلابيب خطيبها ويرمي به أرضاً..
"انها لي.. ابنة عمي هي ملكي أنا وحدي"

صرخ بجنون..وهو ينضم اليه على الارض مستمراً بضربه بلاتوقف، حتى تخلص ابناء عمومه من دهشتهم وانقضا يخلصان الشاب المسكين من بين براثن ذلك الاسد الجريح..

يومها لم يقدر عليه سوى أوس، لقد تشاجرا لدرجة وصلت الى أن يشج رأس جساس ويتحمل خمسة عشر غرزة، وأوس بخلع كتف يعاني منه حتى اليوم..

أماهي..

ابتلعت ريقها بصعوبة ورمشت بعينيها.. هي فقط محت مشروع الزواج من رأسها نهائياً بعد ذلك اليوم.

لقد قالها جساس لها يوماً..

"إن لم تكن له.. فهي ابداً لن تكون لسواه"

قالها نازفاً والدم يغطي رأسه بعدما هرب خطيبها ولم يبقى سوى عائلتها المصدومة لرد فعله العاصف..

"على جثتي صوان.. أنت لن تكوني لغيري إلا على جثتي"

ارتجفت للذكرى.. لايزال صوته الهادر بالغضب والعذاب يمزقها، ويرسل الرجفة الى اعماقها.. لقد عاشت معه طفولتها..وشبابها.. هي لم تره قط بمثل هذا الغضب. مشاعرها الحيرى بين العشق والكره تمزقها ولاتعرف مالسبيل الى اصلاح مأزق كهذا سوى الابتعاد.

ماذا تفعل بي ياجساس؟!

ارتعشت وتدرك أن مرضها بريئ منها..

تصاعد رنين هاتفها حينها، أرادت أن تتجاهله ولكن عقلها العنيد أصر على اخراجها من حالة الخدر والتقطت الهاتف لتجيب بصوت مرتجف على الرقم الغريب..

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام ورحمة الله.. أنسة صوان الشيّب؟!

عقدت حاجبيها للصوت الرجولي الواثق قبل ان تهمس بقلق:

-نعم هو أنا ..من تكون وكيف أخدمك؟

-صلاح الزجال..والد الطفل علي.

قالها بخفوت لتأخذ نفساً عميقاً وهي تغلق عينيها وتدعك مابينهما بأصابع مرتعشة هامسة:

-نعم..نعم، تفضل سيد صلاح بما أستطيع خدمتك؟!

-انه بشأن علي.. أردت تحديد موعد لأعيده للحضانة والتحدث معكي بشأنه.

تنهدت بارتياح وقالت بضعف:

-رائع أي موعد يناسبك سيكون جيداً بالنسبة لي.. منذ الغد ان شاءالله سأكون في الحضانة قبل الثامنة صباحاً.

-هل أنت بخير؟!

جفلت لسؤاله المباشر وتنحنحت قبل أن تقول بمهنية:

-الحمدلله.. متى سأتوقع حضورك استاذ صلاح.

زفر زفرة طويلة جعلتها تتوتر ثم قال بتعب:

-علي أصبح متعباً بعض الشيء..وهو لايكف عن البكاء والصراخ رغبة بالعودة الى الحضانة، هل أستطيع ارساله في موعده والقدوم نحو وقت الغداء.. لدي جدول عمل مزدحم.

ابتسمت بتفهم وردت:

-بكل تأكيد سيدي.. سننتظرك حوالى الواحدة؟!
-اجعليها الثانية..سأدعوكي للغداء ونستطيع التكلم.
ضاقت عينيها وهمت بالرفض ولكنها لم تستعجل بل قالت بحذر:
-يسعدني هذا.. وبالتالي تتاح لك فرصة مقابلة الاختصاصية النفسية التي ستقيم علي وتعتني به في المرحلة القادمة.
صمت جابهها للحظة قبل ان يقول صلاح بلمحة سخرية سمعتها وتجاهلتها:
-بكل تأكيد..أراكي غداً أنستي..معذرة على الازعاج.
-أنت على الرحب.
همست بتهذيب قبل ان تغلق الخط وتعيد الهاتف الى الطاولة، كيف حصل على رقمها؟! هي متأكدة أن منى لايمكن أن تعطيه اياه؟ تنهدت بتعب ودعكت رأسها بارهاق قبل أن تقرر أن تخلد للنوم.. لديها الكثير من العمل في الغد.. والقليل من الطاقة... نوم عميق وغذاء سليم

وستكون جيدة. الذكريات لاتفلح سوى بزيادة الهموم.. لافائدة منها سوى التحسر والألم.

***

كينيا..

سفاري.. الأحراش

غروب شمس..

رفعت عينيها وراقبت الشمس تذوي خلف الأفق الملون بالبرتقالي ودرجات الأزرق قبل أن تقرر الغوص اخيراً ويبدأ الشفق يتلون بالظلمة التي بدأت تنتشر بصورة رهيبة.. لقد طالت رحلتهم بالحافلة حتى وصلوا الى نقطة التخييم قبل الغروب بلحظات.. ساعدت زميلتاها بنصب خيمتهم ثم جلست لتراقب الغروب بافتتان.

لطالما سحرها غروب الشمس.. خصوصاً في عدن.. حين يغرق القرص مستسلماً في مياه البحر، ولكن الان وسط أحراش قفرة له سحر اخر مختلف تماماً..

تنهدت ونهضت من الربوة الصغيرة التي كانت تجلس عليها، وقررت العودة الى مخيمها حين

وجدته يقف في الزاوية البعيدة بعينين مثبتتين عليها.
انتفض قلبها بغرابة عنها، وأخفت اضطراب عينيها خلف نظرة قاسية قبل أن تسير نحوه بخطوات عسكرية..
لم تتغير وقفته ولاعقدة ذراعيه أمام صدره العريض وهو يراقبها بتسلية تحرك ساقيها القصيرتين نحوه بخطوات مشدودة كقائد كتيبة حاش الله امرأة..
كاد ينفجر بالضحك وهو يرى زمها لشفتيها الواسعتين ونظرتها الحانقة وهي تمر الى جواره هاتفة بغيظ:
-وعدت أن تبتعد عن طريقي؟
أفلتت قهقهته ودون أن يتحرك من مكانه رد بخبث:
-أنت من اتجه نحوي..انا لم أتحرك خطوة.
لم ترد بل ازداد غيظها وهي تسرع بالابتعاد عنه.. غليظ وغد..أحمق..
فكرت بكل الأسماء التي تناسبه بينما يزداد حنقها وهي تسمع خطواته المسرعة خلفها ثم توقفت

فجأة لتنظر له بغضب عاصف واجهه بجدية ناقضتها الشيطنة المتراقصة في عينيه:
-ماذا؟! أنا عائد الى خيمتي..
نظرت باستنكار للخيمة التي تقبع الى جوار خيمتها وعادت اليه لتراه يحرك رأسه بتقدير:
-القدر.. أخبرتك أنه يتحكم بكل ماحولنا وليس لدي أي سلطة عليه.
ثم غاب بداخل الخيمة المجاورة لتبتلع ضيقها وتدخل خيمتها..أين لسانها السليط حين تحتاجه؟!
الخيمة الواسعة من الداخلة تحتوي ثلاثة أفرشة قابلة للطي.. وحقائب الفتيات الثلاث..
جلست على فراشها وبدأت بخلع حذائها حين دخلت الفتاتين الاخريتين.. والاثنتين من السويد.
ابتسمت لهن باختصار وبدأت تخرج أغراض النظافة الشخصية الخاصة بها وتضعها في متناول يدها، وأخرجت هاتفها وتفقدت رسائلها لتجد رسالة يتيمة من كمالة..
ابتسمت بسخرية وقرأت الرسالة بسرعة.. كانت كمالة تطلب منها الاتصال بخالـد، خالد؟!

عقدت حاجبيها بتساؤل..لم لايتصل بها بنفسه ما الأمر؟!
تنهدت وبحثت بعينيها عن شبكة اتصال لتكتشف ان لاشبكة متوفرة..
-أنت في الأحراش ترنيم.. ماذا تظنين؟!
سخرت من غباءها ثم اعادت الهاتف الى حقيبتها وربتت على مذكراتها بحب قبل ان تغلقها وتستلقي على الفراش مرخية حجابها لتدع شعرها يتنفس..
ثم شعرت بقشعريرة امتدت على جسدها كاملاً وهي تسمع ضحكة طويلة مجلجلة..فتحت عينيها المسبلتين وشرر غاضب مغتاظ يتطاير من بينهما، هذا يفوق التحمل..ياله من مزعج مهرج.. غبي.
انقلبت على جهتها اليمنى تدير ظهرها لنغمة ضحكاته لتصل اليها نبراته الخشنة بكلمات بطيئة متمهلة.. لغة انجليزية أصلية ولكنة أمريكية مثيرة، انه يعقد الصداقات.. رباااااااه.. لقد كانت تخطط لهذه الرحلة منذ شهور، ولاتعرف أحداً من زملاء رحلتها.. وهو؟! هذا المهرج الأخرق

اقتحم سفاريها وبسط قدميه ولم يترك لها المجال لتتنفس..
تصاعدت الضحكة من جديد لتجلس مستقيمة بملامح عاصفة رمت حجابها بضيق وأخرجت مشطها الناعم لتسرح شعرها الطويل متجاهلة نظرات رفيقاتها الفضولية، بضربات قوية وعصبية..
خرج مع رفيقي خيمته للمشاركة في اشعال النار وعيناه تسرقان نظرات للخيمة المجاورة، رغماً عنه لايقدر على اشاحة عينيه عنها. أين هي؟ لم لم تخرج كزميلتيها؟
اشتعلت النار وتراجع الجميع ينظر للهب المتصاعد بصيحات صاخبة فرحة فابتسم وهو يتسائل عن تلك القزمة وكيف تفوت منظراً كهذا؟!
حينها رأها..
تسمرت عيناه عليها بذهول..
والتفت جسده كله لينظر اليها، انقبضت كفيه بقوة وشعر بدمه يغلي في عروقه، بينما تتصارع بداخله مشاعر مختلفة، بين الاندهاش والانجذاب

الفوري، وبين الغضب والحنق يالهي هل هي غبية وحمقاء لهذه الدرجة؟!
تخلى عن مكانه واندفع تجاه الخيمة.. وقف خلف القماش الرقيق وهدر بعنف:
-ترنيم استري نفسك.
شهقت بذعر وضمت ذراعيها حولها وهي تتلفت حولها..
لقد كانت وحدها حتى رفيقات خيمتها غادرن، علقت مرآة دائرية صغيرة ووقفت أمامها خلعت سترتها القماشية الطويلة وبقيت بالقميص القطني الضيق والبنطال الجينز وتسرح شعرها الطويل الذي يلامس أسفل ظهرها بابتسامة.. لقد مضى وقت طويل منذ أخر مرة فعلت هذا.. لقد اشتاقت لملابسها.. تأملت جسدها النحيل..
"قزمة؟!"
هل قال عنها قزمة؟ زمت شفتيها بغضب وهزت رأسها بعنف لتتناثر خصلات شعرها الناعمة الطويلة حولها بجنون.. لتظهر ألوانه المتماوجة بين الاسود والبني الغامق وأطرافه الحمراء.

وشعرت بموجة حارة تغرقها وهي تتذكر أنه قد رآه..
لقد رأى شعرها ؟!
تنهدت مرتجفة ثم تجاهلت مشاعرها وعادت تسرح شعرها بحماس.. حين فاجأها صوته..
انتفضت بذعر لمايقول.. تستري؟!
تلفتت حولها تبحث عن المكان الذي يتلصص منه عليها، ثم احاطت جسدها بذراعيها وعينيها تتسعان بذهول بينما يواصل بصوت غاضب:
-أنت تظهرين بشكل كامل عبر قماش الخيمة ياحمقاء، النار تظهر كل شيء.. ماذا تفعلين بالداخل؟ أين تحسبين نفسك؟
شعرت بالذعر يجتاحها وصاحت بهلع:
-مالذي تقوله أيها المجنون؟ أنا لا افعل شيئاً؟ أنا فقط..
-مهما كان ماتفعلينه توقفي على الفور وارتدي ثيابك قبل أن أحطم رأسك.
هدر بعنف لتزمجر بغضب من نفسها قبله وصاحت بيأس:

-أنا مرتدية ملابسي أيها الأحمق، لاشأن لك على كل حال.
-ترنيم ضعي حجابك وايا ماكنت ترتدينه عليكي من جديد .. أسرعي والا دخلت وفعلت ذلك بنفسي.
زاغت عينيها بحنق وسارعت لعقص شعرها ثم ربط حجابها وإلحاقه بالسترة وهي تدمدم بغضب:
-مختل، قذر .. حقير رباااه انه حقير..
-لقد سمعتك.
هتف بصرامة لتضرب قدميها في الارض وتخرج ما إن انتهت من ترتيب ثيابها، وحشر قدميها بحذائها واندفعت للوقوف أمامه لتقابل عينيه المتوهجة بالمشاعر وهتفت بعنف:
-أنت وقح وعديم الحياء.. كيف تجرؤ؟
رفع حاجبه بعجرفة وتذكر بلحظة كيف بدت من خلف القماش الخفيف.. خيال ناعم نحيل .. كجنية محاطة بهالة من الشعر الكثيف الناعم الطويل، وجف ريقه وهو يتذكر مافعلتها رؤيته لها بكل مشاعره وغليانه واضطرابه كطفل غر هز راسه

ليخرج من تلك الحالة ثم مال بوقفته ليصل لمستوى عينيها قائلاً بهسيس:
-أنت حمقاء وغبية، ولاتفهمين؟ لقد كنت تعرضين جسدك بطريقة موحية ومؤثرة.. ليس لعيني فقط، بل لعيون الجميع.. أهذا ماتريدينه؟!
تراجعت بعينين متسعتين وحرقة تلسعهما مهددة بتساقط الدموع أمامه.. رباااه ماذا يفعل بها ليشعرها بكل تلك الدونية والحماقة. تراجعت بغصة تخنقها ليواصل بغضب:
-قماش الخيمة ياغبية شفاف ويظهر تفاصيل ماتحويه وأنت وقفت دون أن تستري نفسك، هل فكرتي قبلها؟
-كنت مرتدية ملابسي.
هتفت بعنف قبضتيها مكورتين الى جانبيها وعينيها ترشقانه بنظرات كاوية وقد تسللت دمعتها على وجنتها دون مقاومة منها. ثم استدارت على عقبيها ومضت بعيداً بخطوات واسعة وهي تغلي من الغضب.
بينما وقف أوس ينظر بإثرها بشفتين مطبقتين.. وغضب عارم يجتاحه من نفسه.

اندفعت ترنيم بخطوات واسعة نحو أطراف المخيم، تشهق بالدموع وكلماته تحرقها .. قذر..مجرم.. أحمق..
شهقت بألم ووقفت على حجر ضخم يطل على وادٍ متسع..
تضربها الريح وتثير ارتعاشتها
ضمت ذراعيها حولها ونشجت الدموع .. انها لاتتحمل، كيف لها أن تصبر طيلة المدة المتبقية؟
قبل أن ينتهي هذا الامر وترحل وتبتعد عنه؟
كيف ستتحمله؟ كيف يمكن أن تفعل؟!
حاولت أن تتخيل منظرها وماقال؟؟ يالهي؟؟ هل فعلاً ظهرت كمايقول؟ مثيرة وموحية؟ أهذا ماقال؟!
كيف يجرؤ؟؟
زفرت بألم وضربت الارض تحتها بتهور..
ثم شعرت بقشعريرة تمتد عبر ظهرها الى أطرافها وعرفت أن هناك من ينظر اليها..
سحبت نفساً عميقاً واستعدت للمواجهة لابد انه هو..
التفتت اليه وعينيها تغليان بالغضب..

ثم تسمرت بذعر.. عينيها متسعتين وركبتيها تكاد تتهاويان تحتها من فرط الخوف..
لم يكن ذلك المهرج.. ابتلعت ريقها بصعوبة.. وتراجعت بخطوة متعثرة لتقع على ظهرها صارخة بخوف..
وتتردد صرختها حولها مظهرة الفراغ حولها.. وأنها وحدها تماماً دون معين.
***
نهاية الفصل
عبير محمد قائد

الفصل الرابع

***

لولا حظي في الحياة لاعتبرت الحب ابتلاء
موت يفوق الموت.. ونشوة تفوق الحياة
اعتلال قلب وشفاء أخـر
حلمٌ بعيدُ المنال
يتلاشى أمام عيني كالرماد
صياد يتحين للفريسة
وقدرٌ يتربص وليس لنا ملجئ سواه

***

***

رومـــا..

اشتعلت أضواء قصر ماركيني بالزينة المتلألأة التي امتدت من السقف المدبب الى الأرض الواسعة الملئة بالتماثيل الأثرية وقوالب الزهور الفواحة ثم كانت نافورة ضخمة بعرائس بحر تتلوى على نصب بوسطها.. والماء يتراقص بخفة بين أصابعهم وذيولهم الحرشفية الطويلة..
كانت لوحة فنية وابداع لايضاهى..
وبين التماثيل واللوحات لافنية ترفلت النساء بأثواب ناعمة مثيرة ومبهرة، بينما تنقل الرجال حولهن بملابس السهرة السوداء الرسمية..
كؤوس الشراب وصوانِ المقبلات تدار بلاتوقف.. كانت سهرة ممتعة حفلة راقية كما اعتاد رواد القص على الاستمتاع به، وهناك وسط طاولة احتوت اربعة من الرجال وثلاثة نساء فائقات الحسن كان المرح والضحك يدور بلاتوقف..
-أنت تستطيعين انزال القديس من منبره أريانا عزيزتي.. بنظرة واحدة.
تعالى الصوت المرح صاخباً لرجل في منتصف الأربعينات أصلع الرأس يحيط امرأة شابة بالكاد

تصل لمنتصف عمره بشعر أسود قاتم يصل لرؤوس كتفيها وتتلألأ ابتسامتها الدموية بحمرة قانية لشفتيها بينما تلتمع عينيها الفيروزيتين بنظرة مغوية نحو شخص واحد محدد فقط..

-ماهو رأيك سنيور ركان؟! هل توافق سنيور ماركيني على رأيه؟!

رفع ركان كأس المشروب قريباً من فمه متطلعاً بضيق للمقعد الخالي بالقرب منه، لقد تأخرت سارة.. وتركته فريسة لهذه اللبوة الشرسة والتي بدأت بنشب مخالبها فيه منذ وقع عينيها عليه وخصوصاً بغياب زوجته، والتي كانت من الوقاحة لتقرر الذهاب للحفل منفصلة عن زوجها بسبب رغبتها بتغيير لون شعرها المفاجئة.

تنهد ووضع كأسه مبتسماً بإختصار:

-لأبدي رأيي يجب ان أعرفك اكثر سنيوريتا، وهذا مستحيل حالياً.

ابتسمت بإغراء وهمست تلاعب طرف كأسها بسبابتها بطريقة موحية:

-ربما ترغب بتغيير رأيك؟ ربما نستطيع أن نحدد موعداً و...

وتعلقت جملتها في الهواء وهي تلاحظ نظراته المعلقة بمن خلفها.. ضاقت عينيها وهي تراه يضع كأسه ببطء بينما تتوهج عيناه بلمعان لاتخطئه عين وتتلاعب على فمه ابتسامة مثيرة لينتابها الفضول وتنظر للخلف هي الأخرى..

كانت السلطانة قادمة!

شعر بقلبه يتخبط بين ضلوعه، ارتفعت درجة حرارته بضع شرطات وهو يعبّ من رؤيتها بكل بهائها..

كانت قد تخلت عن تجعدات شعرها وانساب بلونه البني الجديد بنفحات ذهبية حتى لامس مقدمة صدرها، زينة وجهها الناعمة كانت خفيفة للغاية واعتمدت كلها على ثقل كحل عينيها وعلى لون شفتيها الغني بدرجة من الأحمر الناري، ثم كان ثوبها..

أخذ نفساً عميقاً وهو يراقب كيف استجاب الثوب الحريري لتلاعب الهواء به فتطاير مهفهفاً حول قدها الرشيق الطويل بألوانه المتماوجة بدرجات الأحمر القاني والبرتقالي والأسود.. ذكرته بألوان الغروب المتأخر.. شعت ابتسامته على وجهه

وهو ينهض لاستقبالها تسبقها رائحة عطرها الفرنسي الناعمة كرائحة الشواطئ في بداية المساء..

-أنت تبدين مذهلة.

قال بصوت مبحوح لايخفي تأثره من جمالها وهو يلتقط كفيها بين يديه ثم يقربها منه بحميمية جعلتها تحمر باستجابة عفوية هامسة بخفر:

-انها عينيك.. أنت فقط تراني هكذا.

شعت عيناه فيما مست شفتاه سلامياتها الرقيقة، لمسة خاطفة ثم أحاط خصرها بذراعه وضمها اليه هامساً:

-أنت جميلة في عيني وعيون جميع من ينظر اليكي سلطانتي.

ابتسمت ببطئ مثير ولامست طرف ربطة عنق الفراشة الصغيرة التي يرتديها هامسة:

-أنت فقط.. أنت من يهمني ولاأحد سواك.

غمز لها بعينه ثم جذبها لتقابل باقي المجموعة مبتسماً باتساع فخور بهذه المرأة الرائعة التي تسكن جانبه.. ويدها تتشبث بذراعه بتملك ساحر.

ماركيني كان صديق قديم لعائلته، وهو يملك

سلسلة متاجر أزياء شهيرة، تمتد على طول إيطاليا وأوروبا.
نهض الرجل المدعو فرانكو ماركيني وأمسك كفها الحر ملثماً أصابعها بحفاوة:
-السلطانة الجميلة.. انه شرف لي تشريفك حفلتي المتواضعة، لقد كان من المؤسف عدم مقدرتي على القدوم الى حفل زفافكما، لقد سمعت عنه الكثير.
-نعم لقد كان رائعاً بالفعل..
ردت وهي تسحب كفها من بين يديه وتجلس بدلال جوار زوجها، بنظرة واحدة راقبت افراد الطاولة، لقد كان فرانكو ماركيني بالاضافة لاثنين من أصدقاءه.. وكل واحد برفقة مثيرة.. كلهم تقبلت تهنئتهم بالزواج بابتسامة عادية.. ماعدا تلك المرأة التي ترافق فرانكو نفسه..
كانت مثيرة للغثيان، رفعت سارة حاجبها بترفع وعينيها تشعان ببرود، لقد كانت تلتهم ركان بنظرات نهمة، وكان هذا يكفي لتثير في نفسها أعتى درجات الغيرة، والغضب. مدت يدها بتملك لتضغط على كفه الموضوعة على الطاولة بقربها

تشبك أصابعها بأصابعه وتعلن ملكيتها المطلقة له.

-اذاً سلطانة.. هل أخبار المؤسسة الأخيرة صحيحة؟!

تسائل فرانكو بطريقة عادية ليجذب انتباهها من حرب النساء المشتعلة بالقرب منه لتلتفت اليه سارة ببرود وتهمس:

-أنا لا أعرف ماتعني سنيور؟ عن أية اخبار تتحدث؟

-عن التدهور بالطبع.. لقد سمع الجميع عن الأسهم المتراجعة وعن الحرب المحتدمة في سوق البورصة؟ هل صحيح أن بعض المؤسسين هددوا بسحب دعمهم؟

احتقن وجه سارة وكادت تغص بشرابها قبل أن تعيده الى الطاولة وتهمس باحتقان وهي تنظر لركان بعينين مشتعلتين:

-هذا كلام افتراء..لاأصدق ان أخبار كهذه قد تصل اليك؟

هز الرجل كتفيه والقى نظرة مرحة على وجهها الأحمر:

-ان الجميع يتحدث.. فقلت لم لا أسأل بنفسي.. هل تنكرين محاولات الاستيلاء على الشركة سنيورا؟
شعرت بدمها يغلي ورفعت ذقنها هامسة بعند:
-محاولات الاستيلاء تعني أن مؤسستنا ناجحة وفي القمة، وتوافد الراغبين بالاستثمار بها غير محدودة ولم تتراجع قط خلال السنوات الماضية حتى الأن.
-حين يسقط الثور.. تكثر السكاكين حوله.
التفت الجميع نحو مصدر الصوت، اللهجة الخشنة والتي حملت الحروف الايطالية بنبرات متعددة يصعب تحديدها ضاقت عينا سارة وهي ترمق الغريب من رأسه لأخمص قدميه بفضول.. متجاهلة الضيق الذي شعرت به لمغزى جملته الحقيرة.. بينما ارتفع حاجبي ركان بدهشة لتواجده هنا..ومن الناحية الأخرى كان فرانكو هو من هب من مقعده باتجاه الغريب صارخاً بسعادة ليعانقه بمحبة قبل أن يستدير لركان صارخاً:
-انظر لهذه المفاجأة؟!
-مفاجأة بالفعل..

قالها ركان بجفاء لتتسع ابتسامة الغريب وهو يتخلى عن ذراع مرافقته الشقراء الفاتنة ويقترب ليعانق ركان:

-ابن عمي العزيز.. لقد اشتقت اليك.

رفع ركان حاجبيه بتعجب وصرح بوقاحة:

-لم تخبرني بهذا حين قابلتك في المرة الأخيرة شاهر؟!

غمز شاهر بعينه بمرح ثم حول انتباهه للمرأة الفاتنة خلف ابن عمه وقال بنعومة:

-لابد انك السلطانة التي أسرت الباشا الحر منذ أول لقاء؟!

ابتسمت بتوجس ومدت كفها اليه ليلتقطها بين يديه الكبيرتين ويهمس بلطف وهو يقبل ظهر كفها بتهذيب:

-جميلة..ناعمة وحريرية..

ارتبكت نظرتها للحظة وهو يهمس من بين أنفاسه المتسارعة:

-مزيجي المفضل..

سحبت سارة كفها بسرعة قبل ان تمسها شفتاه ليبتسم بسخرية ويستقيم ناظراً لابن عمه المتوتر:

-مابك ركان..ألن تعرفنا بزوجتك الساحرة؟! أم أنك ترغب بالاحتفاظ بها بعيداً عن افراد عائلتك لوقت طويل؟

تنهد ركان بضيق واستدار ليقف خلف مقعد سارة ويضع يده على كتفها العاري بتملك هامساً بعدائية لم يستطع السيطرة عليها:

-لا بالطبع.. سارة حبيبتي..هذا ابن عمي شاهر الباشا،، شاهر..هذه الساحرة (والتوى فمه بسخرية وعينه تلمع بتحدٍ وأصابعه تنغرس في لحم كتفها بقسوة ألمتها وإن لم تظهر ذلك) هذه الساحرة تكون زوجتي.

ارتسمت ابتسامة عابثة على شفتي شاهر وضاقت عيناه الداكنة بفعل الاضائة الخفيفة وهو يحني رأسه بتحية مؤدبة للسلطانة قبل أن يشير لمرافقته الفاتنة ويعرفهم عليها بكلمات مقتضبة ثم يقبل دعوة فرانكو للمشاركة في الطاولة بابتسامة ناعمة.

جلس الى جوار رفيقة فرانكو التي لم تعد تستطيع أن تقرر الى اي جهة تنظر؟..ركان ام شاهر.. تأملت طوله الفارع وكتفيه العريضتين بينما

رأسه الفخور العنيد يتلوى على عنقه الطويل في سيطرة واضحة على مجريات الحديث بتلقائية وكأنه اعتاد عليها..السيطرة.

تجهمت سارة واشتدت اصابعها حول كف زوجها، لم يعجبها قريبه..تناولت كأسها ورشفت منه ونظرت لزوجها كان مضطرباً.. هل الأمر له علاقة بقريبه؟! ربما.. تأملت الرجل الاخر بخفية.. على عكس ركان ذو الشعر الاشقر والعينين الخضراوتين... كان شاهر داكناً من رأسه لأخمص قدميه..

لاتنكر جاذبيته الصاعقة والتي لغت الى حد ما جاذبية الرجال حوله وبسطت حقولها على النساء كمغناطيس قوي، ولكنها جاذبية خطرة.. ولاتعني التلاعب والسحر الذي يتمتع به ركان وفرانكو.. بل شيء أعمق وأكثر خطورة، شيء خطير بدائي ويثير الفزع.

-حبيبي..أتود الرقص؟!

التفت ركان نحوها بعينين ضيقتين وبدت همستها وكأنها تسحبه من المنطقة الخطرة التي يسيطر عليها شاهر.. نظر لها بعينين واسعتين:

-أتودين الرقص؟!
تسائل بتردد لتبتسم بجاذبية وتقترب لتستند على كتفه هامسة:
-لقد سئمت أحاديث الأعمال.. لم لا نتمتع قليلاً وحدنا.
مست جانب وجنته الحليق ليبتسم بإثارة ويستقيم مباشرة جاذباً اياها خلفه معتذراً للحديث الدائر بعجلة قبل أن يحيط خصرها ويسحبها الى حلبة الرقص تحت الأشجار المزينة بالأضواء الخلابة.
ضحكت بمرح وهي تذوب بين ذراعيه وصوته المبحوح يهمس لأذنها:
-أنت تستمتعين بهذا!!
-بالتأكيد.. الهروب من ضغط العمل..لاشيء أجمل من هذا حبيبي.
-مممم..أنت تعرفين أن الهروب ليس وسيلة جيدة..سنعود للعمل غداً في الصباح.
-أعرف.
زمت شفتيها وتلاعبت أصابعها بخصلات شعره المجعدة بينما تواصل بدلال:
-لذا أنا أود الاستمتاع بليلتي هذه الى النهاية..

ضحك لها لتبادله الضحك بمرح غافلين معاً عن عينين قاسيتين تنظران لهما بجمود، راقبهما لوهلة، الحميمية الواضحة تشي بعلاقتهما الشغوفة، تشي بحبهما لبعض.. حسناً ليس بالضرورة!

فكر بسخرية قبل أن يشق طريقه عبر الراقصين ويقف جوارهما..

كانت تستمتع بالرقص معه..ركان لطالما كان راقصاً بارعاً..وهي تعشقه ليس أقل، ولكن ظل ابن عمه الضخم حين سقط عليهما جمدها في مكانها، نظرت له بهجوم وهي تستعد لرفض الطلب الواضح في عينيه.. لن ترقص معه أبداً.

فكرت بنفور.. الا أنه ابتسم.. تلك الابتسامة الساخرة والتي تحوي مكر العالم وجعلته يبدو أشبه بحيوان مفترس قبل أن يحول نظراته الى ابن عمه قائلاً بقوة:

-أردت توديعك..أنا عائد الى أنقرة في الصباح الباكر..

اضطربت عينيها فيما تسائل ركان بفضول:

-أنت لم تقضي وقتاً طويلاً؟

رفع شاهر حاجبه بغطرسة:
-تعرف كيف هي الاعمال.. ولكنني سعيد بماأنجزته حتى الأن..
ثم غمز له بطرف عينه ليحمر وجه ركان وهو يدرك ان ابن عمه لن يتساهل معه حتى ينفذ اتفاقهما بالكامل.ولكن سرعان مااشتعلت نظراته حين مال برأسه بابتسامة مقتضبة وقال بحرص:
-وأنا سعيد أكثر بقرارك التعاون معنا بعد سنوات من القطيعة يا ابن العم.. ستكون شراكة مثمرة.
تنقلت عينا سارة الحائرة بينهما بينما زم ركان شفتيه بغضب مكتوم.. ليتراجع شاهر بكلامه بارتباك مدروس:
-ماالأمر؟! هل افشيت سراً ركان؟
-ماذا تعني بتعاونكما معاً؟ عن أي شراكة تتحدث؟!
تسائلت سارة بتوتر ليبتسم شاهر باعتذار لنظرات ركان الغاضبة:
-لم اكن أعرف أنه لايزال سراً ياعزيزي..لم اكن لأخفي سراً عن السلطانة بأي حال.. على العموم..

والتفت لسارة المصدومة هامساً بابتسامة:
-أكرر تهنئتي بزواجكما أيتها الغالية..وربما في يوم ما.. تلتقي طرقنا بشكل أو بأخر.
كان هناك غموض في عينيه.. غموض ولمحة قسوة باردة أرسلت الرعشة لأطرافها بالإضافة لغضبها المتصاعد من ركان واخفاءه الأمور عنها رأته يودعه بابتسامة ويقول:
-سأعود الى روما في مطلع الشهر.. ربما نستطيع توقيع العقود حينها؟
-نعم.. بالتأكيد..
قالها ركان بحنق ليبتسم له شاهر بمعرفة ويعود ليومئ لسارة قبل أن يختفي بين الحضور..
نظر ركان لسارة التي كانت تقف محتقنة الوجه عينيها تلمعان بالغضب والاستنكار بالاضافة لشيء ما.. عميق.. شيئ كجرح مؤذي.. ألمها بقسوة.
-كيف استطعت؟!
همست مخنوقة ليشيح عنها فتواصل بألم:

-أخبرتك انني بحاجتك الأن أكثر من أي وقت مضى.. وهاأنت.. تبيع كل شيء لصاحب السعر الأعلى.

-الامر ليس هكذا.

تمتم بحذر الا أنها هزت رأسها غير مصدقة وسارعت بالابتعاد هامسة بجفاء:

-الأمر هكذا بالفعل، أنت اخترت.. وأنا لن أسامحك ابداً.

-سارة..

صاح بإثرها ولكنها لم تلتفت حتى إليه، بل استمرت بالركض تقريباً نحو بوابات الخروج بعينين غشتهما الدموع وهي تختبر أولى لحظات الخيانة..

ولم تعرف أن الكثير قادم في الطريق.

***

لقد احكمت على نفسي
إغلاق قوقعتي
فكيف تسلل صوتك الي
ودخل منقارك الذهبي
حتى نخاع عظامي ؟!

وانصت إلى قلبي...
يا للمعجزة : انه يدق؟!!
غادة السمان،
كينيـــا..
الأحراش..سفاري
وقف يراقب تراقص اللهب، والغضب بداخله لايزال يشتعل كالنار التي امامه، لم فقد أعصابه بتلك الطريقة؟ لماذا لم يسيطر على نفسه ولم يسيطر على لسانه.. هو أحمق. بالفعل هو أحمق.
شعر بالذنب يسيطر عليه ربما كانت محقة، ربما هي لم تعرف شفافية القماش وكم بدا منظرها مغريا ومثيراً الى تلك الدرجة، بحق الله هو نفسه لم يعرف أن عضمة واحدة بذلك الجسد الصغير يمكن أن تثير اي مشاعر بداخله!! ولكنها فعلت؟!
زفر بإحباط ونظر بالإتجاه الذي اختفت فيه للحظة ثم اتخذ قراره..
في الجانب الاخر كانت ترنيم تواجه أسوأ مخاوفها على الاطلاق.. تراجعت بعينين متسعتين وخطوات متعثرة، لم تكن تعرف ماتنظر اليه.. فقط زوج من العيون الصفراء

اللامعة والتي اختبأت خلف بعض الأكمة والأن تناظرها بوحشية.. مع زمجرة مفترسة تبين حقيقة الحيوان المختبئ خلفها..

خفق قلبها بعنف وتعثرت في خطواتها لتسقط على مؤخرتها وهي تشهق بألم متجنبة الصراخ كي لاتثير حفيظة الحيوان الذي بدأ بتتبع خطواتها والاقتراب..

كان قطاً برياً.. قطاً برياً ضخماً.. التمعت عيناه وأنيابه بينما يقترب منها بذيلٍ منتصب وأذنين مشحوذتين وعينين لاتكفان عن مراقبتها ولاترمشان حتى، تراجعت تسحب للوراء خدشت الصخور الصغيرة والأرض الخشنة أصابع كفيها وجرحتها لتشعر بالدموع المنسابة من عينيها، انها خائفة.. بل تكاد تتجمد من الخوف..

تريد أن تصرخ أن تجذب أحد من مخيمها لينقذها ويخلصها من هذا الوحش ولكنها لاتقدر..

حتى الضوء المشتعل الذي أعطوها اياه لاستعماله في وقت الطوارئ كان مستقراً في حقيبتها، غبيــة.. فكرت بحنق وهي تحاول

السيطرة على دموعها والخروج من حالة الخوف التي تصيبها بالشلل هذه دون فائدة!!
كان يقترب من المكان حيث اختفت.. حين شعر بشيء ما مختلف.. الجو ساكن وحتى حشرات الليل المزعجة قد هدأت.. وفي الأحراش هذا معناه شيء واحد فقط.. أن ضارٍ على وشك الهجوم..
لقد كان الهواء واقفاً بكله.. لذا تلفت حوله بحذر.. بحث بعينيه عن شيء يمكنه استخدامه للدفاع عن نفسه ووجد عصا طويلة وغليظة التقطها دون تفكير ومضى متقدماً.. حين رأها..
كانت ملقاة على ظهرها عينيها واسعتين بالخوف والترقب، وجهها شاحب أكثر مماكان وأنفاسها متسارعة بشكل يفوق الوصف.. كانت مذعورة، وأمامها وقف ذلك القط البري الضخم مكشراً عن أنيابه..
أوس لم يفكر اكثر، بل رفع عصاه وصرخ بقوة يجذب انتباه القط الذي التفت صوب الصوت القوي.. وبحسبة بسيطة كان يقارن بين الفريستين.. واحدة ضعيفة ومستسلمة.. والأخرى

تفوق حجمها مرتين ومقاتلة، وتغلب الجشع عليه.. واستدار بجسده كله لأوس الذي سرعان ماكان يرميه بالعصا لتصيب رأسه بقوة...
أطلق القط زمجرة وحشية متألمة.. ولكنه لم يبتعد بل كشر عن أنيابه وبدا مستعداً للهجوم أكثر، ليخرج أوس من حزامه مشعلاً ضوئياً ويشعله بسرعة لتتناثر منه اللهب القوي ويثير فزع الحيوان الذي تراجع مزمجراً بحذر.. وماكان من أوس الا أن يقترب بتهور ويرمي بالمشعل نحوه،، فيفر القط مزمجراً بفزع وهو يضع ذيله بين ساقيه.
اتسعت عيناها بذهول وهي تراه يركض نحوها..
-هل انت بخير؟ هل تمكن منك؟
هزت رأسها بنفي منفعل.. ليمد ذراعه لها بسرعة:
-اذاً انهضي قبل أن يقرر العودة وربما ببعض الرفقة..
تقبلت ذراعه الممدودة اليها وتشبثت به بينما يدفعها لتركض أمامه هاتفاً بقسوة:

-ستسببين لنفسك القتل في يوم ما.. مالذي دهاك لتبتعدي؟هل كنت تبحثين عن عقلك الذي ضاع منك؟

-بل كنت ابحث عن تعقلي الذي هرب من الحماقة التي كانت تتبعني.

ردت بحنق ليسارع بغضب:

-ربما كان من الافضل لذلك القط أن يأكل لسانك هذا.

نظرت له باستنكار ليضحك بخبث:

-لا لاداعي.. من القسوة أن نسمم ذلك الحيوان المسكين.

-أنت وقح وعديم الحياء..

هدرت بقوة وهي ترفع كفها لتضربه على وجهه ولكنه كان أسرع منها والتقط كفها بسهولة بيديه، جفلت ترنيم من الألم وشهقت مماجعله يفرد كفها متأملاً الخدوش المؤلمة التي تغطيه ثم مال ليلتقط الأخر وعبس قائلاً:

-انها تبدو مؤلمة..لم اكن اعرف أنك تأذيتي؟

-دعني..

حاولت جذب كفيها منه ولكنه لم يفلتها بل على العكس احتفظ بها بين يديه ونظر لعينيها بتركيز:
-تلك الخدوش ملوثة وقد تسبب لك بالالتهاب ان لم تعالج، فكفي عن التصرف بحماقة ودعيني أساعدك.
ترددت لوهلة ولكنها تدرك أنه يقول الصواب، فالخدوش مؤلمة والاحراش ليست بالمكان الذي يترك فيه أي جرح ولو كان بسيطاُ دون عناية هي بالذات يجب ان تفهم هذا.
ابتلعت ريقها بصعوبة واومأت له ليتنهد بارتياح ويغمغم:
-فتاة ذكية، تعالي معي لدي عدة اسعافات اولية ستفي بالغرض.
توقفت بحدة وهمست بخشونة:
-لاأريد لأحد أن يعرف.
رفع حاجبه ثم اومأ لها بخفة:
-لابأس.. ولكن علينا الابتعاد عن هنا قبل ان يقرر قطك المتوحش العودة.
أخذت نفساً عميقاً وأسرعت خلفه، كانا على مقربة من المخيم، أصوات الرفاق تعلو بالصخب

وقرقعة النار وحسيسها واضحين.. أجلسها أوس على صخرة ملساء وهمس:

-انتظري هنا وسأعود.

اومأت له ليختفي بسرعة عن ناظريها .. رفعت كفيها متأملة جروحها بعينين جامدتين.. لم تكن تشعر بالالم تشعر بالانزعاج ربما، لفكرة أنها كانت عاجزة كلياً وعلى وشك الموت او اقل تقدير الاصابة بعاهة قبل أن ينقذها ذلك المهرج.. خفق قلبها بعنف وانتفضت ضلوعها وهي تتذكر نظرته التي سكنت عينيه، قلق واهتمام .. شيء لم تره منذ سنوات خلت؟!

رفعت عينيها للأفق الليلي واستمعت لسيمفونية الأحراش التي تعزفها حشرات الليل وحيواناته، شيء ماجثم عليها وشعرت بالاختناق، حاولت التقاط أنفاسها ولكن ذلك الثقل كان محكماً وكأنما ستزهق روحها.. أرادت أن تشهق للهواء، ولكن هيهات.. اتسعت عينيها بخوف ومدت أصابعها لتحيط عنقها بلمسه هستيرية علها تبعد تلك القبضة التي تخنقها بلارحمة..

-ترنيـــم؟!

شهقت بعنف والهواء يندفع لرئتيها بعنف سعلت عدة مرات وهي تشعره بالقرب منها يحوطها بدفئ غريب عن برد الليل المتفاقم..

-هل أنت بخير؟!

تسائل بقلق لتهمس بصوت مذعور:

-لم أستطع التنفس.

نظرت له بجزع ليقترب محيطاً وجهها بكفيه وبإبهاميه مسح خيطي الدموع المنسابة على وجنتيها ببطء ورقة جعلتها تناظره بذهول بينما يهمس بصوت دافئ واثق:

-أنت تعانين من الصدمة ترنيم، لاشيء يمنعك من التنفس سوى خوفك ياعزيزتي، أنت بخير الأن ولن اسمح بمكروه يصيبك، أتفهمين؟

اومأت عاجزة عن أي شيء سوى الموافقة ليبتسم ثم يفلت وجهها الصغير ويقرب منها علبة قماشية شفافة فتحها وأخرج منها مطهر وكريم معقم وبعض الشاش الطبي..

-أفردي كفيكي وباعدي بين أصابعك.

أمرها بخفة لتستجيب طوعاً..طهر جروحها ووضع عليها الكريم البارد بحرفية ودون أن

يتلكك.. فقط انامله لامست صفحة كفها، انتابتها رعشة قمعتها بقوة ولم تظهر على السطح أبداً.
تراجع لينظر لوجهها لم تصرخ ولم تبكي، ربما جفلت للحظة وضع المطهر عليها، ولكن غير هذا هي لم تظهر تأثرها ابداً.
ضاقت عيناه بحيرة..امرأة سواها كانت لتقيم الأرض ولاتقعدها وستفرض عليه مشاهدة حلقات من الدلال والدموع وسواها ولكن هذه؟!
-لقد انتهى الامر.. احتفظي بهذا واستعمليه حتى تشفى الجروح.
قال مناولاً الكريم لها.. راقب للحظة كيف نكست رأسها وعينيها على جروحها المعالجة. هناك بؤس في عينيها تنحنح فرفعت عينيها اليه.. رفع حاجبه لرؤية القهوة السائلة في مقلتيها ثم همست بصوت لم يعرفه:
-شكراً لك..
التوى فمه بإبتسامة لسماعه الراء الخفيفة في كلمتها، شيء لم ينتبه له من قبل ورأته هي لتطبق شفتيها والحمرة تغزو وجنتيها بينما يهمس هو بتلاعب:

-هذا شيء غريب لسماعه ولكنه مثير بالدرجة نفسها.
نهضت من جلستها وغمغمت بخشونة:
-يجب أن أعود.
تأملها من أسفل واستند على مرفقيه قائلاً بجدية:
-اذهبي..أم أنك تريدين مني مرافقتك للحماية حتى خيمتك؟ اطمئني ذلك القط لن يعود فقد هددت بنزع شواربه إن اقترب منك مرة أخرى.
ابتسمت فجأة.. وانتقلت ابتسامتها اليه كالعدوى باتساع كتكشيرة عريضة وحاجبين كثين متلاعبين بينما انسدلت خصلات شعره على جبينه بفوضى جعلته يبدو كصبي أقرب منه لرجل مزعج كماهو.
اختفت ابتسامتها وتراجعت بعبوس مجفلة ثم أرتدت على عقبيها مسرعة نحو المخيم.. خفقات قلبها مدوية لم تسمعها يوماً تضرب بمثل هذه القوة، ان قلبها يخفق.. يخفق..
نظراته الغامضة المظللة تلاحقها قبل أن يستلقي على الصخرة ويسند رأسه الى كفيه فيما يشرد بعينيه الى السماء المظلمة فوقه..!!

***

رب ارحمني من سعادتي
أما تعاستي فأنا كفيلة بها ..
غادة السمان
أبوظبي..

-كان بإمكانك الصبر والعودة بعد عطلة نهاية الأسبوع، أنت تبدين رهيبة.

هتفت مروى بعبوس بينما رمقتها صوان من تحت رموشها بعتب لتحمر الأولى وتغمز لها بمرح بينما صوان تهمس بصوت مجهد:

-اذا كنت حقاً تريدين راحتي اذهبي وحضري لي فنجان قهوة مركزة.

اومأت الفتاة وابتسمت لصوان بينما دخلت مساعدتها هامسة بانفعال:

-صلاح الزجّال في الخارج ويقول أن لديه موعد معك صوان؟!

أخذت صوان نفساً عميقاً وأشارت لها أن تدعه يدخل بينما تقول لمروى:

-حضري اثنين من القهوة.

-حاضر أيتها الرئيسة..

قالتها غامزة بمرح بينما يدخل صلاح بخطوات واثقة وابتسامة هادئة تعلو محياه الوسيم وهو يقترب ملقياً السلام قبل أن يجلس مستطرداً:
-أنا أشكرك كثيراً على قبول عودة الصبي.. لقد كان صعب السيطرة في الأيام الماضية.
رتبت صوان أوراقها وقالت بمهنية:
-أرى انك رتبت أمورك العائلية واستطعت أن تعرف سبب تدهور حالة الصغير.
ظهر الغضب في عينيه وهتف بحنق:
-نعم..تلك الشمطاء التي تزوجتها فقط لأجله..كانت تضربه في الخفاء، وليس مجرد ضرب عادي.. كانت تستخدم عصا البليارد خاصتي أتصدقين؟!
اتسعت عينا صوان وشعرت بالألم فقط لذكرى الصغير المنطوي وتخيلت المنظر لينتابها الغثيان والدوار.. رباااه ستقع من على مقعدها.. فكرت بذعر وتشبثت غريزياً بحافة المكتب وصوت صلاح المهتم يخترق حواسها:
-أنستي هل أنت بخير؟!
فتحت عينيها لتلتقي عينيه القلقتين فردت بخواء:

-انا بخير.
ثم أغمضت عينيها لوهلة وعادت تفتحهما مستعيدة قوتها وصلابتها لتواجهه وفيهما عزم غريب:
-بالنسبة للصغير أريد أن تقابله الاختصاصية بأسرع وقت لتقييمه .هل لديك اعتراض؟
-لا أبداً.. هل يلزم أن أكون موجوداً؟
تسائل بفضول لتهمس:
-ليس في البدء.. ولكن ربما تطلب الاختصاصية لقائك..سأعطيها رقمك الشخصي لتستطيع الوصول اليك.
-كلا.. أفضل أن يكون تعاملي معك فقط.
رفعت وجهها اليه بتساؤل لترى نظرته القوية والمركزة عليها، شعرت بالاضطراب للحظة وأرادت أن تجابهه بقوة مماثلة حين فتح الباب فجأة ودخلت مروى تصيح باستحسان:
-صواااان أنظري لهذاا..
اتسعت عينا صوان بذهول وهي ترى الشاب الذي دخل خلف مروى يحمل أكبر باقة أزهار رأتها في حياتها وحولها تطفو مايقارب الدزينة

من البالونات الملونة بأشكال مختلفة ومفرحة..
على قاعدة مغلفة بورق الهدايا اللامع بالأضافة لصندوق أكبر ملفوف بورق مماثل..
نهضت مسرعة الى الشاب الذي وضعهم على المكتب وتقبل شكر مروى المتحمس وهي ترافقه الى الباب قبل أن تعود وتهتف لصوان:
-أخبريني الأن ماهي المناسبة؟ ومن بعثها لك.
تلعثمت صوان وهي تقف قبالة الباقة الضخمة وتهمس لها بارتباك:
-لا أعرف.. ليس لدي فكرة..
كان قلبها يخفق بقوة وحماسة غير عادية تبث الدماء الى داخل عروقها نسيت الضيف القاعد يناظرها بترقب وانزعاج لايجرؤ على تفسيره بعد، يديها امتدت للباقة التي امتلأت بالزهور المختلفة.. باقة النرجس المحاطة بالزهور البرية واللافندر.. وجدت البطاقة الصغيرة واختطفتها مقربة اياها من انفها بشوق..
كل ذرة في أعماقها تعرف من المرسل.. منذ دخلت الباقة وماترافقها الى المكتب حتى عرفت من أرسلها.. ورائحة عطره التي أغدقت بطاقته

أيدتها..كان قلبها يتخبط بين ضلوعها بفرح غير اعتيادي وقد نسيت مرضها وارهاقها نسيت كل شيء وعينيها تلتهمان السطور التي خطتها يده الأنيقة، ابتسمت بشرود وهي ترى اسمه يذيل تمنياته لها بالشفاء العاجل وعتبه عليها للتوجه للعمل قبل أن تتحسن بشكل كامل..ثم عقدت حاجبيها بتساؤل حين قرأت اخر عباراته..

"حرري مراسيلي قبل أن يختنقا"

زمت شفتيها بتساؤل وأسرعت لتأمل الطردين الأخرين.. كانت شبه متأكدة من محتوى الصندوق المكعب الصغير ولكن الأخر الاكبر هو مالفت نظرها.. اقتربت منه وفضت الغطاء الذهبي اللامع بخفة لتشهق بفرح..

"عصفوري حب؟!"

هتفت غير مصدقة.. وتأملت الطائرين الصغيرين اللذين بدأا بالصراخ والغناء بفرح لعودة الضوء لحياتهما بعد الحبس الاجباري خلف الورق اللامع، الذكر أكبر حجماً قليلاً من أنثاه وبينما توزع اللون الأزرق بدرجاته على ريشه الناعم.. كان ريشها بنفسجياً وأبيض، ابتسمت صوان

بفرح كبير ومدت أصبعها لتداعب ظهر الذكر الجميل عبر فراغات القضبان الحديدية الوردية.
تسارعت أنفاسها وقبضت على القضبان بأصابعها بقوة والدموع تكاد تطفر من عينيها وهي تتذكر حلمها منذ كانت طفلة بالحصول على عصافير حب..
وكان جساس على الدوام يسخر منها، والأن هو من جلبها لها؟! ابتلعت ريقها بصعوبة والتفتت لمروى هامسة بحماس واثارة:
-أليسا جميلين؟
اومأت لها مروى بذهول لمنظر مديرتها وصديقتها التي لم ترها يوماً بهذا الشكل، عينيها تلمعان، وجهها متورد.. وتبدو أصغر من عمرها بعشر سنوات على الأقل.. ثم وبكل مرح سارعت لفض الصندوق الأخر والذي كشف عن صندوق مليئ بالشوكولاتة المفضلة لها لتتسع ابتسامتها وتهتف بفرح:
-انظري لهذه..انها لذيذة للغاية.
-هل سأحصل على واحدة؟!

انطلق التساؤل من خلفها بحدة لتنتفض وهي تنظر تجاهه بذهول.. لقد نسيت كلياً أنه هنا؟! كيف تصرفت بتلك الطريقة الهوجاء؟! حاولت العودة الى مكان المديرة المسؤولة ولكن تلك التكشيرة السعيدة التي احتلت وجهها تأثراً بالهدية لم تفارقها، وظهرت في عينيها بطريقة مذهلة جعلته ينظر لها بذهول للحظات بينما تحاول السيطرة على ابتسامتها وفرحتها الواضحة بينما تبحث عماتقوله:

-انا أسفة..انها.. أنا.. أعني.. أنا..

-لاداعي لان تبرري ليس وكأن المرء يحصل على هدية كهذه كل يوم.

كان هناك سخرية وفضول في صوته وعينيه، جلب اللون الى خديها وجعلها تبتلع لسانها وهي ترفع أسوارها من جديد وتختفي ابتسامتها لتهمس بحزم:

-أعتقد باننا قد انتهينا لليوم سيد صلاح سنعاود الاتصال بك لتحديد موعد مع الاختصاصية.

رفع حاجبه ساخراً:

-أتفهم هذا..

ثم نهض متجهاً نحو الباب والتقط في طريقه واحدة من حبات الشوكولاتة لتشهق صوان بارتباك فينظر لها بسخرية أكبر وبكل هدوء يضعها في فمه ويمضغها ببطء وعينيه لاتفارقها..

-لذيذة بالفعل.. شكراً على الدعوة.

راقبته صوان بانفعال وهو يغادر تاركاً الذهول يجتاحها وبعض الغضب، لقد أخذ واحدة من حبات الشوكولاتة .. التي أحضرها لها جساس؟!!

رباه سيجن لو علم...

نظرت غاضبة لمروى الواقفة أمامها بحيرة قبل أن تعود بعينيها الى باقة الزهور وقفص العصافير الجميل.. لتبتسم مجدداً وتغرق وجهها في البتلات الناعمة وتأخذ نفساً عميقاً برائحة الازهار الفواحة..

انه جساس الأحمق، كيف يفعل هذا ويحرجها أمام كل هؤلاء!! لن يسكت أحد الأن.. القيل والقال لن يتوقف في الحضانة.. رفعت عينيها نحورفيقتها التي كانت تنظر لها بفضول ماكر

وكلها أسئلة تظهر من عينيها، عبست بوجهها وهمست بغيظ:

-لاتبدأي.

-لم أفعل..

ردت بابتسامة واسعة لتزفر صوان وتبتعد عن الباقة بمسافة لتتبعها هامسة:

-من يكون؟! معجب مجهول أم انه معروف؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وتجاهلت السؤال وهي تنظر عبر النافذة ويدها ترتاح على خفقات قلبها الهادرة لاترغب سوى بإبطاءها قليلاً.. انها تسقط في الدرك مجدداً، ولكنها تشعر هذه المرة أن سقوطها سيكون مدوياً لو تركته يتحكم بها ويقودها، عليها ان تمسك نفسها وليس هذا فقط، بل عليها أن تسيطر وبوحشية على خافقها المجنون والذي قد يؤدي بها الى كارثة لن تتحمل هي أو هو عواقبـــها.

***

أنقـــرة..

انسابت السيارة الليموزين الى داخل البوابة الحديدة الضخمة عبر فردين من أفراد الحراسة

الشخصية وتقدمت بهدوء وصمت عبر ممر طويل محفوف بالنصب الحجرية الضخمة والتي تمثل رجالاً بوضعيات مختلفة تحمل كلها فكرة الرضوخ والعبودية..

وصلت السيارة الى وجهتها وانفتحت البوابة الداخلية للقصر المنشود على مصراعيها، بينما ترجل من قيادة الليموزين سائق ببدلة رسمية سرعان ماقفز ليفتح بابها الخلفي ويترجل منه شاهـر الباشا!!

استقبله رجل بحلة رسمية وحياه بايماءة من رأسه ليسأله شاهر بعجرفة:

-أين جدتي يافؤاد؟

-انها في التراس الخلفي ياباشا.. تفضل.

سبقه شاهر بخطوات سريعة وحازمة وهو لايكلف نفسه عناء النظر في الثراء الفاحش فيماحوله، اندفع نحو التراس ليجد جدته تجلس بكل بهاءها وقوتها الى أريكة مذهبة، حول طاولة القهوة التركية والحلويات..

جدته الكبرى سليلة فاروق باشا الخامس.. عائلة عريقة تعود لأيام السيطرة العثمانية.. أحد أجداده

كان وزيراً للقصر العثماني.. كان باشا حقيقي وقد احتفظت العائلة باللقب تشريفاً ومهابة..
نظر لجدته التي تجاوزت السادسة والسبعين من عمرها ولم تزل تحتفظ بقوتها بل.. شراستها..
كانت سيدة أنيقة بشعر أشقر صبغته السنوات بلون ثلجي كلل رأسها بوقار، بشرة بيضاء ناصعة وجسد ضئيل ولكنه قوي، عينيها الزرقاوتين تحملان قوة واصرار.. تخفيهما نظارة صغيرة مذهبة الاطار، جدته نازك الباشا..
كانت العقل المدبر والمحرك الرئيسي لعائلة الباشا كلها.. وهو .. شاهر بنفسه كان ربيبها الحبيب.. الحفيد الوحيد من ابن أختها وخصوصاً أنها لم تحظى بأي أبناء بعد وفاة خطيبها في الحرب العالمية الثانية وبقاءها وفية لذكراه..
-جدتي..
هدر بصوت حازم لتلتفت الانظار اليه من جدته ورفيقتها التي تجاهلها كلياً وهو يقبل اليها ويلتقط كفيها بين يديه مقبلاً أصابعها بنعومة ثم قمة رأسها مستمتعاً بلمستها الخفيفة على وجنته الحليقة وهي تهمس بصوتها الرقيق الخافت:

-وصلت اخيراً؟! كيف كانت رحلتك باشا؟
رمش شاهر بعينيه الى رفيقة جدته التي لم تفارقه عينيها منذ دخل، لتبتسم جدته بإدراك وتلتفت الى ضيفتها هامسة:
-شكراً لزيارتك شهيرة بنيتي.. اذهبي الى منزلك الأن وساتصل بنفسي بوالدتك لأناقش أمر الزواج المفاجئ هذا.
التمعت عينا الشابة العسليتين برجاء.. تناشدان الغافل أمامها بينما ترد لجدته:
-أرجوك جدتي.. لو حصل ان تزوجت من ذلك البدين سوف ألقي بنفسي من على الجسر دون تردد.. أنا لن أقبل بهذه الزيجة..انا..انا..
-لاتفكري بهذه السخافة، اذهبي الان وتوقفي عن التصرفات الطفولية.
هتفت بحزم لتقف الفتاة بارتباك عينيها لاتفارقان الرجل المتجاهل، حتى طفرتا بالدموع ثم التقطت حقيبتها وركضت تقريباً الى الخارج..
نظرت نازك لحفيدها وهمست بعتب:

-لم تعامل قريباتك بهذا الشكل؟ أنت تعرف حساسيتهن؟ وبالذات شهيرة..انها متيمة بك منذ طفولتها.

رفع حاجبه بتعجرف وهمس بخشونة:

-حين أفكر بامرأة ياجدتي.. هي لن تكون طفلة تركض باكية حين اتجاهلها..ستكون امرأة حقيقية.. تجبرني على النظر اليها مرتين وثلاث.. حاش لله اتجاهلها.

حركت جدته رأسها بيأس.. شاهر الباشا ورغم كل ثراءه وسلطته، رغم سنين عمره التي تجاوزت الثالثة والثلاثين، هي لم تسمع قط عن غزواته النسائية، الكثيرات حاولن.. ولكن.. دون فائدة..

لطالما كان شاهر برجاً عاجياً بارداً لم يقترب منه أحد..ولم تقع أسواره يوماً لاجل امرأة.

-أخبريني عن صحتك؟ هل زرتي الطبيب في الاسبوع الماضي؟

-أنا بخير وأكثر صحة منك ياولد.. الأن أخبرني كيف هي نتائج زيارتك لروما؟ هل قابلت ابن عمك؟

تنهد شاهر واستند للخلف وهو يتقبل القهوة التي جائت بها خادمة صغيرة تحت اشراف الرجل الذي فتح له الباب وبعد رشفة طويلة أغلق عينيه مستمتعاً بطعمها ثم فتحهما متألقتين وبقوة وقال برضا:

-لاتقلقي جدتي.. كل الأمور تسير بطريقة حسنة.. ركان الباشا سيكون نعم العون بالنسبة لنا لاستعادة أملاكنا كلها.

-هل قابلته؟!

-بالطبع.. لقد اتفقنا على كل شيء تقريباً. هو نفذ جزئيته من الخطة وحان الوقت لننفذ نحن.

ضاقت عينيها وهي تستشعر شيئاً ماتحت نبراته وسألته بريبة:

-ماذا هناك ياولد.. أخبرني؟

حام طيف ابتسامة على شفتيه.. اختفت الحديقة الملكية والتراس الحجري الأثري من امامه لتظهر ساحة ايطالية مغطاة بالنجوم.. ومن الافق جاءت.. كحورية.. ترفل بالحرير، لقد شعر بقلبه يتوقف فعلاً وقتها.. بدت وكانها قادمة من مكان ما خيالي ولايمت للواقع بصلة.. لقد رآها حين

دخلت.. راقبها تتوهج للحظات طويلة قبل أن تصفعه حقيقة مرة.. تلك المرأة.. المرأة التي لفتت نظره لأول مرة منذ سنوات طويلة..

كانت امرأة ركان!!

زوجة قريبه البعيد.. والأدهى أنها كانت السلطانة..

من كان يخطط للإطاحة بها لشهور طويلة.. والاستيلاء على كل ماتملك واعادته لحظيرته الخاصة.. تلك المرأة هي من أسرته للحظات قبل أن يعي الحقيقة الصادمة ويقف غير قادر على التفكير.

-شاهر؟!

انتفض لرؤية جدته وعينيها الحائرة ثم ابتسم بارتباك وارسل قهقهة متعثرة وهو يهز رأسه لايصدق أنه شرد في حضرة جدته بهذه الطريقة التي تماثل المراهقين، ونظر لها بعينين متراقصتين:

-أنا هنا أيتها الجميلة..لماذا تصرخين؟

-لأنك بعيد عني مئات الأميال..أين ذهبت بني؟

همهمت بحيرة وهي تلامس وجنته ليبتسم بعمق:

-لقد وجدتها أمي.. وجدتها أخيراً..
رقت ملامح وجهها وهي تسمعه يناديها بأمي.. لقد ربته على يديها منذ كان رضيعاً..والأن لاتزال الكلمة تغادره في لحظات الضعف النادرة التي تصيبه.. لهذا مدت ذراعيها اليه فنهض ينزع سترته وحذائه ثم استلقى فوق ساقيها على الأريكة كما كان يفعل وهو صغير، مسدت رأسه وزرعت أصابعها بين خصلات شعره الناعم الكثيف وهي تسأله بحنان:
-أخبرني عنها؟
ابتسم غارقاً في نشوته الخاصة لذكرى تقدمها اليه.. كشمس غاربة، تشرق من جديد...
-السلطانة..
همس بثقل لتلتوي ملامح جدته بقلق وهو يواصل بهيام:
-انها أروع امرأة قابلتها في حياتي أجمل مخلوقة وقعت عليها عيناي، امرأة تختصر كل نظرتي في النساء.
-عمن تتحدث بني؟ أي سلطانة تتحدث عنها؟

-اااه ياأمي.. انها خطأ كبير.. ولكنني..لاأقدر على مقاومة اقترافه.

ابتلعت ريقها بصعوبة:

-أنت تتحدث عن زوجة ركان؟! أليس كذلك؟

تجهم وجهه على الفور وفتحت عيناه على الفور ليبرق سوادهما كقطران سائل سرعان مااشتعل وهو يزفر بحنق وأسى وخيبة كبيرة:

-انها غلطتي أنا..ماكان عليه أن يتزوجها ابداً.

-بني..أنت لم تجبره على الزواج منها.. قرار الزواج فاجئنا جميعاً..

-لا ألومه البتة أمي..أنت لم تريها.

همس بشرود لتشد اذنه تجذب انتباهه اليها وهمست:

-بماذاتفكر الأن حبيبي؟

ابتسم بمكر وعيناه تتألقان:

-بطريقة تأتي بها الي.

-يالهي شاهر؟!

صاحت جدته بانفعال لتسكتها نظرته الصاخبة وهو يهتف:

-انها المرأة التي كنت ابحث عنها امي.. المرأة التي خلقت لأجلي.
-انها عدوتنا.. هل تنكر أن كل مافعلته للان هو التحضير للتخلص منها؟! حتى زوجها..أنت تدفعه ليعمل لدينا بني.
-ربما نحتاج لتغيير بعض الخطط فحسب ليس علينا التسرع، بإمكاني الحصول على كل شيء بالتخطيط السليم.
-أنت تنوي افساد كل شيء بسبب اعجابك بتلك المرأة؟
نظر للسماء فوقه بهدوء قبل أن يهمس:
-أنا انوي أن أقلب الدنيا رأساً على عقب لأجل المرأة التي أعرف أنها ستكون المرأة المناسبة لي.
تنهدت جدته بتوتر.. قلبها يخفق بعنف خوفاً وقلقاً على حفيدها الحبيب..
لقد كانت معه خطوة بخطوة للحصول على مايريد واستعادة جزء مهم وتراثي من ثروة عائلتهم، ووافقته على كل الخطط والترتيبات ولكن الان؟! قد تكون العاقبة وخيمة.. ولكن...

من تكون هي لتقف أمام شاهـر الباشا حين يقرر شيئاً ما.. وهو ماكان بصدده بلاشك.

***

توقفت الكورفيت الحمراء أمام الفيللا الأنيقة وقفز منها جساس ملقياً المفتاح لحارس البوابة وهتف مهرولاً للداخل:

-أخفها عن الأنظار.

ابتسم الحارس بتعاطف ونفذ ماقاله الشاب فيما الأخير يدلف الى الفيللا صارخاً:

-عمتي؟.. ياحاجة فاطمة أين أنت؟

ظهرت المرأة الطيبة من خلف أحد الأبواب بابتسامة حنون وتقدمت نحو جساس العابس قائلة:

-متى جئت أيها المزعج الحبيب؟!

ابتسم جساس باتساع وقد نسي عبوسه وهو يقترب ليضم المراة التي قامت بتربيته اليه بدفء:

-منذ قليل فقط..أرجوك قولي أنك في المطبخ تجهزين الغداء؟.

-انا أشرف على تحضيراته فقط..تعال وانضم الي أنا وسعاد..لقد اشتقنا لحكاويك.
كانت تتكلم وتسحبه برفق خلفها حتى دخلا الى المطبخ الضخم المجهز بطريقة حديثة ومثالية وسرعان ماستطاع شم روائح الفطائر التي تخبز في الفرن فشمر عن ساعدي الكنزة الرملية التي يرتديها وجلس الى طاولة المطبخ هاتفاً:
-اعلن بكل تواضع أنني مستعد لأكون فأر التجارب لأي شيء بهذه الرائحة الشهية.
ضحكت عمته بينما تجهمت المرأة الأخرى الضخمة وقالت بفظاظة:
-الناس تلقي بالسلام أولاً.. ولكن مالعجب..أنت كماأنت، أتذكرك حين كنت تعود من المدرسة وتقول نفس الشيء.
قهقه جساس وهو يتلقى من عمته طبق مليئ بالفطائر الساخنة وصرخ بعدها بابتهاج:
-لابأس عليكي سعاد.. أنت الكبيرة العاقلة وانا الطائش الصغير.

ضحكت سعاد وحضرت له كوباً من الشاي بالحليب وقدمته مع الفطائر ليشكرها بفم محشو ثم يلتفت لفاطمة ويسألها:

-كيف هي؟!

تنهدت فاطمة وتذكرت شجارها مع ابنتها وهي تحاول منعها من الذهاب الى العمل واصرارها على الذهاب مهما كانت العواقب، ونظرت للفتى المتيم دون أمل كماكانت تؤمن وهمست:

-انها تتحسن.

-والحمى؟

-لم تعاودها لله الحمد..

-حمداً لله.. لم تركتها تذهب للعمل؟ انها لاتزال مرهقة.

علق بجفاء لتتنهد بنفاذ صبر:

-أنت تعرف دماغها اليابسة.. لديها موعد مع احد الأباء وهي لاتلغيهم أبداً، هي لاتفهم ولكن على الاقل وعدتني أن تعود باكرة.

نظر جساس لساعته التي تجاوزت الواحدة والنصف وشخر بسخرية قائلاً:

-حين تأتي لبيتي سأعلمها أن تلين تلك الرأس اليابسة.

نظرت له عمته بحزن .. يحزنها الأمل والثقة التي يتحدث بهما بينما تعرف أكثر من أي شخص.. أنه لاأمل له.

-تذوق هذه.. انها باللحم والبيض.

تدخلت سعاد بخفة تنقذ حرج الموقف ليتقبلها منها جساس مكشراً بابتسامة ثم يعاود النظر لعمته:

-متى يصل عمي؟ لقد تاخر هذه المرة.

تنهد وشوحت بيدها:

-تعرف أعمال عائلتك يافتى لاتنتهي..انه برفقة سلطان هذه المرة.

-برفقة أبي؟ مالذي يريده منه ذلك الوغد العجوز؟

خبطت يده بخفة وهي تؤنبه:

-تحشم يافتى..والأن قل لي..مالذي تنوي فعله هنا؟ هل تنوي الاستقرار؟

غمز بعينه وهمس:

-حين تقرر صوان الكف عن ألاعيبها السخيفة وتوقف هذا الحمق..

تنهدت عمته بتعب وهمست:

-أنتما الإثنان.. فليساعدني الله على تحمل جنونكما.

وضع فنجان الشاي من يده ورفع ذراعيه معترضاً على سعاد التي أرادت صب المزيد له وقال بمرح:

-انا مجنون ابنتك.. ان أردت علاجي فاضربيها على رأسها وزوجيني اياها غصباً ان سمحت.

ضحكت سعاد وتجهمت فاطمة قبل أن تهز رأسها بقلة حيلة..

ثم سمع الجميع الجلبة..

انتفض قلبه بقوة ونهض من مقعده ليتوارى خلف باب المطبخ الموارب وراقبها بصمت..

-ماماااااااا تعالي وساعديني..

صاحت لتهرع اليها امها.. كانت تحتضن باقة الورود بذراع، وتعلق قفص الطيور بأصبعها بينما تحتضن صندوق الشوكولا بالأخرى وتعلق البالونات الضخمة بأصبعها الاخر..

-يالهي ماكل هذا؟

تسائلت أمها مذعورة لتبتسم بفرح وهي تهتف:

-خذي حقيبتي..

ساعدتها امها بنزع حقيبتها ثم مدت لها ذراعها لتأخذ الباقة الا أن صوان ابتعدت عابسة:
-لاااا هذه لي..
ثم اشاحت عنها وبدأت تصعد الدرجات الى غرفتها ركضاً..
راقبها بافتتان وابتسامة حانية تتلاعب على شفتيه.. اقتربت امها منه ونظرت لعينيه العاشقة ثم همست:
-اصعد خلفها..
ابتسم بشقاوة وركض تقريباً بعد أن قبل رأسها بقوة..
دخلت صوان غرفتها خلعت حذائها بصعوبة وبدأت بوضع الباقة الضخمة على الطاولة جوار فراشها.. وصندوق الشوكولاتة جوارها.ثم بحثت بعينيها عن مكان لتعليق البالونات لتقرر ربطهم في قائم السرير..
ثم أمسكت قفص الطيور بيديها ونظرت بافتتان للعصفورين الصغيرين وهمست:
-أنتما رائعا الجمال..

تقدمت الى الشرفة وفتحتها على مصراعيها وهمست وكأنها تحادثهما فعلاً:
-سأوصي عم مهاب ليصنع قائماً خشبياً وسأضعكما هنا.. في الهواء الطلق..
ثم رفعت وجهها وتنشقت عبق الهواء.. لتشعر به يختنق في اعماقها..
كان يقف قريباً جداً، مفتوناً برؤيتها تحادث عصافيره التي اشتراها لها، كانت تبدو مأخوذة بها، بطريقة رائعة كما لم يرها من قبل.. واقترب.. لتشعر به..
عرف انها ستنظر تجاهه وحين فعلت صرخ قلبه بعذاب لشوقه اليها.. رباااه لقد راها بالأمس فقط.. ودعها عند الفجر فلم يبدو وكأنما لم يرها منذ سنين..
-لايجب عليك أن تكون هنا.
-لايجب علي أن أكون في أي مكان سوى هنا.
رد مباشرة لتشيح عنه ناظرة للافق فاقترب يسألها بحنان:
-هل تشعرين بتحسن؟

التفتت اليه وأومأت.. لم تشعر أنها ضعيفة هكذا بوجوده، لقد أقسمت على نفسها القوة..
والان لاتشعر سوى بالضعف تجاهه!!
-شكراً على هديتك..
تلعثمت لتتسع ابتسامته ويقترب واضعاً كفه الكبيرة على القفص الذي تحمله فتجفل الطيور كما جفل قلبها لقربه:
-انها اقل شيء، هل اعجبتك؟
اومأت بافتتان ثم خفضت بصرها لتقع على كفه الموضوعة قربها، ابتلعت ريقها الجاف، لايزال يضع الخاتم، اتسعت عينيها برعب وارادت ان تقبض على قلادتها ولكنها لم تتحرك لقد تسمرت حرفياً وهو يقترب ليهيمن على الهواء حولها دون أن يمسها فقط اقترب أكثر حول حيز خاص بها.. ليصبح خاصاً بهما فقط..
أخذ نفساً عميقاً.. يحمل بعضاً من عطرها الرقيق الخفيف، كم تمنى حينها أن يدفن وجهه جانب عنقها ويتنشق رائحتها الجميلة، كم تمنى ان يحيطها بذراعيه وينسيها العالم كله من حولها، يريها كيف يمكن أن يحبها.. يريها العالم حين

تكون محبوباً عاشقاً..شيء لايشبه رؤيتها له من خلف نظاراتها السميكة المظللة..

-أنت جميلة للغاية صوان.

همس أجشاً لتنتفض وتحاول التراجع ولكنه كان شيئاً أقرب لحقل مغناطيسي يحوطهما فلاتقدر على الابتعاد:

-لاتقل هذا.. لايصح.

ردت بصوت مبحوح.. ليبتسم بحزن ثم يتراجع هو كاسراً اللحظة مسبباً تمزق في اعماق قلبها، راقبته يجلس على حافة الشرفة بخفة ويرفع رأسه هاتفاً:

-أتذكرين؟

وكأنما قدر لها ألا تنسى، بالطبع تتذكر..ولكنها لاتستطيع الابحار في الذكريات.. ليس بعد الأن.

-أنا سأنزل.

همست بتقرير ليقفز مجدداً عن السور ويقترب منها:

-سننزل معاً..

-لا..

صرخت بألم متراجعة ليتقلص وجهه بألم مماثل..
كانت عينيها متسعتين ورؤية لسلم منزلها يحتضنها بثوب العرس بينما تتهادى الى الاسفل تتآبط ذراع والدها وهو.. هو بالذات ينتظرها أسفله!!
هذا كان حلمها قبل سنوات طويلة.. والذي تحطم الى فتات..
-اذهب أنت أولاً.. ودع أمي وغادر.
عبس في وجهها وهز رأسه برفض وقال بإصرار:
-أنا مدعو للغداء.
عقدت حاجبيها وزمت شفتيها وارادت الصراخ بوجهه ولكنه رفع يده معترضاً:
-لاتحاولي ياصوانة، ثم أنني هنا لأرتب حفل عيد ميلادها الخمسين..أم أنك قد نسيتي؟
-رباااه لقد نسيت..
هتفت بشحوب ليهز كتفيه وقال بحنو:
-أعرف هذا حبيبتي ولذا بالذات اتصل بي عمي حسين وطلب مني ان اهتم بالأمر.
-والدي اتصل بك؟؟ غريب.

شعرت بالقلق لاتصال والدها بجساس دون غيره؟ المعتاد أنه سيتصل بها أو بأوس نفسه..ولكن اتصاله بجساس مقلق.. لم ليست مرتاحة لهذا الأمر.

-والان صوانة هل ستأتين معي؟ أم ستبقين هنا تبثين حبي ولوعتك للعصفورين؟

جمدت نظراتها بغضب وحرج وهي ترى حاجبيه المتلاعبين، ولكنها تمالكت نفسها بقوة تحسد عليها لتنتابه خيبة أمل وهي تتراجع بضع خطوات للخلف وتهمس بصوت جليدي:

-سألحق بك.

تنهد بصبر ثم قرر عدم التلكك.. فلم تكن صوانة بالمزاج الملائم الأن، لقد انتهت الساعات السعيدة.

راقبت طوله الفارع وظهره العريض وهو يغادر غرفتها بلوعة تحترق داخلها دون أن تجرؤ على الافصاح عنها وضمت قبضتها اليها وضغطت على خافقها المتسارع بقسوة تخنقه..

جساس عاد ليمارس ضغوطاته وكمايبدو فعائلتها الموقرة تسانده، انها تحتاج شخصاً معها، شخصاً

لايخشى جساس ولايعطف عليه.. انها تحتاج أوس.. الأن.

***

كينيـــا.. الأحراش.

مسحت عرقاً تصبب منها و اخرجت زجاجة المياه البلاستيكية لتتجرع منها كمية من الماء المنعش في ظل قيظ تلك الظهيرة، لقد انطلق الفريق منذ الفجر نحو منطقة أعمق في الاحراش، وبدأت الرحلة الحقيقة في تعقب الحيوانات الكبيرة والرائعة في التجمعات حول مناطق المياه والاعشاب، وتوقفوا مرة واحدة لتناول الغداء والاستراحة ثم واصلوا السير.. ومنذ ذلك الوقت اشتدت الحرارة وارتفعت نسبة الرطوبة..

رباااه انها تحتاج لحمام..

مسحت عرقها مرة أخرى ونظرت حولها.. الجميع بلا استثناء كان يتخفف من ملابسه رجالاً ونساء..بينما هي.. حسناً يكفيها الحجاب على رأسها والسترة الطويلة فوق القميص القطني..

لقد كانت تذوب من الداخل.. ثم تلك الخدوش.. رباااه انها تقتلها، اغمضت عينيها بألم حين عادت كفيها للتعرق انها متعبة متهالكة..يكفي أنها لم تنم طيلة الليل، واستيقظت بعد غفوة بسيطة عند الفجر.

نظرت خفية نحو مصدر أرقها وشعرت بالحرارة تغزوها أكثر وأكثر..

كان يقف هناك مع رفيقتيها السويديتين!! كنا تناظرنه بانبهار ويرشفن منه الكلام رشفاً، أصوات الضحكات تعلو منهن بشكل مقرف، أي رجل هذا؟! يجتذب النساء حوله أينما ذهب.. كما الضوء للفراشات؟!

مطت شفتيها بضيق واستدارت عنه.. رأت قائد الفريق يقترب منها فأخفت مشاعرها جيداً واستقبلته بإبتسامة مقتضبة..

-مرحباً بك ترنيم؟ هل أنت بخير؟!

-بالطبع ولم لن أكون؟

ردت بجفاء ليبتسم الرجل ويزيح قطرات عرق خفيفة من على جبينه:

-لأننا في درجة حرارة تجاوزت ال40 درجة مئوية والرطوبة تجاوزت ال60% لهذا السبب أسأل.

شحب وجهها للأرقام التي ذكرها ولكنها همست بمكابرة:

-لم أرك تسأل سواي؟

-ربما لأنها ليست المرة الأولى للجميع.. أنت المستجدة هنا أنستي ولذا أطمئن عليك.

عقدت حاجبيها ونظرت بإثر أوس ليترجم القائد رؤوف تساؤلها بابتسامة:

-حتى الكابتن.. لقد شارك في سفاري من قبل.

احتقن وجهها وهمست بفظاظة:

-لم اكن أسأل عنه.. ثم عليك أن تعرف أنني من مدينة عدن.. الحر والرطوبة..ليسا بالشيء الجديد علي.

رفع الرجل كتفيه واعتذر بلباقة:

-لابأس عليكي أنستي.. فقط ان شعرتي بأنك لم تعودي قادرة على التحمل، نحن بالقرب من نقطة استراحة، هناك فقط تستطيعين ايجاد عربة لايصالك الى المدينة.

ثم استدار على عقبيه واتجه الى باقي المجموعة لتزفر بضيق وتأخذ علبة المياه التي فقدت برودتها، وتشرب منها بحنق، هل يبدوا عليها الضعف الى هذه الدرجة.

-ماذا يحدث هنا؟

أغمضت عينيها بحنق هذا ماكان ينقصها، دارت بسرعة لتواجهه.. لم تحسب حساب القيظ الذي كانت تواجهه ولاكمية الارهاق التي تشعر بها.. شعرت بدوار يلف رأسها وصورته أمامها أصبحت اثنتين ومادت الأرض تحت قدميها لتتمايل أمام عينيه!!

شعر اوس بالغيظ بداخله يتصاعد..

كان يراقبها منذ تحرك الفريق عند الفجر كانت تبدو متعبة بل مريضة إن صح التعبير، وعرف انها رحلتها الأولى، حمقاء وغبية هذا ماكانت عليه لتخاطر بنفسها في رحلة سفاري للمرة الاولى ودون رفيق يلازمها؟!

ثم جاء ذلك المتحذلق قائد الفريق وبدأ يحادثها، أوس كان يعرفه منذ بضعة سنوات خلت.. ولايعجبه البتة.

ولذا اقترب منها.. جزء منه يريد الاطمئنان عليها والجزء الأخر..
عقد حاجبيه بتوتر.. لايريد التفكير بالجزء الأخر..
تحدث اليها بعصبية..حدة سكنت حروفه وجعلتها تنظر اليه بسرعة ولكنها لم تكمل الطريق، اتسعت عيناه بخشية وهويرى تمايلها وقبل أن يفكر كان يمد ذراعيه ليتلقفها..
ولكنها لم تقع.. تماسكت واستندت فقط على ذراعيه..
أصابعها النحيلة التفت بقوة حول عضلات عضده المفتول وأظافرها انغرست في لحمه ليعض شفتيه متحملاً الألم وهو يخبرها بثبات:
-لاتخافي ترنيمة، انه تأثير الحر.. سأساعدك على الجلوس..
كانت تغمض عينيها بشدة..ولكنها أومأت تجاهه ليجذبها ويجلسها على حافة صخرة قريبة.. تحت ظل احدى الاشجار الضخمة.. كان يغطيها بجسده الضخم، ويخفيها عن من حولهما.

شعرت بذاتها تذوي ساقيها بالكاد تحملانها وحين أجلسها على الصخرة شعرت بكل جسدها يرتخي..
أخرج أوس قارورة الماء الخاصة به ووضع بعض الماء في يده ثم مسح به على وجهها برؤوس أصابعه لتشهق فاتحة عينيها لتنظر لعينيه.. رباااااه عيناه..تحت الظلال.. كفضة مصهورة..
شهقت وتراجعت ليرفع يديه ويثبتها رغماً عنها وهو يدمدم من تحت فك منقبض:
-لاتكوني غبية وتتحركي..انت متعبة وستفقدين وعيك.
توسعت عينيها بجزع وتصاعد اللون عميقاً لوجنتيها وهي تشعر بحريق يلسعها مكان ماتحط لمسته، ثم نفضت رأسها بعيداً عنه لتغتم عيناه وتتصلب الفضة فيما يتراجع ليجلس على عقبيه وهو يحدق بها بتركيز.
-أنا بخير.
همست بخفوت أصابعها تلامس وجنتيها المحترقتين، بإرتباك ليلوي فمه قبل ان يرفع

قارورة الماء لفمه ويشرب منها ثم ناولها اياهاولكنها رفضت بهزة من رأسها وعينيها تعكسان قرفها فزفر بضيق ثم أخرج من حقيبة ظهره قارورة أخرى وناولها اياها قائلاً بجفاء:

-انها جديدة..

تناولت الماء منه بحذر ثم أشاحت بوجهها وشربت بصمت، قال لها بهمس:

-لايجب عليكي إكمال الرحلة إن كنت ضعيفة هكذا.

-أنا لست ضعيفة.

هتفت بحدة ليبتسم لرد فعلها ويقامر:

-بل أنت ضعيفة جداً، ولكنك تكابرين، والمكابرة للحمقى.

ثم نظر لعينيها المشتعلتين بالغضب وهمس:

-أنت لست حمقاء ترنيم؟! أليس كذلك؟!

-أنت تتحدث بكثير ممالاتعلم، أنت لاتعرفني.

همهمت بشرود ليهمس ببساطة:

-أريد أن أعرفك، أخبرتك هذا من قبل.

عقد حاجبيها ولم تعلق ثم وفجأة سمعت رنين هاتفه.. كيف يحصل على شبكة اتصال هنا؟

فكرت بحنق.. رأته يتوقف قليلاً ثم يخرج هاتفه ويبتسم بإتساع لرؤية المتصل ثم يقبل الاتصال...
-صباح الخير ياجميلة.
هتف ببشاشة لتعقد حاجبيها بضيق وتشيح عنه..
أرادته أن ينهض ويبتعد ليتلقى المكالمة ولكنه لم يتحرك، بل ظل مكانه دون حراك بينما يواصل بحنان:
-بالطبع اشتقت اليكي.. كيف تفكرين بالعكس حبيبتي.
"أتراها واحدة من المضيفات اللاتي رافقهن الى عرس شقيقته أم أنها تلك السمراء من المطار؟!"
فكرت بانزعاج وأوس يقهقه بمرح ويقول:
-أنا لن اتأخر أبداً.. سأغادر اليوم كي يتسنى لي الوقت لأكون معكي.. لاتقلقي لن يمنعني شيء في الدنيا أيتها الغالية.
"ربما تكون أمه.." عادت لتفكر بشحوب ولكنه نسف أفكارها وهو يهمس:
-لاتقلقي حبي، لقد وجدت الهدية المثالية لأمي فاطمة، سأحضرها معي من كينيا..
"اذاً ليست امه ربما.. ربما احدى شقيقاته"

فكرت باضطراب ونظرت اليه.. رأت ملامحه العابثة تقسو وعيناه تتصلبان وهو يهتف:
-مالذي يفعله هناك عندك؟ لماذا أتى؟
"عمن يتحدث؟"
-أخبريه أن يغادر.. أخبريه أن يرحل صوان وإلا فهو لن سيرى مني وجهاً لم يره منذ سنوات.
"صووان؟؟.. تلك الفتاة في حفل الزفاف..تلك التي راقصها؟ الفتاة بعيني الشوكولاتة"
شعرت بقلبها تزداد خفقاته بقوة ومشاعر عنيفة تتزاحم بداخلها دون أن تفهمها.. زمت شفتيها وزوت بين حاجبيها وهو ينهض بانفعال ويصيح:
-كلا صوان..لاأريده بالقرب منكي.. أريده خارج الفيللا في التو واللحظة أبلغي أمي فاطمة وإلا....
وترك جملته معلقة لتتسع عينا ترنيم وهي تنظر اليه، "يغاار؟! ...يغار عليها؟!" فكرت بذهول.. إلى هذه الدرجة؟!
-حسناً لابأس.. فقط لاتقابليه، ابتعدي عنه واصعدي لغرفتك.
راقبته بحذر وبعد سلام قصير، أقفل الخط، رأته ينظرحوله بنفاذ صبر.. كان غاضباً، رأته في

تقلص عضلاته وزفرته الحانقة وهو يجري اتصالاً أخر وبعد انتظار قصير هتف بالانجليزية وباختصار شديد:

-أريد تذكرة ذهاب الى دبي ويفضل أن تكون الليلة أو صباح الغد على الأكثر.

ثم اغلق الخط ووقف مشيحاً الى البعيد، تأملته للحظات طويلة، كان طويل القامة بحق ومن مقعدها على الأرض كان يبدو أطول، وكتفيه أعرض بتلك القميص القطني الخفيف. خفضت عينيها بسرعة وشعرت بالحنق لتحديقها اليه بتلك الطريقة الغبية، ثم جفلت حين سمعته يخاطبها بصرامة:

-هل ستأتين معي؟!

نظرت له بذهول وهمست:

-ماذا تقول؟

-هل ستأتين معي؟!

شحب وجهها أكثر ولم تجد ماترد به عليه ليقترب منها ويفصل أكثر:

-أنا عائد الى المدينة ترنيم، وهذه الرحلة ليست سهلة لتمضي بها وحدك، لولا وجودي بالقرب

منك اليوم وليلة أمس كنت لتواجهين مصيراً سيئاً، لن تجدي من سيسهر على راحتك مثلي أيتها العزيزة.

تصاعد النار بداخلها وهمهمت بغيظ:

-ولذا تظنني سأكون بأفضل حال حين أرحل معك؟

-إنها خطوة ذكية للقيام بها.

وضح بهدوء ليزداد غيظها وتنفض تعبها وارهاقها وتقف على ساقيها، هاتفة بحنق:

-بل هو أكبر غباءٍ يمكن القيام به.. مرافقتك في رحلة العودة؟ لماذا وهل ظننتني قد فقدت عقلي؟

-أنت لاتثقين بي؟

تسائل بريبة لتتسع عينيها:

-وهل تعتبرها صدمة؟! أنا لاأثق بك بمقدار ذرة.. أناأريدك ان تبتعد عني.

هز كتفيه بلامبالاة مخفياً غيظه وغضبه من أسلوبها المهاجم:

-أخبرتك أنني لاألاحقك.. انه القدر.

كتمت ماكانت على وشك الصراخ به، ورفعت يديها لتسكته هو الأخر.. ثم استدار على عقبيها

وهي تدمدم بحنق وعصبية متجاهلة ضحكته الجافة والتي لاحقتها لمسافة قبل ان تتلاشى وسط الصخب والفوضى من باقي أعضاء الفريق..
القدر.. مكتوب.. ولايمكننا اجتنابه.. فَ إلى متى نكابــر؟!
***
نهاية الفصل الرابع
عبير محمد قائد

الفصل الخامس
***

عناق الراحلين على بوابات العبور
كتعويذة ملقاة على شاطئ يأس
إما تغرق في بحر راكد
أو تحملها الأمواج الى بر الأمان..؟!
***

اشتعلت شمس المغيب وبدأت تسقط خلف مزيج من الجبال والأفق الممتد بلانهاية، سرب من الطيور لون اللوحة التقليدية وجعلها نابضة أكثر بالحياة، ثم ارتفع صوت حاد لزامور سيارة مسرعة تتبعها اخرى وأخرى..
يكسر البشر دوماً تقاليد الطبيعة الخلابة في اقتحام الصخب لسكونها.
توافدت السيارات بكثرة للاستراحة المنتصبة وسط الدغل وانتصب مبنى قديم الى جوار محطة للبنزين، ومتجر قديم يديره رجل عجوز، راقبت بصمت كيف يقف ليودع باقي افراد الفريق، ضيقت عينيها وهي تتجاهل خفقات قلبها المدوية بطريقة غير اعتيادية. وأشاحت بوجهها بعيداً ليقع بصرها على برج اتصالات في المدى القريب، تنهدت وسحبت هاتفها من حقيبتها لتبتسم

وهي ترى الشبكة التي عادت للحياة، أرادت الاتصال بكمالة وفعلت مباشرة..

-ترنيم؟!

عقدت حاجبيها بقلق وهمست:

-خالد؟! أين كمالة؟!

-يالهي ترنيم.. لقد قلبت الدنيا بحثاً عنكي..

-مالذي تفعله عندك؟ وأين كمالة؟!

تملك منها القلق وبدأت أصابعها ترتجف بطريقة عصبية، صوت خالد شقيقها كان محبطاً متألماً وهذا اثار ذعرها بالكامل..

-أين انت؟ لم لاتردين؟

-أنا في أفريقيا خالد، لم لاتتوقف عن اللف والدوران وتخبرني عماتفعله عندك؟! وأين هي عمتي بحق الله؟

-انها في المستشفى.

همس بصوت مكتوم لتشهق مذعورة وعينيها تجحظان وخالد يواصل:

-لقد حاولت اخبارك منذ اللحظة الاولى ولكنك لاتردين عليّ، حتى كمالة حاولت التكلم معك، رغم ضعفها.

-ماذا حدث لها بالضبط؟
همست بحذر وقلبها تزداد خفقاته بجنون.. ليقول بصوت كئيب:
-انها مريضة للغاية، من الأفضل أن تأتي بأسرع وقت.
شحب وجهها وهي تضرب أخماساً بأسداس وهمست بشحوب:
-ألن تخبرني؟
-حين تصلين.. حالماتصلين الى روما اتصلي بي على هذا الرقم.
وبدون كلمة أخرى أغلق الخط.
تنهدت بقلق.. ومسدت جبينها، رباااه كيف لها أن تصبر على انهاء الرحلة وقلبها مشغول بتلك الغالية؟!
يجب أن تعود..
رفعت عينيها والتقت بعينيه..
كان يقف امام السيارة، وكأنما ينتظرها، تملكها التوتر ومسدت سترتها الخفيفة قبل أن تنزل وتتجاهله وهي تتجه الى رؤوف، كان يقف

بالقرب من المتجر وحالما لفتت نظره باقترابها حتى بادرته باضطراب:
-أحتاج الى العودة الى المدينة. بأسرع وقت.
-هل هناك خطب؟
تسائل لتهتف بعصبية:
-ظرف عائلي..أحتاج أن أكون في روما بأسرع وقت.
-اذا كان هذا قرارك الاخير ستنتظرين برفقة الكابتن، حتى قدوم الحافلة لتأخذكما الى المدينة.. وهناك سيكون عليكي حجز مقعدك في الطائرة.
زفرت بحنق واستدارت تفكر.. لاتعرف كيفية الحجز حالياً ولاتريد الانتظار حتى تصل الى المطار فلاتعرف كم ستنتظر هناك ومتى قد تكون رحلتها.. لم يكن أمامها سواه.
كان الأمر لايطاق ولم تكن مرتاحة لطلب اي مساعدة منه ولكن.. انها ليست غبية، وتدرك جيداً متى تُحني رأسها للرياح، لذا وبكل صلابة ذهبت اليه..
رفع أوس حاجبه بدهشة لرؤيتها تتقدم نحوه بتلك الخطوات العسكرية المضحكة.. ووجهها الجميل

يحمل تكشيرة رافضة وكأنها تكره حقاً ماكانت على وشك القيام به، لذا شعر بالفضول يجتاحه وهو يفكر بالسبب الذي من أجله غيرت قناعتها واقتربت منه؟!

-أنت قمت بحجز مقعد في طائرة مغادرة هذا اليوم، وأنا أحتاج للمثل.

كانت تطلب منه المساعدة، بأكثر الطرق التي رأها عجرفة وغرور ولكنه لايقدر على كبح ابتسامة عريضة من التسلل الى شفتيه وهو يرى صراعها ضد نفسها يلتمع في عينيها:

-أتريدين الرحيل؟

-وبأسرع وقت ممكن.

ردت باقتضاب فتلاعبت السخرية بنبرات صوته:

-ماذا عن القوة والتحمل؟؟ ماذا عن القدرة النسوية الهائلة وعدم الضعف؟

احتقن وجهها بخجل وهتفت بانزعاج:

-انه ظرف عائلي لاعلاقة له بي شخصياً ولكنني يجب أن أكون هناك بلاتأخير.

شعر بالتوتر في صوتها وراقب قطرات العرق تندي جبينها فتنهد وأخرج هاتفه قائلاً بجمود:
-ماهي وجهتك؟
-روما.
همست بشحوب ليرمقها بطرف عينه ثم اراد العبث قليلاً فضاقت عيناه وهمس بخبث:
-ألن تقولي "أرجوك"؟؟
توسعت فتحتي أنفها بطريقة لاتناسب الإناث بتاتاً وانقبضت أصابعها بقوة تكاد تحطمهم وهي تهمس من بين اسنانها المطبقة:
-أنا بالكاد أسيطر على اعصابي.
قهقه بنعومة وأجرى اتصاله بسلاسة ثم سمعته يتحدث لبعض لحظات قبل ان يضيق عينيه بتفكير ويعود ليتكلم مع محادثه، كان يتكلم الفرنسية ولم تفهم منه شيئاً.. ولكن بعد لحظات نظر لها بعبوس:
-لاتوجد رحلات مباشرة الى روما حتى بعد غد.
-احتاج للرحيل اليوم.
هتفت بيأس فعاد الى حديثه المقتضب وبعد لحظات سألها:

-هناك رحلة من دبي الى روما في الصباح، يمكننا الحجز عليها فطائرة دبي تقلع بعد ساعات فقط.

-أي شيء..

عادت تقول بصوت مرتجف ليشيح عنها ويبدأ اجراءات الحجز عبر الهاتف بخفة وسرعة وابتسامة متلاعبة يخفيها بين شفتيه.

-كيف تجد اشارة انترنت في هذا المكان؟

اغلق هاتفه بخفة ووضعه في جيب جاكيته الخفيف واشار للسماء قائلاً ببساطة:

-ساتلايت..

اومأت بتفهم ثم سمعته يقول باختصار:

-أحضري حقيبتك سنغادر بعد لحظات، لايزال امامنا طريق طويل ونريد أن نصل للمطار قبل أن تظلم كلياً.

وافقته بهزة من رأسها ثم سارعت لأحضار حقيبتها وودعت رفيقتي خيمتها بكلمات مقتضبة لتنتضم لأوس في سيارة جيب يقودها دليل محلي، كانت تشعر بالقلق من تواجدها بمفردها تقريباً معه، ولكن لم تدع شيئاً من قلقها هذا يظهر

على وجهها كانت تعقد حاجبيها الكثيفين وتزم شفتيها بوجوم وكأنما قد مات لها ميت!!
أشاح بوجهه بحنق، لقد تذكر مثلاً مصرياً قديما بشأن الوجوه التي تقطع الرزق من البيت..
نعم لقد كانت مثالاً لهذا الان.. مالذي حدث لحظه الحسن في الوقوع برفقة اجمل الجميلات؟!
لم عليه قضاء ساعات برفقة هذه المتجهمة المتنمرة، مط شفتيه زافراً.. وعاد يوجه بصره الى الطريق المظلم، متجاهلاً اياها، لقد شعر بالنصر للجوءها اليه ولكنه لم يدع الشماتة او السخرية تظهر من قسماته واكتفى بإحساسه الداخلي. الحجز لروما تم بصعوبة ويجب عليهما الإسراع فطائرة دبي بالكاد ستصل قبيل مغادرة تلك الرحلة بدقائق، وعليه أن يستخدم نفوذه فقط ليؤمن لها أن تصل هناك بأسرع وقت ممكن.
وصلا الى المطار بعد ساعة ونصف تقريباً، وأنهيا اجراءاتهما بسرعة قياسية ثم استقرا على الطائرة متجاورين حينها فقط نظرت اليه، كان وجهه محمر وقبضتيه تنغلقا على مسندي المقعد بتوتر:

-أنت كابتن طيران فكيف تخشى الاقلاع؟
همست بسخرية ليقول من بين اسنانه:
-أنا لااخشى الطيران.. أنا لاأثق بغيري يقود الطائرة.
-مغرور..
أشاحت بوجهها ليضحك ويغلق حزام مقعده وينظر لها بطرف عينه ثم همس بابتسامة:
-أنا متوتر، ربما يمكنك الامساك بيدي.
-قبل أن تسقط الطائرة بنا مباشرة.
قالت بحسم ليقهقه بخفوت ويصمت،مضت دقائق الاقلاع بسلام ثم وضعت ترنيم سماعتي الايبود واشاحت بجسدها للنافذة متجاهلة وجوده تماماً.
استرخى بجسده للمقعد وحاول أن يدع عقله يسترخي بالمثل، ولكنه لم يقدر.. عقله مزدحم بالكثير والكثير من الأفكار، صوانة وجساس.. مشكلة لايمكن حلها ليس بالطرق العادية، وهو بصف صوان مهما كان إيمانه بخطأها من عدمه، سيقتل جساس بيديه ان تسبب لها بألم أخر كماحدث قبل سنوات.

ثم كانت الجالسة الى جواره، رمقها بطرف عينه كادت تختفي في المقعد الضخم كلها مغطى من رأسها لأخمص قدميها، سروال قماشي واسع وسترة من الجينز وحجاب محكم، لقد رأى شعرها..

ابتسم بخفة..

سلاسل من الشعر الناعم حتى وصل الى خصرها، كثيف لدرجة ان أصابعه أحرقته ليمرغها في النعومة الغامرة ولكنه تمالك نفسه بصعوبة.. تحركت أصابعه وكأنها تحكه..

ابتسم لاوياً شفتيه واغمض عينيه، النوم هو الحل الوحيد ليهرب من أفكاره التي يمكن أن تؤدي به الى الجنون.. تخيل مايمكن أن تفعله لو فعل هذا؟

لو استيقظت ووجدته قد نزع حجابها ويمرغ أصابعه في شعرها. يلامس عظام وجنتيها البارزتين، ثم ذلك البروز لشفتها العليا.. والانتفاخ المثير للسفلى..

ابتلع ريقه بصعوبة وضغط عيناه بينما اصابعه تلتف حول نفسها في قبضة محكمة، هو لن يتهور

ويستجيب لتلك المشاعر الغريبة التي تحكمه كلما كان بالقرب منها كلا، ليس هو أبداً.

فتحت عينيها لتطالع السماء السوداء الغائرة، لاشيء يظهر فقط انعكاس للقلق العميق المرسوم على وجهها، ثم الاضطراب المتأصل في عينيها قلقها على كمالة، ثم اضطرابها من تواجد ذلك الغريب خلفها؟!

تنهدت واحاطت جسدها بذراعيها أكثر واغمضت عينيها من جديد تنصت للحن الكمان المتصاعد من سماعتي الأذن وغرقت في النوم.

لاتزال في تلك الطريق المظلمة الموحلة، تقود سيارتها بسرعة متجاوزة قواعد السلامة بكل طيش، واطاراتها تثير زوبعة من الهواء وصرير يصم الاذان.. في تلك الساعة المتأخرة، الشارع الخالي المقفر تقريباً، ثم كانت تلك اللحظة.. من عمق الظلام عينان تبرقان تقدمتا نحوها بسرعة جنونية..

حاولت تفاديهما بشتى الطرق، هربت يميناً وشمالاً..

اوقفت السيارة.. غادرتها راكضة..

ولكن العينان كانتا تتبعانها بإصرار عنيف ..
كانت تصرخ وتتخبط هرباً..
"ترنيم"
لاتريد ان تقع.. لو وقعت على الأرض فإن العينين البراقتين سيطبقان عليها بلا رحمة، صرخت ولم تغادر صرختها فمها وتخبطت في الظلام.. ذراعيها مقيدتان، حتى ساقيها متصلبتين وبالكاد تستطيع تحريكهما.. انها تغرق ببطئ، ولاتقدر على مجابهة مخاوفها، تخبطت في ظلمتها واندفعت صرخة من بين شفتيها..
"ترنيم استيقظي"
فتحت عينيها برعب لتواجهها عيناه القلقة..
-هل أنت بخير؟!
تنفست بعنف وتحركت بعصبية ليشدد من ضغط يديه عليها يثبتها مكانها وهو يهمس بقوة:
-أنت تحلمين ياترنيم، انه مجرد حلم.. لاتخافي.
ألم اجتاح رأسها وشعرت بدوار طفيف يحيط بها اغلقت عينيها وهمهمت بضعف:
-أنا أريد بعض الهواء..

تحرك أوس بسرعة قياسية وحل حزام مقعده وبلحظة كان يحل حزامها ثم وضع يده خلف عنقها وأمالها للأمام بحزم متجاهلاً اعتراضها، وبيده الأخرى دفع بكيس ورقي وأمرها:

-تنفسي بداخله..

امتثلت لامره بسلاسة لم تعرفها قط في نفسها، وبدأت بأخذ أنفاسٍ طويلة عميقة لداخل الكيس وهي تحاول نسيان ضغط يده على عنقها وذعرها المتنامي من تلك الصلة الجسدية غير المرغوبة، وهمست مذعورة:

-اتركني..دعني انهض.

-أنت خائفة ترنيم، وقد تدخلين في نوبة ذعر، لذا أصمتي وتنفسي بعمق وهدوء.

أخذت نفساً عميقاً تلو الأخر ثم حاولت رفع رأسها لتقول:

-ابعد يدك عني.. سأكون بخير حينها.

تجاهل طلبها المرتجف وباليد الحرة أحاط بكتفها وضغطها بإحكام:

-حين تكفين عن التصرف كالأطفال وتستمعين لي بإنصات.. تنفسي وأغلقي فمك.

-كيف يمكن أن أتنفس وفمي مغلق؟
صاحت بعنف وهي تنازعه لتبتعد عن قبضته إلا أنه لم يتركها تفلت قط.. ورد بقسوة:
-تعرفين ماعنيه فلاتدعي الغباء، والأن تنفسي.
زفرت مطولاً وعادت تشهق للهواء مسيطرة على الغضب الجامح والتوتر العارم الذي يكبلها، لتسيطر على نفسها قبل أن تخرج غضبها وحنقها عليه. ليس الأن ترنيم..اهدئي أولاً.
أخذ الأمر منها بضع دقائق لتستعيد سيطرتها وشعرت حينها بقبضته تخف حول عنقها وكتفها مدركة أن استرخائها قد وصل اليه بالضبط حالما بدأ ينتشر في عروقها..
-أنت بخير؟
همس قريباً منها لتومئ برأسها دون أن ترد ليتراجع وينظر لها بتصميم، اعتدلت في مقعدها وكورت الكيس الورقي بين كفيها بإحكام وعادت تأخذ أنفاسها بطريقة عادية أكثر ثم همست:
-شكراً لك.
-العفو.

رد بإيجاز..واستند على مقعده متجاوزاً عن حقيقة مافعلته قبلاً..كان يشعر بالقلق عليها، رمقها بطرف عينه ولاحظ العرق الذي تصبب من عنقها وبلل قبة قميصها وتصفد عن جبينها.. ارتعاشة أصابعها وارتجاف جسدها الواضح.

-هلا عذرتني..

نهضت بالكاد تسيطر على ارتجافة ساقيها ونهض هو بكل احترام مفسحاً لها الطريق.

أسرعت الى الحمام وهناك وبعد أن رشت بعض الماء على وجهها وعنقها وشعرت بالبرودة تجتاحها هدأت قليلاً، الكوابيس لاتنتهي، لايمكن أن تنتهي. هي تؤمن بهذا.

نظرت في المرآة وتنهدت بعمق.. نشفت وجهها بمناديل ورقية ثم عادت الى مقعدها..

نهض لاستقبالها وابتسم متسائلاً:

-أتشعرين بحال أفضل؟

-نعم الحمدلله.

دمدمت بخفوت واتخذت مقعدها محاولة تجاهل مشاعرها الغريبة تجاهه، وهو بالمثل جلس جوارها صامتاً محاولاً تفسير بعض مايشعر به

تجاهها. بحاجبين منعقدين اغلق عينيه واستسلم لسلطان نومه عله يريحه بعض الشيء.
شعرت به حال غفوته، استقرت أنفاسه المتسارعة لتصبح بطيئة وعميقة، لتستقر أنفاسها هي الأخرى وتسترخي.
امالت عنقا لتنظر تجاهه، فرصة لا تعوض كي تتأمله دون الاضطرار الى التحديق بعينيه الفضيتين الثاقبتين، كان وجهه مسترخياً للغاية، ظلال ذقن بدأت بالظهور تغطي فكه العريض بينما تهدلت بضع شعيرات ناعمة على جبينه عنقه طويل ومتعجرف قميصه القطني بفتحة عنق عميقة أظهرت شعيرات صدره الكثيفة..
عادت ترفع عينيها اليه وهي تعض شفتها بحنق لاستغراقها بتأمله بتلك الطريقة الهوجاء لتقع في عينيه..
اتسعت عينيها بذعر وكأدت تشهق بعنف حين رأت عينيه نصف المغمضتين، ولكنها أمسكت نفسها وهي توقن أنه نائم.. نائم بعينين نصف مغمضتين!!

كانت تستطيع رؤية ظلال الفضة.. كيف يقدر على النوم هكذا؟!
زفرت واشاحت عنه، ليس من شأنها على الإطلاق..
شغلت الأيبود من جديد واستغرقت في الاستماع لعزف الكمان باحساس، لم تعرف كم مضى من الوقت.. ولكنها غفت هي الأخرى ثم استيقظت بحدة وهي تشعر بشيء ماخطأ..
رأت أمامها الضوء الأحمر يومض بلا توقف فنزعت سماعتي الايبود وانصتت للطيار..
كانوا يواجهون بعض المشكلات..
انقبض قلبها وهي تسمعه يوجه الركاب بوضع أحزمتهم لأنهم على وشك الدخول في خضم عاصفة وانقطع صوته لتبدأ المضيفات بإعطاء التعليمات اللازمة في تلك الحالة..
التفتت اليه كان لايزال في نومه العميق..
-كابتن..
نادت بصوت خفيض.. ولكن دون استجابة..
رباااه ألم يسمع الهرج والمرج في الطائرة.
-استيقظ ياهذا نحن على وشك السقوط..

هتفت بيأس ولكنه لم يجب..كان نومه ثقيلاً بالفعل!!
ماكان اسمه..؟؟! فكرت بتوتر..أه نعم..
مدت كفها وهزت كتفه برقة وهي تهمس بإسمه:
-أوس.. انهض ارجوك..
فتح عينيه على الفور.. شهقت وتراجعت للخلف الا أن يده أطبقت على أصابعها وسحقتها على صدره وعيناه لاتفارقان عينيها بينما يهمس بخشونة:
-ماذا ناديتني؟!
اتسعت عينيها وتكلمت مباشرة:
-أوس..
رفع حاجبه ثم ابتسم.. ببطئ وثقل.. قبل أن يقر:
-لديكي لدغة في الراء والسيـن..
حمرت وجنتيها وهي تلعن سمعه الخارق الذي اكتشف زلات لسانها والتي لم تكن تظهر سوى في أشد لحظاتها توتراً وجف فمها وهي تحاول تخليص كفها من قبضته ولكن هيهات..
كان ينظر لها كحيوان كبير كسول، وقد ربض على فريسة دسمة.. اقترب منها وهمس بنعومة:

-الراء..الراء وحده كان مثيراً.. ولكن أوس..
جف ريقها حتى بلعومها كصحراء قاحلة وارتجفت عروقها وهي ترى الفضة في عينيه تنصهر ثم تبدأ باللمعان هامساً:
-أوس مستوى أخر تماماً..
اتسعت عينيها بذعر، كانت أصابعه تلتف حول معصمها الرقيق ككماشة وهو يقربها اليه.
مجنون.. مجنون وسيثير فضيحة إن لم توقفه عند حده..
- توقف عن هذا الجنون الناس تنظر الينا.
همست مذعورة ليضحك بخفوت هامساً:
-كاذبة ترنيمتي، الجميع مشغولون بمراجعة شريط حياتهم الماضية بانتظار تحطم الطائرة أو على الاقل مواجهة حتمية للموت.. لاأحد على الإطلاق ينظر الينا.
دارت عينيها في محجريهما بيأس وهتفت:
-وهذا ماعلينا فعله نحن ايضاً.. ألاترى الوضع الذي نحن عليه؟
-انها مجرد اضطرابات جوية.. أنا اعرف الطيار جيداً لقد عملنا معاً من قبل ولو ظننت لثانية أنه

غير قادر على مواجهة الأمر لماقبعت هنا احاول جعلك تناديني بإسمي مجدداً.
اتسعت عينيها بذهول.. هذا الرجل.. هذا المغرور المتكبر والذي تود ضربه بأي شيء أمامها.. لايزال ينظر لها بتلك الفضة اللامعة ويقبض على يدها وكان له الحق.. شعرت بالغيظ يحرقها يؤلمها، فشدت يدها من بين قبضته وهمست من تحت أسنانها:
-اترك يدي أيها المخبول وإلا حطمت وجهك.
رفع حاجبه بكسل واقترب بوجهه منها:
-افعلي مايحلو لكي.. أنا رهن أشارتك ترنيمتي.
-لاتنادني هكذا انا لست ترنيمتك.
هدرت بعنف ثم صمتت مصدومة.. لقد استطاعت جذب الأنظار إليها بعد كل شيء.. الجميع كان ينظر نحوهما بفضول قلق حتى أن أوس كتم ضحكته ولم يفلتها بل شدها أكثر وهمس قريباً من اذنها بوقاحة:
-من يلفت الأنظار الأن؟!
ابتعدت بوجهها عنه ليلاحظ الدموع التي ترقرقت في عينيها فتجهم وجهه وأفلتها متراجعاً بصمت..

استندت على مقعدها وأحكمت حزامها حولها ونفت بإشارة من رأسها حين جائت المضيفة لتسألها إن كانت تعاني من مشكلة ما؟! ابتلعت ريقاً جافاً وانكمشت تضم معصمها الذي كان أسيره اليها ربتت عليه..محاولة استجماع شجاعتها، لاهي لن تبكي.. لم يعد هناك مايبكيها منذ سنوات.. ليس رجل على أي حال.

ابتلعت غصة احتكمت حلقها وخفضت رأسها حين بدأت الطائرة بالارتجاج.. شهدت في سرها.. وفكرت أنها ستموت دون أن ترى كمالة.. أمها أو خالد حتى.

ستموت دون أن تدفع ثمن جريمتها!!

بكت بصمت واغمضت عينيها بقوة والطائرة تنتفض، واحدة.. اثنتان.. سمعت صراخ بعض المسافرين .. ثلاثة وتحول بكائها الصامت الى شهقات صغيرة..

شعرت بقبضته تلتف حول يدها.. التفتت اليه بعينين باكيتين فاشتدت قبضه عليها وقال لها بحزم:

-لاتخافي..أنا هنا معك ولن أسمح أن يصيبك مكروه.
هي لم تركن لرجل أبداً من قبل..
فكرت بخواء.. تشعر بخوف شديد ربما لأول مرة منذ سنوات.. لاتعرف السبب مشاعرها هذه الايام مضطربة وغير متزنة، مالذي يحدث لها؟
فكرت بتشوش.. ثم قبضت على كفه الكبيرة بلهفة.
ابتسم لها واثقاً أن الأمر لن يتعدى سوى بعض الاضطرابات الجوية.. ليس أكثر، انه يعرف سالوس.. الطيار كان زميله في الكلية وكان من الطيارين الموهوبين، كان عنده قبل بضع ساعات فقط يلقي التحية.. نظر لترنيم.. كانت مذعورة حتى الموت، أصابعها الرشيقة تلتف حول اصابعه بقوة، كانت خارج طورها تماماً..
لم لايخرجهم سالوس من تلك العاصفة اذاً؟!
شعر بالانتفاضة الرابعة للطائرة وجاس بعينيه في وجوه الطاقم ورأى الذعر في الاعين.. هناك شيء ماخطأ.. وعليه أن يعرف بنفسه.. لذا تخلى

عن كف تنيم متجاهلاً اعتراضها المصدوم وحل حزان مقعده ونهض مترنحاً نحو قمرة القيادة..
لقد تخلى عنها..اتسعت عينيها بذهول وهي تشعر فجأة بالضياع.. راقبت ظهره يبتعد ثم يتوقف.. وبلحظة كان يعود اليها، تراجعت مبهورة بينما يميل نحوها هامساً بعبث:
-سأذهب للداخل وأرى مايفعله صديقي بقطعة الخردة هذه بالضبط.. لن أتأخر.. حاولي أن تتمسكي بقوتك ريثما اعود ترنيمتي.
قالها واندفع ببسالة الى القمرة.. تاركاً ترنيم تناظره بذهول، كان مجنوناً.. وإلى أبعد حد.
في حين تحرك أوس الى قمرة القيادة وهناك وبعد مجهود استطاع ان يقنع مساعد الطيار بفتح القمرة له.. واتسعت عيناه بذهول.. كان سالوس ملقى في مقعد المساعد الثالث بينما الطيار المساعد يقود الطائرة بيأس..
-مالذي يحدث هنا بحق الله؟
صرخ بعنف ليجيبه المساعد بغيظ:
-الكابتن.. لقد ثمل.. واخطأ المسار وقادنا مباشرة نحو العاصفة.

نظر أوس بذهول لزميله القديم.. وبدون أن يفكر اندفع وازاح المساعد المرتبك كلياً واستولى على مقعد الطيار وبكلمات مقتضبة حازمة كان يضع سماعات الاذان ويبدأ بإلقاء أوامر محددة وحاسمة..

كانت أطول دقائق مرت في حياتها..

أين اوس؟ شعرت بالذعر وقلبها يخفق بجنون.. الطائرة كانت ترتجف بقوة.. ابتلعت ريقها، لقد شعرت معه بالأمان، للحظات فقط شعرت بأمان لم تجد مثله من قبل، لسنوات خلت؟!

أغمضت عينيها بقوة عضت شفتيها بعنف..انها خائفة.

لم تعرف مالذي حدث بعدها.. بعينين مغمضتين واجهت تبدل الأحوال.. استقرار الطائرة.. توقف الاهتزازات.. تحول المسار الذي أمالها عن مقعدها وجعلها توقن أن النهاية أوشكت لتكتشف أنها قد ابتعدت كثيراً..

نصف ساعة فقط لتعود الطائرة الى مسارها.. فتحت عينيها بترقب..

وسمعت الجميع حولها يشكر الله على النجاة.. ثم سمعته هو..
اتسعت عينيها بذهول ونبرات صوته الحازمة العميقة تنتشر بداخل الطائرة لتهدئ من روع المسافرين وتطمئنهم أن الطائرة تجاوزت العاصفة وأنها تعاود مسارها الطبيعي الى دبي..
وبغض النظر عن التأخير في موعد الوصول..
لم يكن هناك أية أضرار أخرى.!!
كان ذلك أوس..
استرخت بذهول.. أوس كان يقود الطائرة... هو من انقذهم جميعاً؟؟
شحب وجهها وبدون تفكير نهضت اليه، أوقفتها احدى المضيفات أمام باب القمرة بإبتسامة مدروسة ولكنها لم تأبه لها وقالت بحزم:
-الكابتن هو رفيقي وأريد الاطمئنان عليه.
-الكابتن بخير.. هو سيواصل الرحلة في قمرة القيادة ولاتستطيعين الدخول.
عقدت ترنيم حاجبيها وأصرت:
-قولي له أنني أريد رؤيته.. هو لن يرفض.
"ومن يرفض مثل هذا الامتياز؟"

انتفضت شاهقة وعينيها تطيران اليه.. كان يقف امامها متكئاً على جانب الباب، تتدلى سماعتي الاذن حول عنقه وقد تشعث شعره بفوضى، ساقيه الطويلتين تلتفان حول بعضهما باستهتار..

-كنت تبحثين عني؟

همس بنعومة.. لتقترب كالمسحورة تتبع ضي الفضة:

-أنت..أنت أنقذتنا..

متلعثمة.. ليعبس ويهز كتفيه بغرور:

-كان لاشيء.. مجرد نقطة صغيرة..

كان من المفروض أن تغضب.. أن تهزء به وبغروره وتشيح عنه وتعود الى مقعدها لاعنة كل الرجال المغرورين وتكبرهم..!!

ولكنها لم تفعل..

هي فقط.. اغتسلت بموجة حارة جعلتها تكاد تذوب واقفة.. احمرت وجنتيها بشدة ولمعت عينيها.. وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة.. خجولة شبه ضاحكة رمت بالذهول لعينيه قبل أن تهمس مغالبة ضحكتها:

-مغرور!!

تخلى عن الذهول وانتقلت ضحكتها الخجولة اليه ليحمر وجهه ويرفع كفه ليشد شعره الى الخلف بقوة:

-حُكم العادة..

غالبت ضحكتها وخجلها ومالت برأسها وقد لمعت عينيها هامسة:

-ألن تعود لمقعدك؟!

-لا.. ليس الأن.

همس بصوت مبحوح، لايزال يغرق في عينيها لترتبك وتخفض عينيها:

-مالذي حصل للطيار؟

تجهم وجهه بغضب أخفاه بمهارة ملوحاً بكفه:

-انه مريض، لم يكن عليه الطيران منذ الأساس ولكنه أحمق.

ثم لمعت عيناه بعبث ونظر لها بعمق:

-عودي لمقعدك ترنيمة، انه موعد وجبة العشاء.

تعلقت بنظرته للحظات ثم أومأت بتفهم واستدارت مغادرة، تضع يدها على خفقات قلبها القوية، وبالكاد تخفي ابتسامتها الخجولة بصعوبة.

مالذي حدث لها.. هل جنت أخيراً؟!

تنهدت وهي تجلس تعبث بأصابعها، مالذي حدث؟؟

رمشت عينيها عدة مرات ثم اتسعت ابتسامتها..

نهض أوس من مقعده بعد أن حطت الطائرة بسلام.. وصافح المساعد بقوة مهنئاً اياه ومتلقياً شكره بابتسامة واسعة، كان قلبه يخفق بسرعة غير عادية، اتجه مباشرة الى مقاعد الركاب، كانت تقف تحاول انزال حقيبة ظهرها من الخزانة العلوية ولاتفلح فأسرع ليمد يده ويخرجها لها بسهولة قائلاً:

-طوال القامة لهم فائدة أحياناً دعيني أساعدك.

التفتت بجسدها كله لتواجهه لتقع في شرك نصبه لجسدها بينه وبين كرسيها.. محشورة وأنفاسها متلاحقة تنظر لعينيه المتلاعبتين بابتسامة.

-تفضلي..

قال بنعومة لتقبض على الحقيبة بإحكام وهي تشكره بلطف..

-عليكي أن تسرعي حتى تلتحقي بطائرة روما.

اومأت ونظرت له باضطراب، لم يكن يعي أنه يسد عليها طريقها كل ماكان يعيه أنها تقف

أمامه، وأن ابتسامتها ملتصقة بشفتيها المثيرتين، وتلمع في عينيها الرائقتين.. كانها لاتقدر على التوقف عن الابتسام!!

ابتلع ريقه بصعوبة وهمس:

-ستفوتك الطائرة ترنيمتي.

اتسعت عينيها ببراءة وردت بخجل:

-لست ترنيمتك.. ثم أنك تقف بطريقي.

لم يتحرك من مكانه بل كشر بإبتسامة عريضة وهمس:

-أنت لم تطلبي مني الإبتعاد.

-ابتعد..ابتعد اذن.

تلعثمت لتتسع ابتسامته ويتراجع مفسحاً لها الطريق فسارعت بالخروج دون أن تلتفت حتى للخلف، لاتريد ان تلتفت.. تحس بأنها مراقبة عينيه كعيني ذئب.. لم تفارقها.

طارت هي الكلمة الأصح لماحدث لها، لم تكن تمشي.. كانت تحملها سحابة تطوف بها ضمت حقيبتها اليها والتفتت لحظة فقط لتلقي نظرة لماخلفها قبل أن تتخذ طريقها لمتابعة اجراءاتها لتراه هناك، يقف على قمة سلم الطائرة، يديه في

جيبي بنطاله ونظرة مظلمة تحتكم عينيه تحت حاجبيه المنعقدين.
ابتسم فجأة حالما التقطت نظرتها الخاطفة، ورأها تشيح عائدة الى طريقها فتنهد بإرتياح.. وبدأ اجراءات تسليم الطائرة حين رأى الرجل القادم من قمرة الراحة ليزفر بتوتر ويقف منتظراً بحنق:
-وأخيراً استيقظت؟
-أوس؟! مالذي حدث؟
همهم الطيار الثمل بهذيان ليجذبه أوس بعيداً عن انظار طاقمه وهتف به بقسوة:
-الأمر انك كنت ثملاً بالكاد ارتفعت بالطائرة وقدتها الى فم عاصفة كادت تودي بحياة كل من فيها، أنت ارتكبت جريمة.
نظر الرجل اليه بتشوش وظهر الذعر خلف عينيه:
-ماذا تنوي أن تفعل؟
شد أوس قامته وقال بصرامة:
-أنت صديقي سالوس، ولكن العمل هو العمل.. وتلك حياة أكثر من 470 فرداً كانت على المحك،

وأنا لن أسكت، سأرفع تقريري للجنة الطيران الفيدرالية وهم سيكملون تحقيقاتهم.
تراجع الرجل شاحباً بينما واصل أوس بأسف:
-أنت طيار بارع سالوس، ومهما كانت اسبابك لتفعل مافعلت.. فكان يجب أن تفصل بينها وبين العمل. لقد أخطأت ياصديقي.. ويجب أن تدفع ثمن غلطتك بالكامل.
ودون أن ينتظر كان يتركه في رعاية مساعده ويسرع مغادراً الطائرة..
استغرق التحقيق العاجل الذي اجرته فيدرالية المطار بشأن الحادثة مايقارب الساعة وأوس انتهى منهكاً وترك الجميع معلناً أنه بحاجة للراحة بعد الرحلة المرهقة..
كان في طريقه لخارج المطار يسحب حقيبته الوحيدة خلفه حين اتسعت عيناه بذهول..وصاح متفاجئاً:
-ترنيم؟!
كانت منهكة.. لاتعرف ماذا تفعل؟ تشعر بالضياع وحدها وعقلها مشوش ولاتقدر على التفكير، ارتباك عارم هز جوانبها لم تعد تقدر على التفكير

او التخطيط، تشعر بالضعف بطريقة لم تختبرها من قبل.
تجهم وجهها وكادت تطفر من عينيها الدموع حين سمعته يناديها..
رفعت عينين لاهفتين اليه.. كان عابساً ويتقدم نحوها بخطوات واسعة ولسانه يهتف بغلظة:
-مالذي تفعلينه؟ لم لم تغادري؟!
-فاتتني الرحلة..
همست متلعثمة، ليجلس جوارها بحنق:
-هل تأخرنا عن الموعد؟
اومأت بعجز ليزفر بضيق ثم ينهض مشيراً لها لأن تتبعه:
-تعالي.. لنجد لك مقعداً أخر.
-لم أجد.
هتفت بحزن وتحت نظراته المتسائلة:
-كل الرحلات محجوزة للأخر.. أقرب رحلة الى روما ستكون فجر الغد. وقد وضعت في الاحتياط.
تنهد وهز كتفيه قائلاً:
-اذاً علينا أن نجد لك مكاناً لتقضية الليلة.

ضمت ذراعيها اليها واومأت له قائلة:
-سأخذ سيارة أجرة الى أقرب فندق ليس بالأمر المهم.
نظر لها بإهتمام وقال:
-سأخذك أنا..لن أترككي وحدك.
ابتلعت ريقها بصعوبة والارتباك يغزوها، هي لم تطلب يوماً الاهتمام والعناية من أي رجل، وليس عليها أن تقبل الأن. ولكن..!! رفعت عينيها اليه.. متسعتين ولامعتين تناظر وجهه المهتم والذي ابتسم لها باتساع غامزاً بكلتا عينيه ليرسل الابتسامة لعينيها وشفتيها وهي توافق أن يرافقها بصمت.
أوقف لهما سيارة أجرة وفتح لها الباب هامساً:
-تفضلي ترنيمتي.
خنقت ابتسامتها وجلست ليقفل الباب ثم يدور الى الجهة الأخرى وحالما انطلقت السيارة حتى سألها:
-ماذا عن ميزانيتك؟ هل تبحثين عن نزل فخم أم اقتصادي؟
-بين البينين..

ردت بخفوت ليومئ ويعطي السائق اسم أحد الفنادق، وحينها رن هاتفه ليخرجه ويجيب بإبتسامة:

-مرحباً بك أمي..

رمقته بنظرة جانبية فيما يقهقه هو باستمتاع:

-لقد وصلت للتو حجة فاطمة غادرت المطار منذ دقائق.

رأت عيناه تلمعان بحب صافٍ جعل قلبها يخفق بقوة وهو يواصل:

-لدي صديقة برفقتي سأنزلها في أحد الفنادق وأتي الى البيت.

تنهدت وأشاحت بوجهها لتسمعه يقول بتردد:

-قد لاتوافق أمي.. انها عنيدة نوعاً ما.

التفتت اليه بحدة ورأته يحرك كفيه لها دلالة أن الأمر ليس بيده:

-لا ياحاجة..انها تسمعني الان..

وتوجه اليها بالحديث:

-الحاجة فاطمة تريدك أن تلبي دعوتها للغداء.

اتسعت عينيها بصدمة وهزت رأسها برفض نقله أوس الى محدثته ولكنه عبس وهو يناولها الهاتف:

-انها تريد التحدث معك.

تراجعت ترنيم بجزع وهمست:

-لاأريد.

-انها لاتقبل بكلمة لا.. كلميها.

هتف بقوة ووجدت الهاتف بين أصابعها لتضطر أن ترفعه الى أذنها ووتقول بخفوت:

-مرحبا..

-السلام عليكم..

فاجأها الصوت القوي الحنون لتحمر وهي ترد السلام وتبادرها الحاجة فاطمة:

-مالأمر بنيتي؟ ألا تلبين دعوة خالتك العجوز؟

-أنا.. أنا اسفة..لم..

-لاتتأسفي..تعالي مع ذلك الولد الشقي للغداء، انه غائب منذ فترة طويلة.

-أنا لاأريد التطفل.

همست بحرج لتضحك فاطمة:

-أنت لاتطفلين حبيبتي.. أنت ستكونين في بيت السلطان، أنت ضيفة على رأسي.
تمتمت بموافقة محرجة ثم دفعت بالهاتف اليه وأشاحت بوجهها، لم يكن يعرف كيف يشكر أمه التي أرضعته، حقاً لم يجد مايقول سوى ان يعدها بالوصول بأسرع وقت.. كان يكاد يخفي سعادته لإطالة المدة التي ستبقى فيها قريبة منه.. أغلق الخط معها ثم اعطى السائق الوجهة الجديدة وعاد للاسترخاء في مقعده وهو يقول لترنيم:
-أمي فاطمة تعيش في منزل جميل وبه حديقة واسعة، انا اعيش فيه بضع ايام في السنة فقط وهناك أيضاً صوان.
شحب وجهها للحظة، صوان تعيش هناك؟! تلك الفتاة التي راقصها؟ كيف ولماذا؟
زمت شفتيها وتغلب فضولها على أي شعور أخر..
لم تستغرق الرحلة سوى عشرون دقيقة كانت السيارة بعدها تدخل الى بوابة حديدية ضخمة الى ممر مرصوف بالحصى وتقف أمام فيللا ضخمة كلاسيكية، بذوق راقٍ.. خرجت من السيارة تتبع

أوس الذي اندفع الى الباب ليقابل السيدة الخمسينية الممتلئة والتي أخذته في حضنها حالما وصل هاتفة بحنان:

-يالهي بني.. لقد مضى وقت طويل منذ أخر مرة اتيت بها الى هنا.

-أعرف أمي..ولكن تعرفين كيف هو العمل ليس الأمر سهلاً.

عانقها بمحبة ثم ابتعد ليفسح المجال لترنيم الواقفة بخجل لتقابل العينين الحنونتين لفاطمة:

-هذه صديقتي التي أخبرتك عنها أمي، الأنسة ترنيم كانت ضمن فريق السفاري وحدث طارئ عائلي ويجب أن تكون في روما ولكننا تأخرنا عن موعد الرحلة وستضطر للبقاء حتى منتصف ليلة غد.

اقتربت فاطمة من ترنيم وشدتها الى ذراعيها هامسة:

-مرحباً بك في بيتك ياصغيرتي تعالي.. تفضلي بالدخول.

حيتها ترنيم بخفوت ولحقتها بتردد بينما أوس يحضر الحقائب من السيارة وينقد سائقها أجرته..

تأملت الفيللا من الداخل..كانت واسعة وحميمية، مؤثثة كبيت أسرة عادي، وليس مجرد فيللا فخمة.

-اووووووس...

سمعت الصرخة من أعلى السلم، التفتت بحركة حادة ورأت صوان تركض المسافة بسرعة قبل أن ترتمي بين ذراعي أوس المفتوحتين بحماس..

شعرت بالضيق فجأة..وتراجعت بعينين مظللتين تتحاشى النظر للثنائي المشتاق أمامها، وقد تعلقت صوان برقبة أوس وهو يرفعها بين ذراعيه بمرح، وصوان تهتف بعتب:

-لقد طالت الغيبة هذه المرة أوس؟ أنت حتى لم تكلمني منذ مدة طويلة.

أنزلها أوس مبتسماً بإعتذار:

-أسف حبيبتي، تعرفين العمل وضغط الشركة وخصوصاً في هذا الوقت من العام، تعالي لترحبي بضيفتك.

التفتت صوان اليها بفضول ليتحول الى دهشة حين تعرفتها، وبعد ذلك اجتاح الحذر نظرتها واقتربت تمد لها كفها تصافحها برسمية مرحبة:

-مرحباً بك أنستي.. اعتبري نفسك في بيتك، فضيوف أوس ضيوفنا جميعاً.
-شكراً لك.
لم تستطع اخفاء الحدة من صوتها ولا الانكماش الغريزي الذي واجهت به صوان والذي التقطته عينا أوس ببراعة ولم يستطع فهمه أبداً؟! هل كان انكماشها من الجميع اذاً؟ وليس منه هو بالذات؟!
عقد حاجبيه واقترب من صوان وأحاط كتفيها بذراعه قائلاً:
-لم لاتأخذين ترنيم لتنعش نفسها قليلاً، لقد كانت رحلة طويلة ومجهدة.. حتى يحين موعد الغداء.
نظرت ترنيم اليه..
مالذي تغير؟ تأملته للحظة.. كان طوله يقارب المرأة التي يحيطها؟ أهي حقاً زوجته؟ ألهذا ظهر التغيير في ملامح وجهه.. الإرتياح العارم والفضة الخام التي تسكن مقلتيه، وقفته المتراخية، أزرار قميصه المحلولة حتى منتصفه حتى يده المستريحة على كتف صوان.. كانت ملقاة بإهمال..

كان وكأنه نزع متاعبه وتوتره كله على عتبة ذلك المنزل ودخل رجلاً لايحمل من همومه شيئاً..

أهي حقاً زوجته؟ تسائلت من جديد.. هي تتذكرها محجبة، ولكنها الأن بحضرته فقط.. كانت تقاربه طولاً وقد نزعت حجابها، شعرها مظفر بخفة لينزل على كتفها بنعومة بينما غرة طويلة تحيط بوجهها الخالي من الزينة، ترتدي كنزة برقبة طويلة وكمين واسعين من الكشمير الأبيض وجينز أزرق حال لونه، ثم حذاء رياضي قديم. لم تكن الصورة المثالية لإمرأة تقابل زوجها بعد غياب..

-سيكون هذا من دواعي سروري.

همست صوان وأشارت لترنيم كي ترافقها فرمقته بنظرة قصيرة ليبادلها بغمزة ثنائية دفعت بالابتسامة قسراً الى شفتيها لتخفيها بانحناء وجهها ويكشفها هو بإبتسامة مسرورة وهو يشيعها بنظرة طويلة.. لم تقطعها سوى الحاجة فاطمة وهي تلكزه في خاصرته قائلة بغلظة:

-أنزل عينيك يافتى.

نظر لها بمرح ثم أحاط كتفها بمحبة ودفعها امامه نحو باب الحديقة الخلفية هاتفاً:

-تعالي يافطومتي، احكي لي كل مافعلته في غيابي وأين عمي الشرير عنك ليتركك كل هذا الوقت وحدك مع تلك الفتاة المتعبة؟

ضحكت عمته وتقبلت تغييره الموضوع بقلب رضي وهي تجيبه بمرح مماثل له قبل أن يغيبا سوياً خلف الأبواب الزجاجية. وفوق كانت صوان تفتح باب غرفة الضيوف لترنيم وتقول لها بحيادية:

-تفضلي انستي.. ستجدين الحمام خلف ذلك الباب وهو مجهز بكل مايفي احتياجاتك، أتمنى أن تأخذي راحتك الكاملة.

نقلت ترنيم بصرها في الغرفة الأنيقة المفروشة من الألف للياء لراحة الضيوف ثم التفتت لصوان وابتسمت باقتضاب:

-بل هي أكثر ممايلزم بالفعل. شكراً لك.

اومأت لها صوان وأشاحت لتغادر ثم توقفت ونظرت لها:

-سيجهز الغداء بعد ساعة تقريباً خذي كامل راحتك وسنناديك.
-شكراً مجدداً.
همست ترنيم ثم رافقتها للخارج متجاهلة نظرات صوان الفضولية.. تنهدت بتوتر حين أصبحت وحدها.. لقد مضى وقت طويل منذ أن حظيت بإهتمام كهذا، أياً كانت أسبابه.. لقد كانت بعيدة تماماً عن أية علاقات أسرية أو غيرها لسنوات ماعدا كمالة وفي أحيان قليلة فقط خالد، شقيقها.
حينها أخرجت هاتفها وأجرت اتصالها به انتظرت بصبر حتى رد عليها بإنفعال:
-أين أنت ترنيم؟
شحب وجهها وهي توقن أن كمالة لابد في خطر:
-أنا عالقة في دبي أخي، لم أجد رحلة لروما حتى منتصف ليلة غد، كيف هي كمالة؟
سمعت تنهيدته الحارة :
-ستكون بخير حالياً ياترنيم، ولكنها بحاجة اليكي، الأمور لاتبدو مبشرة.
-مالذي أصابها؟
همست بشحوب ليدمدم بعصبية:

-ليس على الهاتف، حين تصلين سيكون لدينا الكثير من الوقت.
-فقط أخبرني خالد.
هتفت بعصبية ليقسو صوته ويهمس بشكل قاطع:
-لا ترنيم، حين تأتين للاطمئنان على عمتك حينها سيكون لدينا وقت طويل للحديث والأن الى اللقاء.
سمعت الرنين المتقطع وعرفت أنه أغلق الخط بشكل نهائي ليتجهم وجهها وتحمر خطوطه وهي تحاول السيطرة على أعصابها من تصرفاته المتحكمة.. راجي أخر ينضم لقائمة المتحكمين كمايبدو..
ليس بنفس طريقة والدها عديمة المشاعر ولكن .. ربما مع الوقت..تصبح أسوأ!!
وضعت هاتفها وبدأت بنزع حجابها ثم سترتها، أرادت الغرق بشدة في حوض استحمام، ولكنها اكتفت بحمام سريع وغسلت شعرها لينساب مبلولاً حتى أسفل ظهرها وارتدت ثوباً طويلاً بلون اسود مطبع بالزهور وعليه كنزة صفراء خفيفة ثم شغلت تكييف الهواء ودون ان تلقي حتى

نظرة على نفسها في المرآة كعادة بنات جنسها، كانت تستلقي على الفراش وأغطيته وتغمض عينيها لتغرق في نوم عميق.

وضع أوس حقيبته على فراشه القديم وتاق جسده الى نوم عميق ولكنه بحاجة لحمام، تأفف بضيق ونزع ملابسه قبل أن يغرق نفسه تحت رذاذ الماء الساخن.. وحين انتهى عاد لغرفته وتهالك على فراشه وقبل أن تأخذه أية افكار كان يغرق في سبات عميق، وحين فتحهما مرة اخرى كان يسمع صوت أذان قريب يتردد..

نهض مستنداً على مرفقه لايزال عقله مشوشاً من النوم التقط هاتفه وتوسعت عيناه.. الرابعة عصراً؟!

هل نام طيلة النهار؟! قفز من الفراش واسرع ليرتدي ثيابه ثم مسح وجهه بكفيه ونزل الى البهو.

تأملته بسكون.. كان عابساً شعره فوضوي وينزل على عينيه، التمعت عينيها وهي ترى كيف كانت ملابسه؟ بنطال قديم من القطن وكنزة خفيفة وهو يصيح:

-صواااان... صواااان.
-اخفض صوتك ياكابتن لدينا ضيوف..
هتفت صوان التي كانت تجلس جوارها بحنق حول مائدة الغداء لتبتسم ترنيم باقتضاب ونهضت تقف أمامه.
تسمر مكانه، لقد فكر لوهلة أنه كان يحلم وأنها لايعقل أن تكون حقاً هنا .. في منزل عائلته؟ تجاور أخته؟؟
اتسعت عيناه بالمفاجأة.. كانت ترتدي ثوباً صيفياً بلون سماوي وخطوط بيضاء، وقبة مربعة وكمين طويلين وعلى رأسها طرحة ناعمة من الدانتيل المبطن بالحرير بنفس اللون. أنزل عينيه على طول ثوبها حتى وصل الى قدميها الصغيرتين بداخل حذاء سكري اللون، ثم عاد الى عينيها.. متسعتين بالإندهاش لنظراته الوقحة، رأت ابتسامته تتلاعب على شفتيه وصوان تتدخل لتقف بينهما قائلة بضيق:
-مابك كابتن هل ابتلعت القطة لسانك؟
اتسعت ابتسامته وقال بنظرة عابثة:
-أبداً.. القطة تقف لاتزال حائرة بما تبدأ؟!

-أنت وقح.. والأن تعال لتأكل.
قالتها صوان بغلظة وعادت لمقعدها ليقترب أوس من ترنيم ويهمس:
-مساءالخير ياجميلة.. هل نمت جيداً؟
احمرت وجنتيها وتراجعت متعثرة:
-نعم.. بخير شكراً لك.
جلست الى جوار صوان وخفضت عينيها بينما جلس هو أمامها بإبتسامته العريضة ويهتف لصوان ببشاشة:
-اغرفي لي.
رفعت صوان حاجبيها ونقلت بصرها بينهما قبل أن تزم شفتيها وتقول بغرابة:
-سبحان مغير الأحوال..
ارتبكت نظراتها في حين قال أوس بغلظة دون أن يحيد عينيه عن اللون الأحمر المتصاعد لوجنتيها:
-ماذا تنتظرين صوان؟ هل المسألة صعبة لتستغرق كل هذا الوقت؟!
أخرجت له صوان لسانها ثم بدأت بغرف الطعام لطبقه وهي تدمدم:

-أنا فقط مستغربة من الابتسامة التي تشق حلقك، لطالما كان التجهم هو عنوانك حالما تنهض من النوم.
-هذا يعتمد على الاصطباحة ياحمقاء..
قالها ببرود لتتسع عينيها وتهتف بغضب:
-أتعني أن اصطباحك بوجهي يجعلك متجهماً؟ مالذي تغير اليوم ياسلطاان؟!
ضحك بمرح وشوح بملعقته في وجهها هاتفاً:
-أنت لاترين وجهك في الصباح صوان..
-أووووس..
صاحت بحنق جعل ترنيم تناظرهما بذهول.. لايبدوان كزوجين او حتى أحباء.. يبدوان أقرب ل..
-صوان ماذا فعلتي بأخيكي؟
ارتفع صوت الحاجة فاطمة من خلفهم ليلتفت لها الجميع بينما عينا ترنيم تتصلبان.. أخيها؟! كيف يعقل؟ ألاتقول؟؟ ألاتفهم؟؟ يالها من حمقاء؟! معقول.. نظرت اليه وهو ينهض ليأخذ من يد الحاجة طبق ضخم استقرت عليه الأسماك

المشوية وعيناه تلمعان بجشع كقط وقع على وليمة..

-أخاك؟!

همست بشرود لتلتقط صوان السؤال وتبتسم بخبث:

-بالتأكيد ماذا كنت تظنين؟!

نظرت لها حائرة بينما توضح أمها ببسمة حانية:

-أوس هو ابني بالرضاع يابنتي، رزقت به قبل أن تلد صوان حتى.

ثم اكتسى وجهها بالحزن:

-لقد حملت بعد زواجي مباشرة ولكنني انجبت طفلي قبل موعده ولم تكتب له النجاة حينها، ثم عوضني الله بأوس، والذي كان ضعيفاً وقد توفيت أمه مباشرة.. ولذا توليت رضاعته وتربيته مع ابن عمه سيف، ثم جاءت صوانتي.. وبعدها جساس.

وأدارت عينيها في فيماحولها:

-هذا المنزل كان ملاذ ابناء السلطان جميعهم..

-أمي أنت لاتريدين أن تسببي الملل لترنيم.

قالتها صوان بتوتر حالما جاء ذكر جساس، ليهتف أوس بفم محشو بالسمك:
-لاداعي لاسطوانتك المعتادة عن اهمالها لك وسط قطيع الذئاب صوان، لن تجدي أذان صاغية هنا.
ضاقت عينا صوان ودمدمت بغضب وهي تعاود النظر لطبقها لتهتف أمها بمرح:
-لاأحد يُشعر صوان أنها طفلة أصغر من عمرها سوى أوس، انه يجدد الدماء في عروقها.
-انها طفلة أمي، مادامت تتصرف كالأطفال والمراهقين فهي واحدة منهم.
قالها أوس بجفاء وعينيه تلمعان لتحمر وجنتي صوان وتغير الموضوع وهي تسأل ترنيم بتوتر:
-هل لديكي مكان لتقيمي به حتى ليل الغد؟
ابتلعت ترنيم ريقها وحاولت ان تخلص قطعة السمك في طبقها من الحسك هامسة بتوتر:
- سأبحث عن غرفة في فندق ما، لايهم المكان او غيره انها مجرد ليلة واحدة.
-مستحيـــل.

نظر الجميع لفاطمة التي عقدت حاجبيها بإعتراض وعادت تهتف:
-مستحيل أن ندعك تبيتين ليلتك الوحيدة في دبي في فندق، أنت لاتعرفين كيف أصبحت الفنادق هذه الأيام، ستبقين عندنا.
اتسعت عينا ترنيم بينما التزم أوس وصوان الصمت وفاطمة تضيف:
-أنت ستبقين ضيفة معززة ومكرمة لدينا حتى موعد رحلتك بنيتي، غرف الضيوف عديدة ومجهزة، وأنا وصوان سنستفيد من الرفقة بكل تأكيد.
-أنا لااستطيع.
همست بتردد لتسارع فاطمة:
-بلى تقدرين.. أنت وحيدة يابنتي، وليس من اللائق بقاءك في فندق، تكلم أوس.
رفعت عينيها اليه كان يناظرها بعينين متسعتين فيهما لهفة غريبة بينما خرج صوته عميقاً هادئاً:
-إنها حرة القرار أمي، بإمكانها فعل كل ماتريد.
رفعت حاجبها بينما ترى ابتسامة ناعمة ترتسم على شفتيه وهو يواصل:

-أما إذا كانت تريد نصيحتي فأنا لاأريدها أن تبقى وحيدة.
خفق قلبها بعنف وأشاحت وجهها بحدة لتسمع الحجة فاطمة تقول بإرتياح:
-انتهى الأمر اذاً ستبقين هنا معي أنا وصوان، بينما يستقر أوس في بيت الشباب.
-شكراً لك ولكنني لاأريد ان أتسبب بالإزعاج..
همست متلعثمة ليلوح أوس بيده بضجر:
-لاتهتمي.. لقد اعتدت المبيت بجحر الفئران ذاك منذ كنت مراهقاً.
-لاتهتمي لمايقول.. جحر الفئران ذاك كما يسميه هو منزل بطابقين وأربع غرف نوم وديوانية في كل طابق بالاضافة لمطبخ وغرفة طعام، انه منزل مجهز بكل شيء.
ابتسمت وهي ترى ملامح وجهه المصدومة بينما يحرك رأسه بأسف:
-ظننتك تقفين معي صوان، لم اعرف أنك انضممت الى الجانب الأخر.
استمر الجدال المرح بين اوس وصوان تشاركهما أمها بعض الأحيان بينما تركز جل اهتمامها على

ملئ أطباقهم كلمافرغت من الطعام، أما ترنيم فقد تأملتهما بأسى.. تتذكر كم من السنوات مضت منذ أن تشاركت وجبة كهذه مع أفراد عائلتها.. خالد ومزاحه الرصين، والدتها الحنون مع التواجد شبه المعدوم لوالدها..

ارتسمت ابتسامة شاحبة على وجهها وعادت تلاعب بقايا الطعام بشوكتها بشرود.

انتهى الغداء وانتقل الجميع لغرفة المعيشة.. حيث انشغلت الحجة فاطمة ببعض اعمال الخياطة، وجلس الثلاثة الأخرين أمام شاشة تلفاز بلازمية ضخمة لمشاهدة فيلم قديم مضحك..

رصت صوان أمامها صينية ضخمة مليئة بالحلويات الشرقية والشوكولاته.. وأخرى بها دلة القهوة والفناجين المذهبة ثم سكبت لأخيها ووضعت له ثلاثة ملاعق سكر ثم رصت له الكثير من قطع الكنافة والبسبوسة والبقلاوة المحشوة بالقشدة والمكسرات.. تناولها منها بعينين تلمعان وشكرها بإبتسامة عريضة قبل أن يبدأ تناولها بإستمتاع، ضحكت صوان ونظرت لترنيم الذاهلة من كمية الحلوى وقالت بمرح:

-لاتستغربي، أوس أخي هو غول الحلوى بأي شكل ولون.. حتى الشاي والقهوة يجب أن يكونا بحلاوة الكراميل ليستطيع تناولها.

-تكفي مرارة الحياة لنزيدها بمرارة القهوة.. هذا ماكان ينقصني..

قال بخشونة وعاد يأكل من الحلوى لتهمس ترنيم اجابة لسؤال صوان غير المنطوق وهي تشير للحلوى:

-قهوة مُرة فقط.

أعطتها ماطلبت ثم دفعت لها ببسبوسة محشوة بالقشدة ومغطاة ببودرة فستق خشنة قائلة:

-تناولي هذه.. انها من بين يدي الحجة فاطمة بنفسها.

-أنا لا أحب الحلوى أنا اسفة..

ضاقت عينا أوس وهو يرى ارتباكها ثم قال بغلظة لصوان التي كانت تصر عليها:

-توقفي صوان.. ترنيم كبيرة بمايكفي لتعرف ماتحب ومالاتحب.

عبست صوان وتراجعت بحرج لتناظره ترنيم بحنق ثم تسحب الطبق اليها وتقول بحدة:

-سأتناوله من أجلك صوان..شكراً.
رفع حاجبه بمكر وعاد لجلسته المسترخية وقد رفع قدميه على الطاولة امام المقاعد الوثيرة واسترخى تماماً مماجعلها تتحاشى النظر اليه بمنظره اللامبالي والهادئ جداً..
-تجاهليه..انه يفكر بتناولها بالنيابة عنك.
قالت صوان بخبث لترد ترنيم:
-انها قطعتي انا فليأخذ سواها..
-ممتاز، ليس الكثيرات من يقدرن على الوقوف أمام الكابتن الوسيم.
-صواااااااان..
هدر بتهديد لتبتلع لسانها وتندس في الصوفا جوار ترنيم وهي تبدأ معها حواراً تعارفياً هادئاً.. ولم تفطن الى أوس الذي انقص صوت التلفاز بحركة هادئة، وتركزت مسامعه على الحوار الهامس بينهما وتألقت عيناه فيما يسمعه من حديث صوان الحذر وردود ترنيم الاكثر حذراً..
وكأنما تمشيان معاً على رصيف ملغم؟!!
كان يعرف أخته ويدرك مدى عدم احتكاكها بالغرباء، وجائت الأخرى لتكمل الصورة بمثلها.

لم يكن يسمع سوى حكايا صوان المختصرة عنهم جميعاً وشيء عن الاحتفال القادم بعيد ميلاد والدتها، ولكن ترنيم كانت مقتضبة للغاية لم يسمع سوى كونها الشقيقة الصغرى وهناك شقيق أكبر منها، ثم عن تركها دراستها للطب.

التزمت الاثنتين الصمت بينما يرفع أوس رأسه ويناظرهما بفضول وهو يقول:

-ماذا؟! هل انتهت الحلقة من افتح قلبك مبكراً؟!

شهقت ترنيم بينما رفعت صوان وسادة صغيرة ورمتها في وجهه وهي تصيح بحنق:

-اماااااااه أوس يتصنت علينا..

-أوس توقف عن التصنت.

قالتها الحجة فاطمة بعتب ليرد اوس بغضب:

-امي صووان ترمي الوسائد في وجهي..

لترد بنفس النبرة:

-صوان توقفي عن ضرب أخيكي.

نقلت ترنيم بصرها بينهم بذهول.. وكأنها برفقة ولدين شقيين ووالدتهما المتعبة.. ورأت الثلاثة يتبادلون النظرات ثم وبلحظة واحدة كانوا يغرقون بالضحك!!

-تخيلي هذا النقاش كل يوم وفي كل لحظة خلال الخمس وعشرون عاماً الماضية.. تخيليه بين خمسة من الأشقياء.

قالتها فاطمة ضاحكة وهي ترى تعابير ترنيم المندهشة والتي تسائلت:

-خمسة؟!

-نعم خمسة.. أوس .. سيف .. جساس وصوان..

-هؤلاء أربعة..

هتفت حيرى لتقهقه الحجة فاطمة ويقفز أوس على قدميه هاتفاً بمرح:

-حسين الشيّب.. عمي.. والد صوان هو طفلها الخامس والذي أتعبها أكثر من أي واحد منا.

توسعت عينيها بدهشة ونظرت نحو فاطمة التي أخفت وجهها بين كفيها وغرقت بالضحك وصوان تهمس ضاحكة:

-انظر لامي تحمر بالخجل ياوس.

اندفع أوس نحو فاطمة وأمسك كفيها وأنزلهما عن عينيها هاتفاً:

-اتخجلين الان ياحاجة، لاتقولي أنك لاتوافقين على كل أفعال العم حسين الشرير جداً..كنتما

مثالاً سيئاً لمجموعة من المراهقين ولاتظني أنني نسيت مارأيت من أفعال مشينة.
-أوس أيها الوقح..لاتفكر أنك كبرت على أن أضعك على ركبتي ياولد.
قهقه عالياً وأحاط بها بقوة ورغم بنيتها البدينة نسبياً إلا أنه استطاع حملها بين ذراعيه وهتف:
-افعلي هذا الان سيدة فاطمة.. دعيني أرى ماتقدرين على فعله.
شهقت صوان وبدأت تصفق بكفيها بجذل وكأنما عادت طفلة بينما تسمرت ترنيم تنظر اليهما بذهول وامه تغطي وجهها وتتوسله أن ينزلها بكل الطرق ولكن دون فائدة.. كان يحملها بصعوبة لوزنها الزائد ولكنه كان يفعل، ضاحكاً وماكراً.
-فقط أنزلها..
هتفت ترنيم بقلق.. ليلتفت الجميع نحوها.. كانت المرة الاولى التي تتدخل بشيء مايحدث حولها، اقتربت وهمست بتوتر:
-انزلها أوس أرجوك..انها لاتبدو مرتاحة قد تتأذى بالفعل.

تدلى فكه السفلي بذهول وفعلاً ارتخت ذراعاه حول والدته لينزلها على قدميها بحركة عصبية دون أن يحاذرها.. كانت المرة الاولى التي تناديه هكذا بكل تلقائية وعفوية والتي لاقت استجابة مباشرة منه.

فأنزل فاطمة وتلقى توبيخها الضاحك مسمراً ينظر لترنيم.. والتي أشاحت بإرتباك واختفت من أمامه بلمحة..

بعدها بساعات..

"ياقلبي خبي ليبان عليا ويشوف حبيبي.. دموع عنيا"

"خليه بعيد خليه سعيد"

"ده مش نصيبي لكن حبيبي"

"ده مش نصيبي لكن حبيبي"

"وأكثر واكثر شوية"

...

-تهوين عبدالحليم؟

-أهوى هذه الأغنية..

همست صوان بشرود.. تلاعب العصافير التي جاء بها.. وعبد الحليم يشدو..

"ده مش نصيبي لكن حبيبي"
"ده مش نصيبي لكن حبيبي"
"تسهر عيوني الليل وعيونه يرتاحوا وانسى الأسى والويل وأفرح لأفراحه"
تنقلت عينا ترنيم في الجناح الخاص بقريبة أوس وتعجبت من ذوقها الرسمي والألوان المتناسقة الترابية والتي ناقضت اشراقة باقة الورد الضخمة المتربعة على طاولة قريبة من السرير الواسع والذي على احدى قوائمه ربطت مجموعة من البالونات المرحة.. ثم كانت العصافير التي كان يغني لها عبدالحليم..
-الأزهار والعصافير.. عبدالحليم والبالونات..
انهاحركات مراهقة متأخرة أم ماذا؟!
"منايا كل المنى .. أشوفه متهني"
"فرحان في نورالهنى .. ولو بعيد عني"
"خليه بعيد .. خليه سعيد"
ابتسمت صوان بسخرية ثم همست:
-مراهق مدى العمر.
نظرت لها ترنيم بحيرة ثم بدأت صوان بالدندنة قبل أن ترافق حليم بصوت شارد حزين..

"تسهر عيوني الليل .. وعيونه يرتاحوا"
"وأنسى الأسى والويل .. وأفرح لأفراحه"
"منايا كل المنى .. أشوفه متهني"
"فرحان في نور الهنى .. لو بعيد عني"
"خليه بعيد .. خليه سعيد"

كانت الساعة تقارب العاشرة مساءاً واقترب موعد العشاء الذي حدده أوس قبل خروجه لجلب الطعام من مطعم شهير، ودخلت الى الشرفة حيث كانت صوان تداعب عصافيرها، ووقفت تتلاعب النسمات بحرير ثوبها الطويل وغطاء شعرها الناعم الموضوع بخفة على كتفيها كانت الليلة هادئة ولم تحمل سوى صوت حشرات الليل وبوم قريب في الحديقة المجاورة، ابتسمت.. تذكرها الفيللا بمنزلها في الوطن، احتقن شيء في عمق صدرها، لقد اشتاقت ولكن.. يالبعد الشوق!!

أخذت نفساً عميقاً ثم زفرته ببطئ وهي تراقب البوابة التي تفتح ببطء والسيارة التي اندفعت بقوة عبر الممر المفروش بالحصى واختفى احتقان صدرها ولمعت عينيها وهي تترقب القادم بلهفة

لم تعرفها من قبل؟ شاهدته يترجل من السيارة بخفة ويأمر عامل ما بإخراج الأكياس من السيارة الى المطبخ ..

"أووووس"

صرخت صوان جوارها مماجعلها تجفل وتقرر الهروب ليسبق قرارها بنظرة خاطفة، سمرتها مكانها ولم تسمح لها بالهروب لأي مكان، شهقت بخفوت ومست ضربات قلبها بأصابعها خفية عن عينيه الثاقبتين.. شربت منظره كماء عذب بالجينز الأسود والكنزة الرمادية ثم ابتسامته الواسعة والتي هزتها من العمق وتسربت اليها لتسحق مقاومتها الضعيفة وتستولي ببطء على شفتيها فتعود اليه خجولة مترددة رفعت نبضات قلبه لحدود السماء..

كانت فاتنة.. فكر بذهول منذ خرج من السيارة ورفع عينيه لنداء أخته بالرضاعة ليغيب بتلك الملفوفة بالحرير من رأسها لأخمص قدميها.. تتلاعب حركة الهواء بالقماش الناعم بلون الورد والشمس الساطعة، تحت اضواء النيون الخافتة كملاك يرفرف بجناحيه..

لم تخرج فيه هذه الفتاة أغرب مابداخله من مشاعر؟!

ابتسم ولم يتسائل حتى كيف.. كانت تنتزعها من اعماقه كانت واسعة وسعيدة لتتسع أكثر وتقترب من القهقهة الفرحة حين رأى ابتسامتها الخجولة تتسلل الى شفتيها بطريقة ناعمة ومغوية قبل أن تشيح عنه بسرعة وتغيب للداخل بعيداً عن عينيه الجائعتين، وقبل أن يتحسر لغيابها عن ناظريه سمع شهقتها الخفيفة ثم رأى لدهشته وشاحها الناعم تحمله النسمات عالياً ثم تنزله بحركة لولبية يكاد يقع أمامه وبسرعة مد ذراعه والتقطه بمهارة ورفع عينيه للشرفة بحدة..لم تخرج لرؤية أين استقر وشاحها كانت تمسك رأسها بدهشة وهي تستغرب قوة الهواء الذي أطاره من كتفيها بتلك الطريقة، تلفتت حولها ورأت أحد أوشحة صوان التي سبقتها الى الأسفل، ارتدته ومضت راكضة الى الأسفل، رأته يدخل الى المنزل بهدوء متبختراً تقدمت منه وهمست لعينيه اللامعتين:

-اعطني وشاحي.

-ليس معي شيء..
رد بسرعة لتعقد حاجبيها وترفع اصبعها في وجهه مهددة:
-اعده لي أوس وإلا شكوتك للخالة فاطمة.
اقترب منها أكثر والتمعت ابتسامته وهو يهمس بصوت مثير:
-أتحداك.
شهقت متراجعة ونظرت له بغيظ قبل ان تضرب بقدمها الأرض وهي تعي انه على حق.. هي لن تقدر على اخبار الخالة وصوان ان وشاحها طار منها وان تتهمه بسرقته.. هذا سيثير الكثير من التساؤلات.. وهي ليست بحاجة للمزيد من التكهنات والاقاويل.
اشاحت عنه ومضت الى داخل غرفة الطعام حيث صوان ووالدتها بالانتظار رأت نظرة صوان المهذبة والتي حاولت اخفاء تساؤلها لارتداءها وشاحها مماجعلها تحمر وتقترب منها قائلة بحرج:
-وشاحي شفاف ولايستقر على رأسي، اسفة لم اجد سوى وشاحك.

-لابأس حبيبتي.
-اجلسوا جميعاً لاوقت للحديث في وجود كل هذه الأطايب.. هيا.
قالتها فاطمة بابتسامة لتجلس ترنيم جوار صوان متحاشية النظر الى الذي جلس مقابلاً لها..
امتدت السهرة لوقت طويل فبعد العشاء قررت الفتاتين أنهما لاتستطيعان الخلود للنوم، لذا انتقلتا بالسهرة لغرفة الترفيه المنزلي مع دلو من الفشار صنعته صوان وزجاجتين من المياه الغازية..
تقدم أوس معترضاً:
-ماذا عني؟!
رفعت صوان حاجبها ببرود:
-أنت لست مدعواً.
صرخ معترضاً ولكنها لم تلقي له بالاً وهي تغلق الباب في وجهه وتدخل مع ترنيم قائلة:
-لاتقلقي هو لايخيفني لقد تربيت مع ثلاثة صبيان وكان علي تعلم الحفاظ على حقوقي وخصوصيتي.
ضحكت ترنيم وانضمت اليها على مقعدين امام شاشة عملاقة قائلة:

-حمدالله شقيقي خالد كان نعم الأخ بالنسبة لي، هو لم يعذبني على الإطلاق.
-لاتعتقدي أن ماقلته يضر بهم.. بالعكس.. كانوا نعم العائلة بالنسبة لي، ولايزالون.
نظرت لها ترنيم بخفة.. وجهها كان شاحباً قليلاً ولكنها سرعان ما أخفته حين أطفأت النور وتركت الاضاءة للشاشة ثلاثية الأبعاد وناولتها نظارتها الخاصة بالرؤية هامسة:
-انه فيلم اثارة وتشويق.. لذا لاتكبحي نفسك وخدي راحتك على الأخر.
تبسمت باقتضاب وعادت الى الشاشة وغامت عينيها بمشاعر عديدة وهي تتابع تلاحق المشاهد بعدم تركيز، لقد حدث الكثير خلال اليومين الفائتين.. شردت نظرتها الى الفراغ وتذكرت الأحراش ولقائها بأوس المرة تلو الأخرى ومشاعرها الغريبة التي بدأت تتبلور لحظة بلحظة، لقاء بأخر.. دون توقف ودون رحمة..
لقد عاشت مشاعر تكفيها العمر كله، مشاعر لم تعرفها يوماً حتى في علاقتها القصيرة بعلي العزب قبل سنوات مضت..

مشاعر امتدت من النفور والغضب وعدم القبول، ثم تطورت ببطئ وأصبحت مزيج غريب لم تعد تفهمه هي نفسها تنهدت بعمق وغاصت في مقعدها، لم تشعر بكل هذا الاضطراب والتوتر كلما كان بالقرب منها.. مالذي يفعله بدقات قلبها التي تتسارع دون توقف حال رؤيته.. ماذا يفعل بعروقها التي تنتفض حال سماع صوته او رؤية ابتسامته العريضة، وجوده الطاغي يؤثر على تفكيرها بشكل مثير للاهتمام، انها لم تفكر بشيء منذ وطئت قدميها أرض منزل عائلته؟! لقد استحوذ على كل تفكيرها وسيطر عليه كما سيطر على الطائرة ذاك اليوم.

تنهدت وغاصت في مقعدها أكثر تتعانق أصابعها بتوتر وتزم شفتيها بحنق..

انه يثير غضبها، وعصبيتها وبالوقت ذاته ترى نفسها لاتقوى على مقاومة الاقتراب منه وتلك الإثارة المنعشة التي تصيبها من الطرف للطرف.

نهضت بعصبية جعل صوان تجفل وتنظر لها بعينين متسعتين، رأت عينيها تتألقان بشيء

غريب وكأنها هي الأخرى كانت في عالم اخر لايمت للفلم وأحداثه بصلة ولكنها لم تهتم..
-سأخلد للفراش.. لدي رحلة مبكرة في الفجر هل ستواصلين؟
-نعم.. ليس لدي شيء أفعله فغداً هو الجمعة.
اومأت لها ترنيم وسارعت للانصراف، كانت تتذكر الطريق لغرفتها بشكل جيد ولكنها تلككت اسفل الدرج والتفتت بخفة للباب الخارجي المغلق، لاشيء تنتظره.. فضول لم يكن سوى فضول!
-اتنتظريـــن أحداً؟!
انتفضت واستدارت نحو اليمين لتجده يقف برفقة الحجة فاطمة والتي وبخته:
-أوس لقد أفزعت البنية..ماذا يابنتي؟ هل انتهت سهرتك انت وصوان مبكرة؟!
تلعثمت وانتزعت عينيها قسراً من أسر عينيه اللطيفة العابثة لتنظر للمرأة التي استضافتها بكل حنان:
-لا ياخالة، ولكنني مرهقة من السفر وأيضاً رحلتي غداً عند الفجر.

-اذهبي اذاً للنوم حبيبتي هو كفيل بإزالة الارهاق وسأوقطك بنفسي قبل وقت الرحلة.

ابتسمت بارتباك:

-شكراً ياخالة.

ثم همست:

-تصبحين على خير..

ثم مالت بعينيها الى أوس الصامت وقالت له المثل قبل أن تعود لإرتقاء السلم الى فوق.. حينها قالت فاطمة بحذر وعينيها تتابعان النظرات التي يرشق بها اوس ترنيم حتى بعد اختفاءها:

-انها فتاة جيدة.. هل تعرفها منذ فترة؟!

-لا.. انها مجرد رفيقة سفر أمي، لاتشغلي بالك.

قالها بوجوم وجهه أسود وعينيه غائمتين، ثم قبل ظهر اصابعها وقال بتصميم:

-أيقظيني لتوصيلها ياأمي، أنا سأخذها للمطار.

....

في غرفتها، كانت تسرح شعرها الطويل على الفراش بعد حمام دافئ أثار في أوصالها النعاس وهدأ من ألم الإرهاق وقلة النوم، ضربات الفرشاة الناعمة على خصلاتها الكثيفة المبلولة

كانت مهدئة للأعصاب وأزاحت من تفكيرها الكثير من الهموم. وبعد أن بدأت عينيها بالتراخي وجفنيها بالثقل نهضت لتضع الفرشاة جانباً واتجهت نحو فراشها لتتوقف ثم ترفع عينين حائرتين للنافذة الوحيدة في غرفتها، عضت شفتيها ببطئ قبل أن تتغلب على ترددها وتتجه اليها بسرعة لتفتحها على مصراعيها وتصطدم بالظلمة الحالكة!!

شهقت وتراجعت قليلاً وعينيها تمسحان المنطقة تحت نافذتها بحذر..

ثم تراجعت خائبة..

يالها من حمقاء غبية، مالذي كانت تنتظره، بلهاء سخيفة وعديمة العقل.

شتمت نفسها قبل أن تستدير عائدة الى السرير ملقية بالأغطية فوقها تاركة النافذة مفتوحة..

غافلة عن الضوء الأحمر الصغير الذي التمع وسط الظلمة الحالكة ولا للابتسامة الصغيرة للشفتين اللذين احتوتا المبسم الطويل للسجارة واللمعان النفاذ للعينين الرماديتين الصاخبتين.

كان يقف تحت شجرة نخيل ضخمة تحت نافذتها مباشرة متأملاً متوسلاً أن ينال لمحة واحدة فقط كتلك التي سرقها قبل أيام في كينيا، ونال أكثر..
نال رؤية شاملة لإمرأة كاملة الأنوثة، تاقت أصابعه لملامسة حرير شعرها الذي نزل كثيفاً حتى وسطها، وتاقت لمعانقة خصرها النحيل وضمها اليه.. لتنتمي له وحده، لم يشعر يوماً بهكذا احساس عارم بالتملك نحو أي امرأة..
احساس شعره يوماً بدرجة أخف بكثير نحو صوان حين كانت ضعيفة ومحطمة بعد مافعله جساس بها في خطبتها. ولكن الأن.. مع ترنيم هو يشعره ينبع من تحت جلده وكل نبضة من نبضات قلبه تصرخ به.أخذ نفساً عميقاً وغادر مكانه بعد أن غادرت نافذتها وعاد الى مخدعه، حيث اعتاد جساس وسيف النوم بعد أن كبرت صوان واعتاد هو المبيت معهم معظم الأحيان..
الأفكار في رأسه تتزاحم وهي.. هي تحتلها كلها بلااستثناء، رباااه ماذا تفعل به ولم هي بالذات؟!

لم تقدر امرأة في يوم أن تهز عروش قلبه وهي..
هي تلاعبها بكل بساطة!! أتدرك ماتفعله به أم أنها لاتفعل؟
خلع ملابسه وارتدى بنطال قماشي قبل ان يستلقي على فراشه وعينيه في سقف الحجرة..
مالذي حدث لك ياسلطان؟
مالذي نزع النوم من عينيك وجعلك تآرق وتفقد الرغبة بالنوم؟
منذ متى تؤورقك امرأة مهما كان جمالها ودلالها.. ناهيك عن واحدة لاتملك من الجمال إلا القليل ومن الدلال .. لاشيء؟!
زفر بحنق .. ليست جميلة؟!
بالطبع هي جميلة.. رغم قصر قامتها إلا أنها ممشوقة القوام ان لم تكن نحيلة.. بشرتها ناعمة بيضاء وعينيها..
غامت عيناه وتألقت الفضة وسط ضبابها وهو يتذكر عينيها الغاضبتين، الناعستين، والمرحتين..

تبدل مزاجها وظهوره واضحاً في عينيها أربكه وجعله يفقد قدرته على التركيز أسيراً لتلك الفتاة الغريبة بالعينين الداكنتين بلون القهوة.

أغمض عينيه بقوة وهمس من بين شفتين مطبقتين:

-ترنيمة.. مالذي ستفعلينه بي؟!

.....

استيقظت قبل الفجر وقبلت شاكرة الفطور السريع والقهوة اللذان أعدتهما الحاجة فاطمة، ثم قبلتها مودعة وهي تتحمل حقيبتها على ظهرها وتمسك بالأخرى بيدها وتمضي لخارج المنزل، وهناك وجدته..

وقفت بتردد على السلم الحجري القصير وسمعت أمه من خلفها تقول:

-أوس سيوصلك حتى المطار.. اذهبي في رعاية الله.

ابتلعت ريقها بصعوبة ونزلت باقي السلم بخطوات قصيرة تقترب شيئاً فشيئاً منه، كان يقف عاقداً ساقيه مستنداً على بدن السيارة بقميص ناصع البياض وسروال جينز ازرق..

عيناه مظللتان لاشيان بلمعان الفضة الذي آرقها الليل بطوله..

-جاهزة؟!

تسائل بخفة حالما اقتربت منه لتومئ دون أن تتكلم فأفسح لها المجال وفتح لها باب المقعد الأمامي.. ترددت لبعض لحظات قبل أن تحسم ترددها وتجلس، ليحكم إغلاق الباب خلفها ثم يضع حقيبتيها في المقعد الخلفي ويدور ليستقر جوارها ويدير السيارة دون أي كلمة ويمضي بها وسط ضباب الفجر القريب.

أشاحت ترنيم بوجهها لتراقب الطريق المضاء بواسطة المصابيح والذي يحمل رطوبة الفجر الندية حين سمعته يسألها:

-هل ترغبين بإغلاق النوافذ وتشغيل التكيف؟

نظرت له بسرعة ورقت عينيها لرؤية الهالة السوداء حول عينيه لتجد نفسها تتمتم :

-أحب ندى الفجر.. انه ينعشني.

ابتسم لرؤية صفاء عينيها ثم أعاد نظره للطريق قبل أن يقول:

-لابد أنك نمت بهدوء ليلة البارحة.

أمسكت لسانها عن فضح أرقها وعدم نومها وهمست بالمقابل:
-كانت ليلة هادئة.. شكراً لك.
التوى فمه بسخرية وعاد يسألها:
-متى تنطلق رحلتك؟
-السادسة والنصف.
ردت باقتضاب ليقول بأسف:
-لن يكون لدينا وقت حتى لشرب كوب من القهوة؟
التفتت اليه:
-أتريد تناول القهوة معي؟
ابتسم ورد بنعومة:
-هناك الكثير من الأشياء التي أود فعلها معك ترنيم.
احمرت وجنتيها وتراجعت تنكمش في مقعدها دون أن تنبس ببنت شفة لتتسع ابتسامته ويغوص في الصمت الهادر الذي يحوطهما، كان الطريق الى المطار طويل نسبياً ولكنهما تركاه يمضي بصمت عينيها تسترقان لمحات منه بنظرات جانبية خاطفة، كيف أنقبضت أصابعه حول عجلة

القيادة بحرفية، سرعته العالية والتي مع سيارته الحديثة بدت وكأنها لاشيء!
تنهدت بعمق واستندت برأسها لحافة النافذة واغلقت عينيها لتضربها النسمات الخفيفة وتبرد حرقة وجنتيها وبدا وكأن جسدها كله يستجيب مباشرة لتواجده قربها بطريقة غريبة وغير معتادة، قبضت أصابعها واحتوتهما فوق ساقيها بإحكام تمنع اكتشاف ارتجافتهما وتسيطر بحزم على دقات قلبها المتوثبة لشيء لم تجد له تعريف ولم تستطع تصنيفه.
-وصلنا..
سمعت همسته الشاحبة لتنتفض وتنظر اليه بعينين متسعتين، كيف مضى الوقت؟
تأملت مبنى المطار الذي أصبح على مرمى حجر وعادت اليه، نظراته مظللة ولاتشي بمايعتمل في نفسه..
هل هو سعيد بالتخلص منها؟
ابتلعت ريقها بصعوبة.. ونظرت اليه بتركيز..
كان يعقد حاجبيه الكثين في محاولة لوضع

سيارته في مكان مناسب لم تكن السعادة بالتحديد مايظهر عليه..
كان غاضباً..
-لم انت غاضب؟
همست بصوت رقيق أجفله، نظر لها بحنق ثم هتف دون تردد:
-أنت مغادرة..
اتسعت عينيها ونظرت له بذهول ورأت نظرته ترتبك قبل ان يشيح عنها ويدفع بسيارته في ركن قصي ويطفئ محركها ثم يزفر مطولاً..
-ترنيم .. أنا..
-لاتقل شيئاً.
همست بذعر.. وسارعت بالنزول من السيارة وبدأت اندفاعها المحموم نحو بوابة المطار، زفر مجدداً بضيق ثم خرج خلفها حاملاً حقيبتيها بسهولة ومندفعاً خلفها..
لم تستغرق اجراءاتها الكثير من الوقت.. وسرعان ماوجدت نفسها تستعد للمغادرة، لم يتبقى سوى نصف ساعة على موعد الطائرة حين

استدارت اليه أخيراً ومدت يديها لتأخذ حقيبة كتفها منه..

-كيف سأراك مجدداً؟

سأل بتوتر لتبتلع ريقها وتهمس:

-أنت لن تفعل، انا راحلة ولن نلتقي من جديد.

-كنا نصطدم ببعضنا في كل منعطف حين كنا لانطيق بعضنا.. حين كنا لانريد!!

تباطئت حروفه وهو يغيب في نظرتها المذهولة وعينيها المتسعتين ببراءة ليواصل بخفوت ونظرة تصميم تلمع في عينيه:

-فتخيلي ماقد يحدث حين نريد.

-أنا لاأريد منك شيئاً.

همست بشحوب ليرد بثقة:

-ولكنني أريد منك الكثير ترنيمة..

تراجعت بذعر بينما فتح حقيبة كتفها واخرج هاتفها تحت نظراتها المذهولة وفتحه بخفة ونقر شاشته الرقمية ثم ثبت عينيه في عينيها للحظات وتسمع رنة هاتفه القصيرة الحازمة..

-لاتحاولي تغيير رقمك ترنيم.. سأكلمك وستردين.

قالها بحزم لتسمع نداء رحلتها فتختطف منه الحقيبة والهاتف وتتردد للحظة قبل أن تشتعل عينيها بغضب وترفع يدها تنوي تحطيم الهاتف على الأرض المصقولة..

ارتفعت يده بسرعة وقبضت على معصمها النحيل وقد التمعت الفضة في عينيه فباتت كحجر كريم ثمين، ثم احاط كفها بين كفيه وضغط برقة هامساً:

-لاتحاولي مناورة القدر ترنيم.. انه يفوقنا قدرة وتصميم.

جذبت يدها منه وقربتها الى صدرها بدفاعية وهي تهمس بوحشية:

-أنا لاأريد أي علاقة بك، ابتعد عني.

رقت نظرته بلحظة.. رأى في عينيها نظرة حيوان بري ضعيف يتصنع القوة في مواجهة وحش كاسر لاقبل له به، تستجدي الرحمة في عمق الغضب والألم لذا لم يبخل عليها به.. بل ابتسم ليرتجف قلبها بعنف وهمس برقة:

-سأبتعد بالقدر الذي يتحمل به قلبي الابتعاد ياجميلة، وبقدر ماسيتحمله قلبك أنت بعد.

-أنت.. أنت..
تحشرج صوتها ليتنهد ويتراجع خطوة:
-أنت تحاربين مالاتقدرين على محاربته ترنيم.. شيء أكبر مني ومنك.. لانعرف تفاصيله ولاخطورته بعد، ولكنني واثق أننا سنعرف عما قريب.
ثم اقترب الخطوة التي ابتعدها وأكثر وهمس لها بعاطفة شديدة أمام عينيها:
-قد يكون الأمر محض جنون.. كما اليومين الماضيين، شيء من خيال عنيف ربط بيننا، مفاجأة لم تكن في الخاطر ولا على البال، ولكنها حدثت.. ولن تنكريها أمامي لانها تظهر من عينيك.. تشي بها أجزاء جسدك التي ترتجف كلما اقتربت منك.
ابتلعت ريقها بصعوبة وأرادت.. يالله كم أرادت ان تخفض عينيها وتهرب من عينيه ولكنها كانت مقيدة.. مجبولة أن تنظر اليه ولاتفارقه كتعويذة سحرتها ولم تعد تستطيع الفكاك..
-سأعطيكي الفرصة لتهربي.. وتفكري جيداً وتقرري اما تعيشي حياتك أو أن تظلي محبوسة

هذه الشرنقة التي تلفينها حول نفسك بلارحمة وتختنقين داخلها حتى الموت.
تراجعت شاهقة بألم ولكنه اقترب أكثر..حتى جاور أذنها وهمس بثقل:
-أنا لن أسمح لك أن تختنقي ترنيم..ليس وفي صدري نفسٌ أعطيه لك.
تسمرت بذهول بينما تراجع هو بإرتباك ونظر لها بحيرة..وكأن ماقاله لها فاجأه هو نفسه قبلها!!
عاد النداء لرحلتها يتكرر.. فهمس لها بخشونة:
-ستفوتك طائرتك.
تراجعت بخطى متعثرة حملت حقيبتها على كتفها وضمت هاتفها اليها بحرص، ثم استدارت وتوجهت نحو البوابة المعنية، عينيها متألقتين بدموع حبيسة لاتدرك مصدرها وثقل غريب يجثم على صدرها لايكف عن حبس أنفاسها بكل قسوة..
أما اوس فقد وقف يراقبها بعينين مثقلتين بمشاعر عديدة لايعرفها ولم يعرفها من قبل، مشاعر نبعت من اعماق صدره.. من جنبه الايسر الذي

كان يختنق ببطئ وقارب على الانفجار. لم يكن يود تركها ترحل وحدها.. ولكن..
لديه الكثير ليقوم به هنا.. عيد ميلاد أمه فاطمة، جساس وصوان.. واللقاء العائلي المرتقب في الاحتفال.
ذاك اليوم والليلة الماضية وكأنما جزء من حلم، خيال وقعا به معاً والأن حان وقت الاستيقاظ..
على موعد قريب.. بقسم غير منطوق.. باستئنافه.
***

عبير محمد قائد

الفصل السادس

***

ليس اليوم نعد أجنحتنا بالرحيل..
لا تتركينا يا نجمتنا المقاتلة..
لازال في الروح بعض القوة..
لا ترحلي بسرعة قبل أن يأن أوانك..
حتى النجوم الهزيلة لها الحق أن تقاوم..
وأن تكسب رهان الحياة..
في قدر مكتوب لها بأن تموت؟

***

روما..

استغرقت في النوم لوقت طويل، استيقظت وكانت الساعة تقارب الخامسة بعد الظهر حين فتحت عينيها على صوت الزعيق القادم من خارج الغرفة، وتعرفت صوته.. نهضت بعصبية ولم تأبه لحالة وجهها الملطخ ببقايا دموعها من سهرة أمس بأي حال، جذبت روبها ووضعته على كتفيها ثم خرجت اليه..

توقف ركان عن الصراخ بتلك الشمطاء المدعوة سييرا ونظر خلفها حالما ظهرت سارة أمام عينيه.. ملامح وجهها تشي بمقدار الدموع التي ذرفتها بلا توقف طيلة الليلة الماضية.. اقترب منها مزيحاً سييرا عن طريقه وقال لها بعنف:

-لقد ظللت أبحث طيلة الليل، حتى الصباح سارة، هذه الشمطاء اتصلت بها مراراً وتكراراً وكانت تنكر معرفتها حتى بمكانك ليتضح لي قبل قليل فقط انك هنا؟

-كيف عرفت مكاني؟

سألت بصوت مرتجف ليضحك بتوتر:

-لقد فتحتي هاتفك قبل قليل ياسلطانة.. لقد تتبعت اشارة هاتفك حتى وجدتك.

-أنت تلاحقني الأن؟!
همست بألم ليخبط كفيه ببعضهما ويصرخ بجنون:
-لقد تركتني في منتصف الليل سارة، تركتني دون أن تتركي أي خبر بمكانك.. لم تكوني في منزلنا، ولا في منزل عائلتك، شقيقك خارج البلاد وأنت حتى لم تذهبي للجريدة هذا اليوم.. لقد جن جنوني وانا أبحث عنك في كل مكان.
عقدت ذراعيها أمام صدرها وهمست:
-ربما تشعر ببعض ماشعرت به حين اختفيت أنت قبل أيام.
-أنا رجل بحق الله.
صرخ بإنفعال لتقترب صارخة:
-وهل يغفر لك هذا أن تعاملني بتلك الطريقة.. أن تتحالف مع اعدائي ضدي، أن تهمشني وتنسى أنك زوجي.
-انه مجرد عمل لم لاتفهمين؟
لمعت عينيها الخضراوتين بغيظ:
-ذلك الرجل كان شاهر الباشا..أنا أعرف بالضبط من يكون شاهر الباشا ومايحمله لعائلتي من حقد

ومن غيرة بعد استيلائنا على الجريدة وتهميش دور عائلته بها،أنت وأنا نعلم بالضبط مايكنه أفراد عائلتك من مشاعر تجاه عائلتي.

رفع راكان حاجبيه وقال بحنق:

-مادمت تعرفين مدى حقد عائلتي تجاهك لم وافقت من الأساس أن أعمل لديك؟ وليس هذا فقط.. لقد وافقت أن تكوني زوجتي؟!

-لأنني كنت أحبك.

صرخت ليتسمر مكانه ويردد بذهول:

-كنت؟!

ثم اقترب يقبض على مرفقيها بأصابعه بقسوة ويهزها بعنف:

-أهذا مايحدث الأن.. أنت تنسبين حبك لي للماضي؟؟ هل نسيتيه بهذه السرعة سلطانة؟ نسيتني أنا بهذه السرعة؟

-أنت تؤلمني.. توقف.

همست بوجع محاولة التخلص منه ولكنه هزها بعنف مرة أخرى ولم يفلتها قائلاً:

-وسأحطم عظامك أن ظننت بلحظة أنني مجرد أحمق تلهين به لعدة أيام وترمينه للخارج..أنا ركان الباشا ياسلطانة.. ركان الباشا..

وشدد لفظ اسمه وهو يأسر ذراعيها بقوة جعلتها تصرخ وجعلت سييرا تقترب هاتفة بحنق:

-اتركها أيها المتوحش، اتركها ركان وإلا اتصلت بالشرطة.

افلت ركان ذراع سارة ودفع بسييرا بعيداً وهو يصرخ بها كالمجنون قبل ان يجذب سارة نحو الغرفة التي خرجت منها ويرميها على الفراش ويغلق الباب خلفهما باحكام تاركاً سييرا خلفه ترغي وتزبد، ثم اقترب من زوجته ومال نحوها قائلاً بعصبية:

-ستستمعين لي جيداً سارة، ستتركين كبرياء وعصبية السلاطين التي تتملكك تلك بالخارج وتنصتين لي جيداً.

دعكت سارة ذراعيها بألم وصاحت بصوت شاحب:

-أنا لاأريد الاستماع اليك، فقط اتركني وارحل، لم اعد أريد رؤيتك.

جلب ركان كرسي قصير ووضعه أمام الفراش وجلس عليه وهو يدمدم بعصبية شديدة:
-بل ستنصتين لي وتستمعين لكل كلمة دون الانجراف وراء ماتسمم عقلك به مساعدتك الشيطانة تلك، أنا زوجك وستنصتين لي.
أشاحت عنه وقلبها يرتجف بالألم، لم يكن هذا ركان حبيبها.. لم يكن زوجها الرقيق الذي تزوجته بعد قصة الغرام العاصف، كان وحشاً لم تعرفه من قبل.. وحش كاسر يؤلمها ويؤذيها.
-لو عرف أوس.. لو أدرك أخي ماتفعله بي.. فهو سيقتلك.
همهمست بخفوت لينفجر ضاحكاً بسخرية:
-وأين هو فارسك الهمام ياعزيزتي؟! بأي بلد وتحت أي عاهرة يسلي نفسه الأن..
-احترم نفسك ركان.
صاحت بألم ليقهقه:
-ألاتعرفين حقيقة أخيكي الغالي؟! منذ متى سارة؟ انت بنفسك من قال لي أخبار مغامراته العاطفية المقززة..
نظرتها حملت كرهها وهي تهتف:

-على الاقل هو لايعدهن بالحب والأحلام الوردية قبل أن يقرر طعنهن في الظهر.
تألقت عيناه بالغضب وامتدت كفيه ليحتجز وجهها بينهما بقسوة جعلتها تجفل وهو يهمس:
-أنا لم أطعنك في ظهرك سارة، أنا فقط قررت النجاة بنفسي بعيداً بعد أن قررت انت أن تلعبي بذيلك من ورائي.
-لم يكن بيدي..
همست بألم ليتركها بحركة مهينة دافعاً اياها لتسقط على الفراش وهو يصيح:
-اذاً لاتلوميني على محاولة النجاة بنفسي، والهروب من تسلط مجلس ادارتك الموقر.
-أنت تركتني أنا ركان.. خذلتني أنا.. لقد قمت بخيانتي.
نظر لها بعنف ثم أخذ نفساً عميقاً وهمس:
-أنا لم أخنك يوماً.. وإن كنت تظنين ان هذه خيانة فيجب عليكي أن تفهمي جيداً أنني لا اعتبرها كذلك.
واقترب منها لينظر في عينيها المجروحتين:

-أنت تربطين علاقتنا بالعمل وكانك تزوجتي من مشروع تجاري وليس من حبيبك الذي يعشقك وتحدى عائلته فقط لأجل أن تكونا معاً.. فكري سارة.. تريدين عملك الغالي وأفكارك الحمقاء التي لاتفارق رأسك أم أنك تريدينني أنا لنفسي.

أشاحت عنه ولم ترد بينما يتراجع هو ويقول بصوت مظلم:

-سأذهب الأن ياسارة، وسأنتظرك لتفكري وبشكل جيد فيما قلته، أن تفصلي بين العمل وبين علاقتنا كمافعلت أنا، كلانا سيكون بخير تماماً إن حدث هذا. حتى علاقتنا ببعضنا ستتحسن وسترين.

رمقته بنظرة ألم و همست:

-أنت فقط تقول هذا.. لاشيء بيننا سيعود كماكان، الثقة..ركان لقد خسرت ثقتي.

ارتجف صوتها ليشخر بسخرية ويهمهم:

-كماخسرتي ثقتي بك قبلاً سارة، ليس من جديد هنا، ولكن اعلمي هذا جيداً.

وعاد اليها لينحني نحوها مشيراً بإصبعه:

-أنا لن اوقع العقد مع الجريدة وسأوقع شراكتي مع شاهر.

شهقت بألم ليواصل بتصميم:

-هذا هو العمل.. ولكن مشاعري نحوك لاعلاقة لها بالعمل، أخرجيها من حساباتك وحينها، حينها فقط بإمكاننا التفاهم كرجل وزوجته.

-الأمران لاينفصلا.. أنا والجريدة..

هتفت بإنفعال ليبتسم بسخرية ويتراجع قائلاً:

-كماتشائين حبيبتي، لاتلوميني الأن اذاً حين أستولي عليها كمافعلت معك.

-أنت لن تستطيع..

همست بشحوب ثم صرخت:

-لن تجرؤ..

تراجع بابتسامة ملتوية:

-سترين ياسلطانة ماقد يفعله الباشا لإستعادة ماهو له.

وقبل أن ترد كان يستدير على عقبيه ويولي الأدبار دون أن ينظر خلفه، تجاهل سييرا الغاضبة بجنون واندفع الى خارج الشقة وهو يكتم غضبه وعصبيته، لقد بدأت سارة الحرب

الذي أشعل فتيلها بيده والأن لن يترك ساحة المعركة حتى ينتصر.

***

دبي..

تعالى رنين الجرس موقظاً جساس من نومه القلق على أحد مقاعد الجلوس في شقته الواسعة في أحد أبراج المدينة والتي تطل على الخور الشهير في منظر ساحر، والتي اشتراها حال عودته من اوروبا قبل سنوات قليلة تخطيطاً لزواجه من صوان والذي لم يحدث قط.

تململ في رقاده وزفر بضيق ورفض مجرد فكرة النهوض وفتح الباب لأي من كان، كانت ذكرى يوم أمس والغداء المشحون بالعواطف الذي تشاركه مع صوان ووالدتها يجثم على أنفاسه..

فتح عينيه بألم، كانت قاسية..

قاسية كما الصوانة التي مُنيت بإسمها..

رفضت كل محاولاته التقرب رفضته بكله وكأنما لايجلس حتى معها، رفضت النظر اليه أو الرد على حديثه أو حتى المشاركة في الحوار الذي

تبادله مع العمة فاطمة، لقد كانت تنأيه عنها بشكل قاسٍ.
ولكنه لم ييأس.. ولن يفعل.. صوانته ستكون له وإلا فلن تكون لسواه.
-أووووف..
زفر بحنق حين تكرر رنين الجرس للمرة المليون كمايظن.. ونهض والشياطين تتقافز من عينيه وهو يسرع نحو الباب وفتحه بعنف وهو يصرخ:
-مالذي..
وتوقفت حروفه وهو يقابل الرجل الطويل الذي وقف امامه وقد حمل حقيبة متوسطة على كتفه وحملت عيناه الذئبيتين الداكنتين نظرة مرحة وه يفتح ذراعيه على وسعهما ويقول:
-تعال الى حضن أخيك وتوقف عن استخدام لغة الشوارع ياولد.
-سيف؟!!
صاح جساس بدهشة متوترة مما دفع سيف الشيب لرفع حاجبه الأيسر باستغراب:
-ماذا؟! هل أعود أدراجي؟!

نظر له جساس بتوتر للحظة ثم اقترب يعانقه بمحبة خالصة وإن كان ذلك الفأر لايزال يلعب بداخله شكوكاً لقدومه مبكراً..!!

-مرحباً بك أخي تفضل بالدخول..

أفسح له الطريق ليدخل سيف وعلى وجهه نظرة تخفي الكثير ووضع حقيبته على مقعد قريب وقال بصوت خالٍ من التعبير:

-سأبقى لديك ليومين حتى تأتي سلمى والولدين من نيويورك ونستقر في منزلنا.

-ولم لاتذهب منذ الأن؟

قالها جساس بضيق لينظر له أخيه بحنق:

-ألاتريدني هنا؟ يالك من جاحد ناكر للجميل.. من ساعدك بشراءها ياوقح؟

-لقد أعدت لك مالك بعدها لاتستفزني سيف.

ابتسامة عريضة حملها وجه سيف فيما اعاد جساس:

-والان اخبرني بصدق لم لاتذهب الى منزلك هنا، انه جاهز من الابرة الى الصاروخ كما تقول عمتي.

ضحك سيف وخلع سترته وحذائه واسترخى على كرسي وثير من الجلد وقال بهيام:
-لقد وعدت سلمى أن أدخل المنزل للمرة الاولى معها ولن أنكث بوعدي الأن.
رفع جساس حاجبه وقال بوقاحة:
-بل قل أنك لاتريد أن تبقى في مكان لسلمى دون أن تكون هي فيه، رباااه أنت ميئوس منك.. ذكرني أن اغلق باب حجرتي علي لاأريد عاشق مشتاق يبحث عن حضن دافئ بعد منتصف الليل.
-أنت وقح..
قالها سيف بتقرير بينما نهض جساس ليعد له كوباً من الشاي قائلاً:
-اعرف هذا، ولكنك لم تخبرني عن سبب مجيئك المبكر، لقد أخبرتني أنك ستصل يوم عيد الميلاد بسبب اشغالك العديدة؟!
زم سيف شفتيه وأسند رأسه الى مقعده وقال بهدوء:
-أوس أتصل بي.
تجمدت يدا جساس ثم افلت ماكان يحمله وعاد حيث استرخى شقيقه كذئب ناعس:

-مالذي قاله لك بالضبط؟
أمال سيف رأسه ولمعت عيناه وهو يقول بصوت جامد:
-قال أنك عدت لضلالك القديم.
شحب وجه جساس وانقبضت يداه بجواره بصورة غريزية ثم همس:
-لاشأن له.. أبداً.. وأنت ..أنت يا أخي..
-اسمعني جيداً يا ابن أمي.
هدر سيف بغضب وهو يرى انزعاج اخيه الواضح واقفاً وقد نفض عنه الكسل والتراخي وهتف بعنف وهو يرفع سبابته لينكز بها صدر أخيه:
-ستتوقف الأن عن كل أفعالك ومحاولاتك العقيمة، ستتوقف وستكون رجلاً وتتقبل كلمة لا.
شعت عينا الجساس بالألم والغضب بمزيج عنيف وأزاح يد أخيه وهدر به :
-حين يكون الرفض حقيقياً.. حين يكون ماتؤمن به وتريده حقاً وليس مجرد رفض أحمق لاأساس له.

-صوان لديها كل الأسباب لترفضك جساس، لديها أسبابها المقنعة ياأخي.
-صوان تحبني.
هتف بألم ليرد سيف بقسوة:
-وتحبني أنا..وأوس..أنت لاشيء أكثر منا جساس.
اتسعت عينا جساس وهمس بشحوب:
-أتصدق ماتقول سيف؟ أتصدق حقاً أنها تحبني كأخٍ لها فقط.
خفض سيف نظرته عن عيني أخيه الثاقبة وهمس:
-هذا ماتقوله هي.
-رباااااااه سيف..
هتف جساس بعنف ثم استشاطت عيناه اشتعالاً:
-انت بالذات..انت بالذات لاتقل ان ماتتفوه به المرأة تعنيه، أنت بالذات لاتقل لي أن أرضى بكلمة الرفض.. أنت من انتزعت المرأة من بين يدي زوجها؟!
قبض سيف على تلابيب أخيه بعنف وهزه بقوة وهو يصرخ وقد تقافزت شياطينه من عينيه:

-تحشم حين تفكر حتى بزوجتي أتفهم جساس؟
ارتفعت يدي جساس وقبضتا على كتفي أخيه بعنف وهدر به بقوة:
-وأنت لاتفترض بيني وبين صوانتي أي شيء أبداً.. أتفهم؟!
-هي طلبت تدخلنا..هي استنجدت بي وبأوس لنوقفك..
اتسعت عينا جساس وتراجع بصدمة بينما أغمض سيف عينيه وتراجع مستغفراً..
جساس جلس بحذر على مقعد قريب، دفن وجهه بين كفيه وعقله لايكف عن التفكير.. صوانة تفعل به هذا؟ ترفضه للمرة الألف؟! والأدهى أنها تستنجد بأوس وسيف؟!
شعر بمرارة فعلتها تخنقه، تقتله ببطئ!!
-عليك أن تواصل طريقك أخي..بعيداً عنها اتركها لحياتها وعش حياتك أنت.
-لامعنى لحياتي دونها.
همس بألم ثم التوى فمه بسخرية وقال بمرارة:
-أحبها لدرجة ان لاوجود لحياتي دونها من الأساس.

شعر سيف بألمه.. العاشق يفهم أخيه .. وهو وقع فريسة العشق يوماً ولايزال يتمرغ في ظلاله حتى الأن، وهو يعرف مدى حب أخيه لصوان، منذ كانوا أطفالاً لم يقع هو الأكبر سناً بحبها كالمعتاد.. ولكنه كان جساس، الأصغر عمراً والأكثر تعلقاً.. فرق السنوات الثلاث بينهما لم يهمه بمقدار وهو يعلن بأنه يعشقها وأنه يرغب بها لتكون زوجته...

ثم كان انفجار أمه؟؟!

اغمض عينيه وهو يتحاشى ذكرى ذاك اليوم قبل ست سنوات، منذ أن بدأت المأساة الحقيقية في عائلته.. تنهد بضيق وعاد الى شقيقه ليجده في وضعه الأول..

-عليك أن تفكر بنفسك أخي، وتدع صوان تعيش حياتها.

رفع جساس عينيه الى سيف ببطئ ثم نهض من مكانه ليقابله ويضع عينيه في عيني أخيه:

-أهي من قالت لك هذا؟!

أخذ سيف نفساً عميقاً واومأ بصمت لتقسو عينا الجساس وتصبح كظلمة ليل قاتمة وصوته يماثلها وهو يهمس له بتحذير:
-إذن أخبرها عني.. أخبرها أن حياتها التي تبحث لتعيشها إن لم تكن معي أنا..
وتمهل قليلاً تحت نظرات سيف المتوتر قبل ان يواصل بهدير:
-فهي لن تكون مع سواي.
قالها واندفع الى الخارج متجاهلاً صراخ سيف بإسمه، متجاهلاً تهديده له بأنه سيكسر عنقه بيديه لو مس صوان بسوء.. ولكنه لم يتوقف.. كانت الدنيا كلها تتلوى أمام عينيه بجنون حالياً.. ولا أحد يستطيع أن يوقفه حين يكون بهذا الشكل من الغضب لاشيء سوى سيارته السريعة والهواء القوي يضرب غضبه ليسكنه.
***
روما..
تعالى وقع الكعب العالي في الرواق المصقول لمستشفى القديس ماركوس في روما، مخترقاً الصمت المهيب الذي طغى على الأجواء في تلك

الساعات المبكرة من الصباح، بينما صاحبته تنظر لارقام الغرف بعينين قلقتين وقلب راجف حتى وصلت الى الغرفة المعنية..

فتحت الباب بسكون ورمت عينها الى الداخل كانت غرفة صغيرة متواضعة، دخلت بساقين مرتجفتين ونظرت بهلع الى المرأة الضعيفة الرقيقة النائمة على الفراش، ثم حولت عينيها الى ارجاء الغرفة المظلمة وتقدمت نحوها لاتقدر على كبت الدموع التي تساقطت من عينيها وهي ترى ملامحها الشاحبة تنافس أغطي الفراش..

-كمالة؟!

همست بألم..

-لاتوقظيها..

سمعت الأمر القاسي من خلفها لتلتفت بجسدها كله وتنظر في عيني خالد بألم قبل أن تركض لترتمي بين ذراعيه وهي تشهق بالدموع صارخة بخفوت:

-مالذي حدث لكمالة خالد؟ ماذا حدث لها؟

زفر خالد الراجي بألم وأحاط بها بقوة مسنداً رأسه لقمة رأسها وهو يهمس:

-انها مريضة حقاً ياترنيم.. وماحدث..ماحدث لم يكن سهلاً.

رفعت عينيها المليئة بالدموع وهتفت بألم:

-أخبرني كل شيء.

جذبها من ذراعها وأخرجها من الغرفة واغلق الباب خلفهما قائلاً:

-تعالي معي، لقد نامت بعد حقنة مهدئة وجهد جهيد.

شهقت بألم وتبعته متعثرة لاتعرف الى أين يأخذها، وحين هدأت دموعها رأت مقهى صغير تطل على حديقة وارفة، وأجلسها حول مائدة صغيرة لتصرخ به بنفاذ صبر:

-تكلم الأن ياخالد.ماذا حدث لكمالة.

-والدك.

اتسعت عيناها بذهول وصمتت بينما تنهد خالد بأسى وأسند رأسه المتعب على كفيه المضمومتين وقال:

-لقد جاء يبحث خلفك ترنيم، أنا جئت معه لأحجم القليل من غضبه..

ثم نظر لها وهمس:

-لقد كان غاضباً منك كالجحيم ترنيمة..أراد شخصاً ينفث فيه غضبه وكماتعرفين فكمالة وقفت في وجهه كالعادة.

-ماذا أراد مني؟ لماذا جاء؟

نظرته حملت عتابه قبل أن يقول:

-بعد مافعلته به وماقلته له على الهاتف؟ لقد طار صوابه ترنيم، لقد بحث عنك كالمجنون، وحين عرف أنك برحلة السفاري تلك.. رباااه، لقد جن تماماً.

شحب وجهها وتراجعت في مقعدها ولم تعلق بينما خالد يواصل بأسى:

لقد كان يصرخ في وجه أمي ويتهمها أنها السبب، أنها من أفلتت عيارك ولم تهتم بك ولم تسيطر عليك كما ينبغي كما اعتاد أن يقول منذ ماحدث قبل سنوات.

التوى فمها بسخرية وهتفت بمرارة:

-وأنت خالد؟ ماكان دورك في كل ماحدث ياأخي العزيز؟

احتقن وجهه وهتف بعصبية:

-تعرفين كيف هو والدي، تعرفين مدى غضبه وماقد يصل اليه.
تأملته ترنيم بألم، لم تتصور أبداً أن يكون شقيقها الوحيد بهذا الضعف، بهذا الخنوع والسلبية.. ربما لأنها كانت مثله في يوم.. بل لسنوات كانت تحني رأسها وتخضع لفروض الطاعة والولاء تحت قدمي الراجي المتسلط.. لم تشكك يوماً في قراراته او أواوامره. حتى وقعت هي فريسة.. بل ضحية لاحول لها ولاقوة.
-أخبرني ماحدث لكمالة بعد مجيئه لفرض قوته المفرطة على من هم اضعف منه؟
تنهد خالد وقال باضطراب:
-عمتي كانت متعبة، وصراخه واتهاماته اصابتها بالهستيريا وتبادلهما الشتائم لم يفلح قط في تهدئتها.. انهارت على الأرض وأحضرناها الى هنا..
صمت فجأة وأشاح بوجهه لتقترب هامسة بشحوب:
-ماذا هناك أيضاً خالد؟ وجهك لايفسر..
-كمالة لديها ملف طبي هنا ياترنيم..

همس بشحوب ثم نظر لوجهها القلق واضاف بألم:
-ملف ضخم للغاية..
-ماذا تعني؟
تسائلت بخوف ليرد بوجع:
-كمالة مصابة باللوكيميا.
شهقت ترنيم بروع وهي تخفي فمها بكفيها بينما يواصل خالد:
-انها مريضة منذ أشهر ورفضت العلاج وكل سبله.
كانت تهتز من الألم كلها ترتجف والدموع تتسابق بالهطول على وجنتيها دون توقف بينما خالد يواصل:
-لقد أبقت الأمر سراً ولم تبح به لأحد، ولولا الانهيار الذي حدث لها لماعرفنا ابداً، طبيبها يصر على أن تبدأ العلاج الكيميائي ولكنها ترفض بإصرار.
توسعت عينيها الغارقتين بالدموع واهتز صوتها وهي ترتجف:
-انها .. كمالة..تريد اللحاق به.

اغمض عينيه بألم وهمس:
-انه جنون.. حبٌ كهذا؟؟ ليس سوى ضربٌ من جنون هو لايوجد سوى في القصص الخيالية ترنيم.
-ماذا عن المرض؟
همست بألم وارتجف صوتها غير مصدقة:
-حتى مرضه انتقل اليها؟
-انها مجرد صدفة..
هدر بغضب لتشهق باكية بعنف وتنوح مخفية وجهها في ساعدها وهي تنهار على الطاولة..
سنوات مرت.. سنوات أكثر من نصف عمرها قضتها تسمع الحكاية الخرافية عن عشق تاهت في وصفه الكلمات، عشق لم يوافق عليه احد وحاربه الجميع، حتى أقرب الناس اليه.. عشق ولد من قلب الظلم وتجذر فيه..
-ترنيم لايجب عليكي أن تفعلي هذا، عليكي أن تكوني قوية.. عمتي مريم بحاجـ..
-اسمها كمالة ..
صاحت باكية ليزفر هو بتوتر ويتراجع في مقعده بينما يجيل عينيه فيمن حوله بتوتر تاركاً شقيقته

تفرغ حزنها وألمها بالبكاء للحظات طويلة.. هو لم يرها بهذا الإنهيار منذ ماحدث لها قبل سنوات! ماحدث لها كان مؤسفاً بشكل كبير.. والأن .. مايحصل لكمالة كان يفوق الوصف.. اغمض عينيه بألم وهمس:

-والدي غادر منذ علم بالأمر.. لقد صُدم فعلاً و..

-صُـدم؟!!

شهقت مصعوقة.. ثم نهضت ببطئ وواجهته بعنفوان:

-كمالة قضت نصف حياتها بعيدة عنه وعن كل مايفكر به، كل أحكامه وأوامره لقد كانت منبوذة من قبله وكل أفراد عائلته، ابتعادها واختيارها الرحيل لم يصدم أحد، بقاءها وحدها في بلد غريبة لم يصدم أحد، كيف تقول أن مرضها قد صدم السيد المبجل مختار الراجي؟!

-ترنيم توقفي عن المبالغة، انها شقيقته الصغرى مهما حدث وهو..

-شقيقته؟! منذ متى ينظر اليها كشقيقة؟ انه حتى لايريد الاعتراف بها، ولولا قوتها وعزيمتها

لكانت استسلمت ولم تعارض قراره أن يخبروا الجميع أنها ميتة.
صرخت بعنف ثم اضافت بحدة:
-اسمعني جيداً ياخالد.. اذهب لأبي وأخبره انني وكمالة لانريد منه شيئاً.. لاشيء على الإطلاق أتفهم.. وأنه من الأفضل أن ينسى صدمته وينسانا معاً.
وقبل أن تعطيه الفرصة ليرد كانت تلتقط حقيبة كتفها وتمضي راكضة الى غرفة كمالة.
لم تنظر للخلف، تماماً كمافعلت حين هربت من عائلتها قبل سنوات.. لم تنظر خلفها.. وكمافعلت كمالة قبلها.. لم تنظر للخلف أبداً.
وصلت إليها لاهثة.. فقط لترى عينيها الجميلتين تتفتحان برقة الفراشات كماعاشت حياتهامن قبل،رقيقة كالفراشات تنهدت واندفعت اليها ترتمي على صدرها وهي تشهق بدموع غزيرة:
-كيف..كيف لم تخبريني؟
شعرت بتصلب كمالة لبعض لحظات قبل أن تلتف ذراعيها حولها وتقربها منها بضمة خفيفة:

-انها مشيئة الله سبحانه وتعالى حبيبتي، ليس لنا أن نعترض ابداً.
-لماذا لم تخبريني؟
صاحت بألم وهي تتمرغ في صدر عمتها التي تنهدت بعمق ورفعتها قليلاً لتنظر لعينيها هامسة:
-لم أشأ ابطاء خطواتك ياترنيم..أنت كنت تسابقين الكون هرباً ولم أشأ أن أكون حجر العثرة في طريقك ياملاكي.
انسابت دموعها بمرارة وكمالة تحيط وجنتيها بأصابعها وتمسح دموعها برقة:
-أنت كفراشة حرة ترنيمتي.. نغمة لم تجد لحنها المميز بعد،والعمر أمامها طويل وسعيد ولايجب أن تشغل عقلها وقلبها بأمر سخيف كهذا.
-مرضك.. ليس أمراً سخيفاً كمالة.
تهدج صوتها وهي تهز رأسها بأسى لتحاول كمالة الضحك وهي تهمس:
-انه أكثر الأمور سخفاً ترنيم.. كيف تحكمين على ميت بالموت؟!
-لاتقولي هكذا عن نفسك كمالة.. أبداً.
صاحت بها ترنيم باكية لتضحك بشحوب:

-أنت أكثر من يعرفني في هذا الكون ترنيم، تعرفين حقيقة قصتي وماآلت اليه..
وشردت عينيها وضاقت وكأنها تتابع مشهداً يدور أمامها همست:
-بعده لم يعد لي في الحياة سوى نفس يتردد حتى ينتهي بأمر الله وألحق بحبيبي حيث هو.
-كمالة..
همست بوجع لتغمض عمتها عينيها وتقول بحالمية:
-كم اشعر بالحياة والحيوية تدب في أوصالي حين أسمع اسمه يقترن بي كلما نطق به أحدكم.. وكأنني أراه أمامي.
-يالهي.. كمالة.. هو .. هو لم يكن ليريدك أن تقتلي نفسك حبيبتي.
-وكيف سأقتل نفسي وهي ملكه؟ حتى المرض الذي فتك بجسده هاهو جاء ليعوض مافعله بي حين أخذه مني وسيأخني اليه دون مقابل.
اتسعت عينا ترنيم وتراجعت بذهول.. انها تعرف كمالة.. نعرف عشقها اللامحدود ولكن.. الأن فقط ترى مالم تكن قد رأته في يوم.. لمسة الجنون؟

وكأنما تقرأ أفكارها.. تعرف ماتفكر به مالم تتجرأ وتقوله..
-الجنون حباً.. ليس مرضاً.. انه قمة العشق ياترنيم، ويوماً ما..
ولامست وجنتها بحنان مبتسمة:
-يوماً ما سوف تعشقين رجلاً بجنون.. وستفهمين.
أسقط بيدها، فليس هناك ماقد تقوله ليغير رأي كمالة في العشق والهوى.. والذي كمايبدو أدرجت المرض والموت ضمن أقصى مأآلاتها..
***
اغلق الهاتف بتمتمة غاضبة، ثم رماه على كنبة قريبة ونهض ينظر عبر النافذة بحنق.. لقد وصلت بالتأكيد الأن.. منذ عدة ساعات ان شاءالدقة..ولكنها لاتزال مغلقة هاتفها منذ صعودها الى الطائرة..
وهو يريد فقط الإطمئنان عليها ليس أكثر..
تأفف بحنق ثم شعر بالباب خلفه يفتح بهدوء ونظر عبره ليرى صوان تقترب بإبتسامة ناعمة

وظفيرتها تتدلى على كتفها بعد ان ألقت طرحتها الخفيفة على مقعد قريب وقالت:
-صباح الخير ياكابتن..كيف كانت ليلتك في مبيت الذكريات؟
-لم أكن أصدق أمي فاطمة وهي تصف تكاسلك حتى رأيته بأم عيني، لقد تجاوزت الساعة الواحدة.. هل استيقظت للتو؟
لوت فمها بحنق وتخصرت:
-انه الجمعة وهو يوم أجازتي اليتيمة..ثم أنه ليس لدي سبب قوي للنهوض منذ الفجر مثلك ياوسيم!!
قالت جملتها الأخيرة بغمزة شقية ليضحك أوس ويرتمى على الكرسي المقابل للنافذة وهو يشير لها بتحذير:
-اسمعيني جيداً يافتاة اللسان الطويل والكسل لايفعل سوى زيادة الوزن وزيادة التفكير.. والاثنين لايناسبانك صوانتي.
ابتسمت بغرور:
-زيادة بعض الوزن لاتضر ياأخي المختال بنفسه.. أما التفكير..

وتنهدت عميقاً قبل أن تشير برأسها بأسى:
-همٌ لابد منه..
ضحك أوس وتقدمت صوان لتجلس قربه بينما يسألها:
-ماذا عن الغداء متى ستحن علينا السيدة الفاضلة وتنزله لنا.
-قالت أن هناك ضيوف على الغداء، ولم تفصح من.. هل تعرف؟
-ليس تماماً.
قالها بغموض وهو يشيح بوجهه لتنظر له صوان بتوتر، ثم تجذب رأسه ناحيتها هامسة بشحوب:
-هل سيأتي؟!
نظر أوس لعينيها للحظة ثم قال بجمود:
-لن يكون وحده..سيف سيرافقه.
نهضت تقف أمام النافذة وعينيها تسرحان بعيداً..عصبيتها ظاهرة من أسنانها التي كانت تقضم أظافر اصابعها اليسرى بجنون وهي تفكر ان الشلة القديمة ستجتمع.. العائلة ستلتف حول مائدة من جديد وبعد زمن..
-أنا لاأريده أن يأتي.

همست بضعف..
-لاأحد يقدر أن يمنعه من دخول البيت الذي تربى فيه جُل عمره صوان.
رد أوس بخفوت لتهز رأسها بألم:
-انه يقتلني أوس، بقاءه حولي يقتلني.
-عليكما المواجهة صوان، اللعب كالقط والفأر لن يساعدكما قط.
-انه لايسمع، أصرخ بها في وجهه ولاينصت.
صاحت بوجع ليقول لها أوس بجمود:
-لأنك لاتقولينها من قلبك صوان، في أعماقك أنت تريدينه مثلما يريدك، ولكنك تتصنعين الرفض والذي لاتريدين وضع أسبابه ولن أناقشه معك حالياً.
-أنت تعرف أسبابي.
همست بشحوب وهي تخفي وجهها عن أخيها ليضحك بسخرية:
-أسبابك المضحكة تلك عن كونه يصغرك وأن الجميع سيسخر منكما فهذا كلام تافه.
-أنت من يقول هذا ولكنها الحقيقة.
صرخت بألم.. ليقف أوس ويواجهها:

-صوان.. أقولها لك للمرة المليون، لو كانت تلك أسبابك الوحيدة فأنت ترتكبين خطئاً كبيراً.
-أنت لاتعرف شيئاً.
همست بعذاب ليقترب منها ويواجهها بقوة هاتفاً:
-ربما كنت مخطئاً وسأناقشها معك في التو، تحدثي عنها..هيا تكلمي.
نظرت له بعينين متسعتين.. لو حدث وقالت.. لن تعود الأمور لنصابها أبداً هي لاتستطيع أبدا.
ولم ينقذها سوى صوت سيارة قوية ومندفعة تعبر الممر أمام المبيت لتنتفض واقفة وهي تدرك بالضبط سيارة من تلك؟!.. همست بإرتباك:
-لابد أنهما قد وصلا.. يجب أن اذهب.
قبض اوس على مرفقها وقال لها بتصميم:
-كوني قوية وتوقفي عن الهروب.
تركها متسعة العينين وتقدم ليرمي لها طرحتها ويفتح الباب لأخويه وإبني عمه صارخا بمرح حال مقابلة سيف، وتراجعت صوان منكمشة بعد ان لفت طرحتها حول رأسها وراقبت من بعيد كيف عانق أوس سيف بمحبة خالصة ثم تعلقت عينيها دون مقاومة منها بذلك النحيل الذي ترجل

من السيارة والقى السلام باقتضاب قبل أن يدخل الى المبيت بخطوات سريعة تسمرت حال رؤيتها واقفة أمامه.. كان يضع نظارة مظللة ولم تستطع رؤية رد فعله أما ردة فعلها هي..فكانت مدمرة لها تماماً.

حين دخل بالسيارة الى بوابة المنزل الكبير سمع سيف ينبهه للمرة الألف على ضرورة البقاء هادئاً وعدم إثارة المشاكل، التحلي بالتحضر وعدم القفز شجار مع أوس من أي نوع. ولكنه لن يقف مكتوف الأيدي إن وجه له ابن عمه أي انتقاد من أي نوع مهما كان.

أوقف السيارة أمام المبيت القديم حيث رأى سيارة أوس متوقفة، وقفز منها سيف مقابلاً أوس بصخب اعتاداه منذ الصغر، بينما توقف جساس قليلاً ليطفئ سيارته ويأخذ نفساً عميقاً الواحد تلو الأخر وقبضتيه حول المقود بشدة، هذا الغداء سيأخذ منه كل مايستطيع من قوة ارادة وسيطرة على النفس. وعليه أن يكون قدر المسؤولية بعد محاضرة سيف ليلة امس. خرج بعدها من الكورفيت الحمراء واغلق بابها بقوة قبل أن

يتوجه لداخل المبيت وهو يلقي السلام بإقتضاب ليتسمر بالداخل وعيناه تلتهمان الواقفة امامه بجوع..

كانت ترتدي ثوباً من القطن قصيراً لمنتصف فخذيها بألوان الشمس الصفراء والبرتقالية وتحته بنطال من الجينز وعليها طرحة بلون أصفر فاقع مشرق ناقض شحوبها وعينيها المتسعتين بوجل لرؤيته..

-صباح الخير..

هتف بصوت مخطوف لرؤيتها، جعلها ترتجف وهي تجيبه بصوت خافت..وعينيها تلتهمان تفاصيله بالقميص القطني الأبيض والجينز الأزرق الشاحب.

-كيف حالك الأن؟! ألازلت مريضة؟

تسائل وقد ضاقت عيناه لرؤية شحوبها لتحرك رأسها نافية وقد قبضت على مقدمة ثوبها ونظراتها عليه..

-لم أحضر الشوكولاتة.

رقت عينيها وتسائلت بهمس:

-ولِمَ؟!

-لاأعرف..
أجاب بصدق..
-كنت غاضباً..
ثم اقترب منها وهمس أمام عينيها:
-لقد شكوتني لأوس ياصـوّان؟!
لمعت عينيها وسارعت:
-لم أشكوك.. هو..هو..
وتلككت حروفها وغصة تحتكم حلقها وهي تحاول الهرب من عينيه ليقول بألم:
-هو يكرهني..
-انه لايكرهك.
دافعت بحرارة ليتنهد ويدعك جبينه بقوة ثم يقول بتوتر:
-مالذي أتى به مبكراً؟ ولم جاء بسيف؟
-لاأعرف..
همست والذنب يطل من عينيها بينما تحاول الهرب بهما عنه ولكنه كان يكشفها بسهول..
أصابعه امتدت لتلتقط ذقنها وتحبسه بقوة حانية وهو ينظر لها بإمعان:

-أعرف ماتحاولين فعله صوانتي.. أعرف أنك تهربين وأنك تقاتلين كي لاتقعي في شرك مشاعرك، ولكن هذا لن يساعد..

-جساس لا..

همهمت باعتراض وهي تتراجع ليفلتها بإبتسامة عريضة:

-ناديني مجدداً.. قولي اسمي من جديد كماكنت تفعلين منذ زمن صوانتي.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهمست بعصبية:

-اخوتنا بالخارج جساس.

-مرة أخرى..

همس بشوق وهو يحاصرها بينه وبين الجدار خلفها لتشهق باعتراض وهي تنظر له بنظرات مشتعلة جعلته يضحك بإستمتاع:

-رباااه صوانة كم أعشقك.

-لاااا..

همست بإعتراض مخنوق ووجهها يحتقن بالخجل ليهز رأسه مبتسماً ويسألها:

-هل انتهت العلبة التي احضرتها قبل ايام؟

عرفت مقصده وتجاهلت ضربات قلبها المدوية وهي تهز رأسها إيجاباً بينما يقول:
-سأحضر لك واحدة بعد الغداء، بالحجم العائلي الكبير..ولكنني جائع.
تلاعبت ابتسامة حانية على شفتيها وهمست بخجل فطري:
-عمتك أعدت لكم كل ماتحبون، لا أعتقد ان أحدكم سيتحرك بعد وليمة اليوم.
لمعت عيناه وهمس:
-أنا سأفعل..ولو زحفاً على ركبتي لأحضر لك ماتريدين صوانتي.
احمرت وجنتيها أكثر وخفضت عينيها بينما يقترب يهمس لأذنها فقط:
-أعشقك صوانتي، أعشق وجنتيك المحمرتين كثمرتي تفاح ناضج، أعشق عينيكي وبشرتك الناعمة.. أعشق كل تفاصيلك والجمر المشتعل من أجلي تحت الصوّان القاسي الذي تغلفين به نفسك..
-جساس..

همست مأخوذة الأنفاس وهي ترفع كفها ليقع بتلقائية عل جانبه الأيسر وتحترق اصابعها بحرارة دقات قلبه المنتفضة..

"مالذي يحدث هنا؟"

هدر الصوت من خلفهما بقوة جعلتها تنتفض بذعر وتتسمر مكانها بينما يغمض جساس عينيه ويشتم بحنق قبل أن يلتفت ليرى سيف وأوس يقفان عند المدخل وقد اعتلت النظرات الماكرة وجهيهما وأوس يهتف بغلاظة:

-صوان تعالي هنا..

ركضت صوان نحوه كطفلة شقية أمسكوها بالجرم المشهود واحتمت خلف كتفه تنظر بذنب ظاهر في عينيها جعل سيف يكتم ضحكته وهو يشير لأخيه:

-تعال جساس الغداء جاهز والعمة فاطمة تنادينا منذ مدة، الى متى نظل نكشفكما تقفان في الزوايا؟

-سيف..

هدر جساس بغيظ وذكرى الطفولة تجتاحهم جميعاً...

ابتسامة عريضة تجتاح وجه سيف، وأخرى ساخرة تعتلي وجه أوس الذي أحاط كتفي أخته النحيلة كالقلم بقوة وظفائرها تتهادى على كتفيها وهو يصيح بجساس بغلاظة:

-ابتعد عن طريق صوان يافتى وإلا علقتك من اذنيك.

-صوانة ستكون زوجتي أوس.. فلا تتصرف كحاميها الأوحد لان هذا هو دوري أنا فقط.

صاح جساس بعنفوان.. بطوله الفارع وملامح الفتى المراهق تتشكل في وجهه لاتزال قميصه ملطخة من أثر اللعب مع الفتيان في في المدرسة والمنافسة على كرة القدم كما اعتاد كل ظهيرة، وصوان كان عائدة من المدرسة هي الأخرى وتنتظره بنفاذ صبر لإيصالها في طريقه ولكنه لم يفعل، لقد تأخر عن موعدها وهي سارت وحدها لتنال منه التوبيخ والترقيع..

-لقد انتظرت لنصف ساعة.

صرخت بحنق ليشير لها جساس أن تصمت في حين صاح أوس:

-توقفي عن انتظاره ياحمقاء، أنا سأوصلك منذ الغد.
-ولكن..
رأى الاعتراض في عينيها وخيبة الأمل بينما يرفض جساس:
-لا لا..لن اتأخر عليها مطلقاً منذ الأن..أعدك أوس..أنا سأوصلها بنفسي لاتتعب نفسك خصوصاً أن ثانويتك في الجهة الأخرى من المنطقة.
-انها سنة واحدة فقط وستكون صوان في الثانوية وهذا يعني أنها لن تبقى تنتظرك.
احتقن وجه جساس وقال بغلظة:
-سأذهب لها في مواعيدها.
رأى حينها ابتسامتها الفخورة به، وشعر بالفخر نفسه يجتاحه هو الأخر.
وهو يشعر بالفخر نفسه الأن، بعد مضي كل هذه السنوات لايزال يفخر بصوانته العنيدة، بقوتها وبهائها واشتعالها ويؤمن أنه كله له.. ملكه وحلاله مهما مر من وقت.

عاد للواقع ليرااها لاتزال تتشبث بأخيها وعينيها تتشبثان به هو دون غيره..
احساسه نحوها لم يتغير مهما مرت من سنوات، الشيء الوحيد الذي تغير وتبدل هواحساسها هي، ليس نحوه،، حاش الله ان يكون حبها له قد تغير..
لاتزال مغرمة به، مهما انكرت لاتزال تشي به عينيها وكل جزء منها، كان عقلها هو من تغير..هو يعرف الأسباب ولكنه وبحق الله لايفهمها.
-اذهبي لمساعدة أمي فاطمة صوان.. نحن سنلحق بكم.
-حاضر.
همست لأمر أوس الطيف ثم انتزعت عينيها بصعوبة عن عيني الجساس وركضت خارج المبيت بكله..
شعر بأن روحه هي من تُنتزع منه حال ابتعادها عن عينيه، رمق أوس بوحشية وتقدم يريد الخروج من الغرفة حين أمسك أوس بذراعه بقوة جعلته يقول بإنزعاج:
-مالذي تريده يا ابن العم؟

-أريدك ان تتوقف عن ازعاج الصوان.
همس أوس بتهديد ليستدير جساس ويواجهه قائلاً بحنق:
-أنا أزعجها؟ منذ متى يااوس؟ أنت تعرف مدى علاقتي بصوان.
-العلاقة التي تتحدث عنها انتهت منذ سنوات، أم نسيت؟
ذكره أوس بهدوء ليسحب جساس ذراعه من قبضة قريبه صائحاً:
-لم ينتهي شيء، صوان فقط مشوشة وتحتاج لأن تفكر.. لقد رأيتها منذ قليل أوس هل بدت وكأنها رافضة أو ماشابه؟
-أنت تضغط عليها، تسلط عليها مشاعرك بطريقة فجة وغير مهذبة.
قالها أوس بغضب ليضحك جساس بسخرية:
-أهذا رأيك بها؟ هل تظنها تقبل بي او بتواجدي حولها ان كنت أتصرف كماتقول أنت؟!
ثم تقدم منه وهتف بعصبية:
-صوّان فتاة حرة أوس.. وأنت قبل أبيها ربيتها على يديك، وتدرك جيداً مدى تهذيبها واحترامها

لنفسها قبل أي شخص أخر.. ولست أنا من يتعدى حرمة الرجل الذي فتح بيته لإيوائي منذ كنت طفلاً، ولست أنا من يفرض نفسه على امرأة مهما كانت درجة عشقي لها.

رفع سيف حاجبيه وقال بحكمة:

-أتمنى أن تدرك كل ماقلته تمام الادراك جساس، وأتمنى أن تفعل أكثر بترك صوّان تقرر مصيرها.

انقبض وجه الجساس بسوداوية واقترب من أخيه وهمس بغضب عاصف:

-للصوّانة أن تفكر وتقرر أي قرار يروق لها.. ماعدا قرار زواجها بي، انه أمر تقرر منذ ولدنا.. ولن يكون لها أي شأن به.. لها أن تفكر بمتى وأيــن .. ولكن عدا عن هذا فلا ..أتفهم ياأخي؟

زم سيف شفتيه بتفكير بينما يخرج جساس وأوس ينظر لظهره بإمعان قائلاً لأخيه:

-شقيقك هذا، يوماً ما سيتسبب بقتل نفسه على يديّ أنا.

تنهد سيف بضجر وقد عادت النزاعات القديمة للطفو على الساحة ولم يكن لديه مايفعله سوى

الصمت والعودة للخلف ومراقبة ماسيحدث والتخطيط للتدخل حالما تشتد الأزمة بينهم كالعادة.

***

روما..

لم يكن لديه القدرة على النهوض الغضب والإرهاق والكحول، مزيج قاتل تسبب بتثبيت جسده على الفراش واعاقته حتى عن فتح عينيه، شعر بالسقف يطبق على روحه ويمنعه عن التنفس، الهجر..!!

لقد تركها عند مساعدتها الغبية وخرج ليغرق روحه في الكحول عله ينسى او يتناسى مافعلته به، تركها إياه بتلك الطريقة وإهانتها أمام سييرا، تلك الشمطاء الحقيرة والتي لم تكره في حياتها سواه.

انقلب على جنبه وصرخ بأذى للألم الذي انتشر فيه، وكأن قاطرة مرت عليه، تأفف وأعاد الأغطية على عينيه حين سمع هاتفه يرن، لقد نوى حقاً تجاهل الرنين، ولكنه استمر لمرة ثانية،

وثالثة وفي الرابعة صرخ بحنق والتقطه ينظر لإسم شاهر الباشا بتوتر..

-مرحباً..

-مساءالخير ركان، هل قاطعت شيئاً؟!

كانت نبرته ماكرة تماماً كمايؤمن أن عينيه لمعتا به، ولكن ركان لم يكن بالمزاج المناسب لمضاهية المكر في صوته، ولذا زفر بضيق وقال بحنق:

-لم لم تفعل باشا، مالأمر؟!

التوى فم شاهر بسخرية واتكئ بثقله كله على مقعده الفاخر في مكتبه على قمة أحد أعلى مباني مجموعة شركات الباشا في اسطنبول ونظر عبر الزجاج الهائل المحتل لحائط كامل مقابل للقناة..

-انها بشأن توقيع العقود، لقد حصل طارئ.

نهض ركان واتكئ بمقعده على الفراش متجاهلاً الصراخ المتألم الذي تنضخ به كل عضلة من عضلات جسده:

-ماهو الأمر الطارئ؟ هل حصل تغيير في المخطط؟

-مطلقاً.

قالها شاهر بصوت صريح ثم تلكأ قليلاً مستمتعاً بصوت تنفس ركان المتسارع، قبل أن يبتسم بعمق ويواصل:

-الأمر ومافيه اننا بكرنا في الموعد فقط.. أريدك أن تأتي الى اسطنبول في أول طائرة متجهة الى تركيا.

حرك رأسه بتوتر، كان يخطط أن يفعل مابوسعه لمصالحة تلك العنيدة ولكن الأن ،ملئه العناد والغضب الذي كان يشتعل بداخله طيلة الوقت الأن ازدهر وبات قوياً متجذراً.

-لاتقلق ياباشا..

قالها بقوة ونفض عنه بعض أثار السكر..

-سأكون موجوداً في الموعد، سأتصل لأحجز تذكرتي وسأكون عندك في أقرب فرصة..

-تذكرتك قد تم حجزها.. مقعدك في الدرجة الأولى بإنتظارك فجر اليوم، كن في المطار في تمام الرابعة فجراً ولاتقلق بشأن أي شيء أخر.

قالها شاهر وابتسامة متلاعبة على شفتيه، جعلت جليسته تبادله بأخرى ساخرة بينما تنهي ترتيبات

حجز التذكرة بنفسها وتغلق حاسوبها.. وشاهر يقول بتراخٍ:
-كن عند حسن ظني ياركان، أنت تعرف أهمية الأمر بالنسبة لنا ياقريبي العزيز.
-بالتأكيد.. لاتقلق.
قالها ركان باضطراب وبعد تحية مقتضبة اغلق الخط، نظر شاهر للفتاة أمامه بصمت بينما عقدت هي ساقيها واستندت بخيلاء على المقعد المذهب المقابل لمكتبه وهمست بصوت رقيق حازم:
-هل ارتاح عقلك بعض الشيء؟
-انه قلبي نيـران.. قلبي من يحتاج للراحة وليس عقلي.
ابتسمت الفتاة بسخرية ونهضت تحرك رأسها المكلل بشلال شعر كستنائي كثيف وغرة ناعمة وهي تهمس:
-كنت لأصدق ماقلته للتو، لولا أنني أعرفك ككف يدي باشـا.. أنت لاقلب لك.
ضحك شاهر واستدار في مقعده قبل أن يغادره ليقف أمام الحائط الزجاجي وهو يقول بتنهيدة عميقة:

-انها تستحق استعادة القلب الذي هجرته منذ سنوات نيران، تستحق فعلاً.
وضعت نيران الباشا الأوراق من يدها وقالت بإشمئزاز بينما عينيها تلمعان كمعاني اسمها تقريباً:
-انها مجرد دمية جميلة الشكل فارغة المحتوى ماذا تفرق عن بقيتهن؟
التفت اليها شاهر بجسده كله وفرد ذراعيه هامساً بهيام واضح من عينيه القاتمتين:
-تختلف بكل شيء نيري..كل شيء.
زفرت نيرن أنفاسها وعادت ترتب أوراقها على مكتبه وهي تقول ببرود:
-حسناً أيها العاشق، اتركنا من هذه المناقشة الفارغة ولنلتفت للأمور المهمة التي نخطط لها..
ابتسم شاهر واقترب يحيطها بذراعه:
-حاضر سيدتي الجميلة..كماتأمرين.
وفي الناحية الأخرى.. ترك ركان الهاتف بقلق ثم نهض بصعوبة رمى الأغطية وتكابل على نفسه ليجرها الى الحمام ووقف تحت رذاذ الماء الساخن.

عليه ترتيب حقيبته.. الاتصال بزوجته أينما تكون وتبليغها الأمر قبل أن يسافر، ليس لديه الكثير من الوقت كمايبدو.

ولهذا وبعد حمام قصير استعاد فيه بعضاً من نشاطه أمسك هاتفه من جديد وحاول الاتصال بسارة ليجد هاتفها مغلقاً!!

زفر بحنق وعقد حاجبيه غاضباً ثم اتصل برقم اخر..وبعد رنين طويل سمع صوت سييرا ودون أن يترك لها المجال قال بغضب:

-قولي لصديقتك العزيزة أنني سأسافر لأبدأ الأمر مع شاهر الباشا، وأنني حين أعود أريدها أن تكون في منزلها بإنتظاري وإلا..

وترك باقي الجملة معلقاً وهو يغلق الخط دون أن يترك لها الفرصة حتى لترد..

-لقد أغلق الخط في وجهي..انه سافل عديم الحياء.

صرخت سييرا بغضب لتهتف سارة بتعب:

-توقفي سييرا.

كان قلبها ثقلاً بالهموم، واحساس عارم بالألم حين سمعت صوته عبر مكبر الصوت الذي

فتحته سييرا حال اتصاله، انها تشتاقه بجنون.. ولكنه أذاها بقسوة وهي لن تسامحه بسهولة، ولايجب عليه أن يتصرف معها بهذه الطريقة المتحكمة وكأنها هي المخطئة..

السلطـــانة ليست مخطئة لم ولن تكون مخطئة.

نهضت تدور حول مقعدها ثم تقف مراقبة السمكات الذهبية في حوض السمك الأنيق على طاولة تحت النافذة مباشرة.. كانت أكبر السمكات تدور حول أصغرها بشكل متواصل، والصغيرة تسبح مكانها وكأنها محاصرة ولاتعرف كيف تهرب من حصارها!!

مالذي يفعله بها ركان؟! لم يعاندها بهذه الطريقة؟ عقدت حاجبيها واتخذت أفكارها مساراً مغايراً..

لم لاتقف هي وتواجهه؟ لم تهرب وتبتعد وتختفي عن الأنظار؟ ليست هي المخطئة.

زمت شفتيها بعناد.. بالطبع هي ليست المخطئة.. فلم تتصرف وكأنها واحدة؟!

عقدت ذراعيها حولها وشعرت بمشاعر عديدة تجتاحها، مشاعر غاضبة وعنيفة، لم تشعرها من قبل ابداً في حياتها. ولكنها يجب أن تستجيب لها..

هي لن تقف مكتوفة الأيدي حتى تخسر كل شيء بالاضافة لخسارة زوجها وحبيبها..
ستتخذ قراراً بالوقوف في وجهه ولن تعود عن قرارها مهما يكن، ستقاتل من اجلها ومن أجل حبهما في الوقت نفسه..أخذت نفساً عميقاً وهي تخرج هاتفها من حقيبتها وتفتحه متجاهلة الرسائل الكثيرة التي تشي بكم الاتصالات التي وردتها أثناء غلقه، واتصلت برقم واحد قلما اتصـل بها..
سمعت الرنين لبعض الوقت ثم سمعت الصوت الرجولي القوي هاتفاً بنبرة مرحة:
-مساءالخير ياأختي العزيزة.. كيف تذكرتني فجأة؟
شعرت بغصة تملأوها وهي تبتعد عن أنظار وأسماع سييرا هامسة:
-انا بحاجة إليك أوس.. هناك مشكلة.
عقد أوس حاجبيه وابتعد عن الطاولة الدائرية التي جمعته بسيف وجساس واثنين من الرفاق القدامى في أحد المقاهي المنتشرة على خور دبي وقال بتوجس:

-مالأمر سارة؟ هل ركان معك؟
اغمضت عينيها بألم و همست بيأس:
-فقط تعال الي أوس، أنا بحاجتك الأن..
-أنا في دبي سارة ونحن نحضر لحفل عيد ميلاد امي فاطمة، العائلة كلها ستجتمع تقريباً بعد ثلاثة أيام.
-انا أختك..أحتاجك الى جواري.
صاحت بطفولية ليزفر بنفاذ صبر، لطالما كان تواجدها معهم قليلاً.. ابتعادها عنه وعن أخوته بالتربية لم يكن قرارها بل تم بطبيعة الحال لتواجد أمها شبه الدائم معها.
-تعالي أنت سارة، أجلبي زوجك وتعالي لتمضية بعض الوقت واراحة رأسك.
-لقد وقع شجار بيننا.
همست بخجل لتثار عصبية أوس ويسأل بحنق:
-هل تطاول أو مد يده عليكي؟!
-لا بالطبع لا..
دافعت ليتنهد براحة ويهمس لها:
-اذاً تعالي أنت و هو.. انها فرصة لتصفية الأمور.
-هو ليس هنا.. سيسافر الى تركيا عن الفجر.

قالت بتجهم ليجيبها أوس بثقة:
-اذاً تعالي أنت وهنا ستغيرين الجو، وتلتقين بأسرتك.. ومن ثم نفكر بكيفية تلقين الوغد الذي تزوجتيه درساً في معاملة السلــطانة بجلال قدرها.
ابتسمت ببؤس.. أوس اللاهي.. لايفكر بشيء سوى قضاء وقت ممتع مهما كان الظرف..
-سأتي.. ولكنني بحاجة للحديث معك بشكل كبير.
-تعالي.. صوان وسلمى ستكونان هنا وستفرحين بالرفقة.
-حاضر..سأحجز في أول رحلة الى دبي.
-ممتاز وحينها سنتكلم.
همس لها بحنان ثم اغلق الخط.. نظرت للهاتف بوجوم ثم تنهدت وعادت الى سييرا التي بادرتها:
-ماذا قررتي؟
-سأسافر.
-ستلحقين به؟
نظرت اليها سارة باستخفاف واستغربت ملامحها المرعوبة قبل أن تقول:

-بالطبع لا.. ليست السلطانة من تركض خلف أحد حتى وإن كان الباشا.. أنا ذاهبة لرؤية أخي.

-الكابتن؟!!

صاحت سييرا باندهاش ثم انفجرت ضاحكة لتعقد سارة حاجبيها وتسأل بخشونة:

-مابالك سييرا؟ لم تضحكين؟

توقفت صديقتها عن الضحك فجأة ونهضت على ساقيها تصرخ بانفعال:

-لأنك حمقاء لو ظننت للحظة أن أخيكي بإستطاعته الوقوف ضد ركان، أو حتى مساعدتك في الوقوف ضده.

-أنت تستخفين بأخي..

همست سارة ساخرة.. ثم اقتربت بوجهها منها:

-أنت لاتعرفين من يكون أوس الشيب.. وليس لديك فكرة عما هو قادر على فعله.

تراجعت سييرا بإرتباك وأخرجت سيجارة رفيعة من حقيبتها وهي تهمهم بكلام غير مفهوم، بينما جلست سارة وهي تفكر بخطواتها القادمة.. وسؤال ملح يهاجمها..

هل تخبر ركان بسفرها؟؟ أم تذهب هكذا دون إذن أو حتى خبر؟؟

***

روما..

بعد ثلاثة ايام..

توقفت سيارة الأجرة الصغيرة امام المدخل الصغير للمحل المغلق وترجلت منها ترنيم تحمل حقيبة صغيرة ومن الجهة الأخرى خرجت كمالة بصعوبة..

-لم يكن علينا مغادرة المشفى، لاتزالين ضعيفة.

-أنا بخير، سأكون بأفضل حال حالما أتمدد على فراشي.

زفرت ترنيم بضيق وعدم ارتياح بينما تفتح باب المتجر، وتفسح لها مجالاً للدخول وهي تدمدم:

-انت وأفكارك البالية، تذكرينني بجدتي..

-تحشمي يافتاة.

همست كمالة بصوت أجهده وأرقده المرض باسمة بتعب لتناظرها ترنيم بحنق، ثم ساعدتها ارتقاء الدرج الى غرفتها وحين اقتربتا من السرير اعترضت كمالة:

-لا رنومة سأجلس على الكرسي.
أجلستها بهدوء ثم جلست على ركبتيها أمامها وتأملتها بحذر:
-أتشعرين بألم من اي نوع؟
ابتلعت كمالة ريقها وهمست بألم:
-روحي تؤلمني.. هل تُحسب؟
دمعت عينا ترنيم وشعرت بغصة تخنقها بينما تلامس كمالة وجنتيها وتهمس:
-لاتأبهي بي حبيبتي..انها ترهات عجوز..
-لست عجوزاً..
اعترضت بصوت مخنوق لتبتسم كمالة وتشع عينيها:
-سأطلب منك طلباً لعمتك العجوز جداً..
انتظرت ترنيم بصمت فأشارت كمالة الى صندوق ضخم امام السرير وهمست:
-افتحي الصندوق..
نظرت ترنيم للصندوق الذي ومنذ عرفت المكان كان هنا، ظنته لسنوات جزءاً من الديكور ولم تهتم حتى بمنظره ولابمحتواه، ولكنها نهضت وفتحته بصعوبة..

-أبعدي الغطاء االنايلون..وأخرجي اول رزمة تجدينها وضعيها على جنب ولكن بحذر..
فعلت كانت الرزمة ثقيلة بعض الشيء ثم رات الرزمة تحتها وسمعت كمالة تقول:
-أخرجي الرزمة التي بعدها وضعيها جوار أختها ثم أحضري لي الرزمة الأخيرة.
أخرجت ترنيم الرزمة الثانية وكانت مربعة الشكل ملفوفة بورق بني، ثم الثالثة وكانت ملفوفة بورق شفاف، أخذتها لكمالة والتي أخذتها على ركبتيها ووضعت عليها أصابعها المرتجفة ورات ترنيم قطرات دمع تترقرق على رموشها وهي تهمس:
-كانت لتكون هدية زفافي..
عقدت ترنيم حاجبيها وهي تتابع حركة كمالة في فض الغلاف الشفاف والذي كانت طبقاته متعددة حتى وصلت الى قماش أبيض مطرز بألوان عديدة بنقوش متداخلة، أقمشة متعددة من القطن والحرير مطرزة بالخيوط اللامعة..
-ماهذا؟!

همست متسائلة لتبتسم كمالة وتلامس القماش الناعم:
-انه لحاف زفافي..
رفعت ترنيم حاجبيها بتعاطف بينما ترفعه لها كمالة:
-افرشيه على سريري.. أريد أن ارقد عليه.
حملت ترنيم اللحاف الثقيل ورمقت عمتها بنظرة قلقة قبل أن تبتلع ريقها وتتقدم لفرشه كما أرادت، وبعدها وقفت تتأمله،، النقوش كانت تمثل خيمة بدوية وسط واحة من الأزهار..
-كانت مسكن عائلته، جدته الكبرى حاكته لي بيديها.
همست كمالة بشرود ثم نهضت وخلعت معطفها وحجابها وجلست على طرف السرير متحسسة النقوش الجميلة بأصابع ترتجف وهي تقول وكأنها في وادٍ أخر.. بعيد..
-كمال البدوي.. هكذا كان يناديه أبيكي.. ولكنه لم يكن يخجل من كونه بدوياً، بل كان يقول أنه يزيده شرفاً.
-هل تفتقدينه؟

تسائلت ترنيم بشحوب.. لتبتسم كمالة وتهمس:
-هو لم يتركني لحظة لأفتقـده رنومتي..
ثم تنهدت والتفتت الى ابنة اخيها وقالت مشيرة لباقي الرزم:
-أحضريها وتعالي جواري.
امتثلت ترنيم لطلبها وحملت الرزمتين ووضعتهما جوارها على الفراش..
الصغرى فتحتها كمالة وكانت عبارة عن صندوق خشبي منقوش بأرابيسك عتيق، فتحته وتناولت منه بضعة اوراق ناولتها لترنيم:
-هذه أوراق المتجر والمنزل فوقه.. انها ملكي، وقد سجلتها بيع وشراء لأجلك بنيتي.
-ماذا تقولين؟
صاحت ترنيم بذعر لتشير لها كمالة بالصمت وتهمس:
-لاتصرخي.. واصمتي وانصتي فقط..
جلست ترنيم بصمت وعينيها تلمعان، بينما أخرجت كمالة ورقة أخرى وهمست لها بتأكيد:
-وهذه ورقة تنازل بالبيع لك في كل ماورثته من املاك أبي رحمه الله.

-ولكن عمتي هذا لايجوز..
صاحت ترنيم بااعتراض ولكن عيني كمالة المصممتين لم تتحركا:
-إنها أموالي ويحق لي فعل ماأشاء بها.. لقد كتبت كل شيء أملكه بإسمك أنت ترنيم، أعرف أنك لاتحتاجين لأموالي فوالدك..والدك يهتم بكل أمورك رغم قطيعتكما ولكن.. لن أسمح لك أن تعاني ماعانيت خلال السنوات الماضية أتفهمين..
تعلقت عينا ترنيم بها بينما تخرج ورقة أخرى..
عاجزة عن الكلام او التفوه حتى بحرف:
-وهذه..
قالت كمالة وهي تتشبث بالورقة الأخيرة بقوة وعينيها تذرفان الدموع بغزارة:
-هذه هي ورقة زواجي به..
اتسعت عينا ترنيم بذهول.. ورأتهاكمالة لتبتسم بسخرية وهي تهتف:
-نعم ترنيم.. لقد كان زوجي، رغم كل ماقاله أبيكي من كلمات واهانات وافتراءات في حقي.. أنا وكمال تزوجنا.. لقد فعلنا ذلك في صباح اليوم الذ..

وقطعت الغصة كلماتها قبل ان تسيطر عليها وتهمس:
-صباح اليوم الذي توفي فيه.. كان في المشفى وقتها..
وشردت عينيها بعيداً وهي تدمدم حالمة:
-كان يعرف أنه سيموت.. يومها قال لي.. أن كل حلمه أن يضمني فقط الى صدره.. وأن يموت بين ذراعي..
-كمالة..والدي لايعرف..عليكي أن تخبريه ربما لهذا..
حاولت ترنيم ولكن كمالة لم تعرها اهتماماً..
بل أخرجت أخر شيء من الصندوق..وكان عبارة عن دبلتين.. الأولى ذهبية والأخرى فضية لامعة..
-هذه لي ولكمال..
لم تتسنى له أن يضعها.. ولكنها نُقشت بإسمه،، احتفظي بها يابنتي كماهي.
ثم عانقت دبلتها وارتدتها.. كانت تكبر مقاسها ولكنها قبضت عليها بقوة ووضعت الصندوق على جنب..

-والأن هذا..
ثم فكت الرزمة الثالثة وشهقت ترنيم من فيض طيات الحرير التي فرشت على الفراش، قماش أبيض حريري ملئت به يديها وابتسامة حانية تلتمع في عيني كمالة وهي ترى ردة فعل ترنيم المذهولة..
-انه فستان زفافي..
تسمرالذهول على وجه ترنيم ووجدت ساقيها تتحركان بتناغم الى السرير لتجلس جوار عمتها وتلامس كفيها القماش الناعم وعمتها تهمس:
-اشترته لي جدتك قبل سنوات وانتظرت لارتديه له.. ولكن..
وتركت باقي جملتها معلقاً بخيوط حزن متماسكة قبل أن تتهاوى كلها وتسقط الأقنعة من على وجهها لتغرق في نحيب مؤلم.. ذراعيها تتوسدان القماش المهدور حقه ووجهها تدفنه بين طياته بينما ترتمي ترنيم لتغلفها بذراعيها وهي تشاركها دموعاً لاتدرك سببها وماأهميتها.. كان تشاركاً وجدانياً لظلماً عاشته الاولى ولاتدرك الثانية أنها قد تعاني مرارته قريباً جداً.

بعد انقضاء مرارة الدموع، بوقت لاتدرك إحداهن كنهه ومدى طوله.. استلقت ترنيم تفترش ساقي عمتها والتي كانت تمسد شعرها الناعم هامسة:

-كان لدي شعرك في يوم.. كان طويلاً وناعماً..

وشردت عينيها تنظر لخيال رجل هزيل تكشف له شعرها لاول وأخر مرة في عمرها قبل تلفه رائحة الموت وتخنقها، رجل لم تعشق سواه ولم تكن له او لغيره.. رجل حملت اسمه بكل مافي الكلمة من معنى ولم تحمل جزءاً منه كماتمنت عمرها..

-سترتدين ثوبي ترنيمتي.. حين تجدين الرجل الذي سيجعلك امرأة سعيدة بحق.

-أنا لن أتزوج.

ردت مخنوقة لتجاوبها ضحكة ناعمة من عمتها:

-ستفعلين.. ستجدين رجلاً حقيقياً يدافع عن نفسه وعنك ويحميكي بحياته ويقدمها لك على طبق من ذهب ان أردت، هذا فقط من سترتدين ثوبي له.. سيكون رجلك الوحيد والى الأبد.. ستحبينه وتعشقين تراب قدميه..

-كمالة..!!
اعترضت ترنيم ولكنها لم تعطها الفرصة..
-انهضي واعزفي لي..
همست بنبرة متوسلة..
لتتسع عينا ترنيم وتهز رأسها معترضة ولكن كمالة لم تعطها الفرصة:
-اعزفي لي قبل أن أموت..
-لاتقولي هذا.
صاحت ترنيم بألم فابتسمت عمتها بتسامح وعادت تطلبها بحنان.. فنهضت ترنيم وهي تشعر بالثقل حول عنقها يزداد وأنها لايمكن ان تحتمل بعد..
أخرجت كمانها الذي دفنته تحت كومة من الملابس القديمة قبل سنوات، ممنذ توقفت عن العزف..
فتحت حقيبته وأخرجته.. كمان بلون العاج الغير مألوف بطلب خاص، وأخرجت عصاه الموسيقية وبدات تنظفه بخرقة رقيقة كانت في الحقيبة ذاتها..

راقبتها كمالة بعينين شبه مغمضتين وابتسمت حين بدأت ترنيم تتموضع لبدء العزف..
-أريد أن أسمع اخر وردة صيف..
تنهدت ترنيم واغلقت عينيها بينما تبدأ عزف المقطوعة الكلاسيكية بإحتراف..
كانت نغماتها صدئة لأذنيها.. النوتات الموسيقي متداخلة في عقلها وقلبها بعيد .. أشد بعداً من أي وقت مضى..
ولكن لكمالة..كانت أجمل ماسمعت..
احساس عارم ذلك الذي غلف النغمات وأصابع ترنيم الرقيقة تداعب اوتار الكمان الأربعة بينما عصاتها تتلاعب على الاوتار بدقة لتخرج نغماً حنوناً وعاصفاً في لحظات..كانت موهوبة، وكانت تخشى موهبتها..
رأتها حذرة بالكاد تستسلم لفيض الأحاسيس التي تتلاعب بها وتتركها حائرة ومشوشة..
أخر مرة عزفت لها كان منذ زمن طويل..
ليلة خطبتها على ذلك الشيخ، كانت تطير من الفرح وعزفت وقتها كما لم تعزف من قبل..

معزوفة ملئة بالفرح والطرب، ولكنها الأن..
ملئت بالحزن والألم..
-لم أعد أستطيع كمالة..
قطع تفكيرها صراخ ترنيم وهي ترمي الكمان من بين يديها وتركض الى كمالة لتجلس أمامها:
-انا لا استطيع حبيبتي ارجوك سامحيني..
ابتسمت كمالة بتعب..وضمتها اليها لابأس بك حبيبتي.. تعالي،،
اقتربت ترنيم لتتوسد ضربات قلبها الضعيفة وتهمس:
-أنا لست مستعدة بعد كمالة..
-لابأس عليكي طفلتي.. لابأس عليكي..
بقيت ترنيم بين ذراعيها لبعض الوقت ثم سمعتها تهمس:
-ترنيم انا متعبة..
نهضت كالملسوعة وهتفت بها:
-اتشعرين بألم ما؟
-لا..
قالت شاحبة.. ثم حاولت استعادة بعض قوتها:
-مشطي لي شعري..

اتسعت عينا ترنيم وهتفت مرعوبة:
-أأتصل بالطبيب..هل تشعرين بالتعب؟
-ترنيييييم.. فقط مشطي شعري.
هتفت بارهاق.. وهمست لنفسها:
-اريد رؤيته بأفضل حال.. هيا الأن..
كانت تخيفها كثيراً.. ولكنها لم تعاند ولم تقاتل..
ستفعل ماتريده وبعدها ستتصل بالطبيب.. لامفر.
أحضرت المشط..وبدأت بفك ظفائر شعرها الطويلة.. ثم ساعدتها على الاستلقاء على فخذها وهي تهمس محذرة:
-لن نستمر لوقت طويل..
-لابأس..
اغمضت عينيها وتمتمت:
-ليس لدي وقت طويل..
شعرت ترنيم بجسد كمالة الدافئ يسترخي تحت ضربات المشط الخشبي العريض، كان شعرها يصل لمنتصف كتفيها بينما تخللت لونه الكستنائي الكثيف شعيرات بيضاء متفرقة..
-غداً أحنيـك ياكمالة..

تبسمت كمالة وتمددت على ركبتي ترنيم المفرودتين وهي تهمس:
-غداً.. انه بعيـد..
استمرت ترنيم تمشطها بحنان وببطئ.. والجسد فوق ركبتيها يسترخي أكثر.. يثقل حيناً بعد حين..
مضى الوقت وترنيم تدندن لحناً حزيناً وتداعب خصلات شعر كمالة بمحبة.. ثم فطنت لأمر..
كان جسد كمالة ثقيلاً للغاية..
همهمتها الخافتة كانت ساكنة..
وحتى أنفاسها البطيئة.. توقفت!!
"كمالة؟!"
همست بصوت متسائل خفيض... قبل أن تدرك أن الجسد بين يديها خامد .. حتى الشعيرات التي تلامس المشط.. هامدة وبلاروح..
"كمالة؟؟؟"
عادت تقول وهذه المرة بصوت ملئه الخوف والرعب اختناقاً ليجاوبها الصمت ..
هزتها برفق ولكن الجسد لم يتحرك.. شعر كمالة انسدل عليها وثوبها الأبيض الذي لم ترتديه من قبل يحوط جسدها بنعومة وكأنما يغلفها ككفن

حريري.. وترنيم حينها تكتشف أن كمالة.. لم تعد معها..

"كمالة لاتتركيني الأن"

صرخت بألم وبصوت خفيض..ثم تشبثت أصابعها بقماش ثوب كمالة وبدأت تهزها بعصبية:

ـكماااااااااااااااااااااااالة لاتتركيني..لاااااااا..

كمالة ليس الأن.. ليس الأن لاتتركيني..

كمالة أرجووووكي أنا أحتاج اليكي لاااااااااااااااااااااااااااا

كماااااااااااااااااااااااااااالة...

ورددت الغرفة نحيبها الموجوع بنشيج صامت.. وهي تتشبث بجسد فارقته روحه بسلام.. دون ألم أو مقاومة.. وكأنما تركته راضية بقضاها.. نحو شيء أجمل بكثير.. نحو حياة أخرى .. لاقهر فيها ولاحزن.. لاوحدة فيها ولا ألم...

***

نهاية الفصل

عبير محمد قائد..

ترنيمة عذاب

الفصل السابع

***

وأبحث عنكِ في وجوه الأخرين
عن إحساسٍ عشته في غفلة عن قلبي العنيد
عن رفقة وسط الجمع الغفير
عيون غزال شارد وسط القطيع
أبحث عنكِ كمن يبحث عن أنفاسٍ تائهة
فكرة غائبة
أبحث عنكِ كجوهرة ضائعة
أشتــاق.. كعاشق وحيــد..
ومسافــر بعيد..
اعيديني الى حلم عشته معك.. ولم أعرفه قبلك!
أوقفي بحثي المحموم..
وتعالي إليّ..

***

دبــي، قبل يومين..
لم يمتلئ البيت هكذا منذ سنوات؟! شباب صاخب، ضاحك وطفلين يركضان هنا وهناك بجنون مرح ومشاغب جعل الضحكة ترتسم على الوجوه دون مواراة، لحظات من ماضٍ قديم مر

وانتسى في خضم الحياة اليومية والانشغالات الحياتية للجميع، كانت لحظات لا تعوض.
وقفت السيدة فاطمة أمام طاولة ملئت بالحلويات والمشروبات بين العصائر الطازجة والمشروبات الغازية، والحلويات الشرقية والغربية.. كان احتفالاً بإجتماع أطفالها من جديد..
تابعت بعينيها كيف دارت مباراة كرة قدم بين جساس وحسين زوجها من جهة وأوس وسيف من الجهة الأخرى وفرق التشجيع تتكون من سلمى زوجة سيف وطفليه وسارة أخت اوس وصوان التي وقفت تشجع أبيها بحماس.
تقدم اوس بالكرة ناحية الهدف المحدد خلف عمه بقطعتي حجر ليقطع طريقه الجساس ويختطف الكرة بخفة قائلة بقهقة:
-لقد سمنت يا كابتن وضاعت رشاقة خطوتك.
شتم أوس ونظر لنفسه ساخطاً:
-انها عضلات يااحمق..
تعالت ضحكة جساس وهو يبتعد بالكرة الى حيث وقف سيف حارساً لمرماه صارخاً:
-ان ادخلت هدفاً سأشكوك لوالدي..

ركل الجساس الكرة بخفة وسرعة لتستقر بين الحجرين وتتعالى صرخات صوان المشجعة باستحسان وهتافات سارة وسلمى الحانقة بينما يعتدل سيف وعلى وجهه عبوس وحنق هامساً:

-لقد فعلها مجدداً..

-مالذي تفعله هنا بالضبط؟

واجه انتقاد اوس الحانق لينظر له بتجهم:

-إنه أكثرنا شباباً.. وخبرة بلعب الكرة، نلعب أمامه كجدين ياأوس.

-تباً له انه سريع.

دمدم أوس بحنق وهو ينظر لرقصة جساس الاحتفالية مع عمه امام الفتيات وهز رأسه بيأس وهو ينقل عينيه لرؤية فرحة أخته الصارخة من كل ملامح وجهها وهي تنظر لفتاها بينما تجهمت سارة وسلمى وصرخن باحتجاج.. وقبل ان يعاودوا اللعب تعالت صافرة نظامية والتفت الجميع نحو الخالة فاطمة والتي وقفت أمامهم مشيرة للطاولة الجاهزة:

-تعالوا لتنعشوا أنفسكم قبل البدء من جديد.

-ولكننا نفوز ياعمتي.

اعترض جساس بحنق حين رأى تقافز اوس وسيف نحو الطاولة ليضحك عمه وهو يربت على كتفه:

-لاتقلق يافتى نحن متقدمان بفارق هدفين لن يهزمانا ابداً.

ابتسم جساس بثقة ومضى مع عمه الى الطاولة وعينيه على المقعد المجاور للصوان والذي ما ان اقترب منه حتى احتله أوس بسلاسة وابتسامة ماكرة تلتمع على وجهه ليغير جساس اتجاهه بخفة ويجلس مقابلاً لها وعناده يرتسم على وجهه بينما تخفض صوان رأسها بحرج..

احتلت سارة المقعد جوار أخيها ونظرت للجميع بمرح رغم الحزن الذي سكن قلبها لغياب زوجها عن اجتماع عائلتها وكل ماحدث بينهما.. لقد وصلت ليلة البارحة بعد منتصف الليل، وكان استقبال العمة فاطمة والفتيات مرحباً للغاية بها، وبكل مهارة تجاهلت تساؤلات أوس عن سبب هروبها بتلك الطريقة من روما والتجاءها اليه ناهيك عن عدم تواجد زوجها معها.

ابتسم أوس لأمه فاطمة وتناول منها طبق مملوء بالحلويات الشرقية التي يحبها وكأس ضخم من الشوكولاتة المخفوقة وعينيه تلمعان بجشع بينما يسمع صوت سيف المشمئز:

-ماكل هذا؟ ستصاب بداء السكري ياأحمق.

تجاهله أوس وهو يحشو فمه بالحلويات وحاجبيه يتراقصان بإغاظة، في حين ضحك جساس بمرح وناول طبقه لصوان الصامتة وطلب منها بجفاء:

-اعدي لي طبقاً مما أحب.

ابتلعت ريقها بصعوبة ونظرت بطرف عينها الى والدها الذي كان مشغولاً بسلطان إبن سيف ويطعمه بنفسه ثم عادت لأوس اللاهي عنها بقطع الحلوة التي تطعمه اياها امها بيديها..

-هل سأنتظر مطولاً؟

تمتم بخفوت لترفع عينيها اليه وتضم شفتيها بحنق من الإحمرار القاني الذي غزا وجنتيها وهي تقابل نظرته الملتهبة وعادت تهرب وهي تتشبث بالطبق وتبدأ بوضع الأصناف التي يفضلها ثم تناوله إياها بصمت مقدح، لم يهمه الصمت بقدر مانفخت أوداجه استجابتها الفطرية

وجعلته ينفخ صدره كطاووس وهو يراقبها بلاخجل تصب له فنجاناً من القهوة المرة لترافق الحلوى.

-شكراً جزيلاً..

تناولها بإبتسامة عريضة وخفق قلبه بجنون لملامسة أناملها أصابعه بعفوية وللأثر الذي تركته تلك الملامسة على وجهها فقد احتقن وتغير لونه الأحمر الشهي للون أكثر غمقاً وارتجفت شفتيها قبل أن تعضها بحنق جعله يقهقه بخفوت وهو يغرق وجهه في فنجان القهوة..

"رباااه ماذا يفعل هل جنّ أخيراً؟؟"

فكرت برعب وهي تنظر لجهة أبيها وتعود الى أخيها، جساس كان وقحاً تلك الوقاحة التي تعود لأيام مراهقته، وكأنه لم ينسى.. أو أنها فعلاً تلك الأيام وقد عادت مجدداً؟؟

ارتجفت يديها لتخفيهما تحت الطاولة وقد فقدت شهيتها.. ستكون أياماً طويلة..

استمر المرح والتعليقات المضكة على المباراة التي تصدرها الجساس وعمه ومهاترات سيف وأوس بلاتوقف طيلة فترة بعض الظهر الساحرة

تلك، حتى سمع الجميع أذان المغرب يتردد من مسجد قريب وهنا استقام السيد حسين وأشار للشباب بمرافقته للمسجد وقفز الجساس ليجاوره بينما اندفع سيف لإحضار ولديه للذهاب معهم، أوس من ناحية انتحى على جنب وفتح هاتفه ليتصل بها..

لاترد..

"تباً لكي ترنيم الراجي"

شتم بحنق من تحت أنفاسه ثم أرسل لها رسالة قصيرة وعاد لينضم الى عائلته..

بعد اتمام صلاة المغرب كان الشباب في طريقهم للخروج من المسجد يحوطون عمهم بتعليقات متفرقة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية في البلاد حين تقدم منهم رجل طويل القامة اتجه مباشرة للسيد حسين ومد يده يصافحه بقوة هاتفاً:

-مساء الخير سيد حسين.

رفع حسين الشيب بصره للرجل الاشيب الفوذين الواقف قباله وصافحه بإبتسامة وهو يرد التحية ثم حملت عيناه تساؤلاً ليبتسم الرجل ابتسامة عريضة ويقول شاداً على كفه:

-صلاح الزجالي.. تشرفت بك سيدي.
تبادل الشباب نظرة متسائلة ثم صافحوه بالدور وحسين يقدمهم له بهدوء منتظراً توضيحاً من الرجل الذي قال له حال فروغه من مصافحة الجميع:
-لقد عرفت انك تتردد على هذا المسجد بالذات وقررت المجيئ اليوم لمقابلتك والتعرف عليك بعيداً عن الرسميات.
-مرحباً بك ياولدي.. انه شرف لي..
ابتسم صلاح بتودد ثم اقترب يخاطبه بخفوت:
-الشرف كله لي.. لقد فكرت مطولاً بكيفية اتمام الأمر ولكنني افضل الطرق المباشرة.
عقد حسين حاجبيه وحرك كفيه بحيرة:
-بصراحة ياولدي أنا لاأعرف عماتتكلم؟
ابتسم بثقة وقال دون مواربة:
-أتكلم عن ابنتك، الأنسة صوان الشيب.
اتسعت أعين أوس وسيف وتقدما بحركة متناغمة ليقفا أمام جساس الذي تصلب للحظة، ثم اشتعلت عيناه وهويتقدم لينتزع حنجرة الرجل أمامه ويمزقها بين يديه لتجرأه على نطق اسم حبيبته

الصوانة، ولكنه ارتطم بحائط الصد المكون من أخيه وابن عمه..

-مابالها صوانة؟

هتف والدها بتوتر، فيما أدار صلاح عينيه في الاوجه الثلاثة الناظرة له بتحفظ حذر دون ان تقع على جساس الواقف خلفهم..يكاد يجن..

-ليس بها شيء على العكس، ابنتك مثال يُحتذى به، ولا أنكر عليك لقد قامت بالكثير لاجلي وقد جئت لأظهر لها امتناني الخالص بكل مافعلته.

-أخرج جساس من هنا..

همس سيف لأوس والذي لم يتوقف ليفكر بل التفت نحو جساس الذي كان يرغي ويزبد وجذبه من ذراعه بعنف وجره الى خارج المسجد بينما سيف يلتفت الى صلاح ويسأله بخشونة:

-عما تتكلم أيها السيد؟ وماذا فعلت صوان لك بالضبط؟

نظر صلاح نحو سيف وحملت عيناه حذرها ليهتف سيف بانزعاج:

-أنا سيف سلطان الشيب.. ابن عمها.

اومأ صلاح بتفهم ثم التفت لحسين:

-كان هناك مشكلة يتعرض لها ابني الوحيد.. وقد تعاملت الأنسة صوان بكل اهتمام مع الأمر، لقد انقذت ابني حرفياً ولأنه يتيم الأم.. فهذا الأمر شكل فارقاً مهماً بالنسبة لنا معاً.

-اعتقد أنه عملها وليس بجديد عن الصوانة،ولكن..مالذي تريده بالضبط بني؟

هتف حسين بفضول ليبتسم صلاح ويقدم كيساً بلاستيكياً ضخماً وهو يقول:

-انها هدية بسيطة.. لم أشأ تقديمها لها مباشرة كي لايساء فهمي، ولكنني اعتقد ان رسالتي واضحة الأن.

أخذ سيف الكيس بحذر، ونظر لعمه الذي عقد حاجبيه يفكر بعمق قبل أن يهمس:

-الهدية مقبولة بني.. فالرسول عليه الصلاة والسلام قبل الهدية.

-عليه أفضل الصلاة والسلام.. انه شرف لي سيد حسين.. بالإضافة أنا أريد تحديد موعدٍ أراك فيه .. ولكن هذه المرة أريده لقاءاً اجتماعي أكثر.

تبادل حسين وسيف النظرات المدركة، وعقد سيف حاجبيه بحنق وغيظ.. وقد فهم، بينما عاد

حسين بعينيه للرجل الواقف امامه بثبات وقال بهزة من رأسه:
-بالطبع بني.. أهلاً وسهلا بك في أي وقت.. أعتقد أنك تعرف جيداً كيف تصل إلي.
اتسعت ابتسامة صلاح ومد يده يهز كف حسين بقوة ثم التفت لسيف الذي ظهر جموده وعداءه السافر في عينيه بوضوح جعل صلاح يكتفي بهز رأسه بتحية مقتضبة ثم يتراجع على وعد بلقاء قريب..
-ياله من وقح..
همهم سيف بعنف جعل حسين ينظر اليه بصمت ثم يقول بجفاء:
-لنجد أخويك ونرجع الى المنزل.
-يالهي.. جساس..
همس سيف بخشية بينما ضم حسين شفتيه بحنق وهو يسرع خارج المسجد..
وقبل دقائق حين جذب أوس جساس من ذراعه الى الخارج كان يصرخ بعنف:
-اتركني عليه ياأوس.. ابتعد عن طريقي.

دفعه أوس بقوة حتى أخرجه الى امام السيارات وأسنده الى الكورفيت الحمراء بقوة وهو يهتف:
-لاتكن أحمقاً وسيطر على أعصابك.
-ذلك الوغد يتحدث عن صوانتي ياأوس..انه يكلم أبيها عنها.
صرخ بجنون ليمسكه أوس بإحكام من كتفيه ويهزه بعنف:
-وماذا في الأمر.. انها امرأة حرة جساس، من الطبيعي أن..
-طبيعي؟!
صرخ جساس بذهول وتهدلت كتفاه بينما تشتعل عيناه بالمرارة وهو يصيح بشحوب:
-عن أي طبيعية تتحدث؟! انها صوانتي أوس.. ملكي.. صوان تنتمي لي وليس لأحد سواي.
تراجع أوس وعينيه تلمعان بالتعاطف وجساس يلهث وكأنه ركض لمسافات طويلة مستمراً بالحديث:
-انها صوانتي أنا.. حبيبتي..وحلم عمري، ولن أسمح..ابداً.. ابداً لأيٍ كان بالوقوف بيننا.

قالها بخشونة جرحت قلبه قبل أن تغادر شفتيه وجعلت أوس يغلق عينيه بقوة واحساسه يخبره أن القادم أسوأ بكثير بينما تصاعد صوت سيف بقوة:

-جساس..

التفتا اليه.. وتركزت عيناه على كيس الهدايا وهتف بشحوب:

-ماهذا؟

-لنعد الأن بني.

قالها حسين بتوتر ولكن جساس اقترب من اخيه وانتزع الهدية وفضها بخشونة ثم توسعت عيناه بذهول وهو يرى العلبة الفاخرة للشوكولاتة المميزة التي يحضرها لصوانته..

"رباااه.. لقد أخبرته..؟!"

اتسعت عيناه بإرتياع ولم يقدر إلا على رميها أرضاً وقبل أن يتحرك أحد من مكانه قفز الى سيارته ودون انتظار احد انطلق بها بسرعة جنونية متجاهلاً صرخات سيف وأوس الناهرة.

***

انهمرت بضعة أمطار صيفية منعشة قلبت الجو الحار الخانق الى رطب منعش كسر روتين اليوم ووجد للجميع فرصة للابتسام ولكنه لم يكن يبتسم، أنتهت اجراءاته الجمركية بسرعة وسلاسة ولكن غضبه لم يكن مصدره الرحلة او الطقس، كان شيئاً اكبر وأكثر عمقاً..

كانت هي..

زفر بضيق ورفع حقيبة الكتف التي يحملها بيد والأخرى تحمل حقيبته الأكبر، بينما عيناه تجولان بحثاً عن المندوب الذي سينتظره..ثم رآه..

كان شاباً نحيل الجسم يقف حاملاً لوحة كُتب عليها أسمه بحروف ذهبية أنيقة "ركـان الباشـا"، تقدم منه وهمس بتجهم:

-أنت من أرسله شاهر الباشا لإنتظاري؟

نظر الرجل الى ماخلف ركان وحينها سمع صوت أنثوي حازم يقول:

-أنا من ينتظرك باشا..

التفت ليرتفع حاجبيه وهو يقابل احدى أجمل النساء الذي وقعت عيناه عليهن.. طول مميز،

شعر بني كثيف يصل الى رؤوس أكتافها، وغرة ناعمة تصل الى أعلى عينيها، بشرة بيضاء ناصعة وعينين واسعتين نجلاوتين وشفتين مثيرتين..

رأى حاجبها يرتفع بملل وهي تتابع نظرته المتمهلة على طولها الممشوق وتضاريسها الأنثوية..

-هل انتهيت؟!

قالت بضجر جعله يبتسم قائلاً بسخرية:

-ليس بعد..ربما يمكننا المتابعة على انفراد في مكان ما..

كان يمزح..وكانت تدرك هذا..

لذا مطت شفتيها في شبه ابتسامة ولمعت عينيها بقسوة وهي تمد يدها لتصافحه برسمية:

-نيـــران الباشا..المساعدة الأولى لشاهر باشا..

-نيـــران ها؟!

تسائل بمكر لتزم شفتيها وتتقدمه بحركة ساحرة جعلته يضحك بإستمتاع وهو يتبعها بينما تتكلم هي بثبات:

-لقد حجزنا لك جناحاً في الهيلتون، وسنتركك لترتاح حتى موعد العشاء، حيث ستلتقي بالسيد شاهر لمتابعة التفاصيل بشأن المنصب الجديد ونحدد موعد توقيع العقود.

تابع بعينيه كيف تحرك جسدها الممشوق بدلال في معطف قصير أظهر رشاقة خصرها، بالكاد لامس ركبتيها مظهراً ساقيها المديديتين.

-هل ستكونين هناك؟

توقفت واستدارت بدورة كاملة لتواجهه بإبتسامة رسمية قصيرة ورأسٍ مائل:

-شاهر الباشا لايتنفس بدون استشارتي، بالطبع سأكون هناك.

ثم غضنت وجهها واستدارت عنه وهي تدمدم بجمود:

-وإن استمررنا في تعليقاتك الخارجة عن الموضوع فنحن لن ننجز شيئاً.

رفع ركان حاجبه وأخفى ابتسامته وهو يسرع للحاق بخطواتها والتي قادته الى ليموزين بيضاء سرعان مافتح سائقها الباب لنيران وركض ليفتح له الباب المقابل..

جلس جوارها بعد أن أعطى حقائبه للسائق ونظر لها بطرف عينه ولكنها كانت تنظر عبر النافذة للخارج.. كانت تبدو متباعدة وجامدة، وكم تناقض معاني اسمها المشتعلة..

وضاقت عيناه وهو يشيح برأسه لخارج النافذة، كانت بعيدة مثلها.. السلطانة التي تفننت في تعذيبه واللعب بمشاعره، ام أنه العكس؟!

تجهم واعتدل في مقعده وبلع ريقه بصعوبة..

انه يشتاق إليها..مهما كان غضبه منها.. هاهو يشتاق إليها وبكل ضراوة..

رن هاتفه الشخصي.. أخرجه بلهفة وكأنما خرجت من خلايا مخه لتسكن شاشة هاتفه.. ولكنها لم تكن هي..

-مساء الخير أمي.

زفر بضيق وأمه تنهال عليه بالأسئلة عن نتائج لقاءه بشاهر ومالذي سيحدث بعدها ليقاطعها بخفوت:

-توقفي أماه.. أنا لم ألتقيه بعد..

-من التقيت اذاً؟

تسائلت المرأة بفضول لينظر بطرف عينه الى مرافقته ويهمس:
-نيران الباشا.. تقول انها مساعدته أنا لم ارها من قبل؟
-نيرااان؟؟!! لاتقل أنها نيران ابنة ميرال اوغلو؟!
هدرت أمه بحنق لتدور عينيه في محجريهما ويهمس:
-ومأأدراني من تكون أمها؟
-انها هي بالتاكيد..لا أحد يجرؤ على تسمية ابنته بالنيران سواها، تلك المرأة الحاقدة..
-أمي..
همس بضجر لتهتف:
-اسمعني جيداً بني.. ابتعد عن نيران الباشا..لو صدق حدسي فهي نار حية ستحرقك حياً.
-لاتقلقي امي..أنا لدي ناري الخاصة التي تحرقني بالفعل ولا أنتوي أن احترق هنا كذلك.
دمدم بجمود وعيناه تغيبان في ذكرة السلطانة التي تعذبه لتخترق ضحكة أمه أذنيه وهي تهمس بسرور:

-لاتخف بني، تلك السلطانة ستعود زاحفة على ركبتيها إليك حالما تنفذ ماخططنا له.
التوى فمه بسخرية من فكرة وجود السلطانة راكعة أمامه..
هو من سيركع..
رباه كم يدرك هذه الحقيقة وكم يخنقه هذا الإدراك..
أسند رأسه وأغلق عينيه وهمس بإعياء:
-وداعاً أمي.
تجاهل صراخها ألا يقفل واغلق الخط.. ثم ورغماً عنه حامت أصابعه تبحث عن حروف اسمها لتطالعه صورتها المحفوظة وهي بكامل القها ليلة زفافهما وطرحتها البيضاء تغطي جبينها وشفتيها تلمعان بإغراء.. تنهد بعمق متذكراً حلاوتها تلك الليلة.. عذوبتها وهي تهمس له بكلمات حب لم يسمعها من قبل، تلمسه بطريقة لم يشعرها قبلاً.. تثير أحاسيسه كما لم يحدث أبداً مع أي امرأة..
" أحبكُ.. وأشتاقُ إليكي"
كتب بعاطفة ثم أرسله متنهداً..

وهناك .. في دبي..
سمعت رنة الهاتف لوصول رسالة وحال فتحتها اتسعت عينيها بصدمة..
وتاهت في صورته التي ظهرت امامها.. عيناه اللتان تأرجحتا بيم الأزرق اللازوردي والأخضر، وشعره الذي تجعد بفعل حمام سريع في الصباح التالي ليوم زفافها، تلك الليلة التي حملها بها بين ذراعيه الى أفاق تقارب النجوم، وقال لها وليس عن طريق الكلمات فقط كيف يمكن لرجل ان يعشق امرأة بجنون..
تألقت عينيها وهي تقرأ كلماته القصيرة وتسمعها بصوته حتى كاد يلامس أذنيها.. همسته الخشنة التي ترافق حركة أصابعه البطيئة وهي تستكشف نعومتها، وتثير مشاعرها نحو القمة..
نهضت بحركة مرتبكة وعدلت وضع حجابها وهمست بصوت مخنوق لصوانة التي كانت تجلس وإياها في الحديقة الخلفية للفيللا بإنتظار عودة الرجال من الصلاة:
-سأعود لحجرتي قليلاً..

لم ترد عليها الصوانة التي كانت تائهة في أفكارها الخاصة هي الأخرى.. وأسرعت سارة ركضاً الى الباب المؤدي للبهو ومنه للسلالم حين فوجئت بذلك الأسد الغاضب يعترض طريقها..

اتسعت عينيها بذعر وهي ترى جساس محيوان هائج.. وتذكرت الماضي بلمحة جعلتها تشهق وهي تسأله:

-مابالك جس؟

نظر لها وصاح بجنون:

-أين هي؟

لم يعطي حتى اسم من يبحث عنها ولكنها تعرف.. بالتأكيد هي تعرف.. لذا وبدون اصدار صوت اشارت للباب خلفها فتركها جساس فاغرة الفم تنظر بإثره بخوف متسمرة..

أسرع نحو الحديقة الخلفية بخطوات واسعة قاربت الركض.. لقد منعه أخوته عن ذلك الغريب ولكن لاأحد.. لاأحد سيمنعه من معرفة الأمر من كل جوانبه من صوانته..

-صواااان..

انتفضت بذعر ونهضت وهي تعقد طرحتها عليها كيفما اتفق بينما عينيها تتسعان بذهول مراقبة جساس الثائر وهو يتقدم.. كان جسده الطويل كله ينتفض.. قميصه الأبيض فصّل كل عضلة من عضلاته وقد التصق بجذعه المتعرق وكأنما قادم من معركة.. ووجهه كان قصة أخرى..

كان أسوداً.. حاقداً.. غاضباً للغايــة..

عيناه الضيقتين توسعتا حتى ظهرت الشذرات الذهبية لحدقتيه العسليتين بوضوح وجعلتها ترتجف وهي تراه أقرب من أي وقت مضى لأسد غاضب جامح.. بدا تماماً كما كان في حفل خطبتها قبل سنوات..

-ماذا هناك؟

-من يكون؟!

هدر بغضب اجابة لتساؤلها الخافت فتوسعت عينيها أكثر وتراجعت بذعر حقيقي وقلبها يكاد يتوقف وهي تحاول ايجاد صوتها الذي خرج متحشرجاً:

-من؟!.. عمن تتكلم؟

توسعت فتحتي أنفه واقترب خطوة لتتراجع مثلها وهو يحشرها بينه وبين الطاولة الخيزرانية التي كانت وسارة تجلسان حولها:

-الرجل الذي أخبرته سرنا صوان، الرجل الذي قلت له عن أمرنا الخاص.. الوغد الذي اعترض عمي حسين وتحدث عنك ! تحدث عن امرأتي؟!!

كان صوته يتقلب بين الغضب العارم واليأس المؤلم مراقباً ذهول عينيها..

مالذي يقوله؟ وعمن يتحدث؟؟

-أنا لاأفهم؟؟

نسي جساس كل شيء.. نسي الحدود التي تربى عليها واقترب منها يمسكها من مرفقيها بقوة وعنف جعلها تشهق بألم وصدمة بينما يزعق بجنون:

-أنا كنت واقفاً جواره صوان، كنت هناك بينما ذلك الوقح يتحدث عنكي أنتِ؟!! ينطق اسمك ويقدم لكِ الهدايا!!

صرخ عبارته الأخيرة وكأنه يبصقها.. بينما صوان تحاول التخلص من قبضتيه وهي تصرخ:

-مالذي تقوله؟؟ عن أي رجل تتحدث ماهذا الهرااء؟؟

شدد جساس من قبضته وجذبها إليه حتى تكاد تلتصق بصدره العريض وهي تشهق بإنفعال وراحتيها تستقران على صدره تشعران بأنفاسه المتلاحقة بجنون بينما هو يهمس بحروف مخنوقة:

-من أخبره صوان.. من أخبره عن حلواك المفضلة؟؟ من اخبره عن أمرنا الصغير، الشيء الوحيد الذي لم يتجرأ سيف ولاحتى أوس على المساس به.. من أخبره إن لم تكوني أنت؟؟

-شششششش..لاتقل المزيد..توقف.

همست بشحوب ترفع أصابعها لتضعها على شفتيه.. تمنعه من ارتكاب المزيد من الحماقات او حتى مجرد النطق بها، هزت رأسها نافية التهم التي يلقيها عليها بلارحمة وهمست بألم:

-أنا لاأعرف عماتتحدث.. ولكنني أقسم لك..أقسم لك أنني لم اخبر احداً أبداً، وأنا لم ولن أقبل من أي احدٍ سواك أنت.

توسعت عيناه بلهفة وهتف بيأس:

-اذاً من يكون..ماذا جاء يفعل؟ وكيف.. كيف عرف؟
-لاأعرف.. صدقني أنا لاأعرف..
هتفت بإنهيار ثم توسلته حين رأته يغلق عينيه بقوة:
-أرجوك جسااس.. أرجوك اتركني، أنت تؤلمني..لو رآك أحد.. لو أتى أبي..
-أنا احبـك صواانة...
هتف بأنفاس مخطوفة وفتح عينين تلمعان بقوة وكأنما حُبست وراءها دموع غزيرة تفجرت من عيني صوان شاهقة بمرارة بينما يواصل هو بنفس الطريقة:
-أحبـك وأغاااار.. ياويلي كم أغاار عليكي حبيبتي..
انفجرت باكية تنشج بصوت متألم ليسند جبينه اليها وهو يغمغم بوجع:
-توقفي عن إيذائنا.. توقفي عن قتلنا معاً.. أنا أموت صوانتي، أموت حباً وشوقاً ولهفة إليكي فكيف...

وفتح عينيه لتقعا في عينيها المذهولتين الغارقتين بالدموع، ليغرق هو الأخر في عسلهما المقطر وتنساب حروفه لينة ناعمة وكأنما تخرج من عمق مشاعره صافية لاتشوبها شائبة:

-كيف لاتشتاقين لي؟! لاتتوقين لتكوني معي؟

-جسااااس..

همست بعذاب وهي تهرب من عينيه ليهزها مرة أخرى وهو يغمغم وقد بلغ به اليأس مبلغاً:

-كفى عناداً.. كفى هرباً مني ومن حبنا، توقفي عن ارتكاب جرائمك ضدي وضد قلبي، توقفي عن صدودك وعودي الى رشدك ولي صوانتي..

-لا أستطيع..

هتفت شاحبة.. تخلصت من قبضته وتوسلت دموعها اليه أن يرحمها من عذابها الذي تعيش فيه لسنوات، والذي نخر عظامها وبدد أحلامها الواحد تلو الأخر..

-أنا لاأستطيع أن أكون معك جساس.

عادت تهتف بعذاب لتتسع عيناه بذهول قبل ان تركض هرباً منه، من عينيه ومن مشاعره التي تجلدها بسوط الألم ولاترحمها.. وقف خلفها ينظر

أثرها لايصدق أنها كانت قريبة الى حد أن يشعر بنعومة جسدها ودفئه مقابل برودة جسده التي قتلته، لايصدق أنها كانت عملياً بين ذراعيه قبل أن تهرب بنفسها وتنأى بعيداً عنه.. تهجره وقد وجدها قريبة للمرة الأولى منذ سنوات؟!

أما هي فقد ركضت والدموع تغشى عينيها حتى وجدت أوس ووالدها وخلفهما سيف، وكان أوس أول من اقترب وأدارها ليخفي وجهها ودموعها عن والدها وهو يهمس بخشونة:

-سأحطم وجهه.

-لا..

همست وهي تمسح دموعها بكفيها وتأخذ نفساً عميقاً بعد الأخر قبل أن تستجيب لنداء والدها الخافت وتنظر اليه، نظرته اليها حملت تعاطفاً وتساؤلاً قلقاً لتقترب منه تنظر الى الكيس بين يديه:

-أهذا لي؟

كان صوتها مخنوقاً بينما اومأ والدها وهو يقول:

-رجلٌ ما.. لا أعرف من يكون ولكنه يدعى صلاح الزجال قد اتى وترك لك هذا، قال بأنك عملياً قد قمت بإنقاذ ابنه؟!

-انه طفل بالحضانة..

همست بشرود.. ثم أخذت الكيس من والدها ونظرت لسيف الحذر قبل أن تقول بحزم:

-لدي ما أقوله لإبن عمي المضطرب.

عقد أوس حاجبيه بينما تنهد والدها بضجر وسيف يهتف بخسونة:

-هل اتي معك؟

-لا.. انها مسألة تخصني سيف.

وقبل أن يتحرك أحدهما كانت تعود أدراجها.. عبر البوابة الفرنسية الى الحديقة الخلفية وحيث كان الجساس لايزال في مكانه وان جلس على كرسي قريب وأسند رأسه على قبضتيه المكورتين بقوة..

-جساس..

هتفت بحدة ليرفع رأسه اليها بسرعة، لم تشأ الغوص في معمعة التفسيرات والدموع، لذا ودون مقدمات..

-انه والد احد الأطفال وأنا ساعدته كثيراً، ولذا أرسل الهدية للشكر فحسب..

صمتت لتلتقط أنفاسها ثم تهمس مخنوقة:

-لقد عرف عشقي لهذا النوع بالذات لانه كان في المكتب قبل أيام حين أرسلت لي الزهور والعصافير، لقد رأى فرحتي ولابد أنه استنتج الباقي.

-ماذا ستفعلين به؟

تسائل بخشونة لتأخذ نفساً عميقاً وهي تكاد تحطم رأسه الغبي المتصلب:

-أنا لا اريدها..

وقبل أن يدركها كانت ترميه على الأرض أمامه، تحت ساقيه وهي تضيف:

-انا لم ولن أقبل تلك الشوكولاتة من أحد سواك ولن أفعل.

رفع حاجبيه للحظة بينما تستمر هي بصوت تقطع بين شهقاتها:

-انها تحت قدميك.. افعل بها ماتشاء، وانا..أنا ..

وقبل أن تقول المزيد كان يرفع قدمه ليسحقها تحت حذائه باهض الثمن لتنتفض صوان وعينيها

تتسعان بينما الجساس يحتجزهما في عينيه اللامعتين بحقد:
-سأسحقها هكذا، كماسأفعل مع أي أحد يفكر مجرد التفكير بالإقتراب منكي ومحاولة الحصول على مايخصني صوانتي.
انسابت دموعها بصمت وهي تراقبه يغيب عن عينيها بخطوات واسعة تبعده اكثر وأكثر..
شعرت بمن يقف خلفها وعرفت أنه أوس..
التفتت اليه سيطرت على دموعها قبل ان تسقط على وجنتيها والتفتت لمقابلته ليهمس من تحت أسنانه:
-هل لدي الإذن الأن لتحطيم وجهه؟
ألقت صوان بنفسها بين ذراعيه ونشجت بقوة وهي تهمس بألم:
-لم أعد أحتمل هذا الألم أوس، إنه موجع للغاية أخي.
ضمها أوس بقوة.. وشعر بألمها الكبير عقله يتراجع بأسى ويلومها بصمت بينما قلبه المحب يخبره ان يذهب ليدك عنق جساس ويريحهم منه جميعاً..

أخذها لغرفتها بعدها.. كان عليها ان تسيطر على نفسها قبل أن تواجه أفراد أسرتها على العشاء.. عليها ان تأخذ نفساً وتجبر جرح قلبها..

تركها ونوى النزول حين مر جوار غرفة أخته الأخرى.. وسمع نشيجها المتصاعد..!!

وقف زافراً بضيق وتقدم ليطرق باباها قبل ان يدخل عليها وهو يصيح:

-ماذا فعل بك زوجك أنت الأخرى؟؟

نظرت له سارة مدهوشة وقد تكحلت وجنتيها بالدموع ولم تجد الفرصة لتمسحها حين أغلق الباب خلفه وتقدم ليجلس جوارها عاقداً ذراعيه على صدره هامساً:

-أخبريني..

أخذت نفساً ومضت تحكي له بخفوت عما حدث بينها وبين ركان، كلماتها متعثرة متقلبة..وأوس ينصت بصبر حتى انتهت قائلة وسط دموعها:

-لقد غادر دون أن يودعني حتى، تحالف مع عدوي، تركني ورحل.

-ألاترين أنك تبالغين قليلاً..

قالها أوس بعد تفكير.. لتنظر له بإستهجان.. فرفع ذراعيه يطالبها بالهدوء ثم نهض ووقف أمامها:
-أنا ومنذ البداية لم أستسغ ركان ولاتقربه اليكي بينما يعمل تحت امرتك سارة، الجميع نظر اليه وكأنه مجرد علقة يبحث عن الجائزة الكبرى..ولكن الأن..
وشاب عبارته بعض التردد لتصرخ باستنكار:
-أنت تقف لصالحه؟؟
-لم أعني هذا ولكنني اعتقد أنه يبحث عن تحقيق ذاته بعيداً عنك.. وهذا جدير بالإحترام.
قال بهدوء لتصيح بحنق:
-لقد تحالف مع اعدائي.. لقد خانني.
-أنت تخلطين العمل بالعلاقة بينكما، وهذا ليس حسناً أبداً..
رد بجمود لتضحك بسخرية ثم تهمس بحقد:
-أنتم الرجال.. لاأصدق أن أخي من لحمي ودمي يقف معه ضدي؟؟
ضحك أوس واقترب يحوطها بذراعه:
-انه موقف عام سارة، من ناحية أنا أريد أن أصرعه الأن فقط لأنه تسبب بتكديرك وإسالة

دموعك الغالية.. ومن ناحية أخرى أنا أريد مصافحته لأنه يبحث عن ذاته بعيداً عنكي.
زمت شفتيها بحنق ليبتسم بحنان ويضيف:
-لاتتصرفي بحماقة.. أنت تحبينه، فلاتفقديه لبعض الأفكار الغبية والكبرياء الأحمق.
ثم بعثر شعرها ونهض:
-سوف أنزل للبقاء مع أخي وعمي والبحث عن البغيض الأخر ثم سنلتقي جميعنا على العشاء.. ولاتنسي أن تنامي جيداً الليلة فغداً سيكون يوماً حافلاً.
اومأت له بتفهم، فتراجع الى الباب وغمز لها بعينه قبل أن يخرج ويغلق الباب خلفه.. تنهد بعمق ودمدم بعصبية:
-واحد أخر في قائمة المطلوبين، تباً لم كان علي أن أحظى بأختيـن؟ لِمَ لم أكتفي بزوجٍ من القطط!!

***

-تفضل باشا أنهم بإنتظارك.
أخذ ركان نفساً عميقاً وتأمل بدلته الفاخرة بعين تقيمية، السترة الرمادية الحريرية ملتصقة

بعضلاته تقريباً بينما قميصه الأبيض بتقليماته الرمادية الرفيعة يتناسب مع ربطة عنقه الفضية والسوداء بأناقة.. كان إجتماع قمة وكان يجب أن يكون على مستوى الحدث.. وكان عليه أن يتأخر قليلاً عن موعده..

هكذا اعتاد.. أن يكون محل الأنظار وموقع الحدث!!

دخل الى صالة المطعم الخاصة بالفندق الذي نزل به ولفت نظره خلوها من الرواد ماعدا طاولة مستطيلة في الوسط تعلوها الثريات الضخمة وتنيرها بشكل مفرط.. ابتلع ريقه حين رأى الطاولة تعج بالرجال النافذين.. وأدرك بلمحة أنه لم يكن أخر الواصلين..

شاهر الباشا ومساعدته المشتعلة لم يصلا بعد..!!

زفر مطولاً وحار فيما يفعل.. هو لايعرف أحد من الموجودين ووقوفه هنا وحده بينما ينظر الجميع نحوه بالانتظار.. شعر بالدماء الحارة تتدفق الى خديه والغضب يتصاعد من داخله..

النادل يقف خلفه وهو يهمس:

-تفضل باشا..

-ولكن..؟؟
همهم باضطراب وتلفت حوله وقد ارتدت محاولته الفاشلة للظهور بمظهر الواثق والقوي من نفسه عليه..حين..
-أرى أنك قد وصلت أخيراً..
التفت للخلف بإرتياح ورأى شاهر الباشا تتعلق بيده تلك النار المستعرة في ثوب ماثل اشتعالها تأججاً وابتسامة ساخرة تتألق على شفتيه بينما شاهر يواصل بسخرية باردة وعيناه تقسوان:
-لاأحد يخلف مواعيده مع الباشا ركان، ولاأحد يُقبل في طاولة بعد جلوسي عليها.. حتى وإن كان ضيفي أتفهم؟!
احتقن وجه ركان واومأ رأسه بحرج بينما يتقدمه شاهربخطوات واسعة واثقة ترافقه نيران وهو يتبعهما برأسٍ منحنٍ بحرج..
وقف شاهر على رأس الطاولة وحيا الجمع الذين نهضوا لإستقباله بالابتسامة المقتضبة ثم سحب كرسياً على يمينه لنيران التي جلست بخيلاء ورفعت رأسها بإبتسامة ناعمة له قبل أن يتدير

للجميع ويشير لهم بالجلوس ثم قال بصوت جهوري:
-الجميع هنا يعرف بأمر الشراكة والعقود التي سيتم توقيعها للشركة الاعلامية الجديدة للمجموعة، والجميع تقريباً يعرف بإختيارنا السيد ركان الباشا.. ابن عمي ليتولى أمر قيادة الشركة الجديدة وتحديد اتجاهاتها، وذلك بالطبع بمساعدة جميلتنا.. نيران.
اومأ الجميع وهمهموا موافقتهم ليشير شاهر لركان ان يقترب وحالمافعل وضع ذراعه على كتفه.. كانا متماثلين في الطول وان كان شاهريتميز بعرض كتفيه عن قريبه الذي ابتلع ريقه ووقف كتلميذ مدرسة أمام باقي الرجال:
-أعرفكم على ركان الباشا.. قريبي.. ركان هؤلاء هم مجلس ادارة المجموعة.. معظمهم أقرباء لنا ماعدا القلة القليلة.
اومأ ركان برأسه للجميع ثم جلس على يسار شاهر في المقعد الشاغر قبل أن يجلس شاهر عى رأس الطاولة وتبدأ أحاديث عامة بالسيطرة على جو العشاء.. كان يراقب الجميع بحذر وبالكاد يرد

على التساؤلات المستمرة بلاتوقف.. كانت نشأته بعيداً عن أجواء العائلة وابتعادهم عن تعاليمها وثروتها لسنوات طويلة بعد هروب والده من سيطرة الباشا الأكبر وتحديه لتقاليد العائلة كلها، يثير فيهم التساؤل والفضول..

والده الذي فضل الركض وراء حلم الشهرة متتبعاً موهبته في الرسم والذي قضت عليه فقيراً قبل أن يستطيع أن يؤمن حياته وحياة والدته.. والتي قضت حياتها فيما بعد محاولة رأب الصدع، واعادة المياه الى مجاريها ولم تفلح الا بعد أن قدمت الكثير والكثير من التنازلات والتضحيات ليقبل شاهر الباشا بإعادة ركان الى كنف العائلة.

دار الحوار بطريقة سلسة يقودها شاهر ونيران بسحر، وركان يجيب على أسئلتهما والباقين بإقتضاب.. كان متوتراً وبالكاد يستطيع ابتلاع اللقمة بعد الأخرى وهو يشعر بها غصة تحتكم حلقة..

مال شاهر نحوه وهمس بإبتسامة:

-حاول أن تخفي ضيقك وتكدرك ركان.

نظر له ركان بصمت بينما عيناه تبرقان وشاهر يواصل بإبتسامة مرسومة بعناية:
-انت ستكون رأس شركة إعلامية تمثل مجموعتنا العالمية ياركان، أنت ستكون واجهتنا اللامعة وعليك..
وأشار نحوه بشوكة الأكل الفضية الأنيقة هامساً بجمود:
-عليك أن تكون لامعاً ككريستال لم تمسه إصبع.
قالها وتراجع عائداً يستند بظهره للمقعد وعاد ركان بنظره لطبق طعامه.. وأخذ كأس النبيذ أمامه وتجرع نصفه قبل أن يرفع عينيه لتقع في عيني نيران التي ابتسمت بسخرية ورفعت كأسها لشفتيها ترشفه ببطئ..
تنهد وعاد يولي اهتمامه للحوار الدائر على الطاولة حوله وبدأ ينسجم شيئاً فشيئاً..
فمالت نيران نحو شاهر ووضعت كفها على كتف هامسة:
-صديقك يدخل في الجو..
-جيد لأنه إن لم يفعل فسأركله خارجاً وأنسى كل شيء عن هذه الصفقة المجنونة.

ضحكت بإستمتاع وعادت لطعامها بينما راقب شاهر بهدوء وصمت مايحدث حوله وتبسم بثقة لمجلس ادارته.

امتدت السهرة حتى بعد منتصف الليل.. وفضها شاهر بضحكة مرحة طويلة ثم اعلن ببساطة ان الوقت قد حان للعودة للمنازل وأن بإنتظارهم يوم عمل طويل في الغد..

والتفت لركان الذي كان قد بدأ بالإسترخاء بعد كؤوس الشراب وارتياحه الجزئي للحديث الدائر..

-موعدنا غداً في الثامنة والنصف.. تعال في موعدك ركان.. وإلا لاتأتي مطلقاً.

حذره شاهر بخفوت ليأخذ ركان نفساً عميقاً ويومئ برأسه:

-لاتقلق باشا.. سأكون هناك قبل موعدي.

ابتسم بسخرية ثم التفت لنيران التي اقتربت وقد اشتعلت عينيها بنظرات مثيرة واستندت على جذع شاهر الطويل وهمست بإثارة:

-غداً سيكون يوماً مرهقاً.. هل تأذن لي بالتأخر باشا؟

قلب شاهر عينيه بإمتعاض وهمس:
-أنت ثملة نيران.. تعالي سأخذك للمنزل.
حركت أصبعها امام وجهه في حركة متثاقلة ثم همست:
-الليلة سيأخذني ركاان..
اتسعت عينا ركان بينما عقد شاهر حاجبيه وهمس بقسوة وهو يقبض على معصمها:
-أبداً، الليلة ستأتين معي وستكفين عن حماقاتك وإلا صفعتك على مؤخرتك كالأطفال.
-اترك يدي شاهر.. أنت لاتقدر علي.
-أعرف تماماً من يقدر فلاتجبريني على الاتصال به نيران.
شحب وجهها وتراجعت وقد عقدت لسانها الصدمة، بينما لم يقدر ركان الا على الاستماع للتهديد المبطن ورأى في الحال كيف استسلمت نيران لقبضة قريبها وهو يغمغم وداعه بكلمات مقتضبة ثم يغيبان عن الأنظار خلف الزجاج العاكس لليموزين مظللة..
تنهد ركان وتثاقلت ساقاه الى المصعد ليأخذه الى جناحه وهناك استند برأسه على المعدن اللامع

وهو يحذر نفسه بكلمات قاسية من مغبة ماسيحدث له من جراء انخراطه في عالم الباشوات إن لم يكن على قدر المسؤولية والثبات الذي من المفترض عليه أن يكون.
الأيام القادمة ستكون مرهقة كماقالت نيران ورغم الأسرار التي تجمعها بإبن عمها فهذا لايعنيه بأي شكل من الأشكال انه هو في مهمة محددة.. ولن يحيد عنها مهما كانت الإغراءات.
***
-العشاااء جاهـــز..
سمع أوس نداء امه فاطمة فتوترت نظرته وه يواجه الرد المستمر بأن الهاتف الذي يطلبه مغلق، أو خارج نطاق التغطية.. شتم بحنق واعاد هاتفه الى جيبه ثم تقدم الى الحديقة الخلفية حيث أعدت أمه مائدة واسعة وخلفها تقف الشواية الضخمة بنار حقيقية يقف عليها سيف وعمه حسين بينما يحوم الطفلين حولهما بصخب وسلمى وسارة وصوان تفرشان الأطباق على المائدة بينما تشرف امه فاطمة عليهن بمرح..

-تعال أوس وانقل هذا الوعاء من الشراب الى الطاولة الأخرى.
اومأ لها بابتسامة وتقدم ليفعل ماطلبته أمه بينما صاحت هي:
-وأين هو صغيري؟
توترت أعصاب صوان واهتز الطبق بين يديها وكاد يقع لولا سندتها سلمى بإبتسامة حانية ثم أخذت ماتحمله منها ووضعته على الطاولة..
لتشيح صوان برأسها هرباً من عيني زوجة قريبها وعينيها تبحثان عن سبب السؤال والتمعت النظرة الحانية في عينيها وهي تراه يقترب بخطوات متثاقلة ويقترب من أمها التي ربتت على كتفه وقادته ليجلس جوارها على المائدة، كان وجهه متعكر لايزال غاضباً من كل ماحدث، ولقاءه بذلك الرجل لن يمر مر الكرام.. رغم مافعلته صوان بهديته إلا أن في القلب لاتزال غصة مريرة تؤرقه!!
تنهد وجالت عيناه في وجوه أفراد العائلة.. حسناً البعض منهم..
-تناول طعامك بني.. انها المشاوي التي تفضلها.

همست عمته بحنان فنظر اليها ومط شفتيه رافعاً كتفيه بحركة سريعة وهو يدمدم:
-لاأشعر بالجوع..
-لا لا لا لا ...
صرخ كلاً من أوس وسيف بحنق بينما لم تقدر صوان على كتم ضحكتها والتي لفتت عينيه اليها كالمغناطيس بينما سيف يرد على تساؤل زوجته بسبب اعتراضهما المشترك بقوة:
-انه يفعل هذا كل الوقت.. كان يتعذر بعدم رغبته بالاكل حتى تطعمه عمتي بيديها، وينال الافضل والاكمل..
-ولكنه كبر الأن.. وكان من المفروض أن تقوم زوجته بهذه المهمة.
قالتها العمة بحزن، وصمت الجميع.. والعيون تتجمع نحوها لترفع لهم ملامح شاحبة،وعينين غائمتين بذكرى مضت منذ سنوات.. لاجتماع مماثل ودارت الطاولة بها.. وجساس ابن الثالثة عشر يتجهم ويرفض تناول لقمة غداء واحدة..
-هيا بني.. كل هذه مني.
همست فاطمة بحنان ليصرخ بحنق:

-لاأريد.. أنا لاأشعر بالجوع.
-كل طعامك يافتى وتوقف عن المهاترات الحمقاء.
صاح به سيف زاجراً ليضرب قدمه على الارض وينهض صائحاً:
-قلت لا..
ثم ابتعد ووقفت هي خلفه تقول بارتباك:
-انا سأخذ له طبقه هو لن يرفض تناول الطعام مني..
ابتسمت لها امها بحنان، كانت تقارب السادسة عشر من عمرها، طويلة القامة هيفاءها الى جوار أخيها وابني عمها سيف وجساس.. ورغم صغر سنه وقتها الا أنه كان يماثلها في الطول وان فاقها حجماً بسبب الرياضة المستمرة التي يصر على مزاولتها والتي بسببها رفض تناول غداءه اليوم..
-صوان بنيتي.. ان كفه مجروحة.. ولهذا رفض الاكل.

همست لها امها ونظرت صوان الى أوس اللاهي بطبق طعامه وهي تدرك أن جساس لم يرفض الاكل الا بسبب سخرية أوس المتواصلة منه..
أخذت الطبق اليه..كان يجلس في الحديقة الخلفية على جذع شجرة قديم، عدلت طرحتها التي لم تعتدها عليها بعد.. وتقدمت نحوه لتجلس جواره هامسة:
-لقد أحضرت لك الطعام.
التفت اليها ثم لانت ملامحه المكفهرة وهمس :
-لست جائعاً..
وضعت الطبق على الأرض..وامسكت كفه بين يديها وفردتها رغم احتجاجه ووصوت تأوهه، شهقت بألم لرؤية الدم المتجمد والجرح البشع الذي مزق لحم راحته لتسيل دموعها ألماً عليه فيقترب ويصيح بها بخشونة:
-لاتبكي.. انه مجرد جرح سخيف.
-هل تتألم؟
همست باكية ليبتسم ابتسامة عريضة وهو يحرك أصابعه بسهولة متجاهلاً ألمه الصاعق:
-كلا..انظري انا احركها بكل سهولة..

ابتسمت وشعت عينيها ثم التفتت للطعام:
-تعال وتناول طعامك اذاً.
-لن أقدر..
همس بتردد لترد بابتسامة عريضة خجولة رافقت احمرار وجنتيها:
-سأطعمك بيدي أنا..
ابتسم بحنو وأصابعه تنقبض لاارادياً..
لقد مرت سنوات والجرح قد شفي، ولكن.. رفع عينيه لوجهها.. يتأمل ملامحها الشاحبة ويدرك أن تلك الأيام.. ابداً لن تعود؟!
نهض وتجاهل اعتراض الجميع وهو يقول بجمود:
-لن أتناول الطعام عمتي أنا أسف..
ثم نظر لصوان وقال بصوت متحشرج:
-ليس لدي زوجة محبة تركض خلفي بطبق الطعام، ومن كانت تفعل..
وتلككت حروفه قبل أن يضيف بألم:
-من كانت تفعل لم تعد تطيق حتى وجودي.
-جساااااااااس..

صاح عمه به وهو يبتعد ولكنه لم يتوقف.. بل استمر بالمشي السريع دون أن يلتفت خلفه، تاركاً طاولة قد صمت كل روادها وشحب وجه صوان فيه حتى حاكى وجوه الموتى..

نهض أوس خلفه وهو يجاهد للحفاظ على أعصابه بينما يتبعه سيف وهو يدمدم بحنق لمايقوم به هؤلاء الاثنين من حماقات..

-اعذروني.

قفزت صوان خلفهم ركضاً تقريباً.. تعرف جنون أخيها والذي لن يسكت عماقاله جساس الغاضب جداً، بالكاد كانت تقدر على اللحاق بخطوات سيف التي تسارعت وهو يكاد يركض للحاق بأخيه وابن عمه قبل أن يتسببا بكارثة معاً..

وهناك تحت سقيفة المرآب أوقف أوس جساس بقبضة غاضبة التفت حول ذراعه وهو يصرخ بحنق:

-متى تنوي أن تكبر وتصبح رجلاً وتكف عن ألعاب الصبية التي تمارسها؟

نظر جساس لذراع أوس ثم نفضها وقال بحدة:

-أنا رجل غصباً عن كل أرائك وكل ماتفكر به أوس.
-لو كنت رجلاً حقاً لكففت عن تأدية مثل هذه المشاهد السخيفة والتي تطمح بها أن تنال عطف صوانة الشيب، وتوافق على الاقتران بك..
اتسعت عينا جساس واقترب من أوس بتهديد والأخير مستمر بإشمئزاز:
-انها صوان الشيب جساس.. لايملئ عينها سوى رجل حقيقي، وليس مجرد مراهق يتصنع الرجولة وياليته يفلح بتصنعه..
-ايها الحقيييييير..
صاح جساس بعنف ودون تردد كان ينقض على ابن عمه ليطرحه أرضاً بينما تعالت صرخات سيف الزاجرة وأخرى مذعورة لصوان اللذان اقتربا من بعيد.. ولكن الذئبين المتناحرين لم يتوقفا.. وسرعان ماكانا على الأرض وقد تمرغا في الارض المرصوفة وتعالت صرخاتهما بينما يكيل جساس اللكمات الغاضبة لفك أوس، و أوس يحاول لوي عنقه والسيطرة عليه، وبكل قوة طوح بساقه ليضربه باستخدام ركبته تحت

ضلوعه ليكتم جساس صرخته ويعاجله بلكمة أخرى أصابت عينه ثم شعر بقبضتي سيف تجذبانه بقوة للخلف ويديه وساقيه تتخبطان في الهواء وأوس ينهض على ساقيه ويركض ليهجم من جديد..

كزوج من الذكور البرية تتصارع لفرض سيطرتها، ولم تتحمل رؤية المشهد من جديد..

لقد رأت الكثير والكثير من شجارات الذئبين بما يكفيها لباقي حياتها، ويجب عليهما أن يتوقفا نهائياً.

-اوس لاتفعل..

صرخت مندفعة لتقف بينهما فاردة ذراعيها وقبضة أوس تطير أمام وجهها بالكاد أخطأته ليتناثر عبيرها ويغشى خلايا مخه ويغرقه برائحتها الزكية، مزيج من عطر الفل وجل استحمام بنكهة الفراولة..

هز رأسه بعنف ليطرد الصورة المجنونة التي هاجمته بينما يتخلص من قبضة اخيه والذي هدر بعنف:

-هل سأظل افصل بينكما كمالوكنتما مراهقين؟

توقف الاثنان.. واعينهما تتصارع بصمت حمل الكثير من الحقد والانفاس الثائرة بينما تصرخ صوان وسط دموعها:

-الى متى ستظلان على هذا المنوال ياأوس؟الى متى تفطران قلبي بكل هذه القسوة؟

أخفض أوس رأسه ولم ينظر نحوها فشهقت بألم ثم التفتت الى الأخر الذي ذابت القسوة والحنق من عينيه لتمتزج بعينيها تسيل بدموعها الصامتة قبل ان تهمس مخنوقة:

--لقد أعطيتك الكثير والكثير من حياتي جساس، صبرت على جنونك وقسوتك حتى لا أُعمق الجراح بيننا ولكنني لم أنجح سوى بزيادة غرورك..وجرأتك عليّ؟

ضاق حاجباه وهمس اسمها بشحوب بينما تواصل كأنها لم تسمعه:

-لم تعد تحترمني انا أو أخوينا.. لم تعد تحترم تواجدنا وحدنا او وسط غيرنا، لقد قللت من شأن أبي وأمي، ودنست حرمة هذا البيت بطريقتك الغريبة في وصف مشاعرك واستباحة مشاعري انا.

-أنا أحبك..ولن أسمح لأحد بالتدخل بيننا.. ستكونين لي صوانة، مهما حدث ستكونيـــ..
ولم يكمل عبارته.. وحل الذهول مكان اي مشاعر اخرى كان يفكر بها حين نزل كفها الايمن بحدة على وجنته اليسرى وتعالت شهقات سيف وأوس مع صوت الصفعة التي هزت أعماق جساس وتركته خاوياً في نظرته اليها وهي تقول بصلابة تناقض ارتجافتها من رأسها لأخمص قدميها:
-لاتقلها ابداً من جديد..أنا،، لن أكون أبداً لك.
-صواان..
همس بشحوب بينما تتراجع صوانة بخطوات متعثرة دموعها تغشى عينيها ولكنها لن تفلتها، هي لن تترك الضعف يتحكم بها من جديد لن تكون له وهذا قرارها النهائي، مهما تمزق قلبها لأجله ومهما عانت لأن تراه وتحرم نفسها من التوق اليه، فهي ستكون قوية.. شهقت باكية بوجع وخطواتها تتسارع أقرب الى الركض، تضم ذراعيها اليها بقوة وكأنها تمسك روحها من خطر التفكك والانهيار.. وعار العودة زحفاً الى تحت

قدميه. ترجوه السماح!! لقد انتهى الأمر؟! هذه المرة انتهى الأمر حقاً..
جساس لن يغفر لها أبداً.. لن يسامح اهانته وسط أخويه بتلك الطريقة..
كان عليها فعل هذا منذ زمن، استئصال هذا الحب الذي ينخر عظامها ويكاد يقتلها، حتى وان كلفها الأمر حياتها!! كجرح العمليات الجراحية.. مؤلم وبشع..
ولكنه شافٍ بدرجة جيدة!!
وصلت غرفتها واغلقتها خلفها بإحكام.. رمت طرحتها ثم جلست وسط الظلام تسند ظهرها الى قائم السرير وتجهش ببكاء حار..
يحق لها ان تبكي.. لقد بترت جزءاً من روحها بيديها.. ويجب أن تبكيها.. تحتاج أن تبكي..
وتحول سيل الدموع الى شهقات مكتومة مخنوقة وارتعدت أطرافها وهي تخرج من خزانة صغيرة بالقرب منها صنوق خشبي مغلق بمزلاج أثري.. لامسته ببطئ ودموعها وصوت نشيجها يأبى التوقف..

فتحته.. وصفعتها رائحة الورود المجففة، تلمست الاشياء القليلة المتواجدة وقد فشلت برؤيتها بسبب دموعها..

رفعت أول شيء لامسته.. كانت صورة قديمة.. لصبي بعمر الرابعة عشر يحمل كرة بيده وبالاخرى يقبض على معصم فتاة طويلة عصبية وهي تشيح عنه..

عادت دموعها ونحيبها وهي تعيد الصورة وتلتقط شيء أخر.. خصلات شعر مجعده .. مربوطة بخيط حريري.. لاتزال تذكر ذلك اليوم.. كانت في الرابعة عشر.. وقد أجلست جساس امامها بحزم صارخة أنه يجب عليه قص شعره.. وفعلت .. قصرت له خصلاته التي استطالت بحركة طائشة جعلته يفقد معظم معجباته في المدرسة وقتها.. وهذا كان سبب قيامها به..

الغيرة..

اعادتها الى الصندوق والتقطت شيئاً أخر شيئاً أوجع قلبها وجعلها تئن بألم..

قبضت على الكيس وهي تشعر بالشيء الصلب المتحجر وهمست بوجع:

-يالك من غبي أحمق ياحبيب الروح..
كان صيفاً قضوه في مصر.. وكانت في الخامسة عشر لاتزال تصارع والدتها كي لاترتدي الحجاب.. يومها خرجت من غرفة الفندق ركضاً شعرها الناعم يتقافز خلفها ويحيط بوجهها وصولاً الى خصرها.. وامام شاطئ البحر وقفت تلتقط أنفاسها تشعر بالحرية وتبحث عنه..
-ياله من شعر جميل.. هل تنتظرين أحد أيتها الحورية الجميلة..
سمعت العبارة الغزلية وتجاهلتها.. وارادت الابتعاد عن طريق المغازل الاحمق الذي يتحدث بكل وقاحة ولكن يداً امتدت لتقبض على مرفقها والصوت اللزج يهمس:
-لم لاتأتين معي لنكتشف الى أين يصل هذا الحرير؟
-اترك يدي..
صاحت وقبل ان تكتمل عبارتها كان الرجل مطروح أرضاً وجساس النحيل ذو الاثني عشر عاماً يقفز فوقه وجهه أحمر كسرطان بحر غاضب، صرخت مذعورة وبدأ الناس بالالتفاف

حول المتصارعين.. ولفت جساس بحجمه الضئيل وحداثة سنه نظر الجميع..
-أنقذوه سيقتله.. سيقتله..
صاحت بهستيريا بينما الرجل اللزج يحيط رقبة جساس ويكاد يخنقه والاخير يصارع بقوة ليلكمه بين ساقيه وتأوه الرجل قبل ان يوجه لكمة لفك جساس ويرميه ارضاً.. وحينها تدفق الجميع وابعدو الرجل عن الصبي.. وجروه بالقوة بعيداً، لترتمي هي امام قريبها بينما يصرخ هو بها بحنق:
-اذهبي وضعي شيئاً على رأسك، يكفي ماحدث.
تأملت فكه المتورم وخيط الدم الذي انساب من بين شفتيه وصمتت وهي تتأمله يبصقه ليخرج مع الدم احدى أسنانه ويهمس لها بغيظ:
-هاقد عدت طفلاً وخسرت بسببك أحد أسناني ياحمقاء..
لقد احتفظت بالسن يومها، ولاتزال..
مسحت دموعها المنهمرة بجنون ونظرت للصندوق..كان يحتوي على العديد من اثار جساس، بالاضافة لخصلة من شعره وسنه..كانت

تحتفظ بملاحظات تركها لها عبر السنوات..
تحتفظ بعقب أول سيجارة دخنها..
منديل حمل رائحة عطره المفضل..
اول وردة جاءها بها.. والكثير الكثير.
قربتها اليها وتمددت على الأرض تحوطها بحنان وتغمض عينيها بقوة وجسدها كله يرتجف.. بينما تحلق فوقها كلمة النهاية البشعة بأحرف عريضة دامية..
وفي المبيت.. كان يواجه أخيه بعينين جامدتين وأنفاس ثقيلة بطيئة يتحمل نظرات سيف اللائمة حيناً والمتعاطفة أخر، ولكن التعاطف غلب..
واقترب يرى الشعور بالاختناق ينضخ من عيني أخيه الصغير..
-لاتفعل هذا بنفسك جساس.
-انها تكرهني..
همهم بألم فتنهد سيف وهمس:
-صوان لاتكرهك، هي لاتقدر أن تكرهك أنت بالذات مابالك جساس..

نظر له بوجع ودون أن يشعر انساب خيط من الدموع على وجنته ليشهق سيف ويمسكه من كتفيه يهزه بقوة:

-ماذا بك أخي، تجلد منذ متى يبكي رجل من ابناء الشيب؟

شهق جساس بألم وأخفى وجهه بين كفيه وأجهش بالبكاء كطفل صغير قبل أن يجلس متهالكاً، اتسعت عينا سيف وشعر بالذعر على أخيه وهو في تلك الحالة اليائسة فاقترب يحوطه بذراعيه بقوة وهو يهمس:

-لابأس عليك جساس، يالهي ماذا دهاك يارجل؟ منذ متى تبكي؟

لم يستطع التكلم.. لم يفتح حتى فمه وهو يعض شفتيه بقوة يخشى أن تتعالى شهقاته ويشرع بالنحيب كمالنساء..

ماذا فعلتي بي صوانتي؟

ماذا فعلتي بقلبي ليصبح كروح طفلٍ غره الغرام فتأذى؟ ..

هشة روحي لاتقوى على الفراق يوماً..

كسرتني يارفيقة العمر..

مرغتِ كرامتي أرضاً وتركتني هناك تحت قدميكِ أتلظى؟!
ماذا فعل لك القلب وقد هواكِ سراً وعلناً؟
وماذا جنيت غير الصد والهجران رداً!
كيف أهرب منكِ ومن هواكِ وقد فتنتِ القلب جهراً؟
أاعود الى دياري مهزوماً وقد شغفتِ الروح حباً؟؟
أم أظل تحت رحمة يديكِ متمرغاً كعبدٍ أضناه الشوق وهدهُ الصـدُ هداً؟!

.....

تشبثت يداه بقميص أخيه وهمس بصوت خنقته العبرات:
-أنا أريد الرحيل.. أريد الرحيل الأن.
قبض سيف على مؤخرة عنقه.. وهمس بصوت جليدي:
-لا.. ستبقى، أنت هنا لأجل العمة فاطمة ويجب أن تبقى وتواجه الجميع وأولهم صوانة لتثبت لها أن ماحدث لم يكسرك أخي، أنت جساس الشيب..

أتعرف من؟؟ جساس سلطان الشيب من أورثك هذا الضعف ياولد؟؟
قالها بقهر على أخيه.. وأفلته ثم نزل بمستواه لينظر في عينيه وقال بشراسة:
-أنت قلتها بنفسك.. أنا انتزعت حبيبتي من بين يدي ابن عمها، انا أحببتها وقاتلت لأجلها رباااه لقد قلبت موازين العالم وأصلحت بين قبيلتينا فقط لأحصل على المرأة التي أحب، ووالدك أخي.. والدك سلطان الشيب يقود عائلته كلها من فوق كرسيه المتحرك.. وأنت.. أنت هنا تتوسل وتبكي كالنساء!!
خفض جساس عينيه.. فلكمه سيف بقسوة على كتفه وصاح به:
-انظر الي وأنا أكلمك.. انظر لي وتوقف عن البكاء..
عادت عيناه الى اخيه الذي قالها بشراسة:
-اسمعني يابن ابي وأمي.. صوانة هي ابنة عمي والله يعلم مقدار حبها في قلبي، ولكنك أخي.. لحمي ودمي، وأنا اقولها لك الأن.. إن لم تسحق

قلبك وتطرد منه حبك وضعفك نحوها فسوف افعلها بنفسي..

-لقد حاولت..

همس بتخاذل ليدفعه سيف بقوة كاد معها يقع من على مقعده:

-جبان وضعيف، انظر اليها كيف وقفت امامك ودافعت عن نفسها؟ انظر ماذا فعلت بك؟؟ تلك كانت شيّـب حقيقية أما أنت!! ماذا أنت بالضبط؟؟

كان يتحدث وكأنما يبصق على وجهه.. رفع له جساس عينين متسعتين بمرارة وسيف يواصل بقوة امتزجت بقهره من تخاذل أخيه وهوانه على نفسه:

-تجلد يافتى واصتطلب كرجل ولاتكن كشيء حقير تترفع أحمق النساء من النظر اليه..كن رجلاً ولاتتهاوى كأمثالهم.

قالها وتركه.. تركه يتخبط في توهان مشاعره العاصفة لايعرف ماعليه أن يفعل.. يمارس رجولته على نفسه اولاً ثم عليها؟ أم ينهار تحت الضغط ويتذلل تحت قدميها؟!!

.....

في المنزل نفسه تحرك أوس بإضطراب.. مالذي فعلته صوان؟ لقد حطمت قلبها بيديها.. كسرت جساس أمامه وهي من لم تجرحه يوماً بكلمة؟!
أي قوة تلك التي تملكتها بل أي قسوة؟؟
تنهد بمرارة.. رغم صراعهما إلا أنه يعرف عشق جساس لصوان منذ طفولتهما ويعرف حقيقة أنها تبادله المشاعر بمثلها وربما أكثر..
ولكن مافعلته كان القشة التي لابد ستنهي الأمر..
تنهد وجلس أسفل السلم يدعك وجنته التي تلقت ضربات غضب جساس.. ويده الأخرى تخرج هاتفه ليحاول الاتصال بها من جديد..
رباااه لم لاترد؟
-توقفي عن تعذيبي أنت الأخرى وردي على هاتفك أيتها الغبية.
همس من تحت أنفاسه واغلق الهاتف بغضب حين جاوبه الرد المعتاد أن الهاتف الذي يطلبه مغلقاً!!
أين هي؟؟ لم لاترد.. جالت عيناه حوله وكأنما يبحث عن طيفها في الارجاء.. في كل ماحوله وكل مايحيطه..

دون فائدة..

.....

المساء التالي..

كان هذا بإمتياز أكثر لم شمل فاشل..

فكرت فاطمة بتوتر..

عينيها تتقافزان في وجوه شبابها بحسرة..

سارة التي تطالع هاتفها في كل حين وكل دقيقة..

ويبدو عليها الألم والحسرة..

أوس مشغول البال.. على الهاتف منذ الصباح ويبدو أنه لايصل لنتيجة وهذا يثير غضبه وعصبيته.. وأثار شجار البارحة يظهر على وجهه بعين بنفسجية وفك مكدوم!!

سيف المتجهم ونزقه حتى مع زوجته التي تبدو غاضبة منه ومتجهمة لسبب لاتعرفه ..

ثم صوان التي لم تغادر غرفتها الا في اللحظات الاخيرة قبل ابتداء الحفل وتجلس في ركن قصي تتابع مايدور بملامح جامدة..

وأخيراً جساس..

في ركن مقابل لصوان.. يراقبها كصقر ولاتشي ملامحه بشيء من انفعالاته التي لابد تحترق بداخله..

-ماذا بكِ عزيزتي؟

سمعت صوت زوجها لتتنهد بحسرة:

-انظر لأطفالي ومابهم؟ وكأنني لاأعرف اي واحد منهم وكأنهم غرباء عني..

-لاتقلقي لابد انها واحدة من مشاحنات أوس وجساس القديمة.

تنهدت بألم ونظرت لابنتها هامسة:

-وماذا عن ابنتنا؟ الى متى نسكت عن تجاهلها لنفسها وعزوفها عن الزواج؟؟ الى متى نسكت؟ وقد قاربت الثلاثين؟

-ليس الان فاطمتي.. لنتمتع بحفلك السنوي..

-وأي متعة؟؟

همست بشرود.. ثم سارعت بمناداة اولادها بصوت عالٍ لجمعهم حول المائدة..

وتجمع الستة حول الطاولة وان استقر جساس بعيداً عن أوس الذي جاور صوان كحارس

شخصي بينما استقرت سارة لجوار سلمى التي همست لها بغيظ:
-مابال الجميع وكأنهم في حداد رباااااااااه ألايستطيعون كبح جماحهم حتى لإسعاد هذه المرأة المسكينة لبضع ساعات على لاأقل؟
-انها معتادة صدقيني.
همست سارة بسخرية.. ثم نظرت لرأس الطاولة حيث قام عمهم ب إلقاء خطبة صغيرة عن تواجد العائلة وأهميته وعن حبه الشديد لزوجته التي قامت بتربية كل واحد منهم بطريقة مختلفة عن الأخر للحفاظ على شخصيتهم.. وطبائعهم.
ابتسمت فاطمة ونظرت له بحنان بينما ينهض أوس ويبتسم للجميع بتوتر وقال بعض كلمات مقتضبة قبل أن يقترب من أمه ويقبل رأسها ويقدم لها هديته الملفوفة بورق لامع..
-شكراً لك حبيبي..
همست بعيون دامعة ليقبل وجنتيها ويعانقها بحنان جعلها تبكي بنعومة جرت سيف وجساس لينهضا ويعانقانها من الخلف بطريقة مضحكة

أرسلت القهقهات لصوتها المخنوق بينما تعاتبهما بخجل..

-تفضلي هديتي عمتي..

قالها سيف وهو يعطيها علبة ضخمة وفتحتها لتجد عباءة مشغولة باليد بألوان الفضة والنحاس وتقبلتها شاكرة بإبتسامة سعيدة، وجاء دور جساس الذي قدم لفيفته بجمود:

-تفضلي عمتي..

ابتلعت ريقها بصعوبة وتقبلت هديته ونظرت بخشية لإبنتها وعينيها تشعان تعاطفاً مع الاثنين..

-هل نسيت شيئاً بني؟

تسائلت بخشية ليبتسم بسخرية ويجيبها بمرارة:

-لا عمتي.. أنا لم انسى.. أنا صحوت لنفسي وتوقفت عن غبائي.

ابتلعت ريقها بصعوبة ونظرت لابنتها بطرف عين..

منذ كبر وبدأ يجلب لها الهدايا.. كان يقرنها دوماً بهدية لصوانة.. مهما كانت المناسبة، أعياد ميلاد.. عيد الأم؟ حتى الهدايا بلامناسبات كانت تشاركها صوانة؟؟

ماذا حدث لك بني ؟؟
تسائلت في اعماقها ثم عادت اليه ليقترب منها ويقبل رأسها:
-سأودعك عمتي.. أنا سأغادر الأن.
-الى أين تذهب؟
تسائلت بقلق ليلوي فمه ويهز كتفيه:
-أي مكان لن يفرق كثيراً.. أنا فقط لن أعود.
-جساااااااس..
صاحت فاطمة بحدة حين ابتعد ولكن أوس اوقفها عن اللحاق به..
وجساس غادر فقط هكذا دون وداع.. دون كلمة.. دون أن يلقي نظرة أخيرة؟؟
فكرت صوان بألم.. وثار قلبها بوجع وهدد بالصراخ وهو يتبع خطواته المتثاقلة في رحيله..
هو لم يتوقف ليلقي نظرة خلفه..
هو فقط رحل..
انسابت دمعتها ببطء.. واشاحت بوجهها تخفي ألمها عن الجميع.. حين رن هاتفها..
-السلام عليكم.

ردت تهرب من جيشان خافقها وسمعت الصوت الرجولي المميز بعد رد السلام:
-كيف حالك أنسة صوان؟ هل وصلت هديتي؟
ابتلعت ريقها بصعوبة وهمست دون مواربة:
-ماذا تريد مني سيد صلاح؟
تلكك الصوت قليلاً ثم عاد بقوة ورباط جأش:
-أريدك أنتِ.
.....
تراجع أوس ينظر لخطوات جساس المغادرة بضيق.. حين سمع سارة تسئل بفضول:
-ماذا حدث أوس؟ مابال جساس؟
-انه أحمق وهي أكثر منه حمقاً..
تنهدت بضيق ونظرت له بغيظ.. تكره أوس حين يتجاهل سؤالها ويجاوب بغموض..
حينها رن هاتفها..
نظرت للرقم وتعرفته..فتحت الخط وقالت بنفاذ صبر:
-ماذا تريدين ياسيرا؟؟

-مجلس الإدارة يعقد اجتماعاً عاجلاً بشأن المؤتمر الصحفي الذي عقده شاهر الباشا قبل قليل ويريدك ان تكوني هنا بأسرع وقت ممكن.
عقد سارة حاجبيها بتوتر وهمست بحيرة:
-مؤتمر؟ أي مؤتمر هذا عما تتحدثين؟
-ألم تري التلفاز؟؟ رباااه سارة ماذا تفعلين ألم تكوني تتابعين أخر أخبار زوجك المصون؟
-عماتتحدثين؟ ماذا فعل ركان؟
تسائلت بشحوب .. وهي تبتعد بينما أوس يلتقط هاتفه ويجيب عن الاتصال والذي حمل اسماً تمناه منذ وقت طويل..
-ترنيم؟!
-أنت قلت .. أنت قلت..
سمع الصوت المخنوق والنشيج العنيف..
-ترنيم هل أنت بخير؟ تحدثي معي..
-أنت قلت.. لن.. لن تتركني.. أختنق..!!
صاحت بألم وامتزج صوتها بنبرات شاحبة،، وكأنما تخرج من اعماق الوجع..
-ولن أفعل.. ترنييم..ماذا بكِ أخبريني؟؟
-أنا أختنق.. أنا أمووت وحدي..

همست بوجع.. تتخلل حروفها عبراتها قبل أن تترك الهاتف يسقط وتجهش في بكاء حار مؤلم.. خنقها وارسل قشعريرة باردة الى أطرافه.. وهو يلهث وقد مسه وجعها وجرحه في العمق..

***

نهاية الفصل..

الفصل الثامن

***

ولانكِ وردتي.. من قلب الحزن أزهرتِ
وسط الدموع تألقتِ..
ولأنك وردتي..
مددت يدي لأقطفكِ.. وسال دمي جريرة أشواكٍ
التفت حول ساقيكِ
ولأنك وردتي.. ابتسمتِ في وجه الشروق
وحبستي نور الشمس في مقلتيكِ
وغفوتِ تحت ظل الغروب هرباً من أشباح
الظلام اختبأتِ..
ولأنك وردتي..
سقيتك بضع قطرات فارتويتِ.. وتألقتِ في
المدار كنجمة وحيدة سبحتِ..
ولأنكِ وردتي..
اقتربت مني بفضول وفي غفلة من أشواكلِ..
هربتِ!!

ثم اندسست بين ضلوعٍ فرشتها لأجل جذورك
واستكنتِ.. قريرة العين نمتِ
ولأنكِ وردتي..
ودعتُ راحتي ولأجل راحتكِ أنت سهرتُ.
***
روما
تعثرت الخطوات تجبرها للعودة وهي تحاول جاهدة المُضي قدماً..
تباً وأين الجهد في سحب ساقي ميت بعيداً؟؟
لقد كانت ميتة.. أسباب الحياة سُحبت منها تُركت ملقاة على قارعة الطريق..
مالذي يمكن ان تدفعه ليزول هذا الاحساس المدمر بالخدر..
ماذا يمكن أن تفعل ليعود احساسها ولو حتى بالألم..
لقد تجمدت في مكانها بعد ماحدث، راجعته أمامها كشريط ذكرى يمر في عقلها وأمام عينيها ببطئ، وكأنها مشاهد من خلف شاشات عملاقة لاعلاقة لها بها.. مجرد مشاهد!!
رأت كمالة تموت..

تموت وتتركها وحدها، لتعي بوجع أنها لم يعد لها سند أو رفيق في الحياة، تركتها ومضت الى حبيبٍ اشتاقت اليه كالهواء.. رأت الشرطة تحاول فصلها عن الجثة بعد اتصال الجيران لهم بسبب صراخها المتواصل، لم تشأ التخلي عن جسد كمالة، لم تشأ أن تتركها ولكنها فعلت..

لقد قبعت في المشفى الى جوارها ليوم وليلة، هامدة لاتفعل سوى النظر في الفراغ حولها..تجلس الى جوار باب ثلاجة الموتى ترفض الرحيل حتى أجبرها الأمن على ذلك..

عادت الى متجر كمالة اليوم في الصباح لتقبع حيث هي، متهاوية الى جوار الفراش لاتقوى حتى على النهوض وكأنها فقدت روحها وقوتها مع فقدانها لكمالة..

عانقت ثوبها الأبيض ومضت تبكي حتى كادت تشهق روحها...

.....

اوقف سيارته أمام الزقاق المؤدي للعنوان الذي حفظه عن ظهر قلب وتأمل الشارع الضيق المليئ بالبضائع الشرقية والبهارات الهندية

وغيرها، رفع عينيه للشمس التي كانت في طريقها للمغيب ووضع نظارته المظللة عليها قبل أن يتابع طريقه بسرعة ليتوقف أمام باب زجاجي تعلقت عليه التمائم والحُلى الغريبة المصنوعة يدوياً من الأصداف والأحجار الغريبة، وتابع اسم المحل المكتوب بخط عربي واسع ومزركش..

"كمـالة"

تنهد ودفع الباب ليكتشف أنه مغلق!!

طرقه عدة مرات ولكن لم يجبه أحد..

تراجع وأخرج هاتفه يحاول الاتصال بالرقم المخزون دون فائدة.. فقد عاد ليكون مغلقاً..

ذهب الى المتجر المجاور وسأل البائع عنالمتجر المغلق ليجيبه بأسف:

-المتجر مغلق.. لقد توفيت صاحبته ليلة أمس.

تسمر مكانه وقد اتسعت عيناه وجف حلقه وقبضة قوية تعتصر حشاه وهو يحاول ان يفهم..

-ماتت؟!

همس بشحوب وارتفعت ذراعه لاارادياً لتتشبث بقائم الباب والرجل يقول بحزن:

-كانت سيدة مهذبة ويحبها الجميع.

-من؟؟ من!!
تسائل بخشونة وهو لايستطيع التصديق.. ماتت؟!
من مات؟؟ ترنيم؟؟ صاحبة المتجر..؟؟ ماذا يعني كل هذا؟؟
-لقد فُطر قلب الصغيرة المسكينة..
قالها الرجل بأسف ليسارع أوس ويسأله بلهفة:
-من؟؟
-الفتاة التي تمكث معها من وقت لأخر..
-قزمة بعينين واسعتين ونظرات مذهولة شاردة تصرخ بوجه الجميع وملابسها أكبر من حجمها مرتين؟
تسائل بلهفة لينظر له الرجل بدهشة قبل ان يفكر قليلاً ثم يومئ برأسه بتردد ليزفر أوس بإرتياح ويشير للمتجر:
-أهناك مدخل أخر؟ او تعرف ربما أين تسكن؟
رفع الرجل ذراعه للطابق العلوي من المتجر:
-لديها مسكن اعلى المتجر، مدخله من الخلف..لقد عادت منذ بعض الوقت.
شكر أوس الرجل وأسرع للمدخل الخلفي.. كان الباب مواربا وتجاهل فكرة الطرق او طلب

الاذن، بل اسرع عبر السلم الحجري الضيق واعلاه وجد باباً أخر كان مواربا هو الأخر، فتحه بحذر وهو ينادي اسمها برقة..

"ترنيـــم"

جاوبه الصمت فابتلع ريقه ودخل الى الغرفة التي فتحت أمامه ..كانت ضيقة والاثاث المتواضع بداخلها مكدس، تلفت حوله وعاد يناديها.. ولكن لم يُجبه أحد، تقدم أكثر ووجد باب أخر لابد يفضي لغرفة نوم او ماشابه.. كان الباب مشرعاً لذا ناداها مرة واحدة فقط وحين لم يسمع اجابة تقدم وعيناه تلتفتان حوله في كل شيء..

الغرفة الضيقة والسرير الوحيد، الكرسي الخيزراني والصندوق الملقى بكل مايحتويه من حاجيات مبعثرة..

عقد حاجبيه وهو يرى النافذة المفتوحة وستائرها التي تطير مع نسمات الهواء الليلية وقد غابت الشمس كلياً، تنهد وعاد يبحث عنها بعينيه.. ثم وجدها.

جالسة على الأرض تحيط ركبتيها بذراعيها تضمان ثوب قماشه ابيض ناصع، شعرها ينسدل

حولها كستارة بنية كثيفة يغطيها حتى قدميها، رأسها المنكس تسنده ركبتيها الضعيفتين..

-ترنيمة؟

همس بخوف.. ثم اقترب بخطوات سريعة ونزع عنه نظارته قبل ان يجلس على ركبتيه أمامها وهو يناديها بحرارة أشد:

-ترنيمتي انظري لي..

لم تتحرك حتى.. حامت ذراعاه حولها لايعرف مايجب فعله.. يحترق للمسها ويخشى من ردة فعلها..!!

-ترنيم انظري لي.. لاتتجمدي هكذا؟؟

صرخ بيأس.. ولكنها لم تجبه ليشتم لاعناً ويطفئ حريقه بين ثنايا حرير شعرها وهو يقبض على جانبي رأسها ويرفعها لعينيه..

-ترنيمتي..

همس لاهثاً لعينيها اللتين حملتا تلك النظرة الضائعة وكأنها طفلة وحيدة..

أحاط وجنتيها بكفيه واقترب منها رباااه كيف لها أن تكون بهذا الجمال؟

كيف لها أن تكون ضعيفة هكذا؟ كيف له أن يقاوم زرعها بين ضلوعه يخبئها عن كل سوء في هذا العالم؟

نزل بكفيه لعنقها وقربها منه.. كانت كخرقة ولكنها متيبسة لايقوى على فك تشابك ذراعيها بساقيها.. ولم يحاول..

نزل بكفيه ليحيطها بذراعيه كلياً ودون ان تتحرك كان يقربها لصدره، يرفعها ويضعها على حجره ويسند ظهره للجدار بدلاً عنها، يسند ذقنه بسهولة على رأسها، ذراعيه حولها تضمانها بقوة وشفتيه تقبلان قمة رأسها وهو يهمس لها بوجل:

-لابأس عليكي.. لابأس عليكي..

كانت متيبسة.. وكأنما بقيت على وضعها ذلك منذ وقت طويل، كان يشعر بالخوف عليها، تهيأ له أنها قد ماتت وانه قط لن يشعر بحيويتها بين يديه من جديد.. تسللت يده حشرها بصعوبة بين تشابك ذراعيها وساقيها وضغطها بقوة على صدرها..ثم اغمض عينيه.. الصق وجهه جانب عنقها، وهمس لها بألم:

-افيقي ترنيمة.. لاتفعلي هذا بنفسك أرجوك.

كانت لاتتحرك.. مجرد تمثال من الخزف بين يديه، ضمها بقوة أكثر وهو يهمس لها بالعديد من الكلمات، مرة يناشدها ان تفتح عينيها، ومرة يحكي لها عن عيد ميلاد امه فاطمة الكارثي، والأخرى.. الأخرى هو فقط يتنفس ويدعوا أن يسمع حسيسها..

يشعر بها تلين بين ذراعيه..تتقولب حتى تندس أكثر وارتجافها يبدأ وكأنها تشعر بالبرد، سمعها تدمدم بصوت بالكاد غادر شفتيها وصله هامساً وكأنما مناغاة طفل حديث الولادة، ضمها بقوة أكبروهمس بإسمها بنعومة اصابعه تلاعب خصلات شعرها المفرودة على كتفه والأخرى تضغط على نبض القلب المتزايد قوة تحتها..

-لاتخافي ياصغيرتي فانا هنا الى جوارك، لن أترككي أبداً ترنيم..ليس بعد الأن.

كان وعداً لم يعرف الداعي لأان يطلقه ولكنه فعل، شعر أنه ملزم بهذا الوعد، ولن يخلفه ابداً، هو يريد البقاء قربها.. لايريد تركها ليس الأن بعد أن وجدها أخيراً..

-ترنيم؟!

همس حين شعر ببلل يتساقط على كفه رفع وجهها اليه ورأى دموعها تتساقط غزيرة على وجنتيها، توسعت عيناه بألم وقربها منه أكثر وهو يناديها ولكنها كانت مخدرة من فرط الألم الذي سحق قلبها..

-لاتبكي..لاتبكي ياصغيرتي.

ازداد فرط الدموع وتسارعت أنفاسها فلم يجد بداً من تقريباً لصدره وذراعيه تحوطانها بقوة وهو يهمس لها:

-حسناً .. حسناً ابكي ماتقدرين، الان فقط لأنني لن أسمح بمزيد من الدموع.

وكأنما تسللت عبارته الى اعماق اللاوعي فيها، فقد اجهشت باكية ماان انتهى من عبارته الخشنة وبدأت تنتفض بشهقات هائلة ودموعها تسكبها بلاتوقف..ودون شعور امتدت ذراعيها لتحيطا بعنقه، تزيد من تشبثها به وتعلن صراحة احتياجها المؤلم لتواجده قربها..

لم يعترض او يتحرك تركها تفرغ مكنونات قلبها ومكث يمسد رأسها بحنان فقط ليسيطر على موجة البكاء العنيفة التي اجتاحتها ولم تتوقف.

كان يحركها برفق وكأنما يهدهد طفلاً حزيناً..
ألهذه الدرجة أحبت عمتها؟ ألهذه الدرجة حزنها فاق كل تصور..
لم تبدو له تلك المرأة القوية التي التقاها عدة مرات من قبل، كان عليه أن يدرك عمق مشاعرها، فقد كانت عمتها محطتها الدائمة للرجوع.. تنهد وفرد خصلات شعرها الناعم بين أصابعه وهو يدمدم لها ببعض الكلمات المهدئة..
استرخت فعلاً بعدها بين ذراعيه، توقفت نهنهاتها واستمر خيط الدموع ينساب على وجنتيها بصمت بينما أسبلت جفنيها ولم تبقى سوى زفرات طويلة حزينة.. هدأت مع لمساته المواسية..
أحاطت كفه بعنقها ورفع ذقنها بإبهامه ليتساقط شعرها كشلال للخلف كاشفاً عن وجهٍ لطخته الدموع جفنين منفرجين وعينين عليهما لجتين من الدموع وشفتين تهمسان بألم:
-ماذاسأفعل وحدي؟
شعر بقبضة قاسية تعتصر صدره وهو ينظر لها بعجز.. هل يعدها بالرفقة؟!

هل يقدر هو على الإيفاء بهكذا وعد؟؟ لايستطيع أن يفعل.. ولايستطيع أن يتركها في حزنها البالغ بهذه الطريقة.. هو رجل مهما كان.. رجل لايستطيع ترك امرأة تحتاجه، حتى وإن كانت لاتطلب مساعدته بكلمات واضحة؟ يكفيه النظرة في عينيها ليدرك أنها كانت تستغيث!!

-أنا هنا معك..

همس واعداً بخشونة.. لتغمض عينيها بيأس، لقد سمعت وعداً قبلاً.. لا لم يكن مجرد وعد..

كان قسماً بالثقة، كان حِلفاً بالبقاء والقوة.. ولكنه تحطم أمام اول صخرة وانتهى.. لم تعد تكفيها الوعود.. لقد نالت منها الكثير فيما مضى ولكنها لم تعد تستطيع التحمل أكثر.. لقد انتهى صبرها.. والله قد انتهى..

أصدرت صوتاً يشبه أنين شادنٍ مجروح ثم مالت على صدره، وضعت رأسها تحت عنقه وراحتها على نبضات قلبه واغلقت عينيها..

رفع بصره للسقف ثم أغلق عينيه..

وجودها بين ذراعيه.. شدد قبضته عليها وتنشق رائحة شعرها.. رائحة الاعشاب وندى الصباح..

سيفعل مايقدر كي يخرجها من حالة البؤس التي تعاني منها.. لن يتركها، رغم مايبدو عليها من فقدان الثقة وانعدام الامان نحو الرجال بشكل عام ونحوه هو بشكل خاص.. هو لن يستسلم..
لايعرف بعد مايريده منها وماقد يريد؟؟
ولكنه لن يتخلى عنها أبداً..
***
روما..
عدلت ياقة قميصها الحريري الأحمر وبنطالها الكريمي، ثم تأملت شعرها المشدود الى الخلف وزينة وجهها الناعمة والتي ناقضتها حمرة شفتيها القانية، تنهدت وابتلعت ريقها ثم التفتت للخلف حين سمعت سييرا تناديها بحدة:
-الجميع بإنتظارك سارة.
اومأت سارة والتقطت اوراقها وتقدمت عبر الباب المزدوج الى غرفة الاجتماعات حيث ارتص اعضاء مجلس الإدارة بأنتظارها، تأملت الوجوه المتجهمة والتي رمقتها ببرود بينما رئيس الملجس يرفع يده بجهاز تحكم عن بعد جعلها

تدير رأسها بتلقائية نحو الشاشة البلازمية الضخمة وهو يصيح:
-فسري هذا ياسلطانة؟
اضائت الشاشة بسرعة وظهر وجه شاهر الباشا!!
انه المؤتمر الصحفي الذي قضت الرحلة الجوية من دبي الى روما بمشاهدته لعدة مرات حتى كادت تحفظ كل كلمة وكل لمحة..
رأت الباشا يقف بطلته المهيبة بسواد تنافست فيه سترته الحريرية وشعره الطويل نسبياً، لقد كان كغراب بينٍ مشؤوم قبض قلبها وجعلها ترتجف بينما هو يقول بصوته الواثق:
-وبعد سنوات من احتكار الشركات المنافسة استطاعت مجموعة شركات الباشا الدخول بثقلها الى عالم الموضة وبسط سيطرتها ليس فقط على الصحافة البراقة في تركيا ولكن.. في أوروبا أيضاً..
سطعت حينها فلاشات كاميرات التصوير وبدأ اللغط بالتصاعد بينما يشير شاهر الباشا للواقف جواره بالتقدم..فيما انسحب هو بهدوء..

ركـــان..!!
شعرت بالإختناق وهي تتمعن للمرة المائة ربما بزوجها بطلته المهيبة..
بدلته الأرمانية التصميم والحرير الملتصق بعضلات كتفيه وصدره، خصلاته الشقراء المتساقطة على جبينه بفوضى أرسلت شرارات عبر أصابع يديها تتوق للمسه رغم كل مافعله، ثم كانت عيناه..
عيناه اللتان تذكرانها ببحرٍ عاصف تصارعت زرقته مع خضرته الرائقة، وتعلقت عينيها بشفتيه..
تتوق لأن تمزقهما بأسنانها من فرط حقدها عليه تلك اللحظة..
كيف استطاع أن يفعل بها هذا؟
عضت شفتيها بألم وهي تتحمل النظر لوجهه فائق الوسامة وابتسامته التي أدارت عقول كل النساء المتواجدات معه في تلك الغرفة التي يقيم منها المؤتمر الصحفي المثير للجدل والذي جيء بها على أثره من دبي دون تأخير..

قدمه شاهر الباشا بصفته كرئيس تحرير المجلة العالمية للموضة والتي استطاعت اخذ الحقوق الحصرية لعدد من دور الازياء العالمية والتي ببساطة سحبت البساط من تحت قدميها..
كزت على أسنانها بقوة وهي تنظر لركان وكيف تألقت ابتسامته وهو يجيب عن أسئلة الصحفيين المتواجدين بخفة دم وثقة أطاحت بصواب الجميع .. ثم كان ذلك السؤال الذي عذبها شخصياً..
"كيف استطاعت شركة الباشا الحصول على تصاريح وعقود تلك الدور العالمية؟"
حينها رأت ابتسامته.. ابتسامة ثعلب والتوى فمه قائلاً بذكاء:
-حين بدأت المراكز الصحفية الأخرى بالتراجع وتقليص النفقات، خسرت الكثير منها عروضها، ولأن شركتنا تعتمد على الدعم المالي والمركز القوي فقد هجمنا بضراوة ولم نتوقف عند أول اشارة للهزيمة، نحن..
وتألقت عيناه اللتان اصبحتا بلون الجليد:
-نحن لم نستسلم، نحن فقط ازددنا شراسة وابتلعنا مانقدر على الحصول عليه.

تفجرت الكاميرات حينها بينما تألقت الابتسامة على شفتيه واستمر يعرض بعض الخطوط العريضة السطحية دون الكشف ابداً عن مسار خططهم القادمة ..
كان يجيب عن الاسئلة بروح ماكرة متلاعبة..
تماماً كماحصل على قلبها يوماً واستطاع بذكائه أن يحصل عليها كلها..
ثم رأتها.. عقدت حاجبيها المنمقين وزأرت الذئبة بداخلها وهي ترى تلك المرأة ذات الشعر الكستنائي الكثيف والتي تدخلت بمرونة لتنهي المؤتمر الصحفي المثير وتجذب زوجها هي، من ذراعه وكانها تملك الحق؟!
شعرت كما لو أنها تشاهد هذا المشهد للمرة الأولى، غيرة مجنونة صبغت وجهها بلون قميصها وجعلتها تحرك أصابعها لاشعورياً لتخفف من الحرارة التي أحرقتها من الداخل..
تلك المرأة.. نظرته نحوها.. تلك النظرة التي هزتها من عرشها وأوقعتها تحت قدميه منذ مدة ليست بالطويلة..

اغمضت عينيها واشاحت عنهم جميعاً لتقع فريسة نظرات اعضاء مجلس الادارة ورئيسه يقول بعينين ضيقتين:

-ماذا لديكي لتفسري سلطانة؟

اخذت نفساً عميقاً وتقدمت لتضع أوراقها وقالت محاولة السيطرة على ارتباكها:

-أنا لاأعرف ماحدث بالضبط سنيور مارسيني، ولكنني أعدك بأنني.. انا سوف أحصل على كل المعلومات بأسرع وقت ممكن وسوف أوقف هذه المهزلة مهما كانت.

-أهذا مااستطعتي قوله؟؟ اننا نغرق سارة.

هدر الرجل لتنتفض وهي ترفع عينيها اليه ثم تقول بحنق:

-انها مجرد عقود تافهة سوف نقوم بتعويضها، اما الباقي ففريقنا القانوني يمحص العقود التي ابرمناها معهم ولن نترك ماحدث يمر دون عقاب سنيور.

تراجع الرجل في مقعده وغمغم:

-أريد أن أعرف مايفعله زوجك هناك بالضبط؟ وهل سأفتح عيني يوم غد لأجدك هناك أنت الأخرى سارة؟

احتقن وجهها وهمست بصوت مخنوق:

-أنت تعرفني جيداً سنيور.. أنا.. ولائي.. للمجموعة فق..

-انه زوجك..

هدر مقاطعاً كلماتها المرتبكة لتنتفض وتناظره بذهول بينما يعاود الصراخ:

-تباً لكل هذا سارة أنت قد تتركينا في لحظة للحاق به، المرأة حين تعشق تصبح غبية للغاية.. واعذريني على التعبير تصبح ككلبة مطيعة لاتنبح بعيداً عن سيدها.

تصلب وجهها والذهول يغرقها كلها بينما تسري الهمهمات بين اعضاء المجلس ورئيسه يصرخ من جديد:

-لديكِ 24 ساعة لتحضري رداً مناسباً ليس لنا بل للعالم كله أتفهمين؟

ثم نهض يلحق به الباقون وابتسامات خبيثة تتألق على أفواه البعض بينما الأخرون يناظرونها

بشفقة.. لقد بقيت هناك فقط تنظر الى الشاشة المتوقفة وتحمل صورة ركان المبتسم بوضوح ونيران تقبض على ذراعه بلمحة تملكية جعلت أحشاءها تعتصر بوحشية وعينيها الرماديتين تشتعلان كعواصف عاتية ضاربة تعد بخراب قادم لامحالة.

شعرت بمن يقتحم خلوتها فرفعت عينيها لتقعا على سييرا التي قالت باقتضاب:

-الفريق القانوني بإنتظارك سلطانة.

اغمضت عينيها للحظة ثم نهضت بزفرة عميقة وأسرعت خلفها، كان الرجلين والمرأة التي ترأسهما يقفون بإنتظارها حين قالت بتجهم دون مقدمات:

-أريد الخلاصة..

تبادل الثلاثة النظرات ثم تقدمت المرأة سوداء الشعر وقالت بجدية:

-الخلاصة سيئة، نحن ليس لدينا شيء.

-ماذا تعنين بهذا؟

صرخت بشراسة ثم سارعت:

-لدينا عقود تربط الدور التي تعاقدت معها مجموعة الباشا.. لدينا شيء ضدهم بالتأكيد.
كانت تهتف بيأس لذا اقتربت منها المحامية وهمست بتوتر:
-معظم الدور التي تحدث عنها ركان في المؤتمر الصحفي انتهت عقودنا معهم بالفعل وقد قدمنا عروضنا الجديدة اليهم قبل مدة ولكنهم كانوا يماطلون في التوقيع دون ابداء أسباب، في العقود لايطبق الشرط الجزائي الا في حالة واحدة سنيورا، اذا تم التوقيع قبل مرور الفترة الزمنية الخاصة بالتجديد وهذه انتهت منذ زمن، نحن لم نلاحقهم والأتراك استغلوا الفرصة.. لقد تقدموا بعرض أفضل.. واولئك استغلوا الفرصة فقط.
-وماذا عن تلك التي لم تنتهي عقودنا معهم بعد؟
تسائلت بشحوب لتتنهد المرأة وتضع بضة اوراق امامها:
-انها ثلاث دور للأزياء.. اثنتان فسختا العقود بالفعل وقد بدأنا بالاتصالات معهم لدفع الشرط الجزائي..
نظرت لها بحقد وهي تواصل:

-وكماتعرفين لابد أن مجموعة الباشا تتكفل بهذه المصاريف.
تراجعت في مقعدها جسدها منهك ومتألم وكأنها تعرضت للضرب حقاً، رباااه..
لماذا فعلت هذا ركان؟ لماذا تخنقني بهذه الطريقة وكأنني عدوتك؟ ماذا فعلت سوى أنني أحببتك بكل جوارحي؟!
لقد سلمتك قلبي وأنت سحقته بلارحمة..
انسابت دمعة صامتة على وجنتها ولكنها أشاحت كي لايلمحها أحد وسمعت سييرا تطلب منهم الانصراف ثم اقتربت منها وقالت ببرود:
-لقد حذرتك منذ زمن ولكنك لم تصدقيني..
-ليس الوقت مناسباً لمحاضراتك الأن، أنت لم تكوني أفضل مني.
هتفت بحقد ليحتقن وجه سييرا وتشيح عن صديقتها لتخفي نظرة عينيها الحقودة وهي تهمس:
-لقد كان.. مجرد.. مجرد..

-لقد كان مجرد شيئ سخيف اكتشفت أنت وهو خطأه المقدع وتداركتموه.. ولكنك وقعتي مثلي سييرا ولو أنني ابتعدت لكنت أنت الأن مكاني.
هتفت سارة بشحوب.. لتغمض سييرا عينيها وتهمس بصوت متألم:
-لقد اختارك أنت سارة، ليس خطأك أنني وقعت لأجل المتلاعب بالعينين الزرقاوتين، وليس خطأك أيضاً أنك أغرمت بنفس الشخص بقوة دفعتك للمخاطرة بكل شيء والزواج منه.
نظرت لها سارة وهمست:
-هل كنت مخطئة الى هذا الحد؟
التوى فم سييرا بشبه ابتسامة وهتفت بمرارة:
-لم يمضي شهر على زواجك إلا وهو يقلب الطاولة عليك، انه يخرب عملك.. بل هو يخرب حياتك وتتسائلين إن كنت مخطئة؟
تنفست سارة بصعوبة ومالت على مكتبها تسند رأسها على كفيها بينما تستدير سييرا تنظر لها بعينين تحملان مرارة ونظرة اخرى تقارب التشفي بل هي التشفي ذاته:

-لقد نصحتك مراراً سارة، ولكنكِ لم تفهمي استمررتِ بمحاولاتك الغبية لتثبتي للجميع أنك الاستثناء، أنك من أوقع الباشا في ششباكه بينما الكل يعرف أنك السمكة الحمقاء مفغورة الفاه والتي أوقعها هو بشباكه دون مجهود يُذكر.

-اصمتي..

همست بألم ولكن سييرا لم تتوقف.. اقتربت وخبطت مكتبها بقوة وصرخت:

-هذا هو عقابك سارة، هذا هو عقاب المرأة التي تسرق محبوب صديقتها الوحيدة.

رفعت سارة وجهها ونظرت لسييرا بعينين جاحظتين بينما الأخرى تهتف بمرارة:

-لقد صمت لشهور وأنا أراك تختالين بقصة حبكما العاصفة، وكنت أنا الضحية التي تراجعت بكياسة كي لاتخسر صديقتها الوحيدة لأجل رجل.. ولكن ليس بعد اليوم.

لهثت سارة ونظرت لرفيقتها بوجوم:

-ماذا تعنين؟ مالذي تنوين فعله؟

استقامت سييرا ولفت ذراعيها بإبتسامة ساخرة وقد تألقت عينيها ببقايا مرارتها:

-ستعرفين قريباً جداً عزيزتي..
ثم التقطت سترتها وارتدتها على عجل وهي تهمس:
-استقالتي ستجدينها على مكتبك في الصباح الباكر.. لاينقصها سوى توقيعك.
شعرت سارة بالذعر.. انها وحدها حقاً..
-سيرا توقفي، ماذا تفعلين؟
هتفت بإرتباك بينما سيرا تتجه نحو الباب وهي تصرخ:
-أخرج من هذا المكان القذر وابتعد عنكِ.. ولكنني سأعود.
والتفتت لها نصف التفاتة قبل ان تبتسم بشراسة:
-وحينها ستكون كل الأدوار معكوسة صدقيني..وستلاقين أكبر مفاجآت حياتك.
قالتها وخرجت.. تركت الباب خلفها مفتوحاً وسارة تجلس على مكتبها بذهول تغرق فيه من اطرافها حتى قمة رأسها.. لقد وقعت في شباك أكبر بكثير مماتقدر على التخلص منه وحدها.. انها تغرق دون أمل في النجاة..
وقد نصبه لها أقرب الأقربين.

***

الليل المظلم، الوحشية والسكون.. الطريق الطويل.. ملئه الضباب وباتت القيادة مغامرة لاتحمد عواقبها في حين استمرت هي بالضغط على دواسة الوقود لتسرع السيارة أكثر وأكثر في تهور اعترفت به ومارسته بعناد، عضت شفتيها وشددت من ضغط قبضتيها على المقود بقوة تحارب عينيها كي لاتذرف دموعها، لايزال الجرح حديثاً وهي.. هي كانت عوداً طرياً لم يشتد صلبه ولم تجد يوماً من يصفعها على وجهها كي يوقظها من دفئ أحلامها..

ثم جاء ذلك المنعطف..

تعالى صوت صريخ ما حولها وشعرت بالسيارة تصطدم بجسد ما..

فتحت عينيها تريد التخلص من دموعها.. وعادت تشعر بالجسد يعود للارتطام بالسيارة بقوة..

وانتفضت بألم صارخة الوجع من بين شفتيها بقوة ..

وانتفض أوس إليها راكضاً..

كان يحاول النوم بعد بقاءه مستيقظاً طيلة الليل، فقط ساعات قليلة يركن اليها ويعيد ترتيب الامور وقت انبلاج الصباح.. ومااإن غفلت عينه حتى سمع صرختها المدوية.

ركض بأسرع مايمكنه من الطابق السفلي ووصل الى غرفتها ليقف مشدوهاً.. كانت تقف امام النافذة المشرعة وشعرها الطويل يتطاير خلفها وقد سلمت عينيها لبشائر الفجر في الأفق..

"ترنيـــم؟!"

همس بتوتر لتلتفت اليه بحدة، ذراعيها تلتفان حولها وعينيها، " آآه " من عينيها تتسعان بذهول وهي تنظر اليه..

مالذي يفعله هنا؟!

فكرت بجنون .. كان يقف امامها وكأنما يملك الحق في المكوث مكانه، تأملت ملابسه وقد تجعد قميصه الأزرق وكشف عن صدره متجاهلاً رتق أزراره، ونزلت عينيها الى ساقيه الطويلتين بالبنطال الأبيض ثم قدميه الحافيتين.

-ماذا تفعل هنا؟

همست بشحوب ليرفع حاجبيه ويقول بسخرية لم يتمكن من السيطرة عليها:
-لاتقولي أنك فقدتي ذاكرتك عن الساعات التي قضيتها معي ترنيم؟ هذا سيجرح كبريائي فعلاً.
شهقت وتراجعت وقد اتسعت عينيها بصدمة بينما رفع أوس ذراعيه وقد أيقن أنه تجاوز حده:
-ربما ليس الأمر كماتفكرين به.. أنت اتصلتي بي وطلبتي مني المجيئ..
كانت الصدمة على وجهها دليل كافٍ أنها ستنكر كل ماتفوه به لذا رفع كفيه مجدداً وهتف:
-أنت كنت منهارة ترنيم وبحالة يرثى لها، ولم أعرف مايمكنني عمله سوى المجيئ اليك، أنت تحتاجين إلي.
كان قلبها يخفق بجنون.. مالذي فعلته؟؟ هل خانت نفسها وطلبت العناية والاهتمام من هذا الرجل؟
هل ذلت نفسها ولجأت لرجل أخر؟؟ ألم تكفها خيبات الأمل؟؟ ماذا حدث لها؟؟
رأته يتقدم نحوها فتراجعت ولكنه لم يتوقف وهمس:

-أرى أن الرغبة بالنوم قد تلاشت منا معاً.. لم لاأصنع لكِ كوباً من القهوة ونتحدث حولها بعض الوقت..

-يجب..يجب أن أحضر للجنازة..

همست بألم وقد جاهدت لتنتزع عقلها من أفكارها التي تدور حوله وركزت حول المهم فقط.. كمالة.

تنهد واقترب منها متجاهلاً انكماشها حول نفسها:

-أنا سأكون معكي لاتخشي شيئاً، تعالي.

مد يده لها وانتظر بصبر وراقب اتساع عينيها بصمت، كطفل تحاول ان تقرر أن تأخذ بذراعه او أن تفر.. ولكنه لم يكن بمثل تلك القسوة، ليس معها.. انها تخرج.. أفضل مافيه..

فكر بشرود، ثم تراجع خفض عينيه وأعاد ذراعه اليه وهمس بخفوت:

-سأنتظرك في المطبخ، ضعي شيئاً ما على رأسك وانزلي..

اتسعت عينيها بذهول وهي تراقب ابتعاده.. يدها ترتفع لتدرك أنها وقفت امامه من جديد دون حجابها، أليس لغباءها نهاية..

ابتلعت ريقها وتقدمت الى المرآة..

كانت لاتزال بملابسها التي عادت بها من المشفى..
تنهدت ولملمت شعرها كيفما اتفق خلف عنقها ووضعت شالاً خفيفاً ثم نزلت خلفه..
كان يضع دلة على النار وحالما دخلت قال بمرح:
-لم أضع شيئاً كهذا على النار ابداً، ألم تسمعي عن آلة صنع القهوة؟؟ أو ربما السخان الكهربي؟
-كمالة ..لم ترضى أن تشرب القهوة الا بالطرق القديمة، كان علي تقبيل قدميها كي تتوقف عن استخدام النار الحقيقية، لقد كادت أن تحرق المكان قبل سنوات.
نظر لها بخفة وهمس:
-تبدو شخصية مثيرة، من الخسارة أنني لم أرها قبلاً.
احتقنت مشاعرها وتألقت في عينيها ليسرع ويجذب لها الكرسي ويقول مغيراً الموضوع بحرص:
-اجلسي.. لابد أنك لم تتناولي شيئاً منذ الصباح..
-لست جائعة.

همست بإرتباك..ولكنه لم يستمع اليها بل فتح الثلاجة ونظر الى محتوياتها بحاجبين معقودين وهو يدمدم:
-واترك الفرصة لأظهر مهاراتي المطبخية؟ مستحيل سيدتي..
ونظر لها بحاجب مرتفع وقال:
-انت فقط اجلسي وانا اهتم بالباقي.. ماذا هناك؟
تسائل حين رأاها تشيح بعينيها بحرج لتهمس وهي تخفي احمرار وجنتيها:
-اقفل قميصك.
رفع حاجبيه باندهاش ثم نظر الى قميصه المحلول والتوى فمه بسخرية وهو يقول بوقاحة:
-ماذا؟ هل جرحت عذرية عينيكي؟ ألم تري رجلاً عاري الصدر قبلاً؟؟ منذ متى تخفضين عينيك ياترنيم؟ لم أعهد فيكي الخجل؟
رباااه انه يسبب لها الغضب.. فكرت بحنق ورفعت عينيها بحدة لتلتقي عينيه بنظرتهما المتسامحة..

لقد تعمد الوقاحة، جف فمها وهي ترى الابتسامة العريضة التي احتلت وجهه وهو يغلق أزرار قميصه ببطء قائلاً:

-هذه الترنيمة التي ابحث عنها، لقد اشتقت لنظرتك التي تضعني في مكاني حقاً، ترنيم الخانعة لاتناسبك ياقطتي الجميلة.

-أنا لست قطتك..

هتفت بعصبية، والخجل والانتشاء بغزله الوقح يجتاحها ويتصارع بداخلها، فلم تعرف أتذوب خجلاً أم تنهض وتضع بصمتها على ووجهه..

غمز بعينه وكشر بإبتسامة مجنونة قبل أن يعود الى الثلاجة ويخرج منها العديد من الأشياء..

وقفت هناك فقط تراقبه.. كان قد انتهى وبدأ يرص الأطباق أمامها..

-انها اشياء خفيفة فقط، كمالة تلك.. كانت متقشفة.

-لم تكن تأكل، السـرطان لم يترك لها شهية مفتوحة..

همست بألم وشعر بكلماتها تجلده بقسوة لذا اغمض عينيه بحرج وكاد يعتذر لولا رؤيتها تمد يدها لتحيط بكوب قهوتها..

-لا لا.. تناولي الطعام اولاً.
نهرها لتعود وتنظر للطعام، كان هناك الجبن، والعسل.. خبزاً قام بتحميصه بنفسه على النار.. وعجة بيض رائحتها شهية للغاية، كانت جائعة حقاً..
بدأت بتناول الطعام بتردد قبل ان تعترف له بخفوت أنه طاهٍ ماهر ليبتسم بإعتزاز قائلاً:
-العزوبية لها بعض فوائدها.
عقدت حاجبيها وتذكرت مناشدة أمها المستمرة لها أن تتعلم الطهو، هي لم تفكر يوماً بالأمر..
-أخبريني عنها.
نظرت له بحيرة، ليقول:
-كمالة..قريبتك التي توفيت.
تركت الخبز الذي تحمله وجف حلقها ووجهها يحتقن بالألم بينما تنظر له وكأنها تؤنبه على ذكر لم يكن في موضعه وكأنها تعاتبه:
-لاتقل..
وتعلقت جملتها وعينيها تتسعان بألم بينما يتنهد هو :

-لقد توفيت ترنيم، ليس من داعٍ لأن نلف وندور حول هذا الامر، لقد حصل وعليكي أن تعيشي حياتك.

-لقد كانت تنتظره..

همست بشرود لينظر لها بتساؤل فأكملت بخفوت وهي تعبث بالطعام على طبقها:

-انتظرت الموت لأكثر من خمسة عشر عاماً.. منذ ماتت روحها وهي تنتظر.

ضاقت عيناه ينتظر تفسيرها لتتنهد وترفع بصرها الى النافذة حيث ابتدت الشمس بالشروق:

-مريم هي ... كانت الأخت الصغرى لعائلة ضخمة، ثرية وذات مكانة..

لم تكن أبداً ممن تحتكمه الثروة والنفوذ، لطالما كانت فتاة بسيطة ومحبة للجميع، بينما أحبها الكل بالمقابل..

توقفت ورفعت قهوتها الى فمها لترشف منها جرعة كبيرة وأوس يناظرها بتركيز..

-كمال كان يعمل لدى والدي.. كان أحد محامينه الشباب، بالأحرى كان مساعداً لأحد محاميه..كان

يتردد على منزل العائلة بإستمرار، كان حبهما قوياً ومؤثراً.. أحبته بجنون وهو هو أحبها..
كانت ترتجف وهي تتكلم وأوس لم يتدخل تركها تفرغ كل مالديها بصمت ..
أصابعها تشتد حول مج القهوة وهي تهمس بشحوب:
-وبالطبع رفض الجميع زواجهما لم يكن أحد ليوافق على زواج ابنة الحسب والنسب لذلك المحامي البسيط.. حاربهما الكل.. ولكن مريم ابنة الثالثة والعشرين عاماً لم تكن ضعيفة ومسكينة.. كانت لها قوتها التي ورثتها عن عائلتها .. كانت قوية بمايكفي لتقف وتنال ماتريد..
تنهدت وصمتت تعقد حاجبيها وتدعك جبينها بألم ليستند الى الطاولة بمرفقيه ويتسائل:
-ماذا فعلت؟
-تزوجتــه..
أجابت ببساطة جعلته ينظرلها بدهشة واستنكار ولم تأبه لأيهما وهي تهمس:
-أو على الأقل.. هي اتفقت معه على أن تهرب برفقته.. دبرت كي تهرب الى العاصمة وهناك

انتظرته طويلاً ليأتي ويتمم زواجهما ولكنه لم يصل قط.

-ماذا حدث؟

تسائل بفضول.. لتتنهد وتهز رأسها:

-لم تعرف.. لقد انتظرته لأيام ثم عادت لعائلتها وحيدة مكللة بالعار.. عادت منبوذة من الرجل الذي أحبها..

مال برأسه لجهة ومط شفتيه لتزفر:

-هناك بقية فلاتكن نافذ الصبر.

-أنا أنتظر.

قال بدفاع لتشير لأصابعه التي تنقر على سطح الطاولة بعصبية ليتوقف ويرفعها اليه بإبتسامة قائلاً:

-حسناً لستُ محباً للحكايات الدرامية وخصوصاً حين تكون القاصّة واحدة مثلك..

اتسعت عينيها وهمست بحنق:

-وماذا بي أنا؟

"فقط أنك تبدين لذيذة جداً ولاتقاومين في هذه اللحظة بالذات..

فقط لأنك تبدين وكأنك بعيدة جداً رغم المسافة القصيرة التي تفصلنا،
فقط لأنني اود ابعاد هذه الطاولة اللعينة وأخذك بين ذراعي..
مخاطراً بكل ردودك وماقد تفعلينه.. فقط أريد احتضانك كماالليلة الماضية..
وهذه المرة.. أريدك أن تبادليني مشاعري..
أريدك أن تضمينني بقوة كماسأفعل..
أريـد.. وأريـــــد.."
""أووووس""
صاحت لتخرجه من أحلام يقظته وتجعله ينظر لها بذهول..
-ماذا حدث بما تفكر؟
همست بفضول لينفض تأثيرها من عليه ويهز رأسه ضاحكاً بإرتباك يخفي اثارته التي صرخت من عينيه، كي لايفزعها بعيداً عنه فقد كانت مشاعره قويـة لتستوعبها حالياً..
أقوى مماقد شعره في حياته من قبلها..
-أكملي..

قال بنبرة مبحوحة لتميل برأسها وتتنهد.. كانت تريد الصمت وعدم الكلام، ولكن شيئاً مابداخلها كان يطالبها بأن تخرج مشاعرها كلها من وتلقي بها بين يديه...

-حين عادت مريم الى عائلتها..

-لحظة..لحظة..

اعترضها فنظرت له بتساؤل ليقول:

-اسمها مريم؟؟ ماذا عن كمالة؟

تنهدت وهي تسيطر على أعصابها من مقاطعته لها:

-لقد أطلقت على نفسها هذا الاسم بعد وفاته، الجميع فعل وذلك لملازمتها اياه طوال الوقت.

زم شفتيه ودمدم:

-هذا متطرف قليلاً ألاتظنين؟

-كانت عاشقة.. لم يكن لديها شيء تتمسك به سوى هذا الاسم..

-وماذا حدث بعدها؟

تسائل بنفاذ صبر لتصيح بحنق:

-ان تركتني أكمل فربما، ربما تعرف ماحدث؟

-لم أنت غاضبة؟

-لست غاضبة..
رفع حاجبه بصمت لينظر اليها بعمق، كان وجهها احمر وعينيها تلمعان بغضب بينما تعض شفتها بقوة ليأمرها:
-لاتفعلي هذا أمام أي رجل أبداً.
عقدت حاجبيها بتساؤل فمال يرفع اصبعه ويلامس بها ذقنها جاذباً شفتها السفلى بقسوة محرراً إياها من قبضة أسنانها واشتعلت عيناه الرماديتان بنيران باردة وأصابعه الخمسة تحيط بذقنها وترفعه لتلتقي نظرتها بنيرانه وهو يضيف:
-لاتجدين رجلاً مسيطراً على انفعالاته في كل يوم ترنيمتي..
سحبت نفسها بعيداً عن قبضته فتركها لاوياً فمه بسخرية متراجعاً في مقعده وفارداً ذراعيه وهو يهمس:
-أخبريني عن كمالة.. مريم.. أياً من كانت.. تكلمي بأي شيء أخر يخرجنا من هذه النار ترنيم وإلا أحرقتنا سوية هنا والأن.

وبإستجابة مذهلة عادت تهمس بصوت بعيد عن صوتها:
-لم تكن تعرف أنه مريض.. وقع فاقداً لوعيه وقد ابقوه في المشفى لأيام طويلة.. وحين عرفت..
أخرجت تنهيدة عميقة.. تريد الخروج من أسر عينيه ولكنها لاتزال تتشبث به بضراوة:
-كانت كالمجنونة.. كان مريضاً، وهي لم تعرف.. كان يموت.. اللوكيميا كانت في مراحلها الأخيرة ولم يفد أي علاج.
-ياااللهـــــي..
نهض من مقعده بفوضى تسببت بوقوع الكرسي على الأرض، يديه قبضتا بقوة على كوب قهوته وأحد الصحون واندفع للمجلى بحنق.. رباااه..
شهقت حين كسر الاتصال بين عينيهما وراقبته بذهول وهو يهرب ليشيح عنها فهتفت:
-انه دوري..
-لا ياقطتي، أنت استمري بكلامك، وانا سأجد شيئاً أخر أفعله بيدي.
ثم رفع رأسه للسقف وقال بعصبية حانقة:

-أي شيء أفضل من الأفكار التي تروادني حالياً.. استمري.. ماذا فعلت كمالة حين عرفت أنه مسافر؟

رفعت حاجبيها وصرخت:

-لم يكن مسافراً.. كان مريضاً..

دارت عيناه في محجريهما وهو ينظف الصحون بتهور يكاد يتسبب بتحطيمها وهو يدمدم بغضب من بين اسنانه المطبقة.. وماهمه ان كان الرجل الميت قد مرض او سافر.. تباً هو لم يكن يولي أي اهتمام بماتقوله او معناه..

كلما تكلمت كانت عيناه تتعلقان بحركاتها الناعمة..

انحناء عنقها.. ميلان زاوية فمها..

حركة شفتيها وهي تلاعب الحروف..

نغمة صوتها.. وكل مايستطيع التفكير به.. هو تلك الشفتين المثيرتين تتنهدان اسمه وتبادله القبلات..

رباه هو لايستطيع التفكير بأي شيء أخر..

لايستطيع حتى فهم ماتقول..

أي وغـد هو؟؟

-أووووس.. أنت لاتسمعني صحيح؟
صاحت بتوتر.. شعر بها قريبة.. كانت تحضر له باقي الاطباق تتحرك بعصبية هو فقط أراد الاستدارة واحاطتها بذراعيه وافراغ توتره ورغبته بين ذراعيها..
-ضعي كل شيء من يدك واذهبي لتجهزي نفسك.. أليس لديكِ جنازة للتحضير لها؟
نظرت له بتوتر.. الجنازة؟!
ماذا عن والدها وخالد؟؟ بعد اتصالها الكارثي أمس والذي تسبب لها بأكثر ماكانت تخشاه عمرها.. الكره نحوهما معاً هي لاتقدر على انهاء كل الاجراءات وحدها.. انها خائفة.
-هل سترافقني؟
همست بتردد.. ليتنهد ويبقي يديه تحت الماء المتدفق ثم يرشقها بنظرة حادة:
-بالطبع ياقطتي ومن سيكون إن لم أكن أنا.. اذهبي الأن والا فإنني لست مسؤولاً عماسيحدث.
مطت شفتيها بعدم فهم مماجعله يلعن بخفوت ثم ينهرها بقسوة ان تذهب..
-ولكنني لم أنهي لك ماحدث لكمالة وكمال..

قالت ببراءة جعلته يفلت أحد الأطباق من يده ولايحطم زجاجه بأعجوبة صارخاً:
-لم لانؤجل معرفة ماحدث لما بعد.. أعدك سأنصت لك..اذهبي الأن.
اومأت بخوف من عصبيته ثم أسرعت خارجاً ليزفر وهو يستند على الحوض بمرفقيه:
-رباااااااااه ماذا ستفعل بي بعد؟!!
وعاد ينهي التنظيف بسرعة وعصبية يأمل بأن تنتهي من تجهزها قبل تقضي عليه ساعات الانتظار.. لن يصبر، والله وحده يعلم ماقد يتسبب به من جنون إن لم يجد حلاً سريعاً لمشاكله في السيطرة على نفسه حولها..
***
روما..
رتبت القصاصات بيدها، قرأتها للمرة الألف ثم تقدمت الى المرآة وتأملت نفسها من جديد.. البدلة الجوخية الصفراء ناسبت بشرتها الشاحبة تنورتها القصيرة تظهر ساقيها المديدتين وجايتها القصير يكشف عن رشاقتها وخصرها المستدق، أخرجت أحمر شفاه وأخفت به بعض شحوبها

وجفاف شفتيها، هي لم تأكل شيئاً منذ ليلة أمس..
وكوب الشاي بالأعشاب الذي شربته هذا الصباح لم يسدها الكثير من الفائدة..
ولكنها ليست ضعيفة.. انها السلطانة وهي ليست ضعيفة أبداً.
سمعت الطرقات على الباب فأخذت نفساً عميقاً وأمرت الطارق بالدخول.. كانت مسكرتيرتها الشخصية:
-المؤتمر الصحفي سيبدأ بعد قليل سلطانة الكل بإنتظارك.
-ألم تأتي سيرا؟
تسائلت بجمود لتهز المرأة رأسها نافية فتومئ وهي تتوعد تلك الشمطاء الحقيرة بأسوأ العقاب حال ظهورها، هي لم تنسى كلماتها ولا ماقالته بحقها ليلة أمس ولن تنسى.
تقدمت الى غرفة الاجتماعات حيث دعت مؤسستها الى عقد مؤتمر صحافي عاجل وذلك لتهدأة المساهمين اولاً والبدء بإعلان تحركاتهما القانونية لفضح مافعلته مجموعة الباشا وماتخطط لفعله في المستقبل، ليس لها الكثير لتقوله ولكنها

ستقف وسط الجميع وتضع أكثر ابتساماتها قة ونعومة وستسحر الجميع..
ركان من علمها هذا..
تجهم وجهها وهي تعبر الأبواب الى داخل غرفة الاجتماعات والتي جُهزت للمؤتمر.. كان هناك العديد من الصحفيين والمندوبين عن دور الازياء والشركات المساهمة، بالإضافة لحاملي الأسهم.. الكثير والكثير..
أخذت نفساً عميقاً ورسمت الإبتسامة الديبلوماسية تلك، وتألقت عزيمتها من عمق عينيها وهي تقترب من المنصة حيث ستلقي كلمتها للجميع..
واجهتهم بخفة متجاهلة الصداع الذي كاد يحطم رأسها، والغثيان الذي تصاعد يخنقها من دون مقدمات..
ولكنها ابتسمت، بجمود تجلى في عينيها وقفت ورحبت بهم جميعاً.. ورفعت ذراعها حالما حاول البعض البدء بطرح الأسئلة بينما سطعت فلاشات كاميرات التصوير أمامها..
-لدي كلمة في البدء..

قالت بصوت واضح وجلي.. والابتسامة لاتزال على وجهها وهي تديره في وجوه الجميع ثم أخذت نفساً عميقاً قبل أن تبدأ بطرح نقاط محددة عن توزيع الأسهم، ومدى قوة السهم الخاص بشركاتهم في السوق العالمية وكيف أنه وبرغم كل ماحدث لم تتأثر قيمة السهم بنسبة كبيرة كما رأت في أخبار البورصة العالمية.. بل أنها بدأت بالارتفاع منذ مايقارب الساعة بطريقة عجائبية..
كانت تبتسم..
"ربـما لأن أكثر من نصف الأسهم قد بيعت"
هدر صوت ما في الخلف جعل الابتسامة التي تحملها ترتجف وهي تنظر اليه بشحوب لم تستطع أن تخفيه، وحاولت تجاهل الرجل الذي رفع كاميرته والتقط لها بعض الصور وهو يصيح:
-ألم تبلغك الأخبار بعد؟ أم أنني أدلي بسبق صحفي سلطانة؟
التفتت لمساعدتها بحدة والمسكينة تهز كتفيها وقد أسقط بيدها بينما سمعت سارة نفسها تقول بخفوت:

-هذه الأخبار لاصحة لها..
-أراهن أن هذا تصريح سابق لأوانه سلطانة..
سمعت الصوت المألوف من خلفها لتلتفت بحدة وتطالعها العينين الثلجيتين لسييرا ومن خلفها تواكب بضعة رجال سرعان ماأفسحوا المجال لتتقدم من خلفهم تلك المرأة..
المرأة التي رافقت ركان في مؤتمره ليلة أمس..
فاتنة بثوبها الأحمر القصير وشعرها الكثيف يداعب رؤوس كتفيها، ثم كان هو خلفها..!!
اتسعت عينيها بذهول وهي ترقب دخوله المثير ببدلته الزرقاء التي نافست لون عينيه وخصلاته الشقراء التي استطالت لتعانق منابت عنقه، وابتسامته الوقحة وهو ينظر اليها دون أن يكلف نفسه عناء الاقتراب..
ركان!!
هدر الاسم بداخلها وتردد الصدى يهز عالمها بينما تتعلق به دون ارادة منها وتلك المرأة تقترب لتقف أمامها مباشرة الى جوار سييرا وتقول بنعومة تشبه نعومة حية رقطاء:
-الســلطانة.. أخيراً التقينا..

انتزعت سارة عينيها بصعوبة عن زوجها الذي وقف خارج نطاق صراع الإناث وفضل النظر من بعيد، بينما وقعت سارة على نيران التي ابتسمت بنعومة وهي تهمس:

-لقد سمعت عنك الكثير سلطانة.. ولكنني بدأت أرى نقاط المبالغة هنا.

عادت تهمس ثم تحولت نعومة ابتسامتها الى سخرية حادة وقاسية وهي تتخلى عن المناظرة بعد احتقان وجه سارة وارتباك نظرتها، وتتقدم الى المنصة حيث كانت تقف قبلاً متجاهلة اعتراض سارة ومرافقيها لتواجه الجمع الهائج وفلاشات الكميرات التي لم تتوقف:

-أرى أننا قد جئنا في الموعد، كان من اللطيف جداً من السلطانة أن تجهز لنا كل مايلزم لإعلان كهذا.

نظرت سارة لسييرا بخشية وهمست:

-ماذا تفعلون؟

التوى فم سييرا وهمست بوحشية:

-سترين سلطانة..

وعادت الى نيران التي كانت تقول بصوت جهوري:

-وقد تحصلت مجموعات الباشا على الاسهم المعروضة في السوق، وبحسابها فإن مجموعة الباشا تملك الان ثلاثة وخمسون بالمائة من أسهم الصحيفة..

"مستحيل"

هدرت بقوة لم تغادر فمها المفغور امام ماتقوله نيران وتجاهلت فلاشات الكاميرات بينما تركز معها وهي تشير بيدها:

-وبهذا يحصل فريقنا على الأولوية في قيادة الصحيفة وتخليصها من الوضع المزري الذي كانت تعانيه.. وكل هذا تحت عناية..

وتابعت سارة ذراع نيران الممتدة مشيرة اليه..

ركان!!

-السيد ركان الباشا، رئيس مجلس ادارة الصحيفة بالنيابة عن السيد شاهر الباشا مالك الاسهم، حيث سيقوم السيد ركان بمهامه كرئيس مجلس الادارة وممارسة مهامه كرئيس تحرير الصحيفة كذلك.

اتسعت عينيها بذهول، وتصلبت بوقوفها بيما يتحرك ركان أخيراً ويقترب من المنصة وقد اعتلت الابتسامة واحتلت كامل وجهه تكاد تشقه صفين وتجاوزها دون أن ينظر اليها حتى هامساً:
-الى الجحيم بتقليص النفقات ياعزيزتي...
شهقت بتوتر وتابعته يعتلي المنصة ويتقبل اسئلة الصحفيين بذات الابتسامة العريضة، وتسللت عينيها لتراقب ذراع نيران تلتف حول عضده كأفعى سامة بينما يبدو معتاداً على الأمر، وشعرت حينها بسييرا تقترب منها وبعيداً عن الانظار همست لها بحقد:
-ألم أقل لكِ أنك ستشهدين أحد أكثر الايام متعة وغرابة..
ها أنت تقفين بلاحول ولاقوة، بينما هذا الرجل الجميل يحصل على كل شيء.. كوليمة ضخمة..فتح شهيته بك أنت.. ثم لم يعد يكتفي فاستولى على كل شيء..
كانت حروفها كالسم .. شعرت بالحرارة تغزوها وتغشى عينيها..

ركضت خارجاً ولم تنتبه للمحة البسيطة التي ظهرت في القلق من بين جفنيه وهو ينظر في اثرها..
ركضت حتى وصلت الى مكتبها..
استندت على الباب وبدأت تشهق طلباً للهواء وكأنها تغرق..
الحرارة تزداد وتكاد تشويها حية.. جسدها كله ينتفض ويوجعها بينما الغثيان يتصاعد أكثر حتى غشي بصرها وبكل ضعف تهاوت ساقيها تحتها وهي تعي خسارتها لكل شيء، وهي تخسر وعيها بالجملة..
***
عـدن..
امتلأ قصر الراجي بأفراد العائلة المهنئين من كل صوب، وارتفعت الأعيرة النارية ابتهاجاً بتمام عقد قران خالد الراجي تلاحقها الألعاب النارية بلاتوقف.. بينما وقف مختار الراجي بنفسه في استقبال ضيوفه بغطرسة تليق به وبمركزه وثروته..

كانت العادات تحث على اقامة حفل عقد القران في منزل العروس، ولكن لأن كل عائلتها تعيش في الخارج وليس لها سكن ثابت في الداخل فقد تم عقد القران في المسجد القريب واستقبال الضيوف في ديوانيته الضخمة.

-أبي.. يجب أن نتكلم.

تنهد السيد مختار ونظر لابنه بلمحة خاطفة ثم عاد لينظر عبر الديوانية للعدد الضخم من الضيوف:

-مالذي لديك لتقوله بني.؟ الان يجب أن تكون هناك فوق.. تحاول اقناع والدتك بتركك مع عروسك لبضع دقائق وحدكما لتسرق منها بعض قبلات جريئة..

-ابي؟!

صاح خالد باستنكار ليقهقه والده بمرح فيقاطعه خالد بألم:

-عمتي مريم توفيت.

تحجرت ملامح وجهه واشتعلت عيناه بغضب بارد وهو ينظر بإتجاه أبنه:

-أختي مريم، ماتت قبل خمسة عشر عاماً.. انتهى.

تراجع خالد بصدمة.. مهما كان الأمر بينهما.. مهما كان مقدار غضب والده من عمته لم يتصور قط ان تكون هذه ردة فعله.. اتصال ترنيم بهم البارحة وابلاغها اياهم بالخبر كان في رأيه كافياً لإلغاء كافة المراسيم لحفل عقد قرانه ولكن لا.. والده رفض رفضاً قاطعاً.. بل الأدهى أنه بالغ في كل شيء.. رباه وكأنها حفلة عرس لاعقد؟!

-بعد انتهاء الحفل ستذهب الى المطار الى روما، ستجد هناك اثنين من ابناء عمومك ستحضر لي ترنيم، مهما كلفك الأمر.. أتفهم؟

-ماذا تعني؟ أتريدني أن أخطفها؟

همس بإستنكار ليلوي والده فمه بإمتعاض:

-افعل ماعليك فعله.. أريدها معي.. وان اضطررت لتقييدها وجلبها لي بداخل شوال، أنا لن أسمح لها بالبقاء وحدها ابداً بعد الأن.

-وإن رفضت؟؟

همس خالد بإرتباك.. ليزفر والده مطولاً ثم يقول:

-حينها أنا بنفسي سآتي وسأعرف كيف أجلبها؟
أخبرها ان أمها تشتاق اليها.. أخبرها أنها مريضة.. قل لها أننا نقيم عزاءاً لوفاة تلك المرأة.. وانها يجب أن تحضر..
واقترب يواجه ابنه بشراسة:
-اكذب..اختلق القصص ياخالد.. لا أهتم فقط أجلب شقيقتك الصغرى الي مهما كلفك الأمر.
تراجع خالد بيأس وعقله يدور في دوامات ..
يحضر ترنيم رغماً عنها؟ هل ستسمح له؟ أم أن عليه أن يكذب كما يقول أبيه.. هو لايقدر..
قاطعت أفكاره رنة هاتف والده الذي التقطه وفتحه ملقياً السلام بعجرفة..
لم يسمع خالد مايقوله له الطرف الأخر بطبيعة الحال.. ولكنه رأى وجه والده، وعرف أن مصيبة سوداء حلت.. وأن أسوأ منها قادمة في الطريق..
-ماذا حدث أبي؟
همس بخشية بينما والده يغلق الهاتف بصمت ثم ينظر في عينيه بنظرة لو كانت تقتل لكانت حولته الى بخار:

-شقيقتك..
-ماذا حدث لترنيم؟
شهق خالد بذعر ليغلق السيد مختار عينيه ويهمس بسوط كحسيس الف نار:
-شقيقتك المصون تعاشر رجلاً...
-ماذا تقول؟
همس خالد بذهول صرف..
-اقول انها تعاشر رجلاً.. قضى ليلته في منزل تلك المرأة، والأن هو يرافقها في جنازتها.
عاد والده يهمس بخفوت.. ثم التفت اليه دون أن تتغير النظرة في عينيه باردة وتشتعل لهبة:
-تغيرت الخطط بني، أنا سأذهب لأحضرها بنفسي.. سأجلب عاري بيدي..
-من ؟؟ من قال لك؟
همس خالد وقشعريرة تمر عبر عموده الفقري ليهمس والده بجمود:
-أشرف ابن عمك، الرجل الذي كنت أنوي تزويجها به هو من قال لي.
-رباااااااه..

تراجع خالد بصدمة بينما مختار يستقيم بعوده ويأخذ نفساً عميقاً:
-ابقى مع ضيوفك.. أنا سأطير اليها في الحال.. سأستأجر طائرة إن لزم الأمر.. ولكنني سأكون هناك بأسرع وقت ممكن..
-ابي.. انتظر.
صاح خالد ليتوقف ابيه دون ان ينظر اليه فيهمس برجاء:
-ترنيم هي تربية يديك، هي لايمكن ان تخطئ.
أغمض مختار عينيه وقلبه يشتعل بالنار غضباً واسفاً..
-لقد عصتني.. وهربت بعيداً وتركتها لتنعم بلحظات هدوء علها تعود من تلقاء نفسها ولكن مافعلته الأن.. يُنهي كل شيء، ترنيم الراجي.. ترنيم الراجي ابنتي الصغيرة.. كسرتني.
ورفع عينيه للسماء وهمس بألم نادراً مايظهره لأحد:
-كسرت ظهري وحنت هامتي امام اولاد عمومها والله يعلم من أيضاً..
-لاتظلمها أبي.. ارجوك لاتظلمها.

ترجاه خالد ليرد بقسوة:
-ولم تظن أنني سأذهب بنفسي، لو كنت اريد الخلاص منها دون أن اعرف الحقيقة كنت أمرت أشرف بنفسه بالتخلص منها.
قالها بجمود وأسرع مغادراً الدار بخطوات واسعة يتبعه اثنين من حراسه الشخصيين وخالد خلفهم ينظر بعجز.. لايقوى على شيء.. فترنيم كتبت وثيقة ادانتها بيديها، انها تقطع كل سبل الاصلاح وغلطتها هذه المرة لاتغتفر.
***
انتهى الأمر..
انسابت دموعها بغزارة وهي تراقب كيف انهال التراب على قبر كمالة .. غرباء.. غرباء يهيلون التراب على جسد عمتها، مكان والدها وأخيها.. كتمت شهقاتها المتألمة بصعوبة، غرباء لم تربط بينهم وبينها شيء.. أحدهما عامل المقبرة والأخر.. الأخر كان أوس!!
تعلقت عينيها به.. كيف وقف وسط شمس الظهيرة وقد رفع كمي قميصه وتألقت قطرات العرق على جبينه وعنقه وتهدلت خصلات شعره

على جبينه وعيناه غائمتين بالحزن وكأنه يعرفها بالفعل..
مسحت دموعها وأخرجت بضعة مناديل ورقية من حقيبتها وتقدمت نحوه حالما رمي الجاروف من يده ووقفت أمامه تناوله اياها.. كان يلهث بقوة ويقول بسخرية:
-مضى وقت طويل منذ أن مارست رياضة بهذا العنف..
نظرت له بعينين تذرفان الدموع دون توقف:
-شكراً لك..
همست مخنوقة ليتوقف عن تجفيف عينيه ووجهه وينظر لها:
-لاتشكريني ياقطتي، لم يكن الأمر بهذا السوء.
لم تتوقف عن البكاء، شهقت بألم وبدأت تنتحب ليهمس:
-اوقفي الدموع ترنيمتي.
-لا .. لاأستطيع..
ردت بصوت مخطوف ليتنهد ويقترب منها بخطورة يميل برأسه ليقترب منها وبصوت اجش من العاطفة يهددها:

-توقفي الأن والا عانقتك وسط المقبرة وأمام قبر عمتك حتى تتقلب روحها في مكانها.
اتسعت عينيها بصدمة وتراجعت خطوة وهي تصرخ:
-ماذا تقول؟
رفع حاجبيه وابتسم قائلاً:
-لقد توقفت الدموع..
-أنت وقح.
همست مخنوقة ليقترب وينتزع سترته التي تمسكها له وهو يدمدم:
-نعم ..نعم.. لقد سمعت الكثير عن وقاحتي شكراً لكِ ياقطتي.
وقف أمامها وأشار لها لتتقدمه ففعلت.. كان قد استأجر سيارة لتنقلاتهما هذا الصباح وانتهى من اجراءات المشفى والدفن بطرق عجائبية، لقد قال لها انه يعرف البعض ولكن اتضح لها أنه يعرف الكثير..
قاد السيارة بصمت ورأها تعبث بالاذاعة حتى اوقفتها على محطة القرآن الكريم..رمقها بطرف عينه بينما عينيها تشردان..

اوقف السيارة حين وصلا الى المتجر.. ومن السلم الخلفي دخلا الى المنزل..
كانت وحدها فعلاً الأن..
تأملت المنزل الذي لازال يحمل أثار كمالة وخنقت عبراتها بصعوبة.. ثم تقدمت الى غرفة النوم حيث خرت على ركبتيها.. كانت ثياب مالة في كل مكان وثوب العرس لايزال على الفراش..
لقد خسرت كمالة فعلاً.. خسرتها دون أي أمل في استردادها، شعرت بنفسها وحيدة حقاً..
"كماااااااااااالة"
صاحت بوجع..وعلى الفور شعرت به خلفها..
شعرت بذراعيه حولها يسكن ارتجافة جسدها الذي ذاب تحت لمسته وانهارت كل دفاعاته بينما يديرها اليه بقوة ويغمرها على صدره هاتفاً:
-توقفي عن البكاء ترنيم، لقد حذرتك ويبدو ان هذا بالضبط ماتريدينه.
-لقد تركتني وحدي.. لم يعد لي أحد.
-أنا معكِ ياقطتي.. انا معك ولن أتركككِ أبداً.

هتف بعنف وهو يعتصرها بين ذراعيه، لم تتوقف دموعها وهي تبتعد بمايكفي لترفع رأسها نحوه، وتحوم عينيها الغارقة بالدموع في عينيه:
ـلماذا؟
همست بذهول.. ليخفض رأسه اليها.. يستند بجبينه على جبينها،، أنفاسه كانت تداعب وجنتيها كما لم يفعل رجل من قبل، كان قريباً كمالم يكن رجل من قبل، وهي لم تمانع.. لم تشعر بأنها مخطئة او أن الأمر خاطئ.. كانت تستسلم لعينيه العاصفة.. كانت تميل اليه ودموعها تتوقف وقد استحكمتها نظرته..
كفها الصغير استقر على صدره وأذابتها خفقاته المدوية..
اوس نفسه كان يخطو نحو شيئٍ لايعرف ماهيته.. خطوة واسعة نحو امرأة لاتشبه أي ماكان يريد ويشتهي، امرأة لايريد الا سواها.. والأن .. الان هو يريدها دون سواها..
أحاطت كفيه بوجنتيها مسحت ابهاميه اثار دموعها ولامست بشرتها الناعمة، وهو يقترب منها أكثر.. شفتاه تحومان فوق شفتيها بجرأة يود

لو يقترب ويطبق عليها، يعرف مذاقها ويحتفظ به الى الأبد..
انفرجت شفتيها بدعوة صريحة، استسلام دون شروط يقوده الى الجنون..
"ترنيم"
همس بثقل وطرفت عيناه.. لتخرج من دائرة السحر..
وتتسع عينيها بذعر ثم تتخبط بقوة للخروج من بين ذراعيه، أفلتها.. فزحفت لركن قصي تنظر له بذهول..
ماذا كانت ستفعل؟؟ كيف كانت ستستلم له؟ بتلك الطريقة؟؟ المخزية؟؟
تصاعد تنفسها وهي تطلب منه الخروج:
-اخرج.. لاأريد أن أراك.. ابتعد عني.
زفر أوس بتعب، نهض من مكانه ووقف يحوم فوقها كمخلوق متوحش ضخم:
-لن أبتعد.. لقد وعدتك.. ولكنني سأبقى في الأسفل حتى تهدأي.
لم تعترض، راقبته بذهول يكسوها محاولة درئ مشاعرها الأخرى والتي سيطرت عليها بالكاد

لتركض وتلقي نفسها بين ذراعيه مطالبة بكل ماقدم لها بعضه!!
ماذا حدث لها؟!
أما أوس فقد نزل درجات السلم القصيرة بسرعة وهو يحاول التقاط أنفاسه والسيطرة على نفسه التي بعثرتها تلك الصغيرة دون أن تقصد او تمتلك حتى الخبرة بذلك ولكنها فعلت..
جلس بإرهاق على احد المقاعد ونظر للسقف..
كان يريد الاتصال والاطمئنان على أختيه ولكنه فعلاً مشغول البال، ليس مستعداً لسماع شكاوى سارة ولا اقتضاب الصوانة وعنفوانها.
زفر بضيق حين سمع الطرقات الخافتة على الباب ونهض رغماً عنه ليفتحه..
وجد ثلاثة رجال اشداء.. يقفون ويكادون يسدون الفرجة الضيقة للباب الواسع..
-من تريدون؟
تحدث بالانجليزية رغم وثوقه ان الرجال الثلاثة لايتكلمون سوى العربية وانهم لن يردوا عليه ابداً..

وبالفعل تقدم اولهم ودفعه بقوة الى الداخل ليتراجع ويكاد يقع بينما يسرع الرجال الثلاثة خلفه، وبدون ان يستوعب مايحدث كان اثنين يكبلانه ليقف الثالث أمامه ومن خلفهم يظهر رجل بطول مميز وبنية ممتلئة ينظر لأوس باشمئزاز وهو يقول بلهجة يمنية صرفة:

-علموا هذا الغر ألا يلمس ماليس له...

اتسعت عينا أوس وحاول التخلص من قبضة الاثنين ولكنه شهق بألم حين وجه له الثالث لكمة قوية انثنى لها قبل ان يعاجله بأخرى تهاوت لها ساقيه وركع ارضاً..

-علموه ان ابنة مختار الراجي ليست لعبة يلهو بها وقتما يشاء..

هدر صوت مختار الراجي وجعل رأس أوس يدور وهو يتلقى ركلة قوية من مهاجمه جعلت الدم يتدفق من بين شفتيه في حين الاخر يمسك بشعره بقسوة ويرفع رأسه ليتلقى لكمة ادارت بوعيه وجعلته يتكوم ارضاً بينما اللكمات والركلات تنهال عليه من كل صوب..

كان بالكاد يفتح عينيه وينظر نحو الرجل الذي وقف يراقب مايفعله به كلابه دون ان يقدر على الرد.. وعيه يتشبث به بصعوبة حين سمع صوت صرخاتها الموجوعة..
وبعين غشتها الدماء رأها تحاول الوصول اليه..
ورأى الرجل يمسكها من ذراعها بقسوة.. وبدون مقدرة على الرد كان يغيب.. تدريجياً..
حتى لم يعد سوى السواد يحيط به.

...
نهاية الفصل
عبير محمد قائد

الفصل التاسع

***

الفراق..
يقتل ما فينا من حنين أم يجديه؟؟
يحرقنا لوعة أم يُسكن مشاعر قد أحرقتنا؟
طلبناه بأيدينا أم زرعوه بيننا قسراً..
وعود قطعناها وأخلفناها

وأخرى سنفي بها
مهما طال الفراق، ستبقى لنا غصة في الحشى
ذكرى مهما تناسيناها عادت
كلنـــا افترقنا..
فهل نعود من جديد
***
فتح عينيه بصعوبة، الألم من جهة والضوء الذي يسبب له وجعاً يشبه ملايين الابر تخزه في بؤبؤه وتثير في داخل عقله صداع لايحتمل.. تأوه فسمع صوتاً من بعيد:
-لقد استيقظ أخيراً.
-يبدو أنه لم ينم طيلة الليل.. لقد استغل غفوته جيداً.
كانوا يسخرون منه؟ تباً لهم.. رباه ماذا فعلوا بترنيم؟؟
استعاد عقله نشاطه بالكامل وفتح عينيه على وسعهما وهو يحاول الاعتدال ليواجهه ألم مبرح في جنبه جعله يتأوه بقوة فيسمع:
-لاتكن عنيفاً ممع نفسك.. أعتقد بانك ربما كسرت ضلعاً أو اثنين.

نظر أوس نحو الرجل وعينيه يغشاهما الالم، ودمدم:
-أين ترنيم؟
غامت عينا مختار الراجي بقسوة ورفع يده ليأمر رجاله:
-اتركونا في الحال.
غادر الرجال الثلاثة المكان بسرعة بينما يميل مختار مستنداً على ركبتيه:
-لاتنادي ابنتي بإسمها، تحشم يافتى.
ابتلع أوس لعابه بصعوبة وهو لايحاول حتى فهم مايقول الرجل.. ابنته؟ والد ترنيم؟؟ لم يفعل به هذا اذاً؟؟ لما يؤذيه ويؤذيها؟!
-ماذا فعلتم بها؟
همس بألم ليضحك مختار بتهكم:
-أنا لن أوذي ابنتي يافتى، ليس بسبب فعلتك أنت.
اغمض اوس عينيه وهمس بشراسة:
-لم نفعل شيئاً.. انا وترنيم.. لم نفعل شيئاً.
-بالطبع لم تفعلا شيئاً، لماكنت احتفظت برأسك لوفعلت..

لم يرد كان ينظر للرجل وعقله يعمل بصورة صاروخية محاولاً التأكد أن كل أطرافه سليمة وان الاضرار الأخرى محتملة، وجهه كان قصة أخرى، انه يشعر به مكدوماً وألماً لايطاق يضرب عينه اليمنى وفكه، يتنفس بصعوبة من أنفه وخيط حار ينساب من صدغه..

-والأن دعنا نوضح بضعة أمور..ماحدث بينك وبين ابنتي..

-لم يحدث شيء.. اسألها إن أحببت.. إن لم تكن تثق بي..

-لاتقلق.. لقد سألت ابنتي.. وأنا أثق بها، صدقني..

ثم تراجع في مقعده وقال بجفاء:

-انها وقحة بمافيه الكفاية لتقولها في وجهي لو حدث شيء، انها تكرهني بهذا القدر صدق او لا.

حاول أوس الاعتدال في المقعد الذي وضعوه عليه ولكنه لم يقدر.. كل جزء فيه يتألم ورأى مختار هذا وضحك بتشفي..

-لاتقلق سنأخذك للمشفى، وستقول انها عصابة لسرقة مالك.. مايهمني الان هو توصلنا لإتفاق.

-عن اي اتفاق تتكلم.. انا سأبلغ الشرطة وستتعفن لسنوات في السجن أيها الوغد، أنت.. أنت لاتعرف من اكون.

هتف اوس بغضب ليبتسم مختار بسخرية ويرفع شيئاً بيده ويحركه بخفة:

-اوه ولكنني اعرف بالضبط من تكون.. فمن ناحية، هويتك هي الشيء الاخر الذي ابقاك على قيد الحياة، ومن الأخرى فكان علي أن أعرف أن ابنتي لاتقع.. الا واقفة.

ضاقت عينا اوس وهو يتمعن فيما يحمله مختار والذي سرعان مارماه ليقع على صدره ويسبب له ألماً عظيماً ليكتشف انه جواز سفره..

-أوس نضـــال سلطان الشيّب..

قالها مختار ببطئ ..

-سلطان الشيب بجلال قدره؟!!

هذا شيء جدير بالتفكير.. ألاتظن.؟

-هذا.. هذا يجعلك تعض..تعض اصابعك ندماً.. على مافعلته بي.

تمتم أوس ثم اضاف بوحشية:

-لن يسامحك ذئاب الشيّب على مافعلته، أبداً.

رفع مختار حاجبه وقال بغلظة دون أن ترمش له عين:

-وأنا مختار السيد الراجي.. قبيلتي تنحدر من قبائل العزب.. ووالدي هو أحد شيوخها.. أنت تعرف معنى شيوخ العزب ولاريب.. فابن عمك هو زوج ابنتهم.

رفع اوس عينيه للرجل الذي واصل:

-لقد كنت هناك حين تم الصلح بين العائلتين، لاأتذكرك ولكنني واثق أنك كنت هناك أيضاً..

-ماذا تريد من وراء هذه المقدمة الطويلة؟

-أريد ماهو حق لابنتي التي لطخت سمعتها أمام الناس أجمعهم، أريد حقها لأن ترفع رأسها وسط ابناء عمومتها الذين يشحذون قبضاتهم للتخلص منك ياابن السلاطين.

توتر اندفع في عروقه وهو يهمس:

-ماذاتريد؟

-ستتزوج ابنتي..

قالها بثبات ليبتلع أوس لعابه بصعوبة وتوتره يزداد بينما مختار ينهض ويدور حوله:

-سوف تأتي لعدن خلال ثلاثة أيام لعقد القران واقامة حفل الزفاف، أمام الجميع.
-وماذا لو رفضت؟
تسائل بشحوب وعقله لايكف عن الدوران وهو يفكر بالأمر..
يتزوج؟؟ من ترنيم؟؟
-أنت تعرف.. سوف نحضرك.. رغماً عنك وحينها سوف تتزوجها رغماً عنك.
-أنا أوس الشيب، لاأحد.. لاأحد يجبرني على شيء.
هدر بعنف ليضحك الرجل:
-صدقني.. عائلتك نفسها ستجرك من أذنيك.. ابن عمك نفسه سيأتي ويكون شاهد عقدك ويجبرك.
-عائلتي لن تسمح لك، أنت لاتعرف من هم ذئاب الشيب..
غمغم بحقد.. ليضحك مختار:
-على العكس.. انت من لايعرف عائلتك.. لقد عادت العائلة لمصاف المشايخ منذ وقت قصير، وهي تفعل بالضبط مايطلبه منها محلس القبائل، وذلك كي تنجح في الدخول الى المجلس،

واستحقاق مكانها السابق، عمك ومن قبله جدك رحمه الله خططا لهذا.. تخيل ماسيكون عليه ردة فعلهما حين يدركا أنك ترفض اتمام الزواج بابنتي بعد أن اغويتها وحططت من قدرها؟

-أنا لم افعل.. ابنتك لم امسها بسوء.

صاح بعنف متجاهلاً ألمه ليبتسم مختار:

-انت قضيت ليلتك معها تحت سقف واحد، وكماعرفت أنت كنت معها في كينيا، كنت أنت من ضرب الرجل الاحمق الذي طلبت منه الاعتناء بها من بعيد.

-تقصد الغبي الذي كان يريد التحرش بها.

-وهذا يثبت أنك تهتم،، والان سلطان؟ ماهو قولك؟؟ الزواج من ابنتي؟ ام الجهر بعدم رغبتك بها في مجلس يضم شيوخ قبائل وعلى رأسهم الشيخ قحطان العزب، الرجل الذي سيزوجكما بيده، وحفيده قحطان وهو كما اظن صهيركما انت وابن عمك؟

-انت مجنون؟

همس اوس ليضحك مختار:

-لماذا؟ لأنني ألجئ لعشيرتي كمافعلت أنت منذ قليل؟؟ علي تحذيرك.. ترنيم تقرب له من جهة والدتها كذلك.. كما أنها كانت خطيبة أخيه..

رفع أوس عينيه بتوتر نحو مختار الذي واصل بحنق:

-قبل ان تتركه بغباءها لنقع في كل هذه المصائب.. ولكن الأن أنا أنوي تصحيح الوضع.

ثم نهض واقترب من حيث استلقى أوس بضعف:

-ثلاثة أيام سلطان، ليس لديك وقت أكثر.

-وإلا؟؟

تسائل اوس بجفاف ليبتسم مختار ابتسامة لم تصل لعينيه:

-أنت لاتريد أن تعرف ياابن السلاطين.

ثم استقام في وقوفه ليهمس اوس بصعوبة:

-أريد رؤويتها..

ضاقت عينا الرجل وهمس بغضب مكتوم:

-ابنتي..ستأتي معي دون نقاش، بعد ثلاثة أيام وحين يزوجكما شيخ العزب، حينها فقط تستطيع رؤيتها.

تهالك أوس مكانه يتنفس بصعوبة ورأسه يدور..
بينما مختار الراجي يشق طريقه للخارج.. كان لايقوى حتى على النهوض ولكنه يجب أن يراها.. هو مشوش جداً ولايعرف ان كان مايحدث حقيقة أم مجرد حلم مزعج؟؟
سمع الجلبة خارج الباب سمع صوتها صارخاً بالرفض..
مطالباً برؤيته.. وسمع الرد القاسي جداً من والدها ينهرها ..
شعر بالحرارة تدب مشتعلة بداخله .. روحه دبت متجاهلة كل ألم صرخت به عظامه..
نهض ملبياً صوت صرختها اليائسة ..وكأن جزءاً منه يجاهد كي يعود اليه..
يستكين بين ضلوعه..
يطفئ الحريق بين حشاه ..
"ترنيـــــــــم"
صاح بصوت بَح من فرط الألم .. عيناه تتسعان بذهول لرؤيتها تصارع ثلاثة رجال بضعف حجمها وأكبر بينما تحول شق طريقها اليه دون فائدة..

رأها تنظر له ودموعها تجري على وجنتيها، وفي غفلة عن العمالقة الثلاثة كانت تركض نحوه لتقف تناظره بذهول وهي تهمس بألم:

-ماذا فعلوا بك؟ يالهي ماذا فعلوا بك؟

-ستكون الأمور على مايرام، لاتخافي.

همس يطمئنها، لايستطيع الوقوف، يشعر بساقيه كعيدان معكرونة مسلوقة بثانية ستتهاوى تحته، ولكنه لايستطيع الوقوع ليس وهي تنظر اليه كمنقذ ..

كملاذ ليس لها سواه...

-سيأخذني..

همست بوجع ليجيبها محاولاً الابتسام ويفشل فشلاً ذريعاً:

-سأآتي إليكِ.

هزت رأسها باكية:

-أنت ستتركني..وحـــدي.

تألقت عيناه وحارب يديه كي لاتجذبانها نحوه بتهور وهتف بعنف:

-لاترنيم.. أنا قادم لأخذك..

تألقت عينيها بالحيرة بعدم الفهم للوعود..الوعود التي تكرهها.. شعرت بذراع والدها تحيط بها بقسوة ويجذبها للخلف وهو يدمدم بوحشية:
-عجباً لإصرارك يافتى.. كيف استطعت الوقوف حتى؟
نظر له اوس بإرهاق ثم صرخ لترنيم:
-ثلاثة أيام ياقطتي.. ثلاثة أيام فقط..
ادارت رأسها اليه بنظرة مستجدية.. ولكنه لم يقدر مواصلة الوقوف.. انحنى جذعه .. وحين اختفت من أمامه ترك جسده يتهاوى وهو يتأوه بعمق .. رأسه يدور بلاتوقف.. الأفكار والخطط تتقافز بين خلايا مخه بلارحمة.. لاشيء يمكن أن يجعله يتراجع عن وعده لاشيء اطلاقاً..
***
انتظرها لينظر في وجهها ويفرد ذراعيه بهجة بوقوعها كصيد سهل..
ضحية تبحث عن صدر حنون.. بل منقذ جبار..
ولكنه لم يكن أيهما..
حالما فتحت الباب كانت محط اهتمام عينيه واشتغل عقله بخطط سريعة شيطانية..

لتتبخر كلها حالما رأها تتهاوى لتقع أمام عينيه أرضاً..
وهو وقف هناك فقط.. ينظر إليها بذهول، لتتكوم على الأرض قبل أن يسرع نحوها نافضاً ذهوله ليرفعها بين ذراعيه ويضعها على صوفا مريحة ثم ينزع جاكيته ويكومه ليضعه تحت رأسها برفق وأصابعه تتحسس النبض الضعيف جوار عنقها ليتأكد من بقاءها على قيد الحياة بعد الشحوب المريع الذي اجتاح بشرتها، والعرق البارد الذي تصبب منها..
"ركاان"
التفت اليها بصدمة..
لو لم يسمعها بأم أذنيه لماصدق أن هاتين الشفتين الشاحبتين قد استسلمتا لجنون القلب واستجديتا قاتله بكل بساطة.. انحنى نحوها لتعاود الهمس بإسمه بألم ترافقها دمعة انسابت على وجنتها ببطئ..
-شششش ياجميلتي.. ستكونين بخير سلطانة..

ثم نهض الى ثلاجة صغيرة بالقرب من المكتب واخرج منها زجاجة مياه معدنية وعاد لسارة ليبلل وجهها ببعض قطرات الماء المنعشة..
رأى رفرفة رموشها..وهي تشهق بخفوت لملامسة السائل البارد لبشرتها الحارة..
رأى عينيها تحملان الحيرة وهي تنظر اليه وكأنها لاتعرف من يكون..؟ تحتار في سبب وجوده..؟ أو ربما تظنه بسواه؟!
-ماذا تفعل هنا؟!
سألت بجمود لتنهار كل شكوكه ويرفع حاجبه بعجرفة لقاء نظرة الكراهية الخالصة التي رشقته بها:
-مرحباً بك أيضاً سلطانة.. هل تشعرين بتحسن؟
نظرت سارة حولها.. كانت في مكتبها، مستلقية على ظهرها وهذا الرجل.. هذا الباشا المثير للأعصاب والذي تكرهه الأن بقدر لم تحلم به..
يجلس قريباً.. شعرت بالحرارة تجتاحها وهي تلاحظ كيف انحسرت تنورها القصيرة أساساً عن ركبتيها واجتاحتها رائحة عطره بقوة، نظرت اليه مجدداً وهذه المرة بتركيز أقوى،،

قميصه الازرق ملتصق بثنايا صدره وعيناه بركتا قلق..
نهضت تستند على ذراعيها وتلوي ساقيها تحتها وهي تهمس:
-انهض بعيداً عني.
تراجع شاهر الباشا بعد لحظة جمود لردة فعلها الناهرة ثم نهض ببطئ لتستوي قاعدة تلملم أطراف سترتها القصيرة وكأنها تخفي ملامح أنوثتها عن عينيه الجائعتين لكل لمحة منها، ثم رفعت عينيها اليه وهمست بشحوب:
-كيف دخلت الى مكتبي؟
ثارت نفسه بإعجاب فبرغم كل ماحدث هذا أول متبادر لذهنها؟ رباااه هذا لم يعد مكتبها الأن ورغم ذلك.. هي لاتحني رأسها..
-انه ليس مكتبك بعد الأن.
رفعت له عينين شرستين وهتفت بمرارة:
-لازالت أغراضي هنا.. أنا لم أُخليه بعد.. بإمكان زبانيتك الانتظار.
تراجع ليستند على مكتبها ويعقد ذراعيه على صدره:

-انهم ليسوا زبانية.. انه زوجك.
قال كلمته الأخيرة وكأنما يبصقها.. لينتفض قلبها بألم وتعتصره قبضة سوداء متفحمة بعد أن شبت نارها دون توقف.. زوجها؟
حبيبها ركان؟؟
وقفت بحذر.. لاتريد أن تقع أمام الرجل الذي تسبب بتدمير حياتها، لاتريد أن تسقط مجدداً، استقامت وواجهت عينيه بضراوة.. لتنال شعلة الاعجاب التي اضطرمت بين جفنيه وهو يكاد يلتهمها دون أن يخفي حتى..
ورأت نظرته ولم تهزها.. رغم القشعريرة التي سرت في عروقها إلا انها لم تهتز..
بل بادلته النظر المتوهجة بأختها..
وفيماحملت عيناه رغبته الفجة.. عينيها بالمقابل.. كانت تحملان احتقاراً وغضباً..
مشاعر جياشة فاضت بها روحها واستقبلتها عيناه لتجعله يتراجع ويخفض رأسه وهو يهمس:
-أنت.. مختلفة سلطانة.. واختلافك هذا.. يودي بي الى الجنون..

-أنا السلطانة.. باشا..لاتفكر حتى بمقارنتي بسواي، أو التفكير أنني مثل أي امرأة أخرى، مهما كانت خططك للانتقام أو الاستيلاء على ماهو لي..أنا لن أسكت ولن أقف مكتوفة اليدين ابداً.

همست بحدة ليبتسم بسخرية ثم يرفع وجهه لينظر إليها ويقول بهدوء:

-لقد استولى والدك على هذه الأسهم دون وجه حق بعد موت شاكر الباشا.

-والدي اشتراها في المزاد، كانت أسهمه في الحضيض ولم يقم أياً منكم بمساعدته.

هتفت بشراسة ليرد ببرود:

-والدك رتب كل الأمور لتبدو وكأنها صفقة يائسة، ولكن الحق أنه قد قام بتحطيم شريكه..

-كمافعلتم أنتم الأن؟!

هتفت بحقد ليضحك بخفوت:

-التحطيم لم يبدأ بعد عزيزتي..

تقدمت خطوة وهتفت:

-لست عزيزتك باشا، لست جميلتك ولاأسمح لك بأن تقلل من احترامي..أنا امرأة متزوجة

ولاتغرنك معيشتي في روما.. أنا لازلت أحتفظ بعادات أسلافي.
اتسعت ابتسامته وغرق في غضب عينيها ثم همس:
-ربما لهذا أنت تشعلين الدم في عروقي سلطانة..
شهقت متراجعة لتتسع ابتسامته أكثر وتحتل وجهه وهو يضيف:
-أنت هي المرأة التي أريد، وكونك تكرهينني الأن أو تظنين أنك تفعلين فهذا لايزيد الأمر إلا تشويقاً..
ثم تحرك نحوها لتقفز مبتعدة بينما يميل ليأخذ سترته ويضيف:
-أما بالنسبة لكونك متزوجة..
ونفضها بخفة ليعلقها على كتفه هامساً:
-فهذا هو التحدي الأمثل.
وتحرك نحو باب مكتبها متجاهلاً ذهولها ليقف مستنداً على اطاره وقال:
-الى لقاء قريب سلطـــانة.. عزيزتي الجميلة..
ودون اكتراث لغضبها المتصاعد كان يفتح الباب ويخرج مغلقاً إياه خلفه بكل هدوء...

***

مصر.. المنصورة

تألقت شمس الظهيرة وانعكست أشعتها على صفحة النيل الرائقة وتألقت كألاف الشموس الصغيرة، ترفع من احساس الجمال لمستويات عدة بعيداً عن ضوضاء الشوارع المزدحمة تلك الساعة المزاكبة لساعة انصراف العمال من أشغالهم، وعلى ضفة النيل العامرة.. توقفت سيارة أجرة أمام بناية قديمة راقية تحمل نقش زهرة النرجس على بوابتها ومدخلها الواسع المبلط بالرخام والمزين بأصص النباتات الخضراء والمرايا الأثرية..

ترجل من السيارة يحمل حقيبة كتف طوحها على كتفه بخفة ونقد السائق ثمن الأجرة والأخير يسرع ليفتح حقيبة السيارة ويخرج منها حقيبة متوسطة الحجم ناولها لحارس البناية الذي حيا الشاب بحرارة وهو يسرع ليستدعي المصعد بينما الشاب يرد تحيته الحارة بأخرى جامدة وملامح متجهمة..

-هل السيدة في الشقة أم المشغل؟

تسائل بوجوم ليجيب الحارس ببشاشة:
-السيدة والانسة شيـماء لاتزالان في المشغل سعادتك، هل تود الذهاب اليهما أم الصعود مباشرة.. الخالة فرحة في الشقة.
-المشغل..
ضغط الحارس الزر بحماس ووضع الحقيبة جوار الشاب وهو يهتف:
-اصعد بحفظ الله سيدي.. سأسبقك لأبشر المدام.. انها دائماً تعطيني البشارة..
التوى فمه بسخرية بينما الحارس يصعد الدرجات ركضاً حتى وصل الى الطابق الثالث قبل وصول المصعد واندفع عبر باب موارب يحمل لوحة ذهبية بحروف منقوشة لأسم "النرجس"
وكان الحارس يصيح بلهفة:
-مدام.. مداام..
وقفت أمامه امرأة نحيلة كالعصا وصاحت بوجهه:
-ماذا تريد ياعبود؟ كيف تقتحم المكان هكذا؟؟ أنسيت أن زبائننا كلهن من النساء؟

-اصمتي ياامرأة؟؟ أين مدام نرجس؟؟
-أنا هنا عبود مالأمر؟
التفت الحارس بلهفة ليواجه امرأة سوداء الشعر كحيلة العينين زرقاوتهما بيضاء البشرة بقامة متوسطة ممتلئة ترتدي ثوباً أنيقاً من الحرير وقد عقصت شعرها بخفة خلف رأسها واتسعت عينيها بقلق والحارس يتقدم اليها صائحاً:
-لي البشارة مدام.. لي البشارة..
خفق قلبها بقوة وهتفت بشحوب:
-ماذا هناك؟؟ تكلم؟؟ تكلم ولك البشارة؟
شقت الفرحة وجه الرجل واشار لباب المشغل وهو يصيح:
-السلطان قادم خلفي يامدام.. السلطان الصغير وصل لتوه..
شهقت المرأة وصرخت بفرح جنوني بينما تعالى صوت السلطان من خلف الحارس وهو يقول:
-كيف حالك أمي؟؟
-جساااااااااااااااس..
صاحت المرأة بفرحة جنونية قبل أن تترك مابيدها من قماش وتركض لترتمي بين ذراعي

ابنها الذي تلقفها بإبتسامة ورفعها ليدور بها بخفة جعلتها تقهقه وتبكي في أن واحد، تمسك وجهه بين كفيها وتغرقه بالقبلات وهو بالكاد يتمالك نفسه من الضحك وايقاعها، كانت أكثر ممايقدر على حملها، أنزلها وضمها اليه لتتعلق بعنقه وتصرخ بسعادة طاغية:

-اه حبيبي.. حبيبي الصغير..

-أميي لست صغيراً..

دمدم محاولاً الغضب ولكنه لم يفلح بل تعاطف كبير هز ملامح وجهه وهو يمسح دموعها برفق ويقبل جبينها ووجنتيها لتهمس:

-أنت صغيري المدلل مهما كبرت ونمى شعر وجهك ياولد، ستظل حبيب قلبي الصغير.

ضحك بإستمتاع وعاد يضمها بحنان لتتشبث به بقوة بينما يتجمع حولها حشد صغير من النساء ينظر للشاب الطويل والذي عانقته نرجس بحنان وهتفت بفخر:

-ابني.. جساس.. هو بطل سباق سيارات والان يعمل لدى الشركات الكبرى لاختبار المحركات..

-امي..

هتف بحرج لتبتسم بفخر وتحيط بذراعه وتقول للجميع:

-هيا يابنات أنهين اعمالكن بسرعة.. سأخذ ابني واختفي..اعتين بالمشغل جيداً، واستدعين شيماء لرؤيتي فوراً.

-حاضر مدام..

قالت احداهن بحماس بينما تفرق الجمع وجساس يتجهم من ذكر ابنة خاله.. ترك نفسه لوالدته التي رافقته خارج الشقة والتي تجهزت كلياً لتستوعب مشغل الحياكة الذي تملكه منذ زمن، والذي لم تتخلى عنه مهما حدث.

-هل تناولت غدائك؟

تسائلت ليومئ بالايجاب ولكنها لم تتركه يفعل بل سارعت:

-لايهم فأنت ستتغدى معنا، سأعد لك الطعام بيدي، وخالتك فرحة لن تصدق نفسها ستعد كل ماتحبه.

-امي تتصرفين وكأنك لم تريني منذ دهور؟

قالها بحنق لتوقف وتنظر لعينيه:

-أنت لم تأتي لزيارتي منذ ثلاث سنوات جساس، لقاءنا في اميركا من وقت لأخر في زياراتي لأخيك وعائلته لاتعني شيئاً، وجودك هنا هو المهم بني.

تنهد جساس وصمت، لايستطيع أن يغلب أمه في الكلام..

أمه التي انفصلت عن ابيه بعد ولادته بعدة شهور، لأسباب لايعرفها أحد، رغم بقاءهما متزوجين إلا أن كل واحد منهما استقر في بلد، بعيداً دون ان ينغص حياة الأخر.. لقد تركته في عهدة عمته فاطمة، وتربى مع سيف بعيداً عنها بأمر من السلطان الجد.. ولم يناقش احد الأسباب وهي قبلت، ولكن لأحد على الإطلاق شكك بمحبتها لأبناءها خصوصاً الجساس..

لقد أصرت بعد انفصالها على عودتها الى مسقط رأسها في مصر، بالقرب من شقيقتها، والتي كانت تزوجت لتوها والتي عانت لترزق بطفل.. حتى منّ عليها الله بإبنتها الوحيدة بعد سنوات طويلة.. ولكنها لم تعش لتراها قط.. ماتت أثناء

الولادة.. وتُركت طفلتها في عهدة شقيقتها..بعد وفاة والدها بفترة قصيرة في حادث قطار.

-فرحة.. تعالي يافرحة..

هتفت أمه تخرجه من أفكاره فالتفت ليستقبل العجوز التي تعتني بحاجيات امه وشيماء طيلة الوقت والتي جائت مهرولة تضع طرحة الحرير البالية على رأسها وتغدقه بالترحيبات بينما تلمع عينيها بحنان وحب غامر جعله يشعر بالرضا والإكتفاء بصورة كبيرة..

-لابد أنها شيماء..

هتفت أمه بحماس حين سمعت صوت باب الشقة يفتح والتفتا معاً لمواجهة الفتاة التي تقدمت بهدوء..

كانت رفيعة القد طويلة القامة شعرها الاسود الداكن يصل لمنتصف ظهرها وقد صبغت أطرافه بلون العسل، وتألقت عينيها بزرقتهما الصافية وكأنها على ضفة نبعٍ جارٍ..

تأملها جساس بذهول هو لم يرها منذ فترة ليست بالقصيرة.. خمس سنوات ان شئنا الدقة..

مهما التقى بأمه كان يهرب من لقاءه بأبنة خالته اليتيمة..
لقد كبرت تعلقت عيناه بعينيها الواسعتين بإفراط وهمهم اسمها بذهول لتبتسم الفتاة بخجل وتتألق عينيها الزرقاوتين بينما تجذبها خالتها تحيطها بذراعه وهي تهتف بفرحة صادقة:
-واثقة من أنك لم تتعرف عليها.. لقد كبرت وأصبحت شابة .. بل ماشاءالله عليها عروس..
ضاقت عينا جساس وتراجع خطوة للوراء وهو يحي ابنة خالته:
-مرحباً بكِ شيماء، أسف لمجيئي بهذه الصورة المفاجئة.
تأملته الفتاة بفضول..
اتسعت عينيها الزرقاوتين وهي تتأمل ابن خالتها من رأسه لأخمص قدميه، كان طويل القامة بشكل ملحوظ نحيلها متناقضاً مع والدته التي ربتها.. شعره قصير مقصوص بعناية، وملامح وجهه حادة.. عينيه ضيقتين داكنتين.. لاتتذكره بشكل كبير..

لقد شاهدت الصور.. خالتها حرصت على أن تريها صوره بإستمرار..
ولك الصور لاتظهر طوله ولانظرة عينيه الغريبة..
مليئة بالحزن والحذر..ولكن..
انه ابن خالتها وهذا مايهم الأن..ابتسمت بإتساع ومدت يدها هاتفة:
-مرحباً بك في منزلك جساس، أنت مرحب بك على الدوام ودون موعد أو ماشابه.
ابتسم جساس.. انتقلت ابتسامتها اليه بطريقة عجائبية وجعلته يسترخى لوهلة قبل ان تتدخل امه:
-شيماء حبيبتي.. اذهبي وجهزي غرفة ابن خالتك، وأنا سأخذ فتاي الذهبي وابحث معه بعض الأمور.
ابتسمت شيماء واومأت موافقة بينما نرجس تحيط بخصره بقوة وتهمس:
-تعال معي بني.. احكي لي مايحدث معك بالتفصيل.

تنهد جساس وتوقف يمسكها من كتفيها ويهمس لها برجاء:
-ليس الأن أمي، أنا بحاجة بحاجة للهدوء والراحة.. لست بحاجة لتحقيق من اي نوع.
نظرت له بقلق ثم لامست الخطوط التي أحاطت بعينيه وقالت بحنان:
-لابأس عليك حبيبي.. تعال ارتح في غرفتي ريثما نحضر لك غرفة.
-لا أمي..
اعترض بخفوت ثم همس لعينيها الحائرتين:
-لاأستطيع البقاء هنا في هذه الشقة طالما ابنة خالي هنا.. سأبحث عن مكان أخر..
-لا لا..
صاحت مذعورة واقتربت تضمه اليها بحنان:
-لن تذهب بعيداً عني حبيبي.. ليس الأن.. سأفتح لك الشقة المجاورة ستبقى مكان منامتك ولن باقي اليوم ستقضيه معي.. سأتفرغ لك.. بالكامل.
-اومأ بالموافقة وهو يقول بإبتسامة:
-وماذا عن المشغل؟؟ هل ستركينه فقط لتعتني بي؟

ابتسمت بحنان:
-سأترك العالم كله للعناية بك بني.. ثم أن شيماء تديره أفضل مني.. انها مصممة ازياء بارعة، وتخصصها في ادارة الاعمال يزيح عن كاهلي الكثير..
-هي لم تنهي دراستها بعد أمي.
همس معترضاً لتقول بفخر:
-صحيح ولكنها تتصرف وكأنها فعلت، انها هبة من الله حبيبي.
قادته وهي تتكلم الى غرفة واسعة ساعدته بنزع سترته وسألته ان كان يرغب بالاستحمام قبل ان ان يرتاح ولكنه رفض بهزة من رأسه ثم نزع حذائه واستلقى بكامل ثيابه على الفراش ورفع ذراعه اليها:
-تعالي قربي.
اقتربت منه مبتسمة وجلست جواره ليضع رأسه على حجرها وهو يهمس:
-افتقدتك كثيراً أمي..
تنهدت نرجس بحرارة واحاطت رأسه بذراعيها وهي تقاوم دموعها هامسة:

-وأنا بني.. اشتقت اليك.. ولأخيك وعائلته.. هو أيضاً أهملني في الفترة الماضية كثيراً..

-امي..

حاول جساس ولكنها لم تعطه الفرصة وواصلت مبتسمة:

-أنا لاألومه بالطبع.. لديه عائلته.. سلمى زوجته الجميلة تتصل في كل حين وتطمئنني عنه وعن أطفالها، انها ترسل لي الصور والفيديوهات عن افعالهم الشيطانية.. يكفي سيف عمله مع والده فالسلطان يتطلب منه كل اهتمام..

-نحن مخطئين معاً.. لقد.. أخذتنا مشاغلنا.

همس بإعتذار لتتنهد وتلامس شعراته القصيرة:

-هكذا هو حال الدنيا ياصغيري.. كل ماعلينا هو الصبر ومحاولة مقاومة المد الذي يجرفنا بعيداً علينا التشبث بكل ماهو غالٍ وحقيقي.. العائلة بني.. العائلة تأتي في المقام الأول.

عاد يدفن رأسه في حضنها وهمهم موافقته على كلامها بينما يستسلم لإرهاق اليومين الماضيين ويغمض عينيه للنوم دون أن تلوح له صوانته المشتعلة أمام عينيه..

***

روما..

وقف ركان يتأمل المكتب الذي أخلته سارة منذ قليل ليصبح له بالكامل، لقد غادرت دون أن يرها.. كن غارقاً مع مجموعة ضخمة من الصحفيين والمتزلفين لمعرفة ماينتوي فعله بالصحيفة وهل يستسلم للشائعات التي قضت أن مجموعة الباشا تنوي تحطيم الاسهم وكأنها لم تكن لتنفرد بالساحة..!

التفت ليجد نيران تراقبه من بعيد وقد عقدت ذراعيها امام صدرها ليسألها:

-لم أكن أعرف أن شاهر سيكون هنا؟

-وماشأنك به؟؟ انه مكانك ركان.. شاهر قد يأتي من وقت لأخر ليطمئن على سير الامور، وقد يأتي فجأة دون سابق انذار فقط ليرى ان كنت تلعب بذيلك من وراء ظهره..

ثم اقتربت منه وقالت بلامبالاة:

-قم بعملك جيداً.. احمي ظهرك ولاتنتظره..هو لن يشهر سيفه في وجهك إلا في حالة واحدة فقط..

عقد حاجبيه وتسائل:
-وماهي بالضبط؟
-حين تشتري أنت سيفاً..
قالت بجدية.. ثم تحركت لتلملم اوراقها:
-سأعود بهذه الاوراق للفندق، علينا الكثير لدراسته.. سأنتظرك لنتعشى ونكمل التجهيزات معاً لاتتأخر.
-سأنهي الأمور هنا وألحق بكِ.. لاتتحركي بدوني.
قالها وهو ينظر لسييرا الواقفة في ركن قصي لتبتسم نيران بسخرية وتكمل لملمة الأوراق وتتجه للخارج قائلة:
-لاتتأخر.. سأنتظرك في السيارة أسفل المبنى.
راقبها حتى أغلقت الباب ثم استدار لسييرا التي تقدمت منه بخطوات متمايلة:
-لم لاتتصل بها وتخبرها أنك لن تذهب، أنت الليلة لي.
قالتها بثقة وارتمت بين ذراعيه..تستند على صلابة صدره بذراعيها بينما تقترب لتضع شفتيها على ذقنه بتمهل تتابع خطوطه الصارمة

بإثارة.. كفيها تتجولان بحرية على عضلات صدره وذراعيه هامسة:

-اشتقت اليك ركـــان..

-ماذا تفعلين سييرا؟!

همس بغضب وهو يقبض على كفيها وعينيه ككجري فيروز متوهج وهو يهزها بقسوة:

-ماذا تظنين نفسك فاعلة؟

اتسعت عينيها بذهول وهمس:

-أنا.. انا.. اشتقت اليك.. ألم.. ألاتريدني؟ هل نسيت ماكان بيننا؟

تسائلت بألم ليبتسم بسخرية:

-كـــــان.. ثم أنني رجل متزوج.. هل نسيت؟ وزوجتي هي صديقتك..

-سرقتك مني..

هتفت بعنف ليضحك وهو يبتعد عنها:

-كل شيء كان مدبر من البداية لتقربيني منها أم نسيتِ؟؟ علاقتنا.. عملي هنا.. كل شيء كل شيء كان لاجل السلطانة..

-لأجل الصحيفة تعني؟

ذكرته بحقد لينظر لها بتوتر ثم يزم شفتيه ويغمغم:
-ربما.. ولكن سارة..
وسرح خياله في ملامح زوجته الفتية الفاتنة وغامت عيناه بإبتسامة:
-سارة لها سحرها الذي يجبرك على توجيه كل الخطط لصالحها.
-لقد تركتك.. عرفت حقيقتك وتركتك ولن تعود لك ابداً.
هتفت بغيظ ليتجهم وجهه ويقول بغضب مكبوت:
-هذه مشكلتي وسأحلها بنفسي.
-هل علي أن أصدق بأنك تحبها؟
تسائلت بسخرية مريرة ليجيب دون تأخير:
-انها زوجتي.. وقد أقسمت أن أحبها وأحميها..
-وفي أول فرصة لك.. طعنتها في ظهرها.
علقت ضاحكة.. ثم استحالت سحنتها الباردة الى مزيج خطير من الغيظ والحقد والمرارة:
-السلطانة لن تنسى لك مافعلته بها مهما اعتذرت وتذللت ركان..
-ركان الباشا..

هتف بصوت عالٍ لتنتفض فيما يكمل بقوة:
-لايعتذر.. لايتذلل.. لاتوجد امرأة في العالم تستحق سييرا..
ثم اقترب منها:
-سارة هي زوجتي، حبيبتي، حبها لي يفوق الوصف وانا سأعيدها حيث تنتمي..معي والى الأبد.
-وماذا عن نيران؟! تلك المرأة تبدو مفتونة هي الأخرى؟؟ أم أنك ستعيد سارة وتحتفظ بنيران الى جانبك؟
تساءلت بسخرية وهي تخفي توترها وقلقها ليبتسم ركان بثقة:
-لاتقلقي على سارة، مكانتها كزوجة لن تزعزها امرأة.. ليست نيران وليس سواها.. سارة فقط.. هي امرأتي وعليها أن تفهم هذا.. نيران لديها مايشغلها على ان تكون مجرد عشيقة لرجل متزوج.
وقبل ان تعلق كان يتراجع ليلتقط معطفه ويرتديه على عجل وهو يقول لها بحسم:

-افرغي مكتبك وسلمي عهدتك غداً صباحاً..
لاأريد رؤية وجهك في الصحيفة منذ الغد..
اتسعت عينيها بذهول وصاحت:
-أنت لاتستطيع..
نظر لها بحاجب مرفوع:
-أنا مدير الصحيفة ورئيس تحريرها، بالطبع أستطيع.
-سأكلم شاهر.. هو لن يرضى.
حاولت بشحوب ليضحك بإستمتاع:
-حظاً طيباً ياعزيزتي..
وبدون كلمة اضافية كان يغادر المكان.. تاركاً سييرا تغرق في بؤسها وهي تدرك أن خسارتها تتعاظم يوماً بعد يوم.. لقد خسرت صديقتها بالأمس، واليوم خسرت ركان.. وغداً.. غداً تخسر عملها وكل ماأرادته في الحياة..
إلا لو فعلت شيئاً بهذا الخصوص.. قبل فوات الأون.
***
اليمن / عدن
-مستحيييييييييل..

صرخت بجنون وهي تضرب بقدمها الأرض تواجه عملاق لطالما أرهبها وهي مجرد طفلة وكبرت ونشأت على هذا الخوف وتلك الرهبة ثم تمردت وندمت أنها لم تفعل بوقت أبكر وتخرج من عباءة ذلك الرجل السوداء المسيطرة.. لهثت وهي تشير له بذراعها بوجع:

-أنت لن تجبرني.. أنت لاتستطيع اجباري.

رفع مختار الراجي عينيه لوجه ابنته الثائر وتمالك اعصابه المتوتر وقال ببرود:

-سأجبرك.. وستفعلين ماتؤمرين ترنيم.

-لن أفعل..

هتفت بجنون ليقترب ويقبض على شعرها الناعم بقسوة جعلتها تصرخ متألمة:

-سوف تفعلين يافتاة، لقد ضقت ذرعاً بجنونك وخروجك عن السيطرة ترنيم، استحملتك لسنوات وكل هذا انتهى الان، لو لم يكن وعدي الذي قطعته لوالدتك بإبقاءك حية لكنت قتلتك منذ زمن..

-توقف.. أنت تؤلمني.

هتفت بألم ليهزها بعنف:

-سوف أجلدك إن لزم الأمر.. أنتلاتستحقين حتى مافعلته لك قبل سنوات كان يجب أن أتركك تتعفنين في السجن ربما يلين قليلاً من صلابة رأسك..

حاولت التخلص من قبضته وهي تصرخ:

-ولم لم تفعل، لم لم تتركني أنال عقابي..؟

-لأنك ابنة مختار الراجي ألاتفهمين؟؟

صاح بصوت مرعب وهو يلقيها على الفراش مماجعلها تشهق بألم قبل أن يعود ليمسك شعرها ويرفعها متجاهلاً شهقة ألمها:

-لقد خلصتك من تلك التهمة ترنيم.. أنقذتك من السجن وربما أسوأ.. والأن سوف تفعلين المثل وسوف تجنبينني العار الذي كنت ستلحقينه بي.. ستتزوجين سليل الذئاب ذاك وتوفرين علي قتله وقتلك معه أيتها الفاجرة.

بكت بقوة وهتفت ببرائتها من تهمه المؤلمة ولكنه لم يتوقف عن قسوته ابداً:

-سوف تتزوجينه دون اعتراض والا فأقسم أن أدفنك وأدفنه ياترنيم، ستصلحين خطأك وتدفنين عارك..

ثم قربها منه وهمس:
-لقد قلت لأشرف ابن عمك أنك وذلك الفتى متزوجان.. وأن خالد وافق عى زواجكما سراً عني.. وماهذا الزفاف الا تحصيل حاصل كي يحفظ لي ولك ماء الوجه..
-لماذا .. لماذا؟؟
هتفت بذهول ليفلتها ويهتف صارخاً:
-زواجك بأشرف في كفة ترنيم.. وكل شيء أخر بكفة..
نظرت له بذهول:
-تريدني أن أتزوج أشرف؟؟ أم أووس؟؟ ماذا تريد مني؟؟
صرخت بشحوب ليبتسم كشيطان قدير:
-ستتزوجين الكابتن الدونجوان، لفترة حتى تبرد حرارة ماراه أشرف بعينيه ثم سأطلقك وأزوجك لابن عمك.
عقدت حاجبيها فيما يواصل:
-اشرف لن يصدق أبداً أن الكابتن قد قضى ليلة عذرية تماماً معكِ..
حركت رأسها بصدمة ووالدها يواصل:

-سيصل بعد يومين لإتمام الزواج..
-وإن رفض؟؟
-الزواج؟؟
-بل الطلاق..
أجابت بشحوب.. ليضحك ويقول بشراسة:
-سأخرج دفاترك القديمة يابنتي العزيزة. وحينها هو لن يطلقك فحسب.. هو سيبصق على وجهك ويكرهك الى الأبد..
جحظت عينيها وهزت رأسها بلاحول ولاقوة بينما والدها يقول بعنف:
-ستفعلين ماتؤمرين، تتزوجين الكابتن الشيب..وتسعين لطلاقك منه بعد شهر او اثنين.. أتفهمين؟
تأملته برعب..
هذا والدها؟!
هذا الرجل الشرير هو والدها؟؟ كيف يعقل؟ كيف انتهى حلمها بالوالد الشجاع والحامي القوي بهذه الطريقة البشعة؟؟
-كيف؟؟كيف تفعل بي هذا؟
ابتسم بسخرية وهمس:

-هذا كله من أجلك.. أنت فقط لاتفهمين..
-من أجلي؟!
همست بعدم تصديق وأرفقت دموعها بشهقات متوالية ليشيح والدها بوجهه ويقول بصوت حازم:
-سوف تتزوجين من ذلك الرجل ترنيم، ستزفين إليه في حفل لم يشهد له أحد أي مثيل.. يليق بإبنة الراجي وابن السلاطين.. وحين تعودين لي.. سأقيم حفلاً أكبر يليق بكِ وبإبن عمك أتفهمين؟!
لم تعد تستطيع رؤيته من فرط الدموع التي انهمرت وغشيت عينيها، خفضت رأسها وتنفست بعمق تحاول السيطرة على مشاعرها التي لم تعرف الى أي جهة تتقلب..بين الصدمة والشعور العارم بالأذى وبين الثورة وعدم الإنصياع..
ولكنها عرفت شيئاً واحداً أكيداً..
هي ستنصاع لقرار زواجها بأوس الشيب.. ولكنها .. ولو تكلف الأمر قتلها.. لن تنصاع لقرار طلاقها منه...
***
دبي..

تصاعدت أصوات لعب الأطفال وأشاعت جو من المرح والسعادة في الحديقة بتلك الساعة التي قاربت موعد الانصراف، وقفت هي تراقبهم بإبتسامةغافية على شفتيها ونظرة شاردة..

-مساء الخير.

ارتجفت واغمضت عينيها للحظة قبل أن تسيطر على خوفها الغريزي وارتباكها وتستدير لتنظر للرجل الواقف أمامها.. ضاقت عينيها وهي تتأمله بالزي الإماراتي التقليدي وقد غطت نظارة سوداء عينيه.. تقيه من الشمس وتخفيه عن عينيها.. ممتلئ الوجه بعض الشيء تكسوه لحية منمقة فيما غزا بعض الشيب فوذيه.. كانت تتأمله للمرة الأولى ولها الحق.. فهذا الرجل كان يريدها.

-تفضل معي..

قالتها بإقتضاب قبل أن تتحرك نحو مكتبها ليرفع صلاح أحد حاجبيه ويبعد نظارته السوداء ويتنهد وهو يتبعها.. لم تكن سهلة وهو يعرف.. من كم المعلومات الكبير الذي جمعه عنها..

ولكن الكثير كان غامضاً بالنسبة له..

كانت فاتنة جداً لتبقى دون زوج حتى هذا الوقت.. فتاة مثلها تكاد تقارب الثلاثين، ومن عائلة كعائلتها.. كيف؟؟ هو لايهمه هو يريدها لتكون زوجة وأم لطفله وليؤسس معها عائلة..

هو لن يخفق مثلما فعل في المرة السابقة.. لن يؤذي ابنه بتلك الطريقة مجدداً..

علي يحبها ويحترمها .. وهو سيستغل هذا لأقصى درجة.

جلس أمامها على المكتب وعينيها لاتزالان تحاولان سبر أغواره.

-هل انتهيت من التقييم؟

قال بهدوء لتنظر له ببرود:

-ليس بعد.. أريد أن أعرف مالذي تريده مني بالضبط؟

-أريدك أنت كماسبق وقلت.

قالها بوضوح ليربكها اكثر وتهتز نظرتها الثابتة، رأى لطخة من الدم الأحمر تلون وجنتيها قبل أن تسيطر على ملامح وجهها وتقول بصوت أرادته جامداً فخذلها:

-مالذي تريده بالضبط؟

ابتسم وقال:
-أريد الزواج بكِ سلطانة، على سنة الله ورسوله.. ليس أكثر ولاأقل.
ابتلعت ريقها بصعوبة واهتزت أصابعها التي تتشبث بقماش عبائتها لتهمس بشحوب:
-أنا لاأفكر بالزواج..
خرجت اجابتها لاارادياً وعينيها تغرقان بذكرى عينين ضيقتين مجروحتين.. عينين هي جرحتهما بكل قسوة ولم تهتم، لم تفكر.. حب حكم روحها ولكنها لاتستطيع الهروب منه ولاالرضوخ إليه.
-لماذا؟ أنت واعذريني على ماسأقول..
تردد للحظة ثم واصل:
-أنت فتاة جميلة.. مثقفة ومن عائلة مرموقة فلم؟؟ لم لاتعطين أحداً الفرصة؟
-لأنني لاأريد الزواج..
قالتها بحزم ليعترض:
-لايوجد شيئ كهذا؟؟ أنت تجاوزتِ عمر الاختيارات.. لم تعودي في سن يسمح لك بالانتقاء او التردد..عرضي بمثابة فرصة لن تتكرر..

قالها بغرور لتتسع عينيها وتجد نفسها تضحك غير مصدقة لوقاحته:
-كيف تجرؤ؟؟
-أنت في الثلاثين سيدتي.. أنت تقتربين من العنوسة ولن تجدي رجلاً مثلي يدق بابكِ.
استمر بقسوة لتنهض صوان وقد احمر وجهها غضباً هذه المرة واشارت للباب:
-أخرج.. في التو واللحظة وإلا جعلت أمن الحضانة يرموك خارجاً.
لم ينهض حتى من مكانه، بل عقد ساقيه وقال بوقاحة أشد:
-اسمعيني ياصوان..أنا معجب بك جداً.. ولكن لايجب أن تمثلي دور صعبة المنال.
-أأخرج الأن.
صاحت صوان بعنف.. قلبها يغلي ويحترق وهي تراه بكل تلك الوقاحة.. فكرت للحظة.. لوكان هنا.. لو أنه قد سمع مايتفوه به هذا الغبي.. للحظة فقط.. عاد تعقلها يجتاحها..
جســاس ليس هنا..

ولن يكون.. أبداً.. معاركها عليها خوضها وحدها.. مهما كان الثمن.
لذا تمالكت أعصابها وبكل برود عادت تجلس مكانها وهي تأخذ نفساً عميقاً..وتقول:
-سيد صلاح لقداحترمتك بمافيه الكفاية وستخرج الأن قبل أن أوجه لك بعض كلمات تضعك في مقامك الصحيح.
نهض صلاح ببطئ، وقال بخفوت:
-لابأس سلطانة، سأترك لك بعض المساحة والوقت لتفكري..
-ليس هناك ماأفكر به.
قاطعته بغيظ ليبتسم:
-بل هناك الكثير والكثير.. أنا أعرض عليكِ الزواج وسأعطيك مهلة للتفكير وبعدها سأخذ قرارك الأخير.
-هذا قراري الأخير.
قالت بحزم ليهز رأسه بلا ويبتسم بثقة:
-لا ليس بعد.. ستفكرين وتعيدين التفكير.. وحين أقرر أنا أن المهلة كافيــة سأتي اليكي من جديد.

وواجهها للحظة متحملاً نظرة الكراهية التي رشقته بها ليقول بعدها:
-الى لقاء سلطانة..
راقبته ينصرف.. يغيب عن نظرها ثم زفرت توترها بتنهيدة طويلة..
جلست تسند جبينها الى كفيها المضمومتين بقوة..
قلبها يخفق بجنون ..
حائرة في أمرها.. بل في كل أمورها بلا استثناء.
***
روما..
"سارة"
"سارة بنيتي استيقظي"
سمعت الهمس قريباً منها، فتحت عينيها ببطئ وطالعتها دزينة من الورود برائحة نفاذة جعلتها تتراجع بإنزعاج:
-ماهذاا.. أبعديه عني أمي.
تراجعت والدتها تحمل دزينة الورود باستياء:
-ولكن ليس كل يوم يستيقظ المرء على ورود عبقة الرائحة كهذه.. انظري ماأجملها حبيبتي..

وضعت سارة يدها على فمها وخرجت من سريرها مسرعة الى الحمام.. أفرغت مافي معدتها عدة مرات وخلفها أمها تحيط بها بذعر وسارة تتشبث بها بألم..
مغص قوي أدار رأسها وجعلها تستند على والدتها بضعف وهي تعيدها الى السرير، وهي تهمس بضعف:
-أنا أشعر بالمرض.. لست بخير امي..
ساعدتها أمها على الاستلقاء وسارعت للهاتف للاتصال بالطبيب..
وبعد لحظات عادت لسارة التي كانت تنتفض بضعف وأمسكت بيدها بحنان:
-لاتخافي صغيرتي.. سيأتي الطبيب بعد لحظات.. سأحضر لك بعض الماء بالليمون..
هزت رأسها بتفهم وقبل أن تغادر أمها سألتها بخفوت:
-أمي! من جاء بالورود؟
نظرت لها أمها بقلق ثم تنهدت وهمست:
-انها مرسلة من قبل شاهر الباشا..
تجهم وجه سارة وهمست بعصبية:

-خذيها وارمها في القمامة.. لاأريد رؤيتها.
اومأت أمها وسارعت لتخرج دزينة الورود.. البيضاء واغلقت الباب خلفها بينما استلقت سارة بين الوسائد وضمت جسدها المرتجف بين ذراعيها وهي تفكر وتفكر..
ركان لم يكلف نفسه حتى بالسؤال عليها؟؟
انسابت دمعتها بحرقة لتغمض عينيها بألم.. هو لم يهتم..
لقد نسي الحب.. نسي كل شيء لم يعد يهتم بها لم يعد يريدها بأي حق فعل هذا؟؟ بأي حق؟؟
اجتاحتها الأفكار السوداء وبدا تخبطها يرافقه الغثيان المرير الذي أصبح عنوان كل صباح لها، الصداع والضعف يرافقانها وهي قد سئمت منه.. سئمت من كل شيء..
لم تعرف كيف مضى الوقت..
سمعت الباب يفتح وأمها تعلن وصول الطبيب..
فعادت الى الواقع بصعوبة..
بعد أن أتم فحصها وسألها بضعة أسئلة طلب منها أن يأخذ عينة لفحص الدم.. وتحملت الوخزة

المؤلمة دون أن تطرف وبعد أن وضع عليها لاصق طبي قال لها بإبتسامة:
-سنجري بضعة فحوص لنسبة دمك والسكر في الدم وأود أجراء فحص حمل..
رفعت رأسها بصدمة وهتفت غير مصدقة:
-حمل؟؟ أتشك بكوني حاملاً؟
-حالياً أنت تعانين من هبوط وضعف عام ولكن نعم يمكن للحمل أن يكون السبب ولذا سأقوم بإجراء الفحوصات اللازمة وأبلغك بالنتيجة بأسرع وقت ممكن.
قالها الطبيب بحرص ثم أغلق حقيبته وأعلن استعداده للمغادرة:
-أحضري لها هذه الحبوب انها آمنة للسيدات الحوامل، وهي ستقضي على غثيان الصباح..وسأبلغك بأمر الفحوصات حالما احصل على النتيجة.. وإن ثبت الحمل فسأزكي لها أحد أفضل اختصاصي النساء والتوليد في روما.
رافقته أمها على الباب بينما استلقت سارة دون حراك على الفراش، تفكر بالاحتمالات المتعددة

التي فرشت أمامها اليوم.. لاتعرف هل تغضب لإحتمالية الحمل أم تقفز شكراً لله؟؟
إنها أمام خيارات متعددة ولكن؟؟ أيها يمكن استغلاله لتربح كل ماخسرته حتى زوجها الأحمق..
"هل ستخبرين ركان؟"
تسائلت أمها بعد عودتها لتنظر لها سارة بحيرة ثم قالت:
-ليس الأن، دعينا نتأكد من الخبر اولاً.. ثم أفكر ملياً بطريقة اخباره..
تنهدت أمها وابتسمت بحنان:
-لاأصدق أن ابنتي الجميلة ستجعل مني جدة؟؟ والدك قد يطير عقله بهكذا خبر..
فكرت سارة للحظة بوالدها.. والدها الذي خسرت ثقته بها حالماخسرت ماربحه قبل سنوات طويلة والى الأن هو لايعرف.. رباااه ماسيفعل بها؟؟ ماسيفعله بركان؟؟
فكرت برعب وهي تحيط ببطنها انها لاتقدر على مواجهة نضال الشيب وحدها، وركان.. ركان لن يقدر.

عقاب والدها سيكون قاسياً للاثنين معاً.

***

روما..

اندفع سيف الشيب عبر أروقة المستشفى المركزي وسأل أحد الممرضين بإقتضاب ليوجهه الى أحد الأجنحة.. لم ينتظر واسرع اليه مهرولاً ليفتح الباب ويلقي نظرة مذعورة على ابن عمه المكوم على الفراش..

-يالله أوس ماذا حدث لك؟

رفع أوس رأسه بصعوبة بعض الشيء.. فبالرغم من المسكنات التي أغرقوه بها طيلة الليل لم يستطع اغماض جفن.. من فرط الألم.. عين متورمة وبها كدمة زرقاء وبنفسجية، صدره محاط بحزام ضاغط، وذراعه ملفوف برباط ضاغط ومعلق الى كتفه بإحكام..

-مرحباً بك.. أخيراً وصلت..

-أخبرني من فعل بك هذا؟

صاح سيف بجنون ليشير أوس بيده السليمة وهو يحاول الاعتدال:

-هناك أمور أهم.. تعال واجلس..

-أهم..؟؟!!
صرخ سيف بحنق ثم صاح:
-أنف وضلعين مكسورين، عين متورمة.. وذراع مخلوعة؟؟ ماذا تسمي هذا؟
نظر أوس لذراعه وقال:
-هذه الذراع خلعها جساس قبل زمن.. انها ضعيفة بعض الشيء..
-توقف عن المزاح..
صرخ سيف بقهر ومال نحو ابن عمه:
-أخبرني وسيأكله الذئاب حياً..
ثبت أوس عينه السليمة بعيني ابن عمه وابتسم بصعوبة.. ثم قال:
-هناك أمور أهم من مطاردة عصابة لعينة لايهمها الا السرقة.
-هل قاموا بسرقتك؟
شردت نظرته وهو يفكر بها.. مسروقته الثمينة.. وهمس:
-نعم.. وسأستعيدها بأسرع مايمكن لاتقلق.
-أنا لاافهم ياأوس.

هتف سيف ليتنهد أوس بصعوبة بينما يحاول التقاط أنفاسه مع الضلوع المكسورة ثم يقول:
-لنبقى بالامر المهم والذي أحضرتك من دبي بسببه..
عقد سيف حاجبيه لينظر له أوس بثبات ثم يقول بهدوء:
-سأتزوج..
لم تتغير نظرة سيف لم تهتز له شعره وهو ينظر لرفيق عمره وهو يصرح بالتصريح الأكثر اثارة للذهول والجنون ..
-سيف؟!
-ماذا؟
أجاب بهدوء ليبتسم أوس متأوهاً:
-مارأيك؟
-رأيي بما؟
رد سيف بفضول.. ليقبض أوس على الفرش بحنق ويصيح:
-بماقلته لك في التو؟
-وماذا قلت؟
توسعت عين أوس وصرخ بعنف:

-مابالك يارجل هل أصبت بالصمم؟؟ قلت أنني سأتزوج لعن الله شيطانك.. سأتزووووج..بعد يومين.

توسعت عينا سيف بذهول:

-هل جننت أخيراً؟؟

تنفس أوس بقوة وتراجع ليسند ظهره على وسادته وسيف يصيح:

-تتزوج؟؟ أنت بالكاد قادر على رفع أصبع؟؟ وتفكر الأن بالزواج؟؟ هل جننت يا أوس..؟؟

-أستغفر الله العظيم من بلاء الغباء..

وقبل أن ينطق سيف كان أوس ينهض متجاهلاً ألمه ورضوضه ويواجه ابن عمه بوحشية:

-هاأنا قد رفعت جسدي بالكامل.. أيرضيك هذا؟؟ هل هذا مايؤهلني للزواج بنظرك ياأحمق؟

تجهم وجه سيف ومد ذراعه ليلكز أوس في جنبه بقسوة جعلته يشهق بألم ويهتز وقوفه ليكاد يقع، وسيف يقول بشماتة:

-انتصب اولاً.. ياغبـــي.

زم أوس شفتيه وهمس بأنفاس متسارعة:

-أنت في عداد الموتى سيف.. سأقتلك.

مال سيف نحوه وهتف بحزم:
-افعلها.. هيا أرني كيف ستقاتل ياذئب الشيب؟؟
نظر له أوس بعجز ليتنهد ويقترب منه ثم يحيطه بذراعه ويعيده للفراش:
-أخبرني..كل شيء.
لم يكن يقدر.. جلس على طرف فراشه وشرد بصره وهو يقول:
-مايجب عليك معرفته أخبرتك اياه بالفعل.. سأتزوج بعد يومين، عقد قران على الأقل، وستعمل على تواجد ذئاب الشيب كلهم.. والدك والدي وعمي حسن.. اريد القطيع كله هناك..
ضاقت عينا سيف:
-من هي؟؟ ماذا تحاول أن تفعل؟ وكيف ستتزوج؟ منذ متى تعرفها؟ ...
-سيييييف..بالله عليك توقف ..
قاطعه أوس بإرهاق ..
-يجب ان أتزوجها بأسرع وقت ممكن.
-أهي حامل؟
تسائل سيف بخشية ليغمض أوس عينه بحنق ويقسم من تحت ضروسه ويهمس:

-أنا لم أمسها، أبـــداً.. ولكن..
ثم جز على اسنانه بقوة وهو يواصل:
-هي ستضيع مني.. أنا لاأريدها أن تضيع.
اتسعت عينا سيف وتذكر بلحظة.. سلمى.. وابتسم..
-تحبها؟؟
عقد حاجبيه وفكر لوهلة قبل أن يقول بحذر:
-لا.. ليس حباً.. ليس ذلك الجنون الذي جعلك تصالح بين عائلتين متناحرتين لعقود من الزمان.. أنا.. وعدتها.. ولن أخلف وعدي.
قالها وصمت ليتأمله سيف بحيرة:
-بماوعدت ياأوس؟
-انه وعد بيني وبينها، وأنا لن أقوله أو أخلفه.. أريدك أن تجمع العائلة.. وأريدك أن تعرف أن شيخ العزب العجوز سيعقد قراني بها، وصهرك قحطان سيكون شاهدها وأريدك أنت أن تكون شاهدي..
عقد سيف حاجبيه وتسائل:
-من تكون تلك التي سيشهد قحطان العزب بجلال قدره على عقدها؟؟ أخبرني يأبن عمي؟

-ترنيم مختار الراجي..

ضاقت عينا سيف للحظة وهو يفكر أين سمع الاسم من قبل وعيناه بعين قريبه اللامعة بقوة.. قبل أن تتسع عيناه بذهول وهو يتعرف الاسم.. كانت تلك الفتاة ..

القزمة التي دعتها سلمى لحفل زفاف سارة؟!

خطيـــبة علي العزب السابقة؟!!

***

نهاية الفصل

الفصل العاشــر

***

دعيــنا نرقص..
فلا رقص.. لا فرح..
لا رقص.. لا ضحك..
دعيني أحملك على ذراعي
وأهرب بكِ عن جميع الخلق
دعينا نكون وحدنا نلملم ألامنا وأحزاننا..
نتأوه وجعاً ونبكي قهراً
ثم نقفل صفحة الماضي
وتكونين لي وأكون لكِ
الى الأبد

***

اليمـن/عـــدن..
صباح الزفاف..
مطار عدن الدولي..
وقف سيف في أحد المدرجات الخاصة مراقباً تلك الطائرة الصغيرة والتي حملت شعار الذئب يعوي في السماء وهي تستقر وتنطفئ محركاتها ليشد من قامته وييحزم ملامح وجهه يراقب فتح الباب ونزول ثلاثة رجال طوال القامة بينما فُتح الباب الأخر وامتد جسر مستوي لينزل عبره رجل أخر بكرسي متحرك يقوده أحد المضيفين..
وحالما أصبح الجميع على الأرض اقترب سيف مبتسماً فارداً ذراعيه:
-مرحباً بالـذئاب.. لقد أشرقت عدن بـ.....
-توقف عن المقدمات الحمقاء يافتى..
صاح أحدهم بخشونة وتنهد سيف وحاول رسم ابتسامة ديبلوماسية وهو يلتفت للرجل أشيب الفوذين والذي كان يقصره بإنشين، ممتلئ القامة شديدها، عينيه رماديتين كعيني ولده بالضبط:

-أين هو الأرعن الأخر الذي جعلنا نقطع نصف الكرة الأرضية دون أسباب مقنعة كمجموعة من الحمقى؟؟

-نضاااال..

تمتم الرجل بالمقعد المتحرك منبهاً ليقترب منه سيف ويقبل رأسه قائلاً:

-سلطاان.. مرحباً بك.

رفع السلطان عينيه لمقابلة عيني ولده وقال بجمود:

-هل تنوي أن تفسر أم أترك أمر استجوابك، لعمك؟

تنهد سيف ورفع عينيه الى الرجل الثالث واقترب يعانقه بحماس:

-مرحباً بك عمي حسين؟ كيف هي العمة فاطمة؟؟

رفع عمه حاجبه واستعاد منظره الجاد وهو يقول بحزم:

-أجب والدك يافتى، عمتك تماماً مثلماتركتها قبل أمس.

مط سيف شفتيه وهو يشتم أوس في اعماقه لتركه يواجه والده وعمومه بتلك الطريقة الحمقاء..
ثم عاد يلتفت لعمه نضال والد اوس وقال بإبتسامة:
-أوس سيتزوج مساء اليوم عمي.
اتسعت عينا نضال الشيب وتراجع بحدة بينما صاح سلطان الشيب بغضب:
-ماذا تقول؟!
رفع سيف ذراعيه وقال بحذر:
-لاتتسرعوا وانتظروا لتفهموا جيداً.. اولاً علينا الذهاب لرؤيته هو ينتظرنا في منزله.
-منزله؟؟ منذ متى له منزل هنا؟
قالها نضال بسخرية ليرد سيف بتوتر:
-منذ أن قرر الزواج.. عمي ارجوك انتظر لتستمع اليه لاتظلمه بكلامك.
-أظلمه؟؟
هدر عمه بغضب:
-رباه سيف؟؟ ابني الوحيد سيتزوج وأنا أخر من يعلم، أتلقى دعوة مثلي مثل غيري والأدهى أنه حتى لايطلب موافقتي أو استشارتي؟؟ لقد عاش

في اوروبا لوقت طويل ونسي أصله وابن من يكون؟؟؟؟

-عمي.. الأمر أكبر من هذا.. تعال معي وستعرف كل شيء.

قالها سيف بعصبية وحذر من غضب عمه الناري الذي يفوق في أحيان كثيرة غضب أوس وجنونه، وهنا تدخل السلطان ورفع يده بحزم لأخيه:

-لابأس نضال، سنستمع لأوس في البداية وبعدها نرى.

تمالك نضال الشيب أعصابه وسكت تماماً بينما يقودهما سيف عبر شوارع المدينة الهادئة في ساعات الصباح المبكرة نحو حي السفارات حيث دخل بسيارته لبوابة فيللا صغيرة محاطة بحديقة جرداء طالعها الجميع بضيق وحسين الشيب يتسائل بحنق:

-ألم يجد مكاناً أفضل من هذا.؟

-أوس متعب هو لم يدقق في اختيار المكان ثم انه للايجار لمدة لاتزيد عن الشهر، هو لن يستقر هنا.

قالها سيف ببرود ثم قادهم الى داخل الفيللا والتي من رائحة الطلاء والمفروشات تبين أنها جديدة وبالكاد قد مست.. هتف نضال بغضب:
-ألاينوي استقبالنا في منزله كذلك؟
تنهد سيف واشار لغرفة في أخر البهو..
-انه ينتظرنا هناك.
زفر نضال بحنق وأسرع نحو الغرفة بخطوات واسعة غاضبة لحقه شقيقه ليهدأ من روعه بينما السلطان ينظر لولده بقلق ويسأله:
-مالذي تخفيه سيف؟
دفع سيف كرسي والده وقال بغموض:
-ستعرف كل شيء أبي.. حالاً.
أوقفه بدخل الغرفة والي أعدها أوس كغرفة معيشة مجهزة بالكامل بشكل مريح فيما جلس هو على كرسي وثير وقد اختفت معالم وجهه تقريباً تحت كيس من الثلج أبعده حال دخولهم وهو يحاول الابتسام:
-مرحباً بالذئاب..
شهق عمه حسين بذعر بينما صمت السلطان بذهول أما نضال.. والده فقد أسرع نحوه وأحاط

وجهه بيديه ليرفعه له بحزم رفيق وعيناه تشتعلان صارخاً:
-من فعل بك هذا؟؟ تكلم الأن.. من تجرأ ومسك بسوء.
-بحذر.. بحذر.. هذه البقع ليست من فراغ نضال بيك.. أنت تؤلمني.
تراجع نضال وهو يثور رغم المرح الواضح في كلمات ابنه ولكنه أوس، ومن غير أوس قد يمزح ووجه يبدو كخريطة توزيع النفط!!
-من فعل بك هذا، أعطني اسماً وسأتي به الى هنا وأمرغه تحت قدميك.
ابتسم اوس:
-أبي لست طفلاً سرقوا لعبته المفضلة.. ماحدث مجرد حادث، وليس بالأمر المهم.
-ليس مهماً؟؟
صاح عمه حسين واقترب منه:
-بني أنت تبدو كـ.. كملاكم خسر بالضربة القاضية.. انظر الى نفسك؟
تنهد أوس وقال بملل:

-اعرف كيف أبدو عمي، وجهي هو ماأراه كل يوم استيقظ به في الصباح، انه اسوأ مابي صدقني.. الأمر ليس بالسوء الذي يبدو عليه.

مال والده لينظر له بعاطفة قوية:

-بني أخبرني، هل صدقاً تتحدث عن الحادث؟؟ أم أن هناك من قام بضربك؟؟ تحدث صدقاً ولاتخجل؟

امتعض وجه أوس وهمس:

-صدقني أبي.. لاتخف علي سأكون بخير.

تنهد نضال الشيب واستقام ينظر لسيف:

-وأنت تكذب بهذه الطريقة وتجعلنا نظن حقاً انه سيتزوج فقط كي لاتفزعنا بالخبر؟؟ لم لم تنقله الى الولايات المتحدة حيث يتلقى أفضل العلاج.

-ولكنه لم يكذب أبي..

رد أوس بسرعة ليلتفت له الجميع وهو يضيف بحرص:

-أنا سأتزوج فعلاً هذه الليلة، وقد أحضرتكم جميعاً لتقفوا معي.

اتسعت اعين الثلاثة وفي حين ألجمت الصدمة والده واختار عمه حسين مثلها اقترب السلطان بكرسيه ووقف امام ابن اخيه ليهتف متحشرجاً:
-مابالك أنت وسيف؟؟ الاول يتزوج ويقلب الدنيا رأساً على عقب ويجرنا من أطراف العالم لأجل امرأة وفي النهاية يتزوجها دون دعوة أحد سواك.. وأنت.. أنت تصر على اتمام زواجك وأنت بالكاد تقف؟؟
زفر أوس بضيق ونهض من مقعده متصلباً قليلاً هاتفاً بحنق:
-أنا أقدر على الوقوف كماترون لست بمقعد. والان هل ستنصتون لي أم أنكم ستظلون تشككون بقدراتي على الوقوف؟
تبادل ابيه واعمامه النظرات ثم عادوا ليلتفتوا اليه قبل ان يقول السلطان بوقاحة:
-نحن قد لانشكك بقدرتك على الوقوف ولكن الزواج.. بني ليلة الزفاف تتطلب أكثر من مجرد القدرة على الوقوف.. ولاأظنك محتاج لتفسير؟
احتقن وجه اوس وعاود جلوسه بينما يخنق سيف ضحكاته ويواجه نظرته الشيطانية:

-لاداع للقلق بهذا الشأن أيضاً.. أنا اطمئنك.
ثم التفت لأبيه الذي لم يشترك بالمزاح وحملت عيناه نظرة جادة:
-مالذي يجبرك على الزواج بهذه لطريقة والسرعة.. من تكون؟
ابتلع أوس ريقه ثم قال بهدوء:
-سأجيب كل تساؤلاتك أبي لاتقلق.. اسمها ترنيم الراجي، وهي ابنة مختار السيد الراجي.. وكماسمعت هو له العديد من الاعمال في مجال السفن والهندسة البحرية.. كما أنه من قبيلة العزب.
زفر الساطان بضيق ولكنه لم يتدخل بينما يستمر أوس بحذر:
-التقينا قبل شهور.. ونحن.. اعني بأننا مغرمان.
رفع سيف حاجبه بصمت بينما يتلقى نظرة تحذير من قريبه الذي قال والده بحدة:
-هذا لايجيبني.. عن لماذا الأن ولم التسرع؟؟
-والدها يريد تزويجها بإبن عمها.. وبالكاد استطعنا اقناعه، انا لاأريده أن يغير رأيه أبي.
قال أوس بسرعة ليضحك والده بخشونة:

-يغير من رأيه؟؟ ألا يعرف من سيناسب؟؟ ألايعرف من نكون؟؟ ومن تكون أنت؟

اندفع سيف :

-بالطبع يعرف عمي، وهذا تقريباً هو السبب الوحيد لرضوخه، ان نسب السلاطين لايُرد.

هدأ التوتر قليلاً ولكن السلطان قال بغرور:

-ألايستطيع الانتظار حتى تتعافى؟؟ لن نهرب من بين يديه أم أنه لم يصدق حظه ويخشى أن تغير انت من رأيك؟

تنهد أوس وهمس بإرهاق:

-أنا من طلب اجراء العرس اليوم عمي، انظر الي .. أنا متعب ودون لف أو دوران أنا أريدها بقربي بأسرع وقت.

-ذاك الشبل من هذا الأسد..

-سلطاان..

هتف نضال الشيب بحنق ليضحك سلطان وحسين بينما ينظر لهما سيف وأوس بحيرة ليفسر حسين بمرح:

-والدك فعل الشيء نفسه مع أم سارة، هو لم يطق صبراً وتزوجها ليلة انتهاء عدتها على زوجها الأول.

تراجع أوس بإبتسامة ساخرة وهو يقول:

-وتريد الأن محاسبتي؟؟ لاتعاقبني على جيناتك المتهورة سيد نضال.

-اصمت والا أغلقت لك عينك الأخرى.

هتف نضال بحنق ليضحك أخويه وسيف بينما أوس يعيد كيس الثلج على وجهه ويقول بهمس:

-لا ارجوك.. دعني أرى عروسي بالثوب الأبيض قبل ان تفعل اي شيء .. أريد اطارة صوابها الليلة غزلاً وغراماً وليس فزعاً..

انفجر عمه حسين بالضحك بينما خرج والده وهو يدمدم بكلمات غاضبة والسلطان يقول:

-سنقف معك بني.. لن تكون المرة الاولى التي يفعلها ذئب من الشيب.. فهكذا عادة الذئاب .. تخطف ماتريد وتفر هاربة دون النظر للوراء.

ابتسم أوس من تحت كيس الثلج وهمس بثقل:

-لاتقلق عمي، لن خيب ظنكم.. سأخطفها بالفعل.

***

امتلأ القصر بأجواء لبهجة والفرح، تنقلت الفتيات بين أروقته بمرح تطلقن الزغاريد وتتناقلن جهاز العروس وحقائبها من الغرفة الى حيث تنتظر سيارة النقل، بينما وقفت هي تنظر اليهن من نافذة غرفتها بوجوم، عابسة والمرارة تقطر من كل لمحة من لمحاتها..

-ترنيم حبيبتي .. لقد وصل ثوب زفافك.

التفتت ببطئ ونظرت لأمها ببرود والتي كانت تقترب منها بحذر وعينيها تحملان فرحتها التي امتزجت بشيء من الشفقة..

-ألاتودين رؤيته؟

هزت كتفيها بلامبالاة:

-انه مجرد ثوب، مثله مثل مافي تلك الحقائب التي اخذوها للتو.. لاشيء لي أمي.

تنهدت أمها واقتربت تعانقها ولكن ترنيم تيبست ولم تلن لعاطفة امها والتي تراجعت بتوتر وهي تنظر لابنتها التي تزف اليوم وتبدو وكأنها تزف لقبرها!!

-ترنيمتي.. ماذا بك حبيبتي؟؟ تعودين بعد غياب سنوات لتزفي لرجل لم نسمع به من قبل؟؟

خفضت ترنيم عينيها وهمست مخنوقة:
-انها رغبة زوجك.
تنهد أمها بألم:
-والدك.. لطالما أراد تزويجك لأشرف ابن عمك..مالذي جعله يغير رأيه؟
-اسأليــه..
همست بجمود ثم استدارت وعادت تنظر من النافذة لتتنهد أمها وتقعد على السرير وهي تتسائل:
-هل تكلمت مع أخيكِ؟؟
-أنا لم أره منذ وصولي..
همست ترنيم ثم التفتت لوالدتها وقالت بألم:
-هل أخبروكِ عن عمتي؟ هل قالوا لكِ أن كمالة توفيت؟
انسابت دمعة والدتها بحزن واومأت وهي تجيب:
-قال لي خالد.. أنا أسفة رنومتي.. أسفة حقاً.
-لطالما كنت سلبية في كل شيء أمي، حتى فينا نحن والان نحن ندفع الثمن.. أنا أساق الى زواج رغماً عني. وخالد.. خالد يساق الى كل شيء أخر.

قالت بصوت مخنوق لتنهض أمها وتقترب منها:
-ترنيم أنا حاولت، ولكن أبيكِ.. أبيك صعب للغاية.
-ونحن من علينا دفع الثمن؟؟ حتى الحزن على أحبائنا ليس لنا أن نشعر به؟؟
صاحت بوجع لتحاول امها الاقتراب منها ولكنها ابتعدت حينها سمعتا طرقات على الباب وقبل أن تنطق احادهن كان خالد يفتح الباب ويدخل.
أشاحت عنه فيما قال هو لأمه:
-اتركينا لبعض الوقت أمي.
تنهدت الام وغادرت بينما وقف هو ينظر لشقيقته التي لم تنظر اليه حتى..
-هل أنت بخير ترنيم؟
همس بتوتر لتصمت عن الإجابة فاقترب منها وصاح بتوتر:
-مابكِ ترنيم تكلمي.. اخبريني عن سبب وجود رجل غريب في منزل كمالة معك؟؟
لم تجبه فصرخ بحنق وهو يسحبها من ذراعها لتنظر اليه:

-انظري الي بحق الله واخبريني لم علي أن أكذب امام العالم كله واخبرهم أنني زوجت أختي من خلف ظهر ابي وعائلتي؟؟

-لأنك لم تكن هناك ابداً.

صرخت بعذاب ليتراجع بدهشة.. فلم تتوقف:

-لقد اتصلت بك مراراً أخبرتك انها مريضة وسوف تموت، رباااه لقد قلت لك أنها ماتت، ولم تكلف نفسك عناء المجيء.. ولاحتى مواساتي..

بكت بألم وخالد يتتراجع بذهول:

-كمالة ماتت خالد، ماتت وحيدة ليس معها سواي، دفنها غرباء، لولا وجود اوس معي لماعرفت مايجب فعله ولظلت حتى الأن في ثلاجة موتى باردة..

-انا..لم ..لم يسمح لي.

دمدم بألم لتضحك بمرارة:

-بالطبع لم يسمح لك، هو لم يسمح لأحد، فكيف تعارضه أيها الابن البار..

-ترنيم انا لن اسمح..

-توقف ..

صرخت بوجع ثم عادت:

-فقط توقف عن هذه الكلمات البغيظة وابتعد عني.. افعل مايقوله لك السيد مختار ولاتعارضه.. افعل ولايهمنك شيء.. ولاحتى شقيقتك الوحيدة..

نظر لها ببؤس ثم اندفع مغادراً لايستطيع المواجهة.. ليس الان او ابداً.

***

-هل أدخل؟

التفت أوس لسيف واشار له ليدخل بينما وقف أمام المرآة يحاول عقد ربطة عنقه بيد واحدة ليقترب سيف ويساعده قائلاً:

-تبدو أنيقاً كابتــن.. هل أنت واثق لارتداءك هذه البدلة القديمة؟

تجهم وجه أوس وهمس بغيظ:

-انها بدلة التشريفات ياأحمق، وهي عادة لأي طيار أن يزف مرتدياً بدلته الرسمية..

-حسناً .. حسناً.. أخبرني أتنوي السفر الى مكان محدد؟

-أنوي سؤال ترنيم عن هذا، سنتفق بعد الزفاف.

قالها بحذر وفاتته ابتسامة سيف الساخرة ليسأله:

-هل أحضرت الأشياء التي طلبتها منك؟
-نعم لاتقلق وقد وضعتها في المنزل الجديد كما طلبت.
أجاب سيف ليومئ أوس بإرتياح ثم عاد يسأل:
-ماذا عن شقيقك؟ هل سيأتي؟
-أنا هنـــا..
التفت الاثنين للخلف حيث وقف جساس ببدلته الحريرية الرمادية وقد عقد حاجبيه بحدة حالما رأى وجه قريبه وقال بسخرية:
-العادة تقول انني انا من سيزف بهذه الحالة وذلك لكثرة الحوادث التي اقع بها ولكن أنت؟؟.
تجهم وجه أوس وكتم صيحة ألم وسيف يساعده على ادخال ذراعه في السترة الكحلية الرسمية ولهث هاتفاً:
-اسكت قبل أن أحطم وجهك..
قهقه جساس بسخرية وهتف:
-مالذي حدث لأوس إضربني حيث ماشئت .. ماعدااا وجهي؟؟
-اصمت ياجساس والا كسرت رأسك.
-توقفا أنتما الاثنان عن مهاترات الاطفال هذه..

قالها سيف بحدة فتراجع جساس كاتماً ضحكته ومال ليحضر لأوس قبعته الرسمية ثم اشار له ليتقدمه:

-تفضل ياعريس..

ضحك أوس بصعوبة ثم تبعه الى الخارج حيث توقفت السيارة لتقلهم حيث سيقام العرس..

كانت الصالة مقامة على سقف أحد الفنادق الفاخرة المطلة على البحر واسعة وفخمة للغاية تجاورها صالة أصغر وانما لاتقل عنها قيمة وفخامة حيث سيعقد القران..

حالما دخل الذئاب من آل الشيب حتى استقبلتهم وابل التهاني..

تلفت أوس وشعر بالفخر لتواجد هذا الكم من أفراد عائلته والذي بأمر من السلطان توافدوا من جميع أنحاء العالم وإن لم تتوقف التعليقات عن الكدمات على وجه العريس وسببها وان ظلت تساؤلات خافتة بالكاد وصلت الى مسامع أوس والذي تعلقت عيناه بتحدٍ صامت بعيني حماه..

كان يقف في الجهة الأخرى من الصالة.. محاط بعدد من افراد عائلته تعرف أوس على مهاجميه

الاثنين وشاب أخر لم يتمكن من تمييزه ثم كان قحطان العزب..
ضاقت عيناه وهو يراقب الشيخ الذي ترك رفقة حماه وتقدم نحوه بخطوات واسعة هادئة، رزينة وانتبه بسرعة لاندفاع سيف من جواره لمقابلة صهره في منتصف الطريق والسلام عليه بحرارة..
-كيف حالك قحطان؟ وكيف شيخنا؟
-بخير والشيخ بأحسن حال.. لايزال قادراً على ربط العقود والعهود..
قالها قحطان بفخر ثم التفت لأوس وعقد حاجبيه بتساؤل صامت ولكن أوس لم يترك له مجالاً وهو يقدم له كفه للسلام:
-مرحباً بك ياشيخ، سعيد لأنك ستكون شاهد عقد زواجي.
-مختار الراجي.. صديق قديم للعائلة، كما أن ابنته قريبة لنا قرابة الدم..
اومأ أوس ليقترب منه قحطان ويهمس له بتحذير:

-شهادتي للعقد ليست حبراً على ورق يافتى، أن اتتني الفتاة يوماً تشكوك.. فلن تجد من يخفيك عني.

رفع أوس حاجبه وابتسم بسخرية:

-أهذا تهديد؟

ابتسم قحطان:

-انه تذكير فقط.. ربما أنت بعيد ولاتعرف عوائدنا البدوية، حتى تكون كل المسائل على بينه.

لم يرد.. فقط تأمل شيخ العزب والذي حيا زوج شقيقته واخيه بهزة من رأسه ثم ابتعد ليجلس الى جوار رجل يماثله في العمر مهيب الطلعة ..

-من يكون ذاك؟

تسائل أوس ليجيب سيف:

-عمرو الشهري.. انه صديق قحطان المقرب، كما انه شيخ قبيلة الشهري، افرح بنفسك اوس .. رؤوس ومشايخ قبائل العزب كلها تقريباً تحضر عرسك يابن عمي..

فرد أوس طوله وأخذ نفساً عميقاً متجاهلاً طعنات الأمل التي اخترقت ضلوعه وهمس مشيراً لعائلته خلفه:

-لاتنسى ذئاب الشيب سيف، هؤلاء هم عائلتي، هؤلاء هم عزوتي الحقيقية..

ربت سيف على كتف قريبه بقوة جعلت وجهه يحمر وهو يهمس بغيظ:

-ولاتنسى ان كل جزء في جسدي لايزال يؤلمني يارجل.

تراجع حينها سيف بإبتسامة عابثة وأشار له ليتقدمه:

-تعال إذن واجلس مكانك فسرعان ماسيأتي شيخ العزب ليكبلك الى الأبد.

تنهد أوس متصنعاً الحزن بينما يدفعه سيف للأمام حتى وقف أمام مختار وزمرته..

رفع رأسه بشموخ ونظر في وجوه الرجال الثلاثة..بينما شعر بمن يقف خلفه تزاحماً..

نظر مختار لصهره الجديد والمجموعة التي وقفت خلفه بتقدير.. لاينكر عظم نسبهم، ولاينكر

اعجابه بالشاب الذي جاء بعائلته كلها حتى السلطان جاء بنفسه..
عاد يتأمل أوس.. كانت كدمات وجهه قد خفت قليلاً ولكنها لاتزال ظاهرة، أنفه لايزال في الضماد وذراعه لاتزال في علاقتها، كان يرتدي بدلة الطيران وقبعته تحت ذراعه بكل غرور..
-مرحباً بك عماه.
قالها اوس بصلابة وهو يمد يده السليمة ليصافح مختار ليمد الاخر يده بالمثل ويشد من قبضته وبعدها يلتفت يمينه ويقول مشيراً للرجل جواره:
-هذا أشرف الراجي، ابن أخي وساعدي الأيمن.
نظر أوس للشاب طويل القامة بنظرات سطحية ولم تفته نظرة الكراهية والحقد، هذا الفتى لم يكن من الثلاثة الذين انهالوا عليه بالضرب؟! لا لم يكن منهم ولاحتى الثاني والذي تقدم نحوه وصافحه ببرود:
-كيف حالك أوس..؟؟
-نظر له أوس بحذر وهو يقول:
-بخير..شكراً لك.

-لقد شعرنا بالقلق الشديد عليك أنا وخالد ابني حين عرفنا بالحادثة، لابد أن الأمر كان قاسياً عليك.

قالها مختار ببطئ وهو يوصل رسالته لأوس الذي تفهم تعريفه المبطن بإبنه البكر والذي قيل لأشرف ورجاله أنه من زوجهما سراً وقال بإبتسامة:

-الحمدلله، انا بخير كماترى، مجرد خدوش.

-ممتاز.

قالها مختار بضحكة عريضة ثم التفت لعائلته من خلفه وبدأ سيف بتعريفه عليهم الواحد بعد الأخر وحين انتهى وضع مختار يده على كتف أوس وربت عليه بقوة، ليكتم أوس ألمه وينساق مع مختار وهو يقول:

-تعال لأعرفك بشيوخ العزب..انت ستصبح قريب العائلة ويجب أن ترحب بهم كمايليق.

شعر أوس بالغيظ من الرجل الذي يعامله كغر صغير..ولكنه لم يعلق، تعرف على من يريد ولاقى نظرة متعاطفة من شيخ الشهري وقحطان حين تصفد العرق عن جبينه ليدعوانه للجلوس

بالقرب منهما بانتظار وصول شيخ العزب لإتمام عقد القران..
ولم يتأخر الشيخ.. لم تمضي دقائق حتى كان يدخل بكل تواضع مع مرافقه ورأى أوس كيف نهض قحطان ليقف لجوار جده من الناحية الأخرى حتى أوصلا الشيخ الى مكانه ..
وتقدم سيف مع أوس ليجلس الاخير امام السيد مختار بينما وقف قحطان وسيف كشهود..
في البداية تكلم الشيخ قحطان عن اهمية الزواج وماتعنيه حرمانيته وعهوده امام الله والناس أجمعين.. ثم بدأ بالحديث عن النسباء،، نسب عائلة العزب وسلاطين الشيب، وكيف أن النسب بينهما قد تم قبل سنوات قليلة بزواج السلطان سيف الشيب من شيخة العزب، ويتكرر الان بنسب السلطان أوس الشيب بحفيدة السيد الراجي العزب..
ثم سأل عن وكيل العروس ليجيب مختار الراجي بأنه هو ثم أخذ كف أوس اليمنى ووضعها في كف مختار ووضع منديلاً قطنياً عليها وبدأ بقراءة عهد الزواج يكررانه بعده كلاً بدوره فيما

نظرة اوس الثاقبة لاتتنازل عن عيني حماه بكل جرأة وقوة..
وبعد انتهاءهما طلب الشيخ من أوس التوقيع والتبصيم، ثم أمر بأخذ الدفتر للعروس لتفعل المثل،، ليأخذه خالد ويغيب بعض الوقت.. ثم يعود بوجه محتقن وغصة تمتلك حلقه ويعيد الدفتر للشيخ الذي تأكد من وجود توقيعها قبل أن يدعو الشاهدين على التوقيع كذلك..
-مبروك ياعريس..
قالها سيف بتوتر وهو يربت على كتف أوس وسمع الجميع حينها الطلقات النارية تدوي من اسفل الفندق بكثافة ليهمس أوس بسخرية:
-لابد أنني وقعت في الفخ..
ابتسم سيف ونهض اوس ليتلقى التهاني من والده وأقرباءه ثم من عائلة ترنيم ماعدا أشرف الذي ابتعد الى طرف قصي بينما وقف مختار شاقاً حلقه بالابتسامة متجاهلاً صمت ولده وغضب ابن أخيه..
وفي الطرف الاخر مال عمرو الشهري على صديقه وقال:

-هل أنا الوحيد الذي يشعر بالتوتر هنا؟
تنهد قحطان وقال بتوتر:
-لا.. أنا بنفسي لم أرغب بالتواجد او الشهادة في عقد زواج ابنة مختار، تباً له الفتاة تخلت عن أخي وهو تقريباً أجبرني على فعلها.
-ومن يقدر على اجبارك ياشيخ العرب؟؟
تسائل عمرو باستنكار ليرد قحطان بحنق:
-لقد طلبني في مجلس عرب.. كيف استطيع الرفض؟ اتصلت بعلي وبلغته وماكان منه إلا أن قال ان افعل مايمليه علي تعقلي لاسوء يضره وليس غاضباً او اي شيء.
-كيف حاله في غربته؟
-ممتاز انه يحضر للدكتوراه الان، زوجته لديها طفلين وحياته مستقرة.
-جيد جداً..
ثم قهقه عمرو وأشار لأوس:
-ماكان عليه الزواج وهو بهذه الحالة؟؟ ماذا سيفعل الليلة؟؟ يحتضن امرأته ام ممرضته؟

سيطر قحطان على ضحكته بصعوبة بينما يكشر عمرو بشيطنة والاول يقول بصوت حاول صبغه بالجمود:

-ليست كل ليلة زفاف حافلة.. البعض يمر بهدوء ياشيخ..ليس كلنا عمرو الشهري.

امتعض عمرو وهمس بهيام:

-وماذا تكون الليلة الحافلة إن لم تكن ليلة زفافك ياشيخ؟؟ وانا لن أنكر.. ليلة زفافي كانت أبعد عن الهدوء..

نظر له قحطان بغيظ وتسائل بمزاح:

-أيهما؟؟ ماأتذكره أنك عشتها عدة مرات..

ضحك عمرو عالياً.. ثم شرد ببصره وهمس:

-صدقني ياأخي.. زفافي بشفاءي هو زفافي الاول.. والأخير.

رفع قحطان حاجبه وهز رأسه شاعراً بعشق صديقه الميئوس منه لامرأته ولكن عمرو لم يعتقه بل لكزه بخفة وتسائل بخبث:

-وأنت؟؟ العصفورة أخبرتني أن ذوات الشعر الأحمر يبسطن سيطرتهن على منزل شيخ العزب؟

غامت عينا قحطان بعاصفة من الحب وهو يتذكر أميراته الثلاث.. هبة الكبرى ومن ثم جئن فاطمة وعالية.. توأم حملن تفاصيل امهن.. في كل شيء،، الصهباوات فعلاً يكتسحن منزل شيخ العزب..ولكن لايعني هذا ان ليس للصبية مكان.. فبعد التوأم الاول حظي بتوأم أخر.. زوج من الصبية برؤوس سوداء كعش الغراب.. وفيما حمل محمد عيني والده السوداء، كان عمرو يحمل عيني والدته الزمردية..

-كيف هو سميي؟؟

-يثير اعجاب كل من يراه، كمايبدو العينين الخضراوتين تسهل له طريقه.

-ممتاز.. سيكبر ليصبح مثار حسد واعجاب.

التوى فم قحطان ثم سأله:

-ماذا عن الطفل القادم؟ أهو صبي أم فتاة ومتى سيشرفنا بقدومه؟

ابتسم عمرو بحب وصورة خاطفة لجنونه بالبطن المنتفخة تتراقص أمام عينيه:

-لم نعرف بعد.. شفا ترفض رؤيته.. تقول انها تريدها مفاجأة.. علياء تدعو ليل نهار لأن تحظى بفتاة لتلعب معها.

-ماذا عنك؟؟

سأله قحطان بفضول ليتنهد بحنق:

-أنا أريده أن يخرج بسلام. لاأتصور أن اعاني ماعانيته بولادة الاول.. كدت اجن وانا بالانتظار.

-أنت عاشق أكثر من اللازم.

دمدم قحطان بجفاء لينظر له صديقه بسخرية:

-من يراك الان لايكاد يصدق مافعلته وهي تلد توأمك الثاني.. أتذكر ان الطبيب تلقى لكمتين قبل أن يخلصوه من بين يديك.

أشاح قحطان بوجهه حرجاً وغضباً وذكرى الطبيب الاحمق الذي قال انهم قد يشقو بطن سيادته فقط لأن الطفل الثاني تعذر خروجه.. رباه لقد قلب المشفى يومئذ رأساً على عقب.. ورأسه ألف سيف ألايمسوها بأي سوء.. مهما كانت النتائج.. حتى فرج الله همه ورزقت بمحمد دون تدخل جراحي..

كان هو الأخر عاشق.. عاشق للنخاع.

وعادت أنظارهما للجمع الذي بدا يخف حول العريس ثم جاء ذلك الرجل الاشقر.. ليقف أمام أوس ويمد يده مصافحاً..

رفع أوس عينيه ليرى ركان وابتسامته الواسعة:

-مبارك لك صهير، انها مفاجأة مدوية اعترف بهذا.

صافحة أوس بخفة وقال ببرود:

-مسرور لرؤيتك ركان.. لدي حديث طويل معك.

-بالتأكيد.. ولكن أظن ان الوقت غير ملائم البته.. لم لانؤجل الحديث حتى تعود من شهر العسل.

اومأ أوس بتفهم ثم سأله:

-هل جائت سارة معك؟

توترت ملامح ركان ولكنه سيطر عليها بسرعة:

-سارة جائت مع والدتها، لابد أنه لم تسنح لك الفرصة لمقابلة الجميع.. ولكنني واثق أننا سنعود معاً.

-ممتاز لأنني لن أسمح لك بأذيتها ركان.. سارة شقيقتي الصغيرة، ولايغرنك منظري هذا.. أنا سأسحقك ان ظننت لو هلة فقط أنك تؤذيها.

قالها اوس بخفوت ليبتسم ركان بجمود ويبتعد يومئ برأسه بينما يقول سيف الصامت:
-انسان لزج.. لم أحبه قط.
-سارة تحبه.. وويله لو اذاها فقط.. سأقطع عنقه.
-اعتقد انهما يواجهان مشاكل في العمل.. شيء متعلق بالاسهم.. عمي نضال وصلته الاخبار وهو يحضر للتحدث معهما.
-لاتهمني مشاكل العمل، ولكن ان تعرض لها بأي طريقة قد تسيء إليها فأنا من سيريه حقيقته.
زمجر أوس وعاد يلتفت لسيل من المهنئين بينما ترتفع الزغاريد من جهة صالة النساء، بشكل متواصل.. والصالة الضخمة تمتلئ بالمدعوات المتألقات..
توقفت سارة تنظر حولها بفضول.. لاتزال لاتصدق أن أوس يتزوج..
شعور عارم بالإثارة جعلها تترك روما وكل المشاكل خلفها وتنتزع أمها معها وتأتي الى عدن دون تردد.. هي حتى لم تستلم اجابة الفحص الذي أجرته!! نظرت لأمها والتي تأنقت بشكل خاص بثوبها التافتا الانيق وجاكيته طويل الاكمام لونه

النحاسي ينافس برونز بشرتها وشعرها.. بينما تقول:

-لم احضر فرحاً عربياً منذ دهور لاأصدق أن أوس تزوج؟هذه صدمة لنا جميعاًهو حتى لم يعطنا الفرصة للتأنق.

ضحكت سارة وسمعت من خلفها صوتاً مرحاً يقول:

-رباااه توبايا.. لو تأنقت أكثر سنجلسك مكان العروس..

التفتا معاً لرؤية العمة فاطمة بقامتها الممتلئة وعبائتها الحريرية الهفهافة حولها بلونها الأزرق وتطريزاتها الفضية الأنيقة تزيدها تألقاً وتوبايا تضحك بمرح وتقترب لتقبلها :

-فااطمة الغالية.. كيف حالك؟؟

-بأفضل حاال .. ابني البكر سيتزوج ماذا تظنين؟؟

هتفت فاطمة بسعادة بالغة تنضخ من عينيها بينما التفتت توبايا الى الفتاتين جوارها وهتفت:

-صواان ياللجمال.. ماهذا ياصغيرتي انت تبدين فااتنة.. وأنت سلمى عزيزتي جميلة.

ابتسمت صوان بخجل واقتربت لتقبل وجنتي المرأة التركية الطيبة والتي أثنت على ثوبها العنابي بذيله الطويل المطرز بنقوش بيضاء ناعمة بينما تفصيله الضيق يظهر رشاقتها وتفاصيل قامتها الهيفاء.. وفعلت سلمى المثل وهي تجر ذيل ثوبها المنكوش بلونه الشمامي الفاتح..

والتفتت لسارة قائلة :

-تبدين فاتنة سارونا.. اللون يناسبك حقاً.

ابتسمت سارة بغرور ووضعت يدها على خصرها وهي تهمس:

-انه مصمم من أجلي فقط..

ضحكت صوان وسلمى والاولى تثني على الثوب الحريري الناعم والذي التصق بجسدها تماماً والتف اسفل صدرها بعقدة أنيقة وانساب حتى تجاوز قدميها بعدة إنشات..وتألق لونه الأحمر بشكل جهنمي ليبرز بشرتها السمراء الخالية من العيوب.

-انظروا من أتى هناك..

همست فاطمة بتوتر بينما التفت العيون كلها حيث اشارت.. وارتبكت عينا الصوانة لدرجة أنها شعرت بالذعر يدب في أوصالها وهي تلاحظ اقتراب والدة جساس منهم بخطوات أنيقة ثوبها الأسود اللماع يزين خطواتها وابتسامتها على وجهها:

-مساء الخير.. فاطمة كيف حالك؟

عانقتها فاطمة بخفة وهي تهمس بارتباك:

-بخير يانرجس.. كيف حالك أنت؟

وسارعت سلمى بالاقتراب من المرأة وقبلت وجنتيها بمحبة فابتسمت نرجس وقالت وهي تحيي الباقيين وتخص صوان بنظرة من تحت رموشها قبل أن تشيح عنها بسرعة:

-مبارك لولدك حبيبتي.. أوس لم يكن ليجد في والدته الحقيقية أكثر مما أعطيته أنت.وقد جئنا لنبارك له ولك قبله.

-جئتما؟؟ أنت ومن خالتي؟

تسائلت سارة بفضول لتتسع ابتسامة نرجس وتشير للفتاة التي اختفت خلفها تقريباً وقالت بفرح:

-أنا وشيـماء،ابنة أختي.. جساس طلب مني احضارها للتعرف عليكم جميعاً.
اتسعت عينا صوان للحظة..
ثم تجمدت نظرتها ولم تعد تشي بالجمر الذي اصطلى بالنار واحترق وبات رماداً تكفيه نفخة واحدة ليتطاير ويختفي.. حرقة صبت غليلها من اعماقها لتطفح على سطح وجهها واتقدت في عينيها نار أحرقتها بلارحمة..
كانت هذه هي..
تأملت الفتاة صغيرة السن بذهول..
كانت جميلة بشكل مهول.. قدها الرشيق انصب متكاملاً في ثوب فيروزي اللون قصير كشف عن ساقيها وبشرتها البيضاء الناصعة.. شعرها نزل طويلاً كثيفاً أسود اللون بأطراف نحاسية .. ثم كانت عينيها..
وكأنها لجة ماء صافٍ..
هذه ابنة خالته.. هذه ستكون امرأته.. أهذا مايرسله لها؟؟ أهذا رده على مافعلته وماقالته له؟؟

رأتها تقبل امها التي رحبت بها بإرتباك وتوبايا التي تأملتها بفضول قبل أن تقرر ان تتعامل معها بكل حرارة.. ثم كانت سلمى التي لابد تعرفها من قبل، سارة فقط من نظرت لها بحنق وصافحتها برؤوس أصابعها قبل أن تتوجه الفتاة بجسدها كله لصوان!! كانت تقصرها قليلاً.. ولكن هذا لم يمنع أنها كانت في تلك اللحظة.. أنثى كاملة..

وهي له .. كلياً.

-مرحباً بك.. أنا شيماء.

كانت تحتاج للقرصة التي طبعتها سارة على ذراعها بقسوة كي تفيق، واحتاجت لكل قوتها كي لاتصرخ متألمة وهي تمد يدها تلقائياً لتسلم عليها بينما تهمس:

-أنا صوان..

ضاقت عينا شيماء وهمست:

-اسم غريب..

-معناه الحجرة القاسية..

هتفت نرجس بحدة جعلت جميع الرؤوس تدور اليها بينما فاطمة تهمهم بضعف:

-لا.. ليس هذا..

-ليس هذا معناه..
هتفت صوان بحدة.. ثم التفتت لشيماء التي نظرت اليهن بحيرة وقالت بتحدٍ:
-حين تلتقين ابن خالتك فاسأليه عن اسمي.. هو يعرف معناه أفضل من أي شخص أخر.
وقبل أن يرد أحد كانت تلتفت الى أمها وتقول بحدة:
-لم لانجلس أمي، لاريب أن كثرة الوقوف قد أتعبتكِ..
لم تعرف كيف فعلتها.. كيف وقفت وقالت لأمه ماقالت، مالت سارة نحوها وهمست ضاحكة:
-أحسنت.. انها تستحق.
اغمضت صوان عينيها بحنق .. لم يكن يجدر بها فعل هذا.. تحدي نرجس شيء لاقبل لها به ولاتريده الأن ابداً.. ولكنها لم تقدر على السكوت، ليس وهي تعاملها كشيء..
ليس هي.. ليس صوان الشيــب.
خارج الصالة وفي غرفة صغيرة مجهزة للتصوير، وقفت ترنيم تصيح بحدة:
-لاأريد التقاط الصور..

-ولكن ترنيم انه يوم زفافك حبيبتي..
أخذت ترنيم نفساً عميقاً وقالت بعصبية:
-لاأريد .. لاأريد وكفى..
تدخلت احدى الفتيات وكانت تحمل آلة تصوير:
-لاتريدين تفويت الفرصة انت تبدين جميلة للغاية الثوب وشعرك.. انه كامل.. ألاتريدين ان تحتفظي بذكرى لكل هذا.
-نظرت لها ترنيم بغضب وتجاهلتها لتصمت الفتاة بحنق بينما ترنيم تقول لأمها:
-أمي..أخرجيني من هنا وإلا أقمت فضيحة.. دعينا ننتهي من هذه الليلة وإلا تركتكم جميعاً ورحلت.
-لا لا..سأنادي زوجك وهو يتصرف..لاشأن لي.
قالتها بتوتر والكلمة ضربت ترنيم في الصميم..
زوجها؟!!
تراجعت بإستنكار ورفض.. خوف ارتجفت له مقلتيها وارتجفت له اعصابها وهي تنظر للباب الذي فتح ليظهر خلفه أوس الشيب.. زوجها!!

توقفت حائرة عينيها تدوران حولها بجنون لمكان تختبئ خلفه من عينيه، لم تكن عيناه جائعة.. خبيثة.. ولكن..
مصدومة لرؤيتها.. ربما.. فضولية.. وحين تمعنت أكثر..
رأت خيبة.. جعلت داخلها ينوح بألم..
ولكنها لم تظهر شيئاً منه.. تصلبت وحملت عينيها رفضها وزرعتهما امام عينيه بقوة..
اقترب ونظر لها من رأسها لأخمص قدميها..
حسناً الثوب.. كان .. كان فخماً.. فكر بتكدر لايعرف سببه.. لقد انتظر رؤيتها كعروس بفارغ الصبر.. والأن.. حالما فعل شعر بأن شخصاً ما.. رمى عليه دلواً مملوءاً بالثلج..
الثوب السكري من الحرير تنورته المنفوشة وتنتهي بذيل طويل.. صديريته مطرزة بالدانتيل وخيوط الحرير ومشبوكة باللؤلؤ .. تكشف عن مقدمة صدرها وعنقها، ثم كان وجهها..
عقد حاجبيه وهو يرى زينتها المبالغ بها.. وكأنها واحدة أخرى.. مرسومة بدقة، عينيها ثقيلتين بكل تلك الظلال..

واحمر شفاهها بلون العناب الصارخ..
كانت جميلة جداً.. ولكن.. لم تكن هي أبداً، حتى شعرها الطويل الناعم تعلق على رأسها وخلف عنقها في لفائف معقدة زينتها دبابيس اللؤلؤ والازهار الصغيرة.. وطرحتها الشفافة نزلت من تحت شعرها والتفت حول ذراعها..
حين اقترب منها كانت تصل الى اسفل عنقه، فرفع حاجبه السليم وتهكم:
-أي حذاء ترتدين ليرفعك بهذه الصورة؟
رفعت حاجبيها بحنق مكتوم ونظرت لأمها خفية وهي تهمس:
-كيف وافقت على هذه المهزلة؟
كتم ضحكته واشار لنفسه وهمس:
-انظري مافعل بي زبانية والدك، ستدركين أنه لم يكن لدي خيار.
-لقد أعطوك مهلة.. كان بإمكانك السفر والالتجاء لعائلتك ولم يكن أحد ليجرؤ..
-ترنيم..
فاطعها وهو يقبض عل كفها بيده السليمة لتصمت وتنظر اليه بعينين واسعتين فهمس بحنان:

-لقد أعطيتك وعداً.. وأنا لم ولن أخلف بوعدي، لن أتخلى عنك..أبداً.
لمعت عينيها بدموع حبستها طويلاً ثم همست:
-أنت تتخلى عن الكثير في مقابل وعدك.. ترى هل استحق؟
"كل النساء تبحث عن الاطراء"
فكر بغيظ من غباءه.. رباه لقد رأها في فستان عرسها ولم يكلف نفسه عناء اعطاءها اي اطراء حتى.. لذا مال نحوها وهمس ببحة:
-أنت تبدين جميلة للغاية..
سخرت بضحكة قصيرة شاحبة.. تنكر الاف الفراشات التي تراقصت اعلى معدتها وهمست تتهمه:
-لاتكذب.. أنا أبدو كمهرج ملطخ بالألوان..لقد رأيت صدمتك ما إن دخلت عبر الباب.
احتقن وجهه ولم يجد مايصلح به موقفه.. أثار ذعره أنها تقرأه بتلك السهولة واثار حنقه.. ولكنها لم تتوقف وهمست بألم:
-لابأس كابتن.. أنت لاتبدو في أحسن حالاتك أنت الأخر، تكفيك الألوان التي تغطي عينك وفكك..

ثم أنني لست صاحبة الخيار بأي شيء علي.. أنا حتى لم أختر زوجي..فلم أختار أي شيء أخر.. حتى عمتي لم اعطى الوقت لأحزن عليها.

تنهد مطولاً وهو يرى الألم في عينيها وهمس:

-أنا لم أختر أيضاً ترنيم.. ولكنني لن أقف متبرماً أندب حظي لوقت طويل.. فكري فقط انه بعد ساعة واحدة ستنزعين عنك كل هذه المظاهر، وتعودين الى طبيعتك بعيداً عن كل العيون.

-ساعة واحدة؟؟!

همست بتساؤل ليكشر بإبتسامة:

-أنا مريض ومتعب ولن أستطيع الاحتفال لوقت طويل..

ظهرت شبه ابتسامة على طرف شفتيها وقالت بخفوت:

-اها.. يعجبني تفكيرك..وربما تفقد وعيك بالداخل حتى نثبت عليك تهمة الإعياء؟؟

-أنت هنا تتجاوزين الحدود..

قال بانزعاج سرعان ماتحول لإرتياح وهو يرى ابتسامتها التي خدعتها وانارت وجهها ثم سألها:

-لم كنت تزعجين أمك؟ لم لاتعطينها ماتريد انه زواج ابنتها على كل حال.

زفرت بحنق:

-تريد التقاط الصور وانا لن أفعل وانا ابدو كالمهرجين..

-معك حق..

قالها بثقة ثم التفت الى أمها الصامتة وقال بإبتسامة:

-المعذرة عمتي.. لايمكن لترنيم التصوير الان.. فكماترين انا وهي اتفقنا على التقاط الصور حالما تتحسن صحتي وتختفي اثار الحادث من على وجهي، فلاأظن أن اي معمل تصوير قادر على اخفاء هذه البشاعة..

-عافاك بني.. عافاك..

صاحت امها بقلق وهي التي تملكها الذعر حالمارأت وجهه لأول مرة..

-اذاً هل ننتهى من المراسيم فقد بدأت الألام تعاودني.

قالها بهدوء جعل امها تنتفض وتسارع للخروج لتحضير الزفة..

كان قد التقى بنساء عائلته قبل دخوله مباشرة وقد جمعهم في غرفة قريبة تستخدم لتجهيز العروسين قبل الزفة وبعد أن هدأت عاصفة الدموع والخوف من منظره وماحدث له استطاع الخروج بسلام..

ولذا وقف مع ترنيم يستمعان الى اغاني الزفة التقليدية بضجر.. ذراعه تحيط وسطها بتملك بينما تتشبث هي به بقوة همس لها بتوتر:

-ستتنزعين ذراعي ماباالك؟

-لو تركتني سأقع، وإن فعلت اقسم ان أزرع كعب حذائي الخارق الطول على رأسك.

هتفت بغيظ ليكتم ضحكته، ورأى العيون تنظر لوجها المتجهم بقلق وتوتر لذا وبكل وقاحة مال عليها وهمس:

-لو كانت ذراعي سليمة.. كنت سأحملك على طول هذا الممشى.. سأنزع حذائك الذي يعذبك.. وأراقصك وأنت تقفين على قدمي ياقصيرتي..

شعرت10 بجسدها يرتجف من تأثير همسته المشتعلة وللحظة تخيلت المشهد أمامها..

وارتجف قلبها بعنف بينما ترفع وجهها لتلتقي عينيه الدافئتين.. حسناً على الاقل واحدة.. الأخرى كانت حمراء كالجمر..ومتورمة .. ابتسمت وانتشرت ابتسامتها كحمرة لذيذة ظهرت خلف قناع زينتها الغبي..

ابتسم بالمقابل وكانت ابتسامة حانية شغوفة وحقيقية..

كان يتحمل ألمه بصعوبة .. وبالكاد وصل للكوشة حيث جلس جوارها يأخذ أنفاساً عميقة الواحد تلو الأخر..

لم تشأ النظر لأحد.. فقد أبقت عينيها على يدها المشبوكة بيده.. ثم عليه وهو يحاول الابتسام ويفشل..

-أنت تتألم.

همست بقلق ليرد:

-لاتخافي، سيزول الألم..

قالها بصوت مهزوز زاد من قلقها وخوفها.. ولكنها لم تنطق.

وفي الاسفل كانت سارة تميل على سلمى وتسألها بفضول:

-أليست هذه التي دعوتها لعرسي؟؟ خطيبة اخيك السابقة؟

اومأت سلمى بحنق أشاحت عن ترنيم التي التصقت تقريباً بأوس وقالت بحدة:

-لاأصدق الى الأن؟ مالذي جمعهما ببعضهما؟

-انها لاترقى لمستواه ابداً..

هتفت سارة بحيرة..

-أعرف نوع أخي المفضل وهي بالتأكيد لاتصل له.

اضافت بحنق جعل صوان ترد بجمود:

-إن أحبها.. فهو سينسى معها الدنيا ومافيها..

-كيف سيحبها وهو لن ينظر اليها حتى.

اعترضت سارة ثم تأففت قائلة:

-سأذهب الى دورة المياه..

-هل أنت بخير؟

تسائلت امها بقلق لتشير سارة بيدها هامسا:

-اشعر بالدوار..

-سأتي معك..

قفزت صوان هاربة وغابت معها جهة الحمامات وضعت عليها شالها تحسباً بينما تدخل سارة الى الحمام..

استندت على الجدار واغلقت عينيها.. تقتحم خلوتها صورة الفتاة التي جاءت بها أمه بوحشية.. تلك الفتاة تناسبه..

جميـلة.. رقيقة وصغيرة السن..

والأهم انها تنال رضا والدته، تلك هي من يجب عليه أن يتزوجها، ومايبدو أنه يقولها لها بكل وضوح.. هو يعرف أنها ستكون هنا، ولذا جاء بها..

خفق قلبها بوجع وخنقت دموعها وهي تفكر انه هناك.. خلف أحد هذه الجدران مع باقي الرجال، هو هنا لابد أنه هنا.. يراقب من بعيد او ربما يتشوق لرؤية الشيماء بحلتها الأنيقة؟؟ هل رأها بثوبها القصير وأطارت صوابه؟؟

هل يعجبه شعرها؟؟ هل تغزل بعينيها؟؟

شعرت بالعذاب يخنقها يوجعها .. ولكنها تستحق هذا العذاب..

هي من جلبته بيديها..

وفي الجهة المقابلة توقف.. متسمراً بذهول ينظر اليها..
صوان؟؟
مستحيل.. هل جن ويتخيلها في كل امرأة يراها..
تأمل قوامها الطويل تأمل وجهها بملامحه العذبة المعذبة، لقد رفعت شعرها بلفة أنيقة وتركت غرتها تغطي جانب جبينها بكلاسيكية اعتادتها ..
كانت جميلة للغاية..أكثر جمالاً مماقد يراه أي رجل، لم يكن يشعر بالخطأ لنظراته اليها، لم يكن يشعر بأنه ينتهكها أو يتعدى على حرمتها..
صوان كانت حرمته هو..
كانت له.. ملكــه ومهما فعلت لن تغير من تلك الحقيقة..
كان يعشقها ومهما ابتعد سيظل يحميها بعينيه وفؤاده، وقف هناك فقط ينظر لثوبها الأنيق وكيف التف حولها وتخيلها بالثوب الأبيض، الثوب الذي يريده هو،، لينظر اليها كمايشاء.. كمايرغب.. ثوب أبيض.. قصير.. بذيل طويل.. دون طرحة.. وحذاء أحمر.. بكعب عالي.. لتوازيه طولاً وشعرها يتساقط يغطي كتفيها..

صوانته فقط.. وله هو فقط..
ابتسم بغرام واغمض عينيه.. يحاول السيطرة على ضربات قلبه..
لقد طردته من حياتها.. طردت جساس العاشق..
ولكن.. جساس الشيب ابن عمها لايزال موجوداً وبقوة..
فتح عينيه بحدة، وتخلى عن حذره وهو يتقدم نحوها..
كانت شاردة وقد اطالت سارة بقاءها في الحمام، لم تشعر باقترابه وكيف تفعل؟! كان يتحرك كعادة الذئاب.. بهدوء دون صوت دون حتى أن يحرك الهواء حوله.. وقبل أن تنتبه كانت محاصرة بين ذراعيه يمنعها حتى من الحركة، ويقيدها اليه.. دون حتى أن يمسها..
-جسااااس؟!
هتفت بذعر بينما يقترب منها ويهمس بشراسة:
-مرحباً بك صوانتي.. افتقدتني؟
ابتلعت ريقها بصعوبة وتلفتت حولها وعينيها تتسعان بذهول:
-مالذي تفعله؟؟ ابتعد قبل أن يرانا أحد.

رفع أحد حاجبيه وهمس:
-ولم تخشي أن يراك أحد وأنت تستعرضين هنا؟؟ ماذا لو خرج احد من صالة الرجال؟ ماذا لو رآكِ أحد؟
-انه مكان مخصص للنساء.. لاأحد يأتي عبره.
هتفت بحنق:
-ولكنني أتيت وركان الباشا من قبلي.. أنت في عدن ولستِ في دبي حيث يتقيد الجميع بالاشارات الصامتة..
كان يتحدث وعينيه تشبعان من رؤيتها.. من تفاصيلها.. رائحتها..
حاولت ان تغطي كتفيها العاريتين ولكنه ابتسم ساخراً:
-مالذي ستخفينه عني يا ابنة عمي؟ منذ متى تخجلين مني؟
احتقن وجهها ودمعت عينيها بينما يعود ليهمس:
-كم اشتقت أن أرى شعرك مفروداً على كتفيكِ..
-توقف ياجساس..ظننت أننا وضحنا كل الامور.
تألقت عيناه بعزم:

-ربما أنت وضحتي، ولكن أنا لا.. أنت لي صوانة.. مهما صرخت واعترضتِ.. أنت لي.
وتراجع عنها قليلاً وعيناه تتابعان خطوط جسدها والثوب الضيق بوقاحة:
-أنت ترتدين لعينيّ دون حتى أن تشعري..
-لا..
همست مخنوقة ليرفع عينيه اليها ويحتجز نظرتها العاجزة:
-أتنكرين انه لوني المفضل، أتنكرين أنك بعثتِ لي صورته قبل شهور وأنا..أنا من اخترته ضمن مجموعة أخرى.
-مجرد صدفة..أن أرتديه اليوم.
همست وهي تتذكر..
كانت حفلة زفاف صديقتها المقربة وهي احتاجت رأيه،،
عرفت أنه سيختار الثوب باللون النبيذي،، فهو كماقال لونه المفضل، ولكنها لم تذهب قط للعرس، يومها وقعت أمها مريضة ولم تستطع الذهاب.. لذا ارتدته اليوم، خصوصاً أن أوس لم يعطهم الوقت حتى للتسوق.

-كاذبة وستقعين في النار..لكذبك.
نظرت له ليبتسم بثقة ويكمل:
-وأنا سأمد يدي لأتلقفك.. فكماترين..
واقترب أكثر، ليزداد التصاقها بالجدار خلفها بينما تجاور شفتاه أذنها وهو يهمس بحسية:
-نارك.. ستشتعل لأجلي أنا صوانتي، ستحترقين ولكن.. أنا من سيشعلك.. وأنا من سيطفئ النار بداخلك.
-جساس..
نادته بضعف.. ليرفع أصبعه امام شفتيها يأمرها بالصمت ويستمر:
-أنا لن أستسلم، مهما فعلتِ بي، كنت رفيقاً معكِ منذ البداية ولكن الأن.. الأن ستبدأ المعركة التي سيطحن فيها الذئب كل من يجرؤ على الوقوف أمامه..
ودون كلمة اخرى..
تراجع اكثر، واشار لها لتعود الى الصالة قائلاً بخشونة:
-عودي الى الداخل الأن، قد يمر اي أحد ويراكِ هنا.

انتفضت مكانها ثم سارعت لعقد وشاحها على كتفيها وركضت عائدة الى الصالة. لم ترى النظرة الساخرة التي التمعت في عمق عينيه ولاقبضته التي تكورت بعزيمة وإصرار.

....

في الجوار وقفت سارة تنظر عبر المرآة للارهاق الواضح أثره على وجهها ثم عينيها المنتفختين والظلال السوداء التي بالكاد أخفتها المستحضرات الباهظة التي تملكها،،

-تبـــدين جميلة.

صرخت بفزع والتفتت لتلتقي بعيني ركان الزرقاوتين اللتين تألقتا كنار باردة وهي تلتهم تفاصيلها المثيرة بفستانها الضيق الحريري، واقترب ببطئ فارداً ذراعيه هاتفاً بغرور:

-ألم تشتاقي إلي؟

زفرت بتوتر وعصبية تراجعت وهي بالكاد تسيطر على دوارها وغثيانها، ربما لوتقيأت على بدلته الفاخرة سيبتعد ويقرر أن يكرهها كماتشعر بأنها يجب أن تكرهه..

تراجعت ولكنه لم يسمح لها، أمسك معصمها وجذبها اليه بحركة حادة.. شعرت بالدوار يشتد وهي تقع على صدره متأوهة بينما يهتف بشوق:
-ماذا بكِ سارة؟؟ ألم تفتقديني؟
-اتركني ركان..
همست برعب لقوة الغثيان الذي عصف بها، وارتمت على صدره وهي تقرر انها ستغرقه بقيئها كي يتوقف عن تلك الألاعيب التي يقوم بها، ولكن لا..
لقد وقعت على صدره وحين أخذت أولى انفاسها اخترقتها رائحته.. تنشقتها بعمق..
عطره الفرنسي الثقيل ورائحته، رائحته الخاصة التي تميزه عن غيره مزيج من رائحة الصنوبر والليمون الخاصة بكريم الحلاقة، ورائحة الكيوي التي يفضلها لمعطر الملابس..
كان ركان بكل وقاحته وغروره.. وهي وقعت .. واقفة .. تتمرغ في الرائحة المذهلة التي سحبت منها كل أثر للدوار واعادت توازنها النفسي بطريقة مذهلة، لدرجة أنها اقتربت وألصقت

وجهها الى جانب عنقه وتنشقت رائحته كالمدمنين..

-هيييه.. هل تشتاقين إلي؟

عاود السؤال بغباء وقد فاجأته ردة فعلها.. لتهمس كالمغيبة:

-راائحتك.. رباه رائحتك ركان.

رفع حاجبه وابعدها يريد النظر لوجهها ولكنها أبت بشراسة وارتمت مجدداً على عنقه ليبتسم ودون أن تعترض كان يحملها بين ذراعيه ويضعها على حوض المغسلة الرخامي، أمسك وجهها بين كفيه ونظر مطولاً لعينيها الرماديتين بوله قبل أن يزمجر:

-أنتِ لي سارة، ملكي وحدي ياسلطانة.

تأوهت وهي تتشبث بياقة قميصه وتجذبه اليها.. لتنتهي زمجرته الوحشية بين شفتيها وفي اعماق فمها المثير.. قبلها كمالم يفعل أبداً..الشوق والمرارة التي حكمت علاقتهما منذ نهاية شهر العسل، كلها انصبت في تلك القبلة الوحشية.. طعم فمها .. حلاوة ملمسها جسدها الناضخ اثارة وأنوثة والنابض بقوة بين يديه، بشرتها الحريرية

التي نافست حريرية ثوبها، نعومة شعرها وحتى تلك الأنفاس اللاهثة والتي تداعب بشرته.. قساوة أظافرها التي مزقت أول أزرار قميصه لتخدش بشرة عنقه حتى سالت دماءه كخيط رفيع لوثت قميصه وربطة عنقه..

كانت مجنونة.. لتقع بهذه السهولة بين يديه.. ليأخذها كمااعتاد وكأن تلك الايام بينهما والصراع، خيانته ومافعله بعملها وكأنها كلها.. مجرد ذكرى خرقاء.. انتهت بقبلة منه..انه حتى لم يحاول.. لقد فرد ذراعيه وهي كالمسلوبة العقل وقعت بينهما راغبة..

ثارت مشاعرها بجنون وابتعدت عنه صارخة بألم:

-لقد خدعتني.. خنتني..

تمسك بجانبي وجهها وكأنما لايقدر على افلاتها:

-اخبرتك أن تفصلي بين العمل وزواجنا، هذا في كفة والأخر في كفة أخرى..

-خيانتك واحدة.. لقد بعتني لذلك التركي البغيظ..

صاحت بعنف ولكن ركان لم يستسلم اقترب..حت اصبح ملاصقاً لها.. أنفاسها المثارة تتصاعد من

أعماق صدره وذراعيها مجبرتان على الاستناد بضعف على كتفيه..
-أنا لم أخنك أبداً..منذ عرفتك سارة..لم تكن هناك امرأة أخرى أنا أقسم لكِ.
-كاااذب..
صرخت بألم ليهمس وهو يقترب أكثر..الحروف تنتقل من شفتيه لشفتيها دون وساطة حتى الهواء:
-لا حبيبتي.. لاياماليكتي لا أكذب.. كيف أفعل وأنت السلطانة سارة.. سلطانة قلبي.. بعدك أنت كيف أعشق أي امرأة.. بعدك أنت كيف تغريني أي أنثى؟؟
-ركاااان..
همست بعذاب ليغمرها بين ذراعيه كلياً ويقبلها بعنفوان لتبادله قبلته بوحشية مشتاقة دون خجل..
كم اشتاقت لملمسه تحت يديها لارتجافته وهي تمرر اصابعها على عضلاته المتصلبة، على طول عموده الفقري.. لمساتها الجريئة التي علمها إياها، وحمرتها وهو يشجعها بلطف، بخشونة حملتهما معاً الى آفاق عالية.. مدوية..
ولكن لاا.. لايجب..

كانت جرئته تزداد.. كان يريدها في التوو واللحظة.. وتذكرت سارة أين هي.. بصعوبة ولكنها فعلت..

"لاركاان..لا"

همست بأنفاس مخطوفة.. يديها توقفان ماكان يفعل بارتباك ليصرخ بإحباط ويزرع زرقتيه المجنونتين بعاصفتيها:

-لم لا؟؟لقد أغلقت الباب لن يدخل أحد.

-رباااه أنا في حفل عرس شقيقي.. توقف..قد يأتي أحد..وصواان..صوان تنتظرني.

همست بشحوب وهي ترفع ثوبها وتعيد ترتيب تنورته ثم تدفع ركان بعيداً لتنزل من على المغسلة ولكنه كان كالثور ثقلاً واصراراً وهو يمسكها من كتفيها ويهزها برفق:

-متى اذاً؟؟ لقد ابتعدنا لفترة طويلة سارة، أنا لست برجلٍ صبور.

تنهدت بيأس.. اغمضت عينيها بقوة.. تحاول تجاهل لمسته المشتعلة، الوغد يحاول أن يغويها !!..

يحاول؟!!

فكرت بمرارة.. لقد فعل ونجح نجاحاً ساحقاً..
فتحت عينيها وهمست:
-لقد جئت برفقة أمي، ووالدي هنا كذلك..هو يريد مقابلتي بعد الزفاف ركان وانا كلي ثقة بماسيريد قوله.
انتقلت لمسته لتداعب عنقها.. ثم تتبع نبضها حتى استقرت أصابعه ببطئ على مقدمة صدرها..
ارتجفت واغمضت عينيها تخفي اثارتها عن عينيه المتلاعبتين..
-سأكون معكِ..لاتقلقي من مواجهة والدك، أنا لدي ماأقوله له بالمثل.
ثم اقترب ليطبع قبلة ناعمة على كتفها وهو يهمس:
-تعالي معي الليلة.. وغداً نلتقيه معاً؟
أنّت وهو يمرر شفتيه على بشرتها الناعمة..
وكأنه جمر مشتعل..
-حسناً..
هتفت بحنق.. ولمعت عيناه بتقدير وفرح لم يقدر على اخفاءه..قبلها على شفتيها بصخب ثم همس:
-لنذهب الان..

-لا..لدي عرس لأكمله..
هتفت بإصرار واعترض ولكنه لم يصر..
حملها برفق ووضعها على الارض لينسدل ثوبها بنعومة وهو يقول بتوتر:
-وأنا من المفروض ان أعود لصالة الرجال واجلس بين عائلتك وأنا هكذا؟
نظرت له بتوتر.. وجهه ملطخ بحمرتها فقد زرين من قميصه وتجعد.. سترته لاتعرف بأي مكان وقعت.. ابتلعت ريقها وتوجهت لعلبة المناديل الورقية، ثم بللتها بالماء ومضت اليه .. مسحت شفتيه وذقنه ونظرت لاللطخة الحمراء على عنقه وياقة قميصه وقالت بدهاء:
-هذه لن تزول.. ربما يجدر بك الانتظار اسفل الفندق في سيارتك.
قبض عل معصمها بقوة وضحك بسخرية جعلتها ترتجف:
-هل تظنينني أخجل من علامات عشقك المجنون؟! مخطئة ياجميلتي..

تراجعت بحنق ليكمل هو عقد ربطة عنقه ثم التقط سترته من على الارض وابقاها على كتفه قائلاً:

-سأنتظرك بعد الحفل.

راقبته يبتعد بخطوات متمهلة وهي تمنع نفسها بصعوبة من الارتماء عليه ومطالبته بماكان يعرضه قبل قليل.. استندت على المغسلة واصابعها تتشبثان بطرفها بقوة..

وبعد مغادرته التفتت لنفسها في المرآة..

وجه متورد عينان لامعتان وشفتين متورمتين..

اغمضت عينيها تخفي شعورها بالذعر وهي تدرك الحقيقة المفزعة..

انها حامل..

غسلت وجهها بالماء البارد واعادت تزيينه ببساطة قبل أن تتخذ طريقها عودة الى الصالة..

هناك جلست بالقرب من الصوانة وسألتها بخشونة:

-أين كنت؟ طلبت منك الانتظار خارجاً؟

أشاحت صوانة بوجهها وقالت بتوتر:

-لقد تأخرتِ..

زفرت سارة وعادت تنظر للعروسين.. كان أوس على وشك تلبيس عروسته شبكتها، لذا قالت صوانة:

-تعالي لنساعد أوس..لاأظنه قادر على فعل شيء بذراع واحدة.

نهضت بالفعل ووقفتا الى جواره بإبتسامة ناعمة لينظر لهما بحنق:

-أخيراً تذكرتما أن لكما أخ يتزوج هنا؟

ابتسمت سارة بإتساع واقتربت تحيط عنقه بذراعها مقبلة وجنته السليمة بقوة:

-مبارك لك أخي، أعذرنا فلازلنا في صدمة من القرارات المفاجئة.. نحتاج وقت للتعود على فكرة زواجك، ناهيك على زوجتك نفسها.

رفعت ترنيم عينيها لسارة التي كمايبدو لم تعجبها..

-خذا راحتكما فأنا في صدمة من قبولها طلبي من الأساس.

قال أوس بحدة وهو ينظر لأخته بتحذير لتبتسم سارة وتلتفت لصوان التي اقتربت وقبلت ترنيم بخفة:

-مبارك لكما، خذي الحذر من الكابتن ترنيم.. هو ليس بالسهولة التي يبدو عليها.
-لم أعهده بسهول.. صدقيني.
قالتها ترنيم بجفاء لم تقصده ليبتسم أوس ويقبض على كفها الرقيق بين أصابعه الطويلة القوية ويقول بفخر:
-لاتقلقن سيداتي الجميلات.. أنا اتعهد بأن اعتني بهذه الجوهرة وأصونها قدر استطاعتي وأكثر، والأن لم لاتساعدنني بوضع الجواهر عليها بسرعة لأنني أود مراقصتها.
نظرن اليه بذهول:
-أنت لن ترقص بهذا الشكل؟
تسائلت صوان بحدة ليرفع حاجبه وينظر لترنيم المذعورة حقاً:
-لن يكون عرساً إن لم افعل.. أنا أوس الشيب إن لم أرقص أنا فمن سيرقص، ثم أننا نريد اثارة غيرة كل الفتيات.. فكيف سيغرن من ترنيمتي إن لم ترقص معي؟
-لاتقل أنك سترقص كمافعلت في عرس شقيقتك؟

همست ترنيم برعب وهي تتذكر مافعله من تهريج وقتها..ليضحك بإستمتاع ويهز رأسه نافياً..

وبمساعدة أختيه ألبسها عقداً من الماس الحر وملحقاتها ثم مال نحو سارة وطلب منها أغنية خاصة جعلتها تبتسم بتعجب ثم تنهض لتلبية طلبه..

عادت صوان الى طاولتها متجاهلة نظرات نرجس الحادة وشيماء الفضولية منذ عادت قبل سارة والابتسامة تشق حلقها دون سبب واضح ترافقها ارتعاشة صوتها وارتجافة أعصابها المهلكة..

أما ترنيم فقد نظرت لأوس وهمست:

-أنت لاتستطيع الرقص ليس هكذا.. انا لاأريد.

تنهد أوس ونظر لها بحنو.. لقد رأى كيف كثرت الغمزات واللمزات حولها، لقد سمع اكثر من امرأة تأتي لتهنئها وعينيها مليئة بالحشرية، حتى ان أحداهن قالتها صراحة..

"لقد توقعنا زفافك بأشرف رنومة.. ولكنك لاتتوقفين عن مفاجاتنا جميعاً"

لقد رأى وجهها عندها.. هو يعرف بأمر خطبتها السابقة الان، لم يسأل عن اسباب تركها، ولكنه استجوب سيف.. وسيف لم يعطه أي عقاد نافع سوى أنها هي من تركت علي العزب.. دون ابداء أسباب..

فقط تركت له محبسه واختفت..

نظر لوجهها الذي ظهر شحوبه رغم كل طبقات الزينة..

وهو لم يعد يحتمل الهمزات واللمزات حولها خصوصاً بمنظره هذا وسرعة اتمام الزفاف، كان يود لو يكون والدها امامه الأن فقط كي يلكمه في وجهه ويسبب له كسراً مضاعفاً يرقده لأيام دون حراك..

-لاتخافي ياقطتي.. ليس وأنت معي.

همس لها بتلاعب وهو قريب من أذنها.. ثم قرب فمه من وجنتها وقبلها ببطئ..

أرادت ان تبتعد ولكن اصابعه التفت حول معصمها وجذبها اكثر لتقع قبلته الثانية على جانب عنقها ..سمع شهقة قريبة وعرف أنها أمها.. سمع لهاث ترنيم وتساؤلها المحرج له أن

يتوقف ولكنه لم يفعل.. مرر شفتيه ببطئ عبر فكها ثم عند زاوية فمها تأنى ..
-أنت زوجتي.. فليمتن بغيظهن جميعاً..
-أووووس..
تمتمت بإحراج ولكنه لم يفلتها.. وابتسم ولامستها ابتسامته فانتقلت اليها كالعدوى..
-انها ليلة زفافك.. ابتسمي.. وافرحي..
فعلت.. بتردد لينهض ويمد لها ذراعه السليمة بينما تنتشر في الصالة موسيقى ناعمة وتنخفض الاضاءة بشكل كبير..
-انهضي وارقصي معي ياعروستي الجميلة..
نظرت له من أسفل بعينين متسعتين.. ثم تعالى صوت شاحب لكيني روجر يغني لسيدته ..
ابتلعت ريقها ونهضت لتقف بين ذراعيه.. المصابة بالكاد حرك أصابعه لتحيط ظهرها بينما السليمة تحيط بكتفيها وكفه يثبت عنقها ليرفع وجهها إليه.. تمايل .. لتتمايل خلفه .. تتبع خطواته بخفة رغم ثوبها..
-عانقيني..

أمرها بلطف.. لتطيعه ذراعيها بصمت.. وتلتف أحداهما حول عنقه والأخرى تضغط برفق على صدره بينما ينخفض رأسه ويستند جبينه الى جبينها بحميمية..

-هذا الكعب العالي.. يعجبني.

ارتجفت شفتيها لتنطق بكلمة ولكنه همس مجدداً:

-شششش .. لاتقولي شيئاً فتفسدي كل شيء ياقطتي.

Lady, I'm your knight in shining armor and I love you

You have made me what I am and I am yours

My love, there's so many ways I want to say I love you

Let me hold you in my arms forever more

أيتها السيدة الجميلة أنا فارسك بالدرع اللامع وأنا أحبك..

أنت من جعلتني على ماأنا عليه وأنا ملكك

حبيبتي، هناك طرق عديدة لأعبر بها عن حبي لك
دعيني أحتضنك بين ذراعي الى أبعد من الأبد
You have gone and made me such a fool
I'm so lost in your love
And oh, we belong together
Won't you believe in my song
حين رحلتي جعلتني أحمق
انا ضائع في حبك ونحن لاننتمي الا لبعضنا البعض
ألاتؤمنين بكلماتي
Lady, for so many years I thought I'd never find you
You have come into my life and made me whole
Forever let me wake to see you each and every morning
Let me hear you whisper softly in my ear

ياسيدتي لسنوات عديدة ظننت أنني لن اجدك أبداً
لقد دخلت الى حياتي وجعلتِ مني رجلاً كاملاً
دعيني استيقظ لأراك في صباح كل يوم والى الأبد
دعيني استمع لهمساتك الناعمة
In my eyes I see no one else but you
There's no other love like our love
And yes, oh yes, I'll always want you near me
I've waited for you for so long
لاترى عيناي سواكِ
ولايوجد حب مثل حبنـا
ونعم أه نعم.. أنا أريدك قريبة مني
فقد انتظرتك لوقت طويل طويل..
Lady, your love's the only love I need
And beside me is where I want you to be
'Cause, my love, there's somethin' I want you to know

You're the love of my life, you're my lady
ياسيدتي حبك هو الوحيد الذي أحتاجه
وبالقرب مني هو مكانك الوحيد
أو تعلمين لماذا؟
لأنك حب حياتي.. لأنك سيدة حياتي
***
انتهت الاغنية الناعمة ولاتزال ترنيم مأخوذة بالكلمات التي أسكرتها، وبالرجل الذي أذاب حصونها بوحشية.. وجعلها تنهمر كالسيل أمامه تتراجع لتنظر في عينيه بوله لم تفهم معانيه.. بينما يقاوم هو مجرة الألم التي يقع فيها مع كل دقيقة تمضي..
-اهربي معي..
همس لها بنعومة لتنظر له بغباء وقبل أن تعي لعينيه اللامعتين بشيطنة كان يحملها بذراعه السليمة ويأمرها أن تتشبث به بينما يشق طريقه بخطوات واسعة نحو مخرج الصالة وسط شهقات المدعوات من كل صوب وركض والدتها خلفه تقريباً..

-لن يكون أوس الشيب إن لم يخرج بفضيحة من زفافه شخصياً..
قالتها سارة بوجوم وهي تنظر في اثر أوس وترنيم المتلاشي بينما تضحك صوان بهستيرية..
فاطمة تحاول اسكات ابنتها بحرج من النظر الى وجه والدة ترنيم المحتقن والذي عادت مسرعاً اليهن وهي تصيح بعصبية.. لتهتف له توبايا بغرور:
-لابأس عزيزتي.. انه زوجها، وهذه عادة الذئاب.. إن لم يسرقها فهو ليس بشيّـب..أنت لاتعرفين مافعله والده في زفافنا..
-انها اهانة..
هتفت والدة ترنيم بصوت مخنوق لتجذبها نرجس من ذراعها وتجلسها جوارهم قائلة بضحكة:
-لاتقلقي عزيزتي انه حماس الشباب.. دعينا نكمل الاحتفال لابأس بهذا حتى وإن رحلت العروس مع زوجها أليس كذلك؟!
-بالتأكيد.

صاحت سلمى موافقة وأشارت لمنسقي الصالة بإعادة الأنوار وتشغيل الموسيقى ونظرت للفتيات بحماس:

-حفلنا لم ينتهي بنات.. هيا لنحيي الحفل كما يستحق الكابتن وعروسه.

ترددت صوان بينما قالت سارة بحنق:

-أنا لاأستطيع..

نظرن لها جميعاً فقالت وهي تنظر لامها بتوتر:

-أنا حامـــل..

اتسعت عيون الجميع وهتفت توبايا:

-هل عرفتِ نتيجة الفحوص؟

شربت سارة جرعة كبيرة من المياه وهزت رأسها نافية لتسألها صوان بعصبية:

-وكيف عرفتِ اذاً يامدام؟

-أنا أتوحم..

قالتها بغيظ واصابعها تكاد تمزق مفرش الطاولة لتسألها عمتها:

-على ماتتوحمين حبيبتي؟

نظرت اليهن سارة ثم عضت شفتيها ببطئ وهمست بخفوت:

-زوجـــي..
-ماذا؟؟!
تسائلت سلمى بذهول لتصيح سارة بحنق:
-أنا أتوحم على زوجي.. رائحته.. ملمسه.. أتوحم عليه.. وبهذه اللحظة بالذات أنا لاأريد إلا أن أكون معه.
وتحت عيني أمها وباقي افراد عائلتها الذاهلة كانت تختطف حقيبتها الصغيرة وعبائتها الحريرية ثم تنطلق للخارج .. أما صوان فقد تسمرت للحظة ثم نظرت لسلمى وقالت بضعف:
-هذا يتركنا نحن الاثنتين فقط.
-وشيماء.. انها راغبة بالاحتفال كذلك.
قالتها نرجس بفرح وهي تشير لأبنة اختها الصامتة منذ البداية، ولكن صوان لم تتحرك بل اومأت لها بصمت ثم التفتت لسلمى ودون اتفاق مسبق غرقتا الاثنتين في مقعديهما وقد غادرتهما أي رغبة في النهوض ومواصلة الاحتفال.
***
حين خرج أوس بحمله الثمين من الصالة ودفعها الى المصعد ليهبطا الى مرآب السيارات كانت

مغيبة كلياً .. ضحك بعمق وخلع جاكيته بصعوبة بالغة كاتماً تأوهه ووضعه على كتفيها العاريتين ثم رفع طرحتها وغطى بها شعرها ووجهها.

-أنت مجنون.

همست مأخوذة ليرد مقهقهاً:

-اعتادي على هذا..

وحالما وصل المصعد الى المرآب كان يلتقط كفها ويمضي بها الى سيارة متوقفة بالقرب من المخرج. فتح بابها الخلفي ليزمجر محركها ويستيقظ .. جلست ترنيم في المقعد الخلف وانضم لها أوس..

امسكت طرفي سترته بقوة حين اكتشفت السائق الشاب والذي كشر لها عبر المرآة الداخلية بإبتسامة فيما يعرفها أوس:

-ترنيم هذا جساس ابن عمي، جساس هذه زوجتي..

-مبارك لك ترنيم .. وأنت أوس الى أين؟؟ المنزل أم المطار؟

نظر أوس لقطته الملفوفة بسترته بإحكام ثم اقترب يحوطها بذراعه بتملك وقال بهدوء:

-المنزل أولاً فالمطار سينتظر للغد..
شعرت بالدفئ يتسلل الى اعماقها الصحراوية ومشاعر عديدة تنتابها وهي بالقرب منه ملتصقة به كلياً تشعر بنبض جسده لينبض به جسدها بالمقابل..
انطلقت السيارة .. جساس كان سائقاً ماهراً ولكن متهور..
سرعته الرهيبة أثارت رعشة مرت عبر أطرافها واستشعرها أوس ليهمس سائلاً ان كانت تشعر بالبرد فأجابت بشحوب:
-انه سريع.. جداً..
قطب أوس حاجبيه لمرأى عينيها ترتجفان فعلياً..لذا لم يتردد لحظة واحدة بل دفع بساقه ليركل مقعد السائق بخشونة وهو يزمجر:
-أخفض سرعتك.
رفع جساس حاجبيه:
-ظننتك تود الوصول بسرعة؟
-ليس وقطتي ترتجف كورقة..
صاح أوس بجفاء ليمسك جساس لسانه عن التعليق الفج الذي كان على وشك نطقه واكتفى

برفع قدمه عن دواسة الوقود وخفض السرعة وعيناه مثبتتان على الطريق المظلم..

-شكراً لك..

همست بخفوت.. فخفض بصره اليها كانت متكورة كهريرة مدسوسة تحت ذراعه يرى لمعان عينيها خلف القماش الحريري لطرحتها..

-كل ماعليكِ فعله هو الأمر.. لقد وعدتكِ انني سأحميكِ ولن أتخلى عنكِ أبداً..

انسابت دموعها دون صوت وارادت اخفاءها عنه ولكنها لم تقدر.. وراى هو اللمعان الخاطف الذي انساب على وجنتها وتنهد مائلاً برأسه عليها:

-ستنتهي كل الدموع.. أعدك.

اغمضت عينيها بقوة واشتد تشبثها بذراعه، حتى أنها وضعت رأسها على كتفه باقي الطريق الى المنزل..

وهناك.. ساعدها اوس على النزول وبعد تراجع السيارة وصاحبها رفع أوس طرحتها لترى موضع قدمها ثم جذبها معه الى الداخل:

-هذا مجرد منزل مؤقت ياقطتي.. حين نختار أين سنعيش.. سنقوم بشراء منزل نعود اليه كلينا.. وهناك..

ونظر لها مبتسماً:

-سأحملك على عتبته..

ابتسمت بخجل..وخطت الى داخل المنزل المنظم بطريقة جميلة ..

كانت تشعر بتوتر عارم.. وخوف.. خوف مما سيحدث ومايمكن ان يطلبه منها الليلة.

وشعر بخوفها، شعر بتوترها من نظراتها الهاربة وتقلص كتفيها..

لذا تنهد واقترب منها وهمس:

-أتسمحين لي بفعل شيء..

اتسعت عينيها بتخوف وتراجعت ولكنها لم تعترض.. فابتسم يطمئنها وجلس على مقعد قريب ثم فعل اغرب مايمكنها تصوره..

لقد صرخ..

متألماً .. موجوعاً.. وقد تصبب العرق من على جبينه وصدره.. ثم وأمام عينيها المرعوبة رفع ذراعه المصابة بقوة الى فوق وأرجعها للوراء

لتصدر صوت قرقعة مريعة جعلتها تصرخ بفزع هي الأخرى بينما يتهالك أوس لاهثاً ألمه..
-هل أنت مجنون؟؟
صاحت وهي ترتمي تحت قدميه تحاول تحسس ذراعه التي اعادها لمكانها بكل قسوة ليضحك بضعف:
-لاتقلقي.. كتفي مخلوع وقد اعدته لمكانه، اعتدت هذا منذ زمن.
نظرت له مذعورة وهي تهتف:
-أنت مجنون.. بلاشك مجنون، لقد احتملت فوق طاقتك اليوم لم يكن يجب عليك الرقص او حملي بتلك الطريقه؟
-لابأس ياقطتي.. انا سأكون بخير..
طمئنها بإبتسامة ثم أشار لها نحو الحمام:
-اذهبي واحضري لي بعض الاقراص المسكنة، ستجدينها فوق المغسلة.
كانت ترتجف بخوف وقلق رهيب عليه:
-ألايجب أن ترى طبيباً؟

-لا لا.. لايستحق الأمر، سأتناول المسكنات واعيدها الى علاقتها وستكون أفضل، والأن أحضري المسكنات.

نهضت تتعثر بثوبها الطويل وبدت تفتش حيث قال لها ثم عادت اليه ووضعت الحبوب بيده وهي تسأل:

-أين المطبخ لأحضر لك الماء؟

اشار لها برأسه لرواق جانبي فسارعت بالذهاب وعادت له بعد لحظات بالماء..

كان عطشاً للغاية شرب كل ماجائت به ثم أخذ عدة أنفاس عميقة قبل أن يعاود نهوضه ويفرد ذراعه الاخرى لها، وبكل بساطة اندست تحتها وكأنه مكانها الطبيعي منذ الأزل..

ابتسم لهذا وقادها عبر رواق أخر الى غرفة النوم..

كانت واسعة وباردة ، انكمشت تلقائياً حين وقع بصرها على الفراش المزدوج الضخم، ولكنه لم يترك لها الفرصة للخوف.. بل ادارها صوبه وهمس:

-اذهبي لتغتسلي ترنيم، انزعي الثوب وهذه الزينة البشعة وعودي ترنيم التي عرفتها من قبل، لدي شيء لك ياقطتي.
نظرت له بتساؤل ثم تراجعت لتنفذ ماطلبه منها..
كانت أمها قد حضرت لها حقيبة صغيرة بها لوازمها لهذه الليلة.. وقد وجدتها على الفراش..
حملتها معها الى الحمام الواسع وهناك فتحتها لتجد ثوب نوم رقيق بلون الكريم طويل، والدانتيل يغطي الظهر بأكلمه.. وبعض مستحضرات التجميل..
نظرت لنفسها في المرآة.. وكرهت مارأت..
الدموع التي ذرفتها قبلاً لطخت الزينة وبدا وجهها بشعاً..
الثوب المبالغ به حد الجنون أثار كراهيتها..
اندفعت نحو الدواليب الصغيرة فوق المغسلة وفتشت بعصبية حتى وجدته.. مقص طويل رفيع بكل شراسة أخذت تطعن به طيات الثوب الحريرية،، الخيوط المطرزة وحبات اللؤلؤ، لم تتوقف حتى أصبح الثوب نفسه مجرد خرق

صغيرة ممزقة مكومة تحت قدميها لتسقط فوقها باكية بصمت..
للحظات طويلة استمرت .. ثم سمعت الطرقات على الباب..
-ترنيم..
ناداها بخفوت لتصيح:
-لم أنتهي بعد.
ليبتسم ويهمس:
-لابأس قطتي.. أردت فقط الاطمئنان عليكي.
نهضت ببطئ وتقدمت نحو حوض الاستحمام وبدأت تملئه بالماء..
تأخرت.. فكر بتردد..
لقد أمضت مايزيد عن الساعة بالداخل.. هل يقتحم خلوتها؟ ماذا لو فعلت سوءاً مابنفسها؟؟ هو لن يسامح نفسه قط. كان يجلس على الأرض بجوار الاشياء التي أحضرها سيف بناءاً على طلبه هو خصيصاً..
وكاد ينهض ليتسمر مكانه وهو يراها تخطو خارج الحمام ..
رباااااه كيف ظن للحظة أنه لن يقع في غرامها؟؟

انفرجت شفتاه بذهول وهي تتقدم نحوه..
تلك القزمة التي أطارت بصوابه منذ التقاها، جنية غابة تخفي عنه جناحيها..
شعرها انسدل طويلاً.. أطول ممايتذكر يحمل قطرات الماء، بينما كان وجهها متورداً صافياً خالياً من أي زينة، عينيها لامعتين كألف نجمة..
جسدها الصغير المثير التف في قميص نوم حريري.. بقبة من الدانتيل المخرم كشف عن أنوثتها بنعومة أخفتها هي بساعديها حرجاً..
وانساب الثوب طويلاً وسحب على الأرض خلفها بينما تتقدم نحوه..
-تعالي..
همس بخشونة وهو يمد لها ذراعه..
ففعلت والى جواره ركعت وعينيها لاتحيدان عن عينيه..
كان عاري الصدر، أثار كدمة لاتزال حمراء تلون كتفه وأسفل عنقه.. يرتدي بنطال بيجاما أسود حريري..
-أنت جميلة للغاية ترنيم.

همس مخدراً برونقها الفتي.. لتحمر وجنتيها خجلاً وكلماته الصادقة تغسل ارتباكها وتثير غيره الكثير..

-لقد احضرت لكِ هذا..

تمتم بصعوبة يخرج نفسه من الحفرة التي كان يقع فيها بلاحول ولاقوة..

والتفتت هي تنظر لماجاء به..

كانت كومة من الاشياء.. اشياء تركتها خلفها في روما..

اتسعت عينيها بذعر وهي تجد دفتر مذكراتها..

ونظرت له بإتهام ليرفع ذراعه ويقسم:

-لم أفتح شيئاً، لم اقرأ ولاحتى حرف واحد ياقطتي.

صدقته..

ليس لشيء وإنما لأنها تدرك انه لو فتح تلك المذكرات كان ليهرب وينفذ بجلده بعيداً ولن ترى وجهه حتى؟!!

ضمت الدفتر اليها ومضت تنظر لباقي الاشياء..

كانت حاجيات كمالة.. الاشياء التي كانت في الصندوق!!

اتسعت عينيها بذهول.. وضعت المذكرات ومضت تلامس القماش المطرز للحاف زواجها الغير مستخدم، ثم صندوق الاوراق الذي باعت فيه ثروتها وكل ماتملك لترنيم، ثم كان ثوب زفافها..

انسكبت دموعها غزيرة وهي ترفع الثوب وتخفي وجهها بين طياته.

الثوب الذي وعدت أن ترتديه لفارسها ذو الدرع اللامع..

الفارس الذي لايمكن أن تجده..

لقد خذلت كمالة.. وخذلت نفسها !!

شعر بالغضب من بكاءها،، لقد أقسم ألا يجعلها تعاني وأن يكون معها ولكنه لايقدر على فعل شيء ليس الان وليس بعد أن أدرك أنها لم تحزن على عمتها بمافيه الكفاية.. وكان على حق..

-أنا لم أحزن عليها..

صرخت بعذاب..

-لم أرتدي حتى السواد لعزائها..

عادت تجهش بالبكاء،، وحاول هو السيطرة على غصته التي استحكمت حلقه.. ثم نهض تاركاً

اياها تبث لوعتها وألمها لقطعة قماش.. شعرت بأنها وحيدة، مخدوعة ومهجورة .. ليتها كانت معها، ليت كمالة وقفت الى جوارها اليوم وكانت سنداً لها وعوناً..

عادت الدموع تتسابق للنزول على وجنتيها حين شعرت به خلفها.. وضع رداءاً حريرياً عليها، التفتت اليه، كان قميص اسوداً، قميص بيجامته السوداء .. ادخل ذراعيها في الكمين الطويلين وضم طرفي القميص بيده الملتفة حولها كثعبان.. ثم قربها منه الصق صدره بظهرها وهمس في أذنها:

-ابكي ترنيمتي، افرغي كل الدموع الليلة، ابكيها وارثيها كماتريدين.. ولكن.. الليلة فقط.

نظرت له بذهول ليبتسم بتشجيع:

-الليلة سنقيم عزاءنا لروح كمالة.. ومان يبزغ فجر الغد، أنت ستنسين الحزن.. ستنسين البكاء.. وتتذكرين أنك عروسي، مهما كان سبب زواجنا فقد تم.. ولاسبب في العالم كله يمنع استمتاعنا به لأقصى درجة.

-أووس؟!

همست بحيرة ولكنه لم يترك لها الفرصة بل احاطها بقوة وغمر وجهه في جانب عنقها:
-ابكي وارثيها ياجميلتي.. اليوم نودع الحزن والألم.
هنا والأن .. والى الأبد..
اليوم هو لكِ يا قطتي ولكل ماضيكِ.. والغد هو لي، لي ولكِ ومستقبلنا فقط..
قالها وضمها أكثر.. ومضت لحظات قبل ان يسمع صوت نحيبها مجدداً..
نحيبها الليلة فقط.. فلم يعد هناك وقت للدموع ..
!!!؟
***
نهاية الفصل

الفصل الحادي عشر

***

كانت هنا ولم تعد؟!
أيا حلماً زارني لا تغادر مخيلتي
لا تتركني لعالم الكوابيس وحدي

واتركنا نتلوى في نشوى من الفرح اللذيذ
فالخمر لا لذة لها إلا في سكرها
والعشق لذته في اكتشافه وعذابه
كما الألم..
يتركك بعده في غيبوبة لذيذة لا ترجو النهوض منها قط.
***

فتح عينيه لتواجهه ابتسامة الشمس الساطعة..
شعاع مشرق استغل فرجة الستائر التي لم يتذكر أنه أغلقها بالامس وهجم بإصرار غبي على جفنيه المغلقين ليوقظه بسماجة، فتح عينيه بصعوبة.. الشمس تدخل بوفرة في هذه الغرفة..
فكر بضيق.. أين هو؟؟
ولم كل هذا الألم الذي يعصف بكل جزء من جسده..
نهض بصعوبة .. اتكئ على يمينه لتفاجأه أوجاع ضلوعه فتأوه وعاد ليستلقي وشعاع الشمس المزعج يكاد يحرق عينيه..
"تباً"

شتم ونهض مستعيناً بساقيه.. وقف بصعوبة.. جذب ذراعه اليه وحرك رأسه يستطلع اين هو؟!!

رأى اللحاف المخيط يدوياً يحيط به.. ثوب الزفاف الحريري يفترش الأرض جواره.. رأى قميص بيجامته الاسود على الأرض..

"ترنيـــم؟!"

فكر بتساؤل.. وأدار عينيه فيما حوله.. لقد كانت الغرفة خالية.. تحرك قليلاً .. اتجه نحو الحمام الملحق بالغرفة ربما كانت هناك فكر بتشوش..

الحمام كان خالياً، بارداً وجافاً..!!

أدار بعينيه فيما حوله .. الضباب حول عقله ينقشع فيما ساقاه تقودانه للبحث عنها في باقي أرجاء المنزل، لم تكن هناك.. ليس في البهو ولافي المطبخ، لقد فتش الغرف الاخرى ولم يجد أي أثر لها ..

الوعي يعاوده ببطئ، والخوف يهاجم معاقله ويسيطر عليه بالكاد يسيطر على اعصابه.. أين هي؟

فتش بجنون ليكتشف أن منزله كان خالياً منها ..

لم تكن هنا؟؟ ترنيم لم تعد معه..
أخذوها عنه؟؟ سلبوه اياها دون ان يعطوه الفرصة؟؟
لقد وعدها بأن يغير حياتها..
أن يعطيها السعادة بعد ايام الحزن الماضية..
لقد ندبا أيام الحزن؟
لقد بكت حزنها وهمومها بين ذراعيه ليلة أمس..على وعد أن الغد أجمل بكثير..
ولكن اين هي؟
لقت أتى الغد بأسرع مما يريد وهي.. هي لم تستقبله معه؟
هل أخذوها؟ فكر بجنون.. أم أنها لم تكن معه من الأساس؟؟
فكر بهستيريا.. هل تزوجها حقاً؟؟ أم أن ماحدث ليلة امس مجرد خيال رجل مريض تشوش عقله بفعل الضربات المتلاحقة التي انهالت على رأسه؟؟!!
تلفت حوله بحثاً عن شيء يدل على تواجدها.. لاشيء وكأنها تبخرت من حياته فجأة كما اقتحمتها دون مقدمات..

تحرك في ارجاء المنزل بذهول يبحث عن حتى مجرد أثر..
طيف من رائحة.. أو حتى رسالة ما؟!
تذكر رؤيتها وهي تُجر من قبل والدها في روما خارج حياته..
ثم بمعجزة كانت تتكور بين ذراعيه .. ناعمة، جميلة ودافئة.. ترتجف حزناً وألماً يكفكف دموعها ثم تتوسد صدره وذراعيه وتغفو..
هل كان حلماً؟!
فكر بجنون.. هل ماحدث مجرد حلم أم أنه كابوس؟؟!
"أووس"
تجمد مكانه لحظة.. اغمض عينيه بقوة متجاهلاً المه وهو يأخذ نفساً عميقاً الواحد تلو الأخر..
"أوس هل أنت بخير؟"
انتفض وهو يسمع تساؤلها القلق والتفت اليها بعينين متسعتين بإفراط..
تأملها بصدمة وكأنها قد هبطت من السماء..
هناك شيء ما خطأ،،

اقترب منها ببطء عينيه في عينيها لاتحيدان.. الخطأ كان في ضربات قلبه المدوية، في انفاسه المتسارعة في خفقات الألم التي لم تعتقه.. في احساسه انه يحتاجها ..

في تلك المشاعر العاتية من الصدمة والألم والتي لم ترحمه حين فكر فقط أنه قد خسرها!!

أو أنها كانت مجرد حلم مجنون.. استيقظ منه.

تعلقت عينيها بنظرته التي اجتاحتها بلحظة وهو يقرب ليشرف عليها.. كان يفوقها طولاً بشكل كبير حتى وهو حافي القدمين وهي بحذائها الرياضي الخفيف..

اقترب وانحنى بعنقه الطويل اليها لتفلت ماتحمله بيديها مغيبة بنظرته، عيناه الرماديتان اختفتا خلف ظلمة أرسلت رجفة أطاحت بنبضات قلبها لتهمس مرتجفة:

-أوس أنت تخيفني..

-لاأريد أن أخيفكِ.

همس بصوت مخطوف.. ثم اقترب أكثر.. تعلقت عيناه بشفتيها الجافتين المزمومتين بتوتر ورأت

أمره الحازم في نظرته لتفتح فمها بطواعية وهي تتنهد عالمة بيقين ماكان سيفعل..
وهو لم يخيب ظنها.. أبداً.
لثانية ارتفع بعينيه لعينيها.. يبحث عن رفض.. معارضة او حتى احتجاج.. ليس ليلين او ينسحب وإنما ليبرر استخدام القوة التي كانت تجيش من كل مساماته.. تلك الرغبة المتوحشة الفطرية التي تستخرجها عينيها البريئتين من كل جزء منه.. شيء يبرر القسوة.. الوحشية التي كان يصرخ بها رجل الكهف تحت جلده الأنيق المتباهي بعصريته.. شيء يبرر فقدانه سيطرته معها كما لم يفعل مع اي امرأة سواها..
ولكنه لم يجد..
كانت تقف هناك كطفلة لم تدخل براءتها عالم النساء وغوايتهن..
بينما عينيها ترسلان اليه قصائد غواية تتفنن بهن الغانيات..
ماتفعله بقلبه.. بجسده شيء لم تفعله امرأة..
ليس وهي واقفة بكامل ملابسها أمامه.. حتى حجابها..

كان يكفي أن تنظر لعينيه..
وهنا يقول لتعقله الســلام مودعاً..!!
حركة من رمشها فقط واستسلم لنداء جسده الملح لأن يضمها اليه بزمجرة رجولية فظة كانت ذراعه السليمة تحيط بخصرها وتجذبها اليه بوحشية متجاهلاً شهقتها وحقيقة أنها ارتفعت عن الارض عدة سنتيمترات وأن قدميها معلقتان في الهواء..قبل ان تطبق شفتاه بنعومة ارادها ساحقة لشفتيها ولكنه لم يجرؤ.. ليس وهي بتلك البراءة..
ليس وهي تذوب متشبثة بكتفيه.. تذوق قبلتها الأولى ..
اتسعت عينيها في البدء.. رف عارم تصاعد بداخلها يزجيه خوفها وذهولها مما آلت اليه الامور.. كل شيء تصارع بداخل عقلها كل مخاوفها كل رفضها للانهزام.. والحزن، الحزن العارم الذي كشر عن أنيابه لوقت طويل ومزق لحمها حتى العظم.. ولكن لكل شيء نهاية..
صدمتها تراجعت
وخوفها انحسر وكأنما شبح ملثم أمسك به وخنقه بعيداً عنها..

ووجدت نفسها تذوب..
تستلم لمشاعر لم تفطن لوجودها من قبل.. أو أنها نسيت في غمار بؤسها ماتعنيه التعلق والتشوق لحدث بهكذا حجم.. في الماضي حلمت.. بماستعانيه من مشاعر في لحظتها..
احراج .. وحب.. خوف وارتباك..!!
ولكنها لاتشعر بأيهم؟؟
كل ماتشعر به هواحساس غاامر.. ملئها من العمق ليطفح مغرقاً اياها في لجة لم تعرف لها قرار..
اغمضت عينيها بيسر، واستسلمت لقوته وهو يجردها من خوفها وارتباكها ويرفعها خارج اللجة التي اغرقتها ليرمي بها في محيط من أحاسيس جديدة لم تعرفها من قبل..
شغوفة..
لمسته لها كانت شغوفة.. رقيقة.. كيف تصد الرقة من رجل مثله.. خشن وساخر.
كانت انفاسها مكتومة وهو.. هو كغطاس ليس بحاجة للتنفس.. ولكنها بحاجة للهواء.. بحاجة للابتعاد والا خسرت عقلها..

وقبل ان تنفذ ما قررته بالابتعاد كان هو يحررها..
لنفس مخطوف ابتعد بشفتيه عن فمها المتورد..
يفتح عينيه ليطالعها بذهول..
فبرغم كل ما اثارته قبلته في نفسها..
كان احساسه هو مضاعف الاف المرات..
لم تكن قبلته الاولى، لم تكن امرأته الاولى حتى..
ولكنها كانت.. في كل شيء اخر هي الاولى..
في هذا الاحساس المتفجر، في ذلك الشوق وحتى وهي رابضة بين ذراعيه كانت الاولى..
في جنونه الذي مسه ككائن من العالم الأخر..
كرؤيته لذاته متعرية بين يديها.. مشاعره مفضوحة تنضخ من عينيه من مسامه..
كانت فعلاً الأولى،،
"ترنيم؟!"
همس بذهول وهي تستند على صدره بضعف..
أنهكها هذا الرجل..
بلمسة منه تضيع.. خفقاتها وكأنها ركضت لأميال.. لم تكن تشكل ثقلاً الا على قلبه السائب..

لهثت واستقبلها بمثله.. أحاطها بذراعه قريبة من قلبه فيما ينحني رأسه ليستند على قمة رأسها..
" أين كنتِ؟"
تساءل بصعوبة.. وعيناه تستوعبان المزيد من الاخطاء..
ترنيم كانت بكامل ثيابها..
كانت ترتدي عباءة سوداء.. وحجاب ملون؟!!
"أين ذهبتِ؟"
همس بحنق وهو يتذكر جنونه حين استيقظ ولم يجدها جواره..
"متى استيقظتِ؟؟"
-أنا لم انم ابداً..
همست.. وكيف تفعل وهو الى جوارها؟؟!
كما لم يكن أي رجل من قبل؟؟
احمرت وجنتيها وحاولت اخفاءها عنه ولكنه كان خبيثاً جداً كي لايلاحظ..
التقطت عينه السليمة حمرتها وامتدت كفه لترفع وجهها اليه بعجرفة..
سقط حجابها لتنسدل خصلات شعرها الناعمة حتى ظهرها.. جافة وعطرة..

ابتسم ببطئ.. أصابعه تتخلل الخصلات الكثيفة متسائلاً:
-والى أين ذهبتِ في الصباح دون أن توقظيني؟
تراجعت بحرج ثم انحنت والتقطت ماوقع منها.. تأمل ماتحمله بفضول.. كيسين ورقيين ، تقدمت لتضعهما على طاولة قريبة وهمست:
-كنت جائعة.. ولم اجد ماآكله.. وقد تذكرت ان هناك مقهى صغير بالقرب من هنا يبيع فطائر حلوة شهية للغاية.. لقد كنت اتي الى هنا مع رفيقاتي منذ زمن.. انها لذيذة.. وساخنة.. ثم تذكرت الكدمات على وجهك.. والم ذراعك..مررت بصيدلية المستشفى الجمهوري، أحضرت لك هذا المرهم..انه مفيد سيزيل التورم ويخفف الالم، واحضرت هذا الرباط.. انت لاتثبتها وهذا...
-توقفي..
صاح بعصبية لتتوقف ناظرة اليه بذهول..
كانت تهذر دون توقف.. كلمات ..كلمات ..
اقترب منها وامسك بمعصمها وضغط عليه لتتأوه بألم بينما يسألها بحنق:

-كيف ذهبت؟؟ السيارة بالخارج لم تتحرك؟
-بالحافلة..
اجابت بصراحة لتتسع عيناه بذعر ويصرخ:
-هل جننتِ؟؟ أي عروس تخرج صباح عرسها لتدور في الانحاء على الحافلة؟؟
عقدت حاجبيها بشدة وبدأت بتوتر:
-لست عروس بالمعنى الحرفي..
رفع حاجبه ببطئ بينما عيناه تنظران لها بإثارة جعلتها تتراجع بخوف وهو يقبض على معصمها بقوة أشد ليقربها منه هامساً بخفة:
-ربما أصلح هذا الخطأ في التو.
-توقف هل جننت.
صرخت مرعوبة ليضحك بخشونة ويقربها منه هامساً:
-أنت عروسي ترنيم.. لا تأخذك الافكار أن هذا الزواج سيكون أفلاطونياً وأن فارسك الهمام ليست لديه رغبات كأي رجل على وجه البسيطة.
توسعت عينيها بذعر ليواصل هو بصوت ساحر مغوي:

-البارحة كنتِ في حالة من الحزن وعدم التوازن، وأنا تركتك بمزاجي.. ولكن منذ اليوم.. منذ اللحظة أنت ستتعلمين معنى أن تكوني عروساً جديدة..

زمت شفتيها بحنق وهتفت غاضبة:

-ومالذي يعنيه هذا بالضبط؟؟

لم يمهلها حت الانتهاء من جملتها ليهوي على فمها بشفتيه.. قبلته هذه المرة تخلت عن نعومتها، وارتدت رداء الوحشية التي يليق بها.. واستولت على انفاسها قبل حتى ان تستوعب..

وفي لحظة قررت القتال والابتعاد كان يتركها هو بصيحة نشوى صغيرة ترافقها ضحكة عميقة ووجهه يتمرغ في عنقها هامساً بشوق:

-ستذهبين الان.. وتغيرين ملابسك، ستكونين عروساً ناعمة مثيرة في ثوب جميل وزينة أنيقة.

تمالكت انفاسها وهمست بصعوبة:

-أنا لست دمية ياكابتن.

ضحك متلاعباً:

-أنت دميتي أنا ياقصيرتي.. والأن اذهبي.. اذهبي وغيري ملابسك والا اقسم أن أتي واغيرها بنفسي.

تراجعت شاهقة ليشير لها نحو غرفة النوم بعجرفة:

-عشر دقائق ترنيم، عشر دقائق لتغيري اللون الاسود الذي اكرهه منذ اللحظة، ريثما أعد الشاي لنتناوله مع فطائرك وإلا أتيتك بنفسي.

تراجعت وهي ترى التصميم يشع من عينيه ثم استدارت تركض الى الغرفة ليوقفها بنداءه لاسمها فالتفتت اليه ليقول رافعاً حاجبه بتشدق:

-أريده قصيراً بألوان مشرقة.. ولابأس ان كان عاري الكتفين..ولاتنسي الكعب العالي.

اتسعت عينيها ليضيف بمكر:

-ثم إياكِ أن ترفعي شعركِ.. أريده هكذا..

وقبل أن ترد كان يشير لساعة الحائط:

-لديكِ تسع دقائق ياقصيرتي.. اذهبي..

رفست الارض بقدمها بحنق وأسرعت راكضة وهي تقسم بأغلظ الأيمان انها لن تنفذ ماقاله ابداً

بينما يتابعها بعيني صقر.. تعرف تماماً أنها ستنفذ.. وبالحرف الواحد.

***

على قمة الفندق ..

نحو بحر تلاطمت أمواجه بفعل الريح المشرعة أجنحتها انتقلت عيناه، بينما يرشف من كوب قهوة سوداء مركزة بدون سكر..

لم تفارق الأحلام ليلته وهو يدرك أنها قريبة منه الى درجة الإختناق فرحاً.. على بعد نبضة قلب وأختها، يفصلهما جدار هكذا شائت الأقدار وتوزعت الأدوار كي لايغادر احد الى سبيله بعد منتصف الليل أصدر السلطان القرار ن يبيت الكل ليلتهم في الفندق الذي أقيم فيه العرس.. ورأها تتجه الى تلك الغرفة وحيدة.. ولم يصدق حظه أن يرى رقم حجرته في الغرفة التي تليها.

اعتاد عدم الانصياع لأوامر السلطان ولكنه هذه المرة فقط أذعن..

لايعرف أهي رحمة من القدر، أم هو تفكير خبيث من أبيه الذي وزع ارقام لاغرف بنفسه واختار

له أقصى مايريد عن أمه والشيماء وأقرب مايكون له وللصوانة..

-صباح الخير.

التفت ببطئ يطالع وجه أخيه المتجهم، وابتسم .. كان السيف هو السبب الوحيد لامساكه عن جنونه في التسلق عبر الشرفة للحجرة المجاورة بعد أن رآه يصر على النوم برفقته في الحجرة بعد مغادرة زوجته العرس مع أخيها والاطفال في زيارة لعائلتها في الريف، وكان من المفروض أن يكون هو برفقتها ولكنه اختار البقاء ومرافقة أوس قبل سفره مع زوجته..

-هلا أخبرتني كيف تتحمل سلمى شخيرك المزعج سلطان؟؟

رفع سيف حاجب متكاسل وتمطى ببطئ قبل ان يقول ببرود:

-كما ستتحمل زوجتك ندوبك البشعة..

قهقه جساس بمرح واشار له بكوب القهوة:

-هذه الندوب قلائد فخر.. انها دلائل الرجولة..

-انها دلائل الغباء، الله وحده يعلم ماستكون رد فعل المسكينة حين تراك بهذا الشكل؟

نظر جساس لنفسه بعبوس، عاري الصدر وببنطال قطني يتجاوز ركبتيه والندوب التي يحملها من ذكرى كل حادث أصيب به تلمع بتحدٍ، وابتسم بتراخٍ وقال بثقة:

-لاتقلق فهي تعرف كل واحدة ومناسبتها بالضبط.

رشقه سيف بنظرة جافة وهو ينهض بتثاقل يدمدم غاضباً باحثاً عن اشياءه المبعثرة هنا وهناك وصاح متجاهلاً ضحكة جساس المتسلية:

-رباااااااااااه اين انت سلومتي؟؟

-ياللهول يارجل لقد عشت أعزباً من عمرك سنين والأن بعد زواج قصير تصبح بلاحول ولاقوة؟! منذ متى ياسيف الشيب وبأسها؟؟

وجد سيف قميصه وارتداه على عجل وهو يدمدم بحنق:

-سنرى ماتفعله حين تتزوج أنت.

-أنا ومن يومي.. بلاحول ولاقوة ..

قالها هائماً ليقترب منه سيف ويسأله بتوتر:

-ماالأمر ياجساس؟ هل حدث جديد؟؟ أراك تنظر للحياة بعين جديدة؟؟ هل فلحت امي أخيراً ورنّت عينك الى الشيماء؟

غامت عينا جساس وهمس بصوت مثقل بالشجن:

-وكيف للجساس أن ينظر ابعد من خطوات صوانته ياأخي، كيف أتنشق سوى عطر هواها الذي لم أذق يوماً في حلاوته؟ كيف أنظر لسوى امرأة عهدت لها نفسي يوم وعيت لرجولتي ومعناها كيف أكون لسواها وهي ملكتني منذ اللحظة الأولى؟؟

-هي مصرة..

حاول سيف ولكن جساس ابتسم بثقة.. وأكمل باقي القهوة هامساً:

-لاتقلق نفسك بشيء كهذا.. الصوانة لي.. كما انا لها.. لاشيء سيفرق بيننا ولو هُدت الجبال هداً..

-أنت عاشق.. كماكنت قبلك.

همس سيف بإبتسامة فخر ليردها أخيه وهو يتقدم ليلتقط ملابسه قائلاً:

-أنا عاشق بالفطرة ياسيوف، وكما حركت السماء والأرض لتنال سلماك.. أنا.. سأشعل الأولى وأزلزل الثانية كي أحصل على صوانتي..

-مجنون ..

-بعض ماعندكم ياشقيقي الحبيب والأن لِمَ لا ترتدي ثيابك وتستعد للفطور الاجباري الذي تقيمه عمتك المصون.

تنهد سيف وتذكر الفطور المتأخر الذي أصرت عليه فاطمة بعد أن قضت معظم العائلة ليلتها في الفندق، كلم شمل قبل تفرق سبلهم من جديد..

وكان هذا السبب الوحيد الذي جعله يتخلف عن مرافقة عائلته الى الريف، لذا أسرع بفعل ماأشار عليه أخيه الصغير دون أن ينسى الاتصال بزوجته والاطمئنان عليها.

وعبر الرواق..

استيقظت فزعة.. أنفاسها متلاحقة تنظر حولها بذهول..ذراعيها تسارعان لستر عريها قبل أن تنتابها نوبة الغثيان المقرفة وتدفع بها لان تهجر سريرها الدافئ وتهرول الى الحمام الملحق

بالجناح وهي تلملم الملائة حولها وترتمي على أرضيته لتفرغ مافي جوفها بأنين يمزق القلوب..
جسدها يرتجف، برداً وحرقة، ألماً لمافعلته ومادفعت ثمنه غالياً..
لقد ارتمت تحت قدميه، ارتمت حرفياً وتمرغت في وحل عشقه وارتوت من كأس غرامه حتى الثمالة.
لقد خانت نفسها وقلبها .. خانت كرامتها لمتعة رخيصة أطارت بصوابها ومضت تشبعها كالمجانين دون قيد ولارقيب.ان كانت كرهت نفسها لوقوعها في حب ركان مرة من قبل، فهي تكرهها الأن أضعافاً.
-سارة؟!
سمعت اسمها وسط نوبتها المخزية لتصرخ بصعوبة به أن يتركها ويبتعد.. ليس من عادة أحد أن يراها بهذا الضعف، ولكنه لم يكن أي أحد، كان ركان.. زوجها.
ظنت أنه ابتعد ولكنه لم يفعل، سمعت صوت إغلاق الباب وقبل أن تتنفس الصعداء، شعرت به يجلس خلفها، وذراعه القوية تحيط وسطها

وتجذبها لتلتصق بعضلات صدره الصلبه وصوته المبحوح يسألها:
-هل تشعرين بتحسن؟
-لاتلمسني.
صرخت بضعف متجاهلة استجابة جسدها كله للمسته ولكنه لم ينصت لها حتى، ضمها اليه أكثر ودفن رأسه في حنايا عنقها هامساً:
-هل تناولت شيئاً أساء لكِ؟ لم هذا المرض سلطانتي؟ هل أستدعي الطبيب؟
-لست بحاجة الى طبيب..
همست بتوتر، هل تخبره؟؟ لا لا ليس الأن.
فكرت مذعورة ثم حاولت ان تفك قيد ذراعيه ولكنه لم يسمح لها وسألها بصبر:
-هل انتهيتِ؟
اومأت بعصبية وهي تريد النهوض لتغسل وجهها وتنظف أسنانها ولكنه كان مصراً كالكابوس، حملها رغم اعتراضاتها ووضعها بداخل حوض الاستحمام وقبل ان تعترض كان يقف الى جوارها مزيحاً ملائتها وروبه وفاتحاً

رذاذ المياه على أقصاه لتصفعهما برودته فتشهق بينما يغرق شهقته في شفتيها بقوة وتحكم..

-توقف.

صرخت بعصبية وهي تبتعد بعينين لامعتين محتقنتين:

-لاأريد ، ألاتفهم أنا لااريدك.

-ليس هذا ماكنت ترددينه ليلة امس.

صرح بسخرية لتنظر نحوه بكراهية، عيناه الزرقاوتان تلتمعان كألف نجمة بينما يغرقه شلال المياه المتدفقة كتسبباً بلوي معدتها حول نفسها عدة مرات وهي تدرك أنها تحبه .. تحبه مهما قررت كراهيته..

-أحبك أيتها المجنونة..

صرّح اعترافها بصوته المثخن بالمشاعر لتنتفض ضربات قلبها بجنون بينما ترتفع يده لتلامس أصابعه جانب وجهها بحنان وهو يستمر:

-أنت الوحيدة سارة، الوحيدة التي أحببتها لدرجة أنني قررت تغيير حياتي لأجلها.

-ثم ماذا فعلت؟ لقد خنتني، استخدمتني لتنال مآربك وتسرق مني حقي.

عض نواجذه بصبر ثم همس لها:
-لم يحدث سارة، وأنت تعرفين.. أنا لم أسرق شيئاً ليس لي..
-اصمت..
صرخت بألم وانسابت دموعها وهي تواصل بحرقة:
-لقد مرغت كرامتي الأرض، جعلتني عللك رخيص في فم كل من يريد الشماتة، لقد بديت سييرا علي، اتفقتا انت وهي لتوقعا بي في شراكك وأنا كالحمقاء انسقت وراءك.
-هذا لم يحدث، أبداً.
هدر بعنف وأمسك جانبي وجهها ليجبرها على النظر اليه حين أشاحت وهو يهتف بحنق:
-لم يحدث بيني وبين سييرا شيء منذ تعرفت عليكي، هي كانت مجرد علاقة عابرة وأنت.. أنت هي حبيبتي ياقلبي العنيد.
-أنت كذبت لشهور طويلة ركان.. كاذب بالفطرة فلم علي أن أصدقك؟
تنهد محاولاً استجماع الصبر مجدداً ثم قربها محيطاً خصرها بذراعه:

-أنا لم أكذب عليكي بشأن حبي لكِ سارة، أنا أحببتك كما لم أعرف من قبل تزوجتك لأنني عشقتك ولم أستمر في مخطط شاهر إلا لأجلك.
دفعته بقوة متجاهلة ثقل العاطفة المتدفق من عينيه والذي يرزخ بقوة على قلبها الضعيف، وأسرعت الى خارج الحوض، التفت في روب الحمام بضعف حجمها واندفعت لتغسل أسنانها بحركات عنيفة غاضبة ليزفر ركان بحنق ويغلق رذاذ الماء ويندفع خلفها، لف وسطه في منشفة وزاحمها أمام الحوض الرخامي فنظرت له عبر المرآة بغضب عنيف قابله بإبتسامة بطيئة وهو يميل ليلتقط فرشاة جديدة ويفضها من مغلفها وعينيه لاتفارقان عينيها.. لا هو لن ينجح في كسر عينها.. هي السلطانة.
حاولت نزع نظرتها عنه ولم تقدر..
كان قاسياً في تحكمه بها، كان يقدر ويعرف بقدرته بل يجاهر بها بلارحمة.
انتهت قبله وحاولت الابتعاد ولكنه سرها بين جسده والباب فهمست بغيظ:
-افسح لي ركان..

-لم أنتهي بعد..
رد ببرود لتزفر بعصبية وهي تراه يخرج من حقيبة صغيرة عدة حلاقته وتركها على الحوض قبل ان يقترب منها اكثر ويلامس عنقها الطويل بذقنه مهمهماً:
-أأحلق ذقني سلطانتي أم أنك تحبينها شائكة؟
أغمضت عينيها بعذاب ورفعت يديها تصد اقترابه لتخذلها أصابعها وتتلمس وجنتيه بتوق، فيتنهد وتلتمع عينيه وهي تلتقي عينيها عبر المرآة ليهمس لها بخشونة:
-ماذا تريدين سلطانة؟
صخب عارم يهاجم عقلها وقلبها وجسدها، لاتعرف إن تستجيب أم تهرب بجلدها ولكن التعقل فاز بعد معركة كادت تخسرها بحماقة القلب والرغبة، فهبت تبتعد عنه ومن حصاره، عادت الى الغرفة تبحث عماترتديه لتحضر الفطور الصباحي الذي دعا اليه السلطان، كانت تقارب الثانية عشرة لذا يمكن تسميته بالغداء المبكر قبل عودة كل افراد العائلة الى مقارهم

حول العالم، كانت وركان مدعوان بطبيعة الحال ثم كان هناك موعدهما مع والدها.
ارتدت ثوباً طويلاً بكمين قصيرين وقبة مرتفعة بلون السماء الرائقة وكعباً عالياً، ثم بدأت برفع شعرها لتبعده كلياً عن وجهها ووضعت زينة رقيقة وتجاهلت ركان العائد والذي كان يرتدي ملابسه ببطئ زاماً شفتيه بحنق، لم ترد أن تنظر اليه، استمرت فيما تفعل ليفاجئها بسؤاله الغليظ:
-هل سننزل معاً أن تفضلين ان ننفصل؟
خفق قلبها بألم لكلمة الانفصال ولكنها لم تحملها أكثر ممايعنيه وقتها، فقط همست مخنوقة رغماً عنها:
-سننزل معاً لاريد المزيد من الفضائح أمام عائلتي، ثم أن أبي يريدنا معاً.
ورأته يلتقط زجاجة عطره التي أدارت عقلها وأطاحت بتعقلها برائحتها المجنونة فشعرت بالحنق واقتربت لتسرقها من بين أصابعه لينظر لها بدهشة بينما تتشممها هي وتغضن أنفها صائحة بقرف:
-لم تضع هذا؟؟ انه مقرف..رباه.

عقد حاجبيه بسخط وخطف الزجاجة بحنق:
-انه عطري المعتاد، لم تشتكي منه قبلاً..
اتسعت عينيها وهي تراه يبخ القليل منه على جلده مباشرة ثم يلتقط قميصه ليرتديه .. اقتربت كالمنومة وأسندت رأسها على كتفه وهي تتنشق الرائحة التي امتزجت بين العطر وغسول الملابس وعطر مابعد الحلاقة ورائحة الجلد نفسها التي خدرتها وجعلتها تذوب رغماً عنها..
-سارة؟!
همسته القاسية أخرجتها من ذوبانها وجعلتها تنتفض مبتعدة بذعر، انها تفقد نفسها مجدداً.. لا لن تسمح له ابداً.. أبداً.. راقبته وهو يكمل عقد ربطة عنقه بصمت لتسأله بمرارة محاولة الخروج من دوامة عشقها:
-ألاتخشى مقابلة ابي؟ بعد سرقتك لتعبه وشقاءه طيلة تلك السنوات؟
نظر لها بقسوة وهدر:
-أنت حمقاء وغبية إن ظننت للحظة أنني تعديت على أموالك وأموال أبيك.. حصصك من الاسهم لم أمسها ياغبية، أما عن إدارتي للمجموعة الأن

فهذا جدير أن يرفع رأسك ورأس أبيك.. أنا لم افعل شيئاً لم يفعله نضال الشيب في زمانه ياسلطانة..

اتسعت عينيها بذهول :

-أبي؟!

-أنت لاتعلمين شيئاً ها؟؟ رباه سلطانة لو لم أكن أحبكِ فقط.

دمدم بعصبية ثم التقط سترته وقبض على مرفقها ودفعها الى الخارج وهو يحاول السيطرة كي لايرتكب أي حماقة تفقده تقدمه الواضح نحو استعادتها..

وفي الجهة الاخرى..

استيقظت عند الفجر.. كلا، هي ببساطة لم تنم، رغم التعب لم تقدر على إغماض جفن، كلمافعلت رأته ينظر لها بعينيه الضيقتين، سمعته يقسم لها أنه لن يتخلى عنها حتى وإن وقفت هي أمامه وطالبته بالرحيل والابتعاد كما اعتادت، لقد وقف أمامها وأعلنها صراحة أنه لن يسمح لها بالإبتعاد.. ليس وفي جسده عرق ينبض بالحياة..

استلقت كالحمقى تطالع السقف وعلى شفتيها ابتسامة شاردة حالمة .. حمقاء!
ثم تعكرها رؤية عينين زرقاوتين بديعتين وتنتهي كل الأحلام..
انتفضت من جديد ووقفت أمام المرآة ارتدت عباءتها السوداء وطرحتها الموشحة بلون أخضر غامق، ثم استعدت للخروج حين فاجأتها طرقات على الباب..
-تفضل..
دخل والدها حينها لتبتسم له وتسرع الى ذراعيه مقبلة رأسه فيضمها بحنان جارف ويبادلها بقبلة على الوجنة بحب ثم يجذبها لتجلس الى جواره:
-تعالي ياصوانتي العنيدة.. اجلسي جواري ياقرة عين أبيك.
ابتسمت له بسعادة نبعت من اعماقها وهي تسأله:
-كيف هي امي لم تأتي لتحيتي ولا لإيقاظي كعادتها؟
اتسعت عينا أبيها وقال بخبث:
-ماذا بكِ يافتاة ألا تعرفين أن أم العريس، عروساً هي كذلك؟؟ ألم تري جمالها تلك المرأة؟

احمرت وجنتي صوان ولكزت والدها الضاحك بمرح وهي تقول مشيرة لخصلات شعره التي غشاها الشيب:

-أبي لاتتكلم هكذا لايليق بعمرك.

عبس والدها ودمدم بغيظ ساخر:

-ومابالله عمري يافتاة أنا لم اتجاوز الخامسة والخمسين بعد لاترفعيني اصبعاً فوق عمري احذري.

ضحكت بمرح ثم خبت ضحكتها حين رأت النظرة في عينيه، تجمع بين الحنو والحزن الدفين وهو يتطلع في عينيها الدافئتين لتهمس متسائلة بقلق:

-ماذا بك أبي؟ مالذي تخفيه عني؟

تنهد والدها دون أن يقدر على كبح نفسه ثم نهض مرتبكاً:

-هناك أمر، وقد تكلمنا به أنا وأمك منذ بضع الوقت، وبصراحة البارحة ...

-أبي...

قاطعته بتوتر وهي تلاحظ أن الكلمات محشورة في حلقه وأن الموضوع يخصها .. بشيء جلل..

تنهد أبيها بحرقة ثم قال دفعة واحدة:
-لقد تقدم محمود ابن خالة أمك لخطبتك.
توسعت عينيها بصدمة بينما والدها يواصل بسرعة:
-تعرفين محمود، هو تربى طيلة حياته في كندا، استاذ جامعي مرموق ولديه ولد واحد من زوجته الكندية، فبعد طلاقهما منذ أكثر من سنتين طلب خطبتك مباشرة صوان.. ولكننا لم نصارحك حينها.. تعرفين كيف كان الوضع، ولكن الأن..
-الأن ماذا؟!
همهمت بشحوب.. لينظر لها والدها بأسى ثم يعاود جلوسه قربها وهو يهمس:
-أمك لم تقوى على مصارحتك صوان ولذا تطوعت أنا، أنت لم تعودي صغيرة ياحبيبتي، اصغر منك وأصبح لديهم عائلات، تعرفين عادات عائلتنا حين تتخطى الفتاة منتصف العشرينات يقل خطابها تصبح مثار التساؤلات والظنون.. وأنت..
تردد قليلاً ولكن صمت صوان أعطاه الشجاعة ليكمل بمرارة:

-أنت قاربتِ الثلاثين جميلتي، فإلى متى؟
نظرت له بشحوب نافس أغطية الفراش ببياضه..
كانت أصابعها ثلجية مرتجفة .. لم يجرؤ أبيها على النظر اليها وهي هكذا، نهض بإرتباك :
-فكري ياابنتي، لن تجدي خيراً من محمود، فهو شهم ومتفهم ورقيق، لايشبه ابداً أبناء عمومك.. وابنه صبي يافع لن يتدخل في حياتك مع أبيه أبداً.. فكري ياصغيرتي.. فمحمود يريد الرد بأقرب فرصة.
تابعت صوان ظهر ابيها يختفي خلف الباب وشعرت بقلبها يلتوي بألم..
انسابت دموعها دون مقاومة لتجري على وجنتيها ووجدت نفسها تتقوقع ضامة ركبتيها اليها بقوة بينما تتحول دموعها لشهقات متتالية مخنوقة، والدها رمى الحقيقة في وجهها دون رتوش.. وإن كان قلبه رقيقاً على ابنته فلم يكمل ..
إنها تكبر في العمر.. وبعد سنة او اثنتين لن تجد من يطرق بابها..!!

كل من زملائها وزميلاتها تزوج.. تعرف الرجال ونظرتهم .. تعرف المجتمع الاحمق الذي تعيش فيه..
تعرف قوانين عائلتها الغبية..فلا أحد من ابناء عمومها تقدم لخطبتها لعلمهم بحقيقة عمرها..
ماعداه هو.. خفق قلبها بجنون وأجهشت بالبكاء بهستيرية ..
جساااااس..
~ ياوجعاً لا أستطيع ان أبرئ منه قلبي..
ياروحاً تأبى إلا أن تسكن جسدي..
تزاحم روحي وتقتلها..
تستبيحها وتهلكها
لقد أفسدتني يا ابن عمي..\
جعلتني مسخاً لا أصلح إلا لك..
لايقبله سواك..
أقسمت أن تكون الوحيد لي..
هاقد تضائلت خياراتي..
ضاقت الحلقة على عنقي وبت أختنق ببطئ..
أنت ياوجعي..
أعطني الهواء.. أعطني الهواء لأتنفس..

لأعيش..
حررني من قيودك يامعذبي..
ياجريرتي.. ياسريرتي..
ياقلبي الذي مانبض إلا بين ضلوعي
ياحباً لم أخلق لسواه
استوطنت أرضي.. ملكتني كلي.
فحررني الأن.. ياماليكي..
سلطاني .. أعفو عن سلطانتك الجارية تحت قدمي الهوى
حررني ياوجعي.. ~
***
تأملت بعينيها الواسعتين كيف اجتمعت عائلة الذئاب التي لطالما حكت لها خالتها عنها، وعن قوتها وجبروتها وتخيلت معنى أن تكون جزئاً منها، من قوتها ومن جبروتها، ونظرت لخالتها التي جلست مرفوعة الرأس رغم ابتعادها بإرادتها عن كل هذا؟!
كانت فخورة بولدي خالتها اللذان جلسا الى جوار والدتهما يتبادلان النكات المرحة ومحاولة

الاتصال بولد عمهما الأخر.. العريس الذي لم يكلف نفسه عناء الإجابة..
ابتسمت وهي تتأمل جساس.
ابتسامة حالمة وهي تتذكر كلمات خالتها قبل خلودهم للنوم البارحة والتي كانت عصبية بشكل كبير لاتعرف سببه وهي تعدها بل تقسم لها أن جساس سيكون من نصيبها..
هي لم تفكر يوماً به،،
لطالما خالتها قالت انه سيكون نعم الزوج لها، ولكنها لاتتذكره لاتعرفه ولذا لم تفكر يوماً به بجدية..
وكانت تطالع صوره وتهاب القوة والقسوة النابعة من عينيه..وحين التفته وجهاً لوجه..
أرهبهـــا..!!
لم تكن القسوة ولا القوة..
بل ذاك الحزن العميق الدافق من عينيه..؟!
-اجلسي صوان بنيتي..
التفت الجميع للصوت الثخين الرزين واتسعت عينا الشيماء وهي ترى الرجل بالمقعد المتحرك يجلس الى الطاولة معهم وترافقه تلك الصوان!!

-لابأس عمي.. سأجلس مع والديّ.
قالتها الصوان بإرتباك وهي تريد الهرب بعد أن حشرها عمها سلطان في الزاوية وأرغمها على مساعدته للوصول الى طاولة عائلته بينما ترمقها النظرات بمزيج من الفضول ولاذهول والكره العميق..
-طاولة والدك قد امتلئت عن أخرها.. اجلسي معنا يافتاة لن تكوني أنت من يجعلني أكرر كلماتي يابنة حسن.
احتقن وجهها لتقريعه وجلست مرغمة ..
كان جلوسها يضعها بالضبط أمام الجساس والذي لم يرفع عينيه اليها ابداً منذ وصلت، بينماأمه ترشقها بالكراهية بلاحدود..
-مساء الخير ياعمتي.
دمدمت بالتحية كماتقتضي الاخلاق لتتجاهلها نرجس متعمدة وتشيح عنها باستحقار لفت نظر الجميع وجعل الصوان تختنق بريقها وتحتشد عليها امارات الخجل والحنق..
حاولت السيطرة على اعصابها بينما تخفي عينيها عن الرجل الذي لم ينظر اليها..

تشيح وتتوق لنظرة واحدة..بينما تلك الفاتنة تقبع الى جواره بثوبها الموشح بالزهري والأحمر والأبيض، وشعرها مجدول يسقط برقة على كتف واحدة.. وعينيها .. لجتا الماء تخفيان قصصاً أخرى.

تأملتها شيماء بفضول وراقبت اتجاه عينيها هرباً من الجساس وتذكرت ماقالته لها امس ان تسأل الجساس عن معنى اسمها!؟

لذا وبكل هدوء نادت الجساس أمام الجميع،،

-جساس..\

احترق قلب الصوان وخفضت عينيها بقهر وهي تلاحظ الالفة بين الاثنين وبالكاد ابتلعت ريقها ..

-ماذا هناك شيماء؟

رد بهدوء يحاول السيطرة على خفقات قلبه التي تكاد تثب من عينيه فرحاً لوجودها قربه..

-ماذا يعني اسم صَوّان؟!

شهقت نرجس ونظرت لابنة أختها بذهول بينما تصلب سيف والسلطان.. اما صوان فقد تبلمت وعينيها عليه لم تعد تسمع الصخب من حولهما

بينما يدوي قلبها في أذنيها بكل جنون، تلتقي عينيه اللتان ارتفعتا اليها ببطئ..
واختفى الكل من حولهما، وكأن الدنيا كلها توقفت لتسمع ماسيكون رده..
اتسأله عن صوانته؟!
أحقاً تفعل؟؟
ابتلع ريقه بصعوبة وأراد ان يصرف الأمر عن ذهنه.. أراد أن ينهرها عن سؤالها أن يتجاهله ولكنه لم يقدر فتلك كانت الصوانة .. صوانته..
كانت تجلس هناك .. قلبها تعلق برموش عينيها وانتظر طرفة كي يقع بين كفيه..
-الصوانة هي..
وغص بكلماته:
-الصوانة هي قلب أبيض.. ناصع..
لايبقى عليه اثرٌ لإساءة أو بغض..
تحتضن شرارتها.. وحين تُقدح..
فهي تشتعل.. ببطئ..
"وشردت عيناه وابتسامة تتلاعب على شفتيه"
الصوانة لاتحترق.. فلاتذر الرماد.. هي تشتعل حمراء كقلب الشمس..تميل الى البياض،

تشع حرارة ودفئاً..
لاتحرق إلا من يسيئ اليها
ومن يعشقها
الصوانة نار .. لالهب لها..
صلدة لايقدر على كسرها شيئ..
الصوانة لاتلين رغم النار التي تنبع من عمقها
بل انها تزيدها قوة وجموحاً..
الصوانة تشع جمالاً ربانياً لايضاهيها زهر ولا نهر
هي رهبة النار وقوتها.. هشاشة الجذوة وخَوّارُها
واختفت ابتسامته والعينين تغيمان بحزن وأسى:
هي .. جمرٌ اشتعل..
"وخفت صوته وهو يضيف"
أوقد القلب حرقة ..راقبها تستعر ثم اصطلى بنارها حتى أبت أن تنطفئ..
صوّان .. هي رجــاءُ دعوة عاشقٍ.. واستجابةُ ربٍ لايرجــو سواها.
ثم سكت.. يراقب القلب الذي طفر من بين عينيها وانسكب ببطئ على وجنتها لتخفيه بسرعة دون أن يراه سواها..

لم يكن يعرف أنه إن كانت هي دعواه جهراً..
فهو دعوتها في ظهر الغيب كل ليـــلة..
لم يقدر أن يبقى.. المشاعر العارمة التي عصفت به.. جعلته ينهض مردداً اعتذاراً ما مغادراً الطاولة..
شيماء من ناحية أخرى كانت عينيها متسعتين وهي تراقب ملامح وجهه التي وشت حبه بل عشقه العميق دون أية مداراة أو خجل، ومن ناحية أخرى كانت تشي بعذابه المهلك، وانفطار قلبه الموجع..
رأته ينهض فلحقت به دون خجل.. أوقفته في زاوية وواجهته:
-أنت تحبـــها؟!
همست متسائلة.. ليبتلع ريقه ويهمس بصوت مبحوح:
-الكون كله يُحبها..فماذا أكون أنا لو لم انحني لحبها؟!
-أنت الجساس، السلطان..هي من يجب أن تنحني..
ردت بعنف لينظر لها بقسوة:

-لن تنحني الصوانة لأحد وأنا حيٌ أُرزق، ولاحتى لي شخصياً..ماعاش من يحني الجباه العالية..

لامن قبل ولامن بعد.

تراجعت بصدمة بينما يسرع هو بالمغادرة فليس أمامه الا الابتعاد بينما يقدر، وإلا فهو لن يستطيع منع نفسه..

لن يقدر وسيثير فضيحة أخرى،، وربما يجلط أبيه أو أمه حينها.

المعركة القادمة تحتاج لهدوء نفس وأعصاب جليدية..

شيماء تابعته بذهول.. ولم تشعر إلا بنرجس خلفها تسألها بحنق:

-أرأيتي مافعلت به تلك الساحرة..؟؟ انها تسيطر عليه؟ فهل أنت مستعد لتحرير ابن خالتك واعادته الى أمه؟!

عقدت شيماء حاجبيها وفكرت للحظة..

صوان بالفعل تبدو مسيطرة عليه.. تدير عقله والحزن والألم في قلب الجساس منبعه هي..

-هي لن تتزوجه قط.. هي تكبره عمراً والكثير من الاشياء تمنعها واولهم انني لست راضية أبداً..

ثم أدارتها اليها وقالت بحزم:

-أنت من ارتضاها قلبي زوجة لابني الجساس.. فهل توافقين شيماء؟!

تألقت عينيها الزرقاوتين بعزم وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت:

-نعم خالتي.. أنا أوافق.

ابتسمت نرجس بدهاء.. وضمت ابنة أختها اليها وهي تعترف أن جزءاً يسيراً من خطتها قد نجح.. وبقي الجزء الأكبر والأكثر صعوبة.. الجساس بنفسه.

***

بعد انتهاء الفطور المتأخر.. اجتمع نضال الشيب بابنته سارة وركان كان المجلس بينهما متوتراً، نضال الشيب بجبروت السنوات الفضية يلمع على فوذيه والشاب الأشقر المتفجر حيوية يجلس أمامه بكل ثقة وقوة بينما تقف ابنة الأول وزوجة الأخير في الزاوية تنظر بينهما بقلق ووجل..

-فسـر لي مافعلته سيد ركان؟
قالها نضال ببرود شديد.. لتلتمع العينين الزرقاوتين بذكاء وركان يجيبه:
-لقد رأيت فرصة سانحة عمي، واستغللتها حتى النهاية.
-أريد تفسيراً، وليس اجابة انشائية يافتى.
رد نضال بقسوة ليتنهد ركان و يبدأ:
-الأمر كله بدأ منذ عامين، حين بدأت شهرتي كمصور محترف تنتشر.. وأصبحت العديد من الصحف العالمية تتهافت للتعاقد معي، وكان عرض صحيفتكم هوالافضل فقبلت بها..
ثم نظر الى سارة بطرف عينه.. وعاد لنضال:
-شاهر الباشا علم بالأمر وقد حاول عدة مرات أن يجرني لتوقيع العقود معه لأصبح جاسوساً لشركته ولكنني رفضت، لم يحدث أبداً أن اتفقت مع شاهر، حتى بدأت الصحيفة بالخسارة..
واعتدل في مقعده وهو يستفيض:
-التوزيع لم يعد كماكان، الايرادات أصبحت أقل الصحف الأليكترونية باتت تنافس الجميع، أصبحنا في تراجع، وبدأ عجز يجبر الصحيفة

على تقليص النفقات، وهنا فقط بدأت استمع لشاهر..

-وغد طماع..

همست سارة بحرقة ليحدجها أبيها بنظرة صاعقة جعلتها تبتلع لسانها بينما يواصل ركان متنهداً:

-عرض شاهر كان مناسباً للغاية، الصحيفة احتاجت لمجموعة كمجموعته للنهوض دعم قوي يسند ظهرها، وأنا لم أفعل سوى أنني ساعدتهم للوصول لأصحاب الأسهم المتذمرين من الوضع، شاهر بأمواله استطاع أن يُحكم قبضته على المجلس.. ولكنني لم أمس أسهمكم..

-صحيح ولكن أسهم المجموعة كلها هبطت في البورصة.. وذلك بسببك.

قال نضال ليرد ركان بحماس:

-وعادت لترتفع من جديد انها الادارة الجديدة عماه، لقد ناقشت الكثير مع شاهر في الفترة الماضية وعرفت أن لديه سياسة جديدة ولكنها صدقني سياسة مربحة للغاية، صحيح أنكم خسرتم رئاسة التحرير في الصحيفة ولكن أرباحكم لاتعد ولاتُحصى..

تراجع نضال الشيب في كرسيه وهو يعقد حاجبيه في تفكير عميق بينما يختم ركان دفاعه عن نفسه ويصمت بانتظار ماسيقول عمه والذي كان يفكر ملياً قبل أن يقول:

-بصراحــة أنا لاأهتم بتلك الصحيفة من الأساس.

-أبي؟!!

صرخت سارة بصدمة ليواصل بضجر:

-لقد كانت أمنية توبايا في الماضي حين تزوجنا وأنا حققتها لها، لاأعرف عن الصحافة التجميلية بمكان، لم تهمني يوماً أرباحها ولاحتى خسائرها، والأن هي لابنتي من بعدي..

ثم نهض واقترب من ركان الذي نهض من فوره:

-مادامت ابنتي راضية فأنا كذلك ركان، أرضها يافتى.. وإلا فلن تجد خرماً واحداً للاختباء مني.

ابتلع ركان ريقه ونظر لسارة الغاضبة خلف أبيها بتوتر:

-أريدها أن تعطيني الفرصة فقط، وأنا أعدك أنني سأرضيها.

اومئ نضال ونظر لابنته التي أشاحت بوجهها تخفي خيبة أملها بأبيها الذي لم ينصفها كما أملت والذي قال لها:

-استمعي لزوجك، وتخلي قليلاً عن عنادك.

نظرت له بألم فالتفت لزوجها وقال بصرامة:

-إن لم تستطع تفسير نفسك فلاتفكر أنني قد أقف وأساندك فابنتي فوق كل شيء، افهم هذا جيداً.

-سأفعل عمي.. لاتقلق.

-ممتاز .. لأن قلقي ليس بالشيئ الحسن ركان.

قالها بنبرة جليدية أشعرت ركان بالتقزم مكانه ثم راقبه وهو يخرج من الغرفة وسمع سارة تقول:

-لو ظننت للحظة أنك قد تستغفلني كما فعلت مع أبي....

-اصمتي..

صرخ بها بحنق لتنتفض فيما يقترب منها ويقبض على كتفيها وهو يمعن النظر في عينيها الغائمتين:

-بالله عليكِ ألم تفهمي شيئاً مماقلته لكِ في التو؟ ألم تشعري بشيء من عذابي؟

-ماذا تعني؟

همست بشحوب ليصرخ بها:
-لقد تعرفت عليكِ وأحببتك دون قيود سارة، رغم كل الهمسات التي ثارت بيننا أنكِ تسقطين في فخ المصور المعدم، وأنت سارة الشيب بجلال قدرها..ألم تظني للحظة أنني أشعر بالاستياء من نظراتهم كلهم إلي كمجرد باحث عن الثروة مستغل؟؟ مجرد لص أراد منك لاشيء سوى الثروة والاسم الذي سأحصل اليه ان تزوجتك؟!
-لم يحدث؟؟
-بلى حدث.. أنت فقط كنتِ فوق لدرجة أنك لم تسمعي شيئاً من قمة برجك العاجي ياسلطانة.
اتسعت عينيها بينما يواصل بمرارة:
-أنا كنتُ أسمع الهمسات واللمزات علينا سلطانة، كان الجميع يتعمد إيصالها لي بكل قذارتها، أنا لم أتزوجك لأجل المال، لم أتزوجك لأجل الصحيفة اللعينة، فقد كنت أستطيع الحصول عليها دون اغراق نفسي في غرامك أو توريطها بالزواج.
ارتجفت بين ذراعيه.. قربها أكثر وهمس بصدق:
-أحبك سلطانة، لم أحب في حياتي أي امرأة كما أحببتك أنت فقط.

انسابت دموعها ولم تقاومه حين جذبها بين ذراعيه لتغوص في فئ حضنه وتغلفها رائحته الزكية لتطير صوابها، تنهدت واتمت على صدره تستقي من قوة عضلاته المفتولة، وخفقات قلبه التي هدرت تحت مسامعها بغضب تحول الى سباق جنوني حالما لامسته بحميمية تعقد ذراعيها خلف عنقه وتلاعب أطراف شعره المجعد بينما ينحني بعنقه ليلتقط شفتيها هامساً:

-أحبك مجنونتي، أعشقك ولا أريد سواكِ.

-ركاان.

همست اسمه بضعف قبل أن تبادله القبلة بأحر منها، تدرك أن عليه الكثير والكثير ليفسره ولكنها تقبل، الأن فقط تقبل أن تنظر للأمر من ناحية أخرى،، ناحيته هو.

ابتعد عنها بمقدار ضئيل ليهمس:

-تعالي معي الأن، سأخذكِ بعيداً فقط انا وأنت.

لامست جانب وجهه الحليق وهمست:

-لديك عمل.. وأنا.. أنا عليّ البحث عن واحد.

ضحك مقهقهاً وأحاط بعنقها بكلا كفيه بينما ابهاميه تلامسان الخطوط التي تركتها دموعها على وجنتيها:

-سيكون لديكِ مكان دائم في الصحيفة سارة، أنت محررة اخبار ممتازة وأنا..

-أنا لن أعود للعمل هناك.

هتفت بعصبية ليتنهد بينما تواصل بحنق:

-ليس مع سييرا، وتلك المرأة الغريبة..

-سييرا طُردت من الشركة..

قال ببرود لتتسع عينيها ليبرر:

-لقد كانت سييرا من باع أسرار الشركة كلها لشاهر، وقبل أن تفكري. أنا لم أكن على علم بشيء، لقد تفاجئت مثلك تماماً، ولن أثق بها أبداً مهما يكن.

-وماذا عن تلك الشمطاءالتركية؟

ضحك ملئ شدقيه متجاهلاً نظرتها الغاضبة ثم قال:

-نيـران تخص شخصاً أخر، مابيننا مجرد عمل، ثم توقفي عن هذه الغيرة النسائية الحمقاء..

ولامس وجنتيها بأطراف أصابعه بوله:

-أنت السلطانة معشوقتي، لاأحد مثلك ولايمكن أن أنظر لامرأة بعدك ياحبيبتي.

-هل تعني ماتقول؟؟

همست مذهولة ليومئ بابتسامة عاشقة ثم يلفها بين ذراعيه مجدداً ويغرقها في فيض من غرام متقد لم يهدأ حتى وقت طويل...

***

حين انتهى من اعداد الشاي وقف امام المرآة ينظر الى الكدمة الزرقاء البنفسجية على وجهه، كانت عينه تحسنت، استطاع فتحها واغلاقها وبدأ الورم يخف بشكل كبير، تنهد وحاول تحريك ذراعه، هي تلك المشكلة التي يجب أن يحلها بأسرع وقت، كل مايأمله أن يكون التمزق قد خف وأن يستطيع استخدامها بشكل أفضل، هو لن يقدر على العودة الى عمله بذراع معطوبة بهذا الشكل..

زفر بحنق ثم نظر لساعة الحائط.. مالذي تفعله تلك الفتاة؟

لقد مضت نصف ساعة كاملة منذ أمرها بالذهاب لتغير ثيابها..

حينها سمع الصوت، كان صوتاً مكتوماً يشبه تحطم زجاجة ما، عقد حاجبيه وذهب لرؤية مصدره، ليسمع الصوت مرة أخرى.
كان صادراً من غرفة النوم الرئيسية..
اتسعت عيناه بخشية واقترب مسرعاً يريد الاطمئنان عليها لايعرف لم فكر بأن أحداً ماكان يؤذيها..!!
وهو مالن يسمح به أبداً، فتح الباب بسرعة وخطا الى داخل الغرفة ليتوقف بذهول.
كانت الغرفة كلها مقلوبة رأساً على عقب..
المقاعد المتناثرة مقلبة، كل محتويات طاولة الزينة على الارض، ملابس ترنيم الجديدة كلها تقريباً مرمية على الارض وملابسه هو فوقها، اغطية الفراش كلها على الأرض..
ولا اثر لترنيم..!!
رباااه ليس مجدداً فكر بذعر..
"ترنيييييييييييييم"
صرخ بعنف.. واندفع يبحث في ارجاء الغرفة الواسعة..

حينها شعر بحركة من خلفه.. وقبل أن يلتفت.. شعر بتلك الكرة الصلبة التي ارتطمت برأسه..

"أآآآآآه.."

صرخ بألم واستدار ليلتقي بالعينين الغاضبتين ثم كانت تلك الركلة الغاضبة على قصبة ساقه ليقفز متألماً وهو يصيح بغضب امتزج بالحيرة والدهشة:

"ترنيييييم؟!!"

كانت تشتعل غضباً.. مرارة وحقد..

أرادت قتله في تلك اللحظة في كل اللحظات السابقة..

أرادته أن يتعذب أشد مماكان ..

-أكرهك.. أنا أكرهك.

كانت تضربه بقسوة بكل ماتطاله يديها زجاجات العطر، وسادات حتى طالت حذاء مسنن الكعب أصابه في خاصرته وجعله يتلوى، رباااه انها متملصة خبيرة..

كان يركض خلفها محاولاً السيطرة على نوبة غضبها ولكنها كانت تتملص منه بخفة بالكاد تحني قامتها لتختفي عن عينيه..

-هيييه أنت.. أيتها القزمة المجنونة ..
صاح بحنق وهو يطوح بذاعيه كي يمسكها ولكنها انحنت واندفعت لتقف خلفه ولكن قبل أن تبتعد بمافيه الكفاية كان يلتقط معصمها ويجذبها اليه بقوة وعنف جعلها تصرخ بألم بينما أوس يرفعها بغضب محيطاً خصرها بذراعه بإحكام حتى ماعادت قدميها تلامسان الأرض، وذراعيها تتخبطان في الهواء محاولة الوصول لوجهه وخمشه ليصرخ بها بعنف:
-توقفي ترنيم والا أقسم أن احملك رأساً على عقب، توقفي عن جنونك.
-لا لا .. انتم كلكم سواء، جميعكم يريد التحكم بي ، جميعكم تريدون حبسي ومعاملتي كدمية لاعقل لها.
-ياللهي الرحيم..
زفر بحنق وهو يلقي بها على الفراش العاري وقبل ان تنهض وتفر منه كان يجلس ويحشر ساقيها تحت ساقيه، ويثبت ذراعيها اعلى رأسها بقبضة لاتلين بينما يشرف على جسدها كله بأنفاس غاضبة لاهثة وهو يهدر بغضب اسود:

-هل لي أن أعرف سبب وصلة الجنون هذه؟ مالذي تفعلينه يامجنونة؟؟ لم تتصرفين بهذا الغباء؟

كانت غاضبة.. صدرها الصغير يزفر أنفاساً عنيفة غاضبة متوترة وحارة كالحمم، التي شعرت بها في تلك اللحظة تجيش بداخل عروقها. كانت ترتجف، جسدها ينتفض بفعل الغضب واشياء أخرى كانت تشع من عينيها الجاحظتين بينما يتلوى جسدها للفلات من قبضته القوية المؤلمة.. نظرته الى وجهها جعلته يبتلع ريقه بتوتر..

كانت كمن يدخل في صدمة عصبية..

رباه مالأمر الجلل الذي حطم تماسكها..

-ترنيم..

همس بهدوء قدر امكانه.. رأسها المتخبط منعه من النظر لجوف عينيها المذعورتين، كحيوان صغير وقع في الأسر..

-ترنيمتي..

انظري لي..

همس لها فلم تستجيب.. كانت تقاومه بعنف فزفر يأسه في صرخة مريرة عميقة وأفلت ذراعيها ثم ترك جسده يتهاوى على جسدها .. ذراعه تحيط بها بقوة وتضمها لجسده بقوة وعنف جعلها تصرخ برفض قبل أن تسمع همسته في أذنها:

-لن أتركك.. لن أفلتك أبداً.

-اتركني، دعني أذهب، أنت مثلهم جميعاً..

-لن أتركك لن أفلتك قط.

-أنا اكرهك، أكرهك...

-لست أدري مايجذبني اليك ترنيم، ولكنني لن أتركك ولو قذفتني بأسوأ الشتائم ولو حاربت وقاتلتِ حتى قيام الساعة لن أتركك.

-أنا أكرهك..

-لن أفلتك..

-أنت.. أناا..

تعثرت كلماتها التي امتزجت بدموع غزيرة وهي تعلن كراهيته تارة ورغبتها لأن تتركه، لأن يتركها ويحررها، يطلق سراحها لتفرد جناحيها وتعاود ترحالها بعيداً عنهم..

ولكنه لم يلن، لم يفلتها ولم يعطها على هواها..

-أنا الأن أنتِ.. نحن واحد ترنيم، حيثما أذهب ستكونين معلقة على رقبتي، وحيثما تذهبين ستجدينني هناك قبل أن تطئه قدميكِ ياصغيرتي.
شهقت باكية، وتراخت دفاعاتها حتى ذراعيها ارتمت جوارها على الفراش بلاحول ولاقوة وقد أنهكتها كلماته التي لم تعرف بماتصفها.. جنونها الذي تحكم بها تفلت من عياره وأصابها بلوثة، كل ذلك انتهى الأن.
شعر بها تهمد، مقاومتها الشرسة تنهار وتتركها كجثة، تحرك يرتفع عنها قليلاً، استند على مرفقه ورفع رأسه ينظر اليها..
كانت تشيح بوجهها عنه، يغطيه شعرها الطويل ويخفي عنه ملامح الدموع والألم..
-انظري لي..
استجابت طوعاً ورأى كمية الحزن المطل من عينيها والألم فتنهد وهمس:
-ماباالك ترنيم لم كل هذا؟
شهقت بوجع وعادت للبكاء فنهرها بلطف وهو يعاود ضمها اليه.. وهذه المرة كان يرفع نفسه ويرفعها معه، لتتكور بين ذراعيه وتتعلق بعنقه

وهي ترمي بحملها من الحزن والهموم لصدره الذي استقبلها برحابة، وتركها تفضي جعبتها الى الأخير..

-ألم نقل أن الحزن ينتهي اليوم ترنيم.

-همهم وهو يمسد شعرها بحنو لتهمس بثقل:

-أنا أسفة.. أنا..

-لا بأس عليكي ياجميلتي، ولكنني أريد أن أعرف السبب ترنيم.. أريد معرفة الخطوط الحمراء التي تضعينها كي أبدأ بمحوها خطاً بعد الأخر.. وكأني الأن أتخبط في حدود مظلمة، كيف أعرف ما أقول ومالايجب أن أقوله وأنت لاتخبرينني بشيء.

رفعت عينيها اليه كانت دموعها قد توقفت ليبتسم بحنو:

-أنت تبدين جميلة حين تتوقفين عن البكاء.

-وأنت تبدو بشعاً بهذه الكدمة.

همست مخنوقة ليتنهد بإرتياح:

-جيـــد.. لقد عدتِ لاستخدام لسانك اللاذع اذاً؟

-أســفة.

همست بحرج ووجنتيها تتخضبان بحمرة قانية جعلته يقهقه بمرح ثم يسألها:
-أتنوين إخباري الأن ماسبب لوثة الجنون التي كلفتنا جهازك الجميل وكل ملابسي تقريباً؟
خفضت عينيها فرفع رأسها بحزم اليه ونظر لها بحنان:
-تكلمي ترنيم، لاتخشي شيئاً ابداً ولاتخجلي من قول شيء لي مهما كان.
ابتلعت ريقها وهي تحاول ان تتحكم بضربات قلبها التي تتخبط بفعل خوفها وحرجها من بقائها بهذا الشكل بين ذراعيه.. ثم عادت لتفكر أنها زوجته.. وهو كله لها مثل ماهي له..
وجد عينيها ترتفعان له بنظرة جديدة، عميقة وقد اختفت خطوب الحزن منها ولمعت بشكل مثير، ذراعيها تنخفض وتستند على صدره بينما تهمس برقة:
-أنت السبب.
رفع حاجبه وقال بتوتر:
-أعرف أنني السبب، فقط اخبريني مافعلت؟ واعدك انني سأعاقب نفسي كماترغبين.

ابتلعت ريقها ثم قالت وهي تنظر له بثبات:
-حين أمرتني بتغيير ثوبي.
عقد حاجبيه فاستمرت بهدوء شديد:
-أخر رجل أمرني بشيء كان هو ابي، وكان أمره أن أتزوج منك.. أعرف أن الامران ليسا سيان أوس، ولكنني لم أتمالك سوى المقارنة بينكما.
-كيف؟
تسائل بخشونة.. لتنهض.. وتركها تفعل..
وحينها انتبه لماترتديه..
واتسعت عيناه بذهول.. كانت ترتدي ثوباً قصيراً بلون الشمام، بحواشي سوداء، فتحة عنق مثلثة عميقة تنتهي بربطة ناعمة بحرير أسود، كمين واسعين بالكاد لامسا منتصف ذراعيها فيما تراقصت تنورة الثوب الحريرية حول ساقيها بنعومة..
-لقد أمرتني ما أرتدي، شيئاً لم تفعله حتى أمي منذ كنت طفلة.. لم افهم في البداية.. ظننت أنني موافقة وفعلت ماأمرت.. ثم وقفت هنا..
وتقدمت حتى المرآة ووقفت تتامل نفسها بشرود..

-رأيت نفسي.. حقيقة رأيتها.. مجرد فتاة بلاحول لها ولاقوة، كلما قفز رجل الى حياتها يأمرها بفعل مايريد تقفز طائعة تنفذ كل مايقوله، في البداية كان أبي.. ثم أنت..

نهض ليقترب منها .. فواصلت وهي ترى انعكاسه في المرآة:

-أنت أخذت الراية من أبي.. لقد قاومت لسنوات بعد تحرري أخيراً منه ومن كل أوامره، ثم أتيت أنت، وبسببك عدتُ الى دائرة الجواري، عدتُ لأصبح عبدة لنزوات أبي ورغباته، شعرت أنني معك سأبتعد وهذه المرة هو لن يقدر على أن يأمرني،، لن يستطيع إيذائي.

عاد صوتها للتحشرج فاقترب أكثر وقبض على كتفها بقوة وهي تقول:

-ثم أمرتني أنت بكل غرور ووقاحة، أن ارتدي ماتريد.. أن أكون كما تريد.. ولكن.. أنا.. أنا

واختنقت كلماتها ليسرع أوس بإدارتها نحوه وهو يهتف:

-أنا لستُ أبيكِ.. افهمي هذا ترنيم، لست رجلاً اعتاد فرض رأيه على النساء ليس ضعفاً مني

ولكن قوة، لن امرك بشيء لاتريدينه قط ولم يكن هذا ماعنيته ابداً..

لانت نظرتها المتهمة وهو يهزها برفق:

-أردتك أن تخرجي من هذه اللباس المقيد، الاسود الذي يشق رأسي نصفين ويثير فيا الغضب. لا أريد أن أراكِ في لباس حزن ترنيم، أريدك قوية .. جميلة وحيوية.. أردت أن أساعدك ليس إلا.

-أعرف.. الأن فقط أنا أعرف.

همست بعينين متسعتين بإدراك .. ليبتسم ويقترب منها ثم يحيط ذقنها بأصابعه بإحكام:

-هل تثقين بي؟

ترددت للحظة قبل أن تهز رأسها.. بنعم.. لتتسع ابتسامته ويميل نحوها ثم يتوقف امام شفتيها ويهمس:

-أريد تقبيلك ترنيم.. فهل توافقين؟

احتقن وجهها وتراجعت بخجل تشعر بالدماء تحترق في عروقها ولكنه لم يسمح بإبتعادها.. بل احاطها بذراعه وغمغم:

-ألاتريدين؟؟

تمنعت بدلال وهي تحاول دفعه عنها بقبضتين متساهلتين ليضحك بسرور ثم يشدد من قبضته ويخفض رأسه ليقتنص منها شفتيها بقوة دون إذن..

لتتسمر هي بإندهاش عينيها متسعتين بينما يبتعد أوس بإبتسامة ذئبية شرسة تلتمع في عينيه:

-لن أطلب الإذن في كل مرة ترنيم، اليوم فقط.. ثم سأخذ حقي.. كاملاً دون نقصان..

-أووووس..

همهمت مخنوقة ليهمس بخبث:

-لاتتذمري ياجميلتي.. أعرف مدى استعجالك ولكني بذراع واحدة تقريباً امنحيني بعض الوقت ثم لن أدع لكِ المجال للتذمر صدقيني..

اتسعت عينيها بذهول والغيظ يغسلها وهي تصرخ:

-أنا.. أنا لم.. أيها الوغد..

-مممم.. لذيذة... الشتائم من بين هاتين الشفتين كمذاق العسل.. والشوكولا والقهوة المحلاة..كم اتوق لتذوقها من جديد مرة بعد مرة .. بعد..

-تووقف..

صرخت بغيظ اشد من الاحراج ليضحك عالياً ثم تسكته النظرة التي عادت للظهور في عينيها .. نظرة الضعف والالم:

-هل ستتركني في يوم؟

نظر اليها أوس بحيرة وتسائل مزيحاً خصلات شعرها عن جانب وجهها:

-ماذا تعنين ترنيم؟

لتجيب مباشرة وبلهفة:

-أعني كما أمرك والدي أن تتزوجني وقبلت.. هل ستتركني اذا ما أمرك بهذا؟ هل ستقبل؟ هل ستتركني وترحل؟

-لا بالطبع لن افعل..

اجاب بعنف لتسأله بخفوت:

-ومالذي سيمنعك؟

-وعدي.

رد بحسم.. لتتسع عيناها فيقترب ويضع جبينه على جبينها هامساً بحزم:

-لقد وعدتك أن اضل الى جوارك واحميكِ، والأن أنا أكرر وعدي ترنيم..

وشدد من وقع كلماته:

-لن يجبرني أحد على الرحيل، لا والدك.. ولا والدي.. ولاحتى أنت، واذا مافكرتِ أنت بالرحيل عني يوماً، حينها فقط سأفكر، ولا أعدك أنني سأوافق ترنيم.. فقد وعدت وعد الذئاب.. وليس الذئب من يخلف وعده..

حينها ابتسمت له.. عيناه أخبرتها بصدقه.. بطريقة لم تعرفها يوماً، ارتمت على صدره وتنشقت أنفاسه الهادئة التي تسللت عبر شرايينها لتنعش قلبها وتدرك أنها وضعت ثقتها بين يديه وأنها ولأول مرة منذ سنوات تشعر بان لها ظهراً قوياً يسندها ويحميها..

أخيراً أدركت.. أنها ليست وحدها.. نهائياً.

نهاية الفصل

***

الجُذوَةُ : الجمرَةُ المُلْتهبَة، كلُّ قطعة ملتهبة مادِّيًّا أو معنويًّا ، جمرة ملتهبة ، قطعة من النَّار

الخَوَّارُ من الجمال : الرقيقُ الحَسن.

***

ترنيـــمة عـــــذاب

الفصل الثاني عشر

***

حين سرقنا من زمن الحبِ لحظةً
اقتنينا بها الدنيا التي أضعناها
افترشنا أرضها زهوراً ومضينا على دروبها سروراً
راقصنا الفرح جنوناً
وسهرنا ليلاً حالكاً نرافق نجوماً
وودعنا شمساً غاربةً نزولاً
ثم أفقنـــــا..
على واقعٍ مجنونٍ وعيّـنا
بوسٍ مريرٍ اجتررنا
وشبحَ موتٍ يحومُ علّهُ من قسوتِنا يسرقنا!!

***

وقفا معاً يداً بيــد يتابعان أخر فرد من الضيوف يغادر صالة الاستقبال الواسعة التي فُرشت ببذخ لاستضافة السلاطين من أنحاء العالم في الفطور المتأخر الذي أقامته للاحتفال بصبحية ابنها الذي لم تلده، واحتفاءاً بالعائلة المترامية الأطراف والتي جاء أفرادها من أقاصي الأرض للمشاركة بهكذا احتفال.

وابتسمت بإرهاق وهي تستند على كتف زوجها الذي أحاط بها بحنو وهو يسأل:

-متعبة؟

-للغاية.. أنا لم أنم ليلة البارحة كمايجب وها أنا ذا.. أقف على ساقي منذ العاشرة صباحاً، ولكن الفطور كان ناجحاً أليس كذلك حبيبي؟

-لاشيء تقومين به يفشل يافاطمة، كل شيء يستقي منكِ كماله وروعته..

همس بحب لتضحك بمرح وتعانق ذراعه ثم يتجهان معاً نحو المخارج الخلفية للقاعة حيث تقود الى الأجنحة الداخلية للفندق بينما فاطمة تهمس:

-لله الحمد، حفلة البارحة كانت جيدة جداً لولا ختامها المحرج، أتصدق أن والدة العروس اتهمتني أننا نهدف لإحراج عائلتها لولا أن قامت لها صوان وشرحت لها بهدوء أن أوس متعب ومصاب، ولابد أنه يريد الراحة وإلا مافكر قط بمافعل.

ضحك حسن بمرح وتلون وجهه باحمر قانٍ:

-أوس هذا نسخة من أبيه، ألاتذكرين مافعله بزفافه من توبايا؟

جعدت فاطمة أنفها وهمست بحنق:

-ومن ينسى؟؟ لقد تركنا ننتظر في قاعة الاحتفال كالحمقى لساعات وبعد أن كدنا نبلغ الشرطة لاختفاء العروسين اتصل بسلطان أخيراً ليخبره أنه قد أخذ فتاته وهما في منتصف الطريق الى اليونان..

قهقه حسن بمرح:

-نضال المجنون لطالما كان عاشقاً ميئوس منه، وقد أورث هذه الخصال السيئة لأولاده من بعده..

ابتسمت بحنو ونظرت له بفخر:

-رغم انك الأخ الأصغر ومن المفروض أن تكون خصال الجنون مرهونة بك عزيزي إلا أنك أكثر أخوتك تعقلاً وحكمة، أكثرهم طيبة ونقاء..

-أنت تقولين هذا فقط لأنك تحبينني، أنت لست حكماً عادلاً.

ردد بحرج لتضحك ولاتعلق فهي خير من يعرف أن طيبته ونقاء سريرته يمنعانه من تقبل الاطراء

بطريقة واضحة وعلنية، وأن إحراجه يؤثر عليه في كل مرة.

-أخبرني هل تحدثت مع صوّان؟

كانا في طريقهما عبر الرواق الى جناحهما حين تنهد حسن واومأ برأسه لتتنهد وتدعك رأسها بألم هامسة:

-هل رفضت؟

-لم أعطها الفرصة، لقد طلبتُ منها التفكير جيداً وتركتها قبل أن تخيب رجائي للمرة التي لا أستطيع احصائها.

تركته يفتح باب الجناح وهي تبتلع تعليقاً لاذعاً حتى احتواهما جناحهما بعزلة فهتفت بحنق:

-أرأيت مافعله السلطان؟ لم أصر على بقائها على تلك الطاولة مع الجساس ونرجس؟

-فاطمــة.

قال بتحذير لتهمس بألم:

-صوان ابنتي ياحسن، ولاتظن للحظة أنني أجهل مايحدث.. حبها هي والجساس محكوم عليه بالاعدام طالما رفضت أمه وطالما أصرت صوان على موافقتها هي أولاً.. تلك المرأة لن

ترحب بابنتي كزوجة لابنها ورغم حبي للجساس فأنا لن أسكت على مايحدث.

-اعرف عزيزتي ولكن ماباليد حيلة.

-بلى هناك..

صرخت بإعتراض ثم اقتربت منه وكان قد جلس لأحد المقاعد لتجلس أمامه على الارض على ركبتيها بينما ذراعيها على مسند المقعد:

-أخبر السلطان الكف عن محاولات التقريب بين ابنه وابنتي كي يكيد النرجس، أخبره أن صوان ليست لعبة يتداولها بينه وبين المرأة التي تخلت عنه.

-سلطان لايفكر هكذا.

صاح حسن بغضب لتصر:

-بلى، أعرف تماماً مشاعر الجساس ولكن سلطان أخوك تفكيره ينحصر في كيفية رد الصفعة التي أعطته اياها النرجس منذ سنوات، وهو سيفعل ذلك محاولاً استغلال ابنتي، صوان ليست غبية ياحسن، هي تدرك محاولات عمها وترفضها ولذا ترفض الجساس..

-الأمر أكبر من هذا بكثير.. لا أظن أن رفض الصوانة يتعلق بالمشاكل بين عمها وزوجته.

هتف حسن بإستنكار لتهتف بحنق:

-قد لايتعلق الامر كله بهذا ولكنه جزء كبير منه، صدقني حسن، أناأعرف ابنتي جيداً.

-مالذي تريدينه اذاً فاطمة؟

تسائل حسن بحنق لتجيبه بتوسل:

-أريد أن أرى ابنتي الوحيدة عروساً ترفل بالأبيض..أريد أن أراها سعيدة مع رجل يقدر قيمتها ويحميها ويهتم بها، أريد ان أرى أحفادي حسن.. أريد ان أراهم قبل أن..

تعلقت عبارتها بالهواء وتحشرج صوتها لينتفض ويجذبها لتجلس على ركبتيه وهو يصيح بحنق:

-توقفي عن هذا الهراء، لاشيء سيحدث لكِ.. هل تشعرين بأي شيء؟ هل .. هل ..

وتحشرج سؤاله لتقاطعه:

-حسسسن..

همست بألم وارتمت بين ذراعيه ليضمها بقوة وهو يقاوم الغصة التي حلقت قريبة من حلقه

ومنعت منه التعبير لفترة طويلة، كان يحاول أن يمنع ارتجافتها والتي تدل بوضوح أنها تبكي!
-أنا أم ياحسن، ولن يهدأ لي بال أبداً حتى أرى ابنتي مستقرة في بيتها مع رجل يحبها ويحترمها.
ابتلع ريقه بصعوبة:
-لابأس فاطمة، فطومتي..
دللها محاولاً الخروج من نقاشهما البائس.. رفع وجهها اليه ونظر في عينيها الداكنتين هامساً:
-لاتقلقي ياطومتي.. أنا ساتكفل بعقل صوان الحجري.
-أريد جساس أن يرحل..
همست برجاء ليغمض الرجل عينيه فتهمس:
-طالما هو قريب منها، صوان لن توافق، هي ترفضه وبالوقت نفسه ترفض كل من سواه.
-سأقنعها.. لاتقلقي.. ولكن جساس..
تردد بتوتر لتصر:
-أنت لن تحب الجساس بأكثر مما أفعل أنا، أنا ربيته منذ كان طفلاً، ولكنها ابنتنا حسن، ابنتنا الوحيدة.. وأنت رأيت نرجس واحضارها قريبتها

تلك معلنة بصراحة أنها تريدها لجساس واضح وجلي.

-سلطان يريد صوان لجساس..

نهضت بحدة صارخة:

-أنا لن أترك ابنتي بيدقاً في صراع السلطان مع زوجته المتمردة.. أنا لن أسكت عن هذا أتفهم؟

-لاتصرخي بوجهي فاطمة، ماذا دهاكِ؟!

دمدم حسن بغضب مكتوم ليحتقن وجه فاطمة وتشيح عنه:

-إن لم تفعل أنت شيئاً بهذا الخصوص، فأنا من سيتصرف.

-لاتكوني متسرعة، سنعود الى ديارنا بعد ساعات وحينها..

-حينها أنا من سيتصرف.

هتفت بقوة وواجهته:

-ابنتي.. ستتزوج قبل نهاية هذا الشهر ياحسن.. وإلا فلن أكون فاطمة السياف أتفهم يا ابن السـلاطين.

وقبل أن يرد عليها كانت تسرع نحو غرفة النوم قائلة بحزم:

-سأكمل حزم الأغراض وأنت بإستطاعتك مشاهدة التلفاز.

***

ياقلبي خبي ليبان عليه .. ويشوف حبيبي دموع عنيه
خليه بعيد خليه سعيد .. دا مش نصيبي لكن حبيبي

...

تسهر عيوني الليل .. وعيونه يرتاحوا
وأنسى الأسى والويل .. وأفرح لأفراحه

...

لامست أصابعها السلسلة التي تحمل المحبس الذهبي، بشرود وشفتيها تدندنان الأغنية الحزينة بشجن.. ظهر جلياً من عينيها بينما تتابع طائراً منشغل ببناء عش قريب من نافذة الغرفة التي تشغلها في الفندق، كانت قد حزمت حقيبتها واستعدت للعودة حالما يحين موعد الانطلاق..
لاتزال كلمات جساس التي وصفها بها تطرق مسامعها ولن تغادر مخيلتها مهما حدث، طيلة

حياتها وحتى مماتها ستظل تتذكر كلماته المحملة شوقاً وغراماً ذائباً لم يخفى عن الكل.
اغمضت عينيها وقبضت على السلسال وتذكرت..
كانت في التاسعة عشر..عيد ميلادها..
ابتعدت عن الجميع وجلست تحت جذع شجرة قديم، تنتظره كعادتهما منذ سنوات..
-هل تأخرت؟
سمعت صوته لتنتفض واقفة وقلبها يثب من عينيها بينما تتراقص نبضاته وارتجافة لذيذة تمر عبره، عينيه كانتا تحكي عن حبه اللامحدود، حتى في ذلك العمر اليافع.. لم يكن قد قالها قط من قبل.. ولكنها تراها في عينيه وتتقبلها ببساطة..
-جساس..
-لبيـــــه.
قفز اليها وابتسامته تتسع.. كان طويلاً عنها عريض المنكبين، عيناه تتألقان بجنون، وابتسامة حانية تتلاعب على فمه، وهي وقفت امامه بثوب طويل وحجاب ناعم يغطي شعرها وعنقها:

-أحضرت لكِ هدية.
ارتفع حاجبيها بتساؤل وهمست بخجل:
-لقد أهديتني.. الشوكولاتة والازهار وتلك البالونات الطائرة..
-هذا شيء أخر..
همس مقاطعاً.. لتحبس أنفاسها بإنبهار وهي تراه يركع على ركبته أمامها وبيد ثابتة يخرج علبة مجوهرات مربعة صغيرة الحجم..
-جســـاس..
همست بشحوب ليغمز لها بعينه بخفة ويفتح العلبة امام عينيها هامساً:
-أعرف أن الوقت مبكر، صوانتي، ولكنني أعرف أن فتاة بمثل جمالك لن تبقى دون خُطـــاب ياجميلتي.. ولذا.. ارتدي خاتمي، دعي العالم كله يعرف أنكِ لي.
تلونت وجنتيها بحمرة قانية وهمست مخنوقة:
-سأرفض، مهما أتو سأرفض..
نهض بسرعة حتى كادت تتعثر للوراء حين أصبح اقرب من اي وقت:

-لن أحتمل أن يفكر أحد ما بكِ صوانة، مجرد التفكير سيصيبني بالجنون ياملیكتي، أنت لي.. ولن أسمح لأحد أن يفكر بكِ.

ابتسمت بخجل وشعر هو بخجلها، اقترب أكثر، حتى انتقلت حرارتها اليه فأشاحت عنه بخفر ليميل يهمس بمداعبة:

-أنا أشتريت خاتماً لي أيضاً، فكماتعرفين.. الفتيات حولي...

-سأفقئ أعينهن..

صرخت بوحشية وهي تستدير وتنظر اليه لينفجر ضاحكاً وهو يقول:

-هذه فتاتي..

تضرج وجهها محتقناً وأثرت الابتعاد ولكنه لم يسمح لها، قبض على معصمها بقوة وقربها منه:

-أحبك صون.. أحبك ياجمر روحي المشتعل.

-جساس...

همست بخفر وأرادت الافلات هامسة بتوتر:

-قد يرانا أحد.. سيف.. أووس.. قد يأتي أوس.

-أنت ستكونين زوجتي.. وأوس هذا بالذاااات.. سأخذك من بين يديه وأخرج له لساني ..

هتف بحنق لتضحك رغماً عنها:
-لاتتصرف كالأطفال..
غامت عيناه بمشاعر عنيفة وتسللت ذراعه بقسوة لتحيط خصرها وتقربها منه ليرتطم صدرها بصدره هاتفاً لها بخشونة وشفتيه على بعد شعرات من شفتيها:
-لقد احترت معكِ صوان، إن لم تعجبك تصرفات الأطفال.. لربما تصرفات الرجال تروقكِ؟؟
-مجنـــــــــون..
دفعته برعب ليضحك ويرفع الخواتم دون ان يفلتها:
-خذي خاتمي وألبسيني اياااه فوراً..
زفرت وتلفتت حولها بخوف، ثم التقطت الخاتم الفضي وأدخلته لبنصره الأيمن مراقبة كيف شعت السعادة من عينيه ثم اكتملت ببهجة صافية وهو يلتقط المحبس الذهبي ويدفعه في أصبعها هي الأخرى..
-أنت الأن لي ياحبيبتي..
همس بثقل لتبتسم وتجيبه مغيبة بالعاطفة:
-كنت وسأظل لك الى الأبد حبيبي...

....
منايا كل المنى .. أشوفه متهني
فرحان في نور الهنى .. لو بعيد عني
خليه بعيد .. خليه سعيد

...
-هل قاطعتك؟!
انتفض صوان بذهول والتفتت بسرعة نحو مصدر الصوت، تأملت المرأة الواقفة بعلياء وأنفة، بشيء من الخوف والرهبة، أصابعها تنقبض حول المحبس بذعر فيما عينيها تتأملان النظرة القاسية والتي أرسلت رجفة عبر اعصابها لتصيب جسدها بالكامل، تلك كانت نرجس.. والدة جساس.
-طرقت الباب عدة مرات ولم يجبني أحد، كنت أعرف أنك بالداخل وأنا مستعجلة فعلاً فلدي طائرة للحاق بها.
قالت بهدوء جعل صوان تخرج من ذهولها بينما فمها ينطق بالكلمات دون أن يستشير أحد:
-أنت مرحب بكِ عمتي، تفضلي.

-لن أخذ من وقتك فأنت كذلك كمايبدو على استعداد للرحيل.
كانت تتكلم وعينيها على الحقيبة المركونة قرب الباب ولم ترد الصوان بل تسمرت بإنتظار ماسيكون من هذه الزيارة غير المتوقعة، لتتقدم النرجس وتقف أمامها وتنظر في عينيها قائلة ببرود شديد:
-لاتظني أنني حمقاء صوان، ولاأعرف مادعا سلطان ليدعوكِ لطاولتنا..
ابتلعت صوان ريقها وعينيها تتسعان، نرجس لم تتحدث معها بتلك الطريقة منذ سنوات.. منذ ست سنوات على وجه الدقة...
-لقد كانت حركة بغيظة ومكشوفة للجميع، ولكنني لن أسمح له ولا لكِ ولاحتى جساس نفســه أن يحطم مابنيته لسنوات ماضية..
-أنا.. عمتي انا..
حاولت صوان ولكن نرجس لم تمهلها بل قاطعتها بقسوة:

-أنت ستبتعدين عن الجساس، أظن أن اتفاقنا واضح ولاتشوبه شائبة، ستبتعدين عنه وتتركينه يتزوج الفتاة التي اخترتها له، أتفهمين؟!

شحب وجه صوان حتى كاد يحاكي وجوه الموتى .. وتراجعت لتتشبث بإطار النافذة واصابعها تلتف حوله بقوة تحاول عدم الوقوع.. يكفيها اذلالاً.. يكفيها..

-شيماء ستكون نعم الزوجة للجساس، هي صغيرة السن.. ناعمة وجميلة للغاية.. ألاتظنين؟!

رفعت عينين مريرتين للقاء عيني المرأة الأكبر وقلبها يطعنها بكلمات كصغيرة.. ناعمة جميلة..!!..

نعم.. تلك مواصفات فتاة الأحلام فلمَ تضنّ على جساس الحصول عليها..!!

-أنا لم يعجبني ماقاله على الطاولة، لقد أزعج الشيماء كثيراً.. رغم أنها من سألته وذلك كله بسببك.

دمدمت نرجس بحنق ثم نظرت لها وقالت بشراسة:

-لقد كادت المسكينة ان تقتل نفسها من فرط البكاء.. إياكِ صوّان إياك أن تقومي بمثل هذه الحيل الرخيصة من جديد، إنها لاتليق بمركزك ولاحتى سنك.

خفضت صوان عينيها بذهول، والإهانة تعصف بها من كل جانب بينما تقول نرجس بتوتر:

-لاتجعلي من نفسك أضحوكة، وكفي عن الركض خلف الفتى، ابحثي عن رجل بمثل عمرك أو ربما يكبرك.. ظننت أنكِ تخلصتِ من حب الفتية الصغار منذ زمن ولكنكِ لم تكبري ابداً..

اغمضت صوان عينيها بقهر وداخلها يصرخ بوجع..

والذكريات الماضية تهاجمها دون رحمة.. الاهانات .. السخرية..

المرارة التي ذاقتها والألم الحارق الذي سبب لها الكثير والكثير من الكوابيس..

-هل ستكبرين صوان؟ هل ستكبر رغباتك بمستوى عمرك أم تظليـن..

-هذا يكفي..

صرخت بإنهيار لتبتسم نرجس بظفر..
تعرف النظرة التي تطل من عينيها.. بعد الخواء الذي واجهها وربما اللامبالاة ولكن الان، الصوانة تعرضت من جديد للاهانة.. وهي لن تسكت.. وان كانت قد ابتعدت عن الجساس للسنوات الست الماضية فهذه المرة ستبتعد للابد وستحرص نرجس على هذا..
-انا لا أريد ابنكِ. لا أريد الارتباط به وقد قلت له هذا مليون مرة، لقد طردته من حياتي، وحاولت المضي بها قدماً ولكنه يقف دائماً بطريقي.
صرخت صوان كحيوان جريح.. لتقترب نرجس:
-أنا كفيلة بإبعاده.. سأخذه بعيداً ولن تسمعي منه ولكنني أريده أن ييأس منك.. أريد لأمله أن ينقطع.
صرخت تبتغي الخلاص:
-أنا سأتزوج. اقرب مماتظنين سأتمم كل شيء.. وأريده ألايعرف.. هو لن يعرف بالأمر حتى أصبح زوجة لغيره.
تألقت عينا النرجس بسرور وصوان تهتف بأنين محتظر:

-فقط خذيه وابعديه عني، أنا سأصبح زوجة لرجل سواه وحينها افعلي ماتريدين.
-ممتـــاز..
قالت ببرود ثم مدت يدها تمعن في الألم:
-اعطني المحبس..
تراجعت صوان بذعر.. اصابعها تلتف حول محبسها بقوة ورأسها يتحرك يمنة ويساراً لتهتف نرجس:
-لاتخفيه صوان، أعرف أن محبسه لايزال حول عنقك منذ أن خلعتيه المرة الماضية، أنت لن تتزوجي رجلاً ولازلت تنتمين لإبني صوان، تحرري منه، تخلصي من الشيء الوحيد الذي يربطكِ به يافتاة.. كوني قوية..
"كل شيء يربطني به.. كلي ينتمي اليه فكيف؟؟ كيف السبيل الى الهروب؟"
شعرت بنرجس تقترب.. شعرت بالوخزة المؤلمة على عنقها وراقبت بعينين مذهولتين كيف انساب السلسال الذهبي على الأرض بينما تخلص نرجس المحبس وتخفيه في حقيبتها وتتراجع قائلة:

-حاولي ان تتممي الزواج بأسرع وقت ممكن صوان.. أريد أن أزوجه للشيماء قبل نهاية هذا الموسم.

راقبتها صوان بخواء..

تتراجع حتى اختفت من أمامها وتهاوت بعدها..

التوت ساقيها تحتها وغامت عينيها بحزنها وانهمرت دموعها تولول وتنعي حبها الذي استباحته يد الشياطين فمزقته كل ممزقٍ وأهدرت كرامته بلاحساب.

لقد كانت تشك وتحاول ألا تدمر حبها بشتى الطرق، ولكن ذاك الزمن قد انتهى .. الحب قد انتهى.

***

راقب نضال الشيب الحقائب توضع في السيارة وابتسم لزوجته التي اقترب واندست تحت ذراعه ثم تهللت أساريره لرؤية ابنته التي اقتربت تكاد تطير من الفرحة الغامرة وهي تعانقه هاتفة:

-سأشتاق لك بابا.. تعال الى روما حالما تستطيع، حسنـــاً؟

-بالتأكيد ياصغيرة..لاتقلقي، سأآتي للاطمئنان عليكِ..

ونظر لبطنها المسطحة قائلاً بفخر:

-سأطمئن على حفيـدي..

اتسعت عينيها وأشارت له بالسكوت بينما ركان يقترب من خلفها ليبتسم والدها ويغمزها بمرح ثم التفت لركان الذي تقدم يحمل حقيبتها وأشار له بأصبعه بتهديد:

-سأكون عيناً ساهرة عليكما من بعيد، احذر من غضب السلطانة باشـا، هي كل حياتي.

-حقاً وماذا عن أمها؟

هتفت توبايا بحنق ليضحك ركان وهو يرى ارتباك نضال وهو يحاول التفسير لزوجته الغيور ثم التفت لسارة وجذبها من ذراعها:

-تعالي سنتأخر..

اشارت لسيارة والدها وهمست:

-سنذهب معهما للمطار.

-نحن لن نذهب للمطار سلطانة..

عقدت حاجبيها بتساؤل فضحك وسحبها خلفه بعيداً عن المتشاحنين، أعطى الحقيبة لأحد العمال

ثم أحاطها بذراعه بتملك ومضى بها الى الرصيف الخلفي للفندق الذي يطل على الشاطئ..\

-ركاان الى أين نذهب؟

تسائلت بتوتر ليتلاعب لها بحاجبيه قبل أن يدفعها برفق نحو الرصيف وتجد زورقاً بحرياً صغيراً ووجدت حقائبهما قد وضعت عليه..

-أين تأخذني؟

عادت تسأل ليقهقه:

-كما هي عادتك.. لاتستطيعين الصبر، ولكنكِ لن تستطيعي أن تأخذي مني أي اعتراف اليوم.. تعالي.

وضعها على الزروق وطلب من قائده أن يسرع بهما، كانت مشدوهة ومتشوقة.. والزورق الصغير يبتعد بهما عن الرصيف الى منطقة أكثر عمقاً.. تأملت كان واللهفة في عينيها وهي ترى نظرة الحب الخالصة في عينيه بينما يرتجف قلبها في استجابة فطرية جعلتها تذوب ليسندها بجسده قبل ان يشير لها نحو الافق:

-انظري..

رفعت عينيها لتلتقي بأشرعة ضخمة لمركب رائع يبحر وحيداً..

-ماهذا؟! هذا.. هذا المركب لمن؟

نظرت له باستغراب ليجيبها بإبتسامة:

-لنـــا ... مؤقتاً.

-ماذا تعني؟ ألن نعود ل روما؟؟

-بلى ولكننا لن نعود بالطائرة..

غمغم بهدوء واصابعه تلتف حول أصابعها وترفعها الى شفتيه.. وبينما تشهق بإنفعال يقبل هو كل أصبع على حدة هامساً:

-أنا وأنت فقط.. في طريقنا نحو روما..عشرة أيامٍ في الجنة..

اتسعت عينيها بإنبهار وصاحت بفرح:

-اووه ركان، لطالما أردت القيام برحلة بحرية معك حبيبي..

ابتسم بغرور واومأ بإدراك:

-أعرف.. وأنا كانت هذه رغبتي كذلك.. وهاالأن لقد ابتدئنا..

صفقت بكفيها جذلة كالأطفال بينما يشرح لها ركان كيف ستسير رحلتهم عبر البحر الأحمر

مروراً بجدة في السعودية ثم ميناء العقبة ومنها الى الأبيض المتوسط مروراً بتركيا ومنها الى روما..

تسائلت بقلق:

-وهل ستكفي الأيام العشرة؟

-نحن سنبحر بلاتوقف.. وإن حدث ولم تكفي..

رد بثقة ثم التفت لها بابتسامة:

-نمددها عشراً أخرى..

-أنا أحبك.

همست بفرح وهي تقفز لتتعلق بعنقه فيضحك مقهقهاً وهو يرفعها حتى أحاطت ساقيها بخصره وتعلقت به كالأطفال وهتفت بحماس:

-لاأستطيع أن أصدق، أخر رحلة قمت بها كنت مع أوس الغليظ.. لقد تركني في مونتريال وابحر وحده بحجة تأخري في التسوق، ذلك البغيظ.

ضحك ركان وهز رأسه:

-لاتقلقي.. فأنا لن أتركلكِ أبداً، ومن الأساس أنت ليس مسموحاً لكِ بمغادرة المركب حتى وصولنا الى روما أيتها المشاغبة.

ابتسمت بدلال واقتربت تلامس وجنته بشفتيها:

-بالطبع ستسمح لي بالتسوق.. لن تكون قاسياً الى هذه الدرجة ركان..

رفع حاجبه وهمس:

-جربيني.

تألق العناد في عينيها وهمست قريبة من أذنه:

سأقنعـك بطريقتي.

اشتدت قبضته حولها وخطف نفساً سريعاً لتبتسم بثقة وتعاود همسها:

-متى سنصل الى المركب.. أريد أن أقنعك بأسرع وقت..

رفت عينه بنظرة سريعة وقاس المسافة بين الزورق والمركب ويأمر قائد الزورق بالتوقف، قبل أن يبتسم بشيطنة وقبل أن تفهم وتدرك ماينتويه كان يرفعها بين ذراعيه كالدمى ومتجاهلاً عينيها المتسعتين بذعر حين كشفت نواياه وصراخها المهدد بالويل والثبور وهو يحملها ضاحكاً ويرمي بها الى الموج المتلاطم!!

سمع صرختها المدوية قبل ارتطامها بالموج واتسعت عيناه بذهول..

-أنا حاااامل أيها المجنووون..

ولم تكد صرختها تختفي وتبتلعها الأمواج حتى كان قد تخلص من قميصه البحري الخفيف وحذائه الرياضي وكان يقفز خلفها مثبتاً جنونه اللامحدود..

***

اغلق سيف هاتفه بإبتسامة مشتاقة بعد مكالمة قصيرة مع سلمى يبلغها أنه في الطريق اليهم، واستعد لركوب سيارته في موقف الفندق حين توقفت امامه سيارتين دفع رباعي نزل منها عدة اشخاص تعرف سيف بسرعة على اثنين منهم، الحراسة الخاصة بمختار الراجي، ثم رأى مختار بنفسه يترجل من احداها ويتوجه اليه بإبتسامة لزجة، هذا الرجل لن يعجبه ولو وقف على رأسه..

-صباح الخير سلطـــان..

-انه المساء سيد مختار، أي ريحٍ طيبة جائت بك الي؟

اختصر سيف دون مقدمات ليتغضن وجه الرجل بحنق، ويسارع بالدخول في موضوعه دون مهاترات:

-أريـــد ابنتي.
اتسعت عينا سيف وهتف بإنزعاج:
-ماذا؟!
رفع مختار حاجبه وقال بصلف:
-أريد أن أعرف أين أخذها ابن عمك؟ لقد خطفها البارحة ولانعرف الى أين؟؟ ثم أنه لم يأتي لزيارة أمها في الصباح كعوائدنا، والفتاة هاتفها مغلق وأمها جُنت تقريباً وستصيبني بالجنون.. أنت تعرف كيف هن الأمهات.
تنهد سيف ولعن أوس الأحمق بداخله بينما مختار يواصل:
-نحن لانعرف أين يقع منزله؟ حتى رقم هاتفه لانعرف..
-سأتصل به على الفور.. لاتعتب على أوس فقد عاش حياته كلها خارج البلاد وهو لايعرف بعوائد اهل البلد.
-لابأس.. أنا أقدر هذا ولذا جئت اليك أنت فبعد كل شيء نحن عائلة.. أخبرنا بعنوانه وسنذهب نحن إليه.
ضاقت عينا السيف واجتاحه الحذر وقال:

-لا اعرفه أنا نفسي، فهو لم يأخذها لمنزله.. أنت تعرف.. عروسين جدد..

زم مختار شفتيه بحنق بينما يعاود سيف الاتصال بأوس الذي لم يرد على الاتصالات الثلاثة الاولى.. وحين فتح الخط سارع سيف:

-أين أنت لم لاترد؟

-يالك من عديم الاحساس..

دمدم أوس بوقاحة ليحتقن وجه سيف ويقول بحذر وهو ينظر لوجه مختار الراجي المتحفز:

-أوس، عمك.. مختار الراجي يريد أن يرى ابنته، هو يريد معرفة عنوانك ليأتي بوالدة ترنيم.

رفع أوس عينيه لترنيم التي كانت تقابله على المائدة التي حملت بعض الطعام واكواب العصير والقهوة وسألها باقتضاب:

-والدك ووالدتك قادمان؟

اتسعت عينيها ونهضت بحركة حادة وبها رفض كامل ليقول أوس بصوت قاطع:

-أخبره أنني لاأريد رؤية أحد، وإن كان على أمها فسأسمح لها بالإتصال فيمابعد.

اتسعت عينا سيف واستدار يخفي تعابير وجهه عن مختار وهمس بحنق:
-هل أنت مجنون؟؟ دع الرجل يرى ابنته.
-أنا لم أناقشك ابداً في تدنيس غرفة نومي بل وطائرتي كلها ليلة عرسك.. لذاااا..
رد أوس ببرود ليهتف به سيف بحنق:
-اقفل فمك ياوقح.. سلمى زوجتي..
-وأنت تدين لي بذلك، والأن تصرف لو رأيت مختار الراجي أمامي سأقتله وأشهد أنا وزوجتي أنك من فعلها. ولاتتصل مجدداً أتفهم؟
وقبل أن يجيبه سيف كان قد أغلق الخط.. وقف مشيحاً برأسه عن مختار ورجاله محاولاً احتواء غضبه وحنقه والاحمرار الذي كسا وجهه بسبب ردود ابن عمه الوقح، وبقي يأخذ أنفاساً عميقة ثم التفت ليواجه مختار ورجاله وقال بهدوء:
-العروسين خارج البلاد سيد مختار.
عقد مختار حاجبيه وصرخ:
-ماذا تعني؟ أين أخذ ابنتي؟
-انه زوجها، هو حر بها.

رد سيف ببرود لينفث مختار الراجي النار من عينيه وفمه:
-أنت.. ابن عمك ذاك.. سأقتله.
شعت عينا سيف بغضب واقترب خطوة من مختار الذي لم يتراجع بل انتفض رجاله حوله ولكن لم تهتز شعره واحدة من رأس سيف الذي قال بتهديد واضح وجريئ:
-مالذي تقوله يامختار الراجي؟ ستقتل من؟؟!
ابتلع مختار ريقه وتهاونت كلماته أمام القوة التي سطرت جُلَّ معانيها من عيني الذئب الوحيد وصمت ليضيف سيف بشراسة:
-أنت تتحدث عن أوس نضـال الشيب.. أتعرف من يكون أوس.. السلطاان أوس نضال الشيب؟؟
-أنا.. أنا لم أعني مافهمت ياسلطان، لقد كان مجرد.. رد فعل.. أوس الأن زوج ابنتي..وهو.. هو بمثابة ابني.
لم يلن سيف بل اشتدت خطوط عينيه واكتسى صوته جليداً وهو يهمس:

-احذر مع من تلعب مختار، زِن كلماتك جيداً قبل أن تقولها، ذئاب الشيب، لايستهينون بالكلمات، وفي لغتنا.. الكلمة عهد لايُخلف.

ثم تراجع وأشار له:

-سأذهب الأن لرؤية شيخ العزب.. هل تريد مني أن أوصل له سلامك مختار؟

شحب وجه مختار أكثر وهو يفكر أن اتحاد تلك العائلة بزواج هذا الرجل من عائلة العزب كان أسوأ ماقد يحدث على الاطلاق.. وتراجع وهو يومئ بالايجاب بينما سيف يركب سيارته وينطلق بها مخلفاً صمتاً لم تقطعه سوى خطوات رتيبة توقفت بالقرب من مختار الذي قال بشراسة:

-أشــرف.. أريد أن أعرف الى أين أخذها بالضبط، ثم أنني أريد خطة محكمة.. لتدمير الكابتن، أريده أن يفقد كل شيء.. كل مالديه.. أريده ذليلاً تحت قدمي وقد فقد كل شيء، كي أخذ ابنتي منه وأتركه لكلاب المزرعة تنهش لحمه وعظامه.

ارتسمت ابتسامة بطيئة متوحشة على وجه أشرف الراجي، وتلون وجهه بالأسود وهو يومئ باتجاه سيارة سيف المبتعدة:

-ماذا عن هذا؟

-لا.. سيف الشيّب خلفه عائلة العزب بثقلها كله، فهو زوج ابنتهم المدللة وأخت الشيخ قحطان بنفسه.. يكفيني أوس الشيب، وبذا أكون أنتصرت بالكامل.

-ممتـــــاز.. وماذا عن ترنيم؟

تسائل أشرف ببرود لينظر له عمه بعصبية:

-قلت لك أنها ستكون من نصيبك، مهما تاخر الوقت ستكون لك..

-هذا وعدك عمي، وقد صبرت طويلاً.. خطبتها لابن العزب.. ثم تركها تلف وتدور دون رادع.. والأن زواجها؟!

غمغم الفتى باستنكار ليصرخ عليه عمه:

-سفرها ولفها دون رادع كان بسببك أيها الأحمق الغبي، لولا تسرعك لكانت لاتزال بيننا لكانت زوجتك منذ سنوات.

تراجع أشرف بحنق وهو يتجاهل ذكريات ماضية ومختار يهتف بغضب مكبوت:
-كان يجب أن نزوجها لأوس الشيب، كان يجب ان اكسرها بهذه الطريقة والا ماكانت لترضخ لي.. أبداً.
-كان من الأولى أن أستر أنا فضيحتها..
-ابنتي لم تخطئ أيها الأحمق، انها فقط غبية وتحلم كل تلك الأحلام المجنونة التي زرعتها عمتك مريم في رأسها.
هز أشرف كتفيه:
-وهاقد ماتت، ولاتزال أفكارها مزروعة في ابنتك، أخبرني كيف ستنتشلها من داخلها.
زفر مختار:
-ابنتي تحب ذلك الرجل، لقد كانت معه منذ شهور، انها متعلقة به ويجب أن أكسر هذه الصلة، أمزقها وأحرقها حرقاً.. وهذه مهمتك أشرف.. أريد لهذا الرجل أن ينتهي..
-سأفعل.. سأنهيه بنفسي، وعندها سأحصل على ترنيم لي وحدي.. وإن لم تفعل عماه.. فأنا سأخذ كل شيء وأترك لك الحضيض.

قالها بغضب جعل مختار يشتعل..
لقد كانت وصية أبيه الظالمة.. وصية أودت بكل ثروته التي نماها بيديه لابن أخيه السافل، ماعدا في حالة واحدة.. زواج ترنيم من ولده.. برضاها.. حينها فقط يُعطى نصف الثروة..
وحالفه الحظ أن أشرف يعشق ترنيم منذ الصغر..
ولسوء حظه أنها تكرهه منذ ذاك الوقت..
ولكن الأن.. هو سيأتي بها وستوافق.. برضاها..
***
تأمل أوس زوجته بحذر..
فبعد انفجارها عليه في الصباح، وعده ووعدها..
الأشياء تغيرت بينهما.. التوتر.. أصبح اخف.
وإن كانت لاتزل.. بعيدة.
وقف يراقبها ترتب الأغراض التي بعثرتها.. ترتبها الى حقيبتها وحقيبته.. ابتسم بخفة وهو يلاحظ أنها لم تفصل اشياءه عن اشياءها.. وأنها تخلت عن مستحضرات التجميل الكثيرة ..
اقترب وجلس على الفراش يراقبها بفضول، كان يرى كيف أنها تكور بعض الاشياء وتخفيها في كيس قمامة أسود ضخم..

-أخبريني الى أين تودين الذهاب؟
استمرت بماتقوم به ثم همست بتوتر:
-الى أي مكان، أنا فقط أريد المغادرة.. اليوم قبل الغد.
لاتزال تخفي عنه كل الحقيقة عن علاقتها بعائلتها وهو يدرك أنها تحتاج للوقت.. ولكنه زوجها مهما أخفت هذه الحقيقة او تجاهلتها هوزوجها.
-بإمكاننا الذهاب والعيش في نيويورك، ستكونين بالقرب من سلمى ويمكنكما...
--لا.
رفضت قاطعة لتضيق عيناه ثم يدرك حماقته فرغم كل شيء سلمى شقيقة خطيبها السابق، شعر بالحنق والغضب من هذه الحقيقة ومن أنها ربما لاتزال تحمل بعض المشاعر لذلك الرجل رغم تأكيد سيف انها من طلبت الانفصال.
ونهض بعصبية وقبض على معصمها وهي تهم برمي شيء أخر في الكيس:
-لم لاتحبين سلمى؟ ألأنها تذكركِ بمافقدتِ؟
اتسعت عينيها ونظرت اليه ثم تجهم وجهها:

-أنا طلبت الابتعاد والانفصال عن علي العزب، وليس العكس. لاداعي لأن تشعر بالإهانة.
-ليس اوس الشيب من يشعر بالإهانة من أي رجل.
دمدم بغضب ثم نظر لمابيدها وانتزعه بقسوة لتشهق معترضة ولكنه استطاع رؤيته..واتسعت عيناه بذهول لرؤيته.
كان قميص نوم.. قميص نوم صغير ومثير..
نظر لها باستنكار ثم انقض ينظر للكيس.. ومايحتويه..
كلها اغراض نسائية، قمصان نوم.. ملابس داخلية.. تنوعت الحرائر والدانتيل.. ولكن الاهم انها كانت جهاز عروس مكتمل.. وما لم يتمزق في ثورة غضبها المجنون، فقد تمزق الان في تنظيفها المحموم.
نظر لها وهو يرفع قطعة صغيرة مثيرة بلون القمح لمستوى نظره ثم يعود لينظر اليها بإيحاء مستفز جعلها تحمر وتسارع لنزعها من بين أصابعها واعادتها الى حيث تنتمي..
القمامة.. كماتظن.

-لماذا؟!
تسائل بهدوء محاولاً كتم ضحكاته.. لتجيب بعصبية:
-انها أمي، لا اعرف مافكرت به.. انا..
-أنا لم اسأل لم اشتريتها فهذا هو مايجب.. سؤالي هو لماذا ترمينها؟
نظرت له متسعة العينين وقالت بحنق:
-وماحاجتي لهذه الخرق؟؟
رفع حاجبه بمكر وشملها بنظرة مفصلة من رأسها لأخمص قدميها وعاد صعوداً متأملاً لكل منحنى ومنخفض.. ببطئ مثير جعلها تتراجع محيطة جسدها بذراعيها بحمرة قانية تلون خديها بينما يهمس هو:
-أوافقك.. ماحاجتك لكل هذا؟؟
-أنت.. أنت عديم الحياء.. لا.. لاتنظر لي هكذا.
صرخت بحنق ليبتسم بإيحاء:
-كيف؟؟
-هكذا.. وكأنك.. وكأنك..
والتهب وجهها.. ولم تقدر أن تنطقها.. ليرد بهدوء:

-وكأنني ماذا؟ أعريك؟؟
-أصمت..
هتفت بغضب..ليقترب وينظر في عينيها قائلاً:
-لقد وعدتك ترنيم.. أن أكون معكِ..أحميكِ وأعتني بكِ وأبعدكِ عن عائلتك التي لاأعرف لم تكرهينها بهذا العنف.
اضطربت عينيها نظراتها وحاولت التراجع عنه ولكنه لم يسمح لها، حاصرها وعينيه في عينيها قوية وثابتة:
-ولكنكِ زوجتي، ولي عندكِ الكثير من الحقوق..
ثم شمل جسدها المتخشب بنظرة سريعة وعاد لعينيها ليقول بنعومة:
-وجسدك.. هو فقط احدها ياجميلتي.
رجفة عارمة اجتاحتها وهو يبتعد خوف وارتياح وشيء من الرهبة وهي تراقبه ليقول ببرود:
-جهزي الاغراض بأسرع مايمكنك، سنسافر بعد ساعتين.
-الى أين؟
سألت بشحوب ليتنهد ويشير الى ذراعه:

-نيويورك.. المقر الرئيسي للشركة حيث أعمل، يجب أن أثبت اصابتي حتى أستطيع التفرغ من العمل والتعافي كلياً ياعزيزتي.

-وبعدها؟

سألت بتوتر ليبتسم بإشراق:

-العالم كله تحت قدميكِ فقط اختاري.. انها فرصة لنا ترنيم، فأنا بذراعي المتيبسة لن أكون نداً لكِ.. ولكنها مسألة وقت فقط ياعزيزتي، استغليها .. واعتادي علي.

احتقن وجهها للمعنى المبطن لكلماته وتراجعت اكثر حتى جلست على حافة الفراش، بينما غادر هو الغرفة لترتيب حضور السيارة لنقلهما الى المطار..

لم يكن بيدها.. الاحساس بالخوف والكره لمايطلبه منها لم يكن بيدها..

انه غريب عنها، وان لقبوه بزوجها، هو غريب لم تتعرف عليه سوى من بضعة اسابيع كرهته في نصفها وخافت منه في النصف الاخر.. هو غريب اقتحم حياتها الهانئة ودمرها بسببه استطاع والدها الحصول على طريقة جديدة

للسيطرة عليها، بسببه تنازلت عن حريتها وجناحيها وانضمت اليه على الأرض..
ومن ناحية أخرى..
كان هو من وقف امام والدها وزبانيته، هو من اخرجها من أسره وجعلها حرة لاتنصاع لسواه..
فهل حررها ليستعبدها هو بنفسه، لطالما قدست حريتها لطالما ارادات الابتعاد كلياً عن عائلتها وأوس، أوس هو السبيل لهذا بالرغم من كلماته الوقحة ونظراته الزائغة ورغم انها لم تره سوى بضع مرات ولكنها تعرف نوعه جيداً.. زير النساء المتلاعب الذي لايقدر على الاستغناء عن النساء..
هي لن تكون منهن، لن تصبح اسم في قائمة الكابتن..
رغم أنه هو زوجها، ولكنه لن يستطيع ارغامها على شيء، أقوى وأدهى منه قد فشلوا..
مالايعرفه ابن الشيب أن ترنيم الراجي حين سقطت من شجرة أبيها.. لم تسقط بعيداً
فخصال والدها الشريرة.. تعشعش تحت مسامها.. داخل عروقها..

لايعرف أنها وقت اللزوم.. تستطيع الدفاع عن نفسها بشراسة.. والهرب.. والاختفاء.. كفص ملح.. ذاب..!!

....

بعـد ثلاثة أيام..

نيويورك..

عيادة طبيب العظام المسجل من الاتحاد الفدرالي للطيران..

-حالتك جيدة جداً سيد أوس، عظام وجهك وكفك سليمة مائة بالمائة، لم يكن لديك سوى التواء طفيف في غضروف الأنف، وقد تم الاعتناء به.

-ماذا عن ذراعي دكتور؟

تسائل اوس بقلق وهو يمسد كتفه التي ضُمت الى صدره بإحكام بمشد وحامل كتف..

-تمزق في الاربطة وليس خلعاً لحسن الحظ، سأعطيك شهراً كاملاً اعتقد أنه سيكون كافياً جداً للتماثل للشفاء التام.

ابتسم اوس ونهض يصافح الطبيب:

-ممتاز، اشكرك جزيل الشكر د.روبيرت.. أثق أن التقرير سيرسل الى الشركة؟

-بالطبع كالعادة، ولكنني أشك أنها ستعطيك اجازة بأكثر من أسبوعين..
-أعرف.. واعرف ان ماينتظرني في الأسبوعين الاخرين هو جبل من المعاملات الورقية.. اشكرك سيدي.
ابتسم له الطبيب مودعاً فأسرع أوس الى الخارج وابتسم وهو يتأمل ترنيم التي وقفت حالما رأته يخرج وفي عينيها تساؤل قلق.. كانت الكدمات قد اختفت من وجهه نهائياً وعادت له تلك النظرات الماكرة..
-ماذا قال لك الطبيب؟
-قال بأنني أستطيع أخذك لشهر العسل لمدة اسبوعين.
تجهم وجهها وهتفت بجدية:
-كف عن التهريج وأخبرني..
ولكن أوس واصل بنبرته المرحة:
-وأوصاني كذلك أن أفرط بالمرح قبل العودة للعمل حينها لن يكون لدي الوقت لأتنفس.
-أووووس؟!!

-وبالابتعاد عن ذوي الدم الحار المتجهم، هذا بالذات سيصيبني بتلف دماغي.
تأفف وهو يدفعها لايقاف سيارة أجرة:
-تعاالي يجب أن نرتاح قليلاً قبل موعد طائرتنا في المساء..
-الى أين سنذهب؟
تسائلت بفضول فبرغم اشتراكهما كل شيء الا أن الخطط كانت مزاجه المفضل، فبعد ان قررت ان تعيش حياتها معه يوماً بيوم حالياً، أصبحت تستطيع الجلوس معه لبعض الوقت دون أن تشعر بالتوتر والخوف طيلة الوقت.
أوس حين لايكون وقحاً او عديم الاخلاق.. فهو مثقف مسلٍ ورفيق رائع..
في شقته بنيويورك والتي تقع في بناية حديثة من 32 طابقاً وهو يسكن الثلاثين منه..
وضع اوس عنه معطفه وساعدها في الخروج من معطفها الثقيل جداً مع اقتراب موسم الثلوج، وقال لها بارهاق:
-سأستلقي لبضع ساعات ترنيم لاتنسي، الطائرة تغادر في الرابعة.. أيقظيني في تمام الثانية.

-سأطلب الطعام لنأكل قبل خروجنا.
قالت بحرص ليومئ ويتوجه لسريره.. ثم تثاقلت خطواته لتتوقف ويسألها دون أن ينظر اليها:
-هل ستنضمين الي؟
شحب وجهها للحظة وهمست دون تفكير:
-قد تفوتنا الطائرة لو غرقت في النوم.
ابتسم بسخرية.. المزيد من الأعذار كي لاتشاركه الفراش حتى وهو يؤكد لها أنه لن يمسها الا برضاها، لن يأخذها غصباً وهو بذراع تؤلمه أكثر من رغباته نفسها..
ولكنه لم يعلق استمر بخطواته كأنه لم يتوقف..
بينما تهالكت ترنيم على الصوفا امام النافذة الواسعة تضم ركبتيها اليها.. انها تختلق الاعذار كل ليلة كي لاتنام معه في الغرفة ذاتها، وان فشلت فهي تبقى مستيقظة طيلة الليل..
انها مرهقة ومتعبة.. تشكو قلة النوم والسهر المتواصل..
كأي عروس جديدة.. مع الاختلاف في المسببات..
جذريـــاً.

....
رومـــا..
قلبت نيران بعض الصور على حاسوبها وابتسمت بسخرية قبل ان تنهض وتحمله بين يديها الى غرفة رئيس مجلس الادارة حيث كان يجلس شاهر الباشا خلف مكتبه يطالع بعض التقارير باهتمام..
-صباح الخير باشا..
لم يرفع لها عينيه بل سألها باقتضاب:
-هل عرفت أين يتسكع ابن عمكِ الذهبي؟
ضحكت ضحكة رنانة طويلة جعلته ينظر لها بالفعل قبل أن تضع الحاسوب امامه وتقول بمرح:
-انه في طريقه الى هنا..
ثم أضافت بمكر:
-ولكن ليس وحده.
عقد شاهر حاجبيه بانزعاج من طريقتها وجاء بالحاسب لينظر له عن كثب قبل ان تتسع عينيه بذهول وهو يرى الصور المتتالية التي ظهرت امامه، وتأكد من التسلسل الزمني عليها انها

صور حديثة، بالتحديد يوم امس وماقبله، كانت الصور لركان الباشا فعلاً.. ولكنه لم يكن وحده.. كانت سارة معه!!

السلطانة كانت تتموضع له ليلتقط لها الصور على ظهر مركب شراعي ضخم.. وكانت العديد منها تجمعه بها في مواضع حميمة.

عادت اليه؟!

مستحيل.. كيف هذا؟

-من أرسلها لكِ؟؟

-صديق..

رمقها بغضب عاصف فابتسمت مقتضبة:

-انهما يبحران من عدن الى روما.. سيصلان خلال اسبوع تقريباً..

-متى حدث هذا؟؟ لقد تيقنت بنفسي انها تكرهه ولاتريد حتى النظر لوجهه؟؟

-انه الحب باشا، وأنت قلتها منذ التقيت بركان، قلت أنه يستطيع سحر راهب معتكف دون عناء.

-ولكن ليس السلطانة.. انها مختلفة.

دمدم بعصبية وهو يدور حول مكتبه، الغضب يعميه ويثير فيه مالم يشعره من قبل أبداً.

انه ليس غاضباً فقط هو يشعر وكأنما يستطيع أن يحرق الكون، يريده امامه الان.. يريده كي يقتله بيديه..

-كيف يترك الاعمال؟ لقد تم تعيينه للتو، وهو يقضي الوقت بالتبختر عبر البحار؟

هدر بعنف لتجيبه نيران:

-انه يديره من هناك، لقد اولاني الثقة للحؤول مكانه حتى يعود، قال لي بالحرف انه يوكلني وانني ان واجهت اية مشاكل فهو.. سيتدخل.

كانت تسخر منه.. فنيران تستطيع ادارة مؤسسة كهذه وهي مغمضة العينين.. ولكن ذلك الغرور الذي سيؤدي به الى التهلكة.. ركان الباشا المغرور، والذي سيعتصره بيديه.. وينتزع منه المرأة التي يحب..

التفت لنيران وسألها:

-متى موعد وصولهما؟

-أسبوع ياباشا..

-أنا سأعود الى أنقرة.. وأنت تولي الأمور هنا وحالما يعودان أريد كل شيء.. أتفهمين كل شيء يقومان به يصلني في تقرير مفصل.. أتفهمين؟!

اتسعت بسمتها الساخرة وهزت رأسها:
-أمرك باشا..
نظر لها شاهر بكره ثم تولى الى خارج المكتب دون أن يعير أدنى اهتمام بماكان يفعله سابقاً.

.....

دبي.. المستشفى المركزي
اندفعت صوان بخطوات متعثرة سريعة نحو مركز الاستعلام وتسائلت باضطراب:
-فاطمة السياف، أحضروها قبل قليل بالاسعاف أين أجدها؟
تفحص الممرض حاسوبه ثم اشار لممر جانبي:
-تفقدي مركز الطوارئ سيدتي.
اندفعت بسرعة نحو حيث أشار..قلبها يكاد يتوقف منذ اتصلت بها الخادمة تبلغها ان والدتها قد سقطت على الارض وفقدت وعيها وان الاسعاف قادم لأخذها، وفعلاً وصلت الى المنزل وقد أخذوها، لم يكن لديها أحد.. والدها في نيويورك منذ مساء البارحة وهي عادت الى الحضانة حال وصولها الى دبي..

وكأنها تهرب والشياطين تلاحقها، ابتعدت عن الجميع نأت بذاتها تدرك محاولات والديها لاقناعها بمحمود زوجاً وهي تدرك أنه خيار فاشل لأسباب عديدة، أول واحد منها أن محمود كان يخشى الجساس وهو أرادها قبلاً وخطبها فعلاً ويومها سافر محمود الى كندا ولم يعد منذ ذاك الوقت قبل عشر سنوات، وأوس أقسم لها يومها أن وجهه كان متورماً واحدا ساقيه في جبيرة..

جساس لايتهاون حين يأتي الأمر اليها هو لايتفاهم سوى بقبضته.

-أنسة صوان..

التفتت لترى طبيب العائلة يقترب منها بقلق، فبادرت بخوف:

-مالذي حدث دكتور؟ هل أمي بخير؟

تنهد الرجل واشار لها لتجلس لمقعد قريب ففعلت وجلس هو جوارها:

-اسمعيني جيداً انستي، ربما كانت أمك معارضة تماماً لماسأخبرك به، ولكنني تحدثت مع والدك

عبر الهاتف مطولاً وهو موافق على ضرورة ابلاغك بكل شيء.
شعرت صوان برجفة تشل اطرافها ونظرت للطبيب بخوف وهو يواصل:
-أمك ومنذ اربعة أشهر تعاني من ورم سرطاني في الثدي.
اتسعت عينا صوان بذعر ونهضت لتسقط حقيبتها بكل ماتحويه أرضاً وهي تصرخ بألم لينهض الطبيب بعدها وييجذبها من ذراعها بعيداً عن غرفة والدتها وادخلها الى مكتبه لتنهار باكية بوجع..
أمها؟!! فاطمة الجميلة الرقيقة؟!
تترك المرض الخبيث يستوطن فيها دون أن تقول لها.. دون أن تواسيها؟؟ كيف ؟
-ابنتي انظري الي..
رفعت له عينين منتفختين غارقتين بالدموع:
-لماذا لم تخبروني..؟ كيف .. امي تبدو بصحة ممتازة؟؟ كيف تقول هذا؟
تنهد الرجل وقال بأسف:

-والدتك اكتشفت وجود كتلة في ثديها الايمن قبل اربعة أشهر، صحيح انها لاتعاني من اية أعراض فهكذا هو حال سرطان الثدي في مراحله المبكرة.. لايظهر ابداً ولولا حرص والدتك وفطنتها لما استطاعت أن تلاحظها، هذا المرض أكبر مخادع ولكننا استطعنا أن نحصره وبالفعل أجرينا العملية قبل ثلاثة أشهر ألاتذكرين؟

اتسعت عينيها بذهول وهمست بخواء:

-عملية ازالة الترهلات؟؟

تنهد الطبيب:

-هذا ماأرادت أمك ان نخبر الجميع به، لم تكن تريدك أن تقلقي، لم يعرف أحد سوى والدك. وكان من المفروض أن تكون هذه المرحلة كافية مع استخدام بعض العلاجات لمنع معاودة المرض .

-مالذي حدث اذاً؟

همست ليرد بأسى:

-هذا لم يكن كافياً.. أنا أسف لأخبركِ أن والدتك قد عاودها المرض، وهذه المرة ستكون هجمته شرسة.

ابتلعت ريقها بصعوبة وتجاهلت دموعها التي انسابت بألم:

-ماذا؟ ماذا سيحدث لها؟

-ستبقى في المشفى لبضعة ايام لنقيم حالتها ونضع خطة جديدة للعلاج ، ولكنني أصر أن تكون نفسيتها بحال مستقر دون أي استفزازات أو حزن.

-سأفعل أي شيء.

قالت بإخلاص..

-ممتاز.. تعالي معي الأن.. سنزورها لأن قلبها مشغول عليكِ، عليكي أن تكوني قوية، لاتبكي، لاتظهري كبر الأمر فأهم ماسيواجهنا من عقبات هي روحها المعنوية.

اومأت بتفهم، وتركها الطبيب تغسل وجهها من أثر الدموع ثم قادها الى غرفة أمها.

وقفت تنظر لأمها بذهول كانت كما اعتادت أن تراها، جميلة وان غزا وجهها الشحوب، وتراجع

شعرها خلف رأسها على غير عادتها.. اقتربت وجلست على الفراش الواسع قربها، تأملت الابرة المغروسة في ذراعها وتملك قلبها الأسى، هذا الجسد الذي تحمل عبئ تربية الذئاب، وتحمل قسوتهم وتمردهم لسنوات طويلة.. هل يهزمه مخلوق قذر يتسلل على حين غفلة وينهكه..!!

لم تستطع ان تسيطر على دموعها اغلقت عينيها فانسابت بصمت حاملة معها الوجع والقهر.

-لاتبكي ياصوانة..

همس فاطمة بحزن لتفتح ابنتها عينيها بحدة وتناديها بألم ثم ترتمي على صدرها الحنون لتجهش بالبكاء بلاتوقف..

عانقتها فاطمة بحنان وهي تهدهدها وتطمئنها..

-لاتبكي ياصغيرتي، لاتبكي يانور عيني، أنا لن أموت صوانتي، لن أتركِ حتى أقر عيني برؤية أطفالك ياحبيبتي.

-لاتقولي هذا امي ارجووكِ.

هتفت بألم لتبتسم امها وترفع لها رأسها لتنظر في عينيها:

-انه قدر الله حبيبتي، وانا لست ضعيفة، أنا قادرة على القتال بوجودكم حولي فأنا لاأبالي.
-أنا لن أتركِكِ ابداً.. ابداً.
-اووه ولكن بلى ستفعلين.
صاحت أمها بإستنكار ثم هتفت برجاء:
-أريد أن أراكِ زوجة وأم.. أريد أن أرى عائلتك قبل أن أموت صوان..
-أمي أرجوك..لاتقولي هكذا.
صاحت صوان باكية لتنهرها أمها:
-إنها سنة الحياة بنيتي، والحياة لاتتوقف لابتعاد رجل، او موت أم.. أنت ستعيشين حياتك صوان، بدون جساس وبدوني.. عليكِ فقط أن تتبيني كيف ستعيشينها، ضعيفة.. وحيدة دون رجل.. دون اطفال؟؟ أم قوية.. ربة أسرة حقيقية..
تراجعت صوان بتشوش لتتنهد فاطمة بإرهاق وتسند رأسها على الوسائد خلفها:
-لاتتعبي قلبي..فكري بنفسك، دعيني اعيش ماتبقى لي براحة بال وقد استقررت في حياتك ولديكِ ظهر تستندين عليه بعدي أنا وأبيكِ.

نهضت صوان بصمت وأشاحت عن امها وكلماتها تهاجمها بقسوة..
رغبة أمها الأخيرة كما يبدو.. وهي .. هي عليها أن تتخذ القرار..
بعد شهـــر..
وقفت صوان أمام الحديقة المهجورة من قبل الأطفال مع بداية فصل الشتاء وزمهرير الريح يُسمع على مقربة، مر شهر كامل منذ علمت بمرض أمها.. وقد حدث فيه الكثير..
لقد أُجريت لأمها عملية أخرى.. والأن هي تقوم بجلسات العلاج الكيميائي.. وقد أجريت لها أولى الجلسات قبل اسبوع.
صحتها كانت لابأس بها انها معنوياتها ماكانت في الحضيض، كل ذلك بسبب رفض صوان لابنة أختها محمود. ولكن صوان كانت لها أفكار أخرى.. واليوم، اليوم بالذات ستنفذ قرارها.
-أنســة صوان؟!
ارتجف قلبها وانقبضت أصابعها لاارادياً وهي تستدير وتلتقي عينيها بعيني الرجل امامها..
-سيد صلاح..

ابتسم صلاح الزجال وقال بتودد:
-قبل أن نتحدث بأي شيء أنا أود الاعتذار عمابدر مني في حقك ذلك اليوم، لم يكن من حقي انتقادك، أو تجاوز حدودي معك..أعتذر..
تنهدت واومأت برأسها بينما تقوده للعودة الى مكتبها الدافئ، وهناك وحول فنجانين من القهوة تسائل:
-علمت أنك اتصلتِ بمكتبي قبل عدة اسابيع؟ كنت في رحلة خارج البلاد ولم ارجع سوى قبل يومين، وحين عرفت أنك ترغبين برؤيتي، أتيت.
أخذت صوان نفساً عميقاً وشربت جرعة كبيرة من قهوتها لتستجمع بعض شجاعتها وواجهته قائلة:
-قبل وقت لابأس به، جئت الي، وعرضت علي عرضاً أنا.. أنا رفضته وقتها..
تراجع صلاح في مقعده ولم تشي ملامح وجهه عن أية تعابير قائلاً:
-أكملي..
ابتلعت ريقها بصعوبة وأخفت ارتجاف أصابعها وهي تهمس دون تردد:

-انا موافقة على العرض سيد صلاح.. أنا موافقة أن أصبح زوجتك.
التمعت ابتسامة في عيني صلاح لم ترتسم على وجهه وهو ينهض بهدوء جعل صوان تجفل واوراقها كلها تتبعثر لرد فعله الغريب.. ولكن صلاح بدد تلك الشكوك وابتسم بثقة وهو يقول:
-أنا رجل واضح وصريح، ولا أضيع وقتي. أخبري والدكِ أن ينتظرنا مساء اليوم أنستي.
انتفضت بعنف واقفة وصرخت:
-ليس اليوم..
رفع حاجبه بتساؤل لتتلعثم:
-أمي.. أمي مريضة أفضل.. أفضل أن تأتي يوم الثلاثاء، هل هو يوم مناسب لك؟
تسائلت بضعف.. ليبتسم بقوة وادراك.. ثم يومئ:
-إن لم يكن .. جعلناه ياسلطانة. بحول الله وقوته سنأتيكم بعد صلاة العشاء.. أبلغي الاهل.
ثم ابتعد نحو الباب وهناك التفت صوبها ووقال:
-لم غيرتِ رأيك؟
تجمدت عينيها وهمست:

-لقد فكرت، فكرت مطولاً.. ووجدت أنك على حق.

ابتسم صلاح بغرور وقال:

-أنا دائماً على حق.. وستعرفين هذا عني ماان نتزوج صـوانة..

-صوان.

هتفت بحدة فاجأته ثم تنفست بعمق وهمست بخفوت:

-اسمي هو صوان فقط.

ابتسم بتسامح واومئ بتفهم:

-موعدنا يوم الثلاثاء اذاً.. لن نتأخر.

خرج وتركت صوان توترها يغادرها بزفرة متعبة.. حارة وهي تنهار على أحد المقاعد، قلبها يرجف وكلها تهاوى من الداخل، لقد سلمت نفسها الأن.. أقدمت على خطوة جبارة للتخلص من عقدتها تجاه جساس، وعليها أن تواصل طريقها.. لأجلها، لأمها..لعائلتها كلها.

ستمضي بالأمور حتى النهاية ولكن.. جساس لايجب أن يعلم أي شيء نهائياً..

لايجب أن يعلم أبداً.

***

اليوم التالي..

المنصورة/ مصـــر

توقفت السيارة الفيراري أمام العمارة الانيقة وقفز جساس منها بخفة ثم رمى بالمفتاح لحارس البناية ليودعها في المرآب الخاص بها ثم تجاهل المصعد وقفز كل بضعة درجات بحيوية، يريد أن ينفض برودة الطقس عن عظامه ويريد أن نتعش بحرارة الشباب، اتجه من فوره الى شقته متجاهلاً المشغل المليئ بالنساء..واندفع الى الداخل والابتسامة تشق حلقه .. غداً هو عيد ميلاد الصوانة، وهو قد جهز كل شيء ليفاجأها.. لقد كان الشهر الماضي وهو بعيد عذاباً لايُطاق.. هذه المرة هو لن يترك لها المجال لأن ترفض لامجال.

-مساء الخير.

التفت مندهشاً حالما دخل الى غرفته.. ووجدها هناك..

-شيماء؟!

غمغم بإنزعاج وهو يتراجع الى خارج الغرفة بحرج بينما تقترب الشيماء بإبتسامة واسعة:
-مالذي جاء بك مبكراً؟
-ماذا تفعلين في غرفتي؟
سألها بقسوة لتحرك كتفيها:
-كنت أنظفها.. خالتي طلبت مني.
زفر بضيق وتراجع اكثر للمطبخ.. الشهر الماضي كانت كل حركات والدته مكشوفة للجميع محاولة التقريب بينه وبين الشيماء، ليس فقط التقريب.. هي فعلاً نشرت خبر خطبتهما الوشيكة..
هو فقط لم يكن يرد، ويكتفي أن يقول لأمه باقتضاب أن قلبه مشغول بأخرى تعرفها والدته جيداً.. وأنه لن يفكر بغيرها، كانت تغضب وتثير مشكلة من اعلدم ويضطر أن يتوسل صفحها ويهادنها فقط لتكف عن البكاء.. ولكنه لن يغض النظر عن صوان كما كانت تقول له أمه..
صوانة حبيبة عمره ولن يتركها حتى يموت.
-لاتدخلي غرفتي مرة ثانية شيماء.. لاتدخليها ابداً.

تجهم وجهها وظهر الحزن في عينيها وهي تهمس:
-هل ارتكبت اثماً؟ هل تظنني أبحث عن المتاعب جساس؟
-لا بالطبع لا..
صاح منكراً لتتألق عينيها بالدموع التي تعلمت كيف تستنجد بها وقت الضرورة وتراجعت بألم ظاهر على ملامحها جعله يزفر بضيق وهو يقترب معتذراً:
-شيماء انا لم اقصد.
-أنا لم افعل لك شيئاً.. لم تعاملني هكذا وكأنك.. وكأنك تكرهني.
-أنا لاأكرهك.
هتف بشدة لتلتفت اليه وتسأله بمرارة:
-ولكنك تحبها هي..
احتقن وجهه وتردد للحظات قبل أن يستجمع شجاعته ورباط جأشه ويومئ بالايجاب، انسابت دموعها بمرارة وهمست:
-وماذا عني؟؟ أنا أحبك.
ابتلع ريقه بصعوبة وقال بتوتر:

-أنت لاتحبيني، أنت تظنين هذا لأن أمي زرعته برأسك.
-كمازرعت صوان فكرة حبها في رأسك أنت؟؟
-أنا أحب الصوان منذ سنوات..
-صحيح..؟؟ كيف تحب امرأة تكبرك سناً، ولاتحبك حتى بالمقابل..
-لاتتحدثي عنها..
هدر بوحشية تألقت من عينيه جعلها تتراجع مذعورة بينما يستمر:
-اذهبي الان شيماء، علاقتي بصوان من شأني وحدي حتى أمي لاتتدخل بها.
-أنت أحمق كبير جساس، ستقضي عمرك كله تركض خلفها وهي لن تنظر اليك حتى.
-اصمتي.
هدر بها بعنف وهو يمسكها من معصمها ويهزها بعنف ولكنها تملصت وجرت خارج الشقة وهي تنفجر بالبكاء. وصاح جساس بحنق وهو يندفع عائداً الى غرفته لينزع عنه ثيابه وكان في طريقه للحمام حين وصلت أمه تصرخ بغض:
-هل اغضبت شيماء؟

-انا لاأريدها أن تدخل غرفتي، لاأريدها في الشقة من الأساس أماه.

رد بحزم لتهتف نرجس:

-شيماء ستكون ربة هذا المنزل، ستكون زوجتك جساس فلم تعاملها بهذه الوقاحة.

قهقه جساس ورد بخفوت:

-أنا لن أتزوجها ولو انطبقت السماء على الأرض. أنا احب صوانتي ولن أتزوج سواها.

-في أحلامك أن أسمح بزواجك منها.

صرخت بحدة ليواجها بعناد:

-لايهمني احد أماه.. انتهينا.

وقبل أن ترد كان يجذب منشفته ويسرع الى داخل الحمام الملحق ويغلق الباب خلفه ثم يقف أمام رذاذ الماء الدافئ وأفكاره تغلي بداخله وهو لايعي كيف تراجعت نرجس وعادت الى المشغل تضم الشيماء الباكية اليها وتهتف بحسم:

-اقسم انك من نصيبه ياصغيرتي، مهما كان رأيه.. لقد رأيته في الحلم ليلة أمس.. لن ينتهي الموسم حتى تكونين في عصمته..

-انه يكرهني خالتي، كيف اتزوجه وهو يكرهني؟؟
-لاتخافي حبيبتي.. انه من نصيبك مهما قال وفعل، كل شيء سيتبدل ويتحول، حتى مشاعره ستكون لكِ مهما طال الامد.
قالتها باصرار وقوة دون أن يرف طرفها..
وكأن مارأته لم يكن مجرد حلم بل نبوءة..!!
***
نيويورك..
الرابعة فجراً..
نهض منزعجاً لايدرك السبب، غادر الفراش وتسلل خارج الغرفة لشرب الماء لايريد أن يوقظ النائمة في الغرفة المجاورة ولكنها لم تكن..
رفع حاجبيه وهو يتأملها بصمت..
كانت تصلي وحيدة في ركن قصي، لم تكن المرة الاولى التي يراها تقيم فروضها طيلة الشهر الماضي، كانت تفعل على الدوام.. وهو يراقبها متى تسنى له بفضول.. كان يصلي فيما مضى، ولكن منذ جاء الى نيويورك للانضمام لمدرسة

الطيران الفيدرالي وهو قد نسي معنى الصلاة وحتى طريقتها..
نسي رغبته للشرب ووقف مكانه يحاول الخروج بنتيجة من الشهر الماضي الذي قضاه معها في رحلات متنقلة من مدينة الى اخرى.. تركيا.. تونس..المكسيك.. وحتى استراليا..
كانا زوجين غريبين قريبين، لحظات الصفاء بينهما لاتُعد.. النهار يجمعهما برفقة ممتعة وحماسية في التجول حول المناطق السياحية والمطاعم.. وبعد غروب الشمس.. يعودان غريبين، هي تنكمش في وحدتها وترفض اياً من تقرباته.حياتهما الزوجية متوقفة ترفض أن تقترب مجرد الاقتراب منه خوف غريزي يتملكها..
حتى القبلات التي كان يسرقها على حين غفلة أصبحت بلاطعم بالنسبة له.. لم تعد تغريه.. بل لم تعد تكفيه..\
لقد فعل الكثير لاجلها ولكنها ترفض مجرد الاقتراب منه..
ترفض أن تكون زوجته..

توقفا منذ عشرة ايام عن التجوال وعادا لنيويورك حيث بدأ اوس جلسات العلاج الطبيعي لذراعه، ووعاد الى العمل بمعدل اربعه ايام في الاسبوع لانجاز أطنان من الاعمال الورقية..

واختفى المزاج الحسن.. وقد غابت لحظات النهار الصافية..

تنهد فلفت نظرها وقد انتهت توها من الصلاة فانتفضت واقفة واقتربت تسأله بقلق:

-هل أنت بخير؟ أتحتاج لشيء أوس؟

نظر لها بإمعان واراد أن يقول أنه بحاجتها هي.. ولكنه لم يفعل، بل اجتاحه الصمت وهز رأسه نافياً قبل ان يتخذ طريقه للمطبخ..

توقفت ترنيم بعجز وشعرت بألم عميق بداخلها..

منذ سفرهما وكل شيء اختلف.. أوس أصبح مختلفاً، لقد ابتعدت عنه ولكنه بالمقابل ابتعد أكثر..

ما أحلاه بالنهار.. ولكن حين يجن الليل. هي لاتكاد تعرفه، نظراته الغريبة تثير خوفها ...

تنهدت ونزعت جلال الصلاة ثم تبعته الى المطبخ، حاولت ان تمزح معه فقالت بمرح:

-لقد تعلمت طبخة جديدة.. مارأيك أن اعدها للغداء..؟
شرب كوب الماء ثم قال لها باقتضاب:
-لدي رحلة في العاشرة، ويجب أن اكون في المطار في تمام االثامنة.
اتسعت عينيها و همست:
-رحلة؟؟ ستتركني وحدي؟
-انه عملي..
-ولكن..لكنك لم تخبرني.
تسائلت بارتباك لينظر لها بتجهم:
-أنت لم تسألي.
احتقن وجهها وشعرت بألمه لتجاهلها.. ولكنها لم تقصد.. أبداً هي فقط احترمت خصوصيته.
أية خصوصية؟؟
هدر صوت من رأسها.. انه زوجك ياحمقاء..
-تصبحين على خير.
قالها بجفاء وعاد الى غرفته فنظرت بإثره ودون أن تفكر لحقت به:

-هل سأبقى وحدي؟؟ كنت أظن أن حال عودتك الى عملك سنكون في روما.. على الاقل انا اعرف المدينة.

نفض دثاره واستلقى على الفراش وهو يقول:

-اذهبي لسلمى، سأغيب ليومين فقط وسأعود.

-لا اريد البقاء مع سلمى العزب..

صرخت بحنق ثم اقتربت لتجلس على الفراش جواره، أمسكت بذراعه وهمست برجاء:

-أنا أريد البقاء معك، وعدتني ألاتتركني أووس.

اغمض عينيه بقوة، شعوره وهي الى جواره لايقاوم.. لقد اشتاق للاحساس بامرأة قريبة منه، اشتاق للاحساس بها هي من دونهن جميعاً قريبة منه!!

اشتاق لملمسها بين ذراعيه.. نظر لها محاولاً التركيز على اي شيء أخر..

ماترتديه مثلاً..

البيجاما القديمة والتي تحمل رسومات اهترئت ببنطال اسود وزهري وقميص قطنية صغيرة بلون زهري فاقع وياقة سوداء.. ثم كلمة "BABY" بخط عريض..

شعرها ارتفع عن رأسها وتهدلت خصلات منه تحيط بوجهها ..
لم يتمالك نفسه فرفع كفه ليمسح وجنتها برقة :
-أنت تبتعدين، تنأين بنفسك عني، نحن متزوجان منذ شهر كامل.. وأنت تنامين في غرفة منفصلة ترنيم.
اتسعت عينيها بتوجس وهو يهمس:
-طيلة هذه المدة وانا أفكر في كيفية الدخول الى تلك الغرفة والحصول عليكِ.
نهضت مذعورة وتراجعت للخلف ليتجهم وجهه بغضب ويستدير ليعطيها ظهره وهو يقول بصوت مكتوم:
-اذهبي لغرفتك ترنيم.. وان لم ترغبي في المكثوم مع سلمى، فستبقين هنا بانتظاري.
كان اسلوباً مهذباً لطردها خارج الغرفة وكانت تستحق..
انسابت دموعها بألم، كيف يريدها ان تنام معه؟؟ ماذا عن أرقها.. كوابيسها التي توقظها في حالة من التشنج والرعب تكاد توقف معه قلبها؟! ان فعلت ونفذت مايطلبه منها فهو سيعرف حقيقتها

البشعة.. سيعرف ماأخفاه عنه والدها.. وأخفته هي عن الدنيا كلها!!
كان سيعرف جنونها..
سيكتشف فقدانها لصوابها..
***
روما..
مساء يوم الثلاثاء..
ترفلت روما بعباءة الأضواء الجذابة وانطلقت الألعاب النارية في سماء المدينة فرحة بفوز فريق المدينة المفضل والذي يحمل اسمها بكأس ايطاليا لكرة القدم، وانتشر الباعة المتجولون يحملون صور وشعارات الفريق في الشوارع الرئيسية والأزقة وفي مقهى حميم، أنيق يطل على حديقة وارفة جلس الافراد على مقاعد منفردة امام طاولات لشخصين فقط تنتشرفي أرجاء المقهى، المخصص للعاشقين فقط..
تسللت ذراعه لتحيط خصرها الناحل بحب وحماية بينما تستريح ذقنه النامية على كتفها فوق المعطف الثقيل من الفرو الذي ترتديه ليقيها برد الشتاء القارص..

شعرت بأصابعه الطويلة الدافئة تلامس بطنها فوق قماش الثوب الحريري وابتسمت للرجفة التي ارسلتها لمسته لجسدها كله فيستجيب كتابع مطيع وتستدير بين يديه لتنظر في عينيه الزرقاوتين بحب هامسة:

-هل تشعر به؟

-لايزال صغيراً سارة، من المبكر الشعور به حبيبتي.

رد بثبات رغم قلبه الذي تقفز بحب لهذه المرأة والتي قالت بحنان وهي تضع يدها الرقيقة على كفه الخشن وتضغط برفق:

-أنا أستطيع الشعور به.. يرفرف..

ابتسم ركان بغرور:

-انه قوي وشجاع كأبيه..

ابتسمت ولامست وجنته:

-أتمنى فقط أن يكون يشبهك في كل جزء منك ركان، عينيك.. شعرك.. كل شيء حبيبي.

قبلها بنعومة ثم تراجع ليقربها ويضع رأسها على صدره بحنان:

-سيكون جزءاً منا أنا وأنت ياغرامي.. سيشبهنا معاً.

اغمضت عينيها وذابت بين ذراعيه.. الشهر الماضي لم يكن هناك أأفضل من ركان، زوجها العاشق الذي كان يلبي لها كل رغباتها ونزواتها، كان نعم الرجل، رغم رجوعه للعمل حال وصولهما لروما، ورغم تواجده بالقرب من تلك النيران التي التقتها في عشاء عمل مرة او اثنتين الا أن ركان كان قلباً وقالباً لها..

الرحلة المبهجة عبر البحر وخصوصاً بعد أن علم بحملها.. كانت فوق الوصف..

هو فقط يعرف كيف يجعل المرأة سعيدة.. وقد جعلها سعيدة للغاية،،

لم تكن في يوم أكثر سعادة.. وحين عادت الى روما ظنت أنها ستموت من الملل وحدها فيما يقضي هو يومه في العمل ولكن لا..

تواجدها في المنزل كزوجة وأم مستقبلية كان عملاً بدوام كامل..

فبين الاهتمام بركان واحتياجاته.. ثم الاهتمام بالمولود القادم وتنسيق غرفته وشراء حاجياته برفقة توبايا أمها.. كان شهراً مزحوماً للغاية..
ثم كانت الليالي كهذه..
والتي كانت تسرقها من جدول نهار مزدحم وتسرق ركان لها.. كلياً.
بعيداً عن احتفالات دور الازياء العالمية، وبعيداً عن تحضيرات احتفالات رأس السنة..
بعيداً عن كل مايمكن ان يؤرقها كانت تأخذه لنفسها لبضع ساعات فقط..
وكان سعيداً بها.. بل يكاد يطير فرحاً..
ولم تكن تعي العيون المتربصة..
والتي راقبت من بعيد بحقد وشر.. قبل أن تنهض صاحبتها وتمضي في قطار الليل.. الى فندق الهيلتون القريب، وهناك وعبر مصعد خاص انطلقت الى مبتغاها..
فتحت لها الأبواب شرعاً كشيطانة تدخل وكراً من أوكار الجحيم..
-مساء الخير ياباشا.

قالت بارتجافة اخفتها بابتسامة شيطانية وهي تواجه الرجل الداكن الذي لم يكلف نفسه العناء للنهوض وتحيتها بل قال بكل قوة:

-ماذا تريدين؟؟ قلتِ أن لديكي ما أريده وبشده؟ فما هو؟

ابتلعت ريقها واقتربت، عينيها الجليديتين ترتجفان بينما تهمس:

-السلطانة..

ارتجفت الاصابع التي تحمل السيجار الكوبي الفاخر، وترنحت دقات القلب التي خنقها لأسابيع وهو يتابع غراميات السلطانة مع الفتى الذهبي..

حافظ على ثباته وقال ببرود:

-أنا لاأفهم ماتريدين ايصاله وقوله يا..

وتردد في قول اسمها امعاناً في ذلها لتبتلع ريقها وتهمس:

-سييرا.. اسمي هو سييرا ياباشا.

-وهذا يهمني في ماذا بالضبط؟

قالها بصرامة دون ان يعير اسمها اهتماماً.. لتهتف وقد أثارت لامبالاته الظاهرة اضطرابها:\

-اعرف ماتعنيه السلطانة لك، وأنا بيدي الطريقة التي تأتي بها لتحت قدميك صاغرة.
رفت عيناه بتوتر لم يظهر لها ابداً وسيطر عليه بقسوته وبروده وهو يشير لها بطرف السيجار:
-اجلسي.
ابتهجت سييرا وفعلت ما أمر ثم وباشارة أخرى منه انطلقت تشرح له ماتريد، ومايمكن ان تفعله.. لتأتي له بالسلطانة.. لتنتقم منها .. وتنتقم ممافعله بها ركان والاذلال الذي تعرضت له..
والباشا ينصت.. وخطتها الحقيرة تصب لاذنيه..
والعقل الشيطاني يصرخ مبتهجاُ.. أن الأمر قد ينجح..
وأن سارة قد تكون أخيراً.. له..!!
***
المنصورة/ مصر
الثلاثاء..11:55.. ليلاً
تأفف الجساس بحنق وهو يحاول ان يعاود الاتصال بأوس للمرة الألف ولكن لامجيب، حتى سيف لايجيب.. كان يريد الاطمئنان أن هديته قد وصلت الصوانة.. أنها قد استلمت الازهار

والشوكولاتة الفاخرة فالمحل الغبي لايرد على اتصالاته منذ الصباح..
لم يكن يريد الاتصال بها مباشرة ولكنه سيتصل بالمنزل .. ويكلم الخالة سعاد ويسألها عن كل شيء..
وفعلاً اتصل بالمنزل ورن الهاتف طويلاً جداً..
حتى كاد ييأس..
-السلام عليكم..
كانت الخالة سعاد فتهلل أساريره ورد السلام بحرارة ثم سمع..
كانت فيضاً من الزغاريد.. جعلت قلبه يرتجف ويكاد يقع منه..شـــؤم.. كانت زغاريد شـــؤم..\
-ماذا لديكم ياخالة؟
تسائل بصوت شاحب ولم تغب الفرحة عن صوت الخالة سعاد وهي تطلق المزيد من تلك الاصوات المزعجة عبر سماعة الهاتف لتخترق خلايا مخه وتهدد بإصابته بتلف ثم تصيح:
-انها الفرحة المنتظرة بني.. انه يوم خطبة الصوانة ..
ارتجفت يده..

ثم امتدت الرجفة لتشمل باقي الجسد..
-ماذا تقولين؟
همس بشحوب لتتداخل الحروف في مسامعه..
خطبــة.. الصوان خطبت اليوم .. وبعد غد..
الخميس هو يوم عقد قرانها؟؟!!
نظر للهاتف بجنون.. لابد أنه قد اخطأ.. لابد من وجود خطأ..
-هل جننتِ يا امرأة؟؟
همس للمرأة العجوز والتي صرخت مستنكرة قبل أن تؤنبه ولكنه لم يأبه وصاح بها:
-من عندك.. أعطني اي أحد..
-السيد والسيدة في وداع اهل العريس، اما سيف وأوس فهما برفقة صوانة ليباركا لها..
اتسعت عيناه بألم..
أخوه.. وأوس.. الكل يعرف، هل جن العالم..؟؟
اغلق الخط وحاول الاتصال بأوس من جديد..
لهذا لايرد أحدهما.. لقد فعلاها عمداً..
اخذوا حبيبته.. أخذوا الصوانة منه..
شعر بالدنيا كلها تدور من حوله.. كلها يدور ويسبب له الجنون، نهض من مكانه واندفع

كالمجنون خارج الشقة كان لايرى بفعل الغضب.. الغضب الاعمى الذي حجب عنه كل رؤية..

صوان\.. صوان لن تكون لسواه ولو على جثته..

سيذهب.. وسيحشر رأس الرجل الذي تجرأ وفكر بها في أقرب صرفٍ صحي.. ويريه معنى التعدي على ممتلكات الجساس.. صوان له، مهما كان ومهما حدث.. فهي له..

سيصل قبل التمليك.. وسيطلبها لنفسه فهو أحق بها.. انه ابن عمها ولن يرضى ببديل..

هو سيملكها..هو سيكون زوجها قبل أن تعرف حتى..

وهناك.. في دبي..

سقطت صوان منهارة بعد أن ابلغتهم سعاد باتصال الجساس ومعرفته بالاخبار، كانت لاتزال مصدومة من أحداث اليوم المتلاحقة..

وصول سيف واوس بعد اتصال ابيها، حضور عائلة صلاح.. أمه وشقيقاته..

اصرار أمها على أن تكون الملكة بأقرب وقت ممكن.. واختيار صلاح أن تكون يوم الخميس القادم..
الموافقة السحرية وكأن هذا مايجب أن يتم، هذا هو الصحيح..
-لاتخافي صوان، جساس لن يستطيع الوصول اليكي..
-سيفعل مافعل في المرة الماضية..
همست بخوف ورددت بألم:
-أنا لن أتحمل فضيحة أخرى ياسيف.
-لن يفعل..
هتف اوس ثم طمئنها:
-ليس هناك أي خطوط طيران او رحلات متوقعة من مصر الى دبي خلال الاربع والعشرين ساعة القادمة صوان لاتجزعي، هو لن يخرب عليكِ حياتك من جديد ثقي بي.
التمعت دموعها وارتمت بين ذراعي اخيها الذي ضمها بقوة وهو يعدها:
-أنا هنا الى جوارك، ولن ارحل حتى تكون الامور منتهية فلاتخافي.

-أنا افعل كل هذا لأجل أمي ياأوس.. صدقني.
همست باكية ليومئ بأسى .. فقد عرف اليوم فقط ماتعانيه امه فاطمة.. وأن بداية الجلسات الكيماوية ستكون منذ الاسبوع القادم، تنهد وقبل قمة رأسها بينما يقول سيف بحزم:
-لاتقلقي ياصوان.. سنبعث لاحضار سلمى وترنيم ونقضي بعض الوقت هنا. ستجتمع العائلة كلها كالعادة وكماتعرفين لن يعقد قرانك سوى السلطان.. نحن كلنا لانريد سوى سعادتك وراحة قلبك.
-انا لاتهمني سوى امي.
همهمت بألم.. وهي تخفي نظراتها الميتة..
كلها ميت منذ الان لن تشعر بشيء من الفرح.. ابداً مهما حدث..
...
الخميس..
الثامنة والنصف مساءاً
مطار دبي الدولي..
انطلق جساس يركض ركضاً وهاتفه معلق على اذنه وهو يصرخ:

ـقلت لك اتركها امام البوابة ياالحمق..
سمع وابل الاعتذارات من رفيقه الذي عهد اليه احضار سيارة حال وصوله..
كان قد قضى معظم يوم امس في التنقل من مصر الى جدة ومن جدة الى ابو ظبي ومنها الى دبي..
كان سيصل الى دبي ولو كلفه هذا حياته..
لايزال لديه الوقت..
وجد السيارة أخيراً ونزع منها سائقها وانطلق بها لايولي..
صوانة ستكون له.. مهما فعلوا فهي لن تكون لسواه..
ابداً..
....
وقفت امام مرآتها أصابعها ترتجف وهي تعقد رباط الحرير لفستانها البنفسجي.. بكمي الدانتيل لاتجرؤ أن تنظر في المرآة لاتستطيع أن ترى عيني امرأة وهبت روحها لرجل.. بينما تُجمل جسدها لأخر!!
انسحبت بعيداً ووقفت أمام النافذة.. تاخذ النفس تلو الأخر من المساء المحمل بثقل الشتاء القادم،

اشتدت اصابعها حول اطار النافذة ولسعت حرارة الدموع عينيها، انها لن تبكي، لن تشوه مظهرها الكامل بدموع سيراها الكل من فرط الفرحة ووحدها ستعلم انها لاتمت للفرحة بصلة..
الليلة تنتهي اسطورة الحب ..
الليلة تنتهي صوان وجساس..
ستكون الليلة لصلاح..
"صواااااااااااااااااااان"
انتفضت بذهول وعينيها تنجرفان للأسفل..
مستحيل..مستحيل..
هو لن يفعلها مجدداً..هو لن يجرؤ، لن يقدر ..
جحظت عينيها وهي تراه يقف تحت نافذتها بجنون.. عيناه ورغم المسافة التي تفصل بينهما تستطيع رؤية الشرر المتطاير منهما يكاد يحرقهما، هزت رأسها بعنف دون أن تعي لتساقط دموعها، دون أن تعي أن ركبتيها تخذلانها وأنها تنساب أرضاً بلاحول ولاقوة..
ضمت ساقيها اليها وعينيها مغمضتان بقوة ولسانها يردد دعاءاً صامتاً أن يذهب..

رباااه ارجوك ليذهب الان قبل أن يحطم كل شيء..

"صواااااااااااااان"

عاد صوته يجلجل لتغطي أذنيها بكفيها بقوة لاتريد ان تسمع تدعو من كل قلبها ليختفي..يختفي من أمامها بأي شكل وبأي طريقة، فقط يختفي..

أرجووووك يارب.. أرجووووك..

توسلت بألم..

"صواااان تعالي معي"

صرخ بعذاب.. سمعت نبرته في كل حرف من حروفه، عذاب وألم بقسوة كل ماعاشاه معاً..

توسل دحر كل أثر للقوة والكبرياء في صوته..

توسل هدد حصون قلبها وجعلها ترتجف باستجابة ، قلبها يؤلمها تريد الركض نحوه والتسليم اليه، تريد أن تستسلم لواقع أشد جموحاً من الخيال..

ولكن..!!

"جسااااااااااااس"

أوس؟!

لمعت عينيها بأمل..
تقدم منه أوس بخطوات غاضبة ودفعه بعنف ليسقط على ظهره ممرغاً في الأرض، صرخ بألم بينما اوس ينهره بعنف:
-انت لن تفعل هذا مجدداً جساس، صلاح وعائلته بالداخل، لو سمعك احدهم، قد يقتلك صلاح أيها الاحمق.
غطى جساس وجهه بكفيه ولم يحاول حتى النهوض من على الارض هاتفاً:
-ارجوك أوس..ارجوك لاتوافق على هذا الجنون، لاتدعها تفعلها.
اندفع اوس يرفعه اليه بحركة قوية هاتفاً:
-توقف عن هذا الجنون، ابتعد عن صواان اتركها تعيش حياتها دعها تعيش يارجل.
نفض جساس قبضته المحكمة، وهتف بعنف:
-انت لست مسؤولاً عنا..انا وصوان نعشق بعضنا، لاتتدخل بيننا.
-انها لاتريدك، افهم هذا جيداً.. توقف عن محاولاتك العقيمة هي لاتريدك انه يوم عقد قرانها بحق الله.

اغمض عينيه بقوة وصرخ بجنون:
-لا لا.. انها لي.. صوانة هي لي أنا وحدي.. انها ابنة عمي انا سأدخل واوقف هذا الجنون، انها حقي، ملكي أنا.
امسكه اوس من تلابيبه بقسوة وهزه بعنف:
-انت ستغادر الان لن اسمح لك بالتدخل في سعادتها، ولن اسمح لأن تؤذي نفسك فخطيبها لن يقف مكتوف الايدي.
اشتعلت عينا جساس بالنار وصرخ:
-توقف عن قول هذا..ذاك الرجل لن يمس صوانتي هو لن يضع اصبعاً عليها الا على جثتي أتفهم؟
"أنت من لا يفهم"
همست بضعف.. لتلتفت اليها نظرات الاثنين..
اوس ينظر لها بتوتر..مدهوش قليلاً لرؤيتها بثوبها تقف مواجهة لجساس، وقد عقصت شعرها خلف عنقها وانسدلت طرحتها لتغطي كتفيها.
جساس من الناحية الأخرى وقف بعينين جاحظتين، عيناه تلتهمان مظهرها بالزينة الناعمة والثوب الذي نافس لونه لون زهرة بنفسج

مورقة، كما تخيلها من قبل كما ارادها طيلة عمره.. عروسه.. صوانته.. حبيبته..

"صواانة"

همس بخفوت وهو يقترب منها .. اراد اوس اعتراضه ولكنها منعته بحركة من كفه ليتوقف ويراقبهما بصمت.. توقف جساس عيناه لامعتين بنظرات عاشقة .. بدت رائعة الجمال.. كعروس من الجنة..

"أنت جميلة"

همس بشحوب لترفع رأسها وتنظر في عينيه..

"ربما..ولكنني لست لك"

توقفت دقات قلبه وانتفض كمن أصابته هزة كهربية..تراجع خطوة للوراء وهي تضيف بنبرة قاسية:

-ولن أكون لك.. أتفهم جساس..أنا لن أكون لك.

تقلص وجهه بألم وهمس بمحاولة أخيرة:

-لاتحكمي علينا بالموت صوان.. لاتدمري كل مابيننا.

-لاشيء بيننا .. افهم هذا ، انتهينا انا وأنت.. لاشيئ سيجمعنا سوى الموت.

همست بعذاب دون أن تنظر في عينيه.. فقط القتها ليتمزق قلبها بعده الى الف قطعة وأخرى..
شعرت بأنفاسها تعلق في طيات صدرها تخنقها..حتى لاتكاد تستطيع اطلاقها او السيطرة عليها..
تقتلها أنفاسها.. انتقاماً لمافعلته به.. تقتلها لتمنيها موته.. وموتها!!
رفعت عينيها لترى عمق الجرح في عينيه.. لتراه قد مات..
عينين خاويتين مكلومتين..مصدومتين.. ثم فجأة.. اقترب منها أكثر، انتفضت ولكنه لم يمسها.. فقط همس لأذنها وحدها.. نظر لها وعرف .. هي حقاً تريد الابتعاد، طيلة تلك السنوات كان ينظر اليها ويرى في عينيها رغبتها لتكون معه رغم كل الغباء المجنون الذي تتفوه به.. اليوم فقط..
اليوم فقط رأى صدقها..
"تـــم"
شهقت حين تراجع .. ناظرت ظهره المبتعد بخطوات واسعة بعينين جاحظتين..
ماذا فعلت؟ ماذا سيفعل ؟؟

راقبت بعينين جزعتين اختفاءه داخل سيارته وانطلاقه الصاروخي بها.. لتتابعه عينيها بذهول بينما اوس يقترب ليهمس لها :

-ماذا قلتي له؟

-اذهب خلفه.. لاتتركه وحده.

همست بخواء لينظر لها اوس بحدة قبل ان يأخذ نفساً عميقاً ويغلق عينيه متمتماً من تحت ضروسه:

-أنتما الاثنان..رباااااه يجب على احد أن يضع حداً لهذا الجنون.

وفتح عينيه لتقع نظرته الغاضبة على دموعها المنهمرة بلاتوقف..

-اذهب خلفه ارجووووك..اوس..قد يؤذي نفسه المجنون.

-بصراحة انا لااعرف من منكما الأكثر جنوناً.

صاح بعنف.. وغرز اصابعه في خصلات شعره الكثيفة ثم دفعها بكتفها بقسوة:

-ادخلي.. الجميع سيتسائل عن وجودك.. صلاح بانتظارك.

اتسعت عينيها بخوف وهمست باكية:

-ولكن.. جسااااس!"
نظر لها اوس للحظة قبل ان يهمس بعنف:
-أنت رفضته ياصوان..انت رفضته نهائياً.
تراجعت شاهقة بالبكاء بعنف.. ليلعن أوس بنبرة ساخطة ويتراجع نحو سيارته المتوقفة قريباً من الباب :
-ادخلي الان صوان.
راقبته لدقائق حتى اختفت السيارة عن ناظريها..
قبل ان تعود للداخل بخطوات متعثرة..لم يكن عليها أن تنزل، كان يجب أن تبقى فوق ..بعيدة .. تعرف جساس وتدرك تماماً مقدار جنونه ولكن..!!
ماقالته له..يالها من غبية وظالمة..
-صوان؟"
انتفضت ناظرة لترنيم التي اقتربت منها بسرعة:
-"هل أنت بخير؟"
-انا بخير"
همست بصلابة.. اصابعها ترتعش وهي تمسح وجهها لم تهتم لكحلها الذي سال على وجنتيها،

واغمضت عينيها بقوة تمنع فيضان دموعها لتسارع ترنيم بالقول:
-الجميع بانتظارك خالتي فاطمة طلبت أن أحضرك.
اومأت بشرود.. وبعدها لم تعد سوى دمية طيعة قادوها نحو الغرفة الواسعة حيث سيتم عقد القران فيها..كان صلاح هناك.. والده ووالدته بالاضافة لشقيقاته.. وابنه الصغير.
عائلتها امها وأبيها وعمها نضال ،سلمى وترنيم.... سيف كان هناك يقف بالقرب من والده.. عمها سيكون وكيلها.. انتفض قلبها بألم.. أين أوس.. أوس كان ليكون شاهدها..
جلست جوار عمها بالمقعد المتحرك والذي نظر لها بحنان وقبض على كفها بقوة..
عينا صلاح لاتفارقانها بينما تهرب بعينيها الى أي مكان أخر..
سمعت سيف يعلن ان القاضي جاهز لعقد القران.. وتجمد كل شيء حولها.. راقبت بعينين خاويتين كيف ارتص الجميع بحماس لمشاهدة القاضي يجهز الاوراق ويقرأ مقدمة عن الزواج

واهميته قبل ان يعلن اسميهما واسماء الشهود ويبدأ بتسجيل المعلومات في دفتره..
رأت صلاح يبتسم وهو يضع يده في يد عمها سلطان..ويكرر مايقوله القاضي بحماس.. يناقض تماماً ذلك البرود القارص الذي انتشر في عروقها..
سمعت رنين هاتف.. بعيد.. رفعت يدها لتضغط على صدرها بقوة.. لم يخفق قلبها بكل هذا الألم؟؟؟
لم لاتقدر على ابعاد الغشاوة التي اقتحمت عينيها ولم تمكنها من رؤية شيء..؟
"سيـــف؟!!"
صرخت بوجع لتقاطع مراسم زفافها وعينيها تنظران لوجه سيف المذهول.. هاتفه على أذنه بينما تتهاوى ساقاه تحته ليجلس على طرف مقعد قريب وهو يهمس بألم:
-وقع حادث"
"لاااااااا"
هتفت مخنوقة.. تهز رأسها دون أن تصدق..
جساااااااااااس.. جساااااااااس..

"اوس لم يتمكن من اللحاق به.."
قالها بشحوب..لتصرخ بوجع كطائر يذبح..
اقترب صلاح يريد ان يمسكها من كتفيها ولكنها كانت تنتفض بعنف تقفز لترتمي على سيف صارخة:
-لا..جسااس لاا..لا"
-سيف مالذي حدث؟؟ بني تكلم"
هتف والده بصدمة بينما صوان تناظره بذهول برجاء.. ليهمس مغالباً دموعه:
-أوس .. يقول انه عالق.. لم يقدروا على اخراجه.. السيارة.. السيارة تحترق.
سمعت الشهقات حولها..
ثم عم الصمت.. صمت غريب..تركها تواجه عيني سيف الباكية..لتتهاوى ساقيها تحتها..
"صواان"
هتف بها بألم لتصيح بوجع..
"لاااااااااااااااااااا"
لاااااااااا..لاااااااااااااا..

انهارت تحت قدميه تصرخ بلاتوقف.. يقتلها الذنب.. يعذبها الجنون..

جساس مات.. لقد نفذ أمرها ورغبتها..
جساس مات وتركها.. تركها وحدها..نفذ الشرط الاول وتبقى هي ..
لتلحق به..!!
****

نهاية الفصل

الفصل الثالث عشر

***
واتركوا ندبات جسدي..
فماهي سوى قبلات جمرِ اشتهاني
صوانة قدحتها فاشتعلت بي..
اوقدتني حتى الموت
اتركوا دليل عشقها
فكيف تعانقنا النار دون أن نلتحف بحرارتها
كيف أكون عاشقاً
دون بصمتها عليّ
***

اشتد زمهرير الريح في تلك الليلة الشتوية، وبدت برودة الليل تكليلاً لمشاهد كارثية والتي انتهت

بقسوة وألم، على قارعة الطريقة.. سيارة صغيرة سوداء.. بالكاد تظهر معالمها،، تحطمت كحبة بسكوت هشة.. وانقلبت على ظهرها عجلاتها تدور في الهواء بعد ان طارت في الهواء لعدة لحظات.. واشتعلت فيها النار.

بجوارها قاطرة ضخمة انبعجت مقدمتها وبعض من بدنها الصلب. وسيارة اسعاف بيضاء.. تدور سرينتها بجنون.. سيارة اطفاء تحاول عدم التدخل بينما رجال الدفاع المدني يشقون بدن السيارة لاستخراج الجثة منها قبل امتداد النـــار.

وفي الطرف البعيد وقف مذهولاً يراقب ماحدث وكأنه فيلم سينمائي، بدلته الحريرية متسخة بفعل دحام السيارة التي حاول اخراج ابن عمه منها، ولم يقدر!!

كان الجساس عالقاً ..

عادت ذاكرته للوراء لدقائق معدودة..

كان يحاول اللحاق بسيارة جساس ولكنه لم يقدر، جساس كان ينطلق بسرعة مخيفة وكأنه يحاول قتل نفسه بالفعل!

مجنونان..فكر أوس بحنق وهو يزيد من سرعته وسيارة جساس تختفي من أمامه ويفقد رؤيتها بلحظة وحينها سمع ماكان يخشاه.. دوي هائل..وفي الافق أمامه رأى سهم من نار يشق السماء ليسقط قلبه بين قدميه وهو يسرع بالسيارة اكثر..

حين وصل الى مكان الحادث لم يصدق عيناه.. خرج من سيارته ويداه فوق رأسه.. كانت سيارة جساس ملقاة على قارعة الطريق.. عجلاتها في الهواء ومقدمتها مهشمة..

اقترب يصرخ باسم قريبه بجنون.. كان بالداخل.. حاول فتح الباب وعيناه تلتهمان جسد جساس الهامد..شاحب وخيط من الدم ينساب على جبينه وعنقه مبللاً قميصه..

"جساس..جسااااس انهض"

صرخ أوس برعب.. دون أن يجد اجابة .. حاول فتح الباب ولم يقدر.. شعر بشخص ماخلفه يقول بتوتر انه قام بالاتصال بالدفاع المدني.. ولكنه كان في حالة بعيدة عن التصرف بواقعية او التفكير بشيء سوى اخراج جساس من السيارة

..حاول مجدداً مع الباب ولم يقدر.. لذا تراجع ونزع سترته ولفها حول ذراعه قبل أن يحاول تحطيم الزجاج القوي.. حاول عدة مرات ولم يفلح.. كان يخشى المحاولة اكثر لتتحطم النافذة وتؤذي جساس..

وعاد الرجل خلفه يصرخ:

-دعني اساعد.

التفت حينها ليجد معه عتلة..كان سائق القاطرة التي اصطدم بها جساس..

أوس كان في حالة ارتباك..تراجع وهو يرى الرجل يستخدم العتلة لفصل قفل الباب دون فائدة ثم استخدمها لكسر النافذة, سارع اوس نحو جساس.. تحسس رأسه بقلق وصرخ به:

-جساس انظر لي..استيقظ ياخي..ارجوك جساس استيقظ.

لم يلقى اي رد..بشرة جساس ازدادت شحوباً.. شفتاه مزرقة..

تحسس اوس جانب عنقه بيأس..النبض كان ضعيفاً بالكاد يحس.. رباااااه..

كادت الدموع تنهمر من عينيه وهو يحاول تخليصه من وسادة الامان التي حشرته اكثر وأكثر..

-جساااااس.. ساعدني بالله عليك استيقظ ياأخي.

كان يحاول اخراج ساقيه المحشورتين.. ولكن.. تيبس مكانه وهو يشعر بالبلل..

رفع يده لتتسع عيناه بذهول وهو يرى الدماء.. كانت ساقه محشورة في شيء ما.. وكانت تنزف بغزارة، تراجع بذهول.. نظر لوجه جساس كان الشحوب يزداد.. وضع يده على جانب عنقه.. النبض ..اختفى..

"جساااااس"

صرخ بعنف.. وسمع صوت قرقعة مميزة جعلته يلتفت ليجد محرك السيارة يشتعل ببطء..

اتسعت عيناه وحاول ابعاد وسادة الامان والتي اعاقت حتى حركته، كانت النار تقترب بصورة مخيفة وتعالى من خلفه صوت سرينة الاسعاف..

كان يتشبث بياقة قميصه ويهزه بجنون:

-جساااااااااااااااس انهض جساااااااااس.

شعر بالرجل خلفه يجذبه بعنف:

-اتركهم يقوموا بعملهم..
صرخ به ليجد ان رجالاً بزي موحد ينقضون على السيارة.. بعضهم يحاول ان يطفئ النار والأخر يقطع بدن السيارة والاخر يتفقد علامات جساس الحيوية.. ثم سمع المقولة القاتلة..
"انه ينزف بغزارة وبالكاد أحس بنبض علينا اخراجه لاجراء انعاش قلبي في الحال"
تراجع بذهول..
ثم أخرج هاتفه..واتصل بسيف..
لم يعرف ماذا يفعل.. كان ولأول مرة يشعر بالخوف حقاً..
ماان سمع صوت سيف حتى همس بشحوب:
-وقع حادث..وجساس عالق في السيارة المحترقة"
لم ينتظر ان يسمع الرد..كان يتهالك على قارعة الطريق ويراقب بذهول كيف تعاون رجال الدفاع المدني على شق بدن السيارة ومحاولة اخراج جسد جساس..
اكثر من خمسة عشر دقيقة قد مرت.. وهم يحاولون تخليصه.. النار امتدت الى قمرة القيادة،

وهم لايستطيعون ايقافها قبل اخراجه حياً.. سمع صوت الصرير وعرف ان المزيد من السيارات قد وصلت.. سمع صوت سيف يصرخ باسمه.. ثم سمع صوت الصوانة..

"جساااااااااااااس"

كانت هناك لوعة.. ألم ووجع!!

قفزت من سيارة سيف قبل حتى ان تتوقف بالكامل.. واندفعت غير ابهة لثوبها الطويل ولاطرحتها التي كانت تطير حولها، كانت عينيها تراقب بذهول وقد وصلت في الثانية التي استطاعوا اخراج جساس من بدن السيارة المحطم، اتسعت عينيها وتصلبت..

ثوبها يتطاير بفعل الريح..وطرحتها تتمايل حولها ..قبضتيها على جانبيها وفمها مرتخي.. دموعها التي ذرفتها توقفت عن الجريان هي فقط تيبست وانتظرت بصمت.. وضعوه على الأرض، كان وجهه شاحباً يحاكي وجوه الموتى.. وجانب وجهه ممزق.. اختلطت الدماء بجرح عميق تسببت بها النار التي لهفت جانبه بقسوة،كانوا يحاولون انقاذه.. كان هناك امل.. فقط هي

انتظرت بصمت.. كل عرق من عروقها يدعوا.. ويبتهل الى الله أن ينجو..
أنفاسها توقفت..تقسم انها لن تأخذ نفساً حتى يأخذه هو..
"أرجوك لاتمت.."
همست برجاء.. تراهم يشقون قميصه ويضغطون بقوة محاولين اعادة ضربات قلبه..
جهاز ما بجوارهم يطلق صفيراً متواصل!
"أحبك جساس فلاتمت.."
عادت تهمس بدموع انسابت بصمت على وجنتيها..
"سامحني ياحبيبي.. ارجوك..سامحني ولاتتركني وحدي.."
"لاتوجد استجابة اعطه المزيد من الابينفرين"
هتف الطبيب بتوتر..
صوان اقتربت بخطوات بطيئة.. تنظر اليه ملامحه الشاحبة تزداد شحوباً وتعرف ان جسده بارد كالثلج..
"سيدتي عليكي أن تبتعدي"

هتف بها رجل الاسعاف ولكنها لم تهتم ركعت الى جواره متجاهلة الكل حولها.. جهاز المراقبة يظهر خطاً مستقيماً مثير للاعصاب.. لايزال احد المسعفين يضغط على صدره بقوة..والاخر يضخ عدة أدوية في وريده والثالث يضخ الهواء عبر انبوب شفاف الى فمه ..

تسللت يدها لتسرق كفه الملقاة بلاحراك.. صدمتها برودته..

"ابتعدي الان سيدتي"

صرخ بها الرجل ولكنها لم تهتم.. قبضت على كفه الباردة جداً والملطخة بالدماء ووضعتها على صدرها هامسة

"انا بانتظارك حبيبي..ارجوك جساس لاتتركني وحدي."

ثم لامست الخاتم المحيط ببنصره الأيسر وقربته الى شفتيها وهي تنتفض بألم وتهمس بوجع:

-انا قبلت بك جساس..انا زوجتك الان الى الأبد.

ثم ضمت كفه اليها وهمست:

-ارجوك أن تاخذ نفساً ارجوك حبيبي..

انسابت دموعاً أكثر وتقلصت أحشائها وهي تشعر بألم الاختناق الفعلي وهي تصر على عدم التقاط نفس دونه:

-انا اختنق بدونك جساس..انا لن اتنفس حتى تفعل حبيبي..

كانت انفاسها عالقة في صدرها.. تشعر بالاختناق.. لم تعد تقدر على كتم انفاسها لوقت أطول.. تشعر بغمامة سوداء تظلل عينيها.. لاتزال تتشبث بكفه بقوة ترجو الله بلاتوقف..

-انه لايستجيب.. انه غائب منذ اثنى عشر دقيقة"

اغمضت عينيها بقوة تعتصر كفه بين كفيها وتضمه الى صدرها.. على دقات قلبها مباشرة، الضربات القوية تكاد تحسها تنتقل الى كفه عبر جلدها الرقيق، حرارتها وحيويتها..

-ارجوك حبيبي..ارجوك يازوجي الحبيب.

لم تعد تحتمل.. الضغط على اضلاعها كان جحيماً.. شهقت حينها.. بألم لاستجلاب اكبر قدر من الهواء الى رئتيها..

كميت يعود للحياة..

كشهقته هوحينهـــا..

وان كانت أضعف.. أخف.. أقل حجماً..
صاحبتها فوضى عارمة من كل من حوله..وصفير مدوٍ من جهاز المراقبة..
-لقد عاد قلبه ينبض..انه يأخذ نفساً ضعيفاً"
نشجت بجنون .. تتشبث بذراعه.. لاتفلتها رغم محاولة رجل الدفاع المدني انتزاعها صارخاً:
-علينا نقله الان سيدتي يجب ان نذهب"
-صواااان"
احاطها أوس بذراعيه لتتفجر دموعها من جديد وهي تُجبر على افلاته ومراقبتهم يأخذونه بعيداً..
ارتمت على صدر اوس الذي ضمها بحنان هامساً:
-سينجو..سينجو من أجلك صوان"
-خذني اليه..ارجووووك أوس خذني اليه"
تمتمت بذهول..لاتستطيع السيطرة على اعصابها..كل ماحدث جعلها لاتقوى حتى على النهوض.. حملها اوس حملاً الى سيارته.. ورأى سيف يقود خلف السيارة التي تحمل أخيه وأسرع هو خلفه...

....

لم تتحرك من مقعدها امام غرفة العمليات.. لم تهتم بمن يصرخ من طاقم المشفى..لم تهتم برأي أوس او سيف.. ولاحتى محاولة والدتها وترنيم الناعمة..

لاتستطيع الابتعاد.. لاتقدر على التحرك.. كل من يمر من أمامها يناظرها باندهاش، ثوبها المبهرج المصمم لعروس والمضرج بالدماء، سمعت همسات من حولها تنعي العروس الشابة الذي لابد تبكي عريسها..

الكل يظن أنه كان يسرع اليــها ووقع الحادث!!

نظرت لدماءه على كفيها واغشوشت نظرتها بالدموع المنهمرة وهي تضمها الى قلبها وجسدها كله ينتفض في توسل الى الله أن يمد في عمره.. ان يحفظه لها والى الأبد..

-صوان.

أخرجها صوت عمها من غيبوبة الصدمة لترفع عينيها وتنظر اليه..

كان يجلس على مقعده المتحرك.. عيناه ضبابيتين بفعل الدموع، ملامحه مجهدة:

-عماااه؟!

-عودي الى المنزل ابنتي، لامكان لكِ هنا، عودي لترتاحي قليلاً.
"أرتاح؟!"
تسائلت بغباء ثم سقط رأسها الى الخلف ليرتطم بقوة بالجدار خلفها دون أن تشعر، دون ان تهتم فقط بكت بوجع ونشجت بألم وهي تهمس:
-كيف؟! كيف أرتاح وهو.. هو لا..
-توقفي يابنتي، توقفي..
قالت فاطمة بألم وهي تجلس جوارها وتحيطها بذراعيها بقوة بينما صوان تئن بوجع، هامسة:
-جسااااس أمي.. جسااااس سيمووووت..
-لا لا بنيتي..ان شاءالله هو سينجو، هو رجل قوي.. سينجو حبيبتي.
بكت فاطمة بمرارة وقلبها يتوسل نجاة ربيبها الشاب القوي.. لم تره حين أحضروه، ولكن رؤية صوان بالدماء تلطخ كفيها وثوبها جعلها تشعر بالألم مضاعفاً..
وفي الناحية الاخرى كان سيف يتهالك جالساً الى جوار أوس الذي كانت عيناه تحترقان برغبة في البكاء وهو يقول بألم:

-أنا السبب، لم يكن علي تركه يذهب، كان يجب أن أدخله الى المنزل وأقيده الى كرسي، ذلك الأحمق، ياربي.. يارب الكون أتوسل اليك..

اختنق صوته بينما سيف يستند بيديه على ركبتيه ويغرق وجهه بكفيه بمرارة..

رؤيته لشقيقه الأصغر غارقة بدمه، وجهه أدمته النار وساقيه.. رباه ساقيه ..

-ماذا سأقول لأمي؟!

همهم بصدمة.. يحرك رأسه يمنى ويساراً وهو يقول:

-كيف أخبرها أن صغيرها..؟؟!!

وتعلقت باقي حروفه بكلمة الموت تخشاها وتهاب وقعها ليقع عليهما الصمت في انتظار مؤلم عصيب، يفصل بين الحياة والموت.

-عماه أريد أن أعرف مالذي يحدث هنا؟!

دمدم صلاح بقسوة لينظر له حسن الشيب بأسى وهو يقول:

-انها مصيبة بني، فاجعة لايمكن أن يصدقها عقل..

نظر صلاح بتوتر لصوان..

منذ حدث ماحدث وهو في حيرة وقلق.. لايعرف كيف يتصرف، ردة فعل صوان لم أصاب قريبها لم تكن عادية ولامتوقعة، لقد انهارت تماماً ومضت بعدها تركض كالمجنونة خارج المنزل، لولا سيف اخذها معه في سيارته لكانت مضت ركضاً لامحال..

-وهي؟! مالذي يعنيه لها ذلك الرجل؟

هتف بحنق وغيظ اشتعل من اعماقه لينظر له والدها باستنكار قبل ان يهمس مغالباً ارتباكه:

-الجساس.. الجساس وهو ابن عمها، وقد تربيا معاً.. فاطمة زوجتي ربته على يديها منذ كان طفلاً.

-تلك لم تكن ردة فعل عادية عماه..

زفر بحنق لتظهر العصبية ونفاذ الصبر في وجه حسن:

-ألاتظن أن الوقت غير مناسب البتة لمثل هذه الاقاويل؟؟

عاد صلاح ينظر لصوان وكيف انكمشت تنشج بالبكاء بين ذراعي امها ثم التفت لعمه وقال بتوتر:

-متى سنكمل اجراءات عقد القران، صوان لم توقع بعد وكذلك الشهود؟

-رباااااااه..

هتف حسن بذهول ثم تمالك نفسه وضم قبضتيه اليه وهو يجز على أسنانه بقوة:

-ان ابن أخي الصغير يرقد في داخل تلك الغرفة بين الحياة والموت وأنت تفكر في اكمال عقد القران؟!

تراجع صلاح وقد استشعر غضب الرجل والذي ضغط بأصبعيه على جبينه هامساً بنفاذ صبر:

-انه وقت عصيب ياصلاح، العائلة وصوان.. اننا نمر بوقت رهيب بني، عد الى منزلك، وحين تهدأ الأمور سأتصل بك.

زم صلاح شفتيه بتفكير ثم تراجع ليومئ برأسه، ألقى نظرة طويلة على صوان ثم استدار لتتصاعد صوت خطواته في الممرات الهادئة جداً..

حينها اتى نضال..

-هل خرج احدهم ليبلغنا بأي شيء؟

هتف بتوتر ليحرك حسن رأسه بمرارة ثم نظر لابنته المنهارة وعاد بعينيه لأوس وسيف المصدومين..
ثم التفت لأخيه..
-تعال.. السلطان بحاجة الينـــا.
قالها لنضال الذي فز ليسرع نحو أخيه الجالس بشرود عينيه لاتفارقان باب غرفة العمليات..
وبعد ساعات مرت كالجحيم.. خرج أحدهم..
نهض الجميع وكانت صوان قبلهم تقف مترقبة وجه الطبيب الذي رفع يديه وقال بسرعة متجنباً اسألتهم المتلهفة:
-المصاب لايزال في مرحلة الخطر،..
-ماذا تعني؟
هتف السلطان بصعوبة بينما شهقت صوان بوجع وهي تراجع تكاد تسقط ليسندها أوس بقوة والطبيب يواصل:
-كنا قلقين من تعرض المخ لأضرار دائمة وبالذات بعد بقاءه في السيارة المحترقة وفقدانه للتنفس لفترة لابأس بها ولكن الحمدلله ، من هذه الناحية فهو بخير.. ومن الناحية الأخرى لقد نزف

الكثير من الدم نقلنا له خمس وحدات ولازلنا نريد..
-أنا وأوس بنفس فصيلة دمه وقد تبرعنا له من قبل، نحن سنعطيه الدم.
قالها سيف بلهفة ليومئ الطبيب ثم يسترسل:
-لقد تعرض لحروق بنسبة 15 بالمائة من جسده، كلها من الدرجة الثانية وستحتاج لبعض الوقت لتتماثل للشفاء في جانب وجهه الايسر وعنقه وذراعه واعلى منطقة الصدر.
-اااه ياولدي..
صرخت فاطمة بمرارة وانهارت أرضاً ليتلقفها زوجها ويحملها لأقرب كرسي بينما تتسع اعين الجميع والطبيب يواصل وقد قرر القاء كل ماعنده دون تردد:
-الاصابة الثانية والأكثر خطورة هي لساقه اليسرى.. لقد حُشرت بين المقعد والباب وقطعة معدنية حادة اخترقتها لتمزق العضلات وركبته اليسرى اصيبت ولا أظنها صالحة بعد الأن.. ثم هناك عصب الساق..

هز سيف رأسه بذهول وهو يفكر بكل تلك الاصابات التي لاتعني سوى شيئاً واحداً..

-ماذا عن العصب؟

تسائل أوس بخوف ليتنهد الطبيب ويجيب:

-العصب مدمر كلياً.. لقد تمزق بشكل كبيربسبب القطعة المعدنية، واعادته الى طبيعته لن يكون سهلاً ابداً..

ابتلع سيف ريقه وتسائل:

-ماذا يعني هذا؟

خفض الرجل عينيه وقال بتردد:

-سيبدأ الفريق المختص بإجراء العملية حال تحسن علاماته الحيوية، ولكننا لانعطيكم اية ضمانات.. العصب المصاب هو العصب الرئيسي المغذي للساق كلها، واذا لم نقدر على اصلاحه.. فقد نضطر لبترها تماماً..

"يالهي"

همس والده بألم واخفى وجهه بين كفيه، بينما توقف سيف بذهول وأوس.. أوس اشتدت ذراعاه حول صوان التي صرخت بعذاب وقبضته تهوي

بقوة على الجدار جواره حتى كاد يحطم سلامياته...
لقد تحطم الجساس..
تحطم تماماً..
كان يشعر بإرتجافة صوان ويسمع صرخاتها الشاحبة، لومها لنفسها.. محاولتها التحرر من قبضته وهي تنشج بهستيرية أنها السبب في كل هذا..
"صوان توقفي، ستؤذين نفسك"
هتف بألم ولكنها كانت في حالة يرثى لها.. تتخبط بجنون حتى انضمت اليهن احدى الطبيبات وممرضة واشاروا عليه لنقلها..
وضعها على سرير في غرفة مجاورة، وثبتها بقوة على الفراش بينما تحقنها الممرضة بسائل مهدئ، أخذ بعض الوقت حتى جعلها تهمد تماماً، ويخفت نشيجها وتسبل عينيها وهي تغيب كلياً..
نظر لها بمرارة.. ثم شعر بمن يقف خلفه..
-خذها وعمتي واعدهم الى المنزل.
كان سيف ورد أوس بتعب:

-وأترك الجساس؟؟ أترككم هنا واعود مع الحريم؟

زفر سيف بضجر وقال بتجهم:

-لاتكن أحمقاً، جساس خرج من غرفة العمليات وهو في العناية الأن ولافائدة من تواجدنا كلنا للانتظار، والدي وعمي حسن سيبقون معي فأبي يرفض النقاش بأمر عودته، عد انت بهن ووالدك ثم تعال في الصباح، حاول ان تخلد للنوم سنحتاج أن نكون بكامل وعينا.

-وأنت؟!

-سأبقى الليلة وان ظلت الامور كماهي ستبدلني في الصباح، حتى نقدر على الاستمرار ثم انني سأحاول الاتصال وابلاغ امي بالخبر.

زفر أوس بعصبية ثم أدرك أنه الحل الافضل والاكثر عقلانية..

لذا أخذ امه فاطمة وحمل صوان النائمة الى السيارة ولحقهما والده بأخرى الى المنزل..

حين دخل الى البهو حاملاً صوان بين ذراعيه انتفضت اليه سلمى تسأله بقلق والدموع لاتتوقف عن الجريان على وجنتيها:

-اوس أين سيف؟؟ كيف حال جساس؟؟
لم يجبها أوس بل اتخذ طريقه الى فوق حيث غرفة صوان في حين التفت نضال لسلمى وقال لها بارهاق:
-جساس لايزال في غيبوبة بنيتي وحالته ليست مبشرة، لايسعنا سوى الدعاء.وسيف سيقضي الليلة هناك.
شهقت بألم وبكت بمرارة وصورة أخيها محمد الذي قتل بغدر في حادث مشابه تعود لذاكرتها..
فوق ..
وضع أوس صوان على سريرها وجاورتها أمها والخالة سعاد التي كانت تنشج بلاتوقف بينما أوس يقول بإرهاق:
-ساعديها ياخالة بتغيير ثوبها، انها نائمة بعمق ولن تستيقظ الان.
دمدمت العجوز بالموافقة ليقترب أوس من فاطمة ويجذبها بحنان:
-تعالي أمي.. أنت تحتاجين لأن تغيري ملابسك وتخلدي للنوم، لانريد ان تقعي أنت الأخرى.

اجهشت المرأة ببكاء مؤلم وهي ترتمي على صدر أوس الذي عانقها بحنان وهو يقول:
-لاتبكي أمي.. ادعي له، وادعِ لنا جميعاً..
-انا المخطئة.. أنا أرغمت صوان وضغطت عليها لتقبل بصلاح.
اغمض أوس عينيه بقوة والذنب يتآكله وكأن ماحدث للجساس مؤامرة من صنع أيديهم جميعاً..
هو ضحية تجاهلهم وعدم اجتماعهم على صوان واقناعها رغم الحب الكبير الذي تكنه له.
-الوقت غير مناسب الان أمي.. الأن علينا أن نبقى أقوياء، من أجله .. من أجل صوان.
اومأت فاطمة متمالكة دموعها وهي تتراجع لتساعد سعاد في التغيير لابنتها فيما يشق أوس طريقه خارجاً لايعرف الى أين يذهب، غرفته القديمة أم..؟؟!
"أووس!!"
انتفض وهو يلتفت للخلف..
"ترنيم؟؟!
اتسعت عيناه بذهول.. لقد نسيها في غمار تلك الفوضى.. نسي انها هنا معه؟!

اقتربت منه.. عينيها لاتفارقان عينيه.. تحمل وجلاً وقلقاً بينما ترتفع يدها بتلقائية لتلامس جانب وجهه.. ابهامها يمر بسلاسة عبر جسر أنفه وجنته ثم طرف فمه..

-ترنيـــم..

همس بخشونة.. احتياجه يصرخ من عينيه ولم تبخل عليه.. اقتربت منه واندست بين ذراعيه تحيط ظهره بذراعيها بقوة، تسند رأسها الى دقات قلبه الهادرة وتزرع دفئها في أحشائه الخاوية..

ووجدت ذراعيه طريقها حولها.. التفت بسهوله حول قدها الضئيل، ضمها بقوة.. بل بقسوة ولكنها لم تشتكي..

تسللت أصابعه لتحيط خصرها ورفعها لتوازي عينيها عينيه المظللة بالحزن..

ذراعيها ارتفعتا بانسيابية ملامسة ذراعيه ،كتفيه، ثم أحاطت بوجنتيه قبل أن تحيط بعنقه وتنغرس أصابعها في كثافة شعره الطويل نسبياً وهي تهمس اسمه قبل ان ترتمي عليه.. ذراعيها

تتعلقان بعنقه، ورأسها يميل ليندس في تجويف عنقه.. وأوس يسحقها على صدره..بقوة وجنون.
رباااه مايفعله حضنها به..
هو لايريد الابتعاد هذا مكانه.. وطنه..
بين ذراعيها أمانه ودفئه..
دفعها للخلف، كانت غرفته هناك، الغرفة التي عاش بها طفلاً وصبياً ثم مراهقاً..
اغلق الباب بدفشة من قدمه ثم مضى بها الى الداخل.
جلس الى أقرب مقعد ووضعها برفق على ساقيه.. ولاتزال معلقة به، ترفض الابتعاد ولو حتى قليلاً.. ترفض أن تنفصل عن ملامسته..
"ترنيم؟!"
همس يحاول النظر لعينيها.. ولكنها لم ترضى..
تمتمت رفضها وهي تعاود الاندساس في دفئ حضنه ليبتسم رغماً عنه ثم تكدرت ابتسامته وهو يستشعر انتفاضة خفيفة.. كانت تبكي..
عقد حاجبيه بقوة وقلبه يغور بين ضلوعه ..
-هيه.. ترنيم؟! انظري الي.. حبيبتي..

همس لها بخفوت..ثم استخدم قوته ليجبرها على فك ذراعيها من حول عنقه، والنظر لعينيها، رأى دموعها تنساب برقة على وجنتيها رأى الألم والأسى وحملت عينيه تساؤله لتهمس بصوت مخنوق:

-أنا.. ظننت..

واختنقت عبراتها لتخفض عينيها وتبكي بألم جعله يشد على قبضتيها بقسوة وهو يهزها:

-ظننتِ ماذا؟؟

لم تجبه ليهزها مرة أخرى وهو يطالبها بعنف:

-تكلمي..

-ظننتك أنت..

هتفت بإرتياع.. لتتسع عيناه وتفلت يديه قبضتيها فتسارع للنهوض والركض بعيداً عنه..

هل ظنت أنه من ارتكب الحادث؟؟

ألهذا كانت تبكي؟؟ تبكي من أجله؟؟

نهض بشرود وراقب كبف التجئت للفراش الوحيد في الغرفة وتكورت في ركن منه.. كانت لاتزل ترتدي ثوبها الطويل بالأكمام الضيقة

وفتحة العنق المثلثة العميقة والذي ارتدته لحفل الصوان، راقبها بذهول..
كانت خائفة عليه!!
خلع سترته ونظر لقميصه الذي تلطخ ببعض الدماء.. وشعر بالوجع والقهر..
اندفع الى الحمام وارتمى تحت رذاذ الماء الدافئ..
ترنيم من الناحية الأخرى نشجت بصمت، تعي خطورة ماوقعت به من أسى.. من ألم وهي تظنه هو!!\
لاتزال خجلة من شعورها بالارتياح لأن جساس هو المصاب وليس أوس!
ليست أنانية.. انها لاتريد أن يصيبه مكروه، هو زوجها، الأقرب لها .. والأبعد.
انها تتعلق به يوماً بعد الأخر.. تخشى أن تفقده ولو لبضع ساعات، تخشى ابتعاده بقدر ماتخشى اقترابه..
تبحث عنه كلما اختبأت منه.. تلجئ إليه في لحظة هروبها منه.. تشكو اليه حين يغضبها.. وتعود اليه حالما يشيح عنها..

كانت حالة وطـن.. مركز العالم.. كونها الصغير الذي ليس لها سواه!!
أوس فتح الغطاء للقمقم الذي تختبئ بداخله منذ سنوات..
ولم يتبقى سوى أن يكتشف الطريقة كي يدخل لها أو يخرجها منه..
شعرت به حالما خرج من حمامه.. نهضت ونظرت له.. كان يجفف جسده أمام الفراش، لاتزال التقطيبة تملأ وجهه وعينيه، تعلقت نظراتها بخصلات شعره التي استطالت لتلامس رؤوس كتفيه وانسابت قطرات الماء لتتساقط على كتفيه ومقدمة صدره العريضة بشعيراته السوداء الناعمة..
-هل يعجبك المشهد؟
تسائل بسخرية وهو يلتقط قميصاً قطنياً ليرتديه وراى كيف احتقن وجهها بالخجل وهي تحاول ان تخفي نظرتها من عينيه الثاقبتين ليقترب بسرعة ويقف امامها تماماً، كانت تواجهه جالسة على الفراش. وحين رفعت عينيها لتنظر لوجهه قبض على وجنتيها بأصابعه وهو يتسائل:

-ماذا أفعل معكِ ترنيم؟
شحب وجهها وهزت رأسها بجهل ليزفر نفساً عميقاًوينحني لتمتقع بشرتها وقد لفحتها أنفاسه الدافئة، يقترب من شفتيها المنفرجتين ذهولاً:
-هناك الكثير.. والكثير.. لأفعله.. لأعلمك..
-أنا لااريد.. لاأريد منك شيئاً..
همست معترضة.. عينيها في عينيه ليجيب بصوت مثخن بالعاطفة:
-من أداب الحديث مع سيدة، أن تنصت لعينيها أولاً***.
رفعت حاجبيها واغلقت فمها بينما يواصل هو بإبتسامة:
-وعينيكِ تقولان أنك تريدين ترنيم.. تريدين ماسأفعل.. وماستتعلمينه.. لسانك الطويل هذا سأعلمه اولاً كيف يخرس..
-لاا..
تراجعت هاتفه بسخط وقد تسلل صوته المشروخ بفعل عاطفته البدائية لمسامها وجعلها تهتز خوفاً.. وشوقاً الى ماكان يعرضه..ولكنه لم يسمح لها.. قبضته اشتدت حول وجنتيها وقبل ان

تتحرك اكثر كان يقتص من لسانها الطويل على حد تعبيره ويقبض على فمها بقبلة قاسية متحكمة جمدتها مكانها وهي تغلق عينيها بقوة ويديها ترتفعان بسرعة لتدفعه عنها.. ولكنه لم يترك لها المجال فقد ابتعد بأسرع مما اقترب، وتركها تسقط على الفراش وهي تشهق بانفعال بينما يبتعد هو بزفرات طويلة قبل أن يدور حول الفراش للجهة الأخرى ويستلقي مديراً ظهره لها وهو يقول بحزم:

-اذهبي وغيري ملابسك وتعالي للنوم.. لقد تأخر الوقت.

نهضت متعثرة، تريد الابتعاد عنه ولاتقدر على السيطرة على ساقيها اللتين تهددان بالالتواء تحتها بين لحظة وأخرى، لايزال طعم قبلته الممزوج بطعم النعناع لمعجون اسنانه يرسل اشارات عصبية مجنونة لأطرافها..

دخلت الحمام واغلقت الباب خلفها.. الليل لايزال طويلاً..

وهي؟!

هي متعبة ومرهقة وستواجه ليلة أخرى دون الخلود للنوم، لن تنام معه في نفس الغرفة، هذا من رابع الم يكن عاشر المستحيلات.. هذا الرجل سيدمرها قبل أن يعي هذا.. وهي .. هي ستسقط بلاحول لها ولاقوة.

تأخرت في الحمام، عـلها حين تخرج تجد أنه قد استغرق في النوم، غيرت ثيابها الى ثوب نوم قطني يصل لمنتصف ساقيها بكمين طويلين ورسومات مختلفة لدب الباندا.. أسدلت شعرها وخرجت اليه..

ولكنه لم يكن نائماً..

كان يقف أمام النافذة مديراً ظهره لها، ابتلعت ريقها بصعوبة بينما قال لها بسخرية:

-كنت سأدخل لأطمئن عليك؟ هل تعانين من مشاكل ما؟

احتقن وجهها وأسدلت شعرها لتخفيه، لم تكن تعرف مقدار ماكانت تبدو عليه من جمال، كان قد اختار هذه اللحظة بالذات ليلتفت وينظر اليها..

تأملها مسحوراً.. لقد صاحب أجمل نساء هذا العالم.. الانجليزية.. البرازيلية.. الايطالية..

العربيات من مختلف الجنسيات.. الأمريكيات.. لم تكن احداهن تملك مثل هذا السحر الذي يحوطها، ربما كانت البرائة، التمنع الذي تمارسه، أو هو الغموض الذي يلفها..

انها زوجته منذ اسابيع.. ومع هذا هو لايعرف عنها شيئاً!!

"رباااااااااه ماذا ترتدين؟؟"

هتف باستنكار ليقطع تلك الثواني الثمينة من شعورها بالخجل وترفع له وجهاً مصدوماً وقد اختفت حمرته لتراه وقد أمسك جانب رأسه وهتف بألم:

-رأسي.. لقد أصبت بالصداع.. يالهي..

-هل أنت جاد؟ ثوب نومي أصابك بالصداع؟

هتفت بانزعاج ليقترب منها ويقبض على مرفقيها هاتفاً بحنق:

-أنت كلك تصيبينني بالصداع ترنيم..

اتسعت عينيها بذهول ليفلتها ويتجه نحو الفراش، خلع قميصه رامياً اياه على الارض ثم استلقى زافراً بغضب وهو ينظر للسقف:

ـلقد قضيت أسوأ يوم في حياتي، ابن عمي يرقد بين الحياة والموت وأعود للمنزل لأجد...
وحبس لسانه وهو يغمض عينيه بقوة..
رباااه ماذا فعلت؟!
فكرت بهلع.. لم تكن القصة بثوب نومها القديم؟؟
لا لا..
هي لم تسأله حتى عن جساس منذ وصل.. لم تهون عليه .. حتى حين ضمته بين ذراعيها فعلت ذلك لنفسها..
لأن تطمئن روحها أنه لايزال معها بالقرب منها ولن يتركها..
هي لم تفكر به.. أبــداً.
...
لايعرف لم هذا الاختناق الذي يشعر به، لم يريد أن ينهض الأن ويكسر رأسها، أو ربما ينزع ذلك الثوب القبيح ويمزقه من عليها بلاتردد.
زفر احباطه محاولاً الهدوء، الاسترخاء..
ولكن..!!
جسده كله اشتد كوتر واشتعلت الكهرباء من أطرافه حتى الأعماق..

كانت تلمسه..
فتح عينيه على وسعهما ونظر لهابغضب:
-ماذا تفعلين؟
تجاهلت ضربات قلبها الهادرة والتي تعلن أنها مجنونة ومخطئة ويجب عليها أن تهرب أن تفر، وتجاهلتها..
أصابعها تنقلت بسلاسة على جبينه وصدغيه كانت توزع شيئاً ما لزجاً وذو رائحة نفاذة..
جفل محاولاً النهوض:
-ماهذا؟!
-شششش.. دعني أساعدك..
اتسعت عيناه بدهشة وهي تضغط عليه ليعاود الاستلقاء بينما تحوم هي فوقه!!
-كمالة علمتني بعض الأشياء، من المفروض أن يساعدك هذا على الاسترخاء والنوم؟
ابتلع ريقه بصعوبة.. كانت تشرف عليه بجذعها، رائحتها تحوطه واطراف شعرها تلامس وجنتيه وعنقه..بينما ذراعيها تحيطان رقبته..
كيف يساعد هذا على الاسترخاء؟؟ فكر بحنق وهو يأخذ نفساً عبق برائحتها العذبة الصافية..

يراقب كيف تحرك رأسها بنعومة، لديها عنق جميل..طويل بعض الشيء وهذا غريب بالنسبة لطولها الكلي، بشرتها صافية وناعمة.. عظام كتفيها بارزة قليلاً، وانحناءتهما مستديرة وانثوية بحق.. ثم انخفضت عيناه اكثر، نحو مقدمة صدرها الذي كان ينخفض ويرتفع مع كل حركة من ذراعيها وأنفاسها.. لم تكن دقيقة المعالم.. على العكس، جسدها النحيل له محاسنه في بضعة اماكن..فكر بخبث.. وعض شفته السفلى ببطئ..

-اغمض عينيك..

نبهته برقة ليبتسم بمكر وهو ينظر اليها من اسفل:

-لا.. المنظر رائع من هنا.

حدجته بنظرة خاطفة ورأت عينيه تطيلان النظر لصدرها لتشهق وتضغط اصابعها على اعصاب عنقه المتشنجة فيصرخ متألماً وجسده ينتفض، لم تتمالك نفسها.. ضحكت بمرح..

"تضحك؟!!"

فتح عينيه على وسعها ورأى نظرة الذنب تجتاح عينيها وهي تعض شفتها هامسة بارتباك:

ـأسفة..
لم يرد بل تركها تعود لماكانت تفعل، وهذه المرة تقرفصت خلفه وطلبت منه الاستلقاء على بطنه..
ففعل، أصابعها كانت حازمة قوية تضغط على مناطق الاعصاب المتشنجة بقوة لطيفة تدفعه للاسترخاء بينما تعاود نشر الدهان الذي وضعته على جبينه برفق، وهي تتمتم ببضع ايات قرآنية بصوت عذب..
كان يشعر بالاسترخاء فعلاً، الألم زال.. والنوم يطبق عليه كجفن ثقيل يرفض التزحزح، ولكنه لم يكن يريد أن ينام، لم يكن يريد أن يغرق ويفقد شعوره بلمستها العذبة ولا صوتها الناعم المهلك حتى وهي تقرأ عليه من أيات الذكر الحكيم!!
ولكن سلطان النوم كان أقوى وأكثر حزماً..
إرهاق اليوم انصب ثقلاً جاثماً على كتفيه ووجد نفسه يغرق مستسلماً.. ينجرف الى عالم مظلم مطوي دون أية أحلام.
***نزار قباني
***

روما..

انتصف النهار واصطفت السيارات كرتل طويل غير متحرك، في نهاية الأسبوع الكسول..
اوقفت سيارتها بصعوبة أمام المبنى الضخم لمبنى الصحيفة العالمية، وترجلت شبه راكضة نحو بوابة المبنى، لم تنظر لأحد في طريقها وتجاهلت النظرات المتسائلة، والابتسامات المتملقة واخذت المصعد مباشرة الى الطابق العلوي حيث مكتب زوجها..
حين فتحت الباب الزجاجي الضخم وجدت نيران أمامها!!
نظرت لها بتحدٍ وعينيها تشعان بالقوة .. نيران من الناحية الأخرى تركت العمل بيديها ونهضت مبتسمة لتقترب منها قائلة بحفاوة:
-السـلطانة هنا؟! مرحباً بكِ عزيزتي.
-أين ركـان؟
هتفت سارة بقسوة.. تقارن بينها وبين نفسها بين مظهر نيران المتزمت بالبدلة السوداء والتسريحة العملية الرسمية ووجهها الخالي تماماً من المساحيق، وبينها هي.. بثوبها الاحمر الكشميري

وقبته العالية، كميه الطويلين وشعرها الذي تجعد ونزل مثيراً على رؤوس كتفيها...
وبرقت عينيها اللتان أحاطهما الكحل بينما امتطت شفتاها العنبريتان بلؤم:
-أريد ان أرى زوجي في الحال.
تراجعت نيران ببرود وجلست على طرف مكتبها، عاقدة ساقيها المديدتين أمامها وقالت:
-لديه اجتماع هو لن يقابل أحد.
رفعت سارة حاجبيها ونظرت الى الباب المفضي لغرفة رئيس التحرير ثم شدت قامتها:
-لا احد ينشغل عن سارة الشيـب..
وبكل جرأة اقتربت لتقتحم الباب.. لم تتحرك نيران خطوة واحدة لمنعها بل راقبت بتسلية ماسيكون عليه الوضع، حين اقتحمت سارة المكتب كان ركان يقف مستنداً على حافة مكتبه، كماكانت نيران وكان يحادث رجلاً بجلس أمامه على كرسي بظهر مستقيم..
-ركاااان.

هتفت بدلال وحزن مخيم على كل حروفها بينما تنطلق لتندس بين ذراعيه متجاهلة أياً من كان معه..

فاجأت الحركة ركان مثلما فاجأ من كان معه، الملف بيده وقع وتناثرت الأوراق بينما يقبض على كتفيها بقوة ويهزها برفق:

-سارة؟! مالأمر حبيبتي؟؟ هل أنت بخير؟!

أحاطت وسطه بذراعها وهزت رأسها قبل تضعه على كتفه وتهمس:

- احتاج اليك .. تعال.

أحاط وجنتها بكفه وهمس:

-مالأمر سلطانتي؟ هل من خطب؟

تلككت أمام ضيفه ولم تجب وهي تتمرغ أكثر في دفئ ذراعيه اللتان أحاطتا بها بقوة ونظرت اليه بطرف عينها ليقشعر بدنها كله وهي ترى نظراته السوداء المركزة تخترق كل شيء عليها وتنظر اليها في العمق..

ولم تجرؤ على الابتعاد أخفت وجهها في عنق ركان وهمست:

-أريدك على انفراد..

تنهد ركان ثم اعتدل واقفاً واحاط وسطها جاذباً اياها بعيداً وهو يعتذر لضيفه بكلمات قليلة:
-اعذرني شاهر باشا.. انه طارئ عائلي.
راقبهما شاهر بعيني صقر منفرد، لاتشي عينيه بما يجيش بداخله من قسوة وحنق وكراهية لذلك الرجل الذي يتمتع بالمرأة التي يريد هو!! ولكن لابأس.. لن يمضي وقت كثير حتى تصير تلك العاطفة ملك له وحده.
سحب ركان سارة الى غرفة جانبية واغلق الباب لتنهار باكية وهي ترتمي بين ذراعيه..
ضمها برفق وتمتم لها ببعض العبارات المهدئة قبل أن يهمس لها برفق:
-أخبريني الأن.. مالأمر..
-جسااااس.. لقد وقع حادث، وهو يصارع الموت.
-يالهي..
هتف بصدمة لتواصل:
-والدي اتصل، ويجب ان نذهب أنا وأمي، يجب أن نكون مع العائلة.
مسد ركان عنقها بحنان:

-تعرفين أنني أود المجيئ معك حبيبتي، ولكنني لاأستطيع.. لقد تغيبت عن الصحيفة معك لوقت طويل، لدي أطنان من العمل..

-اعرف..

همست وهي تسحب نفساً سريعاً.. لينظر لها بحب.. وجهها الجميل كان أحمراً بفعل البكاء، تلطخت وجنتيها بالدموع والقليل من الكحل فأخرج منديله ومسح وجنتيها برقة:

-لاتخافي على ابن عمك هو قوي وقادر جيداً على التعافي والخروج مماهو فيه.

-أبي يقول أن زواج صوان لم يتم، صوان منهارة..

همست بألم ليتنهد:

-لن افهم أبداً ماوجه العلاقة بين صوان وجساس، الاثنان يعشقان بعضهما فلم العناد؟

-صوان عنيدة للغاية.. ولاأحد يعرف سبب رفضها على نحو الدقة..

أكمل ركان مسح دموعها بإبهاميه ثم قربها اليه وقبلها على شفتيها بعمق.. وابتعد هامساً:

-اذهبي ياملاكي.. وانا اعدك أنني سأوافيك لو طلبتني بأي وقت، وان سارالعمل على مايرام سألحق بكِ في نهاية الاسبوع، لنعود معاً.

اومأت بتفهم ثم عانقته من جديد وهي تهمس:

-ستنطلق الطائرة في السابعة.. لقد طلبت من روزا أن تعد طعام العشاء لك، ستغادر هي وتبقى غداً بمفردك.

ابتسم:

-لابأس، أستطيع خدمة نفسي ليوم واحد.

-لاتلعب بذيلك وانا مسافرة..

حذرته بابتسامة دامعة ليقهقه بمرح ثم يأخذها في عناق طويل شغوف رقيق حملها الى نشوة مجنونة ثم ابتعد هامساً:

-لاشيء سيلاعبني سوى دقات قلبي وهي تتسائل عنكِ في غيابك ياسلطانة..

-ممتاز.. قيدها جيداً.. سأفكر أسرها حال عودتي.

قالت بشقاوة لتتسع ابتسامته ويصفع مؤخرتها فتقفز صائحة بمرح قبل أن تعاود تقبيله بشغف..

في الخارج وقف شاهر باشا يطالع الشارع المزدحم بتقطيبة مرعبة.. صوت ضحكات

السلطانة تصله بوضوح.. ألم تكن تبكي منذ دقائق؟؟

فكر بحنق ..

-يبدو أن الأمور تسير على مايرام بين الباشا وسلطانته.

همست نيران من خلفه بخفوت جعله يلتفت اليها بتعبير مرعب يرتسم على وجهه وهو يزجرها:

-اصمتي، تلك المرأة هي لي أنا، مهما فعل ذلك اللقيط فهي ملكي..

رفعت نيران حاجبيها وهمهمت بتحذير:

-باشاااا.. هذه الكلام خطير للغاية.. احذر ماتقول.

زفر شاهر بحنق ثم سيطر على غضبه بقناع فولاذي وارتسم البرود على محياه وعاد ببصره الى الشارع:

-أنا أعرف مالذي يجب الحذر منه نيـران. ولكن... أتمنى قتله.

-أنت غيور..

-أنا أحبها..

قال هادراً.. بيأس ظهر عميقاً في عينيه وهو يلتفت لنيران التي مست ذراعه تهدئ من روعه

وهي تنظر للباب حيث اختف ركان وسارة وهمست:
-لاتكن أحمقاً، باشا..انها زوجته.. وهي تعشقه، لقد غفرت له كل شيء لاتفعل هذا سوى امرأة عاشقة، أنت يجب أن تبتعد، لو أدرك ركان ماتخفيه.. لو وصل الأمر لسليـم.. فسوف..
-ماذا قلتي؟؟ أتهددينـي بعشيقك الأن نيران؟
همس بغضب عاصف لتشتعل عينيها الباردتين على الدوام وترفع اصبعها محذرة:
-احفظ لسانك معي شاهر، أنت لاتخيفني، تعرف جيداً من أكون ومن يكون سليـم.. وتعرف جيداً أنه لو وصل له أمر ركان..
وتركت عبارتها معلقة بينما تلتمع عينيها متحدية.. ليضحك شاهر بهزء:
-أتهددينني يا ابنة عمي؟ أتهددين شاهر باشا؟؟
اقتربت هامسة بحسم:
-أنا احذرك، لقد فعلت الكثير لأجلك شاهر، وأول مافعلت كان علاقتي بسليم، ولكن اياك.. اياك ولو للحظة واحدة أن تظن أنني سأتركك تدمر مابين

ركان وسارة، انهما يعشقان بعضهما فلاتدمر كل شيء باشا.
تراجع وأسند ظهره للنافذة خلفه وعقد ذراعيه أمامه وعيناه تعصفان:
-أتثير علاقتهما شجونك؟؟!! هل تذكرك بما مضى نيران؟
مر طيف مؤلم أمام عينيها، وانقبض قلبها بيأس، ولكنها حافظت بثبات على ملامح وجهها وعادت تقول:
-مامضى قبره النسيان.. ولكنني لن أدعك تقتل كل شيء جميل ونقي تواجهه شاهر، وكله لماذا؟؟ لرغباتك أنت فقط؟؟! أنا لست حمقاء ولا عمياء..
ثم اقتربت منه وقالت بصوت مزدرٍ:
-أنت تمضي خلف رغباتك مثل الحيوانات شاهر..
لاتفرق بين شهوتك ورصانتك، سواء كانت للمال ام للجسد.. ماتريده تحصل عليه، مهما كان الثمن.. ولكن..
-ماذا؟!!

همس بفحيح أفعوان جعلها ترتجف ولكنها لم تبالي..
-هذه المرة أنا سأقف بوجهك، أنا سأدمر مخططك مهماكان.. أتفهم؟!
هتفت بتهديد.. أنفاسها تتسارع وكأنها تقاتل وسط حلبة مصارعة.. ولكن شاهر بدا وكأنه لم يتأثر.. أطلق ضحكة مجلجلة ثم صفق بكفيه ببطئ وابتسامة ساخرة تتلاعب على شفتيه:
-مقنع للغاية نيـران..
ابتعدت محذرة:
-أنا لا أمزح..
ولكنها توقفت.. قبضة حديدية أطبقت على ذراعها وجذبتها اليه بقسوة جعلتها تشهق:
-وأنا لاأعرف طريقاً للمزاح نيران.
قالها بقسوة جمدتها وأكمل بخشونة:
-احذري مني يابنة العم، أنا رميتك لسليم، وأنا.. أنا أستطيع أن أجعله يرمي بكِ دون رحمة.
نزعت ذراعها منه بقوة ونظرت له بتحدٍ:
-سليـم رجل لايخلف وعده ولاكلمته مهما حدث شاهر، كلمته كماتعرف.. مرسوم ملكي.. لايحتاج

لإعادة ولاختم.. كلمته سيف أميري لايعترضها شيء.. وأنت، أنت مجرد فرد في حاشيته..

-نيرااااان..

هدر بقسوة ولكن خروج ركان وسارة من الغرفة قطع كلامهما ليلتفتا معاً.. نيران تبتسم بديبلوماسية بينما تجهم شاهر يظهر بوضوح..

-هل قاطعنا شيئاً؟

قالها ركان بسخرية لتبتسم سارة وتقهقه نيران مشيرة لأثار أحمر شفاه على جانب فمه وعنقه وقبة قميصه البيضاء:

-ليس بإثارة ماكنتما تفعلانه باشا.. ولكن لاتقلق.. لدي قميص جديد لك سيصل خلال لحظات..

رفعت سارة حاجبيها بغيرة واضحة وعانقت كتف زوجها بتملك قائلة:

-لا.. أفضل أن يبقى بقميصه كما هو..

عبست نيران ليضحك ركان وتلتمع عيناه بينما يقول للسيدتين المتناقرتين:

-لابأس نيران.. السلطانة تؤمر فتُــطاع..

ابتسمت سارة بغرور والتفتت اليه، قبلته على وجنته وهمست له:

-لاتنسى وعدك بالقدوم..
اومئ لها فالتفتت للأخرين وابتسمت لنيران باقتضاب قبل أن تعبس في وجه شاهر وهي تقول:
-سأذهب الان.. الى اللقاء جميعاً.
اندفعت نيران:
-سأرافقها للخارج كي تعاودا اجتماعكما ركان.. لاتقلق.
فعلت وحال اختفاءهما خلف الباب نظر ركان لشاهر ومسح جانب فمه بحرج:
-النســاء!!
عقد شاهر حاجبيه ونظر لركان مطولاً بكراهية لم تختفي من عينيه لوقت طويل وهو يتوعده في سره.. فركان الباشا لن يظل مليكاً على قلب سلطانته لوقت طويل.. وهذا وعد الباشا وكلمته..
أما نيران فقد رافقت سارة حتى المصعد..
-لم يكن عليكي مرافقتي.
هتفت سارة بتوتر لتقول نيران:
-بلى.. أنت لاتفهمين أليس كذلك؟
نظرت لها سارة باستنكار لترد:

-ليس أنا من عليكِ أن تخافي أو تخشي على ركان منه.
-أنا لاأخشاك..
همست سارة لتبتسم نيران وتشير لها للمصعد الذي فتحت أبوابه:
-اعرف.. أنت مغرورة أكثر من اللازم، ركان يعشقك.. وصدقيني هو لم يخنك.. ولم ينظر لامرأة منذ تعرف عليكِ.
ضاقت عينا سارة ونظرت لها بتشكك لتتسع ابتسامة نيران وتقول لها:
-لقد عرفت الان أنني لاأريده ولاأفكر به حتى، لذا .. توقفي عن شكوك نحوي.. وتعلمي الثقة بزوجك.
بدأ المصعد نزوله حينها والابواب تغلق لتختفي نيران خلفها وتبقى صورة سارة مواجهة لنفسها فقط.. كلمات سارة لم تطمئنها كما اعتقدت هي فقط أججت الشكوك في اعماقها، مالذي كانت تعنيه حين قالت أنها ليست من يجب عليها القلق منه؟ أهناك أشخاص أخرين وجب عليها الحذر منهم؟؟

من تعني؟؟
هناك شاهر الباشا الذي اعلن نيته أن يأخذها؟؟
هل عليها اخبار ركان؟؟
ثم هناك سييرا؟؟ هل تشكل سييرا تهديداً عليها؟؟
لم تكن نيران مفيدة.. لقد حولت شكها وقلقها منها الى كل شخص أخر فقط..
ثم ماأدراها بصدقها؟؟! ربما تكون خدعة منها شخصياً لتفعل ماتريد حالماتدبير ظهرها..
أسندت رأسها للخلف بتأوه عميق..
الامور لم تتحسن، لا انها تزداد سوءاً.. علاقتها بركان هشة جداً في هذا الوقت.. وجاء حادث الجساس ليبعدها عنه في هذا الوقت الحرج، يجب ألاتتأخر، هي ستطمئن على الفتى وتعود بأسرع وقت ممكن..
هذا هو الصواب لفعله.
***

دبـــي..
الحادية عشر صباحاً..
فتح عينيه بكسل .. تمطى ونظر لسقف الحجرة..
"كم الساعة الأن؟؟"

فكر بنعاس.. أدار عينيه فيما حوله.. هو في غرفته القديمة.. ومن تلك؟؟
فتح عينيه على وسعهما..
"ترنيم؟؟؟"
نظر لها بذهول.. كانت على الارض، وضعت لحافاً قديماً ورقدت عليه!!
كانت متكورة على نفسها تحتضن ركبتيها، وشعرها يغطي وجهها تماماً..
نهض مسرعاً اليها، أخر مايتذكره أنها نام تحت لمساتها.. متى نهضت عنه ونامت هكذا؟!!
حالما اقترب منها وركع على الارض شعر باهتزازها..
-ترنيم؟
همس وهو يهزها برفق من كتفها ولكنها لم ترد، هي حتى لم تتحرك ولم توقف اهتزازها..
ابتلع ريقه واقترب منها.. كانت تصدر صوتاً يشبه الأنين، صوت متألم ، يائس.. صوت مقهور..
-ترنيم..!!

هزها بقوة أكبر لتنتفض صارخة بعنف جعله يرتد الى الوراء، مصعوقاً بينما تعاود الصراخ بقوة أكبر.. وظهرها يتقوس لينفض عنه ذهوله ويقترب منها ثم يلتقطها بين ذراعيه بقوة ويضمها اليه متجاهلاً تشنج جسدها وصرخاتها التي خرقت أذنيه.. ضمها بقوة وبدا يقرأ المعوذتين بطريقة يائسة وهو يستغرب من أنه يحفظهما من الأساس.. ظلت تنتفض بين ذراعيه وهو يستمر بالقراءة بلاتوقف مرة تلو المرة وجسده يهتز بفعل تشنجها والذي تحول مع الوقت الى اهتزازات ضعيفة متكررة بينما صرخاتها تتحول الى شهقات باكية !!

كان خائفاً.. لأول مرة في حياته كان خائفاً..

يمسد رأسها وشعرها بجنون.. ينظر لملامح وجهها المتقلصة بوجع والدموع التي اغرقت وجهها ، ثم ارتجاف شفتيها وهي تتمتم بكلمات لايفقه معناها..

-ترنيييم.. انهضي بالله عليكي..

صرخ بها يائساً لتتوقف دموعها وتبدأ عينيها بالارتجاف قبل أن تفتح جفنيها ببطئ..

لايزال جسدها مرتجفاً قليلاً وإن كان أفضل بكثير مما كان..

-أووس؟!

همست بذهول.. لينظر لها بعمق.. عينيها غارقتين بمشاعر عديدة، الخوف ، التيـــــه.. الظـــلام..

حاولت الابتعاد عن ذراعيه ولكنه لم يسمح لها بل شدد حزم ذراعيه وهتف:

-ماذا تفعلين؟؟ ماذا بكِ؟ هل أنت مصابة بالصرع؟

غامت عينيها واصرت على الابتعاد عنه.. لم تقدر على الوقوف حين أفلتها، بقيت على الارض.. وان كانت تحاول الجلوس بكرامة وهي تقول بخفوت:

-أنا.. انها.. انها الكوابيس، أنا أرى الكوابيس.

رفع حاجبيه باندهاش وهو يرى انكماشها:

-أنا اراها كل ليلة، كل ليلة ارى الكوابيس.

تنفس بعمق ونهض يبتعد عنها، كان هناك شيء.. شيء يرزخ على صدرها ويكتم أنفاسها، شيء

يخنقها ويسبب لها الكوابيس التي تتركها مشتتة ضائعة بل بائسة كما الأن.

-تعالي معي..

همس بشحوب.. فنظرت له برعب.. أيقصد المستشفى؟؟!

-لا لا..

اعترضت بضعف..ورأى نظرة الرعب وفسرها:

-ألازلت متأثرة بماحدث مع كمالة؟!

نظرت له بضياع ثم اومأت له ليتنهد:

-هل ستكونين بخير وحدكِ؟؟ اعتقد أن الجميع قد سبقنا..

اومأت ب نعم فاترة ليزفر ثم يقترب منها ويحيط عنقها بكفيه:

-ترنيم أنا هنا معكِ لاتدعي الكوابيس تقلق راحتك..

-انه الحادث..

همست برعب ليفسره:

-اتقصدين ماحدث للجساس؟؟

فهزت رأسها نافية بقوة ودموعها تعاود التدفق بغزارة ليسألها:

-اذاً عما تتحدثين؟؟ هل وقع لكِ حادث؟؟ هل أصبتِ بمكروه من قبل؟
شهقت بألم ليزفر بارتياح وهو يضمها الى صدره من جديد:
-يالهي صغيرتي.. لابد أنه شيء مؤلم، أليس كذلك؟!
-لاتتركني..
همست بوجع ليؤكد بحزم:
-ابداً.. وسنبدأ منذ الأن..
ثم ابتعد عنها ناهضاً وسحبها لتقف قائلاً:
-ارتدي ثيابك، سنذهب معاً.
-لا لا..
اعترضت الا أنه لم يقبل اي اعتراض..
وبعد ثلاثين دقيقة كانا بطريقهما الى جناح العناية المركزة.. وبينما اتسمت خطواتها هي بالتردد والعصبية، كانت خطوات أوس واسعة وحازمة وذراعه تحيط بكتفيها تضمها وتحميها من كل ماقد يحيط بها او يهاجمها..
وقف أوس مواجهاً سيف حال اقترابهما وسأله مباشرة:

-كيف حاله؟
ابتلع سيف ريقه وأشار لباب مركز العمليات الكبرى وقال بشحوب:
-انهم بالداخل منذ ساعتين ولم يرد اي خبر بعد.
-مالذي حدث؟؟ هل انتكس؟
-لا .. عمي نضال قام بإحضار فريق أميركي متخصص بمثل هذه الحالات وقد أصر الفريق على اجراء الجراحة لعصب الساق على الفور.
-سيكون بخير.. أنا واثق.
قالها أوس بصلابة بينما يتنهد سيف بإرهاق ليربت على كتفه:
-عد الى المنزل سيف خذ قسطاً من الراحة..
-مستحيل..
همهم بأسى:
-لن أقدر على ترك والدي وحده، قلبي لن يكون مطمئناً، ثم ان والدتي على وشك الوصول..
-هل قلت لها؟
-البارحة بعد رحيلك، اتصلت بها وأخبرتها، تصور الهستيريا..

غمغم سيف بتوتر، تنهد اوس ونظر باتجاه عائلته، سلمى وامه فاطمة تحيطان بصوان من كل جانب وهي تتشبث بقرآن كريم وتقرأ دون انقطاع، كان يستطيع رؤية دموعها التي تتدفق ..

-منذ متى وهي هنا؟

همس متسائلاً ليجيب سيف بشرود:

-منذ الفجر.. لقد وجدتها تقف امام باب غرفته دون حراك، انها تخيفني اوس، أنا أخشى أن يصيبها مكروه.

-لاتقلق.. صوان الشيـب لن يصيبها الا كل خير.

دمدم أوس ثم نظر لترنيمته وهمس لها بحنو:

-اذهبي لتبقي معهن ترنيم، صوان وأمي بحاجة لبعض الدعم.

نظرت له .. هي من الأساس لم تكن تنظر لسواه..

ثم وبصعوبة أفلتت سترته التي تتشبث بها، واومأت له ثم تقدمت بخطوات مترددة لتجلس جوار العمة فاطمة التي ابتسمت لها بأسى وعانقتها قبل أن تعود لامساك يد ابنتها بقوة..

ثم وقعت الواقعة.. كزئير وحش من جحيم.. كصراخ عنقاء تهب من سباتها..
صوت أمٍ مكلومة.. صوت أنثى جريحة..
هكذا تعالى صوت نرجس وهي تظهر امام الجميع.. تبكي بجنون.. تصرخ في وجه الجميع.. ملقية اتهاماتها للكل، سيـف.. السلطان وحتى أوس لم يسلم من اتهاماتها وهستيريتها ..
-انها هكذا منذ علمت بالخبر، اضططرنا لاعطاءها الحبوب المسكنة على الطائرة ..
هتفت شيماء الباكية بينما سيف يحيط بوالدته ويقودها لتجلس على أحد المقاعد، يحاول ان يشرح لها، أن يفهمها بكلمات واضحة وصابرة كيف أنه مجرد حادث.
وهي عن الجميع تدرك أن الجساس ولد ليعيش حياته في هذه الحوادث..
لم يكن الأول،، لم يكن حادثه الاول ولكنه كان الاسوأ..
-أنت تركت اخاك.. أنت تركته لهذه الساحرة، هو لم يأتِ اليكم الا لأنه عرف بزواجها، أنا أعرف

ولدي، أعرف أنه قد جُن جنونه وأنه لابد سرعته تسببت بهذا الحادث.. وكله بسببها هي..
كانت تشير لصوان التي انكمشت بين ذراعي امها بألم وهي تسمع سيل الاتهامات من زوجة عمها وتكتم صرخاتها دون أن تطلقها، هي بالذات تريد أن تصرخ بألمها الأن..
ولكنها صبرت، لم تتكلم وتركت المرأة الاكبر سناً تهداً تحت تأثير كلمات سيف المتعقلة وتبريراته المقنعة، ولكن نرجس لم تذعن كلياً..
كانت تنظر لصوان بكراهية تكاد تقتلها بينما تدعوا لابنها بالشفاء بصوت عالٍ ومن ظلمه وتسبب بأذاه بالموت أمامها لتتشفى وتضحك ملئ شدقيها..
-كنت أنوي تزويجه بعد شهر واحد، والأن؟؟ الان لااعرف الى أين سأزفه ياالله؟؟
ندبت بحرقة بينما تعانقها الشيماء وتبكي ليزجرها سيف:
-امي.. الجساس لم يمت، أرجوكِ توقفي، هو سينجو لاتخافي، اصابته ليست بالخطيرة.

-لن يطمئن قلبي ولن أرتاح حتى ارااااااااااااااه..
صرخت بألم ليتنهد الجميع دون أن يلومها احد..
كانت مجرد أم، يقبع صغيرها بين الحياة والموت..
وانتظر الجميع، بصمت والأسى والخوف يلقيان بظلالهما عليهم جميعاً، وصلت سارة وتوبايا..
وانضمتا للانتظار.
بعد ست ساعات متواصلة خرج الطبيب..
كان الجميع بانتظاره، وأول من وصل اليه كان سيف ووالدته..
صوان وحدها بقيت خلفاً، وكأنما لاتقوى على الحركة وعينيها تطالعان الابتسامة على وجه الامريكي ذو الوجه الداكن بأمل..
-كانت العملية ناجحة، ولكننا بانتظاره ليصحو لنقوم بالتقييم النهائي، لاتقلقوا.
وقبل أن ترفع اليه التساؤلات كان يعود للاختفاء..
ثم انفجرت مشاعر الجميع، نرجس وقعت أرضاً يحيطها ولدها وهي تبكي بفرح لامحدود بينما

اندفعت فاطمة لابنتها بفرح، وزفر الرجال قلقهم وشكرا الله بلاتوقف، وحدها صوان .. وحدها كان رد فعلها متفرداً نظر لها الجميع وهي تركع على ركبتيها وبصمت كانت تسجد وانتظر الجميع نهوضها ولكنها لم تفعل.. فقط بقيت للحظة او اثنتين على سجودها، ثم انفجرت باكية.. تشكر الله بكل ماأوتيت من قوة لأنه استجاب لدعواتها المتواصلة.. اقترب منها اوس وانتظرها حتى انتهت من دعائها ليحملها واقفة وهو يضمها الى صدره بحنان هامساً لها أن كل شيء سيكون بخير..

-لاتخافي صوان.. جساس سيكون بخير.

بكت بفرح، وأمل، وابتعدت عنه لتعانق أمها وهما تفرغان كل شحنة من المشاعر السيئة بداخلهما..

-أنا أريدها أن ترحل..

هدر صوت نرجس مقاطعاً الفرح لتنظر لها صوان بجزع..

-أريدها أن تبتعد فهي السبب.

هتفت بحنق وكراهية ليحاول سيف التدخل ولكن حركة مفاجئة من السلطان منعته لتتجه الانظار كلها لوالده الذي قال بصرامة موجهاً كلماته لنرجس:

-صوان ستبقى هنا، هي ابنة عمه، وليس لأحد الحق في منعها من البقاء لا انت ولاغيرك.

-لاتبدأ معي سلطان.

همست نرجس ليشد السلطان من ظهره ويستقيم في مقعده المتحرك وهو يهتف بقوة:

-اصمتي، ستبقين هنا مثلك مثل البقية أو أنك أنت من سيغادر نرجس.

زمت نرجس شفتيها بحنق وكادت ترد عليه ولكن سيف قبض على ذراعها وشيماء وقفت بطريقها وهي تهمس برجاء:

-خالتي توقفي، مايهمنا الأن هو جساس وعودته الينا، لاشيء أخر يهم.

أشاحت نرجس بوجهها وهتفت بقسوة:

-هي لن ترى ابني، لن تدخل اليه الا على جثتي.

تدخل اوس هذه المرة وقال متمالكاً اعصابه بصعوبة:

-لأحد سيدخل اليه عمتي، لايزال جساس في غرفة العمليات ولن يخرج الا للعناية المركزة، فلاتهدري انفاسك على مالن يحدث للجميع.
لم تسرف في الحديث.. بل تراجعت مع ولدها والشيماء وجلست في ركن بعيد بينما تجلس صوان بصمت محاولة الخروج من دوانة الألم والهجر الذي تشعر بها..
وكانت تعرف أنها البداية فقط..
فنرجس لن تسكت.. ولن تتركها وشأنها..
وكانت على حق..
فخلال الأيام الثلاثة اللاحقة هي لم تستطع الاقتراب من جساس حتى، لايزال غارقاً في غيبوبته الاصطناعية ريثما تعالج كل جروحه وحروقه، لايستيقظ الا للحظات ليختبر الاطباء وعيه ثم يعاودون تخديره.. أخبرها أوس أن الأطباء متفائلين، فحروقه تتماثل للشفاء، وساقه بدأت تستجيب لبعض العوامل الخارجية، رغم أن التقييم لن يتم الأن .. ولكن..
التفاؤل كان سمتهم الرئيسية..

لم يكن يُسمح سوى لوالدته ووالده بالدخول لرؤيته للحظات قصيرة في البداية، ثم سمحوا لسيف وأوس بالدخول.. كانت تتوق لرؤيته، فقط لمحة واحدة..

وهذا اليوم بلغ الشوق منتهاه.. كانت قد عرفت من أوس أنهم قد أخرجوه من غيبوبته.. وأنه حتى تحدث مع والدته.. ولذا أرادت رؤيته.. ربما للمرة الأخيرة.

انتظرت بصبر عودة نرجس الى المنزل الذي استأجره سيف لها ولشيماء، والابتسامة تلون وجهها وقد اطمئنت بعض الشيء لاستيقاظه.. وراقبت كيف دخل سيف وأوس مع عمها والطبيب المختص الى الغرفة وبقيت بالانتظار لوقت لابأس به..

خرج الجميع، راقبتهم بصمت وهم يتناقشون حالته بخفوت، سيف كان عصبياً أوس كانت الصدمة تطل على محياه بينما الحزن وتراكم الهموم ثقلت على رأس السلطان وبات يفوق عمره بسنوات..!!

غصة احتكمت حلقها وهي تتابعهم بذهول..
مالذي حدث؟
"الأمر سيأخذ بعض الوقت.. ساقه الثانية لاتعاني ضرراً ولكننا سنستمر في التقييم لنعرف مالخطب بالضبط؟ سينام الأن حتى الصباح"
ابتلعت ريقها بصعوبة وراقبتهم حتى غادروا الممر الى مكتب الطبيب وتسللت من مكمنها قرب النافذة الى الغرفة الخافتة الاضاءة..
اغلقت الباب خلفها برفق..وأخذت نفساً عميقاً..
رباااه كم اشتاقت اليه، فكرت وحلقها يجف وهي تستدير لتنظر الى جسده الراقد دون حراك على الفراش البارد ضمت ذراعيها اليها واقتربت منه بخطوات صغيرة تعض شفتها بقلق وترقب.
اشتاقت اليه..
تأملت وجهه بلهفة.. لم تره منذ الحادث..
أخذت نفساً عميقاً وزفرته ببطء.. عينيها تنجرفان تتنقلان هبوطاً من قمة رأسه.. وجهه الحبيب الذي لفحت النار جانبه السفلي كعاشقة غاضبة ووسمته بأثرها الذي لايمحى، تأملت الأثر مفتونة..

لم يكن بشعاً.. كان دليل حبها.. لهب أدماه..
وهي.. هي كانت اللهب..
هو قال أنها لن تحرقه.. لايمكن ان تحرقه..
امتدت أصابعها ولامست اطراف عنقه.. بأناملها، تتبع الاثر الذي امتد لأسفله ثم مقدمة صدره.. كضربة سوط لاهبة.. شقت اللحم الأسمر، وأحرقت شعيراته الكثيفة، ثم أختفت تحت ضلوعه..
انسابت دموعها بألم لجرحه.. لألمه، الذي لم يوجعها فقط..
لقد ذبحها..
"احبــك"
همست بمرارة، وأناملها تنساب من أعلى كتفه نزولاً، مروراً بساعده القوي.. معصمه المرتخي.. حتى راحته المفتوحة وضعت أصبعها داخلها كانت شاحبة وباردة..
اغمضت عينيها بقوة ونشجت بألم وأرادت سحب يدها.. بعيداً عن النار الباردة التي تحرقها جراء لمسته!!
ولكنه لم يسمح لها..

أصابع طويلة قوية قاسية التفت حول معصمها الرقيق وسحبتها بعنف لتقع على جسده المسجى..
اتسعت عينيها بذعر وذهول والصمت يخنق ضلوعها وشهقاتها وهي تحدق في عينيه المفتوحتين على اتساعهما.. النظرة الشيطانية التي تطل من داخلهما.. العنف والغضب العارم..
وشيء أخر.. شيء جعل داخلها كله يرتجف كورقة وهي تشهق بخوف وقد تحررت أنفاسها بينما جساس يقبض على معصمها بوحشية تكاد تكسره وتهشم عظامها..
"جسااااس!!"
هتفت مبهورة.. لاتعرف ان كان عليها الفرح والقاء نفسها بين ذراعيه أم يجب عليها أن تخلص نفسها من قبضته المتوحشة وتركض بعيداً لأميال؟؟!!
ولكن جساس لم يمهلها ولم يعطها حتى الخيار..
"انت.. أنت السبب في كل هذا.."
صرخ بجنون لتتسع عينيها دون أن تنبس ببنت شفه، جساس من ناحيته استند على مرفقيه دون ان يفلته بل قربها نحوه أكثر ليصرخ بها بجنون:

-انظري إلي صواااان.. انظري لمافعلته بي.. أصبحت مسخاً لاأحد يجرؤ على النظر لوجهه..
"لاااا"
بدأت تنشج بمرارة وهي تهز رأسها تنفي عنه اتهامه بالمسوخية.. ولكن جساس كان ثائراً..
كان عنيفاً.. كان مريراً وقاسياً على نفسه وعليها..
-انت أردتني ميتاً لتتخلصي مني صوان، أردتي ان تعيشي حياتك، وتبدأي من جديد؟؟ أنت رميتي بحبي لكِ وعشقي لتراب قدميكِ.. أنت سحقتي قلبي.. وانظري نتيجة أفعالك..
"انت..انت ستتعافى...
حاولت شاهقة وهي تريد كسر النظرة المشوهة بينهما.. تحاول ان ترسي بعض الدفاعات لتهدئه وتسيطر على انفعاله ولكن جساس لم يستجب..
هزها من معصمها بعنف قوي وشعرت فعلاً بألم حارق ودوار يلفها قبل أن يرمي بها ليقع جذعها على ساقيه الهامدتين وهو يصرخ بمرارة قاسية:
-لقد خسرت ساقيّ صوان.. أصبحت عاجزاً..لا اقوى حتى على تحريكهما... العملية فشلت يا ابنة

عمي، كل شيء فشل وبسببك أنتِ أصبحت مشلولاً.. مقعداً.. فقدت مستقبلي وحياتي وكل ماتعنيه..

صرخ بعذاب لتتسع عينيها بذهول..

وتتشبث ذراعيها بغريزية بساقيه وهي تصرخ تنفي اتهامه.. تنفي تشاؤمه.. لايمكن له أن يصبح مقعداً!!

لا هو سينهض.. سينهض الان ويضحك عليها في وجهها..

هو يمزح معها..

نظرت لساقيه وهزتهما بجنون وهي تصرخ به:

-لاجساس.. لاااااا.. انت تكذب.. الطبيب.. الطبيب قال ان ساقيك بخير.. لاااا لاااااااااااااا..

صرخت بجنون ليهتف بها بألم:

-أصبحت مجرد شيء لاقيمة له.. مجرد جسد عاجز لن استطيع الوقوف على قدمي ابداً..

اندفعت اليه.. متجاهلة كل شيء..

متجاهلة انه لايجوز ولايصح .. ارتمت على صدره وأحاطت وجهه بذراعيها وهتفت:

-لا ..لاجساس.. لاتقل هذا، مستحيل.. أنت لست.. انت...
قبض على كتفيها بقسوة وعاد يبعدها عنه بكراهية واضحة تطل من عينيه وهو يصرخ:
-أنت السبب، أنت رميتي بكل العشق، بكل الحب الذي حملته لكِ في قلبي منذ طفولتي، أحببتك وعشقتك كما لن يفعل أحد.. وأنت؟؟ كل مافعلته صوان هو أنك عذبتني.. لسنوات تحملت ابتعادك واهاناتك.. تحملت تفضيلك لكل رجل أخر هو ليس أنا..
صرخ بجنون لتشهق وتهز رأسها تنفي اتهاماته..
ألا يعرف مدى حبها له؟؟
ألايعرف أنها تعشق التراب الذي يمشي عليه؟؟!!
-ولكن الأمور لم تنتهي هكذا.. ولن تنتهي..
عاد يصرخ بشحوب.. وجهه أحمر والجروح التي يبست عادت تئز دماءاً طازجة..
بدا وجهه مرعباً تحت الاضائة الخافتة.. محتقن وملوث بالدم، عيناه وحشيتين وهو يشير اليها.. كانت مكومة على الارض تحت قدميه وهو يهتف بجنون:

-شعرة واحدة تفصل بين العشق والكراهية..
صوان..
اتسعت عينيها بذهول بينما يواصل بفحيح:
-وجحودك أحرقهـا..
تسمرت تناظره تعلقت عينيها بشفتيه وهي تهز رأسها مستنكرة.. لا .. هو لايعنيها..
-أكرهكِ صوان.. بقدر كل العشق الذي حملته لكِ في قلبي لسنوات...
أكرهك.. أبغضك..
بقدر كل حبـي لكِ أنا أكرهك..
همس ببرود..
أشد من كل مرارة ووحشية صرخ بها..
واستهدفتها كلماته الموجعة.. بل القاتلة..
استهدفتها بلارحمة وجعلتها تهز رأسها مستنكرة..دموعها لاتتوقف تجري بسخاء وتبلل وجنتيها..
لا .. لا هو لايعني مايقول.. هو لايكرهها.. هو يحبها.. جساس هو حبيبها..
زحفت على ركبتيها حتى وصلت اليه.. تشبثت بذراعه وهتفت تناشده:

-لاتقل هذا.. انت تحبني، أنت لايمكن أن تكرهني.. جساس أنت لي، أنا لن أتركك.. أرجووك..ارجووووك لاتبتعد عني.

كان مشيحاً عنها..

كجبل يرفض التذلل والانصياع لأوامرها ولكنها ما إن توسلت حتى التفت اليها، وبقدرة غريبة حتى عليه رفعها بسهولة من ذراعيها لتصبح معلقة، لاتدرك ان كانت واقفة ام جاثيــة أمامه..

قربها لينظر في عينيها.. نظراته الحنون اختفت.. نظرته الرائعة لم تعد موجودة، كل مابقي كان مجرد ظلام..!!

ظلام موحش.. أفزعهــا.. جعلها تحاول التخلص من قبضته الوحشية..

متأكدة أن أصابعه حفرت أثراً لايمكن أن يُمحى عليها..

-ومن تحدث عن الابتعاد صوان؟

همس بصوت اثار قشعريرة باردة على طول عمودها الفقري.. وقبضتيه تحركتا صعوداً.. تهزها بقسوة وتجعل حجابها يسقط وشعرها الناعم الطويل يلفهما بغيمة سحر جعلته يشهق

وهو يدفن وجهه في ثنايا عنقها، بينما تغرق في ذهولها.. وتفلت منها أي ردة فعل ، كانت دمية.. دمية تحكم بها وهو مقعد على فراش المرض..كل قوتها وصلابتها هدرها الجساس ارضاً وهو يرفعها ويلقي بها الى جواره على الفراش الضيق.. عينيه في عينيها.. هو حادة وحارقة وتشبه نظرة حيوان جائع.. وهي مذعورة واخرة القوة ليهمس بصوت غريب عنه وكأنما شيطان ذاك من تلبسه:

-أنوي أخذ ماحرمتني منه لسنوات..أنوي أن أخذك بالقوة وحينها لن ترفضيني كما فعلتي ممنذ وعيتي لحبي، ومارفضته حباً وعشقاً.. ستأخذينه كراهية صوان..

افلتت صرختها المذعورة حينها عائدة الى رشدها وهي تحاول الهرب منه ليحكم قبضتيه حولها جاذباً اياها اليه بقسوة فارتطمت بعضلات صدره العاري وهو يسيطر على جسدها الضئيل بلارحمة بين يديه:

-توقف ايها المجنون، جساس دعني اذهب في الحال..

هتفت برعب وهي تتخبط بين ذراعيه اللتين احاطتا بها كجنازر حديدية ضخمة أوجعتها حاولت النفاذ من قبضته ولكن هيهات قبضته اشتدت وسمعته يهمس بفحيح:

-ستكونين لي.. رغماً عنكِ هذه المرة صوان ستكونين لي.

-لا لا..

هتفت باكية بهستيرية وهي تتخبط محاولة الخروج من بين ذراعيه ولكنه لم يمهلها وبكل قوته كان يقلب جذعه ليسقط عليها متجاهلاً ألمه ووجع ساقيه العارم، صرخ بألمه .. وصرخت استجابة لوجعه.. ثم تخبطت كالمجانين بين ذراعيه وهي تشعر بثقل جسده عليها وفكرة واحدة فقط تسيطر عليها.. جساس كان يغتصبها؟؟!!

-توقفي عن المقاومة فانا لن أفلتك ابداً.. لن ادعك لتكوني لسواي مطلقاً صوان.. وهذه المرة لن ينجدك أحد ولن يقدر أحد ابداً على الوقوف ضدي.. ما أفسدته بيديكِ.. هذا هو ماستنالينه.. أنت لي أتفهمين!! لي أنا وحدي.

كلماته الهادرة اصابتها بالصمم جساس كان مهتاجاً وبشدة..غاضباً وعنيفاً، انتفضت بيأس وهي تحاول الفلات بينما احدى ذراعيه تتحرر ليلامس شعرها الناعم ثم ينزلها لجانب وجهها ببطئ متعمد صوته يثقل وكأنه تحت تأثير مخدر ما:

-انت ناعمة..دافئة..صوانة التي حلمت بها عمري كله..

-توقف جساس ارجوك..ارحمني وتوقف..

همست بدموعها لتشعر برأسه يسقط جوار رأسها بينما تحيط ذراعه بوسطها وتضمها اليه بقوة جعلتها تنتفض.. جسده الملاصق كان حاراً قوياً ومخيفاً..

بكت شاهقة حين أدار رأسه لتلامس شفتاه خدها بحميمية وهو يهمس:

- لن اسمح لأن تكوني لسواي ياصوان..أنت لي وحدي، ملكي انا.. والأن سأجعلك مستهلكة.. لن يقبل بها سوى من أفسدها.

-لاااااااااا..

هتفت بوجع محاولة دفع كتفيه عنها وقد تحررت ذراعيها أخيراً.. الا انه كالجبل لم يتحرك قط.. بل تلكك فمه بالقرب من فمها..بلمسات بطيئة ومثيرة جعلتها تئن برفض بينما يسيطر على عنقها واصابعه تلتف حول خصلات شعرها بقسوة وهو يديرها لتواجه عيناه الغائمة برغبته الصارخة..

- أول قبلة..هي لي.. عذريتك.. ستكون لي وحدي.. الواحدة .. تلو الأخرى...

وقبل ان تتسع عينيها او تحاول ان تقاوم وقبل أن تفكر حتى كان يستبيح حرمة شفتيها بقسوة ووحشية..

كان ينقض عليها ويحتكم شفتيها بفمه.. شهقتها ابتلعها بقوته واعتراضها ذهب أدراج الرياح والاثنان يغرقان بنشوة لم يعرفها أحدهما قط من قبل.. عاشقان وثمرة محرمة يقتطفانها في غفلة عن الجميع..

موجات من المشاعر المجنونة اجتاحتهما معاً الغاصب والمغصوب.. !!

تلك القسوة التي تحولت حال ملامسة استجابتها لرقة عارمة وحاجة عميقة.. تقارب الألم بل أشد

قسوة أشد اجتياحاً.. تقتشع من اعماق جائعة لسنوات، محرومة لدهور..
أرواح عاشقة معذبة ولاسبيل لشفائها غارقة في شقاءها ووحدتها ، غارقة ولاسبيل لانقاذها!
للحظة استسلمت ، لفيضان مشاعره وقوته لرغبته التي استهدفت نقطة ضعفها التي دفنتها بأعماقها ولم تظهرها لأحد حتى لنفسها قبلته التي حررت صوانة مشتعلة لم تخرج من مكمنها الا بين ذراعيه في التو واللحظة أوقدها بلمسة واشعلها ببطئ.. انه جساس..
جسااس.. حبيب عمرها؟؟ ابن عمها؟؟ رجل أحلامها لعمرها كله؟؟
انه جساس.. رجلها المحرم.. معشوقها المستحيل..
ولكن.. مالذي تفعلينه صوانة؟ فكرت برعب وجزء من الصواب يجتاحها..
تخونين نفسك وربك مع جساس؟؟؟
"لاااااااااااااا"
صرخت وهي تكسر قبلته.. تنتزع روحه من جسده كما شعر حين ابتعدت عنه..

ويلاااااه.. شهق بعنف كمن يقتل مرة وثانية..
"اااااااااااااه"
صرخ لايعرف امن جنون فرحه لامتلاك ماحلم به عمره او من الألم لابتعادها عنه؟؟ أم من ألام جسده التي اشتعلت بجنون..
ولكن لا..
ملكـــه.. صوانته القاسية كانت ملكه.. استجابتها العفوية والمجنونة جداً تخبره بكل مايريد معرفته.. انها تريده..تحبه وترغبه..
-لاتكذبي ..
همس بقسوة يعاود محاولة امتلاك شفتيها:
-انت ملكي صوانتي..
صرخت باعتراض وهي تحرك رأسها بعنف لتسقط شفتاه على عنقها وتنتفض بقوة وهو يقبلها بجوع وقد نسي كل شيء عن ضبط النفس..
كانت ترتجف وهي تتوسله.. تريد الخروج من حالة الخدر التي أوقعها بها.. لايجب أن تسمح له؟؟ يكفي..هذا يكفي.. ولكن جساس كان كمن أصابه مس..لم يعد يقدر على السيطرة على مشاعره ولارغباته.. امتدت ذراعه بقسوة ليفتح

عبائتها وليمزق قميصها ويظهر ملابسها الداخلية الرقيقة ومتجاهلاً شهقتها كان يضمها اليه اكثر.. بينما يشق فمه طريقه عبر عنقها الى مقدمة صدرها متجاهلاً مقاومتها الضعيفة. صوانة القلب ستكون له، رغماً عن الجميع وأولهم هي.. ستكون ملكه ولن تهدأ عواصفه حتى يمتلكها..

-أرجووك..

همست بضعف.. دموعها تنساب على خدها وعينيها معلقتان بالسقف..تشعر بجسدها الذي اجتاحته يداه بحميمية جعلتها تذوب.. سمعت همهمته الرافضة لرجائها وهو يعاود امتلاك شفتيها..

بحب.. بعذوبة لم تعرفها ابداً من قبل!!

"اااااه" تأوهت حالما افترقت شفتيهما لتعاود نحيبها وهو يعانقها بقوة هامساً:

-انت لي صوانة.. رغماً عنكِ.. رغماً عن ذاك الرجل الذي كدتِ تتزوجينه، أعرف يقيناً أن زواجكما لم يتم، ولن يتم.. أبداً.أنتِ لي ياجمرتي المشتعلة.. أنت هي عوضي عماتسببتِ به.. أنت

المرأة الوحيدة التي سأحصل عليها .. فأي امرأة غيرك سترضى برجلٍ مثلي..
ورفع عينيه المريرة اليها وهمس مؤكداً:
-رجل مشلول.. مقعد.. مشوه..
بكت بوجع.. كلماته تضربها بلارحمة ولمساته تجعلها تتوق لأكثر..لن تكذب هي تريده وتحبه وتعشق كل شيء فيه لن تقدر على ان تكرهه حتى وهو يرغمها على فعل مالن تغفره لنفسها أبداً..
-أنت ستكونين الثمن.. ثمن جريرتك.. هي أن تكوني لي يابنة عمي.
رفعت كفها ببطئ.. لامست جانب وجهه المحترق النازف ليتمرغ فيه كنمر وحشي ..
كيف لها أن تكون لسواه؟؟ انه مالك قلبها وروحها. ولكن.. كيف لها أن تكون له.. !!
تفجرت دموعها من جديد ولمساتها تصبح أكثر جراءة واحساسها يتوقد أكثر لايجب أن تسمح له..
هو يكرهها.. أم يعشقها؟!!

نزلت كفيها من وجنتيه الى عنقه وكتفيه العاريتين جرحة الممتد مغروزاً بين الضلوع ومن ثم مقدمة صدره.. وكأنها تلامس ناراً مشتعلة، سمعت تأوهه وأنفاسه اللاهثة،،

"جساس"

همست باسمه ليرفع رأسها اليها.. نظرت لعينيه الحبيبة الداكنة بوله.. رباااه كم تحبه!!

أحاطت وجنتيه بكفيها من جديد وهمست بألم:

-أنا لك يا ابن عمي..

انا منذ ولادتي لك وحدك.. وحتى أموت..

لمعت عيناه بوحشية .. خفقات قلبه المدوية كانت تصرخ من النشوة والألم والعذاب.. ومن فرح جنوني.. أنساه ألمه وهي تقبع صاغرة تحت يديه..

عاد يقبلها بوحشية لتشهق باكية وتفلت من ضغطه بصعوبة وهي تهتف:

-أرجوك.. لاتدنسني اكثر.. لاتعاملني كرخيصة جساس..

تسارعت انفاسه وابتعد عنها.. شيء من التعقل هاجمه بقسوة.. تجمدت عيناه بصدمة.. ينظر

لملامح وجهها الملطخة بالدموع..شعرها المتناثر على كتفيها العاريتين وملابسها الممزقة مدركاً بلحظة الى أي مستوى تدنى..
أي حيوان اصبح..
كإسمه تماماً كان حيواناً ينشب أنيابه في أنثى ضعيفة بلاحول ولاقوة..
أشاح عنها بكره..
أي جنون تجبره أن يقترف بيديه؟؟
-غداً صباحاً.. ستكونين زوجتي، والأن.. انهضي...
قالها بصوت مكتوم.. نهضت بصعوبة.. تجر جسدها المنهك لخطوات بسيطة قبل أن تسقط على ركبتيها وتخفض رأسها بقهر.. وذُل..
متى سيفهم..؟؟! عانقت جسدها بذراعيها تخفي تمزق ثوبها وتلملم عبائتها..
متى سيفهم أنه لاذنب لها.. وأنه حبيبها وسيظل الى الأبد..
-أنت لن تغادري.. ستبقين هنا لن تتحركي خطوة .. وحين يأتي والدك في الصباح ستخبرينه بأنك تريدين الزواج بي أنا.

اغمضت عينيها بقهر.. ووصلة الاذلال تستمر..
-ستقولين أنك كنت مخطئة.. وأنك ستتزوجينني مهما كان قرارهم.. سيف سيأتي بالمأذون الشرعي ونتمم العقد هنا.
استمر يقول بتسلط.. ثم أضاف بتهكم:
-من الأفضل أن تتصلي بأمك لتأتيك ببضع الملابس، فأنت لن تغادري جانبي للحظة..
أتفهمين صوان؟!
نشجت بصمت ولم تجب.. ليهدر بها بقسوة:
-أتفهمين صوان؟؟
-حاضر..
همست مخنوقة ليزفر متهالكاً.. وقبل أن تعي كان يصرخ بألم..
صرخة عالية جعلتها تفز جرياً نحوه.. هتفت اسمه بجنون.. كان يمسك ساقيه ويصرخ مقلباً رأسه على الوسائد:
-اااااااه... سااااقي.. اااااااااااااااااااااااه..
شهقت باكية ثم اندفعت خارج الغرفة تلملم عبائتها وتلتقط حجابها وتلفه حول رأسها كيفما

اتفق، وقفت خارجاً تصرخ لاحضار طبيب..
فجساس كان يتألم..!!
صرخت بمرارة.. وجاء طاقم طبي مهرولاً..
وقفت تنظر اليهم كيف اعتنوا به.. غسلوا جراحه من الدماء.. غيروا ضمادات ساقه.. اعطوه مسكناً ووقفوا يراقبونه بينما يرتخي جسده كلياً ويعود لعالم الظلام خالياً من الوجع..
بينما تقف هي هناك.. ترتجف باكية.. واحساس ملئه الألم والدمار يجثم عليها..
هذا مازرعته يداها.. ولن يكون جساس من يدفع ثمنه وحده.. هي أيضاً .. هي أيضاً ستجني معه ثماره.
***
نهاية الفصل

الفصل الرابع عشر

***

ترجل من السيارة في مرآب المستشفى المخصص للزوار، ودار حولها ليفتح لزوجته المتسمرة مكانها برهبة، فتح لها الباب ومد لها يده، منذ يومهما الاول في المشفى وهو يأتي بها كل يوم حين يزور الجساس، لساعة أو اثنتين، منذ أستيقظ.

ولكن اليوم كان اتصال سيف له في غاية الغرابة، فهو طلب منه الحضور بأقصى سرعة، دون ان يخبر أحد.

ولكنه لم يترك ترنيم وحدها ليس منذ تلك الكوابيس. لياليهم وحدها.. كانت ترفض اقترابه وتصر على الابتعاد، ولذا اختار هو أحد المقاعد فيما اعطاها سريره الضيق، وكان كما في الليلة الاولى يستيقظ على صراخها وارتجافة كوابيسها..

ثم تمضي الليل حائرة تتحرك حوله دون استكانة.. ليخيل اليه انها شبح قلق.. وبالذات مع كل الوزن الذي خسرته في الأيام الماضية دون سبب محدد!!

-هيا ترنيمة.
نظرت له بتردد ثم اخذت نفساً عميقاً وخرجت ليتجها معاً نحو جناح الجساس، كانت تلتصق به تقريباً تتحاشى النظر في وجوه الناس المارين بهم، تتحاشى الوقوف وكأنها ستواجه مصيراً أسوأ مماقد يحدث لها في عمرها كله،،
وصلا الى الجناح، كانت صوان تجلس خارج الغرفة كالعادة.. اقترب أوس وقبل قمة رأسها بحنان:
-كيف حالك صوانتي؟
رفعت له عينين كالجمر المشتعل، وجه شاحب..
وهمست بخواء:
-انهم يريدونك بالداخل..
عقد أوس حاجبيه وتسائل بخشونة:
-هل وقع للجساس مكروه؟؟ تكلمي؟
-انهم يريدونك..
قالت بشحوب لينظر هو لترنيمته ويقول لها:
-ابقي مع صوان.. لاتتركيها.
ثم أسرع للداخل، تركها لتجلس جوار الصوانة التي انكمشت على نفسها وسرحت نظراتها

للفراغ دون أن تضعها عليها، وهي نفسها تراجعت تهرب من المشاعر التي تهاجمهما كلما دخلت الى مستشفى أو مايشابهها.

..

بداخل الحجرة توقف أوس مذهولاً..

كان الجساس يرقد على فراشه، وبجواره يقف سيف، ثم السلطان والذي كان يعقد حاجبيه بتوتر.. وكان سيف قد اخبره بالأمر لتوه..

جساس يريد عقد قرانه على الصوانة في التو..

وعمه حسن في طريقه للقدوم..

وعليه وسيف أن يكونا شهوده..

-هل وافقت؟

تسائل أوس وهو يتذكر وجه صوان اللذي لايُفسر..

-لم يسألها أحد، جساس يقول أنها لن تعترض أبداً، لقد اتصلنا بكاتب العدل، سيكون هنا بعد لحظات..

قالها سيف بتوتر ثم قطع كلامهما صوت وصول حسن الذي اندفع ليقبل رأس الجساس بحنان بالغ وهو يقول:

-حمداً لله على سلامتك بني، تبدو بحال افضل اليوم.

نظر له جساس بصمت عينيه تحملان لوماً وعتاباً عميقاً، لم ينسى أن هذا الرجل كاد يسلم صوانته لرجل سواه.. لم يرد عليه، وسرعان ماوصل كاتب العدل، يرافقه ثلاثة لم يعرفهم أحد أدخلهم سيف تحت نظرات حسن المتسائلة:

-من هؤلاء؟

لم يجبه أحد بل كان جساس الذي قال بخشونة:

-عمي..

نظر له حسن بقلق فيما شعت عينا الجساس بالقوة والحزم:

-طلبتك ياعمي.. طلبتك يا ابن الشيّب..

اتسعت عينا عمه واقترب من ابن أخيه وهو يقول بتوتر:

-ماذا هناك جساس؟؟

ضاقت عينا جساس وهتف بخشونة:

-طلبتك ياعمي.. فقل تم..

ابتلع عمه ريقه وهو يستوعب الامر بصعوبة ولكنه لم يقدر على عدم الرد.. انه يطلبه أمام الجميع..

-تـــم يابني.. تمّ.

رفع جساس رأسه بصعوبة وهمس:

-ابنة عمي.. الصوانة.

تراجع حسن بصدمة، ولكنه تمالك نفسه بسرعة.. كيف؟؟ كيف يريدها على خطبتها؟؟ ولكن.. جساس هو ابن عمها.. وقد كان الكل يخشى أن يقوم بهكذا خطوة منذ زمن، ولكنه لم يفعلها، لم يتجرأ يوماً..

تلفت حوله يطلب مشورة من حوله، السلطان يواجه بكرسيه النافذة ويبدو أنه لايريد التدخل، فيما وقف سيف الى جنب أخيه مظهراً الدعم، ومن الناحية الاخرى كان أوس يراقب بصمت.. كان وحده في اتخاذ القرار ولم يتأخر..

الجساس ابن اخيه.. وابنته تحبه.. ومهما حدث هو لن يرفض ابن عمها..

-ابنتي لك من قبل أن تطلبها بني.

ظهر بصيص من الراحة في عينيه ثم التفت لكاتب العدل الذي قال بصرامة:
-أريد أن أسمع موافقة العروس.
-انها موافقة..
رد جساس بإرهاق ليصر كاتب العدل:
-أريد سماعها بنفسي، يجب أن اتأكد.
زفر جساس بضيق ولكن أوس تقدم للباب وهمس:
-أنا سأحضرها..
وخرج الى الرواق حيث وجدها تجلس بالقرب من ترنيمة التي رفعت اليه عينين متسعتين فلم يرد عليها بل التفت لصوان وقال بتوتر:
-تعالي صوان.
-مالأمر؟
تسائلت برجفة ليهمس:
-ستعرفين بالداخل.. هيا.
-وأنا؟!!
هتفت ترنيم واقفة بلهفة ليلتفت لها أوس بجسده كله ويبتسم باقتضاب:
-انتظري هنا ترنيم.

تراجعت بارتباك..وراقبته يبتعد بأخته للداخل لتنكمش هي عائدة لمقعدها بخوف.. لم تركها وحدها هنا؟؟

عانقت ذراعيها وبرد يتسلل لعظامها..ويثير فيها الخوف والترقب.

هي لاتريد البقاء وحدها هنا.. المكان يشعرها بالرهبة..

تلفتت حولها وعادت تنكمش وتراقب الباب الذي اختفى خلفه أوس بتركيز.

وراء الباب تسمرت صوان وعينيها على الأرض بينما كاتب العدل يعيد سؤاله عليها للمرة الثالثة..

-أنسة صوان حسن الشيب، هل توافقين على زواجك ب جساس سلطان الشيّب؟

شعرت بطوفان من الخجل يجتاحها، خجل فطري انتزع كبريائها وأبرز مخالبه ليشوه وجهها بحمرة قانية بينما تتشبث بذراع أوس وتكاد تختفي خلف كتفيه العريضين..

-صوان أجيبي، الرجل بدأ يفقد أعصابه.

زفر أوس بغيظ.. لتهمس بذهول:

-ماذا أقول؟

-قولي نعم أو لا..
هتف أوس بحنق لتغرس أظافرها في ذراعه وهي تهمس مخنوقة:
-لاتصرخ، أنا.. أنا لاأعرف..
"صوااان"
التفتت للجسد المسجى على الفراش وانتابتها رجفة عميقة.. عينيها التقت عيناه في نظرة طويلة .. وكأن كل من حولهم قد اختفى، لاأحد سواها والجساس، ذكرى تلك اللحظات بين ذراعيه جعلتها تذوي.. وتبحث عن مهرب.. ولكن الى أين..!!
ذكرى لمساته.. قبلاته..
مالداعي لأن تفكر او حتى تتردد..
انها له.. مهما فعلت فهي له..
"نعم"
همست بخفوت التقطه كاتب العدل الذي ندم للحظة لسؤالها وتنهد بارتياح والتفتت لهم وهو يسأل:
-من وكيلها؟ والشهود؟؟

ولكن صوان لم تبقى، تركت الجميع وخرجت وهي تسمع والدها يعلن أنه وكيلها وسيف وأوس كشاهدين، خرجت تركض نحو أحد الحمامات..
ستكون زوجته. وأخيراً بعد كل تلك السنوات؟؟!
أيعقل أن يكون الأمر قد انتهى؟؟ كل ذلك العذاب انتهى الى غير رجعة؟
ولكن.. ماذا عن نرجس؟!!
أحاطت أصابعها بعنقها وشعور بالاختناق يجرها.. ماذا ستكون ردة فعل نرجس وهل من الممكن أن تنفذ تهديداتها؟؟! انها لاتقدر على مواجهتها، عمها سلطان كان صامتاً على غير العادة!!
وأوس .. سيف؟؟!
كيف يمكن أن يتصرفوا ان وقعت الواقعة؟؟
غسلت وجهها برذاذ الماء مرتجفة، انها تتزوج جساس؟؟!
رفعت عينيها للمرآة..
انها تصبح زوجة حبيبها المحرم؟!!
ابتلعت ريقها بصعوبة..

نرجس لن تجد سواها لتؤنبه..لتتهمه، هي ستلقي بكل اللوم عليها..

"صواااان"

همسة انتزعتها من شرودها لتجد ترنيم تقف بالباب..

-أوس يريدك أن توقعي..

تأملت صوان الفتاة الرقيقة الشاحبة.. أنفاسها متلاحقة وكأنها تركض في سباق، كانت مشغولة البال لتلاحظ ملامحها الشاحبة عنوان لحياة بائسة لاتشبه بأي حال حياة عروس جديدة!!

تقدمت صوان شاحبة ومترددة لترى أوس يقف الى جوار كاتب العدل الذي أصر على تواجده أثناء توقيعها وكأنه يشك بأمر هذه الزيجة، ولكن صوان لم تتردد حين رأته..

لقد وقفت مذهولة أمام كتاب الزواج، دفعها أوس بمرفقه وهو يبتسم لها بتوتر، لتعاود النظر الى الكتاب بتوجس وكأنه سيهاجمها بأي لحظة..

"هيا يابنتي.. ان كنتِ راضية بالزواج فوقعي وإن كنتِ مغصوبة؟!"

هتف كاتب العدل بتعاطف ليزمجر أوس:

-لا أحد يستطيع ارغامها، ليس وهي ابنة سلاطين الشيّب.

-أووس!!

همست بخفوت لينظر لها بحنق ثم أخذت نفساً عميقاً ونظرت لكاتب العدل في عينيه:

-لاأحد يرغم السلطانة.. طمئن قلبك سيدي، أنا لابن عمي منذ وعيت على هذا الدنيا، وإنما هي رهبة هذه الخطوة التي تأخرت كثيراً هي مايأخذني.

ثم وبكل ثقة أخذت القلم من أوس ووقعت الى جوار اسمها ووضعت بصمتها الى جوار بصمته.. لم تنظر لاسمه الذي اقترن بإسمها للأبد، لم تنظر الى شخبطته الواثقة الى جوار اسمها المهتز،، لم ترى سوى أثر الحبر الأزرق الذي لون اصبعها واتسعت عينيها وهي تدور حول الخطوط المتشابكة لبصمتها..

انها زوجته..

شعرت بأوس يعانقها هامساً لها بمبـروك خافتة، قبل أن يعود الى غرفة ابن عمه مع الرجل.. لتقف صوان وتشعر بذراع ترنيم تحيطها وهي

تفعل مافعل زوجها وان حملت شفتاها ابتسامة مرتبكة..
جلست صوان بعدها.. لاتعرف ماعليها فعله..
راقبت كيف انصرف الرجال ولم يتبقى سوى أفراد عائلتها، حارت في أمرها أتبقى أم تذهب اليه..
زوجها..
حسبت في يوم أن دقات قلبها ستصل عنان السماء حين تصبح زوجته..
وبعدها حسبتها ستتوقف حين تصبح لسواه..
ولكنها الان..
كانت بطيئة.. عادية.. وكأنها كما لو كانت تنهض لصباح يوم عمل اعتيادي..
لاشيء يميزه..
لم تنهر الجبال.. لم تمطر السماء حمماً عليها..
لم تقم القيامة!!
نظرت حولها ببرود..
هاهي ترنيم تجلس مقابلاً لها تتيه عينيها في الفضاء، وهناك ممرضة دخلت الى غرفة

جساس، وبعد لحظات غادر والدها واوس وسيف وعمها سلطان..
راقبتهم يتحدثون بتوتر.. راقبت اختلاء والدها وعمها، وقوف سيف وحيداً يتحدث على الهاتف، ورأت أوس يجلس الى جوار زوجته ورأتها تقترب لتلتصق به.
كل شيء عادي أقرب الى الرتابة..
ولكن لاشيء عادي ورتيب في حياة جساس الشيّب..
"المريض يطلب زوجته لتبقى برفقته"
انطلقت الجملة العادية وسط الجميع كطلقة وسط ميتم..
كل الاعناق التفتت للمرضة المسكينة التي شعرت وقتها وكأنها ارتكبت كفراً ورمته جهاراً..
الانظار التي اتجهت اليها بكل استنكار العالم عادت سريعاً لصوان..
وكأن الجميع كان في حلم.. واستيقظ منه..
ألم يكونوا هم برفقته بالداخل؟ ألم يكونوا شهداء لعقد رباطهما المقدس؟!

أم أن ماحدث مجرد سقطٍ من رحم الذاكرة الى عمق النسيان..
ولكنها لم تكن ذكرى لتنسى.. كان واقعاً..
"صوان؟"
همس والدها بتوتر لتنهض دون تردد وهي تقول للمرضة:
-سآتي على الفور..
ابتسمت لها الفتاة بالاضطراب، ثم عادت الى الداخل، أخذت النفس العميق تلو الأخر ثم توجهت نحو الباب الذي يفصل بينهما ووقفت تتردد قبضتها على المقبض الحديدي البارد..
ابتلعت ريقها وألف فكرة وغيرها تدور دون هوادة في مخيلتها.. كيفية لقاءهما وقد صار اللقاء الأن شرعياً موثقاً دون اعتراض في السماء وإن واجه اعتراضات الأرض كلها.
تيبست أصابعها حول المزلاج، وعينيها تغيمان بدموع نعت كل الاعوام السابقة التي قضتها تتخيل هذه اللحظة، ليصفعها الواقع بلارحمة ويهبها يوماً تُخلد ذكراه ليس كمثله شيء..!!

هل تزوجت امرأة قبلاً بحب عمرها رغماً عنها؟!!
انها الأولى في كل شيء كما يبدو، سمعته حينها..
اتسعت عينيها وومض قلبها بألم وعقلها المتخبط الذي فقد تعقله يعيث في روحها فساداً وشكوكاً..
انه يتألم..
دفعت بالباب ووقف تنظر اليه بعينين مذهولتين ليرمقها بعينين يملؤهما الألم وشيء أخر..
"اتركينا"
همس بخشونة للمرضة التي كانت ترفع الفراش ليجلس معتدلاً فتثير فيه شتى أنواع الألام..
-انه وقت علاجك الطبيعي سيد جساس.
اعترضت فهمس:
-اتركينا.
اعتراض الممرضة لم يلقى منه سوى نظرة باردة جعلتها تلتفت لصوان تريد منها الدعم ولكنه لم يكن ليسمع أحد سوى صوت رأسه وما يدور فيه وحالياً المثول لأوامر الممرضة كان أخر ما يريد أن يسمع، كان يريد صوان..
وصوان لم تعترض..

-اتركينا لبعض الوقت، سأناديك بنفسي.
تنهدت الفتاة وسحبت عربتها ثم دفعتها للخارج متصلبة الوجه، لتبقى صوان متسمرة مكانها لا تقدم حتى خطوة، متململة تعقد أصابعها ببعضها وتعض شفتيها وتخبئ عينيها في أي مكان سوى عينيه..
-اقتربي..
همس لتبتلع ريقها بصعوبة وتطيعه ساقيها دون تردد.. فكيف لا تفعل وكلها الأن ملكه.
اقتربت حتى ماعاد يفصل بينهما سوى حاجز السرير الحديدي..
طلب منها بخفوت..لتنساب عينيها بنعومة وتقع على عينيه.. دون مقاومة اجتاحتها نظرته، قوية ومتحكمة.. وفوق كل شيء كانت راضية بل مفعمة بالرضا، أنفاسه التي كانت هادئة ومنضبطة تسارعت، رآها تطيل النظر لوجهه فارتفعت يده تلقائياً لتغطي جرحه، ولم تجد بداً من أن تعترضها بيدها، تمسك كفه بين كفيها وتضغط عليها هامسة:
-لا تخفي جروحك جساس.

-أنا لا أخفيها..
همهم بخشونة.. ثم قبض على أصابعها بقسوة وقبل أن تسحبها منه، كان يضعها على جرحه وينظر في عينيها اللتين اتسعتا برعب من ملمسها المثير للاشمئزاز، وهو يهمس بألم:
-انها جريرتك صوان، أشعري بها كما أفعل أنا، أشعري بألمي فهو حصيلة يدك.
-توقف.. لاتقل هذا.
توسلت بخوف ورجفة تجتاحها ولكنه لم يرحمها، بل شدد من قبضته على معصمها وثبتها على وجهه متجاهلاً ألمه الشخصي وهو يقول بحرقة:
-انها الحقيقة صوان، رغم كل ماعشته خلال تلك اللحظات وأنا أجلس بانتظار الموت وعقلي وقلبي لايكفان عن التفكير بكِ أنتِ، وكيف أنكِ السبب بكل مايحدث، وكل ألم ووجع شعرته خلال تلك السنوات، أنت كنتِ السبب.
انهمرت دموعها بلاتوقف، عقلها يحدثها أن تركض هاربة، بعيداً عنه وكل مايفعله بها وما يسببه من ألم.

ولكنها لم تقوى، نظرة العذاب على وجهه جعلتها تنهار من داخلها للخارج، قبضتها المقابلة لوجهه تحولت للمسات حنونة لم تعبأ بإشمئزازها السابق ولا خوفها منه، لامسته بشغف كعاشقة كما اعتادت أن تكون..

عينيها التهمت تفاصيله حتى المشوهة منها، لم تبتعد ولم تهرب لا بعينيها ولا بأصابعها لقد تملكها كلياً حتى ما عادت تأبه سوى به.. حبيبها جساس.. زوجها.. معشوق طفولتها.

واستجاب لها.. عينيه ضاعتا في نظرتها في الحنان المتدفق منها ومن لمستها، لقد سيطرت عليه، للحظة فقد نفسه الجديدة وغرق في سيطرتها الكاملة كما كانت تفعل منذ زمن..

-أنا.. لو أستطيع.. ان أعود بالزمن جساس، لما تسببت لك بأي ألم.

همست متثاقلة ليجيبها بسؤال أخذ من عمره سنواتٍ طويلة:

-لماذا كنتِ ترفضين؟

حرقة تلك التي انتقلت عبر سؤاله لتشعل اعماقها وتؤلبها ضدها وكأنها كان ينقصها عذابه ليزيد

من وقعه بتلك النظرة التي سكنتها وطاردتها كخيال.. نظرة الضياع والأسى.. نظرة القهر..
لم تستطع الاجابة وماذا تقدر أن تقول..!! هل تفضح سراً لم يكن لأحد أن يفشيه..أو حتى يهمس به أو يعطيه حيزاً من التفكير؟
لا.. هي مستعدة لتحمل كل الألم، وكل التبعات هي مستعدة أن تقف معه ضد الجميع ولن تقبل أن تبتعد ليس الأن..
رقت نظرتها وحملت شغفها وحبها الذي لم يعد عاراً عليها أن تظهره وهمست:
-كل هذا انتهى الان جساس، أنا الأن ملكك ولن أتركك مهما حدث.
قرأ في عينيها مالم تظهره، وأثار غضبه لحدود السماء، راى شعوراً عارماً وفهمه خطأ..
القبضة التي لانت حول معصمها استعادت وحشيتها ودفعتها لتقترب منه بقسوة كادت تكسر عظمها بينما هي تشهق بالألم والمفاجئة لقسوته..
وتكاد تقع على صدره ووجهها يبعد انشات فقط عن وجهه، ، بينما يقول بهسيس من بين شفتيه:

-ليس الأمر خياراً صوان.. أنت مجبرة الأن، أنت مقيدة بي، ملكي أنا، أنا وحدي من يقرر مصيرك.

التمع الألم قوياً في عينيها وظهر كسرها في عمقهما لتخفض رموشها بحسرة، ثم تغير كل شيء..بلحظة تغير الجو حتى حولهما..

فُتح الباب فجأة واندفعت نرجس وشيماء الى الداخل لتتوقفا بذهول وهما تريان صوان تقف قريبة للغاية من الجساس لدرجة أنها تظهر وكأنها راقدة بين ذراعيه؟!

-ماذا تفعلين هنا؟!!

صاحت نرجس بغضب لتقف صوان برعب محاولة جذب معصمها من قبضة جساس ولكنه لم يسمح لها، بل اشتدت قبضته حول معصمها فيما التزم الصمت وراقب والدته تقترب منهما وتقف مواجهة لصوان...

-أخبرتك أن تبتعدي، أخبرتك أن تعودي لمنزلك، اتركي ولدي لحاله.

-أمي..

بدأ جساس ولكن نرجس لم تستمع بل أصرت:

-ارحلي فلامكان لكِ هنا.
خفضت صوان عينيها ومشاعر عارمة تتصاعد من داخلها، جيشان من العواطف انفجر بداخلها تحدى خوفها واضطرابها وجعلها ترفع رأسها لتقابل عيني نرجس الزرقاء وهمست:
-مكاني هنا يازوجة عمي، أنا لن أغادر.
تراجعت نرجس بصدمة وصوان تلتفت لتقع عينها على شيماء التي كانت تضع يدها على كتف جساس المراقب بصمت، وقالت بجمود:
-وأنت ابتعدي عن زوجي، لاتلمسيه.
شهقت نرجس باستنكار بينما تراجعت شيماء بذهول صرف وابتسامة بالكاد تُلاحظ تلاعبت على شفتي جساس وصوان تعيد عينيها لزوجة عمها وتقول بتحدٍ:
-كما ترين يازوجة عمي، جساس أصر على اتمام زواجنا، وقد حدث منذ قليل فقط.
تراجعت نرجس وهي تهز رأسها غير مصدقة وتنقل بصرها بين ولدها والصوانة والتي رفعت رأسها متجاهلة خوفها الداخلي، بل وقفت باعتداد..

-أمي..ألن تباركي لنا؟!
همهم جساس ليخرج أمه من ذهولها وتلتفت اليه صارخة:
-هل جننت؟ هل فقدت عقلك جسااااس؟
اعتدل جساس في رقاده بحركة عنيفة تسببت بانتشار ألم مريع في كل أجزاء جسده كبته بصعوبة وهو يرسم هدوءاً صارخاً على ملامح وجهه:
-انه الشيء المتعقل الاول الذي فعلته في حياتي، لقد صبرت طويلاً أمي، ولم أكن لأقف متفرجاً لوقت أطول.
-لقد سحرتك.. هذه المرأة قد سحرتك..
صرخت شيماء بألم لتوافقها نرجس بهتاف ساخط:
-لقد عرفت طيلة حياتي، أنت مجرد عانس شمطاء، ولن أدعكِ تحطمين ولدي أتفهمين؟! لا أعرف حتى كيف ترضين زواجك برجل يصغرك أيتها العانس..
-أمي..

هدر جساس بعنف لتوقفه صوان بإشارة من يدها وهي تواجه زوجة عمها لأول مرة في حياتها وتهمس بصوت مرتجف:
-ربما أكون كل ماتقولين، ولكن ولدك هو من أصر على زواجنا.. لقد كان عقد قراني ذاك الذي أفسده.. كنتِ ستتخلصين مني والى الأبد، ولكنه هو من أصر.. هو من أتم زواجنا رغماً عني وعن والده.
هتفت بيأس لينظر لها جساس بذهول..
كانت حقاً تبرر لأمه سبب زواجهما، والأدهى أنها كانت تتذمر!!
شعر بضيق يلف أنفاسه بينما تتدافع الكلمات الغاضبة بينهن.. والدته والشيماء من جهة.. وصوان من الأخرى.. الصداع بدأ يلف عقله والتوتر أشعره بألم حار انبثق من بين ضلوعه..
"كـــــــــفى"
صرخ بغضب.. صرخ بحرقة.. بألم..
ينظر لأمه والمرأة التي لم يعشق سواها..
كانت أمه غاضبة حد الجنون..

-أمي.. زواجي بصوان تم وانتهى، لن يغير صراخك او غضبك منه شيئاً..
تنفست نرجس بغضب مشتعل واقتربت من شيماء الباكية بصمت واحاطتها بذراعيها قائلة بسخط:
-لقد اخترت بني، ولكنني لن أسكت.. ولن أترك هذه الشمطاء تمارس سحرها عليك الى الأبد.. فلابد من وقف هذه المهزلة، مهما طال وقتها.
وقبل أن يتكلم أحدهم كانت تمسك بيد شيماء وتجرها خلفها الى الخارج..
بقيت صوان واقفة.. بصورة شاحبة.. لاتنبس بحرف، فقط تنظر الى الفراغ أمامها بائسة وكلمات حماتها القاسية تخزها وتؤلمها.. وهي لاتقدر على الدفاع.. والأن..
نظرت نحو جساس كانت ملامحه مبهمة.. عيناه مظللتان بمشاعر عديدة..لم تفهمها.
-جسااس؟!
همست.. ليرد بقسوة:
-الممرضة.. كانت ستعطيني حماماً..
نظر في عينيها المرتبكتين وقال بجمود:

-قلت أنك ستفعلين، ولابد أنني على خطأ..
احتقن وجهها وتراجعت بإرتباك بينما يواصل هو:
-استدعها، وغادري.. لاأريدك هنا.ابقي في الخارج.
-جسااس؟!
همست مرتجفة ليصرخ بعنف:
-اخرجي الأن..
انتفضت باكية وأسرعت الى الخارج.. بينما جساس يتهالك على فراشه.. لقد حصل على حلم عمره بين يديه، ولكن هل يقتله الحلم ويتحول الى كابوس؟؟ الكل ضده..
حتى والده ووالدته.. شقيقه.. أوس.. حتى عروسه هي ضده؟؟
هل كانت ترغب بذلك الرجل؟
شعر بالألم حطم ضلوعه ويحرق مواضع اصابته..
انها الغيرة التي تحرقه، أشد ألماً من النار التي لفحته، أشد قسوة من الصُلب الذي مزق ساقيه ..
كانت دائماً، وستبقى أبداً هي الصوانة..

سبباً لشقائه ووجعه.

***

بعد ثلاثة أيام..

عدن..

انخفضت درجة الحرارة في ذلك المساء، وباتت الشوارع خالية إلا من بعض المارة العائدين الى منازلهم بعد دوام طويل، السماء مثقلة بمياه طال حملها وتأبى عصية أن تنزل غيثاً طال انتظاره!!

وفي أحد المباني الحديثة في المدينة الساحلية وقف مختار الراجي بعجرفة أمام النافذة الزجاجية الضخمة، وقد عقد ذراعيه خلف ظهره وانتصب جسده بكل غرور..

-هل أرسلت بطلبي ياعمي.

ارتفع الصوت من خلفه ليجيب بهدوء:

-ترنيم في دبي، لقد رآها أحد معارفي مع الكابتن، في مشفى قرب مركز المدينة.

-أعرف ذلك عمي.

التفت اليه مختار بحاجبين معقودين وسأله بتوتر:

-لم لم تخبرني؟

-لأنك طلبت أن نراقبها من بعيد.. حتى يحين الوقت..

-منذ متى تراقبها؟

تسائل بخشونة:

-منذ ظهرا معاً في روما قبل ايام.. لاتقلق انهما تحت أعيننا، حتى تطلب تنفيذ الخطة.

همس أشرف بخبث ليبتسم عمه بسخرية ويشير بذراعه:

-ليس الأن، أنا لاأريد التسبب بكارثة فالرجل يقود طائرات نقل عام، أريد أن يتم الأمر قبل موعد الكشف الطبي، وهو قد قام بواحد قبل أسابيع فقط..

-الكشف الطبي يمكن أن يتم تقديمه لو تعرض المذكور لانتقاد او أقدم على غلطة ولو بسيطة.

زمجر أشرف بنفاذ صبر ليزجره عمه بدهاء:

-أحمق.. قد يتسبب تسرعك بجذب الانظار الينا، والادهى قد يسرع باكتشاف الامر، وهنا قد يستطيع تداركه بل قد ينجو منها لن تسنح لنا أية فرصة.

تراجع أشرف متسائلاً:

-ماذا تريد منا أن نفعل اذاً؟!
-اكتفي بالمراقبة حالياً.. ولابأس في أن تنبه ترنيمتي الغالية أن عائلتها ستكون دوماً متواجدة خلفها..
ابتسم أشرف مكشراً وتراجع لخارج المكتب وهو يومئ بطاعة لخطة عمه الداهية، ومفاجائاته المدوية...

....
****

دبي.. اليوم التالي،
خرجت صوان من غرفة الجساس منهكة العاطفة، عينيها ذابلتين لقلة ساعات النوم التي تحصل عليها، التوتر العنيف الذي تعاني منه والغضب العاصف من الجساس والذي تتقبله بصبر وصمت دون أن تعترض أو تجابه!!
خلال الايام السابقة واجهت وحدها غضب والدتها، انهيارها ومقاطعتها بشكل لم تتصوره، لقد طلبت منها حرفياً أن تبتعد عنها.. لم توافق قط على زواجها ورغم اخبارها عما حدث

بالتفصيل، الا أنه لم يخفف من غضبها وشعورها بالألم .. كانت تلومها ولاتعرف الأسباب حتى؟!
لم تشأ صوان التسبب بالمزيد من الأذى، وخصوصاً أن أمها ستبدأ أولى جلسات علاجها الكيميائي هذا اليوم.. لذا تحملت بصبر وصمت. وابتعدت كما رغبت أمها.
خارج الغرفة وجدت ترنيم، والتي كانت تطالع الفراغ كعادتها، اقتربت منها وهمست:
-أين أوس؟
انتفضت ترنيم ونظرت لها مجفلة ثم ابتسمت:
-لقد استدعوه في مكتب الشركة، اضطر للذهاب على الفور.. هل أنت بخير؟ تبدين مرهقة.
علقت بإشفاق لتتنهد صوان ولاتجيب بل سألتها مرتجفة:
-هل أطلب منك خدمة؟
عقدت حاجبيها:
-بالطبع..مالأمر؟
-والدتي...
وتحشرج صوتها هامسة:
-والدتي تبدأ جلساتها بعد قليل.. وهي...هي..

ترددت بخجل تخفي وجهها خلف أصابع مهتزة من الارتباك لتقترب ترنيم وتشد على معصمها هامسة:

-سأذهب لأبقى معها.. لاتقلقي..

نظرت لها صوان بإمتنان:

-شكراً لكِ.

ابتسمت ترنيم ونهضت تشد من ازار معطفها الطويل وتحركت نحو المصاعد لتأخذها للطابق الثالث حيث تأخذ الخالة فاطمة جرعاتها، وقفت صامتة وقد شاركتها احدى الممرضات الطريق، ثم بدأ المصعد بالهبوط وبعد لحظات قليلة كانت في الطابق الثالث تبحث عن قاعات العلاج الكيميائي، بعينين واسعتين تنظران للافتات بحيرة .. ثم بلحظة.. تغير كل شيء، شعرت بيد تدفعها الى جدار قريب، ورعب شلّ أطرافها وهي تشعر بالأنفاس الغريبة قريبة منها حد أن تتسرب الى مسامعها وتثير فيها اشمئزازاً عارماً، وقبل ان تستطيع الاعتراض والهرب بعيداً عن صاحبها كانت تقف محاصرة بينه وبين الجدار خلفها..

اتسعت عينيها برعب ورفعت بصرها لتقابل عيني أشرف الراجي المبتسمتين بخبث..
-صباح الخير ترنيمتي الغالية..
-لاتلمسني.
دمدمت بشحوب وهي تنكمش مكانها ونظرتها الفزعة تجتاحها لتثير مشاعر الرضا في عينيه، فيقترب أكثر ويحوم قريباً من وجهها قائلاً:
-هل افتقدتني ياجميلتي؟
-ابتعد عني..
همهمت برعب وقد نسيت قوتها وتماسكها، نسيت كل ماتدربت عليه من ربآطة الجأش والتحمل، نسيت الصلابة التي اعتنقتها منذ سنوات وتبعثرت مفرداتها حين واجهت اول تحدٍ حقيقي لها وفشلت...
-أنا اشتقت لكِ، الى حد الجنون ياترنيم، سنوات وأنا صابر عليكِ دون أن أتقدم خطوة، تركت لكِ الحرية وواجهت المشاكل كلها بالنيابة عنكِ وأنت تعاقبينني بالزواج برجل أخر، وقبلت.. فقط لأجل المكافأة الكبرى وهي أنك في النهاية ستكونين لي ياجميلتي..

همس بشغف جعلها تشعر بالاحتقار أكثر نحوه ونحو نفسها، نحو عائلتها والظروف القاهرة التي تسببت بوضعها تحت رحمة قذر مثله في يوم من الأيام، احتقرت نفسها لضعفها أمامه رغم سنوات من شحذ القوة والبحث عن الذات وظنها أنها ربما وجدتها لتكتشف أنها لم تجد سوى سراب..
وأنها تعود مثلما كانت..
ضعيفة ومتخاذلة حد الشفقة..
لاشيء تغير..
"لاشيء تغير"
همس بها بسخرية جعلتها تناظره بذهول وهو يضيف بعجرفة:
-لازلت كما كنتِ .. ملكي وان ارتبطتِ باسم رجل سواي.
هنا فقط شعرت بالغليان يبدأ بالتصاعد داخلها، غضب اجتاحها وجعلها ترفع ذراعيها لتدفعه من كتفيه بعيداً عنها وتحيد عنه لاهثة والمصعد خلفه يُفتح أبوابه وارتياح عامر يجتاحها وهي ترى الرجل بالبدلة السوداء المألوفة وشرائطها الذهبية..

-أووس..
هتفت بلهفة عارمة وركضت لتلقي نفسها بين ذراعيه المفتوحتين لاستقبالها وقلق عارم يجتاح ملامحه هاتفاً:
-ما الأمر ترنيم؟ أأنت بخير؟
رفعت عينين لاهفتين اليه بينما فمها يُطبق وتلجئ اليه لتبحث عن أمان فقدته منذ سنوات تختبئ كلها، بينما ترتجف أطرافها ليلحظ هو وقتها الرجل الواقف أمامهما ينظر اليهما بكل برود..
كان قريبها ذاك الثقيل والذي لم يستسغ وجوده قبلاً..
أحاطها بذراعيه قربها منه لدرجة أنها استمعت لدقات قلبه الثابتة وهو ينظر لابن عمها ويسأله بخشونة:
-ماذا تفعل هنا؟
لم ترى أشرف.. ولكنها شعرت بابتسامته اللزجة تلوثها وهو يرد:
-رؤية ابنة عمي في مكان كهذا يبعث على القلق كابتن.. أتضن علي الحق في السؤال عنها والاطمئنان؟!

رفع أوس رأسه وتسائل بحذر:
-مالذي جاء بك من الأساس؟
-زيارة صديق..
همس ببطء لتغمض عينيها وتسند رأسها على صدر زوجها بينما يتحدث الأخير بسخرية:
-لم أكن أعرف أن لديك أية أصدقاء؟!
ابتسمت رغماً عنها وشعرت بغضب الأخر يلفحها فزاد اقترابها من زوجها الذي شدد قبضته حولها وقال لأشرف باستعجال:
-تمتع بزيارتك على كل حال.. نحن لدينا الكثير لنقوم به..اعذرنا.
وقبل ان يوجه له أي كلمة، كان يدفع بترنيم الملتصقة به تقريباً نحو باب قريب هامساً لها بعجلة:
-سنلقي نظرة على أمي ونغادر، لدي رحلة بعد ثلاث ساعات فقط..
اتسعت عينا ترنيم ورفعت وجهها اليه تراقب التوتر الخفيف خلف نظراته والخطوط حول فمه وعينيه رغم تمسكه بأعصابه..

القت نظرة خفية على أشرف ورأته يجز على أسنانه بغضب أكبر، قبل أن يختفيا خلف الباب..
كانت الخالة فاطمة في غرفة جانبية معتمة الاضاءة بشكل كبير، باردة، بجدران بيضاء وخطوط زرقاء ناعمة، رغم هدوءها والسلام الذي تشعر به حال دخولك اليها كانت خانقة لحد بعيد.
تشبثت ترنيم بذراع اوس وهمست بعصبية:
-لاأحب هذه الغرفة..
شدد من ذراعه حولها وهمس يطمئنها:
-سنغادر في الحال..
ثم التفت لأمه واقترب يقبل رأسها:
-كيف حالك أمي؟؟
أشاحت عنه دون أن تقبل قبلته وهتفت بألم:
-كلكم اتفقتم ضدي، تظنون أنكم تفعلون ماهو صالح صوان ولكنكم مخطئين جميعاً، زوجتموها بجساس وتعرفون جيداً أنها ستظل تعيسة عمرها كله.
-صوان تحبه..
برر أوس بحنق لتنظر له فاطمة بأسى:

-صوان كانت مستعدة أن تمضي بحياتها أوس، علاقتهما لم تكن لتنجح أبداً.. ليس وجساس بكامل قوته وبالتأكيد ليس الأن.

-أتعيبين الجساس أمي؟!

هتف أوس باستنكار لتهز فاطمة رأسها:

-أتسمع ماتقول؟؟ أأعيب ابني الذي ربيته؟؟

تراجع بحيرة لتتنهد وتهمس:

-والدته لاتريدها.. لاتطيق ابنتي وكلنا نعرف هذا، جساس كان غير قادر على الوقوف امامها وحتى اقناع الصوانة، ولكن الان.. لقد استغل غضبه ورغبته في الانتقام من صوان وأنتم استغللتم احساسها بالذنب..

وانسابت دمعتها مريرة على خدها:

-جساس حكم على ابنتي بالاعدام، حياة زوجية ناقصة وفرصتها في تكوين عائلة معدومة الان..

-من قال لكِ هذا الهراء؟؟

هتف بشحوب لتصرخ:

-جساس مشلول ياأوس أتظنني لاأعرف؟

-سيتعافى..

أكد بحزم لتهتف بأمل:

-ان شاااءالله...
ثم همس بمرارة:
-ولكن ماذنب ابنتي لتبقى مربوطة بالامل الواهي؟! لثد عاشت سنين من عمرها.. بانتظار ان يحسم قراره او يتركها.. لقد تحملت جنونه لسنوات، وحين وجدت أخيراً الرجل المناسب هاهو يسلبها الخيار ويتصرف كعادة الذئاب.. أنانية وقسوة مفرطة.
-أمي أنت تحملين جساس الكثير من اللوم، انه يحب صوان، يحبها حقاً ومن كل أعماقه.. لاتظلميه ولاتفكري للحظة أنه يريد أذيتها أو أن أحداً منا قد يسمح له بهذا.
تراجعت في فراشها واغلقت عينيها تهمهم بألم:
-لقد فعلتم وانتهى الأمر، أنا لن أسامحكم.. لا جساس ولاسيف ولاحتى أنت.. وفوقكم جميعاً.. حسن.. لن أسامح عمك أبداً.
-أمي لاتقولي هذا..
-اذهب الان..
قاطعت تبرمه واستدارت تشيح عنه هاتفة بغضب:

-خذ زوجتك وارحل يا ابن نضال..لا أريد سماع شيء منك.

تراجع أوس بألم، وشعر بيد ترنيم تحيط بذراعه تسحبه الى الخارج هامسة:

-لاتضايقها أوس انها مريضة وتحتاج الى الراحة.

-انها تلومنا وتلوم جساس، هو ليس بحالة تسمح له بالدفاع عن نفسه.. وصوان لاتحتاج للمزيد من الضغط.

هتف بمرارة لتقترب منه مواسية:

-لابأس هي لديها كل الحق أن تقلق، لا تزد من عذابها.

رفع رأسه وتنهد بهدوء.. لتتأمله مفتونة دون أن تصدر صوتاً.. انتبهت توها الى بدلته الرسمية التي يرتديها.. الشرائط الصفراء الحريرية والقميص الأبيض الناصع وربطة العنق المحلولة .. تلك التفاصيل التي لاحظتها منذ عاشت معه..

كيف يرتدي دوماً ازرار قميص مختلفة في كل جهة، اليمنى دائماً ذهبية بإطار من البلاتين..

واليسرى دائماً فضية بإطار ذهبي..

ثم أنه أبداً لايغلق اول أزرار القميص.. حتى بعد عقد ربطة عنقه، ثم هناك ذلك الدبوس الذهبي على شكل سيف نصله مقوس ومقبضه مرصع بالألماس ..

كانت تفاصيل دقيقة معينة لايرتدي بدلة الطيران الخاصة به الا وقد وضعها كلها..

-هل ستسافر؟!

همست تضع كفها برقة على كتفه وعينيها تتسعان لينظر لها:

-سأرحل بعد ساعتين، لدي رحلة الى البهاماس..

-سأرحل معك..

هتفت دون تردد وهي تتذكر وجود أشرف، وخوفها ورعبها منه..

التفت يعترض ولكنها هتفت:

-لن أبقى وحدي هنا، أنت وعدتني أن تكون معي.. ألاتتركني.

توسلته ليتنهد ويومئ برأسه:

-سنذهب الى البهاماس لليلة واحدة، ومن ثم جنوب افريقيا ومنها الى اليونان وبعدها الى روما.

اتسعت عينيها وهي تتخيل الرحلة المرهقة.. ثم فكرت للحظة قبل ان تهمس:
-ماذا لو عدت أنا مباشرة الى روما، سأكون بأمان هناك.. سأنتظرك.
-هل ستكونين بخير؟ وحدك في الشقة؟
-سأبقى في منزل عمتي..
هتفت بحماس.. وعقلها يصف لها كيفية الوقت الذي ستمضيه بين ذكرياتها مع عمتها، واللهفة تظهر في عينيها .. وتجعلها تتألق كما لم يحدث من قبل، وابتسمت بتلقائية لتنير الابتسامة وجهها وبسحر يعجز عن وصفه تضيء ملامحها الجميلة وتنتقل اليه الابتسامة وكأنها عدوى سريعة!!

لقد أحب الطريقة التي تضيء بها عينيها.. فيشرق وجهها كله.. وتنير عالمه بخفة، ليشعر بروحه تطفوا معها وتحركها بمجرد لمحة منها!! كما لم يحدث من قبل.. رفع ذراعه مسحوراً ولامس وجنتها بخفة لتحتقن بالخجل وشعور اخر لم تجربه قبلاً ..

شعر بسخونتها تحت لمسته فاتسعت ابتسامته وتألقت عيناه متسائلاً:

-الن تشتاقي لوجودي معك؟

خفضت عينيها هرباً ولم ترد.. فازدانت ابتسامته بالثقة واقترب منها:

-لن تستغرق رحلتي سوى ثلاثة ليال، وبعدها سأكون معك، لفترة قصيرة أدرك هذا ولكنني سأتي اليكِ..

-هذا يعني أنك ستأخذني معك؟!

همست بأمل ليعقد حاجبيه مشاكساً:

-إن دفعتِ الثمن..

ظهرت الحيرة في عينيها فاقترب أكثر:

-قبليني..

تراجعت شاهقة وهي تدير رأسها في الممر الخالي لحسن الحظ وان كانت تظن وللحظة أن كلمته سمعها كل المرضى في المستشفى، بل كل مخلوق حي.. فهتفت بحياء:

-ألا تستحي!!

-أنت زوجتـــي.

برر بوقاحة وحاجبيه يتلاعبان لتكور قبضتها وتلكمه في كتفه بحنق فيقهقه بمرح ثم يحيطها بذراعه لتغيب كلياً بضآلتها لحجمه، يدفعها معه بخطوات سريعة وتكاد تركض ركضاً لمجاراته وهو يقول مسرعاً:

-ليس لدينا الكثير من الوقت، ولايزال علي أن أجد لكِ تذكرة سفر.. بأسرع وقت ممكن.

***

بعد يومين..

روما..

انتهى أخيراً.. تراجع في مقعده وهو يعقد حاجبيه بألم، يغلق عينيه بتوتر وجسده كله متشنج من فرط الارهاق، تنهد ورفع ساقيه على مسند قريب، واسترخى على الكرسي الوثير، بينما يرفع صوت جهاز الترفيه المنزلي.. لاغنية كلاسيكية.. وبعد لحظات رفع هاتفه وواتصل بها..

-هل نسيتني..؟!!

همست بإبتسامة وتهادى اليه صوتها متكاسلاً ليبتسم ويرد:

-وهل أقوى؟؟ اشتقت اليكِ..
-وأنا اشتقت أكثر..
همست بدلال وتمطت في رقادها تحتضن وسادتها، هامسة:
-متى ستأتي؟
-أنا؟!! ظننت أنك أنت من ستعودين مباشرة.
استنكر ضاحكاً.. لتقهقه وتهمس:
-لايزال الوضع هنا متوتر قليلاً، صوان وجساس تزوجا..
-لاتقولي..!!
هتف بدهشة..لتضحك وتقول:
-نعم حبيبي صدق أو لا أخيراً تزوجا، جساس استغل امر الحادث بمهارة وارغم الجميع على الموافقة على الزواج دون اعتراض. المعترضة بشدة كانت والدته.. ثم المعترضة بصمت كانت عمتي فاطمة.
-وأنت ماذا تفعلين هناك؟!
تسائل بتنهيدة لتجيب بدهاء:
-أنا أقوم بواجبي حبيبي، كفتاة عائلة محترمة أقوم بواجبي تجاه عائلتي.

-وماذا عن واجبك تجاه زوجك؟
اعترض بحنق لتضحك:
-سأصل غداً مساءاً..
رفع حاجبيه:
-هل تقولين الصدق سارة؟!
-نعم ركان... غداً مساءاً سأكون بين ذراعيك..
وسأخبرك بالضبط ماأفكر به وليس بالكلمات..
-أنت تلعبين بالنار ياجميلتي.
همس باثارة لتتسع ابتسامتها:
-سيكون عليك أن تنتظر، وأن تحبس أنفاسك.
-أنت قاسية..
دمدم بحنق ثم سألها بحنان:
-كيف حال ابني؟
-يتعبني في الصباح.. ماعدا ذلك فهو ملاك كوالده..
-منذ متى ..
تسائل مقهقهاً لتشاركه الضحك وتلامس بطنها التي بدأت رحلة تكورها القادمة، ثم أخذت تتحدث معه في رحلة من الهمسات الناعمة والتي

أخرجته من حالة الارهاق والتعب لحالة جديدة كلياً من الحب والهيام سرقت منه أنفاسه..
كان يعد الأيام رغم انشغاله بانتظار عودتها اليه..
حياته دونها فارغة..
خرج من المكتب يحمل سترته بيد، والهاتف في الاخرى، لايزال يحادثها بسلام.. لوح بالتحية لنيران ثم استقل المصعد الى الطابق السفلي..
وفي المرآب اقترب بخطوات متمهلة نحو سيارته ليتوقف بحذر، وغضب..
-حبيبتي.. سأعاود الاتصال بكِ..
-ماذا هناك؟
تسائلت بقلق ليجيب باقتضاب أن صادفه طارئ مهم وسيتصل بها مباشرة بعد انتهاءه..
أغلقت الخط بقلق..
وقبعت تنتظر بصبر.. وطال انتظارها، الدقائق أصبحت ساعات.. واتصالها أصبح يحمل لمحة من غضب مع القلق.. وانتابها الحنق وهي تلاحظ أن هاتفه بعد أن كان يرن بلاتوقف أصبح مغلقاً..
لم تنم ليلتها..القلق والغضب منعاها من نعمة النوم حتى..

أصبحت تعد الدقائق لتصل الى ساعة الرحيل، لم تخبر والديها اللذان ودعاها أمام بوابة المغادرة وفضلت ابقاء الأمر سراً حتى تكتشف ماهيته، بالضبط..

الرحلة قضتها تستمع الى نشرات الأخبار لعدم قدرتها على فعل اي شيء أخر، ولو كان مجرد التواصل مع أي جارٍ لها في الطائرة..

حين وصلت الى روما كانت السماء غائمة منذرة بالمطر، ارتدت معطفها وبحثت عن ركان في وجوه المستقبلين ولم تجده.. تنهدت وغصة تستحكم أنفاسها واحساس غريب يحترق في حشاها..

استقلت سيارة أجرة وانطلقت الى المبنى حيث شقتهما..

لم تستغرق الرحلة سوى عشرون دقيقة مع خلو الطريق من المارة بسبب الاجواء..

حين وصلت الى المبنى رأت سيارته تقف في مكانها المعتاد، وهذا بعث فيها القليل من الطمئنينة رغم الغضب.

استخدمت المصعد.. وحين دخلت الى شقتهما .. لاحظت الفرق على الفور..
رمشت عينيها لعدة لحظات..ومشت بحذر تتقدم عبر الفوضى..
سمعت الأصوات العالية..
وأصابتها غمامة غطت على سمعها فلم تميز منها سوى ضجيجها..
كانت خلف ابواب غرفة نومها..!!
ابتلعت ريقها بصعوبة.. ومدت ذراعها بخوف لتفتح بابها..
وتصلبت دون أن تقدر على الحركة!!
المشهد طُبع في مخيلتها ولن تقدر الاف المماحي في العالم على ازالته..
ليست كل الذكريات السيئة تُمحى.. بعضها يبقى، كندبة حروقٍ بشعة لاسبيل لايجاد ابتسامته من جديد؟!
كعلامة فارقة.. كأيقونة للشر والألم والندم..
مارأته وقتها جعلها تشهق بذعر.. وتكتم شهقتها بعد فوات الأوان في صميمها المضطرب..
تراجعت بذهول..

تتعثر ببؤسها ودموعها التي هطلت تحاول غسل ماشهدته من قذارة..
لتخفي عنها ملامح ماراقبته ملعوناً بخطايا شيطان وخداع رجل سقيم!!
تراجعت تتعثر بذلها وألمها.. شاهقة برائتها وخنوعها ..
متجاهلة صرخاته القوية ومحاولته اتباعها..
"ابتعد عني"
هتفت بوجع.. كان يواجهها.. ملامحه مشتتة عيناه زائغتان.. لقد كان لتوه مع سواها..
مع من؟؟ معها هي.. سييرا وليس سواها؟!!
"لاتلمسني"
صرخت بجنون حين حاول اعادت عينيها اليه، حين اراد أن يشبك عينيها به.. ولكنها كانت مجروحة.. ليس فقط مجروحة بل كانت مدمرة.. له ولنفسها وللجميع حولهما..
قفزت خلفاً وصرخت به أن يبتعد منها ولايقترب، ليصرخ مدافعاً:
-لا لاتذهبي.. أنا لا اعرف.. لا اعرف ماحل بي..

كان اليأس يلون حروفه وسارة تتراجع اكثر وتهتف به:
-كيــف؟؟ كيف تخدعني؟؟ كيف .. لقد .. لقد قلت..
هذرت بهستيرية ليندفع ويحاول احتضانها مدافعاً عن نفسه.. ولكنها لم تتحمل، تيبست بين ذراعيه وبدأت بالصراخ أن يفلتها حتى فعل..
-لاتلمسنيي ركاااااااان.. ابتعد عنيييييييي.. اتركني بحاااااالي..
حاول الاقتراب بعد أن أفلتها ولكن تقدمه هجوم سافر من الأخرى شبه العارية وهي ترتمي بين ذراعيه:
-دعها ياحبيبي.. دعها ولنعد لماكنا فيه..
-ابتعدييييي..
صرخ بها بجنون مبعداً اياها بعنف لتسقط ارضاً متأوهة.. وتستغل سارة الفرصة لتركض نحو المخرج بدموعها وانهيارها.. ولكن ركان لم يتركها..
أسرع راكضاً خلفها وهو يصرخ باسمها دون أن تنظر عقبها..

اتجهت نحو السلالم وبدأت تنزل الدرجات تلو الأخرى بسرعة جنونية.. وهي تشهق بعنف والم دون أن تكبت شيئاً.. أرادت الصراخ والتوجع بلاتوقف.. ولكن عليها أن تبتعد..
ركان مع ذلك، لم يسمح لها..
قفز بضع درجات واستطاع أن يمسكها بقسوة من معصمها، شعرت بألم حارق يكاد يحطم عظامها، والتفتت اليه معترضة بوجع ليصرخ بها بجنون:
-توقفي واسمعيني.. انا لااعرف كيف جائت الى فراشي؟؟
بكت بمرارة وهتفت:
-فراشنا.. منزلنا.. منزل طفلناااااااااا..
كانت تندب وصوتها يقطر مرارة والم..
بينما يحاول:
-انا لا اعرف .. لا افهم..
هتف بجنون وعيناه تشردان في ذكريات مطموسة.. لتحاول نزع معصمها من قبضته بقوة ليعاود الألم مهاجمتها وتتجاهله وهي تستدير لتعاود نزول الدرجات.. ولكن الألم لم يتركها.. وانقضت صاعقته لتصيبها وهي تحاول بضعف

الاستناد على حافة السلم.. وقبل أن تعي كانت اقدامها تتعثر ببعضها، وتوازنها يخف وبلحظة..
أصبحت الدرجات قادمة وبسرعة مخيفة كانت تصرخ مذعورة..
ولكن الارتطام وقع..
وجسدها تدحرج عدة درجات للاسفل بجنون لتسكت صرخاتها وتتصاعد صرخاته هو ..!!
***
ذات الليـلة.. في الطرف الثاني من المدينة..
انتهى الأمر، لم تعد قريبة من الشكوى لم تعد قريبة من الألم، إنها أمنة هنا.. معه..
"ترنيم؟"
اغلقت عينيها وأنفاسها تأخذ شكلاً غريباً.. تحتبس صدرها ويضيق بها..
تشعر باقترابه.. دنوه منها.. ماذا سيريد منها بعد!
انها تعرف.. هو رجل ..وهي امرأته..
وقد صبر عليها لوقت طويل..
وليس الصبر من شيم الرجال..
لهثت نفساً قصيراً..

كان يدنو منها خلفها تماماً لتهرب الى أي مكان،،
التفتت اليه وعينيها تصطدمان بتلك المشاعر الهائجة في عينيه..
تطلبان شيئاً.. ماذا قد يطلب رجلٌ مثله من امرأة مثلها..
يقفان على طرفي نقيض..
قمة الحياة وقعر الفشل..
ولكنها كانت مخطئة.. هو لم يكن يطلب..\
رفع حاجبه الكثيف وتألقت عيناه لتحار في لونهما الرمادي المطعم بشذرات ذهبية، ذئب يحاصر فريسة!!
يستدرجها.. يخدرها..
حتى لاتدري سوى بساقيها تذويان تحتها..
ويصبح هو اعتمادها..
سندها.. قامتها العريضة..
كحمل وديع!! وربما رضيع!!
على قدر يغلي..
لم لاينتهى.. يقترب ويلغي هذه المسافة القاتلة..
لاهو قريب فيمتلك ولاهو بعيد فيترك!!
تلك المسافة..

حينما تحوم الشكوك..
وينفلق الصدع عن التوق..
تنفضح رغبات القلب..
وتصرخ أمانيه الدفينه..
تقترب فيبتعد.. يهجم فتختبئ..
رقصة مشاعر على السنة اللهب..
تارة تحرق، وفي الأخرى .. رباااه فالأخرى تحرق أيضاً!!
عليها ان تهرب.. ربما .. ربما لو اغلقت عينيها...
"اغلقي عينيكِ"
همس يأمرها لتطيع بذهول..
هل تنفست رغباتها؟؟ هل يسكن تلافيف مخها ويقرأ أفكارها؟
ألايعرف أنه بهذا يقطع صلته بها!!
يفقد استحواذه.. يعطيها السبيل لتنجو؟؟!!
"هكذا.. أفضل"
همس بخشونة لتستجيب بلاقيود..
هكذا أفضل!!
أسوأ.. أعمق.. أحمق..

هكذا تغرق.. تحترق.. تشتعل..تنجو..
هكذا..تقفز حرة ترتمي ولاتقع..
تطفو.. بين السماء والأرض..
لا..
ليس من حقه..
جفنيها ثقيلين.. مأسورين.. مقيدة ضائعة..
شاهقة بلهفة تقابلها أنفاسه..
ابتعد.. اقترب..فقط لاتقف في المنتصف!
تلك المسافة..اقرب اكثر لا لا ..تريده أبعد..لم لاتدفعه عنها؟؟ لم لاتتحرر من بطش الهواء الذي يتحكم به فيأسرها دون قيود؟؟ لاااا.. انه يقيدها!!
فتحت عينيها على وسعهما .. جاحظتين وهي تبحث عن قيدها..
ذراعيها خلف ظهرها مكبلتين بقبضته المؤلمة..
"أووس؟!!"
همست متلعثمة ليبتسم ببطئ وكسل..
قريب جداً.. لايحق ان يكون بهذا القرب ويثير فيها مثل هذا الشوق وكأنه في أقصى بعدٍ عنها؟؟ أيحق له؟

دمدمت اعتراضها وهي تحاول التملص من قبضته..
ولكنه اوقفها..بحركة من رأسه..انخفض ليقبض على نظراتها الشاردة..
عينيها الواسعتين التصقت بعينيه وهدر القلب بجنون
اتسعت ابتسامته مكشرة ..ضاريــة..
لتنكمش لاهثة
الزجاج البارد للنافذة خلفها.. جعلها تنتفض..
كانت حارة للغاية !!
اللحظة التي يتحول فيها النهار الى ليل.. تلك الساعة بين الخيط الابيض والاسود..
اسرار عالم من المشاعر كلها تفتحت بين يديها..
لقد مر وقت طويل..
منذ أن كانت بين يديه..منذ ان قبلها .. هل يمكن أن تشتاق لتجربة تكرهها؟!
هي لاتكرهه..لاتكره لمساته..لاتكره قبلاته..
"أتريدينني؟"

حملت عينيها استنكارها.. لم تتضرج وجنتيها بالخجل، لم تفهم سؤاله لتخجل.. كيف تريده؟؟ وكيف لا؟!!

لم تجبه.. تعلقت اجابتها كما تعلق سؤاله.. حاول انزالها بسؤال تلو الأخر وكأنها درست بجد طيلة السنوات الماضية وتقديم الزمن الان فرصة لها لتثبت أن هناك فرصة لاسترادادها..

"ترنيم"

كان يقترب ليضع رأسه على كتفها .. ولكن في تلك اللحظة بالذات رن هاتفه..

تجاهله مرة .. واقترب يريد أن ينهل من رحيقها بشغف أطار بصوابه،،

ولكن الرنين تواصل فشتم ببذاءة جعلتها تتنحى بخفر محرج وهو يستقبل الاتصال هامساً بتوتر:

-انه ركان..

وفتح الخط ليؤنب زوج شقيقته على اتصاله بمثل هذا الوقت.. لتتسع عيناه بصورة كبيرة وكلمات مبعثرة من ركان اختلطت بالدموع والاسى.. وصرخ ركان بشيء لم تفهمه ترنيم التي اقتربت من أوس لتدعمه بدون تردد..

بينما يرفع عينيه اليها هامساً بذهول:
-انها سارة..!!
بلمت ولم ترد وهي تدري أن الامر جلل، وليس مجرد شجار بين حبيبين..
لم يعودا حبيبين..!!
نهاية الفصل
****

الفصل الخامس عشر

***
روما
ليلة أمس..
صداع.. ألم ودوار يكتنف تلافيف مخه، ضوضاء عارمة تلك التي تصم أذنيه حاول فتح عينيه ولكن جفنيه مطبقين وكأنما يرزخان تحت ثقلي حديد، جسده ثقيل مقيد إلى الفراش، يشعر بالبرد.. فمه جاف وكأنا لم يشرب منذ أيام!! عقله يطفو فوق موج متلاطم يقذفه عالياً ويعود ليغرقه..
سمع الأصوات حوله.. مجرد همهمات.. ثم ذلك الجسد الدافئ الذي يلتصق به!!

لمسات جريئة.. مثيرة تسارعت لها نبضات قلبه بينما يستجيب جسده الملقى بلا حول ولا قوة بكل خضوع.. "سارة؟!"

همهم بضعف..

كانت امرأة.. تلامسه بشغف وإثارة.. فمها يرسم خطوط نارية على صفحات جسده، من الأسفل للأعلى، حتى صارت بمحاذاة وجهه أغرقته بالقبلات ..!!

"سارة!!"

عاد يهمس هذه المرة بتساؤل وإحساس مريب يكتنفه.. وشعور بالنفور يجتاح خلاياه، لتتسرب الإثارة من عروقه وتتوقف استجابة جسده، ليجد بعض القوة ويرفع ذراعيه أولا بضعف.. لتحط على جسد المرأة.. ثم صعوداً إلى رأسها..

عقله الغائب تنبه فوراً.. هذه ليست سارة.. هذه ليست امرأته؟!

"من؟!.. من أنتِ؟!"

همس بصعوبة.. يجبر جفنيه على الانفراج ليرى عينيها.. عينين صقيعيتين بشعر أشقر محمر قصير، باردة كما الثلج، ليتصلب جسده كله

وقتها، وتتسع عيناه بذهول.. الغشاوة حول مخه تنزاح صارخاً باشمئزاز:

-سييرا ؟!!

تراجعت المرأة بصدمة.. لم يكن من المفروض عليه أن يستيقظ..

فكرت بتوتر ولكنها لم تهتز، بل عادت إلى ذراعيه وهمست بإثارة:

-غاليتك سييرا ركان باشا.

نفض ركان ذراعيه ثم بدأ بدفعها عنه مواجهاً صعوبة السيطرة على عضلات ذراعيه، التي كانت ترتجف كطائر تبلل بالماء، هتف بصعوبة:

-ابتعدي.. ابتعدي عني..

ولكنها لم تفعل، بل ظلت تحاول معاودة الارتماء عليه فيما عقله يبدأ بتفنيد الأمور حوله، عيناه تحومان ليكتشف أنه في غرفته.. وأنه عارٍ تماماً على سريره ومعه تلك المرأة؟!

-ابتعدي..

صرخ بعنف ودفعها لتقع من على الفراش مطلقة صرخة ألم فيما ركان ينهض من رقاده ويبحث عن ملابسه، ارتدى سرواله وصرخ بسييرا:

-أخرجي من منزلي، الأن.
ولكنها لم تفعل.. بل نهضت لتقترب منه تحيط عنقه بذراعيها وتهمس بشغف:
-أنت تشعر بالقلق فحسب ركان.. لا تخف حبيبي.. تلك الشمطاء لن تأتي في القريب العاجل لا تقلق.
-اذهبي إلى الجحيم..
هتف بعنف وأراد دفعها بعيداً عنه حين سمع تلك الصرخة..
التوى داخله بعنف والتفت بجسده كله نحو مصدرها.. واتسعت عيناه بذهول..
"سارة؟؟!!"
رآها تفقد اتزانها، تكاد تقع من طولها بينما تترنح خارجاً..
دفع بسييرا واندفع خلفها وهو يصرخ باسمها بلوعة، كان بالكاد يحافظ على وقوفه ساقيه ترتجفان وعقله يصرخ من العمق دون توقف، وقلبه يتمزق من فرط ألمها الذي رآه في عينيها قبل أن تهرب!!
-سارة توقفي.. اسمعيني..

ولكنها لم تتوقف ولم تستجب ركضت بعيداً وبدأت بنزول السلم ولكنه قفز يحاول اعتراضها، وقبض على معصمها وهو يتوسل أن تنظر إليه..
لم يحسب حساب قوته وضعفها، أذاها ولم يدرك، كان بالكاد يسيطر على توازنه وحين دفعته لتهرب لم يقدر على ايقافها، وشاهد بعينين متسعتين كيف قفزت الى الأمام خطوة ثم بدأت رحلة سقوطها المريعة، صرخت مرة واحدة قبل أن تسكت تماماً.. ليبدأ دوره في الصراخ بإسمها قفز ووقع الى جورها رأسه يصطدم بالجدار بقوة جوار جسدها المسجى.. رفعها اليه يضمها الى صدره يناجيها أن تفتح عينيها، آلاف المطارق تدق في رأسه وخلف عينيه وقبل أن يدرك كان يتهالك جوارها، ويفقد وعيه من جديد وهو يحتضنها بقوة.. تخور مع مرور الوقت..

***

روما .. اليوم،
الطريق الى المستشفى لم يستغرق وقتاً طويلاً، كان أوس ينتقل بالمصعد الى الجناح حيث الغرفة

التي أخبره ركان أن سارة ترقد فيها، وحال اقترابه وجد صهره هناك..

-مالذي حدث ركان؟؟ كيف هي سارة؟

رفع ركان عينين زائغتين له وأشار لباب أمامه:

-انها بالداخل مع طبيبين، وهم يرفضون اخباري بأي شيء.

نظر اوس للباب ثم عاد لركان ولاحظ أنه هو نفسه يرتدي رداء المستشفى فتسائل بقلق:

-هل أنت مريض أنت الأخر؟؟

هز ركان رأسه نافياً و الحيرة تسكن ملامحه بينما يخرج في التو أحد الأطباء ويرمق ركان ببرود ليندفع نحوه أوس:

-كيف حالها..؟ هي بخير أليس كذلك؟!

-من تكون؟

-أنا أخوها، أريد معرفة ماحدث لها!

هتف أوس بحدة ليشير له الطبيب بالدخول:

-انها تنتظرك..

اتسعت عينا أوس بدهشة ثم التفت لركان الذي بادره الطبيب بمهنية:

-سنيور يجب أن تعود الى غرفتك، لقد أخبرتك أنها ترفض رؤيتك.
رفع له ركان عينين شرستين فيما تسائل أوس:
-مالذي تعنيه؟؟ لم ترفض رؤية زوجها؟
أشار الطبيب لداخل الغرفة فألقى أوس نظرة حذرة على ركان ثم اندفع للداخل، رق قلبه مباشرة لرؤية سارة مستلقية على الفراش الابيض، تبدو هشة وضعيفة وكأنما لاتزال طفلة!!
-سارة..
ناداها بحنان لتنظر له بلهفة ويستقبلها حضنه الواسع بقوة هامساً لها:
-كيف حالك حبيبتي.. مالأمر؟ مالذي حدث معك وركان؟
تملصت من حضنه ونظرت له وهمست بثبات:
-لاأريد أن أراه، أرجوك.. خذه بعيداً.
عقد حاجبيه:
-مالأمر سارة تكلمي؟

كانت نظرتها ثابتة وعازمة، لم يظهر أثر الألم والاكتئاب فيها.. كانت فقط بلا روح أو احساس غائبة في عالم من العزلة وكأنما فقدت روحها..
-صغيرتي مابكِ؟ مالذي فعله بك ذلك الأحمق، أخبريني لأحطم رأسه.
نظرت له سارة ببرود، ماذا ستقول لرجل مثله، هو الأخر.. قد تجده يوماً ما زوجته بين ذراعي أخرى سواها!! هو داء للرجال جميعهم وهي تعرف ذلك ومتأكده منه تماماً..
لذا تراجعت وأسندت رأسها على الوسادة، هي لم تبكي عندما استيقظت، لم تبكي خداعه لم تبكي رؤيتها له بين ذراعي سواها.. هي كانت خائفة على شيء واحد..
مستعدة للبكاء والانهايار لأجله حتى..
وأحاطت ببطنها بقوة ..
ولكنه لايزال معها.. روحها الصغيرة لاتزال تتشبث بالحياة رغم كل شيء.. لازالت قوية وتنبض بالأمل، وهي لن تدع أي شيء سيئ يصيبها مجدداً فقط لأجل صغيرها الذي ينمو في حشاها..

لقد كانت حمقاء وعمياء لدرجة أن تثق بركان مجدداً، غلطة لن تكررها..
وكادت تفقد معها طفلها..
-أنا لاأريد أن أراه مجدداً..
همست بثبات لأوس الذي نظر لمعصمها المجبر وعقد حاجبيه بشك:
-هل ضربك؟
لم تتغير نظرتها، لم تهتز شعرة منها بل همست:
-وهل يجرؤ أحد على المساس بالسلطانة يا أخي.
اقترب أوس وهمس بشراسة:
-ماذا فعل؟
ابتلعت ريقها، رباااه..فكرت بذعر.. الصورة التي يطلب منها أوس أن تستعيدها بل تنطقها كانت حقاً قاسية، مؤلمة. ولكنها فعلت، قالت بشحوب وهي تحاول السيطرة على الارتجافة في صوتها:
-لقد وجدته مع امرأة حقيرة على فراشي..
اتسعت عينا أوس بذهول.. ثم قبل أن تفطن لما ينتويه كان يقفز خارج الغرفة ليجد ركان يجلس خارجاً كما تركه يحاول اقناع الطبيب بأنه لن يبارح مكانه، حتى يرى سارة!!

-أيها الحقير..
صرخ أوس بعنف وهو ينقض على ركان، وقع الاثنان أرضاً تحت عيني الطبيب المتفاجئة وقبل أن يستطيع أن يتدخل حتى كان أوس يصرع ركان على الارض ويكيل له الضربات الواحدة تلو الأخرى، متجاهلاً حالة الذهول ومنظر ركان المصعوق وهو يتلقى اللكمات دون دفاع او حتى مقاومة، اوس كان غاضباً..
من كل شيء، وكان غضبه يعميه عن كل شيء!!
"يالهي.. توقفاا.. اوقفهما يانضاال"
اندفع الهتاف اللاهث من خلفهما وشعر أوس وقتها بأبيه يحيط بوسه ويرفعه عن ركان الذي تكوم ارضاً غير قادر على الحركة وأوس يصرخ:
-كيف تجرأت أيها الحقير، كيف تخونها وتضربها؟؟!!
شهقت توبايا والتي وصلت مع نضال في تلك اللحظة وصاحت مذعورة:
-ابنتي؟!

واندفعت الى داخل الغرفة بينما نضال الشيب يحاول السيطرة على ولده هاتفاً:
-توقف عن القتال اوس، سيموت بين يديك، هل جننت؟؟
-ساقتل اللعين بنفسي أبي، أنت لم ترى سارة.. هذا الوغد حطمها..
صرخ أوس بشراسة بينما يراقب كيف تلوى ركان على الارض واثنين من المسعفين يقتربون منه ويساعدونه على الاعتدال لتظهر نتائج وحشية أوس على وجهه الممزق والدماء التي تسيل من أنفه وشفتيه، وهو بالكاد يأخذ النفس تلو الأخر..ليختنق بدماءه..
-توقف يا أحمق، ستدخل نفسك الى السجن، أين تظن نفسك.
صرخ به أبيه بقوة بينما المسعفين يحملون ركان الى غرفة جانبية للعناية بجروحه، والطبيب يقول بحنق:
-هذا اعتداء خطير، ستواجه اتهاماً من الشرطة سنيور.

-هذا صحيح، وله بالمثل فمافعله بأختي لن يمر هكذا.

صاح أوس بانفعال ليجذبه والده بعنف الى داخل غرفة سارة واغلق الباب خلفهما وواجه أوس بعنف:

-هل جننت؟! قد تخسر رخصتك بسبب هذه الافعال الطائشة..

-انظر لابنتك اولاً سيد نضال..

صاح أوس بعنف ليتنهد نضال بحنق ويستدير ليرى ابنته بين ذراعي امها التي كانت تبكي بألم وهي تلامس رأس سارة وتمسد شعرها بحنان، ثم التفت لأوس وقال بحنق:

-عد الى منزلك في الحال، أنا سأتصرف بهذه الفوضى.

-ماذا ستفعل؟!

هتف أوس بحنق ليصرخ به أباه:

-قلت اذهب الأن.. ولاتعد هنا أبداً.

-ولكن سارة..

اعترض باستنكار ليمسك نضال بكتفيه بقوة:

-اذهب أوس، أختفي من أمامي الأن قبل أن أكسر رأسك بنفسي.
زفر أوس بضيق ولكنه لم يجادل أكثر، بل استدار على عقبيه تاركاً المستشفى برمته عائداً لشقته..
كان الغضب يغلي بداخله يقوده ولايترك زمام تفكيره..
-ترنيم؟!
صاح بتوتر وهو يجوب أرجاء الشقة، متنقلاً بين الغرف بحنق لتلفت نظره قصاصة معلقة على تثال رخامي يتصدر البهو..
نزعها ليجد الحروف المتقافزة
"انا في منزل عمتي"
-تباً..
صاح بحنق ثم عاد ليلتقط سترته ويعاود الخروج منطلقاً بسيارته نحو الحي القديم، اوقف السيارة تحت المبنى المكون من طابقين وجد أن نور الشقة العلوية مضاء، اتخذ طريقه عبر الباب الخلفي الموارب الى الاعلى..
كان الباب مواربا كذلك.

زفر بعصبية ودفعه الى الشقة الصغيرة وطارت نظرته الى باب غرفة النوم.. وتذكر أخر يوم كان هنا.. وشعر بالألم يهاجم ذكرياته..

"ترنيم"

صاح بقوة ليسمع ضجة خفيضة قبل ان يراها تصعد السلم المؤدي الى الطابق السفلي وعينيها متسعتان بدهشة:

-كيف صعدت الى هنا؟

تقدم نحوها ممسكاً بمرفقها بقسوة وهو يهتف:

-لقد دخلت عبر الباب الخلفي كالمعتاد، ألم تفكري قط بغلقه؟ هل أنت مجنونة؟

توسعت عينيها بألم وحاولت تخليص نفسها من قبضته:

-انت تؤلمني، مابالك.. يبدو أنني نسيته مالمشكلة؟

-المشكلة أنك لست في حواري بلادك أنت في روما.. أتفهمين معنى روما..عاصمة المافيا العالمية، بالاضافة لكل في العالم.

نظرت لغضبه بذهول.. كلماته ترن في أذنيها وهو يواصل بعنف:

-ماذا لو دخل سواي، ماذا لو تعرض لكِ وأنت هنا وحدك؟!

اقتربت منه فجأة.. حتى وضعت كفيها على صدره وهمست:

-أنت وعدت بحمايتي.

اتسعت عيناه بغضب.. تلاشى تدريجياً وهو يطيل النظر لعينيها اللوزيتين وهما تتضرعان اليه وتنظران نحوه بكل تلك البراءة.. رباااه ماتفعل به عينيها؟!!

-ترنيم أنت لاتفهمين..

هتف بعصبية لتخفض بصرها بألم فيزفر بحنق ويفلت مرفقها ثم يحيطها بذراعيه بقوة ويضغطها الى صدره هامساً:

-لاتفعلي هذا مرة أخرى، لقد شعرت بالذعر حين لم أجدك في المنزل، ثم أصبت بالجنون لتركك باب المنزل مفتوحاً بتلك الطريقة بما كنتِ تفكرين بالله عليكِ..

تكورت في حضنه كطفلة بقامتها التي بالكاد وصلت لمنتصف صدره، وسمعت ضربات قلبه الهادرة لتبتسم وهي تقول:

-لماذا ينبض قلبك هكذا بقوة؟
ابعدها لينظر في عينيها بتركيز وللحظة ويلة ظنته سيتكلم، ويقول احدى تلك الجمل الذكية التي تثير أعصابها ولكنه لم يفعل بل سرعان ماغابت نظرته المركزة خلف شتات سرعان ماغاب تحت جفنيه وهو ينقض عليها ليقبلها بقوة.. شهقت قبل أن تسكتها القبلة، وأخذت على حين غرة وهو يدفعها بعنف ليلصقها بالجدار خلفها بينما يحط ليس بفمه فقط وانما بجسده كله، يهيمن عليها يسيطر على أطرافها دون أن يلمسها سوى بشفتيه!!
خفق قلبها بعنف متجاوزاً دقات قلبه بأشواط، لتدرك توها سر النبضات القوية..
"رباااه الى متى؟"
همس بعذاب وهو يتراجع أخيراً..
ببطئ يتنازل فمه عن أحقيته بشفتيها، مصدراً أنيناً معذباً.. انتقل بسهولة اليها ليصدر من أعماقها وهي تتشبث به بضعف كي لاتخونها ساقيها وتتهاويان تحتها بينما هو يهمس بشوق خشن:

-ألاتنوين الاقتراب مني بالمقابل ترنيم؟
احمرت وجنتيها بقوة وحارت أين تخبئ عينيها، ونظرتها تتعلق بخفر أنثوي بعينيه وكأنها تسأله ألا يثق بممانعتها، ألا يعيرها أدنى اهتمام ويمضي..
واستجاب برجولة حارة يحيط جسدها الضئيل بذراع والاخرى تزيح حجابها ليتساقط شعرها شلالاً على كتفيها واصابعه تلتف حول الخصلات الكثيفة بقسوة لم يعمدها مرجعاً رأسها للورا، كاشفاً عن عنقها، لتنزل رأسه وتحط شفتاه على جلدها الناعم بتملك غريزي جعلها تنتفض وهي تهمس اسمه بذعر تسلل الى مساماتها، تشعر بجسدها كله يتصلب تحت وطء لمساته، عرق بارد يتصببها، فمها مفتوحاً بتأوه صامت بينما يشتعل في نواحيها احساس لايمت لإحساسه بصله!!
بينما هو يرتفع في مقامات الشوق والرغبة..
كانت هي تغرق في مشاعر ذُل وعجز..
كانت تهوي.. وهو.. هو كان يطير..

لقد أصبحت أخيراً بين ذراعيه.. مستسلمة.. ناعمة، كتلة من الأنوثة المصمتة تحررت بين ذراعيه..

معطفها الطويل لحق بحجابها أرضاً، وبلوزتها الصفراء القطنية التصقت بثناياها كجلد ثانٍ بسبب العرق الذي تصبب منها، وسمع هو أنينها ليربطه بنشوته، شعر بأنفاسها العميقة ليتثيره أكثر..

شعر بها ترتجف ليبتسم بثقة رجل اعتاد على ردة فعل مماثلة من كل امرأة كانت معه..

كانت أصابعه تفتح أزرار بلوزتها بخبرة وخفة، شفتاه تبحثان عن نبضها ليشعر به.. ليشعر بتأثير قبلاته عليها، ليصطدم بالواقع.. ويشعر بلحظة.. بردة فعلها..

البشرة الباردة..

النبض الخافت..

الجسد المرتجف..

رفع رأسه.. محاولاً رؤية وجهها .. ليرى عينيها الزائغتين..

"ترنيم؟!"

همس بذهول وهو يفلتها كحيوان سام.. لتتهاوى أمامه كخرقة بالية مبتلة.. وكأنما قد فارقت الحياة..

وقف يطالعها بذهول..

ثم انحنت ساقاه تحته.. ويده تمتد ليشعر بنبض عنقها.. ويراقب صدرها الذي تحولت أنفاسه العميقة الى أخرى سطحية بطيئة، لم يعرف كيف أتته القوة التي غادرته.. وانحنى ليحملها ويسرع بها الى كنبة منجدة رفع ساقيها على المسند، خلع حذائها حرر وسطها من ضغط السحاب، حرر صديريتها وفتح فمها بقبضة حازمة بينما يقترب ليسمع صوت أخذها لأنفاسها..

قفز على قدميه الى المطبخ وعاد بكوب من الماء، وضع القليل على كفه المضمومة ثم مسحه برقة على وجهها، عنقها ومقدمة صدرها.. انحنى عليها وهمس بيأس:

-ترنيمتي..

شهقت بخفوت.. ورفرف جفنيها ليتنهد وأصابعه تبحث عن النبض الذي عادت اليه قوته بعض الشيء، نظر الى شحوبها، بشرتها البيضاء

أصبحت شفافة وشفتيها المتوردتين مزرقتين جافتين.. وضع ذراعه تحت ظهرها ورفعها اليه وهمس لها:

-خذي نفساً عميقاً ترنيمة.. أنا لن أؤذيكي.

-شهقت للهواء أقوى ليضمها اليه هامساً بارتياح:

-رباااه يا امرأة لقد أطرتي لي جزءاً من عقلي..

-اااه.. اااه..

تأوهت واشتد أنينها ليبعدها ويرى عينيها المتألمتين والغارقتين بدموعها فيهزها برفق:

-ماذا بكِ ياصغيرتي؟ ماذا حدث لكِ؟

أجهشت بالبكاء وهي تهز رأسها بعنف.. شفتيها ترتجفان.. ذراعيها تسرعان لتحيط بجسدها.. تخفي عُريها عن عينيه وتخفي عينيها المكسورتين عن نظرته العميقة..

-اشش.. توقفي لاتبكي.

همس بخشونة.. ثم عاد يضمها بقوة وغضب عارم يتصاعد من اعماقه، لايعرف ماحدث معها في الماضي الذي تخشاه ولايعرف كيف يمكن ان يخفف عنها؟ يسكن هذا الرعب المتصاعد من عمق عينيها، ويجني ثقتها وحبها.

قبلها بعمق على جانب رأسها..
ثم همس لها بخشونة أن ترتب نفسها.. فسيعودان الى المنزل.
-اريد..أريد البقاء هنا.
تمتمت مرتجفة.. ليقول بصوت قاطع:
-ستأتين معي..
-أريد.. هنا..
اعترضت كطفل عنيد ليتنهد وكأب صبور، أعاد تزرير ثيابها فارتبكت نظراتها وهي تحاول السيطرة على كفيه هامسة بحرج:
-انا.. انا سأفعل.
-أنت مجرد طفلة شقية ترنيم، تظنين انك ستنالين كل ماتريدين بالعبوس والدموع، ولكنني لست والدكِ.
هتف بحنق جعلها تنظر له بذهول، فأكمل مابدأه بصمت ثم نهض يحضر لها معطفها وغطاء رأسها، وبدون كلمة اضافية نفذت أمره الصامت وتبعته الى سيارته بعد أن أحكم اغلاق المنزل من جميع الجهات..في طريقهما الى شقته.. فكرة

واحدة فقط كانت تجول في رأس أوس..
الماضي!!
ماضيها الذي تخفيه عنه يجب عليه اكتشافه..
مهما كان وكيفما سيفعل.. ذلك الماضي سيكون هو الوسيلة التي يستطيع أن يصل به اليها ويخترق الحاجز الذي مهما ظن أنه يهدمه فهو يظل موجوداً بينهما وبقوة.
***
دبـــي..
نهضت عن كرسيها متصلبة الظهر، لقد نامت هنا رغم توجيهات عمها بتوفير سرير لها في غرفته ولكنها لم تجرؤ على النوم جوار مكان رقوده، لم تكن تقدر..
تمطت بألم.. ثم نظرت لساعتها، الساعة الثامنة، ستبدأ جولة الأطباء بعد قليل..
تقدمت الى الحمام الملحق بالجناح متجنبة النظر الى القاطع الخفيف الذي يفصلها عنه..
غابت في الحمام لبعض الوقت ثم خرجت منتعشة وان أظهرت الخطوط حول عينيها مدى اجهادها وقلة النوم الذي تعانيه منذ الحادث، أرادت العودة

الى منزلها، الاغتسال لوقت طويل ثم تغيير ملابسها،،
ولكنه يرفض فكرة أن تترك الغرفة حتى.
تنهدت وأخذت نفساً عميقاً ودخلت الى جهته من الغرفة، ووقفت تراقبه بصمت، كان ينام نوماً عميقاً بعد المهدئ القوي الذي أعطوه له بعد موجة من الألم والتي ظنت بسببها أنه لن ينهض قط..
كان ألمه مريعاً.. كانت تراقبه يتلوى دون أن تقدر على فعل شيء.. تسللت دمعة الى عينيها ولكنها لم تذرفها بل مسحتها بطرف اصبعها وتسللت خارجاً لتحصل على فنجان من القهوة قبل استيقاظه على الاقل.
كانت تسير بسرعة نحو مقهى المستشفى حين اعترض طريقها رجل طويل القامة كاد يتسبب بتعثرها..\
-أفسح ياسيد..
وتلعثمت حروفها وهي ترى صلاح الزجال ينظر لها بقسوة واستنكار لتبتلع ريقها بصعوبة وتتراجع للخلف بينما يقول لها بعنف:

-ماهذا الذي قاله لي والدك على الهاتف أمس صوان؟
اغمضت عينيها لدقيقة قبل أن تفتحهما بعزيمة وتهمس مشيحة عنه:
-مادام والدي قد قال لك الأمر فلا أرى ضرورة لوجودك هنا لسؤالي.
قبض الرجل كفيه بقوة وحاول استجلاب نظرتها القوية والتي سيطرت على تفكيره لأسابيع وحين أوشك على امتلاكها طارت كحمامة الى قفص سواه:
-أنت خطيبتي، كيف سمحتي لهم أن يزوجوك لرجل أخر؟ رجل فقد كل شيء.. ساقيه ومستقبله..
-لا اسمح لك..
صرخت بعنف جلب اليهما الأنظار الفضولية ولم تهتم، فقط ارادت أن تمزق وجهه لتلسنه على جساس بتلك الطريقة، الكلمة التي قالها.. فقدان جساس لكل شيء؟!!
أوجعتها..

-قد يكون الجساس فقد ساقيه.. أو أسوأ.. هو لم يفقدني أنا..

هتفت بحرارة جعلته يناظرها بتوتر بينما تضيف بفخر:

-جساس الشيب كان ولايزال رجلاً كاملاً اتفهم، مهما ظننتم به، ومهما فقد.. هو رجل وأنا الأن امرأته، وأنا لن أخونه أو أخون حتى ثقته بوقوفي معك سيد صلاح.. جساس هو ابن عمي، وأنا زوجته، امرأته وحلاله كيفما يريد.. أتفهم؟!

هدرت بعنف ثم نظرت له بتعالٍ وهمست:

-والان ابتعد عن طريقي والا فلن يعجبك ماسأفعل.

نظر لها الرجل للحظات مبهوتاً قبل أن يبتعد عن طريقها بصمت لترفع رأسها عالياً وتشق طريقها نحو المقهى وهي تعاني من الصداع الذي سيحول كوب القهوة الذي كانت تريده الى كوب مضاعف، بدون سكر.

***

تركيـــا..

أنقرة،

وضع سماعة الهاتف بهدوء وابتسامة تتلاعب على شفتيه، لقد نجحت خطة تلك الشيطانة كما يبدو..

أوه بل نجحت بكل تأكيد، بالذات وأن قرار بعدم التعرض والابتعاد قد صدر بحق ركان، لصالح زوجته..

واتسعت ابتسامته الوحشية وهو يفكر.. زوجته المؤقتة طبعاً..

-باشـــا..

تصاعد الصوت من خلفه لتختفي ابتسامته ويلتفت بجسده كله وعينيه تظهران امتعاضه:

-ماذا تفعلين هنا؟

اقترب سييرا بخيالها الطويل فيما شعرها الاشقر القصير يلتمع بحمرة نحاسية تحت الاضاءة الساطعة لمكتب الباشا..

-لقد أتممت جزئي من الاتفاق.

أخذ شاهر الباشا نفساً عميقاً وبدا كطاووس متخايل وهو يتحرك بخطوات واسعة بطيئة ليجلس على كرسي ضمن مجموعة جلدية فاخرة بلون الخشب المصقول، عقد ساقيه ومد ذراعه

على مسند المقعد، وهو ينظر لها باحتقار دون حتى أن يدعوها للجلوس:
-لقد تم تحويل المبلغ المتفق عليه الى حسابك البنكي، مالذي تفعلينه هنا؟
تجاهلت سييرا نبرة الاحتقار في صوته واقتربت منه تقول بتوتر:
-حين يستعيد ركان وعيه كلياً، ويدرك مافعلته هو سيبحث عني، هو لن يسكت حتى يجدني..
-اذا اختفي.
رد ببساطة لتهتف بحنق:
-أحتاج لمكان، هو يعرف كل مكان لدي.
-اذهبي لأي مكان سييرا، لديكي العالم ومبلغ من ستة أصفار في حسابك.
هتف بحزم لتصيح:
-أحتاج حماية، أنت لاتعرف ركـان، ان لديه أصدقاء.. أصدقاء قذرين للغاية وقد يتسبب بقتلي.
زم شاهر شفتيه وقال ببرود:
-مالذي تطلبينه بالضبط؟
اقتربت أكثر حتى جاورته وركعت امام قدميه هامسة:

-دعني أبقى معك، لبعض الوقت على الاقل، سأكون تحت حمايتك، وركان لن يجرؤ على المساس بي وهو يعرف مدى قوتك.

-هل أنت مجنونة؟

هتف بسخرية ثم اضاف بتقرير:

-كل مافعلته كان شرطه الاول والاخير أن تبتعدي عني، ألايربط بيننا أحد سييرا، لاأريد لمخلوق أن يربط ماحدث لركان والسلطانة بي وأنت.. المرأة القذرة التي وجدتها السلطانة على فراشها مع زوجها.. أنت بالذات تريدين البقاء بالقرب مني؟؟ أي حماقة هذه؟!

-أنا أريد حمايتك.. سارة لن تعرف.

هتفت بيأس ليعنفها بقسوة:

-سارة ستشك بطيفها منذ الأن، المرحلة القادمة ستكون أهم مرحلة بالنسبة لي، وأنت لامكان لكِ ابداً هنا، ابتعدي سييرا، ابتعدي قبل أن أبعدك أنا بطريقتي وحينها سيكون ركان وحثالته أخر من تفكرين بهم.

تراجعت بذعر وهو يواصل بتسلط:

-ستغادرين الأن الى أي حفرة تختبئين داخلها، لايهمني بشيء.. كل مايهمني هو ألا أراكِ بالقرب مني أو بالقرب من السلطانة، أتفهمين؟!
ابتلعت ريقها بصعوبة ونهضت تلملم شعث كرامتها متخذة طريقها لخارج حياته، ستحاول اعادة التفكير بخطواتها القادمة، ولا بأحلامها ظنت أن خطتها الملعونة ستنجح بتلك الطريقة، وبالطبع بالتسهيلات التي قدمها لها ذلك الرجل العاشق لامرأة لاتريده ومستعد لأن يضع يده بيد الشيطان نفسه ليحصل عليها.
ستبتعد ولكن ليس لوقت طويل .. لديها الكثير لتفعله.. هي لم تخاطر بحياتها كي تبعد سارة عن أحضان ركان لتلقيها بين ذراعي شاهر، هي فعلت لتنتقم.. والانتقام كان وجبة دسمة..
كل ماعليها هو أن تجلس وتتناوله لقمة بعد الأخرى،، حتى تصاب بالتخمة.
***
روما..

-سيد ركان، اجراءات السيدة سارة قانونية مائة بالمائة.. لقد استخدمت حقها في الحصول على حماية قانونية من زوج عنيف.

تكلم محامي الشركة بهدوء وهو يجلس مع ركان حول طاولة واحد ليزفر ركان بحنق واصابعه تكاد تقتلع شعره من جذوره وهو يهتف:

-عنيف؟ رباه أنا لم أضع يداً عليها بسوء؟!

قلب المحامي بضعة أوراق امامه حتى وصل الى ورقة بعينها وقال يقرا بضعة سطور:

-التقرير النهائي للسيدة سارة يشير الى اصابة معصمها الايمن بالتواء شديد سيبقى اثره في جبيرة داعمة لمدة لاتقل عن الشهر، ثم هناك الكدمات المنتشرة على كل جسدها بسبب وقوعها عن الدرج، وكل هذا بكفة وخطر فقدانها لطفلها نتيجة لأفعالك بكفة أخرى.

-أنا لم أضربها، لم أدفعها عن الدرج، رباااه لقد وقعت معها وأصبت بارتجاج أنا الأخر..ثم نسبة الكحول الهائلة التي كانت في دمي، ألانستطيع ان نطعن ونقول ان الكحول هي السبب.

هتف بيأس ليبتسم المحامي ببرود:

-هذه المصيبة الأعظم، أنك فعلت كل هذا تحت تأثير السكر. وفي محكمة الاسرة هذا فعل لايُسكت عنه سنيور.

-تباً..

خبط ركان على سطح الطاولة بقوة أطارت بعض الاوراق ثم رفع نظرة بائسة للمحامي:

-ألاتوجد طريقة؟؟! أي طريقة لأراها.. لأقف أمامها وأخبرها أنني بريئ، وأن كل هذا حدث بتدبير من سييرا، لتوقع بيننا..لتحطم حياتنا.

تنهد المحامي وهز رأسه:

-السلطانة الأن تمر بظروف قاسية وأزمة نفسية قوية، هي ترفض مجرد ذكر اسمك سنيور، وقرار الابتعاد وعدم التعرض قد صدر وان خرقته فسيواجهك السجن.

أسند ركان مرفقيه على الطاولة واغرق رأسه بين كفيه وهو يتنهد بعمق يائس..

بلحظة كان في قمة هذا الكون..

استعاد ارثه واعتراف عائلته بوجوده.. تحقق حلمه بالمركز المهم والقوة والسيطرة..

ومن ناحية أخرى.. المرأة التي حلم بها منذ التقاها، التي عشقها منذ عرفها،.. كانت له.. تعشقه بالمقابل، وتحمل طفله..

وفي اللحظة الأخرى..

فقدها..

المرأة الأحب لقلبه.. الفرصة لحياة سعيدة تتسرب من بين أصابعه، تصبح سراباً بعد أن كانت واقعاً ملموساً..

كان يفقد الحياة التي رسمها لنفسه، يفقدها وهو واقف مقيد مكانه

دون أن تكون له القدرة على الاعتراض والقتال..

والمصيبة انه لايعرف غريمه، سييرا ؟!!

هل فعلت كل هذا وحدها؟؟

كيف عرفت بموعد عودة سارة؟ كيف استطاعت أن تسيطر عليه بتلك الطريقة..

هو حتى لايتذكر ماحدث..

أخر مايتذكره كان أنه يكلم سارة على الهاتف، ثم نزل للمرآب.. ومن هناك والرؤية ضبابية، لايتذكر ماحدث بعدها حتى استيقاظه بعد يوم كامل تقريباً، في منزله شبه عارٍ مع تلك السـ.....

كتم انفاسه غيظاً وصرف المحامي بحركة من يده ليعود ويغرق في بؤسه ولكنها لم تسمح له..
دلفت بخطوات قصيرة ووقفت تتأمل حيرته وضياعة، شعرت بغضبه وألمه، وعرفت لحظتها أنه وقع ضحية مكيدة، وهي تعرف خيوط متفرقة، تكاد تقسم من الفاعل ولاتملك الدليل..
-ركان..
هممست نيران وهي تقترب لتجلس جواره، بحذر قربت رأسها تريد اختراق حاجز السكون الذي بناه حوله وهو يغرق رأسه بين ذراعيه، ويشيح بوجهه عنها، كانت قد رات وجهه حين وصل صباحاً.. ورغم مرور اسبوعين على الحادثة الا أن أثر اللكمات لازالت تظهر على وجهه..
-دعني اساعدك.
همست بلطف ليهتف بتجهم:
-لاشيء يمكنك فعله نيران.
ابتسمت بثقة:
-لا تستهن بقدرة نيران الباشا ركان.. بإمكاني المساعدة، ولكنني لن أفعل شيئاً دون أن تطلب مني.

رفع ركان رأسه بعد وهلة، ملامحة الوسيمة مشوهة بأثر قبضة أوس، عيناه كجمرتين فهو لم يذق طعم نوم لائق منذ حدث ماحدث!!

-أريد سييرا..

همس بخشونة.. كراهية وحقد..

لتبتسم نيران بهدوء وتضغط على ذراعه برفق وتهمس:

-سأحضرها لك.. فلاتقلق.. أمهلني الوقت فقط.. القليل منه.

نظر له بتشكك للحظات ثم اومأ برأسه لتتسع ابتسامتها:

-أريدك أن تنهض .. تقف لتواجه اعمالك التي أهملتها طيلة الفترة الماضية، اننا قادمون لموسم.. الربيع على الابواب ونحن غارقون في العمل..

ترددت عيناه وحار سؤاله على شفتيه لتسأله بقلق:

-ماذا هناك ركان؟

اغمض عينيه وهمس بعذاب:

-سارة..

خفضت رأسها بينما يواصل بألم:
-أحتاج لأعرف ان كانت بخير، انهم يخفونها عني، لا أعرف حتى أين هي؟ أريد فقط أن اراها وأن أطمئن عليها وعلى طفلي نيران.
مس شغاف قلبها فنهضت بارتباك تشيح بوجهها الذي ظهر تأثره والتمعت عينيها وهي تهمس:
-سأفعل مابوسعي، ولكنني لن أخاطر بجعلك تراها مباشرة ركان، قد تخاطر بنفسك وتزجها في مشاكل مع الشرطة وهذا مالا يمكن أن أسمح به.
-هل ستحاولين على الاقل؟
زفر سؤاله بمرارة لتومئ هاتفة:
-سأفعل مابوسعي..
ثم أسرعت بخطوات واسعة لخارج مكتبه واستقرت على مكتبها..
عقدت أصابعها باحكام وأخذت انفاساً عميقة قبل أن تلتقط هاتفها وتجري اتصالها..
طال الرنين قبل ان تسمع الصوت الرفيع المسحوب فامتعضت وهي تزمجر بخشونة:

-أحتاج للحديث مع سليم، لم لايرد على هاتفه بنفسه.

جاءها الرد بكل برود:

-لأنها وظيفتي أنسة نيران، السيد في اجتماع وليس من الممكن توصيل الهاتف اليه.

عقدت نيران حاجبيها واستحضرت كل قوة لضبط النفس وهتفت:

-اقطعي الاجتماع وأخبريه انني انا من يتصل، أنها مكالمة شخصية.

-ولهذا بالذات وضع السيد هاتفه الشخصي معي حالياً أنستي، لأنه لايحتاج للمكالمات الشخصية الأن.

ردت المرأة بذات الصوت البارد لتثير غضب النيران وتأججها لتهتف بجنون:

-قلت لكِ أدخلي الهاتف اللعين والا فلن تبقي لدقيقة واحدة على....

-نيرااان..

قاطع الصوت الهادئ جداً سيل عبارتها الغاضبة.. بلكنة أجنبية ارستقراطية متكلفة استمر:

-أخبرتك ألا ترفعي صوتك مهما كان السبب عزيزتي.
أغلقت نيران عينيها وحاولت السيطرة على غضبها غصباً وأصابعها تلتف حول الهاتف تكاد تحطمه، بينما تهمس:
-سكرتيرتك تلك.. سأقتلها في يوم.
-ولذا بالظبط أنا متشبث بها.
سمعت الابتسامة الثقيلة في نبرته لتزفر غضبها بينما يسألها برفق:
-مالأمر غاليتي؟ هل وقعت مشكلة؟
ابتلعت ريقها ثم همست:
-أحتاج لمساعدة..
-سمها..
قال بقطعية لتجيب:
-أبحث عن امرأة، لقد تسببت في فوضى كبيرة لدي هنا ويجب أن نجدها.
-سيتصل بك مسؤولي الأمني، أخبريه بالتفاصيل.
قال ببساطة لتبتسم وهي تدرك أنه لن يزعج نفسه حتى بسماع التفاصيل.. تلك الاشياء لاتهم سليم، أبداً..

-أهناك مشكلة أخرى؟
همهم بصوت منشغل لتتنهد وهي تدرك أن وقتها القصير معه قد شارف على النفاذ:
-نعم، هناك امرأة أخرى أريد تقصي أخبارها فقط.
-مابالك والنساء المفقودات؟ هل أصبحتِ تعملين مع الشرطة نيران؟
ابتسمت لنكهة الفكاهة النادرة جداً في كلماتها:
-لا.. انها خدمة لصديق.
-يبدو أنه صديق مميز..
غمغم بجفاء لتبتسم، هي لن تتوهم غيرته.. فسليم لايغار، هو لايحتاج أن يغار.
-انها زوجته وهو يعاني الأمرين في غيابه عنها.
ابتسم :
-يبدو أنك لاتعملين مع الشرطة فحسب، بل انت مصلحة اجتماعية..
-لاتتذاكى علي.
غمغمت بحرج ليضحك بهدوء:

-لابأس ياجميلة.. اطلبي منه كل ماتريدين، ولاتنسي أنك ستقضين ليلة رأس السنة في السرآي.

ابتسمت بتوتر:

-لن أنسى.. شكراً لك سليم. لن أنسى لك هذا ابداً.

-لكل شيء ثمن عزيزتي.. لاتقلقي لا اقدم خدمات موظفيني دونه.

ابتسمت بتوتر وهمهمت بشيء ما يشبه الموافقة قبل ان تطلب اذنه لتغلق الخط.. وحين أذن لها فعلت بارتباك وكأنه امامها يشاهدها فعلاً..

دخول سليم الى اللعبة كان يعطي ركان الافضلية..

بشرط مهم.. ألا يعرف ركان ولاسليم عن الأخر.. مهما كان السبب.

***

تابعت ترنيم اوس يتب حقيبته بصمت، عدة مرات من الخزانة الفراش ليضع أكوام من الملابس في الحقيبة، هل يخطط لغياب طويل؟ منذ ماحدث لها في المرة السابقة هو ابتعد عنها

تماماً.. يعاملها بكل رسمية ولايظهر لها أي نوع من المشاعر.

-هل ستغيب لوقت طويل؟

همست سؤالها بدلال دون ان تعنيه لينظر لها بنظرة خاطفة ثم يعود لما كان يفعله:

-نعم، انه سفرية طويلة قد تستغرق عشرة ايام قبل العودة وربما أكثر اعتماداً على الطقس.

اقتربت بخطوات مترددة:

-أتريدني أن أوضبها أنا؟

-لقد انتهيت تقريباً..

همس بتوتر وهو يلحظ تقدمها .. ثوبها الاخضر الطويل بحاشيته الطويلة، وقدميها الحافيتين وشعرها البني الكثيف الذي يستمر باثارة غيظه ومشاعره بطريقة لم يعهدها..

-دعني اضع الباقي..

مدت ذراعيها تعترض سبيله ولم يشأ احراجها، ورغم تردده للحظة الا أنه وضع الاغراض بيديها وابتعد يراقبهامن بعيد وهي تعيد تنسيق الحقيبة كما يبدو، تضع الاشياء وترتبها من جديد

المرة تلو الاخرى حتى أصبحت الحقيبة شبه ممتلئة وهمست له:
-انتهيت.. ألديك شيء أخر.
راقبها بصمت ثم هز رأسه ببطء.. وتسائل:
-أين تودين البقاء حتى عودتي؟
-منزل عمتي.
هتفت دون تردد ليطرق برأسه قليلاً قبل أن يهزه بموافقة..
-اجمعي حاجياتك سأوصلك في طريقي..
اندفعت طائرة لتنفذ وبعد اقل ممن ساعتين كانا في سيارة الاجرة متجهين لمنزل كمالة، وهناك انزلها اوس وساعدها لفتح الباب والنوافذ بعد ان وضع اغراضه الشخصية على الطاولة الجانبية وقال:
-أتحتاجين للنقود؟
-لدي مايكفي..
همست بفرح لبقاءها في منزل كمالة لبعض الوقت..

ورأى انشغالها عنه في تأملاتها اغراض عمتها الراحلة فتنهد فاقداً الامل، قبل ان يستدير الى الخارج ملوحاً بيده:

-سأراك في غضون عشرة ايام ترنيم..

اندفعت خلفه تراقبه يستقل السيارة وهي تتسائل عن اجتنابه لمسها بكل قوة، وحزم.

راقبت السيارة تبتعد ثم عادت الى الداخل لتتسع عينيها بدهشة..

كان قد نسي اغراضه على الطاولة..

هاتفه الشخصي ومحفظة جلدية..

-رباااه ..

صاحت ولملمتها بسرعة واندفعت للخارج خلفه،، حاولت ايجاد سيارة أجرة كي تلحق به..

انطلقت السيارة فعلاً حالما اوقفتها وهي تمسك اغراضه بلهفة والسيارة تاخذها الى المطار، لم تعد ترى سيارة الاجرة التي اختفت وسط رتل السيارات، ومضت تدعوا ان تلحق به قبل ان يسافر..

وصلت السيارة الى المطار وترجلت ترنيم بسرعة وهي تطلب من سائقها الانتظار..

ومضت الى داخل الصالة الضخمة للمطار الدولي، عينيها تدوران بحثاً عنه.. البلدة السوداء بالشرائط الذهبية..

عينيها تدوران بسررعة من تجمع الى الاخر..

ساقيها القصيرتين تندفعان بها بين جموع الناس بصعوبة..

وجدت بضعة افراد من طاقم الشركة التي يعمل بها، ميزت الزي الاحمر للمضيفين فاقتربت تريد سؤالهم عن مكانه، حين تسمرت قدميها وعينيها تتسعان بذهول..

ساقيها تقفان متجمدة وظل طويل يسقط عليها..

-لا اصدق عيني؟؟

هتف بذهول.. ونظراته تشملها بسرعة قبل ان تعود لوجهها:-يالهي ترنيم لقد مرت سنوات؟؟ كيف حالك؟ وماذا تفعلين هنا في روما؟؟

لم تجبه ولم تتحرك من مكانها حتى، فقد توسع فمها ودلت نظرتها على ذهولها والرجل يقترب بتساؤل:

-هل أنت بخير ترنيم؟ أهذه أنت من الاساس؟

تسائل لتتراجع بخوف سكن عينيها هرباً منه ليرتطم جسدها بجدار صلب حار وغيور حد الألم كما اكشف لتوه وهو يراها برفقة الرجل الذي كانت مرتبطة به منذ زمن..
خطيبها السابق.. ابن الشيوخ.. علي العزب بنفسه..
***
نهاية الفصل
الفصل السادس عشر
***
وأريد تقبيل جفنيك المثقلين بالكرى
أجفف دموعاً سكبتها مآقي النوح في النوى
أُخرج منكِ روحاً قتلتها أصابع الآثمين في الخفا
أُعيدك زهرة باسمةً رغم الجفا
وأهديك عطراً طال الشوق له فانتسى
أنتِ لي..
مهما طال الفراق واشتد الرحى
رغماً عن أنوف الورى
أنت لي
خليلٌ طال له الشوق فاصطلى

نديمٌ سرتُ له وقت انقضاء الليل فأنت الدوا
أنتِ لي.. وكيف لا وأنا لكِ وأنتِ لي كل الجَوى
***

وقفت ترنيم مذهولة تسند ظهرها لزوجها الذي تحفزت كل عضلاته كذئب مستعد للانطلاق والهجوم بأي لحظة، حرارة جسده لفحتها وجعلتها تنكمش في وقوفها، ومن الناحية الأخرى كان أمامها ماضيها الذي هربت منه لأميال.. ماضيها الذي يخفي أكثر أسرار حياتها ظُلمة وجنوناً..
أمامها علي العزب بشحمه ولحمه..
تراجعت بخوف ظهر جلياً في عينيها بينما نظرة لاتريد أن تتعرف عليها تلتمع في عينيه، نظرة تخفي الشفقة والدهشة معاً؟!!
-ترنيم؟! ماذا تفعلين هنا؟
تسائل علي العزب باندهاش لم يكن ليخفيه.. ثم ارتفعت نظرته المتسائلة الى الرجل خلفها وضاقت عيناه خلف نظارته الطبية الأنيقة، والتي التمعت ببريق خاطف حين شك بمعرفته بالرجل الذي أمامه والذي ارتفعت يده لتقبض على كتفها

من الخلف بغريزة حماية، وعيناه تشعان بشراسة متملكة لم يرها من قبل سوى في نظرة أخيه البكر!!

أين رآه من قبل؟؟

-المعذرة هل التقينا؟!

قالها بشك ليقول أوس بنبرة تخفي مقداراً من الغضب والعصبية:

-أنا أوس نضـــال الشيّب.

عقد علي حاجبيه وتحركت أصبعه بعصبية على جسر أنفه ثم ابتسم بتوتر:

-أنت قريب سيف؟

ثم نقل بصره بينهما بشك جعل ترنيم تتجمد ليشعر بها أوس في الحال، فتتحول قبضته الداعمة لأخرى مسيطرة التفت حولها محيطة بقدها الضئيل جاذبة اياها الى صدره بإحكام بينما يقول بخشونة رداً على سؤال الشيخ غير المنطوق:

-ترنيم تكون زوجتـــي.

شهقت ترنيم بذعر وارتفعت كفيها بسرعة تريد ابعاد ذراعه التي تطوقها بينما تصلب علي

مكانه، وشعت عيناه بذهول، ولكنه لم يستمر في ذهوله.. بل تراجع خطوة للوراء وحمل وجهه ابتسامة مرتبكة وهو يبارك لهما بخفوت.. ونظر لترنيم بحنان دافق وعاد بنظرته لأوس الذي كان غضبه يصل لعنان السماء مجاهداً ليسيطر عليه وعلي يقول من جديد:

-اعذرني كابتن، لقد امضيت سنوات طويلة خارج البلاد وفقدت تواصلي مع كل الاصدقاء تقريباً.. مبارك من جديد.. ترني...

توقف اسمها في حلقة وهو يرى اللمعان الشيطاني اياه في عيني الرجل قباله وتبسم بهدوء وهو يعاود الحديث:

-السيدة ترنيم، شقيقة صديق قديم، وهي من الأهل، وأنا سعيد لكما..مبارك كابتن.

زفر أوس نفساً كان يكتمه ببطء دون أن يفلت ترنيم التي كانت تتشبث به بعينين متسعتين وجسد مشدود ومخيلة مضطربة ظهرت جلياً في نظراتها الزائغة، والبرودة التي تسللت اليه عبر ثيابها.

-شكراً لك..

قال أوس وهو يقربها منه أكثر حتى شعرت بذراعه تخنقها..
زائغة العينين راقبت انصراف علي العزب بعد وداع قصير، ثم شعرت بجسد أوس يتحرك خلفها، يدفعها للأمام وساقيها تطيعانه بخضوع كأسير لسجانه.
أدخلها الى باب قريب وأوصده خلفهما ثم دفعها ليثبتها عليه وينظر لها في عينيها هاتفاً بعنف:
-هل أنتظرتِ خروجي لتقابليه؟ ألهذا ترفضينني لأنكِ تريدينه؟
اتسعت عينيها بذهول وأطرافها تصاب بالشلل، بينما تحاول تفسير ماقاله والنظرة الصاعقة التي يرمقها بها..
-ماذا؟؟ مالذي تقوله؟
-ماسمعتني..
هتف بغلظة..وانقبضت أصابعه بقسوة حول لحم كتفيها:
-أتظنينني غبياً؟! هذا كان خطيبك السابق..

اتسعت عينيها بذهول لمعرفته لعلي.. ولكنها لم تتكلم..كانت تنكمش أكثروتبدأ بالارتجاف وهو يعاود بقسوة أشد:

-أخبريني هل تتواعدين معه كلما سافرت؟ ألهذا ترفضينني في كل مرة؟

هزت رأسها بارتباك.. لاتعرف مايقول؟؟ ومالاجابة التي ينشدها..

-علي.. علي أنا تركته.. انا لم اره منذ سنوات؟ لقد.. انا..

كانت تهذر بلا توقف وهي تحاول الوصول ال جيب معطفها..تخبطت ذراعيها ليضطر لافلاتها وهو يراقبها بحنق ودماغه تعمل باتجاه واحد وهو الشك الذيحطم أعصابه في الدقائق القليلة التي وقف بها أمام الرجل الأخر. وضغط على أسنانه بقوة كادت تحطم فكيه وهو يراقبها تخرج هاتفاً يشبه هاتفه المحمول من جيبها وتهمس بذهول:

-لقد أتيت لأحضرله لك..

مضيفة تهمس بصوت مخنوق:

-لقد نسيته على الطاولة وتبعتك بالتاكسي ولكنني تهت في ردهة المطار ووجدت علي أمامي فجأة.
-توقفي عن قول اسمه.
زجرها بخشونة وهو يرمق الهاتف بين أصابعها بذهول لعدة لحظات قبل ان يمد يده إليها وينتزعه برفق ويطيل النظر لشاشته وهو يسمعها تهمس:
-ظننتك تحتاجه، ولذا جئت خلفك لم أفكر.
-يا الهي..
تمتم بحنق وهو يدس الهاتف في جيب سترته ثم أحاط وجهها بكفيه ورفعها إليه لينظر لعينيها الضائعتين ويرى لجة من الدموع خلف عينيها ليهمس بصوت مخنوق:
-أنا أغار.
رمشت عينيها لتتبدل النظرة في عمقهما من مجرد ضياع وتشتت إلى ذهول عميق، انتقل من عينيها لأعماقه ليهزه اعترافه من الداخل للخارج، ويتراجع مفلتاً إياها ويتركها تستوعب كلمته الغريبة عنهما كليهما، هو بثقافته التي لم تدرك يوماً معنى الغيرة على مطلق امرأة، فما بالك بتلك القصيرة التي سُميت عرضاً زوجته!!

لقد صدم نفسه قبل أن يصدمها، تغير جذرياً لحظة رآها تقف مع ذاك الرجل..
كان يقف بعيداً مع رفاقه بانتظار الإذن لصعود الطائرة، والبدء بالتجهيزات للانطلاق ثم لمحها، لا ينكر تلك اللحظة من الإثارة التي عصفت به وهو يرقب قدها الضئيل متقدماً وسط عشرات من العمالقة، وتتفادى المسرعين منهم، للحظة فقط ابتسم، وشعر برغبة في الضحك وابتسامته البلهاء تتسع على وجهه وهو يترك رفاقه ويسرع لملاقاتها في منتصف الطريق.. لتختفي الابتسامة كلياً بعد قليل وهو يرى ذلك الرجل الطويل يعترض طريقها، وتعرف عليه..
كيف له أن ينساه لقد رآه مرة واحدة فقط ولكن منذ أخبره سيف عن علاقته السابقة بترنيم، صورته لم تفارق رأسه وكأنما طُبعت هناك للأبد. لم يعرف لما اشتعلت غريزة في داخله وهبت مشاعر لم يدرك قبلا أنها موجودة، ولم يكتفي بأنه أظهر سلطته أمام علي العزب كذكر ألفا يحامي على أملاكه، بل أظهر أسوأ أخلاقه وتصرف بغلاظة وقسوة مع الفتاة التي لم ترد

سوى أن تفعل معه معروفاً وتعيد له هاتفه الذي نسيه بغباء.. لم يكن عليه أن ينفعل بتلك الطريقة، نهائياً..

-ترنيم..

همس بتردد.. لترد بصوت متهدج:

-أنا.. سأعود.. أنا ..اسفة.

-لا..

هتف وهو يراها تستدير لتخرج وأسرع ليحيطها من الخلف بذراعيه بقوة، يضمها إلى صدره وهو يقول بشراسة:

-لا لن تذهبي لأي مكان.

كان يتوقع أي شيء منها سوى تلك الانتفاضة الأشبه بتشنج، التي انتقلت إليه وتسببت له بهزة جعلته يفقد توازنه وإياها ثم يقعان معاً على الأرض، لم يهتم ببذلته الرسمية التي تمرغت في بلاط الحمام، لم يهتم لقبعته التي وقعت بعيداً عنه، لم يهتم بشيء سوى اقترابه منها وحمايتها من نفسها التي انتفضت بين ذراعيه كحمامة مذبوحة بلا صوت ولا حتى نفس!!

-تنفسي..

أمرها بخشونة وهو يضغط على صدرها بقوة وجهه يجاور وجهها ويرى محاولاتها أخذ النفس تلو الأخر بصعوبة ودموعها تركض على وجنتيها..

-أنا أسف ترنيم، اسف..

فتحت فمها وأغلقته عدة مرات دون أن تقدر على أخذ نفس أو إخراج أي صوت.. شتم أوس بعنف ثم أدارها نحوه وعمل على فتح حجابها، والأزرار الأولى من معطفها، وقميصها وهو يقول بثبات:

-تنفسي يا ترنيم.

نظرت له وسط دموعها ووجهها المحمر المخنوق بأنفاسها، عينيها متسعتان وصدرها يعلو ويهبط باستماتة بحثاً عن الهواء، في عمق نظراتها استغاثة صامتة جعلته يصرخ بعنف:

-أيتها المجنونة ستقتلين نفسك.

ودون أن يشعر امتدت ذراعه وارتفعت لتنزل كفه بعنف على صفحة وجهها وترمي بها كخرقة بالية على البلاط شاهقة بقوة، وعينيها تتسعان بتصلب، ونفسها يعود بقوة وعمق، والدموع

تتوقف وهي تستقر على نقطة ما في البلاط اللامع، قبل أن تلتفت له ببطء وتشع عينيها كحيوان جريح..

-كان علي فعل هذا.

همس متلعثماً لتصرخ بألم ثم تنقض عليه وتتسبب برميه على ظهره أرضاً، وأظافرها تغرس في عنقه ووجنتيه، تفاجأ أوس بهجومها عليه وشعر بالألم وحرارة تشتعل مكان غرسها لأظافرها ولكنه استعاد توازنه وسيطرته على نفسه وعليها وقبل أن تتهور أكثر كان يقبض على كفيها بيد واحدة، ويحيط بالأخرى لظهرها ثم يرمي بها عنه ويرتمي فوقها يحميها من قسوة الأرض ويضمها إليه برفق بينما يصيح بها بخشونة:

-توقفي عن الجنون، أفيقي ترنيم، أفيقي.

تخبطت كأنثى مسعورة دون أمل في الخلاص من قبضته ليزجرها بقسوة:

-يا الهي ترنيم.. أوقفي الجنون.

وقبل أن ينهي عبارته كان ينقض على فمها بقبلة قاسية مسيطرة، فاجأتها للحظة ثم تسببت بهياجها

أكثر، ليصرخ بألم وهي تعضه بشراسة قبل أن يفلت يدها ويثبت وجهها بأصابعه بقسوة هامساً:
-ترنيم انظري إلي.. أنا أوس يا صغيرتي.. أنا لن أؤذيك يا طفلتي.
ارتجفت لصوته.. لنبرة الحنان التي لم تختبرها من قبل، للدفء الذي اجتاحها وجعلها ترتخي في آن ليسقط وجهها على وجهها وشفتاه تهمسان اسمها بوله، بينما تتحول انتفاضتها إلى شهقات باكية ناعمة، ضمها إليه بالقوة، يهمس لها بكلمات حنونة مطمئنة وهو يرسم على وجهها قبلات ناعمة لوقت طويل، تمرغت بين ذراعيه لا تقدر على الابتعاد كلها كجزء منه ملتصقة به بجنون اللحظة والمشاعر التي اجتاحتهما، دون تفكير من أيٍ منهما!! خارج الكون والمكان، بعيداً عن الوقت والزمن تلك كانت حدودهما.
رفعها إليه بخفة أسند ظهره للجدار وضمها إليه يحيطها بذراعيه وساقيه هامساً بحرارة:
-سنعود إلى البيت.
أنت بخفوت تدفن نفسها أكثر بين ذراعيه تتنشق عبق رائحته، وأصابعها تتلمس نبضات قلبه

الهادرة بيأس. وكأنما تبحث عن ملجئ، وليف.. وربما.. عشق طال توقها إليه.

-سنعود ونتحدث ترنيم، نحن بحاجة للحديث.

-اريد.. أريد الذهاب لمنزل عمتي.

زفر مطولاً ولكنه لم يعترض بل اومأ لها وهو يرفع رأسها اليه يسند جبينه لجبينها ويهمس بثقل:

-أي مكان يجمعنا معاً.. لن اعترض هذه المرة.

رفعت جفنيها بدلال لم تعنيه او تتعمده، وشفتيها تنفرجان في دعوة بريئة استجاب لها بشهية مفتوحة، جعلتها تشهق وهي تستجيب له على استحياء أرسل قشعريرة مؤلمة لأعصابه المنهكة من لعبة الصد والرد التي يلعبانها بلا توقف، فابتعد متنهداً وهو يهمس:

-ستقتلينني يوماً.. هيا بنا.

تلككت ولامست اثر الخدوش على وجهه وعنقه وهمست بتردد:

-أنا فعلت هذا؟

ابتسم بخبث واومأ:

-نعم ياقطتي، وستدفعين ثمنها كاملاً..

رفعت حاجبيها ببراءة ليضحك ملئ قلبه وينهض رافعاً اياها معه كدمية لاتزن شيئاً قائلاً:
-وزنك.. يا الهي يجب ان يزيد قليلاً، أنت كشبح يافتاة.
تعلقت ذراعيها حول عنقه واقتربت منه هامسة:
-خذني للبيت.
احتلت ابتسامة واسعة وجهه ومال ليلتقط حجابها ويناولها اياه ثم التقط قبعته ووضعها على رأسها فتبتسمت بحرج وهي تسأل:
-ماذا عن رحلتك؟ لديك عمل!!
هز كتفيه بلامبالاة وهمس بغمزة من عينه:
-مالدينا أهم.
امتلىء وجهها بمشاعر محتقنة، فيها الكثير من الخجل، والتوق، والحماسة.. مشاعر وثبت في قلبها ومضت تراقص دقاته بجنون ظعر في عينيها كما لم يحدث منذ سنوات، أثار فيها حرجاً وخوفاً جعلها تدفن رأسها في عنقه وهو يقودها للخارج تحت أنظار رواد المطار تحت أنظار رفاقه الذين وقفوا مذهولين وهو يخبرهم بكلمات

قصيرة كيف أنه لن يقود رحلتهم بل يعود لأن زوجته بحاجة اليه..
حتى سائق سيارة الأجرة الذي قادهم الى المنزل..
كان فقط ينظر اليهما عبر المرآة ويبتسم بحيرة..
زوج من الغرباء كما فكر.. فالرجل شوقه ينضخ من عينيه.. والمرأة بالكاد تنظر اليه..
أخذها الى بيت عمتها كما وعد، وهناك وجب عليها ان تنزل وحدها على ساقيها المرتجفتين كعيدان المكرونة، عينيها متعلقة بعينيه وهو ينقد السائق أجره ثم يسحبها خلفه الى المنزل، لاينظر في عينيها اللتين حملتا مشاعر متوهجة صامتة وكأنما فراشة على وشك التحرر من الأسر.
-ادخلي..
همس بخشونة وهو يدفعها أمامه لتبتسم وصوته يمس اوتاراً خفية في أعماقها ويثير رعشة لذيذة جعلتها تتشبث بذراعه ورأسها يميل على كتفه بينما يغلق الباب خلفهما، ولكن..
-تأخرتما كثيراً.. كنت أظن أنني سأنتظر الى الأبد.

التفتا معاً الى مصدر الصوت..
بذهول صرف توقف أوس يواجه الرجل أمامه، بينما تراجعت ترنيم خلف زوجها وعينيها تتسعان برعب وصدمة، والرجل ينقل بصره بينهما بسخرية وبرود ثم يركز عينيه لأوس وبكل برود يقول له:
-لقد انتهى وقت لعبك كابتن، أعد لي ابنتي، فموعد زواجها ب ابن عمها قد تحدد بالفعل.
اتسعت عينا أوس بصدمة بينما شقت صرخة ترنيم المكان وهي تتشبث به..
ووالدها يقف مراقباً باستمتاع ثعلب.. بدأ بنسج خيوط لعبته واحكامها بكل قوة.. ويعود للسيطرة بكل جوارحه.
***
غامت السماء وأصبحت مجرد بساط رمادي كئيب تفاوتت ألوانه بين درجات الرمادي والأسود القاتم، رياح شديدة اهتزت لها أفرع الأشجار وتناثرت ذرات المياه بفعل الأمواج المتلاطمة تحت المنحدر الصخري، كانت الأجواء مخيفة وهزيم رعد يجلجل في الأجواء،

بينما الريح تتلاعب بخصلات شعرها، الطويلة وتطيرها خلف ظهرها في مشهد وكأنما استخرج من قلب لوحة من العصور الوسطى، بالذات وهي بذلك الثوب الحريري الخفيف والذي انساب على رشاقة قدها متجاهلة به كل عوامل الجو القارص البرودة، متجاهلة رذاذ الماء الذي بلل الحرير وجعلها تشعر برشقاته وكأنها سهام من ثلج تخترق بشرتها الرقيقة وتبرد قليلاً من حرارة مايستعر بداخلها من ألم.

عانقت ذراعيها كتفيها وأرسلت بعينيها الرماديتين كالجو العاصف تماماً الى الأفق فوقها، وممتنعة منذ الازل عن الدموع فهي لن تعود الى التخاذل ولا الى مشاعر الفتاة الساذجة التي اعترتها لتسامح مرة وتنسى مايسيء لها ومن يسيء، لقد تغيرت سوف تتغير..هي السلطانة وقد حان الوقت لتتصرف كما يفترض بها أن تكون وليس مجرد ضعيفة خانعة لاحول لها ولاقوة.

-ألاتظنين أن الجو بارد قليلاً؟

انتفضت وهي تلتفت للخلف.. وتوسعت عينيها قليلاً وهي ترى الرجل أمامها، ولكنها لم تتحرك ولم تظهر اندهاشها او قلقها من وجوده أمامها؟

-ماذا تفعل هنا؟

اقترب الرجل بخطوات قصيرة متأنية متأملاً الجمال الذي سرق النوم من عينيه لليالٍ طويلة مؤلمة وحانت اللحظة ليقترب بكل هدوء كمحارب يلتف حول قلعة محصنة استعداداً ليغزوها، اقترب ليقول لها بقلق:

-ألا تشعرين بالبرد؟

-هذا ليس من شأنك شاهر باشا.. ما أريد أن أعرفه هو مالذي تفعله أنت هنا؟

-أتيت لرؤيتك سلطانة.. خذي ضعي هذا عليكِ قبل أن تصابي بنزلة برد.

قالها وهو يناولها معطفه الطويل، ولكنها تراجعت للخلف وفي عينيها نظرة اشمئزاز هاتفة:

-لاأريد منك سوى أن تبتعد عني، لا أريد أن أرى جنس مخلوق من عائلتكم القذرة.

رفع شاهر حاجبه بترفع ولكنه لم يعلق وعاد يرتب معطفه على ذراعه بهدوء وهو يلتمس لها العذر، في كل ماقالته فهي لاتعرف شيئاً!!

-لاتعممي فعلة ركان الشنيعة سلطانه لاتسقطي مافعله علينا جميعاً أنت لاتعرفينني ولاتعرفين أياً من أفراد عائلتي.

-لقد تآمرت عائلتك المصونة علي من كل النواحي، أخذتم عملي وكل ماهو لي ولم تكتفوا بهذاالقدر فابن عمك الحقير ..

واختنق صوتها حين ذكرت ركان، وأشاحت بوجهها عنه تخفي التأثر العميق الذي لم ولن تقدر على اخفاءه أكثر ليس وبداخلها جيشان من المشاعر كالتي تشعر بها الان لذا فضلت النظر للبحر الثائر والغوص بنظراتها ومشاعرها في داخله دون ان تشيح بعينيها او تزحزحها، فقط توسلت للحظات ان تستعيد قوتها وألا تسمح لضعفها بالسيطرة عليها.

-مافعله بكِ ذلك الوغد سيندم عليه أشد ندم.

التفتت اليه بدهشة ورأت العزم يشع من عينيه المتوقدتين، وهو يقطع عليها وعداً استطاعت أن

تدرك أنه يعنيه بكل جوارحه، ورغم هذا فكلامه لم ينل منها سوى التشكك، والحذر.
-ركان أخطأ بحقك سلطانة، هو لم يفكر بالعواقب.. لم يهتم بل تصرف كعادته.. مجرد شاب طائش، يتبع اهواءه مهما كانت ومع من كانت..وعليه أن يدفع الثمن، كي يعرف بالضبط مكانته الحقيقة في حياتك.
-لم يعد لركان مكان في حياتي.
ردت بصوت مرتجف وكلامه يخترق تفكيرها، كلماته الهادئة تترك وقعاً عنيفاً داخلها، هذا الرجل يعرف ركان جيداً، هو قريبه وأكثر من يفهمه. أيعقل أن يكون على علم بعلاقة ركان وسييرا..
رفعت له تساؤلاً قرأه بسهولة ورد بتعاطف:
-لم تكن سييرا الوحيدة سنيورا، هناك المئات غيرها.
سحبت نفساً قصيراً معذباً وتراجعت أكثر.. ليقترب هاتفاً:
-ركان اعتاد الشعبية النسائية لدرجة لم يعد يستطيع العيش دونها سلطانة، تواجده معك

وحدك لفترة من الزمن كان مخططاً له بالضبط لينال كل ماوصل اليه، أنت كنت فقط وسيلته.. لم تكوني الهدف.

كانت ستبدأ بالبكاء، اللمعان الذي برق في عينيها والاحتقان المشوب بالحمرة المتوهج على وجنتيها كان ابلغ دليل على ذلك.. حتى صمت شفتيها كلها أخبرته انها ستبكي.. وتلك القوة التي لازالت تتشبث بها كلها ستذوب وتظهر حقيقة الهشاشة المؤلمة التي تنخرها من الداخل..

-لاتبكي..

همس بحزم.. لتشهق وترجع خطوة للوراء..

لم تفكر بالمنحدر الذي تحتها ولاتركيب الصخور المتلخلخ بفعل الريح، شعرت بانهيار بعضها تحت قدميها وهي تتراجع هرباً منه ومما يقول، وصُدمت وهي تفكر أنها ستهوي، وفي عقلها صورة الصخور تلاطمها الأمواج العالية تستقبل جسدها النحيل، بشاعة أرسلت رعدة خوف الى أطرافها وجعلت عينيها تتسعان، وتفكيرها الأتي ينصب كله حول طفلها الذي تحمله، روحها الذي تنمو بين أحشائها وتحول الخوف الى رعب

خالص، وذراعيها تلتفان حول بطنها بحماية غريزية جعلت شاهر يعقد حاجبيه بتوجس ثم يفهم بسرعة ماكانت تعانيه.. وقبل ان يخفق قلبها مرة أخرى، كان شاهر يمد ذراعيه نحوها.. ودون تردد ألقت بذراعيها اليه.. ليلتقط أطراف أصابعها بقوة وخفة، وقبل أن يفكر بما يفعله كان يجذبها نحوه ويخلصها من الموقف المرعب الذي كانت تمر به، ويحصل عليها بين ذراعيه..

مرتجفة ، خائفة وتشعر بالإمتنان!!

وشاهر كأن لم يصدق..

التفت ذراعاه حولها بحماية وخفقات قلبه الهادرة تطير الباقي من صوابه، لقد كانت بين ذراعيه، حلمه كان يقبع مستكيناً في حضنه.. وكأنها ملكه خالصة لاتشوبها شبهة رجل أخر ولاتحمل طفل سواه في حشاها، في تلك اللحظة فقط.. كانت خالصة له، تحت رحمته كلياً..!!

التجئت ذراعيها لتُلقى على صدره، عضلاته المفتولة استقبلت وهنهـا بغريزة متملك، له الأحقية بالجواري، أرادت الإنسحاب، ولكن هيهات.. كانت بين يديه أخيراً، ضعيفة من كل

النواحي وهو، هو قرر أن يحتويها بكل مالديه من قوة.. سيطرة.. وحــب!!

-ماذا تفعل؟

همست بشحوب اولاً فهو لم يكن قادراً حتى على فتح فمه، ليس وهو بحاجة للسيطرة على كل ذرة من كيانه كي لايمتلكها في التو واللحظة معلنا وبكل وقاحة وللعالم كله دون اهتمام أنها له.. أنه يحبها.

-أنا سأبقى لأحميكِ مهما حدث.

-أفلتني..

ترجته بارتباك.. تبحث بعينيها عن مخرج، مهرب منه..

ليقترب منها ويهمس بثقل:

-كيف وقد خُلقتِ لأجلي؟

رمشت عينيها عدة مرات واشتدت الريح العاصفة حولهما وهو يقربها منه أكثر ويقول بهيام.. عينيه السوداوتين تغرقان في عينيها الرماديتين وقلبه يغرق في غرام لم يعترف يوماً باستحالته رغم كل شيء:

-أنت سارة، المرأة التي أحببت وأردت منذ نظرتها عيناي، لم أرى أبعد من عينيكِ، لم أرغب سوى برؤيتك والبقاء معكِ.. لم أتوقف ولن أفعل، حتى تفهمي هذا الأمر جيداً.

-عن أي أمر تتحدث؟

همست بشحوب تحاول درئ احتواءه الحميم لها، تحاول الابتعاد قدر استطاعتها ولكنه كان شاهر الباشا.. كان كاعصار انتزعها من الأرض وأبقاها مقيدة في مركزه يدور حولها بسرعة تفوق الاف الكيلومترات، ويحجز فكرها عمن سواه..عن كل ما حولها ليجيب بحماس:

-عنـــا سارة، أنا وأنتِ، افهمي هذا جيداً فنحن مقدران لبعضنا مهما طال الوقت أو قصر نحن لبعضنا سارة..

-انا متزوجة.. انا زوجة ابن عمك؟!

همست بذعر تخرج به من سكرتها وتتلوى بحثاً عن مخرج من قبضته التي أحكمها حولها..

شعر برعبها واضطرابها ولم يرغب بأن يزيدها، أدارها لتصبح بعيدة عن الحافة، لتصبح في مأمن.. ثم أفلتها، لتتراجع بعينين متسعتين وأنفاس

لاهثة مجنونة غير مصدقة أنها ولو للحظة كانت بين ذراعيه، امتلأت عينيها بشراسة اللحظة وهتفت بعنف:

-إياك أن تقترب مني بعد اليوم، لاتفكر حتى.

رفع حاجبه الأسود بتعالٍ وابتسامة ملتوية تتلاعب بفمه:

-أنا لن أفكر، منذ التقينا سارة.. منذ رأيتك بذلك الثوب.. كسحابة انعكست عليها أضواء السحر وأنا فقدت تفكيري.. فقدت عقلي.. أنت السبب عزيزتي، لاتلومي سوى نفسك.

احتقن وجهها استجابة لغزله الصريح وتراجعت تريد الهروب ولكنه اقترب منها بفظاظة دون أن يمسها هتف بها بهيجان:

-تثيرين جنوني.. تدفعينني لأن أفعل مالم أفكر يوماً بفعله، غرائزي كلها مرتبطة بك، عالمي كله.. أصبحتِ أنتِ محوره، ومجاله.. لم تقدني امرأة يوماً لأن أغير عالمي كما فعلتِ أنتِ، وان كان الثمن أن أنسف كل من يقف بطريقي فسأفعل.. حتى وإن كان من دمي.

اتسعت عينيها وهتفت بخوف:

-أنت مجنون..اذا لم تبتعد عني سأبلغ الشرطة.
ضحك مقهقهاً.. ثم لانت ملامحه لتصبح ناعمة وكأنما شيطان يتلون:
-أبلغي من تريدين، مهما منعوني عنكِ سارة، سأبقى قريباً حتى تصبحين لي.. وأصبح أقرب لكِ من نبض قلبك.
-محاال..
صرخت معترضة ليبتسم بثقة كسولة وهو يضع يديه في جيبي سرواله وينظر للسماء التي اشتد جنونها وباتت سوداء مكفهرة:
-لاتحاربيني سارة، ستكونين لي، برضاك ياجميلة الجميلات.. مهما اعترضتِ..
ثم مشى نحوها بخطوات بطيئة وجاورها هامساً:
-عودي الى منزلك ياحلوتي، العاصفة ستشتد، ولاأريدك ان تمرضي، أريدك قوية..
بصحة ممتازة.. فالمعركة بيننا قد بدأت، والقتال سيكون ضارياً.
رفعت له وجهها وهمست بشراسة:
-أنا لن أسلم لك.
نظر لوجهها بافتتان وهمس:

-أرجوكِ لاتفعلي.. ليس قبل أن أشبع من هذه النظرة المجنونة في عينيكِ سارة..

-أنت مختل.. مهووس..

صاحت بانفعال ليبتسم أكثر:

-بكِ وبسببك ياسلطـــانة، فلاترحميني..

اختنقت بداخلها مشاعر عديدة، وشهقت للهواء، وهي تشيح عنه وتسرع في وقع خطواتها عائدة الى الفيللا التي تستأجرها عائلتها، بينما تابعتها عيناه وهو يضع أولى بصماته عليها، ويحكم الحصار حولها حتى تسلم مقاليدها، وتأتيه طائعة كما يريد.. وكمايجب عليها.

***

تسللت على أطراف أصابعها ووقفت خلف ستارة قريبة تراقب كيف انهمك طبيبين في تغيير الضمادات لجروح ساقيه، وأخر يسأله بضعة أسئلة عن احساسه..

-هل تشعر بأي ألم؟

-لا.

-هل تشعر بضغط ما؟ وكأن هناك من يثبتك على الفراش؟

-لا.
-هل تشعر بحرقة أو تنميل في أطراف أصابع قدميك؟
-لا.
اتسعت عينيها بوجع لردوده.. تأملته بعجز وألم، لاتقدر على فعل شيء، طيلة الأيام الماضية وهو يعاني، دون أن يطلب العون أو يطلب تواجدها حتى حوله، كما كان يفعل في البداية.
صمت شابه علاقتهما، صمت وبرود غريب..
-قلت لك أيها الطبيب.. أنا لاأشعر بأي منهما، لاألم، لا تنميل.. ولا أي أحساس بأي شكلٍ.
هتف بنفاذ صبر وإنهاك.. ليتراجع الطبيب بتوتر بينما أخر يتدخل ويسأله بابتسامة:
-لابأس عليك سيد جساس، الأمر بحاجة لبعض الوقت لاتقلق.
-لست أنا القلق، أنتم من لاتكفون عن هذه الأسئلة يومياً.. من منا القلق أيها السادة.
رد بفظاظة جعلت الطبيب يتراجع بحنق ثم يسيطر على انفعاله ويسأله بنبرة هادئة قدر الامكان:

-لنتحدث عن شيء أخر، مارأيك باجراء الجراحة التجميلية لوجهك غداً؟! علاماتك الحيوية وفحوصات دمك كلها ممتازة حالياً وهي فرصة لاتعوض.

رفع جساس عينيه السوداوتين للرجل أمامه وهمس بخشونة:

-هل أزعجك منظري لهذه الدرجة دكتور؟

تراجع الرجل متفاجئاً واتسعت عينا صوان بذهول وجساس يقول بقسوة:

-نحن نتحدث عن ساقي، عن الشلل الذي أُصبت به ولاتعرفون سببه حتى الأن وأنت تحاول الالتفاف حول الموضوع الرئيسي لهذه التفاهات؟!

-تفاهات؟؟

صاح الطبيب بدهشة ثم تمالك أعصابه بصعوبة:

-سيد جساس، علاج جروحك وتشوهات وجهك ليست تفاهات، أنا أستطيع أن أؤكد لك أنك حال رؤية وجهك وقد عاد لحاله الاول وقد تماثلت جروحك للشفاء هذا سيرفع من روحك المعنوية.. نفسيتك لن تصبح..

-نفسيتي؟؟
هدر جساس بعنف جعل المراقبة بصمت تنتفض بينما يواصل هو بحرقة:
-أتظن ان معنويات مرتفعة او نفسية مغايرة قد تصنع المعجزة وتعيد لي ساقاي؟!!!
تراجع الاطباء بتوتر وجساس يواصل بعنف:
-لقد كنت أقود سيارتي بسرعة لاتقل عن ال120 كيلومتراً في الساعة..كنت بطل سباقات، والأن..
وتسارعت أنفاسه وقد أحمر وجهه بجنون وهو يهتف بثورة:
-الأن ماعلي هو دفع عجلات كرسي متحرك؟؟؟ وتحدثني عن النفسية؟؟!
-سيد جساس..
-هذا يكفي.
هتفت مرتجفة.. والانظار كلها تتجه اليها، ماعداه..!!
ماان سمعت طريقته في الحديث أدركت أنه سيفقد السيطرة على أعصابه إن لم تتدخل وتوقف النقاش على الاقل مؤقتاً.. نظرت له بولع.. كان

يشيح عنها.. عينيه مزروعتين في السقف اعلى رأسه..
وصدره يعلو ويهبط بقوة.. أنفاساً عميقة متسارعة ...
-ألاترون أنه متعب، اتركونا وحدنا.
همست بصوت شاحب.. ليسارع الاطباء بالمغادرة وكأنهم يلوذون بحياتهم.
تقدمت هي بعد سماعها صوت الباب يغلق خلفهم، تقدمت منه وجلست الى جوار فراشه كعادتها وأصابعها تتشابك في اضطراب، تتنازعها الرغبة لتلمسه، وتحجمها كرامتها التي لاقت من صده مالا يُغفر.
-ستكون الأمور على مايرام.
همست عينيها تبحثان في وجهه عن دلائل سماعه لها.. ورأت التفاتته لينظر لها في عينيها بقوة ويهمس مخنوقاً:
-ألاتشعرين بالخوف؟
خفق قلبها متولهاً:
-مِما؟!
-من وجهي.. تشوهات جسدي.. من شللي..

هتف بعصبية وعروق عنقه تبرز بشكل مخيف جعلها تهب لتقف مائلة عليه وهي تهمس:
-أنا لاأراها.. توقف عن ذكرها.
عض نواجده بثورة وأمسك كفها بقسوة يجذبها نحوه لتسقط على صدره، تجاهل ألمه وهو يأمرها بحرقة:
-قبليني..
شهقت وهي تستجيب رافعة وجهها اليه، قريباً من فمه، دون اعتراض ولكن..
-على جروحي.. قبليني على جروحي..
زمجر بوحشية خافتة وعيناه تلمعان بجنون مطبق علها تلهث بذعر وهي تهمس:
-ولكن.. جروحك..
-أتشمئزين منها؟؟ ألم تقولي لتوك أنك لاترينها؟
صرخ بعنف لترفع كفيها وتضعهما على صدره هامسة برجاء:
-أنا ..أنا خائفة عليك.. لاأريدها أن تتلوث..
-قبليـــني..ان كنت صادقة وتهتمين.. قبليني.

همس بصوت متهدج.. لتغمض عينيها بيأس ثم تفتحهما بعزيمة..وتقترب لتحيط وجنته السليمة بكفها وتقرب شفتيها من جانب وجهه المصاب..

-لا..

تراجع بحدة وهو يشهق ولكنها لم تسمح له .. كان يحتاج لها.. وهي لم تكن لتضن عليه بهذا الدعم.

وقعت شفتيها على جرحه الممتد من صدغه الأيسر حتى وجنته.. وسمعت صوت سحبه لنفس مأخوذ بينما تطال قبلتها جروحه بخفه وبطء جعل نبضه يتسارع بجنون وهي تتعمد الهدوء والثبات..

-هل يؤلمك؟!

همست.. قريبة من أذنه ليتنهد وعينيه مغمضتين، مشاعره مركزة كلها على مسار شفتيها، هز رأسها نافياً لتعود بفمها على وجنته، قبلتها كانت مصمتة.. مجرد تنقل بطيء لشفتيها المضمومتين على بشرته المجروحة حتى وصلت الى ركن فمه..

-لم توقفتي؟

همس لاهثاً اعصابه التي اشتعلت وفتح عينيه لينظر لوجهها المحمر قريباً من وجهه لتهمس بحياء:

-هنا،، ينتهي الجرح.

-هل تعنين أنك سميتي مافعلته بالقبلة؟

تساءل بخشونة ليحتقن وجهها وتحاول التراجه ولكنه قبض على فكها بقوة بين أصابعه وبيده الاخرى أزاح حجابها لتظهر له خصلاتها البنية مثبتة بلفة شعر بسيطة سرعان ماكان يحلها بخشونة سببت لها الألم، وتركت شعرها يتناثر على جانبي وجهها وهو يهتف:

-هل نسيتِ بهذه السرعة؟

همس متعمداً وهو يقربها منه:

-افتحي فمك صوانتي.. ودعيني أقبلك كما يجب.

شهقت واستغل الفرصة ليفعل ماقال، هجومه المشتعل على مراكز احساسها فجر استجابة مجنونة منها كماحدث في المرة السابقة، لقد تركت تعقلها وارتباكها خلفها وارتمت بين ذراعيه تحيط كتفيه بذراعيها وتغرق معه في

قبلته الجائعة، دون أي اعتبار للمكان او التوقيت..
كانت لذيذة.. احساسها ورقتها وتوقها اليه كان وقوداً اشتعل حال ملامسة النار التي شبت منه، وبات اللقاء متوهجاً، نارياً كعادة اللهب المستعر..
استلقى على الفراش ووجدت نفسها ملقاة الى جواره.. جذعها بين ذراعيه، وقبلتهما مستمرة بلاتوقف، وحتى أنفاسهما امتزجتا بحميمية، ذراعيه تلامسانها بتوق وتملك.. بينما ذراعيها تحيطان به وكأنما تحميه بطريقتها من كل ماحوله.. أصابعه الجريئة فتحت أزرار عبائتها وتسللت لتلامس قماش ملابسها تحته..
-أريد أن أرى ماترتدين.
همس بصعوبة بين فيض من القبلات، فابتسمت رغماً عنها وهو يفلتها لتكشف أكثر عماترتديه تحت عبائتها، كان قميصاً قطنياً بلون الكحل وعليه كتابة صفراء عشوائية، رأت خيبته في عينيه وهو يعيدها الى حيث كانت بين يديه هامساً:
-تحتاجين لملابس جديدة..

ولامست أصابعه ياقة القميص المغلقة وهو يضيف:

-ملابس امرأة متزوجة، ملابس مثيرة، تطير بصوابي.

-جسااااس..

اعترضت بخجل وهي تخفي عينيها بكفيها ليبتسم ابتسامة عريضة وهو ينزل بشفتيه على عنقها بنعومة هامساً اسمها كتعويذة امتلاك بينما أصابعه تقبض عل كفيها وتزيحهما من على عينيها بسلطة، اهتمامه بتفاصيلها جعله يحتويها ويحيطها بمشاعر لم تدرك قط أنها يمكن أن تحصل عليها بل تقابلها حتى وبالذات معه هو.

-جساس توقف.

هتفت توقفه.. عن الجنون الذي كان يقوم به.. سعيه المحموم لامتلاكها هنا وبهذا الشكل، وتساؤلها المرتعب.. هل يقدر من الأساس؟

-لاتجهد نفسك..

همست تترجاه فانتفض بعيداً عنها ينظر لها بوجه شاحب وأنفاسٍ مرهقة مشتعلة وعينين متسعتين

فيهما لمحة ذعر لم تخفى عليها، أوجعت قلبها وتركتها تواجه سؤالاً مصيرياً عن ردة فعله..
وضعت كفها على كتفه وهمست اسمه بنعومة لينتفض ويزجرها بعصبية:
-ابتعدي عني.
اتسعت عينيها بذهول وجساس يصرخ بجنون:
-ألاترين أنني متعب، مالذي تفعلينه هنا؟؟ ابتعدي..ارحلي.
نهضت كالملسوعة تتعثر بكبرياءها التي مرغها بكلماته المهينة، تنظر له ولاتعرف أتواسيه أم تهرب بعيداً..
-أخرجي الأن، لاتبقي هنا،، ارحلي عني لاأريد رؤيتك صواااان.
صرخ بعنف ووجهه يتلون بمليون لون ولون..
الغضب يستعر في عمق روحه، والصدمة..
الصدمة التي جعلته لايرى أمامه..
شوح بيده غاضباً ليوقع حامل المحاليل على الارض الرخامية، وجهازٍ ما كان معلقاً فوق رأسه ليتهشم بصوتٍ مدوٍ ترافقه صرخة جساس اليائسة وهو يخبط كفيه على فخذيه بعنف دون أن

يعير اهتماماً للدماء التي عادت تتفجر من جروحه وتثير بداخله ألماً جديداً..
-توقف ستؤذي نفسك..
صرخت صوان بانهيار وهي تحاول السيطرة على ذراعيه لينزعها من حوله بعنف وهو يصرخ بجنون:
-ابتعدي عني، أنت السبب في كل هذاااا... أنت السبب صواااااااان.
تراجعت شاهقة عنه ووقعت ارضاً وهي تنظر له بذهول وهو يستمر بهياج:
-أنت السبب في كل هذا، أنت السبب.
تحجرت عينيها وهي تستوعبه في الصورة. لاشيء سواه مركز حياتها وقلبها، مرمياً أمامها وقد خسر مستقبله، ساقيه وأكثر.. فقد قدرته كرجل.. وأصبح مجرد ظل يرقد على كرسي كما يظن، وهي.. هي السبب.
انسابت دموعها بذهول وغصة تحتكم حلقها ، تريد أن تجهش بالبكاء فلاتجد سوى ذلك الشعور بالحرقة يجتاح مؤخرة حلقها، مرارة مزقت حبالها الصوتية وتركتها دون كلمة..

ألم.. ووجع مزق أحشاءها وهي ترى حياتها كلها ترقد أمامها.. بلاحول لها ولاقوة.. مجردة من الحياة، تهترئ لتنشقها حتى الهواء!!
تحترق لأفكار تمزق عقله وتؤرقه..
شعرت بمن يدخل الى الغرفة.. رأت ممرضين يسيطران عليه بالكاد ويحقنانه بمادة شفافة صفراء، استجاب لها بعد لحظات ليغرق في نوم عميق، شعرت بممرضة تحيطها وتساعدها على النهوض..
تخلصت منها ومضت راكضة الى الخارج..
لاتريد النظر لوجه جساس، ولاالتفكير بمصابه..
هي فقط تريد الركض بعيداً.. دموعها كستارة كثيفة تحجب عنه الرؤية ولكنها لم تأبه، هي تريد الهروب الان، ولاشيء سيوقفها.
***
روسيـــا..
هبطت الطائرة الصغيرة بسلاسة فوق المدرج الصغير المخصص لهبوط الطائرات الخاصة، في ذلك المطار الخاص على بعد ساعات من العاصمة موسكو..

وبعد استقرار الطائرة فوق الأرض، فُتح الباب وتقدمت نيران الباشا عبره نزولاً الى حيث انتظرتها سيارة سوداء مظللة برفقة سائق وحارس خاص.. حالما وقفت أمامه سألته:

-أين سليم؟

-سموه بانتظار في السرآي نيران هانم.

تنهدت نيران واومأت،، لم يكن سليم ممن يتنازلون ويقبلون ببعض التصرفات الرجولية الشهمة، فمركزه وسلطته كانت تفوق كل احساس وكل ماهو متوقع.

رافقت السائق والحارس الشخصي السيارة المظللة والتي نقلتها عبر طريق تحفه الثلوج نحو السرآي..

الطريق كان قصيراً وقطعته السيارة الفخمة في أقل من عشر دقائق، ثم توقفت أمام بوابة حجرية تحرسها أعمدة تتسلقها سيوف ملتوية، فُتحت اليكترونياً لتدخل السيارة عبرها وتقطع ممراً بللته الثلوج بحذر نحو السرآي..

أخذت نيران نفساً مكتوماً وهي تجبر نفسها ألا تظهر مشاعرها الحقيقية نحو هذا المنزل على

صفحة وجهها، وقفت السيارة أمام البوابة الضخمة المرتفعة ببضع درجات والتي تقابلها مصطبة رخامية بللتها بقايا الثلوج، خرجت من السيارة تحكم معطفها الاسود حولها بإحكام ثم بدأت صعودها الدرجات بينما يخرج السائق حقائبها من السيارة ويسرع خلفها..

دخلت البهو الواسع بإفراط..

لا احد في استقبالها،، ولاحتى سليم؟!

فكرت بهزء.. ثم نظرت حولها بشكل سريع..

الارض الرخامية، اللوحات العالمية ثم السقف..

السقف المنحوت كلوحة جصية كاملة تمثل ملحمة أسطورية ما وعدها يوماً سليم بذكرها ولم يفعل قط..!!

-مساء الخير..

التفتت بسرعة وخفق قلبها وانقبض لرؤيته..

-سليم!

همست مأخوذة كعادتها كلما التقت به.. لوجوده هيبة.. بطوله المميز الذي تجاوز المائة والثمانون سم وعينيه الزرقاوتين كلجتي ماء جليددي، ثم شعره الاشقر المسرح باتقان، ذقنه الشقراء التي

تحتل وجهه، وأناقته المفرطة في بدلة لم تنقص عدد قطعها يوماً عن الثلاث قطع، توويد رمادي انجليزي عتيق، قميص بيضاء وربطة عنق عريضة بألوان رمادية وبيضاء..

-هل كانت رحلتك مريحة؟

ابتسم بديبلوماسية وهو يتناول معطفها ويناوله لأحد الخدم الذين برزوا من حيث لاتعلم قبل أن يقبض على مرفقها ويقودها الى باب جانبي يقود الى غرفة مكتب هائلة، تشتعل في ركن منها مدفأة حجرية وأمامها كنبتين وبضع كراسي..

-الرحلة كانت مريحة شكراً لك.

همست متوترة وهي تجلس مواجهة النار لتدفئ كفيها فتثير على وجهه بسمة صغيرة قبل أن يسألها:

-قهوة؟ أم تريدين شيئاً أكثر قوة؟

-تعرف أنني لا اشرب.. سأخذ قهوة.

رأت يلتقط سماعة هاتف داخلي ويطلب لها ما أرادت ثم يعود الى جوارها ويسألها بصورة مباشرة:

-أخبريني الأن مالذي فعله شاهر ليأتي بكِ مبكرة عن موعدك وبهذه السرعة.
لم تظهر الاهانة على وجهها وهو يطالبها بتفسير مجيئها متجاهلاً الترحيب بها كما يجب:
-انها قصة طويلة، وأنا أحتاج للاستحمام وتغيير ملابسي.
قالت بهدوء وهي تدلك عنقها بأصابعها ليضحك قائلاً:
-لابأس عليكي يافتاتي، اذهبي لغرفتك، أنت تعرفين الطريق، وأنا سأنتظرك على العشاء لتخبريني بالضبط مافعله صديقي العتيد شاهر باشا.
نهضت زافرة بغضب:
-لقد جُنّ أخيراً وحمداً لله أنني جئتك قبل أن يتسبب بمشكلة أكبر.
-اذهبي للراحة نيران سنلتقي على العشاء وتخبرينني عن الأمر بالتفصيل.
أومأت له والتفتت للخلف تريد المضي الى غرفتها حين توقفت وهي تواجه النسخة الداكنة من سليم..

النسخة الداكنة شكلاً.. والملونة روحاً ...
-انظروا من جاء الينا..
قال الرجل بابتسامة بطيئة لتبادله نيران الابتسامة محيية:
-مصطفى.. كيف حالك أيها الفنان؟
فرد ذراعيه وقال بابتسامة:
-كالعادة، أنا ملون..
ابتسمت بتلقائية وهي تقارن بين أناقة الأخر الاكبر وشرود هذا الرجل.. رأت سروال الجينز والملطخ بشتى الالوان وقميصه البيضاء التي حال لونها وشعره الاسود القاتم الذي تساقط بعفوية على جبينه يحجب عينيه السوداوتين، ثم بشرته السمراء الداكنة وهو يقول بمرح:
-صحيح أن الاسود يطغى علي، ولكن.. أنا ملون.
-توقف عن التهريج مصطفى، وخذ نيران هانم الى غرفتها ريثما أنهي مابيدي.
قالها سليم مزمجراً ليقهقه مصطفى ويشير لنيران أن تتقدمه بتحية أحنى فيها ظهره لم يفعلها لها من قبل سواه.
-سأراكِ على العشاء نيران.

قالها سليم ببرود لتومئ نيران وتتقدم مصطفى الذي تبعها بصمت..صعدا سلماً لولبياً مواربا حتى الطابق الثالث من السرآي وهناك اتجهت من فورها الى احدى الغرف حيث اعتادت المكوث اثناء زيارتها القصيرة..

دخلت الى الغرفة وتبعها مصطفى ليجدا خادمة روسية صغيرة ترتب اغراض نيران في الدولاب..

-شكراً لكِ سأكمل أنا من هنا.

قالت لها بعصبية لتنحني لها الفتاة وتسرع بالمغادرة مغلقة الباب خلفها..

-أنحن وحدنا؟؟

اغمضت عينيها بقوة للخشونة في صوته.. وقبل أن تجيب كان يجذبها اليه بخفة، ويثبتها الى الجدار خلفها لينظر لعينيها السوداوتين بإمعان وهو يهمس:

-أخيراً وحدنا..

-مصطـــفى!!

وقبل أن تتفوه بحرف كان ينزل بفمه عليها، يقبلها بشوق.. لتبادله القبلات بمثلها، متجاهلة

الأمر الملكي الذي صدر قبل سنوات أنها عروس الأمير سليم.. وانساقت خلف قلبها وعشقت أخاه الأصغر.. الرجل الاسود..اللقيط.

***

رومـــا..

منزل كمالة..

جلس أوس وبجواره ترنيم بتوتر يظهر على وجههما امام مختار الراجي، والذي نظر لهما الاثنين كطفلين مشاغبين وهو يقول:

-بصراحة لقد انتظرت عودة ابنتي، لم أتوقع بتاتاً أنك ستعود معها.

-مالذي تريده؟

هتف أوس بعصبية وهو يلاحظ انكماش ترنيم وتراجعها الواضح لتتشبث به بقوة ووالدها يبتسم بسخرية:

-أريد ما اتفقنا عليه ياكابتن، ابنتـــي.

ارتعدت ترنيم واقتربت غريزياً من أوس الذي قال بهدوء:

-ابنتك هي زوجتي، وأي كلمة أخرى في هذا الصدد لن تكون حسنة سيد مختار، ليس لسمعتك

ولامركزك ولاحتى من أجل خاطر العلاقات الاسرية.

-أتهددني يافتى؟

تسائل مختار الراجي بسخرية ليرد ببرود:

-ليست مسألة تهديد، وانما وضع كل شخص في مكانه.

-وهل تظن أنك تعرف مكاني يافتى؟ أنا مختار الراجي.. هل تعرف من يكون مختار الراجي؟

لم يرد .. بل اكتفى بالتراجع في مقعده وعقد ذراعيه حول صدره ومختار يزفر بحنق ثم يهدد:

-أنت تعرف بالضبط ماهو اتفاقنا، شهر وينتهي زواجكما أنت وابنتي وقد .. طالت المدة كثيراً.

-أنا لم أوافق على اية شروط.

قطع أوس بحزم.. وأحاط كتفي زوجته بحنان وهو يهمس:

-أنا وترنيم مرتاحين جداً بترتيبات زواجنا ولانبحث عن الانفصال.

اقترب مختار بجذعه منهما وقال بابتسامة:

-أنا لم آتي لكما لتبحثا عن اي شيء..

ثم أدار وجهه بينهما وقال بشراسة:

-أنت ستطلق، وهي.. ستعود معي طائعة الى عدن.
-أنا لن أطـلق.
-أنا لـــــن أعوود.
نطق الاثنين معاً وبكل حزم حتى ترنيم التي كانت تخفي ارتجافها .. تمسكت بكف أوس وهتفت بعلو صوتها أنها لن تستسلم لأبيها، ليس بعد.
-انكما متفقين حقاً؟!
هتف بدهشة .. ثم نظر لترنيم وقال بسخرية:
-يبدو أن تأثيرك لم يخف يا ابنتي..ها انت تطيرين بصوات فتى أخر وتغرقيه في غرامك كمايبدو.
اتسعت عينيها بذهول وتصلبت في كرسيها بينما ينظر أوس بينهما بحيرة ومختار يقول لابنته بيرود:
-هل يعرف كل شيء ياصغيرتي؟
-لاااااااااا..

هتفت بشراسة.. جعلت والدها يبتسم تلك الابتسامة الشيطانية وهو يميل مجدداً نحوهما ويقول باصرار:

-ولكن ليس من العدل صغيرتي.. أنت تعيشين مع الرجل وتخفين عنه اسرارك؟!

-تووقف.. اصمممممت..

هدرت بعنف ولكن أوس المتعجب رد عليهما وهو يقول بحيرة:

-مالأمر؟؟ عماذا تتحدثان؟

التفت اليه مختار وقال بقوة:

-اسمعني بني، بامكاننا تجنيبكما الالم والصراع، بامكاني احضار رجل قانون لابطال الزواج وفي التوو..

-انت لاتستطيع ابطال الزواج.

صاح أوس بعصبية ثم نظر لترنيم بتوتر وعاد لأبيها يقول:

-زواجي بابنتك زواج مكتمل، وابطاله غير وارد.

قهقه مختار الراجي ضاحكاً بكل قوة جعلت أوس ينظر له باستغراب وتوتر بينما تنكمش ترنيم أكثر..

-أنا.. انا لا اصدق أنك ستكذب في أمر كهذا..

-أنا لا اكذب..

نهض أوس وصاح في وجه مختار بعنف:

-ترنيم زوجتي، على الورق وبيني وبينها وأمام الله هي زوجتي..

"توقف"..

-أنت كااذب..

نهض مختار الراجي.. ليواجه أوس الشيب ويقفان معاً كديكة متصارعة وترنيم تجلس بينهما في حالة شرود..

-أنت لم تتمم زواجك بابنتي، وانا لن أصدق..

-أنت رجل وقح.. عديم النخوة ولن أقف هنا أفسر لك علاقتي بزوجتي.

هدر أوس.. ليسخر مختار:

-وهل تظن أنني سأقف أكثر لأسمع؟!

ومال على الطاولة بكفيه وهو يقول:

-اعرف يقيناً انك لم تمس ابنتي فإن فعلت فالنتيجة كانت لتكون أحدى اثنيين..
"توقف ابي، أرجووووك"
-مالذي تعنيه بهذا الهراء..
هتف أوس بحنق ليتجهم وجه مختار وينظر لابنته منكسة الرأس بحنق:
-ماتسمعه ياكابتن، انت لم تمس ابنتي لأنها مريضة..
"توقف .. تووقف"
-ترنيم ابنتي لديها عقدة مرضية .. هي تصاب بالانهيار والتجمد لو اقترب منها أي رجل..
عم الصمت على الثلاثة وأوس ينظر لمختار بتوتر عنيف وترنيم، ترنيم كانت ترتجف بصوتٍ عالٍ..
-أتعلم ماهو السبب؟ أتعلم سبب مرضها وخوفها اللامعقول من الرجال..؟؟
ابتلع أوس ريقه وشحب وجهه وهز رأسه نافياً ليصرخ والدها بمرارة:
-لو كنت أتممت زواجك بها كماتقول، لعرفت..
"توقف.."

همست بتخاذل ولكن مختار الراجي لم يكن ليتوقف، ليس وهو يتجهز لأن يصفعهما بضربة قاسية ومؤلمة..

-لأن ابنتي أيها الكابتن المحترم، تعرضت للاغتصاب قبل ثلاث سنوات..

"لاا"

صرخت بوجع وهي ترفع كفيها تسد أذنيها..

لاتريد أن تسمع.، لاتريد أن تعاودها الذكريات..

أوس من ناحيته تراجع كمن ضربوه على جسده وسحب روحه وترك جسداً يتراجع بذهول ومختار يواصل بعنف:

-كانت تعالج في مصح نفسي لأسباب عديدة، وقد تعرضت للاغتصاب هناك على يد احد الاطباء المجرمين..ومنذ ذلك اليوم.. ابنتي لاتقبل وضع اي أحد يداً عليها.. لذلك تركتها تدور حول العالم، لذلك جعلتها تهرب .. ابنتي كانت ستجن وأنا .. أنا اعطيتها عقلها..

ترددت صرخات مختار الراجي فيما حولهما، لايعرف مامدى وصلت كلماته،،

التي رافقتها صرخات ترنيم الموجوعة..

وذهول أوس الشديد.. وهو ينظر الى زوجته المنهارة ودموعها التي حفرت أخاديد على وجهها ..
دليلاً أن كل ما قاله والدها .. كان حقيقة واقعة.
***
نهاية الفصل

الفصل السابع عشر

***
توقف كل شيء بالنسبة لها.. دوامة من الذكريات المحاطة بضباب الألم ومرارة عدم

القدرة على النسيان. لا هي استطاعت نسيان الواقعة، استطاعت بغريزة البقاء أن تدفع بذكراها الى مكان خفي، مظلم ومنعزل من عقلها لا يقترب لدائرة الضوء إلا حين تلامسها واقعة قريبة أو مشابهة، ولكن الأن تقف وحيدة أمام مسرح كبير، الأضواء مسلطة على الأرضية الخشبية العتيقة، هي وحيدة تقف في المنتصف تراقب المسرح بعينين واسعتين مجبرتين على التحديق، والأضواء تتلاعب تتراقص وتثير ألماً بداخل عينيها، ولكنها لاتقدر على الاشاحة.. ليس وهي تراقب كيف استلقت على ذلك الفراش الضيق، وكأنما بزغت من العدم، شبه دائخة.. منفصلة عن العالم..

أشياء كثيرة تقيدها وأقلها ذلك القيد المطاطي الذي يثبتها على السرير ويمنعها من الحركة، بافتراض أنه يمنعها من ايذاء نفسها..

صرخت..

ولكن صرختها لم تغادر حلقها..

ثوب المستشفى الذي ارتدته كان رقيقاً للغاية لدرجة أنها شعرت بالبرودة تنخر عظامها..

انحسر يكشف عن ساقيها وعبثاً حاولت تغطيتهما، لاتستطيع أن تصل اليه، ذراعيها مثبتتين أعلى رأسها، عقلها يدور في دوامة، وجسدها يطفو على غيمة!!
نادت لمن يرفق بها..
ولكن لم ترد عليها سوى الظلال، جلست ترتجف مراقبة كيف أن ذكرياتها تتجسد من عمق عقلها الباطن، كيف ارتجف جسدها النحيل الصغير تلوى في مواجهة ظلال مغمورة المشاعر، ظلال سوداء قاتمة تحوم حول سريرها..
"لا لا"
صرخت مخنوقة أيدٍ من السواد تمتد اليها..
تلامس ذراعيها .. صدرها .. بطنها .. ساقيها ..
ظلال مروعة تمزق ثوبها..
لاتستجيب لدموعها ولاتوسلاتها.. ظلال مخيفة تميل عليها.. تلفحها أنفاسها الساخنة القذرة، وتسمع صوتاً مخيفاً يرن في أذنيها ولمسات رطبة تجتاح برائتها وتمزق أنوثتها اليافعة..
اغلقت عينيها وصرخت..
لاول مرة تصرخ..

منذ حدث ماحدث كانت المرة الأولى التي تصرخ فيها..
بعذاب مزق باطنها وانتشر لهيبه ليحرقها..
صرخت بوجع اشتعل فيه هو وأضرم بداخله نار لم يشعر بها من قبل..
وجد نفسه يقفز من مكانه لينقض على الرجل المسمى عرضاً بأب .. ويرتمي معه على الأرض..
وهو يصرخ بوجهه كذئب جريح .. وقبضتاه تكيلان له اللكمات.. بلارحمة!
لم يهتم لفارق العمر ولا بما يمكن أن يفعله به وقتها.
ولو قتله لم يكن ليهتم، نزلت قبضته بقسوة على وجه مختار الراجي مودعاً فيها كل حقد وغضب يشعر به لما حصل لترنيمته الحزينة، والتي لم تتوقف صرخات عذابها لحظة وكأنها تغذي غضبه.. وتزجيه بل توقده أكثر وأكثر..
لم تخلص مختار الراجي من قبضته سوى قبضات حازمة لمن استدعتهم صرخات ترنيم العالية، في ذلك الحي الايطالي الشعبي، لترميه

الى الخلف بعيداً عن جسد أبيها المكوم، ووجهه الذي استحال كومة من اللحم المختلط بالدم، وهو يقاوم الوقوع في دوامة من اللاوعي.
كانت أنفاس الذئب الهائجة مشتعلة، تراجع أوس أكثر، حتى أصبح بالقرب من ترنيم التي تحولت صرخاتها الى شهقات منتحبة، سحبها بين ذراعيه بقوة، يضمها الى صدره بعنف كاد يكتم أنفاسها، وهو يصرخ بجنون:
-لاتقترب منااا، ابتعد عناااااااااااااااا.
كان مختار أبعد من أن يعترض في تلك اللحظة، وعيه ضعيف.. ورجاله وابناء الحي يحملونه حملاً خارج المنزل بينما هناك من يرغب بالاتصال في الشرطة.
نهض أوس.. لايزال يحيط ترنيم بين ذراعيه يسحبها معه الى الخارج متجاهلاً الجميع كانت سيارته بالقرب من المكان، أدخل زوجته اليها ومضى يقودها بسرعة ..
قبضتيه محكمتين حول المقود والشرر يتطاير من عينيه، عزم وقوة.. وغضب عارم ظهر في كل خلية من خلاياه، كور قبضته بألم وضرب

المقود عدة مرات وهو يزمجر بغيظ شديد.. غيظ تجاوز حدود المعقول وأصبح يجري مجرى الدم في عروقه، لا لم يعد مايجري في عروقه مجرد دماء..

بل هي حمم حارقة تحرقه من الداخل للخارج..

أنفاسه تلك التي يزفرها، نبضات قلبه الهادرة كانت زفرات بركان ثائر، حتى عينيه كانت تتوهج كعيني ذئب جريح..

نشيج ترنيم الخفيض المحتظر كان يمزق طبلتي أذنيه..

"أصمتي"

صاح بها بعنف لتنتفض بقوة وتنكمش محيطة جسدها بذراعيها وتحاول منع ارتجافتها المستمرة بشتى الطرق دون فائدة، كانت كعصفور ضئيل مبتل في مواجهة اعصار مدمر..

مابين ذكرياتها المريرة وبين القسوة التي تراها الأن تلوح من مسامه..

سيتركها؟!

فكرت بوجع.. سيتركها بعد أن عرف فضيحتها؟ بعد أن عرف ماحدث لها منذ سنوات؟ ولكنها ليست مذنبة..

فكرت بمرارة.. لم يكن خطئي..

بكت بألم، قلبها يتمزق حرقة ووجعاً..

شهقت وتدفقت دموعها بلا توقف، ليصيح بها أوس زاجراً:

-قلت توقفي عن البكاء، لم لا تفهمين؟ اصمتي ترنيم اصمتي.

حركت رأسها وهي تعترف بعجزها عن التوقف عن البكاء، فشتم أوس بقذارة ومال بالسيارة خروجاً عن الطريق السريع وأوقفها تحت ظلال شجرة عارية الأغصان، ثم التفت اليها:

-انظري الي.

هتف بها صارخاً لتغلق عينيها بكفيها وتستمر بالبكاء بصوت يمزق القلوب ليضرب بقبضته على لوحة القيادة بقوة جعلتها تنتفض وهو يأمرها بصوت مرعب:

-انظري الي.

فعلت.. تكتم صرخات بكاءها بأصابعها، وتحاول السيطرة على دفق دموعها، والتي تركت وجهه غامضاً خلف سحابة من دموع، ولكنها استطاعت رؤية قبضتيه المضمومتين أمام وجهه وهو يهتف بعنف:

-لقد حطمت وجهه، أسقطت أسنانه، تركته فقط لأنهم أرغموني، ولأجلك سأعود الأن لأدفنه مكانه.. أتفهمين؟!

اتسعت عينيها بذهول وهي ترى قبضتيه وقد تلطختا بدماء والدها!!

رباااه.. هل ضربه؟! انها لاتستطيع أن تتذكر؟

-أأنت.. أنت ضربته؟!

-وسأقتله لامحال، أنا لن أتركه يتنفس بعد أن قال ماقال لكِ.. أتفهمين؟ ذلك الرجل سيكون موته على يدي.

-لا.. لا.

همهمت بخفوت شاردة وقد توقفت دموعها وهي تنظر في عينيه، الغضب.. العنف، المشاعر المتوقدة لم تكن ضدها..

كانت لأجلها، غضبه وألمه كان موجهاً ضد من ظلمها ولم يكن نحوها، كان عليها!!!
تأملته بذهول كان يكور قبضتيه يتأملهما بشرود وضيق هو الأخر، ترددت ولكنها حسمت ترددها، مدت يدها اليه وبلمسة وضعت كفها على قبضتيه المضمومتين بتردد انتفض هو له بقوة ورفع وجهه المضطرب نحوها، التفت أصابعها حول قبضته وهمست بشحوب:
-لا تتركني.
اتسعت عيناه بذهول ورفعت عينيها اليه، رأى خيط الدموع الذي انساب من عينيها، بطيئاً ولذهوله كان وقع تلك الدموع الصامتة أشد عليه من نشيج بكاءها، كانت موجعة، مؤلمة، مدمرة لأعصابه التي تماسكت لتوها وجعلته يختطفها بين ذراعيه ويحتضنها وهو يلهث بقوة، نار تشب من اعماق صدره واكتشاف مهول يحرقه .. ويطفئ ناره بنفس الوقت..
نار باردة..
تلك التي اشتعلت وكل خلية من جسده تدرك في لحظة..

أنه قد وقع في غرامها!!
اشتدت أنفاسه وهو يغمر وجهه في جانب عنقها , هذه الصغيرة التي سرقت لُبه وجعلته يتيه في فيضان مشاعر لم يعرفها يوماً مع سواها.
احساس غامر بالرغبة في دفنها بين ضلوعه ، اخفاءها عن الكل وحمايتها من الجميع ، انها المرأة التي يحب وسيحميها بروحه.. مهما كان ماحدث لها في الماضي!!
أغلق عينيه بقوة وألم موجع يخترق حنايا جسده، ألم لها وعليها لكل ماعانته وماذاقته من مرارة..
لكل ماتعرضت له وهو بعيد لايقدر على حمايتها منه، لكل من تجرأ وآذاها.
ضمها أكثر حتى هدأت انتفاضة ضلوعها، حتى سكنت أنفاسها وهدأت حرارة جسدها بين ذراعيه، كانت تستكين كطفلة وديعة، فخفف ضغط ذراعيه حولها وقرب راسه من أذنها وهمس:
-سأخذك للمنزل، ستكونين بأمان معي.

نظرت له مذهولة.. لاتصدق الحنان الذي غمرتها به عيناه، وكأنما بحرٌ تغرق فيه باستسلام لاتقاوم ولن تفعل.

لامست وجنته الحليقة بأناملها لتثير لمستها مشاعره بعنف فيهمس بخشونة:

-لاتفعلي، مالستِ قادرة على اكماله.

لم تفهم ولم تبتعد بل أحاطت وجنته بحنان واقتربت تضع شفتيها بإرادتها على الجهة الأخرى، وهي تهمس:

-شكراً لأنك لن تتركني.

تنهد بعمق والتف برأسه مسلوب الارادة ليلتقط شفتيها بفمه، لم يأبه لانتفاضتها المتوترة ولاتصلبها اللحظي وشدد من ضغط ذراعيه حولها، لتلين بين ذراعيه وهي تستقبل قبلته الناعمة بتنهيدة ساخنة، اطارت الباقي من صوابه وجعلت لمسته اللطيفة تشتد بخشونة وقسوة تقبلتها بأنين معترض وهي تفلت من ضغط فمه لتضع رأسها على صدره بأنفاس متسارعة وقلب خافق بجنون.

-رباااه ترنيم، ستقتلينني.

همهم دافناً رأسه في طيات حجابها.. يأخذ أنفاساً عميقة الواحد تلو الأخر.. قبل أن يبعدها عنه بطول ذراعيه هامساً:

-هذه السيارة لن تقود نفسها، يجب أن أعود بكِ للمنزل.

تراجعت لتجلس على مقعدها متكورة، بينما يعتدل أوس ويمسح رأسه بكفيه عدة مرات ثم يشغل السيارة لينطلق بها الى شقته في وسط المدينة..

***

انتشرت رائحة الأزهار البرية وتألقت قطرات من الندى على الاوراق المخملية الملونة، بينما التمعت أشعة الشمس على سطح الاوراق الخضراء العريضة ودقائق العشب المقصوص بحرفية، وتصاعد صوت الحفيف الناعم من جراء ملامسة القماش الحريري لعرس الطبيعة الفتان، قدمين دقيقتين تتنقلان حافيتين على المرج الأخضر، أصابع رشيقة تجمع بضعاً من الزهور المثيرة للمشاعر برائحتها القوية.

تتهادى القامة النحيلة في ثوب حريري ناعم بلون الزهر والشعر الكستنائي الكثيف ينهمر كشلال متدفق حتى الخصر المستدق، وبابتسامة ناعمة تصعد الدرجات الرخامية الى شرفة فرنسية واسعة..

وعلى كرسي الخيزران يرفع لها وجهه بابتسامة سعيدة.. يراقبها بعيون عاشقة متولهة..

شغوفة تحمل عشق سنوات.. بل عمرٍ بأكمله، ترتمي بين ذراعيه لاتفصلها عنه سوى باقة الزهر التي انتثرت بينهما وفاح عطرها.. بينما تغطيه خصلات الشعر الناعمة وتحيل الرؤية لعينيه سواداً..

ونار تشب في ضلوعه وهو ينتفض فاتحاً لعينيه وشفتيه ترتجفان باسمها بلوعة:

"صـــواااان"

التفتت اليه بسرعة، تحاول أن تخفي ارتباكها..

تأملته ونظرة عينيه الشاردة تقع عليها.. تحدق بها من رأسها لأخمص قدميها، هل نادى اسمها فعلاً؟ أم أنها تتخيل؟!

-ناديتني؟!

تسائلت بشحوب وهي تهرب بعينيها عنه.. ليعفيها ويشيح هو بمرارة المستيقظ من الأحلام ليواجه كابوسه اللعين، كل يوم.. يراها في الحلم محاطة برائحة الأزهار البرية..

تعذبه وتحرقه!!

-لاتضعي هذا العطر مجدداً.

همس بصلابة، لتتراجع بألم.. العطر، الزهرة البرية التي اهداها اياها في عيد ميلادها قبل سنوات ولم تكن تضع غيره..

-لاتضعي عطراً ابداً.

عاد يأمر بقسوة لتومئ باستسلام، لاتريد أن تعارض ليس الان وليس بعد ماحدث.

-أريد أن أغادر المستشفى، اذهبي للطبيب أريد أن أعود للمنزل.

هتف بضيق لتهمس بتوتر:

-لازالت هناك الكثير...

-ألا تفهمين؟!!

صرخ بعصبية لتنتفض وهو يشير نحو الباب:

-اذهبي وقولي له أنني أريد المغادرة، لن أبقى هنا لدقيقة.. أريد العودة لمنزلي.

تحملت وكتمت غصة مبكية احتكمت حلقها واومأت بصمت، ثم ذهبت لرؤية الطبيب كما قال.

لم يرحب الطبيب بالفكرة ولكن، استشارة الاختصاصي النفسي جاءت لصالح جساس، عليه العودة الى بيئة مألوفة، والعمل على تنفيذ أوامره في هذه الاوقات مهم، وحان الوقت لتجهيز اغراضه للعودة.

ولكن الى أين؟

سأل والدها بتوتر وهي تضع ملابسه القليلة في الحقيبة لتهمس بشفتين ترتعشان:

-لا أعرف، أنا لم أجرؤ على السؤال.

تنهد والدها بحنق، ينظر لابنته القوية والتي تذوي كما لم يعرف من قبل، كما لم يصدق.. لايزال يواجه غضب فاطمة مع حالتها الصحية المؤسفة، لتزويجه صوان دون علمها ولمن.. لجساس بكل العقد والالم الذي يحكم علاقتهما، ومن جهة أخرى كان يواجه العلاقة المتورة والصامتة لجساس وصوان.

لم يعرف مالذي يحدث لهما؟ كل ذلك الحب الذي تحول الى مرار!!
تنهد ونظر لجساس الذي كان ينظر عبر النافذة بصمت..
-جساس بني؟
همس له بحنو.. لينظر اليه الجساس ببطء فيبتلع عمه ريقه بصعوبة وهو يتحاشى التحديق بجرح وجهه:
-الى أين ستغادر بني؟ هل يجهز لك سيف منزلاً مستقلاً أم ستأتي للسكن معنا؟
-هناك منزل ينتظرنا، لاتقلق عماه.
دمدم بهدوء ليتساءل عمه:
-أين؟!
-فيللا الجبل.
همس بخفوت وتراجع عمه بدهشة ليواصل جساس بهدوء:
-انه مكان ملائم، فهو مجهز بمداخل تصلح لاستخدام الكرسي المتحرك، ألاتظن؟
-ولكن.. ذلك المكان؟!!
همس عمه بتوجس فرد جساس بصورة قاطعة:

-ذلك المكان عاش فيه والدي عمراً كاملاً، ولدت أنا وسيف فيه.
-وهو المكان الذي تعرض فيه والدك لحادثته التي أودت بساقيه، ورغم كل ماتقوله من تجهيزاته ولكنه مكان خطر، ويثير الانقباض.
اعترض حسن بحنق وهو ينظر لابنته التي اقتربت بفضول ولكن جساس أشاح بوجهه وقال بلهجة قاطعة:
-انه منزلي.. كماتعرف فوالدي قد اعطاني اياه، وسيكون مكان سكناي مع زوجتي.
ثم نظر لصوان وسأل بخشونة:
-ألديكِ أي اعتراض؟
اتسعت عيناها برقة وهزت رأسها مأخوذة بالنظرة العميقة من عينيه تنفي أي اعتراض وتعلن رضوخها دون مقاومة لتظهر شبه ابتسامة على طرف شفتيه ورجولته الجريحة تستعيد بعض صحتها، ثم قال لعمه:
-انهي الاجراءات عماه، أريد الرحيل بأسرع وقت.

تنهد عمه بقلة حيلة مواجهة عناد الرجل واستسلام ابنته الغريب.. نظر لها بحنق ولكن عينيها كانتا متعلقتين بزوجها بلهفة غريبة، وكأنها تخشى أن يختفي؟!

بعد ساعتين، كانا بطريقهما للمنزل، يقود السيارة سيف مرافق وحيد للزوجين الغريبين، رفض جساس كلياً أن يرافقهما أحد، وتقبل مساعدة اثنين من الممرضين للوصول الى السيارة واعتمد على سيف لمساعدته في النزول.

استغرقت سيارة الدفع الرباعية مايقارب الساعة والنصف للوصول الى المنزل المختار.

ترجلت صوان بقلب راجف، هي لم تأتي هنا منذ سنوات، رباااه لقد كانت في الثالثة من عمرها حين كانت هنا للمرة الأخيرة.. يوم ولادته..!!

التفت اليه بشحوب.. كان سيف ورجل أخر هو المسؤول عن البوابة من أنزلاه من على السيارة، وجهه مظلم وعيناه تشمخان لتأمل الفيللا الواقع في منطقة جبلية خارج امارة دبي، محاط بصخور عالية تحجب شرفاته الواسعة عن أعين المراقبين.

استمعت صوان لضرب الأمواج وتذكرت الشاطئ الصخري الموجود أسفل الجرف الصخري المقام عليه المنزل كأعجوبة طبيعية مثيرة للحواس، وراقبت كيف انتصب المنزل بوحشية مقاوماً قسوة الطبيعة حوله ومتحدياً لها على حد سواء..

رأت سيف يحاول دفع جساس للأمام ولكن جساس أبعده ناهراً وهو يهتف بخشونة:

-أستطيع دفع نفسي بنفسي، أحضر الحقائب فقط.

زفر سيف بحنق والتفت الى صوان ثم اقترب منها:

-هل وافقتيه على هذا الجنون؟ هذا المنزل مهجور منذ مايقارب الخمسة وعشرون عاماً صوان؟

ابتلعت ريقها ونظرت لسيف:

-انها رغبته سيف، والاختصاصي النفسي طلب منا جميعاً أن نسايره وخصوصاً في هذا الوقت.

-نسايره حتى في جنونه؟؟

هتف بخشونة لتهز صوان كتفيها بيأس.. ثم أسرعت خلف جساس ..

الطريق من مكان توقف السيارة ونحو المنحدر المخصص للمقاعد المتحركة كان قصيراً ولكن حين وصلت اليه جساس كان يلهث وبقوة، هو لم يعتد على المجهود بعد، لذا وضعت صوان قبضتيها حول مقبض المقعد وهمت بدفعه ليهدر مزمجراً:

-ابتـــعدي.

انتفضت وأبعدت كفيها كمن لسعته النار وراقبته وقد اشتدت عضلاته وبرزت عروق عنقه وكفيه وهو يدفع بالكرسي عبر المنحدر الى الاعلى، لقد رفض الكرسي الكهربائي بعناد، وأصر على اليدوي، رغم تحذير الطبيب أنه وبإصابة ذراعه سيعاني من الألم المبرح وهو يستخدمه.. ولكن ذلك الرجل بالرأس اليابس رفض مجرد الإصغاء.

راقبته بقلب تعلق بكل تفاصيله، حتى تلك المثيرة للجنون، كيف نحل جسده خلال الأيام الماضية كمالم يحدث من قبل، ذقنه التي استطالت ورفض بعناد أن يحلقها، حتى شعره كان يلامس منابت عنقه في سابقة لم تحدث من قبل، جرحه اللذي

تعافى تقريباً وأصبح مجرد اضافة لجاذبية هزتها من الاعماق، ثم صلابة النظرة في عينيه.. وكأنما قُـد من حجر..

"صواااان"

انتفضت بجزع وهي تسمع صوته الحانق يناديها من أمام البوابة المغلقة للفيلا.. أسرعت بالركض اليه وتناولت منه المفتاح الذي رماه اليها بغضب، وبدأت تحاول فتح الباب الذي لابد له سنوات..

كان المزلاج قاسياً..

حاولت مرة والثانية دون فائدة..

-مالذي تفعلينه؟! افتحي الباب اللعين صوان.

هدر بعنف لتنظر له مرتبكة وهي تقول:

-انه لايُفتح .. لابد انه عالق أو..بحاجة الى تشحيم..أنا لاأعرف.

زفر بحنق ونظر باتجاه سيف المتقدم ببطئ يحمل أمتعتهما مع حارس البوابة ثم عاد لينظر اليها وهو يزمجر:

-ابتعدي..

تنحت جانباً وتركته ليقترب..

كان يحاول تظبيط الكرسي كي يصل بالقرب من الرتاج، وبعد محاولات مضنية استطاع الاقتراب بما يكفي، ثم كانت المشكلة الأخرى، الارتفاع..
ارتفاع الرتاج كان يحتاج منه أن يمد ذراعيه لأقصاهما كي يصل اليه، وذراعيه كانتا ضعيفة، الجروح والكرسي كلها أنهكت عضلاته ليزفر بألم وهو يحاول ادارة المفتاح مرة وأخرى.. ويفشل..!!
واشتد الغضب بداخله، العجز وشعوره بعدم الفائدة..
ضغط على المفتاح بقوة كادت تكسره، سمع اسمه منها بمناجاة خافتة مما أشعل في غضبه، وجعله يشتمر بقهر وكفه تخبط بقوة على الخشب الثقيل..
-جساس..
سمع أخيه يناديه بتوتر، ثم شعر بيده القوية تزيحه من أمام الباب، وبعد لحظات سمع الرتاج يدور في مكانه والخشب الثقيل يتحرك، وسمع تنهيدة الارتياح من صوان بينما يقول سيف بحنق:

-المناول القديمة؟! خشب ثقيل ومشاكل لاتنتهي، ربما سأحضر النجار في الغد ليحل لكما هذه المشكلة، الرتاج عالق وهو مصدئ من الداخل كذلك.

لم يعلق جساس.. كان هادئاً على نحو غريب والحارس يدفع كرسيه الى داخل بهو الفيللا الصغير، الأرضية الحجرية القديمة تصدر أصواتاً مكتومة حين الوطء عليها، الريح تدخل من بعض الفتحات حول أُطر النوافذ القديمة، المكان برمته، كان مقبض للنفس.

-هل أنت متأكد من أنك تريد العيش هنا؟

هتف سيف باستنكار ليتجاهله جساس ويدفع بكرسيه نحو أحد الابواب ويفتحه ليصدر صريراً مزعجاً، الغرفة خلفه كانت مظلمة وبها أثاث قاتم وقديم..

سمعته يسعل فاقتربت منه بغريزة الأنثى، لتضع كفاً على كتفه وتنظر اليه بقلق، الغرفة كانت مكتومة وكأنها لأموات..

-المكان مهجور منذ سنوات.

همست بخفوت ليرد بغلظة:

-بعد ساعة واحدة ستصل شركة تنظيف، وكل شيء سيكون على مايرام.
تبادلت النظرات مع سيف وبلعت تعليقها وانتظرت..
وبالفعل، بعد اقل من ساعة كانت شركة التنظيف قد بدأت عملها وانزوى الثلاثة في ركن قصي يراقبون بصمت، سيف عينه على حركات العمال بانتقاد كعجوز هرم.. جساس عيناه شاردتان، فالتعب كان ينخر عظامه وينهك أنفاسه، أما صوان فكانت عينيها عليه هو.. كأي عاشقة.
-أنت متعب، تعال لترتاح.
همست وهي تميل عليه بعاطفة شديدة تهدجت عبر كل حرف من حروفها، ليستقبلها ببرود وانزعاج ظهر في عينيه وهو يقول بإرهاق:
-أريد دوائي، أحضريه لي.
ابتلعت ريقها وعادت تهمس له:
-لقد انتهوا من تنظيف غرفة النوم، تعال لتنال قسطاً من الراحة، سيف سنظر في أمرهم.
زفر بضيق ولكنه لم يعترض، وقاد كرسيه بنفسه الى غرفة النوم التي كانت لوالديه قبلاً.. واسعة

بشرفة هائلة تطل على الجرف الصخري ذو الامواج العالية.
الأثاث القديم كله تم نقله وأخر جديد تم تركيبه بأمر منه شخصياً في الساعات القليلة الماضية..
-هل تريد استخدام الحمام؟
تسائلت بصوت أرادته طبيعياً ولكنه خرج رغماً عنها مهزوزاً، لينظر لها بإمعان ثم يهمس بتعب:
-ليس الأن، أريد دوائي، وأريد النوم.
اومأت له بارتباك.. راقبته بطرف عينيها كيف قاد كرسيه الى جوار الفراش، ثم استخدم الرافعة الموجودة مسبقاً لاستخدام أبيه ورفع نفسه الى الفراش المنخفض نسبياً، يجلس على طرفه ويسند جذعه للوسائد خلفه، كانت تخرج دواءه حين سمعته يأمرها بخشونة:
-ارفعي لي ساقي.
هبت اليه وساعدته ليرفع ساقه المكسورة والمثبتة بالصفائح، وتأكدت أن الضماد يخلو من الدم قبل أن تساعده برفع الأخرى..
لم تنل منه سوى نظرة مظلمة وهي تناوله الدواء وكوباً من الماء.

تناوله بصمت ثم أسند رأسه للخلف وأغلق عينيه..
راقبته للحظات ثم همت بالنهوض من مكانها الى جواره ليمنعها بهمسة قاسية:
-لاتخرجي، ابقي هنا.
وقفت مكانها، مترددة وهي تحار في أمره ليفسر لها بخشونة:
-لا أريدك أن تتبختري أمام كل اولئك الرجال صوان، وكأن لازوج لكِ ليحكم تصرفاتك.
اتسعت عينيها بصدمة وهي تطالعه، وكلماته تطعنها في الصميم:
-أنا؟!! أتبختر؟
هتفت بذهول ليفتح عيناً ويرمقها ببرود هامساً:
-لا اريدك أن تقفي مع العمال، سيف بالخارج وهو يكفي، ستبقين هنا.. وهذا كل مالدي لقوله.
عادت تجلس على طرف الفراش بصدمة وعينيها لاتفارقان ملامح وجهه التي استكانت وبدأت تستجيب لمفعول الدواء،وهي تفكر بأن الأيام القادمة ستكون أسوأ ماقد حدث لها في حياتها وليس أمامها سوى الإذعان.

***

الاحساس بالبرد.. شعور مختلف في كل مراحله فالقشعريرة والتنمل من ثم الارتجاف واصطكاك الاسنان وأخيراً عدم الشعور بماهو جزء منك..
مراحل شعرتها نيران وهي واقفة تتأمل الثلوج المترامية على مدى البصر، انها روسيا موطن الجليد.
-هل أعجبتك حديقتي المتجمدة؟
أخذت نفساً عميقاً والتفتت بجسدها كله لتواجه الرجل الذي يملك كل شيء ولايختلف في مظهره وداخله عماحوله من صقيع..
-لا سليم، لم تعجبني الحديقة ولم تعجبني سيبيريا الذي تعيش فيها.
ارتفع حاجبه الأشقر وقهقه بمرح غريب عنه بينما يقترب منها ليناولها كأساً بلورية بها شراب قوي:
-سيبيرا تبعد عن هنا ألاف الكيلومترات عزيزتي، ماهذا الصقيع سوى ربيع متأخر، نسبة الى ماتحويه سيبيرا.

أخذت الكأس وتلاعبت به بين أصابعها الطويلة وهي تتسائل:
-هل ستأتي جُمّار الى حفل رأس السنة؟
-لا اظن، كما تعرفين هي تكره الثلوج، سوف تقضيه كعادتها في احد المنتجعات الاستوائية.
اومأت بتفهم، ثم جلست باستقامة تعقد ساقيها بأناقة وهي تقول له بحذر:
-أحتاجك في مسالة ضرورية سليم، تتعلق بشاهر.
شرب سليم من كأسه ببطئ ثم راقب السائل البرونزي الرائق بإمعان وهو يسألها:
-ماذا عن شريكي العتيد نيران؟بما أغضبكِ؟
-هو يخطط .. كل بل هو يقوم على تدمير كل شيء بنيناه في روما، انه يفسد علاقتنا ب ركان الباشا لأجل الايقاع بزوجته.
عقد سليم حاجبيه واعطاها انتباهه الكلي لتبدأ نيران بسرد وقائع كل ماخطط له شاهر للحصول على الشركة الايطالية بمساعدة ركان، وكيف انتهى بالتآمر ضد ركان مع تلك المرأة التي اختفت بعدها وكأنها لم تكن..

-وأنت مهتمة بهذا الركان لأي سبب؟
تسائل سليم بحذر ليشحب وجه نيران وتتلعثم:
-أنا.. أنا لا أقف معه لأي غرض سليم، الأمر.. الأمر أن شاهر يحطم عائلة برمتها، زوجة ركان تعشقه وهو يحبها بجنون، وهي تنتظر طفله.
هتفت بيأس ليبتسم سليم بمكر:
-فقط؟!
تراجعت بانزعاج:
-ماذا تعني؟
-ما أعنيه هو أن كل ماقلتيه لايهمني بأي حال من الاحوال، وماهمني بعلاقات شريكي غير الشرعية، اننا في مجتمع متفتح، وكل انسان هو حر فيما يفعله ياجميلتي.
ابتلعت نيران ريقها وهمست:
-شاهر سيقضي على ركان وهذا بامكانه أن يفسد عملنا سليم.
-ومالداعي لأن يفسد، الرجل سنحضر غيره.. دعي شاهر يستمتع.
هتف سليم ضاحكاً وهو يشوح بيده، ليثير غضبها وحنقها فتهب واقفة وهي تصرخ بحنق:

-ان ركان هو ابن تاليا..
اختفت الضحكة واللامبالاة التي شقت حلقه واتسعت عيناه بذهول قبل أن تتحول نظرة الذهول الى عدم تصديق ثم استنكار كامل..
-هل جننتِ؟ مالذي تقولينه؟
ابتلعت نيران ريقها ومسدت جبينها بألم ثم همست:
-لم يكن من المفروض أن تعرف، لم يكن من المفروض أن يعرف أحد.
نهض سليم من مكانه واقترب من نيران مهدداً وعيناه تقدحان شرراً:
-تكلمي يا امرأة.
رفعت له عينين مذعورتين وهمست بتوتر:
-لقد عرفنا بالصدفة، لم يتوقع أحد، وكيف لنا أن نعرف؟؟
قبضت أصابعه حول رسغها بقسوة شديدة جعلتها تشهق بألم وهو يصرخ وقد فقد بروده لأول مرة في حياته:
-تكلمي، أريد معرفة كل شيء الأن.

ابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت تخليص يدها منه دون فائدة ثم تنهدت وهي تهز رأسها باستسلام:
-لقد عرفنا بالأمر من قبيل الصدفة لاشيء أكثر، في البداية كان مجرد شك، ولكن محاولات والدته الحثيثة لضمه للعائلة بحجة انه ابن عمي المرحوم كانت مزعجة، وأنت تعرف شاهر حين ينزعج من شيء، لقد كلف كل التحريين لينبشو ماضيه وكل مايتعلق به.
-وماذا عرفتم؟
دمدم بخشونة لتجيب بتوتر:
-الرجل ليس ابن عمنا بالطبع، هو لايمت لنا بصلة الدم، لقد وجده عمي ملقى أمام مسجد في أحد أحياء أنقرة الفقيرة جداً، هو أراد الطفل ونسبه اليه... كان يظن أن لا أحد سيعرف ولكن.. الصغير تعرض لعدوى شديدة وهو في الخامسة من عمره واضطروا لنقل الدماء له، لم يتناسب دمه مع أياً من والديه، وقُيد هذا في السجلات الرسمية للمستشفى..
-أهكذا عرفتم أنه ليس ابن عمك؟
-نعم..

همست بشحوب.. ثم جلست على مقعد قريب بعد أن أفلتها سليم وهمست بتوتر:
-لقد رأيته في أحد الأيام، كنت عائدة للتو من هنا..ملامحه ظلت مرسومة في خيالي، وكأنها مطبوعة في اعماق مخي، ظللت أقول لشاهر انني رأيته من قبل، يجب علي أن أكون قد رأيته..
ثم رفعت عينيها اليه وهمست:
-ثم تذكرت الصورة التي تضعها تاليا اعلى سريرها.. زوجها المرحوم.
-ماذا تعنين؟
-ركان نسخة عنه في كل شيء.. عمك مراد.. هو يشبهه بكل تفاصيله..
هتفت بحنق ثم تنهدت واسندت رأسها لكفيها المضمومتين:
-أخبرت شاهر وهو لم يضيع وقته، لا اعرف كيف تأكد من الأمر وقام بفحص الحمض النووي لركان ومطابقته مع حمض تاليا..
-كيف استطاع الحصول على حمض تاليا؟؟

تسائل سليم بصدمة لتنظر له نيران بخشية ثم همست:
-التجربة العلاجية.. في نيويورك..
قالتها واغمضت عينيها بقوة وهي ترى كيف استشاط وجهه غضباً وتغيرت ملامحه الشقراء لتصبح في حمرة حمم متفجرة، ظنته لوهلة سينقض عليها ويحطم رأسها وربما أسوأ.. ولكنه لم يصل اليها.. فتحت عينيها بذعر لترى مصطفى يقبض على كتفيه من الخلف ويمنعه عنها وهو يصرخ به بجنون:
-هل جننت سليم مالذي تفعله؟
تراجعت نيران وركضت الى زاوية الغرفة بينما سليم يحاول التخلص من قبضة أخيه وهو يصرخ:
-سأقتله.. سأقتل ذلك اللعين، سأحطم شاهر وأجعله يزحف على ركبتيه..
نظر مصطفى لنيران باستنكار بينما يحاول السيطرة على غضب سليم الذي يراه للمرة الأولى منذ سنوات.. وحاول دفعه ليجلسه رغماً عنه مبعداً اياه عن طريق نيران التي كانت

ترتجف كورقة،، ثم وقف بينهما ورفع ذراعيه أمام أخيه وهو يطالبه بالهدوء:
-تمالك أعصابك سليم، فكر جيداً قبل أن تتهور مالذي تفعله أخي؟
شوح سليم بيده نحو نيران وصرخ بعنف:
-عائلة الباشا ستدفع الثمن، ستدفع ثمن كل لحظة عاشتها تاليا بألم ومرارة، لاأصدق.. كل تلك السنوات.. يالهي.. يالهي..
نظر مصطفى نحو نيران التي تهالكت على الارض ثم عاد لسليم الذي كان يرغي ويزبد كحيوان مفترس..
ثم حسم قراره واتجه نحو نيران وانحنى ليجلس جوارها وهو يضع ذراعه حولها بحماية قائلاً بحنق:
-مالذي فعلته به يامجنونة؟
نظرت له بعينين زائغتين وهي تشعر بأن خطتها كلها تنقلب عليها ولكن مصطفى لم يترك لها المجال وسرعان ماكان يرفعها على ساقيها ويدفعها للخارج وهو يهمس:

-اذهبي الى غرفتك، سألحق بك حالما أطفئ لهيب جبل الثلج الذي أشعلته نيران.
-أنا اسفة..
همهمت بأسى ولكنه دفعها للخارج وعاد الى أخيه..
نيران صعدت درجات السلم الى غرفتها ركضاً..
كانت ترتجف، كلها تنتفض من ردة فعل سليم، كانت تعرف أنه سيغضب، فلا أحد يحب تاليا كما يفعل سليم، ولذا كانت واثقة أنه ما ان يعرف بعلاقة ركان بها سيقلب الدنيا رأساً على عقب ليستعيد له حقه..
***
كان المساء قد اقترب حين استيقظت من نومها، نهضت بصعوبة وجسدها كله يؤلمها، وكأنها كانت في معركة مع خصم يفوقها مقدرة بمراحل.. لقد غفت في السيارة، بعد تلك اللحظات الناعمة مع أوس..
تحسست شفتيها بذهول.. لقد قبلها ولكن، قبلته لم تكن تشبه سابقتها، قبلته هذه المرة كانت شيء

أخر مست شغاف قلبها بنعومة وفتحته على مصراعيه وتمرغت بداخله دون مقاومة.
تأملت محيطها.. غرفتها في شقته، لقد خلع عنها حجابها ومعطفها وحذائها وتركها تنام!
كانت مجهدة للغاية..
نهضت وبدأت بحثها عنه..
حالماخرجت من الغرفة وجدته يقف امام طاولة الطعام، وقفت متسمرة تنظر اليه عينيها تتسعان ببراءة وهي تتنقل عبر ملامحه والخطوط العريضة لجسده..
أوس كان يقف ببدلة الطيران وان خلع عنه سترته وربطة عنقه وقد التصق قميصه الابيض بجذعه، وعليه كان يرتدي مريول مطبخ أخضر!!
-استيقظتي في الوقت المناسب..
قال بابتسامة عريضة، واقترب منها.. رفعت اليه عينيها مبهورة ورائحة شهية تنتشر حولها..
-أنت طهوت؟
-ليست المرة الأولى..

همس ويده تمتد لتلامس شعرها الذي تكوم فوق رأسها بعفوية، واضاف:
-لقد طهوت من قبل ألاتذكرين؟
اومأت باضطراب.. راقبته يخلع مريوله ويشير لها ان تتقدمه.. ولكنها تراجعت بحرج وهمست:
-سأغير ملابسي..
رفع حاجبه باستغراب ونظر لماترتديه.. السروال الرياضي الضيق والقميص القطنية الطويلة الخالية من الملامح، فابتسم.. وتراجع قائلاً:
-سأنتظرك.
اومأت بتعجل ثم تراجعت الى داخل الغرفة واغلقت الباب خلفها..
رباااه ماذا قالت؟؟
ستغير ثيابها؟؟
اتسعت عينيها بذعر.. ولم ستفعل؟؟ ولم لا؟!!
فكرت بحنق.. انها امرأة..
اقتربت لتنظر في المرآة.. وجهها شاحب وشعرها مشعث..
ملابسها اقل مايقال عنها مزرية..
احمرت وجنتيها.. ثم ركضت الى الحمام..

كان اغتسالاً سريعاً ثم كانت تقف امام المرآة بمنشفة قصيرة.. تمشط شعرها الطويل وتتركه ليتساقط على كتف واحدة بعد أن ظفرته بسرعة وثبتته برباط مطاطي.. ثم وضعت القليل من احمر الشفاة بلون العناب ومضت الى خزانتها تبحث عماترتدي.. وفكرة مجنونة تتلاعب بها..

...

نظر أوس لساعته بحنق، لم وافق ان تغير ثيابها، كم من المرات لن يفهم ألا يعطي المرأة أي وقت لتجهز نفسها فلا وقت يكفيهن، ألم يتعلم من كل صديقاته؟! من سارة وحتى صوان؟

ثم نظر لأطباق الطعام الشهي الذي صنعها بيده، صدر الدجاج الرومي المحشو بالخضار وشوربة الدجاج بالكريم والفطر، أما الحلو.. فكان مفاجأة لها بالذات..

-ألايزال ساخناً؟

تسائلت بخفوت من خلفه.. وجعلته يستدير لها بكامل جسده ثم يتوقف ليتأملها بمشاعر عاصفة.. كانت مختلفة..

وجهها مشرق، عينيها متألقتين، الحمرة على شفتيها بلون داكن.. ثم سلاسل شعرها تتشابك في عقدة على كتفها، وترتدي ثوباً قصيراً بلون يقارب البياض، ياقته مرتفعة مغلقة ومطرزة باللؤلؤ، ثم ينسدل على بنيتها الناعمة مبرزاً أنوثتها ونحافة خصرها محيطاً اياه بربطة سوداء قبل ان ينزل لأعلى ركبتيها بقليل كاشفاً عن ساقيها ومن ثم قدميها الملفوفتين بحذاء مخملي ذو كعب طويل مدبب..

-ألايعجبك؟

همست بخشية.. وقلبها يخفق مدوياً.. ليقترب منها ويده تفتح أول أزرار ثوبها ليحرر قبته من تزمتها ثم شعرها فيزيح ربطته المطاطية ويفك تشابك خصلاته ليتناثر على كتفيها العاريتين بنعومة ثم أمسك ذقنها بين أصبعيه ورفع وجهها اليه وهو ينظر لشفتيها المطليتين باتقان وهمس بنعومة:

-لا أحب هذا اللون..

وقبل ان تفكر برد فعل كان يهاجم شفتيها بفمه، يغرقها في عاطفته بقوة واختصار ثم يبتعد لاهثاً

ويتذوق الحمرة عن فمه برأس لسانه.. وهو يتأمل كيف اختفى اللون عن شفتيها ولم يظهر سوى أثره عليها وحولها.. ابتسم.. وألتقط منديلاً ورقياً ثم نظف وجهها برقة وهو يهمس باثارة:

-ولكنني لاأمانع أن تضعيه كل يوم، وفي كل ساعة.. لأزيله عنكِ بطريقتي ياقصيرتي.

-لست قصيرة..

اعترضت مرتجفة ليضحك بمرح.. ثم يسحبها من ذراعها ويضعها على كرسي حول المائدة، ويميل عليها حتى لامست أنفاسه عنقها وهو يهمس:

-أنت قصيـرتي.. مهما كان طول الكعب الذي ترتدينه.

احمرت وجنتيها وهو يبتعد ليجلس جوارها راقبته بعينين مشعتين وهو يملأ لها طبقاً بما حضره لها ثم أمرها:

-كُلي..

ابتلعت ريقها بصعوبة، ونظرت للطعام لتكتشف أنها جائعة جداً، هي لم تأكل منذ الصباح!

بدأت بتنازل اللحم الأبيض اللذيذ والخضار المطهوة ببراعة تتلذذ بكل لقمة تأكلها..
وهو فقط كان يراقبها، يستند بذقنه على قبضته المضمومة ويطيل النظر في كل تفاصيلها، كيف تستخدم شوكتها في تقطيع الدجاج، كيف تتلذذ بكل قطعة وتغمض عينيها كيف التقطتت شفتيها دهن الطعام وباتت تلمع شهية للأكل، كيف يرتفع صدرها ويهبط مع كل نفس، وكيف..
-ألن تأكل؟
انتفض وهو ينظر نحوها..
كانت تسأله بحيرة.. ليبتسم بعمق ويرد:
-لقد شبعت.
-أنت لم تأكل شيئاً..
اعترضت بحنق ليضحك بخشونة ويميل تجاهها لينظر في عمق عينيها:
-رؤيتك.. تكفي.
انتشر اللون الأحمر على وجهها وعنقها ومقدمة صدرها ليتنهد بعمق ثم يسقط رأسه ليلامس عنقها بشفتيه هامساً بثقل:

-أنت.. تُشعرينني بالشبع ترنيم، وبالجوع أكثر..!!
اغمضت عينيها وهي تفلت شوكتها بينما تتنقل شفتاه بنعومة على خطوط عنقها نزولاً حتى مقدمة صدرها لتشهق وهي تبتعد مذعورة..
فتح عينيه المثقلتين برغبته في ضمها اليه، الحصول عليها كما لم يفعل مع سواها، للمرة الاولى يشعر بشوق نحو امرأة يتعدى الجنون..
رأى الخوف يسكن مقلتيها وتذكر ماقاله أبيها وتراجع.. يكتم غيظه واحباطه..
يكتم غضبه العنيف فقط كي لايخيفها..
-سأحضر الحلوى..
نهض مغمغاً واندفع للمطبخ..
استند على طاولته بقوة.. اصابعه تكاد تحفر الخشب المصقول بينما قد اغلق عينيه ليسيطر على غضبه الهادر.. رباااه مامقدار الألم الذي يشعر به لأجلها، ولأجله..
فتح عينيه وهو يتنفس بقوة..سيسيطر على مشاعره.. هو لن يؤذيها، لن يتسبب بايذاءها..

زفر مشاعره الغاضبة بصعوبة ثم أخرج حلواه من الثلاجة وعاد اليها..
رسم ابتسامة عريضة على وجهه واقترب منها وهو يصيح:
-أنت لن تصدقي طعمها..
وضع الطبق الفخاري أمامها ورأت ترنيم الشوكولاتة الداكنة تتراقص أمامها فهمست:
-أنا لاأحب الشكولاتة..
ابتسم بثقة وجذبها من مقعدها لتنهض، جلس على مقعده وبكل سهولة أجلسها على ركبتيه متجاهلاً اعتراضها:
-ستحبينها.. ثقي بي..
-ماذا تفعل؟
همست بتوتر ليضحك ويحيط خصرها بذراعه وبالأخرى التقط ملعقة وبدأ يهشم القشرة الهشة التي تغطي قالب سوفليه الشوكولاته الذي يعشقه وهمس في أذنها:
-هكذا تؤكل..
نظرت اليه بذهول ليبتسم ويرفع الملعقة التي يقطر منها السائل الغني الكثيف وهمس باثارة:

-افتحي فمك..
فعلت ماطلبه دون اعتراض، انفرجت شفتاها والتقطت الملعقة وماتحتويه ليغمرها احساس مثير بأنها تغرق، قوام امتزج بين الكثافة والخفة، طعم مُر اخترقته الحلاوة..
ساخن.. بقشرة مثلجة.. هش مقرمش كالبسكويت وبطراوة القشدة .
-أعجبكِ؟
سألها بصوت مبحوح لتهز كتفيها باستغراب.. لاتعرف هل أعجبها أم صعقها.. لاتزال تتذوق بواقيه في فمها حين دفع بملعقة أخرى استقبلتها طائعة.. وبعدها كانت شفتاه..
تصلبت بذهول وهو يجتاح فمها برقة..
ليمتزج مذاق الشوكولاتة الغنية بمذاقه هو..
اغلقت عينيها وهي تكتشف أنها لذيذة.. حارة .. لاذعة..
ذراعيها تسلقتا كتفيه بينما يبتعد ليسألها بأنفاس متقطعة:
-والأن؟!

رفت اليه بعينيها شاردة.. ضائعة عينيها تلمعان شاحبة وبقايا الحلوى على شفتيها.. وفمه..

-أريد المزيد..

همست لينظر لها بذهول..

كان ينتظر منها أن تهرب.. ترفضه أو تبتعد بأي طريقة ولكن هذا؟!

-مما؟! مماتريدين المزيد ترنيم؟

رفت عينيها من جديد.. نظرت للحلوى ثم نظرت اليه.. وهمست:

-من الحلوى..

تعلقت عينيه بشفتيها لتهمس بعد تردد قصير:

-ومنك أنت..

اتسعت عيناه وراقب شحوب وجهها ينجلي ليتلون بحمرة قانية ولكنه لم يمهلها لتتراجع وقبل أن تدرك كانت الملعقة تغيب في فمه هو .. ثم يغرقه في شفتيها.. بنعومة ..

لم تعرف الى متى كانت ترتشف من قبلاته بلا توقف، يغرقها في دوامة من السعادة الخالصة.. امتزجت الأنفاس بطعم الشوكولاته الحاذقة..

لتضيف الى حلاوتها شيء خيالي لم تذقه من قبل..

-انتهت الحلوى..

همس أوس بمكر.. وهو يرفع الملعقة الفارغة بينهما لتبتسم ترنيم بخجل وتحيط بأصابعه حولها وهي تسأل بخيبة:

-ألايوجد المزيد؟؟

رفع حاجبه بخبث:

-ظننتك لاتحبين الحلوى؟

تسارعت أنفاسها واشتد احمرار وجهها وهي تجيب بخفر:

-لم.. لم أكن أعرف كيفية أكلها.. ولكن الأن..

عقد حاجبيه وهو ينتظر لتكمل..

-الأن.. الأمر اختلف..الشوكولاتة لاتؤكل الا مع شريك..

همست بخفوت مبتسمة ليكشر في وجهها ويهتف بغلظة:

-شريك؟؟!!

رفعت عينيها اليه.. تتأمله بافتتان ظهر واضحاً كما لم يحدث من قبل.

افلتت يده.. ومضت تلامس ملامح وجهه الوسيمة..
أنفه المستقيم، ذقنه العريضة الحليقة، وجنتيه القاسيتين، ثم لامست شفتيه.. وقبل أن تتراجع كان يحيط أصابعها بكفيه و يعض طرف اصبعها برفق جعلها تضحك بخجل وهي تهز رأسها هامسة:
-معك أنت فقط..
رفع حاجبه بغرور وقبل قبضتها بنعومة:
-هذا أفضل، فأنت لي ترنيم، ملكي وحدي.
خفضت عينيها.. فابتلع ريقه بصعوبة ثم اقترب منها .. قبضتيه أحاطتا بخصرها بقوة.. يثبتها مكانها على ركبتيه..
-أنا أريــدك ترنيم.
تنفست بصعوبة.. ذراعيها امتدتا لتمنع اقترابه اكثر، لتصبح نبرته أكثر خشونة، وهو يلامس طرف فمها بأنفه:
-أريدك بجنون، أريد أن أتمم زواجنا ياجميلتي، أريدك لي، الأن وفي التو.
-لا..

تمنعت بخوف.. وحاولت النهوض عنه ولكنه لم يسمح لها ، كانت بين يديه..
اقرب مايكون منه، وهو كان يحبها، يرغبها كما لم يسبق أن أحب أو رغب بأي امرأة سواها.
-بلى ترنيمتي.. لاتهربي مني.
همس بقوة وهو يسيطر على جسدها، يمنعها من التحرك، اكتست قبضته بالخشونة وأصبحت ذراعيه حولها قاسية، وفمه يمتلك فمها بقوة ..
صرخت بألم ولم يتوقف.. لم يهتم لارتجافتها بين يديه ولاتخبطها الواضح للافلات منه، بل رفعها بسهولة ليضعها على طاولة الطعام بعد أن رمى بما عليها بذراعه، ثم اقترب ليحضنها بين ذراعيه، تنتقل قبلاته بوحشية وقد فقد سيطرته على مشاعره لتصبح مجردة من التعاطف والرقة، وتسيطر رغبته على تفكيره..
انتفضت ترنيم بألم وهي تفلت من أسر شفتيه بشفاه دامية تصرخ بعذاب بينما تجتاحها كفيه، فتشق ثوبها وتعريها للمساته اللحوحة، كانت تشعر به، بقوته ورغبته العاصفة، وعادت لها ذكرى لمسات مشابهة..

قذرة.. وحشية..
انتفضت بعنف واغلقت عينيها وتوسلته بصوت يحمل من الأنين مايحمله من اليأس:
-ارجووك.. ارجووك اتركني..
لاتؤذني.. ارجووك لاتؤذني..
أنفاسه هادرة..
مشاعره تطغى على كل تفكير عقلاني يحمله..
حاول أوس السيطرة..
اخترقته كلماتها المتوسلة..
أنينها المذعور واليائس، ارتجافتها بين ذراعيه..
برودة جسدها شبه العاري الذي يضمه بذراعيه وساقيه..
شهق باستنكار وهو ينتزع نفسه من عليها..
عيناه تتسعان بذهول..
كانت ملقاة على الطاولة، منتهكة الجسد ترتجف بينما ينتشر حولها شعرها لاتقدر حتى على ستر نفسها.
هو.. هو بالذات من أقسم على حمايتها كان لتوه سوف يحطمها من جديد؟!!
اندفع نحوها..

حملها بين يديه وهو يلملم بقايا الثوب الجميل الذي مزقه بيديه، حين كان يسيطر عليه شيطانه، واندفع بها الى غرفته، وضعها على فراشه ..

-ترنيم.. ترنيم انظري الي.

هتف بها بتوتر..

ولكنها كانت ترتجف كورقة، في مهب ريح عاصفة..

تهذي بكلمات لايدرك ماتعني وان كانت متوسلة وراجية.. تنتفض بشرتها التي توردت له قبلاً أصبحت شاحبة كشحوب الموتى..

شتم بحنق ونهض عنها..

أحضر لها كنزة صوفية من ملابسه، نزع عنها بقايا الثوب وألبسها كنزته بسرعة..

ثم رفعها وأجلسها في حضنه وضمها اليه بقوة.. محيطاً جسدها بذراعيه بحزم خالٍ من اي مشاعر سوى الرغبة بالحماية،،

-انا اسف ياحبيبتي..

همس بصوت متهدج.. غصة مريرة تحتكم صوته اغمض عينيه بقوة وهو لايصدق اللسعة الحارقة التي يشعر بها خلفهما..

-أرجوكِ ترنيم سامحيني.. أنا أسف أسف.
هتف بانتفاضة وهو يزرعها بين ضلوعه.. لقد أخطأ.. دمر كل تقدم أحرزه بتهوره وقسوته..
الأمان الذي شعرت به بين ذراعيه حوله الى ذكرى بغيظة قذرة..
-أنا أحبـك ترنيم..
همس بأسى.. ليشعر بها بعدها تسترخي..
انتفاضتها تتوقف وجسدها يميل ليقترب منه، يتكور بين ذراعيه..
وهمساتها غير المفهومة أصبحت تحمل حروف اسمه..
-لاتتركني..
همست بصوت متعثر..
وسط دموعها الغزيرة نادته بلوعة:
-لاتتركني اووسي.. اووس..
اغرق وجهه في دموعها وهو يمسحها بقبلاته الرقيقة هاتفاً بيأس:
-لن أتركِكِ، لاتخافي ياجميلتي.. انا لن أتركِكِ..

قالها واغرقها في عناق لطيف تقبلته بحرارة وذراعيها تلتفان حول عنقه وتقربانه منها أكثر وكأنها تريده أن يتسلل تحت جلدها..
كانت يائسة.. وتعيسة..
وكان هو ملاذها، كعادتها دفعت بقسوته خلف جدار ذكرياتها القاتم، ولم تعد تدرك سوى لحظاتهما الحميمة قبل أن يجن جنونه، واستكانت الى ذراعيه.. تنشد الحماية التي وعدها به.
وتركته يتخبط في ذهول. وعدم فهم لهذه المرأة التي بين يديه..
تريد وتخشاه..
تثيره ولاتتحمل لمساته..
الى متى سيصبر وكيف للصبر سبيل؟
***
فتحت عينيها على صوت نقرات ناعمة على الباب، أمرت الطارق بالدخول وهي تعرف أنها، مريم مربيتها ومرافقة أمها الدائمة.
وفعلاً دخلت المرأة الطويلة عريضة القامة.. وهي تحمل باقة ضخمة من أزهار القرنفل

الوردية والبيضاء لتعتدل سارة شاهقة لجمالها وهي تهتف بانفعال:
-اوه يالهي هل هي لي؟
-اها صغيرتي انها لكِ انظري ما أجملها.
اتسعت عينيها بذهول وهي تفتح ذراعيها لتستقبل الباقة، وتغرق وجهها في بتلاتها ذات الرائحة المخملية الناعمة وهي تهمس:
-كيف جئتِ بها؟ في هذا الوقت؟؟
تسائلت باستغراب لتهز العجوز كتفيها وتقول بخبث:
-ليست مني مدام، لابد أنها طريقة ركان باشا للصلح.. وأنا واثقة أنه لن يتوقف عن ارسالها حتى تتوقفين عن البكاء في الليل ياطفلتي.
تجهم وجه سارة وتراجعت عن الورود وهي تنظر لهم بتوجس.. هل هي منه؟؟ مستحيل.. فركان لايعرف مكانها.. ابتلعت ريقها بصعوبة وبحثت سيقان الورود عن بطاقة المرسل لتجدها محشورة مثبتة بشرائط حريرية ناعمة.. فتحتها بأصابع ترتجف ثم تراجعت بوجه شاحب وهي ترى التوقيع الوحيد الموجود.. دون اية كلمات

اضافية وكأنما ماتعبر عنه الورود كافٍ ولايحتاج لكلمات.

تراجعت وهي تحتضن ركبتيها بذراعيها وتهمس لمربيتها بشرود:

-اتركيني قليلاً نانا.

-هل ستفكرين بنيتي؟ لاتدعي الشيطان يخرب مابينك وبين زوجك ياصغيرتي.

غصة استحكمت حلقها وفكرت أنا نانا لاتدرك مافعله ذلك الوغد الذي بمجرد ذكر اسمه يمتغص بطنها وتتسبب لها بالألم؟!!

تنهدت و اغمضت عينيها، شاهر يحاول جهده ان يستميلها لجانبه، محاولاته الحثيثة مزعجة، ولكنه مصر ويجب عليها أن تضع له حداً فهي لم تعد تحتمل كل هذا الضغط.

استلقت على ظهرها وضمت كفيها اسفل بطنها وضغطت برفق.. كل مايهمها حالياً هو طفلها، ابتسمت بحزن.. طفلها الصغير الذي لم تظهر من معالمه سوى تكور طفيف لبطنها لم يلاحظه أحد سواها، والده كان ليلاحظ، فكرت بمرارة..

دفنت وجهها في الوسادة وهي تغلق عينيها بقوة محاولة منع دموعها من الانهمار، كانت أخر ليلة معه قبل أن تسافر وتبتعد عنه..

كانت بين ذراعيه تلتقط الأنفاس التي بعثرتها قوة غرامهما المشتعل، تسللت كفه لتلامس أسفل بطنها بحميمية جعلتها تذوب واحساسها يتضاعف بلمسته وهو يهمس في أذنها بصوت أجش:

-كيف تشعرين بطفلنا مزروعاً بداخلك؟

-ماذا تعني؟

همست بضياع لينقلب على جنبه ويواجهها، كفه تستريح على بطنها والأخر يداعب شفتيها المنتفختين بأثر قبلاته العنيفة ليجيب متسائلاً برقة:

-هل يؤلمك؟ أتشعرين به كشيء ما بالداخل لاأعلم..

ضحكت بمرح واقتربت تحيط وجنته الخشنة بكفيها وهي تقهقه:

-كم أنت أحمق؟ ماذا تظنه بالضبط؟! اراهن أن حجمه لايتعدى حبة الفول الصغيرة.

اتسعت عيناه الزرقاوتان بشقاوة وهو يحيطها بذراعيه كلياً ويقربها ليضغط جسدها الى جسده بإحكام:

-وما أدراني أنا ياسلطانة؟ لم أكن أباً، ولم تكن لي هذه الزوجة الفاتنة أبداً من قبل.

-امم أنت تحاول الايقاع بي..

دمدمت بدلال.. وهي تلامس شعيرات صدره الشقراء المجعدة بأناملها، بينما تتنقل شفتيها برقة ونعومة على خط ترقوته مبتسمة لصوت انفاسه المتسارعة، وذراعيه اللتين اشتدتا حولها بينما ينادي اسمها بخشونة ويعاود امتلاكها برعونة متجاهلاً اعتراضها الضاحك..

لترافق الذكرى دموعها الغزيرة وهي تلكم وسادتها بحزن وقهر امتزج بالكبرياء، والشعور بالاستنكار للاستجابة الفطرية التي صرخ بها جسدها لذكرى لحظاتها الحميمة مع زوجها الذي تعشقه..

لا لا..

صرخت بمرارة وهي تستقيم واقفة، رمت بالورد على الأرض وصرخت بوجع وهي تلعن كل فرد

من عائلة الباشا، لقد خدعها ركان كما لم يفعل أحد من قبل. حطم قلبها وخانها.. هو لم يترك طريقة الا وأذلها بها استولى على عملها .. فضل عليها امرأة أخرى .. وكذب عليها بكل وقاحة ..
شهقت بمرارة وحقد .. واندفعت الى الحمام تغرق بؤسها تحت شلال من المياه الساخنة.
جلست بداخل الحوض البيضاوي تضم ساقيها اليها، المياه تغمرها وتغرق شعرها لينسدل كستارة بنية كثيفة امام عينيها الغارقتين بالدموع والأسى.
كان الحقد والكره يتصاعد بداخلها، أفكارها السوداء تسيطر على حزنها وتلجمه، تنسج الخطط وتؤلف سيناريوهات عديدة لم هو قادم، ومايمكن أن تفعل كي تشفِ غل قلبها وتربط عليه.
وفكرة مجنونة سادية، تظهر لها وترتسم أمامها كلوحة واضحة المعالم.انتصبت في جلوسها وعينيها تلمعان بجنون والخطة التي تتبلور في ذهنها تتخذ شكلاً وهيئة واضحة المعالم، وابتسامة أكثر جنوناً تتلاعب بشفتيها وتخفي

عنهم بؤسها، انتهت من الحمام، وعادت لغرفتها وارتدت ثوباً قطنياً ناعماً واسع التنورة يخفي حملها، بكمين من الحرير وفتحة عنق واسعة أظهرت تورد بشرتها، وطول عنقها ونعومته، رفعت شعرها اعلى رأسها وثبتته بمشبك صيني، قبل أن تقترب من الورود الملقاة على الأرض وتلتقط احداها ثم تشبكها على جانب شعرها، وتقف لتنظر لنفسها في المرآة.. للحظات وقفت متسمرة وهي تراجع الخطة في ذهنها ثم التقطت نفساً عميقاً.. وضعت قليلاً من مرطب الشفاه وقطرات من عطرها المفضل، لبست حذائها عالي الكعب ومضت للخارج..

لم تهتم بتناول الطعام بل تحركت مباشرة لخارج المنزل، وضعت كنزة الكشمير عليها ومضت نحو المكان الذي تعرف أنها ستجده فيه.. المنحدر الصخري حيث قابلها ذاك اليوم..

وقفت بعيداً تراقبه..

كان هناك يجلس على كعبيه يراقب الموج بالأسفل..

أخذت نفساً عميقاً ووضعت كفها برفق على نبضات قلبها الخافق بجنون، خوفاً أم اثارة.. لاتدري أيهما؟!

تنفست بقوة عدة مرات ثم شدت من استقامة ظهرها واقتربت منه..

رفع رأسه ليستقبل رائحتها القادمة نحوه تحملها الريح، وأغمض عينيه وابتسامة بطيئة ترتسم على شفتيــه.. لقد أتت اليه.. بقدميها، استجابت لرسالته غير المكتوبة وجائته مسرعة على جناح طائر الشوق، كما أمل وكما تمنى، جائته محملة بعبق الورود التي أرسلها اليها.. يستطيع أن يشتم رائحتها تغمرها.

-عرفت أنكِ ستأتين.

همس بثقل ليتوقف تقدمها وترمق ظهره العريض تحت معطفه الجلدي بتركيز.

-أنت أردتني أن آتي.

قررت لتتسع ابتسامته وينهض بخفة متناقضة مع حجمه الضخم ويستدير لينظر لها بعمق، عيناه تحملان تقديراً كبيراً لجمالها المتألق، رغم كل ماحدث.. وجهها كان متوردا بفعل برودة الطقس

عينيها تلمعان وشفتيها.. ابتلع ريقه بصعوبة، فشفتيها تحملان دعوة لايقدر أي بصير على تجاهلها..!!

-لماذ بعثت لي بالورود؟ من أين حصلت عليها من الاساس في هذا الوقت؟

تسائلت بتوتر ليعاود الابتسام:

-أحببتها؟

رفعت يدها تتحسس الوردة التي وضعتها متعمدة ورمشت عينيها بارتباك مدروس:

-لا أحد لايعشق الورود.

انقبضت عضلات قلبه بقسوة رد فعلٍ لنبرتها الناعمة، لتلك الحركة المثيرة لجفنيها، للشعيرات الناعمة التي تفلتت من عقدتها ليتلاعب بها النسيم كيف شاء.. شعر بألم حقيقي كقلب مثخن بالجراح، رؤيتها وكأنها جرح مفتوح قريبة منه ليلمسها ويتذوقها ولكنها في الأصل محرمة عليه، ممنوعة كفاكهة شهية ناضجة.. لاتجوز له أن ينظر اليها حتى.

-أنت لم تجاوبني بعد باشا.. من أين حصلت عليها؟!

عادت تسأله بهدوء ليبتسم بغرور لايعيش بدونه:
-أنا أستطيع الحصور على كل ماأرغب به سلطـــانة.
رفعت رأسها بتحدٍ وهي تعرف أنه سيكمل ولم يخيب ظنها بل قال بخبث:
-وأنت تعرفين بالطبـــع أنني أرغب بكِ.
-ألاتظن نفسك وقحاً بزيادة؟
همست من بين أسنان مطبقة وأنفاسٍ ضحلة متوترة لتتسع ابتسامته أكثر وتتحول الى قهقه ساخرة:
-الوقاحة يُختلط بينها وبين الثقة المطلقة في كثير من الأحيان سلطانة، لست وقحاً ياعزيزتي، أنا فقط أثـق في نفسي وبما يمكن أن أقدمه لكِ.
نظرت له بحذر وتسائلت:
-وماهذا الذي ستقدمه لي؟
التوى فمه .. ورفع ذراعيه فارداً إياهما وخلفه السماء بوسعها، والبحر المتلاطم ليهمس بثقة:
-العـــــالم بأكمله..
ارتجف قلب سارة بين ضلوعها، هي لم تتأثر، لا هي لم تفعل..

بلعت ريقها بصعوبة .. لقد كان هذا الرجل الوسيم القوي ذو النفوذ الهائل يعرض عليها العالم..

ولكن..!!

هي لاتريد العالم.. هي تريد شيئاً واحداً فقط..

-أنا لاأريد ماتعرضه علي.

همست بثبات لتضيق عينيه لوهلة وهو يستعد لاقناعها بأي طريقة ممكنه، ولكن شيء في عمق عينيه جعله يتريث، بل يميل برأسه لجهة واحدة ويسألها بخشونة:

-مالذي تريدينه اذاً سلطانة؟

صمتت لبعض الوقت ثم ابتسمت، ابتسمت بطريقة جعلته يقترب منها تلقائياً، قلبه يخفق برعونة وكأنما يريد اقتناص الابتسامة التي استولت على شفتيها على حين غرة..

-ستعرف..

ثم صمتت للحظة متعمدة وهي تنتزع وردتها وترميها تحت قدميه هامسة بتعالٍ:

-حين تدعوني للعشاء.

اتسعت عيناه بذهول رغماً عنه وراقبها تستدير لتبتعد بخطوات متمهلة، جسدها يتمايل مع النسيم كمنحوتة رومانية ثم انتفض بقوة وهو يتسائل:

-متى؟؟

هزت كتفيها وابتسامة ساخرة تتلاعب على شفتيها وهي تدرك أنها القت الطعم وأنه التقطه بكل سذاجة:

-أنت من سيدعوني.. باشا.

وابتعدت .. تحمل النسيم.. اشعة الشمس..

وبقايا من نبضات قلبه الذي توقف من فرط قسوتها، تنتظره أن يدعوها؟؟ اهذا ماتقوله فعلاً؟؟!!

انحنى والتقط الوردة ثم استقام ليرفع بصره للسماء التي خبت نورها وبدأت الغيوم تسكنها، وسكن النسيم العليل.. وبدأت تتكثف ذرات الهواء معلنة أن العاصفة على وشك الهبوب..

غابت عن عينيه، فالتفت للبحر من خلفه، الأفق أسود، سمع الرعد.. فأغلق عينيه ثم شعر بأول قطرات المطر تنهمر.. بقوة وكأنما تغسل بقايا اللقاء الغريب، رفع الوردة الى أنفه وتنشق

عبيرها الذي امتزج برائحة سيدتها.. تخللها المطر واشتدت أصابعه عليها بقوة، اعتصرها وابتسامة واثقة تحتل وجهه..
لقد وقعت، احساسه لايخطئ..
السلطانة.. وقعت وهو لن يتركها الا مغمورة حتى قمة رأسها.
***
الاحساس بالعجز، والقيد يكبل يديك وقدميك..
استكانة الجسد والروح والعقل.. فقدها كلها..
فتح عينيه ليطالعه السقف العالي والكئيب!!
"صواااااااااااااان"
صرخ بعنف وأنفاسه تنحشر في صدره وثقل يجثم عليه.. يخنقه..
"صواااااااااان"
تحشرج صوته والاختناق يكبل صوته ويمنعه حتى من مغادرة حنجرته..
يداه وقدماه مكبلتين، روحه.. روحه نفسها مقيـــدة..
"صوا..."
-جساااااااس..

فتح عينيه على وسعهما وشهق للهواء وهو يشعر بلمستها على بشرته الغارقة بالعرق لتعود أنفاسه سريعة عميقة تهزه من الأعماق وتعيد الروح لجسده المرهق المتعب..

-جساس هل أنت بخير؟

همست بقلق.. تلامس رأسه كتفيه تتأكد أن ضماداته لاتزال جافة، نظيفة والأهم غير نازفة.

-هل رحلوا؟ أين كنتِ؟ لقد ناديتك مراراً؟

-جساس أنت كنت نائماً..لم تصرخ ولم تنادني ابداً.. لقد رأيتك تنتفض وتدمدم الكثير غير مفهوم ولذا عرفت أنك ترى كابوساً.

كانت تلامس جانب وجهه برقة، جعلته يغمض عينيه بألم ثم يهمس بتوتر:

-هل نحن وحدنا؟

تراجعت بأسى.. تخفي تعاستها برموشها وتهمس بنعم خافتة جعلته يتنهد بارتياح ثم يقول بحدة:

-أحتاج لأن أستحم، أنا أشعر بالحر، وكل هذا العرق.

نهضت وهي تتلفت حولها، لاتعرف كيف من المفترض أن تساعده، ارتبكت وظهر ارتباكها في عينيها وحركة يديها العصبية..

-ماذا تفعلين؟

صرخ بعصبية لتنتفض وهي تنظر اليه بذعر فيهتف بها بقسوة:

-هيا ساعديني لأنهض واحضري الكرسي اللعين.

فعلت ما أمرها بارتباك، أحضرت الكرسي وساعدته لينتقل من السرير اليه ثم راقبته يدفع بالكرسي نحو الحمام الملحق، كان مجهزاً بشكل يتيح له التنقل بحرية، حتى حوض الاستحمام كان به مسند يتسند عليه ليتنقل بسهولة أكبر، ولكنه نظر تجاهها بوجوم وهي التي وقفت على الباب بحرج.

-هل ستبقين هناك لوقت طويل؟

ابتلعت ريقها بصعوبة ليعقد حاجبيه ويدمدم بقسوة:

-لهذا تزوجنا صوان.. لتقومي بخدمتي وانا عاجز.

ضاق صدرها بألم، وتقدمت بشجاعة لاتتردد ثم ركعت أمامه وأخذت كفه بين يديها وهي تنظر بثبات لعينيه:

-أنت لست بعاجز جساس. أنت مصاب.. وستتعافى.. بإذن الله ستتعافى.

كانت الغصة تتحكم بحروفها ويده بين كفيها ارتجفت وشحب وجهه القاسي، لانت عيناه وطرفت جفناه بخفة وهو يتنفس بسرعة..

أخذت نفساً عميقاً ثم امتدت يديها لتفكا ازرار قميصه، وهو ثابت مكانه لايقوم بحركه..

طوت القميص ووضعته جانباً همست له بخفوت:

-سأحضر غطاء ساقيك.

ونهضت لتغيب بضعة دقائق، عادت بغطاء بلاستيكي لفته بحرص حول ساقيه. ثم ابتلعت ريقها وهمست:

-بنطالك؟!

رمقها بتوتر ورأى خلف شجاعة عينيها جرح عميق ارتجف له قلبه، وهو يعي أنها صوان..

عشق روحه المعذبة..

لذا لم يتردد وهو يهمس:

-أنا سأكمل.. شكراً لكِ.
نظرت له بذهول.. ثم اشاحت عنه بارتباك وهو يخلع باقي ملابسه، وحين التفتت أخيراً كان بداخل الحوض الذي قد ملأته بالمياه وسائل الاستحمام.. ثم وحالما أصبح تحت الماء نظر اليها وقال:
-هل ستفركين لي ظهري؟
نظرت لوجهه الذي رفعه اليها ببرائة، بينما عيناه تتألقان كما لم ترهما منذ مدة طويلة، ارتجفت ولكنها استجابت لدعوته كفتاة طيعة وجلست الى جوار الحوض ثم التقطت فوطة استحمام واغرقتها بالماء ورفعتها لتعصرها على صدره، ثم مررتها برفق على بشرته الحارة وهي تهمس بخفوت:
-هل درجة حرارة الماء مناسبة؟ أم أنها باردة كثيراً؟
-انها حارة بمايكفي..
همس بخشونة.. لتمد ذراعها وتلتقط رشاش المياه وتفتحه ليتساقط الماء كرذاذ قوي على رأسه.. مغرقاً شعره الذي استطال فيشهق من المفاجأة

ويغلق عينيه، ابتسمت بجذل ربما للمرة الأولى منذ اسابيع.. وهمست بإغاظة:
-أتعرف أنها ليست المرة الاولى التي أراك فيها بحوض الاستحمام..
فتح عينيه على وسعهما ورأى الشقاوة تلمع في عمق العينين البنيتين كركوة قهوة قديمة بينما تواصل تمرير الفوطة على كتفيه ومقدمة صدره وهي تقول بنبرة مبحوحة:
-كان عمرك اسبوعاً واحداً وكنت تستحم للمرة الأولى.
-وأنت كنتِ هناك؟؟
-اووه بالطبع.. لقد كنت اراقب بشغف.. لقد فعلت بالضبط نفس هذه الحركة حين غسلت أمي رأسك بالماء، لقد شهقت واغلقت عينيك..
همست برقة وهي تخفي ابتسامتها ولكنه التقطها ببراعة وحجز نظرتها وهو يهمس:
-وأنت أيتها الأنسة الوقحة كنت تراقبينني وأنا أستحم؟ ألاتشعرين بالخجل؟
ضحكت بخفوت وفتحت رذاذ الماء مباشرة على وجهه وهي تهتف بحنق:

-كنت لاأزال طفلة، وأنت كنت مجرد قطعة حمراء بلا ملامح..
أشاح جساس بوجهه عن الماء وقبض بقوة على معصمها وخفضه وهو يهمس بتسلط:
-لم أعد تلك القطعة عديمة الملامح، أنا زوجك الأن صوان.. كلي ملكاً لكِ كما أنت ملكاً لي بالضبط.
احترقت وجنتيها وهي تحاول جذب معصمها من قبضته ولكنه لم يفلتها بل اقترب ليهمس أمام شفتيها:
-انزعي عنك ملابسك وانضمي الي.
شهقت وتراجعت باضطراب حتى كادت تقع على ظهرها لولا أنه امسك ذراعيها باحكام وصرخ بحنق:
-تباً صوان.. مابكِ؟
سيطرت على نفسها وتنفست بقوة وهي تهمس:
-هل جننت؟؟ مالذي تقوله؟؟
-أنت زوجتي.. مالمخطئ في الأمر؟
هتف بسخرية ولكنها لم تستجب لسخريته بل ارتجفت وهي تحاول تحرير نفسها من قبضتيه

ورأى ذعرها ونفورها في عينيها، كل الانسجام اللحظي بينهما انتهى، وعاد السد يرتفع ليبني بينهما حائطاً من المرارة والألم. وجدته ينفضها عنه باشمئزاز ثم يهتف بقسوة:

-غادري.. أريد بعض الخصوصية، حين أنتهي سأناديك.

خنقتها الغصة، وارتبكت وهي تلملم بعثرتها لتنهض قائلة:

-دعني اساعدك..

-لاتستطيعين مساعدتي صوان، ما اريده يتطلب امرأة حقيقية وليس مجرد فتاة حمقاء تعوف زوجها.

اتسعت عينيها بألم وهمست اسمه برجاء ولكنه نهرها بقسوة:

-قلت لكِ اخرجي، ألاتفهمين.

تراجعت شاهقة بوجع، ثم دارت على عقبيها واسرعت خارجاً.. اغلقت الباب خلفها وارتمت على الفراش تبكي بمرارة.. للحظة هناك رأت جساس الذي افتقدته، حبيبها الذي تعشق، ثم رأت الرجل المرير الذي أصبح عليه، الرجل الذي

ارغمها على الزواج به، الرجل الذي لم تعد ترى في عينيه سوى بؤسه وكراهيته لكل ماحوله، حتى لها هي نفسها.

***

اندفع أشرف الراجي عبر ممرات المستشفى بخطوات سريعة ثم توقف أمام احدى الستائر وازاحها بعنف لتتسع عيناه وهو يرى عمه يجلس على سرير الفحص الصغير وطبيب ما ينحني عليه ويقوم بخياط جرح طولي شق شفته السفلى وجزئ من ذقنه، اقترب منه بحنق وسأله بعصبية:

-مالذي حدث بالضبط؟

رمقه الطبيب بحدة ثم عاد ليركز في عمله، أنهى العقدة وقص طرف الخيط ثم نظف الجرح وضمده قبل أن يتكلم بالانجليزية لوالد ترنيم ويغادر تاركاً الرجلين معا وحدهما..

اقترب أشرف من عمه واتسعت عيناه وهو يرى وجهه المتورم، كان هناك جرح مخاط اعلى عينه اليمنى أنفه متورم وقد فقد احدى أسنانه..

-من فعل بك هذا عمي؟

-ابن السلاطين.. ذلك ال... يجب أن يدفع الثمن غالياً.

صوته المكتوم بفعل الألم كان يحمل شراً مقيتاً مظلماً جعل أشرف يزعق بعنف وهو يلتقط هاتفه ويطلب رقماص محفوظاً وحالما اجاب قال بعنف:

-ماأمرتك به تجاه الطيار ابن السلاطين.. أريده أن ينفذ في الحال.

واغلق الخط بعنف ونظر لعمه المغطى بالجروح وقال بوحشية:

-لن تشرق شمس الغد على ابن... ذاك عمي، وترنيم ستعود لبيتك.. حتى تدخل بيتي أنا.

رفع مختار وجهه وهمس بصعوبة:

-ماذا تنوي أن تفعل؟ لقد قلت لك أنني أريد تعذيبه.. وليس قتله.

-ماسيعانيه هو أشد من العذاب عمي.. وسترى.

كانت الوحشية تقطر من التهديد وألقت بداخل مختار راحة عميقة، وهو يعد نفسه بالضحك والتف على قبر أوس الشيب حال الانتهاء منه..

***

راقب أوس كيف غطت ترنيم في نوم عميق بعد انهاك ماحدث بينهما منذ ساعات، ولكنه لم يعد يستطيع البقاء هكذا، كان عليه أن يخرج.. يحتاج للهواء، يحتاج للتفكير..

غير ملابسه ومضى خارج شقته..

كان هناك مقهى قريب من الشقة يتردد عليه منذ سنوات حين يريد الانفراد او قضاء وقت ممتع مع احدى رفيقاته، كان المكان الأمثل ليجلس مع نفسه ويغرق في التفكير لبعض الوقت على الأقل.

دخل الى المقهى وخلع معطفه حين غمره الدفئ المنبعث من المدفأة الحجرية العتيقة التي تتصدر المكان، وتصطلي بداخلها الأخشاب تغتسل بلهب هادئ. نقل بصره بحثاً عن مكان شاغر.. ثم عقد حاجبيه بتوتر..

علي العزب؟؟

تأمل الطبيب الذي كان يحتسي القهوة ويتناول الكعك الايطالي في ركن المقهى الهادئ وحيداً، وتصاعدت فكرة جريئة الى رأسه، فكرة لم يدرسها ابداً وهو يضعها قيد التنفيذ..

وبخطوات واسعة اقترب من الرجل ووقف جواره:

-السلام عليكم.

رفع عليه رأسه لمحدثه وعقد حاجبيه بحيرة وهو يتعرفه، رد السلام بهدوء وأشار للمقعد أمامه:

-تفضل كابتن، لقد كنت على وشك انهاء قهوتي.

جلس أوس بلاتردد وقال بتوتر:

-أنا أريد الحديث معك.

تنهد علي وهز رأسه بالموافقة:

-كنت أشك بهذا؟؟ ماذا هل تتبعتني الى هنا؟

-صدق أو لا .. انها مجرد صدفة.. ولكنها مافعة كما أرجو.

قال أوس بعصبية جعلت علي يبتسم له ببرود:

-عماتريد التحدث؟

-ترنيم.. زوجتي.

رد أوس بصوت قاطع جعلت علي يستند بظهره للمقعد خلفه ويسأله بغموض:

-ومالذي يمكن أن تريد معرفته مني أنا عن السيدة زوجتك.

-اعرف بأنك كنت خطيبها.

عقد علي حاجبيه وأوس يستمر بغيظ:
-اريد أن اعرف الكثير عن زوجتي حينما كانت معك، انا.. انا اعتقد أنها كانت... مختلفة.
ارتبكت حروفه بينما علي يتسائل بفضول حقيقي:
-أنت لن تنهي حديثنا بوضع وجهي في الجبس أليس كذلك؟؟
-ماذا؟
-ليس كل يوم يطلب مني زوج غيور ان أحكي عن فترة خطبتي السابقة لزوجته.
ابتلع ريقه بصعوبة ودمدم بعصبية:
-الأمر ليس ساراً بالنسبة لي أنا أيضاً.
-مالذي يجبرك؟
-ترنيم..
قالها وتوقف للحظة ثم عاد بصوت متعب:
-ترنيم مختلفة عن كل النساء اللواتي عرفتهن، ترنيم تخفي سراً في حياتها وهذا يجعلها تعيش في عذاب، تحيط نفسها بشرنقة وترفض أن تعطين الفرصة لأنتزعها من داخلها. أشعر بأنها تتألم وتتعذب دون أن أقدر على مد يد العون لها،

هي لاتعطيني الفرصة، لاتسمح لي أو لأي أحد بالاقتراب.
-لقد كان هذا سبب انفصالنا.
همهم علي بتوتر ثم أضاف بسرعة:
-ليطمئن بالك، فهي من رمت خاتمها بوجهي..
-أعرف هذا.
غمغم بخشونة ليبتسم علي لحظة ثم يعود لجديته:
-ربما ليس من حقي الحديث عماحدث لترنيم، ولكنني أستطيع القول أنك تحبها لدرجة أنك تريد مساعدتها حقا.
لم يجب وعلي استمر بتوتر:
-ثم أنني رأيت مالم يعجبني قط..
فترنيم التي اعرفها لاتمت بصلة للمرأة التي قابلتها يوم أمس معك.
-ماذا تعني؟
تسائل بشحوب، ليتنهد علي ويرفع يده بتحذير:
-ليس علي الرجل من يتحدث معك الأن، أنا مجرد طبيب سأناقش معك حالة ترنيم بكل شفافية بما أنك أقرب شخص اليها حالياً.. اتفقنا؟!
اومأ أوس بتوتر ليتنهد علي ويبدأ..

-حين رأيت ترنيم معك.. لم أصدق انها هي للوهلة الأولى، ترنيم التي اعرفها لاتشبه المرأة التي اختبأت خلف ظهرك، حين التقيت ترنيم للمرة الأولى قبل سنوات..

وصمت يستعيد تلك الذكرى بشرود..

-ترنيم كانت فتاة حرة، حية.. حيوية، تعيش يومها دون التفكير بماسيكون عليه الغد.. فتاة مشرقة تقفز الحياة والأمل من عينيها، تدرس ماتحب.. ترتدي ماتريد، تقود سيارتها باندفاع وتعزف الكمان بروح عالية واحساس يفوق الوصف..

عض أوس شفتيه بقهر.. بينما علي يواصل:

-ثم وقع الحادث..

وتوقف للحظات يرتشف قهوته الباردة وقطرات العرق تتصبب من جبينه..

"حادث؟؟؟"

فكر أوس بتوتر ..

-الحادث أخذ ترنيم المنطلقة، أخذ منها حيويتها وتركها مجردة من الروح.. مجرد جسد يعيش على الفتات، قاسية على نفسها قبل أي أحد،

ممتنعة عن دراستها عن صديقاتها، وحتى عائلتها..
كانت ترفض الحياة وكأنها تنتقم من نفسها..
قسوتها الجديدة جعلتها تفعل الكثير من الاشياء المريرة، فسخت خطبتها.. أحرقت سيارتها.. تركت دراستها.
ترنيم الناتجة من الحادث كانت مجردة من الروح..
-أي حادث. أنا لاأفهم.
تسائل اوس بتوتر لينظر له علي باستغراب:
-ألاتعرف عن الحادث؟؟
هز راسه نافياً ليتنهد علي بتردد ثم يقرر البوح:
-اخشى ان الامر يتعلق بي بشكل او بأخر. انا ايضاً لا اتذكر الامر بشكل واضح، ولكنه كان بسبب شجار بيننا حين انطلقت بسيارتها بجنون.. انطلقت لاتلوي على احد وفي طريقها وقع الحادث..
كان طفلاً صغيراً قطع عليها الطريق وهي لم تقدر على تفاديه..
-رباه.

همهم بذهول ليواصل علي بأسف:
-كان الأمر كارثياً فالطفل مات على لافور، وترنيم.. ترنيم انهارت تماماً، أصيبت بانهيار عصبي والزمت للمستشفى.. كانت فترة عصيبة للجميع.
-ماذا حدث بعدها؟؟
تسائل أوس بخشونة ليجي علي ببساطة:
-والدها تدخل في الأمر، لم يكن ليقبل أن تبقى ابنته ولا ثانية واحدة في السجن، ليس وهي تواجه بتهمة القتل الخطئ والاهمال، لقد قام بكل ماعليه واكثر لينقذها من الاتهام.
-ماذا فعل بالضبط؟
توترت عينا علي ولكنه اجاب بثبات:
-لقد جاء بشهود، أقسموا اليمين ان الطفل هو من وقف امام السيارة ولم يكن لدى ترنيم الفرصة لتبتعد او تتفاداه.
اتسعت عينا اوس بذهول بينما علي يبرر:
-بصراحة لم يلمه احد، ترنيم ماكانت لتنجو في السجن، الحادث وقع وان هي عوقبت من كان سيستفيد، فحتى عائلة الطفل لم تكن لتحصل على

مبلغ الدية فقد كانت ام لاصغير رافضة نهائياً لها، ولكن العم مختار دفع الدية كاملة كاحسان منه للعائلة، واخرج ابنته من عنق الزجاجة.

-ماكان رد فعل ترنيم؟

-لك أن تتصور.. هي لم تقبل البته واصيبت بانهيار اكبر وذهبت الى الشرطة ووقعت اعترافا بانها قتلت الصبي وانا هي المخطأة، ولم تنصت لأي أحد.

-وكيف أخرجها من هذه الورطة؟

تسائل اوس بتوتر فتنهد علي وقال بحنق:

-هنا اختلفنا انا وهو فلم يكن من الداعي فعل مافعل.. قبلها بيوم رمت ترنيم دبلتي في وجهي وفسخت خطبتنا وفي اليوم التالي عرفت انا أودعت لمصحة علاج نفسي، والدها قام باحضار شهادة مزورة من عدة اطباء بأنها مصابة بمرض نفسي وغير مسؤولة عن أي قول او فعل.

اتسعت عينا اوس وهمهم:

-هل اتهم ابنته بالجنون؟؟

-صحيح.. فعل لينقذها ويوقفها عن تدمير نفسها.

-أنت توافقه على افعاله؟

تسائل اوس باستنكار ليهز علي رأسه:
-اطلاقاً.. ولكنني اتفهمه، انا لدي طفلة صغيرة، ومستعد أن اقلب العالم رأساً على عقب كي لايصيبها مكروه، ولكنني عكسه تتماماً فأنا لن أؤذي ابنتي في مقابل ما افعله لأجلها.
تأمله أوس قليلاً ثم سأله بتوتر:
-أتعرف عماحدث لترنيم في المشفى؟
-لا.. في تلك الفترة انا تزوجت وانتقلت لخارج البلاد اعذرني فهذا كل ما اعرفه.
اومأ اوس بشرود..
فعلى الاقل هذا الرجل لايعرف عن مأساة ترنيم سوى الرتوش..
نهض علي وقتها ومد يده ليصافح اوس بقوة:
-ترنيم عنيدة وقوية.. ولكنها تحتاج لقلب كبير يحتويها، لاتخذلها كابتن.. فهي متعلقة بك بجنون.
نهض اوس معه وقال:
-سأخرج معك، ترنيم وحدها وعلي العودة اليها.
ابتسم علي واشار عليه ان يتقدمه وبالفعل، ارتدي معطفه وبكل هدوء تقدمه حتى خرجا الى الشارع..

-سأودعك هنا.. على امل أن نلتقي من جديد.
قالها علي بقوة ليبتسم اوس.. ثم ومن دون مقدمات.. دوى صوت طلق ناري،،
وانتفض علي وهو ينظر بذهول باتجاه اطلاق النار ولايجد احد ثم يعود لأوس الذي كان يسقط على ركبتيه ثم ينهار على الارض كجثة مكومة والى جوارها يتدافع المارة هربا من صوت الرصاص والى جوار اوس هرواة خشبية ضخمة اشبه بمضرب لعبة كرة القاعدة.. ملطخ بالدم..
-اووووس..
هتف علي بذعر وانحنى نحوه ولكن اوس كان ينزف من جرح في مؤخرة رأسه بغزارة، فاقداً لوعيه ووجهه شاحب والحياة تنسحب منه بالتدريج..
***
نهاية الفصل..

الفصل الثامن عشر

***

الله ياحبيبي على حبك..
وهنايا معاه
الله ياحبيبي ياحبيبي
الله الله
ولادمعة عين جرحت قلبي
ولاقولة آآآه
مابقلش في حبك غير
الله الله
انا خدني الحب لاقيتني بحب
لاقيتني بحب وبادوب في الحب
ادووب في الحب صبح وليل
وليل على بابه

***

"ترنيييييم"

تعالت الصرخة بجنون..

انتفض جالساً..يشعربمن يحاول تقييده واعادته الى الفراش القاسي، ولكن لا.. لايجب أن ينتظر، عيناه متسعتان وقلبه يخفق بجنون..

"يجب ان اذهب اليها"
صرخ بيأس.. يقاتل بيديه ويبعد أيديهم الالحمقاء عنه، يجب أن يذهب، يجب..
الاصوات تتداخل حوله، الكلمات الإيطالية تتدفق بسرعة وهو يحاول الصراخ بهم، أن يفلتوه، لايجب أن يبقى هنا، لايستطيع البقاء هنا.
-اتركوني أذهب.
صرخ بعنف..
-اهدء ياكابتن.
سمع الصوت العميق الهادئ ورفع عينيه لصاحبه..
ضاقت حدقتاه.. علي العزب؟!
-كابتن أوس أرجوك، توقف عن الحركة، انهم يحاولون إيقاف النزيف، وأنت لاتساعدهم.
ابتلع أوس ريقه بصعوب.. وأنفاسه تتسارع..
نظر باتجاه الطبيب الذي ارتدى على ملابسه الزرقاء مريول شفاف ملطخ بالدم.. دماءه هو..شعر بالدوار يجتاحه وألم.. ألم حارق في مؤخرة رأسه، رفع ذراعه وتحسسه بأصابعه متجاهلاً نهر الطبيب وشعر بالرطوبة، وضع

أصابعه امام عينيه وعقد حاجبيه حين رأى كمية الدماء التي حملتها..

-ماذا حدث لي؟

تسائل بذهول ليقترب منه علي العزب بينما الجراح يعاود خياطة الجرح:

-لقد ضربك أحدهم على رأسك، لم أره ولم يره أحد الجميع انشغل بإطلاق النار ولم ننتبه، أنا لم أرك إلا مكوماً تنزف، لوهلة ظننتك أصبت بالرصاصة ثم انتبهت للهرواة بجوارك.

عقد أوس حاجبيه أكثر وهو يستوعب مايقوله علي ثم همس بإضطراب:

-علي العودة، .. الجبناء يريدون أخذها..

نظر له علي باستغراب ثم نظر للطبيب الذي كان ينهي أخر غرزة ثم نظف مكان الجرح وأغلقه بشاش طبي أحاط رأس أوس ككشيدة، ثم قال:

-سيحتاج لتصوير رأسه صورة مقطعية، للتأكد ألا نزيف في المخ ولاكسور قبل أي شيء أخر.

-يمكن أن ينتظر..

هتف أوس بقلق.. عينه تبحثان عن شيء.. ينظر لعلي وماحوله بتوتر:

-أريد الذهاب يجب أن أذهب الأن.
هتف بحنق ليقترب علي منه:
-لابأس، سنذهب لنطمئن على ترنيم، وبعدها تعود لتصور رأسك.
كان أوس قد نزل من السرير، متجاهلاً الدوار الذي أحاط برأسه وتلك الغشاوة السوداء التي ظللت عينيه، واستعاد صلابته وهو يهتف:
-أريد الاطمئنان على زوجتي.
-لنذهب اذاً..
قالها علي بهدوء.. وأمسك بذراع أوس الذي نفضها بخشونة:
-أستطيع الوقوف.. أنا لست قعيداً.
ومضى بخطوات سريعة يجاوره علي الذي تحكم بهدوء أعصابه وهو يلتزم تعليمات الطبيب بالبقاء قريباً من أوس حتى يقوم بتصوير رأسه على الأقل فهو يحتاج للملاحظة خلال الفترة القادمة.
أوس بنفسه كان قلقاً، فالذي قام بضربه لايمكن إلا أن يكون والد ترنيم أو ابن عمها والهدف واضح، الانتقام منه والحصول عليها..

انتفض قلبه بعنف وهو يتخيل مايمكن أن يفعلوه بها..
أخرج هاتفه وبدأ يحاول الاتصال بها بينما تنطلق سيارة الأجرة من المستشفى الى شقته، ولكن دون رد، الرنين المستفز متواصل ولكن دون رد!!
ألاتزال نائمة؟ ربما.. ولكنه لايستطيع أن يكف عن القلق..
القلق يقتله..
يأكله من الداخل، تجاهل ألامه والصداع يحطم رأسه ولكن كل هذا لم يحرك فيه سوى المزيد من القلق.
قبض على الهاتف المستمر بالرنين بقسوة وكأنما يفرغ فيه بعض من توتره ولكن هيهات..
أرشد سائق الأجرة لعنوانه والهاتف لايزال يرن دون توقف.
حالما توقفت السيارة قفز أوس راكضاً عبر مدخل البناية..

تجاهل المصعد وأسرع عبر الدرجات الى شقته..
كان يلهث بقوة حين وصل، وقف امام الباب ينظر بذهول..
كان القفل مكسوراً والباب موارب؟!
ابتلع ريقه بصعوبة واندفع الى الداخل وهو يصرخ بجنون:
-ترنيييييييم..
كان علي خلفه ونظر بقلق شديد للباب المكسور وهو يعي أن قلق أوس كان في محله وأن هناك مشكلة كبيرة..
"ترنيييييييم"
صرخ أوس من جديد وهو يتنقل في أرجاء الشقة والصدمة تشق وجهه يشاهد محتوياتها التي انقلبت رأساً على عقب، المفروشات على الأرض منكوبة، قادته ساقاه المتخشبة الى غرفة النوم .. وقف هناك يناظرها بعيون مذهولة..
السرير مقلوب.. الفرش على الارض.. الخزانة وكل ماتحتويه على الارض..
"ترنيم؟!"
فكر بذهول..

لقد تركها هناك .. تنام وحدها بكل هدوء..
اقترب من السرير المدمر وتأمله بصدمة..
أخذوها؟! هل أخذوا ترنيم منه مرة ثانية؟؟
تلفت غير قادر على الاستيعاب أو التفكير..
صورة واحدة فقط لترنيم تنام على الفراش الابيض ترتدي كنزته
هذا كل ماكان يفكر به وقتها..
"كابتن"
همس علي من خلفه.. يشعر بالذهول والصدمة لمايرى..
هل فعلاً أخذوها؟ ومن يكونون من الأساس؟
نظر للرجل المنهار وتذكر بلحظة ماحدث لأخيه قحطان قبل سنوات حين اختطف حسن زوج اخته الجوهرة سيادة؟
وشعر بالقهر.. قهر الرجال حين يُسقط بأيديهم ولايقدرون على فعل شيء..!!
"تعال معي أوس، سنبحث عن ترنيم ونجدها"
رفع أوس ذراعيه بخذلان..
وكأنما يقول له ألا فائدة.. لقد أخذوها.. أخذوها عنه والله وحده يعلم إن كان سيراها بعد الأن؟؟

ولكن لا..
شعت عيناه بغضب صاعق امتلأت به شراييـنه..
سيقلب الدنيا رأساً على عقب..
سيحرق روما عن بكرة أبيها ليجدها ، هو لن يقدر على تسفيرها للخارج.. لقد دخلت روما بجواز سفر لايزال معه هو. اشتدت قبضتاه بقسوة ورفع رأسه يتنفس بقوة.. كأسد يكتم زئيراً هدر في أعماقه..
وتشبعت به عروقه وظهر في احمرار وجهه وانتفاخ أوداجه..
سيجدها ولو قلب روما حجراً بعد حجر..
ثم سيجد والدها..
وفتح عينيه العاصفة ..
سيجد والدها ولن يكتفي بإعادة ترتيب وجهه..
لا.. هو سيمزقه بيديه..
رن هاتفه حينها..
رمقه بوحشية ورغب أن يرميه عرض الحائط لولا أن منعه علي وهو يقول بتوتر:
-قد يكون الخاطفين؟

نظر له أوس بحنق.. يريد أن يخبره أن أياً من كان قد أخذ ترنيم فهو لاينوي ارجاعها أو المساومة بها ولكنه لم يعترض، بل فتح الخط واستمع بصمت..

-أين ابنتي؟؟

هدر صوت مختار الراجي بوحشية.. واتسعت عينا أوس.. وصمت أكثر ومختار يصرخ بجنون:

-تكلم أيها الوغد أين أخفيت ابنتي؟

نهض أوس ببطئ.. يحاول استيعاب مايقوله ذلك الرجل.. ترنيم ليست معه؟ هو لم يجدها؟؟

ماذا يقول؟

لم يفكر أكثر بل قال أول ماخطر له:

-ليس من شأنك ايها المجرم، لن تمس ترنيم بسوء مادمت على قيد الحياة أتفهم؟

-سأحصل على ابنتي، سأنتزعها من بين عينيك ان تحتم علي الأمر.

صرخ مختار بجنون ليجيبه أوس ببرود:

-على جثتي مختار، على جثتي.

وبكل هدوء أغلق الهاتف ثم نظر لعلي المذهول كلياً وقال بتوتر لم يقدر على كبته أكثر:
-ترنيم لاتزال هنا.
تلفت علي حوله ثم قال بدهشة:
-أين؟ ثم من يكون هذا؟؟ولم يريد أخذ ترنيم؟
-هو والدها..
جحظت عينا علي بينما أوس يتركه ليبدأ بحثه عن زوجته..
لم يكن من المعقول انها خرجت، ليس للشقة مخارج غير الباب الذي حطموه، ولايعتقد أنها خرجت قبل مجيئهم، مستحيل أن تخرج في تلك الفترة القصيرة..
ولكن أين هي؟
بحث بتوتر..
شقته لم تكن بتلك الضخامة.. تلفت حوله من جديد.. هل عادت الى شقة عمتها؟ لايظن؟ فهو المكان الاول الذي سيبحثون به عنها بعد منزلها..
اذاً أين ذهبت؟؟
"أووس؟!!"
انتفض بقوة وهو يلتفت الى مصدر الصوت..

اللفظ الخافت الساحر.. الشاحب المهتز..
جحظت عيناه وهو يراها تقف أمامه، لازالت ترتدي كنزته التي تجاوزت ركبتيها وتهدلت عن كتفيها شعرها منساب حول وجهها الشاحب الملطخ بالدموع، رفعت ذراعيها اليه وقبل أن يدرك هو نفسه كان يتلقفها بين ذراعيه..
"يالهي، ترنيم.. ترنيييم"
همس بلوعة.. يضمها بذراع والأخرى تتحسس وجهها كتفيها وباقي جسدها بقلق وخوف:
-هل أنت بخير؟ هل أذوكِ؟ رباااه ترنيم أين كنتِ؟
أحاط وجهها بكفيه ونظر لعينيها بيأس.. لايزال قلبه يخفق بجنونوقلقه ينضخ من كل حرف من حروفه، بينما تنساب دموعها على وجنتيها بحرقة وهي تجيبه مرتجفة:
-لقد استيقظت حالما كسروا الباب، كانوا يحاولون التسلل ولكنني سمعتهم، ثم اختبأت، لقد.. لقد حطموا المكاااان.
شهقت بالبكاء ليسكتها بلطف وهو يضمها اليه بقوة يشعر بدفئها قريباً من قوته، اعتصرها

بقسوة محاولاً السيطرة على اعصابه وهي تنشج بألم:
-لم أعرف أين أذهب، أين أختبئ، ثم تذكرت مخزن الحبوب.
عقد حاجبيه وسألها بخشونة:
-أين؟؟
رفعت عينيها اليه واشارت للمطبخ:
-أسفل خزانة المطبخ.. لقد زحفت على ركبتي واختبأت هناك.
اتسعت عينا أوس بذعر، وانتبه حينها للأتربة التي تغطي شعرها وكنزته والرائحة الغريبة، التي تصدر منها:
-كيف استطعت حتى الدخول الى هناك؟
همهم بذهول وهو يحسب المساحة التي لاتكفي مرور طفل:
-القامة الضئيلة تنفع في بعض الأحيان.
همست ليبتسم فجأة وهو يكتشف أنها ضئيلة فعلاً.. كدمية بين يديه، فيعود ويضمها بقوة وهو يهمس لها وحدها:

-لقد كدت أجن وأنا أبحث عنكِ في كل مكان، ظننتُ لوهلة.. رباااه ظننتُ أنهم أخذوكِ.
ارتجفت أكثر وضمت نفسها اليه بقوة أكبر وهمست بشحوب:
-لن يأخذوني، لن يأخذوني الا جثة هامدة.
اغمض عينيه بقوة..قربها أكثر وتنشق عبق رائحتها، مزيج من الورود لايزال متعلقاً بشعرها رغم كل الروائح الأخرى الغريبة، تكورت ترنيم في حضنه، وقفت على رؤوس أصابعها كي تصل الى كتفيه وتتعلق بهما كالأطفال، حتى ارتفعت قدميها عن الأرض بضعة انشات وأوس يحيط بخصرها ويرفعها اليه أكثر.
تلمست كتفيه مبتسمة لعودتها الى حيث تريد وترغب، ثم لامست مؤخرة رأسه..
-ماذا حدث لك؟
همست بذعر وهي ترى اللفافة الطبية تحيط برأسه.. ابتسم لعينيها وهمس:
-مادمتِ معي، فلاشيء يهم.
توسعت عينيها وهمست بذعر:
-أبـــي؟!!

-شششش.. لن نفكر بهذا الأمر الأن.
غرقت في عينيه، نظرته الساحرة التي سيطرت عليها وأجبرت دموعها على النزول دون ارادة منها وهي تعود لتغرق وجهها في جانب عنقها وتنتحب بصوت خافت..
-أحم.. المعذرة..
انتفضا معاً بقوة.. والتفتا حيث وقف علي العزب مديراً ظهره لهما بحرج، لتحرر ترنيم نفسها من قبضة زوجها ووجهها يحترق بالخجل وتختبئ خلف ظهره وهي تهمس بانفعال:
-ماذا يفعل هنا؟؟
-هو ساعدني.. لقد التقينا صدفة.
رد أوس بتوتر.. ثم التفت اليها وقال بحزم:
-اذهبي واجمعي أغراضنا، سنخرج من هنا.
-كلها؟!
-كل شيء.
نقلت بصرها بقلق بين علي المشيح عنهما ثم عادت لأوس الذي ابتسم لها بتشجيع وقال:
-اذهبي، سأكون هنا.
اومأت وغابت عن عينيه تنفذ ماطلبه منا.

وهنا التفت أوس لعلي الذي قال له بحزم:
-يجب ان تخبر سيف، عائلتك يجب أن تتدخل.
فكر أوس لوهلة، لو تدخل سيف، لو أخبر أي أحد فهم سيطالبون بمعرفة الحقيقة..
نظر بإثر ترنيم واتسعت عيناه.. قد ينكشف سرها..
الحادث.. المصح.. ثم ماقاله له ذلك المجرم والدها..
لا.. لايجب أن يعرف أحد ليس الأن على الأقل.
-ليس الان.
همس لعلي ثم اقترب ينظر اليه رجل لأخر:
-عدني أن ماحدث لي سيظل سراً بيننا، على الأقل الأن.
-ماحدث لايمكن السكوت عنه، انت بحاجة للحماية..
-أنا سأتكفل بالأمر، سأخذ ترنيم بعيداً ولن يستطيعوا ايجادنا، حتى أستطيع فهم الأمور بشكل أكبر.
برر أوس بحزم ليزفر علي بتوتر:

-يجب أن تتخذ حماية.. لايعقل أن تترك نفسك فريسة لهم.
-أعرف، أنا قادر على حماية نفسي وزوجتي، لن أسمح لأحد أن يتدخل.
هز علي كتفيه وقال باقتضاب:
-ان الأمر يخصك من كل النواحي كابتن، لقد قدمت نصيحتي، ولاأستطيع فعل أكثر.
تنهد أوس بارتياح ومد كفه لعلي:
-شكراً لك.. على كل شيء.
قبض علي على كف أوس وقال بحذر:
-لاتتهور كابتن أنت بنفسك تحتاج الى الرعاية، ورأسك بحاجة للتصوير المقطعي، لاتهمل نفسك.
-لن أفعل..ثق بي.
قالها أوس بمرح ليومئ له علي ثم يقول:
-استأذنك للذهاب، فلدي طائرة بعد ساعتين للحاق بها.
-الى اللقاء،اذاً.
لوح علي بكفه وخرج من الشقة.. حالما أصبح خارج البناية تلفت حوله بحذر.. ثم رأها.. سيارة سوداء مظللة تقف بالجهة المعاكسة ويستند رجل

بمعطف طويل على مقدمتها، وعيناه على اعلى البناية..

"انهم ينتظرونه.."

فكر علي بحنق.. ثم أخرج هاتفه وطلب رقماً وانتظر لبضع دقائق قبل أن يسمع صوت صهره ليهتف به دون مقدمات:

-ابن عمك بحاجة اليك سيف، وهو أحمق لدرجة لايعرف ماينتظره.

.....

بعد ساعة تقريباً كان أوس وترنيم ينطلقا بسيارة أوس وقد وضعا كل حقائبهما في الحقيبة الخلفية وتشبثت ترنيم بدفتر مذكراتها الغالي بقوة، أوس كان يراقب الطريق خلفهم بحذر، لايبدو أن أحدهم يلحقهما.. تنهد بارتياح وعاد يقود بسرعة..

-الى أين سنذهب؟

-حيث لايجدنا أحد.. حتى نفكر جيداً بماسنفعله.

تسللت كفها لتقبض على كفه.. التفت لها بدهشة ثم عاد ينظر للطريق وأصابعه تحيط أصابعها بقوة رغبة الحماية بداخله تضاعفت وكأنما هي

طفلته الصغيرة قطعة من روحه عليه الحفاظ عليها.

***

ذلك المساء.. انتشرت الأضواء على طول الطريق السريع، وانطلقت السيارة المرسيدس الفاخرة تشقه بلاهوادة نحو هدف محدد دون أي التباس.

واضطجعت هي في مقعدها متنعمة بدفئ السيارة الغامر، مقارنة بالزمهرير خارجها، حتى معطف الفرو الخاص بها تركته يسقط عن كتفيها بإهمال..

خطتها كانت بسيطة.. وستكون ناجحة مائة بالمائة..

تألقت ابتسامتها..توقفت بها السيارة أمام بوابة واسعة، وحين ترجلت انتابها الارتياح لرؤية المطعم الشهير، بشرفاته الزجاجية والمطل على جبال الألب بقممها المثلجة، والغابات التي تسكن فسحها.رفعت الفرو الأبيض على كتفيها حين شعرت بنسمات الجبال الثلجية..وضمته الى جسدها النحيل بحميمية..

-من هنا سلطانة.
التفتت للشاب الصغير الذي ظهر امامها فجأة بتوتر ثم أخذت نفساً عميقاً قبل ان تتبعه بأنفة وكبرياء..
انتظرها بتوتر، كان يخشى.. ألا تأتي.. تتجاهل دعوته التي طلبتها ولاتأتي.
ولكن .. كل أفكاره توقفت، كل ذلك الضجيج الأحمق الذي يصرخ في أذنيه انتهى وهو يسمع النادل يهمس له بوصولها، فلا يعرف ان كان ما ألم به هو الفرح أم هو ضرب من الخوف الشديد، اغمض عينيه،،
لا انه شاهر الباشا وليس شاهر الباشا من يخاف أو يخشى..
نظر نحو الباب ورأها..
اتسعت عيناه بذهول.. هو لم يرها منذ مدة قصيرة.. ولكنها كانت مختلفة.. كانت حقاً مختلفة..
نهض مسلوب اللُب ووقف ينظر اليها..
اتسعت عينا سارة بدهشة وهي تدلف الى المطعم الشهير وتجده خالياً على عروشه..

أدارت رأسها حولها، كانت مساحة المطعم كلها قد أخليت أمامها سوى من درب من الشموع الملونة ترسم درباً الى شرفة خارجية..
الأرض بُسطت بأوراق الزهور، وخفتت الأضواء ولم ترى سوى الطريق الذي وقف شاهر في آخره..
وسيماً.. مظلماً.. بجبروته..
بانتظارها.. أخذت نفساً عميقاً وابتلعت ريقها..
مشت بخطوات قصيرة نحوه ، معطف الفرو يسحب خلفها وحفيفه يثير صوتاً عالياً في الصمت المحيط بها.. حتى وصلت اليه..
اقترب ووقف قبالها .. طوله الذي يعلوها ببضعة سنتيمترات رغم كعب حذائها المسنن، انحنى وهو يلتقط كفها بين أصابعه هامساً:
-مرحباً بكِ ياجميلتي.
أخذت نفساً عميقاً وهي تتقبل قبلته الناعمة على ظهر كفها ثم سحبتها ببطء وهي تدير عينيها في الشرفة التي أغلقت بحاجز زجاجي لم يمنع تسلل ضوء القمر من السماء والشموع المتلألأة على أرضيتها.. الطاولة المعدة بروعة ورومانسية،

ابتداءاً بالحرير والدانتيل ثم باقة الورد الناعمة الموضوعة في المنتصف، الأطباق والكؤوس البلورية ..

وكأنها سهرة أحلام من عالم الروائع..

-أشعر بأنني في فيلم خيالي..

همست مبهورة.. ليبتسم ويرد بثقل:

-كما في الجميلة والوحش؟؟

سرقت نظرة اليه، كان أبعد مايكون من الوحش.. ولكنها لم ترد بل ابتسمت لتظهر أسنانها البراقة، وتطير بنبضات قلبه العاشقة..

اقترب ووضع كفيه على كتفيها هامساً:

-معطفك؟!

ابتلعت ريقها بتردد ثم أومئت له ليدور خلفها وسمحت أن يخلع المعطف الطويل، وبعد أن سلمه لنادل قريب التفت اليها ليتأملها بصمت ..

ارتفع حاجبه بتقدير..

ثوبها الأزرق المخملي التف حولها كجلد ثانٍ وأظهر كل مزايا قوامها النحيل المثير، والذي تكور في كل مكان مناسب، وأظهر أنوثة متفجرة لعبت بعقله بكمين طويلين وياقة مغلقة مشقوقة

تظهر جلدها البرونزي اللامع وينسدل الثوب حتى أسفل ركبتيها، ثم انحنت لتجلس على طرف كرسيها وهي ترفع له وجهها بابتسامة التمعت بأحمر شفاهها الأحمر القاني وهي تهمس:

-ألن تجلس باشا؟

خرج شاهر من دوامة اعجابه بالمرأة الفذة أمامه وتنحنح قبل أن يجلس قبالها، عيناه تعبان من رؤية وجهها الفاتن ولايشبع..

تأملها بحرص.. عينيها الرماديتان اللتان تألقتا بفعل ضوء الشموع، خصلات شعرها التي تفلتت من عقدتها الأنيقة، خطوط وجهها الناعمة التي تاقت أنامله لتلمسها.

-هل ستحدق بي الى الأبد؟

همست بابتسامة داعبت طرف فمها، ليضحك بتوتر:

-أنت.. أنت لوحة بديعة سلطانة، لاأحد قد يمل ابداً من التحديق بها.

رفعت حاجبها بسخرية وأشاحت بوجهها لتنظر حولها وهمست:

-لم لايوجد غيرنا؟

-لم أرغ بمقاطعة أحد لنا، ثم أنني ظننت أنك تريدين بعض الخصوصية.
رمقته من أسفل رموشها للحظات ثم رفعت وجهها للسماء وهمست:
-تفكير جيد.. أنت تخطط لكل شيء ببراعة باشا.
ابتسم شاهر بسخرية ورفع لها كأس من نبيذ عنبري جاء به النادل لترفضه بهزة من رأسها وقالت بحزم:
-سأكتفي بالماء.
-ألن تشربي؟ ظننتك تحبين النبيذ؟
-لاأشرب الا في مناسبات قليلة، والليلة ليست احداها باشا.. أنا أحتاج لأكون بكامل صحوتي معك.
قالت بذكاء ليبتسم بتسامح:
-أنا أريدك أن تفقدي عقلك سلطانة.. لا أن تكوني متيقظة كالقطط.
رفت عينيها بمرارة:
-لقد جربت أن أفقد عقلي من قبل، وانظر ما آل اليه الحال!

التقط كفها الموضوع على الطاولة بخفة وتجاهل رغبتها بانتزاعه وابقاه في قبضته بالقوة وهو يقول:

-كل شيء سيتحسن، ستنسين تجربتك الأليمة، انا سأنسيكِ إياها..

كان يتكلم بقوة وحزم، ولكنها نزعت كفها من قبضته بالقوة وضمته اليها وهي تحيط بطنها بحرص هامسة بشراسة:

-ليس قبل أن تنفذ كل ما أريد.

تراجع شاهر بحذر وعيني سارة تتألق بوحشية وهي تهمس:

-ليس قبل ان أنتقم ممافعله ركان بي، ليس قبل ان أنتزع منه كل ماحصل عليه بسببي، وأحطمه لخيانته هو وتلك العلقة المدعوة سييرا.

نظر لها شاهر مطولاً.. كلماتها لم تفاجأه، هو ليس غبياً ويدرك جيداً ان موافقتها على الخروج معه بهذه السهولة ليست معجزة من السماء.

يدرك ان لها غرض..

وأن غرضها سيتعلق بركان..

وهو مستعد أن ينفذ ماتريده، بشرط واحد فقط..

-سأساعدك بكل ماتريدين.
قال بثقة.. لتتفاجئ هي من سرعة الاجابة وتصمت بانتظاره ليكمل، ورأتها في عينيه، تلك الابتسامة المتوحشة التي سرعان ما ارتسمت على شفتيه وهو يقول:
-كل شيء ترغبينه سيكون تحت قدميكِ بشرط واحد.
-وماهو؟
همست بقلق لم تتمالك نفسها من الشعور به، لتتسع ابتسامة شاهر ويستند لمقعده بكل أريحية قائلاً:
-أن تكوني لي .. كلياً.
ابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت السيطرة على ارتجافة يدها وهي تلتقط كوب الماء وترتشف منه بصعوبة، انها ترعف مايريد منذ وقعت عيناه عليها، فقد كانت كل نظراته.. كلماته، وتصرفاته، كلها كلها تدل على رغبته الحقيرة بها. وهي ليست طفلة وتدرك عمق رغبته بها وهذا بالضبط ماحملها على استغلاله. كما تتخيل.
-لدي شروط..

-انا من يضع الشروط سلطانة..
همس بتلاعب لتحرك رأسها وتهمس:
-ليس كلها، شروطي تعتمد أن ينتهى أمر ركان وسييرا تماماً وبعدها يمكن أن أفكر بك.
-لا سلطانة.
رفض ببساطة.. ليحتقن وجهها فيما يقترب اليها ويقول بابتسامة ثقيلة:
-سوف توافقين على شرطي، وتكونين لي، وحينها فقط أتي بركان وسييرا تحت قدميكِ.
تراجعت سارة بقلق محاولة الخروج من المأزق الذي يحاول حشرها فيه، كانت ترى الاصرار في عينيه ولكن لا.. اللعبة لعبتها هي..
هي من ترسم خطوطها، هي من تحدد معالمها وحدودها.. هو من كان يركض خلفها ويلهث وراءها..
هي السلطـــانة، ولا أحد يلوي ذراعها.
لذا وبكل غرور الأنثى التي كانت تسكن عروقها ابتسمت.. ومدت ذراعها لكأس النبيذ الخاص به.. أسندت سبّابتها لحافته وبكل برود دفعت بالكأس

ليُراق الشراب الدموي على الشرشف الأبيض الناصع وهي تهمس:
-إذاً فالمقابلة انتهت...
رأت عينيه تلمعان بالمفاجأة وهي تنهض برشاقتها المعهودة، وتشيح عنه بجسدها بينما تتمايل بعيداً عنه..والتوتر ينحت كل لمحة من ملامح وجهها الفاتن..
-توقفي.
هدر بقوة لدرجة أنها شهقت بصوت غير مسموع وهي تتوقف تلقائياً استجابة لأمره، ثم تتألق ابتسامة مفترسة على شفتيها المكتنزتين، وتقف بكامل سطوتها.. تعرف أنه سيأتي اليها.
وقد أتى..
لم يكن ليدعها ترحل، ليس وقد أتته بقدميها لن يفشل، لن يسمح لها أن تدمر ماخطط له لأسابيع..
راقبها تنهض وتُريق كأسه كنا أراقت حبه تحت قدميها..
نظر لها بجوع وهي تتمايل بعيداً عنه، ثورة من نار تشتعل في عروقه وهي ترحل.. تلملم

وجودها من حوله وتنتزع عطرها من خلاياه وترحل..
ولم يقدر..
"توقفي"
هتف بكل العشق في أعماقه وهو يستعد لأن يضع الدنيا تحت قدميها، وقبل أن تلتفت نحوه كان خلفها، يضع قلبه حرفياً بين كفيـها..
قبض على كتفيها بقوة، وقربها منه..
اغمضت عينيها تتنازعها الرغبة لأن تهرب منه وتختفي.. وعقلها ينهرها بقسوة لأن تبقى.. لأن تميل بعنقها وتسمح لذرات من عطرها أن تُعيد سيطرتها على أنفاسه وتتستحوذ على تعقله..
-لكِ ماتريدين. كُلي لكِ سلطـــانة.
ابتسمت بإثارة والتفتت إليه تضع ذراعيها بدلال على صدره وأغرقت نظرتها الناعسة في ظلمة عينيه هامسة:
-هكـذا بدأنا نتفق.
اقترب بخشونة ولكنها ابتعدت ضاحكة وتمايلت عائدة الى الطاولة وجلست، تعقد ساقيها وتسند ذقنها لقبضتها المضمومة هامسة:

-تعـال..
لايعرف مافعلت تلك الكلمة القصيرة به، وكأنما انتزعته من روحه، وجعلته يستجيب لها طوعاً، ليركع تحت قدميها، ويلتقط كفيها بين يديه، ويغرقها بالقبلات هامساً:
-أنا ملككِ سارة.. افعلي ماتشائين.
أسندت ظهرها للكرسي وتأملته بعمق قبل أن تهمس:
-سنتفق على ماسيحدث، كل شيء وبالتدريج.
أحنى رأسه لها لحظة ثم نهض على قدميه ورفعها اليه ناظراً للطاولة التي أفسدت بفعل النبيذ..
-تعالي معي.
-الى أين؟
-أينما يكون.. فقط أريد أن نكون معاً.
همس بتوق لتبتعد بدلال:
-لاتنسى أنني امرأة متزوجة باشا، هذا لايصح.
عض نواجذه بقوة وهي تتسلل من بين ذراعيه وتتخذ طريقها للخارج، تتقبل معطف الفراء وتضعه على ذرعيها بكسل وتهتف به:

-ألن توصلني باشا..
ابتسم لها باتساع وتقدم منها..
ارتدى معطفه هو الأخر ثم قادها الى الخارج، يوقن أنها سيطرت هذه المرة، ولكن ساحة الملعب لاتزال تحتمل جولات أخرى، حيث سيفرض هو فيها سيطرته وبكل قوة.
***
اندفع ركان بسرعة عبر باب المصعد الذي أوصله الى مكتبه في مبنى الصحيفة وتجاهل السكرتيرة المؤقتة التي حلت محل نيران والتي كانت تريد ابلاغه بشيء كما يبدو وهو يندفع الى المكتب، حيث توقف فجأة وهو يرى الرجل الغريب الذي يحتل المقعد المقابل للمكتب.
-من أنت؟!
هتف بحدة لينهض الرجل ببطئ ويقترب منه..نظر له ركان بانزعاج، كان أشقر الشعر أزرق العيني يرتدي بدلة فاخرة من المخمل البني وينظر اليه مطولاً.
تأمل الرجل كل لمحة من ركان ، شعره الأشقر المجعد.. عيناه الزرقاوتان، حتى ملامح الارهاق

التي غزت وجهه وجعلته يبدو أكبر من عمره، الخطوط التي أحاطت بعينيه وفمه.. ذقنه النامية بإهمال ..

-أنت تشبهه كثيراً..

قال الرجل فعقد ركان حاجبيه وهتف بخشونة:

-من أنت؟؟

-أنا هو ابن عمك..

تراجع ركان بحدة وهو ينظر الى عيني الرجل الذي لم يكن سوى سليم، ونظر له كأنما ينظر لرجل مجنون وهتف بحنق:

-مالذي تخرفه؟ أنا ليس لدي..

-بلى لديك.

هتف سليم بحدة مقاطعاً اياه وأضاف:

-ولديك عائلة.. عائلة تفوق بقوتها عائلة الباشا التي تحمل اسمهم زوراً.. عائلة بحثت عنك لسنوات ددون أن تعرف أنك أقرب مايكون اليها..

اتسعت عينا ركان بذهول وتراجع بينما سليم يقترب منه ويقول بسلطة:

-أنت قد لاتفهم ماأقول ولكنني سأشرح لك الكثير، وستفهم حينها ماعنيه يا ابن عمي.
جلس ركان بذهول ينصت لكلمات سليم..
تلك الحقيقة التي لم يدركها أبداً..كيف أنه ولد لمراد وتاليا.. مراد يكون ابن عائلة ملكية، وتاليا.. تاليا هي قريبته الصغيرة المفعمة بالحياة والتي تزوجته بعد علاقة حب عاصف، أثمرته هو..
وفي أحد الأيام تعرض والداه لحادث سطو مسلح، قتل على أثرها والده وخطف هو، وأصيبت والدته بالبكم ولازمت الفراش..ولم تنهض من بعدها قط..حتى توفيت حزناً وألماً قبل سنوات.
ثم شرح له ماقالته نيران..
كيف وجده ابن الباشوات ونسبه اليه..
كان ركان ينظر له بذهول المعلومات تتدفق اليه ولايكاد يصدقها..!!
-أمي..!! ماذا عن أمي؟!

همس ركان بألم وقبضتيه تكاد تحطم حافة مكتبه يفكر بأمه التي قامت بتربيته كل تلك السنوات.. أمن المعقول؟!

لقد خططت واياه للعودة لعائلة الباشا بعد أن كانا منبوذين اجتماعياً بسبب أخطاء والده، سنوات وهي تزرع في عقله وكيانه كيف أنه يجب أن يفعل المستحيل ليعود لكنف العائلة، مهما كان الثمن.

لقد باع نفسه لشاهر ليعود..

فعل كل ماأملاه عليه ذلك الوغد من أفعال مثيرة للاشمئزاز وعاد الى كنف العائلة على حساب المرأة التي يعشق. والأن يدرك أنه لايمت لهم بصلة؟؟

-هذا مستحيل.. ماتقوله لايتصوره عقل؟

هتف بسليم الذي تنهد وضم كفيه أمام وجهه وقال بهدوء:

-اتعلم من أخبرني بالأمر؟

هز ركان رأسه نفياً ليرد سليم بهدوء:

-نيران أخبرتني بالقصة كاملة.

-نيرااااان؟؟؟

هتف ركان بذهول.. ثم نهض بعصبية وصرخ:
-أتعني أن نيران وشاهر.. شاهر الباشا يعرف الحقيقة؟
-نعم.. انه يعرف منذ البداية..
-ذلك الحقيييير..
صرخ ركان بعنف وهو يلتقط مثقلاً خشبياً من على مكتبه ويرميه عرض الحائط، بقوة هشمته وصنعت ثقباً مروعاً، ليتدخل سليم بهدوء:
-لاتفرغ غضبك في مجهود لاطائل منه، أنت تريد الانتقام من الباشا وهذا حقك، ولكن.. عليك أن تفكر ملياً كيف ترد له الصاع صاعين.
-ذلك الرجل استغلني بكل حقارة ليصل الى أغراضه، والهدف كان عودتي لكنف عائلتي وهو يعرف تمام المعرفة أنها ليست كذلك؟؟
هتف باستنكار ثم ضحك بمرارة وهو يعاود الجلوس على مقعده بانهيار:
-لقد فقدت زوجتي.. الثمن كان المرأة الوحيدة التي عشقتها وهو.. هو كان السبب.
-عليك ان تكون قوياً لتستطيع تنفيذ انتقامك منه ركان، لاتدعه يسيطر عليك بالأفكار السوداء،

أنت يجب أن تتخلى عن كل فكرة سيئة لتستطيع التخطيط بهدوء وروية..
نظر له ركان بحنق وهتف:
-كيف تقدر أن تكون بارداً بهذا الشكل؟
اضطجع سليم في مقعده وابتسم ببرود:
-حين تعيش مثلي وسط ثلوج لاتتوقف يتغلغل البرد الى عروقك وتقل كل الأشياء التي تشعلها حتى تصبح نادرة كما ندرة الفهد القطبي الأبيض..
عقد ركان حاجبيه باستنكار للتشبيه الغريب والرجل الأغرب..
ولكن سليم لم يتركه ليفكر طويلاً بل مال نحوه وقال باهتمام:
-أنت لديك الكثير لتفكر به الان ركان، وضعك القادم سيتغير بالكامل، فالجميع سيرغب بمعرفة أن ابن مراد وتاليا لايزال على قيد الحياة، الجميع شعر بالحزن الشديد لماحدث للعائلة الصغيرة وعودتك مع كل الأدلة الدامغة ستكون بمثابة عيد.
ابتلع ركان ريقه وهمس بتوتر:

-كيف، كيف تنوي ابلاغهم؟!
ابتسم سليم وعاد بمقعده للخلف..
-تقيم عائلتي احتفالاً برأس السنة كل عام، تحضره الأسرة كلها، وأحب أن أخبرك أن غريمك سيكون هناك هو الأخر..وستكون الفرصة مواتية لنعلن للعالم أجمع أن الأمير الصغير لايزال حياً يرزق.
-أمير؟!!
تسائل ركان بذهول ليضحك سليم مجلجلاً ويشير بيده لركان:
-لديك الكثير لتتعلمه عن عائلتك يافتى.. الكثير جداً. أولاً عليك أن تبقى كل ماعلمته سراً حتى الوقت المناسب.. وحينها ستحظى بكل ماتريد.
نظر ركان لسليم بحيرة سرعان ماتحولت الى استسلام عميق، وهو يمد يده لمصافحته،، وعهد جديد على وشك الاكتمال.. لايعرف أحدهم الى أين قد تقودهما معاً.
***
انتهت ترنيم من ترتيب اغراضهما في الخزانة الخشبية الضخمة ونظرت الى الغرفة الواسعة

المفروشة بخشب الخيزران وسريرها الضخم، المحاط بستائر من حرير ودانتيل.
ارتجفت واحاطت كتفيها بذراعيها ونظرت الى النافذة الواسعة التي تطل على سفح جبل مكسو بالثلوج.
تنشقت هواء الجبل البارد.
-مارايك بالمكان؟
تنهدت والتفتت اليه مبتسمة:
-انه جميل للغاية. اين كنت تخبئه؟
اقترب منها وامسك وجهها بين كفيه ينظر بعمق لعينيها:
-انت الجميلة ترنيم. انت المرأة الاجمل والاروع والاكثر حنانا في العالم.
احمرت وجنتيها وخفضت عينيها لتنتفخ اوداجه بغرور ثم قال بحنو:
-ترنيمتي..
-ماذا؟!
-علينا ان نتكلم.
اضطربت نظرتها واشاحت بعيدا عنه ولكنه اصر على النظر لعينيها وهو يقول:

-حبيبتي.. انظري الي.. علينا ان نتكلم.
-لا..لا اريد
همست بخوف.. وهي تشيح عنه ولكنه لم يسمح لها احاطها بذراعيه وقربها منه :
-لن تهربي الان حبيبتي لن نهرب للابد.
نظرت له بخوف فشدد من ضغط ذراعيه وجذبها اليه نحو الصالة الخارجية كانت صغيرة محتشدة الاثاث بكراسي محشوة وطاولات خشبية دائرية ثم اجلسها على كرسي لشخصين.
جلس امامها وامسك كفيها بين يديه وهو ينظر لوجهها بهيام:
-انا لن احكم عليك ترنيم. ليس لشيء لاذنب لك فيه ولم تكوني تقدرين على الحؤول دونه.
-انا.. انا لا اعرف..
همست مرتجفة وابتلعت ريقها بصعوبة وهي تحاول السيطرة على ارتعاشها..
-انا.. اووس .. انا لا اتذكر اي شيء.
احاط وجنتها بكفه ونظر لها بتساؤل:
-ماذاتعنين؟
ارتجفت ونظرت له بعينين متسعتين:

-ماحدث هناك.. بعد الحادث انا.. انا لا اتذكر.
-وكيف ذلك؟!
تسائل بذهول فانسابت بدموعها:
-لا اعرف.. انا .. انا لقد وقع حادث..
تركها تفضي مابداخلها.. كل مشاعر الالم والعذاب الذي قاسته .. كل القسوة التي عانت منها ..
انهارت بين ذراعيه وتركها تفضي دموعها وذكرياتها على صدره بينما يغمض عينيه بقوة ويتشرب كلماتها وحزنها حتى انتهت حيث انتهى علي. وسمعها تهمس وسط دموعها:
-لقد نمت في الليل ورأيت كابوسا لم استطع النهوض منه.. كنت خائفة وصرخت بلا انقطاع.لم ينجدني احد لم يسمعني احد..
-شش كفى توقفي..
هتف بعنف ولكنها لم تتوقف ونشجت بالم :
-شعرت بايديهم علي .. تلمسني وتلطخني... حاولت ان ابعدهم عني ولكني كنت مقيدة.. لم اقدر ان ابعدهم عني..
-توقفي ترنييم..

هتف بعنف ولكنها لم تتوقف بل صرخت:
-فقدت وعيي حينها.. لم اقدر على التحمل.
-يالهي ترنيمتي..
همس بعذااب وهي ترتجف وتهتف:
-عشت اياما طويلة في حالة غريبة لم استيقظ .. لم اقدر على السيطرة على نفسي كنت غائبة كليا لايام عديدة لم استطع السيطرة على نفسي ابداا.
احنى رأسه واغلق فمها بفمه ..
لم يستطع ان يسكتها بطريقة اخرى، الالم الذي شعر بها وهو يسمع بكاءها ويشعر بارتجافها بين ذراعيه.. ضمها بقوة وحنو ... عانقها بدفئ واغرقها بحبه بلا حساب.
-احبك ترنيمتي..
همس لها بشغف ونظر لعينيها بحنان:
-لا يهمني ماحدث.. انا احبك انت واريدك انت ياحبيبتي.
انسابت دموعها بحرارة على وجنتيها وهي تغرق في عينيه الرماديتين. شعرت بقلبها ينتفض بقوة بين ضلوعها مشاعر عميقة جاشت بين حناياها وفاضت من اعماقها وهي ترد:

-وانا احبك اووس.. احبك اووسي ..
اتسعت عيناه بذهول بينما تواصل هي بشجن:
-احبك كما لم اعرف من قبل. انت وحدك . انت تسللت الى قلبي وقد ظننت انني لن افتحه من جديد لأي احد. ولا اعرف كيف.. انت فقط احتللت عالمي لم اعد اريد سوى البقاء معك. قريبة منك.
اتسعت عيناه بذهول وراقب كيف ارتجفت شفتاها لتبتسم وتعود لتقول:
-احبك .
-اوه يا الهي..
هتف بفرح جنوني ثم عاد ينقض عليها بالقبلات .. مغرقا وجهها عينيها وشفتيها بقبلات حارة مثيرة جعلتها تذووب مستسلمة بين ذراعيه.. بينما يحملها الى غرفة النوم ويضعها على الفراش ببطئ ..شفتاه تنزلان من شفتيها عبر ذقنها الى عنقها المرمري ومقدمة صدرها. اشتدت ذراعاه حولها لتتأوه ويبدأ جسدها بالتصلب فيهتف بها بحنان:

-لاتخافي ترنيم.. لاتخافي حبيبتي انا لن اؤذيك ابدا لاتخافي.
ارتجفت بقوة فتنهد وهو يضمها اليه هامسا وهو يغرق وجهه في عنقها:
-لابأس حبيبتي..لاتخافي مني. لاتخشي شيئا ياحبيبة قلبي لاتخافي..
فتحت عينيها وضمت نفسها اليه احاطت جسده بذراعيها وهمست:
-انا اسفة ارجووك سامحني انا اسفة.
-لابأس .. لاتعتذري لابأس حبيبتي.
همهم بابتسامة وهو يأخذ نفسا عميقا تلو الاخر..
بينما يمسد رأسها بيده ويداعب شعرها بخفة ..
لتغمض عينيها وتغرق في دفئه يتسرب اليها وينشر الهدوء في اعماقها لتنام بهدوء بعد ان استقرت انفاسها .. وسكنت روحها.
حين استيقظت كانت لاتزال بين ذراعيه نظرت لوجهه القريب ورفعت حاجبيها وهي تتأمل ملامحه الوسيمة الرائقة ثم مدت كفها لتلامس وجنتيه النحيلتين وذقنه الناعمة .. قبل ان تبتعد

وتنهض بهدوء وتتسلل خارج السرير ..وقفت امامه تنظر اليه ..
تأملته بهيام .. تحبه .. كما لم تحب من قبل..
تحبه الى الابد ..
استدارت ومضت الى الحمام ..
اغتسلت وتوضت ثم استخدمت هاتفها لتحدد موقع القبلة .. صلت .. واطالت سجودها ..
حتى بكت بمرارة .. لكل ماحدث لها .. لكل ماعانته وكل ماقد يحدث ..بعد ان انتهت مسحت دموعها .. ثم قامت عن سجادتها، ومضت الى الخزانة ..
هل نام لوقت طويل ؟
فتح عينيه وتمطى.. ثم رأى الخيال الابيض يقف امامه.. دعك عينيه بقوة وعاد يفتحهما.
جحظتا بذهول وايقن انه في حلم ..
كانت تقف امامه ..
بثوب ابيض هو الثوب الذي كان لعمتها وطرحة من الدانتيل بينما انسدل شعرها على كتفيها العاريين ..
وابتسامتها تنير وجهها بينما تهمس بخجل:

-هل اعجبتك؟!
نهض من رقاده ووقف امامها بذهوول:
-ماذا تعنين ترنيمة؟
رفعت وجهها اليه وغرقت في عينيه وهي تهمس:
-انا لم احب ثوب زفافي.
نظر لها بتوتر وقال:
-ولا انا..ولكن هذا!!
نزلت نظرته عليها ببطء الثوب لف جسدها بنعومة حتى وصل الى اسفل خصرها وبدأ يتسع الحرير وينساب حتى الارض..
-اعجبك؟!
-انت فاااتنة..هل هذا حلم؟! لابد انني احلم انا لم استيقظ بعد؟! اليس كذلك؟
-انا مستيقظة تماما وانت كذلك.
همست بخجل ليمسك كتفيها بقوة ويقربها منه وهو يهتف بخشونة:
-ماذا يعني هذا ترنيم؟!
رفعت اليه عينين بريئتين وهي ترمش بلاتوقف:
-انا؟! ماذا تعني؟

-ترنييييم .. اتريدينني كما اريدك.
خفضت عينيها بخجل و همست بخفر:
-لقد رأيت حلماً، كنت أنت معي..
-ماذا تعنين؟؟
همس بفروغ صبر لتقترب وتنظر في عينيه دون أن ترمش:
-لم أكن خائفة في الحلم أوس، أنا لاأريد أن أخاف بعد اليوم.
-يالهي..
همس بشحوب ثم اقترب أكثر وأخذها بين ذراعيه ودون أن ينتظر لوقت أطول.. ضمها في عناق..
حنون ودافئ، غمرها كلياً..
-أنت جميلة للغاية.
همس من بين قبلاته.. أصابعه تزيح طرحة رأسها ثم تتسلل لمداعبة رؤوس كتفيها، تسحب الثوب الناعم وتنزل سحابه..
-هل أنت بخير؟!
همس لها بقلق لتومئ بأنفاس لاهثة فيفلت الثوب لينساب بحفيف مكوماً تحت ساقيها ..

تجاهل شهقتها وهو يحملها للمرة الثانية الى الفراش ولكنها كانت تختلف..
هذه المرة كانت عينيها تراقص عينيه تضمه بذراعيها
-ستكون ذكرى لنا وحدنا.. لن تنسيها أبداً ترنيم.
ابتسمت بحياء.. ثم غابت معه في خضم مشاعر محمومة قدمت له عذرية قلبها على طبق من ذهب، لم يفرط فيه ولن يتنازل عنه، وان انتهك وغد عديم الرحمة جسدها البريء.. فقلبها لم يمس شغافه سواه، وعقلها لن يتذكر سوى لمسته هو، وليس أي رجل أخر.. كانت بريئة.. بكل رد فعل لها، بكل استجابة خالصة، كانت تريد أن تقدم له السعادة والنشوة بقدر ماكان يقدمه لها.
ولكن أوس كان خبيراً بالنساء، لدرجة انه أيقن أن من تسكن ذراعيه لم تكن بين ذراعي رجل سواه منذ ولدت. خبرته مكنته بسهولة من السيطرة عليها، وقيادتها بسلاسة، كان يواجه صعوبة معها بشأن رد فعلها الاحترازي الغريزي ولكنه لم يستسلم..
-لاتخافي مني.

همس بثقة، وانتظر ردها الذي لم يتأخر وهي تهمس بالقرب من شفتيه:
-أنا كُلي ملكك أوس.
ابتسم حينها..
وعاد يغرقها في بحور عشقه.. يغمرهما الهواء القادم من الجبال محملاً صفيع الثلج، ورائحته النظيفة البيضاء.. وشقت صرختها السكون المظلم .. قبل أن يغرق الوادي كله.. بصمت الفجر الخاشع..
***
نهاية الفصل

الفصل التاسع عشر

***
ويبقى في قلبي مهمازُ عشقٍ..
كلما احتدَ طرفه، زادني عشقاً..
***

تسهر عيوني الليل .. وعيونه يرتاحوا
وأنسى الأسى والويل .. وأفرح لأفراحه
منايا كل المنى .. أشوفه متهني
دندنت بخفوت كعادتها، واقفة على حاجز الشرفة تنظر للمنحدر أمامها وترفع رأسها لتضربها الريح القادمة من الجبل وتثير قشعريرة باردة على طول ذراعيها العاريتين وتطير خصلات شعرها الطويلة، بينما ثوب نومها الطويل الهفهاف يلتصق بها ويعرضها للبرد أكثر واكثر..
داعبت أطراف السور الحجري.. واستندت بمرفقيها وهي تميل أكثر، وترفع وجهها للسماء المظلمة وتهمس للقمر المستتر خلف الغيوم المظلمة..
فرحان في نور الهنى .. ولو بعيد عني
خليه بعيد .. خليه سعيد
دا مش نصيبي .. لكن حبيبي وأكتر..!!
توقفت.. ورمشت بعينيها ثم نظرت للسرير الذي يحتوي جسده المصاب، وعينيها تتسعان باكتشاف لذيذ..

لقد أصبح نصيبـــها وليس فقط حبيبها..اقتربت منه بخطوات صغيرة.. ووقفت على رأس فراشه، لقد اعطته دواءه منذ ساعة.. وهي تعرف تماماً أنه سيغرق في النوم عميقاً ولن يستيقظ حتى الصباح.

راقبته مبهورة للحظة كان يرقد شبه جالس على الفراش، عاري الصدر، بسروال قصير يكشف عن ضماد ساقيه.. خفق قلبها.. وأسرعت لإغلاق ابواب الشرفة ثم عادت اليــه، هذه المرة جلست على طرف السرير الضيق واقتربت منه بفضول، راقبت تفاصيله التي عشقت منذ نعومة أظافرها ولم تنل مثل هذه الفرصة..

وجهه الناحل، رموش عينيه الطويلة، أنفه المستقيم.. فمه المرسوم بدقة، حتى ذلك الجرح الذي شق وجهه وعنقه تأملته بافتتان.

ابتسمت .. ربما لأول مرة منذ سنوات.. ابتسامة حقيقية احتلت وجهها، وتسللت كفيها لتلامس وجهه بكل جرأة وهي واثقة أنه لن يصحو.. ولن يشعر بها..

تنقلت أصابعها بلطف على ملامحه، وجنتيه وجسر أنفــه.. جفنيه المسدلين، حتى شفتيه المطبقتين، بخجل..
ولكن بلمسة مستكشفة.. شغوفة.. ومحبـة.
تنهدت بهيام ومالت لتضع رأسها على صدره.. تطاولت وتعرف ولكنها تتوق لأن تشعر به، بنبض قلبه بلمسته التي لم تذقها قبلاً الا بالقسوة وال...
اغمضت عينيها بألم، واشتدت أصابعها حول جسده الذي تحتضنه، ودفئه يتسرب اليها يمحو عنها اثر البرد والجفاء، عينيها تغامران لتتذكرا كيف كانت نظرته اليها قبل أسابيع طالت وكأنها الأبد، كيف كان يحنو عليها ويهمس لها بكلمات الحب والدفئ، كيف اقترب منها وكيف صدته بقسوتها.
اندست بين ذراعيه أكثر، تتذكر تلاعبها بالرفض حيناً والتسليم حيناً أخر، تذكرت طيورها اللتي تنتظر عودتها اليها، هديته المميزة..
ابتسمت وعادت تسمع زقزقتها وكأنما فارقتها بالأمس فقط، وغرقت في الحلم، عن ذكرى

قريبة وبعيدة.. شيء لايحدث الا في الخيال وربما ربما حين تغمض عينيك وتغرق في حلم بعيد المنال.

ذكرى كانت يعطرها شذى الريحان، في أمسِ بدا وكأنه نسجٌ من خيال..

"أبدو سخيفة"

همست مخنوقة.. عينيها في المرآة ودموعها تبلل وجنتيها وعينيها لاتفارقان ذلك الشيء البغيظ الذي يكلل رأسها..

"بل تبدين جميلة، سيدة حقيقية"

"ماذا سيقول عني الفتية؟ سيضحكون علي؟؟ البارحة فقط كانت أصارع سيف وأوس على بساط غرفة المعيشة أمي"

"لقد كبرتِ ياصغيرتي، وحان الاوان ليعرف الصبية أن هناك حدود لتعاملهم معكِ حتى أوس، أخيك"

زمت شفتيها بعد رضا وحزن.. وهمست بألم

"لا أزال صغيرة وأريد اللعب معهم ماذا سيقول جساس؟"

ضحكت أمها بمرح وهمست لها بحنان

"جساس بالذات هو من سيفاجئك.. هيا"
تأملت نفسها لمرة أخيرة، ثم لحقت أمها..\
بتردد خطت اليهم..
كانوا في الحديقة الخلفية حالما ظهرت من خلف ظهر أمها حتى وقع سيف وأوس على ظهريهما ضاحكين، يقهقهان بجنون جعلها تصرخ بحنق وتشرع بالركض..
"صواااااان"
سمعت صوته ولكنها لم تكترث.. ركضت وركضت..
تفلت كلال رأسها ووقع منها وتطايرت خصلات شعرها خلفها ..
وصلت الى شجرتها المعتادة وقفت لاهثة..
وسرعان ماوصل اليها..
"مجنونة"
هتف بغضب.. رفعت عينيها الباكيتين اليه وهمست مخنوقة
"يضحكون علي!!"
"فليذهبا الى الجحيم، أنت تطيعين ربك، وتخبئين حسنك لي.. فماحاجتك بالأحمق ومهرج البلاط؟"

اتسعت عينيها بذهول وهمست
"ألست غاضباً؟"
ابتسم برجولة مبكرة ورفع كلال رأسها ووضعه عليها، ثم أشاح بظهره وهمس
"غطي شعرك بحجابك صوان، منذ الأن ليس من حق أحد رؤيتك بهذا الجمال"
رفعت يديها تتحسس الحجاب الذي ترتديه لاول مرة في حياتها وهمست بتوتر
"حتى أنت؟"
"وبالذات أنا.."
همس بخشونة ثم رمقها بطرف عينه وهمس بمكر
"سأعلم نفسي الصبر، كلها سنوات قليلة وتصبحين عروسي وتصبحين من حقي"
ابتسمت بخجل وسارعت لتغطية شعرها بارتباك وهي تهتف
"لازالت سنوات طويلة"
التفت لها بابتسامة عريضة وقال بسعادة
"للصبر حدود صوانتي، حتى أنتهي من الثانوية فقط..لن أنتظر أكثر"

اختفى اللون من وجهها وتراجعت تخفي خجلها واضطرابها ليقطع طريقها وتمتد ذراعه نحوها فتتسمر برهبة، ولكن ذراعه لم تمسها!!
أصابعه تلككت أمام وجهها وابتلع ريقه بصوت مسموع قبل أن يتراجع هامساً
"للصبر.. حلاوة لم يجازيها الله سبحانه وتعالى سوى بالجنة"
"وأنتِ صوانة.. أنت جنتي.. قُربُكِ جنةُ الأحلام وبُعدكِ جنة شوقٍ لاينام"
"جسااااس؟!"
"نعم ياجنتي"
همس لها بغرام.. لتتوه في عينيه ونظرته وأصابعه التي طالت وجنتها ولامستها بنعومة..
تسحرها فأغمضت عينيها وغرقت في مشاعرها تشعر بلمسته أقرب، أدفأ أكثر جرأة..
لمسته التي احتوتها الى دفئ حضن عشقته وامتزجت الأنفاس برعونة عشق ظل معذباً لسنوات..
لمسة تحولت بفعل الزمن..

امتزجت بخشونته، واستعارت منه قسوته وشجونه..
فتحت عينيها لتقابل عينيه..
شقاوة الصبي اختفت لتنظر في عيني الرجل الكامل، لحيته النامية، وجهه المشوه.. ونظرته الحائرة..
"صواااان؟!!"
شهقت بخوف وحاولت الابتعاد عن ذراعيه المحكمتين حولها، بقوة يُحسد عليها رغم جراحه..
ولكن هيهااات..
قبضته لم تكن هينه..
كانت كالجحيم..
أبعد ماتكون عن الجنــة!!
-دعني جساس أنت تؤلمني..
هتفت مذعورة، ليشتم بقذراة ثم يرميها عنه بقسوة جعلتها تقع عن الفراش صارخة بألم وهو يصرخ بعنف:
-ماذا كنت تفعلين؟؟ تسلين نفسك وأنا شبه مخدر؟؟ أهذا ماتوصلت له دماغك الملتوية؟

-اصمت.. لاتقل شيئاً..
هتفت بألم.. لاتريده أن يشوش ذكرى الجنة التي كانت تعيشها منذ قليل ولكنه لم يفعل بل صرخ بألم:
-ماذا تريدين أنت صوان؟ هل تريدين اثارة جنوني؟ تعذيبي؟ أهذا ماتريدينه يا ابنة عمي؟
-لا لا..
هتفت بحرقة ليصرخ فيها بعذاب:
-تعرفين أنني لا استطيع.. لا اقدر .. لم أعد رجلاً بما...
-توقف ..توقف.
صرخت باكية وهي ترتمي على صدره وتضع كفيها على شفتيه، لايجب أن يقول أكثرلا تريد أن تسمع رثاءه لنفسه لاتستطيع تحمل نبرة اليأس والعذاب في صوته..
-أرجوك توقف، لاتقل هذا.
أشاح عنها بقسوة يريد أن ينأى بنفسه عن رؤيتها، فهو لايحتمل عذاب الحب في أحشاءه واليأس.. اليأس الذي يكاد يطير بصوابه، كل هذا فوق احتماله..

-ابتعدي عني صوان، ابتعدي فلاشيء تفعلينه قد يعيد الروح إلي.
شهقت بألم وتساقطت دموعها وهي تنسحب بذل وانهاك.. لتتوسد الأرض الحجرية القاسية، وجساس يزفر أنفاساً طويلة عميقة محملة بالنار التي تشب من أعماقه بلاتوقف..
-هذا جنون.. مابيننا جنون..
هتف بنفس مقطوع لتنظر له بعجز.. عجز حمل رجاءاً صامتاً ولكنه لم ينظر حتى ناحيتها كل مافعله كان أن استند بذراعيه ونهض ليجلس مستقيماً على الفراش، ينظر لها من علو، حملت عيناه مشاعر غاضبة متوحشة، فأشاحت عنه تريد الهروب بدموعها لم تعد تتحمل الذُل أكثر..
-تعالي.
همس بخشونة لتنظر له بتردد فيزمجر بها بقسوة:
-انهضي وتعالي بجواري الأن.
نهضت متعثرة واقتربت منه.. وقفت تقدم خطوة وتؤخر الثانية..

نظر لها من رأسها لأخمص قدميها، ثوب نومها النيلي الحريري واسع عليها بالكاد يظهر مفاتنها ويبدو كغربال على جسدها النحيل.

-تعالي.

همس بثقل لتقترب مأسورة بنظرته تجلس عند قدميه، قبض على كتفيها وقربها أكثر، اتسعت عينيها وضمت ذراعيها اليها بخوف فابتسم:

-تخافينني؟!

نظرت له بمشاعر مختلطة بين الخوف والأمل..

لامس وجنتها بخفة ثم نزل بلمسته لعظام كتفيها الرقيقة ثم حاشية ثوبها الناعم وهمس لها بخشونة:

-هذا ماكانت ترتديه جدتي المرحومة صوان..

لم يترك لها الفرصة للرد بل سرعان ماكان يشق قماش الثوب نصفين بطريقة فجة جعلتها تجفل مذعورة وتسرع لتغطية ماظهر من جسدها لعينيه اللتي لم تترك تفصيلة واحدة الا وتشبعت منها قبل أن يقبض على ذراعيها ويجبرها على الاقتراب منه هامساً:

-أنت كما كنتِ دائماً صوان.. أجمل الجميلات.. لم تملئ يوماً عيني امرأة كما فعلتِ، أنت وحدك.
حاولت تخليص ذراعيها منه، ولكن قبضته كانت قوية وجافة وانتقلتا بخفة لتسيطرا على جسدها كله وتحيطا خصرها بتملك وتقربها منه..
-جسااااس؟!! ماذا تفعل؟!
همست بخوف.. ليضحك بخفوت.. وعيناه تلمعان بجنون بينما ذراعه تضغط على خصرها بقسوة والأخرى تلامس عنقها نزولاً حتى مقدمة صدرها وهو يهمس:
-عشت حياتي منذ وعيت لرجولتي وأنا أحلم بهذه اللحظة، أنا وأنت في منزل يخصنا وحدنا.. أنت بين ذراعي، حقي وبالكامل..لاشيء.. لاشيء ولاحتى الهواء يفصل بيننا صوانة..
اغمضت عينيها بعذاب.. كلماته تسللت اليها. للحلم والرغبات المدفونة بالكامل في اعماقها.. لترتجف وهي تميل نحوه طواعية بينما يواصل بصوت متخم بالمشاعر:
-زوجتي.. امرأتي أنا صوانتي..
-أتدرك منذ متى لم تنادني هكذا؟!

همست بألم .. فأغمض عينيه وضغطها الى صدره أكثر برفق.. متنشقاً عبق رائحتها وهي تواصل:

-انا كلي ملكك الأن جساس، كلي من أجلك، ولكنك تصر على تعذيبي وإيلامي.

رفع وجهها اليه بحنان.. غرق في عينيها قبل ان يغمرها في عناق ناعم.. ضغط بشفتيه وانتظر بصبر حتى استقبلته برحابة وذراعيها تلتفان حول عنقه طواعية وهي تبثه عشقها وحبها اللامحدود..

قبلها كأنه لم يفعل يوماً، كعطش وغمروه في نهر صافٍ فعب دون كلل.. اختفى العالم ومشاكله من عقله وقلبه.. ذلك الثقل الذي قيده وجثم على روحه انمحى مع لمستها الخجولة الشغوفة، قدمت له كل ماقد يريده رجل.. قدمت حياتها، حبها وشوقها اللامحدود..

ابتعد عنها لتدرك انها تتلهف لعودته..

-تعرفين أنني أحبكِ..

همس بثقل لتبتسم وتلامس وجنته الخشنة هامسة بغرام:

-وتعرف أنني لم احب سواك، أنت فقط جساس.
غمر أنفاسه في عبير شعرها وهمس بعذاب:
-لماذا اذاً؟؟ كل تلك السنوات صواااان.. كلها ضاعت هبااااء.
-شششش..
همست بعذاب وعادت تغرقه في رحيق شفتيها وكانها تريده أن ينسى.. لاتريد اليأس والذكريات أن تحطم مابينهما الأن.. ليس وشيئاً فشيئاً الجليد..والحزن بينهما يذوب وينتهي..
-اعشقك جساس.. ياجنتي..ياحبيبي..
-جنتي؟!
همس بوهن..لتبتسم بخجل فيقبل طرف أنفها ويهمس لعينيها:
-أنتِ جنتي وجحيمي.. نعيمي وعذابي صوان.. أنتِ كل حياتي.
انسابت دموعها وعانقته بقوة.. تشبثت به كالأطفال وهتفت:
-أنت كل ماأريد.. أنت جسااس.. خُلقت لأجلك، وكبرت لأكون امرأتك.. أنا احبك جساس، أحبك منذ سنوات.. منذ ولدت.. من قبل أن أولد.. وحتى

أموت.. وبعد أن أموت.. أنت حبيبي.. زوجي.. أنت قلب الصوانة.. لأجلك أنا صلبة وقاسية.. لأجلك أذوب من الداخل وأحترق..

اغمض عينيه بقوة .. النار التي كانت تشتعل بداخله تذوي، ذكرى خيانتها تُمحى ولايبقى سوى لمستها التي تعيد نبضه للحياة.. شعر بألم ساقيه يزداد.. ولكنه لم يبعدها..

لم يجرؤ أن يتخلى عن دفئ حضنها ونارها التي تضطرم بين ذراعيه.. لذا همس لها بعاطفة شديدة:

-أحبك صوان.. مهما فعلتِ مهما قتلتِ هذا القلب الممرغ في عشقك فهو سيعود للحياة فقط ليجثو على ركبتيه أمامكِ..

ابتعدت عنه بسرعة وهتفت باستنكار وهي تمسح دموعها:

-انت السلطان.. سلطاني.. وتاج رأسي، لن ينحني سوى قلبي لك.. ويجثو أمامك.

-انت صوانتي.. سلطانتي فكيف أسمح بأن تجثين ولو كان حتى لي أنا.

عاتبها برفق لتحمر وجنتيها وتخفي خجلها على صدره فيهمس لها برقة:
-ستنتظرينني؟ حتى أقف على ساقي.. وأعود كما كنت؟؟
-لا..
هتفت وهي تبتعد عن صدره بقوة وترى الارتباك في عينيه فابتسمت بدلال وأسندت جبينها لجبينه وكفيها تحيطان بوجنتيه وتهمس بهيام:
-لأنني سأكون معك.. هنا، خطوة بخطوة.. حين تقف من جديد سأكون أنا من يمسك بذراعك ويسندك.
التمعت عيناه وغصة خنقت صوته لتخرج حروفه متحشرجة وهو يرد بمرح:
-سأوقعكِ أرضاً صوانتي.. انا ثقيل للغاية..
ضحكت بخجل ليضحك هو بالمقابل ويقبلها بعمق قبل ان يبتعد لتهمس هي:
-سأتحمل، أنا قوية للغاية وأنت لاتعرف..
-نعم..
قال بشرود واغمض عينيه ثم ارتمى برأسه على صدرها وهو يهمس:

-أنت أقوى مما سأكون عليه يوماً.
ضمته الى صدرها بكل الحنان الذي قد تحتويه أنثى، بكل حب..
-أنت مصدر قوتي، أنت .. كل شيء لي حبيبي.
ابتسم مغمضاً عينيه فقط يتمرغ في النعيم الذي يسكن اليه، يمده بالقوة والعزم .. بالثقة والحب.
-ماهذا؟؟
همست بقلق وهي تنصت بحذر للصوت المتصاعد من خارج المنزل والذي جلب الاهتمام لعيني جساس وهو يرد بتوتر:
-سيارة؟ من سيأتي ليزورنا في هذه الساعة؟؟
-سأرى..
همست وهي تفلت ذراعيها من حوله وتسارع لوضع مئزرها عليها قبل أن تخرج من الغرفة، الى الممر وتسرع نحو الباب الأمامي..
-أوه .. رحماك يا ربي..
وقفت مشلولة أمام من ظهر لها من العدم.. بابتسامتين خبيثتين.. كانت تنظر لحماتها وابنة اختها المزعجة.

لتدرك أن النعيم والجنة التي عاشتها منذ لحظات فقط..
قد غزتها الشياطين!!
***
لم يستطع أحدهما الخلود الى النوم، كان من المفترض أن تكون أسعد ليالي حياتهما معاً اعترافات الحب والمشاعر التي طغت بينهما على صوت كل عقل، الحنان الفائض منه والاستسلام الشغوف منها كانا يُغنيان عن كل الكلام، ثم جائت الصاعقة التي لم تكن لا على بال أحدهما ولا في خاطره..
لقد تقبل أنها لم تكن عذراءه..
وتقبلت أنها ستلقي بالماضي خلف ظهرها وتثق به حبيبها وزوجها.
ثم انتهى كل هذا مع احساس خاطف منها بالألم، وادراك مذهول منه أن بين يديه عذراء حقيقية لم تدنسها يد من قبله.
كانت المفاجأة أقوى من أن يقدر على تحملها..
لقد توقف ينظر لوجهها المتألم بذهول، وراقب

الألم في عينيها يختفي شيئاً فشيئاً قبل أن تبادله النظرات المصعوقة وتنعقد لسانها ولاتنطق..

-كيف؟

همس بشحوب لتتصلب بين يديه وتبدأ أطرافها بالتجمد لينفض عنه ذهوله ويصرخ بها:

-لا.. لا انظري الي ترنيم.

انتفضت وصرخت بألم وهي تحاول دفعه عنها وقد تغلبت عليها مشاعر متعددة لا تدرك كيفية السيطرة عليها، هتفت به أن يفلتها:

-اتركني.. دعني أذهب.

-لا.

هتف بعنف وقبل أن تصرخ بجنون كما رأى في عينيها كان يضمها الى صدره ويستولي على فمها برقة بالغة ويبثها حبه وشغفه بلاتوقف..

مشاعرها الغاضبة والمتألمة ناضلت لتسيطر عليها ولكنه لم يسمح لها، ليس وهو ينال ماكان يريده منذ دهور ولايدرك، ليس وهي تصبح ملك يمينه وحبيبته وزوجته قلباً وقالباً.

لم يتركها لألمها ولم يدع لها متنفس سوى أنفاسه هو..

قبلاته حملتها بعيداً عن دوامة الألم والأفكار السوداء وعادت تستسلم له بكل مودة ورحمة.
ويعود ليمتلكها بقوة عاشق وجد فيها سلواه وملاذه.
بعد ساعات.. كان نور الصباح يحاول التسلل عبر الستائر المسدلة..
فتح أوس عينيه بعد أن استسلم لغفوة، كانت لاتزال بين ذراعيه لايزال يحتضنها كما الليلة الماضية تدير له ظهرها وشعرها الكثيف ينسدل ليغطي وجهها. لم تكن نائمة!
النهنهات الرقيقة المنبعثة منها تشير وبوضوح أنها تبكي..
وتحاول ألأ يشعر ببكاءها ولكنه فعل.
-ترنيم؟!
همس بخشونة وحاول أن يديرها تجاهه ، ولكنها كانت ترفض.
تتشبث بوسادتها وتعضها بقوة كي لا يسمع صوت دموعها، ربض عليها كالدب وأحاطها بذراعيه بقوة وهمس في أذنها بحنان:
-لماذا الدموع؟ ألهذه الدرجة كنت متوحشاً معكِ؟

انسابت دموعها بقوة أكبر وامتزج الألم بالخجل وهي تحاول اخفاء وجهها عنه بينما تحاول التحرر من قوة ذراعيه، وهي تهمس بصوت مخنوق:

-ابتعد.. اتركني الأن أرجوك.

ابتسم بسعادة لسماع صوتها الذي كان لأذنيه أشبه بترنيمة عذبة حقيقية وهدر من أسفل حنجرته كهدير دب راضٍ وهو يغمر وجهه في جانب عنقها من الخلف ويهمس:

-مستحيل أن أبتعد عنكِ ترنيمة .. ليس بعدما أصبحتِ لي وحدي.

غمرت الدموع عينيها أكثر وأصبحت نهنهاتها الرقيقة نشيج عنيف ينتفض له جسدها وجعل أوس يبتعد عنها كالملسوع وبقوة يرفعها اليه متجاهلاً اعتراضها الضعيف لتجلس بين ساقيه وهو ينظر في عينيها الباكيتين ليهتف بخشونة:

-مابكِ ترنيم؟ لم كل هذه الدموع؟؟ ألست سعيدة؟؟

-سعيدة؟؟

هتفت بمرارة.. ثم خفضت رأسها بذل وهمست بألم:

-لقد عرفت أمس أن أبي ألصق بي أبشع تهمة يمكن أن تُلصق بفتاة.. دون وجه حق..
تراجع بذهول ينظر للوجع في وجهها ولصوتها البائس الذي تسلل اليه وهو يدرك حقيقة ماتقول بينما تواصل هي بانهيار:
-أكثر من ثلاث سنوات قضيتها في ذل وخوف من أن يعرف أحد ما الحقيقة التي أوهمني بها والدي وعائلتي، هربت بعيداً لأنني لم أعد أتحمل نظرات الشفقة والأسى والاتهام من أعينهم، عشت في عذاب وكوابيس لاتنتهي بسبب مافعلته وبسبب ماظننت أنه قد فعلوه بي؟؟
وتريدني أن أكون سعيدة؟؟!!
ليتني لم أعرف..
شهقت بوجع وعادت تصرخ بعذاب:
-ليتني لم أعرف أن عائلتي دمرتني، وانتهكتني.. وأن أبي.. سندي وحمايتي في هذا الكون هو من ذبحني ومرغني في الوحل بادعاءاته الكاذبة.
-اششششش..
هتف بها بعنف وهو يغمرها بين ذراعيه خانقاً صرخاتها الباكية في حنايا ضلوعه، ويهتف بها:

-مافعله والدك شيء مثير للغثيان ترنيم، شيء حقير ووضيع لايقبله عقل ولا.. لاشيء بتاتاً..
تسارعت أنفاسه بحقد .. كلماتها الموجوعة أطارت بمزاجه الرائق وسعادته التي قاربت عنان السماء وجعلته يعي الحقيقة المرة..
حقيقة أنها عاشت لسنوات في ظل تلك الفكرة الحقيرة القاسية..
لم يكن يتخيل العذاب الذي عاشته حتى رأه الان في مقلتيها وشعر به مع فيض دموعها..
كيف يمكن أن يسول لوالدها أن يسمح بهذا الكذب ويلفق عليها تلك التهمة باطلاً؟!
شعر بالألم يغزوه وهو يضم جسدها الضئيل اليه أكثر وأكثر، حتى التصق جلده بجلدها..
حتى باتت نبضات قلبها صدى لنبضاته، حتى ماعادت دموعها تسيل من على وجنتيها بل مباشرة على عضلات صدره العارم.
-لن أسمح لهم بأن يؤذوك بهذه الطريقة ياحبيبتي. ليس وفي جسدي عرق ينبض. لن أسمح لهم حتى بالتفكير في أذيتك ياملاكي، أنت الأن معي ترنيمتي. لا أحد سيجرؤ على مسك بسوء.

انهى كلماته بأن رفع وجهها اليه ونظر في عمق عينيها بهيام:

-ماعليكِ هو نسيان هذا الماضي، اغمضي عينيك وارميه خلف ظهرك كي لاتريه ابداً من جديد. ثم انظري الينا ترنيم.. لما بيننا لكل ماجمعنا وماسيجمعنا معاً في المستقبل.

هزت رأسها بشرود وكأنما كلماته غريبة عنا ليواصل بحنان:

-انظري للجانب الجيد، لاشيء حدث أنت صاغٌ سليم لم تدنسك يد من قبل.

ثم التوى حاجباه بخبث وشفتاه ترسمان ابتسامة ملتوية وهو يميل عليها ليهمس قريباً من شفتيها:

-أو على الأقل كنتِ كذلك..حتى ليلة أمس.

احتقن وجهها بخجل وحاولت خفض عينيها ولكنه كان يأسرهما بتسلط بينما يهمس بشوق:

-يالله ترنيم.. رغم كل ماعشته في حياتي.. رغم كم النساء اللاتي عرفتهن، رغم افكاري المتحررة وتربيتي في عالم لم يعترف بعذرية النساء الا كشيء بيولوجي سخيف يجب التخلص منه..

-انت وقح.. توقف.
همست تقاطعه بصوت مخنوق ليضحك مقهقهاً ويغمر شفتيها بقبلة شغوفة أثارت صوابها وخطفت أنفاسها قبل أن يعاود كلامه بأنفاس لاهثة:
-أنت زوجتي، يحق لي التواقح معكِ ألا يحق لي؟!
همس بتلاعب لتبتسم رغماً عنها ورغم الدموع التي لازالت تنساب من عينيها وهي تهز رأسها برفض ليضحك بمكر ويعاود تقبيلها برقة هذه المرة وبين القبلة والأخرى يهمس برفق:
-بلى .. يحق لي .. ويحق.. ويحق.. ويحـ..
-تووقف..
همست ضاحكة وهي تصد قبلته لتقع على صفحة كفها المفرودة فيستغلها بمهارة عاشق ويقبض عليها برفق ثم يغمرها بالقبلات بحنان وهو يهمس:
-كل جزء فيكِ ترنيم .. نغمة متفردة .. سأتعلم كيف أعزف عليها منفرداً منذ الأن وصاعداً..
-أووسي ..

همست بدلال ليغمض عينيه بنشوة ثم يفتحهما ليرمقها بحب عميق خفق له قلبها بجنون ليواصل كلماته العاشقة بحنو:

-حين أخذتك بين ذراعي ليلة أمس، لم أفكر بأمر عذريتك.. لم أفكر سوى بأنك مجروحة ومتألمة، من ذكرى ليست في عقلك من الأساس، كل ما أردته هو أن تكوني لي، وبنفس الوقت أردتك أن تعرفي وتدركي أنني لكِ أيضاً وبنفس الطريقة حبيبتي. أردتك أن تتمتعي .. كأي امرأة وأي عروس.. أردتك أن تستبدلي فكرتك الخاطئة والمتألمة بأفكار جديدة وحية، كنت أعرف أنني لست رجلك الأول وهذا كان يقتلني ترنيم، ولكن.. من أجلك أنت تركته كله خلف ظهري.

-اووس..

همست بوجع ليسكتها باشارة من يده ويواصل:

-اكتشفت معكِ ورغم كل سنوات حياتي في اوروبا وفي عالم مشحون بالمغريات التي لم أحرم نفسي منها أبداً.. اكتشفت أنني مجرد رجل آخر رجل شرقي كان يريد امرأته له وحده.. وأمس بالذات اكتشف أنها كذلك.

همس مكملاً برقة وكفيه يحيطان بوجهها ويقربها من وجهه، شفتاه تلامسان حدود وجهها برقة كضرير يتعرف على طريقه وهو يواصل بهمس:
-كنتِ لي وحدي، كنتُ رجلك الأول.. احساس وتجربة لم أخضها مع سواكِ.. وكأنها المرة الأولى لي أنا الأخر.. ورغم كل خبرتي وجدت نفسي أتخبط.. وكأنني طفل لايعرف طريقه ومايجب أن يفعل.
خشيت أن أؤذيكِ أكثر.. ورغبت أن أمتلككِ بأسرع ماأستطيع..
كنت مشلولاً لدقائق ترنيم، عاجزاً لاحول لي ولاقوة..
كنتِ أعظم هدية تلقيتها في حياتي وستظلين.. الى الأبد، يا ترنيمتي الجميلة.
ذابت حلقت وكأنها طائر بلا جناح يسمو لأعلى سماء ولا يقدر على السيطرة على ارتفاعه.. يرتفع ويرتفع حتى كاد صدرها يختنق من فرط البهجة وهي ترتمي على صدره هاتفة:
-أحبك أوس، أحبك أووسي أحبك.

اتسعت ابتسامته وهو يعانقها بقوة ونبرة صوتها المهزوزة تسيطر على نبضات قلبه وترسمها برقة ودقة وكأنها مخلوقة لها وحدها تنبض لاجلها واستجابة لنبضها الذي جاور نبضه وسيطر على ايقاعه.

-وأنا أحبكِ ياملاكي.. أحبك كما لم اعرف من قبل وكما لم يحدث أبداً..

غرقت بين ذراعيه كقطة متخمة، وتركته يعانقها من جديد، يغمرها من جديد..

يعشقها ويعلمها كيف تعشقه بالمقابل..

في ذلك المساء

وقفت ترنيم تنظر لثوب العرس الذي ارتدته لأوس في الليلة الماضية وابتسمت وهي تلامس القماش اللطيف الناعم، وتنهدت هامسة للثوب بفرح:

-لقد فعلت ماقلتِ لي عمتي، لقد ارتديته للرجل الذي أحب.

-لمن تهمسين؟

انتفضت وهي تنظر للباب حيث وقف أوس متكئاً على جانبه وينظر لها بفضول.. رأى كيف

احمرت وجنتيها وكيف سارعت لارجاع الثوب الى الخزانة ووقفت أمامها كطفلة مذنبة..

-ماذا تفعلين؟!

تسائل بفضول أكبر وهو يقترب منها بخطوات متمهلة بينما تتراجع هي بابتسامة خجولة وتهز رأسها ببراءة ليهتف بسخط:

-لاتجوز حركاتك البريئة هذه وعينيك تلمعان بهذه الشقاوة. متى تعلمت القيام بهذه الحركات يافتاة؟

-ماذا فعلت؟؟

هتفت ببراءة جعلته ينفجر بالضحك وهو يحاصرها بجسده الطويل عنها فتهمس بحنق:

-لم أرتدي حذائي بعد.. أنت طويل للغاية..

-أنت قصيرة فلاتتذمري من طولي..

خطت نحوه لتقف على قدميه الحافيتين فيتأوه بمرح ويهتف بها:

-وثقيلة جداً..

مدت له لسانها بمرح وعقدت ذراعيها خلف عنقه بالكاد تصل لمستوى ذقنه:

-أريد شوكولاتة..

رفع حاجبه بمكر:
-ممتاز.. وأنا أيضاً أريد الشوكولاتة.. ولكنني أشك بوجود مانريد في المطبخ، أنا لم أحضر سوى الاساسيات.
زمت شفتيها بحزن فسارع:
-ولكن..
-لكن..!!
تسائلت تحثه فابتسم:
-سوف أحضر لك شيئاً قريباً.. يمكنني صنع شيء ما ان رافقتني.. وملئتِ المطبخ بوجودك.
-سوف أساعدك، رغم أنني لا أفقه في المطبخ شيئاً.
-ستتعلمين..أنا سأعلمك، ولكن.. هناك أمر بعد..
تردد فعقدت حاجبيها بتساؤل ليأخذ نفساً عميقاً ثم يقول بحماس:
-أريد ترنيم القديمة أن تعود.. أريد الفتاة التي تحدث عنها علي العزب، المرحة المحبة للحياة وقد تخلصت من كل أشباح الماضي حبيبتي، أريد أن تعودي كما كنتِ..
ابتلعت ريقها بصعوبة ثم همست:

-سيأخذ هذا وقتاً أوس.. وربما لن يحدث قط.
-سيحدث.. يحتاج الأمر لبعض الوقت وأنا سأكون الى جوارك على طول الخط.
ابتسمت واومأت له ليأخذ بيدها ويسحبها الى المطبخ..
ينوي ان يعيد ترنيم القديمة.. لتعود الى الحياة مهما كلفه الأمر.
***
-هل تنوين المضي قدماً بما تفعلينه؟
أخذت نفساً عميقاً ثم عادت لماكانت تفعله، تمشيط شعرها بفرشاة ناعمة بضربات رتيبة متكررة وعينيها تحيدان عن نظرة امها المسلطة عليها في المرآة..
-نعم أمي، انه قراري.
-لو علم والدك.. يالهي سارة نضال سيقتلك.
-ابي لن يعلم بشيء. أنت لن تخبريه وأنا لن افعل.
اقتربت منها أمها بسرعة وجلست جوارها هاتفة بحرص:

-أنت لاتعرفين مع من تلعبين. عائلة البشاوات ليست بالخصم الهين ولا الغبي، أنسيتِ بأنني كنت أعيش وسطهم، تلك العائلة ليست جيدة.

تنهدت سارة وتركت الفرشاة من يدها والتفتت لأمها قائلة بحدة:

-وأنا ارتكبت غلطتك نفسها وتزوجت أحدهم.. ولكنه لم يمت بل قتلني أنا أمي، ركان حطم كل مابيننا لقد حطم قلبي وأنا لست مستعدة لأن أبقى واقفة في ركن بعيد أراقبه يتسلى مع كل امرأة تحلو له..

ثم نهضت ترقد على سريرها وعينيها على السقف بينما تحيط بطنها بكفيها وتواصل:

-سيدفع ثمن خيانته، سيحترق بناره كما احترقت أنا، ولن أرحمه أمي.

-حالما ترينه ستغيرين رأيك..

نظرت لأمها ساخطة فرفعت حاجبها وهتفت:

-أنت تعشقينه سارة، خيانته المزعومة لن تغير حبك له واصرارك على الانتقام هو دليل واضح.

-مزعومة؟؟

صرخت بحنق..

-لقد رأيته بأم عيني، رأيته يعاشر تلك الزاحفة سييرا والتي سأخنقها بيدي.. تلك التي حاولت أخذ رجلي مني، سأسحقها كما تستحق حشرة مثلها.

-أنت غاضبة سارة..

قالت أمها بحنان وهي تجلس جوارها، احاطت وجنتها ونظرت لعينيها مباشرة هامسة بعطف:

-أنت غاضبة من ركان، ولكن تصرفك بالتآمر مع ابن عمه ضده ليس محموداً بنيتي، أنت ستوسعين الشق بينكما لاأكثر.

-أنا أكرهه..

همست مخنوقة لترد أمها بذكاء:

-من منهما بالضبط؟؟ شاهر أم ركان؟

اتسعت عينا سارة وكادت تقفز لسانها بإسم ركان ولكنها ألجمتها بحذر والحيرة تزرع ملامحها وتثير شجونها.. اختناق حبس أنفاسها وجعلها تقترب من أمها لتضمها تلك بحنان:

-لاتخافي سارة، الحب قد يكون مخيفاً بعض الشيء ولكنه ملاذنا كلنا، لاتخشي أن تحبي.. وبدل أن تقاتلي لتحطمي هذا الحب.. قاتلي للحفاظ عليه.

رفعت عينين دامعتين لأمها وهمست مخنوقة:
-وإن لم يكن الحب يستحق.. ان كان الحبيب هو سقمٌ وجب الشفاء منه؟!
-حين تكونين متأكدة مائة بالمائة.. حين تغسلين يدكِ منه تماماً سارة.. حين تحاولين مرة واثنتين وتفشلي..
-وماذا عن كرامتي أمي، أنا السلطانة.. وذلك الرجل تعمد خيانتي.. هو خانني على فراشي ومع أحقر مخلوقة قابلتها في حياتي.
-اهدئي ..
همست لها أمها بحنان.. ثم قالت بتعقل:
-أعرف أن كرامتك مجروحة.. ولكنك لم تعطيه الفرصة سارة، لا ليشرح ولاحتى ليبرر، ربما .. ربما يكون له العذر .. أي عذر.
-لاعذر للخيانة.
هتفت بألم ودموعها تتفجر لتغمض امها عينيها بيأس ثم تحاول استغلال أخر ورقة هاتفة بيأس:
-ماذا عن طفلك سارة؟؟ ماذا ستقولين له ان كبر وهذا العداء بين والديه؟؟

شحب وجه سارة وعادت لتضم كفيها على بطنها وهمست:
-طفلي هو لي، وسيقف بصفي حين يكبر ويفهم.
-طفلك هو طفل ركان، وأنت لن تحرميه منه ولن تحرمي طفلك من أبيه.
أشاحت عن أمها وهمست:
-هناك الكثير من الوقت أمامي للانتقام من ركان قبل مجيئ طفلي لهذه الدنيا.
-وتظنينه سيكون سعيداً بأن يكون جزءاً من هذه المركة القذرة سارة؟!
اغمضت عينيها بقوة لتتنهد أمها وتسند رأسها بيديها وهي تفكر بأي طريقة أخرى لاقناع ابنتها حين سمعت طرقاً على الباب..ودخلت احدى العاملات في المنزل لتخاطب سارة:
-هناك سيد في الأسفل يطلب مقابلتك سيدتي..يدعى شاهر الباشا.
نهضت سارة بدهشة بينما صاحت أمها بحنق:
-مالذي يريده؟ كيف يجرؤ على المجيئ؟
-امي.. أنا يجب أن أقابله..

نهضت سارة.. غيرت ثيابها بسرعة متجاهلة الشتائم التي أنزلتها امها على رأس الباشا وكل أفراد عائلته.. كانت متفاجأة من مجيئه ولكنها فضولية لتنزل وترى مايريد بالضبط..
ارتدت سروالاً من المخمل السكري وقميص وردية فضفاضة وحذاء عالي الكعب ثم نزلت اليه بعد أن عقصت شعرها أعلى رأسها وثبتته..
ترجت أمها أن تبتعد عن أبواب الصالون الشرقي وأن ترسل لهما القهوة.. ثم دخلت اليه..
وقف حالما فتحت الباب واحتلت الابتسامة وجهه كله وهو يراقب كيف احتوتها تلك الملابس الأنيقة وأظهرت رشاقتها وفتنتها..
-مساء الخير سلطانــة..
همس وهو يقترب ليلتقط كفها بين يديه ويقبل ظاهره بعمق وعينيه لاتفارقان عينيها اللتان ابتسمتا له بحذر:
-مساءالخير باشا.. اعذرني على السؤال الوقح ولكن.. مالذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟
ابتسم بتسامح وقادها الى الاريكة المقابلة لنار المدفأة وجلس جوارها وهو يقول:

-أعتذر لمجيئي في هذه الساعة ودون موعد سابق حتى ولكنني سأسافر في الصباح الباكر سلطانة، وكان علي رؤيتك قبل رحيلي.
عقدت حاجبيها وهي تفكر انه اختار اسوأ وقت للسفر، لقد بدأت خطتها للتو.. ف الى أين سيرحل هذا الرجل؟
-الى أين؟؟
تسائلت ببرود ليرد ببسمة حقيقية:
-روسيـــا.. انها حفلة رأس السنة، وعلي أن أكون هناك.. فستعلن خطبة نيران رسمياً على احد أفراد العائلة المالكة..
رفعت سارة حاجبها وهمست بسخرية:
-حقاً؟؟ ألاتزالون تحتفظون بألقاب لتلك العائلات البائدة..
-كما لازلتِ تحتفظين بلقبك سلطانة.
رد بابتسامة فتجهم وجهها ونهضت تفرك يديها بتوتر:
-وهل جئت لتوديعي؟
اتسعت ابتسامته ونهض ليقف أمامها بكل قوته:

-على العكس.. جئت لدعوتك.. أريدك أن ترافقيني.
اتسعت عينيها لوهلة من جرأته بينما يواصل هو بدهاء:
-وما أكثر من ظهورك معي كرفيقة سيُحسب كصفعة على وجه ركان وعشيقته.. هما معزولان تماماً الله يعلم أين.. وأنت برفقة رأس عائلة الباشا.. تحت قباب قلعة الأمير سليم الثالث.. في حفل رسمي سيُدعى له علية القوم من كل أنحاء العالم..
ترددت .. في الرفض والقبول.. فرغم اغراء الفكرة الا أنها كانت امرأة متزوجة..ومن عائلة شرقية مهما عاشت خارج حدود شرقيتها ستظل مقيدة اليها..
-لا أعرف..
همست بعدم يقين، ليقترب أكثر..
-لاتفكري سارة، دعينا نغامر.. أنت تقامرين بكل شيء الأن فلاتدعي الأفكار البالية تهز من قوتك وجرأتك.. أنت ترغبين بالانتقام.. فدعي نفسك لها

ولاتقاوميها ليس وبيدك القوة عزيزتي وتستطيعين.
-يجب أن أفكر.
ردت بتوتر، ليزفر بحنق ثم يقول:
-أنا سأغادر في السابعة والنصف من صباح الغد، فكري.. وسأنتظرك .. سأبعث بسائقي والذي سينتظرك حتى موعد اقلاع الطائرة ولن يتحرك إلا بكِ.
ابتلعت ريقها بصعوبة وراقبته يرتدي معطفه ويستعد للخروج وقبل أن يفعل:
-كوني قوية وجريئة كما هوخيالك وأفكارك سارة، لاينفع أن تفكري بجموح وتتردي كالأطفال عند أول خطوة.
راقبته ينصرف بعينين مظلمتين حتى انطلقت سيارته تشق صمت الليل، شعرت بأمها الى جوارها والتي قالت لها بتحذير:
-إياكِ أن تفعلي ماطلبه منكِ.
-أمي؟؟!!
هتفت بها باستنكار لتهز توبايا كتفيها:

-نعم تنصتُ عليكما، ماذا كنت تتوقعين مني؟؟
أقف مكتوفة الأيدي وأنت بالداخل معه وحدكما؟؟
زفرت سارة في حنق وسارعت للصعود الى أعلى وهي تحار كيف يمن أن تقنع امها أنها تفكر جدياً في السفر معه في الصباح الباكر؟!!
***
اشتد هطول الثلوج، وباتت الطرقات مغطاة بندف بيضاء سرعان ماتحولت لبساط هش تحطمه أقدام العابرين، بينما تألقت المنازل المتجاورة بأضواء احتفالات المدينة بعيد الميلاد ورأس السنة الميلادية..
وفي احد الشوارع المضاءة بزينة العيد توقفت سيارة مرسيدس سوداء مظللة مقابل أحد المنازل وبداخلها كان سليم وركان..
أشار سليم لأحد المنازل وقال بثقة:
-انها تعيش هنا..
-كيف عرفت؟
تسائل ركان بتوتر ليبتسم سليم بسخرية:
-لاشيء يخفى علي يافتى، باستطاعتي معرفة كل ما أريد وقتما أريد.

عقد ركان حاجبيه وهتف:
-اذاً أخبرني أين هي سارة؟ لابد أنك تعرف أين هي؟؟
عقد سليم حاجبيه وغمغم بغموض:
-ستعرف أين هي بل أنت ستراها أقرب مماتصور، ولكن عليك انهاء الأمور مع هذه الساقطة.. دون تهور.
-سأقتلها..
هتف ركان بشراسة ليمسك سليم بذراعه وهو يقول بحنق:
-قلت بدون تهور، لاتدعني أندم لأنني أحضرتك الى هنا.. اذهب الأن .. سيرافقك حارسي الشخصي.
-لاداعي.
هتف ركان بانزعاج ولكن سليم لم يلقي بالاً باعتراضه وتحدث بالهاتف لبضع ثوان ثم أشار لركان أن يذهب..
وفعل..

نظر للسلم الذي يقود للطابق الثاني من المنزل القديم الذي اخبره سليم ان سييرا تختبئ فيه منذ الواقعة.

نظر للرجل الذي يرافقه وقال له بخشونة:

-سأدخل وحدي.. لا اريدك أن تتدخل حتى أطلب منك.

-أمرك سيدي.

قال الرجل بهدوء ليصعد ركان الدرجات بسرعة ويقف امام الباب الوحيد امامه ويطرقه بسرعة ودون تردد.. بعد قليل سمع صوتها.. تتسائل بتردد عمن يقف خلف الباب؟!

نظر ركان للحارس جواره ثم عاد بنظره للباب وقبل أن يفكر كان يرفع سقه ويكيل للباب القديم ركلة قوية فتحته على وسعة وصرخة سييرا المذعورة تنبعث من الطرف الأخر..

لم يضيع ركان وقته بل أسرع نحوها وقبض على شعرها القصير بيد والأخر كمم بها فمها بقسوة وهو يسحبها لغرفة أخرى والحارس يغلق باب الشقة خلفهما بهدوء وكأن لاشيء حدث..

كانت سييرا تتلوى بين يديه بهستيريا ولكنه كان أقوى.. أضخم وأكثر غضباً..
رماها ارضاً.. وجثم عليها.. يثبت يديها فوق رأسها بقبضته وينزل بالأخرى على وجهها بغضب وحقد متجاهلاً صرخاتها وهو يهتف بها بجنون:
-لماذا فعلتِ كل ذلك؟؟ كيف استطعتِ فعله؟؟ كيف؟!
-اتركني.. ارجوك ركان.. لاتكن مجنوناً دعني أنت تؤلمني.
-سأقتلك سييرا، ان لم تتكلمي وتخبريني بالحقيقة كلها سأقتلك.
انتفضت الفتاة بعنف وبكت بجنون وركان يقبض على عنقها بأصابعه ويضغط بتهديد هاتفاً:
-تكلمي.. تكلمي الأن.
اتسعت عينيها برعب وهي تشعر بالاختناق، تشعر بضغط يده التي تعتصر منها الحياة وتهددها بالموت.. حاولت أن تومئ له.. حاولت والدموع تنهمر من عينيها ووجهها يحمر ويحتقن بالدماء:

-سأخـ..ارجوو... ارجووووك..
همست متحشرجة ليخفف من ضغطه عليها فتنهار باكية تلتقط أنفاسها بجنون بينما يتراجع ركان لاهثاً..
-تكلمي..
صرخ بها معنفاً.. لتنتشج بمرارة..
-شاااهر..
اتسعت عينا ركان بذهول..
-من قلت؟!!
-شاهر باشا.. هو من خطط لكل شيء..
جحظت عينيه وحدق بسييرا التي عادت تهتف بألم:
-هو اعطاك المخدر.. أنسيت، تلك الليلة حين قابلك في المرآب وذهبتما للشرب في الحانة..
ابتلع ركان ريقه وذكرى ماتقوله ينساب عائداً الى عقله..
كان يحادث سارة..
كان يعد الأيام رغم انشغاله بانتظار عودتها اليه..بعد حادث الجساس مباشرة..
حياته دونها فارغة..

خرج من المكتب يحمل سترته بيد، والهاتف في الاخرى، لايزال يحادثها بسلام.. لوح بالتحية لنيران ثم استقل المصعد الى الطابق السفلي..
وفي المرآب اقترب بخطوات متمهلة نحو سيارته ليتوقف بحذر، وغضب..
-حبيبتي.. سأعاود الاتصال بكِ..
-ماذا هناك؟
تسائلت بقلق ليجيب باقتضاب أن صادفه طارئ مهم وسيتصل بها مباشرة بعد انتهاءه..
كان شاهر يستند الى بدن سيارته وينظر له بسخرية:
-لم التجهم يا ابن العم؟؟
-لأن وجودك يعني المزيد من العمل، وأنا حقاً بحاجة لبعض الراحة..
هتف بحنق ليضحك شاهر ويشير له:
-سأدعوك لكأس من الشراب يا رجل.. وبعدها سأعيدك الى منزلك لاتقلق..
زفر ركان بارتياح وابتسم:
-لم لم تقل هذا منذ البداية؟؟!
ورافقه الى الحانة..

وشربا كأساً بعد الأخر..
كان يغرق في ثمالته.. لايتذكر بعدها سوى مشاهد متفرقة..
يتذكر أنه حُمل الى منزله.. لم يكن يستطيع المشي ولاحتى مجرد الوقوف!!
وبعدها!!!
-ماذا حدث بعدها؟؟
همس لسيرا بشحوب.. لتبتلع ريقها بصعوبة وتتراجع عنه وعن الغضب الذي يلوح في مقلتيه وتجيب بصوت مرتجف:
-هو.. هو اتصل بي.. هو قال لي أن أكون معك في تلك الليلة.. حين وصلت كنت أنت مخدراً وأمرني أن أخلع عنك ملابسك وان ابقى حتى تأتي سارة، لم أعرف منذ متى وأنت بتلك الحال ولكنني فهمت أنك فاقد للوعي منذ يوم كامل وربما أكثر..
سكتت فزجرها بعنف أن تكمل لتنشج بالدموع:
-فعلت ماأمرني، وماذا بيدي أن أفعل سوى الاستجابة له، هو مخيف للغاية، ولاأحد يقدر على الوقوف أمامه.. فعلت ما أرني به،

وانتظرت عودة سارة كما قال وأنت.. أنت تعرف الباقي.

-ذلك الحقير..

فكر بجنون..

-لماذا؟؟ لماذاااا؟؟

-لانه يعشقها..

صرخت سييرا ليتفجر الذهول من اعماقه وينهض بصعوبة ليطالعها من علو وهو يجاهد ليلتقط أنفاسه:

-ما.. مالذي تقولينه؟ من؟؟ من يعشق؟؟

-شاهر الباشا يعشق امرأتك ركان.. يعشقها وخطط لكل هذا لأجلها.. ليستطيع أن يوقع بينكما ويحصل عليها له خالصة.

-مستحيل.. أنت كاااذبة.

صرخ بها بعنف وانقض يوقفها على قدميها مزمجراً في وجهها بعنف وقسوة:

-أنت فعلتِ هذا لأنكِ تكرهين سارة، أنت تحقدين عليها وعلينا معاً..

-هذا صحيح.. أنا أكرهها.. أكرهها لأنني مهما فعلت فأنا دائماً في الظل..

صاحت بهيجان..
-مهما فعلت لأجلها سأظل على الدوام المساعدة البسيطة التي لاتصلح الا لتكون ظلاً عن السلطانة.. بل لاترقى لأن تكون حتى ظلها..
-خائنة.. حقيرة.. أنت ملعونة كاذبة.
صرخ بها لتضحك بهزء وتشير اليه:
-وماذا عنك باشا.. أنت خدعتها مثلي تماماً وربما أسوأ.. أنت أوقعتها في غرامك، أنت تزوجتها لتستولي على ماتملك.
-أنا تزوجتها لأنني أحبها.
صاح بغضب.. ثم قبض على شعرها من جديد وقربها منه بوحشية متجاهلاً صرخاتها وهدر بعنف:
-علاقتي بسارة شأننا الخاص، حبي لها أو عدمه لايمنحك الحق للتخطيط لتحطيم زواجنا، لقد انتهيتِ سييرا.. انتهيتِ الى الابد، لن تجدي مكاناً في روما وايطاليا برمتها يقبل بوجودك بعد رسالتنا الى كل وكالات التوظيف.
نظرت له بحقد وصرخت:

-قلت لك.. شاهر الباشا خطط لكل هذا.انا مجرد مدمية استغلها هو بكل حقارة.
رماها ركان من يده وشاهدها تتكوم تحت قدميه وهو يقول بهدوء مخيف:
-شاهر الباشا سيدفع ثمن كل مافعله وخطط له، أما عن سارة.. فهي امرأتي أنا.. زوجتي وأم ابني.. وهو لن يحصل عليها ولو كان الثمن هو حياتي نفسها..
وبكل برود استدار مغادراً.. تاركاً كتلة من العفن تلتوي على نفسها وقد دفنت نفسها في القذارة وأصبح من المستحيل أن تغادرها نظيفة كما كانت..
لقد مرغت نفسها فيها.. وهي الان تدفع الثمن..
تشاهد عالمها كله ينهار من حولها.. وهي ثابتة مكانها غير قادرة على القيام بشيء ضد مايحدث..
***
تبقى ثلاثة أيام حتى نهاية السنة..
وبداية سنة جديدة..
حياة جديدة..

بدايــة جديدة..
فبعض من تبسمت له أخر أيام السنة يقضون أسعد أوقاتهم لعباً ولهواً.. متجاهلين ماقد تخبئه لهم الأيام القادمة من أحزان وألام.. يعيشون في عالم ناصع.. مليئ بالمشاعرالفياضة والحب اللامحدود..
-أووووسي.. اعتقد بأنني أحرقتها..
هتفت ترنيم بخيبة لتسمع قهقهته المثيرة من خلفها وهو يحيطها بذراعيه وينظر الى بقايا ماكانت تتعلم أن تطهو في المقلاة..وهتف بخبث:
-أخبريني من جديد.. ماكان هذا؟؟ أهو بيض أم لحم.. لا استطيع القول بناءاً على الكتلة المتفحمة أمامي..
صرخت بحنق ورفعت ملعقتها الخشبية في وجهه ليركض هارباً وهو ينفجر بالضحك بينما تطارده هي بانفعال وتصرخ بنشوة حين رأته يتعثر بساقيه الطويلتين ويقع على ظهره لتسرع وتجلس على ساقيه متجاهلة الثوب القصير الذي ترتديه والتي امتلأت خانتها بمثيله ولم تعد تعشق ارتداء

سواه، رافعة الملعقة أمام وجهه وهي تسخر منه ضاحكة:
-عيب الساقين الطويلتين كابتن..
ضحك ملئ فمه ونظر لعينيها اللامعتين بسعادة وهتف:
-لو تنتهي كل مرة أقع بها كما الان لوقعت كل يوم.. بل كل ساعة..
مالت عليه بدلال وهمست امام شفتيه:
-أنت وقح كابتن..
اتسعت ابتسامته وهمس بتوق:
-وأنت تثيرين جنوني ترنيمتي..
كادت تستسلم لدعوة عينيه وشفتيه المغرية لكنها اشتمت تلك الرائحة.. ورفعت رأسها هامسة بحيرة:
-ماهذه الرائحة؟
رفع أوس رأسه واشتم الهواء قبل أن يزفر بيأس ويمسك رأسه بكفيه هاتفاً بحنق:
-ترنيييييم لقد تركتِ النار مشتعلة..
اتسعت عينيها بذهول قبل أن تقفز واقفة وتركض للمطبخ وهي تصرخ بلاتوقف وتكيل له الشتائم

بينما يراقبها هو بفيض من حنان.. لايستطيع السيطرة عليه..
تلك لك تكن زوجة فقط.. تلك كانت طفلة..
فتاة مراهقة.. شابة يانعة ..
وامرأة متفجرة الأنوثة..
كانت كأم.. وأخت.. وابنة..
وأعز من صديقة..
كانت كل شيء...
وهناك.. في أقصى الجنوب.. كانت تعيش معضلتها الجديدة.. فبعد أن رفعت ستائر الجليد، وذاب الثلج الذي يغلف قلبه واستسلم لعاطفته واستعاد أمله بنفسه والمستقبل.. بعد أن فُتحت لهما أبواب النعيم وخطى معها أولى خطواتهما نحو الجنة الموعودة..
كان اقتحام الشياطين كما فكرت..
اغمضت عينيها محاولة السيطرة على مشاعرها والصبر، الصبر كي لاتفقد أعصابها..
لم تصدق نفسها حين فتحت الباب لتجد نرجس والدة الجساس وتلك الشمطاء .. شيماء قريبته..

يعلنان بكل وقاحة أنهما قادمتين للمكوث.. فالأم تريد الاطمئنان على ابنها..!!
ضاقت عينيها وهي تفكر.. منذ متى.؟؟!
وضعت اطباق العشاء على المائدة وتقدمت لغرفة المعيشة حيث قضى جساس ووالدته النهار بأكمله ترافقهما الشيماء.. بينما هي ترتب لهما الغرف وتجهز الطعام.. فهذا واجبها كسيدة للمنزل..
فكرت بحنق وغضب وهي تقف لتناديهم بصوت حانق:
-العشاء جاهز..
نظر لها جساس بابتسامة بينما تجاهلتها امه وهي تنهض لتدفع كرسيه قائلة بحنان:
-سأطعمك بيدي حبيبي.. هذا بالطبع لو عجبك الطعام..
أخفت صوان غضبها وتجاهلت سخرية حماتها وراقبتهم الثلاثة يجلسون حول المائدة.. تلك الشمطاء عن يمينه والأخرى عن يساره فيما وقفت هي كالدخلاء..
-صوانة.. تعالي.

أشار لها جساس.. باهتمام فحركت كتفيها وهمست باختناق:
-لا أشعر بالجوع..
-ربما لايعجبها طهوها..
هتفت شيماء بسخرية ثم تذوقت الطعام ورفعت حاجبها قائله:
-معها حق.
-شيمااااء..
ردد جساس بعتب بينما تبتلع صوانة ريقها وتشيح عنهم هامسة بصوت مكتوم:
-سأنتظر في الشرفة حتى تنتهون..
ابتعدت بخطى واسعة، تدرك ان الأيام القادمة ستحمل لها الكثير، ولاتعرف كيف يمكن ان يؤثر هذا بعلاقتها الهشة بزوجها.. هل سيقويها؟؟!! أم أنه سيضعفها من جديد؟؟ أو ربما.. يحطمها بالكامل..؟!!
ومع اشراقة النهار.. يقف على باب الطائرة..
عيناه تنتظران رغم الثلوج والبرد.. لايزال يتشبث بذرة أمل أنها قادمة.. ولو بعد حين،!
-باشا لقد حان الوقت.

سمع كابتن الطائرة يبلغه أن الوقت حان للاقلاع..
وفات على انتظار قدومها..
وشعر بضربة تصيب كبرياءه.. للحظة فقد حلم أنها آتية.. أنها شجاعة كفاية لتقف أمام العالم وتعلن تحديها، ولكنها خذلته.. تراجع بمشاعر عاتية تتراوح بين اليأس.. والحزن.. والصدمة.
لقد فات الأوان..
أو ربما.. لا !!
رفع عينيه بلهفة لسماعه هدير السيارة آتية من بعيد..
تعلقت عيناه بسيارته التي اقتربت من المدرج بسرعة بطيئة تحاشياً الانزلاق فوق الثلج..
راقب كيف توقفت وعيناه تلتهمان الباب الخلفي..
رأى سائقه يترجل ويسرع ليفتح الباب..
ثم رآها.. كثعلب أبيض .. ملفوفة كلها بفراء بلون الثلج وعلى رأسها قبعة مماثلة..
بينما يتألق حذائها الأحمر كبقعة دموية صبغت رؤيته فلم يعد يرى سواها ..
-تأخرنا؟؟

همست بإبتسامة امرأة توقن أنها تمسك بكل خيوط الرجل الواقف أمامها..
ليهمس وهو يلتقط كفها بين يديه:
-الكون كله سينتظرك سلطانة.. طالما قررتِ المجيئ..
ابتسمت ببطئ.. وتألق أحمر شفاهها الدموي..
تآبطت ذراعه ورافقته عبر الباب الضيق الى داخل الطائرة الصغيرة الخاصة..
لقد قررت خوض اللعبة بكل خطورتها، وهي هناك.. ستعلن أمام العالم أجمع، أن ركان خرج من حياتها..
وأنها الأن.. ملك لشاهر الباشا..
خطوة أولى في رحلة الانتقام..
وكلها أمل أن تكون صحيحة..
****
نهاية الفصل.

الفصل العشرون

***

وينكسر قلبي ولكنني لا أنكسر..
لا أموت لا أُسقط الرايات لاأزال واقفة على قدمي..
اخطط ببطئ، وأنوي أن أنتقم،
أفرش الورود امام مُحطم روحي..
ثم ألملمها وقد أغرقت أشواكها دمه..
وأطعن بذات الأشواك قلبي..
فلا يطيب لي العيش بعدك
ولا تحلو الحياة سوى بوجودك..

***

تساقطت الثلوج بكثافة وغطت قمم الجبال وباتت ليلة الثلاثون من ديسمبر مظلمة ومكفهرة بينما تزمهر الريح ويغيب القمر، ولاتظهر في قلب الظلام بوادر نور ولافجر وشيك..

تنهدت بحرارة وأغلقت النافذة متبرمة تضم شفتيها بطريقة طفولية قبل أن تجلس على مقعد قريب وتضم دفتر مذكراتها بالغلاف الجلدي العتيق المهري، وشرعت تكتب بحنق وأصابعها تضغط على القلم المسكين حتى فاض حبره فرمته حانقة وهي تزفر بتوتر وتزم شفتيها بغضب..

-لم الغضب ياجميلتي؟

تسلل الغضب من اعماقها وكأنما لامست كلماته مفتاحاً سرياً تسربت منه مشاعرها الحانقة واستبدلتها بأحاسيس مفعمة بالشوق والتوتر العاطفي، الذي جعلها ترتبك وتغلق المذكرات بعصبية ظاهرة تخشى أن تطئ نظرته كلماتها العبقة بالمشاعر، واحمرت وجنتيها وهي تشيح عن لمسة شفتيه التي وقعت على جانب عنقها وهي تهمس بدلال:

-أين كنت أوسي؟؟ لقد تأخرت كثيراً؟
انتفض قلبه بجنون، جنون احتكم كل تصرفاته وأخرجها عن طورها في كل مرة تناديه بإسمه بتلك الطريقة التملكية الناعمة والتي تُفقد دقات قلبه اتزانها وتجعل كل أعصابه تبدأ رحلة الاشتعال من الأطراف حتى أعمق خلايا مخه لترتجف وتثير فيه مالم يشعر به من قبل قط..
كلمة واحدة فقط، وتسيطر ترنيم فيها على مقاليد التحكم بكل جزء منه..
كلمة واحدة ويصبح هو ملكها حرفياً..
نداء متلهف أو مجرد نظرة ناعسة من تلك العينين تقضي على كل مقاومته. لقد ظن حياته كلها لن يعرف امرأة مثلها، امرأة تسلب لبه وتجعله كالخاتم في اصبعها، الحب الذي لم يفكر يوماً أنه قد يصيبه او يصادفه هاهو الأن يخترق كل جزء فيه تتشبع به خلاياه وتكاد تتفجر من عظمه وكُبره؟!
أدارها اليه لينظر في عمق عينيها المتسعتين في براءة تكاد تقتله، لاتزال طفله .. تعود بين ذراعيه

كفتاة مراهقة لم تعرف قبله أحد وكأن سنواتها قبله لم تكن..

-ترنيم..

همس اسمها بثقل لتبتسم، وتعتصر احشاءه نفسها بوجع جعله يتأوه بصوت عالٍ، تلك الابتسامة تقتله، تكشف عن صفي اللؤلؤ وتخبره أن كل شيء.. سيكون على مايرام.

قبلها ببطئ.. لتزداد ابتسامتها اتساعاً، فيهمس بشوق:

-هذه الابتسامة ستقتلني..

-بعيد الشر..

هتفت بلهفة جعلته يقهقه باستمتاع لتسأله وهي تلامس رأسه بقلق:

-هل زال الصداع؟

عقد حاجبيه وهو لايزال يشعر بأثر ذلك الصداع الغريب الذي يكاد يشل رأسه منذ بضعة أيام..

فأومأ ليطمئنها ثم عاود النظر الى عينيها:

-لاتجرفيني في تيارك ترنيمتي، ليس الأن على الاقل، أريد أن أعرف لم كنت غاضبة؟

عادت تزم شفتيها بحركة طفولية متمردة وهمست بلوعة:
-لاأحب الثلج، الجو بارد للغاية.
رفع حاجبيه وهمس ببساطة:
-لم لم تقولي هذا منذ البداية، اختاري المكان الذي تريدين الذهاب اليه، في اي مكان في العالم.
تألقت عينيها واحاطت عنقه بذراعيها وهي تلامس خصلات شعره بأصابعها بحنان:
-كينيا.. حيث التقينا أتذكر؟
شعت عيناه بدفئ وقربها لتجلس على حجره وهمس بعاطفة وهو يفك خصلات شعرها الناعمة الطويلة لتنساب حتى خصرها قائلاً:
-حيث رأيت شعرك للمرة الاولى؟!
عقدت حاجبيها وهي تتجاهل الاحمرار الخفيف لوجنتيها والاثارة التي اشتعلت في اطرافها مجيبة اياه بخفر:
-حيث كنت تتصرف بعدم حياء وتهور..
-أنا؟!!
صرخ باستنكار ثم تلاعب حاجباه بشقاوة وهمس:

-لقد أنقذتك من الحيوانات المفترسة، أتذكرين؟!
-كان حيواناً واحداً..
لكزته على كتفه بمرح فقهقه هاتفاً:
-كان ينوي جلب أصدقاءه ..
-اوه حقاً وكأنه قد أخبرك؟؟
هتفت بمشاكسة ليقرص وجنتها بمحبة:
-ومن يرى فريسة مثلك ولايسيل لها لعابه ياجميلتي؟؟ أنت اغواء متحرك على قدمين.
-انااا؟
هتفت باستنكار وقفز من بين ذراعيه وهي تقول بتوتر خجول:
-أنت تقول هذا فحسب.. انظر الي، أنا.. أنا لا...
وقف أوس وقربها منه بحنو هامساً:
-انت المرأة التي كنت اطارد خيالها في كل امرأة تقترب مني ترنيم، انت المرأة التي بحثت عنها في كل النساء، أنت حبيبتي التي أوقعتني على رأسي ولم أعد أعرف سوى أنها تملكني كما لم تفعل اي امرأة سواها.
رفعت له وجهها بشوق لينزل على أنفها بقبلة رقيقة ويهمس بابتسامة واسعة:

-أنت المرأة التي تبحث عن اطراء حالياً وأنا أتضور جوعاً.
لكزته بقبضتها على كتفه والاحمرار يغزو وجهها ثم ارتمت على صدره وهي تحيط وسطه بذراعيها بقوة هاتفة بخجل:
-أنت لا تُطاق من المفروض أن أطهو طعامي السيئ وأن تأكله أنت بصمت؟ في حين أنك أفضل مني بمراحل.
ضحك عالياً وهز رأسه بعناد:
-يجب أن تتعلميه الى متى أظل أطهو بنفسي؟ أنت المرأة هنا وأنا سأنهي شهر العسل هذا وأعود لعملي.
اقتربت لتندس بين ذراعيه وهمست بدلال:
-حينها سأعود لتناول الشطائر والسلطات.
-رباااه كم أنت كسولة.
هتف بحنق لتضحك بخجل ويبتسم بسعادة وهو يضمها اليه بقوة هامساً لها بتحذير:
-ترنيمتي أنت تلعبين بالنار حالياً وأنا أتضور جوعاً.
رفعت له وجهها ورقّصت حاجبيها:

-تعال لنطهو معاً .. ثم أنني أريد سوفليه الشوكولاتة اليوم.

كتم ضحكته بصعوبة وهو يقبض على خصرها بيديه ويهزها برفق متذمراً:

-أنت تزدادين وزناً وسمنة ..

اتسعت ابتسامتها وهي تقرأ الضحكة في عينيه:

-ألا أعجبك ؟!

أسند جبينه الى جبينها وهمس بهيام:

-بل أنا أعشقك.

-أحبك.

همست بخفوت ليرد بشغف:

-قوليها عالية .. لا تخشي شيئاً يا حبيبتي.

رفعت ذراعيها عالياً وصرخت بعلو صوتها:

-أحبـــــــــك .. أحبـــــــــك .. أحبـــــــــك ..

ضحك ورفعها عالياً لتتعلق بعنقه وتتركه يدور بها كالمجانين بينما تصرخ به أن ينزلها بين قهقهاتهما العالية.

بعد وقت..

وقفت ترنيم ملتصقة بأوس وهو يُعد أسياخ الشواء تنظر اليه يضغطها بقوة ومهارة وهمست بفضول:

-هل ستتركها لتتبل؟

-كلا حبيبتي لا وقت لدينا ولكنها ستكون لذيذة وسترين. و الآن لم لا تكونين فتاة عاقلة وتجهزين السلطة.

تراجعت بتذمر والتقطت طبق الخضار وبدأت تقطيعه في حين غسل أوس يديه وارتدى معطفه ومضى مع طبق اللحم الى الشرفة حيث موقد الشواء قد التهب فيه الفحم وتصاعدت الرائحة المنعشة ..

وضع اللحم على الفحم وعاد للمطبخ مبتسماً وهو يرى تذمرها بينما تفرم الخضار بارتباك لتتسع ابتسامته ويقف خلفها ليقبض على معصمها هامساً في أذنها:

-هذه الطماطم المسكينة اشتكت وعلا صوتها حتى خرم أذني.

ضاقت عينيها ورفعت السكين بتهديد:

-وأنا أصر على فرمها حتى لاتقوم لها قائمة.

قهقه باستمتاع وأخذ السكين من يدها ودفعها برفق لتغادر المطبخ:
ضعي معطفك عليكِ ترنيمة وتعالي معي للشرفة سنقطع هؤلاء الضحايا معاً.
زفرت بتذمر، وسبقته تضرب بقدميها على الارض بينما يلحقها بالصحون وهو يتعجب بما تفعله به تلك المخلوقة، رآها تغيب داخل معطف طويل مبطن، ولايظهر منها سوى رأسها وكفيها الصغيرين .. ولم يتمالك نفسه ..
كانت ترنيم تسير نحو الشرفة بحنق لتفاجئ بأوس يحشرها على باب الشرفة بجسده الطويل وقد رفع ذراعيه المحملتين بالصحون عالياً، ومال عليها برأسه لينظر في عمق عينيها المتفاجأتين وهي تهتف باستنكار:
-ماذا تفعل أيها المجنون؟
لم يجبها بل ظل ينظر لعينيها مبتسماً لوقت طويل جعلها ترتبك ويغزو الخجل وجنتيها لتهمس وهي تدفع صدره بقبضتيها:
-أووسي ماباالك؟ هل جننت؟
-بكِ..

همس بثقل.. لتتسع عينيها وهي تتعلق بشفتيه:
-أنا مجنون بكِ ترنيمة، لا أعرف كيف استطاعت قزمة مثلك أن تخطف قلبي؟!
احتقن وجهها.. لاتعرف غيظاً أو من الخجل وهتفت:
-أنا لست قصيرة..
ثم مررت ذراعها على طول عموده الفقري بجرأة وهمست وقد تألقت الشقاوة في عينيها:
-بل أنت هو الطويل أكثر من اللازم.
عض شفته بقسوة ليسيطر على فيض المشاعر التي هاجمته بضراوة وهمس لها بخشونة:
-لاتغريني ترنيمة..سيحترق العشاء.
زمت شفتيها وعادت تمرر ذراعها صعوداً حتى منابت عنقه وهمست بغنج:
-أنت تقطع طريقي وتحاصرني بهذا الشكل الخالي من الذوق ياكابتن..
ضاقت عينا أوس بينما تواصل ترنيم هامسة بدلال:
-وتتهمني أنا بالاغراء، انت السبب كابتن، أنت بدأت بالهجوم وأنا .. فقط ..

واقتربت منه حتى لامست أنفاسها أسفل عنقه:
-أنا .. أدافع عن نفسي.
قالت بنبرة مثقلة بالعاطفة ليزمجر أوس ويهتف بحنق:
-أنت لاتدافعين ترنيمة أنت تهاجمين وبالأسلحة الثقيلة..
ثم ابتعد عنها واشار لها أن تتقدمه بغلظة:
-هيا لننهي عشائنا التعيس هذا، ونؤجل المعركة لمابعد.
عقدت ذراعيها وهتفت بعناد:
-بعد السوفليه..
ابتسم رغماً عنه وقال بنعومة:
-كماتشاء أميرتي.. والأن هيا فقد نفذ صبري.
صفقت بيديها بجذل وأسرعت أمامه بينما يراقبها بصبر.. والابتسامة تحتل وجهه كله وقلبه يكاد يثب من صدره وهو يعترف لنفسه أنه لايحب فقط.. بل هو عاشق حتى الثمالة..
***
أمامي وبعيد عني بكل لحظة
بيننا كل حب وفيضٌ من كبرياء

بيننا زمنٌ وتاريخٌ من هجاء
انت في قلبي وأنا بين ضلوعك كأنفاس الهواء
والأرض بيننا ووسعها وكذلك السماء..
انتهت من رص الأطباق الأربعة على طاولة العشاء، ووقفت تنظر للطعام المطهو باحترافية، الترتيب المميز وتنهدت لأن الرفقة لن تكون على نفس القدر من التميز..
زفرت بضيق وتقدمت نحو باب غرفة الجلوس الواسعة حيث يجتمع زوجها مع والدته كالعادة منذ وصولهما قبل أيام مع ابنة أختها المأفونة ذات العينين الزرقاوتين.
تأملت نفسها في مرآة قريبة وعقدت حاجبيها وتنهدت بضيق وهي تعدل ياقة القميص البيج الذي ترتديه وتمسد سروالها الجينز العملي، تقارن دون وعي ملابسها المحتشمة والعادية بماترتديه تلك الشمطاء منذ وصلت، لاتراعي حرمة البيت ولاحتى العلاقة التي تربطها بجساس ووجوب تحجبها عنه بل هي تغامر كل يوم بارتداء مايثير ويلهب المشاعر، ولكنها

تعترف أن جساس حقاً لم يكن يعيرها أدنى اهتمام.
كان عقله وقلبه منذ ذلك الصباح معها هي..
ابتسمت بحنان.. تتذكر الوقت الوحيد الذي تنفرد معه حقاً، حين يخلد الجميع الى غرفهم وترافقه هي.. صحيح أنه لم يقترب منها أكثر منذ ذلك الصباح، حتى أنه لم يتجرأ ويقبلها.. ويكتفي بقبلة مسائية ناعمة على جبينها قبل أن يشيح عنها ويغرق في النوم بفعل الدواء الذي يتناوله بعد العشاء..
ولكن التقدم كان ملحوظاً.. فهي لم تعد ترى الازدراء ولا الكراهية في عينيه..
ابتلعت ريقها ثم رتبت بضع خصلات من شعرها تفلتت من عقدتها وأخذت نفساً قبل ان تطرق الباب وتدخل بابتسامة ديبلوماسية..
-العشاء جاهز، تفضلوا.
تبادلت نرجس وشيماء النظرات ثم نهضت الأولى وتبعتها الثانية التي أسرعت خلف كرسي جساس المتحرك وهتفت بحنان يقطر من عينيها:

-أنا سأساعدك جساس، لابد أنه من الصعب عليك السيطرة عليه وهو بهذا الثقل.

انقبض قلب صوان بغيرة حارقة وهي ترى الابتسامة التلقائية التي رمى بها جساس لابنة خالته الغبية وهو يتركها تفعل مانأها عن فعله طيلة الايام السابقة، وتراجعت تخفي ألمها وهي تتقدمهم الى المائدة والتي ترأسها جساس بينما جلست أمه على يمينه والشمطاء زرقاء العينين على يساره لتُقصى صوانة رغماً عنها الى الطرف الأخر كالعادة وتقابله عبر المائدة المستطيلة والتي تكفي لاثني عشر شخصاً.

-لا أعرف مالداعي لبقاءكما هنا في معزل عن الناس، وأنت بحاجة للعناية بني.

قالت نرجس بقلق حانق ليتنهد جساس بصبر ويبتسم وهو يرد ناظراً تجاه زوجته بخفية:

-صوان تعتني بي..لاتقلقي أمي.

قلبت شفتيها وهمست بتذمر:

-ومالذي يمكنها فعله وحدها ان مرضت أو وقعت؟ طيلة الايام الماضية لم أسمع أحد قد قدم الى هنا سوانا.

-لاتقلقي أمي.. هناك حارس يقضي الوقت في المبنى الصغير الملحق، ثم أن صوان..

وتردد وهو يرمقها بتمعن:

-صوان قادرة على الاعتناء بي وبجروحي.

ابتلعت ريقها بصعوبة، وارتجفت يدها وهي تستقبل رسالته الخفية حتى لم تعد قادرة على التقاط كوب الماء وتبليل ريقها، تخشى ان تغلبها الرجفة، ويقع منها ليسخر الجميع.

لم تقدر حتى على مواجهة عينيه، فقط شرد ببصرها بعيداً ليعود عليه بحدة وهي تسمع تلك الشمطاء تهتف بمرح:

-ربما أنا يمكنني المساعدة، لدي دورات تأهيلية في الصليب الأحمر جساس، أستطيع العناية بك.

الغيرة التي تصاعدت بداخلها سابقاً تحولت النار حارقة وأصابعها تلتف حول مفرش الطاولة بغضب وهي تراقب كيف وضعت شيماء يدها بعفوية على معصمه وكيف قابل حركتها بابتسامة ساحرة خطفت قلبها..

-لاتقلقي شيماء، ولاتنسي أنني مديرة حضانة، ودورات التمريض التأهيلية قد قمت بها بنفسي، فلا أحتاج لمساعدتك بهذا الأمر.

هتفت بها بقسوة جعلت المرأة الأخرى تبتعد عن زوجها كالملسوعة بينما هي تلتفت لجساس وتغرق في عينيه الضيقتين هامسة بجفاء:

-تناول طعامك جساس، يجب أن تتناول دواءك.

لم يرد.. بل نظر الى طبقه المملوء بقطعة لحم كبيرة وبطاطا مسلوقة والكثير من الخضار..

ثم نظر اليها عبر المائدة..

وفهمت ..وخفق قلبها استجابة له وهي تنهض لتقترب منه وتحت أنظار أمه وابنة خالته المندهشة مالت بالقرب منه وبدأت تقطع له اللحم لقطع صغيرة..

لقد حرصت طيلة الفترة الماضية أن يكون الطعام خفيفاً سهل التناول كي لايُجهد ذراعه.. ولكن اليوم كان العشاء بطلب خاص من نرجس، والتي لم تفهم مايحدث كمايبدو..

-جساس؟!

تسائلت امه برفق.. ليجيب ببرود دون أن ينظر لأحد:

-ذراعي لاتزال ضعيفة أمي..

تبادلت نرجس وشيماء النظرات ثم قالت شيماء بتوتر:

-يمكنك أن تعودي الى مقعدك صوان، أنا قريبة منه سأساعده.

ابتسمت صوان باقتضاب ولم تجبها، بل استمرت بماتفعل، ورأت جساس يلتقط شوكته ويبدأ بتناول ماتجهزه له.. كانت تقف بينه وبين الشيماء، وراقبها جساس للحظة ثم همس:

-اجلسي صوانة.. أريدك أن تأكلي معي.

ابتسمت له فقط وهمس بحنان:

-سأكل..لاتقلق.

-لا.

هتف بإصرار وهو ينظر لعينيها رأى كسراً لم يتحمله التفت لشيماء وقال بصرامة:

-اعذريني شيماء، لم لاتنتقلين لمكان الصوانة.. هي تعرف بالضبط ما أحتاج اليه.

احتقن وجه الشيماء للحظة ثم نهضت من مكانها وانتقلت الى مقعد بالقرب من نرجس وهي تحمل طبقها بيديها بطفولية.. ليرفع جساس حاجبه ثم ينظر لصوانة ويقول بخفوت:

-قربي المقعد واجلسي الى جواري.

فعلت ماطلب منها بابتسامة مرتجفة وحين جلست مال تجاهها وهمس:

-ستأكلين معي..

كتمت ابتسامتها بصعوبة وعينيها تتألقان وهي تغرق في عينيه..

كانت تقطع طعامه فيلتقطه بشوكته ويرفع القطعة لفمها، فتقضم نصفها ويضع الثاني في فمه..

-ربما لهذا أراك قد خسرت نصف وزنك؟!

هتفت أمه بغيظ جعل جساس يضحك بمرح وهو يطعم صوانة بيده قطعة خضار طازجة..

-أنا وصوان واحد أمي، ولاعلاقة للطعام بخسراني للوزن.. على العكس فهذا أفضل كي أخفف الضغط عن ساقيّ.

مطت نرجس شفتيها بحنق واشاحت لتنظر لشيماء التي كانت تنقر بأصابعها على الطاولة بعصبية وغضب.

-جساس يكفي لقد شبعت.

همست بحرج وهي تبتعد عنه بقدر ضئيل فابتسم وقال بحنان:

-ليس بعد ستأكلين الحلوى معي..

-لا أريد.

اعترضت بخفوت ولكنه تشبث بمعصمها بقوة وهمس:

-بل ستبقين، لن أكل بدونك.

اتسعت عينيها وهي تنظر بتلقائية نحو حماتها والشمطاء الأخرى واللاتي كنّا يغرقن حرقتهن بالطعام..

-حاضر.. سأذهب لأحضر الحلوى وأعود.

ابتسم لها وأفلت معصمها لتنهض مسرعة تداري خجلها..

وما إن اختفت من أمامهم حتى هتفت نرجس بقسوة:

-ماهذه الميوعة، عليك أن تراعي وجودنا حولك جساس.
تراجع في كرسيه وهز كتفيه قائلاً بلامبالاة:
-وماذا فعلنا؟! لقد أمسكت يدها أمي.. باقي الأشياء أخبئها لخصوصية غرفة نومنا.
احتقن وجه نرجس بينما غصت شيماء بالطعام، ونهضت معتذرة لتنظر له أمه بحنق وتهتف:
-هل تنوي أن تشعل غضبي؟ ماذا تفعل مع لوح الثلج تلك؟! تلك الحجر الباردة عديمة المشاعر..؟
ابتسم ببطئ وتناول شرابه.. تذكر بلحظة كيف ذاك الحجر الذي تصفه والدته..
كيف يذوب كحمم لاهبة بين ذراعيه..
كيف تشتعل لهبة.. وتنضخ حرارة ووجداً..
واكتشف انه اشتاق لتلك الحرارة..
اشتاق لها كثيراً..
ابتلع ريقه وهمس لأمه بخشونة:
-تلك الحجر التي تعنينها.. تخبئ جمرها لي وحدي أمي..
همت أمه بالصراخ ولكن صوان دخلت الغرفة تحمل اطباق الحلوة وهي تقول بإبتسامة:

-لقد حضّرت هذه الحلوة الهندية.. ستعجبك بالتأكيد.
-صــوّان..
نظرت له بلهفة لترى عينيه غائمة بعاطفة عميقة أرسلت رعشة مثيرة لأطرافها واستمر بصوت مثقل بالحب:
-سنتناولها في غرفتنا.
نظرت لنرجس مباشرة ورأت غضبها يزداد ولكن كلمة جساس التالية حسمت الموقف:
-هيا صوان، أنا مجهد وأرغب بالاستلقاء.
تركت كل مابيدها ومضت تحيط بوجنته باهتمام وقد التمع قلقها في عينيها:
-أأنت بخير.
التقط كفها وقبل باطنها بولع وهو يهمس لعينيها:
-فقط مشتاق إليكِ.. دعينا نذهب الأن.
اتسعت عينيها بذهول ولكنها لم تمتنع لم تعارض حتى، بل أسرعت خلفه لتدفع بالكرسي وهي تتمتم بتحية خافتة لحماتها التي كادت تصاب بأزمة قلبية وهي ترى ابنها يغيب خلف جدران غرفته مع تلك المرأة التي لاتطيقها.

وبالداخل همس جساس بتوتر:
-أنا أسف.. لكل ماحدث وماقالته أمي وشيماء.
ابتسمت وركعت أمامه على ركبتيها هامسة:
-لابأس.. أنا اعتدت أمك حتى لم تعد كلماتها تهمني.
عقد حاجبيه بتوتر وهمس بمرارة:
-انها تتفنن في اظهار كراهيتها لكِ صوان، ولاأعرف السبب أبداً.. وكأنها ليست هي.
هزت صوان كتفيها بقلة حيلة ووجهها يحتقن من الاحراج والألم .. هي أيضاً لاتعرف السبب.. لاتدرك ماعظم مافعلته لتكرهها نرجس بهذا الشكل.
-صـــوان..
ناداها برقة فرفعت عينيها المنكسرة اليه، ليبتسم بحنان ويلامس جانب وجهها برفق:
-لا أهتم بأحد مادمتِ معي صوانة.
انسابت دموعها دون ارادة منها وارتمت على صدره تعانق جسده النحيل بقوة جعلته يرتد ويكاد يقع هو والكرسي للخلف، فقهقه وذراعيه تلتفان حولها لتضمها اليه بشدة بينما تهمس له بحبها

بلاتوقف بين فيض من دموع وابتسامات جعله يصمت ويغلق عينيه بإحكام لينصت لفيض المشاعر المسترسل من بين شفتيها..

-أحبك جساس، لم أحب في عمري سواك، لم أرغب برجل إلا أنت.. طيلة عمري كنت حبيبي الوحيد، كنت الرجل الذي كبرت وأنا أرسم حياتي الى جواره.

هتفت شاهقة ليشدد ضغط ذراعيه حولها ويتنفس بعمق عبق شذاها لتستمر باكية:

-أنت كنت حلمي، ظننت لسنوات أنني فقدتك، أنني لن أكون لك.. أن كل شيء بيننا قد انتهى وأنك محرم علي الى الأبد.

ابتعد كالملسوع ونظر في عينيها:

-لماذا صوان؟ لما ابتعدتِ عني بتلك الطريقة؟؟

خفضت وجهها بألم وشهقت دموعها بحرقة ليصر على كشف كل ماتخفيه:

-تكلمي صوانة.. مالذي تخفينه عني؟

ارتجفت خوفاً مماستقول.. ولكنها لم تتردد.. وعرفت أنها يجب أن تخبره فليس الأن هو الوقت الملائم لاخفاء شر كهذا عنه..

-انها أمك.
-ماذا فعلت أمي؟
ابتلعت ريقها وترددت ولكن الاصرار في عينيه أعطاها القوة وقررت البوم بكل شيء:
-لقد هددتني.. لقد قالت لي أنني لو بقيت على علاقتي بك، ووافقت على زواجنا فإنها ستحطم العائلة كلها.
عقد جساس حاجبيه وهتف باستنكار:
-ماذا تعنين بأنها ستحطم العائلة كلها؟ ماهذا الهراء؟؟
-لقد ذكرت حادثة والدك.. عمي سلطان.
-ماشأن أبي وحادثته؟؟
تسارعت أنفاس صوان واغمضت عينيها وهي تصرخ:
-أمك قالت أن عمي سلطان كان له علاقة بالمافيا في ايطاليا وكذلك عمي نضال،
ظهر الاستنكار على وجه جساس وهتف:
-ماهذا الهراء الذي تقولينه؟
-هذا ماقالته عمتي نرجس، قالت بأن حادث والدك دبرته المافيا وأنه هرب منهم وأن لديها كل

الاوراق التي تثبت ادانته بجرائم كبيرة.. وانها .. أنني لو قبلت بالزواج بك فستودي بهما الاثنين الى السجن.

-وأنت صدقتها..

قال بتعجب لتصيح:

-وكيف لا؟؟

-رباااه صوان.. هل تصدقين أن أبي وعمي نضال حقاً مشتركين في تنظيمات اجرامية..

هتف بحنق ليشحب وجهها ويستمر هو باستنكار اشد:

-وتصدقين أن أمي قد تودي بزوجها الى السجن؟ والد أبناءها بكل مايعنيه هذا..؟!

-هي قالت .. هي هددتني!!

-هذا كلام فارغ..

هتف بعنف وقلبه يخفق بجنون.. هل من المعقول أن تقول أمه هذا؟!!

أن تهدد صوانة بتلك الطريقة الغبية والمكشوفة جداً..!!

وتألقت الحيرة في عينيه وهو ينظر لصوان.. هل من المعقول أن تصدق صوان ماقالته أمه بتلك السذاجة؟!!

-كيف ظننت بعائلتك أنها بتلك القذارة؟!

هتف باشمئزاز ليحتقن وجهها وتتجمع الدموع من جديد في عمق عينيها وهي تهز رأسها بحيرة وكأن كلماته تصفعها بحقيقة غابت عنها لسنوات، هل صدقت فعلاً على أن عائلتها قادرة على تلك التصرفات غير القانونية، ومن .. عمها سلطان وعمها نضال؟!!

تسارعت أنفاسها واحساس بالاختناق يجتاحها رفعت يدها الى عنقها تريد أن تبعد تلك اليد التي التفت أصابعها حول بشرتها الرقيقة واعتصرتها بقسوة..

-هي .. هي أخبرتني.. وأنا.. أنا صدقتها.

أغمض عينيه بقوة، حائراً بين تصديق ذلك العذر الواهي الذي حرمه من المرأة التي يحب لسنوات.. وبين إيمانه أن والدته لايمكن أن تفعل شيء من هذا القبيل؟؟ هو أكثر واحد يعرف مدى

حب أمه لوالده.. رغم الانفصال الطويل.. إلا أنها تحبه..
ربما لهذا هي لم تطلب الطلاق أبداً..
ولكن..
فتح عينيه بريبة.. ماذا لو كان ماتقوله الصوانة هي الحقيقة.. الحقيقة التي أخفاها الجميع عنهم؟!
الحقيقة التي جعلت أمه تنأى وتبتعد..
ولكن هل يُعقل لوالده وعمه نضال أن يكونا جزءاً من شبكة اجرامية؟؟!
مستحيـل..
ضرب مسند مقعده بقوة بقبضته حتى أن صوان انتفضت وكادت تقع على ظهرها وهي تشهق بانتظار ماسيقول ولكن جساس كان في عالم اخر..
صحيح أنه لم يكن مطلعاً على أعمال عائلته.. كان بعيداً وكل همه في عمله هو لاغير.
ولكن سيف؟؟
سيف شقيقه هو اليد اليمنى للسلطان.. أيعقل أن يكون سيف متورط هو الأخر؟!

اتسعت عيناه بقلق.. وأسند برأسه لمسند المقعد وسمع صوان:
-أنا أسفة.. أنا .. أنا لا أعرف الحقيقة ولكنني أقسم..
-اصمتي.
همس زاجراً لتبتلع صوان أسفها وخيبتها وتتراجع لتقبع بعيداً عنه بصمت..
لقد كشفت الستار عن أسوأ ماقد يحدث لهم..
في كلا الحالتين فالأمر أسوأ مماقد تتخيله في يوم..
ان كان كلام نرجس صحيح فقد كشفت للتو لجساس أن والده وعمه وربما شقيقه كذلك هم اعضاء مافيا خطيرة لاترحم..
وان كان ماقالته محض كذبة.. فهي كشفت أن أمه امرأة لاتتورع عن تلطيخ سمعة عائلته كلها في سبيل تنفيذ رغباتها الأنانية..
وفي كلا الحالتين.. الخاسر الأكبر كان جساس..
ولكنها أهملت احتمالاً ثالثاً..
احتمالاً ظل يعصف برأس الجساس بلاتوقف يضعها هي وحدها على قمة هرم الخاسرين..

كان يضع احتمالية أن تكون هي الكاذبة..
هي المؤلفة لكل هذه الحكاية..
لتنجو من الافصاح عن سبب رفضها له طيلة تلك السنوات، ولتدبر مكيدة لأمه التي تكرهها ولاترغبها..
وفي هذه الحالة هو لن يسكت..
ولن يسامح ولن يغفر.
مهما كان الثمــن.
***
اختبئي عن كل العالم
ارحلي مع غياب الشمس
وتخفي خلف الغيوم
بين ندفات الثلج المنهمر
ولا تخافِ ، سأجدكِ أينما كنتِ.
***
ليـــلة رأس السنـــــة
***
ترفلت بالثوب الأسود بكمي الدانتيل ، والحرير ينساب على قامتها الطويلة ويحف معطف المنك الطويل خطواتها المتمهلة وهي تلج الى القصر

المهيب الذي تألق تحت الثلوج المنهمرة بأضواء الزينة احتفالاً برأس السنة الميلادية ، متأبطة ذراع شاهر بخفة وهما يدلفان معاً الى البهو الواسع بأرضيته الرخامية حيث وقف اثنان من الخدم انحنيا معاً لرؤية الباشا ثم تسلما منه بطاقة الدعوة وسمحا لهما بالدخول فيما تقدمت سارة لينزع شاهر معطفها ويناوله لخادم أخر.

-انه قصر بذِخ.

همست بتوتر ليبتسم لها شاهر وخطته لإثارة اعجابها وانبهارها لابد تسير على الخطى الصحيحة.

-مثل جمالك بالتحديد سلطانة ..

ومال على أذنها ليهمس:

-امرأة مثلك أنتِ يا جميلتي ، تستحق العيش في قصر مماثل ، في قمة برج عاجي حيث يخدمها كل من تطأ قدميه أراضيها ..

ابتسمت بغرور وهمست:

-أنت تعشق المبالغة باشا.

-أنا أعشقكِ أنت.

همس بهيام وهو يغرق في عينيها المظللتين باللون الذهبي البراق ورموشها وقد ثقلت بزينة محكمة مبهرة .. جعلته يذوب حالما وقعت عيناه عليها.

تراجعت بحرج وقلق من تقربه المباشر وابتلعت ريقها ثم رمشت تنظر اليه لتراه وقد توله في حركتها العفوية .. ابتسمت بخفر أنثوي أبرز جمال شفتيها المطليتين بإسراف وجعلته يتلوى وهو يكتم رغبته في أعماقه ويدفنها بينما تستدير هي و تتقدمه بدلال متمايلة وقد برزت رشاقتها وجمال تقاسيمها تحت الحرير اللامع وزادته اشراقة وجمال.

وفوق أعلى قمة البرج العاجي كما وصفه وقف الأمير الجديد ..

يأخذ النفس تلو الأخر ليستطيع السيطرة على الغضب العارم الذي عصف به وسليم يبلغه بالأمر ..

لم يكن شاهر قد أتى بمفرده .. لقد أتى بها ؟؟

جاء بامرأته ليراها العالم كله وهي ترافقه؟ رغماً عنه هو ، رغماً عن العالم .. تحدت عاداتها

وتقاليدها .. تحدت زواجهما وكل الأعراف ، لم تهتم بشيء و جاءت الى احتفال بهذه الضخامة ترافق هذا الرجل ؟؟ الرجل الذي تسبب بكل المصائب التي وقعت بينهما ؟؟؟

أي جنون مسها تلك المرأة ؟؟!

بل على أي مصيبة تنتوي ؟؟

لم يكن الغضب هو ما يسيطر عليه فقط ، كانت غيرة عنيفة لم يشعر بمثلها في حياته ، غيرة تدفعه لأن يكسر أوامر سليم ونصائحه بالبقاء هادئاً والسيطرة على انفعالاته وعدم التهور .. والاستجابة لأوامر قلبه والانقضاض على ذلك الثعبان وخنقه بيديه العاريتين.

ولكنه لا يريد الانتهاء في السجن ، ليس الآن على كل حال ..

فكر بحنق وعاد يتأمل المشهد المهول من شرفة البرج الشاهقة ..

كان الوادي تحته عميقاً لدرجة ألا ترى قاعه !

-هل انت غاضب منها؟

رفع رأسه ببطء لينظر لنيران .. كانت على باب الغرفة الواسع ترفل بثوب أحمر ناري اشتق من

اسمها وقد انسدلت خصلات شعرها السوداء الفحمية على كتفيها كجناح غراب وتألقت عينيها بنظرات متأهبة ليجيب ببرود:

-ماذا تعتقدين؟

-الذنب ليس ذنب سارة .. لا تلمها فهي مشتتة.

همست بهدوء ليبتسم ساخراً:

-انا لم ألم سارة بشيء نيران ، اللوم كله يقع على الباشا قريبك ، ولا فائدة من الانكار ولكني الآن بالذات أريد أن أعرف لم؟؟ مالذي يريده ولم يتسكع برفقة امرأتي؟

-انه يحبها.

همست ببساطة جعلته ينظر لها بذهول ثم تتحول نظرته الى السخرية التامة وهو يقهقه:

-مالذي تقولينه ؟ شاهر يكره سارة يكره كل أفراد عائلتها ، لقد دفعني بكل ما يملك من قوة لتحطيم حياتها.

-قبل أن يلتقيها.

همست بتقرير جعل عيناه تتسعان أكثر والضحكة التي شقت حلقه تتحول الى تكشيرة غضب مرعبة وهو يقترب منها صارخاً بجنون:

-أتعنين أن شاهر هو وراء ما حدث لي وزوجتي؟هل تقولين أن الباشا هو من دبر المكيدة ليبعدني عن سارة؟

رفعت نيران حاجبها إقراراً بالإيجاب ليستشيط غضب ركان ويقترب ليقبض على كتفيها بقسوة:

-كنتِ تعرفين منذ البداية؟

ابتلعت ريقها وحاولت الإفلات من قبضته ولكنها اشتدت قسوة فهتفت بحنق:

-ليس في البداية ، شاهر لم يفصح عن مكنونات قلبه لأي أحد .. هو بئر عميق لأسراره لا أحد يستطيع فهمه أو التنبؤ بأفعاله المستقبلية أتفهم؟؟

-ما أريد فهمه في التو هو أنت نيران ؟؟ الى جانب من تكونين ؟ وكيف تعرفين بكل هذه الأمور؟ أنت مستودع أسرار الباشا ولكنني أراكِ هنا؟ مالذي تفعلينه؟؟

هتف بها بقسوة وعنف جعلها تدفعه بكلتا قبضتيها بغضب وهي تصرخ:

-أنا خطيبة سليم وموعودته للزواج.. والليلة ستعلن خطبتنا.

اتسعت عينا ركان للحظة ثم تسائل وهو ينظر لعينيها اللامعتين بالغضب وأشياء أخرى:
-خطيبته؟؟ لطالما .. لطالما ظننت أنك وشاهر؟!
-شاااهر؟!
هتفت باستنكار ثم ضحكت بمرارة:
-أنا أعرف شاهر منذ نعومة أظفاري.. هو صنع نيران التي تراها امامك.. شاهر قام بتربيتي منذ كنت في العاشرة من عمري وجعلني المرأة التي لاتقهر كما يقول.
ثم نظرت اليه بسخرية:
-علاقتي بشاهر ابداً لم تكن تتعلق بالعشق أو الحب.. ثم أنني أعرفه جيداً لأهرب لأميال بعيدة عنه ان ظننت للحظة أنني قد أقع في غرامه.. شاهر ليس من الرجال اللذين يجب الوقوع في حبهم.. أبــداً.
-أخبري سارة بذلك..
همس بغصة ولكنها ضحكت ونظرت له بإبتسامة:
-لاتقلق سموك، فالسلطانة لاتعشق سواك ركان، لحسن حظك فهي متيمة بك وربما أكثر

مماتعرف هي نفسها، ومجيئها هنا مع شاهر يشي الى أي درجة هي تحبك، ولكنها فقط ثائرة لكرامتها.

-أنا لم أخنها.. عليكِ أن تخبريها هذا.

هتف باصرار فهزت نيران كتفيها:

-المهم هو أن تقتنع ببرائتك من صميم قلبها وإلا ظنتنا كلنا جزء من اللعبة.

عقد ركان حاجبيه وتسائل بخشونة:

-أي لعبة؟

رفعت ذراعيها بطريقة مسرحية:

-لعبة سمو الأمير.. في الانتقام من الباشا..

واقتربت منه بتؤده وابتسامة ساحرة تلتمع على شفتيها:

-لازلت لاتفهم ركان.. أنت.. أنا.. وحتى سارة.. كلنا جزء صغير من مخطط ينسجه سمو الأمير للانتقام من شاهر، انتقام يثأر به لاستغفاله.. أترى..

ثم وضعت ذراعها على كتفه وهمست:

-أكثر مايزعج سليم ويثير في نفسه الغضب هو اللعب من وراء ظهره.. حينها..

وعادت تسير نحو النافذة الضخمة وقد احتد صوتها:

-حينها فقط يتنازل عن رداء الدب الروسي البارد، وتعود دماءه التركية للغليان في عروقه.. ويقلب الموائد كلها على رؤوس الحاضرين.. دون أن يعير أيهم أدنى اهتمام مهما كانت علاقته بهم، أتفهم؟!

ضاقت عينا ركان ونيران تضيف وهي تستدير لتواجهه:

-لايوجد غالٍ لسليم.. أبداً.. لا شقيقته ولا أخوه، ولاحتى أنا خطيبته الموعودة.. كانت تاليا تحتل مكانة خاصة قريبة لقلبه، ولكنها ماتت، وكما تقول جُمار، فموتها أخذ الباقي من قلبه.

ابتلع ركان ريقه بصعوبة وقد اختار سليم تلك اللحظة بالذات ليدخل بخطوات واسعة وهو يقول ببرود:

-هل انتهيتما من الحديث؟؟ لدينا حفل للانضمام اليه.

نظر له ركان بتوتر فيما اقتربت نيران منه وتآبطت ذراعه وهي تبتسم له:

-اننا جاهزان.. كنت فقط أحاول التخفيف عن ركان رؤيته لسارة بعد كل هذه المدة.
-الأحمق يظن أنه بإحضارها الى هنا قد يعلن للعالم أجمع أنها لم تعد ترتبط بركان.
قال سليم بإبتسامة ثم نظر لركان المتوتر وقال بقوة:
-شد من أزرك يافتى.. انها زوجتك، وأنت لديك كل الحق في أن تأخذها بأي وقت، ستكون سارة معك قبل انتهاء حفل هذه الليلة وأنا واثق من هذا.
-أريدها راضية ياسليم.
همس ركان بألم، وأضاف بسرعة:
-أريدها أن تصدقني وتؤمن بي من جديد..
-لاتتصرف كفتى خانع.. الليلة ستكون أنت النجم، ستكون الفارس الذي سيسيطر على الرقعة كلها، أنت ستكون محل الاضواء وليس الباشا ولاحتى السلطانة.
حاول ركان أن يشدد من قامته واقترب منه سليم ينفض تراباً وهمياً عن سترته الحريرية السوداء ثم عدل من ربطة عنقه الصغيرة وعاد يضع يديه على كتفيه وهو يقول بحزم:

-الليلة سيعلم العالم كله، أن ركان ولد الأميرة تاليا حياً يرزق.. وهذا وحده يُعتبر نصراً سنلقيه في وجه الباشوات ونراقب تخبطهم كالعميان.

-ماذا تنوي أن تفعل؟

تسائل ركان ليبتعد سليم مبتسماً ويقف أمام المرآة بنفسه ليعدل من التوكسيدو الأنيقة بربطة العنق الفضية الصغيرة وهو يهمس:

-أنوي أن اصيبهم بالشلل.. نيرااان..

انتفضت ولبت نداءه صاغرة وعادت تتآبط ذراعه الممدودة اليها وهو يقول:

-سننزل أولاً.. وتتبعنا على الفور، هناك اعلان بسيط سنقوم به وقد طال تأجيله.. ثم سنعلن عن مفاجأتنا المدوية.

وابتسم له بمكر:

-أنت ياصديقي.. استعد.

قالها ومضى يجر خلفه نار مشتعلة تاركاً ركان وحده ينظر للثلج الذي عاد للتساقط بعد توقف وجيز.. وهو لايقدر على اشاحة نظرات سليم وابتسامته الماكرة عن ذاكرته..

...

-هل أعجبك الحفل؟
ابتسمت بخفة واومأت مجيبة بصمت..
-تعالي لنرقص.
همس لها بعاطفة فابتلعت ريقها واشارت للحلبة المليئة:
-المكان مزدحم، لن نشعر بالارتياح.
التوى فمه بسخرية:
-بل هو الوضع الأمثل، تعالي لأريكِ..
قبض على مرفقها وحين همت بالاعتراض كان هناك من يعترض طريقهما..
-شاهر باشــأ..
هتف سليم ببشاشة جعلت شاهر يشتم في سره وهو يمد يده ليصافح الرجل ثم ينظر لنيران الواقفة قربه ويحيها بتوتر:
-نيران.. سموك.
ابتسم سليم برضى ونظر نحو سارة..
رمقها ببطئ من رأسها لأخمص قدميها وهو يتسائل عن سر تصارع كل من ركان وشاهر الباشا على فتاة مثلها.. كانت جميلة حقاً.. ولكن..
العالم مليء بالنساء الجميلات..

-سلطانة؟!
هتف سليم بسخرية مبطنة وهو يلتقط كفها بين أصابعه ويقبلها بأناقة، ولكن سارة لم تشعر بالارتياح..
وجه سليم البشوش وابتسامته المتألقة كانت شيء، والجليد الساكن عينيه شيء أخر.
-مرحباً بك.
همست بخفوت ثم نظرت لنيران التي ابتسمت لها بحميمية جعلتها تهدأ بعض الشيء رغم أنها لم ترتح يوماً لها، وهنا أعلن سليم:
-لابد أن تؤجلا رقصتكما لبعض الوقت، فأنا ونيران لدينا خبر مثير لنعلنه..
-ألاتظن أن الخبر قد تأخر لبعض الوقت.
قالها شاهر بسخرية ليضحك سليم ببرود:
-كل شيء له أوان باشا.. وأنت خير من يعلم.
ثم ابتسم لسارة وابتعد عنهما يقود نيران الى منصة بعيدة نسبياً والاوركسترا التي تعزف للحفل خلفهما..
توقفت الموسيقى وأنصت الجميع وعيونهم متعلقة بذلك الرجل الأشقر الوسيم والمرأة الفاتنة بين

ذراعيه وهو يعلن بكل هدوء أنهما قد قررا الارتباط رسمياً..
وأمام الجميع تقدم رجل في منتصف الخمسينات من عمره وفتح لسليم علبة مجوهرات مخملية أخرج منها خاتماً مرصعاً بالماس والياقوت الناري وألبسه لها..
ووسط تصفيق الحاضرين تأملتها سارة بإمعان..
نيران كانت تعيسة..
وتعاستها اشتعلت في عينيها وانعكست على أحجار الخاتم الياقوتي فتألق بدموية، بينما التمعت ابتسامة سليم وهو يرفع النخب الذي اندفع عشرات من النُدل وسط المدعوين لتوزيع الشراب الاصفر الفوار ليرفع الجميع نخب اتحاد الامير وابنة الباشوات برباط وثيق..
-هذه مهزلة..
همست بخفوت ليرد شاهر بلامبالاة:
-انه حلم نيران منذ طفولتها.
-أتبدو لك كامرأة حققت حلمها؟
رفع شاهر نظره لابنة عمه الصغيرة والتي رباها منذ كانت طفلة، ورأى وجه التعاسة الذي لم

تستطع اخفاءه، وراقب كيف انجرفت عينيها بعيداً عن خطيبها الذي كان يتلقى التهاني من أفراد عائلته وأصدقاءه، وانتقلت عيناه الحادتين الى حيث شردت عيني نيران واتسعت عيناه بغضب.

-مجنونة.

همس بحنق وهو يعود الى نيران التي كانت تشرب المزيد من الشراب وبدفعات كبيرة وكاد يتقدم نحوها ليفهم، حين توقف متفاجئاً، وعيناه تنصبان على رجل واحد اقترب من خلف سليم ثم جاوره بالضبط..

-علينا الرحيل.

همس لسارة بقسوة وحاول جذبها للخارج حين استوقفه صوت سليم:

-ولكن أخبارنا المفاجأة والغير معقولة لم تنتهي بعد..

شيء ما أوقفه حينها، ربما كانت النبرة في صوت سليم..

التهكم .. البرود .. والقسوة المطلقة..

وشيء أخر..

احساس غامر بالتأهب.. جعله يحيط كتفي سارة بذراعه ويبقى ظهره لسليم وركان وكل من كان يصب نظراته عليهما وقتها.. كان يعطي العالم كله ظهره.. ولكن العالم كله كان يستعد للمواجهة.

-لسنوات مضت عاشت عائلة العثماني في ظل الاعتقاد أن أحد أفرادها بل هو.. من أهم أفرادها قد اختفى.

اتجهت الاعين كلها نحوه..حتى سارة حاولت الالتفات ولكن شاهر شدد من ضغط ذراعه ولم يسمح لها.

-لسنوات ظننا أن يداً ملعونة هي من اختطفت ابن خالتي وهو لايزال في مهده، محطمة قلب أمه ومدمرة عائلته حزناً.

وتوقف للحظة وهو يدير عينيه في وجوه الجميع.. ثم تركزت نظرته على ظهر شاهر وابتسم بشيطنة..

-ولكنني وجميع أفراد عائلتي كنا على خطأ.

..

-عما يتحدث؟!

همست سارة بتوتر.. وجاهدت لتتخلص من قبضة شاهر لتنظر تجاه المنصة حيث وقف سليم، واتسعت عيناها بذهول وهي تلتقي عينيه.. ورغم المسافة..
كل شيء بينهما اختفى.. فقط هي وهو..
خفق قلبه بجنون وهو يلتقي عينيها.. يلتقطها وسط الجموع، ويختفي الكون من حولهما وترتفع نبضات قلبيهما عالياً لدرجة صمتهما عن كل شيء..
عن الصخب والكلمات الخافتة التي تصاعدت مناقشة ماقاله سليم..
وحتى كلمات سليم التالية ..
كلها ضاعت وسط الصخب الهائج لمشاعرهما المحتدمة..
كانت تريد الاقتراب، شيء ما، رغبة عارمة للجوء لصدره.. لمعانقته والشكوى منه.. إليه!!
عينيه.. تلك الهمجية في نظرته..
سلبت لبها وعادت تشعر بذلك الضعف في ركبتيها كما في كل مرة تقف أمامه..

هاهي السلطانة.. هاهي تنحني مجدداً أمام نظرته الزرقاء المغوية..
كاد يتجه اليها، النظرة المستجدية التي رمقته بها كادت تودي بعقله وينسى ماتفعله هنا؟ ومع من؟
يرمي بما يحدث الأن مع سليم ويركض نحوها، يأخذها بين ذراعيه ويخفيها عن الجميع..
يجثو أمامها يطلب الصفح على خطأ لم يجرمه في حقها!!
أنفاسه تاقت إليها.. لتسكن ضلوعها.. وتهدئ من جنونها بجنونه..
سارته الجميلة.. امرأته الفاتنة..
عروسه.. أم طفله..
روحه التي تسكن جسدها كانت تناديه.. ترنو اليه ..
"أحبك"
همس دون أن ينطق واستقبلتها هي بدمعة وحيدة انسابت على وجنتيها..
أخرجتها من الدوامة التي كانت تلفها وجعلتها مرغمة تنصت لسليم الذي كان يقول بفخر أصابها وكل من سواها بالذهول..

-أقدم لكم جميعاً.. ركان العثماني.. الأمير ركان العثماني..
جحظت عينيها وهي تراقب ركان ينفض عنه مشاعره ويقف الى جوار سليم .. راقبتهما بذهول.. الشبه ..!!
كان لايُصدق..
نظرت نحو شاهر المصدوم ثم عادت تنظر نحو ركان الذي كان يعانق سليم ورجل أخر ثم ثالث ورابع.. وأخر وأخر..
الجميع كانو يحيطون به.. رأت نيران تنسحب..
ورأت شاهر يحاول السيطرة على مشاعره، يحاول لملمة أوراقه.. وكأنه حوصر.. ولم يعد يعرف مايفعل..
رأت الغضب والحيرة يمتزجان في عينيه !!
هل كان يعرف؟! تأملته بجزع.. كان يعرف أن ركان.. ركان ..
ولم تعرف كيف تصفه؟؟
تراجعت .. أرادت الهروب والتفكير..
"سارة.."
"ســـارة"

الأولى متعثرة خفيضة.. همسة بدت مستجدية..
والثانية كانت خاطفة.. خشنة .. امتزجت بشوق وتحذير خفي.. عالية ومسيطرة..
نظرت للأول ..
-باستطاعتي الشرح..
همس شاهر بتلعثم.. ولكنها هزت رأسها بحيرة وذهول..
ثم نظرت للثاني..
كان ركان يخترق الحشود ليصل اليها.. وقف أمامها بلهفة.. وقبل أن تبتعد كان يضع يده على بطنها الذي ظهر تكوره واضحاً وابتسم بثقة وغرور رجل..
-سارة..
خرجت ناعمة مغوية.. كعادتها في سلب قواها ..
-من أنت؟؟
همست مذعورة قبل أن تنفض نفسها عن لمسته التي كادت تذيب عضامها وتقبض على ثوبها وتسرع بالركض بعيداً..
"ســـارة"

هتف بحدة جذبت الانظار ووقف شاهر أمامه ليهتف به بغضب:
-دعها وشأنها..
تألقت وحشية همجية في عيني ركان ورفع ذراعيه ليدفع بشاهر عن طريقه وهو يقول بعنف:
-دعنا أنت وشأننا أيها الوغد..
-ركان.
سمع سليم من خلفه ولكنه لم يتوقف بل أسرع خلف سارة التي خرجت من القصر، تاركاً شاهر وسليم في مواجهة بعضهما وسليم يقول بتحذير:
-ابعد يديك عن ركان وزوجته شاهر، وإلا فإن حسابك سيكون معي أنا.
تراجع شاهر بحدة.. وسليم يواصل ببرود مثير للأعصاب:
-مافعلته.. شيء لايمكن أن يغفر أحد من عائلتي، ولكنني سأطالبك بدفع الثمن قريباً جداً.. والأن أنت ستترك ركان وزوجته ليحلا مشاكلهما دون تدخل منك.. أتفهم؟!

ارتفع الحنق والغضب بداخل شاهر وتراجع مجازفاً بكل الأعراف ليرمي بها خلف ظهره وقال بحزم:

-ليس حتى تقرر السلطانة من تريد بالضبط.. أنا أم الفتى الذهبي..

وقبل أن يتحرك سليم كان شاهر يحث الخطا خلف سلطانته هو الأخر..

..

ركضت سارة مسرعة..

لم تهتم بالبرد ولا الثلج المتساقط.. لم تهتم سوى أن تهرب .. أن تسرع بعيداً عن الضعف الذي تسلل ليهلكها ويهددها بالوقوع مجدداً..

"ساااااارة"

سمعت صوته خلفها.. ولكنها لم تتوقف..

شهقت بالدموع واستمرت بالركض..

كعب حذاءها ينغرس بالثلج .. ثوبها تمرغ في الارض والوحل..

"سااارة توقفي أيتها المجنونة"

صرخ لتتوقف وتستدير اليه..

وتوقف بالقرب منها..

-رباااه سارة ستتجمدين أيتها المجنونة.
هتف بلوعة وأسرع لنزع سترته واقترب يلف كتفيها بها ..
رفعت عينيها اليه ونظرت لعينيه وهمست مرتجفة:
-لماذا؟
كان ركان يدعك كتفيها بقوة ليبث بعض الدفئ اليها، كانت شبه متجمدة.. بشرتها شاحبة وشفتيها مزرقتين..
-لا وقت لهذا الهراء، علينا أن نعود أنت ستتجمدين.
هتف بعنف وجذبها اليه .. ولكنها ابتعدت صارخة:
-ليس قبل أن تخبرني ماذا يحدث؟؟ من هؤلاء؟؟ وكيف.. كيف تكون قريبهم؟
-سأخبرك بكل شيء سارة ولكن يجب ان أُعيدك للقصر.
هتف بتضرع لتصيح بتوتر:
-قصر؟؟ منذ متى تعيش في القصور؟؟
ثم أضافت بألم ومرارة:

-هل ترافقك تلك العاهرة التي تعاشرها؟؟ هل كنت ستخبرني حتى؟ لو لم أتي مع شاهر هل كنت سأعرف من الأساس؟

انتفض كبرياءه بعنف واقترب ليقبض على ذراعيها بقوة وهو يهمس:

-تلك كانت أخطاء بالجملة سارة.. أنا لم ألتقي سييرا منذ عثرت عليها وأخبرتني ان شاهر الباشا هو وراء كل ماحدث بيننا هو دبر كل شيء كي يستطيع الحصول عليكِ.

-أنت كاذب..

هتفت بألم وتابعت بوجع:

-لقد رأيتكما معاً وعلى فراشي أيها القذر..

-كانت مكيدة..

هتف بغضب.. واقترب يهتف بكل الحب في أعماقه:

-لم أكن لأنظر لأي امرأ سواكِ سارة، أنت حبيبتي وامرأتي الوحيدة، سييرا دبرت تلك المكيدة مع شاهر.

-كاذب حقير..

التفتا معاً واشتعل الغضب جنوناً في عيني ركان وهو يرى شاهر الذي اقترب رافعاً ذراعه مشيراً نحو ركان:

-لقد كان على الدوام بعلاقة مع تلك المرأة سييرا، هو لم يتوقف عن اللقاء بها منذ زواجكما.

-أيها الملعون..

هتف ركان بغضب أعمى وانقض على شاهر لتصرخ سارة ولكنهما لم يتوقفا..

سقطا معاً أرضاً واشتبكا بالأيدي بضراوة .. تلقى شاهر لكمة ركان الغاضبة على فكه وردها له بسرعة لتقع أسفل عين ركان اليمنى، ثم تلقى اللكمة الأخرى على كتفه بينما ساقه تركل ركان في بطنه بقسوة جعلته يتأوه.. ولم يشعرا معاً باقتراب سارة التي هالها المنظر واقتربت تحاول جذب ركان عن شاهر صارخة بأن يفترقا:

-توقفا كلاكما الأن..

ولكن لم تعرف ذراع من تلك التي طُوحت باتجاهها لتضربها بقسوة وعنف على بطنها وترميها بعيداً بضع خطوات صارخة بألم..

انتفض ركان وابتعد عن شاهر وهو ينظر لزوجته الحامل بطفله وقد ارتمت على الارض متأوهة تتلوى بألم، وحانت الفرصة لشاهر ليكيل له لكمة قاسية وعنيفة فجرت الدماء من أنفه وفمه وألقته بعيداً عنه.. لينهض شاهر متعثراً ويسرع نحو سارة التي كانت تتوجع وتبكي بهستيريا..

-سارة.. انظري الي.. هل أنت بخير؟

-لاتلمسني.. ابتعد عني..

هتفت بجنون ليتراجع شاهر بجزع وهو يرى كيف تقلص وجهها الملطخ بالدموع بألم بينما تحاول النهوض، وسمع صوت ركان وهو يحاول الاقتراب منها:

-لاتتحركي سارة.. لاتنهضي سأتي بالطبيب حبيبتي..

-ابتعدااااا عني..لاتقتربااا مني.. سأمووت.. سيمووت طفلي.

صرخت بوجع ولكن ركان لم يبتعد.. بل ارتمة جوارها وأحاطها بذراعه وهو يصرخ بشاهر المذهول:

-احضر الطبيب.. افعل شيئاً..

-ركاااان..
صرخت بألم .. وتشبثت بزوجها الذي ضمها اليه بقوة وهمس لها:
-لاتخافي سارة.. ستكونين بخير..
-لا.. لا ..
همست مخنوقة.. رفعت وجهها اليه أحاطت بوجنته ونظرت لعينيه بعمق قائلة بالدموع:
-أشعر بالطفل.. أشعر أنني ألد ركان..
حرك رأسه بذهول.. ولكن الصرخة التي أطلقتها سارة بعدها كانت أبلغ دليل على أنها تقول الحقيقة.. كانت تلد فعلاً.. تلد طفلا لم يتجاوز عمره الخمسة أشهر وسط جليد لانهاية له..
مع انتهاء يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر، وبداية العام الجديد.. عام بدايته هي سقط حياة كانت تتشكل بكل وداعة.. لتنتهي بكل بشاعة.
***
نهاية الفصل

الفصل الحادي والعشرين

"I'd Cry Like A Baby"

I'd cry like a baby if you told me goodbye
I'd feel like a snowball on the 4th of July
If you ever said you were leaving for good
I'd weep like a weeping willow, honest I would
I'd cry like a baby with a busted balloon
I'd let out a wail that would be heard to the moon
Our love was so splendid don't end it so soon
Don't leave me here sighing, sobbing and a-sighing
Crying like a baby for you

***

***
لازالت ليلة رأس السنة مستمرة ..
حدق جساس بوالدته وشيماء..
الأولى قامت بطهو الكثير من الطعام، وتحضير الشراب، والثانية قامت بتزيين الغرفة.. البالونات والاوراق الملونة، المفارش الجديدة والشموع .. حتى ساعة الحائط العتيقة، أُحيطت بزينة مبهرجة ولاصق كرتوني يُظهر عقارب الساعة بشكل معتدل ورقم12 بشكل مضخم وملونة..
-لا أعتقد أنه يستدعي الأمر كل هذا منكما؟
زمت شيماء شفتيها وقفزت عن المقعد الذي كانت تقف عليه لتعليق الزينة وهي تهتف بإستنكار:
-ولكنها حفلة رأس السنة.. ونحن نحتفل بها كل عام وأنت أدرى.
تراجع في مقعده بيأس ويده على خده ينظر تجاههما بتفكه..
-مالذي يحدث هنا؟

سمع صوان من خلفه والمفاجأة في صوتها وراقب أمه بصمت وهي تشيح عن زوجته بضيق، بينما تتمايل شيماء وهي ترد بسخرية:

-مالذي ترينه حضرة المديرة الهمام، اننا نحتفل برأس السنة؟ أم أنك لاتعرفين ماتعنيه هذه الكلمات؟

ابتلعت صوان ريقها وابتسمت بخفة وهي تقول:

-ومن الغبي الذي لايعرف عن احتفال رأس السنة؟ ولكننا لم نعتد الاحتفال بهذه المناسبة.. انها ليست من عاداتنا ولاتقاليدنا.

-انها من عادات أسرتنا أنا وجساس.. ربما لوتفتح ذهنك قليلاً لاستطعتِ الفهم.

شعرت صوان بالحنق يجتاحها ونظرت لجساس الذي بدا شارداً عن هذه المهاترات النسائية كما يحلو له أن يصفها، فعادت لشيماء وهي تدرك أن هذه معركتها وحدها وعليها أن تتصدى لهذا الهجوم من شيماء ومحاولة جر جساس الى مصاف العائلة التي تتكلم عنها.. فابتسمت بسخرية وتسائلت بهدوء:

-عاداتكما أنت وجساس؟؟ منذ متى؟؟ كما أعرف فجساس لم يكن حتى قد رآك منذ زمن بعيد حتى فترة بسيطة سابقة؟؟

شحب وجه شيماء للحظة ثم عادت لتأتي بابتسامة ملتوية وهي تهمس:

-غياب جساس عني وعن والدته لاينفي على الاطلاق كونه من عائلتنا أم لديكِ اعتراض صوان؟

هزت كتفيها:

-ابداً.. ولكن اعتراضي الوحيد هو زج اسم زوجي بما ليس له به علاقة من الأساس.

وابتسمت بثقة وتراجعت لتقف جوار كرسيه تحت نظرات شيماء الحقودة والتي التمعت بكراهية، وهنا شعر بها جساس ورفع عينيه اليها..

كانت تبدو هادئة وواثقة من نفسها، لم يكن يشغل باله بالهراء الدائر بينها وبين شيماء، بل عقله كان يسبح في الاتهامات التي وجهتها لأمه ليلة أمس. هو يدرك أن من حق أمه عليه أن يستمع اليها، لايستطيع أن يطيل التفكير بهذا الأمر، فهو

يظلم أمه بالشكوك، وكذلك والده وعمه، الشك الذي يتآكله من الداخل ويكاد يقتله.
نظرته اليها طالت، تأمل طولها المميز الذي طالما احتواه بسهولة، خصلات شعرها المغبرة والتي تجمعت كعادتها أعلى رأسها بتقليدية، ثم عنقها الطويلة والتي تنتهي بعظام ترقوتها البارزة.. قدها النحيل الساحر والذي ظلمته بقسوة بقميص شاحب بقصة عالية وسروال من الجينز الأسود.
ابتسم بخفة .. مهما ارتدت ومهما كانت ملابسها عادية وغير أنثوية ستبقى أكثر النساء اثارة بالنسبة له، لطالما كانت وستبقى الى الأبد.
"جساااااااس"
انتفض والتفت لشيماء التي كانت تعبس بصورة مضحكة وهمس مأخوذاً:
-ماذا هناك شيماء؟!
-أنا أناديك منذ الصباح..
هتفت بحنق ليضحك بارتباك:
-اسف، لقد.. شردت..

تلعثمت كلماته وهو لايعرف بما يجيب ابنة خالته، وفكر بما ستكون عليه ردة فعلها لو يخبرها أنه شرد في تفاصيل زوجته الغير مغرية وكيف أنها مغرية للغاية؟؟!

رباه.. حتى كلمته تلك كانت مجنونة.. ابتسم رغماً عنه وعاد يحاول الانتباه لماتقوله شيماء بصعوبة..

-كنت اسألك ان كنت ستقضي ليلة الاحتفال معنا؟

-بالطبع.

هتف بعفوية لتتألق ابتسامتها ويشعر بتراجع صوان فأضاف بسرعة:

-أنا وصوان يسعدنا أن ننضم للاحتفال.

تجهم وجه شيماء وسمع اعتراض صوان المخنوق بينما هتفت أمه بجفاء:

-صوان لاتريد المشاركة بالاحتفال بني، لاتزعجها بمالاتريد.

التفت لزوجته وسألها باهتمام:

-أحقاً لاتريدين السهر معي؟

ابتلعت ريقها بصعوبة ولكنها لم تتردد وهي تهمس:

-بالتأكيد أريد.
ابتسم وعاد لأمه التي ظهر غضبها جلياً على وجهها وقال ببشاشة:
-اذاً سوّي الأمر.. متى تبدأ الحفلة أمي، لأنني سأحتاج للراحة قبلها بالتأكيد..
مطت نرجس شفتيها وأدارت لهما ظهرها وهي تقول بعصبية:
-سنكون بانتظارك متى ماتريد الانضمام إلينا، سنتعشى معاً ونشاهد الاحتفال عبر التلفاز ..
-ممتاز.. سأستلقي قليلاً لأكون في قمة نشاطي.
هتف بمرح ثم قال مخاطباً صوان:
-تعالي معي صوان، أحتاجك.
خفق قلبها للكلمة وتبعته دون اعتراض.
-هل سنتحمل وجود هذه الشمطاء للأبد خالتي؟
زفرت شيماء بحنق لتتنهد خالتها وتقول بتفكير:
-لقد جئت الى هنا بنية واحدة شيماء.. وهي أن أنهي هذه الزيجة بأسرع وقت ممكن ولن أتوقف حتى أفعل، ولن تهنئ لي الحياة حتى أراكِ زوجة لجساس.
جلست شيماء على كرسي قريب وهمست بضيق:

-ومتى يكون هذا خالتي، لقد سئمت الانتظار.
-سيكون أقرب مماتخيلين.. هذه المرأة أيامها هنا معدودة، لاتقلقي.
-بإذن الله.. كم أتمنى لو أضربها على وجهها الجامد وكأنها مجردة من المشاعر.
ضحكت نرجس بسخرية:
-وماذا تتوقعين من فتاة اسمها صوان؟؟ مجردة من المشاعر قليل بحقها.. وابني جساس يستحق امرأة كاملة بكل ماتعنيه الكلمة، جميلة.. أنثى بكل مافي الكلمة من معنى.
قفزت شيماء ووضعت يديها على خصرها هاتفة بفرح:
-مثلي؟!
ضحكت خالتها مجدداً وقربتها نحوها:
-نعم تماماً.. مثلك ياحبيبة الروح، والأن تعالي لننهي تحضيراتنا لتكون حفلة لاتنسى..
عانقتها شيماء بخفة وعادت لتقف على الكرسي لاستكمال تعليق الزينة وهي تدندن بمرح..
والخطة القادمة تمتلئ بها دماغ نرجس، كخلطة شريرة تُطهى ببطئ.

***
لاتزال الثلوج تتساقط بصورة كثيفة..
لايعرف كيف ولامن أخبره..
كان يضمها إليه، ينظر في عينيها بعجز، ذراع تحيط بها والأخرى تضغط على بطنها المتكور حديثاً، ويهتف بها يائساً:
-لاأعرف ماأفعل..
انسابت دموعها وشهقت من الألم ليرفع رأسه ويصرخ بغريمه:
-اذهب لجلب سيارة، أفعل شيئاً..
ولكن شاهر كان ينظر لها بذهول، ماذا فعل؟؟!
سارة ستخسر طفلها، وفوق هذا هي قد تموت؟!!
أراد التحرك، فعلاً أراد التحرك ولكن وكأن قدميه قد غرستا في الأرض، ولم يعد بمقدوره حتى نقلهما لخطوة واحدة، ولكن شيء ماحدث عندها..
جلبة سمعها هو وركان ولفتت أنظارهما لخط الأشجار ليخرج لهما الرجل بمعطف الفراء الطويل والقلنسوة بخطوات مسرعة..
-ماذا حدث؟

هتف سليم بعنف واقترب من ركان وسارة التي كانت في عالم أخر من الألم والخوف..\
-لا أعرف سليم، انها تتألم وتشعر بأن الطفل قادم.
اتسعت عينا سليم وكاد يقول شيئاً حين سمع هسيساً من خلفه..
" moj bože "
التفت الجميع وعقد شاهر حاجبيه وهو يرى الفتاة الواقفة خلف سليم.. والتي تغطت من رأسها لأخمص قدميها برداء مكسو بالفراء بلون نافس الثلج بياضاً، واقتربت مسرعة لتجلس على ركبتيها أمام سارة لتضع كفها الرقيقة على بطنها وتنظر بعينين غامضتين لعمق عينيها الباكية للحظة ثم تلتفت بكيانها كله لسليم وتحتضن وجهه بكفيها وعينيها تغرق في زرقة عينيه هامسة بصوت شاحب رقيق:
-خذها الى أقرب مشفى، يجب أن تنقذ الأم.
-والطفل؟
تسائل بقلق لتهز رأسها بأسى قابله بحنق بينما الفتاة بالرداء الأبيض تهمس:

-أسرع سليم، لاوقت لديك وإلا أخرجته هنا.
اومأ سليم بتفهم وأخرج هاتفه ثم قال بعد لحظات:
-أحضر المروحية في الحال الى الباحة في الحديقة الشمالية.
ثم أغلقه ونظر لركان الذي كان يتشبث بزوجته ويحاول أن يهدئها بشتى الطرق ثم التفت للفتاة والتي ابتسمت بنعومة هامسة:
-سأذهب.
-لا.
اعترض قاطعاً ولكنها اقتربت لتهمس لأذنه وحده:
-لايزال الشتاء طويلاً، والثلج لايزل بكراً، سأراك مجدداً.
قالتها وأسرعت لتختفي وسط الثلوج وتتركه ينظر إثرها بغموض..
في الوقت الذي نظر سليم عاد الى ركان والسلطانة كان ركان يحمل السلطانة بين ذراعيه ويصرخ بوجهه:
-انا لن انتظره اخبرني اين توجد الطائرة؟
اومأ سليم موافقا واشار نحو الشمال:

-باتجاه القصر الشمالي. ساتي معك هيا ..
بدءا بالتحرك فعلا ولكن صوت شاهر المخنوق اوقفهما:
-سلييييم توقف انا يجب ان اتي معكما.
نظر له ركان بتوحش وصرخ بجنون:
-ابتعد عن طريقي شاهر والا اقسم لقتلتك بيدي.
تلوى وجه شاهر بألم وغضب مزيج من المشاعر هاجمه بلا هوادة وهو يرى جسد حبيبته وقد احتضنه سواه وهو الذي ظن ان هذا اليوم هو يومه وانها قاب قوسين او ادنى من ان تصبح ملكه وحده. ولكن هيهات ،وكأنها تبتعد عنه ملايين السنوات الضوئية. وكأنما انتزعها ركان منه للتو جزءا من روحه قطعة من جسده وتركه نازفا حيث هو.
-سارة جاءت معي،هي رفيقتي سليم؟
لم يكن يخاطب ركان حتى ولكن سليم لم يعطه الفرصة ابدا ولذا وبكل برود اقترب منه وقال بحزم يحمل نبرة تهديد واضحة:
-اسمعني شاهر باشا، السلطانة هي زوجة ركان، زوجته الشرعية وام ابنه وهي الان في محنة

حقيقية ونحن نريد انقاذها والطفل وان كان جنونك يصور لك للحظة اننا قد نتهاون مع من يريد المساس بها او بجنينها بسوء فأنت مخطئ.
-انا لا اريد ايذاءها.
صاح بيأس ليرد سليم بغلظة:
-اذا ابتعد عن طريقنا في الحال.
ودون ان ينتظر كان يلحق بركان الذي لم يهتم اطلاقا بمتابعة الحديث ومضى يحمل زوجته اتي كانت في عالم اخر من الالم والخوف تتشبث به لاتريد ان تنظر تجاه اي من الديكة المتصارعة منهمكة في التفكير بإبنها الذي تشعر بانه قادم لامحالة وتدعوا من اعمق اعماقها الا يحدث.
فالطفل لايزال صغيرا للغاية وهي واثقة انه لن ينجو.
حين وصل ركان بحمله الى باحة الطائرة المروحية الصغيرة تنتظر وقد بدأت مراوحها بالدوران ببطئ. ساعدها اثنان من الخدم على رفع سارة ووضعها على كرسي طويل وقفز ركان خلفها وهي تتشبث به مرتجفة بينما قفز سليم مجاورا الطيار وهو يقول بانفعال:

-اتصل بالمشفى المحلي واخبرهم بالوضع الان بالتفصيل..
فتح الطيار الاتصال وابلغ المشفى بحالة سارة وهو يسأل بضعة اسئلة بين الحين والاخر لركان المنفعل وسليم البارد جداً ليقدر على ايصال المعلومة بشكل لائق للمستشفى:
-سأموت ويموت جنيني معي.
همست سارة باكية ولكن ركان احاط بها بحنان ورد بعاطفة:
-لاتخافي سلطانة لا شيء سيء سيصيبك او يصيب الطفل انا واثق.
نظرت نحوه بشك فابتسم مغالبا جزعه وهمس بحب:
-طفلنا سيعيش حبيبتي لن يصيبه مكروه.
بكت بمرارة وصمت ومالت برأسها لتستند على صدره تستقي منه بعض من قوته التي ظهرت لها في عينيه. كانت في أشد الحاجة إليه، وهو لم يتركها، لم يكن الوقت مناسباً للعتب والاتهامات، كانت هناك أشياء أكثر أهمية على المحك.

لم تستغرق الرحلة سوى دقائق قليلة وسرعان ماكانت سارة توضع على محفة وتغيب خلف أحد الأبواب بينما لاتزال عينيها على ركان وتهتف باكية:

-لاتتركني وحدي.

التفت ركان للطبيب وصاح به:

-يجب أن أكون معها.

-ليس الأن.. دع الاختصاصي يقيم حالتها أولاً.

زفر ركان بحنق والتفت لسليم الذي اقترب منه بدعم وربت على كتفه:

-لا تقلق، ستكون بخير.

جلس ركان وعينيه لا تفارقان الباب الزجاجي، بينما يتمتم بحزن:

-أنا السبب في كل هذا.

كان يشعر بالإرهاق الشديد ، القوة التي تحل بها وهو يطمئن سارة طيلة الطريق ويحتوي قلقها وانفعالها كلها تبخرت الآن، يشعر بأنه منهك بل مستنفذ الى الأخر.

رفع رأسه وأسنده للخلف بينما يغمض عينيه بألم، يتخيل معاناتها ويعتصره قلبه لألمها، وكأنما

يشعر بكل لحظة منه، مشاعره متقلبة.. لا يعرف أعليه أن يشعر بالخوف أم القلق.. أم هو المزيج بينهما هو ذلك الذي يشعره بعدم الارتياح والفزع الشديد مما قد يأتي..

سارة لو فقدت الطفل، ابتلع ريقه بصعوبة .. هو قد يفقدها معه..

-ستكون بخير.

همس له سليم وهو يجلس الى جواره ليهمس ركان بصوت مخنوق:

-أخشى أن أفقدها سليم، أخشى أن أفقدها للأبد.

-لو فقدت الطفل، سارة لن تسامحني.

-لم تكن غلطتك. أنت لم تطلب منها المجيء ولا حتى الهرب.

تحدث سليم ببرود تغلفه القسوة، ليتنهد ركان ويقول بانفعال:

-انا لا اعرف ما كانت تفعله مع ذلك الرجل، كيف وصلت بها الجرأة أن تأتي معه؟ كيف فكرت وكيف نفذت أنا لا أفهم بتاتاً.

-لا تخشى شاهر، سأعطيك كل مفاتيحه لتستطيع اللعب معه ومناورته كما يجب.

-أنا لا أريد اللعب معه، انا أريد تمزيق وجهه.
هتف ركان بشراسة ثم انتفض واقفاً حال خروج أحد الاطباء وتقدم نحوه يسأله بلهفة:
-أهي بخير؟
ابتسم الرجل وهو يقول له مطمئناً:
-ستكون الأم وجنينها بخير، كان انذاراً خاطئاً.
جموح الارتياح الذي انتابه جعله يكاد يقفز في الهواء فرحاً ثم هتف بفرح:
-هل أستطيع رؤيتها؟
-ليس قبل أن تتحدث معك الاختصاصية النفسية.
قال الطبيب ببرود جعل ركان يتساءل بقلق:
-لم ؟ ما الأمر؟
-السيدة مصابة بانهيار نفسي حاد وهذا ما جعلها تتعرض للتقلصات قبل الأوان والأن يجب أن تبتعد عن أي توتر وقلق كي لا يصبح الانذار الخاطئ حقيقياً.
تنهد ركان وتراجع ليجلس على المقعد وهو يهمس بعصبية:
-ومتى أقابلها؟
نظر لسليم بتوتر والذي قال له بهدوء:

-سأبقى أنا هنا اذهب.
زفر بتوتر ثم التقط معطفه ومضى خلف الطبيب الشاب.
بعد دقائق كان يجلس أمام امرأة في منتصف الخمسينات والتي كانت تهز رأسها برفض قائلة بحزم:
-السيدة سارة يجب أن تبتعد عن أية ضغوطات تواجهها مهما كانت الأسباب خذها الى مكان بعيد، لا تدع أحد يقترب منها ليس وهي بهذه الحالة من الألم الجسدي والنفسي.
-سآخذها بعيداً لا تقلقي..
-ممتاز والأن بعد أن عرفت ما تعانيه زوجتك لم لا نذهب اليها معاً.
قالت مبتسمة ليرتفع مستوى التوتر بجسده لقمته وهو يرافقها الى غرفة معزولة تنبعث منها موسيقى هادئة اضاءتها ناعمة، وعلى سرير وثير رقدت عليه سارة بضعف، وان كان الاسترخاء يطغى على ملامحها ولكنها لم تتحرك لدخوله.. استغرق عدة لحظات قبل أن يبتلع ريقه

بصعوبة ويتقدم نحوها.. جلس الى جوارها متأملاً ملامح وجهها الرقيق:

-كيف حالك سارة؟

رفت بعينيها ونظرت نحوه، عينيها فارغتين وشفتيها تهمسان بتوتر:

-كدت أفقد طفلي.

-ولكنك لم تفقديه.

أسرع قائلاً وهو يحاول التمسك بكفها ولكنها نزعته من بين يديه وهتفت بمرارة:

-أنت السبب.

اتسعت عينا ركان بصدمة وهتف:

-أنا؟

-لو لا خيانتك لي، لو لم تطاردني لما حدث كل هذا.

كانت الحدة في صوتها ترتفع، العصبية والألم ينضخ من عينيها بينما ترتجف وتحيط بكتفيها بقوة:

-لا أريدك أن تقترب مني، أريدك أن ترحل، ابتعد عني.

نهض ركان كالملسوع وهو يرى تراجعها عنه وتقوقعها حول نفسها والدموع تتلألأ في عينيها لتتقدم الاختصاصية النفسية وتحول بينهما هاتفة بحسم:

-اخرج في الحال.

نظر للمرأة الاكبر سناً وهتف بعصبية:

-دعيني أشرح لها.. دعينا نتكلم وحدنا.

-ليس الأن.

هتفت بحدة وهي تتقدم لتجلس جوار سارة، وتمسك يديها الاثنتين وتهمس لها ببضع كلمات هادئة لم يقدر على سماعها بينما ترد سارة بعصبية:

-لا أريده هنا، أريده أن يرحل. لا اريد أن أرى أحد أحضري عائلتي، أريد والدي.. فقط.

تدخل بحنق:

-سارة، أنا زوجك بحق الله توقفي عن هذه الحماقة ودعينا نتحدث.

-ليس بيننا ما يقال، بسببك أنت كدت أفقد طفلي، وربما حياتي.. دعني وشأني واذهب الى عائلتك الجديدة.

صرخت بانفعال والدموع تتألق في عينيها قبل أن تنساب على وجنتيها بألم وهي تشيح عنه لترتمي على الوسائد خلفها وتشهق بعنف:

-دعيه يغادر، لا أريد رؤيته بالله عليك.

-ســـارة؟!!

صرخ بذهول لتنهض الاختصاصية وتأمره بتسلط:

-سيد ركان من فضلك، ولأجل صحتها غادر الأن وسنتحدث فيما بعد.

نظر للمرأة بغضب تصاعد وشعور عميق بقلة الحيلة وكأنه لا يملك من امره شيء، لا يملك سوى المحاولة:

-سارة..

همس بتضرع وهو يميل اليها ولكنها دفنت وجهها في الوسائد أكثر وبدأت بالنحيب لتشير له الاختصاصية نحو الباب هاتفة بحزم:

-الأن من فضلك.

تراجع بيأس عيناه عليها بينما تشيح عنه ولا تقبل حتى النظر اليه، خرج وأغلقت الاختصاصية

الباب أمامه فاستدار يركل الجدار بسخط.. ويقابل سليم الذي عبس بوجهه:
-مالذي حدث؟
-انها لا تريد حتى رؤيتي، أنا لا اعرف ما علي فعله.
-أعطها المزيد من الوقت.. لا الضغط عليها حالياً فهي مرهقة ومشتتة.
قال سليم بتعقل ثم أشار له ليجلسا معاً وأكمل بهدوء:
-اتركها الأن ركان، دعها تسترد انفاسها.. اترك لها بعض المساحة.
-ألم يكفها كل ذلك الوقت بعيداً.
تساءل بمرارة ليعقد سليم حاجيه وعيناه الجليديتان تشردان هامساً:
-بعض النساء، يحتجن للكثير من الوقت، وبعضهن يحتجن للمساحة، لا تضغط عليها، أتركها حتى تعود وحدها.
عض ركان باطن فمه بألم، ثم قال بتوتر:
-أنا لم أعد أتحمل بعدها عني سليم، كل تلك الشهور وهي قريبة وأنا أخطط لأن أوقعها في

غرامي، لأجعلها خاتماً في أصبعي، وحين فعلت.. اكتشفت أنني وقعت مثلها وربما أكثر.
نظر له سليم بحنق بينما ركان يستمر في رثاء نفسه:
-أحبها بجنون، ولم أدرك عمق محبتي وجنوني إلا بعد أن فقدتها.
-أنت لم تفقدها، ليس بعد على كل حال.
تنهد ركان وقلب كفيه ثم قال بتململ:
-يجب أن أتصل بعائلتها، انها تريد هذا.
-افعل اذاً، نفذ لها ما ترغبه.. ستشعر بالامتنان نحوك.
ضغط ركان أزرار هاتفه بعصبية:
-الامتنان هو أخر ما أريده من المرأة التي أحب، أنا أريد لمشاعرها المجنونة تجاهي أن تعود.
ثم همهم بيأس:
-رباه سليم تلك المرأة لم تكن تستطيع أن تكبح جماحها معي، لم تكن تتوقف عن لمسي، والأن..
ونظر له هاتفاً بسخط:
-هي لا تطيق النظر في وجهي.
ابتلع سليم ريقه بعصبية، ونهض هاتفاً:

-بعض النساء.. لا أحد يستطيع حتى فهمهن.
حرك ركان رأسه بنفاذ صبر بينما يجري اتصاله بوالد سارة وسليم يبتعد عن سماع حديثه المضطرب مع حماه ليقف بالنافذة متأملاً الظلام والثلوج المتساقطة وعيناه تنجرفان نحو عمق الظلام حيث تختفي ملامح الجبال بسبب الظلام وتخفي معها كل ما يهمه في هذا العالم.
***
"انا لا اجيد الرقص"
"دعي قدميك تتحركان .. توقفي عن التفكير وارقصي، انقلي ساقيك مع النغم."
"انه صعب للغاية، كيف تفعل هذا؟"
قهقه بمرح وقربها اليه أكثر، أحنى رأسه ونظر لعينيها اللامعتين بحنق وهمس:
"أنت فقط بحاجة للتدريب"
زمت شفتيها واستسلمت لساقيه الطويلتين تدوران بها حول الغرفة الواسعة والتي اخلاها من الاثاث ليمارس نشاطه المثير بالرقص، ضحكت وهي تشعر به يرفعها عن الأرض بضعة انشات وهمست مداعبة:

"تُشعرني بأني بوزن الريشة كابتن؟"
"أنت فعلاً بوزن الريشة سيدتي"
همس بثقل الى جوار أذنها بينما يزداد تعلقها بكتفيه تتبع خطوطهما العريضة وتتنشق رائحته المثيرة، سيكفيها أن تظل هكذا العمر كله، قريبة.. دافئة.. وأمنة معه.
"ما اسم الاغنية؟"
همست بعينين مغمضتين وهو يدور بها في أنحاء الغرفة بجنون..
"سأبكي كطفل"
همس بحنو ينظر لعينيها ودين مارتن يصدح بكلمات توسل عذبة..
غرقت بعينيه وهو ينزلها ببطء لتلامس قدميها العارية الأرضية الخشبية، وبدأت تساير ساقيه الطويلة بالحركة على أنغام الموسيقى المثيرة.
-أنت طويل للغاية..
تذمرت بحنق فضحك وفكر للحظة أن السعادة كل السعادة بتواجدها معه.. همهم فجأة وهو يقربها منه:
-لن أسمح لأحد أن يأخذك مني ترنيمتي.

ابتلعت ريقها وهمست باضطراب:
-أنا لا أريدهم أن يأخذونني أوس.. أنا لن أقدر على العيش بدونك.
ابتسم بعمق وقبض كفيه على خصرها بتحكم وعاد يدور بها بحلقات واسعة وهو يقهقه بسعادة بينما تبتسم ترنيم بجذل وخصلات شعرها الطويلة تتناثر حولها، ثوبها القصير بتنورته الواسعة يحلق حولها كفراشة مرفرفة جناحيها بنشوة، أدارها بخفوة وعاد يقربها ليلتصق ظهرها بصدره بينما يتمايلان على الموسيقى التي تحولت لنغمات جاز بطيئة، رفعت ذراعيها لتحيط عنقه ثم تنزل ببطء ملامسة عضلات صدره المشدودة بينما يتمايل خصرها ببطء مثير يرافق نغمات الساكسفون الناعمة، شعرت بذراعيه تشتدان حولها بينما يسقط رأسه فعلياً ليجاور رأسها وتختفي التسلية من صوته وهو يهمس بخشونة:
-انت تلعبين بالنار حلوتي.
اختنقت ضحكتها حين تنقلت شفتاه على طول عنقها بلمسات مثيرة بالكاد تسمى قبل!!

-أووووسي..
احتجت حين ابتعدت شفتاه ولكنه أدارها وكفيه تحتجزان عنقها بين أصابعه الطويلة.. اقترب وبالكاد لامست شفتاه شفتيها وهو يهمس:
-هل هذا توسل؟
زمت شفتيها بشقاوة وتخلصت من قبضته للخلف وتراجعت تدور حول نفسها بسرعة حتى دارت الغرفة حولها حركت جسدها بجنون ورفعت صوتها بالغناء مع الكلمات الصاخبة وراقبته يجلس على الارض وقد أسند ظهره لأحد المقاعد ويراقبها بعينين لامعتين ضاحكتين، ملئتهما السعادة، يراقب خطواتها ويشتعل قلبه وجسده استجابة لها..
-ألن ترقص معي؟
هز رأسه ببطء وهمس:
-أريد النظر اليكِ.
احتقن وجهها وتوقفت مباشرة ليعقد حاجبيه:
-لم تنتهي الأغنية بعد يا حلوتي.
تمايلت حتى ركعت على ركبتيها أمامه ومالت تستند على ساقيه لتنظر لوجهه مباشرة:

-لن أتحرك خطوة مالم تكن معي.
ابتسم بحنو وقبض على كفيها ومال يلاقيها في منتصف الطريق، قبلها بنعومة لتتسع ابتسامتها بينما يسألها:
-الى أين تريدين الذهاب؟
رفرفت بعينيها وأجابت:
-أي مكان معك.. لا يهمني الى أين.
-منذ متى تجيدين الكلام ترنيمة؟
همس والسعادة تنضخ من عينيه لتبتسم وهي تندس بين ذراعيه:
- مذ قلت أنك تحبني.
اغمض عينيه بقوة واغرق وجهه في شعرها المعطر برائحة ندية كرائحة العشب الأخضر بعد هطول المطر، وهمس مرتجفاً:
-أنا اعشقك ترنيمة، الحب.. يبدو ضئيلاً جداً لكل ما اشعر به تجاهك محبوبتي.
دمدمت بكلمات هامسة له بحبها وعشقها قبل أن تحيط عنقه بذراعيها وتنظر الى عينيه الرمادية الغائمة بشغف:
-الى أين ستأخذني؟

اتسعت ابتسامته ونهض مسرعاً يحملها معه وهو يقول مغيظاً:

-مفاجأة.. ضعي شيئاً ما عليكِ، سأنتظرك أمام السيارة.

-أووووس؟؟

اعترضت بغيظ ولكنه لم يرد.. تراجع ضاحكاً وأسرع يرتدي معطفه وقبعته لتضرب قدمها بالأرض ثم تركض الى غرفتهما وتلتقط معطفها وحجابها وقبعتها الصوفية، ثم تلحق به وهي تضع حذائها على عجل.

كان قد شغل السيارة حين ركبت الى جواره ولم ينتظرها حتى لتغلق الباب لينطلق بها.

-مجنون.

صرخت حانقة ليجاوبها بقهقهة عالية والسيارة تنطلق عبر الطريق المظلم بسرعة جنونية يثبت بها لها أنه فعلاً قد جن. ابتلعت ريقها بصعوبة ونظرت للأمام بقلق وضغطت ذراعه بحرص ليختطف نظرة لها فتهمس مخنوقة:

-لا تسرع.

خفض السرعة تلقائياً وامتدت ذراعه لتقبض على أصابعها بينما يقول بثقة مطمئناً:
-لا تخافي أنت بأمان وأنت معي..
حاولت أخذ نفسٍ عميق لتهدئ من روعها بينما أوس ينطلق بالسيارة بهدوء وثقة جعلها تسترخي أكثر.
-ألن تخبرني الى أين؟
-سنصل بعد لحظات.
قال بغموض.. زفرت بترقب ومالت تنظر عبر زجاج النافذة علها تتعرف على لمحة من الطريق الذي يقودها عبره أو وجهتهما القادمة، ولكن الظلام المسيطر بالخارج كان مسانداً لهذا الغامض المثير للحنق والذي تعشق أدق تفاصيله..
عادت بنظرها اليه و ابتسمت وهي تتأمل جانب وجهه المنحوت، لحيته النامية وخصلات شعره الناعمة التي تظهر أسفل قبعته الخفيفة، مالت نحوه وطبعت قبلة على زاوية فمه برقة.
-أنت.. تستخدمين أسلحة محرمة ترنيمة.

همس بثقل لتضع كفها على صدره وتنزلها ببطء ملامسة كل عضلة نافرة من عضلاته وهي ترد بشقاوة:

-أنا لم أبدأ بعد كابتن.

ضحك بمرح وقبض على كفها الشقية ليرفعها الى شفتيه ويقبل أصابعها بشغف ثم ينظر لعينيها ويقول وهو يوقف السيارة:

-سأطالبك بكل أسلحتك فيما بعد يا جميلتي، فقد وصلنـــا.

ابتعدت عنه بحماس وأسرعت للخروج من السيارة قبل أن يفعل..

كان الظلام لايزال مسيطراً ووقفت كالحمقى تنظر حولها ولا ترى حتى كف يدها بعد أن أطفئ أوس أضواء السيارة..

-ماذا نفعل هنا؟

ابتسم بحنو ووقف أمامها ينظر اليها من فوق، قدها الضئيل لايزال يطير ببرج من عقله وهذا التشوق وتلك الإثارة التي تنضخ من عينيها تدفعه لأن يصبر ولا يفشي مفاجأته، ولكنها استخدمت أحد أسلحتها الجديدة عليه..

مالت بعنقها وتوسعت عينيها لتبدوا كقطة مدللة تبحث عن الشفقة وهي تهمس:
-أخبرني ..أرجوك.
-أغمضي عينيكِ.
أمرها بصوت أجش، لتشتعل حماستها وتقفز على الارض المرصوفة بعناية غير قادرة حتى على اغلاق عينيها فضحك لهذه الطفلة الشقية وعاد يأمرها بصوت أعلى:
-أغلقي هاتين العينين في التو ترنيم.
سارعت للاستجابة وهي تضغط كفيها المتجمدتين لعينيها بينما يستمر جسدها بالرقص وهي تهتف:
-أرني.. بسرعة، بسرعة..
لم يستجب لطلبها بل أسرع ليقف خلفها ويضع كفه بنفسه على عينيها بينما يدفعها بجسده ببطء لتسير أمامه وهو يهمس الى جانب أذنها:
-بضعة خطوات للأمام.. هكذا.. أحسنتِ يا حلوتي، والأن ..
شعرت بشيء ما .. كما الضوء الباهر الذي يسيطر على عينيك والذي يخترق حتى جفنيك..

أبعد أوس كفه وهو يهمس:
-كل عام وأنت بخير ترنيمتي.
فتحت عينيها طارفة برموشها تحاول الاعتياد على الضوء، للحظات فقط وقفت بفم مفغور أمام ما تراه..
فتحت فمها وأغلقته عدة مرات.. ثم أشاحت بعينيها لتنظر تجاهه هامسة بذهول:
-أهذه طائرة؟
ابتسم أوس ونظر لطائرته التي جاء بها عبر المحيط فقط ليرى تلك النظرة في عينيها وقال بفخر:
-طائرتنا.. مُلكك سيدتي..
شهقت وعادت تنظر للطائرة البيضاء الصغيرة والتي يمر عبر بدنها المصقول خطين متوازيين باللونين الأحمر والأزرق، ويزين مؤخرتها رسم ذئب أشهب يرفع رأسه للأعلى ويعوي.. بصمت.
-ألا تريدين رؤيتها من الداخل؟
هتف بمرح، لتنظر له بعينين متسعتين قبل أن تقفز فرحاً وتركض لتعانقه بقوة هاتفة:
-اوه أوس انها مذهلة.. هل ستأخذني للداخل؟

اومأ لها لتتسع عينيها بإثارة وقفزت تصفق بيديها بجذل بينما يسحبها خلفه عبر السلم القصير الى داخل الطائرة، كانت الإضاءة الصفراء متناسقة مع الديكور الداخلي بألوانه التي كانت مزيجاً من الذهبي والبني والبيج، مع سجاد أخضر اللون.. ومقاعد بلون البندق واسعة وأنيقة..

تنقلت بذهول، كانت المرة الأولى لها، والمرة الاولى التي تعرف أنه يملك واحدة؟

كيف لم يخبرها؟ شعرت بالغيظ والتفتت لتعنفه ولكنها تسمرت وهي ترى ما يرتدي..

كان قد تخلص من معطفه والقبعة، ورغم الجينز والقميص الشاحبة التي يرتديها..

كان يضع عليه سترة بدلة الطيران بخطوطها الذهبية على المعصمين ويسدل قبعته الرسمية على عينيه هامساً بعبث:

-سنقلع بعد لحظات مدام.. الزمي مقعدك من فضلك.

-سنقلــع؟!

همست بذهول فأومأ بابتسامة ماكرة وتراجع بحدة حين حاولت الاقتراب منه وقال بأنفة:

-ممنوع الاحتكاك بطاقم الطائرة سيدتي، تفضلي بالجلوس.
غطت فمها بكفيها والاثارة تنضخ من كل عرق في عروقها بينما تهمس:
-أريد رؤيتك تقلع بها.
خنق ابتسامته بصعوبة وهز رأسه برفض فعبست متسائلة وهي تحاول الوصول اليه:
-حتى وإن استخدمتُ أسلحتي؟
أفلتت ضحكته التي يحاول كتمها ولكنه لم يرضخ بل تنحنح وهمس بجدية:
-تحشمي، نحن لسنا وحدنا.
احتقن وجهها وهي تتلفت حولها ولكن أوس دفعها لتقع على أحد المقاعد وأسرع بربط حزام الأمان ورغم نظرتها الساخطة الا أنه كان يرى الرضى خلف مآقيها.. والتوق.. كل التوق ينضخ من مسام جلدها.
-مساء الخير مدام.
سمعت التحية من خلفه لتجد رجل أخر يرتدي بدلة الطيران ومضيفة كما يبدو..

تأملت الرجل كان في نهاية العقد الرابع وربما أكبر ولكن عدا الشيب الذي غزا فوديه كان في أتم صحة:

-حبيبتي هذا ريك الطيار المساعد، ريك.. هذه الجميلة هي زوجتي ترنيم.

ردت تحيه الرجل بخفر وهي تحاول السيطرة على احتراق وجنتيها من كلمات أوس التي حملت فخراً لم ينكره، ثم التفتت للمضيفة والتي ارتدت بدلة سماوية وابتسامتها تبدو للأعمى مصطنعة مليئة بالفضول..

وتذكرت بلحظة المشهد الذي حدث في زفاف سارة قبل دهور كما يبدو ولا يزل عالقاً بذاكرتها، أوس المهرج، يقتحم زفاف شقيقته مع صف من المضيفات الراقصات، تجهم وجهها ونظرت نحوه لتزداد ابتسامته خبثاً وهو يطرف بعينه بعبث بينما يقول:

-حبيبتي، هذا ماتيلدا وهي مضيفتنا الخاصة، ماتيلدا..

وأشاح بوجهه عن وجهها الغاضب حقاً وقال للمضيفة بلغة فرنسية سليمة ومختصرة بضع

كلمات جعلت المرأة تضحك بخفوت قبل أن تومئ وسرعان ما كانت تختفي مع ريك ليتقدم أوس وينحني نحو وجه ترنيمته المتكدر هامساً:
-سأغيب لبعض الوقت، وحين أعود لا أريد هذا الوجه العبوس ترنيمتي.
نظرت له شزراً ولكنه لم يتوقف عن الابتسام بل تلاعب حاجباه بمكر واقتنص قبلة خاطفة من شفتيها قبل ان يسرع نحو قمرة القيادة.
"تباً.. أهي المرة الأولى التي تشعر فيها بالغيرة تجاه أحد؟"
عضت شفتيها بقهر وضربت مسند مقعدها وهي تفكر بتلك المرأة ترافق زوجها الى قمرة القيادة، هل كانت احدى صديقاته؟ لا .. أوس لم يملك صديقات، كنّ كلهن عشيقات!!
زمت شفتيها بألم وتحجرت الدموع في عينيها بينما سمعت صوت الصفارة الخافت ورأت ضوء مشتعل صغير أمامها ينبئها أن هناك رسالة صوتية من طاقم الطائرة وحينها سمعته..!!
"عزيزتي الراكبة الوحيدة والجميلة، نستعد الأن للإقلاع، أرجو منك الالتزام بالتعليمات وعدم

التدخين، وإياكِ سيدتي أن تنزعي حزام مقعدك لأي سبب، أتفهمين يا جميلتي؟"
حارت بين الضحك لنبرة صوته المعسولة وكلماته العذبة وبين الفزع لفكرة الطيران؟!
هل سنطير؟؟
فكرت بذعر.. الى أين سيذهب بها هذا المجنون؟؟!
هي لم تجلب جواز سفرها؟ ولا حتى أوراقها الثبوتية؟؟ تباً هي لم تحضر حقيبتها..
تسارعت دقات قلبها مع صوت هدير المحرك المكتوم، وبداية تحرك الطائرة والتي اختلفت عن بقية الطائرات بخفة بدنها وسرعتها في المدرج، نظرت ترنيم عبر النافذة ورأت الاضواء الصغيرة تتباعد بسرعة رهيبة بينما الطائرة ترتفع مقدمتها بسرعة مخيفة وبلحظات كانت الأرض تتباعد تحتها حتى أصبحت مجرد خيط رفيع من الاضواء الصفراء والطائرة تستقر في الجو، ورات الاشارة الضوئية تتحول من الأحمر الى الأخضر وكادت تفتح حزام مقعدها حين سمعت صوت أوس المؤنب:

-قلت ألا تفتحي الحزام.
انتفضت بذعر وتلفتت حولها تبحث عنه ولكنها لم تجد أحداً وعادت تسمع صوته الساخر:
-كنت أتمنى لو كنت قريباً ترنيمتي، ولكنني لازلت في مقعدي لأصل بنا الى بر الأمان، والأن استرخي.
تنهدت بعمق واغلقت عينيها ليهمس:
-هذا ممتاز.. سأراكِ فيما بعد سيدتي الجميلة.
ابتسمت بتوق وهي تعرف أنه يراها وأرسلت له قبلة في الهواء ليلتقطها بمرح مقهقهاً..
ستجاري جنونه.. مهما كان هذا الجنون ولن تمل أبداً..
***
تنقلت أصابعها بين صف الملابس القليلة الذي احتل خزانتها، وزفرت بيأس وهي تحاول انتقاء ثوب ربما، شيء ملائم للسهرة التي تخطط لها حماتها، والذي لا تعرف على ما ستنتهي.
تنهدت وهي تجذب أحد الأثواب القليلة وتأملته بضيق، انه ثوب بلون داكن، لا تعرف ان كان

أزرق أو رمادي غامق، بياقة مرتفعة وكمين من الدانتيل المبطن.
ارتدته بسرعة ، أظهر الثوب نحولها المفرط ولم يضف الكثير لجسدها المسطح بينما أظهرت تنورته المستقيمة القصيرة ساقيها الطويلتين كعيدان المعكرونة، كان الثوب لا يناسبها قط، ولكن.. لم يكن لديها غيره فعلياً.
هي لم تحضر معها الكثير من الملابس ولم تعتد على حضور مناسبات كهذه، حاولت اضفاء بعض اللمسات، رفعت شعرها وزينته بحلية فضية، ووضعت أحمر شفاه بلون أحمر قانٍ.
زفرت بتوتر ثم قررت الخروج، كان جساس قد سبقها بعد قيلولة قصيرة وتناوله دواءه وتغيير ضماد ساقيه، ثم تركها لتغير ملابسها. ابتلعت ريقها وتحسست شعرها قبل ان ترتدي حذائها وتخرج.
سمعت الأصوات المرحة تنبعث من غرفة الجلوس فتقدمت بتوتر وفتحت الباب بتردد لتدلف الى الداخل ويلتفت نحوها الثلاثة، رأت للحظة الدهشة على وجه نرجس قبل أن تتحول الى

سخرية وبالكاد كتمت ضحكتها التي اطلقتها ابنة أختها دون مواربة وهي تسأل:
-رباااه من أين أحضرتِ الثوب؟
تسمرت صوان وحرارة تجتاحها حتى كادت تذوب وهي تحاول اخفاء حرجها بخفض رأسها بينما نرجس تهمس بسخرية:
-ربما كان يجب أن تبقي بالجينز عزيزتي.
غصة احتكمت حلقها وهي تلقي نظرة على ما ارتدتا .. نرجس كانت تلتف بالحرير القرمزي حتى كعبيها وشعرها يتجعد بنعومة على كتفيها، بينما شيماء.. رباااه تلك المرأة..
ابتلعت ريقها بحرقة وهي ترى الثوب القصير الفاضح الذي ترتديه بألوانه المفرحة، وكتفيها العاريتين، وشعرها الطويل الذي وصل لمنتصف ظهرها بينما تتألق ملامحها الناعمة وعينيها الزرقاوين كعيني قطة متوحشة تحاصر فأراً ضعيف لا حول له ولا قوة.
-صوان؟!
التفتت بجسدها كله لتقابل عينا جساس القلقتين، ضغطت شفتيها بقوة كي لا تنفجر بالبكاء..

رباه لم هي بهذا الضعف؟
وكيف لها أن تكون؟؟ انها صوان.. صوان الشيب..
السـلطانة!!
-تبدين جميـلة ..
فتحت عينيها على وسعهما وهي تنظر له ..
سمعت الصمت من خلفها بينما يقول بابتسامة ناعمة:
-شكراً لأنك ارتديت الثوب الذي أفضله.
ثم اقترب من جسدها المتخشب وأمسك بكفها هامساً:
-اقتـربي..
جثت على ركبتيها أمامه ونظرت لعينيه بينما يهمس ملامساً وجنتها بظهر كفه:
-أنت الجميلة صوان، لا توجد سواك من تثير هذا القلب وتفقده اتزانه.
خفق قلبها بجنون وأحاطت كفه بكفيها وتجرأت على أن تضمها اليها وتقبل أطراف أصابعه بوله وهي تنظر في عينيه، ابتسمت له بادلها الابتسامة

فيما عينيه تتصلب بقسوة وأصابعه تكاد تسحق أصابعها.

هو لم ينسى بعد؟

فكرت بذعر، لا يزل يتذكر حديثهما عن امه بالتأكيد.

ابتلعت ريقها وهي تنهض بصعوبة وكأنما قد كبرت مائة عام؟!

نهضت لتواجه نظرات نرجس وشيماء الحاقدة، ولكن جساس لم يترك الأمر، فهو أكثر من يعرف بمحبة نرجس لصوان!! لذا صفق بكفيه بحماس مصطنع صائحاً:

-لم لا نبدأ الاحتفال اذاً؟ ها قد اجتمعت العائلة.

تنهدت صوان وتراجعت لتقف الى جواره بينما تقول نرجس ببرود:

-بالتأكيد بني.. هيا شيماء لم لا نحضر المأكولات الشهية التي حضرناها والشراب..

-حاضر خالتي.

تابعت صوان توجههما الى خارج الغرفة ليفاجئها صوت جساس ونبرته القاسية:

-اذهبي لتساعدي صوان، أتحتاجين الى دعوة في منزلك؟

انتفضت ونظرت له بذهول رأت كيف يقبض كفيه بقوة والندبة على وجهه تحمر، رباه انها تراه غاضباً حقاً، مالذي حدث ليغضب بهذا الشكل.

-لم أنت غاضب مني؟

همست مرتجفة ليهمس بشراسة:

-لأنني اريدك سيدة المكان، وليس مجرد ضيفة تصل متأخرة وتجلس عاقدة ساقيها بينما تتصرف الأخريات بكل حرية في منزلها.

-انها أمك.

هتفت باضطراب ثم أضافت:

-وقد عاشت في هذا المنزل من قبلي، انه منزلها.

-كان منزلها، لم تعش فيه سوى شهور معدودة وأنا أنوي البقاء فيه للأبد، والأن صوان اذهبي ومارسي مهامك كربة منزل وتخلي عن دور الضيفة المؤقتة.

راقبته لعدة لحظات ثم ابتلعت ريقها بصعوبة وتوجهت للخارج، التقط جساس أنفاسه بصعوبة،

عليه أن يعرف الحقيقة، ما قالته صوان عن والدته يحرق قلبه ويؤذيه.. مشاعره بالحب نحو صوان والشك في كل ما قالته تتلاعب به فلا يقدر على جزم مشاعره وما يجب عليه أن يشعر نحوها الأن تؤلمه. انه يتقلب بين الحب والغرام وبين الحقد والغضب.. مشاعره تغلي على مرجل مشتعل.. وبالكاد هو يحافظ على الباقي من سلامه العقلي.

الليـلة .. الليلة سيواجه والدته ويعرف الحقيقة مهما كان الثمن.

عدن الثلاث معاً تحمل كل منهما أطباق المأكولات والشراب ..

ابتسم وهو يرى تنوع الاطباق الشهية والحلويات، وقهقه رغماً عنه هاتفاً:

-رباه من سيأكل كل هذا؟

-نحن جساس، لا تقلق الليلة ستكون طويلة وسنتمتع بكل هذه المأكولات حتى يبزغ الفجر.

هتفت شيماء ضاحكة فبادلها الضحكات بينما نرجس تقوم بتشغيل التلفاز الضخم وتبحث عن

احدى قنوات عرض الحفل الغنائي الكبير بمناسبة رأس السنة الميلادية..
جلست صوان صامتة الى جوار جساس الذي كان يشارك مع والدته وشيماء من وقت الى اخر الترديد مع الاغنيات الشعبية للمطربين المشهورين الذين أحيوا الحفل الصاخب، ومرت الساعات بين صخب شيماء ونرجس وقهقهات جساس المستمتعة وصمت صوان المتنامي.
حتى انتصف الليل..
ونهضت شيماء بخطوات راقصة نحو طرف الحجرة وهتفت بعبث:
-حان الوقت.
وبحكرة واحدة كانت تغلق الاضواء..
-اووه شيمااء ماهذاا؟؟
هتف جساس بمرح سمعها تصفق بيديها بجذل بينما نرجس تنهض لتفتح النوافذ الضخمة على مصراعيها ..
-ثـــلاثة..
هتفت شيماء بمرح وتابعت:
-اثـــنان... واحـــــد..

وحال انتهاء كلمتها اشتعلت السماء..
ضاقت عينا الجساس وصوان نتيجة الضوء الباهر، وصرخت نرجس:
-كل عام وأنتم بخير.
اقترب جساس بكرسيه من النافذة وتعلقت عيناه بالألعاب النارية والتي استمرت بشكل مكثف وأضاءت السماء والبحر المقابل.. مساحة واسعة ..
اتسعت عيناه بفرح، كانت الألعاب النارية منذ صغره عشقه الاكبر الى جوار السيارات، التفت لأمه وابتسامة واسعة تشق حلقه لتقترب وتعانقه مقبلة جبينه ووجنته هامسة بسعادة:
-كل عام وأنت بألف خير حبيبي، أتمنى لك كل السعادة في العالم.
عانقها جساس بحنان وهمس:
-وأنت بخير أمي، أتمنى لكِ السعادة أيضاً.
وقفت صوان في الخلف بالكاد تميز الجسدين المتعانقين وقلبها يخفق بقوة، كانت قلقة .. وغيورة، وخائفة حتى الموت. ثم تغيرت تلك المشاعر، اختفى الخوف والقلق، وتنامت الغيرة

واشتعلت بالغضب وهي ترى شيماء تترب منهما وتنضم للعناق بين رجلها وأمه، بل هي تتجرأ وتقبل وجنته بكل وقاحة..

-كل عام وانت بخير جساس.

همست شيماء قريبة منه، عينيها في عينيه..

شعر جساس بالحرج وحاول التراجع ولكنها لم تفعل، بل اقتربت وعادت تقبل وجنته السليمة، شعور بالنفور يملئه وهو يرد تحيتها بخفوت وعيناه تبحثان عن صوان التي وقفت بعيداً تنظر لهما بألم..!!

"تعالي ودافعي عن حقوقك"

صرخ بصمت وعينيه لا تفارقانها.. عينيها تنطق بالغيرة والمرارة..

"ليس لي الحق"

هتفت بوجع.. تتعانق أصابعها بألم وتوتر.. تخشى الاقتراب فيصدها أو يؤلمها بطريقة ما؟

"تعالي، أخبريهم انكِ زوجتي، معكِ كل الحق، أريهم معنى أن نكون معاً صوان..

دعيهما تريان مدى حبكِ إن كنتِ حقاً تحبينني"

ابتلع ريقه وتشبثت نظرته بعينيها.. جذبها نحوه.. بتحدٍ غير معلن، هي فقط اقتربت..
شعر بتراجع شيماء بينما تعلقت عيناه بصوان التي انحنت أمامه، كفها يلامس وجنته ويثير فيه مشاعر عنيفة تكاد تتفجر من داخل عروقه وهي تميل لتهمس أمام شفتيه بحب شع من نظرتها:
-كل عام وأنت بخير، حبيـبي.
وقبل أن يرد كانت تقترب لتضع شفتيها على جروحه النابضة بألم..
فأغمض عينيه وفتحهما شاهقاً شهقة مكتومة .. تردد صداها من والدته وشيماء، ثم اختفى الكون من أمامه لم يعد يرى سواها وعينيها، شفتيها التي تنبض بحبه وتتوسل بصمت تنفرجان بدعوة صريحة ليلبيها بشجاعة، ولكن لمسته توقفت على حدود زاويتها.. عض شفتيه وخفض رأسه هامساً بثقل:
-حين نكون وحدنا.
تراجعت بخيبة أمل لم تستطع اخفاءها ليبتسم بحنان ويعانق وجنتها بكفه قائلاً:
-اعتقد أن الحفلة انتهت.

ابتسمت بخجل واشاحت عنه بينما نرجس تقول بحنق:
-ولكن الاحتفال لم ينتهي.
-انا مرهق امي، بالنسبة لي وصوان فهو انتهى.
خذا راحتكما أنت وشيماء.
لم يهتم باعتراض شيماء ولا حتى استمرار اعتراض والدته وهو ينظر لصوان:
-هيا بنا.
استقامت وهي تعطيه كفها بينما يستخدم يده الحرة ليدفع بعجلة الكرسي خلفها..
لم يكن يعرف الى أي مدى يمكن أن تتطور الأمور بينهما، لم يكن يعرف عن قدرته وهذا ما كان يثير خوفه وتردده، ولكنه لم يعد يستطيع الاحتمال.
الشوق، الشوق اليها يقتله.. لقد انتظر لوقت طويل جداً.
سنوات، سنوات انتظر لتكون له ومن حقه، وحين أصبحت، ها هي بعيدة عنه أكثر.

اغلق الباب خلفهما ورآها تبتعد لتقف وسط الحجرة تتلفت حولها وكأنما لا تعرف ماذا تفعل والى أين.

اقترب منها ثم همس:

-انظري إلي صوان.

التفتت اليه وخفضت عينيها تهرب من نظرته القوية والتي اختفى منها كل أثر للضعف والتردد، عيناه مشعة متلهفة تسلبها قوتها وتجردها من كل حصونها:

-تعالي.

اقتربت حتى أصبحت مواجهة له ركعت على ركبتيها فمد ذراعه ليخلص شعرها من عقدته لينسدل كثيفاً على كتفيها ويهمس:

-اذهبي وانزعي هذا الثوب حبيبتي، احرقيه أو مزقيه لا أبالي فلا أريد أن أراه مرة أخرى.

احتقنت وجنتيها وهي ترى التسلية تتلاعب في عينيه قبل أن تنهض مسرعة وتغيب خلف باب الحمام.

ابتسم وراقب الباب بشغف، ابتلع ريقه وانتظر، كل التفكير فيما حدث وما سيحدث..

انتظر للحظات طويلة وحين بدأ بالتململ وكاد يدفع بكرسيه ليعرف سبب تأخرها سمع تلك الجلبة المزعجة ترافقها صرختها الملتاعة..

خفق قلبه بجنون وهو يميز ضجة تساقط الاحجار وتهشم زجاج ما واتسعت عيناه بذعر وهو يستوعب قدم البناء وما قد يحدث للمبنى من انهيارات؟!

-صوان؟!

صرخ باسمها بلوعة وقفز مستعيناً بساقه اليسرى يجر اليمنى خلفه متجاهلاً الألم وفتح الباب بدفعة عنيفة بيده وعيناه تلتهمان المشهد امامه.. صوان تجلس على حافة الحوض ملتفة بمنشفة رمادية قصيرة، بينما مرآة الحائط مهشمة على الارض..

-جسااااس؟!

همست بذهول فيما يعرج اليها ينظر لوجهها بلهفة وينقل بصره بينها وبين الزجاج والحجارة على الارض:

-أأنت بخير؟ مالذي حدث؟؟

رفعت ذراعيها تتحسس وجهه ودموعها تنهمر بلا توقف:

-جساس، يا الهي انت تقف على ساقيك..
ضاقت عيناه وهو يحاول أن يستوعب ما تقول،، هو لا يهمها هو لا يسمعها من الاساس كل ما يريده هو رؤيتها سالمة لحظات الرعب القصيرة جداً التي عاشها وهو يتخيل أنها تقبع تحت ركام ما في هذا البيت العتيق جعلته يقفز سنوات في عمره. ولكنها بخير.. حمدا لله انها بخير.
-أنت لم تصابي بأذى؟
هزت رأسها نافية وهي بالكاد تقدر على الوقوف ليرى خيط الدم يسيل من قاع قدمها فيشتم بحنق ويهمس:
-لقد تأذيت؟
-انه جرح بسيط..
همست والفرح يغرق حروفها ليستوعب ما يحصل حقاً..
زفر بقوة.. يخرج باقي الخوف من داخله ويستوعب أنه يقف حقاً أمامها..
انه يقف؟!
نظر لساقيه بذهول .. متى وقف؟ كيف؟؟ هو حتى لا يذكر كيف جاء الى الحمام لقد كان هناك

يجلس على ذلك الكرسي الغبي وينتظر أن تخرج عليه، حين سمع صراخها.. بعدها لا يتذكر سوى وقوفه هنا الأن..

-أنت تقف على ساقيك جساس.

همست صوان وهي تواجهه وترفع وجهه اليها لتنظر في عينيه المصعوقتين قبل أن تنفجر بالبكاء وتعانقه بقوة صارخة بحمد الله وشكره..

انه يقف؟؟

اغمض عينيه وضمها نحوه بقوة، انه يقف على ساقيه..

صحيح أن ساقه المصابة تؤلمه بشدة، ولكنه يقف.. حقاً يقف.. والأفضل من هذا كله أنه يستطيع الشعور بكل شيء الى جوار الألم، ضغط ساقيه.. برودة أرض الحمام..

كل شيء..

-أوه حبيبي أنا سعيدة للغاية.. حمدا لله ، حمداً لله.

تنهد بقوة ثم تذكر جرحها، مسد شعرها المبلول وهمس بشغف:

-أنت السبب، أنت السبب لوقوفي من جديد صوانة، لقد ظننت بأنكِ تأذيتِ بشدة حبيبتي.. لم أفكر بشيء، كل ما فكرت به هو أنتِ صوانتي.

-أنا بخير.. لقد..

همست بشحوب حين قاطعتها الطرقات القوية على الباب، التفتت مع زوجها ثم عاد الجساس ينظر اليها، ابتلع ريقه وقبل أن تعترض كان يحملها بين ذراعيه متجاهلاً شهقتها وهمستها المضطربة:

-انزلني، جساس أيها المجنون.. ساقك؟؟

ولكنه لم يتركها حتى وضعها على الفراش..

وصرخ بمن يستمر بطرق الباب:

-قاادم..

ثم ذهب الى الحمام وعاد بمنشفة صغيرة وضعها على جرح قدمها وقال بخشونة:

-اضغطي.

فعلت ما أمرها دون تردد في حين فتح جساس الباب ورأى والدته وخلفها الشيماء ينظرن اليه بفضول تحول الى ذهول شديد..

-أمي.

قال باختصار وهو يحاول السيطرة على أنفاسه اللاهثة من فرط ما مر به لتوه..
-جساس .. اوه بني .. أنت تقف؟؟
-لحسن حظي أمي، هذه المركبة العجوز لا يزل بها بعض الروح في النهاية.
اتسعت عينا النرجس بتأثر، رغم كل ما قاله الأطباء أن حالة جساس مؤقتة وأنها نفسية في المقام الأول ولكنها لم تتخيل قط أن تكون سعادتها لرؤيته يقف على ساقيه من جديد بمثل هذه القوة والكبر..
اقتربت تعانقه بمحبة وتقبل كتفيه بسعادة، وهي تشكر الله بلا توقف وشيماء من خلفها تهمس له بمباركة خفيضة وتختفي، في حين عانقت نرجس وجنتيه وهمست:
-أنت بخير؟ لقد سمعنا صوت تحطم ما.. ظننت أنك وقعت عن الكرسي؟
-لا لا أمي.. كانت مرآة الحمام، لابد أن البلاط قديم أو ما شابه.
-كل شيء قديم هنا بني، عليك بالحذر. هل تحتاج لان نأخذك للطبيب؟ أو ربما نستدعيه الى هنا؟؟

همست بقلق وهي تلامس وجنتيه فرد بسرعة:
-لا أمي أنا بخير، حمدا لله.
حمدت الله ثم تنهدت بعمق وقبلت جبينه وهي تقف على رؤوس أصابعها هامسة بحب:
-لقد نسيت للحظة كم انك طويل.
ابتسم بخفة.. وابتلع ريقه وهو يودعها:
-تصبحين على خير أمي.
-تصبح على خير بني.
قالتها ثم اختفت فأغلق الباب خلفها واتكئ عليه يحاول استرداد بعض أنفاسه..
عيناه تسافران الى تلك التي انزوت على الفراش تضغط جرحها فعادت أنفاسه للتسارع.. اتجه نحوها وجلس عند قدميها، أبعد المنشفة،، كان جرحاً صغيراً قد جفت دماءه..
راقبته صوان برهبة..
أنفاسه المتسارعة، قميصه القطني الغارق بالعرق، حتى ضماد ساقه التصق بها..
-ساقك.. يجب تغير الضماد.
همست لاهثة، فنظر اليها .. ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تغرق في عينين بسواد القطران،

زفرت أنفاسها بحدة بينما يصعد جساس الى الفراش ويقترب منها ببطء، أنفاسه متسارعة وكأنما يركض لألف ميل، شعره التصق بجمجمته وجراح وجهه باتت حمراء دموية..
كان ذئباً يتصيد فريسته..
ابتلعت ريقها وهي تراقب تصبب العرق من كتفيه، عضلات ذراعيه منتفخة وكأنما يبذل مجهوداً غير عادي، اجتاحها الذعر، ماذا ينوي؟
جف حلقها وخرج سؤالها مرتجفاً ليكشر الذئب وقد تحرر من قيده أخيراً..
رأته ينزع قميصه بحركة واحدة فشهقت لرؤية عضلات صدره النافرة وتراجعت ليصطدم ظهرها بظهر الفراش، ولكن جساس قبض على كتفيها وجذبها اليه بحركة متوحشة تقريباً قبل أن ينقض مقبلاً عنقها بنهم طال كبته، يداه تخلصانها من منشفتها عديمة الفائدة ثم تضمان جسدها النحيل الى عضلاته المفتولة وهو يهمهم رضاه على نبضها الضارب بجنون..
-جساس توقف، أنت لا تريد..

وقطعت شهقتها كلماتها وجساس يلامس صدرها بجوع هامساً بشراسة:
-أنا أريـد.. وأريد.. أريدك أنت صوان، أريدك لسنوات، أريدك الأن وبعد.. أريدك هنا.. بين ذراعي.. في أعماق قلبي وداخل عروقي، لا تقولي لا، اكتفينا من لا .. أنا اكتفيت، وحان الوقت كي أخذ كفايتي منك أنت صوانتي.
قالها بأنفاس مخطوفة معذبة امتزجت بالرغبة والحرمان، قالها واغرق شفتيه في شفتيها ينهل من عبق حبها، عشقها وأنوثتها.. لم تستطع ايقافه، ومن يقدر..
كان متحرراً من كل قيوده.. حتى ألمه وجروحه لم تستطع ايقافه..
همست تترجاه أن يترفق بها، دموعها تسيل على وجنتيها لا تعرف سببها .. أهو الخوف أم السعادة !!؟
ضمها اليه .. الحنان الذي حاول أن يقدمه لها لم يكفيه.. كان يريدها بقوة .. لقد طال انتظاره.. طال وهو لم يعد يقدر على الاحتمال .. أحاط

وجنتيها بكفيه نظر في عمق عينيها وهمس لها لاهثاً:

-سامحيني صوان، أنا أعرف أنني أؤذيكِ، أعرف أنني سأؤذيكِ أكثر، ولكنني لا أستطيع أن أردع نفسي، أنا أريدك صوانة.. أنت تثيرين جنوني حبيبتي، أنا لا استطيع التحكم برغبتي بكِ.

اغمضت عينيها واسندت جبينها اليه..

لو كانت حجم رغباته بقدر عشقها له فهي تعذره.. تسامحه.. لا شيء يمكن أن يوقف مثل هذا الحب.. لقد جربت لسنوات أن تلجمه تسيطر عليه ولكن لا.. لم تستطع، وتعرف أنه لن يستطيع هو الأخر.

ابتسمت وضغطت ابتسامتها على فمه ..

شعر بها وفهمها.. موافقتها الخجولة أطارت صوابه.. يمتلكها أخيراً.. صوانته، عشقه الأزلي.. بقدر الحب كانت الروعة ..

رغم قسوته، ووحشية غرامه الذي أثار جنونها إلا أنها لم تفكر حتى في مقاومته، تركته يمتلكها كما يريد، تحملت الألم والنار التي اشتعلت بينهما ولم تخمد الا بعد وقت طويل...

***

تململت في مقعدها بعد قرابة النصف ساعة من الطيران.. وتنهدت..

-هل سئمت التحليق بهذه السرعة؟

هتف بها لتبتسم بحزن:

-سئمته وحدي، لطالما سافرت وحدي أريدك بجواري..

ابتسم بحنان وهمس يعدها:

-سأكون معك بعد لحظات.. تناولي الحلوى والشراب ريثما أتي..

وقرن قوله ظهور ماتيلدا بالزي السماوي المثير للأعصاب تدفع صينية عليها طبق من سوفليه الشوكولاتة والنبيذ الأحمر..

-أنا لا أشرب الخمر.

هتفت للفتاة بالإنجليزية بقسوة لم تتعمدها جعل الفتاة تجفل بينما يأتي صوت أوس مهدئاً:

-انه خطئي أنا ترنيم أنا لم أخبرها.

-اذا ربما عليك ان تخبرها أنني لست عشيقتك، فيبدو أنها معتادة على هذه التصرفات المشينة كابتن.

هتفت بصوت مخنوق وحلت حزام مقعدها بعصبية وهي تنهض لتبتعد عن ماتيلدا المندهشة، لا تعرف ما أصابها، لقد شعرت بالغيظ والألم للحظة، وكأنما يقارنها بكل أولئك الفتيات.. والتي هذه الدمية بالبدلة السماوية ربما تكون احداهن.

-ترنيم..

هدر صوته من خلفها والتفتت لتجده ينظر لها بقلق وعصبية..

-ماذا حدث هناك؟ مالذي أصابك؟

-أنا .. أنا لا أعرف.

همست متلعثمة ليقترب ويحتضنها بقوة، شهقت باكية وحاولت التملص من قوة ذراعيه ولكنه لم يسمح لها قط، بل ضمها بقوة أكبر وهتف بها:

-ماذا أصابك أيتها المجنونة؟

-أنا لا أتحمل رؤية احدى نسائك..

همست مخنوقة، تغالب غصة تستحكم حلقها، لتتسع عيناه بدهشة ثم يلقي نظرة من فوق كتفه لماتيلدا التي وقفت بانزعاج متململ بالقرب منهما:

-تعنين ماتيلدا؟! رباااه ترنيم..

أبعدها بطول ذراعيه ونظر في عينيها اللامعتين بالدموع وهمس لها بحذر:
-أنت تغارين من ماتيلدا؟
-توقف عن قول اسمها، توقف عن النظر اليها..
هتفت بألم وهي تضربه على صدره ليتأوه ثم ينفجر ضاحكاً، تأملته مصعوقة..
يقابل دموعها بالضحك؟؟!
تخلصت منه وتراجعت الى أحد الابواب في مؤخرة الطائرة ودخلت عبره تريد الهرب منه بأي ثمن، ولكنه لم يسمح لها بل كان خلفها، يثبتها على بدن الطائرة وينظر لعمق عينيها الحزينتين رغم الظلام المحيط بهما:
-اسمعيني أيتها السيدة الغيور الصغيرة، أحبك، أعشقك لدرجة أنني لم أنظر لأي امرأة منذ أصبحتُ مجنوناً بكِ ترنيم.
نظرت له بغباء قلبها لا يعرف أيستمر بالخفقان بسعادة جنونية أم يقرر التوقف من فرطها!!
-ماتيلدا وريك أصدقاء قدامى لي، وهما متزوجان منذ خمسة سنوات، ولديهما توأم في الرابعة من عمرهما أيتها الحمقاء.

اتسعت عينيها بذهول.. اذاً فمساعده والمضيفة متزوجان؟!!
رباااه وهما صديقان له وهي عاملت المرأة بكل ذلك الجفاء والوقاحة..
-أوه يا الهي..
همست بخجل ودموعها تتوقف تلقائياً، بينما تحاول أن تخفي عينيها عن عينيه اللائمتين ولكنه ثبت نظره عليها وهمس بحنق:
-لقد كنتِ وقحة، ويجب أن تعتذري.
خفضت عينيها بحرج وقهر..
-هيه.. انظري الي..
همس لترفع عينيها اليه فترى تألق عينيه عذوبة وهو يهمس لها:
-لا تخافي ولا تخجلي ترنيم، أنت زوجة أوس نضـــال الشيب، زوجة السلطان يا سلطانة، ان أردت ألا تعتذري لن أجبرك، ولن أطلب منكِ.
تضخم قلبها بالحب لرجلها المثير والعابث جداً، تضخم حتى شعرت به يكاد ينفطر، ارتمت بين ذراعيه وهي تشهق بالدموع والضحكات

المكتومة، تتشبث بعنقه وتزرع القبلات على فكه ووجنتيه..
-اممم هكذا أفضل، سأدعوكِ بالسلطانة منذ الأن وصاعداً إن كان هذا ما يفك عبوس وجهك.
قهقهت بصوت خفيض وهمست تلومه:
-أنت السبب بكل هذا الاشكال كابتن، منظرك وأنت تدخل زفاف سارة محاط بكل أولئك المضيفات، ترقص بتلك الطريقة، أووه ذلك المشهد لا ينفك يقض مضجعي أوس.
عقد حاجبيه وهمس بحذر:
-ذلك الأوس انتهى منذ أحببتك ترنيم، لن أنكر أنني كنت أكبر عابث على وجه الأرض، ولكنني معك الأن وكل شيء، كل شيء يعود للماضي لا علاقة له بي.
-اذاً لم أحضرتني الى هنا؟؟ كأي امرأة أخرى؟
همست مخنوقة لتتسع عيناه وهو يدرك حقيقة مخاوفها ثم لانت ملامحه وهو يلامس وجنتها بظهر كفه ويقول بجدية تماماً وقد تخلت نبرته وحتى نظرة عينيه عن عبثها الدائم:

-أنت هي ثانِ امرأة تصعد على متن طائرتي الخاصة وتحلق بها ترنيم، أتعرفين من كانت الأولى؟

هزت رأسها نافية وقلبها يتوقف فعلياً بينما يبتسم أوس ويرد:

-سلمى العزب، كانت هذه المقصورة هي هديتي لها ولسيف بمناسبة زواجهما.

المفاجأة أصابتها بالشلل، فوقفت بينما يبتعد أوس ليضيء المقصورة وتظهر الغرفة الواسعة والتي فرشت بديكور حديث، غرفة نوم متكاملة ومصقولة بألوان ذكورية من تدرجات الرمادي وحتى الأسود، فيما السرير الواسع بقاعدته السوداء وفرشه الأبيض يحتل الغرفة..

-سيف الأحمق طمع بسرير زفافه وأصر على الحصول عليه ولذا، كان علي تجديد الغرفة بالكامل وهكذا فأنت أول امرأة تدخلها فعلياً.

نظرت له عاجزة عن الكلام بينما يحيط وجهها بكفيه ويهمس:

-ترنيم هذه الطائرة لم تطئها قدم امرأة منذ شراءي لها سواك وسلمى، حتى ماتيلدا لقد اتت

اليوم فقط كخدمة لي شخصياً، أنا لم أعتد اصطحاب أحد معي حين أحلق بها، أنا أقودها وحدي، أستمتع بها بمفردي أتفهمين.

-ليس بعد الان.

همست بخفر والفرح بداخلها يجتاح أدق خلاياها وينضخ مع كل دفقة من دماءها عبر شراييها..

ابتسم ومال ليقبلها بنعومة:

-لا.. ليس بعد الأن.

استجابت له بسهولة، ساعدته ليخلع عنها حجابها ويحرر شعرها، معطفها ثم وقف يتأملها بالثوب القصير قبل أن يحرك رأسه وهو يهمس مرتجفاً:

-لا أصدق أنك معي. وكأنه حلم.. وكأنك أنت مجرد حلم.

ارتمت على صدره تعانقه بشغف، نسي كل شيء، كل ما كان يشغل باله، رمى قبعته، وألحقها بسترته وقميصه قبل أن يحملها الى الفراش الواسع..

-أوس .. نحن لسنا بمفردنا.

هتفت مذعورة وهي تدرك نواياه ليجيب بخشونة احتكمت مخارج حروفه:

-بلى نحن وحدنـــا..
شهقت وهو يمتلك فمها مسيطراً على كل اعتراضاتها يبثها شوقه وغرامه بكل ما يحمله من حب وعشق، حتى نسيت اعتراضاتها وهي تذوب في لمساته التي حملتها الى ما فوق الغيوم، همساته المغرمة ، تغزله بكل شبر منها، تلك البهجة الخالصة التي رأتها في عينيه والتي امتزجت بعذاب شوق انهمر من عينيها وهي تتوسل له:
-لا تتركني أوس، أنا بحاجة إليك حبيبي.
-أبداً.. أنا لن أتركِكِ أبداً ولن أسمح بأن يُبعدكِ عني مخلوق.
رد وهو يحتضن وجنتيها ويقبلها بعمق يخنق تأوهاتها بشفتيه، فتعلقت بكتفيه وضمته ليغرق فيها أكثر وأكثر، وهي تهمس باسمه كتعويذة خاصة بها وحدها تحميها من كل ما حولها من شرور وحقد.
-أنا أحبك.
قالت شاهقة بالمتعة ليضحك رغماً عنه وينظر لعينيها هامساً بعذوبة:

-أنت تختارين اسوأ الاوقات للاعترافات ترنيمة،، أصمتي لبعض الوقت فقط.
-لا أستطيع السكوت..
تلعثمت لاهثة، ليعاود الضحك بصوت مخنوق قبل أن ينقض على فمها هامساً:
-انها غلطتي أنا.
صاحت بصوت مكتوم ثم صمتت تماماً والغرفة تغرق في الظلام بينما يتحكم بكل حركة تقوم بها، لم يسمح لها سوى بالأنفاس التي تبقيها على قيد الحياة، امتلكها بقوة وحب بعاطفة شغوفة مشبوبه لم يسبق لهما أن اختبراها معاً. معانقتها تشبه معانقة السماء، مشاعره تضاهي تلك الأحاسيس المجنونة التي تشعل عروقه نشوة كلما ارتفعت به الطائرة، قدماه تنسحبان من الأرض وكأنما كائن أسطوري يفرد جناحيه ويحلق بعيداً، شيء حلم به منذ نعومة أظفاره وحققه بقوة إرادة رغم الضغوط التي واجهها ليلتحق بعمل العائلة.
والأن .. الأن هو يختبر نفس الإحساس معها، بين ذراعيها وفي أعماقها، يجد نفسه كما لم يجد مع أي امرأة سواها، ترنيمته الخاصة التي يعزف

وحده على أوتارها، يعرف مكامن ضعفها وقوتها.
يريدها بكل حالاتها.. اكتشف معها أنه عاشق وهو الذي لم يعرف قبلها عشقاً ..
وأخيرا كانت النهاية معها دوماً هي بداية جديدة ..
بعد هدوء ثورة المشاعر واستقرار أنفاسها نوعاً التفتت إليه، كان ينظر الى السقف وعلى شفتيه ابتسامة حمقاء رأتها بصعوبة وانتقلت لها بعدوى سريعة وهمست تخفي وجهها في كتفه:
-لماذا تبتسم؟
أخذ نفساً عميقاً ونظر اليها بالكاد يلاحظ عينيها في الظلام وابتسامته تتسع:
-لأنني سعيد للغاية.
احتقنت وجنتيها لنظرته التي حملت مشاعر عميقة هزتها من الداخل:
-وهل تبتسم بهذه الحماقة حين تشعر بالسعادة؟
قهقه بمرح والتفت يستند برأسه على ذراعه يتأملها مطولاً:

-ألا تشعرين بالخجل من نعتي بالحماقة ؟! أنا زوجك ترنيم ألا تخجلين؟

وضعت كفيها على فمها وهمست:

-أنت طلبت مني ألا أخجل منك.

رفع حاجبه وقال بمكر:

-طلبت منك ألا تخجلي مني في أمور أخرى ترنيم ، فقد سئمت تحسس طريقي في الظلام، مهاراتي تقل مع الوقت.

اغلقت عينيها وهي تشهق بحنق بينما ترفع الملاءة لتغطي وجهها فضحك بصخب وهتف:

-رباااه ألا يكفيك الظلام ترنيمة، ابعدي هذا الشيء.

سحب الملائة بمرح وأشرف عليها وهو يقبض على كتفيها هاتفاً:

-أين ستهربين مني بعد؟ متى سأصل إليكِ؟

اتسعت عينيها وهمست بارتياع:

-أنا .. أنا كلي ملكك أوس..

تنهد وهو يسند رأسه لرأسها هامساً بهيام قلق:

-ولكنك لا تزالين قلقة يا حبيبة الروح. لايزال الشك وعدم الثقة يحيط بنا.

-لا لا لا .. أنا أثق بك.
هتفت بسرعة ليعقد حاجبيه ويقول بجدية:
-ليس بعد، لازال الشك يراودك.
ابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت تفادي النقاش بهذا الموضوع وهي تهمس:
-أنت لم تخبرني عن الطائرة من قبل؟ نحن حتى لم نحضر أشيائنا.. الى أين سنذهب؟
تنهد بيأس ثم ابتعد عنها وهو يقول:
-تدبرت أمر بعض الملابس لنا لا تقلقي. بالنسبة للطائرة فلم تسنح لي الفرصة لإخبارك..
راقبته بفضول ولم تعلق بينما يمد ذراعه لطاولة السرير بجواره ويلتقط ما يشبه جهاز التحكم عن بعد ويعود لمكانه هامساً بحماس:
-أما عن وجهتنا ..
وقربها منه هامساً:
-انظري فوق.. واختاري أي اتجاه يروق لكِ.
رفعت عينيها غريزياً لتتسعا بذهول وهي ترى السقف ينفرج بصوت ناعم ليكشف عن السماء الصافية المليئة بالنجوم وضوء قمر خفيض من مكان ما يتسلل عبرها..

-كيف؟؟
هتفت بذهول ليضحك أوس:
-انه زجاج مثل زجاج النوافذ ماذا ظننت؟
اتسعت عينيها بذهول أكبر وهي تتأمل السقف الذي أصبح كنافذة زجاجية ضخمة وامتد ليشمل الجدار الخلفي..
-أوه يا رب الكون.
وكأنها ترقد في فقاعة عملاقة.. فوقها وخلفها السماء الصافية الجميلة، نظرت لأوس الذي همس بمشاغبة:
-جزء من التجديدات .. ما رأيك؟؟ كنت رغبت بأن أغير الأرضية ولكن مسؤول الامان رفض قاطعاً.
تلفتت حولها باندهاش عينيها تكاد تبتلع وجهها كاملاً، والكلمات محشورة في حلقها..
-هل أعجبكِ؟
نظرت له غير قادرة على الكلام بينما يبادلها النظرات بحنان..
-أنت أول شخص يراه بعد تركيبه، ما رأيك؟
-انه مذهل..

همست بغصة تحتكم صوتها، ابتسم ورأت الغرور يلمع في مقلتيه والفخر فابتسمت بخجل واقتربت منه تحيط وجنتيه بكفيها هامسة:
-أنا سعيدة للغاية أوس، شكراً لك.
وقبل أن يرد كانت تقبله بنعومة، بخجل ليتركها على سجيتها دون حتى أن يحاول التعمق في قبلته أو السيطرة عليها، لتبتعد بعد لحظات قصيرة وهي تتنحنح بحرج ثم تقول:
-انا أثق بك.. أنت الشخص الوحيد في العالم الذي أثق به، كل شخص أخر.. خذلني، ما عداك أنت.
تحشرج صوتها وهي تقول أخر كلماتها ليهمس بحنان:
-ترنيم..
-عليك أن تفهم هذا.
قالت بحزم وهي تكتم دموعها التي تهدد بالتساقط في أي لحظة الأن:
-عائلتي.. أبي وأخي حتى أمي لم أجد منهم سوى المؤامرات ضدي، لم يفهمني أحد، لم يعتني بي سواك.

انسابت دمعتها وهي تقولها ليحتقن قلبه بمشاعر عارمة تجاه هذه الفتاة الوحيدة..

-أنا ليس لي أحد غيرك أوس.

غمغمت بدموعها التي تساقطت بغزارة وهو يهتف:

-توقفي عن البكاء.

-لا أستطيع ..

هتفت باكية بينما تشير بذراعيها لما حولها:

-أنظر.. انا .. أنت تفعل كل هذا .. وأنا .. أنا لا أستطيع.. أنت .. تفعل كل شيء لي، أنت تقدم لي العالم، وأنا فقط .. أنا تسببت لك بالمشاكل.

شهقت باكية بعنف ليقترب ويغمرها بين ذراعيه متجاهلاً مقاومتها الضعيفة بينما تستمر بالصراخ:

-لقد كدت تقتل بسببي ليس مرة بل مرتين.. ماذا سأفعل لأرد لك.. لأرد جزء واحد.. يا الله ..

هتفت بانهيار ليمسد رأسها بحنان:

-توقفي، توقفي عن هذا الكلام.

-أنا أريد أن أعطيك كل شيء أوس، أريد أن اكون لك كما ترغب، أنا أسفة لأني لا أعرف..

لأني لست امرأة خبيرة ولا أعرف ما يجب أن أفعل..
انتحبت بمرارة ليضحك رغماً عنه ويهمس لها برقة:
-أصمتي، فقط اصمتي لبضع لحظات ودعيني أتكلم.
-أنا لا أستحق منك ما تفعله لي، لا أستحق كل هذا الحب، ولا كل هذه الاشياء التي تقدمها لي.
-يا الهي أقسم بالله ترنيم لو لم تسكتي في الحال، سأضربك.
صرخ بها عالياً.. وهو يهزها بقسوة لتتأوه وهي تنظر له بتعجب، لم تكن تعي نظرته المشتعلة اليها ولا أنفاسه التي تسارعت لتصبح لاهثة ولاهبة لدرجة أحرقتها بينما يهتف بها:
-لا تفكري قط بأنني أقدم لك ما لا تستحقينه، أنت لا تعرفين ما فعلته لي ترنيم، لا أحد في العالم كان يقدر على اخراجي من ذلك العالم القذر الذي عشت به لسنوات، حتى عائلتي غسلت يديها مني وتركتني امارس حياتي الفاجرة كما أريد.
-أنتِ فقط..

عاد يهمس لها بعذاب وهو يتحسس وجنتيها بشغف:

-أنا أحبك ترنيم .. كم من مرة يجب أن أقولها لكِ لتصدقي وتفهمي، أحبكِ وأعشقكِ.. لدرجة أنني سأقدم كل ما هو غالٍ تحت قدميكِ حبيبتي..

-أنا لا أريد شيئاً.. أنا أريدك أنت فقط.

همست باكية ليغمر دموعها بشفتيه وهو يغمغم بقوة:

-و أنت هي كل ما أريد ترنيم، أنت فقط، وان كنتِ في قلب الجحيم حبيبتي سآتي وأخرجك من أعماقه يا حلوتي وأعيدك إلي.

-أووووس ..

همست مرتجفة والتجأت لحضنه، مددها برقة وعاد يقبلها بشغف .. ولكنها أوقفته هامسة:

-اشعل الضوء..

توقف لحظة ثم نهض عنها ينظر لوجهها بارتباك:

-هل أنت واثقة؟

ابتسمت بخجل:

-أنا أثق بك.

ابتلع ريقه ثم ابتسم وعاد يلتقط جهاز التحكم عن بعد لتشتعل أضواء الغرفة المخفية بعناية بنور أبيض شاحب ، ضاقت عيناه انبهاراً بالضوء قبل أن تتسعا بتقدير لرؤيتها وقد انتشر الاحمرار على وجنتيها واعلى صدرها ، تخفض رأسها هرباً من عينيه اللتين التهمتا تفاصيلها بنهم ..

-ارفعي رأسك وانظري الي.

همس بحزم وخشونة تحتك بحروفه ، لترفع رأسها ببطء وتلتحم نظرتها بعينيه الفضيتين اللتين تألقتا حباً.

-أنت جميلة للغاية، لم أرى امرأة بمثل روعتك ترنيم.

رفرفت برموشها وهمست بخفر:

-كذاب.

تلاعبت ابتسامة على شفتيه واقترب يحوم بالقرب منها وهو يهمس بمكر:

-أتريدين اثباتاً ؟!

تمسكت بذراعيه الصلبتين وهي تومئ برأسها أن نعم ليكشر عن أسنانه كذئب ضارٍ ويهمس بخشونة:

-لكِ ما أردتِ أيتها الجميلة.

***

اقتربت الليلة من نهايتها واختفت النجوم تحت ستار كثيف من الظلمة ، لم تهطل الثلوج ولم تمطر الماء الكئيبة ولكن كثافة الظلام كانت كافية لتقلب مشهد الغروب الى كابوس مفزع من فراغ.
كان المطعم القريب من النهر المتجمد مكان مناسب للقاء الشر المتجسد والحقد وكأنما من فيلم قديم لحقبة الأربعينيات ،فتحت غيمة من دخان السجائر وعلى كأسين من الخمر جلس أشرف وعمه يتناقشان بصوت منخفض عما يمكن عمله في الفترة القادمة لفصل ترنيم عن ذلك الرجل الذي يقف خلفه ثقل عائلة برمتها ، وليست أي عائلة كانت عائلة من السلاطيـن.

-هل عرفتم أين أخذها؟

-ليس وسيف الشيب يخفي أثار ابن عمه ، ويحمي ظهره بتلك الطريقة ،أنت رأيت ما فعله رجاله بالسيارة التي كانت تتبعهم حال خروجهم من المنزل.

-بالطبع رأيت ما تبقى منهم، أنا لا أفهم كيف عرف ذلك الشيب بالأمر، والأدهى أنه قد يوصل الأمر لقحطان العزب.

تألقت عينا أشرف بوحشية وضرب سطح الطاولة بقبضته وهو يهتف:

-لا شأن لي بالرجل من عائلة العزب، سأسحقه بنفسي. ترنيم هي لي عمي وذلك الفتى المائع الذي تزوجته لن يقف بطريقي للوصول اليها أتفهم؟

نظر له عمه نظرة صاعقة وزجره بعنف:

-اياك أن تستهين بالعزب أو برجال عائلة الشيب، أنت لا تدرك قوتهم وما يمكن أن يصنعوه ان وضعوا شخصاُ ما برؤوسهم.

-أنا اريد ترنيم عمي، لقد وعدتني.

هتف أشرف بشراسة ليتنهد عمه هاتفاً:

-وهي ستكون لك، ولكن علينا أن نخطط بروية.. لايزال الأمر معقداً بعض الشيء ولكن حال عودته الى عمله سيكون تحت أعيننا من جديد، وحينها سنفكر بكل شيء.

-متى يا عمي؟ لقد سئمت الانتظار. وفكرة أنها مع ذلك الرجل تفقدني صوابي؟

هدر اشرف بعنف ليزفر عمه بحنق:

-توقف عن الحماقات، ومن سيقترب من ترنيم وهو يعرف ماضيها، ثم أنك عرفها وتدرك أن عقدتها لن تنحل بسهولة.. لا اظنه يجرؤ على الاقتراب منها بعد ما اخبرته بما حدث في المصح.

تراجع أشرف بتوتر وهو يتفادى نظرة عمه المريرة والذي قال:

-ما حدث لها يقتلني أشرف، الفكرة وحدها تنهشني، وفكرة أنه ربما ينتشر الخبر، ربما سيعرف الجميع ما حدث لصغيرتي، وأنواع العذاب الذي عانته.

-لا تقلق عمي، حين تصبح ترنيم زوجتي، كل الملفات في الشرطة وفي المصحة .. كلها ستختفي.

تمتم أشرف بخشونة ليبتلع عمه ريقه ويومئ برأسه بتفهم:

-ستكون، لا تقلق، زواجها بذلك الأحمق سينتهي وسنحرص معاً على هذا.

-جيد..

قالها وعاد يرتشف من كأس خمرته ..

والليل يأتي على نهاية ليلة طويلة .. استغرقت ما يقارب الأسبوعين ..

بتنهيدة عميقة .. أشرقت الشمس..

نهاية الفصل

الفصل الثاني والعشرين

***

أيعجبك ما ارتدي ... لم أختره الا لك ...

و لم اشتره الا و صورتك محفورة ببالي ...

نقشاته من رأسي لقدمي ... كحياتي معك ...

جميلة بداياتها كما ستكون نهايتها ...

مزموما من الخصر ... كما هي سيطرتك ...

لا تزيدني الا جمالا و أناقة ...

مكمما لا يظهر شيئا ... كما هي قوتك ...

تحيطني فلا اكون الا ضعيفة معك ...

و سواده كما هو أنت ...

لا تزداد لمعانا الا بوجودي انا معك

لن تخطي خطوة خارجا به ابدا ...
ما اراه لن يزيدنا الا لفتا ...
و بالشارع ستتألقين نجما ... و أكون انا بجانبك مبهما ... و كأني وهما متخفيا ...
و انا ما كنت يوما هسهسا ...
فلن يكون القماش من يجعلك كالتاج متلألأ ...
و انا مرتديه و كأني محنطا ...
ليكسر ما انا به مؤمنا ...كنت لي يوما و دوما جوهرة
لا تزيدني الا ثقة حين ألمسه ...
و سعادة حين يلمعا ... و قوة حين خجلا يتذوبا ...
فاخلعيه و الشر اكسريه ...
و بالسواد تلوني و تلحفيه...
فمن كان يظن يوما ان الفحم
يخفي الماس جوهرا ليحميه .....؟
انثاكَ ..انا *** وكلي لكِ انا
**

اهداء الصديقة نيفين مطر~♥
***

أشرقت الشمس..
تنهدت بعمق ونظرت بافتتان الى الخيوط الذهبية التي تألقت من خلف الغيوم وتنير السماء التي تحيطها، اقتربت من الزجاج وكادت تلتصق به، وعينيها تتسعان بانبهار للمنظر الذي تراه لأول مرة في حياتها، شيء لا يماثل الروعة، جمال رباني مستحيل أن يتخيله أحدهم حتى يراه بأم عينه، اتسعت ابتسامتها وألصقت وجهها بالزجاج وهي تسيطر من حدة أنفاسها كي لا توقظه..
حبست شهقة كادت تفلت منها وهي تنظر الى السماء من تحتها.. سجادة من الغيوم بيضاء الزغبة تتراقص عليها الأشعة الصفراء الذهبية ..
رفعت عينيها ببهجة.. السماء تعلوها أيضاً ولكنها خالية من الغيوم.. لوحة سماوية مشرقة بنور كاد يخطف بصرها بينما الأشعة الذهبية تصبح مجرد وهج بلوري مشع..
اتسعت ابتسامتها واستدارت تستند على الزجاج وتفرد ذراعيها وكأنها مجرد طير لتلتقي عينيه..
شهقت وتشبثت بالزجاج وكأنه سيحميها من عينيه..

رباااه من عينيه..
رغم المسافة فهي تعرف جيداً أنهما تتألقان بلمعان الفضة الان.. الفضة التي أحرقتها البارحة.. سرقت النوم من عينيها وجعلتها تراقبه بجوع وهو نائم.. لساعات.
-هل تعلم أنك تشخر وأنت نائم؟
همست فالتوى فمه بسخرية وأشار لها أن تقترب..
وكأي دمية ماريونت مطيعة اقتربت منه، كان يجلس الى الفراش وقد أسند ظهره وغطى وسطه بالملائة الخفيفة، عاري الصدر مشعث الشعر، النعاس ينضخ من عينيه ويبدو مثيراً للجنون..
توقفت أمام الفراش وهي تخفي تورد وجنتيها بخصلات شعرها الطويلة..
-أنا أشخر هه؟؟
اومأت بصمت ليرفع حاجبه ويرمقها من رأسها المكلل بشعرها الطويل حتى السترة الضخمة التي ترتديها وتصل لركبتيها، كتم ابتسامة قفزت الى شفتيه وهمس:
-أنت ترتدين سترتي؟

نظرت لسترة بدلة الطيران التي ترتديها وهمست وهي تلامس الشرائط على الياقة ومقدمة الصدر:
-كل الفتيات تضعف أمام السترة بالشرائط الرسمية..
رفع حاجبيه وعاد يشير للكمين الذين طوتهما حتى مرفقيها:
-أنت دمرتها كلياً..
زمت شفتيها وردت:
-انها أكبر من حجمي.. اليدين طويلتين للغاية..
جذبها اليه بحركة حادة جعلتها تقع فعلياً على حجره ضاحكة، ليقبض على تلابيب سترته ويقربها منه لتتساوى عينيهما ويهمس:
-انت ترتدين سترتي؟!
اتسعت عينيها وهو يرمي بها على الفراش ويشرف عليها مواصلاً بحنق:
-وأنا أشخر؟؟
لمعت عينيها بالشقاوة فهمس بصوت أجش:
-كيف لي أن أرغب بك حد الجنون وأنت ترتدين سترتي البشعة هذه؟ لم أفكر يوماً بان أرغب بامرأة ترتدي ملابس طيار؟؟

لم تتمالك نفسها.. ضحكت بقوة ..
-توقفي.
هتف يهزها من كتفيها ولكنها لم تتوقف بالكاد رفعت كفيها وحاولت السيطرة على ضحكاتها ولكنها لم تقدر.. تخلصت من قبضته ووقفت امام الفراش من جديد تتراقص بالسترة ثم التقطت قبعته المرمية ارضاً ووضعتها على رأسها وقالت تمد لسانها له بعبث:
-ها أنا أضع قبعتك أيضاً كابتن؟ ماذا تنوي أن تفعل؟
تمدد على بطنه ومد ذراعه لها، ابتسامة ساحرة تتابع خطواتها القافزة وهمس:
-تعالي.. سأخبرك.
رفعت ذراعها رافضة وتراجعت لتعود الى النافذة الزجاجية الضخمة وهمست:
-تعال أنت، لننظر للسماء سوية..
ضحك ضحكة قصيرة، مالذي تفعله به هذه الصغيرة؟؟

لم يعهد نفسه بكل هذا التوق والشوق لامرأة قضى ليلته كلها يتعبد في محرابها.. انها تثير جنونه..

ولكنه كان متعباً..

اغمض عينيه واستلقى على ظهره..

تباً..

راقبته ترنيم بحذر قلق، كان ينظر اليها حين رأت النظرة الفارغة التي احتلت عينيه قبل ان يمسك رأسه ويستلقي..

-أوس؟!

همست بحذر وهي تندفع ناحيته ..

-هل أنت بخير حبيبي؟

تنفس بقوة وشعر بجفاف في حلقه حين فتح عينيه والتقى نظراتها القلقة، ابتسم ولامس وجنتها:

-أنا بخير..

تأملت شحوب وجهه وقالت مذعورة:

-لا.. أنت لا ترى وجهك حالياً؟؟ ماذا بك بما تشعر؟

هز كتفيه:

-صداع، لا تقلقي ربما لأنني لم أتناول عشاءي البارحة، أنا جائع لنأكل.
استقام من رقوده وحاول الوقوف خارج الفراش حين داهمه الدوار وقبل أن يعي ما يحدث كان يتقيأ بعنف، شهقت ترنيم بجزع ولكنها لم تتجمد مكانها بل سرعان ما كانت تحضر له سلة المهملات والذي دفن وجهه بها تقريباً وهو يستمر بالتقيؤ، نهضت راكضة الى الحمام، أحضرت كوب من الماء وعلبة محارم ورقية وعادت اليه كان يتنفس بعنف ويضغط رأسه بين يديه بقوة يكاد يقتلع شعره من جذوره..
بللت المناديل ومسحت وجهه هامسة بصوت مهتز:
-أوس، تكلم معي .. أنت بخير؟
الوجع يكاد يُعميه..
فتح عينيه بصعوبة ليعاود اغلاقهما بقوة..
الغشاوة تنهكه وتشعره بالعجز..
وتلك المذعورة التي تتشبث بذراعه يقتلها القلق ويقتله..
-أنا بخير.

همس مكتوماً لتشهق باكية.. وهي ترتمي بين ذراعيه وتدفن رأسها في عنقه تبحث عن أنفاسه التي هدأت بضع الشيء وهو يطلب منها:
-احضري لي مسكناً للألم، ستجدينه في الحمام فوق المغسلة ترنيم.
نهضت كالملسوعة لتحضر له ما يريد..
اعطته الاقراص والتي تناول بعضاً منها وربما أكثر من اثنتين، وعاد يلقي برأسه على الوسادة ويجرها معه لتحيط جسده بذراعيها، ترتجف وتريد أن تُشعره بالأمان..
أغلق عينيه بقوة وتشبث بذراعيها التي تحوطه لدقائق طويلة، يريد أن يسكن الألم في أعماقه ويهدئ من الارتجاف الذي يسري في جسدها..
-توقفي عن الارتجاف ترنيمة.
ضمت نفسها اليه بقوة وهمست مذعورة:
-ولكنني لا أستطيع، أنا خائفة عليك أوس.
تنهد مطولاً واستدار ليغرقها بين ذراعيه هامساً:
-لا تخافي ترنيمتي، لن يحدث لي مكروه انه مجرد صداع.

لامست وجهه العابس وتلككت على جفنيه المطبقتين و همست برجاء:
-افتح عينيك .. أريدك أن تنظر إلي.
ابتسم وللحظة شعر بأنه لو فتح عينيه الضوء.. الضوء الساطع للشمس سيعميه فعلاً..
-أنزلي واقي الزجاج..
قال بخفوت لتسرع وتبحث عن جهاز التحكم، وبعد لحظات كانت الغرفة تغرق في ظلام دامس، فهمست:
-الغرفة مظلمة، حبيبي.
رف جفنيه للحظة، ثم فتحهما ببطء، قابلته عينيها المتلهفتين فابتسم بمحبة واقترب يغرق شفتيها بقبلة عميقة قبل أن يبتعد عنها هامساً:
-كلما فتحت عيني لأراكِ أمامي، هذا فقط يكفيني.
ابتسمت وأغرقت عينيها الدموع وارتمت عليه تقبل كل جزء في رأسه والسعادة لا توصف تجتاحها.. رباه انها لا تستطيع أن تتحمل أي مكروه قد يصيبه بسوء.. كيف لها أن تعيش مع هذا القلق..
سمعا معاً صوت أزيز ناعم فتحرك أوس و همس:

-انه ريك، يجب أن أتكلم معه.
نهض ببطء يحاذر من الحركة السريعة وما قد تسبب له من ألم وغاب لبضع لحظات بالقرب من الباب ثم عاد ليسألها بسخرية:
-انه يتساءل ان كان علينا الهبوط والتزود بالوقود في مكان ما، هل سنظل نطير الى الأبد؟
ابتسمت:
-والى أين سنذهب؟
-انت اختاري المكان الذي تريدينه.. لديكِ 48 ساعة قبل أن أعود الى نيويورك والعمل.
ضاقت عينيها وهي تفكر ملياً ثم شع وجهها:
-دبي.. أريد الذهاب للاطمئنان على الخالة فاطمة.
ابتسم بحب واومأ وعاد ليغيب لبضع لحظات وحين عاد ليستلقي الى جوارها همس:
-أربع ساعات وثمانية واربعون دقيقة.. للوصول الى دبي.. ماذا تقترحين لتمضية الوقت.
تمطت بسعادة ثم جذبته الى ذراعيها وقالت بدلال:
-في النوم. انت مرهق وبصداع قوي..

-انا علي مساعدة ريك في الهبوط.
قهقه عالياً ولكنها لم تهتم بل دفنته بين ذراعيها وهمست:
-فيما بعد فلا يزل لدينا اربع ساعات وثمانية وأربعون دقيقة..
همهم بسعادة لدفئها وهو يعترض مازحاً:
-خمسة وأربعون..
ضحكت بنعومة وقبلت قمة رأسه وهي تدس أصابعها بين خصلات شعره الناعمة الطويلة، وتمسد فروة رأسه بحنان أرسل استرخاءً عارماً لأطراف جسده جعله يغمض عينيه من جديد..
ودون مقدمات يغرق في نوم لذيذ.
***
كانت بين ذراعيه أخيراً..
تلفتت حولها بسعادة، ترتدي الثوب الأبيض الذي طالما حلمت به، وتتراقص بسعادة حوله؟!
ضحكاته تعانق السماء قبل أن يقبض على خصرها بقوة ويرفعها ليدور بها عالياً، لتعانق ضحكاتها فرحته وتغمرها بإحساس لم تعش مثله من قبل..

حتى اندلعت النـار، لا تعرف من أين وكيف..
ولكن النار اندلعت بينهما، اشتعلت تفرق ما بينها وبين حبيبها..
حاصرتها واجبرته على افلاتها.. رأته يبتعد بوجوم بينما تضيق النار خناقها عليها..
الحرارة تزداد وهي تصرخ محاولة أن تلملم ثوبها كي لا يحترق، كي لا تحترق هي. ولكن النار اقتربت .. الحرارة اشتدت، انها محاصرة .. مقيدة تريد النجاة .. تصرخ تناديه ولكنه لا يجيب.. لم لا يجيب..
"جسااااس"
هتفت بقوة وعينيها تتفتح باتساع لتطالع سقف الحجرة..
لهثت بعنف وعقلها يحاول استيعاب الوضع الجديد.. هل حقاً ما حدث البارحة؟؟ أم أنه مجرد حلم؟؟
عادت تشعر بالسخونة تحيط بها..
حاولت التحرر ولكنها كانت مقيدة فعلاً..
ماذا يحدث.. ؟؟!

انزاحت غشاوة النوم شيئاً فشيئاً.. وحركت رأسها وذراعيها.. لتكتشف وضعها الغريب..
كانت ترقد على فراش جساس محاطة كلياً بذراعيه وساقيه ..
رباااه .. فكرت والسخونة تشتعل بوجنتيها..
لم يكن حلماً؟ هي حقاً أصبحت زوجته..
تراقصت ابتسامة خجولة على شفتيها وهي تلقي نظرة على حبيب عمرها وقد رقد رأسه على صدرها بينما تعانقها ذراعاه ككماشة حديد..
وتتشابك ساقيهما بتعقيد..
كان ساخناً للغاية..
عقد حاجبيها وهي تضع كفيها على جبينه وظهره..
كان يشتعل بالحمى..
-جساس.. جساس انهض ارجوك.
هتفت بذعر تحاول قلبه أو التخلص من ثقل جسده ولكن هيهات..
-جسااااااااااس..
صرخت تهزه بقوة حتى شعرت به يتململ لتستغل الوضع وتبعد ذراعيه من حولها وتدفعه

بقوة ليسقط على ظهره جوارها فلهثت واقتربت منه تتحسس وجهه بحنان، كان نائماً.. بل ربما غائباً عن الوعي..

-يالهي ماذا فعلت؟

تيبس حلقها وهي ترى جروح وجهه وعنقه حمراء دموية، بينما ساقه المصابة تئز دماً..

لقد أجهد نفسه .. الحمى الشديدة فتكت به ..

نهضت ملسوعة تلتقط رداءاً تضعه حولها ثم اتجهت الى الحمام لتحضر وعاء ماء ومنشفة، وحقنة خافضة للحرارة، وعادت اليه ..

بالكاد سيطرت على ارتجافه يدها وهي تعطيه الحقنة وراقبت كيف تعكر مزاج وجهه وتحرك برفض، فهمست:

-حبيبي.. جساس يا قلب الصوان، ارجوك افتح عينيك.

تنهد وتململ ولكنه لم يجبها، فبكت بوجع وعادت لوعاء الماء وبللت المنشفة ثم بدأت تمررها على جسده..

ما ان لامس الماء البارد جسده الساخن حتى شعرت بانتفاضته وهو يتمتم بكلمات غريبة ..

هي لم تتوقف، مررت المنشفة على جسده بالكامل مستمرة بقراءة المعوذات ومناداته بين الحين والأخر، حتى شعرت بأنفاسه اللاهثة تهدأ، والحرارة التي تصدر من جسده تخبو..
ثم رأت جفنيه يتحركان بخفة..
-صواان؟
همس بخشونة.. لتقترب ملامسة وجهه بحنان:
-أنا هنا يا قلب الصوان.. أنا لجوارك حبيبي.
فتح عينيه ببطء وطالعته عينيها..
القلق في عمقهما أصابه بالحيرة.. لم هي قلقة؟؟ بعد ما حدث أمس؟؟ ابتسم وراحة عميقة تجتاحه رغم ألم جسده الذي لم يرحمه وأجهده فوق طاقته.. ابتسم ليرى اللون يغزو شحوب وجنتيها ويعيد التوهج لعينيها فيختفي القلق ويعود الحب والخجل يسيطر عليهما..
-جسااس..
اعترضت بدلال فهمس عاشقاً:
-يا روح الجساس وحلم عمره.. صوانتي.. عشقي.. جنتي وجحيمي..

اغلقت عينيها تريد أن تحتفظ بتلك المشاعر الجامحة التي يثيرها وتثير فيها الجنون..
ولكنها تذكرت الحمى التي كان يعانيها، وتصاعد القلق من أعماقها وحضنت وجنته بكفها وهي تهمس:
-حبيبي.. هل تشعر بأنك بخير؟ لقد كنت ساخناً للغاية..
تلاعب حاجبه الايمن وابتسامة ساخرة تداعب شفتيه وهو يقترب ليلامس ترقوتها ويتنشق رائحتها العذبة قائلاً:
-وأنت أيضاً كنت ساخنة للغاية..
ورفع عينيه الماكرتين لوجهها المحتقن وعينيها المتسعتين بصدمة مواصلاً:
-رغم أنني لم أتوقع، توقعتك ستكونين خجولة.. أو ربما تتعبينني قليلاً، ولكن..
وتحسس الخدوش الطولية على عنقه وقال بنعومة:
-ولكنك كنتِ متحمسة أكثر مني؟؟
-يالهي.. أصمت.. توقف..

هتفت برعب وهي تخفي وجهها الذي أصبح محتقناً وقهقه هو بمرح ليحيطها بذراعيه ويضمها أكثر، بينما يهمس بشقاوة:
-وأفوت عليّ رؤية وجهك بهذا اللون اللذيذ، المثير.. مُحال..
قال اخر كلمة وهو يميل ليقطف براعم وجنتيها ببطء، أنفاسه الثقيلة تقترن بأنفاسها المتسارعة خجلاً وحباً، تتشبث بكتفيه وتحاول أن تبتعد أن تعترض لتجد نفسها تقترب، تبادله القبلات الحارة بمثلها ما إن التقت شفتيهما..
-حقي.. ملكي..
همس بحرارة وهو يعانقها بتملك لتتأوه من قوته وتهمس شاكية:
-أنت تؤلمني.. جساس توقف.
تأوه بعمق وهو يلقي برأسه على صدرها غامراً وجهه في حناياها بلهفة عاشق:
-أحتاجك حبيبتي، أحتاجك صوانتي بقدر كل السنوات الضائعة.

أحاطت رأسه بقوة وهمست له بكلمات تطمئن تلك الرجفة التي سمعتها تهز كلماته، وتسارعت أنفاسها وهي تقول:

-لقد قلقت عليك كثيراً، حاولت ايقاظك ولكنك لم تستجب لي.

تمرغ في حضنها وابتسامة راضية تستقر على شفتيه:

-لم أنم هكذا منذ سنوات طويلة، دون أحلام أنهض أخرها ولا شيء سوى الاحباط..

انتابها هاجس مخيف جعلها ترتجف فيرفع رأسه وينظر لعينيها القلقتين:

-ماذا هناك صوانتي؟

همست دون مواربة:

-هل.. هل كنت يوماً مع امرأة أخرى؟

اتسعت عيناه بدهشة فاحمرت بخجل وهمست:

-اعرف أنك رجل عاش حياته في الخارج لسنوات جساس، وأنا.. حسناً أنا كنت مشروع يائس بالنسبة إليك.

-أنت أبداً لم تكوني مشروع يأس لي.

دمدم بعصبية واستند على ذراعيه ليستقيم جالساً ويواجهها بصرامة:
-أنت غاية حياتي، حلمي الذي عشت لأجله ولأجل أن أمضي كل عمري معه..
احتقنت عينيها بالدموع وجاهدت كي لا تذرفها ليقترب ويمس شفتيها بفمه هامساً:
-أنت أول امرأة.. أنت أخر امرأة..
واقترب يلامس وجنتها بشفتيه متمتماً بشجن:
- أنت كل امرأة صوان ..
أحاط وجنتيها بكفيه احتضنهما بحنان وغاب ينظر في عينيها بوله وكلماته تتدفق دون حساب:
-لم يكن هناك قبلك صوان .. ولن تكون سواك ..
ثم قبلها ببطء.. وعمق حتى سرق أنفاسها وتركها لاهثة.. غائبة وراغبة:
-ومحال، أتفهمين ؟! محال أن انظر لأيٍ منهن بعدك..
انسابت دموعها رقيقة ليمسحها بشفتيه وهو يتمتم لها بكلمات تصف عشقه وحبه بكلمات أجشه .. لا تصل الا لأذنيها، قبل أن يغرقها من جديد في

عاصفة حبه وخشونته لتبادله المشاعر بمثلها ولهفتها تعانقه قبل يديها.

***

انتهت من جمع اغراضها القليلة في حقيبتها، وشدت معطفها حولها قبل أن تتجه لتغادر الغرفة الفندقية الى حيث تنتظرها سيارة الأجرة التي ستقلها الى المطار، وتوقفت مندهشة أمام الباب..

-مالذي تفعله هنا؟

قالت بصوت محشرج ونظرت للرجل الداكن الواقف أمامها بتوتر ليرد:

-نحتاج لأن نتحدث.

-سأتأخر عن طائرتي لذا اذا سمحت أنا لا أريد رؤيتك ولا الكلام معك بأي شأن باشا.

هتفت بعنفوان ليزفر شاهر الباشا ويشير بيده بعصبية:

-لن آخذ من وقتك الكثير ثم أن طائرتي بانتظارنا بإمكاننا السفر معاً كما جئنا..

-لا اريد أية علاقة بك شاهر، بعد كل ما فعلته واخفاءك أمر ركان؟؟ كيف استطعت فعل هذا؟

صاحت بعصبية ثم هزت رأسها بأسى:

-أنا متعبة جداً، وبالكاد سمح لي الطبيب بالراحة والسفر، أنا لن أتسبب لنفسي بالمشاكل ليس بعدما أعطى الله لي فرصة اخرى لأحتفظ بطفلي.

اقترب شاهر منها وهمس بلهفة:

-أنا أريد الاعتناء بكِ وبالطفل سارة. أريد أن يكون لي مكان في حياتك.

تراجعت والجفاف ينتشر في حلقها، ترى رغبته بالبقاء معها كما يقول تنضخ من عينيه ولكن.. هل هي مستعدة؟؟ هل تريد؟؟ مالذي يحدث معها الان؟؟ هل ترغب بالبقاء قريبة منه وهي في خضم معركتها مع نفسها وعلاقتها المتوترة بركان؟

ظهرت الاجابة واضحة أمامها وضوح الشمس وهي تقف بثبات وتنظر لشاهر بحزم:

-ولكنني لا اريدك قريباً مني.

تراجع بصدمة بينما تستمر سارة بقوة:

-أنت ظهرت في وقت انهار به عالمي كله شاهر، ركان يقول أنك السبب في كل هذه المصائب التي تحيط بي، وأنا لا أعرف عنك

شيئاً سوى أنك تريدني، رغم كوني امرأة متزوجة.. حامل بطفل.. وأنا..
وتوقفت قبل أن تكشف عن حقيقة مشاعرها نحو زوجها ركان وخفضت عينيها هامسة بألم:
-أنا لا احتاج لرجل أخر في حياتي، ليس وهي بهذه الفوضى.. وليس حين يكون الرجل أحد المتهمين بتدميرها.
-لا تقولي هذا، ان كان لي أي دخل في تدهور علاقتك بركان فهذا لحسن حظك سلطانة.
هتف شاهر بصرامة جعلتها تناظره بتوتر بينما يواصل:
-ركان لا يناسبك وقد قلت لكِ هذا منذ التقيتك وعرفته من البداية، ربما جمعتكما مشاعر انجذاب عادية ولكنه لا ينفعك أبداً.. انه انسان أحمق.. وصولي متسلق، أنت تحتاجين رجلاً حقيقياً وليس مجرد فتى قد يتركِكِ لأقرب امرأة تطرق بابه. ركان لم يحبك لذاتك فقط، الفرصة التي فتحتها أمامه وكذلك المال الذي تملكين، كل هذا جعلك الفريسة المثالية لصياد مثله.

نظرت له بذهول، شاهر كان يتكلم بحرقة ولهفة، ولكن كلماته كانت قاسية.. فركان لم يكن هكذا.. هي لم تعرفه هكذا.. لقد كان يحبها.. لا يمكن أن يمثل كل تلك المشاعر؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وأشاحت عنه، ليقترب منها ويحاول ان يمسكها من كتفيها بقوة ولكنها تملصت هاتفة:

-قلت لك بأنني لا أحتاج لرجل في حياتي الأن، أنا متزوجة من ركان.. وأنا لن أفعل ما يسيء له ليس حتى انتقاماً لكل ما فعله لي، أنا السلطانة باشا..

كانت هناك حدة في نبرتها حار في أن يفسرها ؟؟! هل هي ألم .. أم مجرد غضب؟

-سارة حبيبتي.. اعطني فرصة لا تغلقي كل الأبواب في وجهي ساريتا.

هزت رأسها بحدة ونظرت له عينيها تبرقان كخاتمي فضة متوهجين:

-لا تنادني بحبيبتي، لا تقلها باشا.. انا لست حبيبتك انا امرأة متزوجة ولا أريدك قريباً مني ابداً.

تصلب في وقوفه وقد احمر وجهه شراً بينما تتجه سارة نحو باب الحجرة وتفتحه على مصراعيه قائلة بحزم:
-غادر الأن باشا، لقد تأخرت فعلاً عن طائرتي ولا أريد تفويتها كما قلت لك من قبل.
شد شاهر قامته واقترب ليقف أمامها هامساً بتحذير:
-أنت تقفين في الجهة الخطأ من الطريق سارة، أنت تجنين على نفسك بالخضوع لمشاعرك، كوني معي سلطانة وسأعطيك العالم تحت قدميك.
رفعت سارة رأسها وحملت عينيها غرور العالم هامسة:
-أنا سـارة نضال الشيب، السـلطانة..
ثم مالت اليه وقالت ساخرة:
-أنا فعلاً أمتلك العـالم.
ضغط شاهر بفكيه وقبضة أصابعه بحزم، ثم تحرك لخارج الحجرة بخطوات واسعة غير مترددة بينما تستند سارة على اطار الباب بضعف، لقد استنفذت مواجهته قواها الضعيفة من الأساس، زفرت أنفاسها المرة تلو الأخرى

بصعوبة، ثم تحركت لتجلس على طرف مقعد قريب وعينيها تغرقان بالدموع..
تملك العالم؟؟
انسابت دمعتها وجاهدت كي لا تشهق بالبكاء..
ماذا عمن تحب؟؟
ضغطت على بطنها بقوة ومغص ماكر يعتصرها. أخذت أنفاساً طويلة مهدئة ونظرت الى ساعتها البلاتينية الجميلة .. انها السادسة..
عليها أن تكون في المطار حالاً..
لا وقت لديها للبكاء، ليس الأن فالوقت ينتظرها على رحابته لتغرق نفسها بالتفكير والدموع على حد سواء..
هي تحتاج الأن للابتعاد، والبقاء بقرب من تحبهم ويحبونها بحق.
***
انتهى من ارتداء ثيابه وتخلى عن فكرة ارتداء السترة والقبعة ثم التفت الى تلك الكسولة التي توسدت الفراش وعلى وجهها ابتسامة واسعة متألقة:

-لديكِ نصف ساعة فقط لتنهضي وترتدي ثيابك وتعودي لمقعدكِ وتستعدي للهبوط.
زمت شفتيها وهمست:
-حاضر كابتن.
عقد حاجبيه وتمالك نفسه بصعوبة كي لا يسرع ليقتطف قبلة من تلك الشفاه المثيرة وشد من وقفته وأشاح عنها هاتفاً بخشونة:
-ثلاثون دقيقة يا فتاة، إياكِ والتأخر.
رافقته ضحكتها المغناج وهو يهز رأسه مقاوماً الضحكة..
التقى ماتيلدا وابتسم لها بحرج لأول مرة في حياته يشعر به تنحنح لتضحك الفتاة وتقول له:
-لا بأس كابتن.. كلنا نعشق مرة واحدة في العمر ونفقد عقولنا.
توقف للحظة.. تألقت عيناه وجف ريقه..
عشق؟!
هذا صحيح.. هو يعشق تلك المخلوقة الصغيرة، يعشقها للثمالة..
طعنة صغيرة من القلق اصابت أعماقه والصداع يعاوده مثيراً ألماً تصاعد باضطراد وهو يجلس

الى مقعد الطيار ويضع سماعة الاتصال على رأسه..
لماذا القلق أوس؟
فكر بتوتر.. هل يخشى على نفسه من هذا العشق الذي عصف به؟؟ أم يخشى عليها هي؟؟
توتر وصداعه يتصاعد..
ابتلع ريقه بصعوبة نظر باتجاه ريك الذي ابتسم له بهدوء:
-الأجواء صحوة سيكون هبوطاً سلساً..
-بإذن الله.
همس بتوتر وخوف غريب يزيد من قلقه وتوتره.. تنهد وبدأ اجراءات الهبوط ومحاورته مع برج المراقبة في مطار دبي، وحين أصبح جاهزاً ليهبط بها استدعى ماتيلدا وطلب منها أن تحضر ترنيم..
بعد لحظات شعر بوجودها .. التفت ليجدها تبتسم بإثارة، كانت قد ارتدت عباءتها وحجابها ووجهها متألق بالسعادة ليهمس لها بحنو:
-سنهبط بعد لحظات، أتريدين البقاء هنا..؟

منعت نفسها من القفز بصعوبة واومأت بفرح لتساعدها ماتيلدا على الجلوس، وربط حزام المقعد الصغير الذي يقع خلف مقعد أوس مباشرة بينما يحييها ريك بخفوت لتتألق وجنتيها بحمرة داكنة وهي تتساءل عما اذا كان يفكر بما كانا يفعلانه طيلة تلك الساعات وحدهما؟؟!

تنهدت وولت انتباهها لأوس الذي قال لها بخفوت أن تضع السماعة على أذنها وتستمتع بهبوط سهل..

نحت عن رأسها كل الافكار وفعلت ما قال..

كانت تستمع الى الحوار الدائر بين أوس وبين برج المراقبة بشغف، لم تفهم الكثير من المصطلحات ولكنها كانت مستمتعة الى أقصى حد وصوت أوس المحبب يداعب أذنيها بخشونة، راقبت كيف تحكمت يديه بمقود غريب الشكل وأصابعه تتنقل بمهارة بالتناسق مع ريك لضغط العديد من الازرار فوق رأسيهما فمالت الى الأمام ولامست ذراعه ليلقي عليها نظرة خاطفة وترى ابتسامته الرائقة..

كانت تراقب النافذة الضخمة أمامها وعينيها تتسعان بمرح والطائرة تقوم بدورة واسعة استعداداً للهبوط.. مقدمتها تميل وهي تتجه نحو الغيوم .. تخترقها بسلاسة بينما عداد المسافة يتناقص بسرعة مخيفة.. حين حدث شيء ما خطأ..

"وولف 215 أنت تميل بزاوية حادة وسرعتك كبيرة للغاية"

هدر الرجل في سماعتها ليخرجها من حالة الانتشاء وتشهق مذعورة.. وهي تنظر للأمام نحو زوجها الذي كان ساكناً بلا حراك..

"أوس، أنت تهوي.. أخفض السرعة وارفع الطائرة يا رجل"

كان هذا ريك.. نظرت بينهما بذعر..

هل يريد اخافتها ؟؟ هل يريد صنع مشهد ما..!!

"اوس؟"

همست بخفوت وتصاعد صوتها بينما ريك يهز أوس بقوة صارخاً:

-كابتن؟

"وولف 215 أنت تهوي.. ارفع طائرتك والا فإنها ستتحطم على المدرج"
هدر برج المراقبة لتصرخ ترنيم برعب بينما ريك يقترب من أوس الساكن بشكل غريب متشبثاً بذراع القيادة ثم هتف بعصبية:
-تباً انه فاقد لوعيه..
اتسعت عينيها بذعر وصرخت باسمه ولكن ريك اشار لها:
-لا تتحركي.
وبسرعة كان يفصل سيطرة أوس عن الطائرة ويتحكم بها باقتدار بينما يعطي تفصيلات سريعة لما حدث لبرج المراقبة..
ترنيم من جهة أخرى كانت تتخبط في مشاعر مرتبكة.. قلقها على أوس من ناحية وقلقها على الهبوط من أخرى.. انسابت دموعها تنسيها الفرح والاثارة وذراعيها تمتدان لتعانق كتفيه من الخلف تنشد الحماية منه أو تعطيها له..
ريك سيطر على الطائرة ببراعة وسرعان ما كانت تستعيد توازنها وتهبط بسلام، ترنيم لم تكن مستوعبة كل ما يحدث.. فقط تشبثت أصابعها

بقميص زوجها بقوة تهزه بعنف بين اللحظة والأخرى، وهو كالجثة الهامدة!!
دموعها تكاد تحرقها من فرط حرارتها، مقيدة فعلاً ولا تريد سوى النهوض لتنظر في عينيه وترى أنه بخير..
أنه يمازحها مزاحه السمج..
انه يهرج كعادته..
ولكن ذلك الحزام الغريب يقيدها انها لا تعرف كيف تفكه عنها..
صرخت بريك أن يساعدها ولكنه كان مركزاً على ايصال الطائرة بسلام على المدرج، وفعل..
رأته ينهض مباشرة بعد وقوف الطائرة صارخاً في برج المراقبة بالحاجة لسيارة اسعاف؟!!
" أووووس؟"
هتفت بألم يديها تتخبطان لفك الحزام ثم صاحت بماتيلدا التي اتت راكضة حال توقف الطائرة:
-فكيني أرجوكِ.
ساعدتها ماتيلدا فقفزت نحو اوس الذي وضعه ريك على الارض لتشهق برعب وهي ترى خيط

الدماء المنساب من أنفه وبشرة وجهه الشاحبة..
ارتمت عليه تحيط وجنتيه بكفيها هامسة بذعر:
-أوس.. أرجوك حبيبي.. أرجوك افتح عينيك.
ولكن أوس لم يكن يتحرك..
-لم لا يرد؟؟ لماذا لا يستيقظ؟؟
صرخت بريك الذي كان يتحقق من نبض أوس ويصرخ مراسلاً البرج..
فعادت ترنيم لأوس وهي تتحسس صدره ذراعيه.. ثم تلامس خيط الدماء برهبة قبل أن تعود الى رأسه.. جبينه وعينيه تلامسهما بحذر ولهفة، أنفاسه سطحية بالكاد تستطيع الشعور بها.
-لا تخافي سيدتي، من الأرجح أنه يعاني من اغماء بسبب تغير الضغط المفاجئ.
قالها ريك بصوت مرتبك لتنظر له بحنق وتصرخ بشحوب:
-مالذي تقوله؟؟ وهل هو مبتدئ ليحدث له هذا؟؟ انه يُحلق منذ طفولته..
سمعا معاً وقته سرينة سيارة الاسعاف فنهض ريك واختفى خارج قمرة الطائرة، تاركاً ترنيم لتحتضن رأسه وتضعه على ركبتيها، تتساقط

دموعها على وجهه فتمسحها بأطراف أصابعها وهي تهمس بصوت مخنوق:
-اياك أن تتركني..
اغمضت عينيها بقوة وشهقت هامسة:
-لا تمت أوس، أرجوك.. ارجوك يا ربي لا تجعله يتركني.. أرجوك الهي، أتوسل إليك لم يبقى لي سواه. لم يبقى لي سواه..
انتحبت بوجع وعانقت جسده الهامد بقوة حتى وصل رجلا الاسعاف وحرروه من قبضتها لينقلاه خارج الطائرة الى سيارة قريبة.. ركضت خلفهما مصرة على أن تتبعهما ولكن ريك أوقفها وهتف بعصبية:
-يجب أن تنتظري انهاء اجراءات الوصول، لن يسمحوا لكِ بمغادرة المطار هكذا.
التفتت اليك باكية وهزت رأسها بعنف:
-أريد أن أكون معه حين يستيقظ.
تنهد بضيق:
-سننهي الاجراءات سيدتي وبعدها تلحقين به، انه في أيدٍ أمينة.. اتصلي بأحد أفراد العائلة، لن تقدري على المواصلة وحدك بهذا الشكل.

تراجعت ساهمة.. تتصل بمن؟؟
سيف.. لا يوجد سوى سيف لديها رقمه.. لحقت بالطيار وهي تخرج هاتفها لتجري الاتصال بارتباك ودموعها تسبقها..
لم تكن اجراءات المطار سهلة او سريعة، كان نزول قائد الطائرة في شبه غيبوبة مثار شبهة كبيرة وانهارت ترنيم تحت الضغط المتواصل بانتظار وصول احد أفراد عائلته، كانت وحيدة..
تلفتت حولها بقهر، هي وحدها في حجرة صغيرة مع احدى افراد الشرطة النسائية التي قامت بتفتيشها وحقائبها، تبكي بصمت وقلقها ينبش مخالبه الوحشية في اعماقها بلا رحمة أو شفقة.
تأخر العم حسن.. ولم تعرف ان كان قادماً اليها أم قد ذهب مباشرة الى أوس في المشفى؟
رفعت عينيها للضابطة وهمست متحشرجة:
-هل أستطيع استخدام الهاتف؟؟ أريد الاطمئنان على زوجي.
اومأت لها المرأة فأخرجت هاتفها وعاودت الاتصال بسيف ليرد عليها بهدوء:
-كيف حالك ترنيم؟

-انا أريد الاطمئنان على أوس، لا أحد هنا يخبرني عن شيء..
همست باكية.. ليعقد سيف حاجبيه ويسألها بحزم:
-أين أنتِ؟؟
-أنا محتجزة في المطار سيف.. يظنون أنني تسببت بشيء لأوس.
اجهشت حينها بالبكاء ليشتم سيف بحنق ثم يهتف بها بصرامة:
-سأرسل لكِ الان من يخرجك ويعود بكِ الى المنزل لا تخافي ترنيم.
-انا اريد الذهاب إليه.
ترجته ببكاء متهدج فزفر وهو يطمئنها:
-حاضر.. لا تقلقي.. دقائق فقط.
تمتمت بوداع واغلقت الهاتف وقبعت كفيها بين ساقيها وعينيها على الارض وهي تحاول كتم دموعها والسيطرة على الألم الذي يخنقها.. ولم تمضي دقائق خمس حتى فُتح الباب ودخل رجل بزي شرطة واقترب من الضابطة وقدم لها ورقة رسمية ثم التفت لترنيم المذعورة وال بابتسامة ديبلوماسية:

-نعتذر سيدتي ولكنها اجراءات معتادة، ستأخذك سيارة من أمن المطار الى حيث تريدين.
نهضت بارتباك هامسة:
-أريد الذهاب حيث أخذت الاسعاف أوس.. زوجي.
اومأ الرجل بتفهم ثم أشار لها أن تتقدمه ففعلت..
سيارة شرطة سريعة وقوية أخذتها من المطار ترافقها امرأة من أمن المطار حتى المستشفى الضخم حيث كان جساس من قبل، اندفعت راكضة عبر البوابة الزجاجية الضخمة لقسم الطوارئ، وقفت حائرة وأدارت عينيها حولها بتوجس قبل أن تسمع صوت يناديها:
-ترنيم؟
التفتت ورأت حسن الشيب يقف بتوتر الى جوار احد المصاعد فركضت زافرة بارتياح وهي تهتف:
-عمي حسن.. أين أوس؟؟
توترت نظرة الرجل للحظة قبل أن يكتسحها العطف وهو يجذبها معه الى المصعد الذي فتحت أبوابه قائلاً:

-لقد وضعوه في غرفة للمراقبة أنا ذاهب اليه في التو، تعالي.
-هل استيقظ؟
هتفت بلهفة:
-ماذا حدث له؟؟ هل أخبروك مما يعاني؟ لم فقد وعيه عمي؟ لقد تقيأ من قبل هل يعرفون هذا؟ كان يعاني من الصداع.. هل أخبرهم أحد؟؟
كانت كلماتها تخرج بسرعة وتوتر ليرفع حسن ذراعيه ويشير لها أن تهدأ ثم قال:
-اهدئي بنيتي، لايزال الطبيب معه الان، لقد أجروا له بعض صور الاشعة وماشابه، دعينا ننتظر وبإذن الله سيكون بخير.
ابتلعت ريقها وعضت لسانها تمنع نفسها من اطلاق سيل من الاسئلة التي تعذبها وتتجه للدعاء بصمت كي ينجو حبيبها مما يعانيه.
حين وصلا الى الطابق حيث يرقد أوس انتظرا لقرابة نصف الساعة قبل أن يُسمح لهما بالدخول، ترنيم كانت بالكاد تسيطر على أعصابها، ولرؤيتها بتلك الحالة أشار لها عمها حسن بالدخول وهو يقول بتوتر:

-ادخلي بنيتي أنا سأرى الطبيب أولاً.
اومأت له وركضت تقريباً الى داخل الغرفة، توسعت عينيها وهي تلاحظ الاضاءة المعتمة وتقريباً تحسست طريقها للداخل..
-لِمَ تأخرتِ؟
همس بثقل.. لتشهق ثم تركض نحوه وترتمي على صدره باكية بعنف..
أخذ أوس نفساً عميقاً وذراعيه تحيطان بها بقوة وتلفان قدها الضئيل بسهولة، ليحملها تجاوره على الفراش، وهو يهمس لها بعذاب:
-لا تبكي يا صغيرتي، لا تبكي.
أحاطت وجنتيه بكفيها ونظرت لوجهه الشاحب باكية:
-ماذا حدث لك؟ مما تعاني أوس؟؟ لماذا فقدت وعيك؟؟ لقد كدت أموت .. ظننتك تركتني؟؟
-اشش.. لا تبكي.. لا تبكي.
هزت رأسها وقد تناثرت دموعها حولها، ليتنهد ويقبل عينيها متذوقاً رموشها المبللة ثم همس:
-أنا بخير حبيبتي، انظري الي، أنا بخير.
تأملته بعينين شبه مغمضتين ثم همست:

-ماذا قال الطبيب؟
ابتسم:
-لم يتحدث معي بعد، أنا بانتظاره الأن..
-سننتظره معاً..
همست بعناد ليبتلع ريقه بصعوبة ويومئ موافقاً..
وبعد لحظة كان الطبيب يستأذن للدخول وينظر ترنيم باستفهام لتجلس جوار أوس وتمسك بيده بقوة وهي تقول بصلابة:
-أنا باقية مع زوجي.
لاقى الطبيب هزة موافقة من رأس أوس فجلس بهدوء على مقعد يواجه السرير وفتح ملفاً يحمله بيده وهو يقول بهدوء:
-السيد أوس نضال الشيب؟!
-صحيح.
قالها أوس بجفاء ليواصل الطبيب بنبرة تساؤل:
-لقد تعرضت لإصابة بالرأس قبل أيام.. ولم تقم بإجراء أية صور مقطعية لرأسك؟
تململ أوس وضغط على يد ترنيم بقوة وهو يقول بتوتر:

-هذا صحيح، أتظن أن نوبات الصداع متعلقة بالضربة التي تلقيتها؟
نزع الطبيب نظارته الرفيعة وقال بذات الهدوء المستفز:
-سأتكلم معك بكل صراحة، سيد أوس.. المشكلة تعدى نوبات الصداع..
-ماذا تعني بهذا دكتور؟
همست ترنيم وقبضة من خوف ثلجي تعتصر قلبها وهي ترمق أوس بنظرة جانبية بينما يقول الطبيب دون تردد:
-سيدتي.. زوجك وكما نظن بسبب الضربة التي تلقاها على رأسه، تكون لديه وذمة دموية داخل الجمجمة.
اتسعت عينيها بذعر وعقلها يحاول ان يستوعب الخبر، بينما انتصب أوس في جلوسه وصاح بتوتر:
-مالذي تقوله؟
-كما سمعت كابتن، يؤسفني أن أخبرك أن الوذمة ليست بالبسيطة وهي تضغط على الدماغ بشكل يزيد يوماً بعد الأخر، بالطبع يحتاج الأمر لعدة

ايام لنستطيع الجزم ان كانت تزيد حجماً أم أنها ثابتة أو تتناقص، ولكن من الوهلة الاولى ومن موقعها الحيوي والاعراض المتزايدة التي أصابتك في الأربع وعشرين ساعة السابقة نقدر أن نقول أنها تزداد بالفعل.

ارتجفت ..

يدها التي أفلتها أوس ليغرق وجهه بين كفيه بيأس، تراجعت لتستكين حضنها بينما تتسع عينيها بذهول وهي تتأمل الطبيب الذي استمر:

-موقعها الحيوي كما أخبرتك يضغط على العصب البصري لعينك اليسرى، وهذا يفسر غشاوة الرؤية التي تصيبك ، أما باقي الأعراض فهي متطابقة مع اعراض زيادة الضغط بداخل الدماغ، ومنها الصداع والدوار والقيء المباشر، وحتى فقدان الوعي.

رفع أوس عينيه وعقله يدور في دوامة مرهق..

نزيف.. يعاني من نزف بالدماغ؟!

-ماذا؟؟

تحجرت كلماته وهي تصطدم بجفاف حلقه..
وأخذ عدة لحظات ليستطيع السيطرة على صوته هامساً:
-وماهي.. ماهي نتيجة هذا الامر؟
تنهد الطبيب ومال يستند على ركبتيه بمرفقيه:
-هناك عدة احتمالات..
ابتلع أوس ريقه وانتظر بصبر ليواصل الطبيب تفقد ملفه وكأنما يزن كل كلمة قبل أن يتفوه بها:
-الاحتمال الاول هو أن يقف النزيف بفعل الادوية التي نعطيك حالياً ويبدأ جسدك بامتصاص الوذمة تدريجياً حتى تنتهي تماماً أو على الاقل ينتهي الخطر منها.
تألق الأمل في عيني ترنيم ولكن أوس لم يهتز له جفن وهو يقول بصوت مكتوم:
-والثاني؟
-ألا تستجيب للأدوية ويواصل النزف أو على الاقل لا يمتصها جسدك كما نريد.
شهقت ترنيم بذعر فتنهد أوس وضغط يدها بقوة ثم نظر لها وهمس بقسوة:

-غادري، انتظري في الخارج ريثما أنتهي من الحديث مع الطبيب.

اتسعت عينيها وهمست:

-لن أتركك. أبداً. أتفهم؟

-ترنيم..

همس بنفاذ صبر فردت بحزم:

-لن أتركك، من حقي أن أعرف.. من حقي أن أعرف كل شيء.

ضاقت عيناه وهو يرى الحزم، والشدة في عينيها ثم زفر بيأس وعاد ينظر للطبيب:

-ماهي فرصي دكتور؟

نقل الطبيب بصره بينهما للحظات ثم قال بنبرة خفيضة:

-لو توقف النزف، وبدأ الجسم يمتص الوذمة فعلاً فلدينا احتمالين..

الاحتمال الاول هو أن يحدث هذا بوقت قصير ولا ينتج عنه الا أقل ضرر سيمكننا السيطرة عليه بالأدوية..

أما الثاني فهو أن تتأخر عملية الامتصاص وهذا وارد الحدوث جداً ولا تحصل بالكامل الا بعد حدوث ضرر دائم..

ابتلع ريقه بصعوبة وشعر بارتجاف ترنيم وتصلبها فهمس:

-ماذا تعني بالضرر الدائم؟

-فقدان البصر في العين اليسرى.

اتسعت عيناه وتجاهل شهقة ترنيم المصدومة وتسارعت أنفاسه بينما الطبيب يواصل:

-هذا الاحتمال الاول سيدي، وهناك الاحتمال الثاني بألا يتوقف النزيف وألا يمتص الجسم الوذمة على الاطلاق.

-وماذا سيحدث وقتها؟

تساءل أوس بشرود فأجابه الطبيب بسرعة:

-ارتفاع ضغط الدماغ سيكون أكبر، ضغط الوذمة لن يقتصر على عصب العين وسيمتد لأجزاء أخرى حيوية من الدماغ، حينها لن تكون خسارة عينك هي المشكلة الوحيدة..

-تعني بأني قد أصاب بالشلل؟؟

رد أوس بجمود ليقول الطبيب بواقعية:

-هذا صحيح، وقد تكون النتائج أسوأ وتفقد حياتك كابتن.

..

-لا ..

تمتمت ترنيم بألم وهي ترتمي على ذراع زوجها الذي احاطها بقوة وهمس:

-ماذا تقترح ان نفعل؟

تراجع الطبيب في مقعده وقال بمهنية:

-هناك حل نسبة النجاح به تعادل ما يقارب ال37 %.

شخر أوس بسخرية:

-أقل من النصف؟

-انها نسبة فقط..

-ما هو..؟؟

-عملية شفط للوذمة.

تألق الاهتمام في عيني أوس بينما يضم ترنيم اليه بقوة والطبيب يواصل:

-عملية مجهرية حيث سنشفط الوذمة بعد تأكدنا من توقف النزيف وبذا نحرر الضغط ونعطيك فرصة أكبر للشفاء.

لهث أوس وقد شعر بوجود شيء خلف نبرة الطبيب بينما تصيح ترنيم:
-ولم لا تفعلون هذا؟؟ ما هي المشكلة؟
عقد أوس حاجبيه والطبيب يزفر بتوتر وقد اختلجت عيناه لمرة واحدة:
-نسبة الضرر الدائم لعصب العين اليسرى في حالة اجراء العملية تتجاوز ال90%.
اتسعت عينا ترنيم بجزع ليهتف أوس بوحشية:
-مستحيـــل..
-سيد أوس قد تكون هذه فرصتك الوحيدة قبل أن..
-قلت لك مستحيل..
هتف برعونة لتنظر له ترنيم بعجز وهو يصرخ:
-هل تعرف ما هو عملي؟؟ أنا طيار.. أتفهم.. اذا فقدت بصري فهذا ينهي مستقبلي.
-أوس.. هناك أمل..
هتفت ترنيم بألم ليصيح بحنق:
-لا ترنيم .. لا.. مادام لدي أمل ولو واحد بالمائة أن ينتهي هذا الكابوس دون خسائر فسوف أنتظر.

اغمضت عينيها بألم والطبيب يقول بتوتر:
-ما ستواجه بانتظار ان يحدث هذا يتعدى القلق على مصيرك كابتن، سيكون عليك مواجهة الصداع المستمر، اعراض ارتفاع ضغط الدماغ وربما أسوأ.
نظر له أوس بعناد:
-الأسوأ هو انتهاء مستقبلي، الأسوأ هو ألا أحلق أبداً.
-أنت لا تستطيع التحليق الأن أساساً، اختلاف الضغط سيسبب لك غيبوبة كالتي حدثت لك، وفي المرة القادمة الله أعلم ما سيكون مداها.
هتف به الطبيب وقد فقد أعصابه أخيراً.. ولكن أوس لم يكن يخشى فقدان أعصاب طبيب ما.. حاجبه الأيسر ارتفع بعجرفة والتوى فمه بسخرية وقد اشتعلت عيناه بتحدٍ كرجل لا يخشى شيء وإنما يرحب به:
-ان كنت تظنني أرضخ لتهديداتك وتحذيراتك فأنت مخطئ، أنا لا اخشى شيئاً.. بعض الالم والدوار هذا لن يجعلني أتنازل عن مستقبلي وتوقيع وثيقة اعدام بحق كل أحلامي أتفهم.

وانعقد حاجباه بشراسة ووحشية وقبضته تتكور بعنف ليضرب الفراش:
-أنا أوس نضال الشيّب، لا أخاف ولا اخشى شيئاً..
نهض الطبيب وقد أثار غضبه صوت أوس الهادر، ولملم أوراقه وهو يقول بتوتر:
-لديك وقت قصير لتقرر به كابتن، حياتك كلها في كفه، وعملك الذي تستعد للتضحية من أجله في كفة أخرى.. أنت بالغ بما يكفي لتتخذ قرارك بعيداً عن الضغوط.
تنفس أوس بغضب ثم هتف مزمجراً:
-ذلك الوغد، ان كان يظنني سأستجيب لتهديداته الفارغة؟؟
وشخر بسخرية وهو يمرر أصابعه بين خصلت شعره الطويلة نسبياً قبل أن ينتبه الى صوت النهنهات القادمة من خلفه!! التفت ليرى ترنيم متكومة على الفراش تضم ذراعيها تحت رأسها وتجهش بالبكاء بنواح يمزق القلوب..
اتسعت عيناه بجزع وانتفض يحيط بها:
-ترنيم حبيبتي مالأمر؟ لم البكاء الأن؟؟

-كيف تسألني؟؟ بعد كل ما قاله الطبيب؟
نشجت صارخة لتختلج عضلة قاسية على جانب فكه ثم قبل قمة رأسها بقوة وهو يدمدم بصلابة:
-ألا تدركين أن معظم الأطباء يميلون للتهويل؟
انتحبت من جديد وهتفت بصوت بح من كثرة البكاء:
-أنت لم ترى وجهك أوس حين فقدت الوعي، لقد كنت أشبه بالموتى، لقد ظننت أنني فقدتك الى الأبد.
أغرق رأسه في جانب عنقها وتنشق رائحتها العذبة وهو يهمس بحنان:
-أعرف أنك تخشين علي ترنيمة، ولكنني هنا أنا لم أمت وكما سمعتي فاحتمال ان تتلاشى الوذمة قائم مع الوقت ليس بوسعنا سوى الانتظار.
انتفضت تبتعد عنه.. تزيح ثقله من عليها وتواجهه بدموعها ووجه غاضب ساخط:
-احتمال بعيد وعلى مدى طويل، قد نخسر في الانتظار أكثر بكثير مما قد نكسبه، أنت.. أنت قد تصاب بضرر دائم لو لم تنفذ ما قاله لك الطبيب.
قبض أوس على كتفيها بقسوة وهو يهزها بعنف:

-أتعرفين ما يعنيه اجراء تلك العملية؟؟ أنا سأفقد رخصتي ترنيم؟؟ لن أستطيع .. أبداً أن أقود طائرة تجارية سأخسر عملي.. حياتي كلها.. وسأكون محظوظاً لو استطعت الاحتفاظ برخصة قيادة طائرتي الخاصة، وهذا فقط لو خرجت منها سليماً.. أنا لن أجازف.

تأملته بقهر وصاحت:

-وتريد ان تجازف بكل شيء أخر؟؟ الانتظار قد يقودنا للأسوأ.

-أو يضمن لي الاحتفاظ بحياتي.

اتسعت عينيها وهتفت مشدوهة:

-أهذا كل ما تفكر به؟؟ أنت وعملك الغالي؟؟ أهذا كل ما يهمك؟؟

عقد حاجبيه بتوتر لتنهض ترنيم وتهمس بصوت متحشرج:

-أحتاج لبعض الهواء.

-ترنيـــم.

صاح بتوتر ولكنها كانت تركض مسرعة للخارج بينما يعود أوس للاستلقاء على فراشه وعيناه

تطالعان السقف.. كلمات الطبيب لا تزال ترن في أذنيه..
الاحتمالات والنسب.. ما قد يخسره وما قد يحتفظ به..
تبــاً..
اغمض عينيه بتوتر..
الصداع اللعين يعاوده.. لا شيء لا تقدر عليه بضع حبوب مسكنة..
لقد أخطأ وأجهد نفسه.. ولذا أغمي عليه.. هو لن يصل لهذه الحافة مجدداً، سيتناول كل الأدوية ويحافظ على نفسه، هو لن يخسر ما يملكه، لن يخسر حلم حياته.. والذي عمل بجهد لأن يناله..
مهما قال الجميع.. مهما الت ترنيم.. شعر بالأسى عليها فهو يدرك أنها تخشى عليه.. ولكن عليها أن تفهم.. وتقدر.. وتحترم قراره..
فهو قراره وحده، مستقبله وحده..
كل ما عليه هو الصبــر..
مهما طال الوقت.
***

أحببتك حبا صِرِّخُتُ جِدرُاُنُ الصمت بصداه
فِيُ حِينْ تفجرت براكين العشق مُطَالِبَةً بالمزيد

سماح بخيت ~♥
فتحت عينيها بصعوبة .. لا تعرف بالضبط كم مر من الوقت ولكنها ساعة متأخرة من النهار ولا شك، تمطت بكسل ووجهها يحمر متذكراً بما انشغلت في الساعات الماضية والألم اللذيذ ينتشر عبر جسدها المتخم، والتفت حول نفسها معانقة الملائة التي تحيطها وعينيها تتلهفان بحثاً عنه..
معشوقهـا..
ارتسمت ابتسامة مغنجة على شفتيها وهي تسمع باب غرفتها يُفتح ببطء وأغلقت عينيها تنتظر أن يوقظها بأي طريقة يريد، شعرت به يقترب.. خفق قلبها بعنف سعيداً لدرجة لا توصف بسماع دبيب خطوته من جديد، تلهفت للمسته، لهمساته لحبه وحنانه اللذين لم تعرفهما من قبل قط..
شعرت به يجلس الى جوارها وبالكاد حافظت على اعصابها كي لا تستدير وتغرق بين ذراعيه

كما كانت ترغب، شعرت بلمسة أصبعه على طول ذراعها العارية من أعلى الكتف نزولاً.. بخفة وعذوبة اقشعر لها بدنها ولم تملك سوى أن تتململ في رقادها..

شعرت بأنفاسه قريبة من عنقها.. شفتيه حطتا بإغواء على نبض شرايينها بينما يهمس لها بثقل:

-افتحي عينيكِ صوانتي..

استجابت دون مقاومة فقد خارت كلها استجابة للمسته، لهمسته،، لوجيب قلبه بالقرب من قلبها.. جعلتها تهفو اليه كعبدة مطيعة لتقابل عينيه المبتسمتين بثقة وقدرة، ابتسامة رجل مغرور كأسلاف أسلافه، رجلها هي..

-مساء الخير أيتها الكسول.

ابتسمت ببطء وأخفت وجهها بخصلات شعرها ليزيحها هو بسرعة ثم يقول بنعومة خطيرة:

-لدي مفاجأة لكِ..

توسعت عينيها بترقب ثم لاحظت أنه يخفي ذراعه اليمنى خلف ظهره وقبل أن تعتدل كان يخرجها لترى علبة ضخمة وما يقارب النصف دزينة من البالونات الملونة..

جلست مستقيمة وقد تجاهلت الألم الذي انتشر عبر جسدها وهتفت:

-شوكولا؟!

التمعت عيناه وقال بابتسامة:

-انه يوم الجمعة..

اتسعت عيناها بدهشة.. انه يوم الجمعة بالفعل، اليوم الاول من السنة الجديدة بعد أطول ليلة عاشتها في حياتها .. احمرت وجنتيها ومدت يديها تنتزع علبتها من بين يديه.. فضت الاوراق الذهبية الملفوفة بأناقة وهي تتشبث بالبالونات بيدها الاخرى.

كالعادة كانت شوكولا الفيريرو المحشوة بالبندق والتي تعشقها..

راقب تورد وجنتيها وهي تستكشف العلبة العائلية الضخمة وأصابعها تتنقل عبر اوراق القصدير الذهبية بينما تعض شفتيها وتلعقها بين الحين والأخر..

-أنت تثيرين جنوني..

همس بحنق لتنظر له ببراءة ثم تهمس دون ان تعي تأثير حركاتها العفوية عليه:

-كلها لي؟
رفع حاجبه المشقوق بالجرح وقال مبتسماً:
-اذا لم تقرري اعطائي البعض منها.
زمت شفتيها متسائلة ثم همست مقررة:
-واحدة فقط؟
-أنت كريمة صوان.. وأنا .. أعتقد بأنني استأهل أكثر من واحدة..
أجاب مازحاً.. لتعقد حاجبيها وتشترط:
-اثنتين لي .. ونصف لك.
-والنصف الاخر؟
تساءل بعينين غائمتين لتقول بعفوية:
-لي بالطبع.
-موافق..
سارع دون تفكير ثم التقط احداهم وقال بصوت متخم بالعواطف:
-أريد نصفي الأن..
هزت كتفيها وهي تتجاهل الريبة التي هاجمتها من لهفته الغريبة ومدت يدها لتأخذ الحلوى ولكنه رفض وبكل هدوء ودون أن تفارق عينيه عينيها

فض المغلف الرقيق ورفع حبة الشوكولا الغنية الى شفتيها وقال بجدية:
-كليها كلها.
زمت شفتيها لوهلة ولكنها استجابت، واقتربت لتبتلع الكرة المغلفة بالشوكولا ، ملامسة أطراف أصابعه بشفتيها ولسانها وقبل أن تبتعد كان ينقض بشفتيه عليها..
يقتحم فمها برعونة متجاهلاً صرختها واعتراضها وهو يستولي على أكثر من مجرد قبلة.. قبضته على فكها أجبرتها لتستسلم لقبلته وغزو فمه السافر.. لينال نصيبه من كرة الشوكولا.. ممتزجاً بمذاقها الخاص.. تأوهت وهي تحاول التملص منه ولكن كيف تتخلص من جنونه، رغبته ولهفته التي تجاوز عمرها السنوات؟!!
تكسر البندق وذابت مرارة الشوكولا مع حلاوة المكسرات، وأصبح لقبلته طعم ومذاق خاص، وصوت هش مقرمش جعلها تضحك.. تقهقه وهو يتذوق أخر بقايا الحلوى من بين شفتيها..
-أنت مجنون..

-وأنت ألذَّ قطعة شوكولا ذُقتها في حياتي،،
همهم مفتوناً أمام شفتيها لتبتسم بحياء بينما يواصل:
-هل تريدين حبة أخرى؟؟
رمشت عينيها وهي تغرق في عينيه وهمست:
-لا.. أنا أريد النصف،،
ابتلع ريقه بصعوبة ورآها تمد أصبعها ليمسح زاوية فمه برقة شديدة ثم تضعها في فمها وتمتص بقايا الشوكولا دون أن تفارق عينيها نظرته ثم تهمس:
-أترغب بمشاركتي؟
خفق قلبه بعنف وقبض على يدها موجهاً اصبعها ذاته الى فمه ..
عضه برقة تحت نظراتها المحترقة وهمس بشغف:
-ومن يجرؤ على مخالفة أوامر السلطانة.. سلطانة؟!
ابتسمت خجلة وعادت تخرج كرة أخرى من الحلوى، بينما يأخذ جساس نفساً عميقاً .. عيناه

تتألقان بفرحة مكتومة لو أفرج عنها لن تسع الكون بما فيه..

ذلك المساء قررت أن تذهب لزيارة أمها، وكانت سعيدة للغاية، رغم تكدرها أنه لن يرافقها ولكنها كانت فعلاً بحاجة للقاء أمها، بحاجة لأن تطمئن عليها فاتصالها بأبيها يومياً لم يعد يكفي، تعرف أن جساس لا يزال يحمل بعض العتب على والدتها لوقوفها ضد زواجهما في أخر الايام ولكنها تعرف انه لن يستمر، فحب والدتها للجساس وحبه لها بالمقابل يعرفه الناس أجمعين. انهما فقط بحاجة للوقت ليعتادا على فكرة الزواج ومما سينتج منها.

توقفت أمام المرآة تنظر الى عباءتها تلامس قماشها الحريري ونقوشها الملونة ثم ربطت حزام الخصر جيداً.. ووقفت تنظر كيف لائمتها وانسابت على جسدها النحيل محددة تفاصيله..

-ما هذا الذي ترتدينه؟

سمعت سؤاله المبحوح وخفق قلبها بينما انتابتها رعشة مثيرة جعلتها تشهق وهي تستدير لتواجهه..

-أعجبتك؟؟ انها عباءتي الجديدة .. سارة جاءت بها من..
قاطعها ممرراً كفيه على القماش الحريري الشفاف لترتجف وتنادي اسمه ضاحكة بينما يقول:
-انها أبعد ما تكون عن العباءة، لا تفكري أن تخرجي بها صوان.
همس بخشونة لتزم شفتيها بحنق فيقبض على الحزام الذي يزم خصرها ويحرره بحركة حادة:
-انه قماش شفاف، كثير الألوان ويحدد معالم جسدك الجميل هذا للجميع..
كان يتحدث وكفه تمر عبر ظهرها لخصرها نزولاً حتى ساقها فهمست مرتبكة:
- انها الموضة الدارجة..
-فلتذهب الموضة الى الجحيم، صوان أنا رجل غيور..
وتلككت شفتاه على الكلمة الأخيرة وكأنه يثبتها في عقلها قبل أن يضيف بلهفة:

-أكاد أغار عليك من كل ما يمسك.. حتى إن كان قماش حريري أسود، يكفي أنه يفرق بين جلدي وجلدك صوانتي..

-جسااااس..

اعترضت ولكنه لم يتناول عن موقفه بل قبلها بنعومة على شفتيها وابتعد مشيراً للعباءة:

-غيريها.. ارتدي ما ترتدينه عادة، أما هذا القماش الساحر فلدي ما سنستفيد منه.

رأت تراقص حاجبي فهتفت بوجنتين مشتعلتين:

-انه مبطن كما تعرف.

نظر لها بخفة وقال بعبث:

-لدي مقص كما تعرفين، والأن اذهبي قبل أن تتأخري، أريدك ان تعودي بأسرع ما يمكنك صوان.

دمدمت بغضب تخفي به مشاعرها المتفجرة والتي جعلتها ترتبك وهي تتخلص من عباءتها الجديدة والتي لم تعد تحمل اسم عباءة بقرار من السيد المتعصب، ترافقها قهقهته الخفيضة وهو يجلس الى الشرفة ليراقب رحيلها بعد قبلة تعمد جعلها خفيفة على وجنتها وهو يهمس:

-لا تتأخري..
-ألا تريدني أن أبلغ أمي وأبي سلامك؟
تساءلت بقلق ليعقد جساس حاجبيه ويومئ دون كلمة..
حين انطلقت بها السيارة يقودها سائق خاص تجهم وجهه، الى متى سيظل غاضباً من عمته فاطمة.. والى متى لن يواجهها بما فعلته لتفرق بينه وبين صوان؟؟ لقد سلمت صوان حرفياً لسواه..
حاول كتم الغضب المتصاعد بداخله وعاد للتفكير،، لتظهر امامه اتهامات صوان لوالدته..!!
لم يعد يريد المزيد من الكذب، ولا الخداع، كان يريد كل الأمور واضحة وجلية..
ما قالته صوان لم يكن هيناً ويجب السكوت عليه ، كان جريمة عظمى وعليه أن يعرف ما تخفي جوانبها..
وجد أمه في المطبخ..
كانت تعد احدى وصفاتها الشهية كما يبدو وتبدو الراحة جلياً على وجهها..

ابتسم وتساءل:
-ماذا تعدين؟
نظرت له بإشراق تشعر بهم انسل عن كتفيها بعودته للوقوف ورغم التحسن الظاهر بعلاقته بتلك الفتاة ولكنها ليست متعجلة، بالهداوة ستنال كل ما تريد..
-اعد طاجن لحم بالخضار، أعرف أنها وجبتك المفضلة.
كاد يخبرها أنه تناول ما يكفي من الشوكولا قبل بعض الوقت وانه لا يستطيع بلع لقمة اضافية ولكنه لم يشأ ان يفقد الابتسامة التي أنارت وجهها..
-أتسمحين لي بالمكوث قليلاً؟
-طبعاً حبيبي.. وربما ننادي الشيماء لنتسلى سوياً ريثما ينهي طهو الطاجن في الفرن.
-لا أمي.. أريد التحدث معكِ وحدنا.
أسرع معترضاً فنظرت له نرجس بقلق قبل أن تهز كتفيها وتوافق، وضعت الطعام بداخل الفرن ليُطهى ببطء ثم جلست أمامه تبتسم بحب لولدها الوسيم:

-أخبرني.. عما تريد التحدث.
أخذ جساس نفساً عميقاً وقرر الدخول الى صلب الموضوع:
-أريد أن أعرف سبب كراهيتك لصوانة، أريد أن اعرف السبب الحقيقي وراء رفضك زواجي منها.
عقدت نرجس حاجبيها وتوترت أصابعها على مفرش طاولة المطبخ وهتفت بحنق:
-ألا يكفي كونها تكبرك بأعوام ؟؟ هذا الأمر وحده كفيل بإبطال الزواج.
كتم جساس ابتسامة سخرية كادت أن تقفز على شفتيه وحاول أن يتمالك نفسه بجدية وامه تقول بسخط:
-ألا يكفي منظرها الخالي من الأنوثة، تلك الطويلة كفرع نخلة، لا اعرف بأي عين تراها..
تنهد بيأس واقترب يمسك بيد والدته ويسألها بتوتر:
-أمي، كل ما تقولينه لا يهمني بشيء، صوانة زوجتي وأنا أعشقها.. ما يهمني الأن هو معرفة الحقيقة.

نظرت له أمه بريبة ليتنهد من جديد ثم يقول بتهور:

-صوان أخبرتني بكل شيء.

-ماذا تعني؟

تساءلت نرجس بتوتر ليقول جساس بعد توقف قصير:

-صوان أخبرتني بما قلته لها عن تعاملات أبي وأعمامي مع المافيا، وكيف أنه السبب في خلافكما وأنك...

-ماذاااا؟

نهضت نرجس صارخة بعنف، جسدها كله يرتجف بينما تحاول السيطرة على غضبها الصاعق مواجهة عيني ولدها المتسعتين بدهشة وهي تصرخ بجنون:

-تلك المجنونة قالت لك ماذا؟؟ مالذي تقوله جساس؟؟ منذ متى عائلتك لها علاقة بالمافيا بني؟؟

-امي أنا ..

-انها تحاول ان تفرق بيني وبينك.. هي تحاول تلفيق الاكاذيب..

صاحت بتوتر ثم اقتربت منه تهزه بقسوة:
-أخبرني.. لو أن ما قالته صحيح لماذا سأخبرها به؟؟ كيف يمكنني أن اقول مثل تلك الامور؟؟ تكلم؟؟
-قالت بأنك هددتها لو أنها تزوجت بي فأنت ستزجين بوالدي وعمي نضال الى السجن.
تردد جساس بقول عبارته ولكن ما ان فعل حتى صاحت أمه مولولة وجلست منهارة وهي تبكي..
-كيف تصدق أنني أفعل هذا؟؟ كيف يخطر ببالك أن أمك تهدد بوضع أبيك في السجن؟؟ يالهذه المصيبة، حسبي الله ونعم الوكيل بكِ يا صوان ..تصدق تلك الفتاة التي رمتك بعيداً عنها وأرادت الزواج بسواك وتتهم أمك؟؟!!
-أمي..!!
صاح جساس بتوتر وقد كان الغضب قد بدأ ينال منه ويستولي على رجاحة تفكيره ..
انهيار والدته فاجأه، لقد فكر بكون الصوانة تكذب عليه من قبل .. ولكن .. كل تلك الافكار نحاها عن ذهنه منذ أن أصبحت له، منذ أن ضمها بين ذراعيه وجعلها امرأته،،

ولكن الان عادت من جديد..
راقب انهيار أمه ودموعها .. صراخها الذي استدعى شيماء من حيث ما كانت وبدأت مرحلة الاسئلة الغاضبة.. وهو من ناحيته كان غاضباً..
كان يستحقر غباءه الذي جعله يصدق صوان ويتهم أمه هكذا اتهام دون أن يسمع منها..
كل مشاعره تعاظمت الان .. ولكن كلها اكثر بصدد الغضب..
كان حقاً غاضب، يشعر بالخيانة .. ومتألم ..
يريد صوان.. يريدها أمامه.. ليواجهها ويعرف الصدق حين ينظر في عينيها..
كان يعرف ان المواجهة بينهما لن تكون سارة أو مطمئنة..
ولكنها ضرورية وستكون مؤلمة لكليهما على حد سواء.
***
نهاية الفصل

ترنيمة عذاب
الفصل الثالث والعشرون
***

توقفت السيارة أمام بوابة فيلا الشيب، وترجلت صوان وهي تخبر السائق أن يعود لها بعد ساعة، كما أمرها الجساس، وصعدت الدرجات القصيرة بخطوات سريعة رشيقة وفتحت البوابة التي لا تُغلق أبداً، وجدت الخالة سعاد التي اندفعت نحوها تعانقها بفرحة هاتفة:

-حبيبتي، صوان بنيتي، اشتقت اليكِ.

عانقتها صوان بفرح وهتفت:

-وأنا اشتقت اليكِ خالتي، اشتقت اليكِ ولأمي كثيراً.

ابتعدت عنها سعاد وهمست باكية:

-أمك تشتاق اليكِ كثيراً انها تبكي باستمرار.

انسابت دموعها بحرقة وقالت بألم:

-أين هي؟؟ أريد أن أراها..

مسحت سعاد دموعها، وهمست:

-انها فوق في غرفتها مع السيدة سارة..

-سارة؟؟ وما الذي تفعله سارة هنا؟
تساءلت صوان وهي تمسح دموعها بقلق، لتهز سعاد كتفيها وترد بتوتر:
-لا اعرف لقد وصلت عند الظهر، وهي مستاءة جداً وحالما استيقظت السيدة فاطمة من قيلولتها ذهبت اليها.
تنهدت صوان فأضافت سعاد وهي تربت على كتفها:
-انضمي اليهما أنا سأحضر العشاء.
اومأت لها صوان وأسرعت لفوق حيث غرفة أمها وأبيها، كان الباب مواربا.. تقدمت بحذر ورأتها.. اتسعت عينيها بعاطفة شديدة، النحول تمكن منها، مخنوقة غطت فمها بكفها تراجعت خطوة وتوقفت تشعر بالدوار يجتاحها، كما اجتاحها جساس بعنفوان وتركها عاجزة حتى عن النظر نحو عائلتها، تركت أمها في وقت هي في أمس الحاجة اليها؟!
ذلك المرض الخبيث يتمكن منها، والعلاج من ناحية أخرى، يتآكلها من الداخل، بلا رحمة.
-ماما؟!

همست وهي تتجرأ وتدخل لتقطع الحديث الهامس بين سارة وأمها..
التفتت لها الأخيرة بلهفة وان سرعان ما أخفتها بعتب ظهر جلياً في عينيها اللتين أغرقتها بالدموع، والاحمرار السريع لوجهها بينما تنقبض اصابعها حتى تكاد تمزق قماش الملاءة الحريرية وسارة تنهض مسرعة لتعانق صوان هامسة بانفعال:
-صوانة لقد اشتقت اليكِ.. كيف حالك؟
ابتسمت بتوتر ودموعها تتدفق وهي تترك سارة لتركض وترتمي بين ذراعي والدتها هاتفة بلوعة:
-اشتقت اليكِ ماما، اشتقت اليكِ كثيراً.
لم تتحرك فاطمة، فقط اهتزاز مقلتيها المتصلبتين أنبأ سارة أنها لاتزال واعية، ثم كانت تلك الدموع التي انسابت ببطء من عينيها، ومحاولتها الجاهدة كي لا تضم ابنتها اليها وتبقي ذراعيها بعيداً، سارة شعرت بأنها دخيلة وسطهما، اعتذرت بكلمات قصيرة وتركتهما وحدهما، اعتدلت صوان ونظرت لعيني أمها وهمست:

-الى متى تقسين عليّ؟
ابتلعت فاطمة ريقها بصعوبة وردت بصوت مخنوق:
-الى متى تقسين على نفسك؟
اتسعت عيني صوان وفاطمة تواصل وكأنما وجدت منفذاً حقاً لكبتها:
-الى متى تسمحين له بالسيطرة عليكِ؟ والأن هو يدمرك؟
اتسعت عينا صوان وهتفت تدافع عن حبيب عمرها:
-أنت تتحدثين عن جساس أمي، أنت من قام بتربيته.. أنت أكثر من يعرف كم يحبني؟!
اغمضت فاطمة عينيها وهتفت بألم:
-أن يحبك لا يعني ألا يؤذيكِ.. أحياناً كثيرة .. الحب، يخنُق، يؤلم، يقتل.. أحياناً كثيرة يكون الحب مرض يجب التخلص منه.
-ولكنني أحبه أيضاً، أنا لا أستطيع العيش بدونه.
هتفت باستماته لتصيح امها:
-وماذا عن أمه؟؟ كيف تقدرين على العيش في مكان واحد معها؟؟ ألا تظنين أنها ستفعل

المستحيل كي تحطم حياتك، تخرب مستقبلك، تقضي على أحلامك ان استطاعت تلك الحقود؟
شحب وجه الصوان وتراجعت بينما أمها تضيف بألم:
-أعرف جساس ككف يدي، رغم كل شيء هو ضعيف جداً أمام والدته، وصدقيني رغم تخليها عنه منذ كان طفلاً هو لا يزال يحمل بداخله تلك العقدة التي تجعله يفعل المستحيل لينال رضاها من جديد.
بهتت الصوانة بينما أمها تواصل بحنق:
-نرجس استغلت حب جساس لها منذ سنوات ورغم ابتعاده عنها إلا أنها استطاعت السيطرة على مشاعره، لم يكن يوماً بقسوة سيف الذي اكتشف محاولاتها منذ زمن وابتعد ونأى بنفسه عنها وعن صراعها مع والده، سيف كان ذكياً.. ولكن جساس كعادته يلهث خلف عواطفه ورغباته وهذا سيؤدي بكليكما للتهلكة.
ضاقت عينا صوان وهمست بألم:
-أنت تظلمينه كثيراً..

-أنا ربيته، وللأسف لم أستطع اصلاح كل ما افسدته نرجس بداخله، كان جساس متشبعاً من أفكارها وحقدها، انه يشعر نحوها بالمسؤولية..
-بالطبع عليه ان يفعل هذا، انها أمه بحق الله.
هتفت صوان لتضحك أمها بتوتر:
-مسؤوليته تتعدى احساس أي ابن نحو أمه، جساس يشعر بالمسؤولية نحو انفصالها عن زوجها، هو سيفعل المستحيل كي لا تشعر أمه بما يشابه ما كانت تشعر به في تلك الفترة ولن يسمح بتهديد احساسها بالأمان.
-أنت تعنين أنه سيؤذيني ارضاءً لها؟
تساءلت بشحوب لتهز أمها رأسها بحنق:
-لا هو لن يؤذيكِ متعمداً، ولكنه لن يسمح لكِ أن تقفي أمام والدته، لن يسمح لها أن تشعر بالحزن والأسى، هو لن يقاومها صوان، وأنتِ..
وتحشرج صوتها مكملة:
-أنت لن تقدري على الوقوف في وجهها، وأنا اعرف تماماً ما تشعره تلك المرأة تجاهك بنيتي.

-أنا لن اسمح لها أن تؤذيني، لن أسمح لها بالوقوف في وجه سعادتي مع من أحب من جديد أمي.

نظرت لها امها بأسى ثم همست:

-وستكون هذه هي المشكلة.. هذه ستكون المعضلة التي ستقاتلين فيها طيلة حياتك، ولن تهنأ حياتك أبداً.

ارتسمت الحيرة بكل صورها على وجهها وتراجعت وهي تحار تفسير ما تقوله أمها، وظهرت الحيرة جلياً في عينيها، لتلامس أمها وجنتها بحنان وتهمس:

-صوان أنتِ لم تفكري، جميعكم لم تفكروا في عواقب زواجك به، أمه لم ولن توافق يوماً عليكِ ليس كراهية بكِ أنت، لا .. بل هي كراهية في كل من يتعلق بالشيب.. كل ما يمت بصلة لسلطان عمك، ولنا نحن إذ وقفنا دون رد فعل لانفصالهما.

-وما ذنبي أنا..!! ما ذنبنا أنا وجساس؟

تمتمت ببؤس لتتنهد أمها:

-ذنبكما أنك ابنة الشيب، وليس هذا فقط.. أنت ابنتي أنا، رغم كل ما تقوله نرجس من أنها تحتفظ لي بجميل تربية ابنيها، هي تكرهني، تكره أنني كنت أحل محلها لسنوات.

نهضت صوان لتقف أمام النافذة وتطالع السماء المظلمة:

-ولكن هذا التفكير لم يعد يفيد الأن، أنا زوجته.. وعليها أن تفهم هذا شاءت أم أبت.

-ستحيل حياتكِ جحيماً.

همست أمها بقلق ووجل، لتقترب منها صوان محاولة الابتسام لتخفف من قلق أمها:

-أنا وجساس لن نسمح لها، لقد اخبرته الحقيقة أمي، قلت له انها السبب في رفضي الزواج به من الأساس، أنا لن أخفي عن جساس شيء بعد الأن، لن أترك لها الفرصة للسيطرة علي والاستيلاء على الرجل الذي أحب.

اغمضت فاطمة عينيها وهمست بقلق:

-أتظنين أن هذا يكفي؟ مع نرجس عليكِ أن تبقي عينيكِ مفتوحتين.. هي لن يهنأ لها بال حتى تزوج جساس من ابنة أختها تلك.

شحب وجه صوان وهمست بتلقائية:
-جساس لن يوافق، هو يحبني انا فقط.
تراجعت فاطمة وأسندت ظهرها لرأس السرير وهمست بتعب:
-لا يجب أن تركني لمشاعر جساس، هو ضعيف أمام أمه، وهي تعرف كيف تستغله بشكل تام.
ابتلعت صوان غصتها واقتربت لتجلس الى جوار أمها وهي تلامس جانب وجهها الشاحب:
-أنت تأخذينني في الكلام عني وعن جساس وتُنسيني لم أنا هنا من الأساس.
تنهدت أمها وضمتها الى صدرها هامسة بجواب سؤال رأته في عينيها:
-وأنا اشتقت اليكِ صغيرتي، كل يوم أتعذب أكثر وأكثر، خصوصاً أنني أعرف بأنها هناك معكِ، لا أعرف ما تفعله بكِ وكيف تعاملكِ تلك المرأة الحقود.
ابتسمت صوان وعانقت خصر أمها الناحل:
-لا تقلقي، جساس لن يسمح لها أن تؤذيني، هو يحبني أمي.
ابتسمت فاطمة بتعاطف:

-بل هو يعشقكِ صوان، ولكنه مشاعره تجاه أمه، ذنبه الذي يمزق قلبه أخشى أن يؤثر به ويطالك أنتِ يا صغيرتي.

رفعت صوان عينيها لأمها وهمست بابتسامة:

-لن أسمح له، سأكون قوية كما كنت على الدوام..

هو يريد المجيء لرؤيتك.

-كاذبة ..

همست فاطمة بضحكة لتعبس صوان وتواصل أمها:

-جساس غاضب، ويشعر بالأذى وهذا من حقه..

هو لا يريد رؤيتي الان.

-انه حزين فقط.

بررت صوان لتبتسم أمها:

-المهم انه بخير.

اومأت صوان والفرح يشع من عينيها:

-انه يمشي على ساقيه، لقد وقف من جديد.

اغمضت فاطمة عينيها وهمست بسعادة:

-حمداً لله صغيرتي، استجاب الله لدعائي، الحمد لله.

ابتسمت صوان وعادت لحضن أمها وبقت لفترة طويلة تنصت لدقات قلبها ، عينيها مغمضتين ودعاء مستمر يتردد من أعماقها ألا يحرمها الله لذة هذه الدقات ودفء هذا الجسد.

بعد دقائق طويلة كانت تغادر الغرفة وتترك والدتها التي غلبها النعاس وتنزل لرؤية سارة والتي قالت بحزن:

-كانت تشتاق اليك كثيراً.

-وأنا.

همست صوان بارتياح قبل أن تجلس جوار سارة التي ابتسمت لها باتساع وهتفت:

-والأن دعيني أنظر لكِ، تبدين مشرقة على غير العادة؟؟ اخبريني الأن كيف هو الزواج بجساس؟ هل يمارس جنونه عليكِ؟؟ أخبريني كل شيء..

نظرت صوان لقريبتها بذهول قبل أن ترميها بأحد وسائد المقعد وتصرخ وقد احتقن وجهها:

-رباااه سارة يا لك من وقحة.

قهقهت سارة واضطجعت على كرسيها الوثير وحاجبيها يتراقصان:

-افصحي يا فتاة، أخبريني عن اشتعال النار التي تخفينها يا صوانة.

نهضت صوانة هاتفة بحنق:

-سارونا المجنونة أقسم أن أغادر في التو لو لم تسكتي فمك الكبير هذا.

ضحكت سارة مطولاً من مناغشة صوان الخجول كما اعتادت وتنهدت مطولاً محاولة نسيان معاناتها الشخصية وهي تراقبها تخلع عباءتها لتظهر ملابسها تحتها قميص معرق بلون سماوي وجينز أبيض خفيف، شعرها الطويل ينساب على كتفيها دون ملامح ووجهها بالزينة الخفيفة.

-هل تخرجين عادة بهذه الثياب؟

تساءلت سارة بصدمة فنظرت صوان لملابسها وهمست بتوتر:

-ماذا تعنين؟؟ انها ملابسي المعتادة.

وقفت سارة واتجهت نحوها هاتفة بصرامة:

-انت امرأة متزوجة الأن، كيف ترتدين مثل هذا القميص البشع؟؟

ثم أمسكت بطنها بحذر وهمست:

-اسمعيني جيداً ولا تقاطعيني ولولا أن الطبيب منعني من المجهود لكنت أخذتك للتسوق في الحال.

-تسوق؟؟

هتفت صوان بحذر لتتنهد سارة بضجر وتجرها من يدها نحو غرفتها المقابلة:

-اعرف خزانة ملابسك جيداً وادرك أنها لا تحتوي سوى على مثل هذه البضاعة الغريبة والتي تليق بمديرة مدرسة.

عقدت صوان حاجبيها وهمست ضاحكة:

-ولكنني فعلاً مديرة مدرسة.

رمقتها سارة بغضب وصرخت:

-تعرفين ما أعني .. هيا.

اغلقت الباب خلفهما ومضت تفعل ما تمنته منذ زمن، دون أن تلقي بالاً باعتراضاتها.

***

موسكو..

نقرات حازمة من حذاء عالي الكعب على الأرض الرخامية لمبنى شاهق الارتفاع بددت الصمت وتردد صداها في الطابق بأكمله وقد خلا

من جميع الموظفين في تلك الساعة من الليل، ورافقتها خطوات مكتومة ثقيلة وأخرى سريعة تحاول اللحاق بصاحبيها..
توقفا أمام بوابة زجاجية بظلفتين والتفتت المرأة لرفيقها ذو الظل الكئيب وهمست:
-لا تتجهم شاهر، نحن نحاول أن نكسب هنا.
-التوسل لأميرك العتيد لن يجعلنا نكسب نيران، نحن نذل أنفسنا.
-بل نحن نحاول أن ننقذ الباقي منها.
التوى فمه بسخرية:
-وما هو ضررك أنت.. العروس المستقبلية لسراي.. ماذا يمكن أن تخسري بعداوتي أنا لسليم أو ذلك الفتى الغر.
أخذت نيران نفساً عميقاً وهي تحاول السيطرة على ضيقها من ردود فعل شاهر المستفزة والتي لولا تصرفاته الهوجاء منذ البداية لما اضطروا للمجيء الى هنا واذلال أنفسهم كما يقول.
-انها خطوة ضرورية للحفاظ على ما نشارك به السراي، كوني العروس أو لا لا يعني أن أترك أموالي وأملاكي دون رعاية أو اهتمام شاهر.

-ان وجدت ذلك الفتى أمامي اقسم أنني..
هدر شاهر بشراسة لتلتفت له نيران وتحذره:
-لن تفعل شيئاً باشا.. أنت وركان لن تلتقيا فبالتأكيد هو مع زوجته الأن.
تدخل الرجل الثالث والذي لم يكن سوى محاميهما الخاص:
-اعذروني على التدخل ولكننا سنتأخر عن موعدنا وأنتما تعرفان سموه بالنسبة للمواعيد.
زفر شاهر بضيق بينما عاودت نيران السير عبر الابواب الزجاجية الى غرفة واسعة يحتلها مكتب استقبال أنيق وقفت عليه فتاة روسية بشعر أشقر محمر وبشرة شاحبة وعينين جليديتين لتشير لهم بالدخول عبر باب خشبي مصقول، دون كلام.
اندفعت نيران عبر الباب دون أن تطرقه وتقدمت تُخفي السجادة الثمينة نقرات كعبها العالي وهي تتجه الى المكتب الأسود الذي احتل الصدارة في تلك الغرفة الواسعة جداً والتي تناثر فيها الاثاث الأثري الثقيل والتحف الغريبة من كل أنحاء العالم..
-كدتما تفوتا الموعد..

قالها سليم بهدوء من خلف مكتبه لتجيب نيران بحزم:
-ولكننا لم نفعل.
ابتسم ونهض يستقبلها، التقط كفها بين يديه وقبل وجنتيها ببرود قبل أن تشيح عنه وتجلس مقابل المكتب.. نظر سليم لشاهر الذي تقدم برأس مرفوع وملامح شرسة فابتسم الأول وأشار له أن يجلس قائلاً:
-لقد شككت بقدومك فعلاً شاهر ولكن..
وحارت كلمة وقح على شفتيه قبل أن يستبدلها بديبلوماسية شديدة:
-أنت شجاع..
-أنا لم أرتكب جرماً ولم أفعل ما أخشى مواجهته.
قالها شاهر باقتضاب ليبتسم سليم بسخرية وتتدخل نيران:
-نحن هنا لنراجع بنود اتفاقيتنا الجديدة سليم وليس النقاش في أمور شخصية.
عاد سليم بنظره لنيران والتي لم تهتز او تنحني أمام قوته:

-ممتاز نيران، كما تقولين.. ولكن في هذه الحالة ينقص اجتماعنا عضوين.. عضوين مهمين.
ثم رفع هاتفاً داخلياً وأعطى مساعدته أمراً بالروسية.. وبعد لحظات عاد الباب يُفتح وهذه المرة كان ركان وفتاة شابة ترافقه..
نظرت نيران مباشرة لشاهر الذي نهض من كرسيه يقابل ركان بعنفوان قابله الاول ببرود وعينيه لا تفارقان عينا غريمه بل تتصارع معه بوحشية..
-صراع الديوك؟!
همست الفتاة بسخرية ثم التفتت لشاهر واقتربت منه بجرأة قائلة:
-تصرفك كان غبياً للغاية باشا، اخفاء ركان عنا؟؟
نظر لها شاهر بتوتر لتهمس بسخرية أشد:
-بما كنت تفكر؟؟
-هذا ليس من شأنك جُمار.
همس ببطء لتضحك ساخرة ثم تقول بخفوت:
-لقد وضعت نفسك في دائرة العقاب، خمن بما سيعاقبك الأمير؟؟

تجهم وجه شاهر وجُمار تنساب برشاقة مبتعدة عنه تقف الى جوار سليم الذي اشار للجميع بالتوجه نحو طاولة الاجتماعات.. حيث جاور سليم كلاً من جُمار شقيقته الصغرى وركان الصامت، وقابله شاهر تجاوره نيران مقابلة لركان والمحامي مقابلاً لجُمار..

-أرى اجتماعاً عائلياً أكثر من كونه عملياً ألا تظنه ينقص فرداً سليم؟

قالت نيران بتوتر جعل جُمار تشخر بسخرية وسليم يرد ببرود:

-مصطفى لا يتدخل بعمل المؤسسة ولا كيفية ادارتها، هو ليس جزءاً من مجلس الادارة، هو ليس مساهماً من الأساس، ببساطة هو لا حقوق له.

تجمدت ولكنها لم تظهر مشاعرها الرافضة حتى حين تدخلت جمار تقول بتهكم:

-انها ضريبة الابناء غير الشرعيين نيران، يتمتعون بالمزايا ولكنهم لا يملكونها.

-لنتوقف عن هذا الهراء، ونتوصل لحلول أمورنا المعلقة.

هتف شاهر بحنق ثم قال بغلظة"
-أين فريق محاميك سليم؟
رفع سليم عينيه الثلجيتين ورد ببرود:
-نحن هنا لنضع شروطنا شاهر، مذكرتنا جاهزة لا نحتاج لمحامين، أنت من يحتاج، على كل حال.
ثم دفع بثلاثة مجلدات مليئة بالأوراق للثلاثة أمامه وقال بهدوء:
-ألقوا نظرة..
فتح شاهر مجلده وبدأت عيناه تركض بسرعة بين السطور، اتفاقية تشبه في مجملها كل الاتفاقيات القديمة، ولكن هناك شيء لم يستوعبه.. بند من البنود.. يشترط فيه أن الاتحاد العائلي الثنائي يجب أن يتم قبل انتهاء العام الحالي.. وإلا فكل بنود الاتفاقية تعتبر ملغية..
-ماذا تعني باتحاد عائلي ثنائي؟
دمدم سؤاله بعصبية وهو ينظر لسليم الذي ابتسم ببرود وقال:
-ما أعنيه هو ما قرأته شاهر، اتحاد عائلي ثانٍ..
-سواكَ أنت ونيران؟؟

تتساءل شاهر بقلق ليومئ سليم برأسه ثم يقبض على كف جُمار ويرفعها هامساً:
-رحب بعروسك المستقبلية شاهر باشا.
تراجع شاهر بذهول وعيناه لا تفارقان وجه سليم بينما شهقت نيران بالمفاجأة وجُمار تهمس بتهكم مرير:
-مفاجأة مفاجأة ..
نهض شاهر وهتف بغضب:
-هل فقدت عقلك؟؟
تراجع سليم في مقعده ببرود وابتسامة هادئة تتلاعب على فمه بينما هتفت جُمار بضحكة ساخرة:
-أنت تجرح مشاعري باشا.
-اصمتي.
هتف بها بقسوة لتتجهم ملامح وجهها وسليم يقول ببرود:
-هذه بنود اتفاقنا الجديد شاهر.. اقبله أو ارفضه.
-بالطبع سأرفض..
هدر شاهر ليهز سليم كتفيه ويحول نظره لنيران الشاحبة ويقول:

-هذا الاتحاد ثنائي يا نيران، بمعنى أننا جزء من الصفقة عزيزتي.
نظرت نيران لشاهر بتوتر ونهضت تتمسك بذراعه هاتفة:
-تمهل شاهر، لا تتهور فتخسر كل شيء.
ازاح شاهر ذراعها ونظر الى ركان قائلاً بفورة غضب:
-انا اعرف من وراء هذه الافكار العبقرية والتعديلات الجوهرية، انه أنت أيها الوغد.
نهض ركان ببطء وواجه شاهر بقوة وعيناه الزرقاوان تلمعان بتحدٍ:
-لو كانت الأفكار لي لكنتُ مزقت هذه الاتفاقية وتركتكم تتعفنون فيما لديكم، وحاربتكم عليه حتى النفس الأخير شاهر، وليس العكس.
تحرك شاهر بنية الانقضاض على ركان لولا ان أمسكت نيران بذراعه بقوة وهي تصرخ:
-هل جننت ؟؟
ثم التفتت لسليم الذي كان صامتاً وقالت بحدة:
-لم يكن هذا اتفاقنا سليم.
رفع سليم حاجبه وقال بهدوء:

-انه اتفاقي الأن نيران، زواجي بكِ.. زواج شاهر بأختي جُمار، حينها فقط تُعقد الشراكة التي ستُخرج عائلتكِ من المأزق الذي وضعت نفسها به.

عض شاهر نواجده بقهر والتفت يتأمل الفتاة التي من المفروض أن تكون عروسه..

جُمار.. لب النخيل الأبيض..

ابتلع ريقه وهو يتأمل الشعر الكستنائي المزموم بعقدة أنيقة عينيها الداكنتين مسحوبتين للأعلى وجنتيها العاليتين وخطوط فكها الحاد..

كانت خطة قذرة لإبعاده عن طريق السلطانة ولكنه لن يسمح لهذا الفتى بالنجاح مطلقاً.

-أنت لن تنجح.. مطلقاً.

هدر بصوت عاصف قبل أن يغادر المكان بجلبة تليق به وتبقى نيران شاحبة لاهثة وعينيها لا تفارقا سليم الذي نهض ببطء، واعاد اغلاق ازرار معطفه قبل أن يسألها ببرود:

-أتحتاجين لمن يقلك؟

ابتلعت ريقها بصعوبة ثم همست:

-لا سموك، شاهر لن يغادر بدوني.

-سأنتظر قراركما بفارغ الصبر نيران.
قالها بشبه ابتسامة لتومئ بشحوب ثم تشير للمحامي الواقف بذهول أن يتبعها ويخرجا معاً..
نهضت جُمار مباشرة وغادرت الغرفة من باب أخر وصفقته خلفها بدوي لينظر ركان لسليم ويقول بحنق:
-لم تزج بأختك في علاقة مسمومة كهذه؟
أشعل سليم سيجاراً وتقدم نحو النافذة التي تطل على ساحة الكرملين وقال ببرود:
-انه لمصلحتها؟
-لمصلحتها أن تتزوج برجل كشاهر الباشا؟؟ رجل يكرهك ويكرهني وسيفعل المستحيل لينتقم منا عبرها؟
-لو انها ذكية كما اعرفها فهي لن تسمح له.
زفر ركان وعاد لمقعده وهو يتوه في أفكاره الخاصة.. الكثير حدث منذ عرف حقيقة علاقته بعائلة الامراء العثمانيين، الكثير لا يقدر على تفسيره او فهمه، ولكنه في حالة غيبة الأن، لقد ترك المقود بيد سليم ويحاول الاستيعاب، ربما

كان أحمقاً لفعل هذا ولكها الطريقة الوحيدة ليفهم عائلته أكثر، ومن ثم يستعيد امرأته وطفله.

***

عادت أخيراً..

تأملها بصمت وهي تتسلل على أطراف أصابعها حتى غرفتهما، غصة تحكمه ولا يستطيع التخلص منها.. لقد فكر طويلاً.. فكر حتى كاد رأسه ينفجر..

تألقت عيناه بالحقد والغضب، والتهب جرح وجهه وساقيه المحطمة تقوده اليها..

فتح الباب دون صوت ووقف يتأملها تضع شيئاً بداخل خزانتها ثم تنزع عباءتها في الظلام..

اقترب وهمس اسمها بحشرجة..

"صوان؟!"

انتفضت وهي تلتفت اليه شاهقة لتتسع عيناه وهو يتأملها..

من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها..

شعرها الكستنائي الكثيف اكتسب ألوان ثلجية هادئة متفرقة.. وتطايرت خصلاته المقصوصة

حديثاً تحيط بوجهها بنعومة قبل أن تنسدل حتى كتفيها..
ثم كان وجهها.. حاجبيها منمقين بنعومة أظهرت وسع عينيها وزينة خفيفة ولكنها جميلة تظللهما، شفتيها مغلفتين بلون أحمر غني، لائق تماماً للون ثوبها الغريب والذي ترتديه لأول مرة.. ثوب حريري طويل كحلي اللون، بزهور ممرغة على حاشيته، عاري الكتفين بحمالتين رفيعتين..
-ماذا فعلتِ بنفسك؟
همس مأخوذاً.. كانت مختلفة.. حتى رائحة عطرها..
ما تضعه الأن يصرخ أنوثة..
نسي في لحظة كل احقاده وتساؤلاته.. نسي غضبه وهو يلامس بسمتها التي تألقت على شفتيها وهي تقول:
-من أجلك.
احتقن قلبه بالمشاعر، وتألقت عيناه بالحب وهو يقترب منها.. ولكن..
عاد صوت والدته الباكي يخترق مسامعه، يخترق عقله ويؤلمه..

كاذبة؟؟ تخترع كل شيء كي لا تكون معك..
تراجع بارتباك وصوت العقل يخبره أنها كاذبة ..
تكذب عليه ولا يعرف حتى السبب..
-هل تعشيتِ؟؟
هزت رأسها نافية ،غافلة عن التباعد في عينيه وعضلات جسده المشدودة، والجفاء الذي حكم صوته وهو يقول:
-والدتي أعدت طعام العشاء، تعالي.
اومأت بتردد وخفقات قلبها تتصارع تريد ان تطلب منه البقاء هنا، ليتناولا العشاء وحدهما ولكنها لم تجرؤ.. ولذا تبعته صاغرة ..
رأت نرجس وشيماء على الطاولة فعلاً، ألقت التحية ولكنها لم تجد مجيباً، فجلست الى جوار الجساس بصمت، كانت نرجس متجهمة أكثر من المعتاد والتزمت الصمت .. شيماء من الناحية الأخرى كانت تسألها بخبث:
-ما كل هذا التغيير صوان؟
احمرت وجنتي صوان ولامست خصلات شعرها وهمست:
-شكراً لكِ..

ازداد الخبث في عيني شيماء وقالت هازئة:
-ولم الشكر؟ قلت أنه تغيير ولم أقل بأنه للأفضل؟
شحب وجه صوان ونظرت لجساس الذي لم يرد على ابنة خالته بل كان عبوسه يشتد وهو يطالع الطعام الذي حضرته أمه..
-ألن تأكل جساس؟
سألته أمه باقتضاب ليهز كتفيه ويقول بجفاء:
-لا أشعر بالجوع.. أنا لا أريد.
نظرت له صوان وابتسمت وهي تتذكر هذه النظرة.. واقتربت تميل تجاهه هامسة:
-أتريدني أن أطعمك؟
عانقت نظرتها عيناه للحظة، قبل أن يشيح عنها وينظر لأمه:
-أمي ستطعمني..
تراجعت بذهول ورأت أسارير نرجس تنفرج وهي تقترب لتطعمه بيديها من ك انواع الطعام التي يحبها، بينما تنكمش صوان مكانها وهي لا تعرف أين الخطأ الذي ارتكبته..

شيماء تناظرها بخبث، جساس ينأ بنفسه عنها ونرجس تتصرف وكأنها قد ربحت اليانصيب؟؟!!
مالذي حدث؟؟ ماذا حدث في غيابها؟
حين عادت الى غرفتها بعد العشاء قررت ألا تدع ما حدث على العشاء يوقفها عما طلبته منها سارة.. هي لن تعود لتكون مديرة المدرسة..
هي ستكون امرأة.. محبة وزوجة مثيرة لزوجها..
ابتسمت لنفسها بخجل، ولكنها فعلت كل ما قالته سارة..
تحممت ، تطيبت، وارتدت ذلك الروب القصير بالقماش الحريري من اسرار فيكتوريا والذي لم تكن لتنظر له مرتين..
سرحت شعرها ووضعت عطرها الجديد ولم تضع أي زينة أخرى..
وقبعت تنتظره، وتأخر..
زفرت بضيق وارتدت مئزراً حريرياً وخرجت لتبحث عنه، كان برفقة الشيماء!!
اتسعت عيناها بذهول وهي ترى تلك العلقة تقريباً تجلس بين ذراعيه على كنبة واسعة كانت تريه

شيئاً ما بهاتفها ويضحكان عليه معاً، صحيح أن ضحكته كانت صفراء ومصطنعة وهي تعرفها جيداً ولكنه كان يضحك، تملكها الغضب واشتعلت الغيرة عمياء بداخلها..

-جساس؟!

هتفت بحدة أجفلتهما معاً قبل أن تصيح شيماء بغضب:

-ألا تطرقين؟؟ لقد كدتِ توقفين قلبي.

ضاقت عينا صوان وهي تأمن على ما قالته بينما يتساءل جساس بهدوء:

-ماذا هناك صوان؟

تململت في وقفتها لجفائه ثم همست:

-ألن تأتي؟؟

كانت ساذجة حقاً.. تنهد ونظر اليها ورآها تكاد تلتهمه بعينيها فابتسم.. رغماً عنه ابتسم، لتستجيب بابتسامة مماثلة وحمرة تخضب وجنتيها وعينيها ترحلان بعيداً عن موطنهما في عينيه. وهمس مرتعشاً:

-سآتي في الحال..

وبدأ ينهض لتوقفه شيماء بتوتر:

-ولكن جساس أنت لم تشرح لي بعد كيف اثبت البرنامج؟
-غداً شيماء.. أنا متعب وأحتاج للراحة.
تراجعت شيماء عابسة بينما يتوجه جساس لزوجته التي استقبلته بذراعين مفتوحتين غاب بينهما للحظات قبل أن يتجها الى غرفتهما..
ساعدته على تغيير ثيابه وضماد ساقه ثم جلست الى جواره وهمست مبتسمة:
-أمي تهديك سلامها..
لوى فمه ساخراً ولكنه لم يظهر لها بل سألها بخفوت:
-كيف حالها؟؟
-مشتاقة اليك.
نظر لها بحدة، ليرى تألق عينيها ويغيب في ألقمها الجديد ثم تساءل:
-من فعل كل هذا؟؟
احمرت وجنتيها اكثر:
-سارة.
-كانت تحاول منذ سنوات.
قال بمرح لتضحك وتهز رأسها:

-لم يكن لدي من أتزين واغير من نفسي له.
-والان؟
تساءل بخشونة لتنهض من جواره وتجلس راكعة امام ساقيه هامسة:
-لدي أنت..
أحاط وجنتيها بكفيه ثم رفعها اليه قبل أن يغيبها بعناق متطلب..
-تبدين جميل، كما كنتِ منذ الازل صوان، أنت في عيني أجمل الجميلات..
همس بحنان وقلبه يتحكم بذرات عقله ينتأى بالشكوك عن مخيلته ويضم حبيبته اليه وينسى بين ذراعيها كل الاكاذيب والمخططات.. ينسى حتى نفسه.
***
تصاعد الضباب مثيراً فزعاً بارداً استولى على عروقها وجعلها تنتفض، دمها يتجمد وهي تتخبط وحدها دون معين، الجو يزداد برودة، الظلام يشتد قسوة.. والضياع.. رباه من الضياع الذي تشعر به ينخر لها العظم ويتسلل الى العمق.
خائفة، خوفها يكاد يشلها ترتعش كقطة وليدة..

بحثت عن ملاذها ولم تجده!!
لم تجد أحد ..
كانت حقاً وحيدة..
"أأه.."
تأوهت والاختناق الذي يحوطها يشتد؟ وكأنها مقيدة، هي فعلاً مقيدة .. اتسعت عينيها بقوة .. انها مقيدة الى كرسي سيارتها القديمة.. وشيطان أسود هو من يقود ..
الى أين يأخذها؟؟
الى أين يقودها بتلك السرعة الجنونية؟؟ صرخت بقوة .. والسيارة تندفع الى ظلام دون ملامح دون أمل وبشاعة تلوح في الأفق، صرخت من جديد وانتفضت تهاجم الشيطان الذي التفت برأسه القبيح مكشراً عن أنيابه اللامعة وسط سواد وجهه لتصرخ مكتومة وتنتفض مستيقظة من عمق كابوس لم يهاجمها منذ وقت طويل..
لاهثة متعرقة تنتفض بخوف أجالت عينيها بما حولها، كانت في غرفة أوس في المشفى،، عادت اليها بعد أن أخبرتها الممرضة أن الطبيب اعطاه حقنة مسكنة وسينام للصباح، نامت على المقعد

وقد أقسمت ألا تنام. نظرت لدفتر مذكراتها الذي لم تنقش به منذ ايام طويلة والذي استخدمته بعد خلود أوس للنوم لتفرج عن همها بالكتابة، أعادته لحقيبتها ثم نهضت واقتربت من فراشه، كان يستكين في نومه، كانت المرة الاولى التي تهاجمها الكوابيس منذ زمن دون أن تستيقظ لتشعر بذراعيه حولها وصوته القوي والآمن يطمئنها أنها بخير وأنه الى جوارها ولن يتركها أبداً.

تأملته بألم وذكرى ما قاله الطبيب وخياراته المخيفة تهاجمها، كانت ذقنه طويلة ناعمة، تعطيه مظهراً مشعثاً غاية في الجاذبية.. عيناه الواسعتين مسبلتين بإرهاق، وبشرته السمراء شاحبة على غير العادة.

لامست وجنته بخفة وتردد ليفتح عينيه ببطء..

-اسفة..

همست بتوتر ولكنه كان كالمغيب، وكأنما لا يرها فعلاً..

"ترنيم؟!"

همس بثقل.. وقبل أن ترد كان يجذبها من ذراعها ويحشرها الى جواره في السرير الضيق ويضع رأسه على صدرها يهذي بغياب:
-لا تتركيني.. لا تتخلي عني..
ضمته بقوة، دموعها تحرقها وتسيل لا تعرف باكية من؟
تبكيه وما يعانيه أم تبكي نفسها والمصائب التي تحيط بها..
وكأنما هي وهو وجهان لعملة واحدة، مُرغت بالعذاب وصُهرت بالألم..
عانقته وهمست لأذنه بآيات قرآنية خفيضة تعوذها وإياه من شر الشياطين، وعذاب الدنيا والأخرة بصوت ناعم رقيق، أرسل استرخاء عارم لجسده شعرته في التنهيدة التي خرجت من بين شفتيه حارة مست شغاف قلبها، ودعكته حباً وشغفاً.
-أحبك.
همست وهي تقبل جبينه ليبتسم ويرد بثقل:
-ليس الأن ترنيمة، أنا لا أشعر بجسدي حتى.

ابتسمت رغم الدموع التي انسابت على وجنتيها وهمست تؤنبه:
-نم أوس، أنت متعب وتحتاج الى الراحة حبيبي.
-راحتي أنتِ..
همهم لتبتسم .. وتغلق عينيها وتستجيب لأنفاسه التي عملت كتهويدة غابت معها الى اعماق النوم..
في الصباح، استيقظت قبله..
كانت مستلقية على الفراش بينما أوس خلفها يحوطها بذراعه بقوة مقرباً اياها من جسده ويمرغ وجهه في خصلات شعرها المحلولة، ساقيها تتشابك مع ساقيه وكأنها تبحث عن ملاذها في دفئه وبين أحضانه.
تسلل ضوء الشمس ليداعب جفنيها المطبقين فتفتحهما ببطء، لترى تراقص الضوء..
تخيلت أنها لا تزال على الطائرة، تقف أمام الحاجز الزجاجي وتتراقص تدعوه ليأتيها ويحملها على جناح غيمة..
ثم سمعت الحركة الخفيفة خارج الباب..
وهاجمتها الرائحة القوية..

كانت في المستشفى..
جف ريقها وانتفضت تستدير لتتنهد براحة وهي ترى وجهه في ضوء الشمس وقد استعاد بعض اللون وظهر الارتياح، جلياً على ملامحه.
ابتسمت واقتربت تقبله بوله.. كل جزء من وجهه الحبيب، ونالت عينيه الجزء الأكبر من قبلاتها، تستودع الله أن يحفظ نورهما الى الأبد، يحفظ حبيبها، يحفظ سعادتها وأمنها.
-مممممم سأعتاد على هذا كل صباح..
همهم بخفوت لتبتسم وتضمه اليها بقوة مقبلة شفتيه بشغف، تركها تفعل للحظات قبل أن يستلم المبادرة ويشدد من قبضته حولها وقبلتها الناعمة تتحول لانقضاضة شرسة وهو يكاد يلتهمها بجوع..
-أوس نحن في مشفى توقف.
ابتسم بين قبلاته:
-أنت ابتدأتِ فتحملي يا جميلتي.
شهقت حين سمعا طرقاً خفيفاً على الباب، واضطر أوس لتركها، متذمراً بينما تنهض

لتتوارى في الحمام المرفق وأوس يدعوا أياً من كان للدخول.
وقفت أمام المرآة في الحمام الصغير واتسعت عينيها لوجهها المحتقن وعينيها اللامعتين، ووجدت نفسها تضحك لجنونه، ضحكة تخنقها عبرة قاسية صرفتها بقوة وهي تمارس طقوس الصباح..
حين خرجت اليه وجدت الممرضة، كانت تضع له محلولاً ما وتقول بنعومة:
-سنحضر لك فطورك في الحال.
عقد حاجبيه وتذمر كالأطفال.. فضحكت ترنيم وقالت:
-لا تزعجي نفسك سأحضر له فطوراً منزلياً، أعتقد بأنه يكره طعام المستشفيات.
-هذا صحيح.
علق أوس بحدة لتضحك الممرضة وتكمل عملها ثم تغادر فتقترب منه ترنيم وتسأله بابتسامة واسعة:
-ماذا تريد للإفطار؟
-أي شيء ستأكلينه معي.

رد بهدوء لتبتسم له من جديد وتهمس:
-لن اتأخر حسناً.
-لا تذهبي وحدكِ.. انتظري فصوان وجساس قادمان، لقد اتصلت بي توها لا بد أن عمي حسن قد أبلغهم جميعاً الأن.
-حاضر.
وافقت دون اعتراض وجلست الى جواره تمسك بيده فقط بينما يغلق عينيه هامساً:
-سنتفق منذ الأن ترنيم، المشكلة كلها تتعلق باختلال في الاذن الوسطى، وبسبب ارتفاع الطائرة تسببت بهبوط الضغط وفقداني الوعي.
شحب وجهها وهي تعترض:
-ولكن؟!!
-لا يوجد لكن.. انه أمر يخصني أنا ولا أريد لأحد أن يعرف به.
-يخصنا معاً أوس.
هتفت بحنق ليتنهد ويرفع كفها الى شفتيه، قبله بنعومة ووضعه على صدره هامساً:
-يخصنا.. فقط .
تنهد صاغرة،

مضت بضع لحظات حتى سمعت الباب يطرق من جديد وهذه المرة كانت سارة برفقة العم حسن والعمة فاطمة التي لم تأتي فارغة اليدين لحسن الحظ بل محملة بكل ما لذ وطاب..

كان خوفهم عليه جلياً، ولكن التبرير الذي اعطاه ومنظره الضاحك وشهيته المفتوحة ترك الجميع براحة وهم يستقبلون منه التفسير السخيف ويتقبلونه دون شك.

شاركته ترنيم الطعام تحت الحاح حنون من العمة فاطمة والتي لم ينهها المرض من البقاء بقرب ابنها بالرضاع، وكانت تراقبه في كل حين وتمسد رأسه بحنان ثم تقبل جبينه ليقول عمه حسن بحنق:

-كفى فاطمة .. انا أشعر بالغيرة كما تعرفين.

ابتسمت بحنان أشد وعانقت أوس بحب هامسة:

-أوس هو ابني البكر، كيف لا أدللـــه وأخشى عليه.

ضحك أوس بمرح وأشار لترنيم التي كانت تنظر لهما بتوتر:

-انظري لترنيم أمي، ليس عمي حسن هو الوحيد الذي يغار كما يبدو.
ضحكت سارة للنظرة الحانقة التي رشقته بها ترنيم وأسرعت لترتمي عليه من الجهة الأخرى وقالت:
-وأنا أيضاً بحاجة للحنان كما ترى.. هيا أوس دللني بالله، عليك.
-أنت كبيرة بما يكفي لتدللين أنا.
زمجر أخاها بخشونة لتضحك وتقبل وجنته بصخب ثم مست بطنها بأطراف أصابعها وقالت تصطنع الجدية:
-لا تغضبني والا سلطت صغيري عليك.
ابتسم أوس بسعادة واقترب يقبل جبينها هامساً:
-لم تسنح لي الفرصة قط لأن اهنئك عزيزتي، مبارك، يتربى في عز جده وابيه وحنان أمه وجنون خاله العتيد..
ضحكت سارة وعينيها تلمع بالدموع، في حين يسأل أوس بفضول:
-وبذكر الوالد.. أين هو زوجك المحترم؟؟ لماذا لا اراك إلا وحدك سارة ؟؟

تجهم وجه سارة واحتقن وهي تنهض هاربة من اجابة سؤال أخيها الذي واجه هربها بغضب كاد ينساق اليه لولا اقتراب ترنيم منه وهي تهمس بحنان:

-أرجوك لا تصرخ ولا تغضب أنسيت أوامر الطبيب؟

تنهد أوس بحنق ثم نظر لسارة وقال بجدية:

-هذه المرة سنتكلم مطولاً.

هربت بعينيها ولكنها أقرت بالموافقة بهزة من رأسها قبل أن تبتعد لتقف في الزاوية وتراب اهتمام عمتها المفرط بأوس، ثم جاءت صوان والجساس، وقبعت صوان الشاحبة الى جوار اوس وهي تسأله بقلق عن سبب مكوثه في المشفى ولم لا يغاد دام الأطباء يقولون ألا خطر في حالته. وهنا تدخلت ترنيم بذكاء وقالت بصوت جاهدت لتحافظ عليه بعيداً عن التوتر الذي كان يملؤها:

-انهم يريدون الاطمئنان فقط صوان، ربما ينومونه للغد فقط.

-من الأفضل بقاءه حتى يطمئنوا عليه بشكل كامل.

تنهدت صوان ثم قفزت عينيها نحو جساس الذي ابتعد ولم يقترب حتى للسلام على فاطمة.. بل وقف بعيداً وعيناه سارحتان في الخارج..

-أنا سأذهب لرؤية طبيبي..

نهضت فاطمة وقفزت صوان خلفها:

-سآتي معكِ أمي، أريد أن أقابله أنا أيضاً..

-صوان؟

هتف جساس معترضاً فردت بلهفة:

-لن اتأخر جساس، انتظرني هنا.

اشتعل الغضب في عينيه وهو يراها تخرج بسرعة مع فاطمة، وهرب بعينيه عن عمه الذي لحقهما بعد تحية للجميع ونظرة عتب له..

-حمدا لله على سلامتك يا ابن عمي.

قالها أوس ليجذب أفكاره اليه فتوكأ جساس على عكازه واقترب من سريره:

-كانت قريبة للغاية ولكن، الحمدلله، لم يحن موعدي بعد.

-عليك أن تحذر، أنت رجل متزوج الأن.

حذره أوس بمرح ليسخر جساس:
-انظروا من يتحدث، ان استمررت على هذا المنوال فسوف تتغلب على رقمي القياسي في الدخول للمستشفيات، احذر.
ضحك أوس بخفة ثم أمسك رأسه بألم لتهب اليه ترنيم وهي تتساءل:
-أأنت بخير؟
همس لها بشحوب:
-كوب من الماء فقط..
أحضرته له بسرعة فقال جساس:
-سأتركك الأن يا كابتن، من الواضح أنك بحاجة للراحة، سأمر لأخذ صوان وأغادر..
اومأ أوس فالتفت جساس لسارة:
-هل ستأتين معي؟
-نعم هيا بنا..
التقطت شالها وحقيبتها وقبلت أخيها وزوجته ثم غادرت ترافقهما ترنيم حتى الباب، ودعتها سارة مجدداً وهي توصيها على أوس ثم مضت مع جساس الذي وقف حائراً:
-أين ذهبت صوان؟؟

-ربما الى قسم العلاج الكيميائي.. سأصعد لرؤيتها.. لم لا تنتظر هنا جساس.
اومأ بتوتر لعجزه عن التحرك بحرية وراقب سارة تغيب خلف باب المصعد.. تحرك من مكانه واستند على جدار مجاور وتنهد ..ثم سمعها..
كان صوتها خافتاً للغاية ..
التفت وبحث عنها بعينيه .. ووجدها..
اتسعت عيناه وهو يراها ترافق أحدهم.. كان رجلاً طويلاً يرتدي القميص الوطني الابيض وغترة على رأسه..
تسارعت انفاسه وعيناه معلقتان بملامحها المضطربة، ثم اشتعلت بالغضب وهو يرى الرجل يقودها لأحدى الغرف وهي وبكل سهولة..
تدخل قبله..!!
لم يكن اعمى ..
ذلك الرجل لم يكن سوى صلاح الزجال..
الرجل الذي كان سيأخذها منه.. الرجل الذي فضلته وفضله كل فرد من أفراد عائلتها عليه هو!!

مالذي تفعله صوان معه هنا؟؟ هل تواعدا على اللقاء؟؟

فكر بجنون.. يريد ان يمتلك قوة شيطان فيطير اليهما وينتزع حلق ذلك الرجل كما تمنى منذ راه للمرة الاولى،، ويتمرغ في دمه بكل تسلط.

***

عادت ترنيم الى داخل الغرفة ورأته وقد أسبل عينيه ..

لا بد انه نام، هو لم يرتح منذ أن أخذ حبته المسكنة في الصباح، ولكنها يجب أن توقظه.. ما لديها مهم للغاية وقد فكرت فيه مطولاً.. وقررت أخيراً..

يجب أن تصارحه بكل شيء.. بعد ما عرفته من اصابته، هي تخشى أن يحدث له شيئاً ولا تعرف.. وتخشى أكثر أن يبقى شيء ما من الماضي بينهما.. لن تسمح لأحد أن يفكر بها بطريقة والدها مرة اخرى بالذات أوس، عليه أن يعرف كل شيء..

ولذا جلست قربه ومالت تلامس ذقنه النامية بأنفها بخفة، رائحته المميزة، غسول الجسم

ورائحة الرجل نفسه.. تعشق رائحته، فقط هي تجعل كل عصب في جسدها حي وينتفض بالحيوية..

"أوس"

همست.. قريبة من شفتيه.. ليفتح عينيه ببطء استجابة لصوتها، ابتسم بحذر.. حتى الابتسام يفجر الصداع في رأسه وكأنها تشعر بمعاناته كانت أصابعها تلامس جانب وجهه وعضلاته المتشنجة ليسترخي دفعة واحدة وكأنما يذوب تحت لمستها الناعمة، سمعت أنينه الخافت لتسأله بحذر:

-هل تتألم أوسي؟

-لاااا.. انها أنت فقط..

همس بنعومة وهو يدير وجهه لتقع شفتاه على باطن كفها ويقبلها بحنان:

-أنت تجعلينني أشعر من جديد.

شعرت بقلبها يتضخم بحب هذا الرجل، يتضخم حتى يكاد ينفجر، تنهدت وقدمت اليه شفتيها لامسهما بأصبعه أولاً.. جافة ممتلئة ومليئة بالشوق، بللت جفافهما بطرف لسانها بتوق قبل

ان يحيط ذقنها بأصابعه ويجذبها لشفتيه بإحكام، شهقت وهي تغيب في قبلته الدافئة، أحاطت وجهه بكفيها، وعمقت قبلتها بجرأة جعلته يطبق على كفيها بيديه ويشد عليهما بقوة قبل ان يجذبها كلياً لتقع على صدره ومنها كان يلويها تحته بخفة ليثبتها بجسده مطلقاً صيحة خافتة معذبة تقابل تأوهها الناعم وهو يعاود اطباقه على فمها بقوة تقارب القسوة، ذراعه تحت رأسها والأخرى تحيط بعنقها تثبتها مكانها، قبلته الناعمة الدافئة تحولت لشيء اخر.. غامض ومظلم، بدائي ونابع من اعماقه الثائرة.. استسلمت كلياً لا تقدر على مقاومته ولا تقدر حتى على الاستجابة..

يسيطر على كل جزء فيها ويمنعها حتى من التنفس.

-أووووس.

تأوهت حين نزل بفمه الى ذقنها ويده تحاول ان تنزع حجابها بحركات خرقاء..

-أووووسي.. توقف.

لهثت وهي تحاول التملص.. رباااه هما في مستشفى! كيف له أن يتصرف بهذه الوقاحة؟!

-اشتقت اليكِ ترنيمتي..
همس بجنون بينما يعاود تقبيلها لتتلوى محررة ذراعيها تريد النفاذ من بين ذراعيه ليهتف لها بأنين:
-لا تتركيني..
-يالهي..
شهقت ثم احاطت به بين ذراعيها وضمته اليها بقوة تبادله القبلة بأقوى منها بكل عاطفة.. كل حب تحمله في اعماقها له، حبيبها الوحيد رفيق عمرها ونصفها الثاني..
-أوسي"
همست بهيام متملك وهي تحيطه بذراعيها بقوة تعانقه وتضمه قريباً جداً من دقات قلبها بينما تدفن رأسها في جانب عنقه تتنشق عبق رائحته.
-لي أنا وحدي.
أنّ بخفوت وهي تميل لتمرر شفتيها على جانب عنقه:
-ملكي أنا وحدي
همست وشفتيها تداعبان حلمة أذنه بحميمية جعلته يبتسم ابتسامة عريضة شقت وجهه وهو

يدفنها بين ذراعيها ويمرغها على صدرها هاتفاً بتنهيدة:

-ملكك والى الابد حبيبتي. .ترنيمتي وعذابي.

-مممممم"

همهمت برضا وهي تتحرك بنفاذ صبر تحت ضغط ذراعيه ولمساته الجريئة:

-أوس توقف أرجوك، قد يأتي أحد ويرانا"

-ليس لدي سواك. .لن يأتي ترنيمتي"

تمزق قلبها بلحظة ويديها تلامسان كتفيه بحب، ذئبها الوحيد، رجلها المتفرد، حقها.. اصابعها تلامسان عضلات ظهره القوية ليتقوس تحت لمستها باستجابة وهو يهمهم جوار عنقها، لتبتسم لإدراكها تأثيرها القوي عليه.

-أحبـــك"

همست شاهقة.. ليتأوه:

-أعشقك ترنيمتي.. احتاجك بداخلي.. لا تتركيني ابداً، سأموت بدونك سأموت"

رفرفت جفنيها دون أن تسيطر عليها لتشعر بتلك القبضة حول قلبها تتحول الى دموع تساقطت على وجنتيها، وهس تضمه أكثر هامسة:

-لن أتركك ابداً أوس.. ابداً"
-حبيبتي"
همهم أمام شفتيها وهو يعاود تقبيلها بحرارة جرفتهما بعيداً، كفيه تحيطان بوجهها أصابعه تنتشر حول رأسها تندفن بين خصلات شعرها التي انفلتت من عقالها، ابهاميه تمسحان دموعها قبل ان يتحرك فمه بنعومة ليقبل عينيها ووجنتيها لتئن برضا هامسة:
- أنت تشتت تفكيري"
-أنتِ تشتتين تفكيري.. تطيرين بعقلي وصوابي"
رد بخشونة واصابعه تشتد حول خصلت شعرها الطويلة لتتأوه باعتراض:
-لاااا.. هناك ما يجب أن اعطيه لك"
كشر مبتسماً:
-اعطني ترنيمتي فقط"
-أوسي.. تعقل نحن في مشفى؟.. أنت مريض"
-أنت دوائي"
رد لاهثاً وعينيه الرماديتين تطالبانها بكل شيء.. كل ما لديها لتعطيه. ابتسمت له بحنان.. طفلي المشاغب.. فكرت بجنون.. واقتنصت نظرة

للباب قبل أن تعطيه قبلة قصيرة على وجنته وتهمس بحزم:
- لا.. ليس هنا، أيرضيك أن يدخل أحد ما ويراني بهذا الشكل؟"
ورفعت حاجبها تنظر له بارتياب ليتراجع ناظراً لها بعينين حادتين.. حجابها متكوم تحتها شعرها متناثر حولها، بينما كانت شبه مستلقية على مرفقيها، وقد ارتمى معطفها في مكان وقميصها بالكاد ستر شيء من صدرها وبطنها، ليبتلع ريقه ويشدها اليه بعنف جعلها تشهق للمفاجأة قبل أن يحاصرها بين ذراعيه أصابعه تعيد ترتيب قميصها.. يعيد تزريره بغضب من نفسه قبل أي شخص أخر.. كيف يفعل بها هذا في مثل هذا المكان، رباااه!!
كانت تحاول السيطرة على ابتسامتها وهو يشد القميص اقوى بقليل مما يستحق، رأت نظرته العاصفة امتزجت بالرغبة والغضب لتسيطر على ضحكتها التي بالكاد فلتت منها، رأته يميل برأسه لجهة وحاجبه يرتفع بحنق لتغطي فمها

بكفها بخفة ولكنها لم تقدر، لقد كانت تعشق أوس الغاضب.. تعشقه بقدر أوس المتلاعب.. رباااه.
اندفعت تدفن رأسها في كتفه، وللحظة كان متصلبا وهي تحيطه بذراعيها وقهقهتها تهز جسدها كله، وللحظة فقط دام غضبه وحنقه منها.. ليتسلل منها مزاجها المرح اليه وتنتقل ضحكتها الصافية كالعدوى وتصيبه، شعرت بفمه على قمة رأسها وشعرت بجسده يهتز وهو يهمس:
-أنا مجنون بكِ"
رفعت له عينيها الضاحكتين لتواجه عينيه وقلبها يغور في اعماقها وهي ترى نظرته الدافئة قبل ان يهمس:
-استديري"
دمدمت كهرة مطيعة واستدارت بين يديه ليسارع بلملمه خصلات شعرها الطويل جداً، أصابعه تغوص بين الخصلات الطويلة الناعمة قبل أن يلمها كلها في قبضته ويشدها اليه بالكاد يؤلمها يقربه من أنفه متنشقاً عبق عطرها الخاص، مهمهاً استحسانه في اذنها.. مرسلاً قشعريرة

امتدت على طول عمودها الفقري قبل أن يرتبه كما اعتادت ان تفعل خلف عنقها ووضع مشابكها التي تناثرت بكل مكان وهمس في اذنها:

- ضعي حجابك.. وبعدها تخبريني بالضبط ما تريدين"

نظرت له من فوق كتفها وابتسمت له بسخاء قبل أن تنزل عن الفراش وتتوجه الى حقيبتها الرثة الملقاة على الكرسي امامه وهي ترتب حجابها على رأسها كيفما اتفق.

راقبها بعينين ضيقتين وهي تخرج دفتر مذكراتها العتيق وتضمه اليها للحظة ثم تأخذ نفساً عميقاً وتقترب منه مبتسمة بخجل.. راقبها بصمت وهي تجلس على الفراش الى جواره وتمد يدها لتدفع بخصلات شعره للوراء وباليد الاخرى تدفه بالدفتر اليه، لم تفارق عينيه عينيها وهو يسألها:

- لماذا؟"

-أريدك أن تعرف"

همست صوتها خفيض.. مهتز.. قلق وغير واثق..

-أنا أثق بك.. لا يهمني ما هو مكتوب هنا ترنيمتي"
-الامر.. الأمر ليس كما تظنونه أنت وأبي"
همست بصوت يماثل صوت طفلة ليعتدل في مكانه وعينيه تظهر اهتمامه وقلقه لتعاود بصوت مهزوز:
-أنا.. أنا احتاج ان.. أن أخبرك.. ولكن.
-ولكن ماذا؟"
-لا.. لا استطيع"
عينيها كانت تدمعان شعر بغصة تحكم حلقه وهو يأمرها:
-لا تبكي"
-أريدك أن تقرأه أوسي.
همست بصوت مخنوق.. ليرتفع حاجبيه بتأثر وهي تواصل:
-اريدك ان تقرأ أحلامي "
أحلامها؟؟ فكرت بارتباك لتنهض بسرعة وتتراجع الى حقيبتها هامسة:
-سآتي اليك بعد الظهر.

أراد أن يطلب منها البقاء.. ولكنه لم يتحرك ولم يفتح فمه، يدرك انها بذلت مجهوداً كبيراً فقط لتأتي وتعطيه مستودع اسرارها، ولكن.. ماذا عنت بأحلامها؟ هل تعني انها تكتب ما تحلم بتحقيقه؟!!ولماذا الأن؟؟!!

-هل اثرت بك أخبار موتي الوشيك؟"

تساءل قفز من فمه دون أن يقدر على لجمه، لتتوقف وتناظره بحده:

-بعيد الشر"

ابتسم لاوياً فمه لترسل له قبلة في الهواء، قبل ان تغادر مغلقة الباب خلفها بكل هدوء.

حينها فقط اعاد عينيه الى الدفتر ذو الغلاف الجلدي العتيق وتتبعت سبابته حروف اسمها، المنقوش بأيد طفلة مشاغبة وابتسم.. قبل أن يأخذ نفساً عميقاً ويفتح اولى صفحاته..

وبعينين متسعتين وقلب خافق بجنون كان يقلب الصفحات السوداء والتي امتلأت بكلمات غاضبة.. حزينة ومؤلمة كان يقرأ ما تخطه بأصابع مرتجفة، وعزيمة غائبة، ومرارة لا تصدق انها لم تكن تكتب مذكراتها..

لم تكن تحمل الذكريات عن علاقات قديمة ولم تكن تخط مشاعرها نحو ابيها وعائلتها.
كانت تكتب أحلامها فقط..!!
كوابيســها الخاصة التي ابقتها مستيقظة لليالٍ لا تحصى، مشاعرها التي كانت تعذبها ليل نهار..
كان يقرأ تاريخ اليوم والساعة .. تقريباً في كل يوم.. في كل يوم كانت ترى نفس الكابوس..
الليل المظلم، الوحشية والسكون.. الطريق الطويل..
لاتزال غاضبة.. تشعر بأنها مخذولة من الجميع.. علي نبذها.. نفاها من حياته لم يأبه لها ولم يتقبل كونها أصبحت جزءاً منه، ولذا فقط ذهبت لأبيها تبكي بعنف وتشتكي.. لم يكتفي الدها بالسخرية منها. من ضعفها ومن قلة عقلها هو أيضاً نهرها بقسوة وأمرها أن تكف عن التصرف كالأطفال، أمرها ان تكبر وتصبح امرأة مسؤولة مناسبة للرجل الذي وافق على زواجها منه..
كانت مقهورة.. تقود بلا عينين.. وقد انهمرت دموعها وانتابتها الغصة، لا شيء تشعر بأنها لا شيء..

سواد غطى كل شيء.. سواد تفجر من اعماقها وغشى بصرها.. لم تأبه للسرعة العالية التي كانت تقود بها لم تكن تعي انها تدخل في شارع يعج بالمارة، لم تكن تستطيع رؤية احد سوى الظلام بداخلها..

صرخت مرة.. تعالى صوت صريخها حولها، ولم تسمع الصرخات الأخرى..

شعرت بالسيارة تصطدم بجسد ما..

فتحت عينيها تريد التخلص من دموعها.. وعادت تشعر بالجسد يعود للارتطام بالسيارة بقوة..

صرخت من جديد وهي تدير مقود السيارة بحدة.. قفزت السيارة عدة أمتار للأمام، الظلام ينتشر من جديد وتتعالى الاصوات حولها بكل قوة.. اوقفت السيارة بأعجوبة.. وبقيت مكانها تنتفض بعينين متسعتين كلها يرتجف ودموعها لا تتوقف عن الانهمار، كانت ضائعة، ترتجف دون أمل.

رفرف أوس بعينيه وهو يقلب الصفحة الغارقة بمشاعر الالم.. التي بعدها كانت مجرد صفحة سوداء.. فع حاجبيه وهو يراقب السواد الغامض والذي أخفى الكثير من المشاعر السلبية، نظر

للجهة الأخرى حيث عادت مشاعر الألم تتوهج بشكل عينين متسعتين صارختين تنهمر منهما دموع حمراء..

"لقد قتلته"

"لقد قتلته"

"لقد قتلته"

جملة تكررت بلا توقف حول العينين.. تكاد تحفر الورقة من فرط حدتها، رباااااااااااه ..

هتف بذعر وهو يقلب الورقة ليجد الدموع لاتزال تنهمر شاكية الألم والوجع..

"كنتُ مذنبة.. لقد اخرجوني من السيارة.. كانت امرأة، لم أشعر يوماً بخوف هزني من الاعماق كالذي انتابني يوم نظرتُ للمرأة النحيلة والتي كانت تصرخ بلا توقف .."

"كانت مجرد أمٍ مكلومة..

انتزعتني بقسوة.. شعرت بأن ذراعي تكاد تنفصل عن جسدي، لم يكن الألم عادياً، كان وكأنها تنتزع روحي من جسدي..

كما انتزعت أنا روحها.. "

"شعرت بجسدي كله يتألم.. لم أعي أنني على الرصيف حتى شعرت بقدمها تندفع بقسوة لتضربني في كل مكان، كنت اتوسد الارض بالكاد استطعت تغطية رأسي بذراعيّ وكتمت صرخاتي قبل أن تجحظ عيني.. لوهلة فقط وانا أنظر في عينيه.."

.....

عيني ضحيتي..

"طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره.. لم اعد أشعر بالألم، لم اعد اشعر بالخوف، كل ماكنت اشعر به هو عينيه الجاحظتين، الخاليتين من الحياة، تنظران لي دون ان تطرف، انا أخذتها تلك الحياة.. أنا اختطفتها.."

"دون حق وبكل قسوة. "

"لم اعد أشعر بألم جسدي.. "

"كانت روحي تتمزق.. روحي تتعذب ولم تتعافى قط.. "

كنت انا القاتلة التي تركها تفرح بحياتها..

انا قتلته وخرجت من السجن أرقص على دماءه، والتهمة .. أنني بريئــة؟!!

أنا قاتلة..
قاتلة ..
العذاب يقتلني.. الكوابيس تمزقني.. أريد الموت
..
....
اتسعت عينا أوس بذهول..
رفع عينيه لا يقوى على مواصلة القراءة..
يتخيل المها وقهرها.. مهما كان ما قاله له علي، مهما كان ما سمعه ..
لا شيء يشابه الكلمات التي خطتها على مذكراتها.. ورمتها على حجره..
وقائع كثيرة كريهة وممزقة..
وترنيم وحدها تقف مواجهة الجميع.. مواجهة الذكريات السيئة .. مواجهة الألم والعذاب..
ولكنه لن يسمح لها ..
لن يسمح لها أن تكون وحيدة ..وتواجه كل هذه الاشباح دونه..
أبداً لن يسمح..
***
نهاية الفصل

ترنيـمة عـذاب
الفصل الرابع والعشرون
***

عاشق انا حد الجنون
وغيور أنا حد الاحتراق
متملك أنا حد الاختناق
مجروح انا حد النزع والاحتضار
في عقلي تتقاذفني الافكار والوساوس
ممزق انا بين من الجنة تحت اقدامها تتهاوى
وبين روحي التي بين جنبات روحي
يا ليت عيني لم تبصرها تتهادى في خفوت معه
هو من كان سينتزعها من بين اضلعي
ويهاجر بها بعيدا
عن شواطئ عشقي
احترق معبد حبك يا صوانتي
واشتعلت زهرات غرامك في روحي
فأضحت ارضا تملئها الرماد
الان قد أعلنت القرار

واصدرت الحكم بعد سماع ورؤية الافعال
انت مذنبة
مذنبة
وقد حان وقت العقاب
نداء الحــق..

***

توسعت دائرة الشك.. وبات القلب مثقل بالوجع..
راها فتراجع يحمل قلبه العاشق مقتولاً غارقاً بالدماء..
ساقه السليمة لم تحمل ثقل الجسد الذي فارقته الروح ..
فهددت بالانحناء لولا بقايا من عزيمة وكبرياء، ساقته ليجلس على الأرض الرخامية وعيناه شاخصتان للأمام، غائمة بالخيانة.. موصومة بالعار..
صوان..
عشقه.. روحه التي تعيش وترفل في جسد يملكه منذ الأبد؟
أي جنون يحيط به.. صوانته المشتعلة له منذ الأزل..

مالذي يحدث ؟؟
أنفاسه المتسارعة تهدد بإصابته بنوبة قلبية، والوجع في يسار صدره يكاد يحقق تلك الفاجعة..
صوانته.. مع سواه؟؟!
أغمض عينيه بقوة.. وصوت أمه يتردد في عقله، كل اتهاماتها .. كل حقدها..
" انها تحاول ان تفرق بيني وبينك.. هي تحاول تلفيق الاكاذيب.."
" تصدق تلك الفتاة التي رمتك بعيداً عنها وأرادت الزواج بسواك وتتهم أمك؟؟!!"
" وأرادت الزواج بسواك"
" وأرادت الزواج بسواك"
" وأرادت الزواج بسواك"
فتح عينيه.. الجدار الأبيض أمامه يحكي حكاية عشق عمرها من عمره..
صوان..
الجمرة المشتعلة التي تربى معها، كبُـر .. حـلُمَ وعاش على أمل أن تكون من نصيبه..
وهي..

هي كذلك.. كبُرت معه على نفس الحلم، عاشا معاً ينسجا حياةً طويلة عمرها سنوات..
فمالذي تغير؟!
أسند رأسه وغامت عيناه لذكرى بعيدة..
وهو لتوه قد عاد من مخيم لكرة القدم قضى فيه ما يقارب الأسبوعين..
عاد وشوق طفل يطغى على قلبه.. وكبرياء رجولة تلجمه وتسيطر على أفعاله..
عاد يسترق النظرات بحثاً عنها ..
لهفة تسابق حروفه وهو يقص على عمته كيف كان المخيم وكيف سدد لوحده في المباراة النهائية ثلاثة أهداف ليعود مكللاً بالنصر.. والكأس، لأجلها..
تركها على وعد إتمام ارتباطهما رسمياً حال عودته، وحين عاد..!!
"أين صوان؟"
هتف بلهفة العاشق .. يرى مظاهر الاحتفال التي تنتظره، لم تقدر على الصبر..
جهزت كل شيء قبل مجيئه..

ولكن.. كانت صدمته هو أكبر، صدمته قذفت به الى عالم الجنون حين رآها تتوسط عائلتها برفقة سواه؟

وقف ذاهلاً يراقب كيف ارتسمت السعادة على وجه الرجل، وكيف خفضت رأسها هي، خجلاً؟!!

لا يم يكن الخجل من سمات الصوان.. كانت قوية لترفع رأسها في وجه الجميع..

لم يعرف مالذي حدث له وقتها؟؟

"مالذي يحدث هنا؟"

وقف أمام الجميع وصرخ بصوت مبحوح لتناله سهام من كل الأعين..

أوس وسيف كالعادة ..

وقفا في وجهه بينما ينظر هو باتجاه الصوان التي رفعت رأسها ذاهلة تنظر اليه مواجهة تساؤلات عريسها عمن يكون هذا الرجل الذي يظهر كسر الدنيا في عينيه..!!

"انها خطبة الصوان جساس، ارحل من هنا"

قالها أوس بحذر لينظر له جساس كمن ينظر الى رجل فقد عقله..

"صوان؟؟ صوان خطيبتي.."
همس بانكسار.. ورفع يده اليمنى ليريه الدليل، الخاتم الفضي الذي لم ينتزعه من اصبعه رغم السنوات..
ونظر لأخيه بذهول مشيراً اليها:
-هي ترتدي خاتمي سيف، صوان هي حبيبتي.. خطيبتي.. مُلكـــي.
احتد صوته وتحشرجت نبرته وهو ينظر اليها..
رأى كيف امتدت يدها لتقبض على جيدها حيث اختفى السلسال الذي يحمل خاتمه، واحتقنت عيناه رغماً عنه وهو يعود لأخويه متسائلاً:
-مالذي حدث؟
كان مخنوقاً ورأى نظرة سيف المتأثرة بينما هتف أوس بحدة:
-انه قرارها.
اتسعت عيناه بصدمة .. وعادت لتستقر في عيني صوانته التي اشتعلت باستجابة فطرية جعلته يحرك رأسه برفض وهو يدمدم:
-مستحيل.. مستحيل..

وقبل أن يستطيعا إيقافه كان يبعدهما بقوة عن طريقه ويقتحم الديوانية حيث جلست الصوان محاطة بأفراد عائلتها وعائلة خطيبها المزعوم.
لم ينصت أو يلقي بالاً لصوت احد يناديه.. كل ما استجاب له هو نظرة الصوان التي تعلقت به..
تناجيه تناديه ..
"تعالي معــي"
هتف وكأنه ينادي روحه..
صوته غارق بالمشاعر .. قبضته تحيط معصمها النحيل وتشدها إليه بتملك..
حقــه.. امرأته .. عروسه ..
تلك كانت عروسه..
"مالذي تفعليــنه مع هذا؟"
صرخ مستنكراً لعينيها حال رفعها اليه..
ثم رأى الدموع..
سيل جارف مزق قلبه وجعله يناديها بشغف حنون..
-اترك يد خطيبتي..
صراخ ارتفع من جنبه.. جعله ينظر للرجل شذرا..

-من تكون أنت؟
صرخ به الرجل ليزمجر جساس.. كأسد يدافع عن ممتلكاته، عن لبوته، عن حب حياته وصاح به بعنفوان:
-أنا جســاس الشيب، ابن عمها، خطيبها..
اتسعت عينا الرجل وشهقت الصوان بينما تتدخل أمها بانهيار:
-توقف جساس هل جننت؟
-أنتم تصيبونني بالجنون.
هتف بعنف ليجيبه الرجل بعصبية:
-صوان هي خطيبتي أنا، اترك يدها و واجهني كرجل.
لم يفلت يدها.. أبداً لم يفعل.. كل ما فعله هو أنه التفت للرجل بجسده كله وقبل أن يواصل تهديداته كانت قبضة الجساس العنيفة تطير به مترين للخلف ليقع وسط تجمهر من أهله وأقاربه..
-هل تكفيك هذه؟؟
صرخ به بجنون ثم شعر بانقضاض أوس وسيف، يكبلانه ويفلتانه من قبضة الصوان التي

تراجعت بين ذراعي والدتها تبكي بانهيار وتصرخ به أن يرحل..
كان يركل ساقيه وذراعيه بالهواء يريد الوصول للرجل الذي تجرأ ودعا امرأته بأنها له؟!!
"اتركوني علييييه"
صرخ لأخويه ليتشبث به سيف بقوة ويواجه أوس بعنف صارخاً:
-توقف عن الجنون أيها الأحمق ستفضحنا..
حينها وقف الرجل الأخر وأزاح أوس واستغل تكبيل سيف لجساس، ليكيل له لكمة أصابت عينه، صرخت صوان.. سمعها تنادي باسمه، فصرخ بالمقابل وتخلص من أخيه وهجم على الرجل ليتمرغا معاً أرضاً.. غضب العاشق!!
ويالهول الغضب حين يعصف بك ويكاد يدمرك فتدمر كل من حولك..
لم يعرف كيف ضرب الرجل والى أي مدى..
ما يعرفه حقاً أن الرجل خرج محمولاً على كتفي أخويه، بعد ان كادت تقوم معركة لولا تدخل أوس، وضربه له أمام الكل، ثم صراعهما كذئاب

برية جعلت أهل العريس يلملمون أغراضهم ويهرولون هرباً من منزل المجانين..
وبعد أن استطاع سيف ونضال الشيب الفصل بين المتصارعين، تركه بفم نازف، وعين شبه مغمضة وفرك في مفصل الكاحل، وترك أوس بكتف مخلوعة، وأنف معوج، تقدمت منه صوان.. وقفت أمامه وشهرت قسوتها أمام وجهه:
"متى ستكبر جساس؟ "
اتسعت عيناه بذهول قدر استطاعته رغم الألم واستمرت هي بهستيرية:
"متى ستكبر وتعرف بأنني لا أريدك، ولا أريد الاقتراب منك، أنت فقط.. ابن عمي..
لا اكثر ولا أقل.."
تسمر ينظر اليها بذهول، عينيها تقولان العكس، تتوسلان أن يبقى.. ألا يرحل بينما فمها..
"ارحل.. غادر من هنا ولا تعد أبداً"
..
ورحل..
فتح عينيه ببطء ..

"متى ستكبر جساس؟ "
"متى ستكبر جساس؟ "
"متى ستكبر جساس؟ "
ترددت عبارتها الموجوعة في أذنيه بجنون...
ثم تذكر ما قالته له قبل وقت قريب..
" أحبك جساس، لم أحب في عمري سواك، لم أرغب برجل إلا أنت.. طيلة عمري كنت حبيبي الوحيد، كنت الرجل الذي كبرت وأنا أرسم حياتي الى جواره."
" أنت كل ما أريد.. أنت جسااس.. خُلقت لأجلك، وكبرت لأكون امرأتك.. أنا احبك جساس، أحبك منذ سنوات.. منذ ولدت.. من قبل أن أولد.. وحتى أموت.. وبعد أن أموت.. أنت حبيبي.. زوجي.. أنت قلب الصوانة.. لأجلك أنا صلبة وقاسية.. ولأجلك أذوب من الداخل وأحترق.."

..
كلماتها نزلت على قلبه المحترق كرذاذ بارد مسالم..
فتح عينيه وتحامل على نفسه لينهض، لقد كبر..

هو لم يعد جساس الطائش المتهور.. هو عاشق نضج حين أدرك غرام معشوقته به.
انه يثق بها .. يثق بالصوانة ولن يشك..
أنفاسه اللاهثة هدأت وعينيه لم تفارق الباب الذي اختفت خلفه مع ذلك الرجل، قبض على عكازه بقوة وتحامل ليتقدم نحو الغرفة..
أخذ نفساً عميقاً ووقف أمام الباب، وانتظر بصبر..
لم تمضي لحظات حتى فتح الباب وسمع صوتها الحنون يهمس:
-مُعافى بإذن الله، ان نزلات البرد القوية قابلة للعلاج فقط عليك أن..
وتعلقت باقي جملتها بالهواء وهي ترى الجساس يقف أمامها شامخاً.. اتسعت عينيها بخوف وهي تستشعر وقوف صلاح الى جوارها..
رباه مالذي سيفعله المجنون؟؟
لقد قابلت صلاح صدفة، وعلمت منه أن ابنه علي في المشفى مصاب بنزلة رئوية حادة ولم تفعل سوى الاطمئنان على طفل مريض. ولكن جساس.. مالذي سيفهمه؟

"جساس"
همست بشحوب وتعلقت بعينيه..
نظرته اليها كانت جامدة.. للحظات ، ثم لرؤية الخوف والقلق وذلك الشحوب .. رقت نظرته.. بل ارتفعت يده تدعوها للاقتراب ففعلت كالمأخوذة، بينما يحيط بها بقوة ويخفض رأسه قريباً من وجهها:
-هل رأيتِ عمتي؟
اتسعت عينيها للحظات وقرأت عيناه..
كانت هادئة .. رائقة.. شعلة خفيفة تستعر في عمقهما ولكنه يسيطر عليها للأن..
-نعم،،
همست بشحوب ثم سمعت صوت صلاح يقول بتوتر:
-صوا...
وبتر عبارته حين نظر اليه جساس بشراسة وتراجع هامساً:
-السيدة صوان، أتت لتطمئن على ولدي، انه مريض بالداخل و...
وقاطعه مرة أخرى..

وهو يقول بهدوء:
-عافاه الله وشفاه، طهور بإذن الله.
نظر له صلاح بدهشة.. وصوان تنظر لجساسها بذهول، قبضتيه متشنجتين، ذراعه اشتدت حولها
وهو يهمس:
-لنعد الى البيت، أنا متعب حبيبتي.
انتفضت تخرج من ذهولها وذراعها التفت بتلقائيه حول وسطه قبل أن تتحرك معه مبتعدة..
-جساس..
همست تريد ان توضح فصمته يقتلها، يخيفها..
ولكن يده ضغطت على كتفها وهو يقول:
-لا تظني للحظة أنني لستُ غاضباً.
هدر من بين أسنان مطبقة.. لترتجف ثم تنهد وهمس:
-سنتحدث بالأمر حين نعود.
نظرت له والذهول لا يزل يحتكم عقلها.. من هذا؟؟
لم تمضي سوى لحظات حتى كانا يقفان بانتظار سائق السيارة وهنا سمعته يدمدم:
-أكره قيادة اسماعيل..

ثم لمس ذقنها بخفة وهمس لعينيها:
-أتقودين سيارتي؟
تدلى فكها وهمست مصعوقة:
-الكورفيت؟؟؟
ضاقت عيناه وهمس بتهديد:
-ليس الى هذه الدرجة، لدي جيب دفع رباعي رائعة ستعجبك، سهلة وقوية.
-لدي سيارتي كما تعلم.
همست بتوتر ليبتسم:
-تلك الخردة القديمة ارمي بها الى القمامة..
عبست ولكنها تخفي فرحة كبيرة والسائق يتوقف بالسيارة وجساس يفتح الباب الخلفي وهو يقول:
-سنجربها في الفيلا ونرى مدى تحسن قيادتك.
-تلميذتك استاذ..
همست بخفر لتتسع ابتسامته ويحمر وجهها وهو يتذكر تعليمها السواقة قبل سنوات..
مضت بهما السيارة بصمت، صوان لا تعرف أيجب ان تشعر بالخوف من تبدل مزاجه الى هذا المرح والهدوء أم عليها ان تفرح؟؟ هي ليست متأكدة من شيء بعد..

حين رأته خارج الغرفة ينتظرها كاد قلبها أن يتوقف، ولكن جساس خالف كل توقعاتها، لقد وقف كرجل حقيقي، ولم يشك بها لم يظلمها.\
ابتسمت وقبضت على كفه بين يديها..
نظر لها مجفلاً ورأى ابتسامتها الحقيقية وشعر بالسعادة حقاً، ولكنه حافظ على رصانة ملامحه حتى وصلا الى الفيلا، وقادها برفق الى غرفتهما..
ووقفت تواجهه وهو يغلق الباب ثم يستدير لينظر اليها.. عادت الشراسة لعينيه..
الغضب شع بارداً ومدمراً في عينيه..
-علينا أن نتكلم،،
همس لها فابتلعت ريقها بصعوبة.. وانتظرت عقابه.
***
تحركت بتوتر خارج الغرفة، تريد الدخول وتخشى من رد الفعل، اعطاءه المذكرات كان خطوة غبية هي تعترف لم يكن عليها فعل هذا..
كادت تهزمها الدموع ولكنها سيطرت على نفسها بقوة ..

وعقدت العزم على احضار ما تشربه قبل العودة اليه..
كانت في طريقها للخروج من المستشفى للمقهى القريب حين استوقفها صوت حاد لم تكره في حياته مثله..
-مرحباً بكِ يا ابنة العم.
نظرت لأشرف الراجي مصعوقة وهمهمت متحشرجة:
-مالذي تفعله هنا؟
اقترب الرجل منها وقال بابتسامة ماكرة:
-نريد الاطمئنان على الصهر العزيز..
ثم أضاف بخبث:
-لم أقدر على اغماض جفن منذ علمت بالخبر يا ابنة عمي العزيزة.
توحشت نظرتها وتراجعت عنه بضع خطوات:
-أنتم السبب، أنت ووالدي تآمرتما عليه..
رفع حاجبه وقال بثقة:
-بالطبع.. وسيحدث المزيد إن لم تنفذي ما أريد بأسرع وقت.
اتسعت عينيها بتوجس بينما يقول أشرف بحدة:

-تعالي معي، هناك ما أقوله لكِ.
-لن أذهب معك لأي مكان.
رفضت بعناد ليقبض على مرفقها بقسوة ويجذبها بسهولة رغم تمنعها:
-لا تعارضي ترنيم، أنت في موقف لا تحسدين عليه.
-اتركني، أشرف أيها الوغد دعني أذهب.
دفعها أشرف نحو حائط قريب في أحد ممرات المستشفى الخالية وحاصرها وهو يهتف بقسوة:
-ستسمعين ما أريد قوله أولاً وبعدها ترنيمة تعودين للكابتن الجريح.
واجهته ترنيم وهتفت بشراسة:
-أنا لا أخافك أشرف، لا أنت ولا أبي.
لوى فمه بسخرية بغيضة وقال بتفكه:
-عليكِ أن تخافي مني يا عزيزتي، ما حدث للكابتن هو البداية فقط، ألا تخشين عليه.
جف ريقها وتراجعت وهي تنظر اليه بخوف وهو يزيد:
-اسمعيني جيداً.. إن لم تعودي الى عدن خلال يومين، فأنا لست مسؤولاً عما يمكن أن أفعله به.

اتسعت عيناها بذعر وهتفت:
-سأبلغ الشرطة، لا تظن أنني قد أسكت عما فعلتموه به.. سأودي بك الى السجن أيها الوغد.
ضحك أشرف بخشونة:
-عن أي سجن تتحدثين؟؟ هل تظنينني غبي لدرجة أن أفعل أي شيء بيدي أنا، هو والدكِ ترنيم، هو من يدفع وهو من ينفذ بحماقة..
شحب وجهها وهو يواصل بسخرية:
-والدك العزيز العم مختار هو من سيرى قضبان السجن عزيزتي، وأنت مهما حدث بينكما لا تزالين طفلته المدللة، هل نسيتِ ما فعله ولدك كي لا تقبعي بنفسك خلف نفس القضبان.
-اصمت..
همست بشحوب ليواصل أشرف بنذالة:
-لقد باع شرفه وشرف عائلته لشهادة زور.. تزوير وضياع حق ودم .. وكله معلق برقبتك وأبيكِ.
-توقف..
صرخت بانفعال والدموع تنهمر من عينيها بغزار ليبتسم بوقاحة ويهمس:

-لا تدعي الكابتن يسقط ضحية أخرى بسببك ترنيم، لا تدعيه يدفع الثمن في الحرب بيننا، اتركيه.. ابتعدي عنه بماضيكِ الأسود وسيرتك المخزية..

خفضت عينيها بذل.. تشهق بدموع حزينة وأشرف يواصل :

-أنت لن تسمحي للمزيد من المصائب أن تقع على رأسه، أليس كذلك؟ هو لا يستحق منكِ هذا..

-أنت وغد.. مجرم.. حقير..

هتفت بألم ليقهقه بتهكم:

-ولكنني لستُ بقاتل عزيزتي..

نظرت له مصعوقة ليزداد تهكماً:

-انظري الي لقد قلت الكلمة المحرمة، .. واجهي نفسك ترنيم.. أنت في الواقع مجرد مجنونة صغيرة قتلتْ طفلاً ولاذت بالفرار..

-أصمت..

هتفت بهستيريا ليتراجع ضاحكاً:

-أيام معدودة فقط.. وستعودين الى عدن.. وتتركين الفتى المدلل.

نظرت له باكية بمرارة:

-لا تجعليني تهور وأنهي حياته كما أنهيتُ مستقبله..

رأى ارتجافها فرد بنشوة:

-اوه نعم أنا أعرف كل شيء عن حالته الصحية، ونصيحة مني.. اتركيه، هو لا يحتاج الا لدفعة بسيطة وحينها يفقد كل ما لديه حتى حياته.

شهقت بعنف ليتراجع خطوات الى الخلف:

-فكري يا ابنة عمي، يكفيكِ ما سببته له من مصائب، اتركيه وعودي لعائلتك.. ولي أنا.

قال كلمته الأخيرة ثم غاب عن ناظريها بخطوات سريعة، تركها شبه محطمة تشهق باكية لا تعرف كيف تفكر وبما يمكن أن ترد على هجوم كهذا، تعرف أشرف وتعرف والدها.

لن يسمحا لها بالعيش هانئة، لقد تسببا بالكثير من الأذى لأوس، وذنبه الوحيد كان أنه أحبها ووعدها بالحماية، أهكذا ترد له الجميل.

تهجره؟؟

أم تبقى وتسبب له ما قد يودي بحياته؟؟

تهالكت من فرط البكاء.. حتى لم تعد ترى أمامها..

وهناك.. في غرفته..
كان ينتظرها.. لقد طالت غيبتها حتى ليظن انها رحلت ولم تعود، زفر بضيق وكاد يخرج للبحث عنها حين فُتح الباب فجأة ليجدها واقفة تنظر اليه.
-رباه ترنيم..
اندفع نحوها.. غيبها بين ذراعيه وزرع وجهها بين عضلات صدره المفرودة لأجلها فقط، اتسعت عينيها وذراعيها تلتفان حوله بقوة، بينما يهمس لها بحنان:
-اختفيتِ عني يا جميلتي.
-أنا أسفــة..
همست مخنوقة ليرفع وجهها اليه ويهمس لها بحنان:
-لا تعتذري يا حبيبتي، أخبريني لم الدموع.
نظرت له بعينيها المتورمتين وهمست:
-لم أبكي.
اتسعت ابتسامته وقال بنعومة:
-أنا لا أهتم بماضيكِ ترنيم.
رفعت عينيها المصعوقتين اليه.. في خضم خوفها عليه نسيت.. نسيت مذكراتها..

-ما حدث وقتها كان مجرد حادث، والحوادث تحدث..

سالت دموعها بألم وهي تغلق عينيها لينهرها بلطف:

-افتحي عينيكِ ترنيمتي، دعيني أرى هذه العينين الجميلتين.

فعلت بحذر ليتنهد بعمق:

-لا تحرميني قط من هذه النعمة.. أتفهمين..

اومأت طائعة فاتسعت ابتسامته وهمس:

-سوف لن تضعي تلك الأفكار برأسك من جديد يا حبيبتي، ما حدث وقتها كان حادثاً ليس لكِ ذنب فيه.. ليس عليكِ أن تخافي فأنتِ لم تفعلي خطأ.

-لقد قتلت طفلاً صغيراً..

تمتمت موجوعة ليرد بحزم:

-خطئاً.. كان مجرد حادث.

-وما فعله أبي بعدها؟؟

-لم يكن خطأك ولا ذنبكِ أنت.. والدك يتحمل وحده مسؤولية أفعاله، أنت لا شأن لكِ.

-هو أخرجني من السجن.

شهقت ليصر أوس:

-كنت ستخرجين عاجلاً أم أجلاً.. حتى لو لم يتدخل فالأمر كان مجرد حادثة وانتهى. أتفهمين؟
هزت رأسها أن لا .. لا يزال الذنب يقتلها لم لا يفهم، هو لا يعرف بما حدث بعدها.. لا يدرك..
وتعلقت أفكارها حين قال بعطف:
-أعرف ما حدث بعدها حبيبتي، أعرف ما فعله والدك.
اتسعت عينيها بذعر وارادت الافلات منه ولكنه لم يفلتها:
-أعرف كل شيء بخصوص المصح، وما حدث هناك.
تراجعت بجزع تتخبط للخلاص من قبضتيه ولكنه لم يفلتها:
-اهدأي ترنيمة.. لا تخافي، أنا لا أحكم عليكِ حبيبتي.
حركت رأسها بعنف ليشدد من قبضته حول وسطها ويجذبها اليه بقوة اتسمت بالقسوة:
-افهمي ترنيم، انظري الي وافهميني..
توقفت عن حركتها العنيفة وتهالكت بين ذراعيه، ليضمها بقوة وهو يهمهم:

-اهدأي غاليتي، لن يصيبك مكروه.. ليس وأنتِ معي وتحت حمايتي.
-أنا.. أنا قاتلة.. مجنونة.. هذا ما تقوله الأوراق الرسمية..
أحاط وجنتها بكفه وذراعه لا تزال تحيط ب وسطها بقوة:
-اسمعيني يا جميلة، أنتِ لست قاتلة..
ثم ضاقت عيناه وهمس بمرح لعينيها الغائمتين:
-ولكن مجنونة.. أنا أتفق معهم بهذا..
تألقت عينيها بالدموع فتنهد:
-أنا أمزح ترنيمة.. والدك هذا.. لو استطيع لمزقت وجهه ولكن الشيء الوحيد الذي يبرر له كل ما فعله هو أنه يحبك، هو والدكِ وهو يخشى عليك.
-هو يخشى على سمعته.. على اسم عائلته..
همهمت بشرود تتوسد دقات قلبه التي تسارعت وهو يرفع وجهها لينظر في عمق عينيها:
-هو يحبكِ.. مهما كانت طريقته في إظهار هذا الحب.
-هو يريد التخلص منك.

ضاقت عيناه ووعدها:
-ليس من السهل التخلص منـــي..
عادت عيونها للدموع فأمال رأسه وقال بمرح:
-لا تخافي علي ترنيم، أنا ذئب الشيب.. أنا أصلب بكثير مما تظنين.
انسكبت دموعها بغزارة وارتمت على صدره هاتفة بألم:
-لن أتحمل أن يصيبك مكروه، أرجوك أوس.. أرجوك يا حبيبي لا تتركني.
تنهد يضمها بقوة، يقبل قمة رأسها ويمسد ظهرها بحنو:
-لن افعل، فكفي عن الهراء وهي لنغادر هذا المكان.
-لا لا.. يجب أن تظل في المستشفى، أنت مريض.
-أنا بحال جيدة، والطبيب سمح لي بالمغادرة.. والأن هيا.
قال بعناد لتزفر بيأس:
-ماذا عن العملية؟؟ ألا تنوي أن تفكر؟
-سأفكر في بيتي .. معكِ..

قال بإصرار رأته في عينيه.. لتومئ بشرود..
هي كذلك تريد الهروب، بيت الشيب بعيد.. محاط بحراسة قوية لن يقدروا على ايذاءه هناك.. سيكون بأمان، ولن يصيبه مكروه.
راقبها بصمت.. انها تحتاجه، البؤس والألم الذي عانت منه..
كل هذا في كفه وما قد يأتي ربما يكون أسوأ.
***
هطل رذاذ مطر، وتصاعدت رائحة الأرض الطيبة، لتخرج كل الحنين الذي تختزنه بداخلها، بؤس لم تعرف أنه يحتلها حتى رأت اهتمام ترنيم، وخشية صوان..
رأت لهفة أوس، واهتمام الجساس.. واشتاقت اليه..
اشتاقت لركـــان، اشتاقت له كثيراً.
تنهدت بعمق، وعادت لتجلس الى جوار عمتها التي نظرت لها باسمه وقالت:
-ألا تنوين أن تعودي الى روما؟
-لا أحد يريدني هناك.
-ركان يريدك.

عبست سارة وأشاحت بوجهها، لتقترب منها فاطمة وتمسك يدها بين كفيها وهمست بحنان:
-ألا تريدين العودة لزوجك؟
-هو من تخلى عني، هو اختار سواي، خدعني وابتعد.
همست مخنوقة لتهز فاطمة رأسها وتقول بحذر:
-ألا تعتقدين أنك تظلمينه؟
رفعت عينيها اليها مصعوقة لتهمس فاطمة بإصرار:
-بحسب ما عرفت من عمك حسن ووالدك ركان لم يقم بسلب أموالك سارة هو حتى لم يمس حصصكِ في المؤسسة وكل تحركاته كانت ليسلب الادارة منكِ.
-وهل هذا قليل؟!
صاحت باستنكار لتزفر فاطمة وتهمس:
-ركان لم يأخذ الا ما هو حقه، حتى صاحب المال والدكِ لم يرى في تصرفاته ما يشين، تلك كانت حصص أموال للغير سواء قام هو بشرائها او أنتِ هذا لا يعني أنه مخطئ، أو أنه أساء اليكِ.

-لقد تآمر معهم، مع عائلة الباشا، ضدي.. كدت اخسر طفلي بسببه.

هتفت بانزعاج، لتهمس لها عمتها بحنان:

-ولأجل طفلكِ هذا عليكِ التفكير بروية، ركان فعل المستحيل ليحظى بكِ، وحكاية تعاونه مع عائلة الباشا لتنفيذ جزء من مخطط الاستيلاء على المؤسسة لا تعني أنه قد خانك، لقد كان يعمل كما كنتِ تفعلين بالضبط، كان يعقد الصفقات، ويحرك بيادقه كما يشاء.

-كان يوقع بي.

هتفت بألم لتجيبها بإصرار:

-كان يتصرف كتاجر، وليس أي تاجر،، بل هو تاجر شاطر.

ثم زفرت ولا تزال ترى العند في عيني الفتاة الشابة:

-أنت غاضبة وحانقة منه لأنه تصرف في الخفاء عنكِ..

-بالطبع لا ، ليس هذا القصد عمتي.

-اذاً أخبريني ما هو قصدك؟

زفرت سارة بضيق ونهضت تدور حول الفراش وعمتها تلاحقها بعينيها بفضول:
-ركان استغل ثقتي، تقرب مني وهو بنيته أن يسلبني كل شيء..
-ألا تظلميـنه قليلاً؟؟
علقت فاطمة بحنق لتلتفت لها سارة بحدة فتواصل:
-ما الشيء الذي سلبه منكِ ركان؟؟ مالك؟ ممتلكاتك؟؟ على العكس.. هو زوجك وقد امتلك ما لم تكوني أنتِ ولا حتى أبيكِ قادرة على امتلاكه، بنظرة أخرى هو قد زاد ملكك لم ينقصه..
شحب وجه سارة وهمهمت:
-والمنصب.. عملي..!
-هذا شأن أخر، أنت قبلتِ أن تدخلي مع الجميع تنافس العمل، وهو كأي فرد فعل، قد يكون تنافسه قاسياً بعض الشيء وخارج عن الاخلاقيات ولكن هذا لا يعني قط أن تتركيه، بل على العكس، هذا يعطيك القوة لكي تبقي معه وتعيديه الى الصواب.

عادت سارة تجلس شاحبة وهمهمت:
-أتعنين أن ركان لديه الحق في معاملتي بتلك الطريقة، لديه الحق بخيانتي مع أقرب صديقاتي؟
عبست فاطمة وهمست بضيق:
-لا تعدي تلك المرأة بصديقتك بنيتي، هي عقربة .. حية توجب قطع رأسها، لم أرتح لها أبداً، لقد رأيت كيف ينظر ركان لكِ وبرأيي أنا لا أصدق قصة الخيانة المزعومة تلك، ولكن ان حدثت.. فأنت يجب أن تكوني أعقل بكثير من الانجراف خلف غضبك أو شهوة الانتقام لديكِ..
تراجعت سارة زافرة بحنق وضيق لتهمس لها عمتها بحنان:
-كوني عاقلة سارة .. فكري ليس بنفسك فقط، فكري بالطفل.. وكيف من اللازم أن يربى بين أبويه، لا تجعلي مشاكل تافهة تحرمك من حلاوة العيش مع زوجك الذي تعشقينه ويبادلك المشاعر، كوني قوية.. ذئبة حقيقية وانتزعي ما هو حقك من بين أنياب الألم كما اعتاد الذئاب.
عقدت سارة حاجبيها وهي تفكر بكلمات عمتها..

هي فعلاً تحب ركان، وهناك الطفل الان، من المستحيل أن تسمح لأحد أن يحرمها السعادة، مشكلتها العند والغضب، لم تعتد يوماً على القتال لأجل ما تحب، كل شيء تجده أمامها.. في متناول يدها وتحت أمرتها.. حتى تمرد ركان..
وتمرد جعلها تواجه حقيقة نفسها، هي ليست قوية كما تدعي، هي ضعيفة ومنهارة حالياً ولكنها تتمسك بقشرة واهية من الكبرياء تخنقها، تود لو تبكي وتخرج كل ما بداخلها كي يعرف الكل مدى تأثرها.
تود لو تصرخ للمساعدة ولكن، كل من كان يمد لها يد العون الأن في مكان.. كل لديه ما يشغله، حتى ركان لم يعد متفرغاً لها كما كان .
عليها أن تقاتل لتستحق السعادة.. وستفعل.
***
"هذا العقــاب سيــكون قاسياً"
هدرت عبارته الباردة في تلافيف مخها بينما تستيقظ ببطء، جسدها يؤلمها، ورأسها لا يزال في غيمة تائهاً من قوة المشاعر التي أظهرها لها..

تراقصت ابتسامة راضية على شفتيها وذكرى العقاب تتسلل الى عينيها وتثير استجابة مباشرة بداخلها، دقات قلبها تتسارع بجنون فتفتح عينيها لتراه..

كان يقف أمام الفراش ينظر لها بجمود..

أتبتسم؟؟ أم تعبس؟؟

أتصرخ بوجهه أنه وغد متوحش .. ذئب، وقح ..

كانت تفكر برد الفعل المناسب بعد تلك الساعات التي قضاها في عقابها، عقـاب؟!!

تسللت ابتسامة غادرة الى شفتيها بينما تحتقن وجنتيها بالدماء، رأته يغالب ابتسامته.. ويقترب منها ليشرف عليها وهو يهمس:

-هل تتألمين؟

حركت ذراعيها بحذر.. وشعرت بالألم، ساقيها.. رأسها.. كلها يؤلمها..

-رباااه ماذا فعلت بي؟

همهمت كهريرة تقر برضا.. فتلاعب الرضا في عينيه وهو يميل ليلامس جانب عنقها بأنفه الطويل..

-في كل مرة تغضبينني صوان، أنا لن أسكت عن غضبي.

-هممم و هل كنت غاضباً؟

تساءلت مغمضة العينين، قنوعة حتى الثمالة بلمساته التي عادت تتهادى وتشعل كل جزء يقع تحت طائلتها، ليجيب بصوت مبحوح:

-كنت غاضباً كبركـان يا صغيرتي.

رفت عينيها بتوتر لينظر لها ويهمس بصلابة:

-لا اريدك ان تكلميه .. أبـداً.

ابتلعت ريقها و همست:

-كانت مجرد صدفة، والصغير.. الصغير أحد طلاب الحضانة.. كانت مجرد زيارة.

بررت بخفوت..

فزفر وقال بحدة:

-أعرف، فلو كنت اظن للحظة أكثر من هذا لحطمته.. مزقته بيدي أمام الكل.

-ألا تثق بي؟

همست بحزن.. ليقترب أكثر.. ويلامس شفتيها بفمه، قبلة بطيئة ناعمة جعلتها تثور رفضاً حين أنهاها و هو يقول بهدوء:

-بالطبع أنا أثق بكِ.. ولكن ..
وتنفس عبق رائحتها يهمهم بغرام:
-أنا رجلٌ غيور حد الجنون يا حبيبتي.. غيور وأحمق..
-لا ..
اعترضت بدلال.. تحيط عنقه بذراعيها ليبتسم بغرور وجد امرأته عاشقة .. راضية.. مستسلمة حتى النهاية.. مهما كانت قسوته..
-أنا لن أعتذر عن ليلة أمس.
همس لعينيها لتعاود وجنتيها الاحمرار وهي تتذكر:
-أنا.. أنا لا اريدك أن تعتذر.
ابتلع ابتسامته وضمها اليه.. لتتأوه وذراعه تقع على ذراعها فيكتم ضحكته وهو يقول:
-هذه ستترك أثراً..
خنقت ضحكتها على صدره وهمست:
-كله سيترك اثراً.. شكراً لك!
رفع وجهها اليه.. وهمس بنعومة:
-حمام ساخن وتدليك .. هذا كفيل بإزالة كل الألم.
رفعت حاجبيها ومضت تجاريه:

-ومن أين سآتي بمدلكة في هذا الوقت؟
غامت عيناه وهمس بخشونة:
-من تلك التي تجرؤ على أن تمس ما هو لي، لن يمسك سواي صوان..
التمعت عينيها بمكر:
-لم أكن اعرف أنك تجيده؟
استند على مرفقه ليشرف عليها ويده تلامسها من وجنتها نزولاً ببطء:
-لأجلك، سأتعلم كل شيء..
أغمضت عينيها باستمتاع وهو يلاحق لمساته بالقبلات، ويغرقها من جديد في عقاب ناعم، ثمل بالسعادة وقد غادرته الكلمات...
***
بعد ثلاثة أيام..
وقف اوس في شرفة شقته في أحد أكبر وأطول أبراج مدينة دبي ينظر للمدينة المشتعلة ليل نهار، وكأنما تركض دون راحة، دون لحظة أخذ نفس، فقط لهاث ، أنفاس متسارعة..

وقف مغمض العينين يأخذ نفساً عميقاً نقياً في هذا الارتفاع الشاهق، لا عوادم سيارات.. لا ضجيج الشوارع، فقط يقف هناك وحيداً..

ولا يحب الوحدة؟!!

"ترنيـــم.."

صاح يناديها ليسمع صوتها :

-قاادمة..

وسمع وقع خطواتها الراكضة فاستدار ليستقبلها وابتسامة تنير وجهه..

كانت قزمة صغيرة مثيرة..

مال برأسه يتأمل خطواتها المتسارعة بثوبها القصير وكعبها العالي، وخصلات شعرها الطويلة المتسلسل وغابت بين ذراعيه هاتفة بشقاوة:

-اشتقت إلي؟!

تنهد بعمق وهمس:

-أشتاق اليك طوال الوقت، كيف لي أن أعيش من غير رؤيتك ترنيمتي.

تألقت عينيها ورفعت كفيها تحيط بوجنتيه.. ذقنه نامية وقد رفض قطعاً أن يحلقها، ولامست وجنتيه:

-أخفض رأسك..

ابتسم وفعل لتقبل عينيه المغلقتين بقوة، ثم تحيط عنقه بذراعيها وتتعلق به هامسة:

-لن تفقدني حبيبي، أبداً لن تفقدني.

احاط خصرها بذراعيه بشدة وقال:

-هذا ما أريد سماعه..

وتردد حولهما صوت ناعم لتنتفض ترنيم ويعبس أوس:

-من سيأتينا في هذه الساعة؟

هزت كتفيها ليزفر بحنق ويتجه لفتح الباب، بينما اتجهت ترنيم الى المطبخ..

فتح البـاب وعقد حاجبيه..

-سيف؟؟

زفر سيف بحنق واقترب يعانق ابن عمه بقوة وهو يهتف:

-تباً لك أوس، أتبحث عن المشاكل في كل ركن.

تراجع أوس ضاحكاً بارتباك وهو يقول:

-عما تتحدث أخي؟ ماذا هناك؟
ابتعد عنه ونظر في عينيه ثم لكمه بقوة على كتفه ليجعله يتأوه بألم وسيف يصرخ:
-هل جننت؟؟ رباااه أوس أنت لا تستخدم عقلك.
-أوس تعال، ادخل وكف عن الحماقة..
جذبه أوس للداخل، واغلق الباب ثم قاده لغرفة الجلوس، غرفة مربعة بكنبات مريحة على الطراز الأمريكي وجلس الى جواره وهو يقول:
-مالأمر؟ ماذا حدث؟
هتف سيف بحنق:
-كل هذا وتسأل عما حدث.. مالذي تقوله سيف هل جننت؟ أنا أعرف كل شيء عن تصرفات عمك القذرة، أعرف بأنه هو السبب هو من افتعل الحادث ليقضي عليك.
نظر اوس للباب المفتوح حيث كان قريباً من المطبخ ..ونهض يغلق الباب بحركة سريعة وعاد ليلتفت لسيف وصاح:
-هل جننت؟؟ أخفض صوتك يا رجل..
نهض سيف وصاح بعنف:

-عليها أن تسمع، عليها ان تعرف أباها على حقيقته.
-صدقني هي تعرفه أكثر منا مجتمعين.
صاح أوس بحدة.. ثم مسد رأسه بقوة، وهمس بتوتر:
-ترنيم ليس لها دخل بكل شيء، هي بريئة ولا يجب أن نلومها.
-هي السبب.. أتنكر أنه يطاردك ويؤذيك بسببها؟؟
-سيف افهمني، ما حدث مع عصابة مختار شيء لم يمكنني ايقافه ولا السيطرة عليه ولكنني فليلعنني الله ان تركت له زوجتي كما يريد..
اتسعت عينا سيف وتساءل:
-ماذا تعني؟؟ ما هذا الهراء؟؟
زفر أوس وجذب سيف من ذراعه ليجلس معه وهو يهتف:
-سأخبرك بكل شيء ولكنني لا اريدك ان تفتح فمك أمام أحد.
اعتدل سيف في جلوسه وقال بحدة:

-ان كان الموضوع كما أعرف وكما سمعت، فأنا لن أسكت.. وسأقيم الدنيا على رأسه.
-حذرتك أوس، لا تفكر بإقحام ترنيم في أي مشكلة بيني وبين أبيها.
-انها أساس المشكلة.. كيف لا تريدني أن أدلها بالأمر؟
شعت عينا أوس بغضب هادر وقفز مجدداً أمام سيف:
-أخبرتك مرة وسأعيدها مجدداً.. لا تقحم زوجتي بأي شيء، دع ترنيم خارج الموضوع.
تراجع سيف وأسند ظهره وهو يعقد ذراعيه على صدره ووجهه يعبس بشكل مخيف:
-تكلم أوس، أخبرني بكل شيء.
تنفس أوس بعنف وأشاح عنه بغضب، شعر بجسده كله ينتفض وهو يسمع سيف يكيل اتهاماته لها الواحدة تلو الأخرى، لا.. هو لن يسمح لأحد أن يقف ضد ترنيمته، مستحيل أن يتهموها ظلماً.. مستحيل أن يسمح بهذا.

-زواجي بترنيم، لم يكن يوافق مختار الراجي، كان مجبراً على الموافقة.. والأن هو يريدني أن أتخلى عنها.

-لماذا؟

سأل سيف باقتضاب ليجيب أوس:

-لأنه يريدها لذلك اللعيـن أشرف ابن أخيه.

كان يضغط على فكيه بقوة، وقبضتيه تتكوران بعنف.. ذكرى منظر ذلك الأشرف اللزج.. جعله يغلي، من العمق. نهض سيف ودار حول قريبه زافراً أنفاسه ببطء، يفكر كيف وقع قريبه بين فصيل الأفاعي تلك، بين غرامه الواضح بالترنيمة والصراع المتواصل بينه وبين والدها وابن عمها..

نظر لابن عمه وفكر بالتحديات التي يواصل التعرض لها، ما قاله له علي العزب ورغم الحراسة التي فرضها عليهما هو وزوجته، إلا أنه لم ينجح في حمايته من أثار الاعتداء الغاشم عليه..

جلس أوس يسند رأسه للمسند.. ينظر للسقف ثم أغلق عينيه بقوة والصداع يهاجمه، يغم عينيه .. يغشاه ويحطم رأسه.. تباً تباً تباً...

-سوف نجد حلاً..

قالها سيف بحدة ليفتح أوس عينيه ويقفز على ساقيه، هاتفاً بتوتر:

-نحن؟؟!!

رمقه سيف بعتب ليقهقه أوس ساخراً:

-عما تتحدث سيف؟؟ منذ متى هناك نحن.. منذ متى؟

-أنا موجود لأجلك دائماً.

قالها سيف بهدوء يحاول ابقاء نبرته تحت البرود الذي يناقض الاشتعال في عينيه وهو يراقب أوس الذي اخرج من جيبه فتيل سيجارة وأشعلها بأصابع ترتجف وهتف:

-لطالما كنا وحدنا يا ابن عمي، كل ذئب لنفسه..

نهض سيف واقترب منه:

-أنت كنت موجوداً لأجلي، حين وقفنا في وجه قحطان العزب، أنت كنت معي.. لم تتركني.

-أنا وأنت.. مختلفان، من يقف جوارنا؟ لا أحد.. لا جساس ولا أحد من أولاد عمومنا، لا والدي ولا والدك.

قالها وصمت ليقترب منه سيف ويضع يده على كتفه بقوة:

-نحن نكفي ونزيد..

ابتلع أوس غصة خنقته واغلق عينيه بقوة وهمس من بين فكين مطبقين:

-أنا لن أخسر ترنيم..

تنهد سيف.. قبض على كتفي أخيه وابن عمه ، بقوة واقترب يشد من أزره هامساً:

-أنت تحبها؟!

-أنا أعشقهـــــا..

هتف بيأس..

ليضحك سيف وهو يهز رأسه ويقول هامساً:

-أنا وأنت.. رباه لقد حركت العالم وأنت.. أنت أوس..

-أنا سأحرك السماء سأحرق هذا الكون لو فقط.. يا للهول..

تلعثمت كلماته وهو يتصور للحظه أنها ليست معه، أنها رحلت.. والأدهى أنها ليست ملكه..!!
-لا تفكر بهذه الطريقة، أنا لن أتركك تواجه تلك العصابة وحدك، نحن معاً سنجد الحل.
-سيف أنا خائف.
همس أوس بخشونة لينصت سيف باهتمام:
-أخاف تتكالب عائلتها وتأخذها مني وأقف أنا بلا حول ولا قوة، عاجزاً ليس بيدي شيء أفعله.
-وما الفائدة من وجود عائلة؟؟ مالفائدة من وجود عائلتك؟
هتف سيف باستنكار ليلوي أوس فمه ويهمس بتهكم:
-أنتحدث عن العائلة التي تنهش بعضها البعض؟ أتتذكر ما قاله جدك المرحوم حين اجتمعت بهم تعلن رغبتك بالصلح مع آل العزب؟؟ أتذكر أن كل ما قاله كان تهديداً لك إن فشلت فإنني ساحل محلك..
زفر سيف وقال بضيق:
-جدك توفي، لا فائدة من لاتفكير الان بكل ما كان نحن عائلة جديدة..

-نحن عائلة مفككة، لا يهتم كل فرد فيها سوى بمصلحته..
قال أوس بحدة..
فتنهد سيف وتراجع ليجلس:
-معك حق، ولكنك اخي الذي لم تلده امي، وأنا لن أتخلى عنك.. شئت أم أبيت أنا سأكون في ظهرك.
نظر له أوس للحظات ثم أشاح بوجهه عنه وهمس:
-أريد منك وعداً..
-لك ما أردت أخي.
-اعتني بترنيم..
-ماذا؟؟
تساءل سيف بحنق ليقترب منه أوس ويطلب منه بلهفة:
-لو حدث لي مكروه، اعتني بها، لا تتركها وحدها، لا تعدها الى والدها وابن عمها، هي لا تطيق احدهم.
دفعه سيف بحدة وسط صدره وهتف به:

-توقف عن الجنون والترنيمة هي زوجتك الى يوم الدين باذن الله.. ولن يقف أمام والدها وعائلتها الخربة سواك أخي فكف عن الحماقات..

-فقط عدني.

هتف به أوس بعصبية ليتراجع سيف ويومئ برأسه بارتباك هاتفاً:

-أعدك..

ابتسم أوس بارتياح .. واتكئ في مجلسه وعقله يعاود التفكير..

وتدبير الخطط، ليفاجئه الصداع من جديد.. تناقش مع سيف للحظات عن طريقة ليؤمن الحماية لترنيم وله، حتى يستطيعا كشف ما يخطط له والدها وابن عمها، ثم غادر سيف.. وبقي أوس يفكر ملياً بكل ما دار بينه وبين ابن عمه.. ليصرعه الصداع، من جديد..

فتك الصداع برأسه، مطارق من صُلب كانت تدك جمجمته بلا رحمة ولا توقف. نهض مترنحاً من فراشه حاول صدقاً النوم كما اقترح عليه الطبيب كلما هاجمه الصداع ولكنه لم يكن يقدر لم يعد يستطيع التحمل، فتح الخزانة حيث يحتفظ

بأقراص المسكنات وبحث عنها بعصبية دون جدوى؟؟ أين هي؟؟

-عما تبحث؟"

التفت خلفه ليجد ترنيم واقفة تنظر له بتحدٍ لترمش عيناه بألم وهو يزمجر من بين شفتين مطبقتين:

- أين هي مسكنات الصداع خاصتي؟

-ماذا كان يريد سيف؟

تساءلت بفضول وهي التي ابتعدت عنهما طيلة الوقت كي لا تتدخل..

-أمور تخص العائلة والعمل.. أين المسكنات؟

لم تقنعها الاجابة ولكنها تجاهلت الأمر لتقول بحدة:

-لقد رميتها"

هتفت بحنق لتتسع عيناه ويصرخ:

-ماذا فعلتي؟؟"

انتفضت للغضب في عينيه ولكنها لم تتراجع بل اقتربت تهمس بتوتر:

-أنت تشرب من المسكنات دون توقف أوس وهذا سيصيبك بفشل كلوي"

-ترنيم.. ترنيم..
هتف بلهفة ويديه تمسكان جانبي رأسه بقوة ..
-أنا متألم جداً حبيبتي، وأحتاجها"
قال لاهثاً ليرق قلبها وتذوب مشاعرها الغاضبة ويتملكها احساس الدجاجة الام وهي تقترب لتحيط بوجنتيه غير الحليقة وتهمس له:
-دعني أساعدك بطريقة أخرى"
-المسكنات تفعل بشكل ممتاز"
همس وهو يحيط كفيها بأصابعه بقوة عيناه تؤلمانه.. وكأنما سكين تنخر بهما بلا توقف:
-أوس أتوسل اليك دعني أساعدك أنا"
ابتلع ريقه وشعر بنبضات رأسه تشتد ولكنه سيطر عليها بقوة وزفر نفساً عميقاً قبل أن يهمس:
-حاضر.. افعلي ما تريدين أنا رهن اشارتك"
ابتسمت بفرح وقادته للفراش وبعد استلقاءه همست له أن يغمض عينيه ويسترخي ريثما تعود.. وفعل كما طلبت وهو يحاول السيطرة على ردة فعله للألم.. دون فائدة! الأفكار والهموم تزيد من الضغط الذي يكاد يفجر شرايين مخه،

شعر بعودتها السريعة ثم تسلقها الفراش جواره طلبت منه بصوت رقيق أن ينزع قميصه ويستلقي على بطنه ففعل ما طلبته بحذر واقل حركة تزيد من النبض المؤلم.. ثم شعر ببلل رقبته ورائحة نفاذة تشبه أزهار اللافندر تتسلل الى أنفه بينما أصابعها الرقيقة تلامس مؤخرة عنقه بضغط يشتد ويرتخي بحركات بطيئة..

-خذ نفساً عميقاً الواحد تلو الأخر"

فعل ما طلبت وهو يهمس بسخرية

-أهذا ما تعلمته في كلية الطب يا ترنيم؟"

ابتسمت ومالت على جسده وهي توسع حركة يديها لتضغط بقوة على لوح كتفه مما جعله يتأوه:

-علمتني عمتي بضعة من أسرارها لا تقلق على نفسك؟"

ضاقت عيناه وهمس:

-هل فعلت هذا من قبل؟"

-كثيراً"

همست بدفء وهي تضغط على عضلة متشنجة أخرى ليتأوه بعمق وعيناه تستشيط غضباً:

-هل دلكت رجلاً ما من قبل؟"

ابتسمت بشيطنة وهي ترفع ذراعيه على مستوى كتفيه وأصابعها الزلقة بفعل الزيت تلامس اوتار عضلاته المشدودة بقوة وخبرة قائلة:

-وما الفرق بين جسد رجل وامرأة حبيبي"

شعرت بعضلاته تصرخ من شدة توترها وانتفض معتدلاً يمسك بمعصمها بقسوة جعلتها تتأوه

- سوف أكسر يدك قبل أن تمتد لتلامس غيري بهذه الطريقة سواء كان رجلاً او امرأة، لا امان للجنسين في هذه الأيام الغريبة"

احتقن وجهها بحرج قبل ان تدفعه ليستلقي من جديد هاتفة:

-ها أنت تقامر بالقول مجدداً هل هدأ الصداع"

زمجر بعنف:

"لا بل ازداد الان.. أعطني المسكنات وسأدعك تمارسين علاجك لي بكل الطرق التي تحبينها"

زمت شفتيها تخفي خجلها من وقاحته وهي ترى سخريته في ألم عينيه:

-لا مسكنات أوس.. وهذا نهائي"

اشتدت قبضته على معصمها وقربها منه ليهمس قريباً من شفتيها:
-اعطنيها ترنيم ..انا متعب للغاية ورأسي.. رأسي يقتلني"
خفق قلبها بوجع لألمه وشعرته حقاً في أنفاسه الحارة ولكنها لا تستطيع.. عليها ان تكون قوية كي لا يسقط في فخ الادمان عليها لذا لم تلن عينيها وهي تهمس:
لا حبيبي.. أنت لن تأخذ من تلك المسكنات بعد الان"
تراجع ينظر لها بصدمة قبل أن ينهض من الفراش ويعاود ارتداء قميصه ببرود لتتساءل بارتباك:
-أين تذهب؟"
-الى الجحيم"
صرخ بعنف جعلها تنتفض قبل أن تركض تعترض طريقه للخروج:
"أنت لن تذهب لأي مكان في هذا الوقت وأنت بهذه الحالة"
توحشت عيناه وهو يقبض على كتفيها:

-ابتعدي عن طريقي ترنيم، لا أريد ان أؤذيك"
-تؤذيني؟؟"
همست بتحشرج ليصرخ بقوة:
-قلت لك ابتعدي ..ان لم تكوني تنوين اعطائي الحبوب فلا تقفي بطريقي"
"لا لا"
هتفت باكية وهي تتشبث به تمنعه من الخروج ليتخلص من قبضتيها بعنف ويرمي بها الى الارض دون ان يعيرها أدنى اهتمام بينما تصرخ هي بألم. لم يعد يحتمل.. الصداع سيحطم رأسه.. لم يقدر حتى على اخذ سيارته.. كان يرى الدنيا كلها أمامه مصبوغة بلون واحد.. أسود!!
مشي بسرعة لمقهى قريبة.. واقتحم بابها نحو البار وهو يطلب مشروباً كحولياً قوياً لم يشربه منذ زواجه بترنيم.. لقد وعدها واوفى بوعده لفترة طويلة ولكنه لم يعد يحتمل الان..
شرب الكأس الأول دفعة واحدة ولم يأبه بالحرقة التي اجتاحت حلقه وبلعومه.. ثم طلب الثاني.. وبعد الثالث ادرك ان الصداع يشتد ولا ينقص.. فكر بألم.. من؟؟ من؟؟

ثم تذكر.. أخرج هاتفه وبالرغم من رؤيته المشوشة استطاع اخراج الرقم الذي يريد وطلبه بسرعة....

بعد ساعة كاملة كان يجلس الى جوار شاب مهلهل الثياب بوجه ناحل ولحية كثيفة هامساً:

-كيف تشعر الان؟"

رفع أوس كفه ليضعها على وجه الرجل مبتسماً بنشوة:

-اشعر ..انني أطير.."

ضحك الرجل بسخرية بينما أوس يستمر وكأنه يحادث نفسه:

-أطير مجدداً"

-هل تريد المزيد؟"

اومأ له أوس ليخرج الرجل من جيبه مغلف صغير ويضعه بيد أوس الذي أخفاه بجيب سترته الداخلي ثم نهض بارتباك مغادراً المقهى الى الشارع.. كان يعرف ان دانييل الفتى الكوري، هو من يلجئ اليه في هذه الحالة.. كان الوحيد من ضمن معارفه والذين يبيعون الحبوب المهدئة.. وحبوبه كان لها مفعول السحر، ولكن.. فكر

بضيق ربما لم يكن يجب عليه شرب الكأس الاخير
ابتسم بسخافة وتمطى بقوة مستمتعاً بزوال الصداع.. ثم عاد بخطوات بطيئة مترنحة لبيته.
فتح الباب برفق.. لتهاجمه كالإعصار:
-أين كنت؟؟ كيف تتجاهل كل اتصالاتي بهذا الشكل"
صرخت بروع وهي تتأمل منظره.. تبحث عن اثار ضرب او دماء.. تبحث عن أثار لجنونه كي لا تجد سوى تجعد سترته وقميصه فتتنهد بارتياح بينما يرفع هو كفه هامساً:
-لا تصرخي ترنيم.. رأسي.."
-حاضر حاضر حبيبي.."
اقتربت تجذبه اليها رباااه كيف تخشى عليه.. تخشى من جنونه.. وبطش والدها وحقارة ابن عمها وتهديدهما المستمر ولكن، حالما ضمته اليها حتى اشتمت رائحة انفاسه..!!
"خمر؟؟؟"
تراجعت كالملسوعة ليغلق عينيه بقوة بينما تعاود ترنيم الصراخ:

-هل عدت لتعاقر الخمر؟؟ أوس لقد وعدتني؟"
هتفت بألم وهي تبكي فاقترب ليعاود احتضانها:
-اسف ..انا اسف حبيبتي ولكنني كنت متألماً للغاية.. لم اعرف ما افعل؟"
-وهل تشعر الان بالراحة أوس؟؟راحتك هي في الخمر؟؟ يالهي كيف استطعت؟؟"
صرخت وهي تلكمه على كتفه بحرقة ودموعها تغرقها ليضمها أقوى هامساً:
-سامحيني فقط أتوسل اليكِ ترنيم، اتوسل اليكِ سامحيني"
بكت بمرارة وهي تحيطه بذراعيها.. كيف لا تسامحه، وهو كل ما لديها في العالم:
-خديني للفراش ترنيم.. ضعي أصابعك على رأسي وازيلي ألمي بيديكِ حبيبتي"
انتحبت اكثر لصوته المعذب وهو يزيد في امعان ألمها:
- انا موجوع ترنيمتي.. فارفقي بي"
-أووووس"
همست لشفتيه قبل أن يغيبها في قبلة متطلبة جعلتها تلهث وهو يبعدها ليهمس بحنان

-سأستحم وأطرد رائحة الخمر من علي.. هل ستنتظرينني؟"
اومأت له بارتباك لتتسع ابتسامته
-لن اتأخر.. لا تنامي ترنيمة"
ابتسمت بخجل وهي تراقب خطواته السريعة للالتحاق بحمامه.. رباااه كم تحبه!..
اغمضت عينيها بإرهاق.. لقد تعدت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وهي مرهقة حتى العظم..
توجهت لغرفتها واستلقت على فراشها تحاول التشبث بوعيها حتى مجيئه ولكن تعبها خانها واطمئنانها عليه كان له مفعول السحر لتسدل جفنيها ببطء وتغرق بالنوم.. حين خرج من الحمام وجدها نائمة.. ابتسم للحظة قبل ان يتوجه بخطوات سريعة ويخبئ مغلف الحبوب في جيب سترة بدلة الطيران المهملة.. ثم اقترب من الفراش وتمدد الى جوارها على بطنه وقد استند على مرفقيه ليتفرس بوجهها بفضول..

شعرت بأنفاسه الدافئة تلفح وجنتيها ففتحت عينيها بسرعة وشهقت مواجهة عينيه الواسعتين واللتين تراقصتا بخبث في عينيها هامساً:

-وعدتني بالانتظار؟"

-أخفتني..!!"

همست ليقترب برأسه ملامساً وجنتها بأنفه المستقيم:

-رائع.. أنت تستسلمين بشكل مذهل كلما ازداد خوفك"

شهقت باعتراض مخنوق بينما يجرها الى جسده الرطب بضحكة عالية..

هذه المرة كان مزاجه عالياً.. كان يحلق بنشوة نقلها اليها بلمساته وكلماته التي جعلتها تحلق معه بجنون ورغم قوته وقسوة غرامه الذي لم يتعمده. الا أنها لم تعترض، تعلقت بكتفيه وكتمت شهقاتها في عنقه قبل ان يتهالكا معاً ورغم تعبها وارهاقها منذ الصباح الا أنها من ضمته اليها بقوة وهو يغرق بالنوم مباشرة مدمدماً كلمات حبه بخفوت..

حين استيقظت عند الفجر كان المنبه يرن بقوة.. أطفأته بحركة حادة كي لا تزعجه الا انها انتبهت وقتها لعينيه المفتوحتين والمحدقتين اليها بخواء..

-أوس؟!"

همست بنعاس لتشعر بكفه تحيط وجنتيها وتقرب وجهها ليصبح أمام وجهه تماماً عينيه تنظران اليها بجمود وهو يهمس:

-أنت هنا معي؟"

عقدت حاجبيها بينما يواصل هو بخفوت:

-أنت لن تتخلي عني أليس كذلك ترنيمتي؟"

-انا أحبك أوس"

همست له.. ليبتلع ريقه بصعوبة ثم يطلب بصوت متحشرج:

-عديني أنني حين أفتح عيني سأجدك هنا "

تملكها القلق وهتفت به:

-عيناك مفتوحتان أوسي مالذي تقوله؟"

ثبت رأسها الى جبينه وهمس بإصرار:

-عديني أنك لن ترحلي وتتركيني، ستكونين معي مهما فعلت ومهما حدث فلن تتركيني، كلم فتحت عيني سأجدك هنا معي بالقرب مني،"

انتباها الجزع للحظة قبل ان تفكر انه لابد قصده الخمر؟ يظنها لاتزال غاضبة منه بسبب عودته للخمر؟؟

-لا تقلق حبيبي انا لن أتركك ابداً"

-عديني"

-أعدك يا حبيبي"

رأت الارتياح على ملامح وجهه قبل أن يغلق عينيه الجامدتين للحظات ثم يقربها منه ويقبض على شفتيها بفمه بقوة لم يتعمدها جعلتها تتأوه ألماً قبل أن يفلتها قليلاً فقط ثم يفتح عينيه.. رات لمعانهما يخطف بصرها لمعان وكأن يخفي الدموع خلفهما وهو يهمس لعينيها:

-أحب عينيك ترنيمتي.. طالما أراهما فأنا حي"

****

نهاية الفصل

ترنيـــمة عذاب

الفصل الخامس والعشـــرون

***

يشق البُعد على العاشقيـن،

فتنـهمر شلالات الذكريات مُلـهمةٌ للقاءٍ،

يجرُ خلفه بقــاء..

اتحادٌ يخلُف حلماً بالـهنـاء..

وإلـهامٌ بديع.. يحكي عن لقاء قلبين..

همسُ عينيــن

واعترافٌ من بين شفتين صامتتين،

أن الحبَ باقٍ

رغم الفراق، رغم الألم، رغم الظنــون،

مُلْـهَمُ المشاعر..

لا تكتب في قصيدتك لحناً ترنيمته شقاء،

راقص نغمات الفرح،

وأشدو كلمات الهوى،

فالحب.. رغم كل الصعوبات هو رمزُ الحيــاة..

***

عبير قائد

بعد أسبوعيــن..//

**

اختارت كل جزء فيها بعناية، من سائل استحمامها ذو الرائحة العطرية المسكرة، الى طلاء شفتيها القرمزي مروراً بثوبها فرنسي التصميم وحذاءها عالي الكعب، حتى حقيبة يدها المطرزة باليد. كل شيء فيها كان ينبض

بالأنوثة، غالي الثمن، راقي الذوق رائع في أبسط تفاصيله، خصوصاً ذلك الالتفاف المميزة للتنورة الحريرية والتي أحاطت ببطنها الممتلئة بولي العهد، الأمير الصغير كما تناجيه ليلاً..

ثم انطلقت إليــه..

اتخذت قرارها.. بعد تفكير طويل بثقة امرأة أدركت ما تريد، وما تبحث عنه بالضبط، ذهبت إليه تطالب بكل ما هو حقــها.. ما عداه.

انطلقت اليه بكل قوتها، تعرف قيمتها ومن تكون، انطلقت بقوة السلطانة، امرأة يركض كلٌ خلفها، امرأة كانت ملكه وتخلت عنه.. والأن عادت من جديد.. تستعيد ما هو ملك لها.

وقفت أمام الأبواب الزجاجية التي فُتحت على مصراعيها لاستقبالها، بكل سطوتها الجديدة فهي لم تعد فقط السلطانة.. مديرة تحرير الصحيفة جزء من هذا الكيان العملاق، كلا.

انها السلطانة.. مالكة الأسهم.. زوجة الأمير.. رئيس مجلس ادارة الشركة بأكملها.

تخطت الاستقبال بثقة، دون أن تعير أدنى اهتمام للموظفة الجديدة ذات الكعبين العاليين والتي ركضت تقريباً خلفها..
هدفها محدد وتوقيتها كذلك، لا تريد أن تتأخر لدقيقة واحدة حتى.
وصلت الى الطابق حيث مكاتب الادارة وتوجهت دون طلب اذن من فريق السكرتارية الذي نظر اليها، بتوجس.. ثم قرروا بتعقل البقاء في أماكنهن.. بينما هي تتوجه نحو باب مزدوج، وبدون طلب اذن تفتحه على مصراعيه..
تصطنع دخولاً مدوياً كما يجب..
والدوي كان مشتركاً، كما كان وقعه في قاعة الاجتماعات التي لابد انها احتوت ما يقارب الستة عشر شخصاً وربما أكثر، كان وقعه أيضاً في قلبها.. وفي قلبه هو الأخر..
سرعان ما وقعت عينيها عليه .. هو فقط، انجذبت عينيها اليه بلا جهد يُذكر، يترأس الطاولة المستديرة الضخمة، عيناه عليها متسمرتين.. تأملته بجوع .. بشوق.. لكل تلك

الاسابيع التي مرت دون أن تراه ودون ان يغادر تفكيرها، صحوها ومنامها.
كان كما هو.. وان غزت الظلال الشقراء ذقنه كلحية خفيفة، ووجهه الصبياني اللعوب كسته ظلال الارهاق والمسؤولية الثقيلة..
رأته ينهض فتأملت جسده الممشوق وقد ازداد نحولاً لم يؤثر على كتفيه العريضين بتلك البدلة الرمادية المفصلة تماماً عليه، وجف ريقها وهي تمنع نفسها بصعوبة من الركض ورمي نفسها عليه.
كان يتقدم نحوها ببطء،، فتراجعت لا تعرف أهي الخشية منه أم من ذاتها الخائنة التي تكاد تجبرها على الركض والتمرغ بين ذراعيه..\
ثم جاء صوته.. بخشونة محببة لا تسمعها الا في أوقاتهما الحميمة.. ينادي باسمها وكأنما اشتاق للفظه الثقيل من بين شفتيه..
"ســـارة؟!!"
...
"ســـارة؟!!"

أكانت جزء من حلم يقظة يراه.. يزيد من عذاب الانتظار والحرمان الذي يعاني منه لأسابيع الأن، هو يفتقد صوتها حتى؟؟ ليأتيه طيفها وسط الاجتماع الشهري الموسع لأعضاء مجلس الادارة!!

مالذي يحدث ويقوده الى مثل هذا الجنون؟

هل فعلاً هي تقف هنا أمامه؟؟ تأملها بذهول صرف لا يعرف كيف خرج اسمها من فمه بتلك الطريقة الخرقاء.. كانت سارة..

امتلكته البهجة من الوريد للوريد وعيناه تتسعان استجابة لمنظرها المتفجر أمامه وكأن مجال الرؤية لعينيه لا يكفيه ويريد المزيد..

انها سارة ..!!

لفتها نظرته من أخمص قدميها في الحذاء الجلدي بكعبه المتوسط ولونه الأزرق ثم الثوب الازرق الحريري والذي أظهر تكور بطنها التي تحوي ابنه..

لم يشعر بساقيه وهي تقوده اليها.. كالعادة وكأن كل تلك الأسابيع لم تعني شيئاً، هي هنا.. اذاً فكل الدنيا هنا..

تأملها.. هناك شيء مختلف، نظرتها.. القوة التي تتسلح بها، ثم كانت خصلات شعرها الطويلة التي صُبغت باللون الاشقر لتبرز سمرتها الجميلة وتناقض عاصفة عينيها..

تقدمت تقابل خطواته ولكنها لم تتوقف لتلاقيه ، تركته مشدوهاً وواصلت خطواتها لتحتل مقعداً يتوسط الحلقة ورفعت رأسها بشموخ هاتفة:

-أعتقد بأنني جئت في الوقت المناسب..

نظر لها الجميع بتوتر، رأت نيران تقترب وتتحدث مع ركان بعصبية بينما عيناه لاتزال متسمرة عليها، وبخطوات متثاقلة اقترب واتخذ مقعده .. عيناه تشعان وهو يقول:

-مالذي تفعلينه سارة؟

ابتسمت للخشونة التي لم يستطع السيطرة بعد عليها وأخرجت من حقيبة أوراق صغيرة تحملها مستند قدمته له بابتسامة واثقة:

-ستجد كل ما تريده هنا سيد ركان.

تنهد بضيق والتقط المستند ليقرأه بسرعة، وظهر التغيير في نظرته سريعاً رافقه انعقاد حاجبيه الشقراوين وعينيه تعودان اليه بحدة بينما تقول:

-كما ترى، كل أسهم عائلة الشيب في المؤسسة تحت تصرفي الأن، أنا شريك بمقابل 40 بالمائة سيد ركان، قد يكون لديك الحق في الادارة ولكن.. لي الحق في التواجد في مجلسها.

حك ركان ذقنه بظهر كفه وفمه يلتوي بسخرية معيداً المستند الى الطاولة:

-ومن أنكر حقك سلطانة.. أنا فقط أستغرب من كونك تقومين بهذا العمل.. أين هو والدك؟

عقدت حاجبيها بحنق ولكنها حافظت على ثبات صوتها وهي تقول:

-والدي يثق تماماً بقدرتي على ادارة شؤون ممتلكات عائلتي.

رمقها بنظرة صارمة وهتف بقسوة:

-وماذا عن طفلك؟ ألا يحتاج منك الراحة والابتعاد عن الضغوط؟

نظرت سارة حولها بلمحة سريعة ورأت ملامح التهكم على بعض الوجوه فعادت اليه وهمست من بين أسنانها:

-ابنـــي، بحال جيدة جداً، ولا فضل لك بالأمر..

احمر وجهه بالغيظ لتبتسم وتشيح ببصرها ثم تنظر للأخرين بهدوء:
-هل سنبدأ الاجتماع أم نستمر بالتحدث بأمور لا طائل منها؟
اقتربت نيران في تلك اللحظة وبدأت بتوزيع بعض القوائم بينما اقترب أحد المصممين من شاشة عملاقة وبدأ بالتحدث عن انجازات الشركة في الاسابيع الماضية والتحديات التي واجهتها..
كانت تعي نظراته المسلطة عليها ولكنها لم تهتز شعرة، بل استمرت في النظر لكل ما عداه بتحدٍ..
وهو كان يحترق، ينظر لها ولا يحيد بنظره عنها..
يكره قوتها تلك الذي جعلتها تعود اليه بعد غياب أسابيع، وسط اجتماع مجلس ادارة ..
ثانِ اجتماع يترأسه، بعد توليه رئاسة المجلس بتكليف من سليم الذي أبعد شاهر نهائياً عن روما، وأبقاه هو مكانه، وكذلك نيران.
ولكن سارة كانت تهدف لشيء أكبر من مجرد الحصول على مقعد في مجلس الادارة..
وعليه اللعنة لو لم يعرف ما هو.

أراد بشدة أن يقفز من مقعده الأن، يركض اليها ويشبع شوقه لها حالاً وأمام الجميع هو لا يهتم.
ولكنه صبر، بقدر كل الشوق في أعماقه تحلى بالصبر وتماسك، لا يعرف أي من المسائل نوقشت هو فقط كان ينهي كل نقاش بزمجرة موافقة أو رافضة دون أن يعي ماهيتها بالضبط، ومن نظرات من حوله أدرك أنه ارتكب بعض الحماقات ولكنه لن يتراجع، فلتكن حماقة هو لا يهتم.
انفض الاجتماع بعد ساعة وربما أكثر..
ونهض الجميع وهي معهم، ستغادر الأن، بكل أناقة نهضت لتغادر..
وهو.. !!
شعرت بأصابع فولاذية تقبض على مرفقها فالتفتت اليه بحدة وهمست:
-اتركني.
-تعالي، سنتكلم.
هتف بأنفاس لاهثة لتنفض ذراعها من قبضته وتصر:
-لا يوجد كلام بيننا، انتهينا ألا تفهم؟!

رفع حاجبه باستنكار وقبل أن تجد الوقت لتعترض كان يدفعها أمامه بقسوة جعلتها تتأوه وساقيها مرغمتان على التقدم، تدرك نظرات الجميع وتشعر بالخجل.. وحالما جمعهما مكتبه المغلق حتى تخلصت منه بعصبية وصرخت في وجهه:

-ألن تكف عن تصرفاتك الصبيانية هذه ركان؟؟ مهما كبرت تظل الولد الارعن الذي يريد كل شيء؟

واجهها بنظرات عابسة:

-مالذي تفعلينه سارة..؟؟ تأتين الى هنا بقدميكِ وتتمنعين عني؟؟ لماذا؟ مالذي تهدفين اليه يا ابنة السلاطين؟

عقدت ذراعيها امام صدرها ونظرت اليه بشموخ:

-أنا لم آتي إليك.. أنا أتيت لأستعيد ما هو لي ركان باشا، لم أعد من أجلك أنت.

استحمل الاهانة ولكنه صحح لها بتعالٍ:

-لم اعد باشا سلطــانة.

رفعت حاجبها وهمست بسخرية:

-صحيح.. نسيت.. المعذرة..
ثم انحنت بتهكم قائلة:
-سموك.
-سارة..
هتف بعنف جعلها تشيح عنه وتتجه نحو الباب:
-يبدو أن لا شيء لديك تقوله، ربما يجب أن أرحل.
-انتظري مالذي تقولينه؟
اعترضها بسرعة فرفعت عينيها تريد ان تعرف كل شيء:
-أخبرني.. تكلم.
ارتبكت عيناه، للحظات وجيزة .. جعلتها تعبس وتستعد للخروج حين صاح بيأس:
-أنا لم أخنك قط من قبل.. لم اخنك ولم أفكر بأي امرأة منذ عرفتك سارة.
توقفت تأخذ أنفاساً عميقة، الواحد تلو الأخر وركان يقترب هامساً:
-سييرا وما فعلته كان مجرد خطة حقيرة للتفريق بيننا، يجب أن تفهمي هذا جيداً.

اغمضت عينيها للحظة والألم لذكرى منظرهما معاً يقتلها.. يوجعها أن تراهما من جديد.. وكأنما حدث بالأمس.. لا بل هو يحدث الأن امامها..
التفتت اليه عينيها تلمعان بالألم والاسى:
-أصمت.. لقد رأيتكما بأم عيني ركان، أتريدني أن أكذب عيني؟
اقترب بعينين متسعتين:
-لا حبيبتي، أريدك فقط أن تثقي بي.
-من الصعب جداً أن تستعيد الثقة التي فقدتها ركان.
تنهد بتعب:
دعيني أحاول، لا تقفلي كل الأبواب سارة، ليس من أجلي فقط.
ثم اقترب أكثر وأمسك كتفيها وهزها برفق:
-نحن لم نعد وحدنا، نحن عائلة الأن سارة، ألا تريدين أن نعود كما كنا.
شعرت بالحرارة تجتاحها من لمسته، حاولت أن تسيطر على لهفتها، رغبتها، ذوبانها المحرج والذي يدفعها اليه.. ولكن ركان استمر في ضغطه:

-ألا تريدين لولدنا أن يكبر بيننا سارة؟ ألا تريدين أن نكون عائلة؟؟
رفعت عينيها اليه..
دامعة محمرة تشعر بالغيظ..
-أهذا كل ما تفكر به؟؟
ارتبكت نظرته وتراجع بحذر لتنفجر بألم:
-الطفل وما سيعانيه؟؟ ماذا عني؟؟ ماذا عن أمه التي رأت الرجل الذي تحب متمرغ في حضن امرأة سواها؟؟ ماذا عن خداعك لي؟
ابتلع ركان ريقه واقترب من جديد ولكنها كانت عازمة، تراجعت بحدة أكبر وهمست بحدة:
-ما حدث لن يصلحه مجرد اعتذار ركان، أنت تحتاج الكثير لتكسب ثقتي من جديد، ناهيك عن مسامحتي من الأساس.
ثم قالت بحدة:
-أتيت فقط لأحافظ على حقوق عائلتي، والتي بطريقتك الخرقاء هذه في الادارة ستؤدي بها الى المجهول..
ونظرت له ساخرة:

ـعليك ان تتابع بشكل أفضل ما يحدث في غرفة اجتماعاتك سموك، بعض ما وافقت عليه في الاجتماع سيؤدي بالمؤسسة الى التهلكة.

وقبل أن تسمع ما لديه ليقوله، كانت تستدير على عقبيها، وتخرج مصممة على البقاء بعيدة.. ولكن في متناول يده.. ابتسامتها تتألق على وجهها وخطتها لاستعادة مكانها في كل شيء تتحقق بأسرع مما خططت.

***

تدفقت المياه قوية، ساخنة..

ووقف تحتها مغلقاً لعينيه.. يشعر بالألم ينزاح وأخيراً، بعد أن استطاع، وأخيراً الحصول على الحبوب من جديد.. تنهد، وخرج من تحت المـاء يلف حوله المنشفة، ويقف أمام المرآة..

حاول التهرب من رؤية وجهه ولكنه لم يستطع..

وجه ناحل.. عينين غائرتين.. لحية كثيفة .. حتى شعره استطال وبات مزعجاً..

رباه لو يقدر على تحطيم صورته التي ظهرت أمامه الأن، كل شيء أصبح سيئاً.. كل الأمور تؤول للأسوأ والأسوأ..

زفر أنفاساً عميـقة..
الاتحاد الفيدرالي للطيران علق رخصته الدوليـة حتى التقرير الطبي النهائي.
ألام رأسه ورؤيته تزداد سوءاً.. النوبات تهاجمه بفترات أقرب..
الحبوب.. الحبوب لم تعد تكفيه ولم تعد تهدئه إلا لوقت قصير فقط..
وأصبح اعتماده عليها كلياً..
ثم كانت ترنيـم..
اغمض عينيه بألم وهو يتذكر ترنيم.. الحلم الرقيق الذي يسكن معه. والذي يؤذيه دون تعمد.. يؤذيها بكل تصرفاته المجنونة حين يحتاج جسده للحبوب، يؤلمها بكلماته وتصرفاته..
ثم يعود يتمرغ بين ذراعيها يطلب عفوها وحبـها.. وهي تعطيه دون مقابل..
دون أن تعترض أو تسأل، يعرف أنها تشك.. وكيف لا تفعل.
تنهد من جديد.. وحينها سمع الطرقات الخافتة على الباب قبل أن تدخل هي بخطوات مترددة..
-أأنت بخير؟

همست بقلق.. عينيها واسعتين وهي تلتهم تفاصيل حبيبها التي تعذبها..
منذ أن عرف بأمر الغاء رخصته وهو يكاد يفقد عقله..
لا يأكل كما يجب.. نوبات الصداع تزداد، ثم كانت تلك الحبوب التي يتناولها كما يظن خفية؟؟ ولكنها تعرف.. وكيف لا تعرف..؟؟
ابتلعت ريقها واقتربت منه حين مد ذراعه لها..
احاط بخصرها وضمها اليه لتشاركه الرؤية عبر المرآة..
-تحتاج ذقنك للحلاقة..!
همست وهي تمرر أصابعها على شعيراته الناعمة ليلوي عنقه ويقبل راحتها بوله:
-ليس الأن.. لا أشعر بأني بخير.
تنهدت بضيق..
في كل مرة تريد منه شيئاً.. في كل مرة تطلب مشاركته بشيء هو لا يشعر بأنه بخير، انه متقوقع على نفسه، لا يخرج من عتبة شقته الا في وقت متأخر من الليل في أيام محددة ليغيب

لساعة او ساعتين ثم يعود بمزاج أفضل.. ومرح مضاعف، لم يعد للخمر.. ليس بعد تلك الليلة.
ولكنه يخفي عنها ما هو أدهى.. وهي تشك.. وقلبها ينغزها بقوة.
تنهدت والتفت بين ذراعيه لتنظر له:
-أوسي.. أنت يجب أن تحلق ذقنك، تقصر من شعرك.. ثم تأتي معي لزيارة العمة فاطمة.
تراجع أوس وأفلته هاتفاً بخشونة:
-لا أريد رؤية أحد.
زفرت بيأس ولحقت بخطواته السريعة للخارج وهي تصيح:
-ولكن يجب أن تفعل، أمك فاطمة خرجت من المشفى البارحة، بعد العملية الجراحية.. وأنت لم تكلف نفسك حتى عناء زيارتها أوس.
-أخبريهم انني متعب، أو في رحلة.
هتف باقتضاب لتصرخ بحنق:
-الكل سيكون هناك، حتى جساس أخبرتني صوان أنه سيذهب. وسيف سيصل في المساء.
التفت اليها مزمجراً:

-ألا تفهمين ترنيم؟؟ قلت لكِ لن أذهب، اتركيني وشأني، اغربي عن وجهي.
اتسعت عينيها بصدمة لثانية ربما قبل أن تستدير وتختفي..
تنفس بقوة ويديه تنغرسان في شعره وتجذبان خصلاته الطويلة بقوة حتى كد ينتزعه من جذوره، مالذي يفعله؟؟
انه يدمر حياته بالكامل؟!!
توسعت عيناه بصعوبة.. الرؤية تزداد ضبابية، الصداع يضرب خلايا مخه ويكاد يحطم جمجمته..
جلس متهالكاً، يلهث وكأنما كان في سباق..
"ترنيييييم"
صاح بصوت شاحب..
لم ترد..
كانت تقف أمام النافذة تحاول ان تجفف دموعها التي ذرفتها بسببه للمرة التي لا تتذكر كم؟ لقد تكرر هذا الموقف كثيراً خلال الفترة الماضية.. كل يوم وكل مرة تواجهه بها بانعزاله أو تناقش

معه سبل علاجه من حالته تلك.. يقابلها بنفس هذا الانفجار.
يجرحها.. يقتلها حزنه وألمه.. وهي عاجزة لا تعرف كيف تتصرف؟ كيف تواجه هذا الحمل الثقيل دون أن يكون لها القدرة على البوح لأحد بتصرفاته أو ما يجب فعله معه؟
شهقت باكية ..
من ناحية هو أوس.. بكل ما يحدث له بسببها هي، تشعر بالذنب يقتلها؟ احساس بالمسؤولية يجثم على كتفيها وترزح تحته دون سبيل للتهرب او الفرار.
حين دوى صوته يناديها.. !!
محملاً بالألم والوجع، خنقتها العبرات وهي تمسح دموعها بقهر ليعاود صوته مناجاتها.. فتركض اليه وتجده متهالكاً على الاريكة تَفَصَّدَ من جبينه وصدره العرق، وعينيه ضائعة في الفراغ أمامه..
-أوس؟!

هتفت بلهفة وهي تجلس قربه وتحيط كتفيه بذراعيها ليقترب ويضع رأسه على صدرها وهو يغلق عينيه بقوة ويهمس:

-انا أسف.. أرجوكِ ترنيم.. سامحيني لم أقصد الصراخ عليكِ.

عانقت رأسه وجاهدت كي لا تذرف دموعها قبلت خصلات شعره المبلولة وسمعته:

-لا اريد اغضابك حبيبتي.. لا أريد أن أجرحك أو أتسبب ببكائك.

-أريدك أن تخرج من هذه الحالة أوس، أريدك أن تكف عن الرثاء لنفسك.. واجه العالم كل لن يفدك الاختباء بشيء.

عانقها بقوة كادت معها تصرخ وهتف بحرارة:

-سأفعل ما تريدين ولكنني بحاجة للوقت.

عضت شفتيها للألم والضعف في صوته.. ولكنها شددت من ذراعيها حوله وهمست له برقة:

-لا بأس عليك حبيبي، ستجدني معك على الدوام، لن أتركك للحظة واحدة.

عقد حاجبيه وتساءل ورعشة باردة تشق عموده الفقري:

-أتعدينني ؟
-أعدك.
همست بصوت مرتجف.. تخشى من قوة الوعد الذي قطعته على نفسها له، وتخشى من تبعاته وما يمكن أن يحدث له ولها.
-عدني أنت بالمقابل.
همست تستغل الضعف الذي يركن اليه الان فتساءل عن هيه الوعد لتجيب يحذر:
-عدني أن تأتي معي الليلة لزيارة العمة فاطمة.
ابتعد عنها بما يسمح ان ينظر لعينيها الصلبة في تلك اللحظة..
-حسناً.
استجاب دون ضغط لتبتلع ريقها وتحاول من جديد:
-هناك أمر أخر..
وواصلت حين رأت الحيرة في عينيه:
-سنذهب لزيارة الطبيب في الغد.
انتفض واقفاً برفض للفكرة فتهمس بألم:
-ستأتي معي للطبيب أوس، وإلا فلن أسامحك عمري كله أتفهم.؟

نظر لها باستنكار ولكنه لم يجادل.. رأى الدموع تنهمر من عينيها بوجع لمسه بإحساس وجعله يتراجع عن عصبيته المفرطة ويعاد هو هذه المرة ليحتضنها برفق:

-لا تبكي.. سأفعل ما تريدين فقط لا تبكي حبيبتي.

نشجت وهي تتعلق بكتفيه وتتنشق عبق رائحته الرائعة وهي تعد نفسها أنها لن تسمح له بتدمير البقية الباقية من نفسه مطلقاً..

ذلك المساء انطلقا معاً بسيارته الى فيلا السلطان، كان يقود بحذر، هو لم يقد السيارة منذ فترة طويلة وكان يعتمد في كل مشاويره على سيارات الاجرة ولكن هذه الليلة شعر بأنه قادر. وفي الأصل هو لم يرد أن يظهر بمظهر العجز أمامها،، وهي بكل بساطتها تقبلت أن يقودها رجل مهدد بفقد بصره بأي لحظة دون أن تفكر.. ثقة عمياء.

الطريق الى خارج المدينة كان سريعاً، وكان اوس يركز به بكل قوته..

-هل سنبيت الليلة هناك؟

همست ترنيم لينظر لها بخفة ثم تعود عيناه للطريق فتجيب مبتسمة:
-السهرة ستطول بالتأكيد، ولا اريد أن نعود كل هذا الطريق قرب الفجر حبيبي.
-سنرى..
همهم بجفاء فتنهدت وعادت تنظر للطريق..
بصمت لم تقطعه سوى صوت أنفاسهما معاً، والهدير الخافت من محرك السيارة.. غاصت في مقعدها وهي تعبس.. أين هو أوس المحب الذكي الذي تعرفت عليه وقلب عالمها رأساً على عقب، دون أن يعطيها الفرصة حتى لأخذ أنفاسها؟!!
زمت شفتيها ثم شهقت متفاجئة حين شعرت بأصبعه تداعب شفتيها برقة وهو يهمس:
-لم العبوس ترنيمة؟؟
برد فعل غريزية التقطت كفه وقبلت أصابعه المضمومة اليها ثم قالت مبتسمة:
-كنت اتساءل أين ذهبت؟
عقد حاجبيه والتفت اليها ولكنها حركت رأسها لتصرف عنه الأمر فعادت عيناه على الطريق بحركة حادة سببت له مهمازاً قاسياً مؤلماً اخترق

رأسه وبين عينيه كسهم من نار جعله يغمض عينيه بقوة لبضع ثوان فقط..
كانت كافية للغاية كي تخرج السيارة من مسارها وتنطلق صرخة ترنيم الحادة بفزع.. ويعود هو الى رشده ويفتح عينيه متجاوزاً الألم ليهرب من رتل السيارات أمامه ويعيد سيارته الى مسارها الصحيح، متجاهلاً الاعتراضات الحادة من رواد الطريق، وصرخة ترنيم العالية وهي تطلب منه أن يبقى عينيه على الطريق.. وإلا فسيؤدي بهما الى التهلكة..
امتدت ذراعه بسرعة لتضبط القيادة الألية وعاد يسترخي في مقعده وهو يسمع الرسالة الصوتية التي تنبهه ان القائد الألي يتحكم بالسيارة..
-أنت لا تريد قتلنا أوس؟؟
-تبــاً ترنيمة.. بالطبع لا اريد.
هتف بسخط ثم عاد يدير عينيه الى الطريق..
أنفاسه ثائرة .. غاضب، غاضب حتى الموت مما كاد يتسبب به. رباه لقد كاد يودي بحياتهما معــاً.
رأى كيف انكمشت الترنيمة في مقعدها وتذكر عقدتها من الحوادث، وكره نفسه أكثر..

أوقف استخدام القيادة الآلية واوقف السيارة في منعطف قريب، ثم التفت اليها وجذبها بين ذراعيه بقوة وهو يهتف:

-هل أنت بخير؟

تنفست بعمق وذراعيها حوله.. أسندت رأسها على صدره وهمست مرتجفة:

-لقد أرعبتني.

زفر بضيق وهمهم يسند وجهه الى رأسها:

-أنا أسف، لقد.. لقد شردت.

مست جانب صدره الأيسر وتحسست نبضه المتسارع لتدرك أن خوفه يضاهي خوفها.. فابتسمت ورفعت عينيها اليه هامسة:

-لا بأس، مثل هذه الأشياء تعيد الحياة للأجساد الخاوية.

رفع حاجبه بتوجس وقال باضطراب:

-أو تسلبها.. هل أنت بخير فعلاً؟؟

ضحكت وتراجعت عنه مشيرة للطريق:

-نعم بخير أوسي، والأن لنذهب قبل أن يرسلوا فرقة للبحث عنا لقد أخبرت صوان أننا غادرنا بالفعل.

تنهد وعاد يشعل السيارة، وانطلق لمنزل أمه فاطمة..

وصلا بعد دقائق معدودة، رأى سيارة سيف رابضة أمام المدخل، وحالما دخلا الى الفيلا وجداه ينهي مكالمة ما ويقترب منهما بسرعة..

-مساء الخير، كيف حالك ترنيم؟

-مساء النور.. بخير، أين الجميع؟

ردت ترنيم بهدوء ليشير لها سيف نحو الطابق العلوي:

-فوق.. في جناح عمتي فاطمة.

بدءا بالتحرك معاً إلا أن سيف قبض على ذراع أوس وقال بحدة:

-أريدك في كلمة..

والتفت لترنيم وهمس بخشونة:

-تعرفين طريقك ترنيم؟

عقدت ترنيم حاجبيها ثم رمقت أوس بتساؤل ليومئ لها أن تسبقه ثم التفت لسيف..

راقب سيف خطوات ترنيم السريعة لتغيب عبر السلم الى الطابق العلوي والتفت لأوس الذي قال بسخرية:

-هل وافوك بالتقرير؟
عقد سيف حاجبيه بغضب وصاح بأوس:
-مالذي حدث بالضبط؟؟ فقدت السيطرة على سيارتك أم أنها كانت مخربة؟
-يالهي سيف هل جننت؟؟
صرخ أوس بغضب أشد وتخلص من قبضة سيف القاسية وتراجع بضع خطوات:
-لقد كنت أشك بأنهم رجالك، ولكنني رجوت ألا يكونوا كذلك بالفعل.
-وماذا كنت تريد؟؟ رجال مختار الراجي؟
تلفت أوس حوله يتأكد من عدم وجود أحد ثم التفت لسيف وسأله:
-لماذا تتبعني؟
-أنا أقوم بحمايتك أوس، أنت مهدد بالخطر، أنت لا تعرف ما عرفته عن حماك العزيز وتعاملاته المشبوهة هو وابن أخيه القذر.
زفر أوس بضيق وهز رأسه محاولاً تجاهل الصداع الذي عاد ليضرب أوتاره بقسوة:
-لا يهمني منهما شيء، أنا وترنيم بعيدين عنهما تماماً.

-ولكنهما لا يريدان هذا البعد، فكما عرفت رجال أشرف الراجي يتابعونك من بعيد.. انهم يتحينون الفرصة لمهاجمتك من جديد.

هتف سيف بعنف ليرد أوس بعند:

-أنا كفيل بهم، أخبرتك ألا تتدخل حالياً بيني وبينهم، لا يوجد ما يستحق.

-ومتى تريد منا التدخل، حين أجدك غارقاً بدمائك؟؟

-هذا لن يحدث.

رد أوس ببرود ثم اتجه بخطوات سريعة نحو اسفل الدرج ليصرخ به سيف:

-أوس يا أحمق الجميع فوق.

-سأتناول مسكناً للصداع وألحق بك.

هتف بصوت مكتوم وهو يغيب الى الجهة الخلفي حيث وجد الخالة سعاد وطلب منها كوباً من الماء..

ثم اخرج من محفظته كيساً صغيراً يحوي باقي الحبوب المخدرة..

كان الألم عنيفاً لدرجة أن الرؤية تهتز أمامه..

تناول حبتين وتجرع الماء خلفهما عطشاً..

ثم جلس على مقعد قريب ينتظر البدء بمفعول الحبوب.. والذي لم يتأخر..

***

حين ارتدت ثوبها لليلة لم تعرف مدى تأثيره عليه..

فاللون الأحمر القاني عكس برونق بشرتها السمراء الحريرية.. وتهادى شعرها كثيفاً بلون البندق الى خصرها بينما تجلس الى جوار أمها وتحيط كتفيها بذراعها..

تلاحظ نظراته المسلطة عليها وتكبح ابتسامتها المولعة بصعوبة..

هو أيضاً كان بأبهى حلة..

فقد ارتدى قميصاً ناعماً بلون الموج الأزرق وعليه سترة رمادية وسروال باللون نفسه، ازداد وزنه خلال الأسبوعين الماضيين، لونه استعاد رونقه،، حتى ندبات وجهه وعنقه لم تعد بذلك الوضوح..

بريق عينيه ازداد ..

بريق يشي بسعادته.. خصوصاً في أخر عشرة أيام حين أعلنت أمه ضرورة سفرها الى مصر

لأمور متعلقة بالمشغل الذي تملكه.. فعادت هي وتلك الشمطاء المسماة عرضاً بشيماء..!!
فكان أيامهما العشرة السابقة .. جزءاً من جنة..
-الحمد لله على سلامتك عمتي.
نظرت فاطمة لجساس بابتسامة هادئة وعادت تنظر لابنتها التي تنطق الابتسامة من عينيها، وكل حركاتها، تنهدت وعادت له هامسة:
-بخير يا بني، شكراً لك.
-بإذن الله ستكون كل الأمور بخير.
قال بحذر وهو يتراجع، وعينيه في عيني زوجته التي تبسمت بعاطفة، وطرفت بعينها ليبتسم ويجلس بالقرب من الفراش، في الجهة المقابلة كانت تجلس ترنيم التي تطالع الباب في كل لحظة، بانتظار دخول زوجها الذي لم يتأخر..
ودخل بصخبه المعهود، ليحتل الجهة الأخرى بالقرب من أمه فاطمة ويحيطها بذراعيه وهو يقبل رأسها قائلاً بسعادة:
-حمدا لله على سلامتك أمي، جعلني فدا رأسك يا فطومة..

ضحكت فاطمة وقبلت وجنتيه ولامستهما بحنان وهي تقول:
-هكذا العشم يا ابن أبيك؟؟ لا تأتي لزيارتي في المستشفى سوى مرة واحدة؟
طبع قبلة صاخبة على وجنتها وقال ممازحاً:
-لم أجد الوقت يا عزيزتي، لم تمكثي سوى يومين اثنين لو أكثر كنت سآتي بالطبع.
ضربته صوان على كتفه وهتفت بحنق:
-لا تقل هذا أوس، الحمد لله أنهما يومين لا أكثر.
ضحك مغيظاً لصوان وعاد يحتضن فاطمة التي تأوهت بألم:
-توقفا أيها الأحمقين.. أنتما تؤلمانني..
تراجع الاثنين بارتباك في حين نهض جساس وقال لصوان بعتب:
-صوان لا ترهقي عمتي.
تراجعت صوان والذنب يطل من عينيها، فيما تدخلت أمها هامسة بجفاء:
-لا تقلقي حبيبتي أنت لا ترهقيني البتة.
ثم همست برجاء:
-هل ستبقين الليـلة معي؟

اومأت لها صوان بحماس ثم عانقتها بينما عقد جساس حاجبيه بتوتر، لا يريد ان يرفض.. فالأمور مع عمته ليست على ما يرام وهو لا يريد أن يزيد الوضع سوءاً.. ولكنه لم يعتد البعد عنها..

تجهم وجهه.. ليس منذ أصبحت له هو لا يطيق البعد عنها..

-صوان هل تسمحين؟

همهم بجدية لتنهض صوانة وتقترب منه فيختلي بها في ركن قصي وسألها بتوتر:

-متى قررتِ البيات؟ لم تخبريني؟

مست ذراعه بقلق:

-لم أخطط للأمر طلبت امي مني ولا أقدر على الرفض، أنا يجب ان أبقى معها لبعض الوقت جساس.

ابتلع ريقه وهمس بعصبية:

-وتتركينني وحدي؟

رفعت حاجبيها بحنان وردت بعاطفة:

-تعال أنت أيضاً.. مالسيء في بقاءك معنا، غرفتي موجودة وتسعنا معاً.

-عمتي لا تطيقني.
غمغم بحنق لتكتم ابتسامتها من غضبه الصبياني، وتطيب خاطره:
-أمي ربتك منذ كنت طفلاً.. هي فقط غاضبة مني أنا، ولكنها تظهره عليك.. ألا تريد تحملها قليلاً.
-لم اقصد هذا..
قال بحنق لتبتسم بحنان وتتأبط ذراعه:
-اذاً سوف تنسى كل هذا الهراء، وتبيت معنا..
تنهد مستسلماً لتتسع ابتسامتها وتلقي له قبلة في الهواء خفية عن الجميع ليبتسم بغرور رجولي صرف، ويهمس لها بتوق:
-فيما بعد..
احمرت وجنتيها وهمست بحرج:
-تحشم نحن في بيت أبي.
ضحك بخفوت ثم ابتعد عنها لتعود بين أحضان أمها تخفي خجلها وفاطمة من الناحية الأخرى تخفي قلقها، وتنظر لأوس ذو العينين العابثتين هامسة:
-هل تشعر بخير بني؟؟ تبدو على غير طبيعتك؟

تحفزت ترنيم ونهضت تقترب منهم بقلق بينما رفع أوس ذراعيه وقال ضاحكاً:
-أمي حبيبة قلبي انا بألف خير.
تنهد فاطمة:
-تبدو مرهقاً أوس.. و خسرت وزناً..
ضحك بصخب وقال بحاجبين متلاعبين:
-اعترف أنها ترنيمتي أمي، هي لا تعطيني الفرصة للتنفس..
شهقت ترنيم بينما ضحكت فاطمة بارتباك وعقدت صوان حاجبيها باستغراب..
-من الأفضل أن نعود.
هتفت ترنيم بعصبية لينظر لها بتهكم:
-ظننتك تريدين المبيت؟
نظرت له بحدة.. ترى النظرات الزائغة وارتجاف اصابعه الذي يجاهد ليخفيه وشعرت بالمرارة تغزوها، هل عاد للحبوب؟؟ لقد وعدها.. وعدها ألا يتناولها من جديد..
ولكنه لم يفي بوعده..
-نعم بنيتي ابقيا أنتما ايضاً.

همست فاطمة.. ولكن ترنيم يجب أن تعود به الى المنزل لا تريده أن يسبب لهما المزيد من المشاكل، لا تريده أن يرتكب الحماقات أمام عائلته فيكتشفون سره.

سيرتكب حماقة.. جساس أو سيف سيكتشفون أمره.. وربما صوان أو العمة فاطمة.. وحينها ماذا سيحدث؟؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وهمست للمرأة المريضة بخجل:

-اعذريني يا عمة، لم أحضر ملابس لنا للمبيت، ثم أننا لدينا موعد مبكر مع الطبيب.

اتسعت عينا فاطمة وقالت بقلق:

-لم؟؟ مالأمر؟

أشاحت ترنيم عنهم لينهض أوس ووجهه جامد دون تعبير يشعر بالضغط الذي تمارسه عليه زوجته ربما للمرة الأولى.. ولكنه لن يكن ابن الشيب لو تركها تفعل.. نظراته الزائغة، أنفاسه اللاهثة، والحنق المنصب من كل عرق من عروقه جعله يبتسم بتهكم ويقترب منها ليحيط بها بذراعيه هاتفاً:

-نريد التأكد من اختبار الحمل أمي.
شهقت صوان واتسعت عيني فاطمة بفرح بينما التفتت ترنيم بجسدها كله تنظر لأوس بذهول ليواصل هو بدهاء:
-لم نكن نريد اطلاع أحد على الأخبار السارة حتى التأكد منها.
"أووووس"
همست بتحذير ليقربها منه هامساً لعينيها:
-أنا .. لا أُهدد حبيبتي.
قالها ببطء لعينيها بينما تلتمع عينيه بتحدٍ شرس جعلها حقاً تشعر بالخوف..
-ترنيم متى كنت تنوين اخبارنا؟
هتفت صوان بفرح لتهمس ترنيم بحشرجة:
-ليس هناك حمل، نحن..
ثم التفت اليهن و همست بارتباك:
-نريد الاطمئنان فقط.
رفعت فاطمة يديها بدعوة خالصة بينما قالت صوان بحماس:
-ان شاءالله حمل، يااارب حمل..

ضحك أوس بجفاء وأحاط بخصر ترنيم بذراعه وجذبها اليه وهو يقول:
-ان شاءالله.. والان سنعود للمنزل.
-هل ستبلغنا الأخبار السعيدة غداً؟
صاحت امه بلهفة ليومئ لها بحماس ويدفع بترنيم امامه وهو يلقي بالتحية على صوان وجساس..
كان سيف في الأسفل مع عمه حسن الذي عانق أوس وربت على ظهره بحنان قبل أن يودعهما بحرارة ويصعد هو الأخر الى فوق..
-انتظريني عند السيارة..
قال لترنيم التي لم تنتظره ليكمل عبارته بل أسرعت للخارج في حين التفت هو الى سيف ورفع اصبعه محذراً:
-أبعد رجالك عني، وإلا فلست مسؤولاً عما سأفعله.
-انهم لحمايتك يا أحمق.
قال سيف بعنف ليرمقه اوس من فوق كتفه وهو يقول:
-سمعتني سيف، أبعدهم عني.

قالها وانطلق خلف زوجته.. كانت تقف بالقرب من سيارته وما ان اتجه لمقعد السائق حتى هتفت به بحدة:

-أنت لن تقود.

نظر لها باستغراب فصاحت:

-انت لست على طبيعتك أوس، دعنا نأخذ سيارة أجرة ونحضر السيارة في الصباح.

زفر أوس بضيق ودار حول السيارة ليقف أمامها ويهتف بغضب:

-هل جننتِ ترنيم، لم لا تريدين ركوب السيارة اللعينة.

-أنا لا أرفض ركوبها، أنا أرفض أن تقودها أنت.

هتفت بصوت مكتوم لتتسع عيناه يصرخ:

-لم؟!

-لأنك منتشٍ..

هتفت بألم ليتراجع بحدة وترنيم تصيح بوجع:

-انت تناولت الحبوب اوس، خذلتني ولم توفي بوعدك، وأنا لم أعد احتمل.

اهتزت نظرته قليلا:

-لا..لا تقولي هذا..

انسابت دموعها بصمت ليتراجع بحذر وهو يهمس:
-اصعدي..
هزت رأسها برفض ليصرخ بها بحدة:
-قلت لك اصعدي سنتكلم في المنزل..
بكت بمرارة ولكنها تغلبت على اعتراضها وصعدت الى جواره،، خرج من الفيلا محاولاً البقاء هادئاً، ولكن صوت بكاءها لم يساعده..
-اصمتي.. توقفي عن البكاء.
هتف بحدة لتشهق وهي تغطي فمها بكفها..
تباً لكِ ترنيم.. فكر بجنون.. لقد أطارت البقية الباقية من تأثير الحبوب التي أصبح مفعولها اقصر مع الوقت.. يشعر بالصداع يجتاحه من جديد.. يشعر باللهفة لضرب رأسه بالمقود عله يتخلص من الألم.
ريقه جاف وجسده كله يرتجف..
الرؤية أمامه مظللة.. والسيارة تندفع بجنون عبر الطريق الحر.. تعود الى المدينة السهرانة..
-أوس خفف السرعة.
همست باكية. ولكنه لم يخففها..

-أوس أنت تخيفني فقط خفف السرعة أرجوك..
عادت تهمس برجاء ليشتم بقذارة وترتفع قدمه عن دواسة الوقود، بخفة فتنخفض السرعة قليلاً.. ولكنها تظل عالية كثيراً بالنسبة لها..
ضمت ذراعيها اليها ودعت بصمت.. دموعها لا تزال تنهمر، والألم يحفر أخاديد اعلى وجنتيها.
أما أوس فلا يعرف حتى أن يفكر، دماغه كانت تعوم على سطح نهر رقراق، تحول الى بحر عاصف، متخبط، جعله يقع في حيرة.. في قلق..
أنفاسه لاهثة، والعرق يتفصد من جسده، يشعر بالارتعاش.. كل خلية في جسمه تنتفض، ريقه جاف، والرؤية .. تباً لهم جميعاً..
الرؤية تزداد ضبابية..
-هناك من يتبعنا..
همست ترنيم بذعر وهي تراقب السيارة السوداء الضخمة التي تتبعهما بإصرار، والتفتت لأوس الذي كانت عيناه لا تحيدان عن الطريق نظرة تصميم.
-أوس..؟!!
هتفت بذعر ليهمس بحزم:

-ترنيم أنت ستقودين السيارة..
اتسعت عينيها بذعر وهتفت:
-مستحيل..
-لا خيار لدينا ترنيم.. أنا..
لهث حينها واغلق عينيه ثم فتحهما على وسعهما وهو يصرخ:
-تعالي وقودي هذه السيارة اللعينة ترنيم..
-لا أستطيع.. ألا تفهم.. مستحيل أن أقود مستحيل.. لم تريد أن تعذبني؟؟
هتفت بهستيرية.. ليصرخ بجنون:
-لأنني لا أستطيع رؤية شيء امامي.. أنا لا أرى ألا تفهمين ترنيم.. لا أرى شيئاً..
اتسعت عينيها بذهول..
والتفتت بجسدها كله اليه..
عيناه.. متسمرتان على الطريق نعم .. ولكنهما خاليتين..
ضائعتين.. دون بريق..
انطفأ نورهما في لحظة.. وفي التالية .. كانا معاً يواجهان خطر الوقوع في المجهول..
***

****
****
******

أن تفقد ما لم تظن قط أنك قد تفقده..
جزء منك، جزء من جسدك..
قطعة من لحمك..
شطرٌ من أنوثتك..
تتركه وقد نهشه شيطان لا يرحم، تآكله فلم تجني منه سوى الألم، والعذاب..
جزء منك يرحل الى القبر قبلك..
تنساب دموعك تنعيه..
وكأنما كل ما يمثلك.. متعلق به.
...
وقفت ثابتة حتى ودعت ابنتها التي ذهبت لتحضر العشاء بعد أن وعدتها أنها سوف تأكل معهم جميعاً.
تقدمت الى المرآة الطويلة المنصوبة، أمامها وقفت مترددة..
تأملت نفسها..
لقد خسرت الكثير من وزنها في أسابيع قليلة..

لقد كانت دوماً بنيتها ممتلئة ولكن الأن.. ابتلعت ريقها بصعوبة ..
كفها تلامس رأسها بتردد.. خصلات شعرها البنية الثقيلة المحمرة بفعل الحناء، تساقطت.. باتت خفيفة واهنة تتكسر لأقل لمسة.. الفراغات ملئت هامتها، الشعيرات البيضاء غزت المتبقي منها.
تخللتها بأصابعها لتجدها تخرج بسهولة.. كأنما من عجين؟!
نزلت بأصابعها الى وجنتيها الغائرتين، تجاعيد لم تكن موجودة برزت بشكل بشع.. أخاديد حُفرت على بشرتها التي كانت رمزاً للبهاء والنضارة.. شفتيها متشققتان.. عنقها برزت عظامه..
كل شيء فيها يهزل.. حتى روحها!!
هذا ما فعله السرطان بها..
دمرها.. من الداخل صعوداً الى الخارج..
هشم نقاء روحها وأهدر نفسيتها.. أخطأ من قال أن السرطان مرض خبيث..
هو ليس كذلك فقط.. هو آفة ،

تتآكل الجسد من العمق.. وتنهش الروح .. وتتركها فريس سقمٍ لا يبرأ..
نشجت دموعها ألماً لا يُطاق..
وأصابعها لا تجرؤ على ملامسة بعضها المفقود، فقط تحوم حول الألم وكأنها تواسيه.. تخففه .. وتقف عاجزة.. لا حول لها ولا قوة.
"فاطـمة!!"
انتفضت بذعر وعانقت جسدها المشوه وهرعت تختبئ خلف ستارة الحمام وهي تصرخ بصوت مبحوح:
-اخرج.. اخرج يا حسن.
اتسعت عينا حسن الشيب بدهشة وقلق واقترب من زوجته بسرعة وهو يتساءل بحنق:
-مالأمر فاطمة؟ هل أنت بخير؟؟ ما بكِ؟
-لا تقترب مني حسن.. لا تقترب مني؟
صرخت بألم وهي تتقوقع على نفسها ليتراجع بذهول ..
نظر اليها تجلس في الزاوية .. وحيدة تضم ركبتيها الى صدرها وتنشج بصوت مبحوح، لم يشعر في حياته كلها بالذعر كما شعر الأن، ليس

حتى حين اكتشف أن امرأته الغالية مهددة بمرض قد يقضي على حياتها، لقد شعر حينها بالفزع عليها .. شعر برهبة.. الخوف من فكرة خسارتها.. ثم نسي كل شيء وتذكر شيئاً واحداً فقط.. أنه يجب أن يكون قوياً ليقف جوارها..
يكفي واحداً فقط منهما أن يشعر بالخوف ولا يجب أن يكون هو.
ولكن احساسه هذه المرة مختلف..
تراجع بغصة ملئت حلقه.. عليه أن يكون صادقاً مع نفسه، القوة الي تحلى بها من قبل، كانت هي مصدرها.. هي السبب في كونه قوياً متجلداً وصابراً..
وإن انهارت الأن؟!
هذا الانهيار يعني انهياره هو كذلك..
وهو لن يسمح بهذا.. لا لن يسمح..
اقترب منها متجاهلاً اعتراضها الواهي، وجلس الى جوارها محيطاً جسدها المنتفض بذراعيه وهو يهمهم لها بكلمات مطمئنة ناعمة ويديه تمسدان رأسها وكتفيها بقوة وثقة.

-لا تخافي فطومة، لا تخشي من أي شيء وأنا معكِ، كلنا معكِ حبيبتي.
نشجت بألم واستسلمت لذراعيه، وعناقه الحميم تريد التخلص من وجعها بين ذراعيه كما اعتادت، أن ترمي حملها على كتفيه فيتقبله بصدر رحب وقوة تجبرها على الاستسلام أكثر، والرضا بمساعدته لها.
رفع حسن وجهها اليه وقبل جبينها بمحبة ثم همس:
-أعلم أن الأمر صعب يا جميلتي، ولكننا معاً.. لن أتركِكِ تواجهين شيئاً بهذا الخصوص وحدكِ، سأكون معكِ خطوة بخطوة.. ما فقدتيه..
وتوقف للحظة لينظر في عينيها اللتان أخفضتهما بألم و همس:
-ما فقدتيه حبيبتي لا يعني قط أن شيئاً تغير، أن مشاعري نحوك.. مشاعرنا كلنا تغيرت؟؟ فاطمة..
واعتدل ليواجهها بجسده قائلاً بحرارة:
-فاطمة أنت روح هذا المنزل..
بكت بحرقة فواصل يحاول أن يوقف دموعها:

-ليس فقط روح المنزل.. أنت روح هذه العائلة كلها، أنت قمتِ بتربية ابناءها كقطعة منكِ، أنت لممت شمل الذئاب فاطمة..

-يا الله يا حسن ..

همست بوجع وهي ترتمي بين ذراعيه ليهتف بحرارة:

-أنت حبيبتي، أنت حطمتِ غرور الذئاب وابتعادهم عن بعضهم البعض، أنت جمعتهم معاً، جعلتهم أخوة وليس مجرد حيوانات شرسة تتقاتل فيما بينهم، أنت جعلت منهم عائلة..

ضمها اليه بقوة وعاد يهمس:

-لا شيء سيغير من نظرتي اليكِ، لا شيء سيغير من نظرتهم كلهم اليكِ..

وحمل وجهها بين كفيه ينظر الى دموعها المنهمرة ويمسحها بإبهاميه:

-جميعهم يرونك أفضل أم في العالم، وأنا .. أنا أراكِ أفضل امرأة.. قوية، محبة، حنونة.. وجميلة للغاية فطومتي.

-حبيبي..

همست بصوت اختلطت فيه السعادة بالألم، الفخر بالنقص.. أحاسيس مختلطة متباينة، ولكن الاحساس الأعمق والذي سيطر عليها بشكل كامل، أنها سعيـدة.

عانقته بقوة ودفنت رأسها في صدره وهي تدرك أن كل كلمة نطق بها كانت حقيقية.. من أعماق قلبه وليست مجرد كلمات يهدئ بها روحها الجريحة..

كانت ترى صدقه كما رأته من قبل، كما شعرته ولمسته بيديها منذ سنوات.

***

كانت الأمطار قد بدأت بالهطول حين توقفت السيارة أمام الفيلا المطلة على البحر وبدت السماء المظلمة أكثر قتامة باختفاء القمر، هبت ريح خفيفة تلاعبت بأغصان الأشجار التي تحف الطريق المؤدي الى البوابة الداخلية، ملقية بظلالها على الشبحين المتوجهين نحو المسكن ..

-يبدو المكان خالياً.

همست احداهما وهي تضم ياقة معطف ثقيل اليها بينما الأخرى تعانق حقيبة ملابس صغيرة وتقول:

-لقد أخبرني أنهما سيكونان في منزل عائلتها.

-ألهذا اخترتِ الليلة للعودة؟

-نحتاج أن نكون وحدنا الليلة لنتمم ما علينا فعله.

-أنا خائفة خالتي.

تنهدت نرجس وتوقفت تقبض على مرفق ابنة أختها شيماء وهمست بقسوة:

-فعلنا ما علينا فعله شيماء، بقي القليل فقط.. خطوة أخرى ونستطيع التخلص من تلك الفتاة في حياتنا والى الأبد.

-ولكن.. ماذا لو .. ماذا لو عرفوا بالأمر؟

-لن يعرف أحد.

هتفت نرجس قاطعة..

دخلتا الى الفيلا، أشعل شيماء الأضواء، وتوجهت نرجس مباشرة الى المطبخ..

تلككت شيماء تقضم اصبعها بتوتر، ثم تبعت خالتها بتردد..

نرجس كانت تضع بضع قطرات من شراب ما في علبة دواء خاصة بجساس فهمس بقلق:
-خالتي؟!!
-لا تقلقي انها مجرد قطرات ماء.
همست نرجس فصرخت شيماء بذعر:
-انها ليست مياه خالتي.
ارتجفت يد نرجس وهي تعيد الغطاء مكانه وتضع العلبة مكانها في رف الثلاجة حيث تحتفظ به الصوان، والتفتت لشيماء:
-توقفي عن النواح، لن يضره هذا بشيء.
-اننا نعبث بدوائه خالتي؟؟
ظهر الغضب على وجه نرجس وهمست وهي تتلفت حولها وكأنها تخشى أن تكون مراقبة:
-هل تظنينني حمقاء لهذه الدرجة كي أقتل ابني؟!!
-ماذا لو أصابه ضرر؟؟
-لن يصيبه الا ما نريده أن يصيبه يا حمقاء، رباه أنا أفعل كل هذا لأجلك.

صرخت بعنف جعل شيماء تنكمش مكانها وتتابع حركة عمتها التي فتحت خزانة علوية ووضعت بها كيساً ورقياً ملفوفاً بدقة وحرص..

-ماذا لو رأته صوان؟

-لن تفعل..

أجابت نرجس بضيق وواصلت بحدة:

-سيصلان غداً بعد صلاة المغرب، وحينها سيكون كل شيء جاهز.. لا تقلقي.

تحركت شيماء بتوتر لتصرخ بها نرجس:

-توقفي عن اثارة جنوني، اذهبي الى غرفتك، اتركيني أقوم بعملي.

ضربت شيماء قدمها بالأرض بحنق ثم اختفت عن ناظريها، راقبتها نرجس بغضب وحالما اختفت خلف الرواق، تهالكت نرجس على احد مقاعد طاولة الطعام وأسندت جبينها الى كفيها المعقودين بقوة تمنعها من الارتجاف، واغلقت عينيها بقوة..

جسدها كله يرتجف، وقلبها يخفق بجنون..

تستطيع القيام بهذا.. تقدر وستفعل، لأجل ولدها الوحيد للتخلص من تلك المرأة التي استحوذت على عقله.
عقله الذي سلبته له سمراء فاتنة، تتمايل كالغانيات أمامه الأن..
داخل غلالة من الحرير الأحمر، ذابت كقطعة من الشوكولاتة السمراء الغنية بين ذراعيه، وهو يغرقها بهمسات الغرام الأبدي .. والذي يسير بخطى ثابتة .. الى دماره..!!
***
انهيار تام هو ذاك الذي شعرت به ، تنظر لزوجها بذهول عيناه الشاخصة للأمام وأصابعه المتحلقة بقوة حول عجلة المقود ، كلها تقول أنه يمزح ..
لابد أنه يمزح ، لا يعقل أن يقول ما قاله إلا مازحاً ..
خطفت نظرة سريعة للطريق ثم للمرآة الأمامية .. الطريق المستقيم يبدو بلا نهاية والإضاءة شحيحة .. فيما تصر السيارة السوداء على ملاحقتهما !!
-أوس ؟!

همست بخشية كلها يرتجف ولا وقت للدموع..
-ترنيم.. بحق الله تعالي وقودي السيارة.
-لا أستطيع ..
ارتجفت كلماتها ونبرتها تنكسر ليغمض عينيه بقوة وتتكور كفه ليضرب المقود بقسوة هاتفاً:
-لا تكوني جبانة ترنيم ، أنا بحاجة إليكِ.. نحن .. ترنيم ..
هتف بلوعة :
-نحن بحاجة إليكِ.
-لا أستطيع .. لا أستطيع ..
-يا رب الكون، ترنيم تعالي الى هنا.
صرخ بها بعزم لتنتفض وتخرج من دائرة الفزع الذي غلفتها وتهمس بحذر:
-الى أين؟
-تعالي واجلسي أمامي..
هتف بسرعة لتتسع عينيها بذهول ولكنه لم يمهلها بل سرعان ما كان يجذبها لتجلس في الفراغ بينه وبين المقود، شعر حينها بارتجاف جسدها ولكنه لم يعلق، كان يجب عليه التصرف.. عليه رؤية

شيء بدل كل هذا الغمام الذي يحيط برأسه ويقصيه عمن حوله!

-ماذا أفعل؟

صرخت برعب وهي تتشبث بكفيه على المقود أمامها وعينيها شاخصتين للأمام..

-كوني عيناي..

هتف باقتضاب لتشهق ويواصل هو بحزم:

-أخبريني بأي اتجاه أذهب ترنيمة، قوديني للتخلص ممن يلاحقنا حبيبتي.

هزت رأسها بذعر ولكنه لم يرها، بل ضغط جسدها برفق وهمس:

-حاولي من أجلنا حبيبتي.

-لا أستطيع.. لم لا تفهم.. لا أقدر.. رباااااااه أوس الى اليمين..

هتفت عالياً وقبضتيها تتقلصان حول أصابعه على المقود بينما يديره بخفة مستجيباً لتعليماتها متفادياً انحناء الطريق الحاد وهو يهتف مشجعاً:

-هذا بالضبط ما أريد صغيرتي.. فقط استمري.

بكت بحرقة وعينيها تتنقلان بين الطريق المظلم والمرآة الامامية التي ترصد السيارة التي

تطاردهما بإصرار ولكن دون أن تقدم على أي فعل أخر..

-توجه الى اليسار.

همست بخفوت ليفعل ما تقول وهي تقوده بالضبط حيث يجب أن يذهب..

-حين نصل لمنزلنا سنتحدث بكل الامور.

-نحن لن نذهب الى الشقة.. استمر للأمام..

قالت وقد بدأت بتمالك نفسها ليعقد أوس حاجبيه فتستمر هي بصلابة:

-أنت ذاهب الى المشفى أوس، أرى اللافتة أمامي..

اتسعت عيناه وساقه تخف عن دواسة الوقود لتبطئ السيارة فجأة دفعتهما للأمام، وهو يقول:

-لا وقت للمستشفيات.

-ومتى يحين وقتها..

صرخت بعصبية ثم أضافت:

-استمر بالتقدم أمامك منحنى للدخول لبوابة الطوارئ.

شتم أوس وهو ينفذ تعليماتها ويسألها بحنق:

-السيارة خلفنا؟؟

-نظرت عبر المرآة الى السيارة التي بدأت بانقاص سرعتها وحين بدأ أوس بالدخول عبر مدخل الطوارئ كانت السيارة الأخرى تتجاوزهما ببطء جعلها تهمس:
-تجاوزونا للتو، انها فرصتنا أوقف السيارة..
زفر بارتياح واوقف السيارة مباشرة وسط الطريق مثيراً موجة من القلق وسط الساحة لتفتح ترنيم النافذة وتصرخ باثنين من الممرضين أن يقتربا ليساعداهما.
خرجت من السيارة وخرج أوس خلفها يصرخ بانزعاج:
-أنا بخير ترنيم.. لا داعي لكل هذه الجلبة.
نظرت اليه شزرا وهتفت:
-أنت لا ترى أوس؟؟ أليست هذه جلبة كافية لك؟؟
توقف بحدة وشعر حينها بمن يمسك بذراعيه ويقوده للأمام، كان احساساً يفوق الخيال، مؤلم..
حقاً مؤلم.. أن يُقاد هو .. أوس نضال الشيب عبر ممرات المستشفى كعاجز بلا حول ولا قوة؟!!
تحكمت الغصة بحباله الصوتية، ومنعته من الكلام تاركاً كل الحديث لترنيم التي لم تقصر

وهي تشرح لطبيب الاستقبال عن حالته بإسهاب وتصر على استدعاء اختصاصي المخ والأعصاب الذي يتابع علاجه..
أما ترنيم.. فلا تزال الرجفة تسيطر على أطرافها وتمنعها من الامساك بأي شيء، حتى كوب الماء الذي أحضرته ممرضة متعاطفة لها بعد ايداع أوس لغرفة الأشعة لاجراء فحص الرنين لدماغه، أوقعته أرضاً؟؟ ورفضت الثاني بحسم وعينيها لا تتركان باب القسم..
-مسكيـنة أنتِ يا ابنة عمي..
انتفضت بذهول واقفة..
كان أشرف؟!!
-ماذا تريد؟؟ ارحل قبل أن استدعي لك الشرطة.
هتفت بشراسة ليضحك دون مرح في صوته:
-افعلي يا ترنيم.. وحينها ستخسرين الكثير، والشيء الأول الذي ستخسرينه هو الرجل بالداخل.
انتفض قلبها بلوعة بينما أشرف يقف بمواجهتها ويقول باقتضاب:
-ستعودين معي الأن؟؟ أم ستنتظرين توديعه؟

-في أحلامك.
همست بشحوب والذعر يتمكن منها ليبتسم بسخرية:
-أنا أعرف جيداً ما يعانيه زوجك الهمام ترنيمة، أعرف بأمر الجلطة الدماغية التي تهدد بصره وحياته.. أعرف أنه للتو قد فقد عينيه والقادم.. القادم أسوأ.
شحب وجهها ليحاكي الجدران البيضاء حولها.. وتراجعت لتجلس على مقعد قريب وأشرف يقترب منها قائلاً بوحشية:
-ما حدث منذ قليل ترنيم هو البداية فقط.. المرة المقبلة لن نكتفي باتباعكما، المرة المقبلة سأنزل انا ورجالي واكسر عظامه أمامك دون أن يقدر على الرد.. عظمة تلو الأخرى..
رفعت عينيها المصدومتين اليه ورأته يضيف بجنون:
-والمرة التي بعدها سأتمتع بتقطيع لحمه بمطواة .. فقط لأراك تبكين بقدر رؤيتك لدمائه تسيل.
-أنت متوحش.. مجرم..
هتفت بصوت متحشرج.. ليضحك بخفة:

-لم تأتي بجديد يا قريبتي الصغيرة.. والأن ماهو قرارك؟

نظرت له بعنف:

-أنا لن أترك زوجي..

تراجع مبتسماً ببرود:

-ستفعلين .. ألم تعرفي نفسكِ بعد ترنيم؟؟ أنت لم يكن لديكِ قط القدرة على مواجهة الصعاب.. مجرد فتاة صغيرة مدللة خائفة..

-أصمت.

همست بألم ولكنه واصل بعجرفة:

-تقتلين صبياً صغيراً وتصرخين بأنك بريئة، وحين نخرجك كما تخرج الشعرة من العجين تصرخين معترضة..

بهتت لكلامه وهو يواصل بحنق:

-تبتعدين عني وأنا.. أنا السبب في كونك حرة بدل أن تتعفني في سجن كريه باقي عمرك، ولا تقدمين حتى الامتنان.. تكرهينني وأنا أعشق التراب الذي تدوسينه بقدميكِ.. وبدل أن تواجهي كل هذا.. تهربين.. !!

واقترب منها بحذر:

-لقد سامحت زلتك الصغيرة بالزواج بسواي ترنيم، وأنت ترين بعينيكِ كيف يمكن أن أدمره.. أنا فعلت كل هذا.. أنا جعلته يفقد عمله.. وها هو الان يفقد بصره صغيرتي وقريباً..

وتمهل ليشبع من رؤية الرعب الذي طغا على محياها:

-قريباً جداً سأراقبه يفقد حياته ببطء شديد.. وكل هذا جميلتي..

كل هذا بسببكِ أنتِ.

-أنت.. أنت كاذب.

تحشرج صوتها ولكنه ضحك واشار للمكان حوله:

-كم مرة دخل كابتنك الغالي للمستشفى منذ تعرف اليكِ ترنيم؟؟ كم من مرة تعرض للضرب وكاد يفقد حياته؟؟ قومي أنت بالحساب صغيرتي وأنا .. أنا سأنتظر بصبر كالعادة.

تراجع بخطوات قصيرة للوراء..

ينظر لحطام الفتاة أمامه وكأنها تكاد تفقد عقلها من هول كلماته التي أدمت قلبها.. وجرحت روحها..

وهي تشق طريقاً دامياً الى طيات عقلها الباطن لتخبرها أنه على حق..
هي كانت السبب.. كل ما واجهه أوس منذ تعارفهما، كل الخطر والألم .. كله بسببها هي!!
لم تنتبه لخروج أشرف الدرامي، ولا للهدوء الذي عم المكان حولها،، كانت تسمع صخباً يدور حولها صخب موجع .. هدير يصم الأذان..
"سيدتي"
همس أخرجها من شرودها لتنظر لصاحبته بذهول..
-لقد خرج الكابتن وهو في غرفة الأن، سيأتي الاختصاصي لرؤيتكما معاً.
هزت رأسها بشرود..
لا تعرف كيف نهضت وتبعت الممرضة للغرفة التي يرقد بها أوس بانتظار تحديد مصيره..
ترددت خارج الغرفة وكأنها خائفة من الدخول..
خائفة من المواجهة..
ولكن أخيراً حسمت ترددها ودخلت.. لأنه يستحق منها أن تكون أكثر شجاعة..

وقفت أمام الفراش الذي جلس عليه بانتصاب حائرة، وتفجرت حسرتها من عينيها حين رفع لها وجهاً ضائعاً، مشوشاً..

وعينين.. عينين خاليتين من البريق؟!

-من؟!

همس متحشرجاً فشهقت بألم.. ليرتفع حاجبيه ويهتف بحرارة:

-ترنيم أهذا أنت؟!

ركضت اليه بسرعة وارتمت بين ذراعيه..

تفاجأ لوهلة ثم تمالك نفسه وذراعيه تحيط بها بقوة وتملك وهو يهمس محاولاً صبغ نبرة صوته بالمرح:

-كان علي تمييز الرائحة.. أنا أحمق أليس كذلك؟!

ولكنها لم تجب.. كانت مشغولة بتحسس وجهه فكه وجسر أنفه، ثم كانت عيناه..

انسابت دموعها بغزارة وهي تمسح جفنيه .. رموشه وتغرق في بحر عينيه الرمادي الذي انطفئ نوره على حين غفلة.. بسببـــها..!!

-أنا أســفة.. أنا أسفة حبيبي.

همست مختنقة بدموعها ليزفر أوس بحرارة:

-ما حدث ليس ذنبكِ ترنيمة.. لست من عليه الأسف حبيبة قلبي.
-لو لم تعرفني.. لو لم تتزوجني.. لما أصابك شيء..
هتفت بوجع ليضحك بسخرية:
-وهل هناك مهرب من قدر يا جميلتي..
-أووووس..
همست بمرارة ليمسك وجهها بين كفيه ويرفعه بمواجهة وجهه هامساً:
-لا تخافي ترنيمة.. لا يزال الوضع مؤقتاً حتى فقداني لبصري، لا يزال الطبيب لم يطنا رأيه النهائي..
-هل سيعود بصرك؟؟
همست مخنوقة..
ليميل برأسه:
-لا أعرف.. كل ما أعرفه أنني قد أدفع عمري كله لأراكِ مرة أخرى ترنيمة..
-أووس..
نشجت بمرارة ولكنه واصل بحب:
-أريد رؤية وجهك.. عينيكِ.. شفتيكِ ترنيم..

أريد رؤية روحك من خلال نظرتكِ إلي.. حين أقبلكِ.. حين أهمس لك بكلمة الحب.. حين أناديكِ بقصيرتي..
أريد رؤية كل تلك الملابس القصيرة التي ترتدينها لأجلي.. الأحذية بالكعب العالي..
-توقف أرجوك..
ترجته بألم وهي تندس بين ذراعيه ليبتسم بحنان مغالباً الغصة التي تتحكم بحلقه:
-لا تفقدي الأمل يا غرامي.. أنا أستمد منكِ القوة.
-كيف تقول هذا؟؟ وأنا .. أنا السبب بكل ما تعانيه؟؟
-أنا أحبك.
همس مقاطعاً أفكارها السوداء.. لتجيبه بمثل عذابه:
-وأنا أعشقك.
ابتسم بسذاجة كعادته في كل مرة يسمعها منها .. وكاد يخبرها بالمزيد ولكن الطرقات الخافتة على الباب استوقفتهما معاً..

كان الطبيب الاختصاصي، والذي وقف متجهماً يشرح أن ما حدث هو بالضبط ما كان يحذر منه، ويخشى حدوثه، وتأخر العملية هو السبب.

-سيجري العملية.

همست ترنيم ليرفع أوس يده ويقول بحنق:

-أليس لي رأي؟

-العملية لم تعد خياراً سيد أوس.. الضغط البالغ على العصب سبب لك ارتفاع في ضغط العين ومنها فقدانك المؤقت لبصرك، اذا لم نتصرف ونزيحه فهذا الأمر قد يصبح دائماً.. والأسوأ فقط ينتظرك.

قالها الطبيب بعصبية ليزفر أوس وتهمس ترنيم وهي تلامس خصلات شعره الناعمة:

-لقد وقع المحظور أوس، الأن نحن نتحدث عن حياتك حبيبي.

زفر بضيق ولكنه لم يعلق، ونظرت ترنيم للطبيب بتوتر:

-نحن مستعدون دكتور.

-لا أريد تأخيره لدقيقة بعد سيدتي.. سنجهزه خلال دقائق..

انصرف مباشرة بعدها ليشتم أوس بحنق ويتجه بجسده لترنيمه:

-هل رأيت كيف يتحدث؟؟ كيف يمكن أن اعهد له برأسي؟

لامست وجنته بحنان وهمست:

-لأنه الأفضل حبيبي.. وهو يعرف ما يفعل.

زفر بقوة ثم قال بتوتر:

-ربما يجب أن أتصل بوالدي.

-أنا سأفعل..

همست بخفوت وهي ترى انضمام ممرضين لهما للغرفة وقال الأول:

-سيد أوس يجب أن نجهزك للعملية..

ابتلع ريقه بصعوبة وقبض على كفها بقوة وهو ينهض ليشيح عن الممرضين بجسده ويهمس لها بنعومة:

-سوف أفتح عيني لرؤيتك ترنيمتي.

تصلبت عينيها ولكنها استطاعت الرد:

-كن بخير لأجلي..

ابتسم وأفلت يدها بصعوبة ..

راقبته يخرج مع الممرضين وجلست تحاول السيطرة على ارتعاش كفيها وهي تخرج هاتفها من حقيبتها وتجري اتصالها بسيف.. لتخبره بكلمات مختصرة عما حدث..
ثم اغلقت الخط..
ووقفت تلملم نفسها المبعثرة ،،
ولساعات طويلة جلست أمام بوابة زجاجية بانتظار خبر عنه..
تنسج مخططها القادم.. الذي سيخلصها من كل مصائبها، ويخلص أوس من التهديد.. والى الأبد..
ولكنها فقط ستنتظر لتطمئن..
وبعدها ..
ستكون كَ فص ملحٍ .. ذاب!
***
نهاية الفصل

ترنيـمة عذاب
الفصل السادس والعشرون
***

سأعرفك و ستعرفني و ستمسك بي و سأسندك و ستبحث عني و لن أتركك
و ستهمس و ستنادي و ستصرخ و ستغضب و ستتهور و ستجرح و سأكون ..
و لن أغيب و سأسمع و سأبكي و ستسمع و تنادي و سألبي و بلهفتي سآتي ...
في كل مرة و لن أجافي و ستراني و من قال بأنك لن تراني !!!
و ككل مرة .. ستشعر بي تتلفت يمينك و شمالك تتقدم و أبقى مكاني و تقف و تسلمني بما يسمى قراري و سأبقى مكاني خطوة تفصلني عن حياتي .....
ستنتظرني لحظة و ستنتظرني لحظة وستمل لحظة و ستيأس لحظة و ستقرر بلحظة
لتتراجع خطوة و بلحظتها... سأتجاوزها هذه الخطوة بقدمي الصغيرة كما تدللني
و ستنتهي اللحظة و تبدأ الخطوة و ألومك ...
ألم تمل من هجراني ؟! و ترد ألم تيأسي لجفائي ؟!

أيعجبك حالي ؟! لا ابصر أمامي... أتصبري لعمياني ؟!
ألن تفقدي الأمل لثواني ؟! ألن تشعري بالندم بجواري ؟!
ألن تبكي حسرة لذكرياتي ؟!
ستهذي و سأسمع ... عيني في عينيك ... ستراني ...
و بالنهاية ستصمت ... و ستستدير ...
حرجا لا هربا و سألتصق بظهرك و سأهمس لقلبك أنت تراني و لا أبالي..~
نيفـــين مطـــر..~
***
***
ولا تسلني عن غريب ملكته امري ..
كان أقرب من نفسي إلي ..
***
هل يعقل أن تدخل مكان ولادتها كغريبة؟
فاقدة للذاكرة مكسورة الجناح .. معدمة الخواطر..

مسلمة للجميع ماعدا نفسها لا تزل بها بعض الروح التي تقاتل، تريد العودة حيث تنتمي مهما كانت المخاطر، ولكن لا .. العقل والحكمة.. رفضا بكل قسوتهما المشهود لها.

سيطرت بجمود على ما كان يصرخ.. وأدت الروح المتبقية ودفنتها تحت أطنان من اللامبالاة والقسوة..

انها وبعد كل شيء .. ابنة أبيها!!

وصلت مثقلة بالذكريات مع كل خطوة تخطوها بعيدة عنه يذبحها شوقها اليه، وتتجاهل.

حتى الدماء التي انسابت من جروح الروح الهائمة بها تجاهلتها، وكما الميت الحي في الأفلام القديمة مشت باردة .. جافة .. للعين المجردة حتى.. كانت تظهر شفافة .. بعروق زرقاء ظاهرة.. تحتاج لمن يسندها تبدو للوهلة الاولى كجثة على وشك الوقوع ارضاً..

عينيها جامدتين بلا حياة.. والأنفاس بالكاد تغادرها ..

انها في منزل عائلتها فلم تشعر أنها غريبة وتائهة..

-ترنيم؟!!
رفعت عينيها ببطء، طالعت والدها الملهوف بجفاء وبدون تعبير على وجهها، اقترب منها بخطوات سريعة وانحنى على ركبة واحدة لينظر في عينيها بلهفة:
-عدتِ ؟؟
-ماذا ترى ؟
همست ببرود ليسألها بتوتر:
-ماذا عن زوجك؟
تخيل له تلك الاختلاجة في عينيها ولكنها لم تتحرك .. بل همست بخفوت:
-اتركوه وشأنه .. هذا اتفاقي مع ابن أخيك .. أعود وتتركونه وشأنه.
نهض والدها ونظر لعينيها بتوتر:
-ماذا عن طلاقك منه؟
سهام من نار اخترقت فؤادها ولكنها لم تتحرك ، لم تطرف بجفنها ، بل عبست وجهها وهمست:
-سأرفع قضية خلع.
اتسعت عينا أبيها بذهول لتهمس بمرارة:

-هو لن يوافق على تطليقي.. وأنا لدي كل المبررات لخلعه.
-ماذا تعنين؟
رمقته بصمت ولم ترد فهتف بانفعال:
-تكلمي ترنيم..
-لا شأن لك بمبرراتي سيد مختار.
هتفت بقسوة جعلته يتراجع بينما تنهض من مكانها وتواجه تراجعه بعنفوان:
-ما لك عندي هو انفصالي عنه، لا شأن لك بكيفية ذلك ولا ما سأفعله لأحقق ذلك، من قريب أو من بعيد. تريدني حرة .. اعتبرني منذ الأن، تريد تزويجي بذلك العلقة المسمى أشرف كما تريد سيد مختار ولكن..
ورفعت يدها مهددة بعنف:
-ابتعد عن أوس، لا تمسه أنت ولا حثالتك بسوء.. اتركه يعيش حياته، اتركه وشأنه.
-مالذي حدث ترنيم؟
همس بشحوب لتخونها دمعة وحيدة انسابت بجمود على وجنتها قبل أن تشيح بوجهها عنه هامسة بقسوة:

-لا تلعب معي دور الأب القلق سيد مختار، لقد فشلت في هذا منذ زمن.

تراجع مختار الراجي بتوتر كان يرى العلامات ويفهمها، هي ذاتها تلك التي رآها قبل سنوات حين أخرجها من قضية الطفل الذي دهسته، ابنته تقع تحت طائلة جنونها من جديد، حتى ان كان السبب مبرراً وبقوة هذه المرة، إلا أنها تحدث مرة أخرى وهو ليس مستعداً لخوض التجربة من جديد بكل ما تعانيه وما سيعانونه معها.

خرج يجر ساق ويسحب الأخرى.. ليرى أشرف منتصباً أمامه:

-كيف حالها؟

-انها تُجن من جديد، أخبرني ماذا فعلت بها بالضبط؟

صاح به بقلق ليبتسم أشرف بقسوة:

-لقد عادت اليك.. ألم تفعل؟

-انها تخطط لخلع زوجها؟ ترنيم تبدو كما فعلت قبل سنوات؟؟ أخبرني مالذي فعلته بابنتي يا أشرف؟

وقف أشرف باعتداد دون أن يطرف جفنه وقال بوحشية:

-لم أمس ترنيم بأي سوء يا عمي، تعرف أنني أعشقها، كل ما في الأمر أنني وضحت لها ما تعنيه بالنسبة لي، وأخبرتها بوضوح ما يمكن ان يحدث لو لم تحكم عقلها وتعود الى عائلتها، وتترك ذلك الفتى الطائش.

-ماذا عن عائلته؟؟ أتظن أن سيف الشيب قد يسكت عن أمر كهذا؟؟

ابتسم أشرف بخبث:

-ومن قال أنه سيسكت، نحن كل ما علينا فعله هو اللجوء لقحطان العزب، وإخباره أن ابنتنا عادت بحال مهينة تطلب الخلع من ذلك الفتى الذي يعبث مع النساء في كل وادٍ دون مراعاة لزواجهما القصير.

اتسعت عينا مختار وأشرف يواصل بدهاء:

-الهجوم عمي، الهجوم هو خير وسيلة للدفاع هذه الأيام.

-هل.. هل تظن أن.. أن ترنيم قد تسكت؟

-بل هي ستدعم كل كلمة أقولها.. لا تخشى شيئاً ولا تفكر سوى بمنظرك أمام شيخ العزب وأنت تشكو، فعلة الكابتن الشنيعة ضد ابنتك.

هز مختار رأسه بتوتر وأشرف يقترب يخبط كتفه بكفه:

-لا تقلق عمي، كل شيء مخطط له بدقة لا تقلق ولا تحمل هماً.

نظر له عمه بحيرة ثم ازاح كفه عنه وابتعد، وأشرف ينظر لظهره بمكر..

لقد تحقق له ما يريد، ترنيم أصبحت تحت قبضته، وهو لن يفلتها مهما حدث، ولو كلفه ذلك حياته.

***

الغضب، هذا هو الشعور العارم الذي اجتاحه بلا رحمة وتآكله بوحشية وهو يقطع ممرات المستشفى نحو غرفة العناية المركزة..

توجه نحو الزجاج الضخم ووقف أمامه ينظر للرجل الطويل على السرير الضيق المحاط بكل تلك الأجهزة، والضمادة البيضاء الضخمة التي أحاطت برأسه.

-أأنت قريبه؟
التفت بجسده كله الى الممرضة الواقفة قربه وهتف بحرارة:
-انه أخي.. أريد رؤيته.
-ليس قبل أن يراك طبيبه.. أرجوك رافقني.
عاد بعينيه للمريض وقبض اصابعه بقوة ثم لحقها بخطوات سريعة..
قابله طبيب نحيف بشعر ابيض صافحه باهتمام وهو يعرفه بنفسه:
-سيف الشيب، أوس هو ابن عمي وأخي..
اشار له الطبيب بالجلوس والتف حول مكتبه ليجلس قائلاً:
-اخبرتني السيدة ترنيم انك من ستأتي، وطلبت مني الاتصال بك شخصياً.
-أين هي ترنيم؟؟
تساءل سيف بخشونة ليهز الطبيب كتفيه:
-لا أعرف بالضبط هي قالت ان نتصل بك وأعطتنا كل ارقامك.
رفع سيف عينيه بحيرة ثم همس:
-ماذا عن أوس؟؟

-السيد أوس وكما كنا نتوقع، حدث تدهور كبير في بصره، لقد تدهورت الرؤية عنده بما يقارب الخمسة وسبعين بالمائة، في العين اليمنى، واليسرى بما يقارب الخمسون في المائة.

شحب وجه سيف حتى ابيضت شفتاه واتسعت عيناه بذهول والطبيب يواصل:

-لقد تجاهل قريبك كل تحذيراتنا ومحاولاتنا القيام بالعملية في وقت أبكر، زوجته لا أنكر حاولت جهدها ولكن الكابتن كان عنيداً للغاية ورفض أي تدخل جراحي واستمر بعناده حتى كانت هذه النهاية المؤسفة.

-نهاية؟!

همس سيف بحشرجة ليتراجع الطبيب بحذر:

-ليس كلياً.. لقد قمنا بإجراء العملية الطارئة مساء البارحة.

-والنتيجة؟

-من الصعب الجزم بهذا.. ليس حالياً على الاقل.

-متى ؟!

تساءل سيف بشحوب ليهز الطبيب رأسه ثم يفتح ملفاً أمامه:

-هذه الأمر تستغرق وقتاً سيدي، وربما أطول مما يجب حالياً خصوصاً بعد اكتشافنا لما يتعاطاه قريبك.

عقد سيف حاجبيه:

-يتعاطاها؟؟

رفع الطبيب حاجبه وقال بهدوء:

-لقد تعرض قريبك بعد العملية لنوبة تشنجات قوية، ولذا وضعناه في غيبوبة مؤقتة وأجرينا فحوصات شاملة لنعرف الخلل، وتبين لنا أنه يتعاطى نوع من أنواع المهدئات القوية المسببة للإدمان.

-هذا مستحيل.

صرخ سيف بذهول ليؤكد الطبيب:

-انها الحقيقة للأسف، ما عاناه قريبك من ألم وصداع قوي، الى جانب الوقوع في الأذى النفسي لما يعانيه وحقيقة أنه سيفقد عمله، كل هذا تركه في موقف ضعيف للغاية عرضة لكل هذه الضغط النفسي وجره الى الادمان.

تهالك سيف فوق مقعده و همس بذهول:

-مستحيل؟؟ اوس.. يا الهي مستحيل ان يقع في هذا.. لطالما.. اوس لطالما كان رياضياً .. ذو فكر عالي، مستحيل أن يفعل هذا؟!

-نتائج الفحوصات لا تكذب..

-زوجته.. هل عرفت بالأمر؟؟

-لم تفاجئ بقدرك، يبدو أن لديها فكرة ما عن الموضوع.

تسارعت أنفاسه ونهض بانفعال:

-ماذا عن عينيه؟

تنهد الطبيب:

-اسمعني جيداً، الأمر ليس واضحاً حتى الان، لقد أزلنا الورم الدموي، ولكن العصب البصري كان متضرراً وبشدة، ونحن بانتظار خروجه من الغيبوبة لنعرف مدى نجاح العملية.

ابتلع سيف ريقه بصعوبة:

-اريد رؤيته.

-ستأخذك الممرضة لرؤيته ولكن لوقت قصير فقط.

نهض سيف على عجل وتبع الممرضة عائداً الى الغرفة، حيث رقد أوس..

توقف بذهول، ينظر لابن عمه .. أخيه وأقرب أصدقاءه يرقد بلا حول ولا قوة، وهو .. هو لا يقدر على مساعدته..

-رباه أوس مالذي فعلته بنفسك أخي؟

قالها وجلس الى جواره دون أن يصدر صوتاً.. يراقب كيف رقد أوس دون حراك، تلف رأسه الضمادة الضخمة يخرج منها انبوب دقيق، الى حقيبة بلاستيكية، بها القليل من سائل دموي ، ثم نقل بصره الى وجهه حيث ملأته الانابيب الداخلة والخارجة، بارد !!

أمسك بكفه .. بارد كجثة..

"من فعل بك هذا؟"

همس بألم وهو يغالب دموعه..

"أخبرني من فعلها وسأدمر حياته .. سأنهيه من على وجه الأرض يا أخي."

قالها بصوت مكتوم يطغى عليه الحزن والألم .. حين شعر بمن خلفه وسمع الصوت الضئيل:

-أنت السيد سيف؟؟

نظر بثقل ورأى الممرضة تقف خلفه بتوتر:

-ماذا تريدين؟

-السيدة التي كانت مع مريضك تركت لك هذه الرسالة.

عقد سيف حاجبيه وتناول منها المغلف الصغير .. اومأت وخرجت مسرعة ليلقي نظرة على المغلف الذي لم يحتوي سوى اسمه، "سيف الشيب".

عقد حاجبيه وفضه بتوتر وبدأ يقرأ السطور القليلة بعينين متسعتين قبل أن يكوره بين أصابعه بعنف، وينظر لأوس لاهثاً ثم ينهض ليغادر المكان دون أن يلتفت خلفه..

***

-هل ستدعني حقاً أقودها؟

-بالطبع .. ولكنني سأشرف على ذلك وأنت لن تقودينها أبداً وحدك.

رفعت صوان حاجبيها بذهول وعينيها تتسعان بانبهار لرؤية الكورفيت الحمراء التي تقبع باستكانة، وعادت تنظر الى جساس هامسة:

-أنت تعي ما تقول حقاً؟!

-بالطبع.

رد ببساطة جعلتها تقفز وتعانقه بفرح أرسل ابتسامة سعيدة الى شفتيه، وذراعيه تحوطانها برقة ثم يوجهها الى السيارة هامساً:

-هيا لنرى مدى براعتك.

-أنت لم تدعني أبداً أقود سيارتك جساس.

-الأمور تتغير، كل شيء في الحياة يتغير.

قال ضاحكاً.. اتخذت مكانها خلف المقود وهي تشعر بالإثارة تجتاح عروقها.. لم تقد قط في حضرة جساس.. لقد قادت سيارة سيف مرة حين كان يعاني من صداع قوي، وأوس بالذات هو من علمها القيادة بعد رفضه أن يعلمها الجساس. والأن ها هي تقود وهو يجلس الى جوارها مستسلماً.. نظرت اليه رافعة حاجبها لتراه يراقبها بحنان بالغ وفخر..

-أنت لست مجبراً حبيبي.

-اعرف ذلك..

همس :

-أنا أريد هذا يا جميلتي، أريد أن أشاركِ بكل شيء والقيادة متعتي الكبيرة، ومن العار ألا تشاركني حبيبة عمري متعتي.

انتشى وجهها من كلامه ومن الاثارة التي اجتاحتها لسماعها تلك الكلمات، واحمرت وجنتيها وهي تشيح بوجهها للأمام تستمع لتعليماته للبدء بتشغيل السيارة فلوت شفتيها وقالت بحنق:

-أنا أقود السيارة منذ كنت في السادسة عشر جساس، لا تعاملني كمبتدئة.

-انها كورفيت صوان، ستتبعين تعليماتي والا لن تقوديها لمتر واحد للأمام.

هدد بجدية لتزم شفتيها وتقبض كفيها حول المقود هاتفة بعناد:

-لن أخرج من مكاني، مستحيل، والأن دعني أقود كما أريد.

-صوان.

همس بنعومة جذبت عينيها بسهولة ويسر لتقع في عينيه اللامعتين بشغف.. فغرقت فيهما في الحنان والحب الصادق الذي لامس شغاف قلبها وجعلها ترتجف وهي تسأله عما يريد منها لتتسع ابتسامته وهو يقول:

-انها سيارتي.. وهي اوامري.

-غليـظ..
هتفت بحنق وهي تمد لسانها له فضحك بمرح وعاد يلقي التعليمات عليها وهي تسمعه متذمرة من وقت لأخر.. قبل أن تشغل السيارة أخيراً وتمضي بها بسلاسة متجاهلة الرجل المتوتر الى جوارها والذي كل دقيقة يهتف بها بتوتر أن تخفض السرعة.. أن تحاذر الالتفاف، أن تسلك هذا الطريق أو ذاك لتجنب الازدحام، كانت تشعر بالضيق لتعليقاته التي لم تتوقف، ولكن .. كانت تبتسم ..
-رباااه صوان حاذري كدتِ تصطدمين بتلك الجيب!!
-هو من كاد يتوقف دون اشارة جساس.
-أنت عليكِ أن تتوقعي كل شيء وتحاذري بنفسك.
-اسمعوا من يتكلم؟؟
هتفت بحنق وهي ترفع حاجبها في اشارة لحوادثه العديدة ليعبس بحنق ويهتف:
-تلك كانت سباقات خطيرة..

رمقته من تحت رموشها المرفرفة ليشير محذراً بأصبعه:
-وإياكِ ذكرُ أخر حادث صوان.
تجهم وجهها:
-هذا ليس موضوع للمزاح حبيبي.
-وأنا لا أمزح ..
قال بجدية.. لتتنهد بتوتر وتواصل قيادة السيارة حتى الفيلا.

...
لم تكن الطريق قصيرة ولكن بشكل أو بأخر كان الوقت الذي قضته معه حال نسيانه التوتر الضئيل بينهما، رائعاً..
كانت الابتسامة تعلو وجهها المحمر وهي توقف السيارة، وتلتفت اليه ..
رفع كفيه ببطء وصفق بابتسامة فخورة على وجهه لتحمر أكثر وتصرخ بحرج:
-توقف أنها ليست معجزة..
مد ذراعه ليلامس وجنتها بخفة هامساً:
-بلى صوان.. انها معجزة، معجزتي أنا وأنتِ.

ترقرقت عينيها بالدموع واقتربت منه ليلامس وجنتها بشفتيه هامساً:
-أحبك صوانتي..
-وأنا..
همست مرتجفة ليتساءل ببراءة:
-أنت ماذا؟
نظرت في عينيه للحظة قبل أن تقول بصوت نبرته مخطوفة:
-أنا أحبك أيضاً جساس، أحبك.
اتسعت ابتسامته وابهامه تمسد بشرتها الناعمة:
-لم لا تفصلين هذه الكلمات بالضبط و ما تعنيه لي..
-ممم حسناً..
تمتمت برضا وهي تستكين وتنتظره ليخرج من السيارة ويدور حولها ليفتح لها الباب ويخرجها بسلاسة هامساً لعينيها:
-سنكون أنا وأنتِ يا ملاكي وحدنا.
اقترب منه تخفي ارتجاف شوقها بين ذراعيه ليقودها الى داخل المنزل ثم يتوقفان معاً بدهشة..
-مساء الخير بني.

اتسعت عينا جساس بدهشة وهو يتساءل:
-أمي؟؟؟ متى وصلتي؟؟
اقتربت نرجس منهما بمرح:
-وصلنا ليلة البارحة حبيبي.. هيا لقد اعددت لكما الغداء بنفسي.
ثم التفتت لصوان وحيتها بابتسامة باردة:
-كيف حال أمك صوان؟
-ستكون بخير ان شاءالله.
ردت صوان بجفاء ثم التفتت لجساس:
-سأغير ملابسي.
ودون كلمة اضافية توجهت الى غرفتهما.. نظر جساس في اثرها وهو يفكر أن خططه لهذه الليلة ضاعت هباء قبل أن ينظر لأمه التي قالت بحماس:
-تعال بني لقد اعددت لك حماماً محشياً كما تحب.
-حمام؟؟
هتف بفرح وعينيه تتألقان لتضحك نرجس وتربت على ظهره بحنان:
-نعم حبيبي.. حمام محشو .. وحضرت لك مفاجأة أخرى كذلك.

-ماهي؟؟
تساءل بفضول ولكنها حركت رأسها بمعنى أنها لن تخبره ثم همست:
-فيما بعد حبيبي.. بعد الغداء..
جلس جساس على رأس المائدة ونظر حوله بابتهاج:
-اتمنى أن تكون بمذاق الحمام الذي كنت تصنعينه في الماضي أمي.
ابتسمت بخبث:
-بل هو ألذ وسترى بنفسك..
فرك جساس كفيه وانتظر بصبر وهو يراها تحضر الاطباق:
-أين شيماء؟
توترت يديها ولكنها حافظت على ابتسامتها وقالت:
-ستأتي في الحال.
قربت له طبقاً رخامياً امتلأ بالطيور الصغيرة المحشوة والتي هجم عليها بيديه العاريتين وأمه تربت على ظهره بسعادة:
-بالهناء والشفاء حبيبي.

ولم تمضي سوى لحظات حتى حضرت شيماء وجلست جواره بصمت بعد تحية قصيرة ثم جائت صوان، والتي نظرت للطيور الصغيرة بذهول وجساس يناولها قطعة بيده قائلاً:

-تذوقي هذا.

توترت عينا الشيماء وصاحت:

-لا جساس..

التفت لها الجميع بدهشة فتلعثمت وارتبكت:

-أقصد.. أعني..

وبقيت كلماتها معلقة لتتدخل نرجس قائلة بحنق:

-شيماء تعني أننا قد صنعناها لك، فصوان لا يعجبها الحمام كما اذكر.

شحب وجه شيماء وتراجعت بينما صوان تنظر لها بتوتر ثم تمسك بكف جساس الممدودة وتتقبل اللقمة التي يمدها لها برضا ثم تقول:

-لا بأس عمتي.. لا استطيع رفض يد الجساس.

تبادلت شيماء وعمتها النظرات المتوترة وجساس يضحك ويناول صوان المزيد فتتقبله بابتسامة جافة متجاهلة شيماء وتوترها..

-هيا أمي أخبريني عن المفاجأة الثانية..

قالها جساس بعد انتهاء تناولهم للطعام لتبتسم أمه وتتجه نحو أحد الرفوف العلوية وتخرج برطمانا بنياً وتقربه منه..

تناول الجساس البرطمان وفتحه لتهاجمه الرائحة القوية..

-بُن؟؟؟

تساءل بدهشة لتبتسم أمه:

-وليس أي بُن.. انه بُن محوج .. حضرته بيدي وبطريقة جدتك رحمها الله.

-اه امي رائحته رائعة.

قال وهو يتنشق من الرائحة القوية التي أثارت غثيان صوان فتراجعت هامسة:

-رائحته غير جيدة..

التفتت لها نرجس بحدة بينما قال جساس وهو كالمأخوذ:

-بل هي رائعة صوان، أنت فقط لا تحبين القهوة.

هزت صوان كتفيها وتراجعت بصمت بينما نرجس تلقم ركوة القهوة وتقول:

-سأحضر لك فنجاناً..

-ممتاز.

قال بشرود وكفه تلامس معدته بتوتر..
-سأعود الى غرفتي.
قالتها شيماء ودون انتظار رد من أحد ركضت تقريباً الى الأعلى، نظر جساس للصوان ورأى كيف مسدت بطنها بقلق فاقترب منها:
-هل أنت بخير حبيبتي؟
رفعت عينين حائرتين اليه ثم همست:
-أظن رائحة القهوة.. أظنها لا تناسبني.. سأذهب لأستلقي قليلاً.
-اذهبي، أنا سأشرب فنجاني وألحق بكِ.
اومأت له وسارعت بالدخول الى جناحها.. كانت مجهدة قليلاً.. اتصلت بوالدتها وكلمتها لبضع لحظات وحين شعرت بعودة الغثيان وألم معدتها اعتذرت منها وأغلقت الخط..
مسدت معدتها بتوتر.. مالأمر؟؟
انها تشعر بالغثيان وألم طفيف يهاجمها بين اللحظة والأخرى؟!!
انحنت للأمام لألم مفاجئ هاجمها وجعلها تصرخ بخفوت قبل أن تركض الى الحمام.. وتفرغ كل ما في جوفها..!!

-صوان..
دخل جساس الى الغرفة ثم سمع صوت تقيؤها العنيف ليركض اليها بسرعة..
-صوان؟!!
صاح بقلق وارتمى على الارض جوارها يحوطها بذراعيه بحرص هامساً:
-حبيبتي.. هل أنت بخير؟ ماذا بكِ؟؟
-لا أعرف.. يبدو أنه الطعام.
مسح وجهها وشفتيها برفق وهو يهمس:
-ولكنني أكلته معك حبيبتي..
-أنا لست معتادة عليه هذا فقط كل شيء.
أبعد خصلات شعرها عن وجهها وهمس لها برفق:
-سأطلب من امي أن تعد لكِ شراباً ساخناً..
-لا لا اريد منها شيئاً.
هتفت بعفوية جعلته ينظر لها بدهشة لتهمس:
-اريد الاستلقاء قليلاً فقط لا أظنني قادرة على شرب أي شيء.
زفر بضيق ثم ساعدها على النهوض، وأخذها للفراش، نهض ليحضر لها كوباً من الماء

وحبوب تساعدها على التخلص من الغثيان..
اطمئن لشربها اياها ثم ابتسم:
-هل ستنامين قليلاً؟
-آها.. أنا أشعر بالنعاس.
همست ليقترب ويقبلها بنعومة.. ولكنها تراجعت تخفي فمها خلف اصابعها والاشمئزاز يمزق وجهها ليسألها بحنق:
-ماذا الأن؟؟
حركت رأسها برفض وهي تهمس:
-انا.. اسفة .. جساس مذاقك.. كتلك القهوة .. أنا أسفة ولكن..
زفر بتوتر ونهض بانزعاج:
-سأغسل أسناني في الحال..
راقبته بقلق، مالذي دهاها؟؟ هي لم تتذمر يوماً من طعم القهوة في قبلته؟؟ هي لم تتذمر منه قط وفي أي من حالاته.. عاد اليها بعد لحظات مباشرة ليأسرها بين ذراعيه ويقبلها بشغف تركها لاهثة مشتتة النظرات ليبتسم بثقة ويهمس قريباً من شفتيها المنفرجتين:
-هكذا أفضل؟؟

ابتسمت بتردد واندست بين ذراعيه وهي تقول بأنين:
-أنت الأفضل بكل حالاتك..
قهقه بمرح وهو يحيط جسدها بذراعيه ويهمس لها:
-انتِ متعبة، اخلدي للنوم، لا يزال اليوم أمامنا طويل للغاية..
زرعت نفسها بين ذراعيه أكثر.. وأغمضت عينيها.. لحلم لا تدرك أنه يسدل أكثر ستائره وردية عليهما.. وأن القادم، أكثر قتامة.
***
هذه المرة جاءت بدعوة ..
دعوة رسمية وربما استدعاء.. لايزال جسدها يتكور أكثر وملابسها تضيق عليها يوماً بعد الأخر.. ورغماً عنها كان اختيارها لأكثر ملابسها اتساعاً ولكن.. لا يزال ضيقاً.. قصيراً ..
وقفت أمام نيران التي نظرت لها بتقييم ثم همست بابتسامة:
-انه ينتظرك.

زفرت بتوتر ودخلت دون أن تطرق الباب، ضاقت عينيها للإضاءة الباهرة التي واجهتها.. ثم فتحتهما ببطء، كان يجلس خلف مكتبه.. سمعت صوت مكتوماً تعرفته على الفور..

كان صوت كاميرا..!!

-ماذا تفعل ركان؟

همست بحيرة ..تراه يضطجع على كرسيه الواسع ببدلته ذات القميص الصوفي بلون رمادي قاتم وسحاب يصل حتى اعلى العنق، وسترته بلون الكحل ترتمي على ظهر المقعد بينما تتلاعب أصابعه الطويلة الماهرة بعدسة الكاميرا بين كفيه ليرفعها نحوها ويلتقط عدة لقطات متتابعة وهي تتجه نحوه بغضب:

-توقف عن افعالك الصبيانية..

رفع عينيه بتكاسل:

-مالأمر.. لم أمسك كاميرتي منذ شهور..

ثم ارتفع حاجبه بمكر:

-اشتاقت لكِ.. ألم تشتاقي لها أنت؟

اقتربت لتميل على مكتبه:

-توقف عن تصرفاتك الصبيانية.

-ممم المنظر من هنا رائع.. لحظة واحدة فقط..
كان يتكلم ويلتقط الصور.. ربما العشرات منها كل لمحة من لمحاتها وهي تقترب، تميل لتستند على مكتبه.... خصلات شعرها المصبوغة والتي تهدلت على جانبي وجهها، ملامح وجهها الغاضبة وعينيها اللامعتين ببريق أخاذ.. انحناءة عنقها .. والشق العميق لثوبها الذي أظهر مفاتنها بوضوح..
-هل تخونني عيناي أم أن ثوبك قد ضاق عليكِ سلطانة؟ هل ازداد وزنك؟
استقامة بحنق وهتفت:
-أنت وقح.
ابتسم بوقاحة :
-وأنت تعجبينني أكثر وأكثر.. ولكن..
واستقام بنشاط ليرمي بكاميرته على المكتب، ويلتقط سترته من على ظهر كرسيه ويواجهها بطوله الفارع:
-أنت لن تخرجي بهذا المنظر الى الشارع يا جميلتي.

تراجعت ولكنه لم يسمح لها، وسرعان ما كان يقربها اليه بعد أن وضع سترته على كتفيها لتتهدل من عليها وتصل الى ركبتيها.

-أنا لن أضع هذه.

اعترضت بعنفوان ليقول بمرح:

-ولم لا يا جميلتي، أنها تلائم ثوبك.

نظرت لثوبها ذو اللون الأحمر وسترته الرمادية التي نزعتها من حولها وتراجعت عن عينيه الجشعتين، وهي تقول بحنق:

-لا شأن لك بملابسي ركان، أريد أن اعرف الأن ما سبب استدعائك لي.

راقبها بشوق لم يبذل جهده لإخفائه وهو يرى كيف جلست برشاقة على كرسي قريب:

-استدعيتك بدافع العمل.

-ماذا بشأن العمل؟

-بشأن حصتك، وما يمكن ان تقدميه بخبرتك للمؤسسة.

عقدت حاجبيها ورفعت رأسها:

-هل تعرض علي عملاً؟

استند على مكتبه وعقد ذراعيه أمام صدره:

-هذا صحيح، أنت خبرة لا يستهان بها.. ولا أريد خسارتك سارة.

رفعت أحد حاجبيها وهمست بقسوة:

-عملي السابق كان أن أدير هذه المؤسسة ركان.. أخبرني كيف يمكن أن تعوضني بعمل أخر؟

-بإمكاننا الاتفاق على شيء ما..

التوى فمها بسخرية:

-أنا أستمع.

اقترب منها وجلس أمامها:

-بإمكاني اعادتك الى منصبك.

قالها بخفوت لتبتسم باستهانة:

-وأنت ماذا ستفعل؟

استند بمقعده:

-لدي الكثير من الاعمال سارة والمؤسسة ليست أخرها.

-مبهـر.. نسيت أنني أتحدث مع ركان العثماني، وليس أي أحد.

مال نحوها:

-أنا هو ركان.. لا زلت كما أنا لم يتغير شيء، مهما كان اسمي لا زلت ركان الذي أحببته وتزوجته، ركان والد الطفل الذي تحملينه سارة.
شحب وجهها وهي تتجاهل عبارته الأخيرة وتنهض بتوتر:
-تعني بالرجل الذي أحببته فيما مضى، ركان الذي عرفته مات منذ زمن وما اكتشفته عنه يجعلني لا أريد لقاءه من جديد، لأنني لو فعلت ..
ونظرت له بكراهية:
-لو التقيته في يوم ركان، لمزقته بيدي لخيانته اياي.
كور قبضتيه بقوة:
-لم أخنك يوماً، افهمي هذا.. والأن كلانا تغير سارة.. لم نعد كما كنا، من داخلنا وايضاً كل الظروف المحيطة بنا، كل شيء تغير يا حبيبتي.
-أنت تغيرت.. ظروفك وحدها ما تغير، ولكنني لا زلت سارة.. لا زلت السلطانة.
هتفت بعنفوان لينهض مجابهاً ثورتها بقوته:
-أنتِ تغيرتِ سلطانة.. حملك لأبني تغييرٌ جذريٌ وعليكِ أن تقري به.

لوت فمها ساخرة:
-أتظنني سأتغير فقط لكوني حاملاً.
-نعم سلطانة.
قال بحسم لتتجهم صامتة ويضيف هو بثبات:
-الحمل.. الطفل القادم، يلزمنا أنا وأنت أن نتغير، أن نراجع أولوياتنا، المال والنفوذ في كفة.. وعائلتنا وسعادتنا في كفة أخرى.
-أنت غير عادل ركان.. أنت تتهمني وتلقي باللوم عليّ رغم كونها غلطتك من الأساس.
صاحت بغضب ليهز رأسه :
-ليست غلطتي وحدي، أنا وأنت أخطأنا في الكثير من الأمور، ولا أريد أن نقع في المزيد منها.
ثم اقترب منها وهتف:
-أعطنا فرصة سارة، اعطنا الفرصة لنعود من جديد.
أشاحت بوجهها تخفي القلق في عينيها، انه يتصرف بالطريقة التي تريدها، يحاول التقرب منها والحصول على رضاها، دون أن يعرف

أنها تفتح له الطريق من الأساس، يدوران في حلقة مفرغة..
هو يريد أن تعود الأمور الى نصابها بينهما، وهي تصر أن يحدث ولكن بعد أن يعتذر، وهو .. لا يريد الاعتراف بخطئه.. وإن فعل؟؟
هل هي مستعد أن تسامحه؟؟ أم أنها تقبل بالتنازل عن القليل فقط لأجل طفلها..؟؟
لا تزال في حيرة والحيرة تقتلها..
-سارة..
امسك مرفقها وأدارها نحوه برفق:
-انظري إلي وقولي بأنك تريدينا أن ننتهي؟؟
زفرت بإنهاك وهمست :
-أنا لا أعرف.
رفع ذقنها لينظر في عينيها:
-بلى تعرفين، أنا مثل ما كنت.. غارق في غرامك سلطانة.. حتى النخاع، ما عليك سوى أن تصدقي قلبكِ، ألا تتركيه للشكوك حبيبتي، صدقيه واتركي كل ما حدث خلف ظهرك.
عضت شفتيها برقة ليحررها بأصبعه بحزم:
-لا تفكري.. دعي نفسك لمشاعرك سلطانة.

-انا لا أستطيع نسيان ما رأته عيناي ركان.
همست ليبتسم ويحيط وسطها بذراعيه مقرباً اياها منه:
-ولكنك تستطيعين التصديق أنه لم يكن بيدي، كنت تحت تأثير شيءٍ ما يا عزيزتي، وأقسم أني لا أتذكر من تلك الليلة شيء سوى أنكِ وقعتِ مغمياً عليكِ وأنني لم أستطع مساعدتك.
وضعت كفيها على صدره وهمست بدلال:
-كيف يمكنني أن أصدق، أنت لم تحاول اقناعي..
ضمها أكثر وبحرارة قائلاً:
-كيف تفكرين بهذا؟؟ رباه سارة.. أقنعك بماذا؟؟ أنكي أفضل من تلك السافلة؟؟ أم أنني أحبك أكثر؟؟
رفعت حاجبها:
-بكل هذا ركان..
أحاط وجنتيها بكفيه وهمس:
-أحبكِ سلطانة، احبك كما لم ولن أحب أحد من قبل ومن بعد.. وتلك المرأة..
-لا..

همست وهي تضع أصابعها على شفتيه وتغرق في عينيه الزرقاوين بافتتان شغف قلبها:
-لا تذكراي امرأة أخرى وأنت تعترف بحبي ..
قبض على أصابعها بحزم وغمغم بإصرار:
-اعترافي لكِ بالحب كان منذ شهور طويلة وما هذا الا تأكيد فقط.
-ما يهمني هو عدم شركي بأي امرأة سواي.
قالت بتحدٍ ليبتسم ويقرب أصابعها من شفتيه ليغمرها بالقبلات قائلاً:
-لا توجد امرأة تجرؤ أن تقف جوارك سارة، فكيف تفكرين أن هناك من قد تشاركك بحبٍ تملكين كل جوانحه.
-تحبني؟!
تساءلت بدلال، ليجيب بحرارة:
-أعشقكِ سارة..
دفعته بقبضتيها وابتعدت عنه:
-كذاب..
-سارة؟!!
هتف بانفعال حانق لتهز كتفيها بلا مبالاة وتتجه نحو الباب قائلة بابتسامة عابثة:

-سأخرج في الغد لتناول الغداء مع رفيقاتي وسأتسوق معهن..
والتفتت اليه تغمز بعينيها:
-اياك أن تفكر بملاحقتي أو استدعائي كما فعلت اليوم.
راقبها تغادر بفم مفتوح قبل أن يبتسم قائلاً:
-تلك المرأة المجنونة..
وجلس خلف مكتبه هامساً:
-تريدين لعب صعبة الارضاء يا سلطانة؟؟
أنا لها يا غرامي.. وسأعيدكِ الي.. بشروطك أنتِ .. وقوانيني أنا..
ومال بظهره للخلف وعيناه مغمضتين..
-ستعودين لي سلطانة.. برضاك.. مع كل الحب.
***
استيقظت على صوتٍ ما، نظرت للساعة بالقرب من الفراش كانت تقارب السادسة مساءاً، هل نامت طيلة هذا الوقت؟؟!
عاد الصوت ليقلقها فتلفتت بحثاً عنه، أين جساس؟!

فكرت بقلق وسمعت الصوت مرة أخرى.. كان قادماً من الحمام..
أهو مريض؟؟ تساءلت مع نفسها ونهضت مسرعة اليه..
كان جساس يجلس على طرف الحوض.. يمسح فمه بفوطة ويظهر عليه الارهاق الشديد..
-حبيبي أأنت بخير؟
اقتربت منه مسرعة ليشوح لها بذراعه:
-لا لا تقتربي مني، سأكون بخير.
همس بجفاء جعلها تتوقف مكانها بصدمة ثم تستوعبها بعض الشيء وتهمس بقلق:
-جساس حبيبي ما بك؟
-قلت لكِ لا شيء، لم لا تفهمين؟؟
صاح بحنق جعلها تنكمش مكانها وتتراجع بينما ينهض هو ليغسل وجهه وفمه، لا تزال أنفاسه لاهثة متسارعة.. وجهه أحمر وغريب..
تخطاها دون أن ينظر في وجهها حتى وكأن النظر اليها يسبب له الالم ..
جلس على الفراش ولكن، سرعان ما انتفض واقفاً وهو يصيح :

-غيري الشراشف رائحتها لا تطاق صوان.
اقتربت مهرولة لشرشف السرير ورفعته وهي تشتم رائحته التي وضعتها بنفسها قبل أن يغادرا الى منزل والدتها، كانت مزيجاً من عطر الفل والبخور، عطرها المفضل!!
-سأضع غيرها..
قالت مرتجفة ثم نظرت اليه متسعة العينين، كان يشرب من زجاجة مياه معدنية، ولكنها يشرب منها وكأنما لم يشرب منذ سنوات..
وضع علبة الماء من يده وعاد ليستلقي على الفراش دون ان ينتظر منها وضع شراشف جديدة، حاولت الاقتراب منه ولكنه كان يتباعد بشكل واضح..
-جساس ما بك؟ هل أنت مريض؟؟
اغمض عينيه بقوة وصاح بغلظة:
-لا شأن لكِ بي.
-منذ متى؟
تساءلت بجزع ليصرخ بخشونة:

-منذ الان صوان، لا تقتربي مني مطلقاً وإلا تركت لكِ الغرفة بكل ما فيها.. أنا متعب وأريد النوم.

عقدت حاجبيها وفكرت. ربما يريد التدلل عليها، يريدها أن تقترب أكثر ولكنه يقوم بتمثيل دور ما لا تفهمه.. لذا اقتربت منه لا مبالية بما قاله لها من قبل واندست على الفراش الى جواره لتلتصق به هامسة:

-لا تقل ما لا تعنيه جساس، أنت كاذب كبير.

كل جسده تخشب لاقترابها منه، قبل ساعات فقط كان ليستدير ويلغي كل مسافة بينهما، ولكن الان هو لا يعرف ما حدث له بالضبط، هو يريد فعلاً الغاء المسافات ولكنه لا يستطيع..

اغمض عينيه بقوة ..

حريق كان ذلك الذي يشتعل بداخله رفضاً لقربها.. عذاب يشبه السلخ حياً ..

دماءه تفور في عروقه تشب ناراً تؤجج كراهية ونفوراً لم يشعرهما يوماً نحوها..

رائحتها مثيرة للغثيان.. ملمسها لزج مقرف..

لا يطيق قربها .. لا لا يريدها بالقرب منه، هو لا يطيقها بتاتاً..

-ابتعدي عني صواااان.

صاح وهو يتخلص من ذراعيها حوله..

ليطالع الذعر في عينيها ويحارب الصراع في اعماقه، بين اللهفة اليها والنفور المتصاعد نحوها، ووقع في حيرة بين أمر الركوع بين ذراعيها ومنهج الفرار بعيداً عن رؤية وجهها ..

واتسعت عيناه بخوف من مجهول نشب مخالبه بينهما فمزق تلك الخيوط الناعمة التي تصل بين قلبيهما ، الواحد تلو الأخر، وكأن كل ما حدث لا يكفي، فكان مجيء ذلك المجهول هو تلك القشة التي قسمت ظهر البعير أو كادت..

-أتكرهني؟

همست بذهول.. ليتكدر وجهه ويزفر سموم لا تمت بصلة للوجع في اعماقه:

-اووف توقفي عن هذه الثرثرة وابتعدي عن الفراش، رائحتك صوان، لا أطيق رائحتك أذهبي واستحمي.

نهضت كالملسوعة.. لا تقدر على رؤية تلك الروح العاشقة التي قيدها شيطان ما في عمقه ولم تعد تتحكم بتصرفاته ولم تعد تفلح سوى بتعذيبه والصراخ من سجن أعماقه لتصم ضميره وتدميه.

-انا لا .. أنا لا افهمك.

مال بعنقه وهتف بقسوة:

-اسمعيني، أنا مرهق منك.. سأخرج لأبقى مع أمي وابنة خالتي، وأنتِ ابحثي عن طريقة لإزالة هذه الرائحة المقرفة، من على جسدك، والحقيني.

وقبل أن تعلق كان يغادر الغرفة تاركاً اياها بصدمة لا تقوى حتى على استيعابها أو فهمها..

فهو يغرق.. وهي عاجزة حتى عن معرفة أنه بحاجة للمساعدة.

***

الرحيل لا يعد الخطوة الأخيرة في الهروب، فهناك مراحل تتبعه أشد إيلاماً وقسوة ..

والنسيان سيدها..

***

"هل ستتركينها تفعل هذا؟"

قال بخفوت فانتفضت قبل أن تحاول التخلص من توترها وجمودها وتقترب منه..
"انا سأفعلها"
قالت للفتاة بالرداء الأزرق والتي نظرت اليهما للحظة ثم هزت رأسها وسلمتها الادوات قائلة بجدية:
-سأعود بعد دقائق، فلا وقت لدينا.
اومأت لها والتفتت لزوجها الذي رفع رأسه أخيراً ونظر لها بابتسامة:
-أنا لا أعرف كيف أقوم بهذا أوس.
همست مرتجفة لتتسع ابتسامته ويقبض على معصمها ثم يجذبها اليه بحركة سريعة:
-أنا سأعلمك.. لا تظني للحظة أنني سأحلق شعري دون أن تكوني قربي لتخبريني كما أنا وسيم رغم صلعي.
قالها بمرح جعلها تبتسم، وترفع آلة الحلاقة لتمس مقدمة شعره فيقبض عليها من جديد بشدة، ويهمس بتوتر:
-ابدأي من الخلف..
فعلت ما قال وهي جامدة الوجه..

-ابتسمي.
طلب منها بتجهم لترتجف ابتسامة على شفتيها المزمومتين بينما يعلو هدير الألة الكهربائية وتبدأ عملها بصمت..
راقبت بطرف عينيها كيف تساقطت الخصلات السوداء الناعمة على الارض.. يساعدها هو ببعض تعليمات قصيرة.... ورغماً عنها ما ان وصلت الى منابت الشعر على مقدمة وجهه حتى كانت عينيها قد اوغرقتا بالدموع، التي انهالت على وجنتيها..
-لا تبكي.
امرها بخفوت ولكنها لم تستطع، بل ازداد انهمارها حتى كادت تغرقه وهو يقربها ليضمها بين ذراعيه، ويغمر وجهها بصدره فارداً دقات قلبه لها وحدها.
-لا أستطيع الا أن أفكر أنني لن أراك من جديد.
همست بصوت متهدج ليتنهد بعمق ثم يشدد من ذراعيه حولها:
-انا باقٍ ترنيم، ليس من اللائق ترك زوجة جميلة مثلك وحدها.

-توقف عن التهريج.
-لكمته على كتفه ونحبت بمرارة جعلته يقربها أكثر.. ويهمس لها بالكلمات المطمئنة.. ويعدها بحرارة أنه سيعود...
-مشغولة؟!!
انتفضت بذهول وواجهت عدوها.. محطم حياتها ومقتحم الذكرى الأخيرة الهانئة لها مع زوجها؟!
-ماذا تفعل هنا؟
ركضت لتضع شيئاً تستر به عري شعرها وتواجه الحيوان المتوحش الذي اقتحم خلوتها..
ابتسم بوحشية:
-اردت رؤيتك، اريد الاطمئنان على املاكي.
-ارحل.
اشارت بيدها ليضحك بمكر:
-سرعان ما تصبح غرفتنا واحدة، ايام بسيطة تفصلنا عن هذا الحلم يا ابنة عمي.
كشرت عن الوحش في عينيها وصرخت:
-انا حتى اللحظة، زوجة أوس الشيب، غادر يا أشرف الراجي؟؟ أنت تزج بنفسك في مواقف

سخيفة، وان راك ابي هنا في غرفتي، أو حتى أخي خالد فهما لن يتركاك وشأنك.
صاح بعجرفة:
-أتصدقين نفسكِ؟؟ ما هذا الذي تقولينه ترنيم..؟؟ ألا تريدين أن تعرفي من أعطاني مفتاح غرفتكِ في المصح؟
قالها بغمزة وقحة شملتها من رأسها لأخمص قدميها وجعلتها تتراجع بذعر ..
- والدكِ من اعطاني الامر يا جميلتي، هو من أعطاني المفتاح بيده لأضمن عدم ذهابك لمكان، عدم هروبك وبقاءك الى الابد معي.
-انت مجنون..
صرخت بعنف وهي تواجه حقيقة بشعة جديدة .. ولكن اشرف لم يتزحزح عما قال وسرعان ما كان يضيف:
-والدك خطط للأمر، بقاءك في المصح، اعطائي المفتاح، وحتى ما حدث بيننا.
شعت عينيها بجنون وصرخت:
-لم يحدث شيء بيننا..
رفع حاجبه بمكر:

-أأنت واثقة؟
اقتربت منه وصرخت بعنف:
-نعم أيها الحقير، أنت لم تمسني بسوء، أنا واثقة بهذا.
ضحك باستمتاع وهو يقول:
-ربما تكونين واثقة أنكِ صاغ سليم يا ابنة عمي فأنا بعد كل شيء رجل حر، وأي رجل يقبل بأخذ فتاة شبه ميتة، كما كنتِ يومها،، وهذا لا يمنع بتاتاً أنني لم أمتع نفسي.
طعنتها كلماته الحقيرة بوجع، فصرخت:
-يا لها من رجولة تلك التي تتشدق بها.
سخر أشرف:
-ربما كنت أكثر رجولة من والدك الذي عرضكِ يومها علي ببخس ثمن.
تراجعت بغصة وذكريات ذلك اليوم تهاجمها بقسوة:
-أنت وهو طينة واحدة.
هتفت وكأنها تبصق في وجهه ليتراجع بحنق ويهمس:

-ربما لديك بعض الحق فهو وأنا كما أنت بالضبط ترنيم، أنت تعلقتِ بذلك الرجل من آل الشيب كعلقة ليستر فضائحك ولا ألومك.

اتسعت عيناها وهتفت وقد شحب صوتها:

-لا تذكر أوس..

-ولم يا عزيزتي؟؟ لا تريدين لسيرة الفتى الذهبي أن تلوثها لساني؟

-أوس بعشرة من أمثالك ايها المختل.

هتفت تدافع عن رجلها بدموع غزيرة ليضحك أشرف ويشير بيده

-زير النساء ذاك؟ تقارنيني أنا به؟ يا لك من فتاة جاحدة ناكرة الجميل.

-مالذي تريده مني يا اشرف؟ لقد فعلت ما طلبته مني.. تركت اوس.. هجرته وجئت اليك.

هتفت بيأس ليقترب منها ويهتف بها بعصبية:

-اريدك أن تسلمي لي ترنيم، أريدك ملكاً خالصاً لي.

رفعت عينيها اليه وهتفت بإصرار:

-قد تملكني في يوم يا ابن عمي، ولكنك قط لن تجعلني أستسلم وأخضع لك، محال أيها الحقير.

هتفت بشجاعة ليسكتها بصفعة مؤلمة رمت بها للخلف لتصطدم بمقعد وثير وتقع عليه..وهي تشهق بعنف قبل أن تفتح عينيها لتراه ينزع سترته ويلحقها بقميصه بسرعة..

-مالذي تفعله يا مجنون؟؟

هتفت بذهول ليصرخ بوحشية:

-ما لم أحصل عليه وقتها، سأحصل عليه في الحال ترنيمتي، واعتبريها دفعة بسيطة على الحساب.

صرخت برعب وهو يهجم عليها..

وسرعان ما كتم صرختها بكفه وجسده الملوث يسقط عليها ويقيد جسدها الى المقعد..

صارعت بجنون لتتخلص منه، ركلت وخدشته بأظافرها، ولكنه كان أقوى وأكثر وحشية..

شعرت بتمزق قميصها وقد سقط حجابها على الارض، أمسك أشرف بشعرها بقسوة وازاح رأسها للخلف وهو يغمر عنقها بالقبلات الوحشية ..

شعرت بالغثيان يتصاعد من اعماقها، عينيها لا تستقران على شيء لتخلص نفسها من قبضته الشيطانية ولكن هيهات..
اشرف كان كالطود فوقها..
وهي كانت يائسة.. محطمة .. دون أمل..
حتى رأته أمامها،،
يقف مقيداً ويصرخ بجنون أن تنقذ نفسها.. ألا تدع قذراً كهذا يلوثها..
ألا تسلم جسدها لرجل لا يحمل من صفات الرجولة ولا حتى الاسم..
وفعلت..
خلصت ذراعها منه.. وامتدت نحو الطاولة قربها..
وفجأة كان الجسد الذي يضج بالحياة فوقها هامداً..
رفعت ذراعها اليها بذهول.. ورأت الدماء التي تغطيها؟؟ دماءه هو .. المغتصب المجنون..
دماء أشرف التي سالت من الثقالة كانت على المكتب قربها، والمصنوعة كلياً من الزجاج

والبلور.. والتي تمثل ويا للصدفة .. ذئباً في مرحلة الانقضاض، يدافع عن حبيبته..
تاركاً خصمه مجرد ذئباً غارقاً بالدماء...
***
بحثت عنك في كل مكان ، في الهواء وفي عيون الأنام ..
بحثت ووجدت الشوق والألم ..
لم أرى النور بعد .. وأي نورٍ هو لي بعد رحيلك، أين أنت ؟
أخذتِ معكِ النور من عيوني.
أخذتِ الألم وانسحبتِ
مهزومة على عرش انتصارك
مستسلمة وأنت قائدة جيوشك
تركتني مكلوماً محاصراً بحزني .. مقيداً وأسيراً لمصيبتي ..
أنقذتني أم تركتني ضحيـة لمأساتي ..
روحي التي بذلتها في سبيلك ..
حزمتها في حقيبتك ، وارتحلتِ ؟!
لا ترحلي وأنا مقيدٌ لعماي وليس بيدي البحث عنكِ ..

لا ترحلي يا مليكتي.. ليس بعد!!
***
استيقظ اخيراً..
ربما بعد سنوات أو شهور.. كانت مدة طويلة ..
"افتح عينيك أوس"
جفنيه ثقيلين للغاية، والسؤال يتردد حوله .. أين هي؟؟
"ترنيم؟"
همهم بخفوت .. ولا من مجيب..
"افتح عينيك أوس"
عاد النداء يتكرر بصوت غريب عن صوتها ولكنه مألوف.. من؟؟!!
-لا يعرف ان همس بالسؤال ام ان الاجابة كانت لتأتي لو لم يطلبها حتى..
-انا سيف ،، أفتح عينيك..
"سيف؟"
شعر بالغضب وعلم لم هي صامتة .. فهو قد طلب منها بوضوح ألا يعلم بها احد حتى سيف.
سيؤنبها بشدة ثم يغرق في عينيها ،،،
حبل النجاة..

فتح عينيه ببطء..
"أوس!!"
سمع سيف.. والطبيب خلفه يقول:
-حمدا لله على سلامتك سيد أوس، افتح عينيك بني،، دعنا نرى عينيك.
توسعت عيناه للحظة والتفت سيف للطبيب بقلق والذي هز له رأسه بحذر:
-سيد اوس.. اعلم ان الاضاءة خافتة ولكنها هكذا كي لا تؤذيها أكثر..
-عن اية اضاءة خافتة تتكلم..
همس بخشونة ..
ليتبادل الطبيب وسيف النظرات بينما أوس يصرخ بشحوب:
-الغرفة مظلمة.. مظلمة تماما ولا بصيص نور فيها..
...
نهاية الفصل..
ترنيمة عذاب
الفصل السابع والعشرون
***

هل يجدر بالحب أن يكون مؤلماً هكذا..
معجزة السعادة تبتعد، والواقع يفرض نفسه بقسوة
والذكريات القريبة ربما كانت من نسج خيال خصب،
أو شيء من مزيج سحري ذاب مع شروق الشمس،
انها تلك الكلمات المغناة ..
ترنيمات كمان عاشق،
واصابع بيانو متمهلة ..
انتهى الحب،، ارتحل الى غير رجعة، انها النهاية المأساوية الجديدة،
اكتبونا مع الراحلين،
مع ملايين السائرين نحو المجهول،
وحيدين في الفيافي،
ضائعين..
انتهى الحلم، واستيقظ الواقع بأصابع ملطخة بالدماء،
تبحث عن هروب، ترحل في صمت تحت ستائر الظلام..

***

عم السكون الغرفة بكاملها بعد تصريحه المصدوم أنه لا يرى، أن الدنيا خطفت منه نورها وأن عينيه تجمدتا دون حياة وأن الظلام مسكنه الى الابد.

وأن نور عينيه قد رحل..!!

ترنيم رحلت؟

هكذا لفظها سيف .. قذفها بوجهه باشمئزاز..

"تقول بأنك لم تعد كفؤ لها بعد اليوم"

"لن أبقى مع ابن عمك الأعمى، مدمن المخدرات، لن أبقى مع رجل بفساده خسر مستقبله وكاد يقتلني معه في لحظة تهور"

"كن رجلاً.. تخلص من نظرة الغباء على وجهك هذه وأفق لنفسك يا رجل"

..

ترنيم رحلت هذه المرة..

دون تهديد.. دون كلام.. هي فقط لملمت بقاياها ورحلت، تركته بعماه.. بإدمانه .. تركته محطماً كزجاج تبعثرت شظاياه ، حادة، لامعة، مشحوذة، مدميه .. وقاتلة ان فكرت فقط بالاقتراب..

-اتركني وحدي.
همس بشحوب..
ولكن سيف نظر له بأسى و لم يتحرك من مكانه:
-أنا لن أتركك أخي، ليس وان طردتني بالقوة حتى.
رفت عينا أوس بقوة عدة مرات ، ثم حاول التغلب على الغصة القاسية في حلقه وقال مغالباً الارتجاف الذي عصف بكيانه:
-ماذا قال الطبيب ؟ عن عيني ؟؟
تنهد سيف ومال يستند بمرفقيه على فخذيه وهو يقول:
-انه يأمل أن الأمر مؤقت.
-وماذا لو لم يكن مؤقتاً ، ماذا لو انتهى الأمر على هذا الحال.
-تفاءل بالله خيراً ، وتعوذ بالله من الشيطان.
رفع أوس وجهه الشاحب وهمس:
-لن استطيع استعادة ترنيم ، لن اقدر على الوقوف امام عائلتها و انا بلا حول ولا قوة.
نهض سيف بحركة عصبية وصاح بحنق:

-تلك المرأة هجرتك ما ان شكت بأمر فشل العملية ، تلك المرأة ..
-تلك المرأة هي زوجتي و حبيبتي ، تلك المرأة رحلت كي تخلصني من الهجوم المستمر لأفراد عائلتها ، ترنيم ضحت بنفسها وبنا معاً لأجلي أنا.
صرخ بانفعال جعل سيف يقف مكانه بذهول ..
-هي فقط اطمأنت انني سأدخل الى غرفة العمليات ولدي أمل بالنجاة والعودة لحياتي السابقة ، تأكدت من كوني بعيد عن مخالب عائلتها ثم رحلت ، قدمت نفسها قربان لأولئك الشياطين فقط لتنقذني.
غمغم بغصة:
-ترنيم هي الوحيدة التي وقفت معي حين ابتعد الجميع ، هي صبرت كثيراً ، وتحملت مني مالا يطاق ، والآن .. !!
وتعثرت كلماته ليشهق طالباً الهواء فيقترب سيف مزمجراً:
-توقف عن النواح .. منذ متى ينوح ذئب من آل الشيب كالحريم ؟؟

رفع أوس رأسه ، لا تزال الضمادة التي أصر الطبيب على وضعها على عينيه تحميه من الضوء المباشر .. راقبه سيف بأسى:

-ماذا تنوي أن تفعل؟

-وماذا أقدر أن افعل.

همهم بحسرة وهو يرفع ذراعيه بحركة يائسة ويخفضها:

-انظر الي..

هتف بيأس .. راقد على سرير مستشفى ولا حول له ولا قوة ، انابيب متصلة بصدره وذراعيه ، وأنبوب طويل يخرج من بين ضمادات رأسه ، كان مقيداً بالقول والفعل. حتى ساقيه لا يشعر بهما ، وتلك الرجفة التي تعصف به من وقت الى أخر، كلها تُضعفه، تسبب له الإنهاك وكأنه يقاتل حتى نفسه بلا هوادة، أسند رأسه للوسائد خلفه وتأوه بقوة ثم همس:

-أنا لم أعد أنفع لشيء، حتى امرأتي التي عاهدتها على أن أحميها من كل شيء، أنا السبب في كل ما وقعت فيه من مصائب، أنا كنت أكبر تهديد مسلط عليها، أنا خذلتها.

-لا تحمل نفسك أكثر مما يجب.
همس سيف بعنف، ليلوي أوس فمه بسخرية مريرة :
-اتركني يا ابن عمي، اتركني فقد تعبت من الحديث.
تراجع سيف كان يرى أن أوس لم يعد بحالة طبيعية، وكيف يكون؟؟
فكر بحنق ثم تراجع مدمدماً بشيء عن كونه بحاجة للهواء، و أوس يغرق في أفكاره في بؤسه وانعزاله.
***
انتهت الألعوبة، وبدأت الحقيقة تنجلي، على الأقل ما نريد أن نقنع أنفسنا به، أنه الحقيقة..
ارتفع صوت الخطوات البطيئة ذات النغمة الرتيبة على الارض المصقولة، رافقتها نقرات العكاز الخشبي ذو الرأس العاجية المزخرفة بقطع الجواهر الملونة، تقبض عليها كف رقيقة بيضاء ظهرت عروقها بارزة تزين أصابعها الخواتم البراقة ذات القيمة الباهظة والذوق المتعالي.

وقفت أمام الباب المفتوح على مصراعيه وتنهدت بأسى..

-بني .. شاهر؟!

همست بقلق وهي تنظر الى البهو الواسع في جناحه الخاص، كان يجلس على صوفا بلون الكريم، وقد عقد كعبيه ومال بظهره ليسند رأسه للخلف وعيناه في السقف، حذاءه ملقى بلا اهتمام، سترته ملقاة الى جواره وربطة عنقه محلولة، كله فوضى.. حياته أصبحت كلها فوضى، والسبب كل السبب تلك السلطانة التي لم يقدر على الامساك بها ولم يقدر على التخلص منها، فباتت سماً يجري في عروقه يحرقه..

-ألم تذهب الى الشركة؟

هتفت بمزيد من القلق.. وتلفتت حولها واتسعت عينيها بانفعال:

-أنت لم تتحرك من مكانك منذ عودتك ليلة أمس بني؟

تململ في جلوسه وزفر بضيق.. جدته لن تتركه حتى تحقق في الأمر، تعرف كل ما حدث وتلخص وتحلل، وهو ليس في المزاج الملائم

الأن. هو ليس في المزاج الملائم لفعل أي شيء على الاطلاق.

-انا بحال جيدة جدتي.

همهم بخشونة لتقترب منه وتغزه بطرف عكازها على ساقه وهي تصيح:

-لا لست كذلك، انظر اليك، تعود مترنحاً أخر الليل ولا تقوى حت على اللجوء لفراشك باشا؟؟ منذ متى تفعل بك امرأة هذا؟ منذ متى تسيطر امرأة على عقلك وتدفعك لكل هذه الأفعال الحمقاء؟

-اووف جدتي توقفي.

صاح بضيق لتصرخ بالمقابل:

-كلا لن أتوقف، أيها الأحمق الأرعن، لن تكون ابن ابيك الباشا محمود ان لم تنهض الأن وتغسل عنك أثر الخمر وتزيل من رأسك تلك المرأة نهائياً يا ولد.

رفع عينين ثقيلتين لجدته وهمس بزمجرة:

-أنا لست مخموراً.

رفعت احدى حاجبيها وأشارت بعكازها:

-أنت تأثير سُكر ليلة أمس.. انه التأثير السيء للشرب يا فتى، أنت لا تريد الانتهاء بالسكر والعربدة كشقيق جدك مختار باشا.

-اااه..

تأوه بعمق وأصابعه تندس بين خصلات شعره الكثيف لتتنهد جدته وتتقدم لتجلس بالقرب منه تشد على كتفه:

-شاهر بني، النساء في كثير من الأحيان يغدون سماً يجب التخلص منه قبل أن ينخر الجسد من العمق، تلك المرأة، السلطانة هي سُمُك الذي سيؤذيك وقد يقتلك ان لم تنجو بنفسك بأسرع وقت يا صغيري.

عبس بكآبة وهمس:

-انها المرأة التي أحب.

-عليك ان تتخلص من هذا الحب ان كان يؤلمك، بل يحطم حياتك ويهدد مستقبلك.

نقل عينيه الى وجه جدته القلق وقال بعبوس:

-أنت تعرفين بشأن جُمار؟

تنهدت بعمق ومالت ليستند ذقنها على كفيها المضمومتين فوق العصا:

-نعم أعرف، لقد أتتني نيران وقالت لي كل شيء.
اعتدل في مكانه:
-وماذا أيضاً؟؟ اتفقتما على اقناعي؟؟ هي تخشى الزيجة المذهلة التي قد تضيع من بين يديها ان رفضت أنا تلك الفتاة المجنونة؟؟
نظرت له جدته بعتب ليهتف ساخطاً:
-تعرفينها جدتي، جنونها لا يخفى على أحد.
ابتسمت جدته وهتفت:
-انها صغيرة وطائشة ومع الوقت، فهي ستكون..
-انا لن أتزوجها.
هتف بتصميم لتتنهد جدته:
-أنت تدرك أن زواج نيران بسليم...
-فليذهبا معاً الى الجحيم،
هدر بعنف ونهض وقد ذهب كل أثر للخمر من عقله، يجب أن يذهب، أن يصحو لنفسه..
-زواجك بجمار هو السبيل الوحيد لإنقاذ العائلة بني، أدرك أن ما ستقوم به يعد تضحية ولكنها الطريقة الوحيدة باشا.
-كان زواج نيران هو السبيل الوحيد؟؟ والأن هو أنا؟؟

صاح بمرارة ثم فرد ذراعيه:
-الى متى نستمر بالتضحيات لأجل العائلة؟؟ الى متى جدتي؟
-أنت رأس هذه العائلة، أنت قمت باتخاذ قرار الاتحاد مع السراي، سواء كانت نيران أو كان أنت ما الفرق بني، في النهاية الأمر يصب في مصلحتنا نحن.
-ومصلحة سليم بك.. بل مصلحة السراي كلها.
قال بشراسة لتتنهد:
-انها شبكة واحدة متداخلة وربما كان هذا سبب عرض سليم الذي لا يمكن رفضه شاهر.
-سليم فعل هذا لإرضاء الولد المدلل الجديد، الفتى الذهبي كما تطلق عليه الصحافة.
ابتسمت بسخرية:
-ذلك الفتى هو صنيعة يدك، لا تغضب عليه الأن .. إن أردت رأيي فهو مجرد بيدق تحركه أنت وسليم في حربكما الباردة هذه.
اشتعلت عينا شاهر وهدر بخفوت:
-البيادق لا تحظى بالأميرات، لا تحظى بالنساء في نهاية الجولة، البيادق تقدم كأضحية جدتي..

كأضحية لا حقوق لها كل ما عليها الاستلقاء وكشف اعناقها للسكاكين.
نظرت له جدته متعجبة لتراه يقبض كفيه بعنف ويهمس بشر:
-و لكن هذا الفتى ليس ببيدق، هو شيطان جدتي، استولى على امرأتي ولا يريد أن يفكها.
-امرأتك؟؟
هتفت بدهشة ورات التوتر في عينيه لتضحك بجفاء وهي تنهض:
-راجع حساباتك يا شاهر، قبل أن تخسر أكثر بكثير من مجرد امرأة تشتهيها.
لوى فمه بأسى وكفه تمسد وجهه:
-امرأة أحبها جدتي، أحبـــها.
-الحب، يُنســـى.
همست بثقل.. ثم نقلت ساقيها ببطء للخارج ولا تزال كلماتها تترد في الهواء حوله، الحـــب يُنسى!!
وهل يجرؤ أن ينسى المرأة التي عشقها منذ النظرة الأولى؟؟

لا هو لن يجرؤ ولن يفعل، لا يزال هناك أمل، ولو انه ضئيل للغاية فرغم ما قالته له نيران أن سارة عادت لتمارس بعض مهامها في الشركة الا انه يعرف بوضوح انها لم تعد لذلك الأحمق.
ولذا قرر ليلة أمس بالذات أن يرمي بكل تهديدات سليم عرض الحائط.
وأن يقامر بتهور عله يكسب كل شيء...
وسيبدأ من الليلة..
***
"ما لم أحصل عليه وقتها، سأحصل عليه في الحال ترنيمتي، واعتبريها دفعة بسيطة على الحساب."
صرخت برعب وهو يهجم عليها..
وسرعان ما كتم صرختها بكفه وجسده الملوث يسقط عليها ويقيد جسدها الى المقعد..
صارعت بجنون لتتخلص منه، ركلت وخدشته بأظافرها، ولكنه كان أقوى وأكثر وحشية..
شعرت بتمزق قميصها وقد سقط حجابها على الارض، أمسك أشرف بشعرها بقسوة وازاح

رأسها للخلف وهو يغمر عنقها بالقبلات الوحشية ..

شعرت بالغثيان يتصاعد من اعماقها، عينيها لا تستقران على شيء لتخلص نفسها من قبضته الشيطانية ولكن هيهات..

اشرف كان كالطود فوقها..

وهي كانت يائسة.. محطمة .. دون أمل..

حتى رأته أمامها،،

يقف مقيداً ويصرخ بجنون أن تنقذ نفسها.. ألا تدع قذراً كهذا يلوثها..

ألا تسلم جسدها لرجل لا يحمل من صفات الرجولة ولا حتى الاسم..

وفعلت..

خلصت ذراعها منه.. وامتدت نحو الطاولة قربها..

وفجأة كان الجسد الذي يضج بالحياة فوقها هامداً..

رفعت ذراعها اليها بذهول.. ورأت الدماء التي تغطيها؟؟ دماءه هو .. المغتصب المجنون..

دماء أشرف التي سالت من الثقالة كانت على المكتب قربها، والمصنوعة كلياً من الزجاج والبلور.. والتي تمثل ويا للصدفة .. ذئباً في مرحلة الانقضاض، يدافع عن حبيبته..
تاركاً خصمه مجرد جسد غارقاً بالدماء...
تراجعت مذعورة، صرخاتها انحبست بداخل صدرها وترددت عبر عروقها كمضخات دماء مجنونة، وتراجعت.. زحفت بعيداً عن جثته وهي تذرف الدموع بمرارة..
هل مات؟؟
فكرت بذهول، ولم تعرف كيف تتأكد.. لا تريد الاقتراب منه.. لا تريد لمسه..
انتابها الغثيان من جديد.. تفكر بكيف كان يلمسها، يديه القذرتين تلوثانها، وانفاسه العفنة تخنقها، وهي .. هي دافعت عن نفسها.. فكرت بجزع..
هو أراد اغتصابها لقد تهجم عليها في غرفتها، لقد خلع ثيابه ونيته كانت واضحة..
هي فقط دافعت عن نفسها..
صرخت بخفوت وتعثرت وهي بالكاد تستطيع الوقوف على قدميها، لم تعرف كيف نهضت،

الدنيا كلها تدور حولها، الدوار يمزقها، يقتلها، بكت بألم، لم تكن دمعها حزناً على ابن عمها بل كان مجرد التفكير بما قد يحل بها.
وكأن جريمة قتل واحدة لا تكفيها، ها هي الاخرى تسارع مهرولة، رباااه، وكأنني أصبحت مجرد قاتل متسلسل يعشق رائحة الدم على كفيه..
اندفعت نحو حمام غرفتها..
تشعر بالغثيان وكأنها ستفرغ معدتها بالكامل ولكنها لم تفعل، حتى القوة لفعل هذا لم تعد تملكها، هي فقط اتكأت على المغسلة وأخذت أنفاساً عميقة متسارعة لتخفض من مرارة ما تشعر به..
ثم توجهت الى حوض الاستحمام فتحت كل صنابير المياه وارتمت تحت الرذاذ الحار القوي وهي تخلع ثيابها المتسخة بدماء ذلك القذر.
بكت بجنون.. تدعك يديها وساقيها.. وبليفة الاستحمام غسلت عنقها الذي طالته قبلات ذلك الماجن، كانت تدعكها بقوة لدرجة أنها سببت بعض الخدوش النازفة..

خرجت من الحوض ووقفت امام المرآة تطالع جسدها الذي يقطر ماءاً ..
شعرها المبلول المسدل امام وجهها .. بشرتها الشاحبة وكأنها فقدت دماءها هي، ابتلعت ريقها وتوجهت بخطوات واسعة خارج الحمام، تخطت جثة أشرف ومضت الى خزانتها دون ان تلقي عليه نظرة ثانية حتى. ارتدت ثوباً قطنياً طويلاً، ووضعت عباءتها عليها، ولفت حجابها حول رأسها ثم لملمت بعض اغراضها الشخصية في حقيبة ومضت بكل هدوء لخارج الغرفة..
مشت بضع خطوات فقط حين استوقفها صوت خالد،
"ترنيم"
اتسعت عينيها بذعر وبهت لونها وهي تحافظ على ظهرها مشيحاً عنه ليقترب بقلق:
-ترنيم يجب أن نتحدث أنا وأنت.
ابتلعت ريقها بصعوبة وفكرت بسرعة:
"لا تكوني جبانة، لقد اغلقت الباب خلفكِ لن يكتشفوا الجثة الا بعد وقت طويل، ستحين لكِ الفرصة فلا تخافي"

-ليس لدينا ما نتحدث به.
تنهد بمرارة ووضع كفيه على كتفيها:
-بل الكثير ترنيمة أنا لن أسمح لهم بإيذائك أكثر صغيرتي.
جفلت للمسته وابتعدت كالملسوعة وهي تستدير لتنظر اليه فهاله منظر وجهها ليهتف بقلق:
-ترنيم يا الهي أأنت بخير؟؟
تراجعت خطوة للخلف وهمست بمرارة:
-تريد مني أن أكون بخير؟؟ بعد كل هذا يا خالد؟
خفض رأسه بأسى لتسخر:
-لا تقف محاولاً الظهور بشجاعة لا تملكها اخي، لقد اعتدت طيلة حياتي على مواقفك الجبانة وسلبية أمي التي لا مثيل لهما.
ثم استدارت واتجهت الى السلالم تحمل قلبها بين كفيها، تتجاهل صياحه باسمها وهي تقطع المسافة الفاصلة بين اسفل الدرج والباب الخارجي بخطوات راكضة..
كل ما عليها فعله هو الخروج..
الهروب قبل ان يمنعها أحد..

لقد عادت بقدميها، ولذا فلم تكن الحراسة مشددة عليها.. لقد عادت وها هي ترحل..
مرة أخرى ..
ولكن هذه المرة للأبد..
***
لنفترق قليلا..
لخيرِ هذا الحُبِّ يا حبيبي
وخيرنا ..
لنفترق قليلا

جلست تناظر الهضاب أمامها وقد غابت التفاصيل خلف غيمة من الدمع..
خلف رؤيا مشوهة لليلة لا تريد أن تتكرر.. لا تريد ان تحسب من عمرها رغم عدد السنوات التي أضفتها لها..
لقد رأت البارحة أسوأ كوابيسها، أكثر ما قاسته في عمرها..
نظرت فوق كتفها.. ورأته.. يرقد باستكانة وكأنما مجرد شبح للشيطان الذي رأته البارحة يتجلى

من عمق عينيه، يؤذيها بلسان سليط، يجرحها بكلمات قاسية بحدة الزجاج..
حتى في النوم..
لقد تجرأ وطردها من فراشها!!
انسابت دموعها بألم وكتمت صوت بكاءها بقوة، لم تعد تعرف ما يجب عليها أن تفعل، هي لا تعرف ما دهاه لقد كان في أكثر حالاته روعة.
ولكن مساء أمس..
رفعت عينيها للسماء ودعت بصمت أن يعيد حبيبها اليها، أن يعيده كما تحبه، وأن يبعد الغُمة.. ويزيل كل هم من أمامهما..
"صواااااااان"
انتفضت مذعورة وركضت تتعثر بثوب نومها اليه..
لم يكن يناديها.. بل كانت اقرب لصرخة عذاب منها نداء..
اقتربت منه.. كان نائماً تتحرك رأسه على الوسادة بجنون.. العرق يتصبب بغزارة رغم البرودة الشديدة، ندبة وجهه حمراء وكأنها شُقت

تواً بالسكين، ومقلتاه تحت جفنيه المسبلين يتحركان بجنون..
جلست الى جواره وهتفت باسمه بقلق وهي تهز كتفه..
-جساس.. حبيبي استيقظ انه مجرد كابوس.
تحرك جساس بعنف اخافها ولكنها لم تبتعد بل اقتربت اكثر:
-جساس استيقظ.
فتح عينيه بحدة واستيقظ دفعة واحدة..
أو ربما لم يفعل..
نظر لها دون انفعال ظاهر همس اسمها ودون مقدمات جذبها لتقع على صدره وذراعاه تحيطان بها بقوة وهو يردد بشرود:
-لا تتركيني صوانة، لا ترحلي عني حبيبتي، احبك صوانتي.. احبك.
اجهشت بالبكاء.. بصوت عالٍ نشجت ودفنت وجهها في عضلات صدره وتكورت لتندس اكثر بينما جساس يهذر بانفعال لاهث:
كان شيطانا صوان.. شيطان يسحبك من بين ذراعي.

اتسعت عيناها برعب ونظرت لعينيه.. كانت نظراته زائغة تائهة ثم التقت بعينيها وذابت المقلتين السوداوين وتألقت ابتسامته ثم ذابت في ابتسامتها وهو يهمس:

-احبك صوانتي..

ابتسمت بوله ونسيت كل ما كان ليلة امس و ذهب ادراج الرياح.. كل الالم والقسوة امتحت من ذاكرتها لم تعد تدرك سوى الحب الذي تألق في عينيه، وابتسامته .

-انا احبك كذلك جساس.. احبك من اعماق قلبي.

هتفت بحرارة ثم تراجعت ..

لا تعرف السبب لتراجعها، هل كان التغيير الطفيف في نظرته، ام البهت في ابتسامته.. كان هناك شيء ما تغير شيء وصل لأعماق قلبها وجعلها تهتز من الداخل.. برودة صعقت قلبها وتسببت بتسارع نبضاته حتى بات وكأنه لاعب ماراثون محترف .

-جساس !!

همست بتوجس وهي تحاول الافلات من قبضته ولكنه لم يفلتها قط، لم يترك لها المجال لتتراجع

بل قبضت اصابعه على خصلات شعرها وهو يهمس بعصبية:
-ان كنت تحبينني فلم كنت ستتزوجين غيري؟
-رباااه جسااااس مالذي تقوله؟
صرخت بذعر وهي تحاول التخلص من قبضته ولكنه كان وكأنما قد عاوده شيطانه، وبشكل سافر وعجيب ..
-كنت ستتزوجين من ذلك الرجل وتتركيني وشأني بعيدا سترحلين، وانا .. انا كالحمقى كنت اركض خلفك .
صرخ بعنف وهو يرمي بها عنه لتسقط تحت قدميه شاهقة بألم ودموعها تنهمر من عينيها بغزارة.
-جعلتني مجرد احمق ، ممسحة اقدام يضحك على سخافته وجنونه الجميع كنت عاشقا .. وانت؟!! انت الظالمة التي داست على مشاعري ولم تهتم بأمري بل تفننت بالرفض والاهانة .. ولأجل ماذا ؟؟؟

صرخ وكأنه يبصق على وجهها، زحفت على ركبتيها بعيدا عنه بينما ينهض من فراشه كملبوس بمارد غاضب:
-اكرهك صوان.
صاح بهستيريا:
- اكرهك لأنك لم تحبيني قط كما احبك . عذبتني لسنوات عمري كله.. لم تعشقيني كما عشقتك .. وفوق كل هذا.. فوق كل هذا تمنيتِ موتي.
توسعت عينيها بصدمة ولم تستطع حتى التراجع كانت راكعة على الارض تطالع غضبه بحالة من الذهول الكامل وهو يفرغ جيشان من غضب عارم وحقد دفين لا يعرف من أين هاجمه وتحكم به.
-كل تلك المدة وأنت تتجاهلين مشاعري، تصرين على اللعب من وراء ظهري، تتلاعبين بي وبكل رجل أخر، أشفق عليهم صوان..
صرخ بعنف..
-أشفق عليهم لأنهم ظنوا أنك يمكن أن تحبي أو أن ذلك القلب القاسي قد يلين لأحد.

كان يدور حولها كأسد غاضب، مجنون فقد عقله وكل ذرة من تعقله ذهبت أدراج الرياح..

-صوان.. صوان .. صوان..

همهم بنشيج مستمر.. جعلها تنكمش مكانها أكثر، وتهرب من عينيه التي امتلأت بالشر..

لم يكن هذا جساس!!

لم يكن الرجل الذي تحب والذي عشقت منذ عرفت نفسها..

كان شيئاً ممسوخاً متوحشاً..

-توقف عن قول هذا..

هذت بألم ليضحك بسخرية:

-كل تلك السنوات صوانة، كل تلك السنوات وأنا اتوق لليوم الذي أخذك به بين ذراعي، أتوق لجعلك امرأتي من بين كل النساء.. وأنت تنتقلين من رجل لأخر..

-لاااااا..

دافعت عن نفسه بصوت شاحب، لينقض عليها ممسكاً بخصلات شعرها الناعمة الطويلة بين يديه ويهزها بعنف:

-لا ترفعي صوتك علي يا ابنة عمي، أنت لا تدركين كم هي رغبتي الان بتمزيق وجهك واسكات صوتك، لا اريد سماعك،، لا اريدك حولي صوان.. لا اطيقه..

هتف بعنف ثم دفعها عنه بقسوة جعلتها تنظر له بذهول، أنفاسها تتسارع، قلبها يطرق بقوة وكأنها أخر دقاته، كل شيء حولها، حتى الهواء أصبح ضرباً من الجنون..

تصاعد الغثيان بداخلها.. كانت تريد أن تتقيأ..

كأنه كابوس تريده أن يخرج من داخلها..

حاولت النهوض والابتعاد ولكنه اقترب وامسك بذراعها بعنف وهزها بقوة وهو يصرخ:

-لا تديري ظهرك مني، أتفهمين؟؟ اياكِ صوان.. اياكِ أن تتجاهليني حين أكلمك.

-ماذا تريد مني؟

صرخت بألم والدموع تنهمر على وجنتيها بلا حساب ليقهقه بشراسة ثم يفلتها وقد تلون وجهه بالقرف:

-وماذا قد أريد منكِ أنتِ.. انظري لنفسك.. حتى رائحتكِ صوان.. رباه أي امرأة أنتِ؟

تراجعت مصعوقة ليشيح عنها ويمضي الى حمامه بثقل وهو يجر ساقه المصابة..
تهالكت هي بصمت..
وجهها متحجر لا تجرؤ على حتى فتح فمها.. لا رد فعل لها سوى الدموع المنهمرة بغزارة وعينيها شاخصتين للجدار أمامها..
خرج من حمامه بعد حين ولم يلتفت حتى اليها..
ارتدى ملابسه ثم همهم بغضب مكتوم:
-نظفي نفسك وانزلي لتحضري لي ولوالدتي وشيماء الفطور.
تحركت عينيها نحوه.. بلا تعبير.. اغلق الباب خلفه وبقيت هي مكانها..
مستحيل أن يكون هو جساس.. مستحيل أن يكون هو الرجل الذي تحب.. جساس لن يؤذيها هكذا.. لن يجرؤ على فعلها، هو يحبها ..
ولكن ذلك لم يكن جساس..
نشجت بوجع وتعالت شهقاتها وهي تنهض وتلملم القليل من اغراضها وعقلها يأبى أن يصدق أن الرجل الذي مزق قلبها قبل قليل هو رجل عمرها.. هو حبيبها..

كانت تشهق باكية وهي تضع الأغراض في حقيبة متوسطة حين اصطدمت يدها بالصندوق الذي يحوي ذكرياتها عنه.. وقفت تتأمله بعينين متسعتين من الألم قبل أن تصرخ بالوجع وترميه بداخل الحقيبة..

ارتدت ما وقعت عليه يدها، غطت شعرها باستعجال وأسرعت الى الخارج..

يجب ان تغادر هذا المكان..

هي لن تبقى دقيقة واحدة حتى تعرف مالذي غير جساس نحوها بهذا الشكل المريع..

كانت تتجه نحو باب المنزل وتفتح هاتفها للاتصال بأبيها والدموع تغرق وجنتيها ..

-الى أين تظنين نفسك ذاهبة؟

توقف الدماء في عروقها وهي تلتفت لرؤية جساس الواقف بين أمه والشيماء يناظرها مصعوقاً، وعينيه تتجولان بين وجهها المنتفخ من أثر البكاء وبين الحقيبة التي تحملها بيدها.

تراجعت متردد وهتفت:

-عائدة لمنزل ابي.. أنا لن أبقى دقيقة واحدة بعد ما قلته لي.

تحشرجت كلماتها بالدموع، وارتفع حاجباه بعدم تصديق وهمهم بذهول:
-أتتركينني؟؟
-يا لك من حقيرة..
هتفت نرجس وعينيها تتألقان بشماتة وصوان تنظر اليها بذهول وتصرخ:
-انا لن ابقى هنا جساس.
-دعها ترحل جساس، من الافضل ان تبتعدا لبعض الوقت.
همست شيماء بتوتر وقلق بينما اقترب جساس من صوان وفي عينيه الحائرتين تلوح نظرة ذعر لم تخطئها:
-سوف تهجرينني؟؟
شعرت بالضياع.. لم تعد تعرف كيف تتعامل معه هزت رأسها بحيرة، ولم تصدق ما يقول؟!!
هل يخشى أن تتركه؟؟ بعد كل ما قاله؟؟
-أنت .. أنت نبذتني.
همست بمرارة لعينيه فقط لتتسع دائرة الذعر ويرتجف صوته وهو يطلب برجاء:
-لا تتركيني..

اندفع سيلان دموعها منهمراً وشهقت بألم:
-أنت قلت أنك تكرهني..
-لا لا..
همس بعذاب.. صوته مخنوق والندب على وجهه تشتعل ألماً ..
-قلت أنك لا تريدني حولك، كرهتني وكرهت صوتي وكل ما بي.
-انا.. أنا ..
اختنقت كلماته بالغصة التي استحكمت حلقه كأصابع شيطانية.. ماردة..
واقترب منها أمسك بمعصمها بقوة كادت تحطمه وهو يقول بمشاعر تتأرجح بين الغضب والألم ..
شرارة لمعت بعينيه وهو يهزها بعنف:
-لن ترحلي صوان، لن أسمح لك بالرحيل.
توسعت عينيها وحاولت الافلات من قبضته وهي تصرخ:
-لا اريد البقاء معك هنا جساس، ليس حتى تعود الى تعقلك.
انقلب وجهه مائة وثمانون درجة وصرخ بغضب:

-أتعنين أنني مجنون؟؟
سحبت يدها غصباً وصاحت بانفعال:
-مجنون.. مخدر.. سكير.. لا اعرف ولكنك لست على طبيعتك.
اشتعل به الغضب.. وارتفعت يده تلقائياً لتهبط على صفحة وجهها بقوة جعلتها تسقط على الارض وتفلت منها حقيبتها التي تناثرت محتوياتها جوارها، بينما ترفع وجهها له بصدمة..
جساس كان يلهث.. والغضب الاعمى يلون مقلتيه..
وصوان كانت بلا حراك.. تنظر له فقط حتى الدموع لم تذرفها.
-جساس.. دعها تذهب بني، تخلص منها..
همست نرجس بحقد.. ولكن جساس لم يتحرك.
فاقتربت هي من صوان وبدأت تعيد اغراضها الى الحقيبة وهي تهتف:
-هيا .. ارحلي.. خذي اغراضك...
وتوقفت كلماتها.. توقفت وهي تنظر محتوى الصندوق..

الخطابات القديمة.. الملاحظات.. الاوراق المجففة.. الزهور اليابسة.. خصلات من شعره.. وسن آدمي متحجر..
اتسعت عينيها بذهول ثم أتتها الفرصة كما لم تفعل من قبل..
نهضت تواجهها بكل تلك الاشياء صارخة:
-مالذي كنتِ تنوين فعله؟؟ أكنت تنوين سحره؟؟ أهذا ما ستفعلينه بخصلات شعره.. أهذا السن له أيضاً؟؟ اعترفي أيتها الساحرة ..
اتسعت عينا صوان وهتفت تدافع عن نفسها بحرارة:
-توقفي عما تقولينه ماهذا الهراء؟؟
اقتربت منها نرجس تحت نظرات شيماء وجساس المذهولة:
-هذه الاشياء هي للسحر.. كنت اتسائل دائماً مايعجب ابني بعجوز شمطاء مثلك.. والان عرفت ..
وامسكت شعرها بقسوة وهتفت:
-انت سحرته.. سلطت عليه سحرك أيتها الفاجرة..

-لا لا.. انت مخطئة عمتي توقفي..
هتفت صوان بذعر وجساس ينقل بصره بينهما بذهول بينما نرجس تسحب صوان من شعرها الى الخارج هاتفة بجنون:
-اخرجي من منزلي، اخرجي من حياتنا .. فكيه من سحرك ايتها الشمطاء الكافرة..
صرخت صوان بألم ومرارة وهي تحاول التخلص من قبضة نرجس الحاقدة، كل قوتها تسربت منها بفعل الصدمة، كل شيء ينهار أمامها الأن، كل ما بنته.. كل ما خططت له..
لم يبقى لديها سواه.. تستنجد به..
-جساااااااس..
هتفت بلوعة ونظرت اليه برجاء..
-توقفي أمي..
هتف بانفعال، لتتوقف نرجس وتبتعد عن صوان كأنها شيء قذر.. لا يصح مساسه..
-لا أريدها أن ترحل..
هتف بلا انفعال وهو يرى كيف تكومت صوانة تحت قدمي أمه ملتفة بالأسود وتنشج دموعها بألم

.. اقترب منها وامسكها من كتفيها ليرفعها الى مستواه:
-انت لن تخرجي من هذا البيت أتفهمين؟؟
انتابتها بعض الراحة.. وحاولت الاستناد عليه ولكنه تراجع باشمئزاز وهتف:
-لا تلمسيني..
اتسعت عينيها بصدمة أخرى.. وجساس ينظر في عينيها هاتفاً:
-سوف أحبسك هنا صوان دون ان تقدري على الخروج، دون ان تري أحد، دون حتى أن تتنفسي.
-لا..
همست بتخاذل ليواصل بحقد:
-شرك الذي سلطته علي سوف اتخلص منه، ولكن لن اعيش في العذاب وحدي أنتِ ستشاركينني يا ابنة عمي الشيطانة..
-لاااا..
صاحت بوجع ولكنه لم يأبه.. قبض على ذراعها ومضى عائداً الى غرفتهما.. كانت تتوسل أن يتركها تذهب،، أن يتركها تعود لأمها ولكن

هيهات أن يسمع صوت سوى صوت شيطان رأسه، دفعها الى داخل الغرفة وذهب خلفها واغلق الباب دونهما..

ووقفت نرجس امامه بتوتر، بينما الشيماء تقترب لتهمس لها بخوف:

-عمتي.. الأمر اسوأ بكثير مما ظننا.

تمالكت نرجس نفسها وهمست بعصبية:

-انه بالضبط ما نريد.

-ماذا لو تهور؟؟ ماذا لو قام بأذيتها بطريقة ما؟

اتسعت عينا نرجس بذعر ثم هزت رأسها بحركة قوية :

-جساس ليس مجرماً..

-جساس ليس بوعيه.

هتفت بيأس لتصيح نرجس بخفوت:

-ولذا عليها أن تخرج من هنا، ابتعادها عنه هو السبيل الوحيد ليعود جساس الى طبيعته ويبدأ بالتخلص من عشقها الذي استحكمه.

ثم رفعت عينيها على باب غرفتهما المغلق وهمست لشيماء بتصميم:

-صوان يجب أن تغادر البيت.

مهما كان الثمن..
***
في يدي كالشطرنج عزيزي فلا تغتر ... و تظن بأنك ربحت!!
متى ما أردت السماح سمحت و سمحت لك و سلّمت.
سأتدلل و أتدلل حتى اشبع غروري
سألاعبك و أعلم بأنك بريء و لكنك وقعت في فخهم
كنت أداتهم لتؤذيني و أمرُّ ألآمي تجرعتها منك مليكي
سأبدأ بسحبك خلفي ثم مناغشتي طبعا
تتوسلنِ و أخيرا اعتذاراتك عن جهلك بانسياقك في فخهم ..
فأنا السلطانة
و لو خطئاً ألمتها ... فقصدا سترد الدين.!
و ستظل تركض خلفي و انتظرك
لتستريح يا محارب
و نبدأ جولة جديدة لننعش هذا التوق
أسماء مطر~♥

جلست حائرة اصابعها تنقر بحيرة على ذراع الكرسي، وهي تنقل عينيها بين الألوان المختلفة لموديل أنيق، ثوب حريري طويل مخصص للحوامل، وهمست:
-لا أعرف عن اللون.. أحتار دوماً بين الازرق الشاحب والبيج.
تنهدت البائعة وابتسمت تخفي ضيقها، لتلك السيدة التي لا تستقر على رأي، وذات الذوق الصعب جداً..
-لا أحب الألوان الشاحبة، اختاري شيئاً قريب للأحمر.
التفتت بسرعة نحو صاحب الصوت، وارتفع حاجبها لرؤية ركان يستند على حائط قريب، ارتجف قلبها وابتلعت ريقها بصعوبة، كان طويلاً ببدلة شاحبة، وشعره الاشقر ينسدل بفوضى على جبينه، بينما تألقت عيناه الزرقاوان بحنان..
-أو ربما اللون البنفسجي..
تنهدت وعادت بعينيها للثياب:

-البنفسجي لا يناسب بشرتي، وهذا شيء لا دخل لك به.
زم شفتيه واقترب منها بخطوات بطيئة ليجلس جوارها وذراعه تحيط بكتفيها بحميمية واضحة..
حاولت الابتعاد ولكن ذراعه اشتدت حولها وهو يشير لموديل أخر:
-هذا سيبدو أفضل عليكِ.
نظرت له بعصبية:
-هذا سيبدو ضيقاً.
-ارتديه لي أنا فقط.
قال بابتسامة لتلوي فمها بسخرية ثم تعود لمعاينة بعض الموديلات الاخرى التي جاءت بها البائعة:
-سآخذ هذا باللون المشمشي.
-مممم احب هذا اللون.
غمغم وهو يدفن وجهه في عنقها لتبتسم وتهمس:
-ستراه في أحلامك فقط.
قهقه بخفوت:
-أنت في أحلامي كل ليلة سلطانة، بكل لون.. وبكل الطرق التي يمكن أن تتخيليها.

احمر وجهها وابعدت ذراعه عنها بحركة سريعة قائلة بحنق:

-توقف ركان نحن في محل عام.

-تعالي معي الى المنزل.

غمغم بتوق.. لتنظر له بحنق، ثم تعود لاختياراتها متجاهلة المشاعر التي يثيرها فيها الرجل الملتصق بها. غادرت المحل بعد ما يقارب النصف ساعة وبدأت رحلة التسوق المثيرة بصحبة الرجل الأكثر جاذبية، تجاهلت نظرات الرجال اليها بقوامها المثير وشعرها الثائر حول وجهها ، بينما كانت تضيق أنفاسها كلما رأت نظرات الاعجاب والمغازلة الوقحة الصريحة من النساء نحو الاشقر الراكض خلفها.

تنقلت من سوق الى أخر، تنتقي ثياباً وأحذية مناسبة للمرحلة القادمة من حياتها .. مستغلة وجوده لحمل حقائب التسوق العديدة وكذلك استغلال بطاقة ائتمانه كما لم تفعل من قبل..

بعد ساعات اعلن ركان هزيمته..

-هذا يكفي.

صاح بحنق لفت أنظار جميع النسوة المتناثرين في محل أخر للأحذية وجعل سارة تنظر له بحنق وهو يرمي حقائبها على الارض هاتفاً:

-انها تقارب السابعة، وأنا لم اتناول لقمة واحدة منذ الافطار، لم أعد أقوى على التجول أكثر، يا الهي ألم تتعبي؟ ألا تشعرين بالارهاق أو ماشابه؟

رفعت حاجبها وعادت تختار بين أزواج الأحذية المسطحة المريحة:

-ليس بعد، التسوق هو فن ومتعة وليس مجرد ركض مسعور بين المحلات ركان، إن تعبت فعد الى منزلك واتركني انهي ما أتيت لأجله.

-لقد ابتعتِ نصف السوق.

هدر باعتراض لتنظر له عابسة:

-انا لم أقترب حتى من ملئ خزانتي الصغيرة لا تبالغ ركان.

-أنا لن أتحرك خطوة أخرى حتى أتناول الغداء يا امرأة.

تنهدت بضيق ورمت ما بيدها وهي تستشعر اصراره على افتعال فضيحة، لذا سايرته دون اعتراض.. وفي أحد المطاعم المطلة على برج

بيزا المائل جلس ركان فارداً ذراعيه يقول بارتياح وقد تناول لتوه وجبة بحرية دسمة:
-هكذا تكون الراحة.
شربت سارة من عصير الليمون امامها وسألته بضيق:
-أتشعر بحال أفضل الأن؟
ابتسم برضا، كنمر انهى لتوه وجبة دسمة:
-أفضل بكثير شكراً لكِ.
زمت شفتيها وأشاحت بوجهها وهي تدمدم بحنق جعله يضحك:
-لا تحاولي ادعاء الغضب، أنت لست جيدة بهذا حبيبتي.
-انا غاضبة منك.
هتفت بحنق جعل ابتسامته تتسع بينما تواصل:
-لا يحق لك اقتحام خلوتي الاصرار على متابعتي، والتدخل بكل أموري ركان.
-ولكنني كنت معيناً لكِ اليوم، لا تنكري أنني ساعدتك بكل اختياراتك؟ هل تنكرين؟
مطت شفتيها ولم تجبه ليرفع اصبعه في وجهها:

-انا سأكون الى جوارك على الدوام حبيبتي مهما كان رأيك بالأمر.
-اووووف..
زفرت بضيق وعادت تشرب من عصيرها بينما تشيح بعينيها تخفي اضطراب قلبها الواضح من خلالهما، هذا الرجل لن يتركها وشأنها أبداً، وهي بصراحة.. لا تريده أن يفعل، ولكنها ستعذبه بالقدر الذي عذبها به..
-هل انتهيتِ؟
وضعت الكأس من يدها وقال مرتبكة:
-سأذهب الى الحمام، يمكنك الانصراف سأعود مباشرة الى المنزل.
رفع حاجبه بتهكم:
-وربما أستدعي لك سيارة أجرة في طريقي الى الخارج؟!!
وزم شفتيه بعبوس وهمس بغلظة:
-اذهبي يا مستفزة، سأنتظرك ونعود سوياً.. أنت مرهقة وتحتاجين الى الراحة.
نهضت دون أن تعترض وبهجة خفية ترسل شرارات كهربائية على كل مساماتها، وابتسامة

سعيدة تزحف لتحتل وجهها لتتحول الى قهقهة صافية ما ان وصلت الى الحمام واختلت بنفسها..
طريق العودة الى المنزل الذي استأجرته في روما كان طويلاً بعض الشيء، فشقتها هناك اختلفت عن شقتها مع ركان، لقد انتقت شقة بالطابق الأرضي، تطل على حديقة واسعة وكل أثاثها مصمم خصيصاً للحفاظ على سلامة الطفل، كانت تؤسس بيتاً لها ولطفلها، وليس مجرد مسكن..
ساعدها ركان رغم اعتراضها على نقل الأغراض الكثيرة الى داخل الشقة الواسعة وتنقلت عيناه عليها بإعجاب:
-انها جميلة وواسعة.
-انها مريحة..
هتفت ببهجة وعينيها تتسعان بفرح رغماً عنها لرضاه الظاهر على وجهه بالمكان.. لينظر ركان اليها ببسمة سعادة ويسألها:
-أين غرفة نومك؟
تجهم وجهها في الحال وعبست متراجعة خطوة ليضحك بقوة ويرفع مايحمله:

-لأضع الأغراض فقط لا تكوني سيئة النية.
تنحت عن الطريق وهي تشير الى ممر قريب:
-اخر الرواق على اليسار.
تنهد ومضى الى حيث أشارت لتتبعه بتوجس، ولكن ركان لم يقف بأي شيء عدا أن فتح الباب ووضع الأغراض على السرير الزوجي، ثم نظر نحوها بابتسامة ساخرة:
-هل تأمريني بشيء أخر سلطانة؟
عقدت ذراعيها أمامها وقالت بتوتر:
-فقط أحكم اغلاق الباب عند خروجك.
كتم ضحكة طويلة واومأ برأسه ثم اتجه الى خارج الغرفة واغلق الباب خلفه.
تنهدت بارتياح وبدأت بإفراغ محتوى الأكياس بهمة، ثم استحمت وغيرت ثيابها الى أحد الأثواب الواسعة المريحة وحذائها الى خف منزلي لتشعر أنها في الجنة..
ابتسمت بارتياح وفكرت بأن تقضي باقي الليلة على الصوفا المريحة جداً أمام التلفاز لمشاهدة برامج تافهة والنوم حتى الغد..

وفعلاً توجهت الى غرفة المعيشة لتتوقف مصعوقة وهي تشهق بينما ركان.. والذي جلس على الصوفا المريحة رافعاً ساقيه على طاولة صغيرة أمامه وقد خلع سترته وأرخى أزرار قميصه، وبيده زجاجة مياه غازية مثلجة لتهتف بغضب:

-مالذي تفعله هنا؟

أشار للتلفاز:

-أشاهد الأخبار الاقتصادية.. تعالي بقربي.

سيطرت على اعصابها بصعوبة وسألته:

-ألم أطلب منك المغادرة؟

-هذا صحيح.

رد ببرود لترفع حاجبيها باستغراب واضح لمناقضاته فضحك وحرك ذراعه:

-لقد طلبت مني المغادرة سارة ولكنني لم أقل أبداً أنني سأرحل.

اقتربت بتهديد:

-ركان أنا أريدك أن ترحل في الحال.

تحرك بسرعة وجذبها لتجلس جواره دون ان يأبه لاعتراضاتها وهو يدمدم:

-توقفي عن الثرثرة، وابقي بقربي.
-اه أنت تؤلمني.
اشتكت وهي تحاول التحرر من ذراعيه ولكنه لم يفلتها وبكل سهولة كان ينحني لينزع خفيها ويجذب قدميها ليضعهما على ساقيه واصابعه تداعب باطنهما بخفة جعلتها تذوب وترتخي دفعة واحدة صارخة:
-اووه هذا رائع..
ابتسم بانتصار هامساً:
-قدميكِ متورمة..
عقدت حاجبيها وهمست:
-هذا بسبب الحمل، طبيبتي طلبت مني اجراء بعض الفحوص والتخلي عن الأحذية بالكعب العالي.
-سنذهب في الحال.
حاول النهوض ولكنها تأوهت:
-لا ليس الأن، غداً في الصباح.. الأن أريد فقط الاسترخاء.
عاد ليجلس والقلق يحفر ملامح وجهه لتهمس متجهمة:

-لا تقلق، انه ليس بالشيء الخطير.
-أنا قلق بالفعل، وغداً سأرافقك بنفسي..
زفرت بضيق:
-أليس لديك شركة ما لأدارتها؟
امسك بخصلة من شعرها وازاحها خلف اذنها وهو يبتسم قائلاً:
-أنت اهم شيء في حياتي..
احتقن وجهها، وهو كأنما لم يكتفي، مال نحوها ووضع كفه الضخمة على بطنها المنبعجة وهمس ينظر في عينيها:
-أنت وطفلنا سارة، أنتما أهم ما في حياتي يا جميلتي.
ابتلعت ريقها وأشاحت عن عينيه الثاقبتين تخفي ترقرق عينيها بالدموع، وقلبها يخفق بجنون، بحبٍ تجاهد على السيطرة عليه كي لا يتفجر ويحرقها كما فعل ولم تتعافى كلياً من أثاره.
أما ركان فقد تراجع يخفي ابتسامته، وهو يدرك أنه قد أوقعها حقاً، وانه لم يعد لديها من القوة سوى القليل قبل الاستسلام الكلي، كما فعلت من قبل..

ستعود السلطانة اليه.. بحبها المجنون و عشقها اللامتناهي، ستعود كما كانت كقطة وديعة وتنسى كل ما كان من بؤس فرق بينهما وخديعة.. وهو سيفعل المستحيل ليضمن هذا.

كما وقعت مرة ستعيدينها الكرة
و لن تسلم الجرة
و هذه المرة البعد سألغيه يا درة
و بقوانيني ستعودين يا هرة
و بشروطك إن أردت يا حلوة و برضاك ...
بكل الحب يا جنة
بلعبتي ستلعبين كمهرة
تتدلين و ألحقك بحرقة
أجاريك و تتمنعين بجرأة
و تقابليني بنظرة وقحة تهمسين ...
' دينك لم تسدده بالدمعة حبك لم اعرفه منك إلا بالنظرة لم أسمعه... فلم تنطقه همسة"
تصمتين و تنظرين كلبوة
تبتعدين و كأنك بالبرد اشتعلت حرقة
و كما رأيتكِ فجأة

تختفين بخفة و أقول ما لم تلحقه أذنك يا ملكة ..
أحبك همسا و قولا و فعلا و قلبا
و قسما سأعيدك سلطانة على قلبي ابداً و أنا ملكاً على قلبكِ ابدا..
نيفين مطــر~♥
***
تسلل الليل كلص متدثر بالظلام، وزحف على يديه وساقيه، ليغرق الغرفة بالوحشة أكثر مما كانت بكثير.. وتعالى صوت الأنين، في البدء كان خافتاً بالكاد يبين، ثم تعالى وأصبح كصراخ حيوان كسير..
جذب صوته اسماع الجميع.. وتراكض الكل نحو غرفة الابنة الغائبة منذ الصباح، دون أن يعلم أحد .. دون أن يشعر أحد..
-أشرف؟؟
هتف مختار بذهول.. ينظر لابن أخيه الغارق بدمائه والذي يئن من الألم على الارض بينما اختفت ابنته كلياً.. اتسعت عيناه وهو يرى قميصه الملقى بعيداً..

اندفع خالد ليجلس جوار ابن عمه وهو يصرخ بالخدم المتجمهر امام الباب:
-جهزوا السيارة سآخذه للمشفى.. انه ينزف.
فتح أشرف عينيه بصعوبة وهتف بألم:
-ترنيييم.. ترنيم حاولت قتلي..
نظر له خالد بصدمة ثم سأله:
-ماذا كنت.. ماذا كنت تفعل هنا؟؟ هل تهجمت عليها؟
-لقد ضربتني على رأسي.. كسرت رأسي تلك العاهرة..
سيطر خالد على اعصابه بصعوبة وصرخ:
-أنت في غرفتها شبه عارٍ، وتتساءل لم ضربتك؟؟
تحسس أشرف رأسه بألم وصرخ لرؤية دماءه التي تجمدت:
-أنا أنزف أيها الغبي، خذني الى المستشفى الأن.
-أنا سأنهي ما بدأته أختي..
صاح بغضب وكاد يهجم على الرجل الغارق بدمه لولا تدخل والده ومنعه هاتفاً بذعر:
-توقف يا مجنون أتريد قتل ابن عمك؟

-لقد حاول مهاجمة ترنيم..
صاح خالد بعنف ليتلعثم والده:
-نحن لا.. لانعرف..
تراجع خالد بصدمة:
-انظر اليه ابي.. ماذا تريد أن ترى أكثر؟
نظر مختار لأشرف الذي كان لا يزال يولول لنقله لمستشفى، ثم التفت لخالد وهتف بتصميم:
-ابحث عن أختك يا خالد، لا تتركها تهيم وحدها.
تراجع خالد بمرارة وهتف:
-الله وحده يعلم أين ذهبت، ترنيم خرجت منذ الصباح أبي، وأنت أدرى الناس بابنتك ربما تكون خارج البلاد حالياً..
هز مختار رأسه وقال بجمود:
-لا.. لقد أخذت جواز سفرها، لا يمكنها مغادرة البلاد، ستجدها، ان بحثت بشكل جيد.
نقل أشرف بصره بينهما ثم صاح:
-انقلاني للمستشفى وتناقشا بكل هذه الاشياء فيما بعد..
****
بعد ثلاثة ايام،

توقفت سيارة الدفع الرباعية امام بوابة المستشفى، وترجل منها مختار الراجي وابنه خالد وتوجها نحو الداخل بخطوات مسرعة، والقلق يحفر ملامحهما معاً.
كان الصمت يلفهما بينما يتقدما نحو المصعد .. وبعد وصولهما، تقدما عبر الرواق الطويل حيث تابعا ارقام الغرف حتى وصلا الى مبتغاهما، وهنا توقف خالد ونظر لأبيه قائلاً بتوتر:
-اسمعني ابي، كما اتفقنا أنا من سيتولى الحديث.
رمقه اباه بتوتر قبل أن يومئ برأسه موافقاً، ويطرق الباب ثم يدلفا معاً ..
نهض سيف والحيرة تملأ عينيه وهو ينقل بصره بين الرجلين ثم تقدم وهو يتساءل بخشونة متجاهلاً كل ما يعرفه عن مبادئ الضيافة:
-مالذي تفعلانه هنا؟؟
-أين ابن عمك؟
تساءل مختار بخشونة ليقبض خالد على ذراعه وهو يهمس:
-ابي.. اهدأ.
تراجع بصمت بينما سيف يجيب بجمود:

-كيف عرفتما بوجوده هنا؟؟
-لقد بحثنا لوقت طويل، أنتما تجيدان الاختفاء فعلاً.
هتف مختار بغيظ ليضيف خالد بقلق:
-لقد جئنا لغرض مهم للغاية سيف، بل هي مصيبة في الواقع.
ضاقت عينا سيف وتجاهل مختار والتفت بجسده كله لخالد الذي قال:
-ترنيم مختفية، نحن نبحث عنها منذ ما يقارب الأربعة أيام.
عقد سيف حاجبيه وصمت بينما خالد يواصل:
-لقد عادت الينا منذ خمسة أيام..
وتوقف وقد ذابت الكلمات في فمه وغصة تستحكمه، ليعقد سيف حاجبيه ويهمس بخشونة:
-اعرف جيداً انها قد تخلت عن ابن عمي في اكثر وقت هو بحاجة اليها فيه، عادت راكضة كفتاة مدللة الى حضن أبيها.. كيف أضعتموها خالد؟؟
تساءل بسخرية ليجيب والدها بخشونة:

-ترنيم هربت بعد تسببت بكارثة لنفسها قبل غيرها.. يجب أن نرى أوس، هو الوحيد القادر على اخبارنا بمكان ترنيم.

ليزفر سيف بحنق:

-أوس ليس بحالة تسمح له بالتحدث معكما على الاطلاق، لقد خرج من ثاني عملية جراحية منذ ساعات قليلة، انه يقاتل بالداخل لاستعادة ليس فقط بصره وانما حياته كلها.

-ترنيم زوجته، وهي حياته..

هتف خالد بعجز..

-ربما يعرف شيئاً، أحداً ما قد يساعدها ويخفيها عنا.. أوس ربما يعرفها أفضل منا جميعاً.

اضاف بقلة حيلة، ليتنهد سيف وينظر للباب المغلق خلفه ويفكر بأوس.. وكيف كانت حالته خلال الايام الماضية وهو يظن أنها هجرته وعادت لعائلتها، والأن.. أيحق له أن يحرمه من معرفة أنها هجرت ليس هو فقط بل الجميع..

نفذت بجلدها كما هو واضح والسبب.. ما هو السبب؟

نطق سؤاله بصوت عالٍ وهو ينظر لخالد.. والذي تبادل نظرات قلقة مع والده قبل ان يحسم قراره ويقترب من سيف ويقول بحدة:

-شقيقتي تعرضت لمحاولة اعتداء وكل ما فعلته كان للدفاع عن نفسها.

اتسعت عينا سيف بصدمة بينما خالد يقول بحنق:

-أشرف ابن عمي تعرض لها، هي دافعت عن نفسها وضربته على رأسه..

لمعت عينا سيف باعجاب وقال:

-تلك هي المرأة الحرة حقاً، هل مات الوغد أم يجب على ابن عمي اكمال المهمة؟؟

زفر خالد:

-أشرف لم يمت لحسن الحظ، ولكنه نزف كثيراً وربما تسببت الضربة بنزيف داخلي، ولذا فهو تحت الملاحظة في المستشفى ونحن هنا نبحث عن ترنيمة.

ثم تنهد بأسى:

-أشرف يهدد بالذهاب الى الشرطة.

اتسعت عينا سيف بذهول قبل أن ينفجر بالضحك:

-هو يقوم بالاعتداء وحين تدافع عن نفسها يذهب بها الى الشرطة؟؟ مالذي تقوله يا ابن الراجي.. فكر جيداً..

-نحن لسنا في اوروبا..

هتف مختار بشراسة.. وحين التفت اليه سيف هتف بعنف:

-المرأة في بلادنا لا حقوق لها، ومسألة محاولة الاعتداء ليس لديها فيها شهود، ومن الناحية الأخرى فبصماتها على البلورة التي شجت رأس أشرف، وهناك ألف رجل سيقسم انها من دعته الى غرفتها في عمق الليل.

تجمدت ملامح سيف قبل ان يقول بخفوت:

-يخيل لي أن الموقف ليس جديد عليك على الاطلاق سيد مختار،، وعلى العموم فلا أظن أن الأمر سيصل للشرطة، ليس ان كان لي دخل به..

جلس مختار على أحد المقاعد وبحثت عيناه عن سيف وهمس وقد ظهر أنه كبر لأعوام:

-كل ما نريده منك، هو أن نعرف مكانها، أخبرني أين هي ترنيم، اجعل الكابتن يساعدنا، ثم

سنبتعد، سأخذ ابنتي.. أزوجها لابن عمها وانهي هذا الأمر نهائياً.

-تزوج زوجتي؟؟

هدر الصوت من خلفهم ليلتفت الجميع وتقع اعينهم على أوس.

كان بالكاد قد استعاد وعيه بعد العملية الثانية التي أصر الطبيب عليها والتي أقنعه سيف بخوضها، كان بنفسه مقتنعاً، قلقاً بالتأكيد ولكن..

لم يكن لديه الكثير ليخسره..

كل حياته كانت على المحك، كل ما يريده هو الخروج من حالة العجز التي كان بها والرؤية من جديد.. شرح له طبيبه بالضبط كيف أن الأمر لم يكن سهلاً، وأن ثلاث عمليات ستجرى له، اثنتان قد أجراهم بالفعل وتبقت الأخيرة وموعدها بعد بضعة أيام، اعتماداً على تقدم حالته بعد العملية الثانية والتي أجريت له مساء الامس.

-أنا لن أطلق ترنيم.

همس بخشونة.. وتغلب على الغصة التي خنقت صوته ورفع ذراعه ينادي ابن عمه:

-سيف.

لبى سيف نداءه قبل ان يصل لأخر حروفه وبلحظة كان يمسك بكفه التي قبضت عليه بقوة..
كانت عيناه خلف ضمادة واقية من الضوء..
بينما يشرد رأسه بحثاً عن اعداءه:
-أخبرني أين هي زوجتي يا مختار، نحن هنا بعيدين عن مناطق نفوذك، وباتصال واحد فقط يمكنني أودعك في السجن بتهمة الخطف.
اقترب مختار من أوس وعينيه لا تفارقان الضمادات على رأسه:
-مالذي حدث لك؟
رفع أوس رأسه وهتف بقسوة:
-أين ترنيمتي؟ مالذي تفعله أنت هنا؟ وأين هي بالضبط؟؟
-ترنيم هربت.. لقد ضربت أشرف وشجت رأسه، ثم هربت.. كفص ملح ذاب.
-مالذي فعله لها ذلك الوغد؟؟
هدر أوس بجنون ليتدخل خالد بحنق:
-ترنيم دافعت عن نفسها هي لم تقم بشيء خاطئ.

شعر أوس بالدوار، وازدادت قبضته على كف أخيه الذي قاده الى كرسي قريب ليجلس وهو يهمس له:

-أنت لست بخير، عليك أن تعود للداخل، عليك أن ترتاح أوس.

-ألا تعرفون أين هي؟

همس بشحوب ليرد خالد بتوتر:

-لقد جئنا للبحث عنها، ظننا لوهلة.. أنك.. أنك تعرف طريقها.

افلت أوس سيف وأسند رأسه بكفيه وعقله يهيج في عاصفة من المشاعر العنيفة والأمر يستقر بصعوبة بين خلايا مخه..

ترنيم هربت منه ولجأت لعائلتها، ثم كان ذلك الوغد..

شعر بالدماء تفور في أعماقه..

العجز.. والغضب

الغضب والعجز..

احساسان بالغا القوة ..

أحدهما يثير فورة الدماء، ويفرز هرمونات القتال.. يشعل الروح فيحترق الجسد..

والأخر يثبطها..
يمرغها في الأرض.. يقيدها.. يعريـها على حقيقتها، ويظهر للكون ماهي عليه حقاً..
وكان هو واقع بين الاثنين..
بين فورة الغضب.. وبين مرارة العجز !!
شيء أقرب للجنون..
بل هو الجنون مجسداً.
-ترنيم ارتكبت خطئاً فادحاً أوس، لقد ارتكبت جريمة وأخشى..
هتف والدها وختم مترددا:
-أخشى أن ينتهي بها الأمر كما حدث في المرة الماضية.
-اصمت.
هدر أوس بعنف ثم رفع رأسه باتجاه سيف وقال بحسم:
-اتركني مع السيد مختار لبعض الوقت سيف..
وحدنا.
لم يعترض عليه وقتها، شعر أنه حقاً يريد أن يبقى وحده مع الرجل، ولم يكن الفضول من

عاداته بتاتاً لذا اصطحب خالد للخارج وتركا الرجلين وحدهما..
حالما شعر أوس بانغلاق الباب التفت بجسده كله نحو مختار وهتف:
-تكلم.. مالذي فعلته لابنتك هذه المرة سيد مختار؟ أي تهديدات تلك التي قمت بها لتجبرها على الرحيل عني، وتلقي بها بين يدي ذلك الوغد.
تراجع مختار بذهول وهمس:
-لم أقم بشيء، أشرف.. أشرف فعل كل هذا.
ابتسم أوس بسخرية:
-الأن تتنصل من مسؤوليتك.. خطوة ذكية يا عماه، ولكنها لن تنقذك.. ليس حين اواجهك أنا بكل ما فعلته لابنتك خلال تلك السنوات.
-ابنتي ارتكبت اثمها بيديها، كل ما فعلته أنا كان لإنقاذها من جريرة فعلها.
هتف مختار ليرد أوس بقسوة:
-اتهام ابنتك بالجنون ليس انقاذاً، ايداعها مصحة نفسية ليس أفضل ما تفعله لها.
عقد مختار حاجبيه وهتف بحنق:

-لم يكن أنا من أودعها للمصح، كانت هي.. هي دخلت بقدميها، بعد اصابتها بالانهيار، حاربتها للنهاية كي لا تمرغ اسم عائلتنا في الوحل، ليس من السهل العيش مع سجل للأمراض النفسية كما تعرف.

شعر أوس بالارتباك وتساءل:

-ماذا تعني أنها من أودعت نفسها للمصح؟

زفر مختار وقال:

-كان قريب صديقتها طبيب يعمل في تلك المصحة النفسية، لابد أنه أقنعها بطريقة ما لتستعيد هدوءها، ولكن فجأة ظهر تقرير من العدم يشير بكونها مصابة بمرض نفسي وغير مسؤولة عن تصرفاتها.

-أنت لم تكن مسؤولاً عن التقرير؟

اتسعت عينا مختار وهتف:

-بالطبع لا .. هل تظنني مجنوناً، لقد ظهر ذلك التقرير من العدم وقت محاكمتها، صحيح أنها خرجت دون حكم، ولكنها أصيبت بانهيار حقيقي بعدها، كانت بحالة يرثى لها، ولذا تركتها ترحل.

-من فعلها؟؟

همس بصوت متحشرج ليخفي مختار وجهه بكفيه:
-كنت أشك دوماً بأشرف، كان يبحث عن أي طريقة لاخراجها.. كان هو من أخبرني عن كونها بالمصح، وهو من قال لي عن الحادثة وأصر على اخراجها.
رفع أوس رأسه:
-عن أي حادثة تتحدث؟؟
رفت عينا مختار بارتباك.. ليزمجر أوس وقد فهم الصمت:
-ترنيم لم تصب بأذى، لم يمسها أحد..
-ماذا تعني؟؟
هدر أوس بعنف:
-قلت لك.. افهم جيداً.. ترنيم كانت عفيفة، بريئة كطفلة قبل أن أتزوجها.
نهض مختار ينظر لأوس بذهول:
-أنت كاذب.
زمجر أوس:
-ولم سأكذب، ولأجل من؟؟ أخبرك الحقيقة، ترنيم لم تتعرض للاغتصاب ابداً..

-لم قال.. لما فعل هذا؟؟
-عمن تتحدث؟
تساءل أوس بجفاء، ليجيب مختار بإنهاك:
- أشرف، أشرف هو من جاء بالخبر، هو من رتب كل شيء لإخفاء الاوراق الرسمية..
-الاوراق التي لاوجود لها من الأساس.
علق أوس بعنف..
ثم نهض وبدأ بنزع ضمادة عينيه لتتسع عينا مختار بجزع:
-ماذا تفعل؟؟
-سأذهب لأبحث عن زوجتي.
-أنت لا تستطيع الخروج.
هتف بيأس.. ولكن أوس لم يتوقف، أبعد الضماد كلياً، ووقف أمام الباب يتحسس طريقه نحو الغرفة، قائلاً:
-استدعي سيف..
تحرك مختار بتوتر لا يعرف كيف يتصرف مع رجل بهذا العناد، خرج ونادى سيف الذي أسرع الى الداخل وتعالى صوته وهو يهتف بأوس و ينهره عما ينويه، والتفت مختار لخالد:

-ذلك الفتى قد فقد عقله.
تجاوزه خالد الى الداخل، حيث وقف أوس يرتدي قميصه، ويقول بصوت جامد:
-لا أنت ولا أي أحد في هذا المكان قادرون على ايقافي سيف، انا سأغادر في الحال، وأريدك أن تحجز لي في أول طائر متجهة الى البلاد.
-أوس.. أنت مجنون أنت لم تتجاوز مرحلة الخطر بعد.
هتف سيف بحنق ولكن أوس تجاهله واتجه بخطوات قصيرة نحو الباب..
عيناه.. لا يستطيع الرؤية .. ولكن فليلعنه الله لو بقي مكتوف اليدين..
هو سيذهب خلف ترنيم وان قطع المسافة بينهما على يديه وركبتيه..
لن يستسلم قط..
كل ما عليه هو التركيز فقط.
-أوس انتظر على الاقل حتى يأتي طبيبك؟
-لن أنتظر أحداً، وأن لم تتحرك معي الان فسأذهب وحدي.
صرخ أوس ليجيبه سيف بصراخ ممثل:

-يا أحمق أنت غير قادر على رؤية أطراف أصابعك.. كيف ستستطيع البحث عنها؟
-سأجد طريقة..
-أووووس..
زمجر سيف ولكن أوس لم ينصت، هو فقط تحرك يتبع بصيص ضوء لاح له من بعيد، مهما كان الأمر فهو سيتبعه وان كلفه حياته.
تلك كانت ترنيم..
ترنيم التي هجرته لتحميه من رجل عديم الرحمة، والضمير..
رجل سبق له أن دمر حياتها وها هو الان يحاول تدمير البقية الباقية!!
رحلت ودافعت عن نفسها بشراسة لتختفي من جديد، ولكن هذه المرة هو يعرف أنها لم تبتعد..
بقي فقط أن يفكر جيداً ويستدل على مكانها..
مهما كان الثمن.
***
نهاية الفصل.

ترنيـــمة عــذاب
الفصل ال 28

***

***

قبل سنوات..

-ستعاهدينني على الحب؟!

-الى الأبد..

-قوليها..

-أحبـــك، الى الأبد.

همست بخفر وهي تنظر في عينيه، ترى تألق الحب في العينين اليافعتين، واحمرار اثارة على

خديه تحت ضوء القمر جعلها تتراجع بحرج هامسة:
-عليك أن تذهب..
رفع ذراعيه وقال بابتسامة واسعة:
-أين سأذهب؟؟ هذا مكاني.
وتألقت عيناه أكثر وقد احتوت نور القمر وضياءه..
-قابع تحت شرفتك عروسي.. مليكتي.. ساحرتي،، انتظرك مهما طال هذا الانتظار ..
تدلت من الشرفة كما ومدت ذراعها اليه .. حجابها ينسل ليسقط على الارض الى جوار قدميه، وشعرها الكستنائي الكثيف ينسدل ليغطي وجهها وعينيها تبرقان كالقطط ..
تجذبه اليها بنعومة الحرير وكمسحور يرفع ذراعه لتلتقي أصابعهما في لمسة مجنونة خارجة عن التقاليد، قادمة من ارض الخيال، ممتزجة بغبار الجنيات.. ولهفة العشق المكبوت.
لمسة سحرية ..

لفتهُ بقيود خفية امتزجت بدمه رفعته عن الأرض وتركته يهيم على وجه كحال العاشقين في مذاهب الغرام ...
تائهين .. تائهين ..
وفي عينيها المنتهى .. في عينيها الضياع والملتقى..
في جنبات عالمها الوسيع المرتجى،
***
الآن ..
أشرقت الشمس، وقف بتثاقل امام النافذة ثم سحب ساقه الى الحمام، وقف أمام المرآة يطالع وجهه بعد ثلاثة أيام من القطيعة..
وتراجع مجفلاً، لم تُخفه الندوب.. ولا انتفاخها وتورمها.. لم يُخفه لونه الأسود، ولا الظلال المتراكمة تحت عينيه..
أخافته نظرتهما.. الفراغ المرعب بجوفهما الأسود، النظرة المُتبلِّدة البعيدة..
لم يكن هو من ينظر اليه عبر المرآة ..
كان رجلاً أخر ، لا يمت له بصلة لا يعرفه ولا يكاد يطيقه..

قبض بأصابعه على حافة الحوض وأغمض عينيه بقوة، أنفاسه هادرة كلهيب تغادر حلقه، نار مشتعلة، تهدد بإشعاله هو بلا هوادة.
ابتلع ريقه بصعوبة ثم رفع رأسه وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يفتحهما ببطء ..
هذا الجنون عليه أن ينتهي، لقد طال لأيام وهو لم يعد يحتمل فما ظنك بها هي !!
ساقته قدماه إليها..
الى تلك الخرقة البالية التي أصبحت عليها..
مرمية على الأرض تلفظ أنفاس حبها الأخيرة.
"صوان"
همس..
الاسم يمزق أحشاءه.. وكأنه لسان من لهب يمر عبر أوردته ويشعل اعضاءه بالنار ويحرقها!
اقترب متجاهلاً رفضه، نفوره وكراهيته التي اشتدت يوماً بعد أخر، حاول ألا ينظر الى وجهها الذائب من فرط دموعها التي لم تتوقف، عينيها الشاخصتين كجمرتين لم تذوقا طعم النوم منذ أيام، وجسدها الهامد كجثة ماتت ولم يكلف أحداً نفسه أن يدفنها كما يليق بالميت واكراماً له..

"لا تتجاهليني"
عاد يقول بخشونة.. ثم اشاح بوجهه وقال بكلمات اغرقت بالوجع:
-لم أعد أحتمل، لم أعد استطيع كرهكِ أكثر..
لقد تعبتُ صوان.. انهارت قواي كما يحدث معكِ.. تعبتُ حقاً.
استند للخلف وضرب مؤخرة رأسه بالجدار بقوة وهو يغلق عينيه ويغمغم بشراسة من بين أسنانه:
-هذه النار صوان، أشعر بها تقتلني من الداخل بلا رحمة ولا هوادة..
تذبحني، ..
أراكِ فتشتعل، أبتعد عنكِ فتتقد، ألمسكِ.. فتتأجج.. أهجركِ فأحترق..
لهث بأسى وهتف:
-قولي ما علي فعله، قولي ما أفعل لأطفئ اللهيب الذي يستعر بداخلي، يكويني صوان .. يدميني ويسلب روحي من داخلي..
كلماته نزلت عليها كحمم لاهبة، تتركها في مركز البركان الذي كان يحترق فيه..

لأيام.. ظلت تتعرض لسوء معاملة منه، كلماته القاسية، هجرانه وحرمانه لها، ووصل الأمر لأن يتعرض لها بالضرب المبرح.. !!
تركها مكدومة، متألمة، وقد سال الدم من أنفها وفمها وركض يفرغ ما في جوفه..
وتركها هي تفرغ ألمها وحزنها وصدمتها بدموع مزقت روحها..
لم تعد تحتمل..
كل شيء أخر.. كل ما يمكن أن تفعله أمه أو تلك الشمطاء في كفه.. وما يفعله هو بها دون وجه حق في كفة أخرى..
لم تعد تحتمل..
"اتركني أرحل"
همست بشحوب لينظر لها بصدمة..
"طلقني.. أطلق سراحي"
كانت تهمس ولا تعرف حتى ان كان يصغي اليها.. مصدومة.. مذهولة..
ما كان يصفه من قسوة ما يشعر به، كانت هي تعانيه بالحرف..

وفوق ذلك كان عليها أن تعتد فكرة أنه يؤذيها.. الرجل الذي عشقت منذ نعومة أظفارها كان يؤذيها، لا تعرف السبب ولم تعد تريد ان تعرف، كل ما يهمها الأن .. أن ترحل.. أن تنجو بنفسها قبل أن ..!!

قبل أن تكرهه... أكثر!!!

تحاملت على نفسها ونهضت، لأنها يجب أن تنهض، يجب أن ترحل، يجب أن تستعيد قوتها، يجب أن تجد ذاتها التي مرغها حبه في الارض.

"دعني أرحل"

اعادت بتصميم هذه المرة، وهي تنظر في عينيه..

الرؤية مهتزة، ربما بسبب الاذى الذي سببه لها، ولا تريد أن تتذكره، ربما ارتطمت رأسها بالجدار حين دفعها لتسقط على الارض، وربما.. ربما كانت صفعته التي شعرت بها تكاد تفصل رأسها عن جسدها هي من تسببت بغشاش الرؤية التي تعاني منه الأن، فليس لهذا دخل بالتأكيد بنهر الدموع الذي انسكب دون ارادة منها ، اغرق وجنتيها وحفر اخاديد بها، ليس لهذا دعوة

اطلاقاً بهيجان مشاعرها والنار التي ألهبت اعماقها،،
"دعني أرحل.. أطلق سراحي"
اتسعت عيناه بذهول.. ولكن مما .. ألم يكن هو نفسه يفكر بأنه الحل الوحيد!! الافتراق..
لخير هذا الحب وخيرنا ..
انسابت دموعه دون تحكم منه ، والصوت لا يجرؤ على نطقها..
"اذهبي"
خرجت بحركات شفاه.. قرأتها رغم ضباب عينيها ومزقت طبلتي أذنيها كأنما صرخها بأعلى صوت..
مزقت نياط قلبها وفجرت دموعها بنشيج صاخب كالأطفال، تنعي حبها وحبه..
روحها وروحه..
تكتب بخط عريض.. حروف كلمة النهاية..!!!!
***
لا تتوقف قط عن الحلم،
ففي أعماقنا كابوس مفزع على وشك الاستيقاظ..
اترك خيالنا ينعم بنوم هادئ

دع لنا القدرة على النجاة يا الله،
فالنفس عافت الحياة في الظلام،
وخرجت كفراشة من شرنقتها
تبحث عن النور.. حتى لو عنى ذلك أن تبكر في موتها..
**

استلقت تحدق في السقف، الضوء الهزيل يتأرجح فوق رأسها مثيراً خيالات لا تتوقف على الجدران، المساحة الضيقة والحرارة الخانقة تكاد تكتم أنفاسها المخنوقة والحزن .. الحزن يجثم بثقله على أضلاعها فتئن وجعاً وحرماناً تتقلب على فراش من الذكريات الحارقة كجمر يصطلي بنار هادئة.
لقد مر وقت طويل.. ربما سنوات، وهي تفتقده، لا تزال تحمل في طيات صدرها قلباً ينبض له، يحن إليه.. يرجوه من العالم كله. هو فقط من يملك القدرة على امتلاك افكارها حالياً، هو مهربها من الهول الذي تعيشه، من الفراغ المفزع بداخلها ومن الهوة التي تتسع بداخلها كل يوم أكثر وأكثر و أكثر..

حتى وان كان بعيد المنال، محرماً عليها في الارض فربما تجمعهما السماء يوماً!!
نهضت بخمول.. واقتربت من النافذة المربعة الصغيرة، الزجاج مصمت معتم وخلفه قضبان حديدية بشعة تأسرها بعيداً عن العالم الخارجي..
رفعت عينيها للسماء، كان القمر بدراً والنجوم تشع ضوءً باهتاً الى جوار ضوئه الباهر..
"يا رب .. أرجوك اجبر قلبي، فلم أعد أحتمل الوجع"
همست بصوت مثقل بالألم .. وانسابت ساقيها تحتها وطوقت ركبتيها بذراعيها بقوة، ثم أجهشت بالبكاء.
***
كانت الساعة تقارب الواحدة بعد منتصف الليل حين وطأة قدماه أرض المطار، كان الجو حاراً كالعادة، المطار خالِ تقريباً فلم يكن هناك العديد من الرحلات بسبب الاوضاع السياسية الراهنة، انهى اجراءاته الجمركية يرافقه خالد الراجي ومختار الراجي بنفسيهما، انتهوا في وقت قياسي

قبل ان يتوجهوا الى الخارج حيث انتظرتهم سيارة دفع رباعية سوداء.
تقدم أوس الشيب بثقة وخطوات سريعة ورغم الظلام حوله كانت على عينيه نظارة قاتمة تحمي عينيه من ابسط وأخف ضوء يمكن أن يسقط عليها، رأسه المحلوق بالكامل محاط بضمادة ضخمة، وما ان وقف امام السيارة حتى قال خالد بتوتر:
-الى أين تريد الذهاب؟
انقبضت اصابعه حول مقبض الباب بقسوة ثم قال:
-الى القذر الذي نسج كل تلك المصائب حولنا.
تبادل الاب وابنه النظرات واراد والده الاعتراض ولكن خالد حسم الامر وقال بحزم:
-المشفى تبعد أقل من 10 دقائق.
-ممتاز.
قالها أوس بجفاء، ثم سارع لاعتلاء السيارة وهو يحاول السيطرة على ارتجاف أصابعه، والصداع الذي لا يترك رأسه منذ غادر المشفى. كان وحده فسيف وقع بينه وبين أخيه وصوان، هو لا يعرف

بالضبط ما حدث ولكن عمه حسن كان مضطرباً جداً وهو يطلب من سيف أن يأتي على الفور.
ولكنه لم يهتم، ولم يؤجل سفره كما طلب منه سيف، كان عليه أن يأتي ليبحث عنها، هي لم تغادر عدن، لاتزال هنا، وعليه أن يجدها مهما كلفه الأمر، وبعد تجاهل تام لرأي طبيبه المعالج، كان يحزم حقيبة خفيفة ويقفز على متن أول طائرة مغادرة.
كانت المدينة غافية بتلك الساعة المتأخرة بعض الساهرين متناثرون هنا وهناك، ثم انطلقت السيارة عبر طريق الجسر نحو الجهة الأخرى،، عيناه ارتفعت تلقائياً نحو السماء..
"أخبرني أنك لن تتركني.."
"أعدك ترنيم.. ان لم تتركيني أنتِ أولاً فأنا لن أفعل، أبداً"
كانت خائفة .. مرتبكة .. عينيها مضطربتين وهي تفتح أمامه دفتر مذكراتها وتكشف جزءاً من روحها، تعريها أمام عينيه.. ليعرف أنها كانت في الحضيض قبل أن تلتقيه ولأجله فقط، وبسببه هو تغيرت، عادت للحياة رويداً رويداً.. وربما

عادت لما كانت عليه قبل أن تحدث لها كل تلك الأهوال..
تنهد واستند برأسه وهو يغمض عينيه بإرهاق..
-هل سنجدها؟
سمع الصوت الخفيض المتسائل من خالد بالقرب منه ففتح عينيه وقال بعزم:
-أنا لن أتركها تفلت مني، سأجدها مهما كان الثمن.
نظر له خالد لوهلة وتأمل الوجه المرهق الناحل، منذ عرفه وهذا الرجل يبدو بأسوأ حالاته، المرة الاولى كان أنفه بالدعامة وذراعه بالضماد ووجهه كله مكدوم، واليوم هاهو .. الضماد يلف رأسه وحسب ما فهم فهو مهدد بفقد بصره كذلك..
-أنت بحال سيئة كذلك؟
تنفس بسرعة هامساً:
-أنا وترنيم نحتاج بعضنا، أحتاجها لأكون أفضل، وهي تحتاجني لتشعر أنها أفضل..
أشاح خالد ببصره وشعور بالخزي يغمره، فهذا الغريب مهما كانت صفته الان هو الوحيد الذي

اقترب من شقيقته بشكل لم يفعله هو أو والدته أو أي فرد من أفراد عائلته المصونة.
عادا للصمت وكل منهما يغرق في أفكار الخاصة، حتى بدأت السيارة بالإبطاء وهي تدخل الى نطاق المستشفى الذي كان شعلة من النشاط رغم الساعة المتأخرة وأشار خالد لمبنى يقع بالمؤخرة وهو يقول للسائق:
-في المبنى ذاك يا رشد.
اومأ السائق واتجه حيث أشار، وقبل حتى أن يتوقف كلياً التفت أوس لخالد:
-أي غرفة؟
اعطاه خالد رقم الغرفة فلم ينتظر حتى تتوقف السيارة بل قفز منها مباشرة واندفع نحو البوابة الزجاجية متجاهلاً صرخة خالد خلفه وبعد سؤال الحارس نحو مكان الغرفة اندفع لا يبالي بمحاولة الحارس معرفة من يكون أو يهتم حتى بصراخه أن مواعيد الزيارة قد انتهت بل انطلق نحو مكان الغرفة واقتحمها دون تردد، كان القذر هناك، يجلس على فراش وثير ويقلب جهاز التحكم عن

بعد لتلفاز معلق بالحائط .. رأسه مغطى بضماد ضخم، ولا شيء غير ذلك..
كان صحيحاً كثور.. وقد قفز من فراشه حالما رأى أوس يقف على باب حجرته، ويغلقه خلفه بالمفتاح ببرود..
-ماذا تفعل هنا؟
صرخ أشرف بتوتر بينما يقترب منه أوس بحذر:
-أبحث عنك.
تراجع أشرف ورد بسخرية:
-ألا يفترض أن تبحث عن زوجتك الهاربة؟؟
زوى أوس بين حاجبيه وقبض كفه بقوة وحاول جهده السيطرة على اعصابه:
-لا شأن لك بزوجتي، لا شأن لك بمكانها ولا بأي شيء أخر.
فرد أشرف قامته وامتلأ وجهه سخرية:
-مالذي جاء بك الى هنا اذاً؟
فرك أوس كفيه ببعضهما وقال بصوت خفيض:
-جئت أريك مقامك الحقيقي قبل أي شيء أخر.
ابتلع أشرف ريقه وقال بتوتر:

-أنا أعرف حقيقة وضعك جيداً كابتن، اعرف ما تعانيه وما لا يمكن أن تخاطر به.

ابتسم أوس بسخرية:

-لا تقلق على وضعي الصحي سيد أشرف، أنا أدرى بنفسي على كافة الأصعدة، وان كنت على شفير الموت، فتبقى أنت والعناية بك على قمة أولوياتي.

ابتلع أشرف ريقه وقارن بين بنيته النحيلة وبين أوس الذي ورغم نحول وجهه لا يزال يحتفظ بقوته وتفوقه العضلي، كان أشرف وحيداً الان، ورغم الطرقات التي يسمعها على باب غرفته كان يدرك أن أوس لم يأتي وحيداً.. وأن رجاله هو لم يكونوا بالقرب حيث جعل معظمهم ينطلقون بحثاً عن ترنيم، لذا فهو وحده .. ولم يكن مستعداً أبداً..

ولم يتركه أوس ليفكر طويلاً.. رغم ما يعانيه ورغم الرؤية التي لم تتحسن وكأنما يرى العالم من خلف نظارة زجاجها ضبابي لعين، إلا أنه لم يتردد للحظة.. كراهيته نحو هذا الرجل وما فعله بزوجته، كل هذا عاد لرأسه وهو ينقض عليه

بحركة سريعة، لم يسع أشرف سوى محاولة الهرب منه ولكنه لم يسمح له، لم يعطه الفرصة حتى، وقع الاثنان على الارض ليحاصر أوس أشرف بساقيه ويمنع عنه الحركة ويبقى شبه جالس على بطنه بينما تكيل قبضتيه الي اللكمات .. ولكن أشرف استطاع تمالك نفسه وقبض على ذراعي أوس من الاسفل ثم رفع نفسه بصيحة شرسة ليعكس الوضع ويحاول السيطرة عليه ولكن أوس لم يتركه ليفعل، كان الغضب بداخله أشد..

امسك بوجهه بين أصابع يده اليمنى واليسرى تقبض على خصلات شعره القصيرة، وجذبه للخلف بقوة جعلت أشرف يصرخ بألم وأوس يرفع ساقه ليضربه بقوة بين ساقيه جعلته يسقط للخلف لينهض أوس ويعاود الهجوم عليه وكفيه تقبضان على عنقه بقسوة صارخاً:

-سوف أقتلك أيها الحقير.

وبحركة حادة رفع رأسه وعاد يخبطه على الارض بقوة جعلت أشرف يصرخ مدوياً بألم، بينما أوس يعاود لكمه بحقد صارخاً:

-سأقتلك، سوف أقتلك لكل ما فعلت بترنيم، بنا.. سأقتلك.

-ترنيم ملكي أنا .. منذ ولادتها وهي لي، لا أنت ولا علي العزب كنتما تستحقان ابنة عمي.

اتسعت عينا أوس بصدمة لوهلة، استغلها أشرف وتخلص من ثقل أوس فوقه وحاول جذب الكرسي ليرميه عليه ولكن أوس تراجع بخفة بعيداً عن الكرسي الطائر وسرعان ما كان يعاود هجومه على أشرف وهذه المرة من الخلف ليتمسك بعنقه بقوة يحاول خنقه بكلتا يديه، وهو يصرخ بشراسة:

-ترنيم زوجتي أيها الوغد ، ومهما فعلت أو قلت لن تغير من هذا الأمر، والان في التو سوف أكمل مهمتها وأقضي عليك يا وسخ.

جحظت عيني أشرف وانتفض جسده بعنف، ذراعيه تتخبطان في الهواء، ووجهه يزرق أكثر وأكثر بفعل ضغط ساعد أوس المستمر..

-أعرف من أنت أشرف.. أعرف أنه أنت من حاولت الاعتداء عليها في المصح، أعرف أنه أنت من لفقت أمر المرض النفسي، أنت من

تسبب بدمار نفسيتها، أنت جعلتها تهرب مني ومن الجميع.
كان يتحدث ولا تزال ذراعه تضغط بقوة واصرار على عنق أشرف ومن ثم ..
اقتحم أحد ما الباب، لا يعرف كيف تكالب عليه اثنان وربما ثلاثة ليسحبوه بعيداً عن تلك الحشرة التي كان مصمماً على القضاء عليها مهما كلفه الأمر، صرخ بجنون وهو يرغب بالهجوم عليه مجدداً دون حتى أن يهتم بالرجال الذين يطوقونه، لم يكن يرى أحد، لم يكن يهمه احد ، كمجنون فقد سيطرته على نفسه شوح بذراعيه وعينيه لا تريان سوى الوغد الذي يريد تحطيم حياته وحياة المرأة التي يعشق.
-اتركوني عليه، اتركوني لأقضي عليه.\
هتف بوحشية ولكن لا أحد أفلته، كان يريد التخلص منهم ولكنه رجل واحد مقابل ثلاثة!!
مالذي يمكن أن يفعله وحده؟!
-أوس تمالك نفسك هل جننت ستقتله؟
تعرف صوت خالد ولكن عيناه ظلت معلقة بتلك الهالة التي يعرف أنها لغريمه وصرخ بجنون:

-أنا أريد قتله، سوف أقتل الوغد الذي دمر حياتي وحياة زوجتي، هو السبب بكل ما حدث لها يا خالد هو أودى بها الى الجنون ويكاد يدمر حياتي أنا الأخر.

أمسك خالد بجانبي وجهه وقال بقوة:

-وما الفائدة التي ستجنيها؟ هل سيعيد ترنيم ؟؟ أنت ستدخل الى السجن وهي ستضيع الى الأبد..

شعت عيناه المشوشتان بجنون وهو يصرخ:

-خسئ هذا الكلب ان كنت سأحمل ذنبه، انه مجرد حشرة لا تسوى.. سأدوسه بقدمي.. أنا أوس الشيب.

تراجع خالد بتوتر ثم التفت الى قريبه ودفعه من كتفيه بقوة صارخاً:

-ماذا فعلت أيها الأحمق؟ لقد دمرت كل شيء بجنونك..

رفع أشرف عينيه لابن عمه وصرخ بهستيريا:

-ترنيم لي وحدي، مهما حدث سوف تعود لي رغماً عن أنف أي...آآآه..

صرخ متوجعاً حين عاجلته لكمة قوية كادت تكسر فكه وفجرت الدماء من بين شفتيه، وجعلته

يتهالك على الارض بينما خالد ينظر لأوس الذي تخلص من الرجال حوله وانقض بكل ما يملك من قوة وشراسة على غبي الذي لا ينفك يذكر اسم ترنيم ..

-ابداً .. أبداً لا تذكر اسمها أيها القذر..

وقبل ان يتحرك خالد لجذبه بعيداً كان يرفع ساقه ويركله بقوة على جنبه تاركاً اياه يلتوي متاوهاً ثم التفت لخالد وقال نافثاً أنفاسها بهدير:

-هيا بنا..

ثم مضى بخطوات سريعة للخارج يتبعه خالد بخطى متعثرة، يسمع أشرف يرغي ويزبد متوعداً الاثنين بالثأر والانتقام بأسرع وقت ممكن بينما رجال عمه مختار مرافقي خالد يتراجعون خلفهما.

كان لا يرى امامه، الغضب أعماه وكأنما لا يقدر على الرؤية بعده، سيجدها.. مهما حدث سوف يجدها، لأنه لا يستطيع الحياة بدونها.. ولأنها لا تستطيع النجاة بدونه ..

وعشق الروح مالوش أخر..!!

التفت لخالد وقال بوجع:

-خذني حيث كانت لأخر مرة.
اومأ خالد باضطراب لكل ما يبدو على وجه أوس من معاناة، وتصدر الطريق عائداً الى السيارة حيث انطلق به مباشرة الى غرفتها..
وقف أوس يتطلع حوله برهبة، غرفة ترنيم القديمة.. والتي أخبرته في يوم ما أنها هجرتها لسنوات ولم تعد اليها قط حتى قبل زواجهما لأيام قليلة..
تلفت حوله.. كانت واسعة ولكنها مظلمة قليلاً، ستائر ثقيلة تظلل نوافذها وأثاثها من خشب ثقيل، داكن.. لم تكن تشبه الترنيمة التي يعرفها.. ربما تلك بالحقيبة الرثة والتي راها لأول مرة .. ولكن .. ليس ترنيمته المشعة .. ليس حبيبته الساطعة كشمس منتصف النهار.. تلك التي غابت .. وغاب معها ضوء عينيه.. !! جلس بتهالك على طرف الفراش وهمس لخالد:
-اتركني وحدي.
لم يتردد خالد وفعلا غادر مغلقاً الباب خلفه بهدوء شديد.. نهض حينها أوس وتحسس طريقه في الظلام الذي عزز ظلامه الداخلي، كانت

الشراشف حريرية ولكنها باردة.. خالية من الحياة ليست كتلك التي كانت تغيظه بوضعها على فراشهما .. تلك الشراشف القطنية بالرسوم الكرتونية المضحكة..

اغمض عينيه بألم ودعك النتوء بين حاجبيه بقوة ربما يخلصه من الصداع الذي يكاد يعصف برأسه..

"اشتقت اليك يا صغيرتي"

همس بوجع .. ابتلع ريقه بصعوبة وفتح الخزانة الضخمة .. وعيناه تضيق برفض لرؤية تلك الملابس الغريبة عنه، لم تكن تمثل سوى ترنيم البائسة التي عانت لسنوات لأفعال لم ترتكبها، لخطايا هي بريئة منها، شيء لم تعد قريبة منه منذ تعرفت عليه ..

لامس اطراف الملابس القاتمة بخفة وشعر برائحة مكتومة تصل اليه عبرها، شيء معتق بلوعة الغياب.. عبير مغلف بالسنوات الماضية.. تلمست أصابعه الاقمشة الواحد تلو الأخر حتى وصلت اليه..

جذبه بخفة وزرع وجهه بين طياته ، يتنشق ذرات عطرها العالقة بين خيوطه الحريرية..
عيناه تلتهمانه بجشع.. كان الحجاب الذي ودعته به قبل أن يغلق عينيه وترحل هي بعيداً عنه..!!
اعتصر القماش الرقيق حتى كاد يتمزق بين أصابعه .. قبل نعومته بشفتين حازمتين يتذكر نعومة شفتيها هي، واغلق عينيه بعمق وهو يتذكر دلالها بين يديه.. حياؤها ورقتها .. استجابتها العفوية وابتسامتها التي كانت تودي بعقله خلف النجوم..
امرأته الوحيدة.. معشوقته الفريدة للغاية..
ترنيمته .. وحبه الوحيد!!
أخذ نفساً عميقاً ولف الوشاح الناعم حول عنقه قبل ان يتوجه الى خزانة صغيرة موضوعة الى جوار السرير، فتش أدراجها بسرعة ولم يجد بها أو بالتي تقابلها في الجهة الاخرى شيء ..
لتلفت انتباهه خزانة صغيرة أخرى تحت النافذة..
تقدم نحوها وفتح أول أدراجها ليجد المذكرات..
سحب نفساً عميقاً وتراجع ليجلس على أحد المقاعد القريبة وهو يضيء مصباحاً جانبياً

واصابعه نقلب الاوراق المهترئة.. وصل الى أخر ورقة قرأها في المرة السابقة ووجد أن ترنيم لم تكتب شيء أخر بعدها، لم يعرف أيجدر به الشعور بالارتياح أم السوء !!

نهض ممسكاً بالمذكرات بإحكام، لا يجب أن يجدها أحد ويعرف ما كانت تعانيه حبيبته.

حينها شعر بالورقة التي انسابت من بين الصفحات المهترئة، كانت مختلفة.. حديثة ومطوية بعناية.. وموجهة إليــه !!

"حبيبي أوس..

أدرك أنك ستبحث عني، ربما ستكون الوحيد الذي سيكلف العناء للبحث، لقد اختفيت مرات من قبل فكنت مجرد عبء سُعدوا جميعاً بالتخلص مني.. ما عداك، أعرف أنك ستقلب الارض بحثاً و أتوسلك ألا تفعل.. اتركني أرحل.. أعود الى مكاني حيث أنتمي ومن هم على شاكلتي، سيرتاح مني أبي.. وتتخلص أنت من النحس والشؤم الذي حل على حياتك منذ عرفتني.. ستعود لعملك وحياتك من قبل أن تعرفني.

أرجوك أوسي.. أرجوك توقف وعد حيث كنت.. لخير هذا الحب يا حبيبي..
وداعاً..
قصيرتك "
رباااااه .. اتسعت عيناه بوجع.. كيف تطلب منه أن يهجر البحث عنها؟! أن يتركها وحالها.. كيف؟؟ كيف له أن يفعل؟؟ يعود لحياته؟؟!! وأي حياة كان يعيش قبلها؟؟ قبل أن تكون هي في حياته؟؟
بالكاد سيطر على أصابعه كي لا يمزق الرسالة الغبية ومن بين أسنان مطبقة كان يدمدم:
-معاً ترنيم.. سنمزق كوابيسك وتلك الكلمات الغبية معاً يا حبيبتي..
تشبث بما حصل عليه وانطلق للخارج وهو يقابل خالد الذي نظر لما يحمله معه بحيرة ليقول له بحسم:
-أريد مقابلة علي العزب.
وضاقت عينا خالد وهو يرى العزم يكاد ينطق من عيني صهره.. الذي أدرك والأمل يغزو كل أفكاره أنها ودون أن تعي.. قد وضعته على

الطريق الصحيح للبحث عنها.. كانت رسالة خفية بين كلماتها البائسة .. رسالة ملئها الأمل.. أو هذا ما كان يأمله هو!!

***

أغلق ركان الباب خلفه بهدوء تاركاً سارة النائمة بسلام على الفراش الضخم، وعاد الى غرفة المعيشة ليريح جسده على الصوفا غير المريحة ابداً والتي كانت منامه في الأيام السابقة، فمنذ زيارة الطبيبة النسائية والتي أخبرتهما عن بعض الأمور المقلقة في حمل سارة، فضغط دمها كان مرتفعاً بعض الشيء.. وهناك تورم خفيف في قدميها، ورغم أنها طمأنتها إلا أنها أسرت له أن الأمر مقلق خصوصاً في الفترة المبكرة من الحمل وأن اهمالها قد يؤدي الى اصابتها بتسمم الحمل!!

تهالك على الصوفا ورفع ساقيه على مسندها، لم يكن ينوي أبداً اشراك أحد في ما عرفه ولكنه حمل ثقيل عليه ولذا فقد ذهب لوالدتها وأطلعها على كل شيء، ورغم رقة حماته الا أنها لم تجزع كما توقع بل كانت هادئة للغاية وهي

تطمئنه وتشرح له كيف أنها هي نفسها قد تعرضت في حملها بسارة لنفس الشيء ولا ريب أنه يسري في العائلة..
ولكن هذا لم يخفف قلقه قط..
ومنذ ذلك الحين وهو حال ضال في منزلها، متجاهلاً اصرارها على رحيله ومستغلاً ضعفها ليبقى الى جوارها معظم الوقت ماعدا ساعات قليلة يبقى فيها في الشركة.
نظر الى ساعته كانت تقارب الثامنة مساءاً، لقد طلب عشاء من مطعم قريب، وكذلك هو بانتظار نيران لتأتي به ببعض الاوراق لتوقيعها.. لذا كان يعد كوب من القهوة السريعة حين سمع جرس الباب..
فتحه ليجد نيران ترفع حافظة اوراق بوجهه قائلة بصلابة:
-في المرة المقبلة استخدم الساعي في مكتبك.
لوى ركان فمه وامسك مرفقها يقودها لداخل الشقة الواسعة والهادئة وهو يتمتم:
-أنت مساعدتي الشخصية نيران، متى ما أردت بعض الاوراق.. استدعيتكِ انت.

زمت شفتيها وهتفت بغلظة وهي تتخلص من ذراعه وتواجهه بقوة:
-لا تنسى من أكون ركان.. أنا نيران الباشا..
واجهها بالقوة مثلها وان فاقت سلطة صوته كل توقعاتها:
-وأنا ركان العثماني، أعتقد أنك تعرفين جيداً ما يعنيه لكِ أو لسليم بنفسه.
رفعت يدها اليمنى مشيرة للخاتم الذهبي بالماسة الضخمة والتي تحيط بأصبعها كحلقة عبودية صارخة:
-ولا تنسى من أكون أنا لسليم .. أنا خطيبته..
تراجع ركان وابتسامته تتسع بسخرية:
-ليس لوقت طويل.. أم أنكِ نسيتِ شرطه الوحيد..
!!
ابتلعت ريقها وأشاحت عنه تخفي توترها والغيظ الذي اشتعل في عينيها.. بينما هو يضطجع على كرسي واسع ويبدأ بتصفح الاوراق التي جاءته بها ويوقع بعضاً منها.. مصرحاً أن القهوة جاهزة في آلة صنع القهوة وأنها يجب أن تخدم نفسها..

سمعت حينها تلك النحنحة والتفتت لترى سارة الشيب.. لن تنكر قط أنها تندهش لرؤيتها في كل حين.. فهي تعلم بحسب مركزها انها تعاني من مشاكل في حملها فهي السبب في تغيب ركان عن الكثير من اجتماعاته او تأجيله لبعضها .. كما أنها المسؤولة عن ترتيب مواعيده مع مواعيد متابعة اختصاصية التوليد خاصتها.

-سارة.. سعيدة لرؤيتك.

ابتسمت لها باقتضاب ولكن سارة لم تفعل، رؤيتها لهذه المرأة هنا جعلتها تشعر بعدم الارتياح كما في كل مرة ترى أحدى النساء حوله !! التفتت لركان الذي طالعها بهدوء وابتسامة عذبة على شفتيه:

-هل ترغبين بشيء ما سارونتي؟

نقلت بصرها للحظة بينهما ولم تدرك لم .. ولكنها رغبت بمحو تلك الابتسامة عن وجه نيران الباشا، ربما لتخبرها أن هذا الرجل هو لها فقط .. بعيداً عن كل شيء كانت هي زوجته، وامرأته التي اختارها عنهن كلهن.

وهي بحاجة لهذا في هذه المرحلة.. بحاجة لأن تدفعهن بعيداً عنه مهما كان الثمن، والتفتت لركان الذي كان مضطجعاً يناظرها كمفترس ينتظر اللحظة المواتية فقط للانقضاض، عيناه الشهوانيتين تتوقدان كلما نظر اليها.. رغم شعورها بالفخر كأي امرأة أخرى ولكنها نفس النظرات التي يوجهها نحو تلك السافلة ونحو نيران في يوم ما.. نحو أي امرأة تطالها عدسة كاميرته.. على هذا أن يتغير كلياً..

لذا رفعت ذراعها لركان وهمست بصوت مبحوح:

-أرغب بك أنت، الى جانبي.

تدلى فكه ببلاهة وهو ينظر لسارة وكأنما قد نبت لها جناحين .. لقد كانت بالكاد تتقبل وجوده حولها في الآونة الاخيرة والأن .. والأن هي ترغبه؟؟ مالذي يحدث؟؟

-سأذهب الأن..

سمع نيران تدمدم بصوت مخنوق وهي تسارع للملمة الاوراق والاحتقان يغزو وجهها بينما

ينهض هو كالملسوع ليقف جوار سارة ويحيط بكتفيها هامساً بقلق:
-سارة أأنت بخير؟
نظرت نحوه بميوعة ومررت اصابعها على جانب وجنته:
-وهل من السيء الى هذه الدرجة أن ترغب المرأة زوجها..؟؟!!
عاد الارتياب الى وجهه فضحكت واقتربت بالكاد تلامس اذنه بشفتيها:
-سأنتظرك بالداخل.. لا تتأخر.. وإلا أصبت بالبرد.
قالتها وتركته يقف كالحمقى بينما تختفي خلف باب غرفتها.. التفت الى نيران ليجدها تتجه نحو الباب فلحقها بسرعة:
-في المرة المقبلة تعال الى المكتب وانهي كل ما عليك.
ابتلع ركان ابتسامة دهشة من تصرفات زوجته غير العقلانية والتي لا تشبهها نهائياً وحرص على اقفال الباب خلفها قبل ان يعود مسرعاً

لغرفة زوجته وكلماتها الأخيرة تتردد على مسامعه..
كانت ترقد مشيحه عنه فاقترب وتمدد خلفها محيطاً جسدها الناعم بذراعه ..
-لا تلمسني.
همست بحدة جعلته يتراجع بدهشة وهو يحار في حقيقة أنه سمع الكلمة من عدمها.. وليتأكد فقد عاد لوضع ذراعه حولها وهذه المرة قابلته بالصراخ:
-قلت لك ألا تلمسني.. ألا تفهم؟!
نهض حينها من الفراش ككل ونظر اليها ساخطاً:
-ماذا عن الفيلم الذي قمتي به بالخارج لتوك.
اعتدلت في رقادها وواجهته قائلة ببرود:
-كان يجب أن اتخلص من تلك المرأة، وطردها بوضوح ليس من أخلاقي.
رفع حاجبه بحنق لتعود لرقادها وهي تهمس:
-أغلق الباب خلفك ركان، أنا بحاجة للراحة.
تصاعد الغيظ بداخله واقترب يهزها من كتفها بقوة:

-اللعب بأعصابي بهذه الطريقة ليس جيداً لكِ سارة، في مرة سأنسى كل ما تمرين به وأخذ حقي منكِ بالكامل.

تخلصت من يده ودفنت وجهها في وسادتها وهي تقول:

-حين تكف عن التفكير بحقوقك الجسدية كالشيء الوحيد الذي يربطنا معاً، حينها لن تفلح ألاعيبي الصغيرة معك ركان.

تراجع باستنكار وهو يهم بالاعتراض ليسمع أنينها الباكي:

-قل لي شيء واحد فقط تريده مني سوى جسدي؟؟ أخبرني؟؟

تراجع حينها بشحوب.. يراقب كيف اهتزت أكتافها دليل بكاءها الصامت ..

-اخرج ركان، اتركني وحدي في الحال.

همست مخنوقة ولرغبته أن يفهم.. خرج.. يرغب هو كذلك في فهم العلاقة بينهما الان قبل أن يتقدما خطوة أخرى للأمام.. أو يتراجعا للخلف!

....

نيران في الناحية الأخرى ومنذ خرجت من شقة ركان وسارة وهي تغلي من احساسين مختلفين.. الحرج من ناحية .. والحسد من الأخرى ..
منظر سارة وهي تطالب بزوجها دون حرج ، دون تردد أو خشية جعلها تحسدهما، تحسد العلاقة البريئة الواضحة بينهما، رؤيتهما بذلك التقارب يعيد لها التفكير في وضعها بين الأخوين!!
المأساة المهلكة التي تجمعهم.. هي ومصطفى وسليم..
تشبثت أصابعها بمقود السيارة بقوة اظافرها تحفر أثارها على الجلد الرقيق باللون البيج، عقدت حاجبيها وانطلقت بالسيارة نحو الفندق الذي تقطن به حالياً..
لم تستغرق الرحلة سوى بضع دقائق، ولكن ما ان خطت الى بهو الفندق حتى تسمرت وعينيها تتسعان بدهشة..
-تأخرتِ؟
هتف بنفاذ صبر لتهز كتفيها بعدما استوعبت وجوده:

-مالذي تفعله أنت في روما؟
-لدي عمل.
رد باقتضاب لتبتسم بسخرية:
-عمل يبدأ بحروف سارة الشيب؟!
اشتعلت النار في عيني شاهر وقبض على رسغها بحزم وهو يجذبها خلفه نحو المصعد ليغلق خلفهما وحدهما:
-أريد أن أراها.
تخلصت من قبضته وهتفت بسخط:
-ألا تتعلم؟؟
هز رأسه بعناد فتأففت وأشاحت عنه تسوي بزتها الرسمية قائلة بسخرية:
-على العموم هي لا تأبه بك وبمعاناتك البتة، انها مشغولة للغاية في هذه اللحظة بالذات.
تشوه وجهه الوسيم بنظرة السخط والغضب:
-اسمعيني جيداً، تعليقاتك الذكية وأفكارك الغبية أبقها لنفسك، كل ما أريده منكِ هو أن تخبرينني بالضبط متى يكون الفتى الذهبي بعيداً جداً عنها لأحظى بها كلها لنفسي.
عادت تنظر اليه وهتفت بحنق:

-على ما تنوي بالضبط؟
-لا شأن لكِ ابداً، فقط افعلي ما أقوله لكِ أتفهمين؟!
عقدت ذراعيها أمامها وهتفت تنظر في عينيه:
-أنت لا تنوي افساد كل ما خططنا له أليس كذلك؟!
ضم شفتيه بعناد لتتسع عينيها وتتقدم نحوه خطوة تهتف بعنف:
-اسمعني جيداً شاهر باشا، اقد وقفت لوقت طويل اراقب تصرفاتك المراهقة، ولكن وبعد كل ما ضحيت به لأجل العائلة أنت ستفعل مثلي وأكثر.
ضاقت عيناه وهو يراقب لوحة المصعد التي تشير لاقترابهم من طابقها:
-ما أفعله بحياتي لا يخصك من قريب أو بعيد نيران، أنت لم تضحي سوى برسام قذر يستغلك لينتقم من أخيه وأنت كما يبدو تستمتعين بكونك الدمية التي تشبع رغباته..
اتسعت عينيها بذهول وشحب وجهها وهي تتراجع بينما ينظر شاهر في عينيها ويهتف بصوت قاسٍ:

-وفي المقابل أنت تحصلين على الثروة والجاه من الأخ الأخر، أنت تمسكين العصا من الوسط وتنالين كل مزايا الطرفين يا نيران الباشا..
ابتلعت ريقها بصعوبة وخفضت جفنيها هرباً من نظرته الثاقبة بينما تهمس:
-ماذا تريد؟
-فقط متى يبتعد عنها.. أين والى متى؟
وصل المصعد الى طابقها وفتحت أبوابه لتخرج متعثرة والوجوم يصبغ وجهها الملون بالخزي، بينما يقول هو من مكانه بداخل المصعد:
-سأنتظر اتصالك في أقرب وقت نيران.
راقبته يختفي خلف الابواب التي عادت للإغلاق دون صوت وقادتها ساقيها المتهالكة الى الجناح حيث تقطن وعقلها يطن بالكثير والكثير..
كيف ومتى عرف بشأنها ومصطفى؟؟ من اخبره؟؟ ومن يعرف سواه؟؟
والى أي مدى سيصل تهديده؟؟
تهالكت على كرسي طويل وتأوهت بمرارة وهي تكره المستنقع الذي تغرق فيه شيئاً فشيئاً.. ولا أمل بالخروج منه يلوح بالأفق، شاهر يتربص

بها وتهديده لن يتوقف على هذا، طلباته لن تتوقف عند معرفة تلك المعلومات الساذجة.. هو يريد أكثر.. وربما سيحصل عليه.

***

بعد أيام من رحيلها..

خرج الطبيب من غرفتها بملامح متجهمة فاتجه اليه والدها بأخرى قلقة هاتفاً:

-كيف حالها دكتور؟

تنهد الطبيب:

-ليست جيدة ان استمرت بإضرابها عن الطعام.

زفر والدها بضيق وأشار للطبيب أن يدخل الى غرفة جانبية حيث جلسا حول طاولة بها عدة الشاي جاهزة وهنا قال السيد حسن بضيق:

-انها ترفض تناول الطعام بشكل مثير للغضب، بالكاد تشرب بعض العصير والماء، حتى الشوكولاتة التي تعشقها ترفض مجرد النظر اليها.

رفع الطبيب وجهاً محتداً:

-ان استمرت على هذا الحال فسوف أصر على ايداعها للمستشفى، واعطاءها المحاليل الوريدية.

-يا الله.. هل تكلمت معها؟
هتف بقلق ليجيب الطبيب:
-حاولت ، ولكنها تتشبث بصمتها كما فعلت حين رأيتها قبل أيام بتلك الحالة الغريبة، ألم تعرفا ما السبب وراء تلك الكدمات والرضوض؟
هز حسن رأسه بشحوب:
-قالت أنها وقعت عن الدرج، ورفضت الحديث كلياً عن الأمر.
-ماذا عن زوجها؟
سأل بفضول ليزفر حسن بضيق:
-هو الأخر بحالة مزرية، أنا لا أعرف مالذي حل بهاذين الاثنين، وكأنها لعنة صبت فوق رأسيهما.
شرب الطبيب الشاي، وقضم من الكعك، ثم قال:
-ربما علي أن أعاينه هو الأخر.. هل تخبره بالمرور على العيادة؟
زم حسن الشيب شفتيه وقال بحنق:
-انه حتى يرفض الرد على مكالماتي، لقد انزوى في ذلك المنزل الذي اشتراه سلطان قبل سنوات على الجرف، ويرفض حتى مغادرة حجرته.
-ألا يراجع طبيبه؟ بشأن ساقيه؟

تساءل الطبيب بحذر ليهز حسين رأسه بالنفي فينهض الطبيب ويودعه:
-سأتحدث مع طبيبه بنفسي، لا تقلق..
ثم اتجه نحو الباب وهو يضيف:
-لقد أخذته عينة من دماء صوان، سأجري لها بعض الفحوص.
-لابأس، ولكن أرجوك أن تطمئني.
-سأفعل، بشرط ان تحاولا أنت والسيدة فاطمة أن تقنعانها بتناول الطعام.
ابتسم حسن بشرود ورافق الطبيب للخارج والذي توقف أمام سيارته وقال له:
-ربما يفدك أن تتكلم مع سلطان، أو ربما سيف، سيفيدانك في التعامل مع الجساس.
اومأ حسن:
-معك حق، لقد اتصلت بسلطان وسيف البارحة وسيصلان في أي وقت الأن.
-ممتاز.. الى اللقاء الآن يا حسن.
لوح حسن بذراعه للطبيب وراقبه يبتعد بسيارته حتى خرج من بوابة الفيلا واختفى خلف اسواره قبل أن يعود الى البهو ويسمع صوت زوجته

فاطمة وهي تصرخ بذعر، اتسعت عيناه وركض للأعلى حيث اقتحم غرفة ابنته وتوقف بعينين متسعتين..

كانت صوان هناك في الشرفة الواسعة الى جوار قفص عصافيرها..

تجلس على حافة السياج وساقيها متدليتين للأسفل..

-صواااان!!

صاح بعصبية بينما أمها الى جوار الباب تنشج بألم، اقترب منها بتردد .. لم تكن المسافة بين الشرفة والأرض بكبيرة ولكنها بالطبع ليست قصيرة، ان وقعت.. لا قدر الله.. فهي بالتأكيد ستؤذي نفسها وبشدة..

-صوان بنيتي.. مالذي تفعلينه؟

رفعت صوان رأسها للسماء، تستقبل أشعة الشمس اللطيفة، وتداعب النسمات الخفيفة خصلات شعرها المتناثر على كتفيها بنعومة، لقد تماثلت ندوبها للشفاء، تقريباً..

ولكن فقط ليست كلها..

ندوب القلب.. لم تكن قابلة للشفاء..

أيام مضت دون أن تسمع صوته، أو حتى اسمه..
بعد التحقيق المتواصل الذي أخضعه لها والديها بعد وصولها الى منزلهما بتلك الهيئة المزرية؟؟
بعد كل ذلك الانهيار الذي شعرت به، ها هي الان .. حــرة !!
حرة وللأبد كما اشتهت وأرادت، كما صرخت وتوسلت..
هي حرة منه.. ومن أمه .. ومن تلك الشمطاء التي سلطتها عليها.. هي بعيدة عنهم الأن، هي آمنة ..
هي وحيــدة..
وحيدة من دونه؟!!
اغمضت عينيها بقوة تحاول عدم البكاء، يكفيها البكاء، لقد حطم قلبها بقسوة ودون رحمة، ثم حطمها جسدياً فهو لم يكتفي بالألم، ولكنه عرضها للأذى كذلك، أهانها وأذلها ..
لم يفرق معه كونها ابنة عمه، لحمه ودمه..!! لقد استغلها، استخدمها ورماها بعيداً وكأنه يقرف حتى رؤيتها، وفوق كل هذا لقد طردها من حياته ..

فتح بوابة علاقتهما على مصراعيها ودفعها بعيداً عنه.. كشيء مستهلك.. قديم لا قيمة له..
وكأنها خرقة يمسح بها قذارته ويرميها..
تلك كانت هي بالنسبة له.. الصوانة والجساس..
علاقة الغرام المشتعل انتهت.. كفقاعة صابون ضخمة.. انفجرت في وجهها وتركتها عمياء تتخبط.
-صوان..
التفتت لأبيها وقالت بحزم:
-أنا لن أقتل نفسي..
تراجع والدها بدهشة لتعاود النظر في السماء هامسة:
-أنا فقط بحاجة لبعض الوقت حتى اعتاد فكرة أنني حرة أخيراً.
هز رأسه بذهول واقترب منها:
-صوان انت لا زلت متزوجة، انت لست حرة حبيبتي، ربما عليكِ أن تنزلي الأن وتخبريني مالذي حدث بينك وبين زوجك؟
رفعت وجهها للسماء واغمضت عينيها من جراء الشمس الساطعة:

-لم يعد بيننا شيء، انتهينا أبي.. انتهينا الى الأبد.
-هذا ليس مقبولاً.
صرخ بهياج لتتنهد ببرود وتشرد بعينيها للمدى الواسع امامها، تركته يصرخ يفرغ غضبه أو ربما خيبة أمله التي تتفهمها جيداً..
خيبــة ربما هي خيبة ..
كما تشعر تماماً .. أنها مخذولة من الرجل الوحيد الذي عشقته..
هو أيضاً يشعر بالخيبة .. الخذلان، لقد اعطاها اليه.. رغم كل شيء وها هو الان يتركها منبوذة ومجروحة، وكأنها جريمة وتخلص منها!!
كان والدها يصرخ بحرقة أي أبٍ يقع في مفرق طرق، بين ابنته وابن أخيه..
بين ابنته وزوجها، لا يعرف من منهما مخطئ ومن على حق، قلبه يميل لابنته ويرغب بتحطيم رأس ذلك الغبي الذي آلمها.. وفي الكفة الأخرى كان عقله الراجح يزن الأمور بكفاءة كما اعتاد طيلة سنوات عمره التي تجاوزت الخمسين..
كانت تعرف أن عقله سينتصر، كعادة ذئاب الشيب .. العقل وحده سيد الموقف..

-يجب أن نجلس معاً لنحل هذه الأمور..
هتف صارخاً فابتسمت بسخرية.. تباً لعقله الذي تغلب على حمية الأبوة ونزعة الحماية لديه..
-لا فرق لدي، لقد تركته ابي.. لن أعود اليه..
خبط كفيه ببعضهما بينما تقترب منه فاطمة الصامتة طيلة الوقت وصاحت بألم:
-انظر لابنتك حسن، انظر اليها .. حين جاءت الينا كانت بالكاد تقف والأن.. انها لا تشبه حتى صوان التي ربيتها طيلة عمرها، ولا زلت تريد التحدث معه؟
نظر حسن لزوجته اليائسة بتوتر لتواصل هي بكراهية:
-لا أريده أن يقترب منها، ابن تلك الشمطاء لا أريده قريباً منها بتاتاً.. أتفهم؟
-لا حول ولا قوة الا بالله.. تمالكي نفسك يا فاطمة أنت تتحدثين عن جساس، جساس الذي ربيته أنتِ منذ طفولته.
صاح والدها بقهر لتهز فاطمة رأسها بعنف وتهتف:
-ومن يربي ذئباً يشتد عوده ويلتهمه.

-فااطمة..
صاح بضيق فأشاحت عنه اقتربت من ابنتها تحيطها بذراعيها قائلة:
-اجتمع بمن تريد من عائلتك، ولكنها ابنتي يا حسن.. وسلامتها قبل كل شيء حتى قبل سعادتها نفسها أتفهم.
تراجع حسن بتوتر.. يعرف فاطمة جيداً ويدرك أنها ابداً لن تسامح جساس على ما فعله لصوان، والان أسوأ من ذي قبل، رغم عشقها للذئاب، الا أن صوان ابنتها .. لحمها ودمها وهي لن تتهاون في مصابها مهما حدث.
***
لم يكن العثور على علي العزب سهلاً على الاطلاق..
فهو يتنقل من بلد لأخر بعد توجهه الأكاديمي الجديد، يحاضر في مقدونيا، ثم يحضر مناقشة لمية في أثيوبيا.. وهكذا..
ولكن وأخيراً استطاع معرفة متى وأين يمكن أن يجده..
الأردن/ أربد ..

تلك الابتسامة العريضة التي قابله بها سرعان ما بهتت وعيناه تنجرفان لرؤية رأس أوس الأصلع والضماد الذي يغطيها، ثم شحوب وجهه، الاحمرار في عينيه، والاضطراب في نظرته.
وبعد التحية التقليدية لم يضيع علي الوقت وسرعان ما كان يسأله:
-مالأمر الذي جعلك تطاردني من بلد لأخر بهذه الطريقة؟ هل أنت بخير؟؟ أو أن المشكلة تتعلق ب ترنيم... أعني السيدة زوجتك.
أردف عبارته الأخيرة رداً على النظرة الشعواء التي رماه بها حال سماع اسمها منه، انه رجل ويقدر هكذا أمور.. ربما ليس كما كان يفعل.. فالغربة علمته بضع سيطرة يغلف بها مشاعره.
-ترنيم اختفت.
تراجع علي بدهشة وهو يسمع صوت أوس المحطم وصاح:
-مجدداً.. انها عنيدة يابسة الرأس كما كانت على الدوام.

كشر أوس عن أسنانه وقبض أصابعه بقوة وهو ينظر لعلي الذي لاحت التسلية في عينيه خلف النظارة الطبية قبل أن يتنحنح:

-ولكن .. أنت لست بحاجة لسماع هذا، فكما أرى أنتما الاثنان عنيدين بالقدر نفسه وإلا ما كنت لتخرج من المشفى وأنت تبدو بهذا الشكل.

-أنت لا تعرف ما بي.

همس علي بنفاذ صبر ليجيب علي بصبر الكون كله:

-صحيح ولكنني طبيب وأنت تبدو وكأنك بحاجة لسرير مستشفى في التو واللحظة.

-فقط .. ساعدني لأجدها.

كان الرجاء في صوته هو ما دفع علي ليتخلص من سخريته ويقول مخلصاً:

-أخبرني كيف؟

تنهد أوس .. وحرك يديه المرتجفتين بعصبية وهو يقول:

-أخبرتني قبلاً.. أن .. أنها أدخلت نفسها لمصح.. كي تهرب من الجميع وتعالج نفسها من الاكتئاب الذي كانت تعانيه.

عقد علي حاجبيه واومأ بإيجاب ليتنهد أوس:
-أنا أعتقد أنها ذهبت الى هناك.. انها تظن أنها في مأمن.. ولكنها لا تدرك أن أكبر خطر عليها لا يزال حياً، ورغم أنه محتجز الأن إلا أنه يعرف مكانها.. هي فقط مشوشة.. وتبحث عن الهدوء لتفكر ببعض التعقل.
-من المستحيل أن تكون ترنيم في نفس المصح يا كابتن.
رفع أوس رأسه بذهول لإجابة علي البسيطة والمروعة بالنسبة له..
-كيف؟؟
همس بشتات ليهز علي كتفيه ويقول ببساطة أشد:
-المصح الذي أودعت به ترنيم نفسها قبل سنوات أغلق مباشرة بعد ما رحلت عنه، لا أعرف السبب ولكنهم لم يعاودوا فتحه نهائياً..
اتسعت عينا أوس بذعر.. الأمل.. الأمل الوحيد الذي كان يواسي قلبه ويطمئنه.. انتهى!!
نهض لا يعرف ان كان قد ألقى لعلي بالسلام أم لا.. مشى بخطوات ضئيلة ثقيلة .. يجرها.. جراً..
كل هذا العناء دون فائدة تذكر؟!

كل البحث وبالنهاية لا شيء؟؟ انه عالق.. فكل مكان أخر كانت عائلتها قد بحثت.. حتى الكوخ الذي أخذها اليه في ايطاليا منذ فترة بدت كالدهر .. لم تكن هناك.. منزل عمتها في روما..
ملاذ عائلتها في الريف.. لا شيء ولا أحد.. لا أحد يعرف عنها شيئاً..
ابتلع ريقه بصعوبة وأخرج رسالتها من جيبه..
"اتركني أرحل.. أعود الى مكاني حيث أنتمي ومن هم على شاكلتي،"
ماذا تقصد بمن هم على شاكلتها؟؟
تساءل بلوعة وساقيه تنحنيان تحته ليجلس على درج الفندق..
ينبش ذاكرته بحثاً عن شيء ما .. هو متأكد أنه سمع هذه الكلمة قبلاً.. المكان حيث تنتمي.. فتاة مثلها .. قاتلة.. قاتلة نفذت بجلدها من العدالة !!
لقد قتلت الطفل الصغير، من ثم قتلت أشرف..
وأي مكان سوى السجن سيكون انتماءها.. لها ومن هم على شاكلتها..!!
جحظت عيناه بذهول ورأسه ترتفع للسماء الغائمة.. رحماك يا الله .. لقد أودعت تلك

المجنونة نفسها الى السجن ؟!! لقد هربت منهم جميعاً الى حيث لا يمكن لأحد أن يشك أن تكون هناك ..

-رباه ترنيمة مالذي فعلتيه بنفسك؟؟

دمدم بذهول .. ثم أغمض عينيه بقوة وهمس:

-سأخرجك ترنيم.. سأخرجك بالقوة ان لزم الأمر.. ولكنني سأفعل يا حبيبتي المجنونة.. سأفعل بالتأكيد.

***

-هل فتح الباب لكِ؟

اندفع السؤال من فم شيماء بسرعة وحِدة جعل خالتها تنتفض وهي تواجهها ولاتزال صينية صحون الطعام بين يديها، وضعتها على طاولة المطبخ، ثم قالت بتوتر:

-لا .. انه لا يرد حتى علي، وحين هددته بأنني سأكسر الباب وأدخل رغماً عنه، صرخ بأنه لا يريد رؤية أحد نهائياً.

-وماذا قلتِ له؟

-لم أقل شيئاً.. كل ما أردته هو سماع صوته والتأكد أنه بخير.

-هو حي ويتنفس.. أهذا ما يعنيه أنه بخير لكِ؟
هتفت شيماء بغيظ جعل نرجس ترتبك وتجلس تخفي وجهها بين كفيها وشيماء تصرخ:
-خالتي، جساس يضيع من بين يدينا ونحن نشاهده فقط..
-ماذا تريدين مني أن أفعل؟
صرخت نرجس بغضب جعل شيماء ترد بغضب أكبر"
-التوقف عما تفعلينه.. احضار شخص ما للمساعدة.
-أتريدين أن أخبر شخصاً ما بما فعلنا؟؟
هتفت بشراسة لتجيب شيماء:
-أو تريدين تركه ليموت؟
اتسعت عيناها بذعر وهمست:
-طفلي لن يموت..
-سيموت ان تركناه هكذا، انه لم يأكل أو يشرب منذ رحلت صوان، انه يقبع بالداخل لم نره للحظة واحدة، ان لم يمت من الجوع فهو سيموت من الحزن عليها خالتي.
-اصمتي شيمااء.. لا أريد أن أسمعك.

هدرت نرجس بحنق لتشيح شيما بوجهها بألم..
ثم ليقطع حديثهما معاً تلك الطرقات القوية على الباب.. انتفضتا سوياً وتبادلتا النظرات المذنبة قبل أن تركض شيما لفتح الباب..
كان سيف!!
ابتلعت ريقها وابتسمت مرحبة بينما يدخل سيف بجبين منعقد والوحشية تطل من عينيه وهو يصرخ:
-أين فأر الشيب؟
اتسعت عينا شيماء بذعر بينما اقتربت نرجس تقول بحدة وهي تدرك سبب غضب ولدها الأكبر:
-ترفق بشقيقك سيف، جساس لم يخطئ بحق تلك المرأة لتأتي الى هنا ونيتك المتوحشة تظهر من عينيك.
اقترب سيف من أمه وغضبه يمنعه من حتى التفكير في تحيتها:
-ولدك الغالي رمى بابنة عمه خارج منزله، مغطاة بالكدمات وغارقة في البؤس، إن لم يكن

فأراً من يصنع هكذا بامرأة، دون ذكر انها زوجته او ابنة عمه.. فماذا يكون أماه؟؟
شحب وجه نرجس وذكرى رؤيتها لشبح صوان يغادر القصر بالكاد تقوى على الوقوف والدموع تغرق بؤس وجهها المكدوم تهاجم عقلها وتزيد من ضربات قلبها ..
-فأر يا أمي.. نطلق عليه فأر وليس ذئباً من الشيب.. والأن .. أين هو؟
هدر سيف بغضب عارم قبل أن يسمع همهمة شيماء الخافتة:
-انه في غرفته.. ولكن.. انه ليس على ما يرام..
نظر لها سيف بعنف:
-ولن يكون بعد أن أنتهي منه..
ثم تجاهل صراخ والدته واندفع الى الغرفة التي يعرف أنه يختبئ خلفها، عقله يودي به الى الجنون وهو غارق في المشاكل أخويه من كل جهة..
فهذا يعذب زوجته التي يعشق تراب قدميها والأخر يخاطر بحياته في البحث عن الأخرى ..
وهو وقف حائر في أمره لمن يسدي العون..

لأوس لذي يهيم على وجهه بحثاً عن ترنيمته الضائعة أم يعود ليحاول فهم ما يحدث بين الجساس والصوانة، ثم كان اتصال فاطمة الباكي وهي تصف له حالة صوان حين أتت اليها هو ما حسم تفكيره، وجعله يستقل اول طائرة من عدن الى دبي.

طرق باب أخيه بقوة وهدر يطالبه بفتح، ومضى بعض الوقت دون أن يسمع رداً فعاد يطرقه بقوة هاتفاً:

-افتح الباب جساس، افتحه قبل أن أفتح رأسك.

-هو لن يفتح.. انه لم يفعل منذ رحيلها.

سمع صوت أمه المهتز فزمجر بغيظ من كمية الغباء التي يتمتع بها أخوته، لم لا يملك أحدهم عقلاً راجحاً كعقله، فحينما وقع في الحب.. اختطف امرأته من بين رجل لا يستحق ظلها، وقلب الطاولة على الجميع وفعل معجزة زمانه وأخذها من بين عيون أفراد عائلتها وبرضاهم..

تراجع بضع خطوات يهز رأسه ثم رفع ساقه ونزل بقدمه على رتاج الباب بقوة مدوية جعلت شيماء ووالدته تنتفضان برعب والرتاج الصلد لا

يتزحزح حتى كرر ما فعله بحذائه الرياضي الثقيل عدة مرات، وحين شعر بتراخيه اندفع بثقل جسده كله ليدفع بالباب الخشبي الثقيل ويفتحه على مصراعيه...

شعر حينها باقتراب والدته فرفع ذراعه وهدر:

-لا أريد أن يقاطعنا أحد.

ثم دخل الى الغرفة واغلق الباب خلفه كما اتفق، وتقدم للداخل..

كانت الحجرة مظلمة ..مكتومة الرائحة.. حارة لا تطاق، زفر نفساً بعصبية عيناه تبحثان عن شقيقه..

حتى وجده.. واتسعتا بصدمة..

حاول الاقتراب منه.. ولكن ساقاه وكأنما تجمدتا مكانهما .. جساس كان ملقى على طرف الغرفة، بالكاد يرتدي قميصاً مهلهلاً وبنطال قصير.. كان جسده وكأنما يذوي من الداخل، عظام وجنتيه بارزة ، نحول شديد وكأنما لم يأكل لسنوات، وجهه صار أسوداً .. عيناه مطفأتان.. وكأنه ميـت!!

ربما كان ميتاً !!

-جساس؟
تساءل بخشية وعينيه لا تفارقان وجه أخيه بحثاً عن أي اشارة للحياة دون أن يجد..
جساس بدا وكأنه جثة تتحلل ببطء..!! حينها فقط تحركت ساقاه، خطوتين والتوتا تحت وهو ينحني ليمسك أخاه من كتفيه ويهزه بعنف:
-جساس..
صرخ بذعر وهو يقلبه على ظهره وجسده المرتخي يستجيب بلا مقاومة، بحثت أصابعه بلهفة محمومة عن نبض ما، ليجده ضعيفاً بالكاد يحس.. شعر حينها بأمه وشيماء خلفه متجاهلتين أمره بالبقاء خارجاً حالما سمعا صرخته الملتاعة باسم أخيه..
-مالذي حدث له؟؟
صرخت نرجس بذهول بينما اندفعت شيماء نحوه وهي تهتف باكية:
-هل مات؟
-اتصلي بالإسعاف فوراً.

هتف سيف بحدة وهو يحمل أخيه ويذهب به الى الفراش، متجاوزاً امه الواقفة كصنم بفعل الفاجعة.

وضع جساس على الفراش برفق ثم حاول فرد ذراعيه المتشنجتين ليسمع صوت ارتطام مكتوم، ادار عينيه ليرى ما سقط من بين اصابعه المتشابكة، وكانت تقبع على الارض بكل براءة، زجاجة دواء؟!!

ابتلع ريقه برعب ثم رفعها لينظر الى الاسم المعروف لمهدئ ألم قوي، وعاد بنظره لأخيه بجزع..

هل تناولها كلها؟؟ هل حقاً حاول الانتحار؟!!

وضع العلبة بحذر على المنضدة لجاوره وعاد لجساس يحاول ان يقلبه على بطنه ..

-ماذا تفعل؟

عادت شيماء توها وصاحت به بتوتر فهتف:

-لقد تناول كمية من اقراص مهدئة قوية ويجب أن يجعله يتقيؤها..

-يا الهي..

صاحت شيماء بينما جلست نرجس متهالكة على الارض بانهيار وهي تراقب كيف كان سيف يدخل اصبعه في جوف شقيقه ويصرخ به أن يتماسك ويساعده قليلاً..

رأت وجه ابنها الاصغر يتقلص ألماً في البادرة الاولى لبقائه على قيد الحياة، بينما ينتفض جسده بضعف محاولاً الاستجابة لمحاولات أخيه، كان منظره يقتلها كل رجفة ألم تمر عبر جسده كانت تذبحها. من الناحية الأخرى كان سيف يصرخ به أن يساعده، أن يخرج ما في جوفه من سموم دون أن يدرك حقاً ما نوع السموم التي انتشرت في جسده وحطمته من الداخل.

وللحظة وتحت عينيها المتسعتين بذهول رأته يستجيب، وبدفعة قوية كان يفغ ما في جوفه على الأرض تحت قدمي سيف، وانتشر البرود في جسدها كله، ارتجفت حتى ظنت أنها قد مسها شيطان ما.. وهي ترى ما أخرجه جساس من جوفه..

تراجع سيف بذعر واشمئزاز لم يقدر على تمالكه وهو يرى ما أخرجه أخيه من اعماقه، ليس مرة

أو اثنتين، بل استمر وكأنما يخرج روحه نفسها..
كان يتقيأ دماً أسود.. ثقيل .. ذو رائحة عفنة..
-رباااه جساس مالذي تناولته؟؟
صاح سيف بتوتر يحادث نفسه.. ذراعاه تحيطان بجسد أخيه الواهن.. يسمعه يتأوه.. يشعر برطوبة تبلل وجهه لينظر فيرى دموعه تسكبه بلا توقف..
-جسااااس؟!!
هتف بذعر ليهمس جساس بشفاه تقطر دماً:
-لم.. لم يخف .. الألم.. الألم يقتلني..
اتسعت عينا سيف بألم لوجع أخيه وهتف رافعاً رأسه بعلو صوته:
-أين الاسعاف اللعيـنة..
...
مرت ساعات قبل أن يسمحوا لأحد بالدخول ورؤيته..
حين وصلوا الى المشفى، وبعد سماع ما حدث له باختصار أخذوه لغرفة المعالجة ومنها الى العناية المشددة، مضت ما يقارب الخمس ساعات قبل أن يسمحوا لسيف أن يلقي عليه نظرة من خلف الزجاج، كان وجهه شاحباً يحاكي وجوه الموتى

وقربتي دم تندفعان لأوردته بسرعة، التشخيص المبدئي كان قرحة نازفة.. شيء متوقع لرجل مثله .. يتعرض للحوادث باستمرار، ويتناول تلك الأدوية الكثيرة المضادة للالتهاب والألم، بالإضافة لكل التوتر والحياة المرتبكة التي يعيشها..

عملية سريعة بالمنظار وها هو الأن يعوض ما خسره من الدماء، حالته حرجة ولكنه تجاوز مرحلة الخطر الشديد..

والأن لقد سمحوا له بالدخول أخيراً..

جلس الى جواره ورأى جفنيه يتحركان باضطراب قبل أن يفتح عينيه ببطء وينظر لأخيه بخواء..

-مالذي فعلته بنفسك؟

همس سيف ببرود يخفي قلقه البالغ فهمس جساس بريق جاف:

-أريد بعض الماء.

-ليس مسموحاً لك بعد.. ولكن الممرضة طلب أن أعطيك هذا..

وناوله رقاقة من الثلج وضعها بين شفتيه ليمتصها ببطء وتخفف من شعوره بالظمأ والجفاف.

-أخبرني عن الدواء؟

تساءل سيف بجفاء ليجيب جساس بهدوء:

-لم أكن أنوي الانتحار، لا تقلق.

-وكيف أعرف؟!

هتف بعصبية ليرد جساس بضجر:

-كانت أربع حبات فقط، الألم كان قوياً ولم أعرف ما أفعل.

-يوجد أطباء كما تعلم..

-لن يقدر أي طبيب على معالجة ذلك النوع من الألم.

همس جساس بخشونة ليلوي سيف فمه باستياء:

-واربع حبات من الدواء ستفعل؟؟

خفض جساس عينيه بينما مال عليه أخاه وقال بتصميم:

-أنت بحاج لرؤية طبيب نفسي، أنت لست على ما يرام.

-أتظنني مجنون؟

همس جساس ولم يتردد سيف للحظة وهو يقول بقوة:

-أظنك فقدت صوابك للحظات يا ابن أبي وأمي، ما فعلته بابنة عمك.. ما فعلته بنفسك؟؟

-صواان ..

همس بألم واغمض عينيه متوجعاً:

-أريد صوااااان..

-أستغفرك ربي وأتوب اليك..

زفر سيف استغفاره بنفاذ صبر ونهض بعصبية وهو يراقب جساس الذي بدا وكأن ذكر الصوانة قد أفقده جزءاً من عقله وهو يتلوى على الفراش صارخاً بألم:

-أعيدوا لي صوانتي.. أريد صوان..

تراجع سيف بحذر وهو يهمس:

-توقف جساس، أنت ستؤذي نفسك..

-صواااان .. صوااااااان ..

هتف جساس بصوت مبحوح وهو يتلوى من الألم ويحاول نزع اسلاك قرب الدم بعنف جعل سيف يثبته بالقوة، صارخاً بأي أحد ليأتي ويساعده،

وجاءت المساعدة ليهدأ بعد لحظات ويغرق في النوم..

غادر سيف بعد أن أسمعته الممرضة سيلاً من كلمات التأنيب قبل أن يعود الى والدته المتخشبة على الكرسي وشيماء.

-كيف حاله؟

سألت الأخيرة فجلس الى جوارها متهالكاً:

-سيكون بخير.. بإذن الله..

ثم التفت الى أمه وسألها:

-مالأمر مع الصوان أمي؟ مالذي حدث بينهما ؟؟

-لا أعرف.

ردت بفحيح ليشيح سيف بوجهه زافراً بضيق وهو يدرك كذبها، لتهمس شيماء بقلق:

-هل يريد أن يراها؟

-نعم..

-اذا أحضرها، انها تحتاجه كذلك.

ردت بسرعة ليضحك سيف بسخرية:

-هي لا تريد رؤيته كما قال لي عمي، ولا ألومها بعد ما فعله بها، لا أزال لا أصدق أنه كان يضربها.

-لا اعتقد انه كان يضربها، جساس يعشقها.
همست شيماء بحنق وألم، لينظر لها سيف بتوتر:
-اذاً مالذي حدث ليتسبب لها بكل تلك الكدمات، لم تكرهه بتلك القوة ولا تريد حتى رؤيته.
تراجعت شيماء، وأشاحت وجهها لتنظر لخالتها التي انزوت بعيداً بوجه مزموم وملامح متصلبة لينهض سيف وهو قد نفذ صبره قائلاً:
-سوف أذهب لرؤيتها ريثما ينهض.
-هل ستعيدها؟
هتفت أمه بتوتر لينظر لها بسخرية:
-لن ترضى أمي كرامة الصوان فوق كل شيء، حتى فوق حبها وعشقها للمجنون أخي.
تنهدت بحنق فلم يعرها اهتماماً، بل مضى في طريقه خارج المشفى نحو منزل عمه حسن.
حين قرر أن يراها لم يتوقع ما رأى، اتسعت عيناه وهو ينظر لابنة عمه المتقدمة نحوه بكل هدوء ترتدي كعادتها معه، ثوب قطني طويل وحجاب ساتر، ملامح وجهها صارمة وان كانت شاحبة قليلاً، عينيها متألقتين بعزم وقوة، وكأنها تخبره بحقيقة أنها لن تستسلم، ليس له ولا لأخيه.

-كيف حالك؟
تنهدت ورفعت رأسها بشموخ:
-جيدة جداً شكراً لك.
مال نحوها وهمس:
-مالذي فعله جساس يا ابنة عمي؟
لم تتغير نظرتها، ظلت تنظر له بكل البرود الذي أدمى قلبه وهو يدرك ان وراءه الكثير والكثير من العذاب لقد رأى هذه النظرات من قبل، راها دائماً في عينيها.. وحين ظن أنها تجاوزت تلك الفترة من الألم والعذاب ها هي تعود لها من جديد!!
تنغلق حول نفسها وتغلفها بحرص .. تعود لقلب الصوان وتغلقه خلفها بإحكام.
-انه يتصرف كعادته، بكل أنانية، جنون وعدم احساس بالمسؤولية.
قالتها بهدوء وكأنها تناقش أمر رجل لا يمت لها بأي صلة، بعيد ولا تعرف عنه حتى اسمه.. لقد قتلها وواضح جداً أنها لم تعد تشعر نحوه سوى بالغضب، والنفور.
-جساس في حالة سيئة، أنا لا أعرف ما أصابه.

قال بتوتر لترد بسخرية:
-ومنذ متى كان بحالة جيدة؟ لقد كان طوال عمره ينتقل من مرحلة سيئة الى أخرى.. مالذي تغير؟
ابتلع ريقه بصعوبة ومرر أصابعه في شعره القصير:
-انه في المستشفى.
شيء ما لمع في عمق عينيها، ربما كان قلقاً أو تشفياً!! ولكنه كان احساساً مناقضاً للبرود الذي تدعيه ويثير أعصابه:
-انه دوماً هناك.. هذا شيء لم يتغير منذ سنوات.
-ان حالته سيئة.. لقد تناول حبوباً ما.. الطبيب يقول أنها مهدئات ألم أعطيت له ولكنه تناول كمية منها، هو يصر على أنه تناول بضع حبات لا يمكن أن تسبب له أذى كبير..
مالت برأسها وتساءلت بتباعد:
-أنت تظن أنه حاول الانتحار؟
-أنا واثق من هذا.
قالها بحنق لتتراجع صوان وتجلس على كرسي قريب وكأن الوقوف أصبح ثقلاً عليها:
-هذا ما كان ينقص، أن ينهي حياته كافراً.

اقترب سيف وطلب منها بهدوء:
-انه بحاجة اليكِ.
رفعت يعينها اليه بحدة وصاحت بألم:
-أخوك بحاجة للعلاج، انه مريض ويجب ان يعالج.
اتسعت عيناه وهمس بذهول:
-أنت ؟! أنت من يقول هذا؟؟
خفضت رأسها لوهلة والألم يقبض على حلقها بأصابع من نار خنقتها، ثم فكت بأصابع مرتعدة عقدة حجابها وامالت رأسها تكشف عن عنقها هامسة:
-انه مريض سيف.
اتسعت عينا سيف بذهول وتراجع خطوة للوراء وهو يرى الكدمة الزرقاء التي تحيط بعنقها وتظهر بوضوح شكل أصابع أرادت قتلها ..
ابتلع ريقه وهمس باضطراب:
-جساس لم يفعل هذا؟
رفعت حاجبيها وأعادت ترتيب حجابها قائلة بهدوء:
-كما تريد.

عقد حاجبيه بحنق وهتف ساخطاً وهو يراقبها تبتعد:
-ولكن صوان تحدثي معي.
التفتت اليه وصرخت بصوت مزقه الألم:
-ماذا تريد مني أن أقول؟؟
اتسعت عيناه بصدمة بينما تقترب منه هاتفة بوجع:
-لقد عشت برفقة أخيك لأيام محبوسة بين أربع جدران، لا أرى أحد سواه.. لا أسمع سوى صوته .. لا أحد .. أتفهم..
هتفت بشراسة:
-لا أحد أنقذني منه.. رغم صراخي.. ولكن لم يأتي أحد..
-مالذي تتحدثين عنه؟
تراجعت خطوة ودموعها تنهمر:
-الجنون.. شقيقك أصيب بالجنون، لقد ضربني.. حاول قتلي، وحين يأس من كل شيء هو طردني خارج حياته.
تنفس بقوة وهز رأسه لا يقدر على تصديق:

-جساس يعشقك، هو لن يقدر .. لا يستطيع أن يمد عليك اصبعاً.. انه يحبك.

هزت رأسها بقوة حتى تناثرت دموعها من على وجنتيها وشهقاتها تتوالى بوجع:

-هو لا يحب سوى نفسه، أناني.. كما كان طوال عمره.. شقيقك.. لا يحب أحد سوى نفسه.

هتفت بشحوب جعله ينظر اليها بألم بينما تزداد شهقاتها قوة وتنثني ركبتيها تحتها، تنهار على الأرضية وذكرى الأيام الماضية .. قسوته.. وحشية ضرباته تهاجمها لحظة بعد الأخرى..

-تمنيت لو مت.

همست منتحبة..

-في كل لحظة أراه فيها، في كل مرة يرفع ذراعه لتنزل علي.. تمنيت ..

اختنقت كلماتها بالعبرات تركتها تفلت بغزارة كالوجع الذي صب حميمه على قلبها وكواها بلهيب لا يقدر أحد على تخيله ولا للحظة..

-كل الألم .. كله.. لم أشعر في حياتي بشيء قريب منه.. حتى حين كنت بعيدة عنه، لم أشعر نحوه سوى بالحب.

-والأن؟!
همس سيف بشحوب لتنظر له ممتقعة الوجه جاحظة العينين:
-لا أعرف.. ولكن..
همست متلعثمة .. ثم تمتمت:
-أنا .. أخافه.. لا أريده بالقرب.. لا أريده بالقرب مني.
-يا الهي..
اقترب ودنا منها قائلاً:
-لا تخافي منه، من المستحيل أن يؤذيك جساس بإرادته أنت تعرفين مدى حبه وعشقه لكِ.
رفعت عينيها اليه، كانت متسعة مرتجفة، والدموع تغرق وجنتيها:
-جساس لم يعد هو الرجل نفسه..
تنهد بألم للوجع الذي رآه في عينيها بينما تهمس مكملة:
-عيناه .. عيناه حين ينظر لي.. وكأنما .. وكأنما يكرهني..
قالتها منتحبة ليشحب وجهه ويتراجع بينما تهتف بألم شاهقة بالبكاء:

-انه ينظر لي بكراهية، يرفضني.. ينبذني، ويصرخ أنه لا يريد رؤيتي، لا يريدني.. كيف اذاً يحبني؟؟

أخبرني كيف؟؟

لم يكن لديه اجابة، لقد وقف ينظر لها بذهول بينما تنهض بصعوبة وتلملم ذاتها التي تبعثرت هامسة:

-لقد انتهى من حياتي، وان كان الأمر لا يعدو بالنسبة اليه سوى نزوة كانت تؤرقه أو مجرد تحدٍ خاضه ليثبت أنه لا يقاوم وأنه يستطيع الحصول على كل ما يرغب مهما كانت النتائج..

وتوقفت قليلاً لتبتلع ريقها ثم أضافت بخفوت شديد:

-فقل له أنه قد نجح، لقد أثبت فعلاً ان لا شيء يمكن أن يقف أمام رغباته، وبالذات أنا.. ولكن..

واشتعلت عيناها الدامعتين بالإصرار وهتفت:

-ليس بعد الأن.. لقد انتهينا.

-صواااان..!!

حاول بتردد ولكنها تراجعت بعزم وهي تهز رأسها قائلة:

-اخبره أنني أريد حريتي، التي سأمارسها منذ اليوم.. وإياه سيف.. إياه أن أراه أمامي مجدداً.
وأشاحت عنه، تبتعد عن كل ما يذكرها بذاك.. الذي أسر روحها عشقاً وتركها تلتوي بؤساً وألماً..

***

وحين تكون الرغبة في الحياة معلقة بروح لم تعد تنتمي اليك!! اذاً فما الداعي لها..
استقام لينظر عبر النافذة، الليل يسدل ستاره والمدينة تغرق في سبات.. الساعة تقارب الثالثة والنصف فجراً، وهو لم يذق طعم النوم منذ رحلت عنه لم يغمض له جفن، لم تهدأ نبضات قلبه ولم يخبُ وجيبه، ولولا بعض من كرامته وعزة نفسه لكان جلس أرضاً وانتحب كالنساء.
-جساس..!!
لم يستجب، ظلت عيناه معلقة بالظلام وكأنما تمتد عبر روحه وتنتشر الى الخارج..
ابتلعت ريقها وتقدمت نحوه بخطوات مترددة، لامست كتفه ليئن بوجع ويزجرها:
-لا تلمسيني، لا تلمسيني.

تراجعت بخشية وضمت ذراعيها اليها وهي تسمع نبضه المؤلم من نبرة صوته وعادت أدراجها للخارج حيث كانت خالتها نرجس تقف امام الباب بانتظار عودتها:

-هل سيأكل؟

هزت شيماء رأسها بصمت ثم قالت:

-انه يرفض التواصل نهائياً، هو يرفض الكلام معنا والأكل، هو حتى يرفض أن نظهر له تعاطفنا، الى متى خالتي الى متى يظل جساس على هذه الحالة السيئة؟

ارتجفت عينيها قبل أن تشيح عن نظرات شيماء اللائمة وتقول بحنق:

-سيتعافى، سيخرج من حالة الانهيار التي يحتجز نفسه بها ويعود كما كان، لقد ابتعدت عنه أخيراً وهذه هي الخطوة الاولى.

-اذا لم يمت قبلاً.

-بعيد الشر.

هتفت بشراسة رداً على تعليق شيماء المتهكم المرير، والذي ألحقته بهتاف غاضب:

-انه يريد صوان، لم لا تفهمين خالتي، انه يعشقها ويكاد يموت من فرط شوقه ورغبته بها.
-اصمتي.
صاحت بحنق ثم جذبتها بعيداً عن غرفة جساس تتمتم من بين أسنان مطبقة:
-لم أفعل كل ما فعلته لتقولي لي هذا الهراء، تلك المرأة لن تعود الى البيت، لن تعود أبداً الا على جثتي.
توقفت شيماء وجذبت ذراعها هاتفة بعنف:
-أنا سأخبره عن كل شيء.
استدارت نرجس ورفعت ذراعها تهوي بها على وجه شيماء هاتفة يغضب:
-سوف أكسر فمك شيماء.
أمسكت شيماء وجهها بذهول وهي بالكاد تسيطر على وقفتها، لتهتف نرجس بحنق:
-اياك شيماء، اياكِ أن تقولي مثل هذا الهراء، اياكِ أن أسمعه أو أن تُسمعيه لسواي.
التمعت عينا شيماء بالدموع وتراجعت مختنقة بعبراتها بينما نرجس تهتف:

-لم أفعل كل هذا، ولم أعرض نفسي وابني للخطر، لتقولي أن نتركه ليعود اليها.

تراجعت أكثر وهمست:

-أنا لن أتدخل بشيء أبداً بعد الأن، سوف أعود لمصر غداً على أبعد تقدير.

اتسعت عينا النرجس وسارعت لتقبض على ذراع ابنة اختها هاتفة بذعر:

-ستتخلين عني؟ ستتركينني وحدي؟

-أنت وحدكِ منذ البداية خالتي، أنا أبداً لم أوافق على ما تفعلينه.

صرخت شيماء بحدة وهي تجذب ذراعها لتتراجع خالتها وتهمس بحيرة:

-لقد فعلت كل شيء لأجلك.. لأن تكوني أنتِ زوجة أبني.

هزت شيماء رأسها، وهتفت:

-أنت فعلتِ كل هذا لتنتصري عليه هو خالتي.. سلطان الشيب.

شحب وجه نرجس وهمست بحسيس:

-اصمتي.

-لا لن أصمت.

صرخت بانفعال جعل نرجس تتراجع بذهول بينما تهتف بأسى:
-هذا ما فهمته منذ جئنا الى هنا، فأنت لا يهمك الجساس، أو صوان.. حتى أنا .. أنا لا اهمك.. كل اهتمامك يصب عليه هو خالتي، حقدك وكراهيتك له لتركِكِ سنوات طويلة رغم الحب الشديد الذي جمع بينكما كل هذا يجعلك تبحثين عن الفرصة لتنتقمي منه وتشفين غليلك.
لم ترد النرجس، بقيت متسمرة مكانها تنظر لابنة اختها تناظرها بألم وتنطق الكثير مما كانت لا تجرؤ على التصريح به. حقدها العميق لكل ما فعله سلطان الشيب منذ البداية ومن ثم تركه لها بتلك الطريقة المهينة وكأنها مجرد شيء بلا قيمة تذكر. كل هذا سبب لها الكثير والكثير من الاذى.. لقد قتلها حرفياً.
التمعت عينا الشيماء وهي تواصل تأنيبها لخالتها:
-أخبريني خالتي.. ما السبب وراء تلك القطيعة؟ لم هجرته كل تلك السنوات؟ لماذا تكرهينه؟

هزت نرجس رأسها بإصرار وهي تبتلع غصة مريرة استحكمت حلقها وعينيها تحاول الهروب من عيني ابنة اختها المصرة:

-أنت لا تعرفين عما تتحدثين، الماضي ذهب وولى.. لا شأن لي به.. كان ذلك.. كان ذلك منذ سنوات.

شحوب وجهها وبحة صوتها المغلفة بالألم أرسلت السخرية لعيني شيماء وارتفع حاجبها بتحدٍ:

-سنوات لا تزل تصبغ حياتك بالمرارة، أنت لم تنسي العم سلطان، ولا ما فعله بكِ.

ابتلعت نرجس غصتها وحاولت السيطرة على مرارة الوجع الذي تشعر به وهي تتقدم خطوة نحو ابنة اختها هامسة بتحذير:

-ما تقولينه لا يمت للواقع بصلة، أنا تركت سلطان، أنا رحلت رغم كل محاولاته للإبقاء علي، وقد استفرد بولدي لسنوات طويلة دون أن يكون لي سوى الحق بزيارات سريعة خاطفة، ولكن هذا لن يحدث بعد الان..

وانتصبت والغضب يلون ملامح وجهها:

ـلقد استنفذ الجميع وقتهم معي وحان الان وقتي انا، ابني سيعود لكنفي ول أحد سيقف بوجهي وأنا أستعيده.. حتى انتِ أيتها الحمقاء الغبية.
واستدارت تضرب الارض الحجرية بكعبيها بقوة وكأنها تؤكد على كل ما قالته، مهما كانت النتائج.
***
نهاية الفصل

ترنيـــمة عـــذاب
الفصل 29
***

لنفترق أحبابا..
فالطير في كل موسمٍ..
تفارق الهضابا..

والشمس يا حبيبي..
تكون أحلى عندما تحاول الغيابا
كن في حياتي الشك والعذابا
كن مرةً أسطورةً..
كن مرةً سرابا..
وكن سؤالاً في فمي
لا يعرف الجوابا
من أجل حبٍ رائعٍ
يسكن منا القلب والأهداباً
وكي أكون دائماً جميلةً
وكي تكون أكثر اقترابا
أسألك الذهابا..
لنفترق.. ونحن عاشقان..
لنفترق برغم كل الحب والحنان
فمن خلال الدمع يا حبيبي
أريد أن تراني
ومن خلال النار والدخان
أريد أن تراني..
لنحترق.. لنبكِ يا حبيبي
فقد نسينا

نعمة البكاء من زمان لنفترق..
كي لا يصير حبنا اعتيادا وشوقنا رمادا..
وتذبل الأزهار في الأواني..
***
لا تتوقف قط عن الحلم،
ففي أعماقنا كابوس مفزع على وشك الاستيقاظ..
اترك خيالنا ينعم بنوم هادئ
دع لنا القدرة على النجاة يا الله،
فالنفس عافت الحياة في الظلام،
وخرجت كفراشة من شرنقتها
تبحث عن النور.. حتى لو عنى ذلك أن تبكر في موتها..
**
التفت الفراشات حول لمبة النور الشاحب، فراشات باهتة الألوان بنية .. تنفل التراب من جناحيها لم يكن كتراب الجنيات، والتي ما أن تضرب بأجنحتها الشفافة بضع مرات حتى

تتساقط الأمنيات كحلم يهطل من أعماق غيمة السعادة الأبدية .. ولكن ..
لم تكن هناك غيوم، لم يكن هناك غبار جنيات ..
لم تكن هناك أمنيات تتحقق..
لم يكن هناك المزيد من الأحلام؟!!
طرفت بعينيها لتجد الفراشات قد احترقت جناحيها بالحرارة.. وسقطت تنتفض على الأرض القذرة ..
زحفت على يديها وركبتيها حتى موقع سقوطها واتسعت عينيها ترقب كيف انتفضت المخلوقات الرقيقة، وهي تفارق الروح. ترابها حولها سرعان ما ابتل بقطرات تساقطت دون جهد من بين رموشها لتكتشف انها تبكي.. بكل بساطة انهمرت دموعها كالمطر تدفن بقايا الحشرات التي فقدت حياتها ، ارتبكت أصابعها وهي تحاول لملمة البقايا أو ربما تنظيف الفوضى التي سببتها ولكن ..
اتسعت عينيها بذعر وهي تنظر الى أصابعها وقد تلطخت بالبقايا..

كروحها أصبحت قذرة .. موسومة بالطين .. ملوثة ..
شهقت بألم وعادت دموعها تنهمر بقوة .. وشهقاتها تزداد أكثر وأكثر..
" ألن تكفي عن البكاء؟"
شهقت متفاجئة وهي تقفز لتستند على الجدار خلفها وعينيها تتسعان بذعر ناظرة للمرأة أمامها..
" ألم تكفك كل تلك السنوات من البكاء والضياع لتعودي مرة أخرى للأمر نفسه ترنيم؟"
"كمالة؟؟؟"
همست بحشرجة ونظرتها تتحول الى نظرة متلهفة زائغة..
"ألم تشتاقي للحياة ترنيم؟؟ الحياة التي تعاندينها بكل قوة؟"
هزت رأسها بعدم فهم لتقترب منها كمالة .. تميل عليها وتلامس ركبتها بحنان:
"كيف لا ترنيم؟ كنتِ فتاة لامعة في مدرستكِ وجامعتكِ .. واجهتك العثرة تلو الأخرى ولكنك لم

تستسلمي يا صغيرتي، لقد بدأتي منذ الصفر واستطعتِ أن تفعلي كل شيء كي تخرجي منها"
"ولكني لم أخرج.."
همست بشحوب قبل أن تضيف بألم:
"أوس أخرجني، هو السبب أنني عدت لأعيش من جديد كمالة، هو أعطاني الحافز لأعيش .. يا رب الكون هو أعطاني حياة جديدة وانظري لما فعلته به"
تقطع صوتها في نهاية الجملة لتعقد كمالة حاجبيها وتقول :
"ماذا فعلتِ به؟؟ لقد أعطيته أجمل أيام حياته.. أنت السبب في خروجه من الحياة المائعة والغريبة التي كان يعيش بها، أنت أعطيته سبباً ليستقر، ليصبح رجلاً حقاً، يدافع عن حب حياته ، يعود لعائلته، ينتهى من حياة المجون التي كان يغرق فيها"
" أنا تسببت بعماه"
صرخت بألم..
" أنا جعلته يخسر بصره.. خسر عمله الذي يحبه.. ويكاد يخسر حياته"

" أشرف فعلها.. ليس أنت "
هتفت كمالة بحسم لتنوح ترنيم بينما الاولى تضيف:
-وها أنت الأن.. انتقمتِ له.. قتلت الرجل الذي حطم حياتكما بجنونه"
غطت أذنيها بكفيها بقوة وصرخت:
"هذا بالضبط ما أنا عليه مجرد قاتلة، قاتلة باردة المشاعر وبلا ضمير"
"لقد دافعتِ عن نفسك يا حمقاء"
هتفت عمتها بقوة لتستند بظهرها للجدار وتهتف بألم:
" أنا قاتلة.. مجنونة.. أنا مجرد مجنونة فقدت عقلها، انا أحادثك كل يوم عمتي.. وأنت ميتة.. ميتة؟"
اقتربت منها كمالة وهتفت بإصرار:
"عليكِ أن تعي جيداً أنك لست مجنونة يا ابنتي، أنت عاقلة .. ذكية وقوية .."
حركت رأسها بيأس وهمست تئن:
"لقد تعبت.. عمتي أنا متعبة وأشعر أنني أغرق في دوامة ليس لها قرار"

انسابت دمعتها على وجنتها وهمست:
"حبيبتي، اتصلي بأوس.. دعيه يعلم أين أنتِ.. سوف يساعدك"
حركت رأسها بألم:
"أووووس .. أنا أريد رؤيته.. أريد الاطمئنان عليه عمتي، أشعر أنني سأموت"
"اتصلي به"
"لا أستطيع .."
ناحت بوجع وتوسدت الأرض تبكي بقهر وهي تنشج:
"هو أفضل حالاً بدوني عمتي، هو يستحق السعادة لكل ما فعله لي.. هو يستحق الحياة"
كانت الأصوات تتداخل في عقلها.. شيء من الضجيج ووقع الأقدام الثقيلة لتختفي كمالة من أمامها وتظهر امرأة سمراء ضخمة قبضت على ذراعها بقسوة ورفعتها بسهولة هاتفة بغلظة:
-ضابط العنبر يريدك.
اتسعت عينيها بذعر وسيقت وراء المراءة بخطوات متعثرة بالكاد تجاري خطواتها السريعة القوية .. تلفتت حولها بالكاد تستوعب الممرات

الضيقة المتشابكة والعنابر بالأبواب الصدئة وهمسات بعض السجينات..
حتى وصلت الى باب حجرة المناوبين الضباط..
مكتب صغير خشبي وخزائن متهالكة ونافذة صغيرة بقضبان حديدية كباقي الزنازين، الفرق الوحيد هو بمكيف هواء يبخ هواءً بارداً يلطف من حرارة المكان..
أخذت نفساً عميقاً وحاولت السيطرة على ملامح وجهها المذعور بينما تحكم وضع حجابها عليها وعينيها تبحثان بفزع عن الضابط.. والذي جاء من خلفها قائلاً بحزم:
-اجلسي.
انتفضت وهي تتقدم بدفعة من الحارسة للأمام خطوة وتجلس مرغمة على كرسي قديم بينما الضابط يجلس أمامها عاقداً كفيه امام وجهه وفي عينيه نظرة مسلطة عليها بتركيز:
-هل تنوين التحدث؟
ابتلعت ريقها وخفضت عينيها وهي تقاوم ارتجاف شملها من رأسها لأخمص قدميها :

-عليكِ اخباري بشيء يا فتاة، وجودك هنا سيء بالنسبة لكِ.. أخبرينا عن عائلتك.. اسمك عنوانك.. أي شيء.

ابتلعت ريقها بصعوبة ولم تجب فزفر الرجل بنفاذ صبر:

-اسمعيني جيداً .. وضعك لن يزداد سوى سوءاً أنت كنتِ تحاولين مغادرة المحافظة بتلك الأموال دون أي اثبات هوية، وأنت تعرفين وضع البلاد المزرى هذه الأيام.. لا أحد يقدر على تركك تذهبين دون التعرف على هويتك.. السلطة حالياً لا تقبل بأي هفوات كهذه.

تململت في مقعدها ولم تجابه نظرته القوية والصارمة نحوها ولكن الرجل لم ييأس.. بل اقترب بجذعه نحوها وهمس بتعاطف:

-اسمعيني يا بنتي، لدي بناتي هن بعمرك ولا أرغب برؤيتك هنا مثلما لا أرغب برؤية احدهن، أخبريني قصتك .. ساعديني لأساعدك يا ابنتي.

انسابت دمعتها وهي تسمع نبرة الخشونة في صوته وقلبها يدرك أنه يقول الصدق.. أنه متعاطف معها حقاً ولكن.. ماذا تقول؟؟ كيف

تفسر وتخبره انها مجرمة .. قتلت قريبها الوغد ولاذت بالفرار ولا تعرف ما قد يصير لها.. ومن الناحية الأخرى .. اخباره بهويتها سيعيدها الى والدها.. وهذا يعني أن يعرف أوس بمكانها.. ويعود لمحاولة اعادتها اليه .. ولن يسكت أبيها.. سوف يقتله.. وهو لا يستحق كل هذا.

ازدادت دموعها بمرارة ..ولكنها بقت على صمتها فزفر الرجل بنفاذ صبر وهتف بالحارسة:

-خديها الى الزنزانة العامة، غداً نعرضها على النيابة.

ابتلعت دموعها ونهضت تلملم بعثرتها، محاولة أن تتبع خطوات الحارسة بحركة حادة وكأنها لم تصدق أنه توقف عن تساؤلاته.. ولكن تلك الحركة الحادة سببت لها دواراً قوياً..

كانت متعبة منذ فترة، ومنذ ايام لم تأكل الا بعض ما يسد رمقها، والأن والدنيا تدور حولها تشبثت بحافة الطاولة وانحنت تجاهد كي لا تفقد توازنها وتقع..

-هل أنت بخير؟

تصاعد السؤال القلق من الضابط وقابله الرد من الحارسة:
-انها ترفض تناول الطعام مع السجينات يا سيدي.
طنين حجب عنها اجابته وشعرت بالحارسة تمسكها من مرفقها بقوة وتقودها للخارج، تصاعد الغثيان بقوة ليخنق حلقها فتغمض عينيها وتعتمد على المرأة التي قادتها الى زنزانة أخرى واسعة بعض الشيء ولكنها مزدحمة بتلكن اللاتي سيرحلن الى النيابة في الصباح الباكر.
ما ان دخلت الى الحشد حتى بحثت عن الارض لتجلس مسندة ظهرها للجدار وعينيها تسكبان الدموع بحرقة.. مالذي يحدث لها؟!! كيف انتهى بها الأمر هكذا؟؟
شعرت بمرارة خلف حلقها ابتلعتها بصعوبة وفتحت عينيها لتدور عينيها الزائغة في الوجوه التي كانت تنظر اليها بنظرات متفاوتة، بين الفضول والسخرية وبعض من التعاطف.. وجوه كالحة غريبة لا تشبه شيء مما اعتادت عليه ..

الى متى ستظل هكذا؟؟ الى متى يمكن أن تحتمل هذا الألم.
خنقت شهقة ألم تصاعدت من داخلها وأغمضت عينيها من جديد .. تحتمل الألم .. ألم ضارب كما يضرب السوط، أسفل ظهرها وبطنها ..
انها تموت .. فيا الله .. يا الله فليكن موتاً سريعاً، يكفيها الألم ..
***
تعالت الدقات الهادئة على باب مكتبها المغلق فانتفضت وكأنها تخرج من عزلة فكرية وراقبت الباب لثوانٍ قبل أن تجلى حنجرتها وتطلب ممن يطرقه الدخول. رأت مساعدتها تبتسم بهدوء وتهمس:
-الأستاذ عبدالرحمن يريد رؤيتك.
عقدت حاجبيها وتساءلت:
-امام المسجد؟
اومأت مساعدتها فأخذت نفساً عميقاً واشارت لها بتركه يدخل، وبعد لحظات كان يجلس أمامها رجل في منتصف الأربعينات تألق وجهه بابتسامة خلوق وهو يجلس أمام مكتبها محيياً

ببشاشة لتبادله التحية بابتسامة مقتضبة وعينيها تحمل فضولها:
-تفضل يا شيخنا، لم نرك منذ مدة طويلة؟
-انها زحمة الدنيا سيدة صوان، ولكن فعل الخير لا يتركنا الا نبحث عن أصحابه.
ابتسمت بخفة واومأت برأسها ليستفيض:
-تعرفين أننا ندعم الكثير من المشاريع الخيرية، والكثير من الحملات التي نرعيها لدعم المرضى والفقراء.
-هذا صحيح، وقد شاركنا معك في كثير من الأوقات.
قالت بجمود رغماً عنها ليبتسم:
-هذا صحيح ولذا جئنا اليك الان.. نحتاج الى دعمكم كالعادة ..
اومئت بخفة وبدأ عقلها ينغلق تدريجياً وهي تسمع الكلام المعتاد عن اهمية الصدقة وتأثيرها على المجتمع، وبحركة آلية أخرجت دفتر شيكاتها من الدرج وخطت عليه مبلغاً ضخماً كعادتها، وناولته اياه وهي تهمس:
-افعل ما تراه مناسباً يا شيخ.. أنا أثق بك.

نظر الشيخ لها بحذر وهو يأخذ الشيك ويضعه في جيب قميصه:
-هل تمانعين سؤالي سيدتي؟
عقدت حاجبيها ليضيف بسرعة:
-هل أنت بخير؟ تبدين ... لا أعرف ما أقول.. متعبة!
نهضت بحدة وكلمات الشيخ تطرق رأسها بقسوة وتحركت نحو الباب لا تبالي بقلة ذوقها:
-اعذرني يا شيخ ولكن.. لدي موعد.
نهض الشيخ بسرعة والارتباك على ملامحه بينما تفتح الباب وقبل ان يقول شيئاً ظهر شخص أخر على الباب..
-صوان؟!
كانت السعادة والمفاجأة في الصوت خير دليل على صدق التعبير المبتهج على وجه صلاح الزجالي والذي قابلته صوان بصدمة وهي تفكر أنها انتقت أسوأ يوم للعودة الى العمل ومحاولة الخروج من العزلة التي وقعت فيها.. بعد هجرها لجساس منذ ايام مضت.
-استاذ صلاح؟

هتفت بتوتر لتتسع ابتسامته ويهتف بفرح حقيقي:
-سعيد لرؤيتك حقاً .. هل عدت الى العمل؟
رفعت صوان يدها لتلامس جبينها الذي تصفد بالعرق والتعب يرهقها ويثقل كتفيها لتتهدل ويظهر على وجهها بشكل كبير جعل صلاح يعقد حاجبيه وهو يسأل باهتمام:
-أأنت بخير؟
اومأت بحذر وتراجعت هامسة:
-أسفة أنا لا أستطيع رؤية ....
-صـــوان ؟!!
اتسعت عينيها بذعر وهي ترفع عينيها الى ما خلف كتف صلاح.. الى الصوت المبحوح والنبرة المشروخة بحد سكين.. صوت قادر على اثارة كل عصب حي في جسدها، صوت قادر بنبرة واحدة فقط أن يقلب عالمها رأساً على عقب.. جرحها كحد سكين .. ترك ندبات على جسدها وكأنما يهاجمها بمادية .. يضربها بعنف وفي أماكن ضعفها بالذات..
رأته كما لم تعرفه من قبل، الهزال الذي عصف بجسده ووجهه الذي تحول الى جمرة سوداء

بعينين مشتعلتين بأكثر مراحل الغضب والحقد شعواً.. !!
جساس؟!!
حار الاسم على شفتيها ولم تنطقه .. فقط عينيها تعلقتا بعينيه وانفصلت عن الجميع ولم تعد ترى سواه، لم يكن بعيداً منذ تركته.. لم يكن من المفروض أن تشتاق اليه .. أن تريد رؤيته ..
كانت تكرهه.. كانت تكره ما فعله بها .. ما جعلها تشعر به، تكره أن تشعر بالحقد نحو علاقتهما .. نحو الحب الكبير الذي كان والذي بدأ يتسلل من بين أصابعها كما ظنت.. وأنه انتهى..!!
ولكن الأن .. هذا الاحساس الغامر بالحميمية الذي هاجمها ما ان التقت عينيها بعينيه حتى فقدت كل شك راودها بشأن ما تشعر تجاهه ..
أما هو .. فقد وقع في دوامة ..
من ناحية .. رؤيتها التي لم تطفئ نار الشوق كما ظن.. بل زادت سعيره أكثر..\
ومن الأخرى فرؤية كل اولئك حولها!!
وهذا الرجل بالذات .. هذا الذي كان يريدها.. الذي أراد أخذها منه، وهنا فقط شعر بكل الشوق

الذي أضناه وأهلكه .. شعر به يتحول الى غضب.. غضب عارم وحقد اشتعل بداخل عروقه وسعره..

قبضتيه اشتدتا على جنبيه حتى شعر بأن عضلاته تكاد تتمزق، وأرادها أن تتمزق، أراد أن يبعد احساس الألم من قلبه الى أي مكان أخر..

تخونه؟!

فكر بذعر.. بجنون ..

تتركه لأجل هذا؟؟

-ماذا تفعل هنا؟

همست بخشونة نبرتها مشروخة .. مرتجفة .. عينيها في عينيه لا تجرؤ على الهرب بهما بعيداً، واقفة بصلابة بين نظرات الامام الفضولية ونظرات صلاح الذي انزاح جانباً المرتبكة..

وكالعادة كانت وحدها تقف في مواجهته، وكان عليها أن تتحلى بالشجاعة كما لم تفعل قط من قبل.

التفتت للشيخ وهمست بنبرة معتدلة:

-سعدت بزيارتك يا شيخ، ويسعدني دوماً المساهمة في أي نشاطات للجامع مع أطفال الحضانة.

اومأ الشيخ للحظة ثم انسحب بهدوء وعيناه لا تفارقان الجساس.

وحينها حولت صوان اهتمامها لصلاح قائلة بشدة:

-اعذرني استاذ صلاح، ولكنني في طريقي للخروج أي استفسار لديك يرجى توصيله للاختصاصية الاجتماعية.

وقبل أن تسمع منه رداً كانت تعود الى مكتبها وتحاول اغلاق الباب متجاهلة الرجل الذي تعلق قلبها بوجدانه، والذي كان من المستحيل عليه أن يرضخ لمبدأ أن تتجاهله المرأة التي يحب،، المرأة التي تجاهل كل شياطينه ولم يكرهها أبداً وانما زاد بعدها مقدار الحب والعشق في قلبه درجة ..

-صوان!!

هدر بعنف وهو يهجم على الباب ويمنعها من غلقه ليسمع شهقتها المتفاجئة وهو يقبض على

مرفقها بعنف جعلها ترتجف وعينيها تشي برعبها وجسدها يعود لذكرى عنفه والألم الذي تسبب به عليها..

-ابداً ..ابداً لا تديري ظهرك لي.

-اترك يدي..

حذرت بصوت خفيض وهي تحاول التملص ولكن هيهات، رغم نحوله لا يزال التفوق الجسدي من نصيبه، لذا صرخت بألم وأصابعه تحفر جلدها ليتدخل صلاح بحدة:

-توقف عن هذا أنت تؤلمها ما بالك هل جننت؟

التفت اليه جساس والشرر يتطاير من عينيه ليدفع بيده الأخرى كتف صلاح هاتفاً بصوت مرعب:

-لا شأن لك بما بيني وبين امرأتي.

تراجع صلاح والتفت ينظر لوجه صوان الممتقع من الخوف والخزي وقد احتقنت عينيها بالدموع ولم يتراجع:

-أموركما الخاصة لا تناقش في مكان عام.

لم يتخلى قط عن مرفق زوجته، واقترب نحو صلاح حتى كاد يصطدم به ، عينيه في عينيه

والأنفاس النارية ترتفع في صدره وتغادره كلهيب ساخن..

-زوجتي ..

همس الكلمة بفحيح .. جعل صلاح يتراجع خطوة .. جساس كان يشتعل بمعنى الكلمة .. عروق رقبته بارزة .. بشرته سمراء داكنة وحبات العرق تتألق على جبينه وأعلى صدره ..

-اياك .. اياك أن تقترب منها بعد اليوم..

عاد يهمس لتحاول التخلص من قبضته بشراسة وقد استشاط غضب الصوان فبدأت تضرب ذراعه بقوة:

-توقف جساس.. توقف.. ابتعد عني.

وانتابت الشجاعة صلاح للحظة وقد رأى ذعر صوان في عينيها يتحول الى غضب وعنف وقد اشتعلت بلحظة هي الأخرى .. لذا دفع بذراعيه بينه وبين الجساس ليتراجع الأخير للخلف وصلاح يهتف بقوة:

-زوجتك لا يعني أبداً أن تعاملها بهذه الحقارة، كن رجلاً يا هذا وابتعد.. صوان لا تريدك.

تألقت عينا الجساس وأفلت صوان بحركة سريعة وعاد ليمسك بتلابيب صلاح وهو يهزه هاتفاً بجنون:

-لا تذكر اسم زوجتي على لسانك أيها.....

وقبل أن يتراجع كان يدفع بقبضته لتنزل على ذقن الرجل بوحشية فجرت الدماء من بين أسنانه وتركته يصطدم بالجدار خلفه، تعالت أصوات أقدام قادمة عبر الردهة، وتعال صوت صوان وهي تتعلق بذراع جساس الذي كان يجثم على صلاح كالثور وقد كشر عن أنيابه ونزلت قبضته متوالية على وجه صلاح الذي كان بلا حول ولا قوة أمام وحشية وهمجية الجساس وقتها..

لم يكن يرى أمامه .. الدم غطى عينيه يفور من الغضب والألم لما يعانيه.. لم يأبه لأي درجة ممكن أن يؤذي من أمامه كل ما أراده هو تحطيم فم الرجل الذي كان ينطق اسم صوانته، ليس هذا فقط .. بل هو كان يريدها لنفسه .. كل غضبه المخزون بداخله تفجر حتى بات بركاناً تفجر ولا سبيل لإخماده.

صوان تشبثت به بقوة .. ذراعيها تحيطان صدره وتحاول جذبه بعيداً ولكن هيهات ..
كان كجبل لا يتزحزح.. صلاح سقط أرضاً وجساس جثم فوقه جاراً صوان معه الى الأرض، صرخت بغضب و أظافرها تنغرس في لحم صدره وكتفيه تحاول جذبه اليها ولكنه لم يتزحزح والجاذبية تلعب دورها وتلقيه بثقله على الرجل الأخر..
لم يخلص صلاح من قبضة الجساس سوى رجال أمن الحضانة اللذين تكابلوا عليه بعد أن أزاحوا الصوان ورفعوه متجاهلين حركته الشرسة ومحاولته التملص للعودة والهجوم على ذاك الذي كان ينزف من فمه وأنفه وغابت ملامحه بسبب ضرباته المتوحشة..
نهضت صوان بالكاد تتحامل على نفسها وهي تمد ذراعها صارخة بجنون:
-خذوه الى الخارج، لا اريد رؤيته.
رفع جساس نظرته اليها وهتف بوحشية:

-أنت لن تهربي مني ، لا تستطيعين الاختباء أتفهمين لن تختبئي مني أبداً.. أنت ملكي صوان .. ملكي وحدي.

شحب صوتها وهي تنشج بوجع، ساقيها تهددان بالانهيار بينما احدى مساعداتها تسندها وتحاول سحبها الى داخل المكتب وأخر يهتم بصلاح، عينيها تفيضان بالدمع وهي تراقب كيف تكالب رجال الأمن على جساس وهم يدفعونه للخارج .. كان يقاوم بشراسة ويصرخ باسمها بلا توقف ومن ثم ودون مقدمات كان ينهار..!!

اتسعت عينيها بذهول ..

كخرقة خالية من الروح راقبته ينسل من بين أيديهم ويتكوم تحت أرجلهم بلا حراك ..

"جساااااااااس"

تصاعدت من داخلها دون أن تجرؤ على مغادرة شفتيها وفجأة كل شيء حولها أصبح يمر ببطء، وكأنها في عالم أخر .. وكأنه فيلم سينمائي وهي تراقب من خلف الشاشة..

سمعت من يصرخ طلباً للإسعاف .. ومن ينزل ليجلس الى جواره ويبدأ برفع رأسه والتحقق من

نبضه وبدأ الأخرون بالتجمع حوله حتى من كانوا يعتنون بصلاح وكأن ما حدث للجساس أهم وأكثر سوءاً وارتجفت الصرخة على شفتيها وهي تتخلص ممن يحيطون بها وتركض نحوه وتنهار على الأرض الى جواره.. حشرت نفسها وسط المحيطين به ورأت أخيراً وجهه الشاحب كالموتى عن قرب..

الوجه الذي كان يصرخ بالحياة والغضب قبل لحظات فارقته القوة والجبروت ..

العينين اللتين اشتعلتا بالنار انطفأتا.. بات ضيائهما باهتاً.. لا روح فيه..

وعلى الشفتين الشاحبتين انساب خيط من دم أسود يعلن حداده على جسد خارت قواه أخيراً..

"جساااااااااس"

صاحت ملئ فاها وهي تجذب رأسه اليها ليقع على حضنها .. تضمه بقوة وهي تبكي دون توقف.. تنظر بمن حولها وتطلب منهم استدعاء طبيب..

انقاذه .. جساس كان يموت ..

وهذه المرة الثالثة ..وكما يقولون .. الثالثة .. ثابتة !!

***

وقفت تراقب من بعيد، المساعد الشخصي يرتب الطاولة الضخمة للاجتماعات ويهيئها لتستوعب جميع أعضاء مجلس ادارة الشركة وهي تشرف عليه والحزم والقوة باديان على وجهها بينما تعقد ذراعيها أمام صدرها وتنقر بطرف حذائها على الأرض المصقولة بتوتر.

-نيران؟

التفتت بجسدها كله وارتفع حاجبها بإعجاب وهي تبتسم تلقائياً ومن لن يفعل فركان كان يبدو بأفضل حلة.. بدلة فاخرة داكنة من ثلاث قطع وقميص رمادية حريرية وربطة عنق سوداء منقطة بالرمادي وكان وجهه بالذقن الخفيفة قمة الوسامة وقد تألقت عيناه الزرقاوين بالفضول:

-هل انتهت التحضيرات؟

-كل شيء جاهز.. هل أنت مستعد؟

هتفت بابتسامة واسعة تخفي بها قلقها وتوترها ليأخذ هو نفساً عميقاً ويومئ برأسه فتسأله بهدوء:

-كيف حال سارة؟ هل لازالت متعبة؟
تنهد وهو يتذكر زوجته والتي فرض عليها اقامته الجبرية بمنزلها الجديد رغم اعتراضاتها ولكنه لم يأبه خصوصاً بسبب حالتها الصحية المقلقة.. حتى أعصابها أصبحت تتوتر أسرع مما كانت، وبشكل لا يطاق في كثير من الأحيان.. وعبوسها دائم دون أن يعرف الحقيقة وراء المسبب لاضطرابها سوى الحمل.
-انها تتأقلم ببطء على وضعها الجديد.. تنام معظم الوقت.
قال بخفة وابتسامة لا يستطيع السيطرة عليها تتلاعب على شفتيه لتهمس نيران متسائلة بعفوية:
-هي تقضي معظم وقتها في البيت؟
-نعم هي لا تحبذ الخروج في هذه الفترة وخصوصاً أن طبيبتها نصحتها بعدم الخروج واجهاد نفسها حتى تستقر أمورها أكثر.
ابتسمت نيران ورأت ضيقه في عينيه من تساؤلاتها المتكررة فلم تصر واستدارت توجهه الى مكتبه الملحق بغرفة الاجتماعات قائلة:

-تعال لننتظر قدوم مجلس الادارة يا ركان، ليس عليك أن تكون في استقبالهم..

والتفتت اليه تقول بعبث:

-أنت الأن الرئيس يا باشا..

لوى فمه بسخرية وهتف:

-لم أعد الباشا نيران.. تلك كانت غلطة عشت بها سنوات والأن .. حمداً لله أنها انتهت.

اتخذ طريقه ليجلس خلف مكتبه ويبدأ تصفح بعض الاوراق القابعة بانتظاره، بينما تابعته هي للحظات ثم غادرت لغرفة الاجتماعات للتجهيزات الأخيرة.

بعد خمسة وأربعون دقيقة كانت تراقب من خلف الزجاج العازل للصوت الاجتماع يدخل في طور النقاش الذي قد يستمر لعدة ساعات فتراجعت وهي تخرج هاتفها وبأصابع ثابتة لا تهتز طلبت الرقم المخزن ..

-انها وحدها، سأبعث لك بالعنوان الجديد برسالة نصية.

ودون سماع رد كانت تغلق الخط وتبدأ بإرسال العنوان..

وفي الطرف الأخر استقبل شاهر العنوان بتجهم ودون تردد قام بإرساله لجهة أخرى ثم طلب الرقم ورفع الهاتف ليقول حال سماع صوت محدثته:

-اذهبي في الحال.

واغلق الخط وعيناه مثبتتان على المنظر الواسع لروما .. تبحثان عن مكان وجودها وسط الازدحام وان كان على بعد كيلومترات عنه.

وهناك .. بعد بضع دقائق استيقظت متأففة عل صوت جرس الباب، نهضت بصعوبة وهي تقاتل شرشف الفراش، والتعب الذي يرزح على بدنها كل صباح ويجعل النهوض مهمة ثقيلة شبه مستحيلة، ناهيك عن غثيان الصباح والذي يأخذها لعالم أخر ملئه الجنون.

والآن هذا الازعاج؟!

تأففت من جديد وصاحت:

-ركاااان!!

انتظرت لبضع لحظات دون رد.. تلفتت حولها ومدت ذراعها تبحث عن ساعتها التي تضعها

الى جوارها على الدوام.. كانت تقارب الحادية عشر صباحاً.. رباااه لقد نامت لوقت طويل..
نهضت بصعوبة وجرس الباب لا يتوقف عن الرنين..
وقفت أمام المرآة واتسعت عينيها بذعر..
كان وجهها منتفخاً بتأثير النوم، شعرها منكوش حولها بلا انتظام وترتدي منامة قطني قصيرة لم تخفي انبعاج بطنها الظاهر ..
سارعت بتمرير الفرشاة على شعرها ثم دخلت الى الحمام وغسلت وجهها بالماء فقط قبل أن تسرع للرد على الباب..
فتحت شاشة الكاميرا الصغيرة الموضوعة امام الباب وتراجعت متفاجئة من المرأة الواقفة خلفه..
مررت كفها على جبينها الندي بتوتر قبل أن يستشيط بها الغضب ويبدأ دمها بالغليان لتفتح الباب وعينيها تطلقان شررهما على المرأة الأخرى،،
لقد عاشت الشهور الماضية بعد رؤيتها لهذا المرأة مع ركان في ضباب جهل لما قدر تفعله بها ان راها مرة أخرى،، وها هي الأن.

سييرا .. صديقتها الخائنة ؟؟
-لا أصدق عيني؟
هتفت سييرا بذهول وهي تنظر لسارة التي التمعت عينيها العاصفتين بالغضب وصاحت بها:
-يا لك من وقحة عديمة الحياء.
تمالكت سييرا أعصابها وارتسمت السخرية على فمها المطلي بعناية بلون النبيذ لتقول:
-ألن تدعيني للدخول ساريتا؟
تمالكت سارة نفسها وتجاهلت الغثيان الذي تصاعد بقوة بداخلها، وشدت قامتها وهي تنظر لسييرا بقرف:
-لا تفكري قط بتلويث منزلي، لا مكان لواحدة مثلك هنا.. ارحلي.. الأن.
ولكن سييرا لم تتحرك بل تخصرت بكل وقاحة وقالت بابتسامة لعوب:
-أحقاً لا تريدين سماع ما لدي؟ أنت ستكونين الخاسرة الوحيدة سلطانة وخصوصاً ان ذهبت مباشرة لركان.

استشاط غضبها والغيرة ترفع أعلامها وترفرف بكل قوة في سماءها، تتشبث باطار الباب وتهتف بعنف:

-ركان ان رآكِ سيلقي بكِ الى الشارع أيتها الوقحة.

ضحكة رنانة تلك التي أطلقتها قبل ان تعود الى هدوءها ويدها تستقر على بطنها:

-ليس ان كنت أحمل ولي العهد.

اتسعت عينا سارة للمفاجأة التي ألقتها سييرا بكل برود، شعرت بدوار يلفها واهتزت الرؤية امام عينيها وعقلها يتخبط في ما قالته تلك المرأة وما قد تعنيه من وراءه..

حامل؟؟!!

من ركان؟؟

اندفعت ذراعيها بغريزية تحيطان بطنها والنظرة في عينيها ترتجف وهمس مماثل يخرج من شفتيها:

-ماذا؟؟ ماذا تعنين؟

تنهدت سييرا وخطت الى الداخل مستغلة الصاعقة التي نزلت بها على رأس سارة والتي

تابعتها بنظرة خاوية وجسدها منهار لدرجة أنها لا تقوى على فعل شيء البتة سوى مراقبتها بذهول:

-اغلقي الباب وتعالي لنتفاهم سلطانة.

-اخرجي من بيتي.

همست بشحوب ولكن سييرا جلست وعقدت ساقيها بخفة هاتفة بوقاحة:

-ليس بهذه السهولة ، فأنا لدي حقوق في ركان منذ الأن ومنزله هو منزلي ومنزل طفلي.

-انه منزلي أناااا..

صرخت بجنون وانقضت دون أن تأبه على المرأة التي تفاجأت برد فعلها وشهقت حين أمسكتها سارة من كتفيها ورفعتها عن الكرسي بقوة وعصبية تدفعها الى الخارج هاتفة بألم:

-اخرجي بقذارتك من منزلي، لا تلوثيه أيتها النجسة الحقيرة،، اذهبي اليه.. لا أريد رؤيتكما معاً.

حاولت سييرا ان تجابهها وأن توقفها كامرأة حاقدة استمرت على زعيقها الشيطاني:

-اسمعيني ايتها المجنونة، ركان سيأتي الي، سيكون لي ولطفلي، أما أنتِ فتعفني وحدك.. انظري لنفسك فقط انظري كيف أصبحتِ !! منتفخة كالبالون ؟!

صرخت سارة بغيظ وألم ومضت تريد أن تصفع وجه سييرا علها تسكتها ولكن الحركة العنيفة لم تكن ابداً في صالحها فسرعان ما ازداد دوارها وغشى عينيها سواد أحاط بعقلها وألم لا يطاق ينتشر عبر جسدها في كل مكان .. صرخت بألم .. وقبل أن تستطيع السيطرة على نفسها كانت تتهاوى على الأرض أمام عيني سييرا الذاهلة ..

-سارة!!

همست سييرا بشحوب وهي تنظر لسارة المتكومة تحتها بلا حراك..

انحنت لتجلس امامها على ركبتيها وهزتها بعنف من كتفها:

-سارة انهضي.. سلطانة أأنت بخير؟

ولكن سكون الجسد أخافها لدرجة الفزع .. ثم كان ذلك الخيط من الدماء الذي انساب بين ساقي سارة والذي جعل سييرا تنهض متخبطة بذعر

وهي تبحث عن هاتفها وتطلب أخر رقم متصل..
وما ان سمعت صوته حتى هتفت باضطراب:
-الأمور خرجت عن السيطرة باشا، سارة ربما ماتت أنا لا أعرف.. انها تنزف ولا تستجيب لي.
"ماذا؟؟؟"
صرخ بجنون ..
فتح باب سيارته التي قبعت أمام منزلها الجديد ومضى ركضاً لداخله..
تموت؟؟ لا لا .. لم يكن هذا ما خطط له ابداً.. لا يمكن أن تموت.. سارة لا يمكن أن تتأذى ،،
وقف أمام المدخل وعيناه متسعتان بذهول يرى المنظر أمامه..
سارة مكومة على الارض فاقدة الوعي تنزف ببطء ..
-اتصلي بالإسعاف على الفور.
هتف بسييرا التي اعترضت مذعورة:
-سيتهمونني بها.. أنا لم أفعل شيئاً .. انا فقط نفذت ما قلته لي.. أنا لا يمكن أن أدخل الى السجن.
رفع عينيه اليها بغضب وصرخ:

-اطلبي الاسعاف ايتها المجنونة، ان أصابها مكروه سوف اقتلك بيدي..
تراجعت باضطراب وهتفت:
-أنت أمرتني.. أنها كلها خطتك .. أنت السبب..
لم يعد يستمع اليها اقترب يحمل سارة برفق ومنظر الدماء التي تسيل منها يمزق قلبه بينما بشرتها الشاحبة تثير هلعه.. تحسس نبضها فكان يطرق بعنف جعله يزفر بارتياح مؤقت..
وضعها على الصوفا برفق ثم أخرج هاتفه وطلب الاسعاف بنفسه وعيناه لا تفارقان وجهها وأصابعه تلامس وجنتها بحنان فائق..
"ركان"
همسة غادرت شفتيها المرتجفتين جعلته يتيبس مكانه..
"ركاان"
عادت تهمس بألم ودموعها تتدفق بلا حساب، لتتسع عيناه بذهول وينتفض من جوارها كالملسوع.. مالذي يفعله؟؟!!
نظرته اجتاحتها من رأسها لأخمص قدميها..
كانت المرة الاولى التي يراها منذ وقت طويل ..

وجهها الممتلئ وشعرها الذي انسدل بعفوية على كتفيها، بنيتها الضعيفة التي تحولت لشيء أخر..
صدر مكتنز .. وركين بارزين.. ثم كان بطنها الذي تكور يعلن بكل صراحة أنها امرأة تحمل طفل رجل في أحشاءها.. رجل سواه..
رجل دمغها بختم ملكية لا تخطئه عين .. رجل امتلكها.. جسداً وقلباً ..
تراجع بذهول وهو يرى دموعها .. يسمع انينها باسم الرجل الأخر.. وارتخت يده التي تحمل هاتفه ووقف بعيداً منزوياً كرجل خسر كل شيء..
بعد بضع ساعات كان ركان يقطع رواق المستشفى بخطوات سريعة والخوف يتجلى من عينيه..
رأى توبا تقف أمام احدى غرف المرضى تبكي بصمت فاقترب يجلس جوارها هاتفاً بلوعة:
-مالذي أصاب سارة؟؟ لقد تركتها نائمة وبصحة جيدة.
رفعت أمها عينيها اليه وهمست بألم:

-الطبيب يقول أن ضغط دمها ارتفع لدرجة كبيرة، وتعرضت لنزيف وهم يخشون أن تدخل في مرحلة متقدمة وتفقد الطفل ان لم يهبط ضغطها.

اغلق عينيه بألم وكفيه تمسدان وجهه بقوة هاتفاً بعجز:

-كيف حدث هذا؟؟ لقد كانت بخير.. أقسم لك توبا لقد كانت على خير ما يرام.

شهقت أمها بالبكاء وهزت كتفيها بقلة حيلة لينهض لا يقوى على الجلوس ويدور حول كراسي الانتظار كليث محبوس والشحوب يطغى على وجهه ..

لقد كاد يفقد تعقله حين اتصلت به توبا تخبره أن سارة قد نقلت الى المستشفى، لقد ترك كل ما بيده وهرع الى المشفى رامياً بقواعد السير خلف ظهره يكاد يتسبب بعدة حوادث قبل وصوله.. ولكن الألم بداخله كان مطرداً وهو يفكر أن سارة اتصلت بوالدتها ولم تتصل به..

-متى اتصلت بكِ؟

همس بشرود يحاول الخروج من دائرة القلق لتمسح توبا دموعها بمنديل حريري وتنظر له بحيرة:

-لم تتصل بي مطلقاً، سارة مغمى عليها منذ وصولها ويقول الطبيب أنها قد لا تستعيد وعيها الليلة.

انقبض قلبه بقسوة مؤلمة وهو يسأل:

-وكيف عرفتِ أنها هنا؟؟ من أحضرها للمستشفى؟

هزت كتفيها بتوتر وقالت:

-لا أعرف.. المشفى اتصلت بي تخبرني أن ابنتي في المستشفى.. حين وصلت وفاجأني الطبيب بمدى سوء حالها لم أسأل.

عقد ركان حاجبيه.. ربما تكون حماته مغيبة العقل بالقلق ولكن ليس هو ..

شعر بشيء ما مخيف يحيط غموضه بالأمر وعليه أن يتأكد..

اعتذر من توبا وتوجه الى منطقة الاستقبال ليسأل الموظف بخشونة:

-السيدة سارة الباشا.. أريد أن أعرف كيف وصلت الى المشفى؟
نظر له الموظف بفضول ليخرج ركان بطاقته والتي لا تزال تحمل اسمه القديم هاتفاً بخشونة:
-أنا زوجها، وأنا المسجل في بطاقتها للاتصال حين الضرورة.
نظر الموظف لبطاقته وقارنها بالسجلات بسرعة على جهاز الكمبيوتر ثم ابتسم بمهنية:
-عذراً سيدي ولك السيدة زوجتك تم احضارها بعد الاتصال من منزلها بسيارة الاسعاف، وحين الوصول الى هناك الرجل الذي أبلغ المسعفين هو من أعطانا معلومات الاتصال بالسيدة والدتها فلم تكن تحمل هي أية أوراق ثبوتية.
عقد ركان حاجبيه وسأل بغلظة:
-عن أي رجل تتكلم؟ هل تعرف اسمه؟
هز الرجل رأسه:
-أسف.. فهو لم يضع أي معلومات عنه، لقد ساعدنا بالوصول للسيدة فقط.
"وربما كان هو من أوصلها لتلك المرحلة من الأساس"

فكر ركان بجنون قبل أن يهتف بالموظف:
-الرجل .. أكان قوي البنية طويلها أسمر وداكن الشعر وله لكنة أجنبية؟
اومأ الموظف بتفكير موافقاً فضرب ركان بقبضته على المكتب الرخامي ليجفل الرجل قبل أن ينسحب من أمامه عائداً الى توبا والانتظار وعقله يغلي بالأفكار بلا توقف..
شاهر..
ليس سوى شاهر بتلك المواصفات ولكن ..كيف وصل لزوجته؟؟ كيف أتته الجرأة أن يذهب اليها ويؤذيها بهذه الطريقة البشعة؟ ماذا فعل لها لتنهار بهذا الشكل..؟! قبض كفيه بقوة حتى كاد يحطم أصابعه سيطمئن على زوجته فقط .. ثم يذهب ليجد هذا الوغد وان لم يقتله فهو لن يسمح أن تقوم له قائمة ...سيكسر عظامه ويخزق عينيه.
لم يطل انتظارهما وسرعان ما كان الطبيب يشرح له كيف أن ارتفاع ضغط الدم تسبب بفقدان وعيها ونزيف بسيط لا يهدد حياة الطفل حالياً، ولكن حالتها ككل تستدعي البقاء في المشفى لعدة

أيام حتى انتظام ضغطها واستقرار حالتها النفسية المتدهورة.

-هل أستطيع رؤيتها؟

دمدم بخشونة ليشير له الطبيب أن يدخل قائلاً بهدوء:

-لبضع لحظات فقط، انها تحتاج للراحة والهدوء لنستطيع خفض ضغطها.

لم يتركه حتى ليكمل عبارته وكان يدخل الى الغرفة تلحق به توبا التي ركضت نحو ابنتها النائمة بسلام، ركان اقترب وأطل عليها بلهفة .. خوف لا محدود اعتصر قلبه وألم حشر أنفاسه وهو يرى علامات الارهاق بادية على وجهها الرقيق جفنيها المطبقين بتوتر وارتجاف شفتيها الذي يدل بوضوح انها لم تكن نائمة بعمق ابداً..

-سارة؟!

همست توبا بحنان وهي تلامس وجنتها بخفة ليقترب منها واصابعه تلامس خصلات شعرها الناعمة، لتتأوه بخفوت قبل أن يبدأ جفنيها بالانفراج..

-سارة!!

همس هو هذه المرة بخشونة لتجاوبه بأنين وهي تحرك رأسها بضيق وفمها يتحرك بكلمات صامتة ليقترب منها بحذر ويقول برقة:

-لا تخافي حبيبتي أنت ستكونين بخير.

-لاااا،،

همست تئن بوجع وعينيها تجحظان ناظرة نحوه.. ليتراجع من المفاجأة بينما تهتف دون أن تخرج من دائرة النعاس:

-ركاااان.. لماذا؟؟ ركاان .؟!!

اتسعت عيناه وعاود اقترابه منها بينما توبا تمسك بذراعيه وتحاول تهدئتها بكلمات رقيقة ناعمة ولكن سارة كانت تستعيد وعيها ببطء وعينيها عليه.. تجمعت الدموع وأثقلت رموشها، والصحوة تظهر في عينيها أكثر وأكثر..

-ركان!!

همست ليقترب بابتسامة سرعان ما بهتت وهي تقول له بصوت مرتجف:

-طلقنـــــي..

تراجع بعينين مصدومتين بينما تضيق عينيها وتصرخ مخنوقة:

-لقد صدقتك للحظة .. كل ما قلته عما حدث مع سييرا، ولكنك كاذب.. أنت كاااذب.
-مالذي تقولينه؟
تساءل بشحوب لتحاول سارة الاعتدال وهي تهتف بمرارة:
-سييرا حامل منك أيها الوغد..
جحظت عيناه وتسمر مكانه بينما تمد يدها وتلتقط ما تطاله لتقذفه به صارخة بألم:
-وغد.. حقير .. خائن.. أنا أكرهك .. أكرهك.
أصابته احدى الاشياء مباشرة على ذراعه وجعلته يتأوه خارجاً من ذهوله ويندفع نحوها ممسكاً ذراعيها، بإحكام لتصيح بشراسة متجاهلة كلمات توبا التي حاولت تهدئتها بلا فائدة وركان يحاول التقاط نظرتها المجنونة وهو يقول بشدة:
-توقفي أيتها المجنونة، ما هذا الهراء الذي تقوليه؟
هذرت بعصبية دون ان يفهم حقاً ما تقول، ليفلت ذراعيها ويسرع بضمها الى صدره بقوة، متجاهلاً قبضتيها اللتين هوتا عليه بلا توقف،

تضرب كتفيه وظهره وهي تحاول الافلات منه بشراسة..

-لم يحدث يا سارة، أقسم بالله أنه لم يحدث.. مهما كان ما رأيتِ مهما كان، لم أمسها، أتفهمين!!

منذ التقيتك أقسم بالله يا صغيرتي منذ أحببتك لم تعد هناك سواك، أنت حبيبتي، زوجتي، أنت امرأتي منذ افتتنت بكِ، منذ احتكمتِ قلبي.. وأعطيتك روحي الى الأبد.

انهمرت دموعها بقوة وذراعيها تحيطان به تتشبثان بقميصه وأظافرها تنغرس في لحم ظهره، بينما يعض شفتيه بقوة وهو يشدد من ضغط ذراعيه حولها هامساً بمرارة:

-أرجوك سارة، صدقيني ، بحق الله بحق كل الحب.. بحق كل ما هو بيننا فقد سئمت الخصام والشكوك.

لم تقدر أن تتكلم دموعها تكلمت عنها، أرادت تصديقه.. بكل جوارحها أرادت، خوفها ينتشر عبر مساماتها وألمها فاق حد الوصف، وهي الأخرى تعبت من الكذب من الركض خلف ما

حدث وقتها تلك الصورة التي لم تفارق خيالها.. سييرا بين ذراعيه.. تأخذ ما هو حق لها وحدها..
تخلت عن تشبثها به وحاولت دفعه وهي تهمس بألم:
-لا استطيع، أنا .. أنا أراكما معاً.. كلما أغمضت عيني.. أشعر.. أشعر بأنني أموت.
-لا يستحق الأمر مجرد تفكيرك به، لم يحدث شيء أنا حتى لا أتذكر يا سارة، كل ما أراه هو أنتِ.. زوجتي وحبيبتي ونور قلبي وحياتي.
ابتعدت عنه ودفنت وجهها بين كفيها تجهش بالبكاء تراجع بعينين متسعتين وهو يرى توبا تحيط بكتفيها وتشاركها دموعها وترشقه بنظرات غاضبة ولائمة .. فكر بجنون، بطريقة تنهي عذابها الى الأبد..
-سأحضرها اليكِ..
هتف بخشونة لتجف سارة ناظرة اليه فهتف برعونة:
-سأحضرها لتخبرك الحقيقة مهما كان الثمن.
تنفست بسرعة ودموعها تتوقف عن الجريان وركان يهتف بعنف:

-لقد صدقتها عني في كل مرة، صدقتِ كل أكاذيبها ولكن هذه المرة ستقول الحقيقة وهذه هي المرة الأخيرة التي سأسمح لها بالتدخل بيننا ..

ثم مال نحوها وهمس بمرارة:

-والمرة الأخيرة التي سأسمح لكِ فيها أن تصدقي أحداً سواي.

توسعت عينيها وراقبته وهو ينصرف مغلقاً الباب خلفه بقوة جعلتها تنتفض بينما تواجه نظرات امها القلقة واحساس عارم بداخلها يهتف بها ان تلحق به.. ان تناديه.. أنها تصدقه ولكن..!!

انهمرت دمعتها بمرارة..

تلك الغصة والذكرى المشوهة في عقلها .. كخنجر صدئ لا تزال تؤرقها ، وتحرق قلبها بنار حامية..

***

"مالذي فعلتيه؟؟"

تردد صدى الصرخة الملتاعة في أروقة المستشفى وتعالت الشهقات الباكية بينما تصر المرأة الكبيرة بالعمر على مواجهة تلك الشابة التي وقفت بلا حراك أمامها تناظرها بصمت وقد

جحظت عينيها وانعقد لسانها والأولى تصرخ بمرارة:
-أتريدين أن تقتليه؟؟ ألا يكفي ما فعلته به؟؟ ألا يكفي أنه بين الحياة والموت وفي كل مرة أنت السبب؟
تدخل سيف الشيب يحيط بوالدته ويسحبها بعيداً عن صوان التي وقفت كصنم لا يرد بينما نرجس تقول بزعيق:
-أخرجها من هنا، هي السبب .. هي سحرته، وأبعدته عنا، هي تؤذيه لم لا ترون هذا جميعكم، انها عجوز شمطاء قد سحرت ابني.
-اماه توقفي نحن في مستشفى.
هتف سيف بعصبية مخيفة جعلت نرجس تنظر له بجنون:
-اننا هنا بسببها، أخوك يموت يا سيف، يموت وأنت تفكر أننا في مستشفى؟؟!!
خذها من امامي.. خذها قبل أن أمزقها بيدي..
ثم أرسلت نظرتها عبر الرواق الى صوان التي فعلاً لم تبدو لأقرب من اسمها كما هي الأن:

-اقسم لو أصاب ولدي مكروه أنني سأخرجه من عينيك أيتها الساحرة.. أنت يا .....
جذب سيف أمه بقسوة من ذراعها وأدخلها الى غرفة انتظار قريبة وهتف بها بعنف:
-توقفي عن هذا الجنون، صوان أبداً لن تؤذي جساس، وأنا لن اسمح لكِ أن تخطئي بحقها، وإن كان هناك من أخطأ فهو جساس ولا احد سواه.. وأنت الأن ترتكبين نفس الخطأ.
اتسعت عينيها بذهول ثم فتحت ذراعيها وهتفت مستنكرة:
-بالطبع وماذا ستقول غير هذا؟؟ فأنت واخوك ربيبا تلك الشمطاء أمها..؟؟ ربما تكونا وقعتما تحت سحرها هي كذلك؟؟
جحظت عينا سيف ونرجس تولول بلا توقف:
-ابناي أنا.. فلذتا كبدي يقفان ضدي.. وحين أدافع عنهما يتهمانني بأني مخطئة؟؟
وجلست على كرسي قريب وهي تضرب ركبتيها بكفيها وتصيح بجنون:

-أنا المخطئة؟؟! فأنا سرقتكما في منتصف الليل من منزلي وعبرت بكما البحر لأعطيكما لامرأة غريبة لتربيكما ..

أنا المخطئة وابتعدت عنكم ضد رغبتي وبفعل نفوذ والدكما ..

أنا المخطئة لأني ارتضيت بقائي معلقة بذمة ابيكما فلا زواج يجمعنا ولا طلاق ينهي عذابي فقط كي لا أخسر زيارتكما السنوية اليتيمة لي..

أنا مخطئة ولم أذهب لأخذ حقي بالمحاكم حتى لا أفضح والدكما العظيم ويظل في عينيكما سلطان الشيب المهيب..

تراجع سيف بصدمة ووالدته تواصل ندب سنوات عمرها الضائعة كي تحظى بالفتات من حبهما واهتمامهما.. دموعها تنهمر بلا توقف جعلته يركع على ركبتيه أمامها ويهتف بإخلاص:

-اماه بالله عليكِ ذاك ماضٍ وانتهى ونحن بين يديك الآن، لا معنى لذكر المًاضي وما حدث قبل سنوات..

-الماضي هو لبنة المستقبل.. ما حدث وقتها يحدث الان من جديد، وكما سرقتكما مني فاطمة ها هي حَجَرُهَا الصوان تسرق أخيك، وتؤلبك أنت ضدي.

هز رأسه بحدة:

-لم يحدث أبداً ما تقولين، عمتي فاطمة كانت دوماً تحببنا بكِ، تذكرك على الدوام بالحسنى، تحثنا على وصالك وترفض الخصام بينك وبين أبي ولكن لم يكن بيدها شيء.

شعت عينا نرجس بالحقد وهتفت:

-ربما علي الذهاب وتقبيل كفيها؟!!

-أمي...

-سيـف..

هدر الصوت لتنتفض نرجس وتجحظ عينيها وهي تنظر نحو الباب، حيث اشتعلت عينا سلطان الشيب بغضب عنيف بينما شفتاه تهمسان بقسوة تعرفها جيداً:

-اتركنا..

تشبثت غريزياً بذراع سيف وقد جف حلقها وهي تقول بارتجاف:

-لا تذهب.
نقل سيف بصره بينهما للحظة ليهتف والده بغضب:
-اتركنا في الحال.
نهض مستجيباً لأمر والده متخلياً ببطء عن يد أمه التي انكمشت قليلاً ووجهها يتصلب ومشاعرها تتبلد بينما عينيها تكتسيان ببرود، أقرب الى الكراهية ..
-أمي..
همس سيف بتردد لتنتزع يدها من بين كفيه وهي تقول بقسوة:
-اذهب، اتركني كما قال.
شعر سيف بغصة تحكمه.. شعر بالأسف نحوها، هو أكثر من يعرف أبيه بهذه النظرة ، فهو نفسه كرجل بالغ وذراع والده اليمنى،، كانت تلك النظرة تجمده مكانه وتتركه يراجع ما فعله لأيام قبل..
التفت نحو أبيه وحاول:
-أبي.. دعني ابقى.. سأبقى مع أمي.

همس بتقرير ليحدقه والده بنظرة قاسية ثم ينظر لنرجس ويقول بنبرة توازي النظرة قسوة:
-هل تريدينه حقاً أن يبقى؟
ابتلعت غصة مريرة وهي تدرك مالذي يعنيه.. تعرف ما ينوي..
-اتركنا يا سيف.
همست بتوتر لينقل بصره بينها وبين أبيه.. ثم زفر بتوتر وغادر تاركاً القطبين الأكبرين في مواجهة تأجلت لسنوات..
اقترب سلطان الشيب بضغطة زر على ذراع كرسيه المتحرك حتى أصبح مواجهاً لها ينظر لوجهها بتركيز شديد، كانت تهرب ، تهرب الى أي مكان سوى النظر لوجهه الذي عشقته لسنين...
والذي كرهته لسنوات أكثر..
وترنح قلبها بين الحب والكره، تارة يفز بذكرى .. وبالأخرى ينتفض بألم لسواها..
-مالذي فعلتيه للجساس؟
ابتلعت ريقها بصعوبة وهربت بعينيها من عينيه وهي تهمس باضطراب:

-أنا أحميه من الشمطاء التي زوجتها له.
مال عليها مستنداً بذراعيه على ذراعي الكرسي وهو يقول بحدة:
-مثلما حاولتِ انت حمايتي فيما مضى؟
اتسعت عينيها وقد شحب اللون من وجهها، بينما يواصل سلطان بقسوة:
-لا تظني أنني لم أعرف نرجس، طيلة تلك السنوات أخفيت الأمر جيداً حماية لولدينا ولكن..
وقرب وجهه بنظرته المتوحشة لوجهها الممتقع:
-هذه المرة لن أخفيه ولن أسكت، سوف أقتلك بيدي.. أنت ومن ساعدك لتوقعي بولدي..
-انه ابني أنا الأخرى، أنا لا يمكن أن أوذيه.
هتفت ملتاعة ليمسك فكها بقسوة بين أصابعه جعل عينيها تجحظ وتلتمع بألم بينما يصرخ خو بغضب:
-ماذا فعلتِ لجساس نرجس؟؟ أي مصيبة سببتها له؟؟
حاولت التخلص من قبضته ولكنه كان قاسياً لدرجة أن أصابعه حفرت أثرها بقوة على بشرتها

الصافية، قبل أن يتركها ويدفعها عنه تكاد تقع عن الكرسي وهو يصرخ:

-هل عدتِ لألاعيبك القديمة؟؟ هل وضعته في ركوة القهوة؟ أم في أحد أطباق الحلوى الغريبة التي تشتهرين بها؟

-لم أفعل له شيء.. ثم مالذي تعنيه بهذا كله؟؟

صرخت بعصبية ليقبض على ذراعها وهي تحاول الخروج ليمنعها:

-لا تلعبي ألعابك العقيمة هذه معي، أعرف تماماً ما فعلتيه، لقد حاولتِ هذا مرة معي أنا ولكن وبسبب فاطمة لم تنجحي، ولكن هذه المرة .. يبدو أن خطتك تمشي بخطى سريعة ولم تقدر صوان على كشفك.

اتسعت عينيها والخوف يتجلى في عمقهما والماضي وأسراره تنكشف الواحد تلو الأخر:

-فاطمة عرفت ما كنت تضعينه لي في القهوة نرجس، منذ اليوم الأول.. وقامت بتغيير البن.. ورمت بذاك الذي أتيتي به، واستغلت غيابك حين ولد جساس وساعدتني للتخلص من أثر السحر الذي وضعته لي، حتى تخلصت منه تماماً.

-مستحيل.. أنا لم .. أنا لم ..
-لا تكذبي.
صرخ بحسم لتصمت وهي تقبض بيديها بقوة على جانبيها بينما سلطان يأخذ نفساً عميقاً الواحد تلو الأخر:
-أخبريني الحقيقة.. كل شيء والا أقسم أنني سأدع الشرطة تخرجها من حلقك.
ارتجف نبضها وتطلعت اليه بجزع .. ثم قليلاً قليلاً تغيرت نظرتها واكتستها مشاعر عديدة.. حيرة ، ألم، ثم غضب حارق جعله يفلتها بارتباك لتهتف:
-أتريد الحقيقة حقاً؟
تمالك سلطان أعصابه وتراجع ليستند بظهره الى مقعده لتهتف نرجس بمرارة:
-الحقيقة التي أخفيتها لسنوات زواجي بك، قربك مني لم يساعد قط في أن تكشفها وتظهر لك واضحة جلية كما كان يجب عليك.
-تكلمي نرجس.. ادخلي في صلب الموضوع وتوقفي عن اللف والدوران.

هتف بحشرجة لتضحك بعصبية وهي تبتعد حتى طرف الحجرة:

-الموضوع يتعلق بك سلطان، كل شيء يتعلق بك.. منذ لقاءنا ولهفتك للزواج بي كانت غير عادية.. كنت اطير من الفرح أن رجلاً مثلك.. بقوتك وثراءك يركض خلفي أنا!! الفتاة العادية جداً..

ولم أفكر مرة ناهيك عن مرتين للقبول، كنت أعيش في غيمة سعادة وردية كنت أطير من الفرح ووقعت حقاً في حبك.. أغرمت بك بل أنني عشقتك.

لهثت بسرعة ووجهها يكسيه الألم ولم يقاطعها السلطان..

-ثم مع الوقت.. رويداً رويداً استطعت رؤية الحقيقة.. الصورة الحقيقية ظهرت بكل بشاعتها ما ان ازحت عنها الستار، وتجلت لي بكل وضوح.

-عن أي هراء تتحدثين؟

هتف بشحوب لترد بعصبية ألجمته:

-عنك وعن سيدة الحسن والدلال.. عنك وعن فاطمة.. زوجة أخيك يا سلطان؟!
توسعت عيناه بذهول قبل أن يتمالك صدمته ويتوحش وجهه وهو يرفع اصبعه محذراً:
-ان تجرأتِ بكلمة واحدة عليها..
ضحكت بمرارة وقاطعته ملوحة بيدها:
-حاشني الله.. من أكون ان تجرأت على فاطمة.. القديسة الناعمة ..
واكتسى وجهها بالغضب:
-ربما لهذا أكرهها بجنون.. أحقد عليها .. ليس لأنها حظيت بعقلك وقلبك سلطان، بل لأنها حافظت على نفسها ولم تنجر مطلقاً لنزوتك، كانت تعاملك وكأنك أحد أخوتها وتتجاهل نظراتك الراغبة كلما لاحقتها.
-انا أبداً لم اتجرأ عليها..
قال بجمود لتضحك:
-بالطبع لم تفعل، فأنت سلطان الشيب.. ابن أبيك الأكبر وذراعه اليمنى، أنت أحببتها لدرجة أنك وقفت تشاهدها تزف لأخيك دون أن يطرف لك جفن، ثم سلمتها ولديك لتعتني بهم ورحلت وانت

تهدئ نفسك لكون ولديك مع المرأة التي أردت أن تكون أمهما حقاً.

-هي لم تقف يوماً بيننا.. هي حتى لم تعرف.

تحشرج صوته لتضحك نرجس بخشونة:

-المرأة تعرف سلطان، وان لم تنسق وراء رغباتك الظاهرة من عينيك فهي لم تكن جاهلة، ولكنها أكثر حكمة منا جميعاً، هي اختارت أن تبقى في الظل، تربي أبناءك وتعتني بهم دون أن تتدخل حقاً بيننا ولكنها كانت تعرف منذ البداية أنها السبب..

ثم اقتربت منه وهمست بمرارة:

-كنت تحبها، بل تعشقها.. كنت تنادي اسمها في أشد لحظات تعبك وألمك، حين تنام بين ذراعي كنت تفكر بها هي، حين تكون معي هي من تراه في عيني، لهذا أنت رحلت بعيداً وارتضيت الابتعاد عن عائلتك لأجلها .. وأنا عرفت.. وتيقنت.. منذ اللحظة الاولى وأنا أرى أن هناك شخص أخر بيننا.. امرأة أخرى يظهر طيفها واضحاً كلما كنا معاً، كنت أجن من التفكير.. من

؟؟! من تكون تلك التي تشاركني كل لحظة أقضيها بقربك..
صمت عم الفراغ بينهما قبل أن تقطعه كلماتها المسمومة:
-ثم رأيتك تنظر لها، وعرفت..
رفع عينيه لها بذعر.. ليس خوفاً منها.. لم يخاف منها أبداً، ولكنه خوف من أن غيرها يمكن أن يكون قد رأى ما رأته.. خوف من سر أخفاه لأعوام منذ مراهقته العنيدة والتي أوقعته سراً بغرام ابنة الجيران والتي كانت واقعة بجنون في حب أخيه الأصغر، ولذا رحل.. والتقى نرجس وتزوجها بيوم خطبتهما.. كي ينسى .. كي يخبر الكون بأكمله أنه لا يحبها .. لا يعشق امرأة أخيه..
ولكنه لم يقدر على اخفاء السر عن زوجته..
لقد شك بالأمر وخصوصاً وهو يرى كيف تكره فاطمة وابنتها .. وكيف بعد كل تلك السنوات كانت ترفض مجرد ذكر للمرأة أو صوان، كان انكار الامر قد تشرب بين مسامات جلده حتى بات ينساه معظم الوقت .. الحب ليس بيده..

وليشهد الله أنه منذ عرف أن حسن وفاطمة يحبان بعضهما ابتعد، ومنذ أن أصبحت فاطمة زوجة أخيه هو قام بخنق نبضه بحبها، ودفنه في عمق سحيق لم يكن يظهر سوى بأشد لحظات ضعفه كما قالت نرجس..

ولسوء حظه .. كان عليه شهود!!

-لم يكن هناك شيء بيني وبينها.

قال بخفوت لتضحك مقهقهه ثم تهتف بسخرية:

-كانت هي بينك وبين نفسك سلطان، كانت هي بينك وبين روحك.. بيننا وبين أنفاسك، دقات قلبك احتوتها.. عيناك سلطان، عيناك تشيان بحبك لها..

-لم يكن لأحد أن يعرف لم أكن لأسمح لأحد ..

حاول بنبرة متعثرة ولكنها همست بألم:

-لم يعرف أحد.. لم يكن لأحد أن يعرف سوى أقرب قريب لك.. ورغم كل محاولاتك لإبعادي.. اقتربتُ كفاية لأراها في عينيك، لأعرف الحقيقة سلطان.

نظر اليها مطولاً ثم همس:

-حاولت كثيراً الاقتراب منكِ يا نرجس، ولكنك لم تسمحي لي، أردت أن أسعدك، أردت أن تكوني أنت المرأة الوحيدة لي، ولكن..

-ولكنها كانت دوماً بيننا..

همست بحقد ليهتف بحنق:

-أنت ابتعدتِ .. أنت غلفتي نفسك برداءٍ وهربتِ بعيداً عني.

-لأنني عرفت وأيقنت أن لا شيء سيحدث سيغير ما تشعره نحوها، ولا يمكن أن أنجح وأخلصك من شبح فاطمة الذي سيطر عليك.

-ألهذا كنت ترفضين زواج جساس بصوان؟!

-هي أخذتك مني.. كيف لي أن أسمح لابنتها أن تأخذ جساس مني؟؟

صرخت بجنون ثم رفعت ذراعها مهددة:

-لن أسمح لها بأخذه والاستيلاء عليه كما فعلت أمها معك.

-جساس يكاد يموت ..

قال بشحوب .. لتنتفض وتتسع عينيها بذعر بينما يواصل أبيه بألم:

-جساس وقع ضحية ما كنت تنسجينه حولي وما استطاعت فاطمة انقاذي منه ولكن.. جساس لم ينجو.

-جساس سوف ينجو.

قالت بتوتر وهي تتحرك حوله تفرك يديها بقوة ليبتسم بمرارة:

-جساس يقاوم الاستسلام لما وضعتيه في طعامه وشرابه يقاوم لأنه يعشقها.. ومقاومته هذه تقتله.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهمست:

-أنا لم أفعل له شيئاً، صوان .. تلك الشمطاء فعلت كل شيء، لقد رأيت ما لديها.. لديها خصله من شعره.. أحد أسنانه.. هي من تسحره .. هي من أطارت بعقله، وجعلته كخاتم في أصبعها تلك العجوز الشمطاء.

-أين هو حبك لولديكِ كما تقولين نرجس، أين هي عاطفتك هل سلبك الجنون السيطرة كل ذرة من مشاعرك كأم؟! هل ستراقبينه يموت دون أن تفعلي شيئاً؟

هتف بمرارة لتصرخ تلطم وجهها بكفيها:

-أسكت.. لا تقل هذا ابني سيعيش.. جساس سوف يعيش وسوف أزوجه وأزفه بيدي لأحلى عروس.
-جساس سوف يموت وأنت ستكونين السبب.
هتف بعاصفة من الغضب لتنهار صارخة بوجع بينما سيف وشيماء يقتحمان الغرفة ويركض الاول ليرفع أمه عن الأرض وتندفع الأخرى نحو سلطان الشيب باكي تهتف بانهيار:
-أنا سأخبركم بكل شيء.. سأحضر لكم الوصفة ومن أين أخذناها..
رفع السلطان عينيه الى الفتاة وقال باشمئزاز:
-لتدعي الله فقط أن يجيرنا في الوقت المناسب.. قبل أن يضيع كل شيء منا.
***
-سأرسل لك العنوان وأنت في الطريق تحرك باتجاه الميدان.
اغلق ركان هاتفه وهو يحاول السيطرة على شعلة الغضب الذي يتأجج من الداخل ويقوده نحو من يعكر صفو حياته، وكانت هي من تفعل..
اتصل بسليم الذي وعده أن يبقيها تحت المراقبة ويبدو أن مراقبته لها نائمة هذه الفترة لتقدر على

الوصول الى سارة وبث تلك الأكاذيب الى رأسها، ولها الجرأة أن تتهمه أنه والد ابنها أو كائن ما يكون ذاك الذي تحمله..

سيارته انطلقت بسرعة عالية، تسابق أنفاسه التي التهبت في اعماق صدره، ليسمع بعد لحظات أزيز هاتفه يعلن وصول رسالة قصيرة فتحها على عجل وحفظ العنوان عن ظهر قلب، ثم انطلق بسرعة جديدة اليه.

كان مجمع شقق سكنية تقابل ميدان نافورة تريفي، ولم يستغرقه أي وقت للصعود الى الشقة التي في العنوان وبدون تردد كان يطرق الباب بقوة عدة مرات، حتى فتح ليدفعه بقدمه بشراسة ويندفع الى الداخل..

-أين سيبرا؟؟

رأى الفتاة الطويلة بالشعر الأشقر، والتي نظرت له بذعر وبدأت بالصراخ هاتفة أنها غير موجودة.. ولكنه لم يتوقف كان يبحث في الشقة الضيقة بشكل دقيق دون أن يجد لها أثر، وقف أمام الفتاة وهتف بغضب:

-أين هي؟ الى أين ذهبت؟

شعت عينا الشقراء بحنق وهتفت:
-لا أعرف عنها شيء لقد عادت قبل ساعات وهي ترتجف كالمجنونة وغادرت بعد أن لملمت بضع اغراض لها وغادرت برفقة ذلك الرجل.
قبض كفيه بقوة وهتف من بين أسنانه المطبقة:
-أي رجل؟ هل تعرفينه؟؟
هزت رأسها بنفي ثم قالت بتوتر:
-رجل أسمر طويل وذو لكنة.
رفع ركان حاجبه للحظة تفكير قبل أن يخرج هاتفه ويبحث عن ضالته في الشبكة العنكبوتية حتى وجده ووجه الشاشة المسطحة نحوها وهو يسألها بعصبية:
-هو؟؟
اومئت الفتاة بنعم ولم يتركها لتتكلم حتى ،،
خرج لا يولي وهو يدمدم بغضب هادر:
-سأقتله.. أقسم أن أقتل ذلك الوغد..
شاهر هو من حرض سيرا، كان عليه أن يدرك، وهو من أخذ زوجته الى المشفى؟؟ ولكن لِمَ لَمْ تقل له سارة عن وجود شاهر مع تلك الآفة؟؟

ضغط على دواسة الوقود بحنق أكبر وانطلق بالسيارة نحو المجموعة، لم يكن يعرف أن شاهر حالياً ولكنه يدرك تماماً من سيخبره..

...

كانت تجلس خلف مكتبها تطالع بعض التقارير حين فتح الباب بفوضى واتسعت عينيها لرؤية ركان بغضبه العاصف يندفع عبره..

-مالأمر ماذا بك؟

-أين هو قريبك الحقير شاهر؟

اتسعت عينيها بذعر ونهضت مرتبكة:

-لا أعرف عما تتحدث؟ لا أعرف عنه...

-توقفي عن الكذب.. أخبريني أين يكون والا أرميك في الشارع نيران وأقسم على هذا.

شعرت بالغضب يتصاعد بداخلها ودون تردد رفعت يدها اليسرى تشير لخاتم خطبتها الماسي وهي تصرخ بحنق:

-هل نسيت من أكون ركان؟ أنا خطيبة سليم.. المالك لكل هذا..

اقترب منها ركان وقد اشتعلت عيناه غضباً:

-كل هذا الهراء لا يهمني، أخبريني أين هو شاهر والا حطمت هذا المكتب على رأسك نيران ولن يهمني وقتها سليم ولا غيره.

تراجعت بذعر حقيقي وهي ترى الوحشية تنضخ من عينيه الغاضبتين وارتجف قلبها بخوف، ثم عاد يفعل بارتياح وهي تسمع صوت الباب يفتح ثم ترى طيف سليم يقف عليه..

-سلييييم ..

هتفت وهي تركض لتحتمي خلف كتفه العريض هامسة بنبرة امتزج خوفها بالخبث:

-حمداً لله على مجيئك، ركان فقد صوابه.

التقت عيني ركان وسليم بنظرة متفاهمة ليستدير الأخير اليها ويقبض على معصمها بشدة جعلتها تجفل بينما يسألها:

-أين هو شاهر؟

اتسعت عينيها وهي تنقل بصرها بينهما.. لم تكن تعرف أن ركان قد أخبر سليم بكل ما حدث، وهو بطريقه اليها ولم تكن تدرك غضب سليم حتى رأت الجليد المشتعل في عينيه:

-تكلمي نيران.. الأن قبل فوات الأوان.

ابتلعت ريقها بصعوبة ثم همست باسم فندق شهير يطل على الكولوسيوم، لينطلق ركان بدون كلمة فيرفع حاجبه ويعود لنيران..

-هذا الخاتم..

ورفع يدها المحملة بخاتمه ونظر له بكثب قبل أن يهمس بكل برود العالم:

-انه ليس فخراً لكِ لتشوحي به أمام الجميع نيران،..

ابتلعت ريقها وهمست بتوتر:

-ما هو اذاً سليم؟

قبضت أصابعه على معصمها بوحشية جعلتها تصرخ بألم:

-انه مجرد قيد نيران، قيد قُد من ذهب وماس ليظهر للجميع أنكِ ملكي أنا وليس العكس، أتفهمين؟!

حاشت دموع الألم والذل من عينيها بصعوبة ثم اومئت له ليفلتها بينما يقول بحرص وهو ينفض تراباً وهمياً من على كمي قميصه:

-سوف نغادر الى السراي بعد أيام أريد أن ننتهي من كل الاجراءات، قبل رحيلنا، وان كان قريبك

شاهر لديه بعض من تعقل، سوف يلحق بنا وينسى كل هذا الهراء الذي يكاد يودي به.

-أنت لن تتدخل؟!

تساءلت بقلق ليبتسم لاوياً فمه:

-ان تدخلت.. فلن يكون الأمر جيداً ولذا من الأفضل أن أراقب من بعيد.

ورمقها بنظرة باردة سمرتها مكانها وهو يقول:

-أتوقع أن ترافقيني نيران، حاولي أن ترتبي أمورك لا أريد أن أتسبب بأي تأخير.. وتأكدي تماماً أن يكون شاهر برفقتك.. وإلا فلا تتعبي نفسك بالمجيء.

شحب وجهها وهي تعي تماماً ما يقول وما يعنيه..

راقبته يخرج من الغرفة وهي تجلس على طرف كرسيها وتشرد في كل ما يمكن أن يحصل لو جاء شاهر، أو لم يأتي..!!

***

الرحلة من الأردن عودة الى عدن كانت مرهقة، حاول أن ينام لبضع ساعات ولكن الأفكار لم تكن لتتركه ينعم بتلك الراحة المحرمة، حتى حبوب

المهدئ التي ابتلعها تركته دائخاً مترنحاً ولم تكفي لأن يغلق عينيه وينسى كل ما هو فيه الأن.
كان خالد بانتظاره وحالما رآه سأله بغلظة:
-أخبرني ماذا فعلت؟
كان قد أبلغه بما استنتجه قبل بدء الرحلة وطلب منه البدء بالتقصي والبحث هناك ولكن خالد قابله بوجه مكفهر وهو يدمدم بحنق:
-ليس لها وجود في السجن، عليك أن تعرف أن لدينا سجن واحد فقط في عدن وهي غير موجودة فيه.
توقف أوس ونظر له بنظرة مخيفة:
-هل أتعبت نفسك بالبحث في مراكز الشرطة؟ ادارات البحث؟ اي شيء؟؟ لا يوجد في هذه البلاد أكثر من مواقع الحجز.
-لقد بحثت في كل مكان يا أوس، أقسام الشرطة في كل مديرية والبحث وحتى ادارة الأمن، استخدمت نفوذ أبي وجررت كبار الضباط من منازلهم ولكن لا شيء.
هتف خالد بيأس لتتسع عينا أوس وهو يتخيل للحظة أن كل الطرق أمامه مسدودة، حينها سمع

رنين هاتف ورأى خالد يلتقط جهازه ويتكلم فيه بضع لحظات قبل أن تتألق عيناه ويهتف ببشر:
-ربما يكون لدينا خيط.
اتسعت عيناه بلهفة وخالد يقوده الى سيارته المتوقفة قريباً:
-حين لم أجد شيئاً عنها في عدن سألت احد الضباط ان كان من الممكن أن تكون في اي مكان أخر فأخبرني أنها لو حاولت الخروج من عدن فستتجه لإحدى المحافظات القريبة.. لحج أو أبين.. ولذا بدأنا البحث هناك والأن اتصل بي مخبري ويقول ان احد الضباط تعرف عليها في مديرية أمن لحج.
خفق قلبه بجنون وراقب خالد ينطلق بالسيارة بنفاذ صبر وهو يسأله:
-هل تبعد الكثير؟
-ساعة على الأكثر.
زفر بحنق وعاد يستند على مقعده ثم تساءل:
-ألا يعرف كيف هي؟ هل هي بخير؟

ـانه يشك بكونها هي؟ المواصفات تنطبق عليها ولكن من معهم ترفض الحديث وليس لديها أية أوراق ثبوتية.

أغلق عينيه بألم.. لم تفعل به هذا؟ لم تعذبه وتعذب نفسها بهذه الطريقة الغريبة وكأنها تكرهها؟!!

كل لحظات حياتهما الناعمة تمر أمام عينيه وتوجع قلبه، ولحظاتهما السيئة وكل تلك الشكوك تمر من أمامه وتثير في نفسه الغضب.. وكأنما عاش معها دهراً في تعاسة .. ولحظة فقط مرت بهما هادئين سعيدين، متخمين بالحب والغرام.

لم يدرك أنه غفا، ليس حتى أيقظه خالد بهزة على كتفه أشعلت حواسه وجعلته يهب من مكانه ويترجل من السيارة وهو ينظر الى المبنى القديم نوعاً بألوانه الكئيبة المميزة لكل المباني الحكومية الرسمية.

ـهنا ادارة الأمن، سنلتقي بالضابط المسؤول..

قال خالد وهو يتقدمه بخطوات سريعة نحو المدخل وأوس الصامت بالكاد يستطيع السيطرة على أعصابه والتزم الصمت.

كان رأسه يؤلمه والرؤية .. تباً فالرؤية تكاد تودي به في مصيبة.
دخلا الى مكتب مدير الادارة والذي استقبلهما بتردد وحذر وبعد سماع كل مالدى خالد ليقوله استدعى أحد الضباط وقال بحزم:
-الضابط حسين يمكنه ان يفدكما أكثر مني بهذه المسألة فهو المسؤول الأول عن ضبط واحضار المشتبه بهم.
ضغط أوس فكيه ببعضهما بقوة وأصابعه تكاد تحطم بعضها وهو يغرق في الانتظار أكثر وأكثر، وبعد انتظار أكثر من ربع ساعة جاء الضابط المطلوب وجلس أمام خالد وهو ينظر له بتشكك بينما خالد يريه صورة ترنيم ويشرح له ظروف اختفاءها ولكن الضابط كان حذراً لأبعد حد.. وبالكاد كان يجيب على الاسئلة لدرجة أن أوس وبعد عشر دقائق كاملة نهض بعصبية:
-اسمعني جيداً يا رجل.
التفت له الجميع ورأى عيني الضابط تضيقان ليقترب منه ويسأله من أعمق أعماق قلبه:

-ترنيم.. المرأة في الصورة.. زوجتي.. انها تائهة، تشعر بالخوف والارتباك.. هي ليست مريضة ولا مجنونة.. انها طيبة وحنونة.. ولكن كل الظروف..

وتحشرج صوته وهو يهمس:

-كل الظروف وقفت ضدها.. كل شيء في الكون برأيها يسير عكس الاتجاه، كل ما تفعله ينقلب عليها أو يضر بأي شخص تقترب منه أو يحبها بطريقة ما، انها ليست مجرمة على عكس ما تظن، ربما قامت ببعض الخيارات السيئة.. ولكن من منا لم يفعل.

ثم صمت .. بل الأصح أن صوته انحبس في حلقه فلم يعد يقدر على التفوه بكلمة..

غصة عميقة ألمته وجعلته يختتم كلماته المريرة بشهقة حاول بها اخفاء ألمه والوجع الذي يقطر من كل حرف من حروفه، وفعل.

أشاح بوجهه قبل أن يرى أحد تلك الدمعة التي انسابت تشي بضعفه حينها.. تشي بمدى ألمه والحمل الثقيل الذي يرزح على كتفيه ويكاد يقسم ظهره.

-انها في المستشفى.
اتسعت عينا خالد بينما ارتفعت عينا أوس بصدمة، محتار بين التصديق وعدمه، ومحتار أكثر بين الفرح والغضب والجزع ..
-ماذا أصابها؟
همس بشحوب ليهز الضابط رأسه:
-فقدت وعيها فجأة هذا الصباح، هي لم تأكل منذ وصلت الى هنا.. كانت تغادر عدن حين قبضنا عليها، لم يكن لديها أية أوراق ثبوتية ورفضت أن تتصل بأي من عائلتها.
تسارعت أنفاس أوس وهتف بفروغ صبر:
-أي مستشفى؟
ذكر الضابط اسم المستشفى فأسرع أوس نحو الباب لولا أن أوقفه صوت الضابط وهو يقول بحذر:
-أنت قلت أنك زوجها؟؟
نظر له أوس واومأ ليعقد الضابط حاجبيه:
-ولكن زوجها جاء بالفعل قبل ساعات برفقة أبيها وقد أخبرناهما بكل ما لدينا وذهبا اليها بالفعل.
-ماذا قلت؟!

هتف خالد بانزعاج ليرد الضابط:
-لقد جاءا برفقتهما كل الاوراق التي تثبت ما يقولانه.
-مستحيل.
هدر أوس بغضب ثم نظر لخالد وهتف بجنون:
-ان فعلها والدك.. ان تجرأ وسلم ترنيم لذلك الوغد سوف أقتله بيدي.
وقبل أن ينتهي من كلامه كان يخطو خارج المكتب بخطوات أقرب للركض وهو يهذر بعصبية، لا يقدر على السيطرة على أعصابه ليس وهو يعرف أن أشرف لن يترك ترنيم ان وجدها ليس سليمة معافاة على الاقل كان حقد الرجل الأخر كبير .. أكبر مما يظن.
ووالدها.. والدها معه؟؟ لهذا هو مختفٍ منذ البداية؟؟
هل كان يحسب تحركاته قبل أن يقوم بها ليبلغها لذلك الحقير؟؟
-تباً..
صرخ بجنون وهو يركل طرف باب السيارة قبل أن يفتحه ويأمر خالد:

-أعطني الارشادات سوف أقود أنا..
-اتركني لأقود يا أوس أنت لست بحال جيدة.
ولكن أوس تجاهله وبدأ الانطلاق بالسيارة حتى قبل أن يغلق خالد بابه ويمضي بالسيارة، وهنا قال له أوس بعصبية:
-أرشدني الطريق، وكن عيني ، فأنا لا أرى على بعد ثلاثة أمتار.
اتسعت عينا خالد:
-ماذا قلت؟؟
ازداد ضغط قدمه على دواسة الوقود وزادت سرعة السيارة وهو يهتف:
-أنا لا أرى على بعد ثلاثة أمتار، والان قل لي الى أين أذهب؟
-يا ربي رحماك..
هتف خالد بذعر وهو يحاول تذكر الطريق الى المستشفى الذي يسمع عنه فقط ولا يعرف طريقه بالخصوص.. بين عقله وتفكيره بمخاطر قيادة أوس المتهورة على وضعه الحالي وبين قلقه على شقيقته وما يمكن أن يجدا حال وصولهما الى هناك، وبين قلقه وغضبه وخيبة أمله بوالده!!

وهناك في المستشفى ..
كانت تستعيد وعيها أخيراً..
لم تكن سعيدة بوقوعها بعد كل ما تحملته، ولم تكن راضية عن نومها لتلك الفترة الطويلة كما أخبرتها الممرضة، لقد نامت لساعات طويلة وكأنها لم تنم لسنوات؟!!
تشعر أنها ضعيفة للغاية، متوترة.. عصبية.. حتى أطرافها ترتجف..
حلقها جاف والمحاليل تصب عبر وريدها..
حاولت النهوض من الغرفة التي وضعوها بها ولكنها لم تقدر، كان هناك قيد حديدي يثبتها الى السرير، لسعت الدموع عينيها وهي تعود الى الفراش وتمنع شهقات دموعها بالقوة.
لقد فعلت هذا بنفسها، ليس عليها أن تتذمر أو تنتحب، لا فائدة.. مطلقاً.
سمعت الطرقات على باب الغرفة وقبل أن تدعو كائناً من يكون بالدخل فتح الباب واتسعت عيناها بدهشة وهي ترى والدها.
-أبي؟
همست بشحوب ليغلق الباب خلفه ويتقدم نحوها:

-حان وقت مغادرتنا، أنت بخير.. كل ما تعانين منه هو سوء تغذية حاد وهزال عام.
تلفتت حولها وهمست مذعورة:
-كيف جئت؟؟ كيف عرفت مكاني؟
زفر والدها بتوتر، الشحوب كان يكسو وجهه والاضطراب يظهر في عينيه:
-لا وقت لهذا الأن، علينا اخراجك من هنا بأسرع وقت.
حاول لمسها فتراجعت صارخة:
-لا .. أنت لن تأخذني لأي مكان، أنا قاتلة.. أنت لن تستطيع انقاذي هذه المرة، أنا قتلت أشرف.. أشرف ولي عهدك.
نظر لها بتوتر فتألقت عينيها بالدموع:
-أنت جعلتني ما أنا عليه.. المرة الأولى كنت طائشة حمقاء ومتهورة، وهذه المرة أنا قاتلة بشعة بدم بارد، أتممت جريمتي وهربت لأخفي تورطي.
-أشرف لم يمت.
هدر والدها متحشرجاً لتتيبس وتتسع عينيها بذهول ووالدها يقول بمرارة:

-ليتكِ كنتِ أقوى قليلاً بعد.. ليت ضربتك كانت قاتلة يا صغيرتي.

جحظت عينيها وهي ترى وتدرك بؤس عينيه ولكنها شعرت أيضاً بخوفه،، باضطرابه الذي لم تفهمه منذ الدقيقة الاولى، ولذا تراجعت هامسة بشحوب:

-ماذا ستفعل؟

وقبل أن يقول شيئاً كان أشرف يقتحم الغرفة..

شهقت بذهول وعدم تصديق بينما تتألق عينا الرجل بوحشية وهو يقترب منها:

-أخيراً يا ترنيمتي الصغيرة، أخيراً وقعتي في قبضتي.

-ابتعد عني.

صرخت بانهيار تشعر بعجزها وهي تتراجع فوق فراشها بينما القيد يقيد من حركتها، لتتسع عيناه بابتسامة قذرة جعلتها تصرخ برفض وهو يمد ذراعه ليلامس كتفها وذراعها بجشع:

-أخبرتكِ أنكِ لي ترنيمة.. مهما اختبأتِ ومهما هربتِ سأجدك أينما تكونين، طيلة تلك السنوات صبرت بإرادتي ولكن الأن..

واقترب من وجهها بأنفاسه القذرة:
-لقد عيل الصبر من صبري يا ابنة عمي.
لم تتمالك نفسها وبصقت على وجهه ثم صرخت بجنون تريد أن يسمع الجميع .. تريد أي أحد ليخلصها من هذا القذر المجنون.. ولكنه كان أسرع .. قبض على شعرها بقسوة، جذبها نحوه ليخنق صرخاتها على صدره وهو يهمس في أذنها بقسوة:
-الجميع يعرف أنك مجنونة يا ابنة عمي، تقرير المشفى التي كنت تعالجين فيها .. كلها معي ..أنت مجرد مجنونة فرت من زوجها وقد جاء ليعمل بأصله ويعيدها لبيتها كي تتلقى العلاج الملائم.
تأوهت بمرارة ولكنها لم تستسلم، ليس وهي قادرة على المقاومة لأخر نفس، فالموت .. الموت وحده قادر على جعلها تقبل بما يقوله هذا السافل.. لذا استغلت قربها منها وفتحت فمها لتغرس أسنانها الكاملة في لحم صدره بكل قوة ووحشية حتى شعرت بأنها قضمت جزءاً منه بالفعل مع تراجعه وهو يصيح بألم والدموع تكاد

تطفر من عينيه لتتراجع أكثر وهي تصرخ بجنون:
-على جثتي أيها المختل، لو ظننت للحظة أنني قد أسكت .. سوف أفضحك في كل مكان، أنا امرأة متزوجة أيها المجنون.. وان حاولت وضع يدك علي مرة أخرى سوف أقتلك مجدداً، ولن يلومني أحد.. أنت لن تمسني الا على جثتي.
شحب صوتها وهي تصرخ ليقترب منها بشراسة ويهتف بقسوة:
-أو ربما على جثة زوجك الشهم..!!
اصفر وجه ترنيم.. تراجعت بذبول وكأنه ألقى عليها دلو ماء بارد أفتر عزيمتها النارية وجعلها ذابلة.. واهية.. وهو يكمل بحقد:
-زوجك الوسيم الذي ترك علاجه وجاء خلفك والذي سأكون مسروراً للغاية بالتخلص منه أمامك ان كان هذا ما يتطلب الأمر لتصبحي لي.. لتصبحي جارية تحت قدمي.
نظرت له بهلع ليبتسم بشيطانية ويهمس:
-ستكونين عاقلة ترنيم، ستسمعين كلمتي وتعودين معي، سنطلقك من ذاك ال.... وأتزوجك، وأتركه

بسلام.. يكمل علاجه ويستعيد حياته التي فقدها بسببك.

هزت رأسها بألم والدموع تنهمر من عينيها ببؤس.. ليتراجع أشرف والانتصار يلوح في عينيه، كانت تعرف أنه يستطيع فعلها، هذا الوغد يقدر على ايذاء أوس.. رباااه حبيبها أوس.

اغمضت عينيها وبكت بانهيار.. ثم التفتت لأبيها..

-كيف تفعل بي هذا؟؟

همست بوجع..

-لو كنت تكرهني لما عذبتني.. ولما سمحت له بفعل كل هذا.

هتفت بمرارة ليخفض مختار رأسه ويغلق عقله عن الاستماع لكلامها.. تذكره بها.. كمالة، شقيقته التي لا يزال جرح كرامته بيديها غائراً كرمح في الخاصرة.

هو لن يسمح أن يُذل بنفس الطريقة.. هو لا يستطيع تحمل الأمر، ليس وأشرف يحمل راية التهديد بفضحه وليس هذا فحسب بل وصلت به الجرأة والجنون معاً لأن يهدد بإيذاء ترنيم نفسها وخالد..!!

كان عليه أن يذعن.. كان عليه أن يسلِّم له، ليتقي شر جنون السيطرة الذي يتحكم به.

لذا لم ينظر اليها قط..

أشاح بوجهه وهمس بألم:

-ما يقوله ابن عمك هو ما سيكون.

صرخت بوجع كحيوان ذبيح بينما يضحك أشرف بجنون وهو يعاود القبض على شعرها وجذبها نحوه ولكنه توقف فجأة..

فُتح الباب بجلبة قوية واندفع ضابط الشرطة الذي قبض عليها وبرفقته جندي هزيل وخلفه كان يقف خالد وقبلهم كلهم كان يقف أوس..!!

-ترنيم؟!!

هتف أوس بذهول..

كانت الرؤية ضبابية.. بالكاد يستطيع تمييز خيالها بين الأجساد الواقفة.. هزيل بالكاد يبين وشعر أسود طويل مشعث.. فقط هالة من النور وسط ظلام غزا عقله وقلبه.. تنيره وتعطيه القوة ليقاوم ويعيش من جديد.

-أووس..

همسة التقطتها اذناه بصعوبة وسط الجنون الفوضوي الذي تلا دخولهم الى حيث وقف الجندي يحرس السجينة، كانا قد وصلا بسرعة رغم قيادته المتهورة والمجنونة ووجدا أن الضابط قد لحقهما بنفسه..

ثم سمع صوت صراخها واندفع غير مبال ليجد ماراه..

تعرف أشرف ومختار .. وهي بينهما .. ممزقة باكية ومجروحة..

حبيبه الغائبة عنه..

-ترنيم..

هتف بلوعة وهو يندفع نحوها ليقف أشرف بينهما كحائط سد، وهو يزمجر بوحشية:

-ان اقتربت خطوة سوف أقتلك.

اشتعلت عيناه المتعبتان وارتفعت يداه لتقبضا على تلابيب اشرف بعنف وهو يصرخ:

-يبدو أنك اشتقت لطعم لكماتي على وجهك أيها القذر؟؟

ارتفعت يدا أشرف بالمثل وتمسك بجانبي رأس أوس وهو يكاد يزرع أصابعه في عينيه ليسرع

خالد ويفصل بينهما بمساعدة الضابط الذي صرخ بقوة:
-توقفا والا أخذتكما معاً الى السجن.
تراجع أشرف والوحشية تطل من عينيه بينما أوس يصرخ:
-أريد زوجتي أيها الضابط، دعني أخذها وسأرحل ولن ترى وجهي بعد اليوم.
نقل الضابط بصره لأشرف الذي قال بغضب:
-ترنيم الراجي زوجتي، ولدي كل الأوراق التي تثبت أنها كذلك، ولدي أيضاً أوراق تثبت أنها مريضة نفسية ويجب أن تعالج على يدي مختص وفي مركز متخصص.
-أيها الوغد ..
صاح أوس وهو يعاود الهجوم على أشرف ويكاد يطاله لولا وقوف الضابط بينهما ليعاود أوس الصراخ:
-ترنيم زوجتي أنا، ها هو شقيقها اسأله.. أبيها هناك أيضاً..
واجهه الضابط بحزم:
-ألديك ما يثبت قولك؟

اتسعت عينا أوس.. هو لم يكن لديه أية أوراق.. اثبات الزواج وحتى أوراق السفر لم تكن بحوزته.. كل ماكان بحوزته هو جواز سفره القديم، ولكن أوراق ترنيم.. أوراقها هي تثبت أنه زوجها.

-زوجتي لديها جواز سفر يحمل اسمي، وورقة اثبات زواج..

قالها بلهفة لتتجه الانظار لترنيم التي شحبت وانسابت دموعها بصمت بينما الضابط يقول:

-السيدة لم يكن معها ما يثبت حتى اسمها حين ألقينا القبض عليها.. السيد أشرف جاء بأوراقها وكلها تثبت ما يقوله هو.

توقف قلب أوس للحظة وطافت عيناه اليها.. لم يكن يستطيع تمييزها ولكنه أدرك دموعها ..

لقد رأها تبكي من قبل.. ولكنها المرة الأولى التي يشعر فيها دموعها والتي تحمل قهراً وغلباً كالتي تحمله الان؟!! ولقد مسته في اعمق رجولته..

-انها زوجتي، ربما لا أملك ما أثبت به هذا الأمر الأن ولكنها زوجتي لماذا سأكذب؟؟

قالها بحرقة .. ورفع ذراعه مشيراً نحوها:

-اسألها.. اسألها عمن يكون زوجها ؟عمن يكون حبيبها؟ لا تصدق ما يقوله هذا الرجل.. فهي لم تكن يوماً له..

همس بألم ثم استدار لمختار الذي تراجع ليجلس الى كرسي قريب وصاح به يائساً:

-مالذي تفعله؟؟ كيف تسلم ابنتك لرجل سوى زوجها؟؟ أي قلب لديك؟ أين كرامتك؟؟ أين شهامتك؟! كيف برجل مثلك وضع يده بيد سلطان الشيب، ورجال العزب أن يخون وينكر، أن يكذب بهذه الطريقة.

رفع مختار عيناه والتقت بعيني أوس الذي قال بأسى:

-لقد خسرت كمالة بسلبيتك، بجبنك وبكبريائك المزعوم.. وقد عانت ترنيم من قسوتك، عانت كثيراً ولم تفعل لها شيئاً سوى أن تزيد تنفيرها منك ،كلمتك الأن قد تنقذ البقية الباقية من محبتك في قلبها..

اتسعت عينا مختار وأوس يقسو بملامحه:

-زوجتي سآخذها من بين عينيه، أتفهم؟ سأستعيدها ولن يجرؤ مخلوق على الوقوف أمامي، ولكن أنت..

وامتلأ صوته بمرارة:

-أنت ستفقدها للأبد، وأبداً أبداً.. لن تسامحك وأنا.. أنا لن أسمح لك بالاقتراب منها ولو خطوة واحدة.

شحب وجه مختار حتى حاكى وجوه الموتى، وانكمش مكانه ليشيح عنه أوس باشمئزاز ويلتفت للضابط الذي وقف يراقب بصمت قائلاً:

-أنا لن أتحرك خطوة واحدة من هنا.. سوف آتيك بشهود زواجي.. شيوخ العزب وان أردت أستطيع استخراج نسخة من ورقة الزواج لأريك اياها.

-أنا لن أنتظر لأسمع هذا الهراء.

هتف أشرف بشحوب، واقترب من الضابط:

-أنا لن أسمح له بتشويش زوجتي، لقد أريتك الأوراق وتعرف أنها مريضة ومثل هذا الهراء سيؤثر عليها.

-أنا لست مريضة..

هتفت ترنيم بقوة فالتفت نحوها الجميع ورقت عينا أوس لحالها .. عينيها عازمتين ولكن في عمقهما ضعف.. ضعف تآكله من الداخل.

اتجه نحوها مسيراً ليس بيده حيلة، دون أن يلتفت لأحد .. استجاب لها ولنظرتها دون أن يعير أحدهم انتباهه.. اشتاق اليها.. اشتاق لوجودها حوله..

-لا تقترب منها.

هتف أشرف بخشونة وهو يمسك بكتف أوس الذي نفضه عنه بخشونة ودفعه بقوة ليبتعد عن طريقه ويقترب هو من ترنيم التي مدت ذراعيها تتلقفه بلهفة وتغرق عينيها بعينيه..

نظرته كانت مشوشة، متلهفة..

ونظرتها كانت بالمثل.. باحثة عنه.. ترجوه..

أصابع يدها الحرة متمهلة .. جشعة .. تلامسه .. تبحث عن نبضه عن شيء يؤكد لها أنه حقيقة واقعة .. وليس مجرد حلم، انه هنا .. حقاً هنا!!

-أوس؟!

همست بعينين متسعتين بلوعة ليغمض عينيه بقوة ويقول بحرارة:

-اشتقت اليكِ ترنيمتي.. اشتقت اليك يا روح الروح.

انهمرت دموعها بألم وهي ترتمي على صدره ليحيطها بذراعيه بقوة يكتم نحيبها، متجاهلاً صراخ أشرف من خلفه دون أن يعلم بأن خالد يمنعه عنه.

-سآخذك معي.. لا تخافي.

همس وهو ينزع سترته ويحيط كتفيها ثم لملم شعرها بيديه وهو يهمس:

-سنعود لمنزلنا معاً، أنا وأنت.

تمتمت مذعورة:

-عينيك.. ماذا عن عينيك؟؟

-بانتظارك ترنيم.. كل شيء بانتظارك حبيبتي.

همس بابتسامة مقتضبة.. ليتهدج صوتها وهي تعود لذراعيه وتخفي نفسها عن الجميع بينما أشرف يلتفت للضابط ويصرخ بجنون:

-أريد لهذا الجنون أن ينتهي أريد أن أخذ زوجتي.

-أنا لست زوجتك وأبداً لن أكون.

هتفت ترنيم بحدة وهي تحتمي بأوس الذي قال لها بحزم:

-لا تردي عليه..
ثم نهض وقد استعاد جزءاً من قوته للمسها والشعور بها بقربه:
-أريدك أن تفتح الأصفاد، زوجتي ليست مجرمة.
اندفع الجندي للاستجابة بينما تراجع أشرف بتوتر وهو يفكر بالوضع الجديد.. لقد تفاقم ولم يكن يظن قط أنه قد يواجه هذا الوضع.. لقد بنى خطته كلها على عدم وجود أحد.. على أخذها قبل أن يقترب منها أحد، ولكن الأن عليه الخروج من هذه المصيبة بأقل قدر من الخسائر..
تلفت حوله بقلق وعيناه على السلاح المعلق على كتف الجندي الذي تراجع بعد أن فتح أصفادها وعاد لموقعه الى جوار الباب..
اقترب منه أشرف بطريقة ملتوية بينما الجميع تقريباً منشغل بالنظر لأوس وترنيم التي اندست بين ذراعيه ولم تتحرك وهذا ما أثر غيظه وغضبه .. لن يسمح له أن ينتصر عليه، لن يسمح لأحد أن يأخذ المرأة التي يرغب.. وترنيم هي من يريد.

كانت هانئة.. مطمئنة غير مصدقة لما حدث، في دقيقة حين ظنت أنها انتهت الى الأبد ولن ترى أوس من جديد.. عاد اليها.. بطلها المغوار، فارسها الذي اقتحم الجحيم لأجلها..

ثم عادت الأمور للغليان..

لم تعرف ما حدث ربما لنها كانت مختبئة بين ذراعي أوس ، أو ربما لأن كل شيء مضى بسرعة، كلمح بصر.. سمعت أشرف يصرخ وسمعت صوت اطلاق نار، شعرت بأوس يدفعها لترتمي على الأرض ويجثم فوقها .. سمعت الجلبة القوية من حولها ولكنها لم تتبين مصدرها..

أوس يخنقها.. يضمها اليه بعنف يكاد يسحقها.. ثم اسودت الدنيا أمام عينيها وغابت تماماً عن الوعي..

***

ترنيمة عذاب
الفصل الثلاثون والأخير

***

تسرقين القلب بلمسة وتتركين رائحة العطر الزهرية
تسكرين الروح برشفة من شفتين بنعومة كأسٍ نبيذية
أحبكِ وكأنما الروح إليك ترنو بخفة نسماتِ هواءٍ ربيعية
بعيني أراكِ وبقلبي وعقلي تكتمل البهجة..
تراقصين قمراً ورودياً وأنا على نيران الشوق ارقص بلهفة
أتوسل لقلبك.. أن يرأف بحبي.. ويُغنيه عن عذاب التوق والمغبة..
أتريدينه عبداً مملوكاً لكِ يا سيدتي العذبة؟
هو هناك .. سبقني يقدم لكِ فروض الولاء والمحبة..

اقبليه .. خديه قرباناً اليوم واحتفظي به بين قوارير العبيد المتراصة

أحبك.. سيدتي ، مولاتي، حرمة دمي ونوح آمالي...

أحبك ، ولن اترك لبعض من الخوف ينهينا أو يفرض مسافات بين قلوب سخرها الله بالمودة

..

***

حين يكون الغضب هو المسيطر عليك وكل مشاعرك الأخرى تنأى بنفسها وتتوارى خوفاً ورهبة، فكل ما عليك فعله هو التنفيس عن هذا الغضب، اما بتغيير مكانك او بتغيير ما تفعله، والأصل أن تبتعد.. تنأى بنفسك عن الجميع.

ولكن ان كان عقلك يأبى الا ان ينفس عن غضبه بإخراجه فوق من تسبب به فهذه هي المشكلة بحد ذاتها، كل جزء منك يتأهب، يستعد لأن ينطلق ويفجر ما يقابله من بشر.

وهو ذهب الى من تسبب بإشعال الفتيل، الى من تسبب بالقطيعة بينه وبين زوجته، الى السبب في تعاسته وتعاستها.. لقد صبر طويلاً، منذ عرف

في المرة الماضية وهو قد استجاب لسليم وتعامل مع الأمر بعقلانية الى أبعد مدى ولكن الأن.. لقد تخطى الأمر قدرته على الاحتمال وحان الوقت ليعلم أنه ليس متسامحاً أبداً..

حين وصل الى العنوان الذي جاءت به نيران رأى سيارة سييرا، تلك الحمقاء جاءت بسيارتها!!

تنفس بعمق وهو يقبض على مقود سيارته بقوة يكاد يحطمه بيديه، ثم رفع عينيه ليتطلع الى الفندق الشاهق قبل أن يترجل بكل برود، ينزع سترته ويدخل الى البهو نحو المصاعد..

كان يحفظ رقم جناحه .. واتجه اليه بخطوات مصرة غير مترددة.. وحين طرق الباب بقبضته المضمومة كان يدرك أن لا تراجع الأن..

ركان لم يكن رجلاً عنيفاً بطبعه، لم يخض قتال الأزقة والشوارع كغيره من أقرانه، لطالما ابتعد عن المشاغبين منذ صغره واعتاد اللهو برقي ، ووجه طاقاته في تنمية مواهب أخرى ..

ولكن الأن..

الأن هو سيتعامل مع شاهر كرجل شارع حقيقي.. هو لا يجيد القتال.. ولكن بداخل كل رجل شخص بدائي وقح، شرس مجنون في أحيان كثيرة.

وهو قد وصل الى تلك المرحلة..

كشر بشراسة وانهالت قبضته على الباب لعدة مرات قبل أن يقرر شاهر الظهور..

لن ينكر أن الدهشة والمفاجأة التي ظهرت في عيني الرجل الأخر قد أرضت بعض من غروره ولكنها لم تدم حيث تحولت لنظرة غاضبة وحاقدة ليختفي الرضا ويحل محله العنف وركان يدفع شاهر بقبضتيه الى الداخل وهو يهتف بصوت مكتوم:

-لا احد سيقف لك هذه المرة أيها الوقح.

سمع صرخة نسائية قادمة من مكان ما، ولكن كل شيء غاب تحت فورة الغضب التي هاجت بين حنايا عقله، وغامت الدنيا أمام عينيه ..لتتحول الى سواد..

دفع بنفسه على شاهر ليقعا معاً على الأرض، قبضته توجهت نحو وجهه وانهالت عليه دون توقف.. كان قتالاً أخرق..
رجلين لا يجيدان القتال وقعا معاً في عركة مشاعر غاضبة حانقة ومتوحشة..
تطايرت اللكمات الخرقاء، والركلات الجوفاء، حتى أن أحدهما عض الأخر..
شاهر تلقى بضع لكمان كفيلة أن تشوه وجهه..
وركان من الناحية الأخرى كان يجاهد كي يخفي الألم الناتج عن ركلة غادرة من شاهر لخاصرته..
كان قتالاً أحمقاً.. غاضباَ ..
وانتهى بأسرع مما بدأ بتدخل رجال أمن الفندق ..فصلوا بين الرجلين اللاهثين بقوة، كان الدم ينزف من أنف شاهر وزاوية فم ركان والأخير يرفع يده بتهديد غاضب:
-سوف أقتلك أيها الوغد، سوف أدمرك.. سأحطم رأسك.
مسح شاهر الدم من انفه وهو يحاول التخلص من قبضة الرجل على ذراعه صارخاً:

-سوف تذهب الى السجن، أنت تهجمت علي وأنا دافعت عن نفسي وحينها سارة ستكون لي وحدي.

استشاطت عينا ركان غضباً:

-لن أذهب للسجن إلا بعد أن أحطم وجهك أيها اللعين.

ورغم الرجل الممسك به الا أنه استطاع الافلات والهجوم على شاهر من جديد وهذه المرة كان يضربه رأساً برأس بقوة تركتهما الاثنان دائخين، قبل أن يرفع ركان ساقه ويستغل ارتباك رجلي الأمن ويسددها بمهارة بين ساقي شاهر الذي التوى بألم وهو يقع على الأرض بينما يكابل رجلي الأمن على ركان ويطرحاه أرضاً وهو يصرخ بجنون:

-سوف أقضي عليك أيها القذر، ان تجرأت وذكرت زوجتي بكلمة سوف أدمرك.

-توقف ركان توقف، شاهر لن يفعل شيئاً.. انه يدرك أن سارة أبداً لن تكون له.

رفع عينين دمويتين لسييرا التي وقفت تبكي بانهيار بالقرب منهما، لم يرف قلبه قط لهذه

الأفعى، انه يكرهها يحتقرها بل هو حقاً يبغضها.. من كل قلبه يبغضها.

-سوف أشرب من دمه ان فكر بالاقتراب منها أو من طفلي مجدداً..

صرخ بعنف جعل شاهر يرفع عينيه اليه ممتلئتين بالمرارة قائلاً:

-لقد انتهى الأمر..

نفض ركان ذراعيه من ممسكيه ورفعهما وهو يشير أنه لن يهجم عليه مجدداً:

-سوف تأتي لتخبرها كل هذا، سوف تخبرها كل أكاذيبك وخطتك الحقيرة والتي دبرتها لتفرق بيننا.

رفع شاهر حاجبه والتوى فمه بسخرية:

-لا ترفع سقف امالك كثيراً.. أنا سأغادر بعد ساعات الى أنقرة، ولن تراني بعد الأن.

-أنت لن تجرؤ.

همس ركان بغضب جعل شاهر يهز كتفيه ضاحكاً بأسى:

-لم يعد لي سوى هذا، الابتعاد عنك وعن سارة هو الحل الأمثل صدقني.. بقائي بالقرب منكما ليس بالأمر الحكيم.

زفر ركان أنفاساً غاضبة طويلة .. قبضتيه تشتدان الى جواره تنقبض وتنبسط يحاول أن يهدئ من أعصابه.. ولكنه كان كمرجل غضب. وان لم يكن غضبه بالذي يعمى بحيث لم يكن يرى أنه على حق.. شاهر يجب أن يبتعد، وجوده بالقرب سيئ.. سيحاول الاقتراب من سارة، ليس الأن .. ربما في يوم ما. وهو لن يتحمل. ولن يسامح..

-ارحل..

همس بخشونة..

-غادر ولا تعد، لا تقترب من زوجتي، ولا تفكر بها ابداً.

اقترب منه شاهر بخطوات بطيئة ثم وقف أمامه وهمس بحنق:

-تفكيري ملك لي فقط، أن أفكر بها أن أحلم .. لا شأن لك بالمرة ..

سيطر ركان على أعصابه بصعوبة، وفكر للحظة قبل أن يبتسم دون أن تصل الابتسامة الى عينيه .. ابتسامة باردة، جعلت عيناه بلون تلمعان كحجرين من رماد وهمس له بنغمة ناعمة:

-اذاً دعني أخبرك بما تفكر به بالضبط..

واختفت الابتسامة من شفتيه لترتسم كخيطٍ رفيع:

-فكر بها معي، زوجتي.. تحمل ابني، تنام بين ذراعي.. فكر بها امرأة لي وحدي.. وأنت..

وقرب وجهه منه:

-أنت حتى لم تنل منها الا شفقتها، محاولتها لاستغلالك، فقط لتثير غيظي وغيرتي.

-أنت حقير.

همس بفحيح ليضحك ركان:

-تلميذك شاهر باشا.. تلميذك الذي أردت طعنه في ظهره.. والذي تفوق عليك وأخذ الجائزة الكبرى، البيضة الذهبية والتي لم تكن تحلم حتى بوجودها.

ثم مال لينقر بأصبعه على صدره قائلاً:

ـفكر بهذا وأنت وحدك تلملم الملل عن أطراف أصابعك.. وأنت تتخيل امرأتي.. معي أنا.. وتتخيل.. ما لن تحصل عليه.. أبداً.

جحظت عينا شاهر وكاد ان يرد ولكن ركان لم يمنحه الفرصة، فسرعان ما كان يستدير ويضع كل شيء في ذلك المكان خلفه وهو يسرع خارجاً منه وكأن الشيطان يلاحقه..

لقد تخلص من شاهر، هو يثق أن بعد ما رآه في عينيه من انكسار فشاهر لن تقوم له قائمة بعد الآن.. ليس مع سارة نهائياً فهو لن يقدر أن ينظر في عينيها وهو يدرك أنها تحب ركان وهو ما كان يثق به الان. ولذا فهو اختار ان يرحل.. سيرحل دون عودة للخلف على الاقل لفترة طويلة.

اما ركان فعليه أن يثبت لسارة الأن أنه مخلص لها وحدها.. وأن مهما كان الماضي وما بينهما فالحاضر، زواجهما والطفل الذي تحمله، هذا هو ما يهم حقاً..

سيقنعها.. وان جثا على ركبتيه ليفعل هذا .. فسيقنعها.

***

كالتائهة كالضائعة.. كغريقة وسط بحر متلاطم تفقد القدرة على التفكير المستقيم السوي، أفكارك لجة من مشاعر تتخبط بها كموج هادر يضرب بك يغرقك يملأ فتحاتك التنفسية ويغلق عينيك في ظلام أسود.

ثقلت حتى ما عادت تقوى على الوقوف..

تنظر اليه راقداً بين الحياة والموت يصارع بلا أمل، ربما أمل ضعيف كضعف أنفاسه التي تتردد بين ضلوعه على استحياء.. لا تعرف ولا حتى تفهم ما أصابه، فجأة كان يقف وفي اللحظة التالية كان يقع، وقعة مدوية كادت تخلع قلبها معها. لقد حطم قلبها مرات عديدة ولكن هذه المرة هذه المرة بالذات كانت قاضية ،، لقد سقط كخرقة مبلولة وكأنما الروح التي تصلب طوله وتدعمها لم تعد موجودة .. غادرت وتركته مجرد جثة.. احتضنتها بألم ولم تعرف كيف تواجه الحياة بدونه، ماذا ستفعل ان رحل..؟!

اقتربت منه من جسده المسجى بلا حراك قلبها يؤلمها، حرقة تستعر في أعماقها راقبت الأنابيب

التي خرجت من أنفه، وتدخل الى فمه .. ذراعيه المغروسة بها عدد أخر.. قربتي الدم اللتان تصبان الى أوردته، وأخرى من المحاليل والكثير من الأدوية.. لا تتوقف تلك السوائل عن محاولة انعاشه والعودة به الى عالم الأحياء. جساس كان يتأرجح على خيط رفيع بين الحياة الموت، وهي لا تعرف كيف تساعده.. كانت بقربه حين وصل ثم أخرجوها وللحظات طويلة ظلوا يحاولون انعاشه دون فائدة، يقول الطبيب أن قلبه توقف.. ثم أدخلوها من جديد وبدأ يتحسن.. وعادوا ليخرجوها، لينتكس من جديد..

"هل تحتفظين بروحه بين يديك؟"

سألها الطبيب باستنكار وهو يعيدها الى الغرفة .. جساس لا يتنفس دون دون وجودها قربه، هكذا بكل بساطة.. كل شيء يتوقف رغم وجود الاجهزة عليه.. ما ان تغادر ما ان يفصل بينهما جدار حتى يتوقف تنفسه .. وتتهادى دقات قلبه نحو الخط المستقيم المميت..

كم من مرة فعلها ..

والخلاصة أنها سر بقاءه حالياً.. ولذا لم تعد تغادر الغرفة .. ساعات قضتها ممسكة بيده بين كفيها تدعوا له بخفوت، تقرأ له قرآن بلا توقف، ثم تبقى ساهمة تنظر لملامحه الهزيلة الخالية من الحيوية. لم تتذكر قسوته بعد.. ليس وهو في أضعف حالاته بهذا الشكل.

فقط دموعها تنهمر بلا توقف حتى لم تعد تشعر بعينيها.. ولا بالدموع التي تتساقط بصمت.

ثم بدأ شيء ما يتغير...

لقد طلبوا منها البقاء في الركن الابتعاد عن جساس حرفياً وأحضروا رجلاً كبيراً بالعمر يرتدي عباءة.. كان شيخاً ما .. رأته يطلب منهم أن يغسلوا معدته بلا توقف.. ثم بدأ يقرأ عليه أيات من سورة البقرة .. دون كلل.. ساعات مضت .. قراءته لم تتوقف، غسيل معدة جساس متواصل كل نصف ساعة، ولا يزال يخرج ذلك القيء الاسود الذي يثير ذعرها دون توقف، ثم كانت نوبات الحمى تلك،، حمى قوية لا تتركه حتى مع الأدوية ولا حمام الثلج الذي أغرقوه به.. حمى تأتيه وقتما تريد وتعفيه وقتما تشاء.

جلست ذلك اليوم بعد انصراف الشيخ تنظر اليه بذهول، تحاول لمسه ولا تقدر، ترى حبات العرق التي تصفد عن جسده .. أنفاسه متسارعة والحمى تبدأ بالانحسار..

دخلت ممرضة وبدأت تجهز حوض استحمام، لغسل جسده من أثار الحمى والعرق..

-أنا سأفعل..

همست بخفوت.. متلعثمة لا تستطيع النظر لها عينيها عليه، اقتربت منها وأخذت الاسفنجة هامسة بنبرة مخنوقة:

-انه زوجي وهي مهمتي أنا لأساعده.

تراجعت الممرضة بعدما تمتمت بشيء ما، تتركها تغسله تمرر الإسفنجة على صفحة وجهه متحاشية لمس الأنابيب التي تشوه ملامح وجهه المنهكة، تمررها على عينيه المغلقة بشريط طبي لاصق شفاف، ثم وجنتيه العظميتين .. وتلككت على ذقنه التي نمت وباتت تحتاج الى حلاقة.. ثم ندبته الطولية على جانب وجهه وعنقه.

استمرت تمرر الاسفنجة على باقي جسده.. عنقه ذراعيه وصدره.. وساعدتها الممرضة لترفع

ساقيه وتحممه بالكامل، لم تدرك أنها انتهت حتى هزتها الممرضة برفق لتفوق وهي تتمسك بقدميه وتجهش بالبكاء ،، كانت جروح ساقيه قد تماثلت للشفاء تقريباً.. ولكنها تنظر اليه .. كل تلك الحيوية .. كلها راحت هباء.

نشجت بمرارة وعانقت قدميه بينما تسقط الإسفنجة على الأرض فتقترب منها الممرضة لمواساتها فتهتف بألم:

-اتركيني أرجوكِ.

تراجعت الفتاة وقد ظهر التأثر على وجهها بينما تنهار صوان على الأرض وقد تمسكت بظهر قدمه، تناديه بألم، تتوسل من الله أن يعيده..

-يكفيه يا رب، يكفيه ما عاناه، وما عانيته معه وبدونه، أنا لن احتمل..

شهقت باكية وقد ضمت ذراعيها اليها ومضت تنشج بوجع:

-لن أحتمل أن يموت.. أرجوك يا رب، أرجوك.

انتحبت وهي تسند رأسها على الفراش دون أن تعي أن هناك من دخل عبر الباب واقترب من خلفها ليجلس ويحيطها بذراعيه بقوة..

انتفضت وهي تشتم عطر أمها الخفيف.. رائحتها المألوفة والتي جعلتها تسترخي مباشرة وتغرق في حضنها تخفي حزنها ودموعها بينما تهمس لها أمها بحنان:

-سيأخذ الله بيده، لا تقلقي.

-سأموت ماما..

قالت بمرارة لتغمض أمها عينيها بحسرة على ابنتها التي لم تذق طعم السعادة منذ شبت على غرامها بابن عمها.. والموقف يسوء أكثر وأكثر..

-عليكِ أن تكوني قوية صوان.

-لقد تعبت أمي.

صرخت بعذاب:

-تعبت أن أكون القوية على الدوام، تعبت أن يضع الجميع همومهم علي.

-أنت مجبولة على هذا بنيتي الأن بالذات، هل نسيتِ أنك حامل؟

انتفض قلبها بوجع.. لا لم تنسى وكيف تفعل؟؟

منذ اليوم الأول في المشفى وهي تدخل لترى الجساس، وقتها فقدت وعيها ووضعوها في

غرفة أخرى وحين استيقظت أخبرتها الطبيبة المبتسمة أنها حامل؟!!
لم تفرح للخبر..
كيف تفرح لحملها طفل من رجل رغم عشقها له فهو يكرهها .. يعذبها .. يقتلها ببطئ ولا تملك حتى حق الاعتراض والصراخ.. رجل جعلها تشك بعاطفته نحوها .. جعلها تشك بحبه الذي صرخه في وجه العالم منذ سنوات .. ربما تتفهم أنها أصبحت له مجرد هوس، حلم بعيد المنال وهو الذي كطفل تعود أن يحصل على كل ما يشتهي ويرغب بأي وقت.
كانت صعبة المنال .. وهو دفع حياته حرفياً لينالها..
كيف تنجب طفلاً الى عالم كهذا..؟!
لم تعد تعرف بما تفكر؟!
-لم أعد أعرف شيئاً أمي.. هل أدعوا الله أن يخلصني من الطفل أم من أبيه؟
غمغمت ودموعها تنهمر بلا توقف لتنهرها فاطمة بحنق:

-تعوذي بالله صوان.. انها نعمة من الله كيف تفكرين بهذه الطريق؟ ثم جساس؟؟ يا الهي أنت لست بوعيك.. أنت تحتاجين للنوم.

حركت رأسها بانهيار:

-انا بحاجة لأن أفقد ذاكرتي..

تنهدت فاطمة وعادت تضمها الى صدرها هامسة:

-تعالي للمنزل ..أنت بحاجة للراحة يا صغيرتي.

تملصت منها ونهضت:

-لا .. أنا لن أترك جساس الأن، ليس حتى يستيقظ.

زفرت امها بضيق وهي تقابل الرفض عينه في كل مرة تقترح عليها تركه والعودة ولو حتى للراحة، ثم نهضت خلفها ونظرت له بحسرة على شبابه وما يقوده له جنونه.

-أين هي نرجس؟ أنا لم اعاني من لسانها السليط منذ ايام؟

تساءلت صوان بتردد لتهز فاطمة كتفيها وقالت بحيرة هي الأخرى:

-لا أعرف، منذ جاء عمك سلطان وسيف أخذ والدته وقريبته ولم نرهما منذ تلك اللحظة.. ربما عادت الى مدينتها.

-هل تترك ابنها بهذه الحالة؟؟ حتى لو كانت تكرهني كالطاعون هي لن تتركه أمي، شيء ما حدث، شيء لا أفهمه؟

كانت تتكلم وهي تقترب منه تقعد جواره على مقعد قريب وتلامس خصلات شعره القصيرة جداً، ثم أخرجت مصحفها ومضت تقري بصوت خفيض، لتطالعها أمها بحنان قبل أن تستدير وتغادر بصمت وهي تفكر في أن ابنتها بغرامها المجنون كانت عاشقة مستحيلة.. ولن تتعافى مهما يكن.

***

عاد النور فجأة ..

شهقت عالياً كغريق يصل الى سطح الماء ويتنشق هواء طال توقه اليه، لقد استيقظت أخيراً.. متخبطة وذكرى صوت الرصاصة تنطلق يخترق مسامعها، وثقل أوس عليها وحمايتها بجسده يؤرقها ويكاد يثير جنونها..

لقد أصيب أوس؟؟
بكت بجنون وتخبطت صارخة باسمه تبحث عنه بين الوجوه ولا تكاد تميزه..
أين أوس؟ لم ليس هنا؟؟
أووووس لا تتركني..
لقد أصابته طلقة أشرف.. لقد رأته ثانية واحدة قبل أن يغمى عليها.. رأته الألم الخاطف يمزق عينيه العزيزتين ، وذلك السائل الأحمر الساخن الذي لطخ وجنتها، كان دمه؟!!
أوس أُصيب؟؟
لاااااااااا..
بكت بمرارة وهي تتمسك بيدي ممرضة عجوز وتجهش بالبكاء بمرارة هاتفة:
-أرجوكِ خذيني اليه، أخبريني بمكانه سأذهب اليه بنفسي.. أتوسل اليكِ..
-اهدأي يا صغيرة ستكون الأمور على ما يرام .. لا تخافي.
-فقط خذيني اليه.. أعرف أنه أُصيب.. أريد أن اطمئن.. أتوسل اليكِ.
تراجعت الممرضة بارتباك:

-ولكنني لا أعرف، انا وصلت للتو.
انتحبت ترنيم بمرارة، ونهضت تتخبط من الفراش تلملم رداء السجن الذي كانت لا تزل ترتديه، وتبحث عن غطاء تستر به شعرها وهي تندفع الى الباب الذي فُتح فجأة وصوت عالٍ من خلفه يقول بعناد:
-فليذهب الطبيب للجحيم، سأراها في الحال..
وتوقفت كلماته بينهما في الهواء وهو يقف متسمراً ينظر لوجهها الذاهل في طريقها اليه..
-أوس؟!
همست غير مصدقة، كان يقف أمامها برأسه الحليقة والضمادة تغطي معظمها، وعينيه الساخطتين وذراعه المعلقة الى عنقه بحامل أزرق طبي.
-أنت لم تمت؟!
همست متعثرة بمشاعر ضائعة ومشتتة وقلبها ينتفض بين ضلوعها بجنون قبل أن يكاد يتوقف كلياً وهي ترى تكشيرته المحببة تملأ وجهه بينما يفرد ذراعه ويقول بحنق:
-أموت وأترككِ وقد تخلصنا من كل همومنا؟

توسعت عينيها للحظة ثم هزت رأسها برفض ودموعها تنهمر بينما تهمس بألم:
-لا.. لن تموت.
ابتسم فارتمت بين ذراعيه تبث همها لصدره وتستقبل حرارته دموعها فتطفئها، تحيطها ذراعه بقوة ورأسه ينزل ليزرعه على جانب عنقها ويتنشق رائحتها التي اشتاق لها، بعد طول غياب..
شهقت باكية وهي تحيطه بذراعيها بقوة اصابعها تكاد تهتك قميصه أظافرها تخدش جلدته وهي تهمس بمرارة:
-لم أظن أبداً أنني سأراك من جديد؟ لا أصدق أنك هنا معي؟؟
مرغ أنفه في جانب وجهها وابتسامة رضا عميقة تغزو وجهه بينما يقول بنعومة:
-أنا كنت مصراً لأراكِ.. لم أكن لأسمح أن تغيبي عني بهذه الطريقة.
رفعت وجهها اليه تلامس وجهه وعينيه:
-لماذا جئت لماذا تخاطر بنفسك؟؟ هل أصابك الوغد؟ لقد رأيتك تتألم؟؟ سمعتك.. وشعرت بـ...

-اششش ..
همس وهو يضع اصبعه على فمها بينما عيناه تلتقطان نظرتها الهائمة وتثبتها بسلطة:
-لم أكن لأتركِ لا شيء ترنيم، لا شيء أهم منكِ في حياتي يا حبيبتي، أنت فقط.
اغمضت عينيها وعادت ترتمي على صدره بينما يهمس:
-أما عن ذلك الوغد فرصاصته طائشة بالكاد أصابت ذراعي وقام بعدها قام والدك بالباقي.
كانت تتحسس ذراعه بقلق وخشية لتتوقف وهو يقول أخر كلماته فالتفتت له هامسة:
-أبي؟!
ابتسم بحنان وعقله يعود لتلك اللحظات العصيبة...
لقد رأى أشرف يختطف سلاح الجندي في لحظة رأى الموت يحلق بجناحيه عليهما ولم يدرك سوى أنه يحتضن ترنيم اقوى .. ويرمي بثقله عليها كي تقع على الأرض بعيداً عن مرمى النار، شعر حينها بألم حارق يمزق كتفه ثم رأى

ترنيم تغمض عينيها وشعر حينها بالموت يطبق على أنفاسه..
للحظة فقط تخيل أن الرصاصة التي تجاوزته شقت طريقها لتقتل حبيبته..
-ترنيييييييم..
صرخ بهلع وهو ينتفض من عليها، يداه تفتشان جسدها بجنون بحثاً عن اصابة ولكنها كانت سليمة.. زفر أنفاسه بارتياح ولامست أصابعه وجهها بحنان وهو يكتشف أنها فقط فقدت وعيها من الخوف ربما وربما من ضغطه القوي عليها..
التفت حينها ليرى ما يحدث خلف ظهره، كان مختار الراجي يقبع على أشرف بثقله كله بينما الضابط يشهر سلاحه في وجهه ويصرخ بالجندي أن يحضر الأصفاد لتقييد هذا المجرم.
نهض حينها أوس وحمل ترنيم برفق بعد غطى رأسها ثم وضعها على الفراش بحرص قبل أن يتوجه الى مختار ويقول ببرود:
-خذ حثالتك وابتعد عنا، ترنيم وأنا لا نريد أية علاقة بك وبهذا الوغد.

اتسعت عينا مختار بينما أوس ينظر لأشرف المحاصر بين الضابط والجندي ويشير لذراعه المجروحة قائلاً بسخرية:

-هذا شروع في قتل، وهذه المرة لدي شهود يا ابن الراجي، ولن أدعك تفلت مهما فعلت.

وبعدها اقتيد الى الخارج ومعه مختار.. وبعد أن اطمئن على ترنيم، أخذوه هو ليعالج ذراعه ويعطي أقواله ريثما تصحو...

عاد بعقله لترنيمته وابتسم لها يقول باختصار:

-والدك خلصنا من اشرف الى الأبد كما أظن، لقد قفز عليه مباشرة وهو السبب في الرصاصة الطائشة وهو السبب في أن تلقي الشرطة القبض على الوغد، وبعد اعترافاته لا يبدو أن أشرف سيرى النور لمدة طويلة جداً.

-ووالدي؟

همست بتخوف ليزفر:

-انه متورط معه في كثير من الأشياء.. لا اعتقد ان الأمر جيد بالنسبة له..

ثم جذبها ليجلسا على طرف الفراش وقال لها بحنان:

-الأمر لا يتعلق بنا فقط ترنيم، أشر ووالدك لهما الكثير من الأنشطة المريبة والأمور تطلبت من أبيكِ شجاعة كبيرة.. انه حرفياً يودي بنفسه للتهلكة.

لم تتألم.. الجرح الذي سببه لها والدها كان أكبر من أن تسامحه في لحظة.. لها ولكمالة.. ولأوس؟!

لامست وجهه فقط لتتأكد أنه معها حقاً.. فرأت ابتسامته وابتسمت..

لن تتدعي المثالية.. لايزال والدها ولكنه أورثها قسوة قلبه.. وفي هذه اللحظة قلبها كان يخفق لهذا الرجل فقط.. الرجل الذي ضحى بنفسه لأجلها.

-عينـــاك؟!

لوى فمه بسخرية.. لتتألم عينيها فترق نظرته ويهمس:

-أنا أراكِ أنت وهو المهم.

أحاطت وجنتيه واقتربت لتقبله بعمق.. لوقت طويل .. لامسته بشفتيها فقط تستشعر أنفاسه على بشرتها حارة .. تعيد لها الحياة.

-سوف نسافر بعد قليل.

همس بخشونة ما ان حررته من قبلتها لتهمس مجيبة:
-سنعود لتجري عمليتك أوس.
-أريدك جواري، لن أفعل شيئاً دون وجودك قربي ترنيم.
تنهدت بعمق:
-سأكون معك، أبداً لن أتركك.. مهما يكن.
عقد حاجبيه بتوتر:
-ماذا لو فشلت، لو خسرت عينيّ ولم أعد أصلح لشيء؟
ارتجف قلبها لحدة الخوف في صوته ولكنها ابتسمت..
-سأكون أنا عيناك أوس، سترى من خلالي..
ابتسم بخفة:
-هل تختلف النظرة النسائية بشيء؟؟ هل ترون الدنيا بمنظار وردي كما يقولون؟
لم تبتسم لدعابته بل ارتجفت شفتيها وكأنها على شفير البكاء ونظرت في عينيه هامسة:
-عيناي لا تريان سواك.

همست بثقل واقتربت تقبل جفنيه بحرارة لتنسكب دموعها هاتفة:

-فقط أنت يا حبيب الروح.

-اااه يا قطتي..

همس متحشرجاً وهو يعيدها الى صدره بقوة يريد الاحتفاظ بها قريبة منه أقرب من أي شيء أخر حتى الهواء، لا يريد أن يفقدها أو يفتقد النظر الى نعومة وجهها وعينيها، كيف سيحتمل ؟؟

-يجب أن نذهب.

همس بعذاب جاهد لأن يخفيه فأومأت وهي تقف لتلملم نفسها ثم نظرت لما ترتديه وقالت بارتباك:

-ملابسي؟؟ اشيائي كلها أخذوها في مركز الأمن.

-لا تقلقي لقد تدبر شقيقك احضار أغراضك كلها، انهم بانتظارنا في المطار سأحضر لك عباءتك ونغادر.

هزت رأسها بالموافقة ثم رأته يتردد لتتساءل بقلق:

-ماذا هناك أوس؟

-خالد ووالدتك هنا.. أتريدين رؤيتهم؟

شحب وجهها .. وكادت ترفض بعنف ولكنها لم تفعل، جلست واومأت له بهدوء رغم عينيها الواسعتين والذعر المكحلة به. ليجلس جوارها ويلتقط كفها بين يديه هامساً:

-أعرف أنك تشعرين بالخذلان ترنيم، وأدرك تماماً أن خالد ووالدتك لم يكونا نعم العون، والدعم لكِ.

هزت رأسها بألم وهمست:

-هما لم يكونا معي ابداً، أنت .. أنت أوس كغريب وقفت معي، ساعدتني كما لم يفعل أحد.. وهما أقر الناس لي، لم يفعلا شيء سوى المراقبة من بعيد وربما التحسر.

اقترب ليقبل قمة رأسها بحنان وهمس قربها:

-أعرف يا ملاكي، وربما لهذا أنا أعذرهما، ترنيم أنت كنتِ تصدرين طاقة عنيفة لكل من يرغب بالاقتراب منكِ.. كنت تعلنين وبكل صراحة وفجاجة أنك قوية بما يكفي ولا تحتاجين لأي أحد جوارك.. كنت تبدين قوية.. صلبة ومخيفة.

قال كلمته الأخيرة بابتسامة ناعمة جعلتها تنظر له بأسى:

-هذا لم يوقفك عن المحاولة،،
-لأن لدي دافع كبير..
همس بخفوت لترفع عينين متسائلتين فيجيب بدفء:
-أنتِ ترنيمتي، أنت كنتِ دافعي يا جميلتي، حبكِ.. والشوق الغامر لأخذك بين ذراعي وأقول للعالم كله أنكِ ملكي.. تخصينني وحدي دون العالم.
تخضبت وجنتيها بالحمرة وارتمت بين ذراعيه ليضحك باقتضاب ثم يهمس ممسداً شعرها:
-سوف أدعهما يدخلان، ثم أحضر سيارة الأجرة لتأخذنا للمطار لم يعد هناك وقت، ولا يزال لدينا طريق طويل.
اومأت .. فأفلتها وتركها بعد أن قبلها برقة، تركها تواجه عائلتها.
***
كانت نائمة..
تأملها بحنان، التورم الذي كان يملأ وجهها اختفى تقريباً، عادت ملامحها كما كانت، صحيح أن وجنتيها امتلأتا بعض الشيء ولكنها أفضل.

ذراعيها مضمومتين الى جوارها وهي تتكور كالجنين الذي تحمله في بطنها.
طفلها .. طفله .. طفلهما ..
ابتسم وتخلصت يده من أسر تحكمه ولامست بطنها تحت الغطاء السميك، وشعر بالتكور الخفيف ليخفق قلبه بقوة .. وضعف.. بحب، ورهبة..
"سارونتي"
همس بأمل لترفرف جفنيها وتكشف عن عينيها برقة، ثم تبتسم له..
ابتسامة كسولة ناعمة خطفت قلبه وجعلته يخفق بجنون قبل أن تهمس باسمه وتعاود اغلاق عينيها لتنام بسلام..
رباااه كم يعشقها؟؟
كيف يحبها بهذه القوة ومنذ متى؟ متى استحوذت على قلبه بهذه الجرأة والتسلط لتخرجه عن بروده وتقلباته وتجعله أسيراً لها وحدها.. لعينيها، لحبها للشهد من بين شفتيها؟!
" أحبك سلطانة"

همس في أذنها لتبتسم وهي نائمة.. ويبتسم بالمقابل ..
ويعود ليستند بظهره الى الكرسي ويغلق عينيه نائماً بعمق..
بعد ساعة تقريباً استيقظ.. على لمسة على ذراعه جعلته يهب من على مقعده ويقف ناظراً لتوبا التي رفعت كفيها وهمست:
-اهدئ ركان.. لقد تركتها وعدت للمنزل وكلمت نضال..
زفر ركان وألقى نظره على سارة النائمة بعمق وعاد لحماته قائلاً بخشونة:
-لم لم تقولي؟ لم يكن يجب تركها وحدها؟
رفعت توبا حاجبها وهي تنظر لوجهه المكدوم وعقدت ذراعيها:
-الطبيب طمأنني، لقد سيطروا على النزيف، وضغطها أصبح مستقراً.. ستبقى هنا ليومين لا أكثر.
-جيد..
همس لتسأله بفضول:
-مالذي حدث لوجهك؟

نظر لها بخفة ثم هز كتفيه وقال بحنق:
-ارتطمت بعمود.
نظرت له غير مصدقة ليزفر ويشوح بيده طالباً منها أن تترك الأمر.. فمطت شفتيها ثم قالت بتوتر:
-سييرا بالخارج تطلب رؤية سارة.
جحظت عيناه والتفت لتوبا صائحاً بانزعاج:
-ماذا؟؟! مالذي تريده تلك العلقة بعد؟
وضعت توبا كفها على صدره وقالت بهدوء:
-اسمع ركان، انها هنا لتخبر سارة بالحقيقة.
نفث ركان غضبه من بين أنفاسه وقال بصوت مكتوم:
-أنا لا أصدق تلك الحرباء.
-وأنا لا أصدقها .. ولكنني سأكون هنا معها وستكون أنت كذلك..
ثم اقتربت منه وقالت بهدوء:
-سارة بحاجة أن تسمع من مصدر أخر سواك وان كان ضمير سييرا قد استفاق لسبب أو لأخر.. فلنستغل الفرصة.
-أنا لا أثق بها.

دمدم بغضب فضغطت توبا على ذراعه وقالت:
-دعنا نسمع مالديها لتقوله أولاً.
زفر بضيق ثم خرج لملاقاة سييرا وترك مهمة ايقاظ سارة لأمها..
سييرا كانت تقف بالخارج وكأنها قد كبرت عشر سنوات .. انتفضت مكانها واعتدلت في وقوفها حال رؤيته..
-ماذا تفعلين هنا؟
ابتلعت غصة احتكمت حلقها وهمست متلعثمة:
-لقد.. انا .. أنا هنا لرؤية سارة .. يجب أن أخبرها بالحقيقة.
التوى فمه بسخرية:
-حقيقة ما وقع .. أم الحقيقة الملتوية التي خططت لها مع ذلك الوغد.
حركت رأسها برفض وتألقت الدموع في عينيها وهي تقول بمرارة:
-أقسم أن أقول لها الصدق فقط ركان، عليك أن تصدقني.

أخذ ركان نفساً عميقاً وتراجع وهو يرى شيئاً في وقوفها أمامه بتلك الهيئة المزرية.. لقد كانت مختلفة.. مكسورة ومرعوبة.

خرجت توبا حينها وأشارت لهما بالدخول..

حينما فعلا رأى ركان كيف جلست سارة منتصبة على سريرها وقد رفعت شعرها المشعث أعلى رأسها بعقدة بسيطة ورغم شحوب وجهها الا أن لمسة من أحمر الشفاه جعلتها تبدو رائعة.. لمسة ضرورية من توبا لتخرج ابنتها من حالة الجمود الذي تعاني منه.

عينيها قاسيتين، جامدتين لا تسقطهما على أحد منهما..

-يجب ان تنظري الي.

قالت سييرا بنبرة مخنوقة ولم تنل سوى زفرة من توبا التي جلست الى جوار ابنتها وأحاطتها بذراعها باحتواء غريزي جعل أحشاء ركان تعتصر داخله وهو يرى تصلبها وتباعدها.

-أنا لم أعني ما قلته لكِ سارة.

همهمت بألم ولا تزل سارة صامتة متباعدة..

-كنت مدفوعة لآتي إليكِ .. لقد أجبرني تقريباً..

ثم اقتربت منها وهتفت بحرارة:
-شاهر الباشا هو من دبر كل شيء منذ البداية .. منذ أن عرف أنك زوجة ركان وهو يكاد يجن، كان يريدك بأي وسيلة .. وحين أظهرتِ له حبكِ لركان، فكر أنها الوسيلة الوحيدة لتبتعدي عنه.
نظرت لها سارة حينها.. حدجتها بنظرة قاسية مجروحة لتنهمر دموع سييرا وتهتف:
-لقد دبر كل شيء، أنا لم أفعل سوى الظهور مع ركان كما رأيتِ..
عقدت سارة حاجبيها دليل اهتمام.. بينما سييرا تهتم بلهفة:
-لقد وصلت الى الشقة ولم يكن بها سوى ركان مخدراً كما تركه شاهر، انا نزعت عنه ثيابه وانتظرت الاشارة لترينا كما فعلتِ.. لم يحدث شيء.
ثم ارتبكت وخفضت عينيها هرباً من نظرة سارة القاتلة:
-أقسم لكِ أن لا شيء حدث بيننا، ركان كان مخدراً بالكاد استعاد وعيه حين ظهرتِ، لم يكن يقدر على فعل شيء.

همست بخجل والاحراج يسود وجهها لتهتف سارة بحقد:
-لقد وقفتِ أمامي وادعيتِ أنك تحملين طفله.
-أيتها الحقيرة..
دمدم ركان بحنق لتنفجر سييرا بالبكاء:
-لم تكن خطتي.. شاهر فعل هذا.. لقد هددني أنه سيفضح كل ما فعلته وما حصل بيننا على الملأ إن لم أساعده وأمضي بالأمر للنهاية ولكنني لم أقدر..
-مالذي حدث ليصحو ضميرك أخيراً؟؟
هتفت بسخرية لتجيب لها بانهيار:
-حين رأيتك تسقطين أمامي.. تلك الدماء ظننت لوهلة أنك فقدتِ الطفل وشعرت بالجنون..
واقتربت تقول محايلة:
-سارة أنا صديقتك.. لقد عرفتك منذ سنوات.. ورؤيتك بتلك الطريقة ليست أبداً ما أردته هل تصدقينني؟
عقد سارة حاجبيها لتواصل سييرا بتوسل:

-سارة أرجوكِ، أرجوكِ اعطني فرصة لأصلح ما فعلته، أعرف أنك انفصلتِ عن ركان لوقت طويل ولكنني أخبرك أنه يحبك..

-أنا أعرف أنه يحبني.

-هي تعرف أنني أحبها.

هتفا معاً بنفس الوقت لتلتقي الأعين وتغيب الأخرى..

عينين شغوفتين حانيتين بأخرى متسعة وغير واثقة..

-اذاً لم يعد هناك ما يقال سارة.

همست سييرا بثبات لتتنهد سارة وتقول لها بحزم:

-هل انتهيتِ؟

جفلت سييرا ثم اومأت بعد لحظة تردد لتجابهها سارة بقسوة:

-اذاً أخرجي من هنا.

وقابلت عينيها المصدومتين بكره:

-لا أريد رؤيتك أمامي مجدداً.. أبداً.. صداقتنا المزعومة انتهت، الى الأبد.

خفضت سييرا عينيها وهي تدرك أنها اخطأت وربما أكثر،، لقد فقد أكثر من مجرد صديقة.. لقد خسرت الكثير فعلاً.

-أعرف أن ما فعلته لا يغتفر، ولست أبحث عن عذر أو سماح، ولكن..

وترددت قبل أن تقول:

-رؤيتك بتلك الحالة الضعيفة .. قريبة من الموت وكل هذا بسبب كذبة أطلقتها لصالح رجل أحمق، جعلني أدرك أنني لا أريد أن أفعل هذا، لا أريدك أن تتأذي سارة وليس عن بيدي على كل حال.

لم تأثر سارة .. لم يرمش لها جفن حتى.. قد قلبها من حجر ناحية هذه المرأة اللعوب وهي أبداً لن تسامحها.

-سوف أغادر .. ولن تري وجهي بعد اليوم، ولكنني أتمنى لكِ السعادة.. والسلامة.

ثم تحركت نحو الباب، لم يوقفها أحد ولم تنتظر منهم، أغلقت الباب خلفها ومضت خارج حياتهم للأبد.

وبالداخل..

-هلا تركتنا وحدنا..

همس ركان بحشرجة مشيرا لتوبا فنظرت لسارة التي كانت تطالع في أصابعها المشبوكة بحضنها بتركيز.. ثم نهضت هامسة:

-سأترككما لأحضر الغداء، فأنتما لم تأكلا منذ البارحة.

ارتدت معطفها ورحلت، وبقيا وحدهما..

تنهد ركان ومرر أصابعه في خصلات شعره الكثيفة عدة مرات قبل أن يهمس:

-هل اقتنعتِ؟

تنهدت سارة وهي تخفي وجهها بين كفيها وتبكي بنعومة جعلته يتنهد وهو يتحرك نحوها بسرعة ليحتويها بين ذراعيه:

-توقفي عن البكاء..

-انا غبية.. رباااه كيف كنت بهذا الغباء.

ضمها بقوة لتحيط ظهره بذراعيها وتكاد تمزق قميصه بأظافرها بينما تقول بألم:

-كل هذا الوقت، وهذان الحقيران ينصبان حولنا الشباك؟؟ وأنا .. أنا صدقتهما.. أنا انسقت وراءه بتلك الطريقة..

همست بقرف ليحيط وجهها بكفيه ورفعه له ليلقي عينيه في عينيها العميقتين بلجة الدموع التي تغرقهما:

-لم يكن الأمر خطأك، أنتِ كنتِ مخدوعة.. شاهر خدعكِ مثلما فعل معي كي أنفذ مخططاته الحقيرة سارة، أنا وأنت ارتكبنا الكثير من الاخطاء.

-ولكنك لم تخني؟؟ أنت كنت صادقاً وانا لم أصدقك..؟!

-حبيبتي.. أنتِ كان لديك كل الحق.

-كان يجب أن أثق بك.

همست بألم ليبتسم بحنان:

-هل تثقين بي الأن؟

اومأت باكية وهي ترتمي على صدره الواسع وتهتف:

-أبداً أبداً لن أكذبك بشيء تقوله.. أرجوك ركان سامحني.. أقسم لك أنه لم يكن هناك شيء بيني وبين شاهر أنا لم أعده بشيء، ولم أسمح له بوضع يدٍ ما علي.

مسد رأسها بحنان:

-أعلم يا صغيرتي، أعلم يا سلطانة قلبي.

-أنا أسفة .. أسفة.
رفع وجهها اليه و همس أمام شفتيها:
-وأنا أسف حبيبتي، أسف لأني تركتك لوقت طويل دون أن أنهي هذه المهزلة، سارة انظري..
واشتدت نظرته:
-لقد تغيرت.. أنا لم أعد طائشاً.. ولا أخرق.. أنا أصبحت رجلاً بفضلك أنتِ، أنا لن أخذلك مجدداً.
-أنا أحبك.
همست بها برقة جعلته يقهقه بسعادة لم يظن قط أنه سيشعر بها ..
-قوليها مجدداً سارة، لقد اشتقتها من بين شفتيك كثيراً.
اقتربت لتلامس شفتيها ذقنه وترسم خطوط فكه الخشنة وهي تدمدم الكلمة التي تفجرت من أعماقها وعقلها وقلبها يرددان صامتاً أنها لن تتركه أبداً ولن تسمح لأي امرأة بالاقتراب منه أو اشغاله عنها.
***
كانت الاشارة تعلن أن الطائرة على وشك الهبوط، وأنه يجب أن يوقظها، لقد نامت طيلة

الرحلة رغم أنها نامت قبلها مثيراً ولكنها كانت مرهقة وتعوض نوم أيام مضت وأيام قادمة كما يبدو. ابتسم بحنان لقد غفت ما ان أقلعت الطائرة وهي تتمسك بذراعه هامسة أنها ستكون بجواره كي ينسى قلقه من الاقلاع كالعادة..
كانت شجاعة جداً..
رغم كل شيء ترنيم كانت أشجع امرأة قابلها في حياته، يكفي أنها وقفت وحدها في مواجهة خالد وأمها ورفضت وجوده كي لا تسبب الحرج لعائلتها، لم يعرف ما دار بالداخل.. انتظر بصبر لأكثر من أربعين دقيقة ثم فتح خالد الباب وكانت عيناه دامعتان بينما والدته تعانق ترنيم خلفه وترفض افلاتها. ولكن حبيبته الصغيرة هي من ابتعدت.. نظرت له وهمست لأمها بشيء جعل المرأة الكبيرة ترفع يديها بدعاء صامت..
عاد لواقعه وصوت كابتن الطائرة يطلب منهم وضع الأحزمة استعداداً للهبوط في مطار دبي..
فلامس وجنتها بخفة بظهر اصبعه لتفتح عينيها مباشرة وهي تهتف باهتمام:
-هل وصلنا؟

ابتسم واومأ لها ثم مد ذراعيه ليحكم الحزام حول وسطها قائلاً:
-سنهبط في التو، هل نمتِ جيداً؟
حركت رأسها بنفي وقالت بتوتر:
-هناك الكثير قبل أن نصل لمرحلة الجودة.
قهقه أوس مدارياً انفعاله وتأثره بالقلق العميق في عينيها.. كان يدرك مخاوفها ويخشاها هو الأخر ولكن.. ما باليد حيلة..
عليه أن يكون الطرف الأقوى هنا وسيفعل.
قبض على كفها وتشابكت أصابعهما .. ثم أطال النظر في عينيها.. هو لم يخبرها قط أن بصره تدهور.. وأنه وحتى وهو بهذا القرب منها لا يستطيع رؤية شذارت الذهب في عمق عينيها..
ولن يخبرها أبداً..
هبطت الطائرة بسلاسة.. وبعد اجراءات الوصول.. انطلقت بهما سيارة أجرة مباشرة الى المشفى.
-كان من الأفضل أن نعود الى المنزل أولاً.

قال أوس بحنق لتتجاهله ترنيم نهائياً وتبدأ حملة اتصالاتها باستخدام هاتفه.. لم يكن عليهما مواجهة هذا الأمر وحدهما أبداً..
اتصلت أولاً بوالده ، ثم بسيف وأخيراً بعمته فاطمة..
كانت صدمة لهم جميعاً ماعدا سيف والذي زمجر بعنف وأخبرها عن تواجد الجميع بالمشفى بسبب جساس..
-جساس في المشفى.
قالت لأوس بحذر ليغلق عينيه بزفرة طويلة:
-مالذي فعل هذه المرة؟! انه مقعد من الأساس.
هزت كتفيها بقلق:
-لا أعرف حبيبي، سنصل بعد قليل ونفهم كل شيء.
ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء وقال:
-لن أمل عمري من كلمة حبيبي من بين شفتيك.
اتسعت عيناها واحمرت وجنتيها بقوة وهي تلكمه على كتفه ثم تخفي وجهها فيه.. تستشعر ضحكته من اهتزازها. وصلا الى المستشفى بعد رحلة طويلة في الزحام..

رفض أوس نهائياً أن يسجل الى غرفته قبل رؤية جساس وصوان وعمته فاطمة.. واللتان اندفعتا نحوه تعانقاه بقوة وتفرغان دموعهما على صدره.. بعد أن زار الجساس لبضعة دقائق..

-ترفقا بي للحظة وأخبراني مالذي فعله ذلك المجنون.

همس برفق لتبتعد صوان بعينين متورمتين من البكاء، وتهتف فاطمة بألم:

-انه مريض للغاية، الأطباء لا يعرفون ما به، ووالده أحضر شيخٌ ليقرأ عليه كل يوم..

عقد حاجبيه بتساؤل وهو ينظر لصوان التي حركت رأسها بعدم فهم ليقبل رأس فاطمة:

-سأرى ما يجري امي، بإذن الله سيكون بخير لا تقلقي.

-صوان متعبة.. انها حا...

-امي.

زجرتها صوان لتبتلع ما كانت ستقوله ليعقد أوس حاجبيه فتهتف صوان بارتباك:

-أنا فقط متعبة، أنا لم أتركه للحظة ولن أفعل حتى يستيقظ.

-صوان حبيبتي لو كنت متعبة فمن الأفضل أن تذهبي للبيت، عودي في الصباح.
ارتسمت العدائية على ملامح وجهها وتراجعت تعقد ذراعيها حولها:
-أنا لن أتركه.. لو غادرت فسوف يموت.
زفر بيأس لرؤيته اصرار بصلابة الحجر في عينيها وهمس:
-اتركي له الفرصة ليتنفس صوانة.
تراجعت بحنق ثم زمت شفتيها وهتفت:
-اهتم بنفسك وبزوجتك، لا شأن لك بنا.
ارتسمت الفكاهة على وجهه لتعقد حاجبيها وتشير الى رأسه بالضمادة:
-ثم تعال الى هنا وأخبرني ما مشكلة رأسك..؟ لم تضمدها هكذا؟
ضحك بتوتر ثم عانقها بخفة:
-انها اصابة خفيفة لا تقلقي وسأذهب الأن لعلاجها نهائياً.. اهتمي بنفسك وزوجك، ولا تقلقي أمي فاطمة عليكِ أتفهمين؟
راقبته بقلق واقتربت من أمها التي تساءلت بخوف:

-لا يعجبني أوس، انه يبدو متعباً..
-لا بأس أمي ربما هو أثر الاصابة على رأسه.
-كيف أصيب من الأساس؟؟
تساءلت بحنق لتهز صوان كتفيها بعدم معرفة ثم تعود الى غرفة جساس حيث ينام بسلام..
أصرت ترنيم على التواجد بينما يفحص الطبيب أوس.. كان الجرح على رأسه ملتهباً بعض الشيء، ثم فحص عينيه ورأت عدم الرضا في عينيه هو :
-لقد حذرتك من التخلف عن موعد العملية الثالثة، انها العملية المصيرية وأنت ألقيت بكل التحذيرات خلف ظهرك.
سقط قلبها بين قدميها بينما يسخر أوس:
-هل انتهى الأمر؟
-أنت انسان مستهتر، ستفقد بصرك بطريقتك الحمقاء غير المبالية هذه. وكل الجهد الذي بذلناه لإنقاذها سوف يذهب سدى.
جحظت عينا ترنيم ليحرك أوس كتفيه بلا مبالاة ظاهرية وداخله يغلي:

-انه قدري دكتور، ان كان هذا هو الثمن فأنا مستعد لدفعه.

نهض الطبيب بحدة وقال بتوتر:

-سوف نجهزك للعملية .. انها الأخيرة والفاصلة ولأكون دقيقاً معكما أنتما الأثنان، عينك اليسرى قضية خاسرة، كل ما سأحاول فعله هو محاول انقاذ اليمنى ببعض الحظ سننجح.

قبض أوس على كفه بقوة حتى كادت أصابعه تتحطم وهو يسمع نحيب ترنيم جواره.. غادر الطبيب فالتفت لزوجته التي شهقت بانهيار وهو تصيح:

-أنا السبب في هذا كله.

نظر لها باستنكار لتنهار أمامه وهي تدفن وجهها بين كفيها:

-أنا السبب،، أنا ضيعت مستقبلك أوس.. أنا حطمتُ حياتك.

-ولماذا كل هذا التفاؤل يا قطتي؟

شعرت به جوارها على الفور قبل أن يقول ما قاله كفيها بين يديه وعيناه في عينيها:

-ترنيم انظري لي.

همس برقة لتستجيب تلقائياً فتقابلها ابتسامته:
-أنا لا يهمني شيء سوانا.. معاً سنتخطى كل شيء.. حتى هذا.
مشيراً لعينيه .. ثم ظهر القلق على ملامحه:
-هل ستتخلين عني؟؟ ان فقدت بصري؟
-يالهي.. أووس..
أحاطت وجهه وهمست بحرارة:
-أنا عيناك.. ألم أخبرك هذا من قبل؟؟
ابتسم وشملت ابتسامته وجهه كله وهو يخبرها بحنان:
-اذا توقفي عن الولولة وتعالي معي، كوني الى جواري، ان خسرت عيناً فلدي الأخرى.. وان خسرت الاثنتين.. فلدي أنتِ يا نور عيوني.
انهمرت دموعها بغزارة وعانقته، احاطت عنقه بذراعيها بقوة وهي تهتف:
-أنا معك أووسي،، مهما حدث سأبقى معك.
تنشق عبير رائحتها وهو يدمدم بالراحة التي يجلبها حضنها لأعصابه المتوترة ثم همس مداعباً:

-تعالي معي الى غرفة العمليات، احضنيني هكذا ولن يحتاجوا أيخدروني أبداً..
مرغت وجهها في عنقه وهمست:
-أنت مجنون..
-في حبك فقط يا ملاكي..
همس بالمقابل لتخفي ابتسامتها البائسة في شفتيه .. وتتحول قبلتها الى يأس مطلق بينما يحملها بين ذراعيه ليقفا معاً وسط الغرفة بانتظار وقت العملية. وجاء الوقت وانفصلت أصابعها عن أصابعه بصعوبة وهم يأخذونه بعيداً عنها خلف الابواب الزجاجية المعتمة بعد أن رفض الطبيب طلب أوس الساخر أن ترافقه طبيبة التخدير خاصته..!!
-سيكون بخير.
همست للطبيب الذي تنهد ونظر لها قائلاً بتوتر:
-اننا نحاول سيدتي، عليكِ بالدعاء والا فإن عينه اليمنى لن تنجو..
ضمت كفيها وبدأت تدعو بخفوت، لا لن تبكي.. ليس الأن.. الآن لم يكن وقت البكاء.. حان الوقت

لتقف قوية وتسند أوس الذي لطالما وقف في ظهرها ومنع وقوعها.. انه دورها الآن.
خوفها كان يقتلها ولكنها لن تستسلم، لن تترك قلقها يسيطر عليها بل هي ستسيطر عليه، هي ستقف وتواجه مخاوفها ولن تخر راكعة ولن تهرب.. هذه المرة ستواجه ولن تهرب.
وفي الجهة الأخرى كانت تراقب الشيخ الذي جاء في موعده كالعادة، وبدأ وصلة قراءة سورة البقرة بصوت مبحوح خاشع وكفه تستريح على بطن جساس..
كانت تراقبه يرفع يده عدة مرات ثم يعيدها، ورأت الاضطراب على وجه الرجل فتركت صمتها واقترب منه تسأله بقلق:
-هل من مشكلة؟
نظر لها الشيخ بتوتر ثم همس:
-انها الحمى.
نظرت لجساس ورأت وجهه الأحمر.. رباااه لقد كان جسده كله محمر وكأنما بداخل فرن .. وضعت كفها على جبينه لتشهق بذهول وهي تشعر بالحمى القوية والتي كادت تحرقها..

-يجب أن يراه طبيب.
هتفت بجزع ولكن الشيخ قال لها:
-انها بشارة التحسن.
رأت جساس ينتفض بقوة وأنفاسه تتسارع لتصرخ مذعورة:
-انه يموت..
خرجت راكضة تصرخ للطبيب.. عادت به وممرضة والتي باشرت بتعليق محلول خافض للحرارة بينما الطبيب يراجع مؤشراته الحيوية ورأته ينظر للجهاز بقلق ثم يقول للمرضة:
-استدعي باقي الفريق، وجهزوا لإجراء غسيل معدة مجدداً، ثم حضروا حمام الثلج، ان حرارته تجاوزت الواحد والأربعون. انه يدخل في حمى دماغية..
تراجعت صوان شاهقة بألم ورأته يقومون بكل شيء .. الغسيل ورأت القيئ الأسود يتحول تدريجياً الى لون الدم الصافي ثم يتوقف تدريجياً.. رأتهم يعلقون له المزيد من المحاليل، ثم يغمرون أطرافه ورأسه تحت حمام ثلج.. كي يخففوا من تلك الحمى،،

راقبت بوجع من بعيد.. بصمت دون تدخل سوى بترديد الدعاء دون توقف، عينيها متسمرتين عليه بحثاً عن اي استجابة.. اي شيء.
بعيدة ممسكة بقلبها بين كفيها راقبته ينتفض بقوة لتنتفض معه وتشهق لشهقته .. رأتهم يقلبونه للجهة اليمنى بينما يستمر بالانتفاض والشهيق وكأنما روحه تُنتزع منه .. رأت ذراعيه تتخبطان .. يحاول الوصول الى شيء يركل بساقيه والأطباء حوله جن جنونهم..
انهارت على الأرض تغلق عينيها بقوة .. وتسد أذنيها بكفيها وتصم نفسها عن الجنون حولها..
انتهى الأمر..!!
شهقت باكية ولم تجرؤ حتى على سماع أنفاسها..
لا تريد ان تسمع .. الفوضى ..
كانت حولها فوضى .. نشجت بجنون وهي تمنع نفسها من الاستيعاب..
سيموت .. !! جساس سوف يموت..؟!
لتشعر بالتربيت على كتفها.. انتفضت وتراجعت للخلف وهي ترفع عينيها للمرضة التي نظرت نحوها بتعاطف..

-هل انتهى الأمر؟
همست بانهيار..
-لم لم تحاولوا انقاذه؟؟ لم لم تنقذوه؟؟
ناحت بوجع لتهمس لها الممرضة:
-ولكنه لم يمت.. تعوذي بالله يا أنسة..
اتسعت عينيها بذهول وانتظرت الكلمات من فم الممرضة بلهفة لتبتسم تلك وتبشرها:
-لقد استيقظ.
جحظت عينيها حينها ولم تكن تحلم حتى بهذا..
-ولكنه كان ينتفض.. كان...
تلعثمت ولم تجد ما تقول لتهمس لها الممرضة:
-لقد استيقظ فجأة.. وكان انبوب التنفس لايزال في مكانه، الجميع يصاب بالجنون ان استيقظوا ولا يزال انبوباً محشوراً في قصبتهم الهوائية.
اتسعت عينيها بذهول وهي ترنو اليه..
رأت صدره يعلو ويهبط بتتابع سريع، لم تعرف كيف نهضت.. وكيف أصبحت تشرف عليه، كان وجهه شاحباً وشفتاه مشققتان، لا يزل انبوباً رفيعاً ينزل عبر أنفه ولكن ذلك الأنبوب الغليظ اختفى من فمه..

وكأنما شعر بوجودها حوله فقد رفت عيناه ببطء قبل ان يفتح جفنيه وتغرق هي في عينيه المحتقنتين، ويغرق هو بها..

-صواان؟!

همس ببحة جعلتها تنهار في لحظة ببكاء حار وهي تتوسد صدره..

عائد من الموت، هكذا كان.. في معجزة غريبة ليس لها تفسير سوى أنها معجزة حقاً..

-أوه يا رب الكون..

هتفت باكية لا تعرف هل تسجد من الفرح أم تبقى تنظر اليه.. تشعر بحرارة جسده وحيويته..

-جساس؟!

هتفت متسائلة وكأنها تريد أن تتأكد حقاً ليفتح عينيه بإرهاق ويده ترتفع ليلامس دموعها:

-مالذي حدث صوانة، لم انا هنا؟؟ لم تبكين يا جنتي؟

أصابتها الكلمة كسهم ناري أشعل روحها وجعلها تتلوى بالحنين لتلك الكلمات التي تُشعرها أنها أنثى.. أنثى كاملة وكلها ملكه..

-أنت.. أنت تعبت فجأة.

همست مجيبة بألم ليعقد حاجبيه بتيه ويبحث في عينيها عن اجابة لا تملكها هي نفسها..

-لا ترهق نفسك بالكلام يا جساس.

تشبث بيديها وهمس بضيق:

-لا تتركيني صوان، لا تتركيني في جحيمي وحدي يا جنتي.

انهمرت دموعها بألم، واقتربت تحيط كتفيه بذراعها وتقرب رأسه الداكن لتغمره بصدرها وهي تهمس أنها لن تتركه.. ليس الآن على الأقل.. ليس الآن..

***

حين وصل سيف كانت تجلس على باب غرف العمليات بشرود، لسانها يردد الأدعية ولكن عقلها كان غائباً في مكان بعيد، دمعة يتيمة تنساب من عينها ببطء، ووجهها شاحب لا يُفسر.

-ترنيم؟!

هتف سيف لترمش بعينها قبل أن تدير له وجهها..

-هل انتهت العملية؟

-ليس بعد.

جلس الى جوارها وقال يطمئنها بما لا يملك من اطمئنان:

-سيكون بخير، انه عنيد.. ورأسه كالثور، سيكون بخير.

التوى فمها بشبه ابتسامة.. كان يطمئنها أم يطمئن نفسه؟؟ انه قلق هو الأخر.. والقلق على أوس يوازيه قلقه على أخيه كما يبدو..

-كيف هو جساس؟

تساءلت تريد الخروج من دوامة التفكير:

-لقد استيقظ.. والدي معه الآن وصوان.

-ووالدتك؟

تساءلت ليظلم وجهه ويهمس بثقل:

-غادرت.. انها متعبة ولا تقدر على البقاء في المستشفيات..

عقدت حاجبيها واستندت بظهرها الى الحائط ليسألها:

-هل انت بخير؟

-سأكون بخير حين يخرج أوس.

تنهد بعمق وأسند رأسه مثلها، في الانتظار..

والذي دام لساعات، رفضت ترنيم ان تتناول لقمة واحدة.. أحضر لها سيف بعضاً منه والذي تركته دون حتى أن تمس منه شيء. لم تغادر مكانها من أمام غرفة الانتظار الا لتصلي.. صلت طويلاً في مصلى مغلق بالقرب من جناح العمليات..

ثم عادت مكانها..

-كم مضى من الوقت؟

التفتت لتجد فاطمة تجاورها وتضغط على كفها بحنان، لم تكن تحتمل هذا الحنان حالياً كان قلبها متضخم بالقلق، لقد تأخروا كثيراً..

-لا أعرف.. لقد مضت ساعات.

همست بصوت مخنوق لتحيط فاطمة كتفيها بذراعها وتقربها منها هامسة:

-سيخرج بأفضل حال.. سيعود لينير حياتنا كما اعتدنا منه ان شاءالله.

انسابت دموعها بغزارة وهي تفكر للحظة أن أوس لن يخرج من تلك الغرفة.. ليس على قيد الحياة على كل حال. بكت الدفء الذي شعرته بين ذراعي فاطمة والذي افتقدته كثيراً..

عانقتها بالمثل وتركت لدموعها العنان..

سمعت حينها صوت وقع الأقدام جوارها رفعت عينيها لترى الزي الأزرق المميز.. هبت على قدميها ووقفت أمامه عينيها متسعتين بانتظار ما سيقول..

-لقد فعلنا كل ما في وسعنا.. لم يعد أمامنا سوى الانتظار.

لهثت بقوة وعينيها تنتظر كلمة أخرى منه.. ولكنه صمت.

-مالذي تعنيه بهذا؟؟ أين هو أوس؟

-الكابتن سيخرج للعناية في غضون دقائق.. ولكن نتيجة العملية لن تظهر حتى يستيقظ تماماً.

-هل تعني أن العملية لم تنجح؟

همست بشحوب ليبتسم باقتضاب ويضغط على جسر أنفه بإرهاق:

-لقد أزلنا كل الورم الدموي، والضغط خف بشكل كبير، حالة العصب البصري نفسه للعين اليمنى لاتزال غير واضحة، أما يُسراه فالتهتك كبير، 60% من قدرة الإبصار لن تُستعاد ولكن بشكل كبير الأمور لن تحسم حتى يستعيد الكابتن وعيه ونفحص قدرة عينه الكاملة.

ابتلعت ريقها:
-هل يمكن أن أراه؟
همست بشحوب ليرد:
-ليس الآن، أعطه بعض الوقت ليخرج من التخدير العام، سوف يكون بخير سيدتي، لا تقلقي.
ثم انصرف شعرت بفاطمة تنهض وتعانقها باكية بفرح:
-حمداً لله .. حمداًلله..
ولكنها قلقة.. عانقت فاطمة بتعاطف وقلبها لم يطمئن بعد، لا تزال قلقة .. خائفة..
جلست مجاورة لفاطمة التي كانت تحاول اقناعها أن تأكل القليل وهي كانت تفكر بكل شيء عدا الطعام.. كيف تأكل وهي تشعر بحجر يربض على معدتها.. ؟!
لم يسمحوا لها برؤيته حتى بعد ساعة كاملة، كان رأسه أسفل ضماد سميك، وعيناه مغلقتان بضماد واقٍ من الضوء. اقتربت لتجلس جواره على الفراش يد تلامس كفه الرابضة على صدره والأخر تلامس وجنته وذقنه التي استطالت

وباتت تحتاج الى تشذيب، وابتسمت وهي ترى تململه وقبضة أصابعه التي اشتدت حول أصابعها بضعف..

-ترنيم؟!

همس ببحة قبل أن يزدرد لعابه بصعوبة وهو يطلب بعض الماء فتقرب من فمه الكوب الورقي الصغير الموضوع الى جواره على الطاولة وهي تهمس:

-اشرب ببطء حبيبي.

ابتلع بصوت مسموع وعاد ليسند بظهره الى الوسائد، وهو يقول:

-هل انتهى الأمر؟

ابتسمت بحنان:

-يكاد ينتهي أوس، انهم بحاجة لأن تفتح عينيك يا روح الروح.

ابتسم بصعوبة..

-بإمكاني نزع هذه الضمادة الغبية.

-لا لا تفعل.

هتفت بجزع لترى ابتسامته العابثة لتشعر بالغيظ وتهتف بحنق:

-لا تتصرف بحماقة أوسي، يجب أن يأذن لك الطبيب.
-أعرف يا قطتي ولكن أردت أن أعرف مدى خوفك عليّ؟
قالها بعبث لتهمس بالقرب من أذنه:
-أخاف عليك اكثر من نفسي أوس، إياك أن تظن أنني ولو للحظة لا أشعر بالقلق.. أو الخوف عليك يا زوجي الحبيب.. قلبي وعقلي.. كل جزء من جسدي يرتجف.. ويتوق لأن يطمئن عليك.
-هل أغلقتِ الباب؟
قال بخشونة وعبارتها المثيرة تدغدغ خلايا مخه لتبتعد ضاحكة تمسح دموعاً تجرأت وانسابت على وجنتيها:
-أنت مجنون، نحن في مستشفى..
-لقد كنا في مستشفى من قبل..
قالها بتكشيرة ضاحكة لتضحك من أعماق قلبها وتهتف بحنق:
-لم تكن قد خرجت من عملية معقدة استمرت لساعات، والآن عليك أن ترتاح..
ابتسم ورفع ذراعه يطلب اقترابها:

-لا تذكريني فأنا لا استطيع الشعور بساقي بعد.. هل هذا طبيعي؟

اقتربت تلجئ لذراعه وتتكور بالقرب منه، مستكينة على خفقات قلبه:

-نعم.. لا تقلق انه تنميل سرعان ما يختفي، سيفعل بالتدريج يا أوس.

-ممتاز..

سمعت حينها صوت قادم من معدته جعلها تضحك بينما يقول:

-أنا جائع ترنيمة.

-وانا أيضاً.. أنا لم أكل شيئاً..

-هل مسموح لي بالطعام؟؟

-سأسأل الطبيب..

أحاط بها بذراعه الأخرى وهتف:

-لننتظر حتى يقرر طبيبي المحترم زيارتي بنفسه.. لا اريدك ان تتركيني.

ابتسمت واندست بين ذراعيه أكثر.. وهي تغمض عينيها وتشكر الله كثيراً.. وتدعوه أكثر.

....

بعد ثلاثة أيام..

راقبته من بعيد، الطبيب كان يعاينه ومن السور البادي على وجهه عرفت أنه بخير، أمس أعطوه أخر قربة دم، ربما كانت الثامنة وربما أكثر، لم تكن تعدها، اليوم ساعده سيف على النهوض والمشي حول الغرفة.. وهي.. هي أطعمته بيديها. والآن هذا يكفي..

اقتربت منه ورأت ابتسامته تلون وجهه الشاحب:

-الطبيب قال أنه بإمكاني الخروج غداً صباحاً.

-هذا جيد.

همست بتعاطف ..لتتسع ابتسامته:

-لن نعود لفيلا الشاطئ، سوف نذهب الى منزل عمتي فاطمة.. سنبقى في الملحق حتى ينتهي بناء منزلنا.

مالت برأسها ببرود :

-أنا لن أعود الى الملحق يا جساس.

ظهر القلق في عينيه ثم قالت بارتباك:

-الى أين تودين أن نذهب؟

هزت رأسها بحركة بطيئة:

-لا شأن لي بك يا ابن عمي، منذ الآن نحن.. انتهينا.

اتسعت عيناه بجحوظ، بينما تقترب منه صوان ليلاحظ أنها ارتدت عباءتها الكاملة استعداداً للخروج:
-أنا سأرحل..
همست متلعثمة فتسارعت أنفاسه وظهر الغضب العاصف في عينيه لتهتف تسبقه:
-أنت طردتني يوماً من حياتك جساس، أهنت كرامتي ومرغت حبي لك في الأرض، لم تراعي حرمة أنني ابنة عمك، زوجتك..
تكلمت بمرارة.. خدشت برودها فأدمته لتنزف دموعاً حارقة بللت وجنتيها وهي تضيف:
-أنا لم أعد أحتمل، بقيت معك كأي زوجة تعرف الأصول وتربت على ذلك، والآن أنت ستعود لبيتك.. وأنا.. أنا سأعود لمنزلي.
-ستتخلين عني؟.
همس بخشونة والرعب من كلماتها يغزوه ،تطعنه بلا رحمة وصور من عذابها في الايام الأخيرة تهاجمه وهو لا يعرف أي شيطان تشبث بعقله وجعله يفعل ما فعل؟!

-يجب أن نبتعد.. معاً .. نحن نؤذي بعضنا.. ندمر الحب الذي كان يجمعنا.

قالت بألم ليرفع حاجبيه مستنكراً:

-كان؟؟

ثم نهض يعترض طريقها.. تراجعت ولكنه أمسك يدها بقوة وهتف بلهفة عاشق:

-صوان مالذي تقولينه؟؟ كيف لكِ أن تهربي مني بعد كل ما حدث؟

صوبت نظرة حارقة نحوه وهتفت بعذاب:

-الذي حدث أنك ضربتني.. حبستني وعذبتني.. هل أذكرك بما فعلته بي جساس؟؟

أفلتها وتراجع ينظر لها بذهول.. هو لا يكاد يستوعب الأحلام التي كانت تهاجمه في غيبوبته.. كان يرى أنه يخنقها ويعذبها.. ولكنه لا يمكن أن يفعل هذا.. مستحيل..

-أنا لم أفعل..

تحشرج صوته لتبتعد عنه صارخة:

-لقد فعلت اسوأ.. لقد دمرتني.. حطمت حبي لك، دون أي سبب سوى شكوك عقيمة في رأسك.

-صواااان .. لقد وعدتني أن لا تتركيني؟ لقد وعدتني بالبقاء معي؟
هتف بها محذراً ولكنها لم تعد تأبه.. لم تكن لتبقى معه.. ليس بعدما أخيراً وقف على قدميه.
-صوان انتهت بالنسبة لك.. أنت بخير الآن، أنا لا .. لا أستطيع.
-صوااااااااان..
صرخ باسمها بلوعة ولكنها لم تنصت.. استدارت عنه ومضت شبه راكضة للخارج.. وقف ينظر في اثرها بذهول، لقد تركته. تخلت عنه للمرة الألف ربما..
تهالك على كرسي قريب، وعيناه تشخصان للأمام بصدمة ،، صوان هجرته.. وهذه المرة كانت بإرادتها.. وحدها.
خرجت تتعثر بدموعها وارتطمت به..
-سيف؟!
هتفت باكية ليقبض على ذراعها ويسحبها خلفه بحزم:
-الى أين تأخذني..؟

-يجب أن نتكلم، لقد سمعت كل شيء بينك وبين جساس.
لم تفهم.. ولكنها كانت مصممة ألا تتركه يؤثر عليها مهما كان السبب..
-أنا لن أغير رأيي.
هتفت بعناد رغم دموعها ليشخر بسخرية ويدفعها نحو غرفة جانبية ويزيح من على بابها علامة تشير لخلوها من المرضى وأشار لها لتجلس على مقعد قريب:
-اجلسي فلدينا الكثير لنقوله.
جلست بارتباك وهي تحاول السيطرة على دموعها بمناديل ورقية وجلس سيف مقابلها ليقول بحدة:
-ما سأقوله لكِ صوان، لم يعرفه أحد سواي أنا ووالدي، ولا أريد حتى الجساس أن يعرفه.
عقدت حاجبيها وصمتت بينما سيف يحاول تجميع أفكاره والقاءها عليها بطريقة ما:
-ما سأقوله لكِ يؤلمني بقدر كبير، ولا أستطيع إلا أن أطلب منكِ أن تفهميني، وتقدري حساسية الموضوع.

-يا الهي سيف أنت ترعبني أرجوك تكلم.
هتفت بقلق عظيم جعل سيف يلتقط نفساً عميقاً ثم وبكلمات مختصرة يقص عليها ما فعلته والدته، وشرح لها السبب وراء تصرفات جساس الغريبة وصوان تنظر اليه بذهول دون أن ترمش عيناها.
-والدتي أخطأت صوان، ارتكبت اثماً بحقك.. وحق جساس وحق نفسها وفوقكم كلكم ارتكبت اثماً عظيماً بحق الله سبحانه تعالى ..
-انها مجرمة.. مريضة ويجب أن تسجن.
هتفت بحقد ودموعها تسكبها بلا توقف ليتقبل سيف الكلمات بهدوء دون أن يرد فتنهض صوان وتدور حول الطاولة بتوتر وهي تفرك يديها ببعضهما قائلة:
-كيف تفكر.. كيف تستطيع؟ لقد كادت تقتل جساس، كل هذا لتفرق بيننا؟؟ ماذا فعلت لتكرهني بهذه الطريقة؟ تريد التخلص مني؟ أو من ولدها؟؟
دعك سيف جبينه وهو نفسه في حيرة فوالده قد أبلغه بكل ما حدث دون أن يعرف منه الاسباب نهائياً اعتراف شيماء بالتعاون مع عمتها

واحضارها لعينه ن المادة التي كانت تضعها في قهوة جساس كان دليلاً لا يقبل الشك.. أما أسبابها فتلك كانت سر بقي مطوياً مع والدته التي تكاد تفقد صوابها.

-هل أبلغتم الشرطة؟

هتفت صوان بغيظ لينظر لها سيف بذهول:

-عن أمي؟ هل جننتِ صوان؟

-بل هي من جنت، تسحر أخاك.. وتسبب له تسمماً يكاد يودي بحياته بكل تلك المواد الغريبة التي كانت تسكبها في شرابه وطعامه.

صاحت بعنف ثم أشارت للباب:

-اذهب واسألها سيف .. اسألها ماذا فعلنا بها لتكرهنا بهذه الطريقة؟؟

-ليس لدي الاجابة صوان، ولا أقدر .. ولكنني أريدك أن تعطي جساس الان وقد تعافى الفرصة، أمهليه أن يعود بكما الى قبل مرحلة السموم هذه.. أنت بحاجة له كما هو يحتاجك..

خفضت عينيها بألم وهمست:

-لقد دمرت كل شيء بيننا سيف، جساس وأنا .. لا اعرف..!!

-بل تعرفين.
هتف بحنق ثم نهض ليواجهها:
-جساس يعشقك، هذا لم يتغير. وأنتِ.. أنتِ المرأة التي وقفت أمام يأسه وأخرجته من كل جنون فيه ومزقت عباءة الحزن وألبسته السعادة صوان ..
-أنا هجرته لتوي.
همست بذعر ليزفر بقهر:
-أنتما بحاجة للوقت بحاجة لأن تذهبي اليه الآن وتخبريه أنكِ لن تتركيه..
نظرت له بعينين متسعتين وكل تفكيرها ينهار..
جساس لم يكن يكرهها.. جساس كان مسحوراً أو شيء من هذا القبيل.. هو لم يبغضها هو لم ينفرها بإرادته..
-جسااس..
همست بألم وتذكرت أخر نهار بينهما قبل أن يتغير.. وشهقت بألم لتسكبها دموعها بانهيار..
-صوان؟!
-أنا يجب أن أذهب اليه..
هتفت وهي تركض نحو الباب..
-لا يجب أن تخبريه..

هتف بها بسرعة لتنظر له بحنق فيطلب منها بضراعة:
-جساس لن يتحمل معرفة الحقيقة.. ليس وهو بهذه الحالة.
مسحت دموعها بظهر كفها وهمست بعذاب:
-بعض الأمور لا يجب أن تُقال سيف، جساس قد يكرهني ان عرف بأمر كهذا مني أنا.
ثم سارعت بالخروج وهي تلملم حجابها حول رأسها عائدة اليه..
لم يكرهها ..لم يكن ينفر منها..
بكت بألم وهي تقتحم غرفته .. رأته يقف أمام النافذة..
"جسااااس"
هتفت بقوة ليلتفت نحوها بذهول ودون أن تتردد كانت تركض لترتمي بين ذراعيه..
تيبس في مكانه ولم يقدر حتى على مبادلتها العناق..!!
-سامحني، أرجوك حبيبي سامحني.
هتفت تستجديه بينما يقف هو متصلباً دون حراك..

-كنت غبية جساس، ضيعت سنوات من عمرنا وها أنا كدت أضيع الباقي.. ولكنني لم أستطع.
همست بمرارة.. تدفن وجهها في صدره ولا تقدر على النظر اليه.. الرفض والنبذ كابوس يجب أن تتجاوزه، لا يجب أن تفكر فيه أبداً..
-أحبك جساس، منذ وقت طويل وأنت تعرف وتدرك هذا، لم يكن سواك في حياتي ولن يكون..
"صواااان؟!"
همس متلعثماً لتنظر الى وجهه.. لم يكن هناك رفض بقدر ما كان هنا توتر وارتباك عظيمين..
-لماذا عدتِ؟؟ لماذا رحلتِ؟؟
تساءل بارتباك واضطراب لتهرب بعينيها:
-لأنني خائفة.. المرض الذي أصابك جعلك تخرج عن وعيك في كثير من الأوقات وأنا.. أنا خفت كثيراً جساس، وخوفي من فكرة فقدانك اكبر.
رفعت له عينيها وهمست بثقل:
-لا أريد الابتعاد عنك حبيبي.. أنت نعيمي، جنتي.. روحي وحياتي كلها.
-رباااه ..

صاح بانفعال وهو يقربها ويضمها بين ذراعيه بقوة كادت تكسر ضلوعها، يستمع لبكائها وتوسلاتها أن يسامح ويعفو واحساس عميق بداخله يتصاعد أنه هو من يجب عليه أن يعتذر.. أن يتوسل وهي.. هي من عليها أن تسامح..

-هل ستسامحينني أنتِ؟

همس لعينيها وهو يقبلهما بشغف لتفتحهما بتردد وتحدق به فيهمس مجدداً:

-هل ستغفرين لي كل السوء الذي ألحقته بكِ؟! قسوتي وخشونتي معكِ؟

-لقد غفرت لك منذ زمن جساس.. من قبل أن تخطئ حتى.

-هذا يعني أنكِ لن ترحلي مجدداً..؟؟

قال بلهفة لتحرك رأسها بنفي:

-أبداً أبداً..

أكدت بحب وهي تعاود الاندساس بين ذراعيه وتهمس اسمه بلا توقف.. فيغرقها بعناق حميم شغوف وقلبه يخفق بجنون مؤكداً حبه اللامحدود لمجنونته التي أطارت صوابه وعصفت بكيانه

وحملت أوجاعه الى عالم من العشق والغرام لم يعرفه مع سواها..

***

وفي المقابل.. وقفت ترنيم أمام أوس والطبيب المعالج وهو يرفع اصبعه محذراً:

-سوف تكون النتيجة الآن مبدأيه كابتن، وهذا يعين أننا لدينا فرصة لتعديلها بالعلاج بعد الجراحة التي قمنا بها.

-هيا دكتور.. أنا لم أعد أطيق الانتظار.

قالها أوس بنفاذ صبر جعل ترنيم ترتجف وهي تفكر أنه قد يصاب بصدمة حياته ان لم ينجح الأمر، ماذا لو كانت الجراحة فاشلة؟؟!

فكرت بهلع .. ما قاله الطبيب عن العلاج بعد الجراحة مجرد هراء،، ليطمئن مريضه لا غير..

وأوس لم يكن غبياً.. وهو يعرف هذا تماماً.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تتابع كيف خفض الطبيب من اضاءة الغرفة وبدأ ينزع واقي العينين عن أوس .. حتى انتهى.

-افتح عينيك كابتن.

ولكن أوس لم يتحرك، بل رفع ذراعه ينادي ترنيم:
-تعالي ترنيمتي، أريدك ان توني أول ما تراه عيني.
انهمرت دموعها بغزارة وكادت تهرب حقاً ولكنها لم تفعل، بل تقدمت لتجلس مكان الطبيب الذي تراجع مدمدماً بعصبية عن مزاج مرضاه الغريب..
-هل تجلسين أمامي..؟
اومأت فابتسم بعبث:
-هل تومئين ترنيم .. أنا لم أفتح عيني بعد؟
تحشرج صوتها وهمست:
-نعم..
مط شفتيه وتنهد بصبر:
-حسناً لا بأس.. سأمسح دموعك فيما بعد وبطريقتي.. ولكن حالما نتخلص من الطبيب.
ابتلعت ريقها وهمست بتأثر:
-وكيف نتخلص منه.. أنت لم تفتح عيناك بعد؟!

رأت جفنيه يتحركان وبسرعة كان يقبض على كفيها ويرفعهما الى عينيه يغطيها بهما ويقول بجدية:

-حتى وإن لم تركِ عيناي ترنيمة.. قلبي سيراكِ على الدوام يا قطتي.

شهقت باعتراض ولكنه كان أسرع منها وخفض كفيها لتظهر عيناه الرماديتان كغيمتين مهددتين بنزول المطر.. حبست أنفاسها وهي ترى بؤبؤ العينين يضيقان تأقلماً مع ضوء الحجرة الجزئي، وعقدة مربكة تتكون بين حاجبيه..

-أوس ؟!

لعدة دقائق لم يتحرك.. ثم ارتفعت يده لوجهها أصابعه تتحسس وجنتيها، أنفها.. ثم عينيها،، نزولاً حتى شفتيها،،

-كنت سأنظر اليكِ هكذا..

سألمسكِ وأعرف تفاصيلك التي حفظتها عيناي بأناملي..

كنتِ ستبدين جميلة جداً.. وكنت سأعشقكِ من جديد..

همس بثقل لتتسع عينيها وهي لا تعرف كيف تفسر كلماته المثيرة..
-كنت سأتعلل بالعمى لأتحسس طريقي الى شفتيكِ بنهم .. كل ليلة.. كل ساعة.. لم أكن لأرتوي.. ولن أرتوي.
-كنت؟!
همست بذهول ليبتسم لعينيها وتنضخ عينيه بابتسامته:
-كنت يا ترنيم، فالله قد رأف بعقلي المسكين الذي لن يتحمل جمال احساسك وملمسك دون أن يرتوي بملئ عينه منكِ.. رحمني الله وأعطاني نعمة أخرى كي أعشقكِ بها..
واقترب يسند جبينه لجبينها هامساً:
-أنا أراكِ يا مليكتي.. أرى عينيكِ وابتسامتك.. أرى تفاصيلك الصغيرة التي لم أرها من قبل..
-أووسي..
هتفت وهي ترتمي على صدره تعانقه وذراعيها تتسلقان لتحيطا بعنقه وهي تعاود الصراخ باسمه بجنون لا تكاد تصدق ..
لقد نجحت عمليته.. هو يراها.. أوس يراها فعلاً..

ابتعدت عنه بمقدر ضئيل لتنظر لوجهه وتهتف دون ان تصدق:

-أنت تراني، أوسي هل تراني فعلاً؟؟

-نعم يا قصيرتي، أراكِ.. بحجابك الأخضر والتفاحة البرتقالية على طرفه..

قالها ضاحكاً لتتسع عينيها بذهول وهي تتأمله.. ثم تغرق وجهها في صدره وتجهش بالبكاء، بعد أن انزاح هم أيام طويلة عن كتفيها وتركها ممرغة بالسعادة، الطاقة التي تفجرت من اعماقها كانت مجنونة لدرجة أنها تكاد تطير،، وبنفس الوقت كانت لا تريد أن تفعل شيئاً وتخسر نعمة ذراعيه التي حولها، ولو مجرد التصحيح له أن التفاحة البرتقالية ليست سوى برتقالة!!

-هل سنعود الى البيت الآن؟!

همس بثق لأذنها وحدها فتبسمت بحنان وتحدثت كأنها تكلم طفلاً صغيراً:

-لا يزال أمامك وقت طويل كابتن.

ابتسم بأسى حاول أن لا يظهره لها:

-ولكنني أريد البقاء معكِ وحدنا ترنيم.. أريد ان أعوض كل الوقت الماضي، أريد أن أنفرد بكِ لوقت طويل.

تضرجت وجنتيها بحمرة قانية وضربته بقبضتها بخفة:

-انتبه لألفاظك نحن لسنا وحدنا.

ضحك بمرح:

-الطبيب غادر منذ قررت الجلوس على ركبتي يا صغيرتي.

-رباااه أوس أنت لا تطاق.

هتفت قافزة مبتعدة عنه وهي تخفي وجهها بين كفيها وتركض هاربة تكللها نظرته..

السعادة احساس مؤقت ربما..

ولكن قواعده متغيرة.. متبدلة.. متعددة.. ولذا فنحن تسعدنا أبسط الأشياء..

كضحكة على شفاه طفل، وخربشة قطة شقية ، كابتسامة أم.. ودعوة أب صادقة..

السعادة في أبسط أشياءنا وأقربها الى قلوبنا..

السعادة في الماضي وفي التخطيط للغد..
لا تدع الحزن يغمر قلبك.. واترك ترانيم الألم ولا تغنيها..
ارسم فرح .. نعزفه على أوتار حياة شقية فنسعدها
فالسعادة الحقة تظهر حين ننقشها في عيون الأخرين..

...

النهاية
عبير محمد قائد

الخاتمة

هل انتهينا أم أن انتهاء العذاب أولى..
بعد شهر..
مدينة دبي ..
الاستعدادات على أوجها ، المنزل الكبير يشتعل بالأضواء والفرح يعم الجميع..
انه الفرح الذي طال انتظاره..
ابتسامات توزع والترتيبات مستمرة على قدم وساق..
انه زفاف الجساس والصوانة ♥
-هل يبدو جيداً؟؟

تمتمت بحذر وهي تستدير لتقابل عيني زوجها الذي ارتفع حاجبه بحنان:
-تبدين جميلة.
عادت لتنظر في مرآتها وتنفث ضيقها من بين شفتيها ، فثوبها باللون الفستقي لم يُخفي تكور بطنها ولا الوزن الزائد الذي اكتسبته، بسبب ضغطها المرتفع طيلة الفترة الماضية والذي سيرافقها حتى الولادة كما يبدو، اقترب منها زوجها بينما تهمس بنبرة مخنوقة:
-أبدو بدينة؟
ثم يحوطها بذراعيه من الخلف قائلاً:
-تبدين جميلة.. مثيرة وغاية في الأناقة سلطانة.
تنهدت سارة ومالت على ركان هامسة بضيق:
-يزداد وزني باستمرار.. ولا شيء يناسبني بعد اليوم أنا بحاجة لخزانة جديدة.
ضحك بتسلية وغمرها بين ذراعيه:
-يسعدني على الدوام أن أخرج معكِ للتسوق.
استدارت وتعلقت بربطة عنقه وغمغمت بدلال:
-هل ستحبني الى الأبد ركان؟

تساؤلها حمل عدم ثقة جعل قلبه ينقبض بألم، ولكنه يفهم.. هو السبب بعدم ثقتها والتي لن تستعيدها بهذه السرعة ولا السهول، انه يحتاج للوقت، والصبر كي تثق به كما كانت.. وأكثر.

-حتى الأبد يا سلطانة قلبي وروحي.. هل لديك شك؟

رفت بعينيها وهزت رأسها والذنب يلون وجنتيها بحمرة خفيفة جعلته يتنهد وينزل رأسه ليقضم من وجنتها بخفة جعلتها تشهق قبل أن تسلم ذائبة:

-أعشق هذا الوزن الزائد، لم تكن لديكِ وجنتين من قبل يا دبدوبتي.

حاولت التراجع ساخطة وبدأت تضرب صدره بقبضتيها وهو يضحك بعلو صوته لتجد نفسه مضطرة أن تشاركه الضحك على استحياء..

-متى تريدين الخروج للسوق؟

سأل بحنان لتجيب بلهفة:

-غداً.. سنكون قد انتهينا من زواج جساس وصوان.

-حاضر.. أنت تأمرين وأنا أنفذ.

ابتسمت وقبلته بنعومة وهي تعقد ذراعيها حول عنقه بتملك..
ليس من السهل أن نستعيد الثقة.. قد تمر علينا لحظات تهتز قناعاتنا ونشعر بالأرض تنهار تحت أقدامنا، وقد يفرض علينا الحب بعض من التنازلات التي لا يجب أن نتجاوزها، لا يجب أن نساوم عليها..
سنعطي الثقة ولكننا لن نضع رقابنا تحت السكين.. سنكون حذرين ونحافظ على مالدينا بكل قوة وإصرار، مانملكه هو حقنا، ولدينا كل الحق في القتال من اجله..
مهما كانت السبل والنتائج..
على أن لا نؤذي أحدٍ في طريقنا.. إلا من يقف عقبة لنـــا..

~~~

وفي البهو كانت تقف وسط فاطمة والخالة سعاد وتصرخ بحنق:
-لا لا هذا ليس جيداً.. اللافتة هذه يجب أن تعلق هنا.. من الغبي الذي وضعها فوق الثريا.
-أحد العمال بنيتي ومن سيكون سواه..
~~~

قالت فاطمة ضاحكة.. لتزفر بحنق وتتلفت حولها بأعصاب تغلي:

-يجب ان أفعل كل شيء بنفسي.. هؤلاء لا يفهمون أبسط التعليمات..

راقبتها فاطمة وسعاد بحذر.. أحضرت سلماً متوسط الدجات وتسلقت بخفة..

-ترنيم بنيتي انزلي سوف تقعين.

هتفت سعاد بقلق، لتزفر ترنيم بضيق وهي تقف على أخر درجات السلم ولا تكاد تصل الى مبتغاها.. تباً تباً لقصر قامتها وقصر ذراعيها،..

-لم لا يصنعون سلماً لقصار القامة؟؟

صرخت بحنق وهي تشوح بذراعيها لتشهق بذعر وقدميها تتركان السلم وترتفعان فجأة وصوت متهكم يقول من أسفلها:

-أستغفر الله العظيم، من سمح لقصيرتي بالتسلق، ماذا لو وقعت وضاعت تحت أحد المقاعد؟

نظرت أسفلها بعينين متسعتين لترى أوس يحيط بفخذيها ويرفعها لتصل لمبتغاها فهتفت بحنق:

-أنزلني أوس.

رفع حاجبه بمكر :

-انا في قمة الراحة..
-أوس يا حبيبي.. اذا لم تنزلني الان سنقع كلينا وتتكسر عظامنا.
هتفت بغل ليضحك هاتفاً بخبث:
-ويجمعنا جبس واحد.. الفكرة تروقني من الأن.
رفعت رأسها وصرخت بغيظ يغطي احمرار وجهها من وقاحته وصاحت لفاطمة:
-ماما فاطمة أرجوكِ..
هزت فاطمة كتفيها ومضت تقول بهدوء:
-وما شأني بكما، تتشاجرا كالأطفال وحين نحاول الصلح نجد أنكما أكثر من السمن على العسل.
شهقت ترنيم وضيقت عينيها لتخلي فاطمة عنها ثم فكرت باستغلال الموقف، فعدلت من وضع اللافتة وأبعدتها عن الثريا ومن ثم عادت لزوجها الذي لا بد أنه قد فقد جزءاً من عقله:
-والأن كابتن هلا تركتني لأنزل.
لامست كفه ساقها بنعومة وهو يقول بابتسامة:
-وأفوت على نفسي هذا الموقع.. والمنظر.. والملمس؟؟

كانت عيناه تلتهمانها بلا تحفظ من مكمنه أسفلها مما جعلها تحمر بقوة وتبدأ فعلاً بالانزعاج وخصوصاً أنهما في البهو وأي من العمال أو اقرباءه قد يدخل فجأة:

-أوس إن لم تتركني الأن فأقسم أن أُسقط الثريا هذه على رأسك.

ضحك بقوة وبالكاد حافظ على توازنه وهو يكاد يختنق بكلماته:

-رباااه ترنيم، خذي بي شفقة مما أصاب رأسي المسكين.. ألا يكفيه؟

زمت شفتيها بتوتر وهتفت:

-اذاً أنزلني أوس.. أنا جادة أنزلني في الحال.

اتسعت ابتسامته وتجاهل شهقتها المرعوبة وهو يطوح بها لتستلقي على كتفه وساقيها تتحركان في الهواء بينما يقفز هو عن السلم بخفة ويتحرك صوب الباب قائلاً لعمته:

-سوف نغيب بعض الوقت عمتي.. ربما لن نظهر حتى المساء..

ضحكت فاطمة وأشاحت بوجهها عنهما بينما تصرخ ترنيم بحنق وبلا توقف وتضرب ظهره بذراعيها تطالبه بالتوقف وانزالها ولكنه لم يفعل..
استمر يحملها عبر الحديقة الخلفية الصغيرة نحو عريشة من الورد تخفي خلفها أرجوحة قماشية مخصصة لفردين.. وهناك أفلتها لتصرخ بوجهه:
-هل جننت أخيراً أوس؟
قبض على ذراعيها بتملك وقربه منه وهمس بصوت أجش:
-ماذا كنتِ تفعلين معلقة على السلم وساقيك مكشوفة للعلن؟؟
شحب وجهها وهي ترى عاصفة تلوح خلف عينيه لتهمس ببراءة:
-أنا أرتدي ثوباً ساتراً.
زمجر:
-وأنت واقفة على الأرض وليس وأنت معلقة في الهواء، ثم مالذي كنتِ تفعلينه فوق؟؟ هل جننتِ ترنيم؟؟ أنسيتِ أنك حامل؟؟
هتف بغيظ لتكشر رغماً عنها بابتسامة تجتاحها ما أن يذكر أمر حملها الذي أخفوه عن الجميع

حتى يحصلا على تأكيد طبيب بدل الفحص المنزلي:
-وأنت نسيت أنني حامل حين حملتني رأساً على عقب.. الآن أنا وابنك مصابان بالدوار.
همست مغيظة قبل أن تلف وتلقي بنفسها على صدره فيتلقفها ويحملها بين ذراعيه دون عناء ويجلسا معاً على الأرجوحة قائلاً بمرح:
-مجنونة.. أنت فتاة مجنونة..
عانقته بحنان وهمست لشفتيه:
-مجنونة بحبك كابتن..
حملت عيناه حزناً خفياً:
-لم أعد الكابتن ترنيم.. هل نسيتِ؟
تنهدت وقبلت وجنته قبل أن تريح رأسها على كتفه وتتذكر كيف أن أصابته بعمى جزئي في عينه اليسرى تسببت أن يفقد وظيفته كطيار، وأنه سخر خبرته للعمل في شركة الملاحة التي تملكها عائلته وأصبح موظفاً لا علاقة له بالتحليق سوى بكونه مسافراً.. حتى طائرته وولف.. تركها في حظيرة الطائرات الخاصة بشركة الملاحة على أمل أنه في يوم ما ربما يتمكن من قيادتها...

ولكنه لن يستطيع أن ينكر أنه يعيش أجمل أيامه معها..
ترنيمته التي أعادت لحياته توازنها وسعادتها..
بل فرحته كلها تلخصت بها.. قصيرته المجنونة..
نور عينيه الذي غطى على كل السواد الذي كان يعيشه، وتركه في بركة من نور ساطع تغشاه.
-هل تشعر بالحنين؟
تساءلت بغصة ليظهر تساؤله في عينيه فتهمس:
-للطيران.. للتحليق..
ابتسم ورد دون مواربة أو تردد:
-حين اكون معكِ.. بين ذراعيك كما الآن.. أشعر أنني أحلق في السماء السابعة ترنيمتي..
تألقت عينيها فقابلها بابتسامة ناعمة:
-أخبريني بالله عليكِ عن طيار وصل الى حيث وصلت اليه انا؟!!
هزت رأسها تنفي.. ثم همست:
-لم لا نذهب بعيداً بعض الوقت؟
ضاقت العقدة بين حاجبيه:
-الى أين تريدين الذهاب؟

-الى أي مكان.. لا يهمني .. كل ما أريده هو أن نبقى معاً.

ثم رفعت عينيها لعينيه وهمست:

-أريد الذهاب لروما.. منزل كمالة أريد أن ألقي عليه نظره.

-ماذا تريدين أن تفعلي به؟

-لا اعلم بعد.. ربما أقوم بتأجيره.. أشعر بالحيرة.

-لا بأس .. سنفكر بشيء ما معاً.

قال بحنان لتومئ ثم تقول:

-وأريد الذهاب الى بحيرة تريفي، لأخر مرة.

ظهرت حيرته لتبتسم وتميل على صدره:

-ستعرف في وقتها حبيبي.

-كما تريدين ترنيمتي.. سننتهي من زواج صوان والجساس وبعدها نجهز لرحلتنا.

ابتسمت بسعادة لتفهمه اللامحدود، بساطته في تعامله معها، كانت مدللته، وهي تعشق أن تتدلل، وهو كان يجيد تدليلها..

أحاطها بذراعيه بقوة لتتأوه بألم:

-أنت تؤلمني أووسي..

رفع حاجبه بمكر:

-اقتربي أكثر وسيخف الألم.
رمقته بحدة و هتفت:
-تحشم نحن في الحديقة.
غمز لها بخبث:
-وحدنا ولا احد يجرؤ على الاقتراب من هذه الجهة، والأن ماذا علي أن أفعل لتعطيني دفعة على الحساب..؟
مطت شفتيها ورفعت عينيها تدعي التفكير بينما تعقد كفيها على صدره، وتنظر في عينيه مطولاً وتلككت:
-سوفليه..
رفع حاجبه وهتف بحنق:
-اليوم؟؟
لعقت شفتيها بنهم وهي تومئ ليفقد سيطرته على نفسه ويغرق في الضحك:
-لا تضحك علي، لقد رفضت اعطائي الوصفة، وعليك تحمل نزواتي.. ثم أنني حامل.. وهذا..
-يكفي .. يكفي ..
هتف ضاحكاً وهو يرفع ذراعيه في الهواء:

-سأفعل لكِ ما تريدين.. أعطني فقط بعض الوقت.. حتى نهاية الحفل.

ضيقت عينيها ورفعت اصبعها محذرة:

-هذا وعد؟

مال برأسه ليسند جبينه لجبينها وهمس بحب:

-أعدك ترنيم،، سأكون الى الأبد بالقرب منك، سأهتم بكِ وأراعيك ولن أتسبب يوم بأذيتك.. سأدافع عنكِ بحياتي، وأعطيك كل ما تشتهيه نفسك يا غرامي.

-أوسي أيها المحتال أنت تعرف أننا في الحديقة.

همست متأرجحة بين الذوبان في غرامها والغيظ منه ليبتسم بسعادة حقيقية:

-أنت ترنيمتي،، ملكي.. ومهما حدث فلن أتوقف يوماً عن التعبير لكِ عما أشعر به وما أحسه نحوكِ سواءاً كنا وحدنا.. أو وسط حشد.. في بيتنا أو في الشارع.. أتفهمين؟!

همهمت برضا عن كونها تفهم وتفهم.. ثم غابت بين ذراعيه.. ونسيت كل شيء عداه..

***

وفي الفيلا ذاك المساء..

كان ينتهي من ارتداء قميصه الأبيض حين سمع الطرقات على باب غرفته..

-تفضل ..

صاح بتوتر وعاد ينهمك في ارتداء باقي ملابسه حين سع نقرات الكعب العالي على الرخام.. التفت بسرعة وتوسعت عيناه بصدمة..

-ماذا تفعلين هنا؟

شهق بالسؤال وهو يرى اقتراب صوان متدثرة بعباءة واسعة وقد تركت شعرها ينسدل حتى خصرها في تموجات رائعة..

-أتيت لأراك.

قالت بابتسامة فحاول جهده الحفاظ على منظره المتزمت:

-صوان.. لقد اتفقنا .. لا لقاءات سرية ولا لقاءات في الظلمة حتى زواجنا.

زمت شفتيها وهتفت بحنق:

-نحن متزوجان منذ دهر.

رفع يده وقال بصرامة:

-بعد حفل الزفاف.

-ان هذا سخيف.

هتفت غاضبة وهي تضرب قدمها بالارض ليرفع حاجبيه ويهتف:
-هل أنت متلهفة سيدة صوان؟؟
زمت شفتيها وقالت بحنق:
-بل أشعر بالسخف.. هذا الحفل سخيف.. اصرارك على اقامته أسخف.. كيف أزف الى رجل وأنا أحمل طفله بين أحشائي.. انظر..
وفتحت عباءتها ليظهر تحتها ثوبها الأبيض القصير وقد برز بطنها مكوراً تحت القماش المطرز ارتفع حاجباه وهو يتأمل ثوبها الناعم بتطريزه الناعم والتموجات الشقية التي تتلاعب بإغراء فوق ركبتيها كاشفة عن ساقين بلانهاية مغلفتين بنعومة جوارب شفافة لامعة ثم ذلك الحذاء الأحمر.. !!
عروس بفستان أبيض وحذاء أحمر..
عروس أحلامه الخيالية..
ابتسم وقال بحنان:
-أنتِ تبدين جميلة صوانة، جميلة جداً حبيبتي.

احتقن وجهها بالحمرة وكادت تغرق معه في كلماته وتنسى ماجائت لأجله ولكنها عادت لعقلها ورفعت ذراعها بتهديد:
-لا تحاول مغالطتي، لا تحرف تفكيري جساس..
ثم أحاطت بطنها تبرزها لعينيها أكثر وهتفت بحنق:
-أنظر اليّ أُزف وبطني تسبقني.
قهقه بمرح واقترب منها يحيط خصرها الممتلئ بذراعه:
-وما أجمل من أن تحملي ثمرة حبنا ونزف بها؟؟ انه تقليد جديد..
-لا جساس.. على جثتي.
-بعيد الشر.
زجرها بعنف لترتمي بين ذراعيه وتهتف برجاء:
-أرجوك جساس.. أتوسل اليك.. رباااه ألم تشتق الي..
ثم اقتربت تتنشق رائحته بجنون:
-لقد مضى وقت طويل حبيبي.. طويل جداً.
قبض على ذراعيها بقوة وتصارعت في نفسه رغبة البقاء قربها برغبة تحقيق حلمها الذي

تنكره اليوم بالزفاف.. حتى الثوب أحضره لها..
بعد أن رفضت القيام بأي شيء لتجهيز نفسها..
ولكنه لم يسكت.. لقد أرادت عرساً وهو أراد ان يعلم العالم الأجمع أنها أصبحت زوجته حتى لو عنى هذا أن يقيما فرحاً بعد شهور من اتمام زواجهما..
-لقد دعونا جميع أهلنا واقاربنا.
قال بتردد جعلها تنتفض بنصر صغير وهي تزم شفتيها بتمثيل:
-ويرضيك أن يراني الجميع هكذا؟؟ يسخرون مني.. !!
-لا احد يجرؤ على السخرية منكِ ، سأحطم فكه وأنزل له طقم أسنانه.
هتف بغلظة ليقفز قلبها لوعة لأجله فتقرب نفسها منه أكثر:
-نحن نرتدي ملابس الزفاف.. تماماً كما أردت حبيبي، لنذهب الأن، شهر العسل بانتظارنا.
-جنتي.. هذا جنون.. والدينا سوف يعلقانني من قدميّ.

رف قلبها للفظ الجنة الذي لا ينفك يقولها لها منذ مصالحتهما في المشفى..

-أنا سأقف معك..

همست تشجعه ثم ابتعدت عنه تتهادى أمامه بالثوب الأبيض القصير وساقيها المديدتين بالحذاء الأحمر، قبل أن تستدير نحوه بأناقة وتهمس:

-سوف تضيع الوقت.. ونعود الى منزلنا أخر الليل مرهقين.. متعبين .. ننام على الفور.

-ومن سيسمح لكِ بالنوم؟

زمجر بتوتر لتهز كتفيها العاريتين وتقول بلا مبالاة:

-الطبيب منعني من السهر والارهاق لوقت متأخر.

-تباً له.

-انه يريد صالحي..

هتفت بغيظ ثم أشاحت عنه وهمست بدلال:

-ويبدو انه الوحيد الذي يفعل..

اندفع نحوها وأدارها اليه:

-مالذي تريدينه صوانة؟

زمت شفتيها وهمست:
-لنهرب..
اتسعت عيناه بذهول ففردت ذراعيها قائلة بحماس:
-ألم تهددني يوماً بالاختطاف؟؟ هيا ها أنا الآن أمامك.. اخطفني..
وتلككت أخر كلماته لتصيب هدفها مباشرة..
وبدون تردد كان يلبسها عباءتها غصباً ومتجاهلاً ضحكاتها المرتبكة:
-فليذهب الحفل للجحيم، والدي سلطان عليه أن يكيف نفسه على الأمر.
كان يحملها بين ذراعيه ويمضي بها من باب خلفي صغير.. نحو الظلام.. حين هتفت مغيظة:
-والحفل؟؟ من سيحيي الحفل؟
-ولم لدينا أخوة؟؟ فليهتف سيف وأوس بالحفل..
فليفعلا مايحلو لهما، لقد تأخرنا كثيراً من الأساس.
-أنت مجنون..
هتفت ضاحكة وهي تتشبث بقميصه الذي لم يكمل ارتداءه ليهتف بحنق:

-اصمتي صوان، أنت تقودينني للجنون؟
وسارع للخروج من الغرفة.. متسللاً بعيداً عن الضوضاء والصخب القادم من قاعة الاحتفالات التي نصبتها عائلته في استقبال الزوار الخارجي..
وبعد ساعتين..
كانت القاعة التي ضجت بالضيوف قبل دقائق فقط.. خالية على عروشها..
ووسط هذا كان حسن الشيب يقف بعينين محمرتين ووجه مكفهر وهو يصرخ:
-سوف اعلقه من قدميه..
أخفى أوس ضحكته ومضى ينظر للسقف بينما والده يهتف بحنق:
-يستأهل، وأنا سأعلقه معك..
-توقفا أنتما الاثنان.. كيف تقولا هذا الكلام عن جساس..
هتفت توبا باندهاش ثم أضافت بغضب:
-هو لم يخطف خطيفة .. انها زوجته وكل ما يفعله من حقه.
-ليس من حقه أن يفعل وقد دعونا نصف المدينة.

هتف نضال بغلظة لترفع اصبعها محذرة:
-أنت بالذات حبيبي.. لا تفتي في هذا الموضوع.
احتقن وجه نضال وأطبق شفتيه بعنف لتضحك فاطمة عالياً ثم تهتف:
-توقفوا جميعاً..
التفت الانظار اليها بانتباه ترتسم على وجهها نظرات حالمة وهي تعانق ذراع حسن زوجها وتسند رأسها على كتفه قائلة:
-اتركوهما لبعض الوقت.. انهما بحاجة للانفراد لوقت طويل، يكفي ماعانياه معاً، ألاتظنون؟
تبادل الجميع النظرات وصمتوا لبرهة قبل أن يقطع أوس الصمت وينهض جاذباً ترنيم خلفه:
-في هذه الحالة لا فائدة من بقائنا هنا، فليعد كلٌ الى بيته، أنا وترنيم لدينا رحلة في مساء الغد، سنودعكم الآن جميعاً.
ابتسمت ترنيم بشغف وهي تودع عائلته وتعانق سلمى وسارة وبالأخص العمة فاطمة التي همست في أذنها:
-اعتني بنفسك جيداً ولا توافقيه على أفكاره الجنونية على الدوام.

ابتسمت بخجل واومأت للمرأة التي ربت زوجها وتعتبره ابنها الذي لم تلده، كانت تعرف أنه قد أخبرها بأمر حملها، وكيف لا.. كان يحاول نشر بهجته حيثما كان كي لا يصاب بالتخمة وينفجر على حد قوله، ولكنها تتفهم قوله لفاطمة بالذات، هي نفسها تعتبرها كأم.

-لا تخافي ماما فاطمة سأكون حذرة.

ابتسمت لها فاطمة وقبلت وجنتيها وأوصتها بزوجها ونفسها مجدداً ثم التفتت لأوس الذي عانقها بقوة وهو يرجوها بخفوت ألا ترهق نفسها وأن تتبع تعاليم الأطباء وتواظب على علاجها..

بعد أيام..

مصر.. المنصورة ..

استقبله البواب كالعادة بكل بشر وترحيب، وسبقه في الصعود الى الشقة العليا، لاحظ في طريقه أن المشغل مقفل..

تنهد واستمر بطريقه الى حيث فتح الباب واستقبلته النظرات الذاهلة..

-مرحباً شيماء، أين هي أمي؟

قال جساس بتوتر لتتلعثم الشيماء وهي تخبره أن والدته في غرفتها.. وقبل أن يتحرك كلمته:
-جساس هل أنت بخير؟
التفت اليها وعقد حاجبيه يفكر بالسؤال ثم ابتسم بتوتر:
-أنا لم أكن بحالة أفضل بحياتي.
ابتلعت شيماء ريقها وهمست بنبرة باكية:
-خالتي ليست بخير.
عبس للحظة ثم اندفع لغرفة والدته دون أن يكلف نفسه عناء الطرق على بابها، كانت ترقد على فراشها وعينيها في عالم أخر..
_أمي؟!!
انتفضت نرجس بقوة واستدارت اليه.. عينيها تتسعان بقوة تكاد تحتل وجهها.. لم يصدق أن هذا الشبح الذي لم يره لمدة قصيرة فقط.. تكون أمه؟!! لقد فقدت نصف وزنها تقريباً..
وجهها شاحب هزيل.. عينيها تلمعان بدموع حبيسة..
-جسااس؟!!

تمتمت غير مصدقة ليسرع ويرتمي بين ذراعيها، احتواها بقوة وقبل رأسها بعمق ثم همس بألم صادق:
سامحيني أمي.. لم أستطع المجيء قبل الأن..
-أنت بخير؟!
همست بذهول وهي تتحسس وجهه ليومئ فتبكي بارتياح وهي تعانقه تحمدالله بلا توقف..
-سامحني بني.. أرجوك ان تسامحني..
اغلق عينيه بقوة.. يسامح؟؟
ربما لا يستطيع أن يغفر كلياً ماعرف مؤخراً أنها فعلته.. ولكنه لا يقدر على لااستمرار بالغضب والألم.. لم يخبره والده أو سيف مافعلته أمه.. ولا حتى صوان، كان الشيخ الذي يقرأ عليه هو من أخبره .. الشيخ الذي حذره من تناول طعام أو شراب لا يعرف مصدرهما.. الشيخ الذي طلب منه قراءة سورة البقرة يومياً ليقيه من السحر وعمائله.. حينها أدرك..
لم يكرهها أبداً.. لقد شعر بالغضب وليس أي شيء أخر.. انه غاضب.. حانق..

ولكنها أمه.. أمه الحبيبة فكيف يكرهها أو يعاملها بسوء. تنهد بقوة وابعدها عنه للحظة هاتفاً:
-أنا بخير يا حبيبة القلب، أنا في رحلة شهر العسل مع زوجتي.
تجهم وجهها ولم ترد فابتسم:
-أعرف أنك لا تحبين صوان، وربما هي كذلك.. ولكنك امي.. وهي زوجتي.. لن أسمح لأحداكما أن تؤذي الأخرى أتفهمين أماه؟!
-افعل مايحلو لك بني.. لقد انتهت ايامي.. ومن الأفضل أن أبقى بعيدة. هكذا تعيشان براحة بعيداً عني.
ابتسم لمحاولتها المثيرة للشفقة:
-أنت أمي.. وأنت مسؤولة مني الأن، سأحاول ان أرضيك حبيبتي، ولكنني ابداً لن أؤذيك.. أو أسمح لأحد ان يفعل. ثقي بي.
نظرت له بأسى ثم سألته:
-هل جاءت معك؟
اومأ ثم قال:
-سنغادر الى اسطنبول بعد أربع ساعات، انها تنتظرني في فندق هل تودين زيارتها؟

عبست فضحك بجفاء ونهض قائلاً بحزم:
-لقد أردت رؤيتك أمي، للاطمئنان ولتعرفي أننا حولك مهما حصل، لذا..
-ألن تبقى بعد؟
هتفت بلهفة ليبتسم ويقترب ليقبل وجنتيها هامساً بحزم:
-أخبرتك أنني في رحلة شهر العسل أمي.. حين نخطط للعودة أعدك أن أعود اليكِ وأن ابقى معكِ بعض الوقت.
ابتلعت ريقها وهمهمت:
-أتعدني؟
-لقد وعدتك بالفعل.
ثم عاد يقبل رأسها ويودعها باقتضاب..
لقد انتهكت امه كل الخطوط الحمراء بما فعلته لتفرق بينه وبين زوجته متناسية ان كل ضرر وعمل سحر لا يتم الا بإذن الله، وربنا كما يبدو لم يأذن بما كانت تخطط له.. لقد حفظه وحفظ له زوجته..
نعمته وجنته التي لن يفرط بها بعد الآن ولن يسمح لأحد أن يقترب منها..

وأمه على رأسه.. ولكن بعيداً كل البعد عن عائلته الصغيرة التي تنتظره بلهفة ..

***

روما ..

نافورة تريفي..

كانت تقف عابسة .. عينيها على المياه المتدفقة من بين التماثيل التي تحرس الأمنيات تحت أقواس من الحجارة المنقوشة .. محاولة السيطرة على دقات قلبها، تحتضن مذكراتها وتمعن النظر في الماء المتدفق أمامها، أخذت نفساً عميقاً ونظرت لأوس الواقف الى جوارها وقد ظللت عيناه نظارة سوداء قاتمة تحميه من أشعة الشمس، وتخفي عنها بعض من مشاعره، شبكت أصابعها بأصابعه وتقدمت نحو حافة النافورة، وبمساعدة جسد أوس الطويل كانت تتخطى المرتادين الكثر والسواح للنافورة، وصلت الى الحافة وكعادتها في كل عام، انحنت على السور وبكل هدوء غمست المذكرات في المياه والتي تكفلت بتقليب صفحات عام كامل من الأحداث.. من الألام والدموع.. كان عاماً قصيراً جداً..

انتهى قبل الأوان، ولكنه انتهى.. فصل من حياتها انتهى والى الأبد.

أخرجت المذكرات بعد دقائق.. لفتها بحرص بحقيبة من النايلون، لتشعر بذراعي أوس تحوطها بقوة أغمضت عينيها محاولة السيطرة على دموعها بينما يهمس لها برفق:

-لنعد الى البيت حبيبتي.

-اومأت بتصلب وتركته يقودها الى منزل كمالة عبر الأزقة العبقة بروائح البهارات الهندية والأصوات العالية.. المتاجر الضيقة، والبسطات الخشبية التي تعج بالمصوغات الرخيصة ..

الباب الخشبي القديم فتحه أوس بسهولة.. ومضى بترنيم لتجلس على أريكة بسيطة ثم احكم اغلاقه، وعاد اليها ليجلس القرفصاء أمامها وعينيه تتمعنان في عينيها الزائغة بحرص:

-هل أنت بخير؟!

تنهدت ونظرت الى الحقيبة التي تحتوي على المذكرات ثم رفعت عينيها لأوس وهمست مختنقة:

-لم أعد أريدها.

عقد حاجبيه:
-أأنت واثقة ياحبيبتي؟
-نعم أوس.
همست بارتجاف، وترقرقت عينيها بالدموع قائلة:
-لم تحمل سوى الذكريات السيئة، وأنا لم ، أنا لم أعد أريد أن أتذكر.
لاحت على شفتيه شبه ابتسامة ثم نهض على عقبيه وقبل قمة رأسها هامساً بخشونة:
-سنتخلص منها معاً.
راقبته يتوجه نحو المدفأة الجدارية فقالت محذرة:
-أوسي.. هذه المدفأة لم تفتح منذ وفاة كمالة قبل شهور.
-لا تقلقي..
همس مبتسماً.. وسرعان ماكانت النار تشتعل في الخشب وتقرقع بخفوت ..
اشار لها أن تقترب ففعلت وتقرفصت بين ساقيه الطويلتين وراقبته يحرك الخشب لتشتعل النار أكثر.
-هيا ترنيم.. أحرقيها بيديكِ.

تنهدت وترددت للحظة قبل أن تحسم ترددها وتبدأ بتقطيع الصفحات المبلولة وترميها في النار الواحدة تلو الأخرى..
راقبت ألسنة اللهب تتصاعد بجشع لتبتلع الورقات التي تشبعت بالماء .. لا ترحمها وانما تزيدها المياه ضراوة..
ساعدها أوس بصمت وتراكمت الأوراق والنار تستعر أكثر.. سعلت ترنيم .. وأدرك أوس أن الأدخنة تتراكم ولا تخرج من أعلى المدخنة كما يجب..
-انتظري..
نهض وبدأ يتفقد فتحة المدخنة السفلية بسنار طويل لتحذره ترنيم:
-أووسي..لا تفعل هذا..
-لا تقلقي ترنيمة انا اعرف ما افعل.
راقبت بصمت..كان يحاول التأكد من فتحة المدخنة السفلية وهي تناديه محذرة ولكن ذلك الكبرياء الرجولي الأحمق:
-ترنيم اصمتي وشاهدي كيف يتصرف رجال الشيب.

سمعت صوتاً مزعجاً عالياً جعلها تهب من مكانها وتتراجع وهي تنادي اسمه ولكنه لم يأبه لتحذيرها.. وسرعان ماكان هناك كومة من مخلفات وسخام تسقط من المدخنة على النار لتنتشر الأدخنة والرماد بجنون حولهما جعل ترنيم تصرخ ما بين الجزع والضحك المجنون وهي ترى أوس وقد غطاه السخام من رأسه لأخمص قدميه وشعره الأسود أصبح رمادياً كشعر أبيه وهو يحاول التراجع من النار التي تطايرت حوله ولسعت السجاد والأرض الخشبية..

تعالى صوت ترنيم وقد توقفت ضحكاتها وهي تراه ينهض مغطى بالسواد.. سعاله لا يتوقف:

-يالهي أووس هل أنت بخير؟

لم يرد كان يتحرك بعيداً عن النار، بعيداً عن الدخان والسخام.. تلقفته بين يديها وهمست بقلق:

-أووسي حبيبي تكلم معي..

كانت عيناه مغلقتان بقوة همس بكلمة واحدة قبل أن يعاود اغلاق فمه بقوة..

"حمام"

اتسعت عينيها وقادته مسرعة نحو الحمام، وهناك فتحت صنبور المياه ليضع كفيه ويملؤهما ويغسل فمه الذي امتلأ بالرماد، ويتنشق لينظف أنفه.. راقبته بقلق وهو يغسل عينيه بحرص..
كان بخير..
تنهدت بحنان ثم تراجعت بصمت..
غسل أوس وجهه وعينيه وبدأ يفتحهما مرمشاً بقوة.. ورآها حينها.. تقف أمامه والضحكة تشق حلقها وعيناها المشاغبتان تضحكان بشقاوة رفع حاجبيه وهتف بغلظة:
-تسخرين مني؟
رفعت حاجبها بمكر وهمست مقلدة أسلوبه بطريقة ساخرة:
- ترنيم اصمتي وشاهدي كيف يتصرف رجال الشيب.
ضاقت عيناه وهو يزمجر بسخط بينما تهمس بحنق:
-كنت سأخبرك لو أعطيتني الفرصة أن المدخنة معيوبة، وأن عمتي دائمة الشكوى منها.
وضاقت حدقاتها وهي تقاوم الضحك:

-ولكن لا.. مستحيل..وانظر النتيجة.
اشارت اليه ولنفسها التي لم تسلم من السخام ليتقدم نحوها بهدوء قائلاً:
-أنت متسخة مثلي..
-وغلطة من هذه؟؟
هتفت ساخرة وهي تتراجع للخلف الا أنه سرعان ما قفز ليقبض على ذراعيها وهي تقاومه ضاحكة الا أنه لم يمهلها مرغ كفه في خصلات شعره وعاد ليلطخ وجهها وهي لا تقوى على الافلات أو حتى التوقف عن الضحك..
-تضحكين عليّ يا سيدة ترنيم؟؟ سوف تدفعين الثمن.
همس لأذنها بخشونة مثيرة جعلتها ترتجف وهو يسحقها على صدره ويقبلها بعنف بينما يدفعها للخلف حتى ارتطمت ساقيها بطرف المغطس..
ولم يكسر أوس تواصلهما لحظة.. حتى حين حملها بين ذراعيه وأنزلها بداخله.. حاولت التحرر ولكنه لم يفلتها.. لم يحررها.. تاركاً عقلها يعود للاستسلام في غيمة من مشاعر مهتاجة تتقاذفهما من ناحية للأخرى، لاتزال قبلته..

تأخذها لعوالم أخرى.. ترفع بها ساقها وتدور في حلقات بين بتلات الأزهار، تحت وابل من الألعاب النارية الملونة..
كأميرة في قصة خيالية التقت أميرها بعد عذاب..
وعاشت معه في سعادة الى أبد الآبدين..
ولكن من قال أن رجال الشيب قد يتركون السخرية منهم دون انتقام..
ونزل عليها انتقامه بارداً..
اتسعت عينيها وصرخت ولكنه لم يفلتها لتكون الضحكة العميقة من نصيبه هو حين تحرر من قبلتها وهو يغرقها تحت رذاذ الماء ليغرقهما بلا مقدمات .. فتتشبث بقبة قميصه وتدفن صرخاتها المتفاجأة في عنقه..
بعد ساعات..
لامست ترنيم الخشب المصقول بعناية.. لايزال يحتفظ بقوته ورونقه، لمعانه استعاده بعد ان نظفته بعناية.. واعتنت بأوتاره..
ثم رفعت عينيا تتأمل الشقة وقد نظفتها مع أوس حتى عادت تلمع من جديد.. وأثناء التنظيف وجدت هذا الكمان القديم..

كان يخصها منذ زمن.. وظنت ان أوس قد تخلص منه؟!

-هل تعزفين عليه؟

ثقلت نظراتها وهمست:

-أنا لم أعزف منذ دهور..

رفع حاجبه وتساءل:

-ولاحتى لجلي؟!

-لا أعرف ان كنت أستطيع؟

-لن تعرفي حتى تحاولي.

قال بتشجيع لتظهر نظرة الشك في عينيها، ولكنها لم تكن لتدع الشك يدخل عالمها من جديد، ليس وهي تحظى بحب أقوى رجل في العالم، الرجل الذي حارب العالم كله لأجلها،، لم تعد ترنيم الخائفة والهاربة.. هو جعلها أقوى.

يستحق منها أن تحاول ليس لها.. بل له.

رفعت الكمان على كتفها وبعصاه بدأت تختبر الأوتار ثم تعود فتضبطها بخبرة..

راقبها بفخر.. نظرة الحزم والقوة في عينيها جعلته يغرم بها من جديد، يعشقها من بداية السطر..

رفعت ترنيم رأسها ووجدته ينظر لها بإمعان فاحمرت وجنتيها بقوة وخفضت نظرتها، أسندت ذقنها لكمانها وبدأت تختبر قوة الاوتار من جديد..
اغلقت عينيها وبدأت تحرك عصا الكمان بتردد في البداية.. تعرف أن بعض النغمات تخرج بنشاز عن الطريقة التي يجب أن يتم بها الأمر، توقفت بتردد وفتحت عينيها لتراه يراقبها بتشجيع وعينين متسعتين ثم يهمس:
-لن تنجحي حتى تحاولي ترنيم.
ابتلعت ريقها واغمضت عينيها وعادت تعزف بحركات بطيئة أرسلت نغمات حزينة الى مسامعه.. وكررتها بقوة.. عدة مرات.. حتى أتقنتها من جديد..
ثم تغيرت استراتيجيتها.. والحركات ازدادت سرعة، قوة وثقة.. نغمات طويلة متعالية تتناقص بخفة وتتراقص حولهما بافراط.. ابتسمت وفتحت عينيها وأصابعها تتحرك متلاعبة بالوتر برقة فراشة ودقة فنان محترف..
التقت عينيه.. واغرقت عينيها بالدموع لنظرة الفخر في عينيه، والحركة المتناغمة التي يحرك

بها قدمه استجابة للترنيمة العذبة التي تعزفها وقد تخلصت من عذابها وبدأت رحلتها السعيدة.. بخطى ثابتة قوية.

***

بعد أربعة أشهر تقريباً..

ميلان..

تصاعد بكاء قوي من غرفة الولادة في ذلك المستشفى الصغير خارج مدينة ميلان، جعل الرجل الأشقر الصامد طيلة التسع ساعات كاملة التي قضتها زوجته في الطلق ينهار أخيراً وهو يحمد الله بلا توقف..

-مبارك لكما ركان.

قالها أوس بسعادة وارتياح حقيقي حين خرج الطبيب يهنئهما بسلامة الأم ومولودها بعد الولادة الطويلة والصعبة..

-ألم يكن من الأفضل أن تلد بقيصرية؟

همست ترنيم بخوف وهي تتحسس بطنها التي بالكاد تجاوزت الشهر الخامس وكانت بالكاد تظهر تحت كومة الملابس التي ارتدتها تقيها

البرد القارص في تلك الأيام من العام، ليقول ركان بسخط:
-سارة المجنونة وهوسها بمنظرها، لقد رفضت العملية ولم ترضى أن تشوه بشرتها بمشرط الجراحة.
-زوجتك مجنونة.. انها قمة الجبل الجليدي كما تعلم ركان.. الجنون الحقيقي لم يظهر بعد.
همس جساس بسخرية لتلكزه صوان في خاصرته بحنق ثم قالت لركان:
-انها خائفة.. لا تصدق ما يقوله لك هذا الرجل..
سارة خائفة.
نعم كانت خائفة.. شكاكة..
نهض وتبع الطبيب الذي قاده مباشرة الى غرفة سارة حيث كانت مستلقية ترفض حمل طفلها المولود ودموعها تسكبها بلا توقف:
-أريد زوجي..
همست بألم فاستجاب لها بنعومة:
-أنا هنا سلطانة.. أنا هنا ياجميلتي..
فتحت ذراعيها ليسرع ويرفعها بحنو نحوه، يغمر وجهها الباكي في صدره وهو يقول بحنان:

-لقد انتهى الأمر حبيبتي، انتهى الأمر.
-لقد تألمت كثيراً.
بكت بمرارة وهي تتشبث بقميصه.. وتشهق بعلو صوتها، لم يرد أن يضحك.. أوه هي لن تسامحه لو فعل.. تنهد وعانقها بصمت وتركها لتفرغ كل انفعالاتها على صدره.. وبعد دقائق همس لها:
-ألا تريدين رؤية مسبب تعبك وألمك؟؟
حركت رأسها ورفعته له.. كان وجهها متورماً بفعل اضطرابات الضغط التي رافقتها طيلة الحمل وتسببت لها بالكثير من المشكلات والتي دفعت الطبيب في كثير من الأحيان للتفكير بانهاء الحمل حفاظاً على صحتها، ولكنها كانت قوية للغاية ولم تستسلم ولم توافق..
اومأت له فأشار للممرضة بالاقتراب واحضار الصغير.. كان أشقراً بعينين رماديتين واسعتين..
-انه فاتن..
همست سارة منتحبة.. ليرد ركان بفخر وهو يفسل له مكاناً على صدره بينه وبين والدته:
-انه أمير الصغير..

رفعت حاجبها باعتراض فتراقص حاجبيه لتبتسم رغم دموعها وتحني رأسها تتنشق رائحة طفلها الذي عانت الأمرين للحصول عليه ولم تستسلم قط.. ركان من ناحية أخرى كان يعرف تماماً ماتمر به.. ثقتها به والتي استعادها بصعوبة ويحافظ عليها بشق الانفس بسبب طبيعة عمله، ورغم أنها تشاركه الاعمال بشكل كامل الا ان قلقها وشكوكها خصوصاً بعدما ازداد وزنها بسبب الحمل وقلة ثقتها بنفسها قد ساهما بالتوتر في حياتهما ولكنه أكثر نضجاً الأن. أكثر بكثير..
ربما خسر عائلته من قبل ولكن.. الحياة تعطينا الفرصة تلو الأخرى .. ونحن من علينا أن نحارب ونغتنمها كي لا تفلت من بين أيدينا مرة بعد مرة ..
حياته الجديدة كانت بين يديه والان عليه هو الحفاظ عليها.

النهاية

عبير محمد قائد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
خلصت الحكاية .. الجزء الرابع من سلسلة
أسياد الغرام وبحمد الله ..
ان شاءالله تكون عجبتكم
وأبشركم بوجود جزء خامس وسادس ان
شاءالله
بس متى الله أعلم؟
ادعولي براحة البال.. والتوفيق
أحبكن في الله
~A~
عبير قائد